Mngool.com

تاريخ الطبري

تاريخ الأمم والملوك

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية

المجلد الخامس

من سنة ١٩١ للهجرة لغاية السنة ٣٠٢ للهجرة

دار الكتب العلمية
بيروت . لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خروج خارجيّ يقال له ثروان بن سيف بناحية حَوْلايا؛ فكان يتنقّل بالسواد، فوجّه إليه طوق بن مالك فهزَمه طوق وجرحه، وقتل عامة أصحابه، وظنّ طوق أنه قد قتل ثروان، فكتب بالفتح، وهرب ثروان مجروحاً.

وفيها خرج أبو النداء بالشام فوجّه الرشيد في طلبه يحيى بن معاذ، وعقَد له على الشأم.

وفيها وقع الثلج بمدينة السلام.

وفيها ظفر حماد البربريّ بهيصم اليمانيّ.

وفيها غلُظ أمر رافع بن ليث بسَمَرْقند.

وفيها كتب أهل نَسَف إلى رافع يعطونه الطاعة، ويسألونه أن يوجّه إليهم منْ يعينهم على قتل عيسى بن عليّ، فوجَّه صاحب الشاش في إتراكه قائداً من قوّاده، فأتوْا عيسى بن عليّ، فأحدقوا به وقتلوه في ذي القعدة، ولم يعرضوا لأصحابه.

وفيها ولّى الرشيد حمّويه الخادم بريد خُراسان.

وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيريّ أرضَ الروم في عشرة آلاف، فأخذت الرّوم عليه المضيق، فقتلُوه على مَرْحلتين من طَرَسوس في خمسين رجلاً، وسلِم الباقون.

وفيها ولّى الرشيد غزو الصائفة هرثمةَ بن أعْين، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً من جند خُراسان، ومعه مسرور الخادم؛ إليه النفقات وجميع الأمور، خلا الرياسة. ومضى الرّشيد إلى دَرْب الحَدَث، فرتّب هنالك عبدالله بن مالك، ورتّب سعيد بن سلم بن قتيبة بمَرْعَش، فأغارت الروم عليها، وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد بن سلم مقيم بها، وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طَرَسوس، فأقام الرشيد بدرْب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان، ثم انصرف إلى الرّقة.

وفيها أمر الرّشيد بهدم الكنائس بالثغور، وكتب إلى السنديّ بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذّمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.

وفيها عَزَل الرشيد عليّ بن عيسى بن ماهان عن خُراسان وولاها هرثمة.

ذكر الخبر عن سبب عزل الرشيد عليّ بن عيسى وسخطه عليه

قال أبو جعفر: قد ذكر قبلُ سبب هلاك بن عليّ بن عيسى وكيف قُتِل. ولمَّا قتل ابنه عيسى خرج عليّ عن بلْخ حتى أتى مَرْو مخافةَ أن يسير إليها رافع بن الليث، فيستولي عليها. وكان ابنه عيسى دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة ـ قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ـ ولم يعلم بها عليّ بن عيسى ولا اطلع على ذلك إلا جارية كانت له، فلما شخص عليّ عن بلْخ أطلعت الجارية على ذلك بعضَ الخدم. وتحدّث به الناس، فاجتمع قُرّاء أهل بلْخ ووجوهها، فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة، فبلغ الرّشيد الخبر، فقال: خرج عليّ من بلْخ عن غير أمري، وخلّف مثل هذا المال؛ وهو يزعم أنه قد أفْضَى إلى حَلْي نسائه فيما أنفق على محاربة رافع! فعزله عند ذلك، وولّى هرثمة بن أعينَ، واستصفى أموال عليّ بن عيسى، فبلغت أمواله ثمانين ألف ألف.

وذكر عن بعض الموالي أنه قال: كنا بجُرْجان مع الرشيد وهو يريد خُراسان، فوردت خزائن عليّ بن عيسى التي أخذت له على ألف وخمسمائة بعير، وكان عليّ مع ذلك قد أذلّ الأعالي من أهل خُراسان وأشرافهم.

وذكر أنه دخل عليه يوماً هشام بن فرخسرو والحسين بن مصعب، فسلّما عليه، فقال للحسين: لا سلّم الله عليك يا ملحد يابن الملحد! والله إنّي لأعرف ما أنتَ عليه من عداوتك للإسلام وطعنك في الدين، وما أنتظر بقتلك إلا إذن الخليفة فيه، فقد أباح الله دمَك، وأرجو أن يسفكه الله على يدي عن قريب، ويعجلك إلى عذابه. ألستَ المرجف بي في منزلي هذا بعد ما ثملتَ من الخمر، وزعمت أنه جاءتك كتب من مدينة السلام بعزلي! اخرج إلى سخط الله، لعنك الله، فعن قريب ما تكون من أهلها! فقال له الحسين: أعيذ بالله الأميرَ أن يقبل قول واشٍ، أو سعاية باغٍ، فإني بريء مما قُرفت به. قال: كذبت لا أمّ لك! قد صحّ عندي أنك ثملت من الخمر، وقلت ما عليك به أغلظ الأدب، ولعلّ الله أن يعاجلَك ببأسه ونقمته؛ اخرج عني غير مستور ولا مصاحَب. فجاء الحاجب فأخذ بيده فأخرجه، وقال لهشام بن فرخسرو: صارت دارك دار الندوة؛ يجتمع فيها إليك السفهاء، وتطعن على الولاة! سفك الله دمي إن لم أسفك دمك! فقال هشام: جُعلت فداء الأمير! أنا والله مظلوم مرحوم؛ والله ما أدَعُ في تقريظ الأمير جهداً، وفي وصفه قولاً إلاّ خصصتُه به وقلته فيه؛ فإن كنت إذا قلت خيراً نقل إليك شرًّا فما حيلتي! قال: كذبت لا أمّ لك؛ لأنا أعلم بما تنطوي عليه جوانحك من ولدك وأهلك، فاخرج فعن قريب أريح منك نفسي. فخرج. فلمّا كان في آخر الليل دعا ابنتَه عالية ـ وكانت من أكبر ولده ـ فقال لها: أيْ بنيَّة، إني أريد أن أفضِيَ إليك بأمر إن أنت أظهرتِه قتِلتُ؛ وإن حفظتِه سلمتُ، فاختاري بقاء أبيك على موته، قالت: وما ذاك جُعلت فداك! قال: إني أخاف هذا الفاجر عليّ بن عيسى على دمي، وقد عزمت على أن أظهر أنّ الفالج أصابني، فإذا كان في السّحَر فاجمعي جواريك، وتعاليْ إلى فراشي وحرّكيني؛ فإذا رأيت حركتي قد ثقلت، فصيحي أنت وجواريك، وابعثي إلى إخوتك فأعلميهم علّتي. وإياك ثم إياك أن تطلعي على صحة بدني أحداً من خلْق الله من قريب أو بعيد. ففعلتْ ـ وكانت عاقلة حازمة ـ فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرّك إلا إن حُرّك، فيقال إنه لم يعلم من أهل خُراسان أحدٌ من عزل عليّ بن عيسى بخبر ولا أثر غيرُ هشام؛ فإنه توهم عزله، فصحّ توهمه.

ويقال: إنه خرج في اليوم الذي قدم فيه هَرْثمة لتلقّيه، فرآه في الطريق رجل من قوّاد عليّ بن عيسى،

فقال: صحّ الجسم؟ فقال: ما زال صحيحاً بحمد الله! وقال بعضهم: بل رآه عليّ بن عيسى، فقال: أين بك؟ فقال: أتلقّى أميرنا أبا حاتم، قال: ألم تكن عليلاً؟ قال: بلى؛ فوهب الله العافية، وعزل الله الطاغية في ليلة واحدة.

وأما الحسين بن مصعب فإنه خرج إلى مكّة مستجيراً بالرّشيد من عليّ بن عيسى، فأجاره.

ولما عزم الرشيد على عزل عليّ بن عيسى دعا ـ فيما بلغني ـ هرثمة بن أعين مستخلياً به فقال: إني لم أشاور فيك أحداً، ولم أطلعه على سرّي فيك، وقد اضطرب عليّ ثغور المشرق، وأنكر أهل خراسان أمْرَ عليّ بن عيسى؛ إذ خالف عهدي ونبَذه وراء ظهره؛ وقد كتب يستمدّ ويستجيش، وأنا كاتب إليه، فأخبره أني أمدّه بك، وأوجّه إليه معك من الأموال والسلاح والقوّة والعدّة ما يطمئنّ إليه قلبه، وتتطلع إليه نفسه، وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضّنّه، ولا تطلعنّ فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور؛ فإذا نزلتَها فاعمل بما فيه، وامتثله ولا تجاوزه، إن شاء الله، وأنا موجّه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى عليّ بن عيسى بخطي؛ ليتعرّف ما يكون منك ومنه؛ وهوّنْ عليه أمْرَ عليّ فلا تظهرنّه عليه، ولا تعلمنّه ما عزمتُ عليه، وتأهبّ للمسير، وأظهر لخاصّتك وعامّتك أني أوجّهك مدداً لعليّ بن عيسى وعوناً له. قال: ثم كتب إلى عليّ بن عيسى بن ماهان كتاباً بخطه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. يابن الزانية، رفعتُ من قدرك، ونوّهت باسمك، وأوطأت سادةَ العرب عَقِبَك، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خَولَك وأتباعك؛ فكان جزائي أن خالفتَ عهدي. ونبذتَ وراء ظهرك أمري؛ حتى عِثت في الأرض، وظلمت الرّعية، وأسخطت الله وخليفته؛ بسوء سيرتك، ورداءة طعمتك، وظاهر خيانتك، وقد ولّيت هَرثمة بن أعْين مولايَ ثغر خُراسان، وأمرتُه أن يشدّ وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً، ولا حقًّا لمسلم ولا مُعاهد إلا أخذكم به؛ حتى تردّه إلى أهله؛ فإن أبَيْتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمَّالك فله أن يبسط عليكم العذاب، ويصبّ عليك السياط، ويُحلّ بكم ما يحلّ بمن نكثَ وغيَّر، وبدَّل وخالف، وظلم وتعدَّى وغشم، انتقاماً لله عزّ وجلّ بادئاً، ولخليفته ثانياً، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً؛ فلا تعرض نفسك للتي لا شَوَى لها، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً.

وكتب عهد هرثمة بخطه:

هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعيَن حين ولاّه ثَغْر خُراسان وأعماله وخراجه؛ أمَرَه بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله، فيحلّ حلالَه ويحرّم حرّامه، ويقف عند متشابهه؛ ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله، أو يردّه إلى إمامه ليريَه الله عزّ وجلّ فيه رأيه، ويعزم له على رشده، وأمره أن يستوثق من الفاسق عليّ بن عيسى وولده وعماله وكتابه، وأن يشدّ عليهم وطأته، ويُحلّ بهم سطوَته، ويستخرج منهم كلّ مال يصحّ عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين؛ فإذا استنظف ما عندهم وقِبَلهم من ذلك، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين، وأخذهم بحقّ كلّ ذي حقّ حتى يردُّوه إليهم؛ فإن ثبتت قبَلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق للمسلمين؛ فدافَعوا بها وجحدوها، أن يصبّ عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته؛ حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطّاها بأدنى أدب، تلفتْ أنفسُهم، وبطلت أرواحهم؛ فإذا خرجوا من حقّ كلّ ذي حقّ، أشخصهم كما تشخص العصاة من خُشونة الوِطاء

وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس، مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين، إن شاء الله. فاعمل يا أبا حاتم بما عهدتُ إليك، فإني آثرتُ الله وديني على هوايَ وإرادتي، فكذلك فليكن عملُك، وعليه فليكن أمرك، ودبِّر في عمال الكُور الذين تمرّبهم في صُعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمرٍ يريبهم وظنّ يرعبهُم. وابسُط من آمال أهل ذلك الثّغر ومن أمانهم وعذرهم، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته، ومَنْ ولاك الله أمره إن شاء الله. هذا عهدي وكتابي بخطّي، وأنا أشهد الله وملائكته وحملةَ عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً.

وكتب أمير المؤمنين بخطٍّ يده لم يحضره إلا الله وملائكته.

ثم أمر أن يكتب كتاب هرثمة إلى عليّ بن عيسى في معاونته وتقوية أمره والشدّ على يديه، فكتب وظهر الأمر بها؛ وكانت كتب حَمّوَيْه وردت على هارون: إنّ رافعاً لم يخلع ولا نَزَع السَّواد ولا من شايعه، وإنما غايتهم عزل عليّ بن عيسى الذي قد سامهم المكروه.

ومن ذلك ما كان من شخوص هرثمة بن أعين إلى خراسان والياً عليها.

ذكر الخبر عما كان من أمره في شخوصه إليها وأمر عليّ بن عيسى وولده:

ذُكر أن هرثمة مضى في اليوم السادس من اليوم الذي كتب له عهده الرشيد وشيَّعه الرشيد، وأوصاه بما يحتاج إليه، فلم يعرّج هرثمة على شيء، ووجّه إلى عليّ بن عيسى في الظاهر أموالاً وسلاحاً، وخِلَعاً وطيباً؛ حتى إذا نزل نيسابور جَمَع جماعة من ثقات أصحابه وأولي السنّ والتجربة منهم؛ فدعا كلَّ رجل منهم سرًّا، وخلا به، ثم أخذ عليهم العهود والمواثيقَ أن يكتموا أمره، ويطوُوا سِرّه، وولّى كلَّ رجل منهم كُورة، على نحو ما كانت حاله عنده؛ فولّى جُرجان ونيسابور والطَبَسين ونَسا وسَرَخْس، وأمّر كلَّ واحدٍ منهم، بعد أن دفع إليه عهدَه بالمسير إلى عمله الذي ولاّه على أخفى الحالات وأسترها، والتشبّه بالمجتازين في وُرودهم الكُور ومقامهم فيها إلى الوقت الذي سمّاه لهم، وولّى إسماعيل بن حفص بن مصعب جُرجان بأمر الرشيد، ثم مضى حتى إذا صار من مَرْو على مرحلة، دعا جماعة من ثقاتِ أصحابه، وكتب لهم أسماء ولد عليّ بن عيسى وأهل بيته وكُتّابه وغيرهم في رقاع، ودفع إلى كلِّ رجل منهم رقعة باسم مَنْ وَكّله بحفظه إذا هو دخل مَرْو، خوفاً من أن يهربوا إذا ظهر أمره. ثم وجّه إلى عليّ بن عيسى: إن أحبّ الأميرُ أكرمه الله أن يوجِّه ثقاتِه لقبض ما معي من أموال فَعَل؛ فإنه إذا تقدّم المال أمامي كان أقوَى للأمير، وأفتّ في عضد أعدائه. وأيضاً فإني لا آمنُ عليه إن خلّفته وراء ظهري؛ أن يطمع فيه بعض من تَسمُو إليه نفسه إلى أن يقتطع بعضه، ويفترض غفلتنا عند دخول المدينة. فوجَّه عليّ بن عيسى جهابذَته وقَهارمته لقبض المال، وقال هرثمة لخُزّانِه: اشغلوهم هذه الليلة، واعتلّوا عليهم في حَمْل المال بعلّة تقرب من أطماعهم، وتزيل الشكَّ عن قلوبهم، ففعلوا. وقال لهم الخُزّان: حتى تؤامروا أبا حاتم في دوابّ المال والبغال. ثمّ ارتحل نحو مدينة مَرْو، فلما صار منها على ميلين تلقّاه عليّ بن عيسى في ولده وأهل بيته وقوّاده بأحسن لقاء وآنَسِه؛ فلمّا وقعت عَين هرثمة عليه، ثنَى رجله لينزل عن دابته فصاح به عليّ: والله لئن نزلتَ لأنزلنّ، فثبت على سَرْجه، ودنا كلُّ منهما من صاحبه فاعتنقا، وسارا، وعليّ يسأل هرثمة عن أمرْ الرشيد وحاله وهيئته وحال خاصّته وقوّاده وأنصار دولته؛ وهرثمة يُجيبه؛ حتى صار إلى قنطرة لا يجوزها إلاّ فارس، فحبس هرثمة لجام دابته، وقال لعليّ: سر على بركة الله، فقال عليّ: لا والله لا أفعل حتى تمضي أنت، فقال: إذاً والله لا أمضي، فأنت الأمير وأنا الوزير؛ فمضى وتبعه هرثمة حتى دخلاَ مَرْو، وصارا إلى منزل عليّ،

ورجاء الخادم لا يفارق هرثمة في ليل ولا نهار، ولا ركوب ولا جلوس؛ فدعا عليّ بالغداء فطعما، وأكلَ معهما رجاء الخادم، وكان عازِماً على ألّا يأكل معهما، فغمزه هرثمة وقال: كُل فإنك جائع، ولا رَأيَ لجائع ولا حاقن؛ فلما رُفع الطعام قال له عليّ: قد أمرت أن يفرغ لك قصر على المَاشَان؛ فإن رأيتَ أن تصير إليه فعلت. فقال له هرثمة: إن معي من الأمور ما لا يتحمَّل تأخير المناظرة فيها؛ ثم دفع رجاء الخادم كتاب الرشيد إلى عليّ، وأبلغه رسالته. فلما فضّ الكتاب فنظر إلى أوّل حرف منه سُقط في يده، وعلم أنه قد حلّ به ما يخافُه ويتوقعه، ثم أمر هرثمة بتقييده وتقييد ولده وكتابه وعماله ـ وكان رحل ومعه وقْر من قيود وأغلال ـ فلما استوسق منه صار إلى المسجد الجامع، فخطب وبسط من آمال الناس، وأخبر أن أمير المؤمنين ولّاه ثغورَهم لما انتهى إليه من سوء سيرة الفاسق عليّ بن عيسى، وما أمره به فيه وفي عمّاله وأعوانه، وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصّة، والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحقّ. وأمر بقراءة عهده عليهم. فأظهروا السرور بذلك، وانفسحت آمالهم، وعظم رجاؤهم، وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم، وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء.

ثم انصرف، فدعا بعليّ بن عيسى وولده وعماله وكُتَّابه، فقال: اكفوني مؤنتكم، واعفوني من الإقدام بالمكروه عليكم. ونادى في أصحاب ودائعهم ببراءة الذّمة من رجل كانت لعليّ عنده وديعة أو لأحد من ولده أو كتابه أو عماله وأخفاها ولم يظهر عليها؛ فأحضره الناس ما كانوا أودِعوا إلّا رجلًا من أهل مَرْو ـ وكان من أبناء المجوس ـ فإنه لم يزل يتلطف للوصول إلى عليّ بن عيسى حتى صار إليه، فقال له سرًّا: لك عندي مال، فإن احتجتَ إليه حملتُه إليك أوّلًا فأوّلًا، وصبرت للقتل فيك؛ إيثاراً للوفاء وطلباً لجميل الثناء، وإن استغنيْت عنه حبستُه عليك حتى ترى فيه رأيك. فعجب عليّ منه ،وقال: لو اصطنعتُ مثلك ألف رجل ما طمِع فيَّ السلطان ولا الشيطان أبداً. ثم سأله عن قيمة ما عنده، فذكر له أنه أودعه مالاً وثياباً ومسْكاً، وأنه لا يدري ما قدر ذلك؛ غير أنه أودعه بخطِّه، وأنه محفوظ لم يشذّ منه شيء، فقال له: دعه؛ فإن ظُهر عليه سلّمته ونجوت بنفسك، وإن سلِمت به رأيت فيه رأيي. وجزاه الخير، وشكر له فعله ذلك أحسن شكر، وكافأه عليه وبرّه. وكان يُضرب به المثل بوفائه؛ فذكر أنه لم يتستر عن هَرْثمة من مالِ عليّ إلا ما كان أودعه هذا الرجل ـ وكان يقال له: العلاء بن ماهان ـ فاستنظف هرثمة ما وراء ظهورهم حتى حَلْي نسائهم؛ فكان الرجل يدخل إلى المنزل فيأخذ جميع ما فيه؛ حتى إذا لم يبق فيه إلّا صوف أو خشب أو ما لا قيمة له قال للمرأة: هاتي ما عليك من الحَلْي، فتقول للرجل إذا دنا منها لينزع ما عليها: يا هذا، إن كنتَ محسناً فاصرف بصرَك عنّي، فوالله لا تركتُ شيئاً من بغيتك عليّ إلّا دفعتُه إليك؛ فإن كان الرجل يتحوّب من الدّنوّ إليها أجابها إلى ذلك حتى ربما نبذت إليه بالخاتم والخلخال وما قيمته عشرة دراهم، ومَنْ كان بخلاف هذه الصّفة، قال: لا أرضى حتى أفتِّشك؛ لا تكونين قد خبأت ذهباً أو دُرًّا أو ياقوتاً؛ فيضرب يده إلى مغابنها وأرفاغها؛ فيطلب فيها ما يظنّ أنها قد سترته عنه؛ حتى إذا ظنّ أنه قد أحكم هذا كلّه وجّهه على بعير بلا وِطاء تحته، وفي عنقه سلسلة، وفي رجله قيود ثقال ما يقدر معها على نهوض واعتماد.

فذُكِر عمّن شهد أمر هرثمة وأمره؛ أن هَرثمة لما فرغ من مطالبة عليّ بن عيسى وولده وكتّابه وعمّاله بأموال أمير المؤمنين، أقامهم لمظالم الناس، فكان إذا بَردَ للرجل عليه أو على أحد من أصحابه حق، قال: اخرج للرجل من حَقِّه، وإلا بسطت عليك، فيقول عليّ: أصلح الله الأمير! أجّلني يوماً أو يومين، فيقول: ذلك إلى صاحب الحقّ، فإن شاء فعل. ثم يُقبل على الرجل، فيقول: أتَرى أن تَدعَه؟ فإن قال: نعم، قال: فانصرف

وعُدْ إليه، فيبعث عليّ إلى العلاء بن ماهان، فيقول له: صالحْ فلاناً عنّي من كذا وكذا على كذا وكذا، أو على ما رأيت، فيصالحه ويُصلح أمره.

وذُكر أنه قام إلى هرثمة رجل، فقال له: أصلح الله الأمير! إن هذا الفاجر أخذ مني دَرقة ثمينة لم يملك أحد مثلها، فاشتراها على كُرْه مني ولم أرِدْ بيعها بثلاثة آلاف درهم؛ فأتيت قهرمانه أطلب ثمنَها، فلُم يعْطِني شيئاً، فأقمت حَوْلاً أنتظر ركوب هذا الفجر؛ فلما ركب عرضتُ له وصِحْت به: أيها الأمير، أنا صاحب الدّرَقة، ولم آخذ لها ثمناً إلى هذه الغاية، فقذَف أمّي ولم يعطني حقي، فخذ لي بحقي من مالي وقَذْفِه أمي فقال: لك بيّنة؟ قال: نعم، جماعة حضروا كلامه؛ فأحضرهم فأشهدهم على دعواه، فقال هرثمة: وجب عليك الحدّ، قال: ولَمَ؟ قال: لقذفِك أمّ هذا، قال: مَنْ فَقّهك وعلّمك هذا؟ قال: هذا دين المسلمين، قال: فأشهد أن أمير المؤمنين قد قذَفك غير مرّة ولا مرّتين؛ وأشهد أنك قد قذفت بنِيك ما لا أحصي، مرةً حاتماً ومرة أعين؛ فمن يأخذ لهؤلاء بحدودهم منك؟ ومن يأخذ لك من مولاك! فالتفت هرثمة إلى صاحب الدّرَقة، فقال: أرى لك أن تطالب هذا الشيطان بدَرَقتك أو ثمنها، وتترك مطالبته بقذفِه أمّك.

ولما حمل هرثمة عليّاً إلى الرّشيد، كتب إليه كتاباً يخبره ما صنع؛ نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد؛ فإن الله عزّ وجلّ لم يزل يبلي أمير المؤمنين في كلّ ما قلده من خلافته، واسترعاه من أمور عباده وبلاده أجمَل البلاء وأكملَه، ويعرّفه في كلّ ما حضره ونـأى عنه من خـاصّ أموره وعامّها، ولطيفها وجليلها أتمّ الكفاية وأحسن الولاية، ويعطيه في ذلك كلّه أفضل الأمنيَّة، ويبلغه فيه أقصى غاية الهمة، امتناناً منه عليه، وحفظاً لما جعل إليه، مما تكفّل بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته؛ فيستتمّ الله أحسن ما عوّده وعوّدنا من الكفاية في كلّ ما يؤدّينا إليه، ونسأله توفيقنا لما نقضي به المفترَض من حقّه في الوقوف عند أمره، والاقتصار على رأيه.

ولم أزل اعزّ الله أمير المؤمنين، مذ فصَلت عن معسكر أمير المؤمنين ممتثلاً ما أمرني به فيما أنهضني له؛ لا أجاوز ذلك ولا أتعدّاه إلى غيره، ولا أتعرّف اليُمْن والبركة إلا في امتثاله؛ إلى أن حللتُ أوائل خُراسان؛ صائناً للأمر الذي أمرني أمير المؤمنين بصيانته وستره؛ لا أفضي ذلك إلى خاصيّ ولا إلى عاميّ، ودبّرتُ في مكاتبة أهل الشاش وفَرْغانة وخزْلها عن الخائن، وقطع طمعه وطمع مَنْ قبله عنها، ومكاتبة مَنْ ببلْخ بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين وفسّرت له، فلما نزلت نيسابور عملتُ في أمر الكُوَر التي اجتزت عليها بتولية مَنْ ولّيت عليها، قبل مجاوزتي إياها؛ كجرجان ونَيْسَابور ونَسا وَسَرَخْس، ولم آلُ الاحتياط في ذلك، واختيار الكفـاة وأهل الأمـانة والصّحة من ثقات أصحابي، وتقدّمت إليهم في ستر الأمر وكتمانه، وأخذت عليهم بذلك أيمانَ البَيْعة، ودفعت إلى كلّ رجل منهم عهدَه بولايته، أمرتهم بالمسير إلى كوَر أعمالهم عـلى أخفى الحالات وأسترها، والتّشبّه بالمجتازين في وُرودهم الكُوَر ومقامهم بها إلى الوقت الذي سَمَّيتُ لهم؛ وهو اليوم الذي قدّرت فيه دخولي إلى مَرْو، والتقائي وعليّ بن عيسى، وعملت في استكفائي إسماعيل بن حفص بن مصعب أمرَ جُرجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين، فنفذ أولئك العمال لأمري، وقام كلُّ رجل منهم في الوقت الذي وُقِّتَ له بضبط عملِه وإحكام ناحيته، وكفى الله أميرَ المؤمنين المؤنةَ في ذلك، بلطيف صنعه.

ولما صرتُ من مدينة مَرْو على منزل، اخترت عِدّةً من ثقات أصحابي، وكتبت بتسمية ولد عليّ بن عيسى

وكتّابه وأهل بيته وغيرهم رقاعاً، ودفعت إلى كلِّ رجل منهم رُقعة باسم مَنْ وكّلتُه بحفظه في دخولي، ولم آمن لو قصّرت في ذلك وأخّرته أن يصيرُوا عند ظهور الخبر وانتشاره إلى التغيب والانتشار، فعملوا بذلك، ورحلتُ عن موضعي إلى مدينة مَرْو، فلما صرت منها على ميلين تلقّاني عليّ بن عيسى في وَلَدِه وأهل بيته وقوّاده، فلقيته بأحسن لقاء، وآنسته، وبلغتُ من توقيره وتعظيمه والتماس النزول إليه أوّل ما بصرت به ما ازداد به أنساً وثقة، إلى ما كان رَكن إليه قبل ذلك؛ مما كان يأتيه من كتبي؛ فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال منّي له والالتماس، لإلقاء سوء الظنّ عنه؛ لئلا يسبق إلى قلبه أمرٌ ينتقض به ما دبر أمير المؤمنين في أمره، وأمرني به في ذلك. وكان الله تبارك وتعالى هو المنفرد بكفاية أمير المؤمنين الأمرَ فيه إلى أن ضمّني وإياه مجلسه، وصرت إلى الأكل معه، فلمّا فرغنا من ذلك بدأني يسألني المصيرَ إلى منزل كان ارتاده لي؛ فأعلمته ما معي من الأمور التي لا تحتمل تأخير المناظرة فيها. ثم دفع إليه رجاء الخادم كتابَ أمير المؤمنين وأبلغه رسالَته، فعلم عند ذلك أن قد حلّ به الأمر الذي جناه على نفسه، وكسبته يداه؛ من سخط أمير المؤمنين، وتغيّر رأيه بخلافِه أمره وتعدّيه سيرته.

ثم صرت إلى التوكيل به، ومضيت إلى المسجد الجامع، فبسطت آمال الناس ممن حضر، وافتتحت القول بما حمّلني أمير المؤمنين إليهم، وأعلمتهم إعظامَ أمير المؤمنين ما أتاه، ووضح عنده من سوء سيرة عليّ، وما أمرني به فيه وفي عمّاله وأعوانه؛ وإني بالغٌ من ذلك ومن إنصاف العامّة والخاصّة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم. وأمرت بقراءة عهدي عليهم، وأعلمتهم أنّ ذلك مثالي وإمامي؛ وأنّي به أقتدي، وعليه أحتذي؛ فمتى زلتُ عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمتُ نفسي، وأحللت بها ما يحلّ بمن خالف رأي أمير المؤمنين وأمرَه؛ فأظهروا السرور بذلك والاستبشار، وعلتْ بالتكبير والتهليل أصواتُهم، وكثر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء.

ثم انكفأت إلى المجلس الذي كان عليّ بن عيسى فيه، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتّابه وعماله والاستيثاق منهم جميعاً، وأمرتهم بالخروج إليّ من الأموال التي احتجنوها من أموال أمير المؤمنين وفيء المسلمين، وإعفائي بذلك من الإقدام عليهم بالمكروه والضرب، وناديت في أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان عندهم. فحملوا إليّ إلَى أن كتبت إلى أمير المؤمنين صدراً صالحاً من الوَرِق والعينْ، وأرجو أن يعين الله على استيفاء ما قِبلهم، واستنظاف ما وراء ظهورهم، ويسهّل الله من ذلك أفضلَ ما لم يزل يعوّده أمير المؤمنين من الصّنع في مثله من الأمور التي يعنَى بها إن شاء الله تعالى:

ولم أدعْ عند قدومي مَرْو التقدّم في توجيه الرسل وإنفاذ الكتب البالغة في الإعذار والإنذار، والتبصير والإرشاد، إلى رافع ومَنْ قِبَله من أهل سَمَرْقَند، وإلى مَنْ ببلْخ، على حسن ظنّي بهم في الإجابة، ولزوم الطاعة والاستقامة؛ ومهما تنصرفْ به رسلي إليّ يا أمير المؤمنين من أخبار القوم في إجابتهم وامتناعهم، أعملْ على حسبه من أمرهم، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حقّه وصدقه. وأرجو أن يعرّف الله أميرَ المؤمنين في ذلك من جميل صنعه ولطيف كفايته؛ ما لم تزل عادته جاريةً به عنده، بمنّه وطوله وقوّته والسلام.

الجواب من الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بقدومك مَرْو في اليوم الذي سمّيت، وعلى الحال التي وصفت وما فسّرت، وما كنت قدّمت من الحِيَل قبل ورودك إياها، وعملت به في أمر الكُور التي

سمِّيت وتولية مَنْ وليت عليها قبل نفوذك عنها، ولطّفت له من الأمر الذي استجمع لك به ما أردت من أمر الخائن عليّ بن عيسى وولده وأهل بيته، ومن صار في يدك من عمّاله وأصحاب أعماله واحتذائك في ذلك كلّه ما كان أمير المؤمنين مثّل لك ووقفَك عليه، وفهم أمير المؤمنين كلّ ما كتبتَ به، وحمد الله على ذلك كثيراً وعلى تسديده إياك وما أعانك به من توفيقه، حتى بلغتَ إرادة أمير المؤمنين، وأدركت طلبتَه، وأحسنت ما كان يُحبّ بك وعلى يديك إحكامَه، مما كان اشتدّ به اعتناؤه، ولجّ به اهتمامه، وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك، فلا أعدم الله أمير المؤمنين أحسنَ ما عرّفه منك في كلّ ما أهاب بك إليه، واعتمد بك عليه.

وأمير المؤمنين يأمُرك أن تزداد جدًّا واجتهاداً فيما أمرك به من تتبّع أموال الخائن عليّ بن عيسى وولده وكتّابه وعماله ووكلائه وجهابذته والنظر فيما اختانوا به أميرَ المؤمنين في أمواله، وظلموا به الرّعية في أموالهم، وتتبُّع ذلك واستخراجه من مظانّه ومواضعه، التي صارت إليه، ومن أيدي أصحاب الودائع التي استودعوها إياهم؛ واستعمال اللين والشدة في ذلك كله؛ حتى تصير إلى استنظاف ما وراء ظهورهم؛ ولا تبقي من نفسك في ذلك بقية، وفي إنصاف الناس منهم في حقوقهم ومظالمهم؛ حتى لا تبقى لمتظلم منهم قِبَلهم ظُلامة إلا استقضيت ذلك له، وحملته وإياهم على الحقّ والعدل فيها، فإذا بلغتَ أقصى غاية الإحكام والمبالغة في ذلك، فأشخِص الخائن وولَده وأهلَ بيته وكتّابَه وعمّاله إلى أمير المؤمنين في وثاق، وعلى الحال التي استحقُّوها من التغيير والتنكيل بما كسبت أيديهم؛ وما الله بظلام للعبيد.

ثم اعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخوص إلى سَمَرْقند، ومحاولة ما قبل خامل، ومَنْ كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كُور ما وراء النهر وطُخارستان بالدّعاء إلى الفِيئة والمراجعة، وبسط أمانات أمير المؤمنين التي حمّلكها إليهم؛ فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أمَلُكَ بهم، وفرّقوا جموعَهم، فهو ما يحبّ أمير المؤمنين أن يعاملَهم به من العفو عنهم والإقالة لهم؛ إذ كانوا رعيَّته؛ وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجابهم إلى طَلِبتهم، وآمن رَوْعهم، وكفاهم ولاية من كرهوا ولايتَه، وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم - وإن خالفوا ما ظنّ أمير المؤمنين، فحاكمهم إلى الله إذ طَغَوْا وبغَوْا، وكرهوا العافية وردّوها؛ فإنّ أمير المؤمنين قد قضى ما عليه، فغيّر ونكّل، وعَزل واستبدلَ، وعفا عمّن أحدث، وصفح عمن اجترم؛ وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن آثروه، وعنودٍ إن أظهروه. وكفى بالله شهيداً ولا حوْلَ ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، عليه يتوكل وإليه ينيب. والسلام.

وكتب إسماعيل بن صبيح بين يدي أمير المؤمنين.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن العباس بن محمد بن عليّ، وكان والي مكة.

ولم يكن للمسلمين بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان الفداء بين المسلمين والرّوم على يديْ ثابت بن نصر بن مالك.

وفيها وافَى الرّشيد من الرّقة في السّفُن مدينة السلام، يريد الشخوص إلى خُراسان لحرب رافع؛ وكان مصيره ببغداد يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شهر ربيع الآخر، واستخلف بالرّقة ابنه القاسم، وضمّ إليه خُزيمة بن خازم، ثم شخص من مدينة السلام عشيّة الاثنين، لخمس خلوْن من شعبان بعد صلاة العصر، من الخيزُرانيّة، فبات في بستان أبي جعفر، ثم سار من غد إلى النهروان، فعسكر هنالك، وردّ حماداً البربريّ إلى أعماله، واستخلف ابنه محمداً بمدينة السلام.

وذُكر عن ذي الرياستيْن أنه قال: قلتُ للمأمون لما أراد الرشيد الشخوص إلى خُراسان لحرب رافع: لستَ تدرِي ما يحدث بالرّشيد وهو خارج إلى خُراسان، وهي ولايتك، ومحمّد المقدم عليك! وإنّ أحسَن ما يصنع بك أن يخلعك، وهو ابن زُبيدة، وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها، فاطلبْ إليه أن يُشخصك معه. فسأله الإذن فأبى عليه، فقلت له: قل له: أنت عليل؛ وإنما أردتُ أن أخدمك، ولست أكلفك شيئاً. فأذن له وسار.

فذكر محمد بن الصبّاح الطبريّ أن أباه شيّع الرشيد حين خرج إلى خُراسان، فمضى معه إلى النَّهروان، فجعل يحادثه في الطريق إلى أن قال له: يا صبّاح، لا أحسبك تراني أبداً. قال: فقلت: بل يردّك الله سالماً؛ قد فتح الله عليك، وأراك في عدوِّك أملك. قال: يا صبّاح، ولا أحسبك تدري ما أجد! قلت: لا والله، قال: فتعال حتّى أريك، قال: فانحرف عن الطريق قَدْر مائة ذراع، فاستظلّ بشجرة، وأومأ إلى خدمه الخاصة فتنحّوْا، ثم قال: أمانة الله يا صبّاح أن تكتم عليّ، فقلت: يا سيّدي، عبدك الذليل تخاطبه مخاطبة الولد! قال: فكشف عن بطنِه؛ فإذا عصابة حرير حواليْ بطنه، فقال: هذه علّة أكتمها الناس كلّهم؛ ولكلّ واحد من ولدي عليّ رقيب؛ فمسرور رقيب المأمون، وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين ـ وسمىّ الثالث فذهب عني اسمه ـ وما منهم أحد إلا وهو يحصي أنفاسي، ويعدّ أيامي، ويستطيل عمري، فإن أردت أن تعرف ذلك فالساعة أدعو بدابّة، فيجيئوني ببرذَوْن أعجف قَطوف، ليزيد في علتي، فقلت: يا سيدي ما عندي في الكلام جوابٌ؛ ولا في ولاة العهود؛ غير أني أقول: جعل الله من يَشْنؤك من الجنّ والإنس والقريب والبعيد فداك؛ وقدّمهم إلى تلك قبلك، ولا أرانا فيك مكروهاً أبداً، وعمّر بك الله الإسلام، ودعم ببقائك أركانه، وشدّ بك أرجاءه، وردّك الله مظفّراً مفلحاً، على أفضل أَملك في عدّوك، وما رجوت من ربك. قال: أمّا أنت فقد تخلّصت من الفريقين.

قال : ثم دعا ببرذون ، فجاؤوا به كما وصف ، فنظر إليّ فركبه ، وقال انصرف غير مودَّع ؛ فإن لك أشغالاً ، فودّعته وكان آخر العهد به .

وفيها تحرّك الخُرَّمية بناحية أذْرَبيجان ، فوجّه إليهم الرّشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فارس ، فأسر وسَبى ، ووافاه بقَرْمَاسِين ، فأمر بقتل الأسارى وبيع السَّبْي .

وفيها مات عليّ بن ظَبْيان القاضي بقصر اللصوص .

وفيها قدم يحيى بن معاذ بأبي النّداء على الرشيد وهو بالرّقة فقتله .

وفيها فارق عُجيف بن عنبسة والأحوص بن مهاجر في عدّة من أبناء الشّيعة رافع بن ليث، وصاروا إلى هرثمة .

وفيها قُدِم بابن عائشة وبعدّة من أهل أحواف مصر .

وفيهاولّي ثابت بن نصر بن مالك الثّغور وغزا ، فافتتح مطمورة .

وفيها كان الفداء بالبُدَنْدون .

وفيها تحرّك ثرْوان الحَروريّ ، وَقتل عامل السلطان بطفّ البصرة .

وفيها قُدِم بعليّ بن عيسى بغداد ، فحبس في داره .

وفيها مات عيسى بن جعفر بطرارستان ـ وقيل بالدّسكرة ـ وهو يريد اللحاق بالرشيد .

وفيها قتَل الرشيد الهيصم اليمانيّ .

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور .

ثم دخلت سنة ثلاثة وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وفاة الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في الحَبْس بالرّقة في المحرّم، وكان بدء علّته - فيما ذكر - من ثقل أصابه في لسانه وشِقّه؛ وكان يقول: ما أحبّ أن يموت الرشيد، فيقال له: أما تحب أن يفرّج الله عنك! فيقول: إن أمري قريب من أمره. ومكث يعالَج أشهراً، ثم صلح، فجعل يتحدّث، ثم اشتدّ عليه فعُقد لسانه وطرفه، ووقع لمآبه، فمكث في تلك الحال يوم الخميس ويوم الجمعة، تُوُفِّيَ مع أذان الغداة، قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر؛ وهو في خمس وأربعين سنة، وجزع الناس عليه، وصلّى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجه، ثم أخرِج فصلّى الناس على جنازته.

وفيها مات سعيد الطبريّ المعروف بالجوهريّ

وفيها وافى هارون جرجان في صَفر، فوافاه بها خزائن عليّ بن عيسى على ألف بعير وخمسمائة بعير، ثم رحل من جُرجان - فيما ذكر - في صفر، وهو عليل، إلى طُوس؛ فلم يزل بها إلى أن تُوفِّيَ - واتّهم هرثمة، فوجّه ابنه المأمون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة إلى مَرْو، ومعه عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وأسد بن يزيد بن مزيد والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث والسنديّ بن الحَرشيّ ونعيم بن حازم؛ وعلى كتابتـه ووزارته أيّوب بن أبي سُمَيْر، ثم اشتدّ بهارون الوجع حتى ضعف عن السير.

وكانت بين هرثمة وأصحاب رافع فيها وقعة، فتَح فيها بخارى، وأسر أخا رافع بشير بن الليث، فبعث به إلى الرشيد وهو بطوس؛ فذُكِر عن ابن جامع المروزيّ، عن أبيه، قال: كنت فيمن جاء إلى الرشيد بأخي رافع. قال: فدخل عليه وهو على سرير مرتفع عن الأرض بقدر عظم الذّراع، وعليه فرْش بقدر ذلك - أو قال أكثر - وفي يده مرآة ينظر إلى وجهه. قال: فسمعته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ونظر إلى أخي رافع، فقال: أما والله يابن اللّخناء؛ إني لأرجو ألّا يفوتني خامل - يريد رافعاً - كما لم تَفُتْني. فقال له: يا أمير المؤمنين، قد كنت لك حرباً، وقد أظفرك الله بي فافْعَل ما يحبّ الله، أكن لك سلماً؛ ولعل الله أن يلينّ لك قلب رافع إذا علم أنك قد مننت عليّ! فغضب وقال: والله لو لم يبق من أجَلي إلّا أن أحرّك شفتيَّ بكلمـة لقلت: اقتلوه. ثم دعا بقصّاب، فقال: لا تشحذ مُداك، اتركها على حالها، وفصّل هذا الفاسق ابن الفاسق، وعجّل؛ لا يحضرنّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه. ففصّله حتى جعله أشلاء. فقال: عُدّ أعضاءه، فعددت له أعضاءه، فإذا هي أربعة عشر عضواً، فرفع يديه إلى السماء، فقال: اللهمّ كما مكّنتني من ثأرك وعدوّك، فبلغت فيه رضاك، فمكّني من أخيه. ثم أغْمِيَ عليه، وتفرّق مَن حضره.

وفيها مات هارون الرشيد.

ذكر الخبر عن سبب وفاته والموضع الذي توفِّيَ فيه:

ذُكر عن جبريل بن بختيشوع أنه قال: كنت مع الرّشيد بالرّقة، وكنت أوّل من يدخل عليه في كلّ غداة، فأتعرّف حاله في ليلته؛ فإن كان أنكر شيئاً وصفه، ثم ينبسط فيحدّثني بحديث جواريه وما عمِل في مجلسه، ومقدار شربه، وساعات جلوسه، ثم يسألني عن أخبار العامّة وأحوالها؛ فدخلتُ عليه في غداة يوم، فسلّمت فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكّراً مهموماً، فوقفت بين يديه مليّاً من النهار، وهو على تلك الحال؛ فلما طال ذلك أقدمتُ عليه، فقلت: يا سيدي، جعلني الله فداك! ما حالك هكذا،أعلّة فأخبرني بها؛ فلعله يكون عندي دواؤها، أو حادثة في بعض مَنْ تحبّ فذاك ما لا يُدفع ولا حيلة فيه إلا التسليم والغمّ، لادرك فيه، أو فَتْق ورد عليك في مُلْكك، فلم تخلُ الملوك من ذلك؛ وأنا أوْلى من أفضيْتَ إليه بالخبر، وتروّحت إليه بالمشورة. فقال: ويحك يا جبريل! ليس غمّي وكربي لشيء مما ذكرت، ولكن لرؤيا رأيتُها في ليلتي هذه، وقد أفزعتني وملأت صدري، وأقرحت قلبي، قلت: فرّجتَ عني يا أمير المؤمنين؛ فدنوتُ منه، فقبّلت رجله، وقلت: أهذا الغمّ كله لرؤيا! الرؤيا إنما تكون من خاطر أو بخارات رديئة أو من تهاويل السوداء؛ وإنما هي أضغاث أحلام بعد هذا كله. قال: فأقصّها عليك، رأيت كأني جالس على سريري هذا؛ إذ بدتْ من تحتي ذراع أعرفها وكفّ أعرفها، لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفّ تربة حمراء، فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تُدفن فيها، فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: بطوس. وغابت اليد وانقطع الكلام، وانتبهت. فقلت: يا سيّدي، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة، أحسبك أخذت مضجعَك، ففكّرت في خُراسان وحروبها وما قد ورد عليك من انتقاض بعضها. قال: قد كان ذاك، قال: قلت: فلذلك الفكر خالطَك في منامك ما خالطك، فولّد هذه الرؤيا، فلا تحْفِل بها جعلني الله فداك! وأتبع هذا الغم سروراً، يخرجه من قلبك لا يولد علة. قال: فما برحت أطيّب نفسه بضروب من الحيل، حتى سلا وانبسط، وأمر بإعداد ما يشتهيه، ويزيد في ذلك اليوم في لهوه. ومرّت الأيام فنسيَ، ونسينا تلك الرؤيا، فما خطرت لأحد منا ببال، ثم قدّر مسيره إلى خُراسان حين خرج رافع، فلما صار في بعض الطريق، ابتدأت به العلّة فلم تزل تتزايد حتى دخلنا طُوس، فنزلنا في منزل الجنيد بن عبد الرحمن في ضَيْعة له تعرف بسنَاباذ، فبينا هو يمرض في بستان له في ذلك القصر إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط؛ فاجتمعنا إليه؛ كلّ يقول: يا سيّدي ما حالك؟ وما دهاك؟ فقال: يا جبريل، تذكر رؤياي بالرّقة في طُوس؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني من تربة هذا البستان، فمضى مسرور، فأتى بالتربة في كفه حاسراً عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذّراع التي رأيتُها في منامي، وهذه والله الكفّ بعينها، وهذه والله التربة الحمراء ما خرمت شيئاً؛ وأقبل على البكاء والنحيب. ثم مات بها والله بعد ثلاثة، ودفن في ذلك البستان.

وذكر بعضهم أن جبريل بن بختيشوع كان غلط على الرشيد في علّته في علاج عالجه به، كان سبب منيّته؛ فكان الرّشيد همّ ليلة مات بقتله، وأن يفصّله كما فصّل أخا رافع، ودعا بجبريل ليفعلَ ذلك به، فقال له جبريل: أنظرني إلى غدٍ يا أميرَ المؤمنين، فإنك ستصبح في عافية. فمات في ذلك اليوم.

وذكر الحسن بن عليّ الرّبَعيّ أنّ أباه حدّثه عن أبيه ـ وكان جمّالاً معه مائة جمل، قال: هو حمل الرشيد إلى

طُوس ـ قال: قال الرشيد: احفُروا لي قبراً قبل أن أموت، فحفروا له، قال: فحملتُه في قبّة أقود به؛ حتى نظر إليه. قال، فقال: يابن آدم تصير إلى هذا!

وذكر بعضهم أنه لما اشتدّت به العلّة أمر بقبره فحفِر في موضع من الدار التي كان فيها نازلا، بموضع يسمى المثقّب، في دار حميد بن أبي غانم الطائيّ، فلما فرغ من حفر القبر، أنزل فيه قوماً فقرؤوا فيه القرآن حتى ختموا، وهو في محفّة على شفير القبر.

وذكر محمد بن زياد بن محمد بن حاتم بن عبيد الله بن أبي بكرة، أنّ سهل بن صاعد حدّثه، قال: كنتُ عند الرّشيد في بيتِه الذي قبض فيه، وهو يجود بنفسه، فدعا بمِلْحفة غليظة فاحتبى بها، وجعل يقاسي ما يقاسي؛ فنهضت فقال لي: اقعد يا سهل، فقَعدتُ وطال جلوسي لا يكلّمني ولا أكلمه، والمِلْحفة تنحلّ فيعيد الاحتباء بها، فلما طال ذلك نهضت، فقال لي: إلى أين يا سهل؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، ما يسع قلبي أن أرى أميرَ المؤمنين يعاني من العلّة ما يعاني؛ فلو اضطجعتَ يا أمير المؤمنين كان أروحَ لك! قال: فضحك ضحْك صحيح، ثم قال: يا سهل إني أذكر في هذه الحال قول الشاعر:

وَإِنِّيَ مِنْ قَوْمٍ كِرامٍ يَزيدُهُمْ شِماساً وَصَبْراً شِدةُ الحَدَثانِ

وذُكر عن مسرور الكبير، قال: لما حضرت الرشيد الوفاة، وأحسَ بالموت، أمرني أن أنشر الوشْيَ فآتيَه بأجود ثوب أقدر عليه وأغلاه قيمة، فلم أجد ذلك في ثوب واحد، ووجدت ثوبيْن أغلَى شيء قيمة، وجدْتهما متقاربيْن في أثمانهما، إلاّ أنّ أحدهما أغلَى من الآخر شيئاً، وأحدهما أحمر والآخر أخضر، فجئته بهما، فنظر إليهما وخبّرته قيمتهما، فقال: اجعل أحسنَهما كفني، ورُدّ الآخر إلى موضعه.

وتُوفِّي ـ فيما ذكر ـ في موضع يدعى المثقّب، في دار حميد بن أبي غانمٍ ، نصف الليل؛ ليلة السبت لثلاث خلوْن من جُمادى الآخرة من هذه السنة، وصلَّى عليه ابنه صالح، وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح، ومن خدمه مسرور وحسين ورشيد.

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً، أوّلها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وآخرها ليلة السبت لثلاث ليال خلوْن من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

وقال هشام بن محمد: استُخلف أبو جعفر الرشيدُ هارون بن محمد ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة، وتوفِّي ليلة الأحد غرّة جمادى الأولى وهو ابن خمس وأربعين سنة سنة ثلاث وتسعين ومائة، فملك ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوماً.

وقيل: كان سنّه يوم توفِّيَ سبعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، أولها لثلاث بقين من ذي الحجة سنة خمسين وأربعين ومائة، واخرها يومان مضيا من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة.

وكان جميلاً وسيماً أبيض جَعْداً، وقد وَخَطه الشيب.

ذكر ولاة الأمصار في أيام هارون الرشيد

ولاة المدينة: إسحاق بن عيسى بن عليّ، عبد الملك بن صالح بن عليّ، محمد بن عبد الله، موسى بن

عيسى بن موسى، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عليّ بن عيسى بن موسى، محمد بن إبراهيم، عبد الله بن مُصعب الزبيريّ، بكّار بن عبد الله بن مصعب، أبو البَختريّ وهب بن وهب.

ولاة مكة: العباس بن محمد بن إبراهيم، سليمان بن جعفر بن سليمان، موسى بن عيسى بن موسى، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، عبد الله بن قُثَم بن العباس؛ محمد بن إبراهيم، عبيد الله بن قُثَم، عبد الله بن محمد بن عمران، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، العباس بن موسى بن عيسى، عليّ بن موسى بن عيسى، محمد بن عبد الله العثمانيّ، حماد البربريّ، سليمان بن جعفر بن سليمان، أحمد بن إسماعيل بن عليّ، الفضل بن العباس بن محمد.

ولاة الكوفة: موسى بن عيسى بن موسى، يعقوب بن أبي جعفر، موسى بن عيسى بن موسى، العباس بن عيسى بن موسى، إسحاق بن الصباح الكنديّ، جعفر بن جعفر بن أبي جعفر، موسى بن عيسى بن موسى، العباس بن عيسى بن موسى، موسى بن عيسى بن موسى.

ولاة البصرة: محمد بن سليمان بن عليّ، سليمان بن أبي جعفر، عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، خزيمة بن خازم، عيسى بن جعفر، جرير بن يزيد؛ جعفر بن سليمان، جعفر بن أبي جعفر، عبد الصمد بن عليّ، مالك بن عليّ الخزاعي، إسحاق بن سليمان بن عليّ؛ سليمان بن أبي جعفر، عيسى بن جعفر، الحسن بن جميل مولى أمير المؤمنين؛ إسحاق بن عيسى بن عليّ.

ولاة خراسان: أبو العباس الطوسيّ، جعفر بن محمد بن الأشعث، العباس بن جعفر، الغطريف بن عطاء، سليمان بن راشد على الخراج، حمزة بن مالك، الفضْل بن يحيى، منصور بن يزيد بن منصور، جعفر بن يحيى خليفته بها، عليّ بن الحسن بن قَحْطبة، عليّ بن عيسى بن ماهان، هَرْثمة بن أعيَن.

ذكر بعض سيَر الرشيد

ذكر العباس بن محمد عن أبيه، عن العباس، قال: كان الرّشيد يصلّي في كلّ يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا؛ إلا أن تعرض له علّة، وكان يتصدّق من صُلْب ماله في كلّ يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة، وكان يقتفي آثار المنصور، ويطلب العمل بها إلاّ في بذل المال؛ فإنه لم يُرَ خليفة قبله كان أعطى منه للمال، ثم المأمون من بعده. وكان لا يضيع عنده إحسان محسِن، ولا يؤخرّ ذلك في أوّل ما يجب ثوابه. وكان يحبّ الشعراء والشعر، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المِراء في الدين، ويقول: هو شيء لا نتيجة له، وبالحرى ألا يكون فيه ثواب، وكان يحب المديح؛ ولا سيما من شاعر فصيح، ويشتريه بالثمن الغالي.

وذكر ابنُ أبي حفصة أنّ مروان بن أبي حفصة دخل عليه في سنة إحدى وثمانين ومائة يوم الأحد لثلاث خلوْن من شهر رمضان، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

وَسُدَّتْ بهارونَ الثُّغورُ فأُحكِمَتْ ... بهِ مِنْ أُمورِ المُسْلِمينَ المَرائِرُ
وما انفَكَّ مَعْقُوداً بنَصْرٍ لِواؤُه ... لهُ عسكرٌ عَنْهُ تُشَظَّى العَساكِرُ
وكلّ مُلوكِ الرومِ أعطاهُ جِزْيَةً ... على الرغم قسْراً عَنْ يَدٍ وهْوَ صاغِرُ

لقد تَرَكَ الصَّفْصافَ هارونُ صَفْصَفاً ... كأنْ لم يُدَمِّنْهُ مِنَ الناسِ حاضرُ
أناخَ على الصَّفْصاف حتى اسْتباحَهُ ... فكابَرَهُ فيها ألجُّ مُكابرُ
إلى وجْهه تسْمُو العُيُونُ وما سمَتْ ... إلى مثلِ هارونَ العيونُ النَّواظِرُ
ترى حَوْلَه الأملاكَ مِنْ آلِ هاشمٍ ... كما حَفَّتِ البَدْرَ النجومُ الزَّواهرُ
يَسُوقُ يَدَيْهِ مِنَ قُرَيْشٍ كِرَامُها ... وكلتاهُما بَحْرٌ على الناسِ زاخِرُ
إذا فقَدَ الناسُ الغمامَ تتابَعتْ ... عليْهِمْ بكَفَّيْكَ الغُيُومُ المواطِرُ
على ثِقَةٍ أَلقَتْ إليْكَ أُمورَها ... قُرَيْش، كما ألقى عَصاهُ المُسافِرُ
أُمورٌ بِميراثِ النبيِّ وَلِيتَها ... فأنتَ لها بالْحَزمِ طاوٍ وَناشِرُ
إليكُمْ تناهَتْ فاستَقَرَّتْ وَإنَّما ... إلى أهلِه صارَتْ بِهِنَّ المَصايِرُ
خلَفْتَ لنا المَهْدِيَّ في العَدْلِ وَالنَّدى ... فلا العُرْفُ منزُورٌ ولا الحُكْمُ جائِرُ
وَأبناءُ عَبَّاسٍ نُجومٌ مضيئَةٌ ... إذا غابَ نجْمٌ لاحَ آخَرُ زاهرُ
عليَّ بَنِي ساقِي الحَجيجِ تتابعَتْ ... أوائلُ مِنْ مَعْروفِكُمْ وأواخِرُ
فأَصْبحْتُ قد أيْقَنْتُ أنْ لَسْتُ بالغاً ... مَدَى شُكْرِ نُعْماكُمْ وَإني لَشاكِرُ
وما النَّاسُ إلا وَارِدٌ لحِياضِكم ... وَذُو نَهَلٍ بالرِّيِّ عنهنَّ صادِرُ
حُصُونُ بَنِي العَباسِ في كلِّ مَأْزِق ... صُدورُ العوالي والسُّيوفُ البَواتِرُ
فَطَوْراً يَهُزُّونَ القَواطِعَ والقَنا ... وَطَوْراً بأيديهِمْ تُهَزُّ المَخاصِرُ
بأَيْدِي عِظامِ النَّفْعِ والضَّرِ لاتَني ... بِهِم للعَطايا والمَنايا بَوادِرُ
لِيَهنِكُمُ المُلكُ الذِي أصبحَتْ بِكمْ ... أَسِرَّتُهُ مُخْتالَةً والمَنابرُ
أَبوكَ وَلِيُّ المُصْطَفى دونَ هاشِمٍ ... وَإنْ رَغِمتْ مِنْ حاسِدِيك المَناخِرُ

فأعطاه خمسة آلاف دينار، فقبضها بين يديه وكساه خلعته، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برْذون من خاصّ مراكبه.

وذُكر أنه كان مع الرشيد ابنُ أبي مريم المدنيّ، وكان مضحاكاً له محداثاً فكيهاً، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يملّ محادثته وكان ممّن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجّان. فبلغ من خاصتّه بالرّشيد أن بوّأه منزلاً في قصره، وخلطه بحُرَمه وبطانته ومواليه وغلمانه؛ فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرَّشيد إلى الصلاة فألفاه نائماً، فكشف اللحاف عن ظهره، ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك، قال: ويلك! قم إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي. فمضى وتركه نائماً، وتأهّب الرشيد للصلاة، فجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة، فقام فألقى عليه ثيابه، ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى إليه وهو يقرأ: ﴿ وما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرني ﴾ [١] فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالك الرّشيد أن ضحك في صلاته، ثم التفت إليه وهو كالمغضب، فقال: يابن أبي مرْيم، في الصلاة أيضاً!

(١) سورة يس: ٢٢.

قال: يا هذا وما صنعت؟ قال: قطعتَ عليّ صلاتي، قال: والله ما فعلتُ؛ إنما سمعت منك كلاماً غمَّني حين قلت: ﴿ وما لي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فقلت: لا أدري والله! فعاد فضحك، وقال: إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما.

وذكر بعضُ خدم الرّشيد أن العباس بن محمد أهدى غاليةً إلى الرشيد، فدخل عليه وقد حملها معه، فقال يا أميرَ المؤمنين، جعلني الله فداك! قد جئتك بغالية ليس لأحد مثلها، أما مِسْكها فمن سُرَر الكلاب التَّبَّتِيّة العتيقة، وأما عَنْبرها فمن عنبر بحر عَدَن، وأما بانُها فمن فلان المدنيّ المعروف بجودة عَملِه، وأما مركِّبُها فإنسان بالبصرة عالم بتأليفها، حاذق بتركيبها، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يمنّ عليّ بقبولها فعل، فقال الرشيد لخاقان الخادم وهو على رأسه: يا خاقانُ، أدخِلْ هذه الغالية؛ فأدخلها خاقان، فإذا هي في بَرْنيّة عظيمة من فضّة وفيها مِلْعقة، فكشف عنها وابن أبي مريم حاضر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هَبْها لي، قال: خذها إليك. فاغتاظ العباس، وطار أسفاً، وقال: ويلك! عمَدت إلى شيء منعتُه نفسي، وآثرتُ به سيدي فأخذتَه! فقال: أمّه فاعلة إن دهن بها إلا استه! قال: فضحِك الرشيد، ثم وثب ابنُ أبي مريم، فألقى طرف قميصه على رأسه، وأدخل يده في البَرْنيّة، فجعل يخرج منها ما حملت يده، فيضعه في استِه مرّة وفي أرفاغه ومغابنه أخرى، ثم سوّد بها وجهَه ورأسه وأطرافه، حتى أتى على جميع جوارحه، وقال لخاقان: أدخل إليّ غلامي، فقال الرشيد وما يعقل مما هو فيه من الضحك، ادعُ غلامه، فدعاه، فقال له: اذهب بهذه الباقية، إلى فلانة، امرأته، فقل لها: ادهِني بهذا حِرَك إلى أن أنصرف فأنيكك. فأخذها الغلام ومضى، والرّشيد يضحك، فذهب به الضحك. ثم أقبل على العبّاس فقال: والله أنت شيخ أحمق، تجيء إلى خليفة الله فتمدح عنده غالية! أما تعلم أنّ كلّ شيء تمطر السماء وكلّ شيء تخرج الأرض له، وكل شيء هو في الدّنْيا فملك يده، وتحت خاتمه وفي قبضته! وأعجبُ من هذا أنه قيل لملك الموت: انظر كلّ شيء يقول لك هذا فأنفذه، فمثل هذا تُمْدح عنده الغالية، ويخطب في ذكرها، كأنه بقّال أو عطار أو تمّار! قال: فضحك الرشيد حتى كاد ينقطع نَفَسَهُ، ووصل ابنَ أبي مريم في ذلك اليوم بمائة ألف درهم.

وذكر عن زيد بن عليّ بن حسين بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قال: أراد الرشيد أن يشرب الدّواء يوماً، فقال له ابن أبي مريم: هل لك أن تجعلَني حاجبَك غداً عند أخذك الدواء؛ وكل شيء أكسبه فهو بيني وبينك؟ قال: أفعلُ، فبعث إلى الحاجب : الزمْ غداً منزلك؛ فإني قد ولّيت ابن أبي مريم الحِجابة. وبكَرَ ابن أبي مريم، فوضع له الكرسيّ، وأخذ الرّشيد دواءه، وبلغ الخبر بِطانتَه، فجاء رسول أم جعفر يسأل عن أمير المؤمنين وعن دوائه، فأوصله إليه، وتعرّف حالَه وانصرف بالجواب، وقال للرسول: أعْلِم السيدة ما فعلتُ في الإذن لك قبل الناس؛ فأعلمَها، فبعثت إليه بمال كثير، ثم جاء رسولُ يحيى بن خالد، ففعل به مثل ذلك، ثم جاء رسول جعفر والفضل، ففعل كذلك، فبعث إليه كلّ واحد من البرامكة بصِلَةٍ جزيلة، ثم جاء رسول الفضل بن الربيع فردّه ولم يأذن له، وجاءت رسلُ القواد والعظماء؛ فما أحد سهّل إذنه إلا بعث إليه بصلة جزيلة؛ فما صار العصر حتى صار إليه ستون ألف دينار، فلما خرج الرشيد من العلّة، ونقيَ بدنه من الدواء دعاه، فقال له: ما صنعت في يومك هذا؟ قال: يا سيدي، كسبت ستين ألف دينار، فاستكثرها وقال: وأين حاصلي؟ قال: معزول، قال: قد سوّغناك حاصلنا؛ فأهدِ إلينا عشرة آلاف تفاحة، ففعل، فكان أربح مَن تاجره الرشيد.

وذكر عن إسماعيل بن صَبيح، قال: دخلتُ على الرشيد، فإذا جارية على رأسه، وفي يدها صحِيفة ومِلْعقة في يدها الأخرى، وهيَ تلعقه أولا فأولا، قال: فنظرت إلى شيء أبيض رقيق فلم أدر ما هو! قال: وعلم أنّي أحبّ أن أعرفَه، فقال: يا إسماعيل بن صَبيح، قلت: لبيك يا سيدي، قال: تدري ما هذا؟ قلت: لا، قال: هذا جشيش الأرز والحنطة وماء نُخالة السميد؛ وهو نافع للأطراف المعوجّة وتشنيج الأعصاب ويصفّي البَشَرة، ويذهب بالكلَف، ويسمن البدن، ويجلُو الأوساخ. قال: فلم تكن لي همّة حين انصرفت إلّا أن دعوت الطباخ؛ فقلت: بكِّرْ عليّ كلّ غداة بالجشيش، قال: وما هو؟ فوصفت له الصّفة التي سمعتها. قال: تضجر من هذا في اليوم الثالث، فعمِله في اليوم الأول فاستطبتُه، وعمله في اليوم الثاني فصار دونه، وجاء به في اليوم الثالث، فقلت: لا تُقدِّمْه.

وذُكِر أنّ الرشيد اعتلّ علة، فعالجه الأطباء، فلم يجد من عِلّته إفاقة، فقال له أبو عمر الأعجميّ: بالهند طبيب يقال له مَنْكَه؛ رأيتهم يقدّمونه على كلّ من بالهند؛ وهو أحد عُبّادهم وفلاسفتهم، فلو بعث إليه أمير المؤمنين لعلّ الله أن يبعث له الشفاء على يده! قال: فوجّه الرّشيد مَنْ حمله، ووجّه إليه بصلة تعينه على سفره. قال: فقدم فعالج الرشيد فبرىء من علته بعلاجه، فأجرى له رزقاً واسعاً وأموالاً كافية، فبينا مَنْكَه مارًّا بالخُلْد؛ إذا هو برجل من المانيّين قد بسط كساءه، وألقى عليه عقاقير كثيرة، وقام يصف دواء عنده معجوناً، فقال في صفته: هذا دواء للحمّى الدائمة وحمّى الغِبّ وحميّ الربع، والمثلثة؛ ولوجع الظهر والركبتين والبَواسير والرياح، ولوجع المفاصل ووجع العينين، ولوجع البَطْن والصُّداع والشقيقة ولتقطير البول والفالج والارتعاش؛ فلم يدَعْ عِلة في البَدَن إلا ذكر أن ذلك الدواء شفاء منها، فقال مَنْكَه لترجمانه: ما يقول هذا؟ فترجم له ما سمع، فتبسّم مَنْكَه، وقال: على كلّ حال ملك العرب جاهل؛ وذاك أنه إنْ كان الأمر على ما قال هذا، فلمَ حملني من بلادي، وقطعني عن أهلي، وتكلّف الغليظَ من مؤنتي، وهو يجد هذا نصب عينه وبإزائه! وإن كان الأمر ليس كما يقول هذا فلم لا يقتله! فإن الشريعة قد أباحت دمه ودم مَنْ أشبهه؛ لأنه إن قُتل، فإنما هي نفس يحيا بقتلها خلْق كثير؛ وإن ترك هذا الجاهل قَتَل في كلّ يوم نفساً، وبالحَرَى أن يقتل اثنتين وثلاثاً وأربعاً في كلّ يوم؛ وهذا فساد في التدبير، ووهن في المملكة.

وذُكر أنّ يحيى بن خالد بن برمك ولّى رجلاً بعض أعمال الخراج بالسَّوَاد، فدخل إلى الرشيد يودِّعه؛ وعنده يحيى وجعفر بن يحيى، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه، فقال له يحيى: وَفِّرْ واعمرْ، وقال له جعفر: أنصِفْ وانتصف، فقال له الرشيد: اعدلْ وأحسنْ.

وذكر عن الرشيد أنه غضب على يزيد بن مزيد الشيبانيّ، ثم رضي عنه، وأذن له، فدخل عليه، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ الحمد لله الذي سهّل لنا سبيل الكرامة، وحلّ لنا النّعمة بوجه لقائك، وكشف عنا صُبابة الكرب بإفضالك، فجزاك الله في حالِ سخطك رِضَا المنيبين، وفي حال رضاك جزاء المنعمين الممتنّين المتطوّلين؛ فقد جعلك الله وله الحمد، تتثبّتُ تحرّجاً عند الغضب، وتتطوّل ممتنًا بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضّلاً بالعفو.

وذكر مصعب بن عبد الله الزبيريّ أن أباه عبد الله بن مصعب أخبره أنّ الرشيد قال له: ما تقول في الذين طعنوا على عثمان؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين، طعن عليه ناس؛ وكان معه ناس؛ فأما الذين طعنوا عليه فتفرّقوا عنه؛ فهم أنواع الشِّيَع، وأهل البِدَع، وأنواع الخوارج؛ وأما الذين كانوا معه فهم أهلُ الجماعة إلى

اليوم. فقال لي: ما أحتاج أن أسأل بعد هذا اليوم عن هذا.

قال مصعب: وقال أبي ـ وسألني عن منزلة أبي بكر وعمر كانت من رسول الله ﷺ؛ فقلت له: كانت منزلتهما في حياته منه منزلتَهما في مَماته؛ فقال: كفيتَني ما أحتاج إليه.

قال: وُوُلِّيَ سلاّم، أو رشيد الخادم ـ بعض خدّام الخاصة ـ ضياعَ الرّشيد بالثغور والشأمات، فتواترت الكتب بحسن سيرته وتوفيره وحمد الناس له، فأمر الرّشيد بتقديمه والإحسان إليه، وضمّ ما أحبّ أن يضمّ إليه من ضياع الجزيرة، ومصر. قال: فقدِم فدخل عليه وهو يأكل سَفَرْجلاً قد أتى به من بلْخ؛ وهو يقشِّره ويأكل منه، فقال له: يا فلان، ما أحسن ما انتهى إلى مولاك عنك، ولك عنده ما تحبّ، وقد أمرت لك بكذا وكذا، وولّيتك كذا وكذا، فسل حاجتَك، قال: فتكلّم وذكر حسنَ سيرته، وقال: أنسَيْتُهم والله يا أمير المؤمنين سيرةَ العُمرين. قال: فغضب واستشاط، وأخذ سفرجلة فرماه بها، وقال: يا بن اللخناء، العمريْن، العمريْن، العمرين! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز، نحتملها لعمر بن الخطاب!

وذكر عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أنّ أبا بكر بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبدالله بن عمر بن عبد العزيز حدّثه، عن الضحّاك بن عبد الله، وأثنى عليه خيراً؛ قال: أخبرني بعضُ ولد عبد الله بن عبد العزيز، قال: قال الرّشيد: والله ما أدري ما آمُر في هذا العُمَريّ! أكره أن أقدم عليه وله خَلَف أكرههم؛ وإني لأحبّ أن أعرف طريقَه ومذهبه، وما أثق بأحد أبعثه إليه، فقال عمر بن بزيع والفضل بن الربيع: فنحن يا أميرَ المؤمنين، قال: فأنتما، فخرجا من العَرْج إلى موضع من البادية يقال له خلْص، وأخذا معهما أدلاء من أهل العرْج؛ حتى إذا وردا عليه في منزله أتَيَاه مع الضحى؛ فإذا هو في المسجد،فأناخا راحلتيهما ومَنْ كان معهما من أصحابهما، ثم أتياه على زِيّ الملوك من الرّيح والثياب والطِّيب؛ فجلسا إليه وهو في مسجد له، فقالا له: يا أبا عبد الرحمن، نحن رسل مَنْ خلْفنا من أهل المشرق، يقولون لك: اتّق الله ربك؛ فإذا شئت فقم. فأقبل عليهما، وقال: ويحكما! فيمن ولمن! قالا: أنت، فقال: والله ما أحبّ أني لقيت الله بمحجمة دمِ امرىء مسلم، وأنّ لي ما طلعت عليه الشمس؛ فلما أيسا منه قالا: فإنّ معنا شيئاً تستعين به على دهرك، قال: لا حاجة لي فيه، أنا عنه في غنًى، فقالا له: إنها عشرون ألف دينار، قال: لا حاجة لي فيها، قالا: فأعطها مَنْ شئت، قال: أنتما، فأعطياها مَنْ رأيتما، ما أنا لكما بخادم ولا عَوْن. قال: فلما يئسا منه ركبا راحلتيْهما حتى أصبحا مع الخليفة بالسُّقيا في المنزل الثاني، فوجدا الخليفة ينتظرهما؛ فلما دخلا عليه حدّثاه بما كان بينهما وبينه، فقال: ما أبالي ما أصنع بعد هذا. فحجّ عبدُ الله في تلك السنة، فبينا هو واقف على بعض أولئك البَاعة يشتري لصبيانه؛ إذا هارون يسعَى بين الصّفا والمروة على دابّة، إذ عرض له عبد الله وترك ما يريد، فأتاه حتى أخذ بلجام دابته، فأهوتْ إليه الأجناد والأحراس، فكفّهم عنه هارون فكلمه. قال: فرأيتُ دموعَ هارون؛ وإنها لتسيل على مَعْرَفة دابّته، ثم انصرف.

وذكر محمد بن أحمد مولَى بني سليم قال: حدثني الليث بن عبَد العزيز الجوزجانيّ ـ وكان مجاوراً بمكة أربعين سنة ـ أن بعض الحجبَة حدّثه أنّ الرشيد لما حجّ دخل الكعبة، وقام على أصابعه، وقال: يا مَنْ يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإنّ لكل مسألة منك ردًّا حاضراً، وجواباً عتيداً، ولكلّ صامت منك علم مُحيط ناطق بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة؛ ورحمتك الواسعة. صلّ على محمد وعلى آل محمد،

واغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا. يا مَنْ لا تضرّه الذنوب، ولا تخفَى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من كبس الأرض على الماء، وسدّ الهواء بالسّماء، واختار لنفسه الأسماء، صلّ على محمد، وخِرْ لي في جميع أمري. يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات يسألونك الحاجات؛ إنّ من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفّيتَني، وصرتُ في لحدي، وتفرّق عني أهلي وولدي. اللهمّ لك الحمد حمداً يفضُل على كلّ حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صلّ على محمد صلاة تكون له رضاً، وصلّ على محمد صلاةً تكون له حرزاً، واجْزه عنّا خيرَ الجزاء في الآخرة والأولى. اللهمّ أحيِنَا سُعداء وتوفّنا شُهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء محرومين!

وذكر عليّ بن محمد عن عبد الله، قال: أخبرني القاسم بن يحيى، قال: بعث الرشيد إلى ابن أبي داود والذين يخدمون قبر الحسين بن عليّ في الحَيْر، قال: فأُتِيَ بهم، فنظر إليه الحسن بن راشد، وقال: ما لك؟ قال: بعث إليّ هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ فأحضرَني، ولست آمنه على نفسي، قال له: فإذا دخلتَ عليه فسألك، فقل له: الحسن بن راشد وضعَني في ذلك الموضع. فلمّا دخل عليه قال هذا القول، قال: ما أخلقَ أن يكون هذا من تخليط الحسن! أحضروه، قال: فلما حَضَرَ قال: ما حَمَلك على أن صيّرت هذا الرجل في الحَيْر؟ قال: رحم الله مَنْ صيّره في الحَيْر، أمرتْني أمّ موسى أن أصيّرَه فيه، وأن أجرِيَ عليه في كل شهر ثلاثين درهماً فقال: ردُّوه إلى الحَيْر، وأجرُوا عليه ما أجرَتْه أمّ موسى ـ وأم موسى هي أمّ المهدي ابنة يزيد بن منصور.

وذكر عليّ بن محمد أن أباه حدّثه قال: دخلت على الرشيد في دار عوّن العِباديّ فإذا هو في هيئة الصيف، في بيت مكشوف؛ وليس فيه فرش على مقعد عند باب في الشق الأيمن من البيت، وعليه غُلالة رقيقة، وإزار رشيديّ عريض الأعلام، شديد التّضْريج؛ وكان لا يخيِّش البيت الذي هو فيه؛ لأنه كان يؤذيه؛ ولكنه كان يدخل عليه بَرْد الخيش؛ ولا يجلس فيه. وكان أوّل من اتخذ في بيت مقيله في الصيف سقفاً دون سقف؛ وذلك أنه لّما بلغه أن الأكاسرة كانوا يطيِّنون ظهورَ بيوتهم في كلّ يوم من خارج ليكفّ عنهم حرّ الشمس؛ فاتخذ هو سقفاً يلي سقف البيت الذي يَقيل فيه.

وقال عليّ عن أبيه: خُبرت أنه كان في كلّ يوم القيظ تغار من فِضّة يعمل فيه العطار الطِّيب والزعفران والأفاويه وماء الورد، ثم يدخل إلى بيت مقيله، ويدخل معه سبع غَلائل قصب رشيديّة تقطيع النساء، ثم تغمس الغلال في ذلك الطّيب، ويؤتَى في كلّ يوم بسبع جوار، فتخلع عن كلّ جارية ثيابها ثم تخلع عليها غُلالة، وتجلس على كرسيّ مثقب، وترسل الغُلالة على الكرسيّ فتجلّله، ثم تبخَّر من تحت الكرسي بالعود المدرج في العنبر أمداً حتى يجفّ القميص عليها، يفعل ذلك بهنّ، ويكون ذلك في بيت مقيله، فيعبق ذلك البيت بالبخور والطيب.

وذكر عليّ بن حمزة أنّ عبد الله بن عباس بن الحسن بن عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب قال: قال لي العباس بن الحسن: قال لي الرّشيد: أراك تكثر من ذكر يَنْبُع وصفتها، فصفْها لي وأوجز، قال: قلت: بكلام أو بشعر؟ قال: بكلام وشعر، قال: قلت: جِدَتُها في أصل عِذقْها، وعِذقها مسرَّح شأنها، قال: فتبسَّم، فقلت له:

يـا وادِيَ القصرِ نِعم القصرُ والـوادِي ... مِن مَنـزِلٍ حـاضِـرٍ إن شئتَ أو بادِي

تـــرى قـــراقيـــره والـعِـيـسَ وَاقـفـةً وَالضبَّ وَالنـونَ والمـلَّاح والحـادِي

وذكر محمد بن هارون، عن أبيه، قال: حضرت الرّشيد، وقال له الفضل بن الربيع: يا أميرَ المؤمنين، قد أحضرتُ ابنَ السمّاك كما أمرتَني، قال: أدخله، فدخل، فقال له: عِظني، قال: يا أميرَ المؤمنين، اتّق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غداً بيْن يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتيْن لا ثالثة لهما؛ جنة أو نار. قال: فبكى هارون حتى اخضلّت لحيته، فأقبل الفضلُ على ابن السّماك، فقال: سبحان الله! وهل يتخالَج أحداً شكٌّ في أنّ أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله! لقيامه بحقّ الله وعدله في عباده، وفضله! قال: فلم يحفِل بذلك ابنُ السماك من قوله، ولم يلتفتْ إليه، وأقبل على أمير المؤمنين، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن هذا ـ يعني الفضل بن الربيع ـ ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، فاتّق الله وانظر لنفسك. قال: فبكى هارون حتى أشفقنا عليه. وأفحِم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرْف حتى خرجنا.

قال: ودخل ابن السمّاك على الرشيد يوماً؛ فبينا هو عنده إذ استسقى ماء؛ فأُتيَ بقلّة من ماء؛ فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها، قال له ابن السمّاك: على رِسْلك يا أميرَ المؤمنين؛ بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو مُنعتَ هذه الشَّرْبة فبكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال: اشرب هنأك الله؛ فلما شربها، قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ، لو مُنِعتَ خروجها من بدنك، فبماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي؛ قال ابن السّماك: إن مُلْكاً قيمته شربة ماء، لجدير ألا ينافَس فيه. فبكى هارون؛ فأشار الفضلُ بن الربيع إلى ابن السمّاك بالانصراف فانصرف.

قال: ووعظ الرّشيد عبدُ الله بن عبد العزيز العمريّ، فتلقّى قوله بنعمْ يا عمّ، فلما ولّى لينصرف؛ بعث إليه بألفي دينار في كيس مع الأمين والمأمون فاعترضاه بها، وقالا: يا عمّ؛ يقول لك أمير المؤمنين: خذها وانتفع بها أو فرّقها، فقال: هو أعلم بمَنْ يفرّقها عليه، ثم أخذ من الكيس ديناراً، وقال: كرهت أن أجمع سوء القول وسوء الفعل. وشخص إليه إلى بغداد بعد ذلك، فكره الرشيد مصيرَه إلى بغداد، وجمع العُمَريّين، فقال: ما لي ولابن عمّكم! احتملتُه بالحجاز، فشخص إلى دار مملكتي؛ يريد أن يفسد عليّ أوليائي! ردّوه عني، فقالوا: لا يقبل منا؛ فكتب إلى موسى بن عيسى أن يرفُق به حتى يردّه، فدعا له عيسى بُنَيّ عشر سنين، قد حفظ الخطب والمواعظ، فكلّمه كلاماً كثيراً، ووعظه بما لم يسمع العمريّ بمثله، ونهاه عن التعرّض لأمير المؤمنين، فأخذ نعله، وقام وهو يقول: ﴿ فاعترفوا بذَنْبِهمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعير ﴾[١].

وذكر بعضهم أنه كان مع الرشيد بالرّقة بعد أن شخص من بغداد، فخرج يوماً مع الرشيد إلى الصّيْد، فعرض له رجل من النساك، فقال: يا هارون، اتّق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك: خذ هذا الرَّجُل إليك حتى أنصرف، فلما رجع دعَا بغدائه، ثم أمر أن يطعم الرجل من خاصّ طعامه، فلما أكل وشرب دعا به، فقال: يا هذا، أنْصِفْني في المخاطبة والمسألة، قال: ذاك أقلّ ما يجب لك، قال: فأخبِرْني: أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال: بل فرعون، قال: ﴿ أنَا رَبُّكُمُ الأعْلى ﴾[٢] وقال: ﴿ ما عَلِمْت لَكُمْ مِن إلَهٍ غَيْري ﴾[٣]، قال:

---

(١) سورة الملك : ١١ .

(٢) سورة النازعات : ٢٤ .

(٣) سورة القصص : ٣٨ .

صدقت؛ فأخبِرْني فمن خيرٌ؟ أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليم الله وصفيّه، أصطنعه لنفسه، وأئمنه على وحيه، وكلّمه من بين خلقه، قال: صدقتَ؛ أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما: ﴿ فَقُولا لَهُ قَولاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يَخْشَى ﴾(١)، ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يَكْنِيَاه؛ وهذا وهو في عُتوّه وجَبريّته؛ على ما قد علمتَ، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم، أؤدي أكثر فرائض الله عليّ، ولا أعبد أحداً سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه؛ فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه؛ فلا بأدب الله تأدّبْت، ولا بأخلاق الصالحين أخذْت، فما كان يؤمنك أن أسطوَ بك! فإذاً أنت قد عرّضت نفسك لما كنت عنه غنيًّا. قال الزاهد: أخطأتُ يا أميرُ المؤمنين؛ وأنا أستغفرك؛ قال: قد غفر لك الله؛ وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها، وقال: لا حاجة لي في المال؛ أنا رجل سائح. فقال هرثمة ـ وخزَره: تردّ على أمير المؤمنين يا جاهل صِلته! فقال الرّشيد: أمسك عنه، ثم قال له: لم نعطك هذا المال لحاجَتِك إليه؛ ولكن مِنْ عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله ومنحه؛ فاقبل من صلتنا ما شئت؛ وضعها حيث أحببت. فأخذ من المال ألفَيْ درهم، وفرّقها على الحجّاب ومَنْ حضر الباب.

ذكر مَنْ كان عند الرّشيد من النساء المهائر

قيل: إنه تزوّج زبيدة، وهي أمّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، وأعرس بها في سنة خمس وستين ومائة في خلافة المهديّ ببغداد، في دار محمد بن سليمان ـ التي صارت بعد للعباسة، ثم صارت للمعتصم بالله ـ فولدت له محمداً الأمين، وماتت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين.

وتزوّج أمَة العزيز أمّ ولد موسى، فولدت له عليّ بن الرشيد.

وتزوج أمّ محمد ابنة صالح المسكني، وأعرس بها بالرّقة في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة، وأمّها أم عبد الله ابنة عيسى بن عليّ صاحبة دار أمّ عبد الله بالكرْخ التي فيها أصحاب الدبس؛ كانت أملكت من ابراهيم بن المهديّ، ثم خلعت منه فتزوّجها الرشيد.

وتزوّج العباسة ابنة سليمان بن أبي جعفر، وأعرس بها في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ومائة، حُملت هي وأمّ محمد ابنة صالح إليه.

وتزوج عزيزة ابنة الغطريف؛ وكانت قبله عند سليمان بن أبي جعفر فطلقها، فخلَف عليها الرشيد، وهي ابنة أخي الخيزران.

وتزوج الجُرَشيّة العثمانية، وهي ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وسميت الجُرَشيَّة لأنها ولدت بجُرَش باليمن، وجدّة أبيها فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، وعمّ أبيها عبدالله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ومات الرشيد عن أربع مهائِر: أم جعفر، وأم محمد ابنة صالح، وعباسة ابنة سليمان، والعثمانية.

وولد للرشيد من الرّجال:

محمد الأكبر وأمّه زبيدة، وعبد الله المأمون وأمه أم ولديقال لهامراجل،والقاسم المؤتمن وأمّه أم ولد يقال لها

(١) سورة يس: ٢٢.

قصف، ومحمد أبو إسحاق المعتصم وأمه أم ولد يقال لها ماردة، وعليّ وأمه أمَة العزيز، وصالح وأمّه أم ولد يقال لها رئم، ومحمد أبو عيسى وأمه أم ولد يقال لها عرابة، ومحمد أبو يعقوب وأمه أم ولد يقال لها شذرة، ومحمد أبو العباس وأمه أم ولد يقال لها خُبْث، ومحمد أبو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رَواح، ومحمد أبو عليّ وأمّه أمّ ولد يقال لها دواج، ومحمد أبو أحمد وأمّه أم ولد يقال لها كِتْمان.

ومن النساء: سكينة وأمها قصِف وهي أخت القاسم، وأم حبيب وأمها ماردة وهي أخت أبي إسحاق المعتصم، وأروى أمها حَلوب، وأم الحسن وأمّها عِرابة، وأم محمد وهي حَمْدونة، وفاطمة وأمها غُصَص واسمها مصفّى، وأم أبيها وأمها سكّر، وأم سلمة وأمها رحيق، وخديجة وأمها شَجَر، وهي أخت كريب، وأم القاسم وأمها خزق، ورملة أم جعفر وأمها حَلْي، وأمّ علي أمها أنيق، وأم الغالية أمّها سَمَنْدَل، وريْطة وأمها زينة.

ذكر يعقوب بن إسحاق الأصفهانيّ، قال: قال المفضل بن محمد الضبيّ: وجّه إليّ الرشيد؛ فما علمت إلّا وقد جاءتني الرّسل ليلاً، فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فخرجت حتى صرت إليه؛ وذلك في يوم خميس؛ وإذا هو متّكىء ومحمد بن زبيدة عن يساره، والمأمون عن يمينه؛ فسلّمت، فأومأ إليّ فجلست، فقال لي: يا مفضّل، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال كم اسماً في: ﴿فَسَيَكفِيكَهُم﴾[1]؟ قلت: ثلاثة أسماء يا أميرَ المؤمنين، قال: وما هي؟ قلت: الكاف لرسول الله ﷺ، والهاء والميم، وهي للكفار، والياء وهي لله عزّ وجلّ. قال: صدقت؛ هكذا أفادنا هذا الشيخ ـ يعني الكسائيّ ـ ثم التفت إلى محمد، فقال له: أفهمت يا محمد؟ قال: نعم، قال: أعِدْ عليّ المسألة كما قال المفضّل، فأعادها، ثم التفت إليّ فقال: يا مفضّل، عندك مسألة تسألنا عنها بحضرة هذا الشيخ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ قال: وما هي؟ قلت: قول الفرزدق:

أَخَـذْنـا بـآفـاقِ السمـاءِ عـليكُـم لنـا قَمَـراهـا والنُّجـومُ الـطَّوالِـعُ

قال: هيهات أفادناها متقدّماً قبلك هذا الشيخ؛ لنا قمراها، يعني الشمس والقمر كما قالوا سنّة العمريْن: سنة أبي بكر وعمر، قال: قلت: فأزيد في السؤال؟ قال: زِدْ، قلت: فَلِم استحسنوا هذا؟ قال: لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد، وكان أحدهما أخفَّ على أفواه القائلين غلبّوه وسّمْوا به الآخر، فلما كانت أيام عمر أكثَر من أيام أبي بكر وفتوحُه أكثر واسمه أخفّ غلبّوه، وسموا أبا بكر باسمه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ﴾[2] وهو المشرق والمغرب. قلت: قد بقيت زيادة في المسألة! فالتفت إلى الكسائي فقال: يقال في هذا غير ما قلنا؟ قال: هذا أوفى ما قالوا، وتمام المعنى عند العرب. قال: ثم التفت إليّ فقال: ما الذي بقي؟ قلت: بقيت الغاية التي إليها أجرى الشاعر المفتخر في شعره، قال: وما هي؟ قلت: أراد بالشمس إبراهيم، وبالقمر محمداً ﷺ؛ وبالنجوم الخلفاء الراشدين من آبائك الصالحين. قال: فاشرأبّ أمير المؤمنين، وقال: يا فضل بن الربيع؛ احمل إليه مائة ألف درهم لقضاء دَيْنه، وانظر مَنْ بالباب من الشعراء فيؤذنَ لهم، فإذا العُمَانيّ ومنصور النّمَريّ، فأذن لهما، فقال: أدنِ مني الشيخ، فدنا منه وهو يقول:

---

(١) سورة البقرة: ١٣٧.

(٢) سورة الزخرف: ٣٨.

قـل لـلإمـامِ المقتـديَ بـأمِّـهِ ... مـا قـاسِـمٌ دون مَـدَى ابـنِ أمِّـهِ
فـقـد رَضِـيـنـاه فـقـم فَـسَـمِّـهِ

فقال الرشيد : ما ترضى أن تدعوَ إلى عقد البيعة له وأنا جالس حتى تنهضني قائماً ! قال : قيام عَزْم يا أمير المؤمنين ؛ لا قيام حتَمْ ، فقال : يؤتى بالقاسم ، فأتي به ، وطبطب في أرجوزته ، فقال الرشيد للقاسم : إنّ هذا الشيخ قد دعا إلى عَقْد البيعة لك ، فأجزِل له العطية ، فقال : حُكْم أمير المؤمنين، قال : وما أنا وذاك ! هات النمَريّ ، فدنا منه ، وأنشده :

مـا تَنقضِي حسـرةٌ مِنِّي ولا جَـزَعُ

- حتى بلغ -

مـا كـان أحسن أيـامَ الشبـابِ ومـا ... أبـقـى حـلاوة ذِكـرَاهُ الـتـي تَـدَعُ
مـا كنتُ أوفِي شَبـابي كنـهَ غُـرتِـه ... حتى مضى فـإذا الـدنيـا لـه تَبَـعُ

قال الرشيد : لا خير في دنيا لا يُخطَر فيها ببُرْد الشباب .

وذكر أن سعيد بن سلم الباهليّ دخل على الرشيد ، فسلّم عليه ، فأوما إليه الرشيد فجلس ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أعرابيٌّ من باهلة واقفٌ على باب أمير المؤمنين ؛ ما رأيت قطّ أشعرَ منه ، قال : أما أنك استبحت هذين - يعني العمَانيّ ومنصور النّمريّ ، وكانا حاضريه - نُهَبي لهما أحجارك ، قال : هما يا أميرَ المؤمنين يهباني لك ؛ فيؤذن للأعرابيّ ؟ فأذن له ، فإذا أعرابيّ في جُبّة خَزّ ، ورداء يمانٍ ، قد شدّ وسطه ثم ثناه على عاتقه ، وعمامة قد عَصَبها على خدّيه ، وأرخى لها عَذَبة ، فمثل بين يدي أمير المؤمنين ، وألقيت الكراسيّ ، فجلس الكسائيّ والمفضّل وابن سلْم والفضل بن الربيع ، فقال ابنُ سلْم للأعرابيّ : خذ في شَرَف أمير المؤمنين ، فاندفع الأعرابيّ في شعره ، فقال أمير المؤمنين : أسمعُك مستحسناً ، وأنكرك متّهماً عليك ؛ فإنْ يكن هذا الشعر لك وأنت قلته من نفسك ، فقل لنا في هذين بيتين - يعني محمداً والمأمون - وهما حفافاه فقال : يا أميرَ المؤمنين حمّلتني على القدر في غير الحذر روعةَ الخلافة ، وبهرَ البديهة ، ونفور القوافي عن الرّوية ، فيمهلني أمير المؤمنين ، يتألف إليّ نافراتها ، ويسكن رَوْعي ، قال : قد أمهلتك يا أعرابيّ ، وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين نفّست الخناق ، وسهّلت ميدان النفاق ، ثم أنشأ يقول :

هُمـا طُنُبَـاهـا بـارَكَ اللهُ فيهـمـا ... وأنـتَ أمِيـرَ الـمؤمـنيـنَ عـمـودُهـا
بَـنَيْـتَ بِعَـبْـدِ الـلهِ بَـعـدَ مُـحـمّـدٍ ... ذرَى قبَّـةِ الإسـلامِ فـاهتَـزَّ عُـودُها

فقال : وأنت يا أعرابيّ بارك الله فيك ؛ فسَلْنا ، ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، قال : الهُنيدة يا أميرَ المؤمنين ، قال : فتبسَّم أمير المؤمنين ، وأمر له بمائة ألف درهم وسبع خلَع .

وذُكر أنّ الرشيد قال لابنه القاسم - وقد دخل عليه قبل أن يبايع له : أنت للمأمون ببعض لحمك هذا ، قال : ببعض حظّه .

وقال القاسم يوماً قبل البيعة له : قد أوصيتُ الأمين والمأمون بكَ ، قال : أمّا أنت يا أمير المؤمنين فقد توليتَ النّظر لهما ، ووكلتَ النظر لي إلى غيرك .

وقال مصعب بن عبدالله الزّبيريّ : قدم الرّشيد مدينة الرسول ﷺ ومعه ابناه محمد الأمين وعبدالله المأمون ، فأعطى فيها العطايا وقسَّم في تلك السنة في رجالهم ونسائهم ثلاثة أعطية ؛ فكانت الثلاثة الأعطية التي قسمَها فيهم ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وفرض في تلك السنة لخمسمائة من وجوه موالي المدينة! ففرَض لبعضهم في الشَرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان ، ومخراق مولى بني تميم ، وكان يقرىء القرآن بالمدينة .

وقال إسحاق المولى : لما بايع الرشيد لولده ، كان فيمَنْ بايع عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير ، فلمّا قدم ليبايع ، قال :

لا قصَّراً عنها ولا بَلَغْتُهما ... حتى يطولَ على يديكَ طِوَالُها

فاستحسن الرشيد ما تمثّل ، وأجزل له صلته ، قال : والشعر لطُريح بن إسماعيل ، قاله في الوليد بن يزيد وفي ابنيه .

وقال أبو الشيص يرثي هارون الرشيد :

غَرَبَتْ في الشَّرقِ شمسٌ ... فلها عَيْنَانِ تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شَمساً ... غربت مِن حيثُ تَطلُعْ

وقال أبو نواس الحسن بن هانىء :

جَرَت جَوارٍ بالسَّعدِ والنحسِ ... فنحنُ في مأتمٍ وفي عُرْسِ
القلبُ يَبكي والسِّنُّ ضاحكَةٌ ... فنحن في وحْشَةٍ وفي أُنْسِ
يُضحكُنا القائمُ الأمينُ ويُبْـ ... ـكينا وَفاةُ الإمامِ بالأمْسِ
بَدْرانِ : بدر أضْحَى ببَغدادَ بالـ ... ـخُلدِ ، وبَدرٌ بطوسَ في رَمْسِ

وقيل : مات هارون الرشيد ، وفي بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيّف .

خلافة الأمين

وفي هذه السنة بويع لمحمد الأمين بن هارون بالخلافة في عسكر الرّشيد ، وعبدالله بن هارون المأمون يومئذ بمَرْو ، وكان - فيما ذكر - قد كتب حَمّوَيْه مولى المهديّ صاحب البريد بطُوسَ إلى أبي مسلم سلام ، مولاه وخليفته ببغداد على البريد ، والأخبار ، يعلمه وفاة الرشيد . فدخل على محمد فعزّاه وهنأه بالخلافة ، وكان أوّل الناس فعل ذلك ، ثم قدم عليه رجاء الخادم يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة ، كان صالح بن رشيد أرسله إليه بالخبر بذلك - وقيل : أتاه الخبر بذلك - ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة ، فأظهرَه يوم الجمعة ، وستر خبرَه بقيّة يومه وليلته ، وخاض الناس في أمره .

ولما قدم كتاب صالح على محمد الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد - وكان نازلاً في قصره بالخلد - تحوَّل إلى قصر أبي جعفر بالمدينة ، وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة ، فحضروا وصلى بهم ؛ فلما قضى صلاته صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ونعَى الرشيدَ إلى الناس ، وعزّى نفسه والناس ، ووعدهم خيراً ، وبسط الآمال ، وآمن الأسود والأبيض ، وبايعه جِلّة أهل بيته وخاصتّه ومواليه وقوّاده ، ثم دخل . ووكّل ببيعته على

مَنْ بقي منهم عمّ أبيه سليمان بن أبي جعفر ، فبايعهم ، وأمر السنديّ بمبايعة جميع الناس من القوّاد وسائر الجند ، وأمر للجند ممّن بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهراً ، وبخواصّ مَنْ كانت له خاصة بهذه الشهور .

وفي هذه السنة كان بدء اختلاف الحال بين الأمين محمد وأخيه المأمون ، وعزم كلّ واحد منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان والدهما هارون أخذ عليهما العمل به ، في الكتاب الذي ذكرنا أنه كان كتبه عليهما وبينهما .

ذكر الخبرَ عن السبب الذي كان أوجب اختلاف حالهما فيما ذكرت :

قال أبو جعفر : قد ذكرنا قبلُ أنّ الرشيد جدّد حين شخص إلى خُراسان البيعةَ للمأمون على القوّاد الذين معه ، وأشهد مَنْ معه من القوّاد وسائر الناس وغيرهم أنّ جميع مَنْ معه من الجند مضمومون إلى المأمون ، وأنّ جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون . فلما بلغ محمدَ بن هارون أنّ أباه قد اشتدّت علّتُه ، وأنه لمَابِه ، بعث مَنْ يأتيه بخبره في كلّ يوم ، وأرسل بكْرَ بن المعتمِر ، وكتب معه كتباً ، وجعلها في قوائم صناديق منقورة وألبسَها جلود البقر ، وقال : لا يظهرنّ أميرُ المؤمنين ولا أحدٌ ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهتَ فيه ، ولا ما معك ، ولو قُتِلتَ حتى يموت أميرُ المؤمنين ، فإذا مات فادفعْ إلى كلّ رجل منهم كتابه .

فلمّا قدِم بكر بن المعتمر طوسَ ، بلغ هارونَ قدومُه ، فدعا به ، فسأله : ما أقدمك ؟ قال : بعثني محمد لأعلم له علم خبرك وآتيه به ، قال : فهل معك كتاب ؟ قال : لا ، فأمر بما معه ففتّش فلم يصيبوا معه شيئاً ، فهدّده بالضرْب فلم يقرّ بشيء ، فأمر به فحُبس وقيِّد . فلما كان في الليلة التي مات فيها هارون أمر الفضل بن الربيع أن يصير إلى محبس بكر بن المعتمر فيقرّره ، فإن أقرّ وإلا ضرب عنقه ، فصار إليه ، فقرّره فلم يقرّ بشيء ، ثم غُشيَ على هارون ، فصاح النساء ، فأمسك الفضل عن قتله ، وصار إلى هارون ليحضره ، ثم أفاق هارون وهو ضعيف ، قد شغل عن بَكْر وعن غيره لحسّ الموت ، ثم غُشيَ عليه غشيةً ظنّوا أنها هي ، وارتفعت الضجة ، فبعث بكر بن المعتمر برقعة منه إلى الفضْل بن الربيع مع عبدالله بن أبي نُعيم ، يسأله ألا يعجلوا بأمر ، ويعلمه أنّ معه أشياء يحتاجون إلى علمها ـ وكان بكرٌ محبوساً عند حسين الخادم ـ فلما تُوفِّيَ هارون في الوقت الذي تُوفِّيَ فيه ، دعا الفضلَ بن الربيع ببكْر من ساعته ، فسأله عما عنده ، فأنكر أن يكون عنده شيء ، وخشيَ على نفسه من أن يكون هارون حيّاً ، حتى صحّ عنده موتُ هارون ، وأدخله عليه ، فأخبره أنّ عنده كتباً من أمير المؤمنين محمد ، وأنه لا يجوز له إخراجها ؛ وهو على حاله في قيوده وحبسه ؛ فامتنع حسين الخادم من إطلاقه حتى أطَلقه الفضل ؛ فأتاهم بالكتب التي عنده ، وكانت في قوائم المطابخ المجلّدة بجلود البقر ، فدفع إلى كلّ إنسان منهم كتابه . وكان في تلك الكتب كتاب من محمد بن هارون إلى حسين الخادم بخطِّه ، يأمره بتخلية بَكْر بن المعتمر وإطلاقه ، فدفعه إليه ، وكتاب إلى عبدالله المأمون ، فاحتبس كتاب المأمون عنده ليبعثه إلى المأمون بمَرْو ، وأرسلوا إلى صالح بن الرّشيد ـ وكان مع أبيه بطوس ، وذلك أنه كان أكبرَ من يحضر هارون من ولده ـ فأتاهم في تلك الساعة ، فسألهم عن أبيه هارون ، فأعلموه ، فجزع جزعاً شديداً ، ثم دفعوا إليه كتاب أخيه محمد الذي جاء به بكْر . وكان الذين حضروا وفاة هارون هُم الذين ولُوا أمَره وغَسْله وتجهيزه ، وصلى عليه ابنه صالح .

وكانت نسخة كتاب محمد إلى أخيه عبدالله المأمون :

إذا ورد عليك كتابُ أخيك ـ أعاذه الله من فقدك ـ عند حلول مالا مردَّ له ولا مدفَع مما قد أخلف وتناسخ في الأمم الخالية والقرون الماضية فعزِّ نفسك بما عزّاك الله به . واعلم إنّ الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين ، وأجزل الحظّيْن فقبضه الله طاهراً زاكياً ، قد شكر سعيَه ، وغفر ذنبه إن شاء الله . فقمْ في أمْرك قيام ذي الحزْم والعزْم ، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين . وإيّاك أنْ يغلب عليك الجزَع ، فإنه يُحبِط الأجْر ، ويُعقب الوزر . وصلوات الله على أمير المؤمنين حيّاً وميتاً . وإنا لله وإنا إليه راجعون ! وخُذ البَيْعة عمّن قِبَلك من قوّادك وجندك وخاصّتك وعامتّك لأخيك ثم لنفسك ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ؛ على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نَسْخها له وإثباتها ، فإنّك مقلّد من ذاك ما قلدك الله وخليفته . وأعلِمْ مَنْ قِبَلك رأيي في صلاحِهم وسدّ خَلّتِهم والتوسِعة عليهم ؛ فمن أنكرته عند بيعته أو اتّهمته على طاعته ، فابعث إليّ برأسه مع خبره . وإياك وإقالته ؛ فإنَّ النار أولى به . واكتب إلى عمّال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين ، وأعلمهم أنّ الله لم يرضَ الدّنيا له ثواباً حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته ، مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومُرهم أن يأخذوا البيعَة على أجنادهم وخواصّهم وعوامّهم على مثل ما أمرتُك به من أخذها على مَن قِبلَك وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم ، والقوّة على عدّوهم . وأعلمهم أنّي متفقد حالاتهم ولامٌّ شعثهم ، وموسِّع عليهم ، ولا تني في تقوية أجنادي وأنصاري ، ولتكنْ كتبك إليهم كتباً عامة ، لتُقرأ عليهم ؛ فإنّ في ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهَم . واعمل بما تأمر به لمن حَضَرك ، أو نأى عنك من أجنادك ؛ على حسب ما ترى وتشاهد ؛ فإن أخاك يعرف حسنَ اختيارك ، وصحّة رأيك ، وبعد نظرك ؛ وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشدّ بك عضده ، ويجمع بك أمره ؛ إنه لطيف لما يشاء .

وكتب بكر بن المعْتَمر بين يديّ وإملائي في شوال سنة ثنتين وتسعين مائة .

وإلى أخيه صالح :

بسم الله الرحمن الرحيم . إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سَبق في علم الله ونفذ من قضائه في خُلفائه وأوليائه ، وجرتْ به سنته في الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، فقل : ﴿ كلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكمُ وَإلَيْهِ تُرْجعون ﴾[1] ، فاحمدَوا الله ما صار إليه أمير المؤمنين من عظم ثوابه ومرافقة أنبيائه ، صلواتُ الله عليهم ، وإنا إليه راجعون . وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد ﷺ ، وقد كان لهم عصمةً وكهفاً ، وبهم رؤوفاً رحيماً ، فشمّر في أمرك ، وإياك أن تلقي بيدْيك ، فإنّ أخاك قد اختارك لما استنهضك له ، وهو متفقّد مواقع فقدانك ، فحقق ظنه ونسأل الله التوفيق . وخذ البيعة على من قِبَلَك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصتّه وعامتّه لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبدالله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين صلوات الله عليه من فسخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليُمن في الأخذ بعهده، والمضيّ على مناهجه. وأعْلِم مَنْ قِبَلك من الخاصّة والعامة رأيي في استصلاحهم، وردّ مظالمهم وتفقد حالاتهم، وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم، فإن شغَب شاغب، أو نَعَر ناعر، فاسطُ به سطوة تجعله نَكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين، واضمُم إلى الميمون ابن الميمون الفضْل بن الربيع

(١) سورة القصص : ٨٨ .

ولَد أمير المؤمنين وخدمه وأهله؛ ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه من جنده ورابطته، وصيِّر إلى عبدالله بن مالك أمر العسكر وأحداثه؛ فإنه ثقة على ما يلي، مقبول عند العامة، واضمُم إليه جميعَ جند الشُّرَط من الرّوابط وغيرهم إلى مَنْ معه من جنده، ومُرْه بالجِدّ والتيقظ وتقديم الحزم في أمره كله، ليله ونهاره، فإنّ أهل العداوة والنّفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة. وأقِرّ حاتم بن هرثمة على ما هو عليه، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصورَ أمير المؤمنين؛ فإنه ممّن لا يُعرف إلا بالطاعة، ولا يدين إلا بها بمعاقد من الله مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء. ومر الخدم بإحضار روابطهم ممّن يُسّد بهم وبأجنادهم مواضع الخَلَل من عسكرك؛ فإنهم حدّ من حدودك، وصيّر مقدّمتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد؛ وساقتك إلى يحيى بن معاذ، فيمن معه من الجنود، ومُرْهما بمناوبتك في كلّ ليلة، والزم الطريق الأعظم، ولا تَعدُوَنّ المراحل؛ فإن ذلك أرفق بك. ومر أسدَ بن يزيد أن يتخيَّر رجلاً من أهل بيته أو قوّاده، فيصير إلى مقدمته ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق؛ فإن لم يحضرك في عسكرك بعضُ من سَمّيتُ، فاخترْ لمواضعهم مَنْ تثق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوامّ، فإنّ ذلك لن يُعوِزَك من قوّادك وأنصارك إن شاء الله. وإيّاك أن تنفذ رأياً أو تُبرم أمراً إلا برأي شيْخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع، وأقرر جميعَ الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك، ولا تخرجنّ أحداً منهم من ضِمْن ما يلي إلى أن تُقدم عليّ.

وقد أوصيتُ بكر بن المعتمر بما سيبلِّغكه، واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى، وان أمرتَ لأهل العسكر بعطاء أو رزق، فليكن الفضل بن الربيع المتولِّيَ لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه؛ بمحضر من أصحاب الدواوين؛ فإنّ الفضل بن الربيع لم يزل يتقلّد مثل ذلك لمهمّات الأمور. وأنفذ إليّ عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بن صَبِيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد؛ ولا يكون لك عَرْجة ولا مُهلة بموضعك الذي أنت فيه حتى توجّه إليّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله. أخوك يستدفع الله عنْك، ويسأله لك حسن التأييد برحمته.

وكتب بكر بن المعتمر بين يديّ وإملائي في شوال سنة ثنتين وتسعين ومائة.

وخرج رجاء الخادم بالخاتم والقضيب والبُردة ـ وبنعيْ هارون حين دفن حتى قدم بغداد ليلة الخميس ـ وقيل يوم الأربعاء ـ فكان من الخبر ما قد ذكرت قبل.

وقيل إنّ نعيّ الرشيد لما ورد بغداد صعد إسحاق بن عيسى بن علي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أعظم الناس رزيئة، وأحسن الناس بقيّة رزؤنا، فإنه لم يُرزأ أحدٌ كرزئنا، فمن له مثل عوضنا! ثم نعاه إلى الناس، وحضّ الناس في الطاعة.

وذكر الحسن الحاجب أنّ الفضل بن سهل أخبره، قال: استقبل الرشيدَ وجوه أهل خُراسان، وفيهم الحسين بن مصعب. قال: ولقيني فقال لي: الرشيد ميّتٌ أحد هذين اليومين، وأمرُ محمد بن الرشيد ضعيف، والأمر أمر صاحبك؛ مُدّ يدك. فمدَّ يده فبايع للمأمون بالخلافة. قال: ثم أتاني بعد أيام ومعه الخليل بن هشام، فقال: هذا ابن أخي، وهو لك ثقة خذ بيعته.

وكان المأمون قد رحل من مَرْو إلى قصر خالد بن حماد على فرسخ من مَرْو يريد سَمرقند، وبأمر العبّاس بن المسيّب بإخراج الناس واللحوق بالعسكر، فمرّ به إسحاق الخادم ومعه نعيّ الرشيد، فغمّ العباس قدومه،

فوصل إلى المأمون فأخبره ، فرجع المأمون إلى مَرْو ، ودخل دار الإمارة ، دار أبي مسلم ، ونعى الرّشيد على المنبر ، وشقّ ثوبه ونزل ، وأمر للناس بمال ، وبايع لمحمد ولنفسه وأعطى الجند رزق اثني عشر شهراً .

قال : ولما قرأ الذين وردت عليهم كتبُ محمد بطُوس من القوّاد والجند وأولاد هارون ؛ تشاوروا في اللحاق بمحمد ، فقال الفضل بن الربيع : لا أدَعُ مُلْكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمِره ، وأمَر الناس بالرّحيل ، ففعلوا ذلك محبّةً منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون ، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون بمَرو ، فجمع مَنْ معه من قواد أبيه ، فكان معه منهم عبدالله بن مالك ، ويَحيى بن معاذ ، وشبيب بن حميد بن قحطبة ، والعلاء مولى هارون ، والعباس بن المسيّب بن زهير وهو على شرطته ، وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته ؛ وكان معه من أهل بيته عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ؛ وذو الرياستين ؛ وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصِّهم به ، فشاورهم وأخبرهم الخبر ، فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألفيْ فارس جَريدة ، فيردّهم ، وسُمِّيَ لذلك قوم ، فدخل عليه ذو الرياستين ، فقال له : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلتَ هؤلاء هديّة إلى محمّد ، ولكنّ الرأي أن تكتب إليهم كتاباً ، وتوجّه إليهم رسولاً ، فتذكّرهم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذّرهم الحنث ، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين . قال : قلت له : إن كتابك ورسلك تقوم مقامك ، فتستبرىء ما عند القوم ، وتوجّهُ سهل بن صاعد ـ وكان على قهرمته ـ فإنه يأمُلك ، ويرجو أن ينال أمله ، فلن يألوَك نصحاً ، وتوجّه نَوفلاً الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ـ وكان عاقلاً . فكتب كتاباً ، ووجّههما فلحقاهم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل .

فذكر الحسن بن أبي سعيد عن سهل بن صاعد ، أنه قال له : فأوصلت إلى الفضل بن الربيع كتابَه ، فقال لي : إنما أنا واحد منهم ، قال لي سهل : وشدّ عليّ عبدُ الرحمن بن جبلة بالرّمح ، فأمرّه على جنبي ، ثم قال لي : قل لصاحبك : والله لو كنتَ حاضراً لوضعت الرّمح في فيك . هذا جوابي .

قال : ونال من المأمون ، فرجعت بالخبر .

قال الفضل بن سهل : فقلت للمأمون : أعداء قد استرحتَ منهم ، ولكن افهم عني ما أقول لك ؛ إنّ هذه الدولة لم تكن قطّ أعزّ منها أيام أبي جعفر ، فخرج عليه المقنّع وهو يدّعي الربوبيّة ، وقال بعضهم : طلب بدم أبي مسلم ، فتضعضع العسكر بخروجه بخُراسان ، فكفاه الله المؤنة . ثم خرج بعده يوسف البَرْم وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفى الله المؤنة ، ثم خرج أستاذسيس يدعو إلى الكفر ، فسار المهديّ من الرّيّ إلى نيسابور فكُفِيَ المؤنة ، ولكن ما أصنع ! أكثر عليك ! أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتُهم اضطربوا اضطراباً شديداً ، قلت : وكيف بك وأنت نازل في أخوالك ، وبيعتك في أعناقهم ! كيف يكون اضطراب أهل بغداد ! اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ـ ووضعت يدي على صدري ـ قال : قد فعلتُ ، وجعلتُ الأمر إليك فقمْ به . قال : قلت : والله لأصدُقَنّك . إن عبدالله بن مالك ويحيى بن معاذ ومَنْ سمّينا من أمراء الرؤساء ، إن قاموا لك بالأمر كانوا أنفعَ مني لك برياستهم المشهورة ، ولما عندهم من القوة على الحرب ، فمن قام بالأمر كنتُ خادماً له حتى تصير إلى محبتّك ، وترى رأيك فيّ . فلقيتُهم في منازلهم ، وذكرتهم البَيْعة التي في أعناقهم وما يجب عليهم من الوفاء . قال : فكأني جئتُهم بجيفة علىَ طَبق ، فقال

بعضهم : هذا لا يحلّ ، اخرج ، وقال بعضهم : مَن الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ! فجئت فأخبرته ، قال : قم بالأمر ، قال : قلت : قد قرأتَ القرآن ، وسمعتَ الأحاديث ، وتفقهت في الدين ، فالرّأي أن تبعث إلى مَنْ بالحضرة من الفقهاء ، فتدعوهم إلى الحقّ والعمل به وإحياء السنة ، وتقعد على اللبّود ، وتردّ المظالم . ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء ، وأكرمنا القوّاد والملوك وأبناء الملوك ؛ فكنا نقول للتميمي : نُقيمك مقام موسى بن كعب ، وللرَّبعيّ : نقيمك مقام أبي داود خالد بن إبراهيم ، ولليمانيّ : نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم ؛ فكنا ندعو كلّ قبيلة إلى نقباء رءوسهم ، واستملنا الرؤوس ، وقلنا لهم مثل ذلك ، وحطْطنا عن خُراسان ربع الخراج ، فحسن موقع ذلك منهم ، وسُرّوا به ، وقالوا : ابن أختنا ، وابن عمّ النبي ﷺ .

قال علي بن إسحاق : لما أفضت الخلافة إلى محمد ، وهدأ الناس ببغداد ، أصبح صبيحة السبّت بعد بيعته بيوم ، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب ، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد :

بَنَى أَمِينُ اللهِ مَيدانَاً وصَيّرَ السّاحةَ بُستانَاً
وكانت الغزلانُ فيهِ بَانَاً يُهدَى إلَيْهِ فيهِ غِزلانَاً

وفي هذه السنة شخصت أمّ جعفر من الرّقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغير ذلك في شعبان ؛ فتلقاها ابنُها محمد الأمين بالأنبار في جميع مَنْ كان ببغداد من الوُجوه ، وأقام المأمون على ما كان يتولى من عمل خُراسان ونواحيها إلى الرّيّ ، وكاتب الأمين ، وأهدى إليه هدايا كثيرة ، وتواترت كتبُ المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طُرَف خُراسان من المتاع والآنية والمِسك والدوابّ والسلاح .

وفي هذه السنة دخل هَرْثمة حائط سَمَرْقند ، ولجأ رافع إلى المدينة ، وراسل رافع التُّرك فوافوْه ، فصار هرثمة بين رافع والترك ، ثم انصرف الترك ، فضعف رافع .

وقتل في هذه السنة نِقفْور ملك الروم في حرْب بُرْجان ، وكان ملكه ـ فيما قيل ـ سبع سنين ، وملك بعده إستبراق بن نِقْفور وهو مجروح ، فبقيَ شهرين ومات . وملك ميخائيل بن جورجس ختَنَه على أخته .

وحجّ بالناس في هذه السنة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ ، وكان والي مكة .

وأقرّ محمد بن هارون أخاه القاسم بن هارون في هذه السنة على ما كان أبوه هارون ولّاه من عمل الجزيرة ، واستعمل عليها خُزيمة بن خازم ، وأقرّ القاسم على قِنّسرين والعواصم .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مخالفة أهل حِمْص عاملهم إسحاق بن سليمان ، وكان محمّد ولاه إياها ، فلمّا خالفوه انتقل إلى سلمْيَة ، فصرفه محمد عنهم ، وولّى مكانه عبدالله بن سعيد الحَرَشيّ ومعه عافية بن سليمان ، فحبس عدّةً من وجوههم ، وضرب مدينتهم من نواحيها بالنار ، وسألوه الأمان فأجابهم ، وسكنوا ثم هاجوا ، فضرب أيضاً أعناق عدّة منهم .

وفيها عزل محمد أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولّاه من عمل الشأم وقِنّسرين والعواصم والثغور ، وولّى مكانه خزيمة بن خازم ، وأمره بالمقام بمدينة السلام .

وفي هذه السنة أمر محمد بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة ـ

وفيها مكَر كلّ واحد منهما بصاحبه : محمد الأمين وعبدالله المأمون ، وظهر بينهما الفساد .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

ذُكر أن الفضل بن الربيع فكّر بعد مقَدمه العراق على محمد منصرفاً عن طُوس ، وناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبدالله ، وعلم أنّ الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حيّ لم يُبْق عليه ، وكان في ظَفَره به عطبُه ، فسعى في إغراء محمد به ، وحثّه على خلعه ، وصرْف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ؛ ولم يكن ذلك من رأي محمّد ولا عزمه ، بل كان عزمه ـ فيما ذكر عنه ـ الوفاء لأخويه : عبدالله والقاسم ، بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط ، فلم يزل الفضل به يصغّر في عينه شأن المأمون ، ويزيّن له خلعه ؛ حتى قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبدالله والقاسم أخويك ! فإنّ البيعة كانت لك متقدمّة قبلهما ، وإنما أدخِلا فيها بعدك واحداً بعد واحد ، وأدخَل في ذلك رأيه معه عليّ بن عيسى بن ماهان والسنديّ وغيرَهما ممن بحضرته ؛ فأزال محمداً عن رأيه .

فأول ما بدا به محمد عن رأي الفضل بن الربيع فيما دبّر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمّال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدّعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد، فذكر الفضل بن إسحاق بن سليمان أنّ المأمون لما بلغه ما أمر به محمد من الدّعاء لابنه موسى وعزْله القاسم عمّا كان الرشيد ضمّ إليه من الأعمال وإقدامِه إيّاه مدينة السلام؛ علم أنه يدبّر عليه في خلعه، فقطع البريدَ عن محمد، وأسقط اسمه من الطّرز والضرّب .

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيّار لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله وإحسانه إليهم، بعث في طلب الأمان لنفسه، فسارع إلى ذلك هَرثمة وخرج رافع فلحق بالمأمون، وهرثمة بعدُ مقيم بسمَرْقند فأكرم المأمون رافعاً. وكان مع هَرْثمة في حصار رافع طاهر بن الحسين؛ فلمّا دخل رافع في الأمان، استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه، فعبر نهر بلْخ بعسكره والنهر جامد، فتلقّاه الناس، وولّاه المأمون الحرس. فأنكر ذلك كله محمد، فبدأ بالتّدبير على المأمون؛ فكان من التدبير أنه كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك - وهو عامِل المأمون على الرّيّ - وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الريّ - مريداً بذلك امتحانه - فبعث إليه ما أمره به، وكتم المأمون وذا الرياستين. فبلغ ذلك من أمره المأمون، فوجّه الحسن بن عليّ المأمونيّ وأردفه بالرستميّ على البريد، وعزل العباس بن عبد الله بن مالك؛ فذُكِر عن الرستميّ أنه لم ينزل عن دابته حتى اجتمع إليه ألف رجل من أهل الريّ.

ووجّه محمد إلى المأمون ثلاثة أنفس رسلاً: أحدهم العباس بن موسى بن عيسى، والآخر صالح صاحب المصلّى، والثالث محمد بن عيسى بن نهيك؛ وكتب معهم كتاباً إلى صاحب الرّيّ؛ أن استقبِلْهم بالعُدّة والسلاح الظاهر. وكتب إلى والي قُومِس ونَيْسابور وسَرَخسْ بمثل ذلك؛ ففعلوا. ثم وردت الرّسل مَرْو، وقد أعِدّ لهم من السلاح وضروب العُدد والعتاد، ثم صاروا إلى المأمون؛ فأبلغوه رسالة محمد بمسألته تقديمَ موسى على نفسه؛ ويذكر له أنه سمّاه الناطق بالحق؛ وكان الذي أشار عليه بذلك عليّ بن عيسى بن ماهان، وكان يخبره أن أهل خُراسان يطيعونه؛ فردّ المأمون ذلك وأباه.

قال: فقال لي ذو الرئاستين: قال العباس بن موسى بن عيسى بن موسى: وما عليك أيها الأمير من ذلك؛ فهذا جدّي عيسى بن موسى قد خُلِع فما ضرّه ذلك، قال: فصحْت به: اسكت، فإن جدّك كان في أيديهم أسيراً؛ وهذا بين أخواله وشيعته. قال: فانصرفوا، وأنزل كل واحد منهم منزلاً. قال ذو الرياستين: فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، فخلوت به فقلت: أيذهب عليك في فهمك وسنّك أن تأخذ بحظك من الإمام - وسُمّيَ المأمون في ذلك اليوم بالإمام ولم يسمّ بالخلافة، وكان سبب ما سُمّي به الإمام ما جاء من خَلْع محمد له، وقد كان محمد قال للذين أرسلهم: قد تسمّى المأمون بالإمام، فقال لي العباس: قد سميتموه الإمام! قال: قلت له: قد يكون إمام المسجد والقبيلة، فإن وفيتم لم يضرّكم، وإن غدرتم فهو ذاك. قال: ثمّ قلتُ للعباس: لك عندي ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصرْ ما شئت.

قال: فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة؛ فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار، ويشير علينا بالرأي.

قال: فأخبرني عليّ بن يحيى السَّرَخسيّ، قال: مرّ بي العباس بن موسى ذاهباً إلى مَرْو - وقد كنت وصفت له سيرة المأمون وحسن تدبير ذي الرياستين واحتماله الموضع، فلم يقبل ذلك مني - فلما رجع مرّ بي، فقلت له: كيف رأيت؟ قال: ذو الرياستين أكثر مما وصفت، فقلت: صافحتَ الإمام؟ قال: نعم، قلت: امسح يدك على رأسي. قال: ومضى القوم إلى محمّد فأخبروه بامتناعه، قال: فألحَّ الفضل بن الربيع وعليّ بن عيسى على محمد في البيْعة لابنه وخلْع المأمون، وأعطى الفضل الأموالَ حتى بايع لابنه موسى، وسمّاه الناطق بالحق، وأحضنه عليّ بن عيسى وولّاه العراق. قال: وكان أوّل من أخذ له البيعة بشر بن السّمَيدع الأزدّيّ، وكان والياً على بلد،

ثم أخذها صاحب مكة وصاحب المدينة على خواصّ من الناس قليل، دون العامة.

قال: ونهى الفضل بن الربيع عن ذكر عبد الله والقاسم والدّعاء لهما على شيء من المنابر، ودسّ لذكر عبد الله والوقيعة فيه، ووجّه إلى مكّة كتاباً مع رسولٍ من حَجَبة البيت يقال له محمد بن عبد الله بن عثمان بن طلحة في أخذ الكتابين اللذين كان هارون كتبهما، وجعلهما في الكعبة لعبد الله على محمد، فقدم بهما عليه، وتكلم في ذلك بقية الحَجَبة، فلم يحفل بهم، وخافوا على أنفسهم، فلما صار بالكتابين إلى محمد قبضهما منه، وأجازه بجائزة عظيمة، ومزّقهما وأبطلهما.

وكان محمد ـ فيما ذكر ـ كتب إلى المأمون قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يتجافى له عن كُور من كُور خراسان ـ سمّاها ـ وأن يوجّه العمال إليها من قِبَل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قِبله يولّيه البريد عليه ليكتب إليه بخبره. فلمّا ورد إلى المأمون الكتاب بذلك، كبُر ذلك عليه واشتدّ، فبعث إلى الفضل بن سهل وإلى أخيه الحسن، فشاورهما في ذلك، فقال الفضل: الأمر مُخْطِر، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة، ولهم تأنيس بالمشاورة، وفي قطع الأمر دونهم وَحْشة، وظهوره قلّة ثقة،فرأيُ الأمير في ذلك. وقال الحسن: كان يقال: شاور في طلب الرأي مَنْ تثق بنصيحته، وتألّف العدوّ فيما لا اكتتام له بمشاورته؛ فأحضر المأمون الخاصّة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعاً له: أيّها الأمير، تشاور في مخطر، فأجعل لبديهتنا حظّاً من الروّية، فقال المأمون: ذلك هو الحزم، وأجّلهم ثلاثاً، فلما اجتمعوا بعد ذلك، قال أحدهم: أيُّها الأمير، قد حُمِلتَ على كَرْهيْن، ولستُ أرى خطأ مدافعةً بمكروهِ أوّلها مخافة مكروه آخرهما. وقال آخر: كان يقال أيّها الأمير، أسعدك الله، إذا كان الأمر مُخْطِراً، فإعطاؤك مَنْ نازعك طرفاً من بُغيته أمثلُ من أن تصير بالمنع إلى مكاشفته. وقال آخر: إنه كان يقال: إذا كان علمُ الأمور مغيَّباً عنك، فخذ ما أمكنك من هُدْنة يومك؛ فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعاً بفساد غدِك. وقال آخر: لئن خيفتْ للبذل عاقبَة، إن أشدّ منها لَمَا يَبْعث الإباء من الفرقة. وقال آخر: لا أرى مفارقة منزلة سلامةٍ؛ فلعلّي أعطى معها العافية. فقال الحسن: فقد وجب حقُّكم باجتهادكم؛ وإن كنتُ من الرأي على مخالفتكم، فقال له المأمون: فناظِرْهم، قال: لذلك ما كان الاجتماع. وأقبل الحسن عليهم، فقال: هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا: نعم؛ ويُحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منْعه. قال: فهل تثقون بكفه بعد إعطائه إيّاها، فلا يتجاوز بالطلب إلى غيرها؟ قالوا: لا، ولعل سلامة تقع من دون ما يُخاف ويُتَوقع. قال: فإن تجاوز بعدها بالمسألة؛ أفما تروْنه قد توهّن بما بذل منها في نفسه! قالوا: ندفع ما يعرِض له في عاقبة بمدافعة محذور في عاجلة! قال: فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا: استصلْح عاقبةَ أمرِك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدنَة يومك بإخطار أدخلتَه على نفسك في غدك. قال المأمون للفضل: ما تقول فيما اختلفوا فيه؟ قال: أيّها الأمير، أسعدك الله، هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوّتك ليستظهر بها عليك غداً على مخالفتك! وهل يصير الحازم إلى فضلةٍ مَنْ عاجل الدّعة بخَطر يتعرّض له في عاقبةٍ؛ بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم. فقال المأمون: بل بإيثار العاجلة صارَ من صار إلى فساد العاقبة في أمر دنيا أو أمر آخرة. قال القوم: قد قلنا بمبلغ الرأي؛ والله يؤيد الأمير بالتوفيق. فقال: اكتب يا فضلُ إليه، فكتب:

قد بلغني كتاب أمير المؤمنين يسألني التجافيَ عن مواضعَ سمّاها مما أثبته الرّشيد في العَقْد، وجعل أمره

إليّ، وما أمرٌ رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره؛ غير أنّ الذي جعل إليّ الطّرْف الذي أنابه، لا ظنين في النّظر لعامته، ولا جاهل بما أسنِد إليّ من أمره، ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنتُ على الحال التي أنا عليها من إشراف عدوٍّ مخوف الشوكة، وعامّة لا تُتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتُها إلاّ بالأموال وطَرَف من الإفضال - لكان في نظر أمير المؤمنين لعامتّه وما يحبّ من لمِّ أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته، وأن يستصلحه ببَذل كثير من ماله؛ فكيف بمسألة ما أوجبه الحقّ، ووكّد به مأخوذ العهد! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمتُ لم يُطلع بمسألة ما كتب بمسألته إليّ. ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قد وجّه حارسَة إلى الحدّ، فلا يجوز رسول من العِراق حتى يوجّهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يؤثر أثراً، ولا يستتبع بالرّغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً. فحصر أهل خراسان من أن يُستمالوا برغبة، أو أن تُودع صدورهم رهبة، أو يحمَلوا على منزل خلاف أو مفارقة. ثم وضع على مراصد الطرق ثقاتٍ من الحرّاس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظِّنَّة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه، أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه، ومُنع الأشتاتات من جواز السُّبل والقَطْع بالمتاجر والوُغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة، وفُتِّشَت الكتُب.

وكان - فيما ذكر - أوّل مَنْ أقبل من قِبَل محمد مناظراً في منعه ما كان سأل جماعة، وإنما وُجِّهوا ليعْلَم أنهم قد عاينوا وسمعوا، ثم يلتمس منهم أن يبذلوا أو يحرموا فيكون مما قالوا حجة يحتجّ بها، أو ذريعة إلى ما التمس منها. فلما صاروا إلى حدّ الريّ، وجدوا تدبيراً مؤيّداً، وعَقْداً مستحصداً متأكداً، وأخذتهم الأحراس من جوانبهم، فحفظوا في حال ظعنهم وإقامتهم من أن يخبِروا أو يستخبَروا، وكُتب بخبرهم من مكانهم، فجاء الإذن في حملهم فحمِلوا محروسين؛ لا خبرَ يصل إليهم، ولا خبر يتطلع منهم إلى غيرهم؛ وقد كانوا مُعَدِّين لبثّ الخبر في العامة وإظهار الحجةِ بالمفارقة والدعاء لأهل القوّة إلى المخالفة؛ يبذلون الأموال، ويضمنون لهم معظم الولايات والقطائع والمنازل؛ فوجدوا جميع ذلك ممنوعاً محسوماً؛ حتى صاروا إلى باب المأمون.

وكان الكتاب النافذ معهم إلى المأمون.

أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين الرّشيد وإن كان أفردك بالطّرْف، وضمّ ما ضمّ إليك من كُور الجبل؛ تأييداً لأمرك، وتحصيناً لطرفك، فإنّ ذلك لا يُوجب لك فضلة المال عن كفايتك. وقد كان هذا الطّرْف وخراجه كافياً لحدثه، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من ردّه؛ وقد ضمّ لك إلى الطرْف كوراً من أمّهات كَوَر الأموال لا حاجة لك فيها، فالحقّ فيها أن تكون مردودةً في أهلها، ومواضع حقها. فكتبت إليك أسألك ردّ تلك الكوَر إلى ما كانت عليه من حالها؛ لتَكون فضول ردّها مصروفة إلى مواضعها؛ وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدّي إلينا علْم ما نُعنَى به من خبر طرْفك؛ فكتبتَ تلطّ دون ذلك بما إن تمّ أمرُك عليه صيَّرنا الحق إلى مطالبتك؛ فاثن عن همك اثن عن مطالبتك، إن شاء الله.

فلمّا قرأ المأمون الكتاب كتب مجيباً له:

أما بعد؛ فقد بلغني كتابُ أمير المؤمنين، ولْم يكتب فيما جهل فأكشفَ له عن وجهه، ولْم يسأل ما يوجبه حقّ فيلزمني الحجة بترك إجابته؛ وإنما يتجاوز المتناظران منزلة النصفة ما ضاقت النّصفة عن أهلها؛ فمتى تجاوز

متجاوز ـ وهي موجودة الوسع ـ ولم يكن تجاوُزها إلّا عن نقضها واحتمال ما في تركها؛ فلا تبعثني يابن أبي على مخالفتك وأنا مذعِنٌ بطاعتك، ولا على قطيعتك. وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك، وارْضَ بما حكم بهالحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك. والسلام.

ثم أحضر الرّسل، فقال: إنّ أمير المؤمنين كتب في أمرٍ كتبتُ له في جوابِه، فأبلغوه الكتاب، وأعلموه أني لا أزال على طاعته؛ حتى يضطرني بترك الحقّ الواجب إلى مخالفته. فذهبوا يقولون، فقال: قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم، وأحسنوا تأدية ما سمعتم؛ فقد أبلغتمونا من كتابنا ما عسى أن تقولوه لنا. فانصرف الرسل ولم يُثبتوا لأنفسهم حجة، ولم يحملوا خبراً يؤدونه إلى صاحبهم، ورأوا جدّاً غير مشوب بهزل، في منع ما لَهُم من حقهم الواقع ـ بزعمهم.

فلما وصل كتاب المأمون إلى محمد وصل منه ما فظع به، وتخمط غيظاً بما تردّد منه في سمعه، وأمر عند ذلك بما ذكرناه من الإمساك عن الدّعاء له على المنابر؛ وكتب إليه:

أما بعد؛ فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكّن لك من ظلها، متعرّضاً لحِراق نار لا قِبَلَ لك بها، ولَحَظّك عن الطاعة كان أودع لك؛ وإن كان قد تقدّم مني متقدّم؛ فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيّتك؛ وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلام، ويثبت لك من حال الهُدْنة؛ فأعلمني رأيَك أعمل عليه. إن شاء الله.

وذكر سهل بن هارون عن الحسن بن سهل، أنّ المأمون قال لذي الرياستين: إن ولدي وأهلي ومالي الذي أفرده الرّشيد لي بحضرة محمد ـ وهو مائة ألف ألف ـ وأنا إليها محتاج، وهي قِبَله فما ترى في ذلك؟ وراجعه في ذلك مراراً. فقال له ذو الرياستين: أيّها الأمير، بك حاجة إلى فضلة مالك؛ وأن يكون أهلك في دارك وجنابك؛ وإن أنت كتبتَ فيه كتاب عزمة فمنعك صار إلى خلع عهده؛ فإن فعل حَمَلك ولو بالكُرْه على محاربته؛ وأنا أكره أن تكون المستفتح باب الفُرْقة ما أرتجه الله دونك؛ ولكن تكتب كتاب طالب لحقِّك، وتوجيه أهلك على ما لا يوجب عليه المنعُ نكثاً لعهدك؛ فإن أطاع فنعمة وعافية؛ وإن أبَى لم تكن بعثتَ على نفسك حرباً أو مشاقة فاكتب إليه، فكتب عنه:

أما بعد؛ فإن نظر أمير المؤمنين للعامة نظرُ من لا يقتصر عنه على إعطاء النَّصَفة من نفسه حتى يتجاوزَها إليهم ببرّه وصلته؛ وإذا كان ذلك رأيه في عامتّه؛ فأحْرِ بأن يكون على مجاوزة ذلك بصنوه وقسيم نسبه؛ فقد تعلم يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها من ثغور حللتُ بين لهواتها، وأجناد لا تزال موقنة بنشر غيِّها وبنكث آرائها، وقلة الخَرْج قِبَلي، والأهل والولد قِبَل أُمير المؤمنين، وما للأهل ـ وإن كانوا في كفاية من برّ أمير المؤمنين، فكان لهم والداً ـ بُدّ من الإشراف والنزوع إلى كنفي، ومالي بالمال من القوّة والظهير على لمّ الشعث بحضرتي، وقد وجّهتُ لحمل العيال وحمل ذلك المال؛ فرأى أمير المؤمنين في إجازة فلان إلى الرّقة في حمْل ذلك المال، والأمر بمعونته عليه، غير محرِج له فيه إلى ضيقة تقع بمخالفته، أو حامل له على رأي يكون على غير موافقة. والسلام.

فكتب إليه محمد:

أما بعد؛ فقد بلغني كتابُك بما ذكرتَ ممّا عليه رأيُ أمير المؤمنين في عامتّه فضلاً عما يجب من حقّ لذي حُرمته وخلِيط نفسه، ومحلِّك بين لهوات ثغور، وحاجتِك لمحلك بينها إلى فَضْلة من المال لتأييد أمرك؛ والمال

الذي سُمِّيَ لك من مال الله، وتوجيهك مَنْ وجّهت في حمله وحمل أهلك من قِبَل أمير المؤمنين. ولعمْري ما ينكر أمير المؤمنين رأياً هو عليه مما ذكرت لعامته، يوجب عليه من حقوق أقربيه وعامته. وبه إلى ذلك المال الذي ذكرتَ حاجة في تحصين أمور المسلمين؛ فكان أوْلى به إجراؤه منه على فرائضه، وردُّه على مواضع حقه؛ وليس بخارج من نفعك ما عاد بنفع العامة من رعيّتك. وأما ما ذكرتَ من حمْل أهلك؛ فإنّ رأيَ أمير المؤمنين تولّي أمرهم؛ وإن كنتَ بالمكان الذي أنت به من حقّ القرابة. ولم أر من حملهم على سفرهم مثل الذي رأيت من تعريضهم بالسفر للتشتت؛ وإنْ أرَ ذلك من قِبَلي أوجّهْهم أليك مع الثقة من رسلي إن شاء الله. والسلام.

قال: ولما ورد الكتاب على المأمون، قال: لاطٌّ دون حقنا يريد أن نتوهّن مما يمنع من قوّتنا، ثم يتمكن للوهنة من الفُرْصة في مخالفتنا. فقال له ذو الرياستين: أوَ ليس من المعلوم دفعُ الرشيد ذلك المال إلى الأمين لجمعه، وقبضُ الأمين إياه على أعين الملإ من عامته؛ على أنه يحرسه قِنْيةً، فهو لا ينزع إليها؛ فلا تأخذ عليه مضايقَها، وأمْلِ له ما لم تضطرك جريرتُه إلى مكاشفته بها؛ والرأي لزوم عُروة الثقة، وحسمُ الفرقة فإن أمسك فبنعمة وإن تطلّع إليها فقد تعرّض لله بالمخالفة، وتعرّضت منه بالإمساك للتأييد والمعونة.

قال: وعلم المأمون والفضل أنه سيحدث بعد كتابه من الحدث ما يحتاج إلى لَمِّه، ومن الخبر ما يحتاج أن يباشره بالثِّقة من أصحابه، وأنه لا يُحدث في ذلك حدثاً دون مواطأة رجال النّباهة والأقدار من الشِّيعة وأهل السابقة؛ فرأى أن يختار رجلاً يكتب معه إلى أعيان أهل العسْكر من بغداد؛ فإن أحدث محمد خلعاً للمأمون صار إلى دفعها، وتلطف لعلْم حالات أهلها؛ وإن لم يفعل من ذلك شيئاً خَنس في حُقته، وأمسك عن إيصالها، وتقدم إليه في التعجيل.

ولما قدم أوصل الكتب، وكان كتابه مع الرسول الذي وجهه لعلم الخبر:

أما بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين كأعضاء البدن، يحدث العلّة في بعضها؛ فيكون كرْه ذلك مؤلماً لجميعها؛ وكذلك الحدَث في المسلمين، يكون في بعضهم فيصل كُرْه ذلك إلى سائرهم؛ للذي يجمعهم من شريعة دينهم، ويلزمهم من حرمة أخوّتهم، ثم ذلك من الأئمة أعظم للمكان الذي به الأئمة من سائر أممهم؛ وقد كان من الخبر ما لا أحسِبه إلّا سيعرب عن محنته، ويُسِفر عمّا استتر من وجهه؛ وما اختلف مختلفان فكان أحدهما مع أمر الله إلا كان أوّل معونة المسلمين وموالاتهم في ذات الله؛ وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع؛ وبحيث إن قلت أذن لقولك؛ وإن لم تجد للقول مساغاً فأمسكت عن مخوف أقتدِي فيه بك؛ ولن يضيع عليّ الله ثواب الإحسان مع ما يجب علينا بالإحسان من حقك، ولحظٌّ حاز لك النصيبين أو أحدهما أمثلُ من الإشراف لأحد الحظّيْن، مع التعرّض لعدمهما، فأكتب إليّ برأيك، وأعلم ذلك لرسولي ليؤديه إليّ عنك. إن شاء الله.

وكتب إلى رجال النباهة من أهل العسكر بمثل ذلك.

قال: فوافق قدوم الرسول بغداد ما أمر به من الكفّ عن الدعاء للمأمون في الخطبة يوم الجمعة، وكان بمكان الثقة من كلّ من كتب إليه معه؛ فمنهم من أمسك عن الجواب وأعرب للرسول عمّا في نفسه، ومنهم من أجاب عن كتابه؛ فكتب أحدهم:

أما بعد فقد بلغني كتابُك وللحقّ برهان يدلّ على نفسه تَثبت به الحجّة على كلّ من صار إلى مفارقته؛ وكفَى غبناً بإضاعة حظّ من حظ العاقبة؛ لمأمولٍ من حظّ عاجلة، وأبيَن من الغَبْن إضاعة حظّ عاقبة مع

التعرّض للنكبة والوقائع؛ ولي من العلم بمواضع حظّي ما أرجو أن يحسن معه النظر مني لنفسي، ويضع عني مؤنة استزادتي. إن شاء الله.

قال: وكتب الرّسول المتوجّه إلى بغداد إلى المأمون وذي الرياستين:

أما بعد، فإني وافيتُ البلدة، وقد أعلن خليطك بتنكّره، وقدّم علماً من اعتراضه ومفارقته وأمسك عمّا كان يجب ذكره وتوفيته بحضرته؛ ودفعت كتبك فوجدت أكثر الناس ولاة السرير ونفاة العلانية، ووجدت المشرفين بالرعية لا يحوطون إلّا عنها ولا يبالون ما احتملوا فيها؛ والمنازع مختلج الرّأي، لا يجد دافعاً منه عن همّه، ولا راغباً في عامه، والمحلون بأنفسهم يحلون تمام الحدث؛ ليسلموا مِنْ منهزم حدثهم، والقوم على جدّ، ولا تجعلوا للتواني في أمركم نصيباً إن شاء الله والسلام.

قال: ولما قدم على محمد من معسكر المأمون سعيد بن مالك بن قادم وعبد الله بن حميد بن قحطبة والعباس بن الليث مولى أمير المؤمنين ومنصور بن أبي مطر وكثير بن قادرة، ألطفهم وقرّبهم، وأمر لمن كان قبض منهم السّتّة الأشهر برزق اثني عشر شهراً، وزادهم في الخاصة والعامة، ولمن لم يقبضها بثمانية عشر شهراً.

قال: ولما عزم محمد على خلع المأمون دعا يحيى بن سُليم فشاوره في ذلك، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك مع ما قَدْ وكّد الرشيد من بَيْعته، وتوثّق بها من عهده، والأخذ للإيمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه! فقال له محمد: إنّ رأيَ الرشيد كان فلتةً شبّهها عليه جعفر بن يحيى بسحره، واستماله برُقاه وعُقَده، فغرس لنا غَرْسا مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعة، ولا تستقيم لنا الأمور ألا باجتثاثِه والراحة منه. فقال: أما إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعَه، فلا يُجاهره مجاهرةً فيستنكرها الناس، ويستشنعها العامة؛ ولكن تستدعي الجندَ بعد الجند والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتفرّق ثقاته ومَنْ معه، وترغبّهم بالأموال، وتستميلهم بالأطماع؛ فإذا أوهنتَ قوّته، واستفرغتَ رجاله، أمرتَه بالقدوم عليك؛ فإن قدم صار إلى الذي تريد منه؛ وإن أبى كنت قد تناوَلته وقد كلّ حده وهيض جناحُه، وضعف ركنُه وانقطع عزّه. فقال محمد: ما قَطع أمراً كصريمة، أنت مِهذار خطيب، ولستَ بذي رأي، فزُلْ عن هذا الرأي إلى الشَيخ الموَفَق والوزير الناصح؛ قُمْ فالحق بمدادك وأقلامك؛ قال يحيى: فقلت: غضب يشوبه صدق ونصيحة، أشرت إلى رأي يخلطه غش وجهل. قال: فوالله ما ذهبت الأيامُ حتى ذكر كلامه، وقرّعه بخطئه وخرقه.

قال سهل بن هارون: وقد كان الفضل بن سهل دسّ قوماً اختارهم ممّن يثق به من القوّاد والوجوه ببغداد ليكاتبوه بالأخبار يوماً يوماً، فلما همّ محمد بخلع المأمون، بعث الفضل بن الربيع إلى أحد هؤلاء الرّجال يشاوره فيما يرى من ذلك، فعظّم الرجلُ عليه أمر نقض العهد للمأمون، وقبّح الغدر به، فقال له الفضل: صدقت؛ ولكن عبد الله قد أحدث الحدث الذي وجب به نقض ما أخذ الرّشيد له. قال: أفتثبتُ الحجة عند العوامّ بمعلوم حَدثِه كما تثبت الحجّة بما جدد من عهده! قال: لا، قال: أفحدثٌ هذا منكم يوجب عند العامة نقضَ عهدكم ما لم يكن حدثه معلوماً يجب به فَسْخ عهده! قال: نعم، قال الرجل ـ ورفع صوته: بالله ما رأيتُ كاليوم رأيَ رجل يرتاد به النظر، يشاور في رفع ملك في يده بالحجة ثم يصير إلى مطالبته بالعناد والمغالبة! قال: فأطرق الفضل مليّاً، ثم قال: صدقتَني الرأي، واحتملت ثقل الأمانة؛ ولكن أخبرني إن نحن أغمضنا من قالة العامّة ووجدنا مساعدين من شيعتنا وأجنادنا، فما القول؟ قال: أصلحك الله، وهل أجنادك إلّا من عامّتك في أخذ

بيعتهم وتمكن برهان الحق في قلوبهم! أفليسوا وإن أعطوْك ظاهر طاعة هم مع ما تأكد من وثائق العهد في معارفهم؛ قال: فإن أعطونا بذلك الطاعة قال: لا طاعة دون أن تكون على تثبت من البصائر. قال: نرغّبهم بتشريف حظوظهم، قال: إذاً يصيروا إلى التقبّل، ثم إلى خذلانك عند حاجتك إلى مناصحتهم. قال: فما ظنك بأجناد عبد الله؟ قال: قوم على بصيرة من أمرِهم لتقدّم بيعتهم وما يتعاهدون من حظّهم، قال: فما ظنُّك بعامتهم؟ قال: قوم كانوا في بلوى عظيمة من تحيف ولاتهم في أموالهم، ثم في أنفسهم صاروا به إلى الأمنية من المال والرفاغة في المعيشة، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم، ويتذكرون بليةً لا يأمنون العودة إليها. قال: فهل من سبيل إلى استفساد عظماء البلاد عليه؛ لتكون محاربتنا إياه بالمكيدة من ناحيته، لا بالزخرف نحوه لمناجزته! قال: أما الضعفاء فقد صاروا له إلباً لما نالوا به من الأمان والنَّصفة، وأما ذوو القوة فلم يجدوا مطعناً ولا موضع حجة، والضعفاء السواد الأكثر. قال: ما أراك أبقيت لنا موضع رأي في اعتزالك إلى أجنادنا، ولا تمكّن النظر في ناحيته باحتيالنا، ثم أشدّ من ذلك ما قلتَ به وَهنة أجنادنا وقوةأجناده في مخالفته. وما تسخو نفس أمير المؤمنين بترك ما لا يعرف من حقه، ولا نفسي بالهدنة مع تقدمٍ جرى في أمره، وربما أقبلت الأمور مشرفةً بالمخافة، ثم تكشف عن الفُلْج والدرك في العاقبة. ثم تفرقا.

قال: وكان الفضل بن الربيع أخذ بالمراصد لئلا تجاوز الكتب الحد؛ فكتب الرسول مع امرأة، وجعل الكتاب وديعةً في عُودٍ منقور من أعواد الأكاف، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر؛ وكانت المرأة تمضي على المسالح كالمجتازة من القرية إلى القرية، لا تُهاج ولا تفتّش. وجاء الخبر إلى المأمون موافقاً لسائر ما ورد عليه من الكتب، قد شهد بعضها ببعض، فقال لذي الرياستين: هذه أمور قد كان الرأي أخبر عن عيبها، ثم هذه طوالع تخبر عن أواخرها، وكفانا أن نكون مع الحقّ، ولعل كرهاً يسوق خيراً.

قال: وكان أوّل ما دبره الفضل بن سهل بعد ترك الدعاء للمأمون وصحة الخبر به، أن جَمع الأجناد التي كان أعدّها بجنبات الريّ مع أجناد قد كان مكنها فيها، وأجناد للقيام بأمرهم؛ وكانت البلاد أجدبت بحضرتهم؛ فأعدَّ لهم من الحمولة ما يحمل إليهم من كل فجّ وسبيل؛ حتى ما فقدوا شيئاً احتاجوا إليه، وأقاموا بالحدّ لا يتجاوزونه ولا يطلقون يداً بسوء في عامدٍ ولا مجتاز. ثم أشخص طاهر بن الحسين فيمَنْ ضمّ إليه من قواده وأجناده، فسار طاهر مغذّاً لا يلوي على شيء، حتى ورد الرّي، فنزلها ووكّل بأطرافها، ووضع مسالحه، وبثّ عيونه وطلائعه، فقال بعض شعراء خراسان:

رمَى أَهلَ العراقِ ومَنْ عليها ... إمامُ العَدْلِ والملكُ الرشيدُ
بأَحْزَمِ مَنْ مَشَى رَأْياً وحَزْماً ... وَكَيْداً نافذاً فيما يَكِيدُ
بِداهِيَةٍ نَآدٍ خنفقيقٍ ... يَشيبُ لهوْلِ صَوْلَتِها الوَليدُ

وذُكر أن محمداً وجّه عِصمة بن حماد بن سالم إلى هَمَذان في ألف رجل، وولاّه حرب كُوَر الجبل، وأمره بالمقام بهمَذان، وأن يوّجه مقدمته إلى ساوة، واستخلف أخاه عبد الرحمن بن حماد على الحَرَس، وجعل الفضلُ بن الربيع وعليّ بن عيسى يلهّبان محمداً، ويبعثانه على خلع المأمون والبَيْعة لابنه موسى.

وفي هذه السنة عَقَد محمد بن هارون في شهر ربيع الأول لابنه موسى على جميع ما استخلفه عليه، وجعل صاحب أمره كلّه عليّ بن عيسى بن ماهان، وعلى شُرَطه محمد بن عيسى بن نهيك، وعلى حرسه عثمان بن

عيسى بن نهيك، وعلى خراجه عبد الله بن عبيدة وعلى ديوان رسائله عليّ بن صالح صاحب المصلى.

وفي هذه السنة وثب الروم على ميخائيل صاحب الرّوم فهرب وترهب، وكان ملكه سنتين فيما قيل.

وفيها ملك على الروم ليون القائد.

وفيها صرف محمد بن هارون إسحاق بن سليمان عن حِمْص، وولّاها عبد الله بن سعيد الحرَشيّ، ومعه عافية بن سليمان، فقتل عدّة من وجوههم، وحبس عدة، وحرق مدينتهم من نواحيها بالنار، فسألوه الأمان، فأجابهم فسكنوا ثم هاجوا، فضرب أعناق عِدّة منهم.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من أمر محمد بن هارون بإسقاط ما كان ضرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان في سنة أربع وتسعين ومائة، لأن المأمون كان أمر ألا يُثبت فيها اسم محمّد، وكان يقال لتلك الدنانير والدراهم الرّباعية، وكانت لا تجوز حيناً.

وفيها نهى الأمين عن الدعاء على المنابر في عمله كلّه للمأمون والقاسم، وأمر بالدعاء له عليها ثم من بعده لابنه موسى، وذلك في صفر من هذه السنة، وابنه موسى يومئذ طفل صغير، فسمّاه الناطق بالحق، وكان ما فعل من ذلك عن رأي الفضل بن الربيع، فقال في ذلك بعض الشعراء:

أضاعَ الخلافةَ غِشُّ الوزيرِ ... وَفِسْقُ الأمِيرِ، وجَهْلُ المشِيرْ
فَفَضْلٌ وزيرٌ، وبَكْرٌ مشِيرٌ ... يُريدانِ ما فيه حتفُ الأميرْ

فبلغ ذلك المأمون، فتسمى بإمام الهدى، وكوتب بذلك.

عقد الإمرة لعليّ بن عيسى

وفيها عقد محمد لعليّ بن عيسى بن ماهان يوم الأربعاء لليلة خَلَتْ من شهر ربيع الآخر على كُور الجبل كلها: نهاوند وهَمذان وقمّ وأصْفهان، حربها وخراجها، وضمّ إليه جماعة من القوّاد وأمر له - فيما ذكر - بمائتي ألف دينار، ولولده بخمسين ألف دينار، وأعطى الجند مالا عظيماً، وأمر له من السيوف المحلاّة بألفي سيف وستة آلاف ثوب للخِلَع، وأحضر محمد أهل بيته ومواليه وقوّاده المقصورة بالشمّاسية يوم الجمعة لثمانٍ خلوْن من جمادى الآخرة، فصلى محمد الجمعة، ودخل وجلس لهم ابنه موسى في المحراب، ومعه الفضل بن الربيع وجميع مَنْ أحضر، فقرأ عليهم كتاباً من الأمين يعلمهم رأيه فيهم وحقه عليهم، وما سبق لهم من البيعة متقدّماً مفرداً بها، ولزوم ذلك لهم، وما أحدث عبد الله من التسميّ بالإمامة، والدّعاء إلى نفسه، وقطْع ذكره في دور الضرب والطُّرز؛ وأنّ ما أحدث من ذلك ليس له؛ ولا ما يدَّعي من الشروط التي شُرطت له بجائزة له. وحثهم على طاعته، والتمسك ببيعته. وقام سعيد بن الفضل الخطيب بعد قراءة الكتاب، فعارض ما في الكتاب بتصديقه والقول بمثله. ثم تكلم الفضل بن الربيع وهو جالس، فبالغ في القول وأكثر، وذكر أنه لا حقّ لأحد في الإمامة والخلافة إلا لأمير المؤمنين محمد الأمين؛ وأنّ الله لم يجعل لعبد الله ولا لغيره في ذلك حظّا له ولا نصيباً. فلم يتكلم أحد من أهل بيت محمد ولا غيرهم بشيء إلّا محمد بن عيسى بن نهيك ونفر من وجوه الحرَس. وقال الفضل بن الربيع في كلامه: إنّ الأمير موسى بن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشِرَ أهل خُراسان من صُلْب ماله

بثلاثة آلاف ألف درهم تقسم بينكم. ثم انصرف الناس، وأقبل عليّ بن عيسى على محمد يخبره أنّ أهل خُراسان كتبوا إليه يذكرون أنه إن خرج هو أطاعوه وانقادوا معه.

وفيها شخص عليّ بن عيسى إلى الرّيّ إلى حرب المأمون.

ذكر الخبر عن شخوصه إليها وما كان من أمره في شخوصه ذلك:

ذكر الفضل بن إسحاق، أن عليّ بن عيسى شخص من مدينة السلام عشيّة الجمعة لخمس عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة، شخص عشيّة تلك فيما بين صلاة الجمعة إلى صلاة العصر إلى معسكره بنهربين؛ فأقام فيه في زُهاء أربعين ألفاً، وحمل معه قيد فضة ليقيّد به المأمون بزعمه، وشخص معه محمد الأمين إلى النّهروان يوم الأحد لستٍّ بقين من جمادى الآخرة، فعرض بها الذين ضُمّوا إلى عليّ بن عيسى، ثم أقام بقية يومه ذلك بالنّهروان، ثم انصرف إلى مدينة السلام وأقام عليّ بن عيسى بالنّهروان ثلاثة أيام، ثم شخص إلى ما وُجِّه له مسرعاً حتى نزل هَمَذان، فولّى عليها عبد الله بن حميد بن قَحطبة. وقد كان محمد كتب إلى عصمة بن حمّاد بالانصراف في خاصة أصحابه وضمّ بقية العسكر وما فيه من الأموال وغير ذلك إلى عليّ بن عيسى، وكتب إلى أبي دلف القاسم بن عيسى بالانضمام إليه فيمن معه من أصحابه، ووجّه معه هلال بن عبد الله الحضرميّ، وأمر له بالفَرْض، ثم عقد لعبد الرحمن بن جبلة الأبناويّ على الدّينَور، وأمره بالسير في بقية أصحابه، ووجّه معه ألفي ألف درهم حملت إليه قبل ذلك، ثم شخص عليّ بن عيسى من هَمَذان يريد الرّيّ قبل ورود عبد الرحمن عليه، فسار حتى بلغ الرّيّ على تعبئة، فلقيه طاهر بن الحسين وهو في أقل من أربعة آلاف - وقيل كان في ثلاثة آلاف وثمانمائة - وخرج من عسكر طاهر ثلاثة أنفس إلى عليّ بن عيسى يتقرّبون إليه بذلك، فسألهم: مَن هم؟ ومِن أيّ البلدان هم؟ فأخبره أحدهم أنه كان من جند عيسى أبيه الذي قتله رافع. قال: فأنت من جندِي! فأمر به فضُرب مائتي سوط، واستخفّ بالرجلين. وانتهى الخبر إلى أصحاب طاهر، فازدادوا جدًّا في محاربته ونفوراً منه.

فذكر أحمد بن هشام أنه لم يكن وَرَد عليهم الكتاب من المأمون، بأن تسمى بالخلافة، إذ التقيا - وكان أحمد على شُرْطة طاهر - فقلت لطاهر: قد ورد عليّ بن عيسى فيمن ترى، فإن ظهرنا له؛ فقال: أنا عامل أمير المؤمنين وأقررْنا له بذلك، لم يكن لنا أن نحاربه. فقال لي طاهر: لم يجئني في هذا شيء، فقلت: دَعْني وما أريد، قال: شأنَك، قال: فصعدت المنبر، فخلعت محمداً، ودعوت للمأمون بالخلافة، وسرنا من يومنا أو من غد يوم السبت، وكان ذلك في شعبان سنة خمس وتسعين ومائة، فنزلنا قَسْطَانَة، وهي أوّل مرحلة من الرّيّ إلى العراق. وانتهى عليّ بن عيسى إلى برّيّة يقال لها مشكويه، وبيننا وبينه سبعة فراسخ، وجعلنا مقدمتنا على فرسخين من جنده. وكان عليّ بن عيسى ظنّ أن طاهراً إذا رآه يسلم إليه العمل؛ فلما رأى الجدّ منه، قال: هذا موضع مفازة، وليس موضع مقام. فأخذ يساره إلى رُستاق يقال له رستاق بني الرازيّ؛ وكان معنا الأتراك، فنزلنا على نهر، ونزل قريباً منا، وكان بيننا وبينه دكادك وجبال؛ فلمّا كان في آخر الليل جاءني رجل فأخبرني أن عليّ بن عيسى دخل الرّيّ - وقد كان كاتَبهم فأجابوه - فخرجتُ معه إلى الطريق، فقلت له: هذا طريقهم؛ وما هنا أثر حافر، وما يدلّ على أنه سار. وجئت إلى طاهر فأنبهته، فقلت له: تصلي؟ قال: نعم، فدعا بماء فتهيأ، فقلت له: الخبر كيت وكيت. وأصبحنا، فقال لي: تركب فوقفنا على الطريق، فقال لي: هل لك أن تجوز هذه

الدكادك؟ فأشرفنا على عسكر عليّ بن عيسى وهم يلبسون السلاح، فقال: ارجع، أخطأنا؛ فرجعنا فقال لي: أخرج أصحابنا.

قال: فدعوت المأمونيّ والحسن بن يونس المحاربيّ والرستميّ، فخرجوا جميعاً؛ فكان على الميمنة المأمونيّ، وعلى الميسرة الرستميّ ومحمد بن مصعب. قال: وأقبل عليّ في جيشه؛ فامتلأت الصحراء بياضاً وصُفرة من السلاح والمذهب، وجعل على ميمنته الحسين بن عليّ ومعه أبو دُلف القاسم بن عيسى بن إدريس، وعلى ميسرته آخر، وكرُّوا، فهزمونا حتى دخلوا العسكر، فخرج إليهم الساعة السَّوْءاء فهزموهم.

قال: وقال طاهر لما رأى عليّ بن عيسى: هذا ما لا قِبَل لنا به، ولكن نجعلها خارجيَّة، فقصد قصد القلب، فجمع سبعمائة رجل من الخوارزميّة؛ فيهم ميكائيل وسبسل وداود سياه.

قال أحمد بن هشام: قلنا لطاهر: نذكّر عليّ بن عيسى البيعة التي كانت، والبيعة التي أخذها هو للمأمون خاصّة على معاشر أهل خُراسان، فقال: نعم؛ قال: فعلّقناهما على رُمْحين، وقمت بين الصفين، فقلت: الأمان! لا ترمونا ولا نرميكم؛ فقال عليّ بن عيسى: ذلك لك، فقلت: يا عليّ بن عيسى، ألا تتقي الله! أليس هذه نسخة البيعة التي أخذَتها أنت خاصّة! اتقّ الله فقد بلغتَ باب قبرِك، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: أحمد بن هشام ـ وقد كان عليّ بن عيسى ضربه أربعمائة سوط ـ فصاح عليّ بن عيسى: يا أهلَ خُراسان، مَنْ جاء به فله ألف درهم. قال: وكان معنا قوم بخاريّة، فرموْه، وقالوا: نقتلك ونأخذ مالَك: وخرج من عسكره العباس بن اللّيْث مولى المهديّ، وخرج رجل يقال له حاتم الطائيّ، فشدّ عليه طاهر، وشدّ يديْه على مقبض السيف، فضربه فصرعه فقتله، وشدّ داود سياه على عليّ بن عيسى فصرعه؛ وهو لا يعرفه. وكان عليّ بن عيسى على بِرذَون أرْحَل، حمله عليه محمد ـ وذلك يُكرَه في الحرب ويدلّ على الهزيمة ـ قال: فقال داود: « ناري اسنان كتبتم ». قال: فقال طاهر الصغير ـ وهو طاهر بن التاجيّ: عليّ بن عيسى أنت؟ قال: نعم، أنا عليّ بن عيسى، وظن أنه يُهاب فلا يقدَم عليه أحد، فشدّ عليه فذبحه بالسيف. ونازعهم محمد بن مقاتل بن صالح الرّأس، فنتف محمد خُصلة من لحيته، فذهب بها إلى طاهر وبشرّه؛ وكانت ضربةُ طاهر هي الفتح، فسمّي يومئذ ذا اليمينين بذلك السبب لأنه أخذ السيف بيديه جميعاً. وتناول أصحابُه النشاب ليرمونا، فلم أعلم بقتل عليّ حتى قيل: قتِل والله الأمير. فتبعناهم فرسخينْ، وواقفونا اثني عشرة مرّة، كلّ ذلك نهزمهم؛ فلحقني طاهر بن التاجيّ، ومعه رأس عليّ بن عيسى؛ وكان آلى أن ينصب رأس أحمد عند المنبر الذي خَلَع عليه محمد، وقد كان عليّ أمر أن يهيأ له الغداء بالرّيّ. قال: فانصرفتُ فوجدت عيْبَةَ عليّ فيها دراعة وجبّة وغُلالة، فلبستها، وصلّيت ركعتين شكراً لله تبارك وتعالى. ووجدنا في عسكره سبعمائة كيس؛ في كل كيس ألف درهم، ووجدنا عدّة بغال عليها صناديق في أيدي أولئك البخارية الذين شتموه، وظنّوا أنه مال؛ فكسروا الصناديق؛ فإذا فيها خمر سواديّ، وأقبلوا يفرّقون القنانيّ، وقالوا: علمنا الجدّ حتى نشرَب.

قال أحمد بن هشام: وجئت إلى مضرب طاهر، وقد اغتمّ لتأخري عنه، فقال: لي البُشرى! هذه خصلة من لحية عليّ، فقلت له: البشرى! هذا رأس عليّ. قال: فأعتق طاهر مَنْ كان بحضرته من غلمانه شكراً لله، ثم جاؤوا بعليّ وقد شد الأعوان يديه إلى رجليه، فحمِل على خشبة كما يحمل الحمار الميّت وأمر به فلفَّ في لِبْد وألقي في بئر. قال: وكتب إلى ذي الرياستين بالخبر.

قال: فسارت الخريطة وبين مَرْو وذلك الموضع نحو من خمسين ومائتي فرسخ؛ ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، ووردت عليهم يوم الأحد.

قال: ذو الرياستين: كنا قد وجّهنا هَرْثمة، واحتشدنا في السلاح مدداً، وسار في ذلك اليوم، وشيّعه المأمون فقلت للمأمون: لا تبرح، حتى يسلَّم عليك بالخلافة فقد وجبت لك، ولا نأمن أن يقال: يصلح بين الأخوين، فإذا سلم عليك بالخلافة لم يمكن أن ترجع. فتقدمت أنا وهرثمة والحسن بن سهل، فسلمنا عليه بالخلافة، وتبادر شيعة المأمون، فرجعت وأنا كالّ تَعِب لم أنمْ ثلاثة أيام في جهاز هرثمة، فقال لي الخادم: هذا عبد الرحمن بن مدرك ـ وكان يلي البريد، ونحن نتوقع الخريطة لنا أو علينا ـ فدخل وسكت، قلت: ويلك! ما وراءك؟ قال: الفتح؛ فإذا كتاب طاهر إليّ: أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل مَنْ يشنؤك فداءك؛ كتبت إليك ورأس عليّ بن عيسى بين يديّ، وخاتمه في أصبعي؛ والحمد لله رب العالمين. فوثبت إلى دار أمير المؤمنين، فلحقني الغلام بالسّواد، فدخلت على المأمون فبشّرته، وقرأت عليه الكتاب، فأمر بإحضار أهل بيته والقوّاد ووجوه الناس، فدخلوا فسلّموا عليه بالخلافة، ثم ورد رأس عليّ يوم الثلاثاء، فطِيف به في خراسان.

وذكر الحسن بن أبي سعيد، قال: عقدنا لطاهر سنة أربع وتسعين ومائة فاتصل عقده إلى الساعة.

وذكر محمد بن يحيى بن عبد الملك النّيسابوريّ، قال: لما جاء نعيّ عليّ بن عيسى وقتله إلى محمد بن زُبيدة ـ وكان في وقته ذلك على الشطّ يصيد السمك ـ فقال للذي أخبره: ويلك! دعني؛ فإن كوثراً قد اصطاد سمكتيْن وأنا ما اصطدت شيئاً بعد. قال: وكان بعض أهل الحسد يقول: ظنّ طاهر أنّ عليًّا يعلو عليه، وقال: متى يقوم طاهر لحرب عليّ مع كثرة جيشه وطاعة أهل خراسان له! فلما قتِل عليّ تضاءل، وقال: والله لو لقيه طاهر وحدَه لقاتله في جيشه حتى يغلب أو يقتَل دونه.

وقال رجل من أصحاب عليّ له بأس ونجدة في قتل عليّ ولقاء طاهر:

لقِينـا الليثَ مُفتَـرِساً لـدَيـهِ ... وكنّـا مـا يُنَهْنِهُنـا الـلقـاءُ
نَخوضُ المـوتَ والغمَـراتِ قِدْماً ... إذا مـا كَـرَّ لـيس بـهِ خـفـاءُ
فضعضـعَ ركبَنـا لمَّـا الـتقَينـا ... وراحَ المـوتُ وانكَـشفَ الـغِـطاءُ
وأردَى كَـبْـشَـنـا والـرأسَ مِـنّـا ... كـأنَّ بِـكَـفِّـهِ كـانَ الـقـضـاءُ

ولما انتهى الخبر بقتل عليّ بن عيسى إلى محمد والفضل، بعث إلى نوفل خادم المأمون ـ وكان وكيل المأمون ببغداد وخازنه، وقيّمه في أهله وولده وضياعه وأمواله ـ عن لسان محمد، فأخذ منه الألف ألف درهم التي كان الرّشيد وصل بها المأمون، وقبض ضياعه وغلاّته بالسواد، وولّى عُمّالا من قبَله، ووجّه عبد الرحمن الأبناوي بالقوّة والعُدّة فنزل هَمَذان.

وذكر بعض من سمع عبد الله بن خازم عند ذلك يقول: يريد محمد إزالة الجبال وفلّ العساكر بتدبيره والمنكوس من تظهيره، هيهات! هو والله كما قال الأوّل:

قـد ضَيَّـعَ اللهُ ذوداً أنت راعـيهـا

ولما بايع محمد لابنه موسى ووجّه عليّ بن عيسى، قال الشاعر من أهل بغداد في ذلك لمّا رأى تشاغُلَ محمد بلهوه وبطالته وتخليته عن تدبير عليّ والفضل بن الربيع:

أضاعَ الخِلافَةَ غِشُّ الوَزِير ... وَفِسْقُ الإمامِ وَجَهْلُ المشِيرْ؟
فَفضلٌ وَزيرٌ، وَبكرٌ مشيرٌ ... يُريدانِ ما فيه حتْفُ الأمِيرْ
وما ذاك إلَّا طَرِيقُ غُرُورٍ ... وشَرُّ المَسالِكِ طُرْقُ الغُرور
لِوَاطُ الخليفةِ أعجوبةٌ ... وأعجَبُ منه خَلاقُ الوزيرْ
فهذا يَدُوسُ وهذا يُدَاسُ ... كذاكَ لَعَمْري اختلافُ الأُمورْ
فلو يَسْتَعينان هذا بذاك ... لكانا بعُرْضَةِ أمرٍ سَتِيرْ
ولكنَّ ذا لَجَّ في كَوْثَرٍ ... ولَمْ يَشْفِ هذا دُعاسُ الحميرْ
فَشُنِّعَ فِعْلاهما منهما ... وصارَا خِلافاً كَبَوْلِ البعيرْ
وأعجَبُ مِنْ ذا وَذا أنَّنا ... نُبايِعُ للطِّفلِ فينا الصغيرْ
ومَن لَيْس يُحسِنُ غُسْلَ استِهِ ... ولم يَخلُ من بَوْلِه حِجْرُ ظِيرْ
وما ذاك إلا بفضلٍ وَبكرٍ ... يُريدَانِ نَقضَ الكِتابِ المنيرْ
وهذانِ لولا انقلابُ الزَّمانِ ... أفِي العيرِ هذانِ أم في النفيرْ
ولكنَّها فِتَنٌ كالجبالِ ... تَرفَّعَ فيها الوضيعُ الحقيرْ
فَصَبراً ففي الصبرِ خيرٌ كثيرٌ ... وإن كان قد ضاق صدْرُ الصَّبُورْ
فيارَبِّ فاقبضْهُما عاجلاً ... إليكَ وأوردهم عذابَ السعيرْ
وَنَكِّلْ بفَضلٍ وأشياعِهِ ... وصَلِّبْهُمُ حولَ هذِي الجُسُورْ

وذكر أن محمداً لما بعث إلى المأمون في البيعة لابنه موسى، ووجه الرّسل إليه في ذلك، كتب المأمون جواب كتابه:

أما بعد، فقد انتهى إليَّ كتاب أمير المؤمنين منكراً لإبائي منزلة تَهَضَّمني بها، وأرادني على خلاف ما يعلم من الحقّ فيها، ولعمري أن لو ردّ أمير المؤمنين الأمر إلى النّصَفة فلم يطالب إلاّ بها، ولم يوجب نكرة على تركها، لانبسطت بالحجة مطالعُ مقالته؛ ولكنتُ محجوباً بمفارقة ما يجب من طاعته؛ فأما وأنا مذعنٌ بها وهو على ترك إعمالها، فأولى به أن يُديرَ الحقّ في أمره، ثم يأخذ به، ويعطي من نفسه؛ فإن صرتُ إلى الحقّ فرّغتُ عن قلبه؛ وإن أبَيتُ الحقّ قام الحقّ بمعذرته. وأما ما وعد من برّ بطاعته، وأوعَدَ من الوطأة بمخالفته، فهل أحدٌ فارق الحق في فعله فأبقى للمستبين موضع ثِقة بقوله! والسلام.

قال: وكتب إلى عليّ بن عيسى لما بلغه ما عزم عليه:

أما بعد؛ فإنك في ظلّ دعوة لم تزل أنت وسلَفُك بمكان ذبٍّ عن حريمها؛ وعلى العناية بحفظها ورعاية حقها، توجبون ذلك لأئمتكم، وتَعتصمون بحبل جماعتكم، وتعطون بالطّاعة من أنفسكم، وتكونون يداً على أهل مخالفتكم، وحزباً وأعواناً لأهل موافقتكم، تؤثرونهم على الآباء والأبناء، وتتصرّفونَ فيما تصرّفوا فيه من منزلة شديدة ورجاء. لا ترون شيئاً أبلغ في صلاحكم من الأمر الجامع لألفتكم؛ ولا أحرى لبواركم مما دعا إلى

شتات كلمتكم، ترون مَنْ رغب عن ذلك جائراً عن القَصْد وعن أمّه على منهاج الحق، ثم كنتم على أولئك سيوفاً من سيوف نقِمَ الله، فكم من أولئك قد صاروا وديعة مَسْبَعة، وجَزَراً جامدة؛ قد سَفَت الرياحُ في وجهه، تداعتِ السباعُ إلى مَصْرعه، غير ممهد ولا موسّد قد صار إلى أمة، غير عاجل حظه، ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك؛ بحيث أنزلتم أنفسكم، من الثقة بكم في أمورها، والتقدّمة في آثارها؛ وأنت مستشعر دون كثير من ثقاتها وخاصّتها؛ حتى بلغ الله بك في نفسك أنْ كنت قريع أهل دعوتك، والعلم القائم بمعظم أمر أئمتك؛ إن قلت: ادنوا دنوْا وإن أشرتَ: أقبلوا أقبَلوا وإن أمسكت وقفُوا وأقرّوا، وثاماً لك واستنصاحاً، وتزدادُ نعمة مع الزّيادة في نفسك، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك، حتى حللتَ المحلّ الذي قرُبتَ به من يومك، وانقرض فيما دونه أكثرُ مدّتك، لا يُنتظر بعدها إلاّ ما يكون ختامَ عَملك من خير فيُرضَى ما تقدّم من صالح فعلك؛ أو خلاف فيضلّ له متقدّم سعيك؛ وقد ترى يا أبا يحيى حالاً عليها جلوتَ أهل نعمتك، والولاة القائمة بحقّ إمامتك؛ من طعن في عُقدة كنتَ القائم بشدّها، وختر بعهود توليت معاقد أخذها؛ يُبدأ فيها بالأخصّين، حتى أفضى الأمر إلى العامَّة من المسلمين، بالأيمان المحرّجة والمواثيق المؤكدة. وما طلع مما يدعو إلى نشر كلمة، وتفريق أمر أمة وشتّ أمر جماعة، وتتعرّض به لتبديل نعمة وزوال ما وطأت الأسلافُ من الأئمة؛ ومتى زالتْ نعمة من ولاة أمركم وَصَل زوالها إليكم في خواصّ أنفسكم؛ ولن يغيِّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. وليس الساعي في نشرها بِساعٍ فيها على نفسه دون السعْي على حَمَلتها، القائمين بحُرْمتها؛ قد عرّضوهم أن يكونوا جَزَراً لأعدائهم، وطُعْمةً قوم تتظفر مخالبهم في دمائهم ومكانك المكان الذي إن قلتَ رُجع إلى قولك، وإن أشرتَ لم تُتّهم في نصيحتك؛ ، ولك مع إيثار الحقّ الحظوة عند أهل الحقّ. ولا سواءٌ من حَظِيَ بعاجل مع فراق الحقّ فأوبقَ نفسه في عاقبته، ومَنْ أعان الحقّ فأدرك به صلاح العاقبة؛ مع وفور الحظّ في عاجِلته، وليس لك ما تُسْتَدْعى ولا عليه ما تُستعْطَف؛ ولكنه حقّ من حقّ أحسابك يجب ثوابه على ربّك، ثم على مَنْ قمت بالحقّ فيه من أهل إمامتك؛ فإن أعجزَك قول أو فعل فصر إلى الدّار التي تأمن فيها على نفسك، وتحكم فيها برأيك، وتنحاز إلى مَنْ يحسن تقبُّلا لصالح فعلك، ويكون مرجعَك إلى عقدك وأموالك؛ ولك بذلك الله، وكفى بالله وكيلا. وإن تعذّر ذلك بقيّة على نفسك، فإمساكاً بيدك، وقولاً بحقّ، ما لم تخف وقوعه بكُرْهك؛ فلعلّ مقتدياً بك، ومغتبطاً بنهيك. ثم أعْلمْني رأيك أعرفه إن شاء الله.

قال: فأتى عليّ بالكتاب إلى محمد، فشبّ أهل النكث من الكُفاة من تلهيبه، وأوقدوا نيرانه، وأعان على ذلك حُميّا قُدرته، وتساقط طبيعتِه، وردّ الرأي إلى الفضل بن الربيع لقيامِه كان بمكانفته.

وكانت كُتبُ ذي الرياستين ترد إلى الدّسيس الذي كان يشاوره في أمره: إن أبى القوم إلا عزمة الخلاف؛ فألطف لأن يجعلوا أمرَه لعليّ بن عيسى. وإنّما خصّ ذو الرياستين عليًّا بذلك لسوء أثرِه في أهل خُراسان، واجتماع رأيهم على ما كرهه؛ وإنّ العامة قائلة بحربه. فشاور الفضل الدّسيس الذي كان يشاوره، فقال: عليّ بن عيسى إن فعل فلم ترمهم بمثله، في بعد صوبه وسخاوة نفسه، ومكانه في بلاد خُراسان في طول ولايته عليهم وكثرة صنائعه فيهم، ثم هو شيخُ الدعوة وبقية أهل المشايعة؛ فأجْمعوا على توجيه عليّ؛ فكان من توجيهه ما كان. وكان يجتمع للمأمون بتوجيه عليّ جندان: أجنادُه الذين يحاربه بهم، والعامة من أهل خُراسان حرْب عليه لسوء أثره فيهم؛ وذلك رأي يكثر الأخطار به إلا في صدور رجال ضعاف الرّأي لحال عليّ في نفسه، وما تقدّم له ولسَلَفِه؛ فكان ما كان من أمره ومقتله.

وذكر سهل أن عمرو بن حفص مولى محمد قال: دخلت على محمد في جوف الليل ـ وكنت من خاصّته أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحدٌ من مواليه وحشمه ـ فوجدته والشمع بين يديه، وهو يفكّر، فسلّمت عليه فلم يردّ عليّ، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره، فلم أزلْ واقفاً على رأسه حتى مضى أكثرُ الليل، ثم رفع رأسه إليّ، فقال: أحضرني عبدالله بن خازم، فمضيت إلى عبدالله، فأحضرته، فلم يزل في مناظرته حتى انقضى الليل، فسمعت عبدَالله وهو يقول: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تكون أوّل الخلفاء نكثَ عهدَه، ونقض ميثاقَه، واستخفّ بيمينه، وردّ رأي الخليفة قبله! فقال: اسكت، لله أبوك! فعبد الملك كان أفضلَ منك رأياً، وأكمل نظراً؛ حيث يقول: لا يجتمع فحلان في هَجمة. قال عمرو بن حفص: وسمعت محمداً يقول للفضل بن الربيع: ويلك يا فضل! لا حياة مع بقاء عبدالله وتعرّضه؛ ولا بدّ من خَلْعه، والفضل يعينه على ذلك، ويعده أن يفعل؛ وهو يقول: فمتى ذلك! إذا غلب على خراسان وما يليها!

وذكر بعضُ خدم محمد أن محمداً لما همّ بخلع المأمون والبَيْعة لابنه؛ جمع وُجوه القوّاد؛ فكان يعرض عليهم واحداً واحداً، فيأبَوْنه؛ وربما ساعده قومٌ حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم؛ فشاوره في ذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ لم ينصحْك مَن كذبك ولم يغشّك مَنْ صدّقك، لا تجرّىء القوادَ على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإنّ الغادر مخذول، والناكث مفلول. وأقبل عليّ بن عيسى بن ماهان، فتبسم محمد، ثم قال: لكن شيخ هذه الدعوة، وناب هذه الدولة لا يخالف على إمامه، ولا يوهِن طاعتَه، ثم رفعه إلى موضع لم أره رفعه إليه فيما مضى؛ فيقال: إنه أوّل القوّاد أجاب إلى خلْع عبدالله، وتابع محمداً على رأيه.

قال أبو جعفر: ولما عزم محمد على خَلْع عبد الله، قال له الفضل بن الربيع: ألا تُعذِر إليه يا أميرَ المؤمنين فإنه أخوك؛ ولعله يسلم هذا الأمر في عافية، فتكون قد كُفِيت مؤونته، وسلِمْت من محاربته ومعاندته! قال: فأفعل ماذا؟ قال: تكتب إليه كتاباً، تستطيب به نفسَه، وتسكّن وحشته، وتسأله الصَّفْح لك عمّا في يده؛ فإنّ ذلك أبلغُ في التدبير، وأحسن في القالَة من مكاثرته بالجنود، ومعالجته بالكيد. فقال له: أعمل في ظنك برأيك. فلما حضر إسماعيل بن صُبَيح للكتاب إلى عبد الله قال: يا أميرَ المؤمنين، إن مسألتك الصَّفْح عما في يديه توليد للظنّ، وتقوية للتهمة، ومدعاة للحَذر؛ ولكن أكتب إليه فأعلِمْه حاجتَك إليه، وما تحبّ من قربه والاستعانة برأيه، وسلْه القدوم إليك؛ فإن ذلك أبلغُ وأحْرَى أن يبلغ فيما يوجب طاعَته وإجابته. فقال الفضل: القول ما قال يا أمير المؤمنين، قال: فليكتب بما رأى، قال: فكتب إليه:

من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين. أما بعد، فإن أميرَ المؤمنين روّى في أمرك، والموضع الذي أنت فيه من ثغره، وما يؤمّل في قربك من المعاونة والمكانفة على ما حمّله الله، وقلّده من أمور عباده وبلاده؛ وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرّشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير إليك منها، فرجا أمير المؤمنين ألاّ يدخل عليه وكْفٌ في دينه، ولا نَكْث في يمينه؛ إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله. وعلم أمير المؤمنين أنّ مكانك بالقُرْب منه أسدّ للثغور، وأصلح للجنود، وآكد للفيء، وأردّ على العامة من مقامك ببلاد خُراسان منقطعاً عن أهل بيتك، متغيباً عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرِك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يولّيَ موسى ابن أمير لمؤمنين فيما

يقلده من خلافتِك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك. فاقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أملٍ وأفسح رجاء وأحمد عاقبة، وأنفذ بصيرة؛ فإنك أوْلى مَن استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه من صلاح أهل ملّته وذمته. والسلام.

ودفع الكتاب إلى العبّاس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ، وإلى عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى صالح صاحب المصلّى، وأمرهم أن يتوجّهوا به إلى عبد الله المأمون، وألا يدَعوا وجهاً من اللين والرّفق إلا بلغوه، وسهلوا الأمر عليه فيه، وحمّل بعضهم الأموالَ والألطاف والهدايا؛ وذلك في سنة أربع وتسعين ومائة. فتوجهوا بكتابه، فلما وصلوا إلى عبد الله، أذن لهم، فدفعوا إليه كتاب محمد، وما كان بعث به معهم من الأموال والألطاف والهدايا.

ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الأمير؛ إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلا، وقد صدقتْ نيّته في الخير، فأعوزه الوزراء والأعوان والكُفاة في العدل؛ وقليلٌ ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه؛ وقد فزع إليك في أموره، وأمّلك للموازرة والمكانفة؛ ولسنا نستبطئك في برّه اتّهاماً لنصرك له، ولا نحضّك على طاعة تخوّفاً لخلافك عليه، وفي قدومك عليه أنسٌ عظيم، وصلاح لدولته وسلطانه؛ فأجب أيّها الأمير دعوةَ أخيك وآثِرْ طاعَته، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره؛ فإن في ذلك قضاءَ الحقّ، وصلة الرّحِم، وصلاحَ الدولة، وعزّ الخلافة. عزم الله للأمير على الرشد في أموره، وجعل له الخِيَرَة والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلّم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، فقال: إنّ الإكثار على الأمير ـ أيده الله ـ في القول خرقٌ، والاقتصاد في تعريفه ما يجب من حقّ أمير المؤمنين تقصير، وقد غاب الأمير أكرمه الله عن أمير المؤمنين، ولم يستغنِ عن قربه، ومَنْ شهد غيره من أهل بيته فلا يجد عنده غناءً، ولا يجد منه خلفاً ولا عوضاً، والأمير أولى مَن برّ أخاه، وأطاع إمامه، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أميرُ المؤمنين، بما هو أرضَى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبّته؛ فإنّ القدوم عليه فضل وحظ عظيم، والإبطاء عنه وكْفُ في الدّين، وضرر ومكروه على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نَهيك، فقال: أيها الأمير؛ إنا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحقّ أمير المؤمنين، ولا نَشحذ نيّتك بالأساطير والخطب فيما يلزمُك من النَّظر والعناية بأمور المسلمين. وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكفاة والنُّصحاء بحضرته، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره؛ فإن تُجب أميرَ المؤمنين فيما دعاك فنعمة عظيمة تَتلافى بها رعيَّتَك وأهل بيتك؛ وإن تقعد يغن الله أميرَ المؤمنين عنك؛ ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرّ بك والاعتماد على طاعتك ونصيحتك.

وتكلم صاحب المصلى، فقال: أيّها الأمير؛ إن الخلافة ثقيلة والأعوان قليل؛ ومَنْ يكيد هذه الدولة وينطوي على غشها والمعاندة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقُه، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه؛ إذ أنت وليّ عهده، والمشارك في سلطانه وولايته، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره، وفي إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة، وأنس وسكون لأهل الملّة والذمة. وفّق الله الأميرَ في أموره، وقضى له بالذي هو أحبّ إليه وأنفع له!

فحمِد الله المأمون وأثنى عليه، ثم قال: قد عرَّفتموني من حق أمير المؤمنين أكرَمه الله ما لا أنكِره، ودعوتموني من الموازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه؛ وأنا لِطاعة أمير المؤمنين مقدِم، وعلى المسارعة إلى ما سرّه ووافقه حريص، وفي الرويّة تبيانُ الرّأي، وفي إعمال الرأي نصحُ الاعتزام؛ والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبّطاً ومدافعةً، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعَجَلة، وأنا في ثَغْر من ثغور المسلمين كِلبٌ عدوّه، شديدٌ شوكته، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعيّة، وان أقمت لم آمن فوت ما أحبّ من معونة أمير المؤمنين وموازرته، وإيثار طاعته؛ فانصرفوا حتى أنظر في أمرِي، ونصح الرأي فيما أعتزم عليه من مسيرِي إن شاء الله. ثم أمر بإنزالهم وإكرامهم والإحسان إليهم.

فذكر سفيان بن محمد أن المأمون لمّا قرأ الكتاب أسقِط في يده، وتعاظَمه ما ورد عليه منه، ولم يَدْرِ ما يردُّ عليه، فدعا الفضلَ بنِ سهل، فأقرأه الكتاب، وقال: ما عندك في هذا الأمر؟ قال: أرى أن تتمسَّك بموضعك، ولا تجعل عليك سبيلا، وأنت تجد من ذلك بدًّا. قال: وكيف يمكنني التمسّك بموضعي ومخالفة محمد، وعُظْم القواد والجنود معه، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه، مع ما قد فرّق في أهل بغداد، من صلاته وفوائده! وإنما الناس مائلون مع الدّراهم، منقادون لها، لا ينظرون إذا وجدوها حفظَ بيعة، ولا يرغبون في وفاء عهد ولا أمانة. فقال له الفضل: إذا وقعت التهمة حقَّ الاحتراس، وأنا لغدر محمد متخوّف، ومن شَرَهِه إلى ما في يديك مشفِق؛ ولأن تكون في جندك وعزِّك مقيماً بين ظهرانيْ أهل ولايتك أحْرَى؛ فإن دهمك منه أمر جرّدت له وناجزته وكايدته، فإمّا أعطاك الله الظَّفَر عليه بوفائِك ونيَّتك، أو كانت الأخرى فمتّ محافظاً مكرّماً، غير ملقٍ بيديك، ولا ممكن عدوّك من الاحتكام في نفسك ودمك. قال: إن هذا الأمر لو كان أتاني وأنا في قوّة من أمري، وصلاح من الأمور؛ كان خطبه يسيراً، والاحتيال في دفعه ممكناً؛ ولكنه أتاني بعد إفساد خُراسان واضطراب عامرها وغامرها، ومفارقة جَبْغويه الطاعة، والتواء خاقان صاحب التبّت، وتهيّوء مالك كابل للغارة على ما يليه من بلاد خُراسان، وامتناع ملك إبرازبنده بالضريبة التي كان يؤديها، وما لي بواحدة من هذه الأمور يدٌ؛ وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدومي إلا لشرّ يريده، وما أرى إلا تخلية ما أنا فيه، واللحاق بخاقان ملك الترك، والاستجارة به وببلاده، فبالحرَى أن آمن على نفسي، وأمتنع ممن أراد قَهْرِي والغدر بي.

فقال له الفضل: أيها الأمير؛ إنّ عاقبة الغدر شديدة، وتَبِعة الظلم والبغي غير مأمون شرّها، وربّ مستذَلّ قد عاد عزيزاً، ومقهور قد عاد قاهراً مستطيلاً؛ وليس بالنصر بالقلة والكثرة، وحَرَجُ الموت أيسر من حرج الذلّ والضيم، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه وتصير إلى طاعة محمد متجرّداً من قوّادك وجندك كالرأس المختزَل عن بدنه، يُجرى عليك حكمه، فتدخل في جملة أهل مملكته من غير أن تبلى عذراً في جهاد ولا قتال؛ ولكن اكتب إلى جبغويه وخاقان، فولِّهما بلادهما، وعدهما التقوية لَهما في محاربة الملوك، وابعْث إلى ملك كابل بعضَ هدايا خُراسان وطُرَفها، وسلْه الموادعة تجده على ذلك حريصاً، وسلِّم الملك إبرازبنده ضريبتَه في هذه السنة، وصيّرها صلةً وصلَته بها، ثم اجمع إليك أطرافك، واضمُم إليك من شذّ من جندك، ثم اضرب الخيل بالخيل، والرجال بالرجال؛ فإن ظفرتَ وإلا كنت على ما تريد من اللحاق بخاقان قادراً. فعرف عبدُ الله صدق ما قال، فقال: أعمل في هذا الأمر وغيره من أموري بما ترى، وأنفَذ الكتب إلى أولئك العصاة، فرضوا وأذعنوا؛ وكتب إلى مَنْ كان شاذًّا عن مَرْو من القواد والجنود، فأقدمهم عليهم، وكتب إلى طاهر بن الحسين وهو يومئذ عامل عبد الله على الرّيّ، فأمره أن يضبط ناحيته، وأن يجمع إليه أطرافه؛ ويكون على حذَرٍ وعدّة من

جيش إن طرقه، أو عدوٍّ إن هجم عليه. واستعدّ للعرب، وتهيّأ لدفع محمد عن بلاد خراسان.

ويقال: إن عبد الله بعث لي الفضل بن سهل فاستشاره في أمر محمد، فقال: أيها الأمير، أنظرني في يومي هذا أغدُ عليك برأي؛ فبات يدبّر الرأي ليلتَه؛ فلما أصبح غدا عليه، فأعلمه أنه نظر في النّجوم فرأى أنه سيغلبه، وأنّ العاقبة له. فأقام عبد الله بموضعه، ووطّن نفسه على محاربة محمد ومناجزته.

فلمّا فرغ عبد الله مما أراد إحكامه من أمر خراسان، كتب إلى محمد:

لعبد الله محمد أمير المؤمنين من عبد الله بن هارون؛ أما بعد؛ فقد وصل إليّ كتاب أمير المؤمنين؛ وإنما أنا عامل من عمّالِه وعون من أعوانه، أمرني الرّشيد صلوات الله عليه بلزوم هذا الثَّغْر، ومكايدة من كايد أهله من عدوّ أمير المؤمنين؛ ولعمري إن مقامي به، أردّ على أمير المؤمنين وأعظم غناءً عن المسلمين من الشخوص إلى أمير المؤمنين، وإن كنتُ مغتبطاً بقربه، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده؛ فإن رأى أن يقرّني على عملي، ويعفيَني من الشخوص إليه، فعل إنْ شاء الله. والسلام.

ثم دعا العباس بن موسى وعيسى بن جعفر ومحمداً وصالحاً؛ فدفع الكتاب إليهم، وأحسن إليهم في جوائزهم، وحمل إلى محمد ما تهيّأ له من ألطاف خراسان، وسألهم أن يحسِّنوا أمره عنده، وأن يقوموا بعذره.

قال: سفيان بن محمد: لما قرأ محمد كتاب عبد الله، عرف أنّ المأمون لا يتابعه على القدوم عليه، فوجّه عصمة بن حماد بن سالم صاحب حَرَسه، وأمره أن يقيم مسلحةً فيما بين هَمَذان والرّيّ، وأن يمنع التجار من حَمْل شيء إلى خراسان من المِيرة، وأن يفتِّش المارّة، فلا يكون معهم كتب بأخباره وما يريد؛ وذلك سنة أربع وتسعين ومائة. ثم عزم على محاربته، فدعا عليّ بن عيسى بن ماهان، فعقد له على خمسين ألف فارس ورجل من أهل بغداد،ودفع إليه دفاتر الجند، وأمره أن ينتقيَ ويتخيّر من أراد على عينه، ويخصّ من أحبّ ويرفع من أراد إلى الثمانين، وأمكنه من السلاح وبيوت الأموال، ثم وُجِّهوا إلى المأمون.

فذكر يزيد بن الحارث، قال: لما أراد عليّ الشخوص إلى خُراسان ركب إلى باب أم جعفر، فودّعها، فقالت: يا عليّ، إنّ أمير المؤمنين وإن كان ولدِي؛ إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حَذرِي؛ فإني على عبد الله منعطفة مشفقة، لما يحدُث عليه من مكروه وأذًى؛ وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه، وغاره على ما في يده؛ والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره؛ فاعرف لعبد الله حقَّ والده وأخوته، ولا تجبِّهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهقه بقيْد ولا غُلّ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً، ولا تعنِّف عليه في السير، ولا تساوه في المسير؛ ولا تركب قَبْله، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سَفه عليك فلا تراده. ثم دفعتْ إليه قيْداً من فضة، وقالت: إن صار في يدك فقيِّده بهذا القيد. فقال لها: سأقبل أمرَكِ، وأعمل في ذلك بطاعتك.

وأظهر محمد خلع المأمون، وبايع لابنيه ـ في جميع الآفاق إلا خُراسان ـ موسى وعبد الله؛ وأعطى عند بيعتهما بني هاشم والقوّاد والجند الأموال والجوائز، وسمىّ موسى النّاطق بالحق، وسمىّ عبد الله القائم بالحقّ. ثم خرج عليّ بن عيسى لسبع ليال خلون من شعبان سنة خمس وتسعين ومائة من بغداد حتى عسكر بالنَّهروان، وخرج معه يشيّعه محمد، وركب القوّاد والجنود، وحُشرت الأسواق، وأشخص معه الصنّاع والفعلة؛ فيقال: إنّ عسكره كان فرسخاً بفسطاطيه وأهْبَته وأثقاله، فذكر بعضُ أهل بغداد أنهم لم يروْا عسكراً كان أكثر رجالاً،

وأفرَه كُراعاً، وأظهر سلاحاً، وأتمَّ عُدّة، وأكمل هيئة؛ من عسكره.

وذكر عمرو بن سعيد أن محمداً لما جاز باب خُراسان نزل عليّ فترجّل، وأقبل يُوصيه، فقال: امنع جندَك من العبث بالرعيّة والغارة على أهل القُرى وقَطْع الشجر وانتهاك النساء؛ وولّ الريّ يحيى بن عليّ، واضمم إليه جنداً كثيفاً، ومرْه ليدفع إلى جنده أرزاقَهم مما يجبى من خراجها؛ وولّ كل كورة ترَحلُ عنها رجلاً من أصحابك، ومَنْ خرج إليك من جند أهل خُراسان ووجوهها فأظهر إكرامه وأحسن جائزته، ولا تعاقب أخاً بأخيه، وضَعْ عن أهل خراسان رُبْع الخراج، ولا تؤمِّن أحداً رماك بسهم، أو طعن في أصحابك برُمح؛ ولا تأذن لعبد الله في المُقام أكثر من ثلاثة من اليوم الذي تظهر فيه عليه؛ فإذا أشخصتَه فليكن مع أوثقِ أصحابك عندك؛ فإن غرّه الشيطان فناصَبك فاحرص على أن تأسره أسراً، وإن هرب منك إلى بعض كُور خراسان، فتولّ إليه المسير بنفسك. أفهِمْت كلّ ما أوصيك به؟ قال: نعم، أصلح الله أمير المؤمنين! قال: سِرْ على بركة الله وعونه!

وذُكر أنّ منجّمَه أتاه فقال: أصلح الله الأمير! لو انتظرت بمسيرك صلاح القَمر؛ فإنّ النحوس عليه عالية، والسعود عنه ساقطة منصرفة! فقال لغلام له: يا سعيد؛ قل لصاحب المقدّمة يضرب بطبله ويقدّم علَمه؛ فإنا لا ندري ما فساد القمر من صلاحه؛ غير أنه مَنْ نازلنا نازلناه، ومن وادَعناه وكَفَفْنا عنه؛ ومَنْ حاربنا وقاتلنا لم يكن لنا إلاّ إرْواء السيف من دمه. إنا لا نعتدّ بفساد القمر؛ فإنا وطنّا أنفسنا على صِدْق اللقاء ومناجزة الأعداء.

قال أبو جعفر: وذكر بعضهُم أنه قال: كنتُ فيمن خرج في عسكر عليّ بن عيسى بن ماهان؛ فلما جاز حُلوان لقيَتْه القوافل من خُراسان؛ فكان يسألها عن الأخبار، يستطلع علْم أهل خُراسان؛ فيقال له: إنّ طاهراً مقيم بالرّيّ يعرض أصحابه، ويرمّ آلته، فيضحك ثم يقول: وما طاهر! فوالله ما هو إلا شوْكة من أغصاني، أو شرارة من ناري، وما مِثْل طاهر يتولّى على الجيوش، ويلقَى الحروب؛ ثم التفت إلى أصحابه فقال: والله ما بينكم وبين أن ينقصِف انقصاف الشّجر من الريح العاصف؛ إلاّ أن يبلغه عبورنا عَقَبة هَمَذان، فإنّ السّخال لا تقوى على النطاح، والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسْد؛ فإن يُقِمْ طاهر بموضعه يكنْ أول معرَّض لظبات السيوف وأسنّة الرماح.

وذكر يزيد بن الحارث أن عليّ بن عيسى لما صار إلى عَقَبة هَمَذان استقبل قافلة قدمتْ من خُراسان، فسألهم عن الخبر، فقالوا: إن طاهراً مقيم بالريّ، وقد استعدّ للقتال، واتّخذ آلة الحرب، وإن المدد يترى عليه من خُراسان وما يليها من الكُور؛ وإنه في كلّ يوم يعظم أمرُه، ويكثر أصحابه؛ وإنهم يروْن أنه صاحب جيش خراسان. قال عليّ: فهل شخص من أهل خراسان أحدٌ يعتدّ به؟ قالوا: لا؛ غير أن الأمور بها مضطربة، والناس رَعِبون، فأمر بطيّ المنازل والمسير، وقال لأصحابه: إنّ نهاية القوم الرّيّ، فلو قد صيّرْناها خلف ظهورنا فَتّ ذلك في أعضادهم، وانتشر نظامهم، وتفرّقت جماعتهم. ثم أنفذ الكتبَ إلى ملوك الديْلم وجبال طَبرِستان وما والاها من الملوك، يَعِدُهم الصِّلات والجوائز. وأهدى إليهم التِّيجان والأسورة والسيوفَ المحلاّة بالذهب، وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان، ويمنعوا مَن أراد الوصول إلى طاهر من المدد؛ فأجابوه إلى ذلك، وسار حتى صار في أول بلاد الرّيّ، وأتاه صاحب مقدّمته، فقال: لو كنتَ ـ أبقى الله الأمير ـ أذكيت العيون،

وبعثت الطلائع، وارتدْتَ موضعاً تعسكر فيه، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به؛ كان ذلك أبلَغ في الرأي، وآنس للجند. قال: لا؛ ليس مثل طاهر يُستعدّ له بالمكايد والتحفظ؛ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين: إما أن يتحصّن بالرّيّ فيبيّته أهلها فيكفوننا مؤنته، أو يخليها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعساكرنا منه. وأتاه يحيى بن عليّ، فقال: اجمع متفرّقَ العسكر، واحذر على جندك البيات، ولا تسرّح الخيل إلاّ ومعها كنْف من القوم؛ فإنّ العساكر لا تساس بالتّواني، والحروب لا تُدبّر بالاغترار؛ والثقة أن تحترز، ولا تقلْ: إن المحارب لي طاهر؛ فالشرارة الخفيّة ربما صارت ضُراماً؛ والثلمة من السيل ربما اغتُرّ بها وتُهُوّن فصارت بحراً عظيماً؛ وقد قربت عساكرنا من طاهر؛ فلو كان رأيهُ الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا. قال: اسكت؛ فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي تَرى؛ وإنما تَتحفّظ الرجال إذا لقيتْ أقرانها، وتستعدّ إذا كان المناوىء لها أكفاءهاونظراءها.

وذكر عبد الله بن مجالد، قال: أقبَل عليّ بن عيسى حتى نزل من الرّيّ على عشرة فراسخ، وبها طاهر قد سدّ أبوابها، ووضع المسالح على طُرُقها، واستعدّ لمحاربته؛ فشاور طاهرٌ أصحابه، فأشاروا عليه أن يقيمَ بمدينة الريّ، ويدافع القتال ما قَدَر عليه إلى أن يأتيَه من خُراسان المدد من الخيل، وقائد يتولى الأمر دونه، وقالوا: إن مقامك بمدينة الرّيّ أرفقُ بأصحابك، وأقدر لهم على المِيرة، وأكنّ من البَرْد، وأحْرَق إن دَهَمك قتال أن يعتصموا بالبيوت، وتقوى على المماطلة والمطاولة؛ إلى أن يأتيَك مدد، أو ترِدَ عليك قُوّة من خلفك. فقال طاهر: إنّ الرأي ليس مارأيتم إنّ أهل الريّ لعليّ هائبون، ومن معرّته وسطوته متّقون؛ ومعه مَنْ قد بلغكم من أعراب البوادي وصعاليك الجبال ولفيف القرى؛ ولست آمن إن هجم علينا مدينة الرّيّ أن يدعوَ أهلَها خوفُهم إلى الوثوب بنا، ويعينوه على قتالنا؛ مع أنه لم يكن قوم قط روعبوا في ديارهم، وتورّد عليهم عسكرهم إلا وَهنوا وذلوا، وذهب عزهم، واجترأ عليهم عدوّهم. وما الرأي إلاّ أن نصيّر مدينة الرّيّ قَفا ظهورنا، فإن أعطانا الله الظَّفَر، وإلا عوّلنا عليها فقالتنا في سككها، وتحصنّا في مَنعتها إلى أن يأتينا مدد أو قوة من خراسان. قالوا: الرأي ما رأيتَ. فنادى طاهر في أصحابه فخرجوا. فعسكروا على خمسة فراسخ من الرّيّ بقرية يقال لها كلواص؛ وأتاه محمد بن العلاء فقال: أيها الأمير؛ إن جندك قد هابوا هذا الجيش، وامتلأتْ قلوبهم خوفاً ورُعباً منه، فلو أقمتَ بمكانك، ودافعت القتال إلى أن يشامّهم أصحابك، ويأنسوا بهم، ويعرفوا وجهَ المأخذ في قتالهم! فقال: لا؛ إني لا أوتَى من قلّة تجربة وحَزْم؛ إنّ أصحابي قليل، والقوم عظيم سوادُهم كثير عددهم، فإن دافعتُ القتالَ، وأخّرتُ المناجزة لم آمن أن يطلعوا على قلّتنا وعورتنا؛ وأن يستميلوا مَن معي برغبة أو رَهْبة، فينفر عني أكثر أصحابي، ويخذلني أهلُ الحفاظ والصبر، ولكن ألفّ الرجال بالرجال، وألحِم الخيل بالخيل، وأعتمد على الطاعة والوفاء، وأصبر صبر محتسب للخير، حريص على الفوز بفضل الشهادة؛ فإن يرزق الله الظّفَر والفلج فذلك الذي نريد ونرجو؛ وإن تكن الأخرى؛ فلست بأول مَنْ قاتل فقتِل، وما عند الله أجزل وأفضل.

وقال عليّ لأصحابه: بادروا القوم؛ فإنّ عددهم قليل؛ ولو زحفتم إليهم لم يكن لهم صبر على حرارة السيوف وطعن الرماح. وعبّأ جندَه ميمنة وميسرة وقلباً؛ وصيّر عشر رايات؛ في كلّ راية ألف رجل، وقدم الرّاياتِ رايةً رايةً، فصيّر بين كلّ راية وراية غَلْوة، وأمَر أمراءها: إذا قاتلت الأولى فصبرت وحمت وطال بها القتال أن تُقدَّم التي تليها وتؤخَّر التي قاتلت حتى ترجع إليها أنفسُها، وتستريح وتنشط للمحاربة والمعاودة. وصيَّر أصحابَ الدروع والجواشن والخوذ أمام الرايات، ووقف في القلب في أصحابه من أهل البأس والحفاظ والنجدة منهم.

وكتَّب طاهر بن الحسين كتائبَه وكردَس كراديسه، وسوّى صفوفه، وجعل يمرّ بقائد قائد، وجماعة جماعة؛ فيقول: يا أولياء الله وأهل الوفاء والشّكر؛ أنكم لستم كهؤلاء الذي تروْن من أهل النكْث والغدر؛ إن هؤلاء ضيّعوا ما حفظتم وصغّروا ما عظّمتم، ونكثوا الأيمان التي رعيتم؛ وإنما يطلبون الباطل ويقاتلون على الغدر والجهل؛ أصحاب سلْب ونهب؛ فلو قد غضضتم الأبصار، وأثبتّم الأقدام! قد أنجز الله وعدَه، وفتح عليكم أبواب عزِّه ونصره؛ فجالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النَّار عن دينكم، ودافعوا بحقكم باطلهم؛ فإنما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين. وقلق قلقاً شديداً، وأقبل يقول: يا أهلَ الوفاء والصدق؛ الصبرَ الصبرَ الحفاظَ الحفاظ! وتزاحف الناس بعضهم إلى بعض، ووثب أهل الريّ، فغلّقوا أبواب المدينة، ونادى طاهر، يا أولياء الله، اشتغلوا بمن أمامكم عمَّن خلفكم؛ فإنه لا ينجيكم إلّا الجدّ والصدق. وتلاحموا واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان جميعاً، وعلت ميمنة عليّ على ميسرة طاهر ففضّتها فضًّا منكراً، وميسرتُه على ميمنته فأزالتها عن موضعها. وقال طاهر: اجعلوا بأسكم وجدّكم على كراديس القلب؛ فإنكم لو فضضتم منها رايةً واحدة رجعت أوائلُها على أواخرها. فصبر أصحابه صبراً صادقاً، ثم حملوا على أوائل رايات القلب فهزموهم؛ وأكثروا فيهم القتل؛ ورجعت الرّايات بعضها على بعض، وانتقضت ميمنة عليّ. ورأى أصحابُ ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه، فرجعوا على من كان في وجوههم، فهزموهم، وانتهت الهزيمة إلى عليّ فجعل ينادي أصحابه: أينَ أصحاب الأسورة والأكاليل! يا معشرَ الأبناء، إليّ الكرّة بعد الفرّة؛ معاودة الحرب من الصبر فيها. ورماه رجلٌ من أصحاب طاهر بسهم فقتَله، ووضعوا فيهم السيوف يقتلونهم ويأسرونهم؛ حتى حال الليل بينهم وبين الطلب، وغنموا غنيمة كثيرة؛ ونادى طاهر في أصحاب عليّ: مَن وضع سلاحه فهو آمن، فطرحوا أسلحتهم، ونزلوا عن دوابّهم، ورجع طاهر إلى مدينة الرّيّ، وبعث بالأسرى والرؤوس إلى المأمون.

وذكر أن عبد الله بن عليّ بن عيسى طرَح نفسه في ذلك اليوم بين القتلى؛ وقد كانت به جراحات كثيرة، فلم يزل بين القتلى متشبِّهاً بهم يومه وليلَته؛ حتى أمن الطلب، ثم قام فانضمّ إلى جماعة من فَلّ العسكر، ومضى إلى بغداد، وكان من أكابر ولده.

وذكر سفيان بن محمد أنّ عليًّا لمّا توجّه إلى خراسان بعث المأمون إلى من كان معه من القوّاد يعرض عليهم قتاله رجلا رجلا؛ فكلّهم يصرح بالهيبة، ويعتلّ بالعلل، ليجدوا إلى الإعفاء من لقائه ومحاربته سبيلا.

وذكر بعض أهل خراسان أنّ المأمون لما أتاه كتاب طاهر، بخبر عليّ وما أوقع الله به، قعد للناس؛ فكانوا يدخلون فيهنّئونه ويدعون له بالعزّ والنصر. وإنه في ذلك اليوم أعلن خلع محمد، ودعِي له بالخلافة في جميع كُور خراسان وما يليها، وسُرّ أهل خراسان، وخطب بها الخطباء، وأنشدت الشعراء، وفي ذلك يقول شاعر من أهل خراسان:

أَصبحتِ الأمّة في غِبْطَةٍ ... من أمرِ دنياها ومن دِينِها
إذ حفظتْ عهدَ إمامِ الهدى ... خيرِ بني حوَّاءَ مأمونِها
على شَفاً كانت فلمّا وَفَتْ ... تخلّصَتْ من سُوءِ تحيينها
قامتْ بحقِ الله إذ زُبِرَتْ ... في وُلْدِهِ كتْبَ دَواوينِها
ألا تراها كيف بعدَ الرَّدى ... وفقها اللّهُ لِتَزيينها!

وهي أبيات كثيرة.

وذكر عليّ بن صالح الحربيّ أن عليّ بن عيسى لما قُتل، أرجف لناس ببغداد إرجافاً شديداً، وندم محمد على ما كان من نَكْثه وغدره، ومشى القوّاد بعضهم إلى بعض، وذلك يوم الخميس للنصف من شوال سنة خمس وتسعين ومائة، فقالوا: إن عليًّا قد قتِل، ولسنا نشكّ أن محمداً يحتاج إلى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع؛ وإنما يحرّك الرجال أنفسها، ويرفعها بأسُها وإقدامُها؛ فليأمر كلُّ رجل منكم جندَه بالشّغْب وطلب الأرزاق والجوائز؛ فلعلّنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا، ويصلح جندنا. فاتفق على ذلك رأيهُم وأصبحوا، فتوافَوْا إلى باب الجسْر وكبّروا، فطلبوا الأرزاق والجوائز. وبلغ الخبر عبدَ الله بن خازم، فركب إليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قُوّاد الأعراب، فترامَوْا بالنُّشاب والحجارة، واقتتلوا قتالا شديداً، وسمع محمد التكبير والضجيج؛ فأرسل بعض مواليه أن يأتيَه بالخبر، فرجع إليه فأعلمه أنّ الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم. قال: فهل يطلبون شيئاً غير الأرزاق؟ قال: لا، قال: ما أهونَ ما طلبوا! ارجع إلى عبدالله بن خازم فمرْه فلينصرف عنهم؛ ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر، ورفع مَنْ كان دون الثمانين إلى الثمانين، وأمر للقوّاد والخواصّ بالصّلات والجوائز.

وفي هذه السنة وجّه محمد المخلوع عبدَ الرحمن بن جبلة الأبناويّ إلى همَذان لحرب طاهر.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر عبد الله بن صالح أنّ محمداً لما انتهى إليه قتلُ عليّ بن عيسى بن ماهان، واستباحة طاهر عسكره، وجّه عبد الرحمن الأبناويّ في عشرين ألف رجل من الأبناء، وحمل معه الأموال، وقوّاه بالسلاح والخيل، وأجازه بجوائز، وولّاه حُلوان إلى ما غلب عليه من أرض خُراسان، وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنَّجدة والغناء منهم، وأمره بالإكماش في السّير، وتقليل اللُّبث والتضجّع؛ حتى ينزل مدينة همَذان، فيسبق طاهراً إليها، ويخندق عليه وعلى أصحابه، ويجمع إليه آلة الحرب، ويغادي طاهراً وأصحابه إلى القتال. وبسط يده وأنفذ أمره في كلّ ما يريد العمل به، وتقدّم إليه في التحفّظ والاحتراس، وترك ما عمل به عليّ من الاغترار والتضجّع، فتوجّه عبد الرحمن حتى نزل مدينة همَذان، فضبط طرقها، وحصّن سورها وأبوابها، وسدّ ثُلْمها، وحشر إليها الأسواق والصنّاع، وجمع فيها الآلات والمِيَر، واستعدّ للقاء طاهر ومحاربته. وكان يحيى بن عليّ لما قُتِل أبوه هرب في جماعة من أصحابه، فأقام بين الريّ وهمَذان، فكان لا يمرّ به أحدٌ من فَلّ أبيه إلا احتبسه؛ وكان يرى أن محمداً سيولّيه مكان أبيه، ويوجّه إليه الخيل والرجال؛ فأراد أن يجمع الفَلّ إلى أن يوافيَه القوة والمدد؛ وكتب إلى محمد يستمدّه ويستنجده؛ فكتب إليه محمد يعلمه توجيه عبد الرحمن الأبناويّ، ويأمره بالمقام موضعه؛ وتلقّي طاهر فيمن معه؛ وإن احتاج إلى قوة ورجال كتب إلى عبد الرحمن فقوّاه وأعانه.

فلما بلغ طاهراً الخبرُ توجّه نحو عبد الرحمن وأصحابه، فلما قرُب من يحيى، قال يحيى لأصحابه: إن طاهراً قد قرُب منّا ومعه مَنْ تعرفون من رجال خُراسان وفرسانها، وهو صاحبكم بالأمس، ولا آمن إن لقيته بمن معي من هذا الفَلّ أن يصدَعنا صدعاً يدخل وهَنُه على من خَلْفنا، وأن يعتلّ عبد الرحمن بذلك، ويقلّدني به العار والوَهَن والعجز عند أمير المؤمنين، وأن أستنجد به وأقمت على انتظار مدده؛ لم آمن أن يمسك عنا ضنًّا برجاله وإبقاءً عليهم وشحّاً بهم على القتل؛ ولكن نتزاحف إلى مدينة همَذان فنعسكر قريباً من عبد الرحمن؛ فإن

استعنّا به قرب منّا عونُه؛ وإن احتاج إلينا أعنّاه وكنّا بفنائه، وقاتلنا معه. قالوا: الرأي ما رأيتَ؛ فانصرف يحيى، فلمّا قرب من مدينة هَمَذان خذله أصحابُه، وتفرّق أكثر مَنْ كان اجتمع إليه، وقصد طاهرٌ لمدينة هَمذان؛ فأشرف عليها، ونادى عبد الرحمن في أصحابه، فخرج على تعبية، فصادف طاهراً، فاقتتلوا قتالا شديداً، وصبر الفريقان جميعاً، وكثر القتلى والجرحى فيهم. ثم إنّ عبد الرحمن انهزم، فدخل مدينة هَمَذان، فأقام بها أياماً حتى قويَ أصحابُه، واندمل جراحاهم، ثم أمر بالاستعداد، وزحف إلى طاهر؛ فلمّا رأى طاهر أعلامه وأوائل أصحابه قد طلعوا، قال لأصحابه: إنّ عبد الرحمن يريد أن يتراءى لكم؛ فإذا قربتم منه قاتلكم؛ فإن هزمتموه بادر إلى المدينة فدخلها، وقاتلكم على خندقها، وامتنع بأبوابها وسورها، وإن هزمكم اتّسع لهم المجال عليكم، وأمكنتْه سعة المعترك من قتالكم، وقتل من انهزم، وولّى منكم؛ ولكن قفُوا من خندقنا وعسكرنا قريباً؛ فإن تقارب منا قاتلناه؛ وإن بعُد من خندقهم قَرُبنا منه. فوقف طاهر مكانَه، وظنّ عبد الرحمن أنّ الهيبة بطّأت به من لقائه والنهود إليه، فبادر قتاله فاقتتلوا قتالا شديداً، وصبر طاهر، وأكثر القتل في أصحاب عبد الرحمن، وجعل عبد الرحمن يقول لأصحابه: يا معشرَ الأبناء، يا أبناء الملوك وألفاف السيوف؛ إنهم العجم، وليسوا بأصحاب مطاوَلة ولا صبر؛ فاصبروا لهم فداكم أبي وأمي! وجعل يمرّ على راية راية، فيقول؛ اصبروا؛ إنما صبرنا ساعة، هذا أول الصّبر والظّفر. وقاتل بيديه قتالا شديداً، وحمل حَملات منكرة ما منها حملة إلا وهو يكثر في أصحاب طاهر القتل؛ فلا يزول أحدٌ ولا يتزحزح. ثم إنّ رجلا من أصحاب طاهر حمل على أصحاب عَلَم عبد الرحمن فقتله، وزحمهم أصحاب طاهر زحمةً شديدة، فولَّوْهم أكتافهم، فوضعوا فيهم السيوف، فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوْا بهم إلى باب مدينة هَمَذان؛ فأقام طاهر على باب المدينة محاصراً لهم وله؛ فكان عبد الرحمن يخرج في كلّ يوم فيقاتل على أبواب المدينة، ويرمي أصحابه بالحجارة من فوق السور، واشتدّ بهم الحصار، وتأذّى بهم أهلُ المدينة، وتبرّموا بالقتال والحرب، وقطع طاهرٌ عنهم المادّة من كلّ وجه. فلما رأى عبد الرحمن، ورأى أصحابه قد هلكوا وجَهدوا، وتخوّف أن يثب به أهلُ هَمَذان أرسل إلى طاهر فسأله الأمان له ولمن معه؛ فآمنه طاهر ووفى له، واعتزل عبد الرحمن فيمن كان استأمن معه من أصحابه وأصحاب يحيى بن عليّ.

وفي هذه السنة سُمّيَ طاهر بن الحسين ذا اليمينين.

ذكر الخبر عن ذلك:

قد مضى الخبرُ عن السبب الذي من أجله سُمِّيَ بذلك، ونذْكرُ الذي سمّاه بذلك.

ذُكر أن طاهراً لما هزم جيش عليّ بن عيسى بن ماهان، وقتَل عليّ بن عيسى، كتب إلى الفضل بن سهل: أطال الله بقاءك، وكبَت أعداءك، وجعل مَن يشنؤك فداك! كتبتُ إليك ورأس عليّ بن عيسى في حجْري، وخاتَمه في يدي، والحمد لله ربّ العالمين، فنهض الفضل، فسلّم على المأمون بأمير المؤمنين، فأمدّ المأمون طاهر بن الحسين بالرجال والقوّاد، وسمّاه ذا اليمينين، وصاحب حبل الدين، ورفع من كان معه في دون الثمانين إلى الثمانين.

وفي هذه السنة ظهر بالشأم السفيانيّ عليّ بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية، فدعا إلى نفسه؛ وذلك في ذي الحجة منها، فطرد عنها سليمان بن أبي جعفر بعد حصره إياه بدمشق ـ وكان عامل محمد عليها ـ فلم يفلت منه إلا بعد اليأس، فوجّه إليه محمد المخلوع الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان، فلم ينفذ إليه،

ولكنه لما صار إلى الرّقة أقام بها.

وفي هذه السنة طرد طاهر عمّال محمد عن قزوين وسائر كور الجبال.

ذكر الخبر عن سبب لك:

ذكر عليّ بن عبد الله بن صالح أنّ طاهراً لما توجّه إلى عبد الرحمن الأبناويّ بهمذَان، تخوّف أن يثب به كثير بن قادرة ـ وهو بقَزوين عامل من عمال محمد ـ في جيش كثيف إن هو خلفه وراءَ ظهره؛ فلمّا قرب طاهر من هَمَذان أمر أصحابه بالنزول فنزلوا. ثم ركب في ألف فارس وألف راجل، ثم قصد قصْد كثير بن قادرة، فلمّا قرب منه هرب كثير وأصحابه، وأخْلَى قزوين، وجعل طاهر فيها جنداً كثيفاً، وولّاها رجلا من أصحابه، وأمر أن يحارب مَنْ أراد دخولها من أصحاب عبد الرحمن الأبناويّ وغيرهم.

وفي هذه السنة قتِل عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي بأسداباذ.

ذكر الخبر عن مقتله:

ذكر عبد الرحمن بن صالح أن محمداً المخلوع لمّا وجّه عبد الرحمن الأبناويّ إلى هَمَذان، أتبعه بابني الحَرَشيّ: عبد الله وأحمد، في خيل عظيمة من أهل بغداد، وأمرَهما أن ينزلا قصر اللصوص، وأن يسمعا ويطيعا لعبد الرحمن، ويكونا مدداً له إن احتاج إلى عونهما. فلما خرج عبد الرحمن إلى طاهر في الأمان أقام عبد الرحمن يُري طاهراً وأصحابه أنه له مسالم، راضٍ بعهودهم وأيمانهن؛ ثم اغترّهم وهم آمنون. فركب في أصحابه، فلم يشعر طاهر وأصحابه حتى هَجَموا عليهم، فوضعوا فيهم السيوف، فثبت لهم رجّالة أصحاب طاهر بالسيوف والتراس والنشاب، وجَثَوْا على الرّكب، فقاتلوه كأشدّ ما يكون من القتال، ودافعهم الرّجال إلى أن أخذت الفرسان عُدّتها وأهبتها، وصدقوهم القتال، فاقتتلوا قتالا منكراً، حتى تقطّعت السيوف، وتقصّفت الرماح ثم إن أصحاب عبد الرحمن هَربوا، وترجّل هو في ناس من أصحابه، فقاتل حتى قتل، فجعل أصحابه يقولون له: قد أمكنك الهرَب فاهرُب؛ فإنّ القوم قد كلوا من القتال، وأتعبتهم الحرب، وليس بهم حَراك ولا قوّة على الطلب، فيقول: لا أرجعُ أبداً، ولا يرى أمير المؤمنين وجهي منهزماً. وقُتل من أصحابه مقتلة عظيمة، واستبيح عسكره، وانتهى من أفلت من أصحابه إلى عسكر عبد الله وأحمد ابني الحَرَشيّ، فدخلهم الوهن والفشَل، وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً فولّوْا منهزمين لا يلوون على شيء من غير أن يلقاهم أحد؛ حتى صاروا إلى بغداد، وأقبل طاهر وقد خلت له البلاد، يحوز بلدةً بلدةً، وكورةً وكورةً؛ حتى نزل بقرية من قرى حُلوان يقال لها شلاشان؛ فخندق بها، وحصّن عسكره، وجمع إليه أصحابَه. وقال رجل من الأبناء يرثي عبد الرحمن الأبناويّ:

ألا إنمـا تبكي الـعُيـونُ لـفـارسٍ	نفَى العـارَ عنه بـالمناصِـل والقَنَا
تجَلّى غُبـارُ الموتِ عن صَحْنِ وجهـه	وقـد أحـرزَ العَلْيَا من المجـد واقتَنى
فـتًى لا يُبـالي إن دَنَـا مـن مـرُوءةٍ	أصـابَ مصُونَ النفس أو ضَيّـعَ الغِنى
يُقيـمُ لأطـرافِ الـذّوابـل سُـوقَهـا	ولا يَـرهَبُ المـوتَ المُتـاح إذا دَنـا

وكان العاملُ في هذه السنة على مكة والمدينة من قبَل محمد بن هارون داود بن عيسى بن موسى بن

محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وهو الذي حجّ بالناس في هذه السنة وسنتين قبلها وذلك سنـة ثلاث وتسعين ومائة، وأربع وتسعين ومائة.

وعلى الكوفة العباس بن موسى الهادي من قبَل محمد.

وعلى البَصرة منصور بن المهديّ من قبَل محمد.

وبخُراسان المأمون، وببغداد أخوه محمد.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان من ذلك حبس محمد بن هارون أسد بن يزيد بن مزيد ، وتوجيهه أحمد بن مزيد وعبدالله بن حُميد بن قَحطْبة إلى حُلوان لحرب طاهر .

ذكر الخبر عن سبب حبسه وتوجيهه من ذكرت :

ذُكر عن عبد الرحمن بن وثّاب أنّ أسد بن يزيد بن مَزيد حدّثه ، أنّ الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن الأبناويّ . قال : فأتيتُه ، فلمّا دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتدّ غضبُه ، وهو يقول : ينام نومَ الظَّربان ، وينتبه انتباه الذئب ، همُّه بطنه ، يخاتل الرّعاء والكلاب ترصده . لا يفكر في زوال نعمة ، ولا يرويّ في إمضاء رأي ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قَدَحُه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام توضع في هلاكه ؛ قد شمّر عبدالله له عن ساقه ، وفوّق له أصوبَ أسهمه ، يرميه على بعد الدّار بالحتْف النافذ ، والموت القاصد ، قد عبّى له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلاء في أسنّة الرماح وشفار السيوف . ثم استرجع ، وتمثل بشعر البَعيث :

ومَجْدولةٍ جدْل العِنانِ خَريدَةٍ ... لها شَعَرٌ جَعْدٌ ووَجْهٌ مُقَسّمُ
وثغر نَقيٌّ اللوْنِ عَذبٌ مَذاقُه ... تُضِيءُ لها الظلماءَ ساعَةَ تَبْسِمُ
وثدياِنِ كالحُقَّيْن ، والبَطْنُ ضامِرٌ ... خَميصٌ ، وجَهْمٌ نارُهُ تَتَضَرَّمُ
لَهَوْتُ بها لَيْلَ التَّمامِ ابنَ خالِدٍ ... وأنت بِمَرْوَ الرُّوذ غَيْظاً تَجرَّمُ
أَظَلُّ أُناغِيَها وتحتَ ابنِ خالدٍ ... أُمَيَّةَ نَهْدُ المَرْكَلَينِ عَشمْشمُ
طَواهُ طِرادُ الخَيْلِ في كلِّ غارَة ... لها عارض فيه الأَسِنَّةُ تُرْزِمُ
يُقارعُ أَتراكَ ابن خاقانَ ليلةً ... إلى أن يُرَى الإصباحُ لا يَتَلَعْثَمُ
فيُصْبح منْ طُولِ الطّرادِ ، وَجِسْمُهُ ... نحيلٌ وَأُضحِي في النَّعيم أُصَمْصِمُ
أُباكِرُهَا صَهْباءَ كالمسكِ ريحُها ... لها أرجٌ في دَنِّها حين تُرشَمُ
فَشَتّانَ ما بَيني وبَينَ ابن خالد ... أُمَيَّةَ في الرِّزقِ الذي اللّهُ قاسِمُ

ثم التفت إليّ فقال : يا أبا الحارث ، أنا وإياك نجري إلى غاية ، إن قصرّنا عنها ذُمِمْنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ؛ وإنما نحن شعب من أصل ؛ إن قوي قوينا ؛ وإن ضعف ضعفنا ؛ إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمَة الوكْعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ؛ وقد أمكن مسامعه من أهل اللهو والجسارة ، فهم يعدُونه

الظَّفر، ويمنّونه عقب الأيام ؛ والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ، ونعطب بعطبه ؛ وأنت فارس العرب وابن فارسها ؛ قد فزع إليك في لقاء هذا الرجل وأطمعَه فيما قبلَك أمران ؛ أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك ؛ والثاني يُمْن نقيبتك وشدّة بأسك ؛ وقد أمرني إزاحة علّتك وبسط يدك فيما أحببت ؛ غير أن الاقتصاد رأسُ النصيحة ومفتاح اليُمْن والبركة ، فأنجز حوائجك ، وعجِّل المبادرة إلى عدّوك ؛ فإني أرجو أن يُوليك الله شرفَ هذا الفتح ، ويلمّ بك شعث هذه الخلافة والدولة . فقلت : أنا لطاعة أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ وطاعتك مقدِم ، ولكلّ ما أدخل الوَهن والذّلّ على عدوّه وعدوّك حريص ؛ غير أن المحارب لا يَعمل بالغرور ، ولا يفتتح أمره بالتقصير والخلل ؛ وإنما ملاك المحارب الجنود ، وملاك الجنود المال ؛ وقد ملأ أمير المؤمنين أعزه الله أيدي مَنْ شهد العسكر من جنوده ، وتابع لهم الأرزاق الدارّة والصِّلات والفوائد الجزيلة ، فإن سرتُ بأصحابي وقلوبهم متطلعة إلى مَنْ خلفهم من إخوانهم لم أنتفع بهم في لقاء مَنْ أمامي ، وقد فضل أهل السِّلم على أهل الحرب ، وجاز بأهل الدّعة منازل أهل النَّصب والمشقة ؛ والذي أسأل أن يؤمَر لأصحابي برزق سنة ، ويحمل معهم أرزاق سنة ، ويخصّ مَن لا خاصّة له منهم من أهل الغناء والبلاء ؛ وأبدِل مَن فيهم من الزَّمْني والضّعفاء ، وأحمل ألف رجل ممّن معي على الخيل ؛ ولا أُسأل عن محاسَبة ما افتتحت من المدن والكور . فقال : قد اشتططتَ ؛ ولا بدّ من مناظرة أمير المؤمنين . ثم ركب وركبت معه ، فدخل قبلي على محمد ، وأذن لي فدخلتُ ، فما كان بيني وبينه إلا كلمتان حتى غضِب وأمر بحبسي .

وذُكر عن بعض خاصة محمد أنّ أسداً قال لمحمد : ادفع إليّ ولديْ عبدالله المأمون حتى يكونا أسيرين في يدي ؛ فإن أعطاني الطاعة ، وألقى إليّ بيده ،وإلاّ عملت فيهما بحكمي ،وأنفذت فيهما أمري .فقال :أنت أعرابيٌّ مجنون ؛ أدعوك إلى ولاء أعنّة العرب والعجم ، وأطعمك خراج كُور الجبال إلى خُراسان ، وارفع منزلتَك عن نظرائك من أبناء القوّاد والملوك ، وتدعونني إلى قتل ولدي ، وسفك دماء أهل بيتي ! إنّ هذا لَلْخُرق والتخليط . وكان ببغداد ابنان لعبدالله المأمون ، وهما مع أمِّهما أم عيسى ابنة موسى الهادي ، نزولاً في قصر المأمون بغداد ؛ فلمّا ظفر المأمون ببغداد خرجَا إليه مع أمّهما إلى خُراسان ؛ فلم يزالا بها حتى قدموا بغداد ، وهما أكبر ولده .

وذكر زياد بن عليّ ، قال : لما غضِب محمد على أسد بن يزيد ، وأمر بحبسه ، قال : هل في أهل بيت هذا من يقوم مقامه ؛ فإني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم وما تقدّم من طاعتهم ونصيحتهم ؟ قالوا : نعم ؛ فيهم أحمد بن مزيد ، وهو أحسنهُم طريقة ، وأصّحهم نيّة في الطاعة ؛ وله مع هذا بأس ونجدة وبَصَر بسياسة الجنود ولقاء الحروب ؛ فأنفذ إليه محمد بَريداً يأمره بالقدوم عليه ؛ فذكر بكر بن أحمد ، قال : كان أحمد متوجّهاً إلى قرية تدعى إسحاقيّة ؛ ومعه نفر من أهل بيته ومواليه وحشمه ؛ فلما جاوز نهر أبان سمع صوت بريد في جوف الليل ، فقال : إن هذا لعجيب ، بريد في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا الموضع ؛ إن هذاالأمر لعجيب . ثم لم يلبث البريد أن وقف ، ونادى الملاّحَ : هل معك أحمد بن مزيد ؟ قال : نعم ؛ فنزل فدفع إليه كتاب محمد ، فقرأه ثم قال : إني قد بلغت ضيعتي ؛ وإنما بيني وبينها ميل ؛ فدعني أقعْها وقعة فآمر فيها بما أريد ثم أغدو معك ، فقال : لا ، إنّ أمير المؤمنين أمرني ألاّ أنظرك ولا أرفّهك ؛ وأنْ أشخصك أيّ ساعة صادفتك فيها ؛ من ليل أو نهار . فانصرف معه حتى أتى الكوفة ، فأقام بها يوماً حتى تجمّل وأخذ أهبة السفر ، ثم مضى

إلى محمد .

فذكر عن أحمد ، قال : لما دخلت بغداد ، بدأت بالفضل بن الربيع ، فقلت : أسلّم عليه ، وأستعين بمنزلته ومحضره عند محمد ؛ فلما أذن لي دخلت عليه ؛ وإذا عنده عبدالله بن حُميد بن قحطبة ، وهو يريده على الشخوص إلى طاهر ، وعبدالله يشتطّ عليه في طلب المال والإكثار من الرجال ؛ فلمّا رآني رحّب بي وأخذ بيدي ، ورفعني حتى صيّرني معه على صدر المجلس ، وأقبل على عبدالله يداعبه ويمازحه ، فتبسّم في وجهه ، ثم قال :

إنّـا وجَـدْنـا لـكم إذ رَثَّ حبْـلكم مِـنْ آلِ شيْبـانَ أُمّـاً دُونكـمْ وَابـا
الأَكـثـرُونَ إذَا عُـدَّ الحَصى عَـدَداً والأَقـرَبـونَ إلـينـا منكـمُ نَـسبـا

فقال عبدالله : إنّهم لكذلك ؛ وإن منهم لسَدّ الخلَل ونكاء العدوّ ، ودفع معرّة أهل المعصية عن أهل الطاعة . ثم أقبل عليّ الفضل ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أجرى ذكرك ؛ فوصفتُك له بحسن الطاعة وفضل النصيحة والشدّة على أهل المعصية ، والتقدّم بالرأي ، فأحبَّ اصطناعك والتنويهَ باسمك ، وأن يرفعك إلى منزلة لم يبلغها أحد من أهل بيتك . والتفت إلى خادمه ، فقال : يا سرّاج ؛ مُرْ دوابيّ ، فلم ألبث أن أسرج له ، فمضى ومضيت معه ، حتى دخلنا على محمد وهو في صحن داره ، له ساج ، فلم يزل يأمرني بالدنوّ حتى كدت ألاصقه ، فقال : إنه قد كثر عليّ تخليط ابن أخيك وتنكرّه ، وطال خلافه عليّ حتى أوحشني ذلك منه ، وولّد في قلبي التهمة له ، وصيّرني لسوء المذهب وخبث الطاعة إلى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحبّ أن أكون أتناوله به ، وقد وُصفتَ لي بخير ، ونُسبت إلى جميل ، فأحببت أن أرفع قدَرك ، وأعلي منزلتك ، وأقدّمك على أهل بيتك ، وأن أولّيك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة ، وأعرّضك للأجر والثواب في قتالهم ولقائهم ؛ فانظر كيف تكون ، وصحّح نيّتَك ، وأعن أميرَ المؤمنين على اصطناعك ، وسُرَّه في عدوّه ينعم سرورك وتشريفك . فقلت : سأبذل في طاعة أمير المؤمنين أعزّه الله مهجتي ، وأبلغ في جهاد عدوّه أفضل ما أمّله عندي ، ورجاه من غنائي وكفايتي ، إن شاء الله . فقال : يا فضل ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : ادفع اليه دفاترَ أصحاب أسد ، واضممْ إليه مَنْ شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب ، وقال : أكمش على أمرك ، وعجّل المسير إليه . فخرجت فانتخبت الرجال واعترضت الدفَاتر ، فبلغت عدّة من صحّحتُ اسمه عشرين ألف رجل . ثم توجّهت بهم إلى حُلوان .

وذكر أن أحمد بن مزيد لمّا أراد الشخوص دخل على محمد ، فقال : أوصني أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال : أوصيك بخصال عدّة : إياك والبغْيَ ، فإنه عقال النصر ، ولا تقدّم رِجْلاً إلا باستخارة ، ولا تُشهِر سيفاً إلا بعد إعذار ؛ ومهما قَدَرت باللين فلا تتعدّه إلى الخُرْق والشِّرّة ، وأحسِنْ صحابة مَنْ معك من الجند ، وطالعني بأخبارك في كلّ يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي ؛ ولا تستقْها فيما تتخوّف رجوعه عليَّ ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً، وقريناً برّاً، وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته، ولا تخذله إن استنصرك، ولا تبطىء عنه إذا استصرخَك ، ولتكن أيديكما واحدةً ، وكلمتكما متفقة . ثم قال : سلْ حوائجك ، وعجّل السراح إلى عدوّك . فدعا له أحمد ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، كَثِّرْ لي الدعاء ولا تقبل فيّ قول باغٍ ، ولا ترفضني قبل المعرفة بموضع قدمي لك، ولا تنقض عليّ ما استجمع من رأي، ومنّ عليّ بالصفح عن ابن أخي، قال:

ذلك لك . ثم بعث إلى أسد فحل قيودَه وخلّى سبيله ، فقال أبو الأسد الشيبانيّ في ذلك يمدح أحمد ويذكر حاله ومنزلته .

لِيَهْنِ أَبا العباسِ رَأيُ إمامِهِ ... وما عِندَهُ منهُ القَضا بمَزِيدِ
دَعاهُ أَميرُ المؤمنينَ إلى التي ... يُقَصِّرُ عنها ظِلُّ كلِّ عَميدِ
فَبادَرَها بالرَّأي والحَزمِ والحجي ... وَرَأيُ أَبي العباسِ رأيُ سديد
نَهَضْتَ بما أعيا الرِّجالُ بحملِهِ ... وَأَنتَ بِسَعدٍ حاضِرٍ وسَعيدِ
رَدَدتَ بها للرَّائدينَ أَعَزَّهُمْ ... ومِثْلُكَ وَالِيَ طَارِفاً بتليد
كَفى أَسَداً ضِيقَ الكبولِ وكَرْبَها ... وكانَ عليهِ عاطفاً كَيزيدِ
وحَصَّلَهُ فيها كلَيثٍ غضَنْفرٍ ... أَبي أَشْبُلٍ عبْلِ الذِّراع مَديدِ

وذكر يزيد بن الحارث أنّ محمّداً وجّه أحمد بن مزيد في عشرين ألف رجل من الأعراب ، وعبدالله بن حميد بن قَحْطبة في عشرين ألف رجل من الأبناء ، وأمرهما أن ينزلا حُلْوان ، ويدفعا طاهراً وأصحابه عنها ؛ وإن أقام طاهر بشلاشان أن يتوجهّا إليه في أصحابهماحتى يدفعاه ، وينصبا له الحرْب ، وتقدّم إليهما في إجتماع الكلمة والتوادّ والتحابّ على الطاعة ؛ فتوجّها حتى نزلا قريباً من حُلوان بموضع يقال له خانقين ، وأقام طاهر بموضعه ، وخندق عليه وعلى أصحابه ، ودسّ الجواسيس والعيون إلى عسكريهما ؛ فكانوا يأتونهم بالأراجيف ، ويخبرونهم أنّ محمداً قد وضع العطاء لأصحابه ؛ وقد أمر لهم من الأرزاق بكذا وكذا ؛ ولم يزل يحتال في وقوع الاختلاف والشَّغْب بينهم حتى اختلفوا ، وانتفض أمرهم ، وقاتل بعضُهم بعضاً ، فأخلوْا خانقين ، ورجعوا عنها من غير أن يلقوْا طاهراً، ويكون بينهم وبينه قتال. وتقدّم طاهر حتى نزل حُلوان ؛ فلما دخل طاهر حلوان لم يلبث إلا يسيراً حتى أتاه هرثمة بن أعين بكتاب المأمون وأقام هرثمة بحُلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها، وتوجّه طاهر إلى الأهواز.

وفي هذه السنة رفع المأمون منزلة الفضل بن سهل وقدّره .

ذكر الخبر عمّا كان من المأمون إليه في ذلك :

ذُكر أن المأمون لمّا انتهى إليه الخبر عن قتل طاهر عليَّ بن عيسى واستيلائه على عسكره وتسميته إيّاه أمير المؤمنين ، وسلّم الفضل بن سهل عليه بذلك ، وصحّ عنده الخبر عن قتل طاهر عبد الرحمن بن جَبلة الأبناويّ وغلبته على عسكره، دعا الفضل بن سهل ، فعقد له في رَجب من هذه السنة على المشرق ؛ من جبل هَمَذان إلى جبل سِقينان والتبّت طولاً ، ومن بحر فارس إلى بحر الدّيْلم وجُرجان عرَضاً ، وجعل عُمالته ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعقد له لواء على سنان ذي شُعبتين ، وأعطاه علَماً ، وسمّاه ذا الرياستين ؛ فذكر بعضهم أنه رأى سيفه عند الحسن بن سهل مكتوباً عليه بالفِضّة من جانب : رياسة الحرب ، ومن الجانب الآخر رياسة التدبير . فحمل اللواء عليّ بن هشام ، وحمل العَلَم نُعيم بن حازم ، وولّى الحسن بن سهل ديوان الخراج .

وفي هذه السنة ولّى محمد بن هارون عبد الملك بن صالح بن عليّ على الشأم وأمره بالخروج إليها ، وفرض له من رجالها جنوداً يقاتل بها طاهراً وهرثمة .

ذكر الخبر عن سبب توليته ذلك :

ذكر داود بن سليمان أنّ طاهراً لما قوي واستعلى أمرُه ، وهَزَم من هزم من قوّاد محمد وجيوشه ، دخل عبد الملك بن صالح على محمد ـ وكان عبد الملك محبوساً في حبس الرشيد ؛ فلما تُوُفِّيَ الرشيد ، وأفضى الأمر إلى محمد أمر بتخلية سبيله ؛ وذلك في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ومائة ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته ـ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّي أرى الناس قد طمعوا فيك وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلتَ سماحتك ؛ فإن أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتَهم وأغضبتَهم ، وليس تُملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ؛ ومع هذا فإن جندك قد رعبتْهم الهزائم ، ونهكتْهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ؛ وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوّهم ، ونكولاً عن لقائهم ومناهضتهم ؛ فإن سيّرتهم إلى طاهر غلب بقليل مَنْ معه كثيرَهم ، وهزم بقوّة نيّته ضعَفْ نصائحهم ونيّاتهم ، وأهلُ الشأم قوم قد ضرّستهم الحروب ، وأدّبتهم الشدائد ، وجلُّهم منقاد إليّ ، مسارع إلى طاعتي ، فإن وجّهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً تَعظم نكايتهم في عدوّه ، ويؤيد الله بهم أولياءه وأهل طاعته . فقال محمد : فإني موليك أمرَهم ، ومقوّيك بما سألت من مال وعُدّة ، فعجّل الشخوص إلى ما هنالك ؛ فاعمل عملاً يَظهر أثرُه ، ويُحمَد بركته برأيك ونظرك فيه إن شاء الله . فولّاه الشأم والجزيرة ، واستحثّه بالخروج استحثاثاً شديداً ، ووجّه معه كَنفاً من الجند والأبناء .

وفي هذه السنة سار عبد الملك بن صالح إلى الشأم ، فلما بلغ الرقة أقام بها . وأنفذ رسله وكتبه إلى رؤساء أجناد أهل الشأم بجمع الرّجال بها ، وإمداد محمد بهم لحرب طاهر .

ذكر الخبر عن ذلك :

قد تقدّم ذكرى سببَ توجيه محمد إياه لذلك ؛ فذكر داود بن سليمان أنه لما قدم عبد الملك الرّقة ، أنفذ رسلَه ، وكتب إلى رؤساء أجناد الشأم ووجوه الجزيرة ، فلم يبقَ أحد ممّن يرجَى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له في أمله وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ؛ فكان لا يدخل عليه أحدٌ إلا أجازه وخلع عليه وحمله ؛ فأتاه أهلُ الشأم : الزواقيل والأعراب من كلّ فَجّ ، واجتمعوا عنده حتى كثروا . ثم إن بعض جندَ أهل خُراسان نظر إلى دابّة كانت أخذت منه في وقعة سليمان بن أبي جعفر تحت بعض الزواقيل ؛ فتعلّق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ؛ واجتمعت جماعة من الزّواقيل والجند ، فتلاحوا ، وأعان كلّ فريق منهم صاحبَه ، وتلاطموا وتضاربوا بالأيدي ، ومشى بعض الأبناء إلى بعض ، فاجتمعوا إلى محمد بن أبي خالد ، فقالوا : أنت شيخنا وفارسنا ؛ وقد ركب الزواقيلَ منّا ما قد بلغك ؛ فاجمع أمرنا وإلا استذلُّونا ، وطمعوا فينا ، وركبوا بمثل هذا في كلّ يوم . فقال : ما كنت لأدخل في شَغْب ، ولا أشاهدكم على مثل الحالة . فاستعدّ الأبناء وتهيؤوا ، وأتوا الزواقيل وهم غارُّون ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وذبحوهم في رحالهم ، وتنادى الزواقيل ، فركبوا خيولَهم ، ولبسوا أسلحتهم ، ونشبت الحرب بينهم . وبلغ ذلك عبد الملك بن صالح ، فوجّه إليهم رسولاً يأمرهم بالكفّ ووضع السلاح ، فرموْه بالحجارة ، واقتتلوا يومهم ذلك قتالاً شديداً ، وأكثرت الأبناء القتل في الزواقيل ؛ فأخبر عبد الملك بكثرة مَنْ قتل ـ وكان مريضاً ـ مدنَفاً ـ فضرب بيده على يد ، ثم قال : واذلّاه ! تستضام العرب في دارها ومحلّها وبلادها ! فغضب من كان أمسك عن الشرّ من الأبناء ، وتفاقم الأمر فيما بينهم ، وقام بأمر الأبناء الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ، وأصبح الزّواقيل ، فاجتمعوا بالرَّقة ، واجتمع الأبناء وأهل خُراسان بالرافقة ؛ وقام رجل من أهل حمْص ،

فقال : يا أهل حِمْص ؛ الهرب أهْوَنُ من العطب ، والموتُ أهون من الذّل ، إنكم بُعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلّة والعزّة بعد الذلة ! ألا وفي الشرّ وقعتم ، وإلى حَوْمة الموت أنختم . إنّ المنايا في شوارب المسوّدة وقلانسهم . النفير النفير ، قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترب الأجل !

وقام رجل من كلب في غَرْز ناقته ، ثم قال :

شُؤبُوبُ حَرْب خابَ من يَصْلاها … قَدْ شَرَّعَتْ فُرْسانُها قَناها
فأوْرَدَ اللّهُ لظىً لظاها … إن غُمِرَت كلبٌ بها لحَاها

ثم قال : يا معشرَ كلْب ، إنها الرّاية السوداء ؛ والله ما ولّت ولا عدلت ولا ذلّ ناصرها ، ولا ضعف وليُّها ، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوف أهل خُراسان في رقابكم ، وآثار أسنَّتهم في صدوركم . اعتزلوا الشرّ قبل أن يعظم ، وتخَطّوْه قبل أن يضطرم . شأمَكم شأمكم ، داركم داركم ! الموت الفلسطينيّ خير من العيش الجَزريّ . ألا وإني راجع ، فمن أراد الانصراف فلينصرف معي .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشأم ، وأقبلت الزّواقيل حتى أضرموا ما كان التّجار جمعوا من الأعلاف بالنار ، وأقام الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان مع جَماعة أهل خراسان والأبناء على باب الرافقة تخوّفاً لطوق بن مالك . فأتى طوقاً رجلٌ من بني تَغْلِب ، فقال : ألا ترى ما لقيت العرب من هؤلاء ! انهض فإنّ مثلك لا يقعد عن هذا الأمر ، قد مدّ أهلُ الجزيرة أعينَهم إليك ، وأمّلُوا عونَك ونصرَك . فقال : والله ما أنا من قيسها ولا يمنِها ؛ ولا كنت في أوّل هذا الأمر لأشهدَ آخره ؛ وإني لأشدّ إبقاء على قومي ؛ وأنظرُ لعشيرتي منْ أن أعرِّضهم للهلاك بسبب هؤلاء السفهاء من الجند وجهال قيس ، وما أرى السّلامة إلا في الاعتزال .

وأقبل نصر بن شبث في الزّواقيل على فرس كُمَيت أغرّ ، عليه درّاعة سوداء قد ربطها خلْف ظهره ، وفي يده رُمح وترْس ، وهو يقول :

فُرْسانَ قَيْسٍ اَصْمُدُنّ للموت … لا تُرْهِبُني عَن لِقاءِ الفَوتْ
دَعي التَّمَنِّي بِعَسَى وَلَيْتْ

ثم حمل هو وأصحابُه ، فقاتل قتالاً شديداً ، فصبر لهم الجند ، وكثر القتل في الزّواقيل ، وحملت الأبناء حملاتٍ ، في كلّها يقتلون ويجرحون ، وكان أكثر القتل والبلاء في تلك الدفعة لكثير بن قادرة وأبي الفيل وداود بن موسى بن عيسى الخُراسانيّ ، وانهزمت الزواقيل ، وكان على حاميتهم يومئذ نصر بن شبث وعمرو السلميّ والعباس بن زفر .

وتوفِّيَ في هذه السنة عبد الملك بن صالح .

وفي هذه السنة خُلع محمد بن هارون ، وأخِذت عليه البيعة لأخيه عبدالله المأمون ببغداد .

وفيها حُبس محمد بن هارون في قصر أبي جعفر مع أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر .

ذكر الخبر عن سبب خلعه :

ذُكر عن داود بن سليمان أنّ عبد الملك بن صالح لما تُوُفِّيَ بالرّقة ، نادى الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان في الجند ، فصيّر الرّجّالة في السفن والفرسان على الظهر ووصلهم ، وقوّى ضعفاءهم ، ثم حملهم حتى أخرجهم من بلاد الجزيرة ؛ وذلك في سنة ست وتسعين ومائة .

وذكر أحمد بن عبدالله ، أنه كان فيمن شهد مع عبد الملك الجزيرة لّما انصرف بهم الحسين بن عليّ ، وذلك في رجب من سنة ست وتسعين ومائة . وذكر أنه تلقاه الأبناء وأهل بغداد بالتكرمة والتعظيم ، وضربوا له القِباب ، واستقبله القوّاد والرؤساء والأشراف ، ودخل منزله في أفضل كرامة وأحسن هيئة ؛ فلما كان في جوف الليل بعث إليه محمد يأمره بالركوب إليه ؛ فقال للرسول : والله ما أنا بمغَنّ ولا بمسامر ولا مضحك ؛ ولا وِليتُ له عملاً ، ولا جرى له على يدي مال ؛ فلأيّ شيء يريدني في هذه الساعة ! انصرف ؛ فإذا أصبحتُ غدوتُ إليه إن شاء الله .

فانصرف الرسول ، وأصبح الحسين فوافى بابَ الجسر ، واجتمع إليه النّاس ، فأمر بإغلاق الباب الذي يخرج منه إلى قصر عبدالله بن عليّ وباب سوق يحيى ، وقال : يا معشَر الأبناء ؛ إن خلافة الله لا تجاور بالبطر ، ونِعَمه لا تستصحَب بالتجبر والتكبر ؛ وإن محمداً يريد أن يوتغ أديانكم ، وينكث بيعتكم ؛ ويفرّق جمعكم ؛ وينقل عزّكم إلى غيركم ؛ وهو صاحب الزّواقيل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدّة وراجعه من أمره قوة ، ليرجعنَّ وبال ذلك عليكم ؛ وليعرَفنّ ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ؛ فاقطعوا أثرَه قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزَّكم ، فوالله لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خُذِل ، ولا يمنعه مانع إلا قُتِل ؛ وما عند الله لأحد هوادة ، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحِنْث بأيمانه . ثم أمر الناس بعبُور الجسر فعبروا ، حتى صاروا إلى سِكة باب خُراسان؛ واجتمعت الحربية وأهل الأرْباض ممّا يلي باب الشأم؛ وباب الأنبار وشطّ الصراة مما يلي باب الكوفة . وتسرّعت خيول من خيول محمد من الأعراب وغيرهم إلى الحسين بن عليّ ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً مليّاً من النهار ، وأمر الحسين مَنْ كان معه من قوّاده وخاصة أصحابه بالنزول فنزلوا إليهم بالسيّوف والرماح . وصدَقوهم القتال ، وكشفوهم حتى تفرّقوا عن باب الخلد .

قال : فخلع الحسين بن عليّ محمداً يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وتسعين ومائة ؛ وأخذ البيْعة لعبد الله المأمون من غد يوم الاثنين إلى الليل ؛ وغدا إلى محمد يوم الثلاثاء ، فوثب بعد الوقعة التي كانت بين الحسين وبين أصحاب محمد العباس بن موسى بن عيسى الهاشميّ على محمّد ، ودخل عليه فأخرجه من قصر الخُلْد إلى قصر أبي جعفر ، فحبسه هناك إلى صلاة الظهر ، ثم وثب العباس بن موسى بن عيسى على أمّ جعفر فأمرها بالخروج من قصرها إلى مدينة أبي جعفر ، فأبت ، فدعا لها بكرسيّ ، وأمرها بالجلوس فيه ، فقنعها بالسوْط وساءها ، وأغلظ لها القول ، فجلست فيه ، ثم أمر بها فأدخلت المدينة مع ابنها وولدها . فلما أصبح الناس من الغد طلبوا من الحسين بن عليّ الأرزاق وماجَ الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد بباب الشأم ، فقال : أيها الناس ، والله ما أدري بأي سبب يتأمّر الحسين بن علي علينا ، ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا سنّاً ، ولا أكرمنا حسباً ، ولا أعظمنا منزلة ، وإن فينا مَنْ لا يرضى بالدنيّة ، ولا يقاد بالمخادعة ؛ وإني أوّلكم نقضَ عهده ، وأظهر التغيير عليه ، والإنكار لفعله ؛ فمن كان رأيه رأيي فليعتزل معي .

وقام أسد الحربيّ ، فقال : يا معشر الحربيّة ، هذا يوم له ما بعده ، إنكم قد نمتم وطال نومكم ،

وتأخّرتم فقدِّم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خَلْع محمد وأسره فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فَرَس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال : أيّها الناس ، هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ، قال : فهل قصّر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ، قال : فهل عزل أحداً من قوّادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! قال : فما بالكم خذلتموه وأعنتُم عدوّه على اضطهاده وأسره! أما والله ما قَتَل قوم خليفتَهم قطّ إلا سلّط الله عليهم السيف القاتل ، والحتف الجارف ؛ انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه ، وقاتلوا مَنْ أراد خلعه والفتك به . ونهضت الحربيّة ، ونهض معهم عامّة أهل الأرباض في المشهّرات والعُدّة الحسنة . فقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالاً شديداً منذ ارتفاع النهار إلى انكسار الشمس ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسر الحسين بن عليّ ، ودخل أسد الحربيّ على محمد ، فكسر قيودَه وأقعده في مجلس الخلافة ؛ فنظر محمد إلى قوم ليس عليهم لباس الحرب والجند ؛ ولا عليهم سلاح ، فأمرهم فأخذوا من السلاح الذي في الخزائن حاجتَهم ووعدهم ومنّاهم ، وانتهب الغوغاء بذلك السبب سلاحاً كثيراً ومتاعاً من خَزّ وغير ذلك ؛ وأُتِيَ بالحسين بن عليّ ، فلامه محمد على خلافه وقال له : ألم أقدّم أباك على الناس ، وأوله أعنّة الخيل وأملأ يده من الأموال ؛ وأشرّف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلَكم على غيركم من القوّاد! قال : بلى ، قال : فما الذي استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالي! قال : الثقة بعفو أميرِ المؤمنين وحسن الظن لصفحه وتفضله . قال : فإن أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك ، وولّاك الطلب بثأرك ، ومن قتِل من أهل بيتك . ثم دعا له بخِلْعة فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حُلوان ، وولّاه ما وراء بابه .

وذُكر عن عثمان بن سعيد الطائيّ ، قال : كانت لي من الحسين بن عليّ ناحية خاصّة ، فلما رضي عنه محمد ، وردّ إليه قيادَته ومنزلتَه ، عبرت إليه مع المهنئين ، فوجدته واقفاً بباب الجسر ، فهنّأته ودعوت له ، ثم قلت له : إنكَ قد أصبحت سيّد العسكرين ، وثقة أمير المؤمنين ، فأشكر العفو والإقالة ، ثم داعبتُه ومازحته ، ثم أنشأت أقول :

هُــم قـتَـلوه حيــن تَــمَّ تــمــامُــه ... وصــار مُعَــزّاً بــالنَّـدَى والـتَّمَـجُّـدِ
أَغَــرُّ كــأَنَّ الـبــدرَ سُنَّــةُ وَجْــهِــه ... إذا جــاءَ يمشي في الحـديـد المُسرّد
إذا جَـشَـأت نفسُ الـجَبــانِ وَهَـلَّلتْ ... مَضَى قُــدُمــاً بــالمَشــرَفيّ المُهنَّــدِ
حليمٌ لدَى النادِي جَهُولٌ لدَى الـوغَى ... عَكـورٌ على الأَعـدَاء قليـلُ التَّـزَيــدِ
فَـثَــأْرَكَ أَدرِكْــهُ مِـنَ الـقَــوم إِنَّـهــمْ ... رَمــوكَ على عَمْــدٍ بِشَنعَــا مُــزَنّــدِ

فضحك ، ثم قال : ما أحرصَني على ذاك إن ساعدني عُمْر ، وأيِّدت بفتْح ونَصْر . ثم وقف على باب الجسر ، وهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه ، فأدركوه بمسجد كوثر ، فلما بصر بالخيل نزل وقيّد فَرسه ، وصلى ركعتين وتحرّم ، ثم لقيهم فحمل عليهم حملات في محلّها يهزمهم ويقتل فيهم . ثم إنّ فرسه عثر به وسقط ، وابتدره الناس طعناً وضرباً وأخذوا برأسه ، وفي ذلك يقول عليّ بن جبلة ـ وقيل الخرَيميّ :

أَلا قــاتَــلَ الـلّهُ الأُلَـى كـفــروا بــه ... وفــازوا بــرأس الْـهَــرْثَمِـيّ حُسَـيْـنِ

لـقـد أُورَدُوا مـنـهُ قـنـاةً صـليـبـةً بشَـطبٍ يَمـانـيٍّ ورمـحٍ رُدَيْنِـي
رَجـا في خِـلافِ الحقِّ عِـزّاً وإمْـرَةً فـألبسـهُ التـأميـلُ خُفَّ حُنَـيـن

وقيل : إن محمداً لما صفح عن الحسين استوزره ودفع إليه خاتمه .

وقتل الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان للنصف من رجب من هذه السنة في مسجد كوثر ، وهو على فرسخ من بغداد في طريق النّهرين .

وجدّد البيعة لمحمد يوم الجمعة لست عشرة خلت من رجب من هذه السنة ، وكان حبس الحسين محمداً في قصر أبي جعفر يومين .

وفي الليلة التي قتل فيها حسين بن عليّ هرب الفضل بن الربيع .

وفي هذه السنة توجّه طاهر بن الحسين حين قدم عليه هَرْثمة من حُلوان إلى الأهواز ، فقتَل عامل محمد عليها ، وكان عامله عليها محمد بن يزيد المهلبيّ بعد تقديم طاهر جيوشاً أمامه إليها قبل إنفصاله إليه لحربه .

ذُكر عن يزيد بن الحارث ، قال : لما نزل طاهر شلاشان ، وجّه الحسين بن عمر الرستميّ إلى الأهواز ، وأمره أن يسير سيراً مقتصداً ولا يسير إلّا بطلائع ، ولا ينزل إلا في موضع حَصِين يأمن فيه على أصحابه . فلما توجّه أتت طاهراً عيونه ، فأخبروه أن محمد بن يزيد المهلبيّ ـ وكان عاملاً لمحمد على الأهواز ـ قد توجّه في جمع عظيم يريد نزول جندي سابور ـ وهو حدّ ما بين الأهواز والجبل ـ ليحمي الأهواز ، ويمنع من أراد دخولها من أصحاب طاهر ؛ وإنه في عدّة وقوّة، فدعا طاهر عدّةً من أصحابه ؛ منهم محمد بن طالوت ومحمد بن العلاء والعباس بن بخاراخذاه والحارث بن هشام وداود بن موسى وهادي بن حفص ، وأمرهم أن يكمّشوا السَّير حتى يتّصل أوّلهم بآخر أصحاب الحسين بن عمر الرّستميّ ، فإن احتاج إلى إمداد أمدّوه ، أو لقيه جيش كانوا ظهراً له . فوجّه تلك الجيوش ، فلم يلقهم أحدٌ حتى شارفوا الأهواز .

وبلغ محمد بن يزيد خبرهُم ، فعرض أصحابَه ، وقوّى ضعفاءهم وحمل الرجّالة على البغال ، وأقبل حتى نزل سوق عسكر مُكرَم ، وصيّر العمران والماء وراء ظهره ، وتخوّف طاهر أن يعجل إلى أصحابه ، فأمدّهم بقريش بن شبل ، وتوجّه هو بنفسه حتى كان قريباً منهم ، ووجّه الحسن بن عليّ المأمـونيّ ، وأمره بمضامّة قريش بن شبل والحسين بن عمر الرستميّ ، وسارت تلك العساكر حتى قاربوا محمد بن يزيد بعسكر مُكرم ؛ فجمع أصحابه فقال : ما ترون ؟ أطاول القوم القتال وأماطلهم اللقاء ، أم أناجزهم كانت لي أم عليّ ؟ فوالله ما أرى أن أرجع إلى أمير المؤمنين أبداً ، ولا أنصرف عن الأهواز فقالوا له : الرأي أن ترجع إلى الأهواز ؛ فتتحصن بها وتغادي طاهراً القتال وتبعث إلى البصرة فتفرض بها الفـروض ، وتستجيش من قدرت عليـه وتابعك من قومك . فقبل ما أشاروا عليه ، وتابعه قومه ، فرجع حتى صـار بسوق الأهـواز . وأمر طـاهر قـريش بن شبل أن يتبعـه ، وأن يعاجله قبـل أن يتحصّن بسوق الأهـواز ، وأمر الحسن بن عـليّ المأمـونيّ والحسين بن عمر الرستميّ أن يسيرا بعقبه ، فإن احتاج إلى معونتهما أعانـاه . ومضى قريش بن شبـل يقفو محمد بن يزيد ، كلّما ارتحل محمد بن يزيد من قرية نزلها قريش ؛ حتى صاروا إلى سوق الأهواز .

وسبق محمد بن يزيد إلى المدينة فدخلها ، واستند إلى العمران ، فصيّره وراء ظهره ، وعبّى أصحابه ،

وعزم على مواقعتهم ؛ ودعا بالأموال فصبّت بين يديه ، وقال لأصحابه : مَنْ أحبّ منكم الجائزة والمنزلة فليعرفني أثره . وأقبل قريش بن شبل حتى صار قريباً منه ، وقال لأصحابه : الزموا مواضعَكم ومصافّكم ، وليكن أكثر ما قاتلتموهم وأنتم مريحون ، فقاتلوهم بنشاط وقوّة ؛ فلم يبق أحدٌ من أصحابه إلا جمع بين يديه ما قدر عليه من الحجارة ، فلم يعبر إليهم محمد بن يزيد ، حتى أوهنوهم بالحجارة ، وجرحوهم جراحات كثيرة بالنُّشاب ، وعبرت طائفة من أصحاب محمد بن يزيد ، فأمر قريش أصحابَه أن يتزلوا إليهم فنزلوا إليهم . فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى رجعوا ، وترادّ الناس بعضهم إلى بعض . والتفت محمد بن يزيد إلى نفر كانوا معه من مواليه ، فقال : ما رأيكم ؟ قالوا : فيماذا ؟ قال : إني أرى من معي قد انهزم ، ولست آمنُ من خذلانهم ، ولا آمُل رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي ، حتى يقضي الله ما أحبّ ، فمن أراد منكم الانصراف فلينصرف ، فوالله لأن تبقوا أحبّ إليّ من أن تعطبوا وتهلكوا . فقالوا : والله ما أنصفناكَ ، إذاً تكون أعتقتنَا من الرّق ورفعتنا من الضّعة ، ثم أغنيتنا بعد القِلّة ، ثم نخذلك على هذه الحال ؛ بل نتقدّم أمامك ونموت تحت ركابك ؛ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك . ثم نزلوا فعرقبوا دوابَّهم ، وحملوا على أصحاب قريش حملةً منكَرة ، فأكثروا فيهم القتل ، وشدخوهم بالحجارة وغير ذلك ، وانتهى بعض أصحاب طاهر إلى محمد بن يزيد ، فطعنه بالرمح فصرعه ؛ وتبادروا إليه بالضّرب والطعن حتى قتلوه ، فقال بعض أهل البصرة يرثيه ، ويذكر مقتله :

مـن ذاقَ طعـم الـرُّقـادِ مِـن فَـرَحٍ ... فـإنـني قـد أَضَـرَّ بـي سَهَـرِي
ولَّى فتَى الـرُّشـدِ فـافتقَـدتُ بـه ... قـلبي وسـمعي وغـرّني بصـري
كـانَ غِيـاثـاً لـدَى المُحـول فقـد ... ولَّـى غـمـامُ الـرَّبـيـعِ والـمطَر
وَفـي العُـيَـيْنِيُّ لـلإمـامِ ولـمْ ... يُـرهِبْـهُ وقْـعُ المُشَـطَّبِ الـذَّكَـرِ
سَـاوَرَ رَيـبُ الـمَـنـونِ دَاهِـيَـةٍ ... لـولا خُـضُوعُ الـعِـبـادِ لـلقَـدَرِ
فـامضِ حميـداً فكـلُّ ذي أجَـلٍ ... يَسْعَـى إلـى مـا سَعَيـتَ بـالأثـرِ

وقال بعض المهالبة ؛ وجرح في تلك الوقعة جراحات كثيرة وقطعت يده :

فمـا لمتُ نفسي غيـرَ أنّي لـم أُطِقْ ... حَـرَاكـاً وأني كنتُ بـالضَّرْب مثخَنـا
ولـو سَـلِمَتْ كفَّـايَ قـاتلتُ دونـه ... وضـارَبت عنه الـطاهِـريَّ المُلَعَّنـا
فتىً لايَرَى أنْ يَخذِلَ السيفَ في الوغى ... إذَا ادَّرَعَ الهيجـاءَ في النقـع واكتَنَى

وذكر عن الهيثم بن عديّ ، قال : لما دخل ابن أبي عيينة على طاهر فأنشده قوله :

مَـن انـسَـتْـه الـبـلادُ لـم يَـرِمِ ... مـنـهـا ومَـن أوحشَـتْـهُ لـم يُـقِـمِ

حتى انتهى إلى قوله :

مـا سـاءَ ظَـنِّـي إلا لـواحـدةٍ ... في الصَّـدرِ محصـورةٍ عـنِ الكـلِمِ

فتبسّم طاهر ، ثم قال : أما والله لقد ساءني من ذلك ما ساءك ، وآلمني ما آلمك ، ولقد كنت كارهاً لما كان ، غير أن الحتف واقع ، والمنايا نازلة ، ولا بدّ من قَطْع الأواصر والتنكّر للأقارب في تأكيد الخلافة ، والقيام بحقّ الطاعة ، فظننّا أنه يريد محمد بن يزيد بن حاتم .

وذكر عمر بن أسد ، قال : أقام طاهر بالأهواز بعد قتله محمد بن يزيد بن حاتم ، وأنفذ عمّاله في كُورها ، وولّى على اليمامة والبحرين وعُمان مما يلي الأهواز ، ومما يلي عمل البصرة ، ثم أخذ على طريق البرّ متوجّهاً إلى واسط ، وبها يومئذ السنديّ بن يحيى بن الحَرَشيّ والهيثم خليفة خزيمة بن خازم ؛ فجعلت المسالح والعمال تتقوّض ، مسلحة مسلحة ، وعاملاً عاملاً ، كلّما قرب طاهر منهم تركوا أعمالهم وهربوا عنها ، حتى قرب من واسط ، فنادى السنديّ بن يحيى والهيثم بن شعبة في أصحابهما ، فجمعاهم إليهما ، وهمّا بالقتال ، وأمر الهيثم بن شعبة صاحب مراكبه أن يسرج له دوابه ، فقرّب إليه فرساً ، فأقبل يقسم طرفه بينها ، واستقبلته عدّة ، فرأى المراكبيّ التغيّر والفزع في وجهه فقال : إنْ أردت الهرب فعليك بها ؛ فإنها أبسط في الرّكض ، وأقوى على السفر . فضحك ثم قال : قرّب فرس الهرب ؛ فإنّه طاهر ؛ ولا عار علينا في الهرب منه ؛ فتركا واسطاً ، وهربا عنها . ودخل طاهر واسطاً ، وتخوّف إن سبق الهيثم والسنديّ إلى فم الصِّلح فيتحصنّا بها . فوّجه محمدَ بن طالوت ، وأمره أن يبادرهما إلى فم الصِّلح ، ويمنعهما من دخولها إن أرادا ذلك ، ووجّه قائداً من قوّاده يقال له أحمد بن المهلب نحو الكوفة . وعليها يومئذ العباس بن موسى الهادي ؛ فلما بلغ العباس خبر أحمد بن المهلب خلع محمداً ، وكتب بطاعته إلى طاهر وببيعته للمأمون ؛ ونزلت خيل طاهر فم النيل ؛ وغلب على ما بين واسط والكوفة ، وكتب المنصور بن المهديّ ـ وكان عاملاً لمحمد على البصرة ـ إلى طاهر بطاعته ، ورحل طاهر حتى نزل طرنايا ؛ فأقام بها يومينْ فلم يرها موضعاً للعسكر ، فأمر بجسر فعقد وخندق له ، وأنفذ كتبه بالتولية إلى العمال .

وكانت بيعة المنصور بن المهديّ بالبصرة وبيعة العباس بن موسى الهادي بالكوفة ، وبيعة المطلب بن عبدالله بن مالك بالموصل للمأمون ، وخلعهم محمداً في رجب سنة ست وتسعين ومائة .

وقيل : إنّ الذي كان على الكوفة حين نزل طاهر من قبَل محمد الفضل بن العباس بن موسى بن عيسى .

ولما كتب من ذكرت إلى طاهر ببيعتهم للمأمون وخلعهم محمداً ، أقرّهم طاهر على أعمالهم ، وولّى داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي الهاشمي مكة والمدينة ، ويزيد بن جرير البَجَليّ اليمن ، ووجّه الحارث بن هشام وداود بن موسى إلى قصر ابن هبيرة .

وفي هذه السنة أخذ طاهر بن الحسين من أصحاب محمد المدائن ، ثم صار منها إلى صَرْصر ، فعقد جسراً ، ومضى إلى صَرْصر .

ذكر الخبر عن سبب دخوله المدائن ومصيره إلى صرصر :

ذُكر أنّ طاهراً لما وجّه إلى قصر ابن هبيرة الحارث بن هشام وداود بن موسى ، وبلغ محمداً خبرُ عامله بالكوفة وخلعه إياه وبيعته للمأمون ، وجّه محمدابن سليمان القائد ومحمد بن حماد البربريّ ، وأمرهما أن يبيّتا الحارث وداود بالقَصْر ، فقيل لهما : إن سلكتما الطريق الأعظم لم يخفَ ذلك عليهما ؛ ولكن اختصر الطريق إلى فم الجامع ، فإنه موضع سوق ومعسكر ، فانزلاه وبيتاهما إن أردتما ذلك ، وقد قربتما منهما ، فوجّها الرّجال من الياسريّة إلى فم الجامع . وبلغ الحارث وداود الخبر ، فركبا في خيل مجرّد ، وتهيآ للرّجالة ، فعبرا من مخاضة في سُوراء إليهم ، وقد نزلوا إلى جَنْبها ، فأوقعا بهم وقعة شديدة . ووجّه طاهر محمد بن زياد ونصير بن الخطاب مدداً للحارث وداود ، فاجتمعت العساكر بالجامع ، وساروا حتى لقوا محمد بن سليمان ومحمد بن حمّاد فيما ما

بين نهر دُرْقيط والجامع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وانهزم أهلُ بغداد ، وهرب محمد بن سليمان حتى صار إلى قرية شاهي ، وعبر الفرات ، وأخذ على طريق البرّية إلى الأنبار ، ورجع محمد بن حماد إلى بغداد ، وقال أبو يعقوب الخرَيميّ في ذلك :

هُمَا عَدَوا بالنّكث كي يَصدَعا به ... صفَا الحقِّ فانفَضّا بجمعٍ مُبَدَّدِ
وأفلتَنَا ابن البَربريِّ مُضَمَّرٌ ... مِنَ الخيل يَسمُو للجيادِ ويَهتَدِي

وذكر يزيد بن الحارث ، أنّ محمداً بن حماد البربريّ لما دخل بغداد ، وجّه محمدٌ المخلوع الفضلَ بن موسى بن عيسى الهاشميّ إلى الكوفة ، وولّاه عليها ، وضمّ إليه أبا السلاسل وإياس الحرابيّ وجمهوراً النجاريّ ، وأمره بسرعة السير ؛ فتوجّه الفضل ؛ فلمّا عبر نهر عيسى عثر به فرسُه ، فتحوّل منه إلى غيره وتطيّر ، وقال : اللهمّ إني أسألك بركة هذا الوجه . وبلغ طاهراً الخبرُ ، فوجّه محمد بن العلاء ، وكتب إلى الحارث بن هشام وداود بن موسى بالطاعة له ، فلقي محمد بن العلاء الفضل بقرية الأعراب ، فبعث إليه الفضل : إني سامع مطيع لطاهر ؛ وإنما كان مخرجي بالكيد مني لمحمد ؛ فخلّ لي الطريق حتى أصير إليه ، فقال له محمد : لستُ أعرف ما تقول ولا أقبله ولا أنكره ؛ فإن أردت الأمير طاهراً فارجع وراءك ؛ فخذ أسهلَ الطريق وأقصدَها ، فرجع وقال محمد لأصحابه : كونوا على حذر ؛ فإني لست آمن مكرَ هذا ؛ فلم يلبث أن كبّر وهو يرى أن محمد بن العلاء قد أمِنَه ، فوجده على عدّة وأهبة ، واقتتلوا كأشدّ ما يكون من القتال ، وكبا بالفضل فرسُه ؛ فقاتل عنه أبو السلاسل حتى ركب ، وقال : أذكر هذا الموقف لأمير المؤمنين . وحمل أصحابُ محمد بن العلاء على أصحاب الفضل فهزموه ، ولم يزالوا يقتلونهم إلى كُوثى ، وأسِر في تلك الوقعة إسماعيل بن محمد القرشيّ وجمهور النجاريّ ، وتوجّه طاهر إلى المدائن ، وفيها جند كثير من خيول محمد ؛ عليهم البرمكيّ قد تحصن بها ، والمدد يأتيه في كلّ يوم ، والصِّلات والخلع من قبَل محمد . فلما قرب طاهر من المدائن ـ وكان منها على رأس فرسخين ـ نزل فصلى ركعتين ، وسبّح فأكثر التسبيح ، فقال : اللهمّ إنا نسألك نصراً كنصرك المسلمين يوم المدائن . ووجّه الحسَن بن عليّ المأمونيّ وقريش بن شبل ، ووجّه الهادي بن حفص على مقدّمته وسار . فلما سمع أصحابُ البرمكيّ صوتَ طبوله ، أسرجوا الدوابّ ، وأخذوا في تعبيتهم، وجعل مَنْ في أوائل الناس ينضمّ إلى أواخرهم ، وأخذ البرمكيّ في تسوية الصفوف ؛ فكلّما سوّى صفّاً انتفض واضطرب عليه أمرهم ، فقال : اللهم إنا نعوذ بك من الخذلان ؛ ثم التفت إلى صاحب ساقته ، فقال: خلّ سبيل الناس ؛ فإنّي أرى جنداً لا خير عندهم ؛ فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد ، فنزل طاهر المدائن ، وقدّم منها قريش بن شبل والعباس بن بخار اخذاه إلى الدّرْزيجان ، وأحمد بن سعيد الحَرشيّ ونصر بن منصور بن نصر بن مالك معسكران بنهر ديائي ، فمنعا أصحاب البرمكيّ من الجواز إلى بغداد ، وتقدم طاهر حتى صار إلى الدرزيجان حيال أحمد ونصر بن منصور ، فسيّر إليهما الرجال ، فلم يجر بينهما كثير قتال حتى انهزموا ، وأخذ طاهر ذات اليسار إلى نهر صرصر ، فعقد بها جسراً ونزلها .

وفي هذه السنة خلع داود بن عيسى عاملُ مكة والمدينة محمداً ـ وهو عامله يومئذ عليهما ـ وبايع للمأمون، وأخذ البيعة بهما على الناس له؛ وكتب بذلك إلى طاهر والمأمون؛ ثم خرج بنفسه إلى المأمون.

ذكر الخبر عن ذلك وكيف جرى الأمر فيه :

ذُكر أنّ الأمين لما أفضت الخلافة إليه، بعث إلى مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وعزل عامل الرّشيد على مكة؛ وكان عاملُه عليها محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزوميّ، وكان إليه الصلاة بها وأحداثها والقضاء بين أهلها؛ فعُزل محمد عن ذلك كلِّه بداود بن عيسى؛ سوى القضاء فإنه أقرّه على القضاء. فأقام داود والياً على مكة والمدينة لمحمد، وأقام للناس أيضاً الحجّ سنة ثلاث وأربع وخمس وتسعين ومائة، فلمّا دخلت سنة ست وتسعين ومائة، بلغه خلع عبد الله المأمون أخاه، وما كان فعل طاهر بقوّاد محمد، وقد كان محمد كتب إلى داود بن عيسى يأمره بخلع عبد الله المأمون والبيعة لابنه موسى، وبعث محمد إلى الكتابين اللذيْن كان الرّشيد كتبهما وعلّقهما في الكعبة فأخذهما، فلما فعل ذلك جمع داود حَجَبة الكعبة والقرشيِّين والفقهاء ومَنْ كان شهد على ما في الكتابينْ من الشهود ـ وكان داود أحدَهم ـ فقال داود: قد علمتم ما أخَذَ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق عند بيت الله الحرام حين بايعنا لأبنيْه؛ لَنكوننّ مع المظلوم منهما على الظالم، ومع المبغيّ عليه على الباغي، ومع المغدور به على الغادر؛ فقد رأينا ورأيتم أنّ محمداً قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن، وخلَعهما وبايع لابنه الطفل؛ رضيع صغير لم يفطم، واستخرج الشرْطين من الكعبة عاصياً ظالماً، فحرّقهما بالنار. وقد رأيت خلعه، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة؛ إذ كان مظلوماً مبغيًّا عليه. فقال له أهل مكة: رأيُنا تبعٌ لرأيك، ونحن خالعوه معك؛ فوعدهم صلاة الظهيرة؛ وأرسل في فجاج مكة صائحاً يصيح: الصلاة جامعة! فلما جاء وقت صلاة الظهر ـ وذلك يوم الخميس لسبع وعشرين ليلة خلت من رجب سنة ست وتسعين ومائة ـ خرج داود بن عيسى، فصلّى بالناس صلاة الظهر، وقد وضع له المنبر بين الرّكن والمقام، فصعد فجلس عليه، وأمر بوجوه الناس وأشرافهم فقربوا من المنبر؛ وكان داود خطيباً فصيحاً جهير الصوت؛ فلما اجتمع الناس قام خطيباً، فقال:

الحمد لله مالك الملك؛ يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه ولا شريك له، قائماً، بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين، وختم به النبيين، وجعله رحمةً للعالمين، صلّى الله عليه في الأولين والآخرين. أما بعد يا أهلَ مكة؛ فأنتم الأصل والفرع، والعشيرة والأسرة، والشركاء في النعمة، إلى بلدكم نفذ وفدُ الله، وإلى قبلتكم يأتمّ المسلمون، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرّشيد هارون رحمة الله عليه وصلاتُه حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصُرنَّ المظلوم منهما على الظالم، والمبغيَّ على الباغي، والمغدورَ به على الغادر؛ ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر، وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن البيت الحرام؛ وقد حلّ لنا ولكم خلعُه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغيّ عليه المغدور به. ألا وإني أشهدكم أني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قَلنسوتي هذه من رأسي ـ وخلع قلنسوته عن رأسه فرمى بها إلى بعض الخدم تحته، وكانت من برود حبرة مسلسلة حمراء، وأتي بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها ـ ثم قال: قد بايعتُ لعبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم.

فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر، رجل فرجل، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة، وخلَع محمداً، ثم نزل عن المنبر، وحانت صلاة العصر، فصلّى بالناس، ثم جلس في ناحية المسجد، وجعل الناس يبايعونه جماعةً بعد جماعةً؛ يقرأ عليهم كتاب البَيْعة، ويصافحونه على كفِّه، ففعل ذلك أياماً.

وكتب إلى ابنه سليمان بن داود بن عيسى وهو خليفته على المدينة، يأمره أن يفعل بأهل المدينة مثلَ ما فعل هو بأهل مكة؛ من خلْع محمد والبيعة لعبد الله المأمون فلما رجع جواب البيعة من المدينة إلى داود وهو بمكة، رحَل من فوره بنفسه وجماعة من ولده يريد المأمون بمَرْو على طريق البصرة، ثم على فارس، ثم على كرْمان؛ حتى صار إلى المأمون بمَرْو، فأعلمه ببيعته وخلعه محمداً ومسارعة أهل مكة وأهل المدينة إلى ذلك؛ فسرَّ بذلك المأمون، وتيمّن ببركة مكة والمدينة؛ إذ كانوا أوّل من بايعه، وكتب إليهم كتاباً ليِّناً لطيفاً يَعِدهم فيه الخير، ويبسط أملهم. وأمر أن يُكتب لداود عهد على مكة والمدينة وأعمالها من الصلاة والمعاون والجباية، وزيد له ولاية عكّ، وعقد له على ذلك ثلاثة ألوية، وكتب له إلى الريّ بمعونة خمسمائة ألف درهم، وخرج داود بن عيسى مسرعا مُغذًّا مبادراً لإدراك الحجّ، ومعه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، وقد عقد المأمون للعباس بن موسى بن عيسى على ولاية الموسم، فسار هو وعمّه داود حتى نزلا بغداد على طاهر بن الحسين، فأكرمهما وقرّبهما، وأحسن معونتهما، ووجّه معهما يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْريّ، وقد عقد له طاهر على ولاية اليمن، وبعث معه خيلاً كثيفة، وضمن لهم يزيد بن جريربن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْريّ أن يستميل قومَه وعشيرته من ملوك أهل اليمن وأشرافهم؛ ليخلعوا محمداً ويبايعوا عبد الله المأمون.

فساروا جميعاً حتى دخلوا مكة. وحضر الحجّ، فحجّ بأهل الموسم العباس بن موسى بن عيسى، فلما صدروا عن الحجّ انصرف العباس حتى أتى طاهر بن الحسين ـ وهو على حصار محمد ـ وأقام داود بن عيسى على عمله بمكة والمدينة؛ ومضى يزيد بن جرير إلى اليمن، فدعا أهلَها إلى خَلْع محمد وبيعة عبد الله على المأمون، وقرأ عليهم كتاباً من طاهر بن الحسين يَعدُهم العدل والإنصاف، ويرغّبهم في طاعة المأمون، ويعلّمهم ما بسط المأمون من العَدل في رعيّته؛ فأجاب أهلُ اليمن إلى بَيْعة المأمون، واستبشروا بذلك، وبايعوا للمأمون، وخلَعوا محمداً، فسار فيهم يزيد بن جرير بن يزيد بأحسنِ سيرة، وأظهر عَدْلا وإنصافاً، وكتب بإجابتهم وبيعتهم إلى المأمون وإلى طاهر بن الحسين.

وفي هذه السنة عقد محمد في رجب وشعبان منها نحواً من أربعمائة لواء لقوّاد شتى، وأمّر على جميعهم عليّ بن محمد بن عيسى بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلى هرثمة بن أعين، فساروا فالتقوْا بجَلُلْتا في رمضان على أميال من النّهروان، فهزمهم هرثمة، وأسر عليّ بن محمد بن عيسى بن نهيك، وبعث به هرثمة إلى المأمون، وزحف هرثمة فنزل النهروان.

وفي هذه السنة استأمن إلى محمد من طاهر جماعة كثيرة، وشغب الجند على طاهر، ففرّق محمد فيمن صار إليه من أصحاب طاهر مالاً عظيماً وقوّد رجالا، وغلّف لحاهم بالغالية، فسمُّوا بذلك قوّاد الغالية.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وإلى ما آل إليه الأمر فيه:

ذكر عن يزيد بن الحارث، قال: أقام طاهر على نهر صَرْصر لما صار إليها، وشمّر في محاربة محمد وأهل بغداد، فكان لا يأتيه جيش إلا هزمه، فاشتد على أصحابه ما كان محمد يعطي من الأموال والكُسا، فخرج من عسكره نحو من خمسة آلاف رجل من أهل خُراسان ومَن التفّ إليهم، فسُرّ بهم محمد، ووعَدهم ومنّاهم، وأثبت أسماءهم في الثمانين. قال: فمكثوا بذلك أشهراً، وقوّد جماعة من الحربية وغيرهم ممن تعرض لذلك

وطلبه، وعقد لهم، ووجّههم إلى دسكرة الملك والنهروان، ووجّه إليهم حبيب بن جهم النمريّ الأعرابيّ في أصحابه؛ فلم يكن بينهم كثير قتال، وندب محمد قوّاداً من قوّاد بغداد، فوجّههم إلى الياسريّة والكوثريّة والسفينتَين، وحمل إليهم الأطعمة، وقواهم بالأرزاق، وصيّرهم ردءاً لمن خلفهم، وفرّق الجواسيس في أصحاب طاهر، ودسّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماع والترغيب، فشغبوا على طاهر، واستأمن كثير منهم إلى محمد، ومع كل عشرة أنفس منهم طبل، فأرعدوا وأبرقوا وأجلبوا، ودنَوْا حتى أشرفوا على نهر صرصر، فعبّى طاهر أصحابه كراديس، ثم جعل يمرّ على كلّ كِردوس منهم، فيقول: لا يغرّنكم كثرة مَنْ ترون، ولا يمنعكم استئمان من استأمن منهم، فإنّ النصر مع الصدق والثبات، والفتح مع الصبر، وربّ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ثم أمرهم بالتقدّم، فتقدّموا واضطربوا بالسيوف مليًّا. ثم إن الله ضرب أكتاف أهل بغداد فولَّوْا منهزمين، وأخلوا موضع عسكرهم، فانتهب أصحاب طاهر كلّ ما كان فيه من سلاح ومال.

وبلغ الخبرُ محمداً، فأمر بالعطاء فوُضع، وأخرج خزائنه وذخائره، وفرّق الصِّلات وجمع أهل الأرباض، واعترض الناس على عينه، فكان لا يرى أحداً وسيماً حسن الرّواء إلا خلع عليه وقوّده، وكان لا يقوّد أحداً إلا غلِّفت لحيته بالغالية؛ وهم الذين يسمّون قوّاد الغالية. قال: وفرّق في قوّاده المحدثين لكل رجل منهم خمسمائة درهم وقارورة غالية، ولم يعط جند القواد وأصحابهم شيئاً. وأتت عيون طاهر وجواسيسه طاهراً بذلك؛ فراسلهم وكاتبهم، ووعدهم واستمالهم، وأغرى أصاغرهم بأكابرهم، فشغبوا على محمد يوم الأربعاء لست خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة، فقال رجل من أبناء أهل بغداد في ذلك:

قُلْ لِلأَمينِ اللّهَ في نَفْسِهِ ... ما شتَّتَ الجندَ سِوَى الغاليهْ
وطاهِرٌ نفسي تقِي طاهِراً ... برسلِه والعُدَّةِ الكافِيَهْ
أضحى زمامُ المُلكِ في كفِّهِ ... مُقاتلا للفِئةِ الباغِيهْ
يا ناكِثاً أسلَمَهُ نَكثُه ... عُيوبُهُ مِنْ خُبثِهِ فاشِيَهْ
قد جاءَكَ الليثُ بشَدّاته ... مُستَكلِباً في أُسْدٍ ضارِيَه
فاهرُبْ ولا مَهْرَبَ من مِثْلِهِ ... إلّا إلى النارِ أو الهاويه

قال: ولمّا شغب الجند، وصعب الأمر على محمد شاور قوّاده، فقيل له: تدارك القوم، فتَلاف أمرك؛ فإنّ بهم قوام ملكك؛ وهم بعد الله أزالوه عنك أيام الحسين، وهم ردّوه عليك؛ وهم من قد عرفْتَ نجدَتهم وبأسهم. فلجّ في أمرهم وأمر بقتالهم، فوجّه إليهم التنوخيّ وغيره من المستأمنة والأجناد الذين كانوا معه، فعاجل القوم القتال وراسلهم طاهر وراسلوه؛ فأخذ رهائنهم على بذْل الطاعة له، وكتب إليهم، فأعطاهم الأمان، وبذَل لهم الأموال، ثم قدم فصار إلى البستان الذي على باب الأنبار يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة، فنزل البستان بقوّاده وأجناده وأصحابه، ونزل مَنْ لحق بطاهر من المستأمنة من قوّاد محمد وجنده في البستان وفي الأرباض، وألحقهم جميعاً بالثمانين في الأرزاق، وأضعف للقواد وأبناء القوّاد الخواصّ، وأجرى عليهم وعلى كثير من رجالهم الأموال، ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها، وفُتِن الناس، ووثب على أهل الصلاح الدُّعار والشطار، فعزّ الفاجر، وذلّ المؤمن، واخْتلّ الصالح، وساءت حالُ الناس إلّا من كان في عسكر طاهر لتفقّده أمرَهم، وأخذه على أيدي سفهائهم وفساقهم؛ واشتد في ذلك عليهم، وغادى القتال

وراوَحه، حتى تواكل الفريقان، وخربت الدار.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ من قِبَل طاهر، ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أوّل موسم دُعَي له فيه بالخلافة بمكة والمدينة.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة لحق القاسم بن هارون الرشيد ومنصور بن المهديّ بالمأمون من العراق، فوجّه المأمون القاسم إلى جرجان.

وفيها حاصر طاهر وهَرْثمة وزهير بن المسيّب محمد بن هارون ببغداد.

ذكر الخبر عما آل إليه أمر حصارهم في هذه السنة، وكيف كان الحصار فيها:

ذكر محمد بن يزيد التميميّ وغيره أنّ زهير بن المسيّب الضّبيّ نزل قصر رقة كلواذى، ونصب المجانيق والعرّادات واحتفر الخنادق، وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمي بالعرّادات مَنْ أقبل وأدبر، ويعشِر أموال التجار ويجبي السفن، وبلغ من الناس كلّ مبلغ؛ وبلغ أمرُه طاهراً وأتاه الناس فشكوا إليه ما نزلَ بهم من زهير بن المسيّب، وبلغ ذلك هرثمة، فأمدّه بالجند، وقد كاد يؤخذ، فأمسك عنه الناس، فقال الشاعر من أهل الجانب الشرقيّ - لم يعرَف اسمه - في زهير وقتله الناسَ بالمجانيق:

لا تَقْرَبِ المَنجنيقَ والحجَرا ... فقد رأيْتَ القتيلَ إذ قُبرَا
باكَرَ كيْ لا يفوتَه خبرٌ ... راحَ قَتيلاً وخَلَّفَ الخبرَا
ماذا به كان من نشاطٍ ومنْ ... صحّةِ جسمٍ به إذا ابتكرَا
أرادَ ألَّا يقالَ كان له ... أمرٌ فلم يَدْرِ مَن به أمَرا
يا صاحبَ المنجنيق ما فَعَلتْ ... كفَّاكَ، لمْ تُبقيَا ولم تَذَرَا
كانَ هَوَاهُ سوى الَّذي قُدِرا ... هَيْهَاتَ لَنْ يَغلِبَ الهوَى القدَرَا

ونزل هرثمة نهربين، وجعل عليه حائطاً وخندقاً، وأعدّ المجانيق والعرّادات، وأنزل عبيد الله بن الوضّاح الشمّاسيّة، ونزل طاهر البُستان بباب الأنبار، فذُكر عن الحسين الخليع أنه قال: لما تولّى طاهر البُستان بباب الأنبار، دخل محمداً أمر عظيم من دخوله بغداد، وتفرّق ما كان في يده من الأموال، وضاق ذَرْعاً، وتحرّق صدراً، فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذّهب والفضّة دنانير ودراهم، وحملها إليه لأصحابه وفي نفقاته، وأمر حينئذ برمي الحرّبية بالنِّفط والنيران والمجانيق والعرّادات، يقتل بها المقبل والمدبر، ففي ذلك يقول عمرو بن عبد الملك العِتْريّ الوراق:

يا رماةَ المنجنيق ... كُلُّكُمْ غيرُ شَفيقِ

مـا تـبـالـونَ صَـدِيـقـاً كـانَ أو غـيـرَ صـدِيـقِ
وَيـلَكـم تَـدْرونَ مـا تـرْ مـونَ مُـرَّارَ الـطَّريـقِ
رُبَّ خَـوْدٍ ذَاتِ دَلٍّ وهْـيَ كـالـغـصـنِ الـوريـقِ
أُخـرِجَـت مِـنْ جَـوْف دُنـيَـا هَـا وَمِـنْ عَـيْشٍ أنِـيـقِ
لـم تَـجـدْ مِـن ذَاكَ بُـدًّا أُبْـرِزت يـومَ الـحـريـقِ

وذكر عن محمد بن منصور الباوَرْديّ، قال: لما اشتدت شوكة طاهر على محمد، وهزمت عساكره، وتفرّق قواده كان فيمن استأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم، فلحق به، فولّاه ناحية البغيِّين والأسواق هنالك وشاطىء دَجْلة؛ وما اتّصل به أمامه إلى جسور دجلة، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كلّ ما غلب عليه من الدّور والدّروب، وأمدّه بالنفقات والفَعلة والسلاح، وأمر الحربيّة بلزومه على النوائب، ووكّل بِطريق دار الرقيق وباب الشأم واحداً بعد واحد؛ وأمر بمثل الذي أمر به سعيد بن مالك؛ وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد؛ ففي ذلك يقول العِتْريّ:

مَنْ ذا أصـابـكِ يـا بغـداذُ بـالعَينِ أَلَـمْ تَكُـوني زمـانـاً قُـرَّةَ العيـنِ!
ألم يَكُنْ فِيـكِ قـومٌ كـان مسكنهـمْ وكـان قـربـهُـمُ زينـاً من الـزَّيْـن!
صَـاحَ الغـرابُ بهمْ بـالْبيْن فـآفترقـوا مَـاذا لقيتُ بهم من لَـوْعـةِ البَيْـن!
أستـودعُ الله قـومـاً مَـا ذكـرتهـمُ إلّا تـحـدَّرَ مـاءُ العينِ من عَـينِـي
كَـانُـوا ففـرَّقهمْ دهـرٌ وصَـدَّعَهُـمْ والـدَّهْـرُ يَصْـدَعُ مـا بينَ الفـريقين

قال: ووكّل محمد عليًّا فراهمرد؛ فيمن ضمّ إليه من المقاتلة، بقصر صالح وقصر سُليمان بن أبي جعفر إلى قُصور دِجلة وما والاها، فألحّ في إحْرَاق الدُور والدُّروب وهدْمها بالمجانيق والعرّادات على يَدَيْ رجلٍ كان يعرف بالسَّمَرْقنديّ؛ فكان يرمي بالمَنجنيق، وفعل طاهر مثل ذلك؛ وأرسل إلى أهل الأرْباض من طريق الأنْبَار وباب الكوفة وما يليها، وكلما أجابه أهلُ ناحية خندق عليهم، ووضع مسالِحه وأعـلامه، ومَنْ أبى إجـابته والدخول في طاعته ناصبه وقاتله، وأحرق منزله؛ فكان كذلك يغدو ويروح بقوّاده وفرسانه ورجّالته؛ حتى أوحشت بغداد، وخاف الناس أن تبقى خراباً؛ وفي ذلك يقول الحسين الخليع:

أَتُـسْـرعُ الـرِّحْـلَة إغْـذَاذا عَـنْ جَـانِـبـيْ بـغـداذ أمْ مـاذَا!
أَلـمْ تَـرَ الـفـتـنـةَ قـد أَلَّـفَـتْ إلـى أُولِـي الـفـتـنـةِ شُـذَّاذَا
وانـتـقـضـتْ بـغـداذُ عُـمْـرانـهـا عــن رأي لا ذاك ولا هــذا
هَـدْمـاً وَحَـرْقـاً قـد أُبِـيدَ أهلُهـا عـقـوبـة لاذَت بـمَـنْ لاذا
مـا أحسنَ الـحـالات إن لم تَعُـدْ بـغـداذ فـي الـقـلَّة بَـغْـداذا

قال: وسمّى طاهر الأرباضَ التي خالفه أهلها ومدينةَ أبي جعفر الشرقية، وأسواقَ الكرخ والخلد وما والاها دارَ النكث، وقبض ضياع مَنْ لم ينحزْ إليه من بني هاشم والقوّاد والموالي وغلاّتهم، حيث كانت من عمله، فذلُّوا وانكسروا وانقادوا، وذلّت الأجناد وتواكلت عن القتال؛ إلا باعة الطريق والعُراة وأهل السجون والأوباش والرّعاع والطرّارين وأهـل السوق. وكـان حاتم بن الصقـر قد أبـاحهم النَّهب، وخرج الْهِرْش

والأفارقة، فكان طاهر يقاتلهم لا يفترُ عن ذلك ولا يملُّه، ولا يني فيه فقال الخريميّ يذكر بغداد، ويصف ما كان فيها:

قـالـوا: ولم يلعبِ الـزمـانُ ببغـ ـدادَ وتَـعـثـرْ بـهـا عـواثـرهـا
إذ هـي مثـلُ العـروس بـاطنهـا مـشـوّقٌ لـلفـتـى وظـاهِـرُهـا
جـنّـةُ خُـلْدٍ ودارُ مَـغـبَـطَةٍ قـلَّ مـن الـنـائـبـات وَاتـرُهـا
دَرَّتْ خُلوفُ الـدّنيـا لسـاكنهـا وقـلَّ مَـعـسـورُهـا وعـاسِـرُهـا
وانـفـرَجَتْ بـالنعيمِ وانتجعَتْ فـيـهـا بـلذاتـهـا حـواضِـرُهـا
فـالـقـومُ منهـا في روضـةٍ أُنُفٍ أشـرَقَ غِـبَّ الـقِـطارِ زاهـرُهـا
مَـن غـرَّهُ العـيشُ في بُلْهِنـيـةٍ لـو أنَّ دُنـيـا يـدُومُ عـامـرُهـا
دارُ مـلوكٍ رَسَـت قـواعـدهـا فـيـهـا وقـرَّت بـهـا منـابـرُهـا
أهـلُ العـلا والنـدى وأنـدِيـةُ الـ ـفخـرِ إذا عُـدِّدَت مَفـاخـرُهـا
أفـراخُ نُعْمَى في إرْثِ مَمْلَكَـةٍ شَـدَّ عُـراهـا لـهـا أكـابِـرُهـا
فـلمْ يَـزلْ والـزَّمـان ذُو غِـيَـر يَـقـدَحُ في مُـلكِهَـا أصـاغِـرُهـا
حتـى تَـسـاقـتْ كـأسـاً مُـتَـمِّـلةً من فتـنـةٍ لا يـقـال عـاثِـرُهـا
وافـتـرقـتْ بـعـدَ أُلفَـةٍ شِـيَـعـاً مـقـطوعـةً بيـنَـهـا أواصِـرُهـا
يـا هـل رأيتَ الأمـلاكَ مـا صنعت إذ لم يَـزَعْهـا بـالنصح زاجِـرُهـا
أوْرَدَ أمـلاكُـنـا نـفـوسَـهُـمُ هُـوَّةَ غَـيّ أعْـيَـتْ مَـصـادِرُهـا
مـا ضـرهـا لـو وَفَتْ بمَـوْثِقِهَـا واستحكمتْ في التُّقى بصـائـرهـا
ولـم تـسـافِـك دمـاءَ شيعـتـهـا وتـبـتـعِـث فِـتـيـةً تـكـابـرهـا
وأقنعـتهـا الـدنيـا التي جُمِعَت لهـا وَرُعْبُ النفـوسِ ضـائـرُهـا
مـا زال حـوض الأمـلاك يحفـره مسجُورها بـالهـوى وسـاجِرُهـا
تبغِـي فضـولَ الـدنيـا مكـاثـرةً حتى أُبيحَـت كُـرْهـاً ذَخـائِـرُهـا
تـبـيـعُ مـا جـمَّـع الأُبـوَّةُ لِـلْـ ـأبنـاءِ لا أربـحَـت متـاجِـرُهـا
يـا هـل رأيت الجـنـانَ زاهـرَةً يـرُوقُ عينَ البـصيـرِ زاهـرهـا!
وهـل رأيتَ القُـصـورَ شـارعـةً تُكِنُّ مثـلَ الـدُّمى مقـاصـرُهـا
وهـل رأيت القُرى التي غَـرَس الـ ـأمـلاكُ مـخـضَّـرةً دَسـاكِـرُهـا
محفـوفـةً بـالكـرومِ والنخـل والـرَّ يحـانِ مـا يستـغـلُّ طـائـرُهـا
فـإنهـا أصبحت خـلايـا مـن الـ ـإنسـانِ قـد أُدْمِيَتْ محـاجـرهـا
قَفـراً خَـلاءً تعـوي الكـلابُ بهـا يُنكـرُ منهـا الـرسـومَ زائـرُهـا
وأصبـحَ البـؤس مـا يـفـارقُـهـا إلفـاً لهـا والـسُّـرورُ هـاجـرُهـا
بـزَنـدوَرْدٍ والـيَـاسِـريَّـةِ والـشَّط ـيـن حيـث انتـهـت معـابـرهـا
ويـا تـرلحي والخيـزُرانيـة الـ ـعليـا التي أشـرفت قنـاطـرُهـا
وقـصـرِ عَبـدوَيْـه عبـرةٌ وهُـدًى لـكـلِّ نفسٍ زَكَـت سَـرائِـرُهـا

فأين حُرّاسُها وحارسُها — وأين مجبورُها وجابرها!
وأين خِصْيانها وحِشْوَتُها — وأين سكّانُها وعامرُها
أين الجَرادِيَّةُ الصقالبُ والـ — ـأحبُشُ تعدُو هُدْلاً مَشافرُها
ينصدعُ الجندُ عن مواكبها — تعدو بها سُرَّباً ضَوامِرُها
بالسِّندِ والهند والصقالِبِ وَالـ — ـنُّوبَةِ شِيبَتْ بها بَرابرُها
طيراً أبابيلَ أرسلَت عَبَثاً — يقدُمُ سُودانَها أحامرُها
أين الظِّباءُ الأبكارُ في روضه الـ — ـملكِ تَهادَى بها غَرائِرُها!
أين غَضاراتُها وَلَذّتها — وأين مَحبُورُها وَحابِرُها!
بالمسك والعنبرِ اليمانِ والـ — ـيلنجُوجِ مَشبُوبَةٌ مَجامِرُها
يَرفُلْن في الخَزِّ والمجَاسِدِ وَالـ — ـمَوْشيِّ محطومَةً مَزامِرُها
فأين رقاصها وَزامِرُها — يُجبْنَ حيثُ انتهت حناجرُها
تكادُ أسماعُهم تُسَكُّ إذا — عَارضَ عِيدانَها مَزاهرُها
أمسَت كَجَوف الحِمار خَالِيَةً — يَسعَرُها بالجحيم ساعرُها
كأنّما أصبحتْ بساحتهمْ — عادُ ومسَّتْهُمُ صراصرُها
لا تعلمُ النفسُ ما يُبايتُها — من حَادِث الدّهر أو يُباكرُها
تُضحي وتُمسي دَريَّةً غَرَضاً — حيث استقرّت بها شراشرها
لأسْهُمِ الدّهرِ وهو يَرشُقُها — مُحنطُها مَرَّةً وَباقِرُها
يَا بُؤسَ بَغَدادَ دَار مَملَكَةٍ — دارتْ على أهلها دوائرُها
أمهلها الله ثم عاقَبها — لمّا أحاطت بها كبائرُها
بالخسف والقَذف والحريق وَبالـ — ـحربِ التي أصبحت تساورُها
كم قد رأينا من المعاصي ببغدا — د فهل ذو الجلال غافرها!
حلّت ببَغدادَ وهيَ آمنةٌ — داهيةٌ لم تكن تحاذِرُها
طالَعها السوءُ من مَطَالِعِهِ — وأدركت أهلَها جرائرُها
رَقَّ بها الدينُ واسْتُخفَّ بذي الـ — ـفضل وَعَزَّ النُّسَّاكَ فاجرُها
وخَطَّمَ العبدُ أنفَ سَيِّدِهِ — بالرّغم وَاستُعبِدَت حرائرها
وصار رَبّ الجيران فَاسقُهُم — وابتزَّ أمرَ الدُّروب ذاعرُها
من يَرَ بغدادَ والجنودُ بها — قد ربَّقَتْ حَوْلَها عَساكُرها
كلُّ طَحونِ شهباءَ بَاسِلَةٍ — تسْقِطُ أَحْبالها زَماجِرُها
تُلقِي بغيِّ الرّدَى أوانِسَها — يُرْهِقها للّقاءِ طَاهرُها
والشيخ يَعدُو حَزماً كتائبه — يُقدِمُ أعجازَها يعاوِرُها
وَلِزُهير بالفِرْك مأْسَدَةٌ — مرقومهُ صلبَةٌ مَكاسِرُها
كتائبُ الموتِ تحتَ ألوِيَةِ — أبْرَحَ منصورُها وَناصِرُها

يعلم أن الأقدار واقعةٌ   وَقعاً على ما أَحَب قَادرُها
فتلكَ بغدادُ ما يُبنَّى من الذ   لَّةِ في دُورها عَصافِرُها
محفوفةً بالرَّدى مُنطقَةً   بالصُّغر مَحْصُورَةً جَبابِرُها
ما بين شطِّ الفراتِ منه إلى   دِجْلةَ حيث انتهت معابِرُها
بارك هادِي الشَّقْراءِ نافِرُه   تَرْكضُ من حولِها أشَاقِرُها
يُحْرقِها ذا وذاكَ يهدمها   ويَشتفِي بالنهابِ شاطرُها
والكَرْخُ أسواقُها مُعَطَّلةٌ   يَستنّ عَيَّارُها وعائرُها
أخرجت الحربُ من سواقِطها   آسادَ غِيلٍ غُلْباً تُسَاورُها
من البواري تِرَاسُها ومن الـ   ـخُوص إذا استلأمَت مَغافرها
تَغدُو إلى الحرب في جَواشِنها الـ   ـصّوف إذا ما عُدَّت أساورُها
كَتَائبُ الهُرْش تحت رايَتِهِ   ساعَدَ طَرّارَها مُقامِرُها
لا الرزقَ تبغي ولا العطاءَ ولا   يَحشُرُها للِّقاء حاشِرُها

في كلّ دَرْبٍ وكلِّ ناحيةٍ   خطَّارَةٌ يَستَهلُّ خَاطِرُها
بمثِلِ هَامِ الرجال من فلقَ الصَّـ   ـخر يَزُودُ المِقلاعَ بَائرُها
كأنَّما فوقَ هَامِها فِرَقٌ   من القطا الكُدْرِ هاج نافِرُها
والقومُ من تحتها لهم زَجَلٌ   وهي ترامي بها خَواطِرُها
بلْ هل رأيتَ السيوفَ مُصلَتَةً   أشهَرها في الأسواقِ شاهِرُها
والخيلَ تستَنُّ في أزقَّتِها   بالتُّركِ مسنونةً خَناجِرُها
وَالنّفطَ والنَّارَ في طَرائِقِها   وهابِياً للدخَانِ عامِرُها
والنَّهبُ تَعدُو به الرِّجالُ وَقدْ   أبدَتْ خلاخيلها خَرائِرُها
مُعصَوصباتٍ وسطَ الأَزِقَّةِ قَدْ   أَبرَزها للعيون ساترها

كلُّ رَقودِ الضُّحَى مخَبَّأَةٍ   لم تَبدُ في أهلها محاجِرُها
بَيْضَةُ خِدرٍ مكنونةٌ بَرَزَت   للناس منشورةً غَدائرُها
تَعثرُ في ثوبها وَتُعْجلُها   كَبَّةُ خَيلٍ رِيعَتْ حَوافرُها
تسأَلُ أينِ الطريقُ وَالهةً   والنَّارُ من خَلْفها تُبَادرُها
لم تَجتَلِ الشَّمْسُ حسنَ بَهجَتِها   حتى اجتلتها حربٌ تباشرُها
يا هَلْ رأيتَ الثَّكلى مُوَلْولَةً   في الطُّرْق تسعى والجَهدُ بَاهُرها!
في إثر نَعشٍ عليهِ واحدُها   في صَدْرِهِ طعنةٌ يُساورُها
فرغاءُ ينقى الشنار مربَدُها   يَهزّها بالسنان شاجرُها

تنظرُ في وجههِ وتهتف بالثـ   ـكلِ وجَارِي الدموع حادِرُها
غَرغَر بالنَّفس ثم أسلمها   مَطلولَةً لا يُخاف ثائرها

وقـد رأيت الفتيـان في عَـرصَـةِ الـ ـمَـعـرَك مَـعـفُـورَة مَـنـاخـرُهـا
كـلُّ فـتًـى مَـانـعُ حَـقـيـقَـتَـهُ تَشقَى بـهِ في الـوَغَى مسَـاعـرهـا
بـاتَـتْ عليـهِ الكِـلابُ تَنْهَشُـهُ مخـضُـوبـةً مِنْ دم أظَـافِـرُهـا
أمَـا رَأيـتَ الـخـيـولَ جـائـلَةً بـالـقَـوْمِ مَـنـكُـوبَـةً دَوَائـرُهـا
تعثـرُ بـالأوجُـهِ الحِسَـانِ مِنَ الـ ـقـتلى وغُـلَّتْ دمـاً أشـاعِـرُهُـا
يـطأنَ أكـبـادَ فـتـيـةٍ نُـجُـدٍ يَـفْلِقُ هـامـاتِـهـمْ حـوافـرُهـا
أمَـا رأيت النسـاءَ تحتَ المجـا نيق تـعـادَى شُعْثـاً ضفـائـرُهـا
عقـائـل القـومِ والـعجـائـزَ والـ ـعُنَّسَ لم تـحتبَـرْ مـعـاصِـرُهـا
يحْمِلن قـوتـاً منَ الـطَّحِينِ على الْـ ـأكتَـافِ مَعْصُـوبَـةً مهـاجِـرُهـا
وذاتُ عـيشٍ ضنـكٍ ومُـقـعِـسَـةٌ تـشـدَخُـهـا صَـخـرَةٌ تـعـاورُهـا
تـسـأَلُ عـنْ أهـلهـا وقـد سُلِبتْ وابْـتُـزَّ عـنْ رأسهـا غـفـائـرُهـا
يـا ليتَ شِعْـري والـدَّهْـرُ ذُو دُولٍ يُـرجَى وأُخـرَى تُخْشَى بَـوادرُهـا
هـل تَـرْجعنْ أرضنـا كمـا غنِيَتْ وقـد تـنـاهتْ بـنـا مـصـايـرُهـا
مـنْ مُبلغٌ ذا الـريـاستيْـنِ رسـا لاتٍ تَـأتَّى للنُّصْـحِ شـاعِـرُهـا
بـأنَّ خـيْـرَ الـوُلاةِ قـدْ علمَ الـنَّـ ـاسُ إذا عُـدِّدت مـآثِـرُهـا
خـليـفـةُ الـلّهِ فـي بـريّـتِـهِ الـ ـمـأْمُـونُ مُنْتَـاشُهـا وجـابـرُهـا
سَـمَـتْ إلـيـه آمـالُ أمَّـتـهِ مـنـقـادَةً بَـرُّهـا وفـاجـرُهـا
شـامُوا حيـا العـدْلِ من مخـايلِهِ وأصْحَـرَتْ بـالتُّقَى بَصَـائـرهـا
وأحـمـدُوا منـك سيـرة جلتِ الـ ـشَّـكَّ وأُخـرى صَحَّتْ معـاذِرُهـا
واستجمعتْ طاعـة بـرفقكَ للمَـأْ مـونِ نـجـديُّـهـا وغـائـرهـا
وأنـتَ سمـعٌ فـي العـالـمينَ لـه ومُـقـلـةٌ مـا يـكـلّ نـاظـرُهـا
فـاشكر لـذي الْعَرْشِ فضلَ نعمتِهِ أوجبَ فضـلَ المزيـدِ شاكـرهـا
واحـذَرْ فـداءً لـك الـرّعيـةُ والْـ ـأجـنـادُ مـأْمـورهـا وآمـرهـا
لا تـردن غـمْـرةً بـنـفـسـكَ لا يَصْـدُرُ عنها بـالـرأي صـادرُهـا
عليـك ضحْضاحها فـلا تلجِ الغمـ ـرةَ مـلـتـجَّـةً زواخِـرُهـا
والـقَـصْـدَ إنَّ الـطريـقَ ذو شُعـبٍ أشـأمـهـا وَعْـثُـهـا وَجَـائـرُهـا
أصْـبَـحْـتَ فـي أمـةٍ أوائـلـهـا قـد فـارقـت هَـدْيَهـا أواخـرُهـا
وأنـتَ سُـرْسُـورُهـا وسَـائِـسُـهـا فَهَـلْ على الحقّ أنت قـاسـرهـا!
أدِّبْ رجـالاً رأيـتَ سِـيـرتَـهُـمْ خـالفَ حُكْمَ الكِتَـابِ سـائـرهـا
وامـدُدْ إلى النـاس كفَّ مَـرْحَمَـةٍ تُـسَـدُّ منـهم بـهـا مفَـاقـرهـا
أمكنـكَ الْعَـدْلُ إذ هَمَمْتَ بـه ووافـقَـتْ مَـدَّه مـقـادرُهـا
وأبـصـرَ النـاسُ قصـدَ وجـهـهـمُ ومـلَّكَـتْ أُمَّـةً أخـايـرُهـا

تُشْـرَعُ أعنـاقـهـا إليـكَ إذ الـسَّـ ... ـادات يـومـاً جَمَّتْ عَشـائِـرُهـا
كم عنـدنـا منِ نصيحَـةٍ لـك في اللـ ... ـهِ وقُـرْبَـى عَـزَّتْ زوافـرهـا
وحـرمـةٍ قـرَّبـتْ أواصِـرُهـا ... منك، وأُخْـرَى هـل أنت ذاكـرُهـا!
سعْيُ رجـالٍ في العـلم مـطلبُهُـمْ ... رائـحُـهـا بـاكـرٌ وبـاكـرهـا
دونَـكَ غـراءَ كـالـوَذيـلَةِ لا ... تُـفـقَـدُ فـي بـلدةٍ سـوائـرهـا
لا طـمـعـاً قُـلتُـهـا ولا بَـطراً ... لـكـلِّ نفسٍ هـوًى يُـؤامـرهـا
سيَّـرهـا الله بـالـنصيحَـةِ والـ ... ـخَشيَـةِ فاستـدمجَت مرائـرهـا
جـاءَتك تحكي لـك الأمورَ كمـا ... يَـنشُـرُ بـزَّ الـتِّجـارِ نـاشـرهـا
حمَّـلتُـهـا صـاحبـاً أخـا ثـقـةٍ ... يـظلُّ عُـجباً بـهـا يحـاضـرهـا

وفي هذه السنة استأمن الموكّلون بقصر صالح من قبَل محمد.

وفيها كانت الوقعة التي كانت على أصحاب طاهر بقصر صالح.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

ذكر عن محمد بن الحسين بن مصعب، أنّ طاهراً لم يزل مصابراً محمداً وجندَه على ما وصفت من أمرِه؛ حتى ملَّ أهلُ بغداد من قتاله، وأن عليّ فراهمرد الموكّل بقصريْ صالح وسليمان بن أبي جعفر من قبَل محمد، كتب إلى طاهر يسأله الأمان، ويضمن له أن يدفع ما في يده من تلك الأموال ومن الناحية إلى الجسور وما فيها من المجانيق والعرّادات إليه؛ وأنه قَبِل ذلك منه، وأجابه إلى ما سأل، ووجّه إليه أبا العباس يوسف بن يعقوب البَاذغيسيّ صاحب شُرَطه فيمن ضُمّ إليه من قوّاده وذوي البأس من فُرسانه ليلاً، فسلم إليه كلّ ما كان محمد وكّله به من ذلك ليلة السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ومائة. واستأمن إليه محمد بن عيسى صاحب شُرْطة محمد؛ وكان يقاتل مع الأفارقة وأهل السجون والأوباش؛ وكان محمد بن عيسى غير مداهِنٍ في أمر محمد؛ وكان مهيباً في الحرْب، فلمّا استأمن هذان إلى طاهر، أشفى محمد على الهلاك، ودخله من ذلك ما أقامه وأقعده حتى استسلم؛ وصار على باب أم جعفر يتوقّع ما يكون؛ وأقبلت الغُواة من العيّارين وباعة الطرق والأجناد؛ فاقتتلوا داخل قصر صالح وخارجه إلى ارتفاع النهار.

قال: فقتل في داخل القصر أبو العباس يوسف بن يعقوب الباذغيسيّ ومَنْ كان معه من القوّاد والرؤساء المعدودين، وقاتل فراهمرد وأصحابه خارجاً من القَصْرِ حتى فُلّ وانحاز إلى طاهر؛ ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشدَّ على طاهر وأصحابه منها؛ ولا أكثر قتيلاً وجريحاً معقوراً من أصحاب طاهر من تلك الوقعة؛ فأكثرت الشعراء فيها القول من الشِّعر، وذكر ما كان فيها من شدة الحرب. وقال فيها الغوغاء والرّعاع، وكان مما قيل في ذلك قول الخليع:

أمـيـنَ اللهِ ثِـقْ بـالـلّـ ... ـهِ تُـعْطَ الـصَّـبْـرَ والـنُّـصـرَهْ
كِـلِ الأمـرَ إلـى اللهِ ... كَـلَاكَ اللهُ ذو الـقُـدْرَهْ
لَـنَـا الـنَّـصْـرُ بـعَـون الـلّـ ... ـهِ والـكَـرَّةُ لا الـفـرَّهْ
ولـلمُـرّاقِ أعـدائـ ... ـك يـومُ الـسـوءِ والـدَّبْـرَهْ

وكأسٍ تلفظ الموتَ كَريهٍ طَعْمُهَا مُرَّهْ
سُقينا وسقيناهُمْ ولكن بِهِمُ الحِرّهْ
كذاك الحربُ أحياناً علينا ولنَا مرَّهْ

فذُكر عن بعض الأبناء أن طاهراً بثّ رسلَه، وكتب إلى القوّاد والهاشميّين وغيرهم بعد أن حاز ضياعهم وغلّاتِهم يدعوهم إلى الأمان والدّخول في خلع محمد والبَيْعة للمأمون؛ فلحق به جماعة، منهم عبد الله بن حُميد بن قحطبة الطائيّ وإخوته، وولد الحسن بن قحطبة ويحيى بن عليّ بن ماهان ومحمد بن أبي العاص، وكاتبه قوم من القوّاد والهاشميين في السرّ، وصارت قلوبهم وأهواؤهم معه.

قال: ولما كانت وقعة قصر صالح أقبل محمد على اللهو والشرب، ووكل الأمرَ إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهِرْش؛ فوضعا مما يليهما من الدّروب والأبواب وكلاءهما بأبواب المدينة والأرباض وسوق الكَرْخ. وفُرَض دجْلة وباب المحوّل والكناسة؛ فكان لصوصها وفساقُها يسلبون مَنْ قدروا عليه من الرِّجال والنساء والضعفاء من أهل المِلّة والذمّة؛ فكان منهم في ذلك ما لم يبلغْنا أنّ مثله كان في شيء من سائر بلاد الحروب.

قال: ولما طال ذلك بالناس، وضاقت بغداد بأهلها، خرج عنها مَنْ كانت به قوّة بعد الغُرْم الفادح والمضايقة الموجعة والخطر العظيم؛ فأخذ طاهر أصحابَه بخلاف ذلك، واشتدّ فيه، وغلُظ على أهل الرِّيَب. وأمر محمد بن أبي خالد بحفظ الضعفاء والنساء وتجويزهم وتسهيل أمرهم؛ فكان الرّجل والمرْأة إذا تخلص من أيدي أصحاب الهِرْش، وصار إلى أصحاب طاهر ذهب عنه الرّوع وأمن، وأظهرت المرأة ما معها من ذهب وفضة أو متاع أو بزّ؛ حتى قيل: إنّ مَثَل أصحاب طاهر ومَثَل أصحاب الهِرْش وذويه ومثل الناس إذا تخلّصوا، مثل السور الذي قال الله تعالى ذكره: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[(١)]. فلما طال على الناس ما بُلُوا به ساءت حالهم، وضاقوا به ذرعاً؛ وفي ذلك يقول بعض فتيان بغداد:

بكيتُ دماً على بغدادَ لمّا فَقَدتُ غضارة العَيشِ الأنيقِ
تَبَدَّلنا هُموماً من سُرور ومِن سَعةٍ تَبَدَّلْنا بضِيقِ
أصابتها مِنَ الحُسَّادِ عَينٌ فأفنَت أهلها بالمَنجيقِ
فَقَومٌ أحرِقوا بالنار قسراً ونائحةٌ تنوحُ على غريقِ
وصائحةٌ تُنادي وَاصبَاحاً وباكيةٌ لفقدانِ الشَّفيقِ
وحَوراءُ المَدامعِ ذاتُ دَلٍّ مضَمَّخَةُ المَجاسِدِ بالخَلوق
تَفِرُّ من الحريقِ إلى انتهابٍ ووالِدها يفرُّ إلى الحريق
وَسالِبةُ الغزالةِ مُقلَتَيْها مَضاحكُها كَلأْلاَءِ البرُوق
حَيَارَى كالهدايا مُفكِراتٌ عليهنَّ القلائدُ في الحُلوق
يُنادينَ الشفيقَ ولا شفيقٌ وقد فُقِد الشَّقِيق من الشَّقِيقِ
وقومٌ أُخرِجُوا من ظِلِّ دُنيا متاعُهُمُ يُباعُ بكلِّ سوقِ

---

(١) سورة الحديد: ١٣.

ومُغتَربٌ قَريبُ الدارِ مُلقًى ... بلا رأسٍ بقَارعةِ الطريقِ
توسَّط مِنْ قتالِهمُ جميعاً ... فما يَدرُونَ مِنْ أيِّ الفريقِ
فلا ولدٌ يقيم على أبيهِ ... وقد هَرَبَ الصديق بلا صديق
وَمَهْمَا أنسَ من شيءٍ تولَّى ... فإنِّي ذاكرٌ دارَ الرَّقيقِ

وذُكر أنّ قائداً من قوّاد أهل خُراسان ممن كان مع طاهر من أهل النجدة والبأس، خرج يوماً إلى القتال، فنظر إلى قوم عُراة، لا سلاح معهم، فقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلا مَن أرى؛ استهانة بأمرهم واحتقاراً لهم؛ فقيل له: نعم هؤلاء الذين ترى هم الآفة؛ فقال: أفٍّ لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم، وأنتم في السلاح الظاهر، والعُدّة والقوّة؛ ولكم ما لكم من الشجاعة والنجدة! وما عسى أن يبلغ كيد مَنْ أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا عُدّة لهم ولا جُنّة تقيهم! فأوتر قوسه وتقدّم، وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي يده باريّةٌ مُقيّرة، وتحت إبطه مخلاةٌ فيها حجارة، فجعل الخُراسانيّ كلّما رَمى بسهم استتر منه العيَّار، فوقع في باريّته أو قريباً منه؛ فيأخذه فيجعله في موضع من باريّته، قد هيأه لذلك، وجعله شبيهاً بالجُعبة. وجعل كلما وقع سهم أخذه، وصاح: دانق، أي ثمن النّشابة دانق قد أحرزه؛ ولم يزل تلك حالة الخراسانيّ وحال العيّار حتى أنفذ الخراسانيّ سهامه، ثم حمل على العيّار ليضربه بسيفه؛ فأخرج من مخلاته حجراً؛ فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ به عينه، ثم ثناه بآخر؛ فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه؛ وكرّ راجعاً وهو يقول: ليس هؤلاء بإنس؛ قال: فحدّثت أن طاهراً حدّث بحديثه فاستضحك وأعفى الخراسانيّ من الخروج إلى الحرب؛ فقال بعض شعراء بغداد في ذلك:

خَرَّجَتْ هذه الحروبُ رجالا ... لا لقحطانها ولا لنزارِ
معشراً في جواشِنِ الصوفِ يغدو ... ن إلى الحرْب كالأُسودِ الضَّواري
وعليهمْ مغافرُ الخوصِ تُجزِيـ ... ـهم عن البيض، والتِّراسُ البواري
ليس يدرونَ ما الفرارُ إذا الأبْـ ... ـطالُ عاذوا من القَنا بالفرارِ
واحدٌ منهمُ يَشُدُّ على ألـ ... ـفينِ عُرْيانُ مالَهُ من إزارِ
ويقول الفتى إذا طَعن الطعـ ... ـنةَ: خذها مِن الْفَتَى العَيَّارِ
كم شريف قد أخملَتهُ وكم قد ... رفَعتْ من مُقامر طَرّارِ

قال محمد بن جرير: وفي هذه السنة منع طاهر الملاحين وغيرهم من إدخال شيء إلى بغداد إلا إلى من كان من عسكره منهم، ووضع الرصيد عليهم بسبب ذلك.

ذكر الخبر عمّا كان منه ومن أصحاب محمد المخلوع في ذلك

وعن السبب الذي من أجله فعل ذلك طاهر:

أما السبب في ذلك فإنه - فيما ذُكر - كان أنّ طاهراً لما قُتِل مَنْ قُتِل في قصر صالح من أصحابه، ونالهم فيه من الجراح ما نالهم، مَضَّه ذلك وشقّ عليه؛ لأنه لم يكن له وقعة إلا كانت له لا عليه؛ فلما شقّ عليه أمر بالهدم والإحراق عند ذلك، فهدم دور مَنْ خالفه ما بين دِجْلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة، إلى الصّراة وأرجاء أبي جعفر ورَبض حميد ونهر كرخايا والكناسة؛ وجعل يبايت أصحاب محمد ويُداجهم، ويحوي في كلّ يوم ناحية، ويخندق عليها المراصد من المقاتلة؛ وجعل أصحاب محمد ينقصون، ويزيدون حتى لقد كان

أصحاب طاهر يهدمون الدّار وينصرفون؛ فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد، ويكونون أضرَّ على أصحابهم من أصحاب طاهر تعدياً؛ فقال شاعر منهم ـ وذكر أنه عمرو بن عبد الملك الورّاق العتريّ ـ في ذلك:

لنا كلَّ يوم ثُلمةٌ لا نَسُدُّها ... يزيدونَ فيما يَطلبونَ ونَنقُصُ
إذَا هَدموا داراً أَخذنا سُقوفَها ... ونحن لأُخرى غيرِها نَتربَّصُ
وإن حَرصوا يوماً على الشَّرِّ جُهْدَهمْ ... فغوغاؤنا منهمْ على الشرّ أَحرَصُ
فقد ضيَّقوا من أرضنا كلَّ واسعٍ ... وصار لهم أهلٌ بها، وتَعرَّضوا
يُثيرونَ بالطبلِ القنيصَ فإن بدا ... لهم وجهُ صيدٍ من قريب تقنصّوا
لقد أفسدوا شَرْقَ البلادِ وغَربَها ... علينا فما ندري إلى أين نشخُص
إذا حضروا قالوا بما يَعرفونه ... وإن يَرَوْا شيئاً قبيحاً تَخَرَّصوا
وما قتلَ الأَبطَال مثلُ مجرّبٍ ... رسولِ المنايا ليلَهُ يتلصّصُ
ترى البطلَ المشهورَ في كلّ بلدة ... إذا ما رأى العريانَ يوماً يُبَصبِصُ
إذا ما رآه الشَّمَّريُّ مُقَزِّلاً ... على عقبَيهِ للمخافةِ يَنكصُ
يبيعُك رأساً للصبيّ بِدِرهمٍ ... فإن قال إني مُرْخِصٌ فهو مرخِصُ
فكم قاتلٍ منا لآخرَ منهمُ ... بمقتله عنه الذُّنوبُ تُمحَّصُ
تراه إذا نادى الأَمانَ مبارزاً ... ويَغمِزنا طَوراً وطوراً يخصِّص
وقد رخَّصَت قُرّاؤنا في قتالِهمْ ... وما قتل المقتولَ إلَّا المرخّصُ

وقال أيضاً في ذلك:

النَّاسُ في الهدمِ وفي الانتقالْ ... قد عَرَّض النَّاسُ بقيلٍ وقالْ
يا أيُّها السائلُ عن شأْنِهمْ ... عينك تكفيكَ مكان السُّؤالْ
قد كان للرحمن تكبيرُهُمْ ... فاليوم تكبيرهمْ للقتال
اطرحْ بعينيك إلى جمعهمْ ... وانتظر الرَّوْح وعُدّ الليالْ
لم يبق في بغدادَ إلَّا امرؤٌ ... حالَفَهُ الفقر كثيرُ العيالْ
لا أمّ تحمِي عن حماها ولا ... خالٌ له يحمي ولاَ غيرُ خالْ
ليس له مالٌ سوى مِطْرَدٍ ... مِطْرُدُهُ في كفِّه رأسُ مالْ
هانَ على الله فأَجْرَى على ... كفَّيه للشِّقوةِ قتلَ الرجالْ
إن صارَ ذا الأمر إلى واحدٍ ... صارَ إلى القتلِ على كلّ حالْ
ما بالنا نُقتَلُ من أَجْلِهمْ ... سُبْحَانَكَ اللهمّ ياذَا الحلالْ!

وقال أيضاً:

ولستُ بتاركٍ بغدادَ يوماً ... تَرَحَّلَ مَن ترحَّل أوْ أَقامَا
إذا ما العيشُ ساعَدنا فَلسْنَا ... نُبالِي بعدُ مَنْ كان الإماما

قال عمرو بن عبد الملك العتريّ: لما رأى طاهر أنهم لا يحفلون بالقتل والهدْم والحرْق أمر عند ذلك بمنع التّجار أن يجوزوا بشيء من الدقيق وغيره من المنافع من ناحيته إلى مدينة أبي جعفر والشرقية والكَرْخ، وأمر

بصرْف سُفُن البصرة وواسط بطرنايا إلى الفرات؛ ومنه إلى المحوّل الكبير وإلى الصّراة، ومنها إلى خندق باب الأنبار؛ بما كان زهير بن المسيب يُبَذرِقه إلى بغداد، وأخِذَ من كلّ سفينة فيها حمولة ما بين الألف درهم إلى الألفين والثلاثة، وأكثر وأقل، وفعل عُمّال طاهر وأصحابه ببغداد في جميع طرقها مثلَ ذلك وأشدّ، فغلت الأسعار، وصار الناس في أشدّ الحصار، فيئسوا أو كثير منهم من الفرج والرّوح، واغتبط مَنْ كان خرج منها، وأسف على مقامِه من أقام.

وفي هذه السنة استأمن ابن عائشة إلى طاهر، وكان قد قاتل مع محمد حيناً بالياسرية.

وفيها جعل طاهر قُوّاداً من قُوّاده بنواحي بغداد، فجعل العلاء بن الوضّاح الأزدي في أصحابه ومَن ضمّ إليه بالوضّاحية على المحوّل الكبير، وجعل نعيم بن الوضّاح أخاه فيمن كان معه من الأتراك وغيرهم مما يلي ربَض أبي أيوب على شاطىء الصّراة، ثم غادى القتال وراوح أشهراً، وصبر الفريقان جميعاً؛ فكانت لهم فيها وقعة بالكُناسة؛ باشرها طاهر بنفسه، قُتل فيها بشرٌ كثير من أصحاب محمد، فقال عمرو بن عبد الملك:

وَقْعَةُ يومِ الأَحَدِ ... صارت حَدِيثَ الأَبَدِ
كَمْ جسدٍ أَبصرتَهُ ... مُلقًى وكَمْ مِن جَسَدِ
وناظرٍ كانت له ... مَنِيَّةٌ بالرَّصَدِ
أَتاهُ سَهْمٌ عائرٌ ... فشكَّ جَوفَ الكَبِدِ
وصائحٍ يا والدي ... وصائحٍ يا ولدي!
وكم غريقٍ سابحٍ ... كان متينَ الجَلَدِ!
لم يَفتقدْه أَحدٌ ... غيرُ بناتِ البلدِ
وكم فقيدٍ بَئِسٍ ... عزَّ على المفتقِدِ
كَانَ مِن النَّظارةِ الـ ... ـأولى شديد الحَرَدِ
لو أنه عايَن ما ... عاينَه لم يَعُدِ
لم يبقَ من كهلٍ لهُمْ ... فَاتَ وَلا مِنْ أَمْرَدِ
وطاهرٌ ملتهِمٌ ... مثلَ التهامِ الأَسدِ
خيَّمَ لا يَبْرَح في الـ ... ـعرصَةِ مثلَ اللُّبَدِ
تقذِفُ عيناه لَدَى الـ ... ـحربِ بنارِ الوَقَد
فقائلٍ قد قَتَلوا ... أَلفاً ولَمَّا يزدِ
وقائلٌ أكثر بل ... ما لهُمُ من عدد
وهاربٌ نحوهُمُ ... يرهَبُ من خوفِ غدِ
هيهات لا تبصرُ مِمّـ ... ـنْ قَدْ مَضَى من أَحَدِ
لا يرجع الماضي إلى الْـ ... ـبَاقِي طَوَالَ الأَبدِ
قلتُ لمطعونٍ وفيـ ... ـهِ رُوحُهُ لَم تبدِ
مَنْ أَنت يا وَيْلكَ يا ... مِسكِينُ من مُحَمَّدِ
فقالَ لا من نَسبٍ ... دانٍ وَلا مِنْ بَلدِ

لم أره قطّ ولمْ ... أجِدْ لهُ من صَفدِ
وقال لا لِلغيِّ قا ... تَلتُ ولا للرَّشَدِ
إلَّا لشيءٍ عاجلٍ ... يصيرُ منهُ في يدي

وذكر عن عمرو بن عبد الملك أنّ محمداً أمر زُريحاً غلامَه بتتبّع الأموال وطلبها عند أهل الودائع وغيرهم، وأمر الهِرْش بطاعته، فكان يهجُم على الناس في منازلهم، ويبيتَهم ليلا، ويأخذ بالظنّة، فجبى بذلك السبب أموالاً كثيرة، وأهلك خلقاً، فهرب الناس بعلّة الحجّ، وفرّ الأغنياء، فقال القراطيسيّ في ذلك:

أظهروا الحجّ وما ينوونَهُ ... بل من الهِرْشِ يُريدون الهربْ
كم أُناسٍ أصبحوا في غبطة ... وكلَ الهِرْشُ عليهم بالعطب
كلُّ مَن رادَ زُريحٌ بيتَهُ ... لقِيَ الذُّلَّ وَوَافاهُ الحرَبْ

وفيها كانت وقعة درب الحجارة.

ذكر الخبر عنها:

ذكر أن هذه الوقعة كانت بحضرة درب الحجارة؛ وكانت لأصحاب محمد على أصحاب طاهر، قُتل فيها خلق كثير، فقال في ذلك عمرو بن عبد الملك العتريّ:

وقْعَةُ السبتُ يومَ الحِجَارَةْ ... قطعَت قِطعَةً مِنَ النَّظَّارَهْ
ذاك من بعد ما تَفَانَوا ولكِنْ ... أهلكتَهمْ غوغاؤنا بالحجَارةْ
قَدِم الشُّورَجينَ للقتل عمداً ... قال إنّي لَكُمْ أرِيد الإمارَهْ
فَتلقّاه كلُّ لِصٍّ مُريب ... عَمَر السجنَ دهرَه بالشَّطَارَهْ
ما عليه شيءٌ يواريه مِنْهُ ... أيْرُه قائمٌ كمثلِ المنارَةْ
فتولَوْا عنهمْ وَكَانُوا قديماً ... يُحسِنُونَ الضِّرابَ في كلِّ غارَةْ
هؤلا مثلُ هؤلاكَ لدينا ... ليس يَرعوْن حق جارٍ وجَارَهْ
كُلّ مَنْ كَانَ خامِلاً صارَ رأساً ... مِنْ نَعيمٍ في عيشِه وَغَضَارَهْ
حاملٌ في يمينِهِ كلَّ يومٍ ... مِطرَداً فوقَ رأسه طَيَّارهْ
أخرجْتهُ من بيتها أمُّ سوءٍ ... طَلَبَ النَّهبَ أمّه العَيَّارَهْ
يشتُمُ الناسَ ما يبالي بإفصا ... حٍ لذي الشّتم لا يُشير إشارَهْ
ليْسَ هذا زمان حرٍّ كريمٍ ... ذا زمانُ الأنذالِ أهلِ الزَّعارهْ
كان فيما مضى القتالُ قِتالا ... فهُوَ اليومَ يا عليُّ تِجارَه

وقال أيضاً:

باريَةٌ قَيَّرْتَ ظاهِرَها ... محمَّدٌ فيها ومَنصُورُ
العِزُّ والأمنُ أحادِيثهمْ ... وَقَولُهمُ قد أُخِذَ السُّورُ
وأيُّ نفعٍ لكَ في سورهمْ ... وأنتَ مَقتولٌ ومأسُورُ؟

قـد قُـتِـلَتْ فُـرْسَـانـكُـمْ عَـنْـوَةً وَهُـدِمَـتْ مِـن دُورِكُـمْ دُورُ
هـاتـوا لـكـمْ مـن قـائـدٍ وَاحِـدٍ مـهـذَّبٍ فـي وَجـهـه نُـورُ
يـا أيّـهـا الـسَّـائـل عَـنْ شـأْنـنـا مـحـمَّـدٌ في الـقَـصْـرِ مَـحْـصـورُ

وفيها أيضاً كانت وقعة بباب الشماسية، أسِرَ فيها هَرْثمة.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان وإلى ما آل الأمر فيه:

ذكر عن عليّ بن يزيد أنه قال: كان ينزل هَرْثمة نهربين، وعليه حائط وخَنْدق، وقد أعدّ المجانيق والعرّادات، وأنزل عبيد الله بن الوضّاح الشّماسيّة، وكان يخرج أحياناً، فيقف بباب خُراسان مشفقاً من أهل العسكر، كارهاً للحرب، فيدعو الناس إلى ما هو عليه فيشتمه، ويستخفّ به؛ فيقف ساعة ثم ينصرف. وكان حاتم بن الصّقْر من قوّاد محمد؛ وكان قد واعد أصحابه الغُزاة والعيّارين أن يوافوا عبيد الله بن الوضّاح ليلا، فمضَوْا إلى عبيد الله مفاجأة وهو لا يعلم؛ فأوقعوا به وقعة أزالوه عن موضعه، وولّى منهزماً، فأصابوا له خيلاً وسلاحاً ومتاعاً كثيراً، وغلب على الشّماسيّة حاتم بن الصقر. وبلغ الخبرُ هرثمة، فأقبل في أصحابه لنُصرته، وليردّ العسكر عنه إلى موضعه؛ فوافاه أصحاب محمد، ونشب الحرب بينهم، وأسَرَ رجل من الغُزاة هرثمة ولم يعرفه، فحمل بعض أصحاب هرثمة على الرّجل فقطع يده وخلّصه، فمرّ منهزماً، وبلغ خبُره أهلَ عسكره، فتقوّض بما فيه، وخرج أهله هاربين على وجوههم نحو حُلوان، وحجز أصحاب محمد الليل عن الطلب؛ وما كانوا فيه من النّهب والأسْر. فحُدِّثت أن عسكر هرثمة لم يتراجع أهله يومين، وقويت الغزاة بما سار في أيديهم.

وقيل في تلك الوقعة أشعار كثيرة، فمن ذلك قول عمرو الورّاق:

عُـرْيـانُ لـيس بـذِي قَـمـيصٍ يَـغْـدُو على طـلَبِ الـقَـمـيصِ
يَـغْـدُو عَـلى ذِي جـوشَـنٍ يُـعْـمِي العـيـونَ من البَـصـيصِ
فـي كـفِّـه طَـرَّادَةٌ حـمـراءُ تـلمـعُ كـالـفُـصـوصِ
حَـرِصـاً عَـلى طَـلَبِ الـقِـتَـا لِ أشَـدّ مـن جِـرْص الـحـريصِ
سـلِسَ الـقِـيـادِ كـأنَّـمـا يَـغْـدُو عَـلى أَكْـلِ الـخَـبـيصِ
لَـيْـثـاً مُـغِـيـراً لَـم يَـزَلْ رَأسـاً يـعـدّ مـن الـلصُـوصِ
أجْـرى وأثْـبَـتَ مَـقْـدَمـاً فـي الـحـرْبِ مـن أَسـد رَهِـيصِ
يـدْنـو عـلى سَـنَـنِ الـهَـوَا نِ وَعِـيـصُـهْ من شَـرِّ عـيصِ
يَـنـجُـو إذا كـانَ الـنَّـجـا ءُ عـلى أخَـفَّ مـن الـقَـلُوصِ
مـا لـلكَـمِـيّ إذا لِـمَـقْـ تَـلهِ تَـعَـرّضَ مـن مَـحـيصِ
كَـم مـن شُـجـاعٍ فـارسٍ قـد بَـاعَ بـالـثّـمـن الـرَّخـيصِ
يـدعُـو: ألا مَـنْ يَـشـتـري رأسَ الـكـمِـيّ بـكَـفٍّ شـيصِ!

وقال بعض أصحاب هَرْثمة:

يَفنَى الـزَّمـانُ ومـا يَفنَى قـتـالُهُـمُ والـدُّور تُـهـدَمُ والأمـوالُ تَـنـتَـقِصُ
والنـاسُ لا يَستَـطيعُـونَ الـذِي طَلَبُـوا لا يـدفَعُون الـرَّدَى عنهمْ وإن حَرصُوا

يـأتـونـنـا بحـديـثٍ لا ضيـاءَ لَـهُ في كـلّ يـوم لأولادِ الـزِّنـا قصصُ

قال: ولما بلغ طاهراً ما صنع الغُزاة وحاتم بن الصقر بعبيد الله بن الوضّاح وهرثمة اشتدّ ذلك عليه، وبلغ منه؛ وأمر بعقد جسر على دجْلة فوق الشّماسيّة، ووجّه أصحابه وعبَّأهم، وخرج معهم إلى الجسْر، فعبروا إليهم وقاتلوهم أشدَّ القتال، وأمدَّهم بأصحابه ساعة بعد ساعة حتى ردُّوا أصحاب محمد، وأزالـوهم عن الشّماسيّة، وردّ المهاجر عبيد الله بن الوضّاح وهرثمة.

قال: وكان محمد أعطى بنقض قصوره ومجالسه الخيزرانية بعد ظفر الغزاة ألفي ألفَ درهم، فحرقها أصحاب طاهر كلها، وكانت السقوف مذهبّة، وقتلوا من الغزاة والمنتهبين بشراً كثيراً، وفي ذلك يقول عمرو الوراق:

ثـقَـلان وطـاهـر بـن الـحـسـين صبَّحـونـا صبيـحـةَ الإثـنـينِ
جمعـوا جـمـعَـهـم بـلـيـل ونـادَوا اطلبـوا اليـومَ ثـأركـم بـالحسين
ضـربـوا طبـلَهُـمْ فـثـارَ إلـيـهـمْ كـلّ صُلب القَنـاة والسَّـاعِـدَيْـنِ
يـا قَتِيـلا بـالقـاع مُلقًى على الشطِّ هـواه بِـطَيِّـىء الـجَـبَـلَيْـنِ
مـا الَّذِي فِي يَـدْيـك أنتَ إذا مـا اصْـطلحَ النَّـاسُ أنـتَ بـالـخَـلَّتـيْـنِ
أوَزيـرٌ أم قـائـدٌ، بَـلْ بـعـيـدٌ أنْتَ من ذَين مَـوضـع الفَـرقَـدَيـنِ
كـم بصيـرٍ غَـدَا بعـيـنَيْـنِ كـي يُبـصِـرَ مـا حـالـهـم فـعـادَ بـعـين
ليس يُخْـطونَ مـا يـريـدون مـا يَعـمِـد راميـهـمُ سِـوَى الـنـاظـرَيـن
سـائِـلي عـنـهـمُ هـمُ شـرُّ مَـنْ أبـصَـرتُ في النّـاس ليس غيـرٌ كـذين
شـرّ بـاقٍ وشـرّ مـاض مـنَ الـنـاس مَضَـى أو رأيـتُ فـي الـثَّـقَـلَيْـنِ

قال: وبلغ ذلك من فعل طاهر محمداً، فاشتدّ عليه وغمّه وأحزنه؛ فذكر كاتب لكوثر أن محمداً قال ـ أو قيل على لسانه هذه الأبيات:

مُـنيـتُ بِـأشْـجـع الـثَّـقَـلَيْـنِ قَـلبـاً إذا مـا طـالَ لَـيْسَ كـمـا يـطولُ
لـه مَـعْ كـلِّ ذِي بَـدَنٍ رقـيـبٌ يـشـاهـدُه ويـعـلـمُ مـا يَـقُـولُ
فـليس بـمُـغْـفـلٍ أمـراً عِـنـاداً إذا مـا الأمـر ضَـيَّعـه الـغَـفُـولُ

وفي هذه السنة ضَعُف أمر محمّد، وأيقن بالهلاك، وهرب عبد الله بن خازم بن خزيمة من بغداد إلى المدائن؛ فذُكر عن الحسين بن الضحاك أنّ عبد الله بن خازم بن خزيمة ظهرت له التّهمة من محمد والتّحامل عليه من السِّفْلة والغوغاء، فهمّ على نفسه وماله، فلحق بالمدائن ليلاً في السفن بعياله وولده، فأقام بها ولم يحضر شيئاً من القتال.

وذكر غيرُه أن طاهراً كاتبه وحذّره قبض ضياعه واستئصاله، فحذّره ونجا من تلك الفتنة وسلم؛ فقال بعض قرائبه في ذلك:

ومـا جَبـنَ ابـن خـازمَ مـن رَعـاعٍ وَأوبـاشِ الـطَّغـامِ مـن الأنـام

ولكنْ خاف صَولةَ ضَيغَميٍّ هَصُورِ الشَّدِّ مشهور العُرامِ

فذاع أمرُه في الناس، ومشى تُجّار الكرخ بعضهم إلى بعض، فقالوا: ينبغي لنا أن نكشف أمرنا لطاهر ونُظهر له براءتنا من المعُونة عليه، فاجتمعوا وكتبوا كتاباً أعلموه فيه أنهم أهل السمْع والطاعة والحبّ له؛ لما يبلغهم من إيثارِه طاعةَ الله والعمل بالحقّ، والأخذ على يد المريب، وأنهم غيرُ مستحلِّي النظر إلى الحرْب؛ فضلاً عن القتال، وأنّ الذي يكون حزبه من جانبهم ليس منهم، قد ضاقت بهم طرق المسلمين؛ حتى إنّ الرّجال الذين بلوا من حربه من جانبهم ليس منهم ولا لهم بالكرخ دور ولا عقار؛ وإنما هم بين طرّار وسوّاط ونطاف، وأهل السجون. وإنما مأواهم الحمامات والمساجد، والتّجار منهم إنما هم باعة الطريق يتّجرون في محقرات البيوع، قد ضاقت بهم طرق المسلمين، حتى إن الرجل ليستقبل المرأة في زحمة الناس فيلتثّان قبل التخلص؛ وحتى إن الشيخ ليسقط لوجهه ضعفاً؛ وحتى إن الحامل الكيس في حُجزته وكفه ليُطَرُّ منه، وما لنا بهم يدان ولا طاقة؛ ولا نملك لأنفسنا معهم شيئاً؛ وإن بعضنا يرفع الحَجَر عن الطريق لما جاء فيه من الحديث عن النبيّ ﷺ؛ فكيف لو اقتدرنا على مَنْ في إقامته عن الطريق، وتخليده السجن، وتنفيته عن البلاد وحسم الشرّ والشَّغْب ونفي الزّعَارة والطَّرّ والسرَق، وصلاحُ الدين والدنيا، وحاش لله أن يحاربك منا أحد!

فذكر أنهم كتبوا بهذا قصّةً، واتّعد قوم على الانسلال إليه بها، فقال لهم أهل الرّأي منهم والحزم: لا تظنُّوا أن طاهراً غبِيَ عن هذا أو قصَّر عن إذكاء العيون فيكم وعليكم؛ حتى كأنه شاهدكم؛ والرأي ألا تشهروا أنفسكم بهذا؛ فإنا لا نأمن إن رآكم أحد من السِّفْلة أن يكون به هلاككم وذهاب أموالكم؛ والخوفُ من تعرّضكم لهؤلاء السِّفْلة أعظمُ من طلبكم براءة السّاحة عند طاهر خوفاً، بل لو كنتم من أهل الآثام والذنوب لكنتم إلى صفحة وتغمُّده وعفوه أقرب، فتوكّلوا على الله تبارك وتعالى وأمسكوا. فأجابوهم وأمسكوا. وقال ابن أبي طالب المكفوف:

دَعُوا أَهلَ الطَّريق فَعَنْ قليلٍ تَنالهمُ مخاليبُ الهَصُورِ
فتهتِكُ حُجْبَ أفئدةٍ شِدادٍ وشيكاً ما تصير إلى القُبُورِ
فإنَّ الله مُهلِكُهُمْ جميعاً بأسباب التَّمنِّي والفُجُورِ

وذكر أن الهِرْش خرج ومعه الغوغاء والغُزاة ولفيفهم حتى صار إلى جزيرة العبّاس، وخرجت عصابة من أصحاب طاهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت ناحية لم يقاتل فيها، فصار ذلك على الوجه بعد ذلك اليوم موضعاً للقتال؛ حتى كان الفتح منه؛ وكان أول يوم قاتلوا فيه استعلَى أصحاب محمد على أصحاب طاهر حتى بلغوا بهم دار أبي زيد الشرويّ. وخاف أهلُ الأرباض في تلك النّواحي مما يلي طريق باب الأنبار؛ فذُكر أنّ طاهراً لما رأى ذلك وجّه إليهم قائداً من أصحابه، وكان مشتغلا بوجوه كثيرة يقاتل منها أصحاب محمد، فأوقع بهم فيها وقعة صَعْبة، وغرق في الصَّراة بشرٌ كثير، وقتِل آخرون، فقال في هزيمة طاهر في أوّل يوم عمرو الوراق:

نَادَى مُنَادِي طَاهِرٍ عِنْدَنَا يا قومُ كُفُّوا واجْلِسُوا فِي ٱلْبُيُوتْ
فَسَوْفَ يَأْتِيكُمْ غَدٌ فاحْذَرُوا ليثاً هريتَ الشدق فيه عُيُوتْ
فثارتِ الغوغاءُ في وَجْهِهِ بَعْدَ انتِصَافِ اللَّيْلِ قَبْلَ ٱلْقُنُوتْ
في يومِ سبتٍ تركُوا جَمْعَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سُموداً خُفُوتْ

وقال في الوقعة التي كانت على أصحاب محمد:

كم قتيل قد رأينا ... ما سألناه لأيش
دارعاً يلقاه عُرْيا ... نٌ بجهل وبطيش
إن تلقَّاه برُمْح ... يتلقَّاه بفَيْش
حَبشيّاً يقتل النا ... سَ على قطعة خَيْش
مُرتَدٍ بالشَّمس راضٍ ... بالمُنَى من كلِّ عيش
يَحْمِلُ الحَمْلَةَ لا يَقْـ ... ـتُل إلَّا رأسَ جَيْش
كعلِي أفراهَمَرْدٍ ... أو عَلاءٍ أو قُرَيْش
احْذَرِ الرّمية ياطا ... هرُ من كفّ الحُبيشي

وقال أيضاً عمرو الوراق في ذلك:

ذَهَبَتْ بَهْجَةُ بَغْدَا ... دَ وَكانَتْ ذاتَ بَهْجَهْ
فَلَها في كلِّ يَوْمٍ ... رجَّةٌ مِنْ بَعْدِ رجّهْ
ضَجَّتِ الأرضُ إلى اللهِ ... مِنَ المُنْكَرِ ضَجَّةْ
أيّها المقتولُ مَا أنـ ... ـتَ عَلى دِينِ المحَجَّةْ
لَيْتَ شِعْرِي ما الَّذِي نِلْـ ... ـتَ ووَقَدْ أُدْلجتَ دَلجهْ
أإلى الفردوس وُجّهْـ ... ـتَ أم النّارِ تُوجَّهْ
حَجَرٌ أرْدَاك أم أرْ ... دِيتَ قسراً بالأزجّهْ
إن تَكُنْ قاتلْتَ بِرّاً ... فعلينا ألفُ حَجَّهْ

وذكر عن عليّ بن يزيد أن بعض الخدم حدّثه أن محمداً أمر ببيع ما بقي في الخزائن التي كانت أنهبت، فكتم ولاتها ما فيها لتسرق، فتضايق على محمد أمره، وفقد ما كان عنده، وطلب الناس الأرزاق، فقال يوماً وقد ضجر مما يرد عليه: وددْت أن الله عزّ وجلّ قتل الفريقين جميعاً، وأراح النّاس منهم؛ فما منهم إلا عدو ممن معنا وممّن علينا؛ أما هؤلاء فيريدون مالي؛ وأما أولئك فيريدون نفسي. وذكرت أبياتاً قيل إنه قالها:

تَفرَّقُوا وَدَعُوني ... يَا مَعْشَرَ الأعْوَانِ
فكُلُّكُمْ ذُو وُجوهٍ ... كَخلقة الإنسانِ
وما أرى غيرَ إفكٍ ... وتُرَّهاتِ الأماني
ولستُ أملك شيئاً ... فسائلوا خُزّاني
فالويلُ لي ما دهاني ... من ساكنِ البُستانِ

قال: وضعف أمر محمد، وانتشر جنده وارتاع في عسكره، وأحسّ من طاهر بالعلوّ عليه وبالظفر به.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بتوجيه طاهر إياه على الموسم بأمر المأمون بذلك.

وكان على مكة في هذه السنة داود بن عيسى.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خلاف خُزيمة بن خازم محمّدَ بن هارون ومفارقته إياه واستئمانه إلى طاهر بن الحسين ودخول هَرْثمة الجانب الشرقيّ.

ذكر الخبر عن سبب فراقه إياه وكيف كان الأمر في مصيره والدخول في طاعة طاهر:

ذكر أن السبب في ذلك كان أنّ طاهراً كتب إلى خُزيمة يذكر له أنّ الأمر إن يقطع بينه وبين محمد ولم يكن له أثر في نُصرته، لم يقصر في أمره. فلما وصل كتابه إليه شاور ثقاتِ أصحابه وأهل بيته، فقالوا له: نرى والله أنّ هذا الرّجل أخذ بقفا صاحبنا، فاحتلْ لنفسك ولنا؛ فكتبَ إلى طاهر بطاعته، وأخبره أنه لو كان هو النازل في الجانب الشرقيّ مكان هَرْثمة لكان يحمل نفسه له على كلّ هول، وأعلمه قلّة ثقته بهرثمة، ويناشده ألا يحمله على مكروه من أمره إلا أن يضمن له القيام دونه، وإدخال هرثمة إليه ليقطع الجسور، ويُتبعَ هو أمراً يؤثر رأيه ورضاه؛ وأنه إن لم يضمن له ذلك؛ فليس يسعه تعريضه للسّفلة والغَوْغاء والرّعاع والتلف. فكتب طاهر إلى هَرْثمة يلومه ويعجّزه، ويقول: جمعتَ الأجناد، وأتلفت الأموال، وأقطعتها دون أمير المؤمنين ودوني، وفي مثل حاجتي إلى الكلف والنفقات؛ وقد وقفتُ على قوم هيّنة شوكتُهم، يسيرٌ أمرُهم، وقوف المحجم الهائب؛ إنّ في ذلك جُرماً؛ فاستعدّ للدخول؛ فقد أحكمتُ الأمر على دفع العسكر وقطع الجسور؛ وأرجو ألّا يختلف عليك في ذلك اثنان إن شاء الله.

قال: وكتب إليه هرثمة: أنا عارف ببركة رأيك، ويُمْن مشورتا، فمرْ بما أحببت؛ فلن أخالفك؛ قال: فكتب طاهر بذلك إلى خزيمة.

وقد ذُكر أن طاهراً لما كاتب خزيمة كتب أيضاً إلى محمد بن عليّ بن عيسى بن ماهان بمثل ذلك. قيل: فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن عليّ بن عيسى على جسر دِجلة فقطعاه، وركزا أعلامهما عليه، وخلعا محمداً، ودعوا لعبدالله المأمون؛ وسكن أهل عسكر المهديّ ولزموا منازلهم وأسواقهم في يومهم ذلك؛ ولم يدخل هرثمة حتى مضى إليه نفر يسيرٌ غيرهما من القوّاد، فحلفوا له أنه لا يرى منهم مكروهاً، فقبل ذلك منهم، فقال حسين الخليع في قطع خزيمة الجسر:

عَلَيْنَـا جَمِيعـاً من خُـزَيـمَـةَ مِنَّـةٌ ... بها أَخمـدَ الـرحمنُ ثـائـرةَ الحـرْبَ
تـولَّـى أُمـورَ المـسلمين بـنفسـهِ ... فـذَبَّ وحـامى عنهمُ أَشـرفَ الـذَّبِّ

ولولا أبو العباس ما انفكَّ دَهرُنا ... يبيتُ على عتبٍ ويَغدُو على عَتْبِ
خزيمةُ لم يُنكَرْ له مثلُ هذهِ ... إذا اضطَرَبَتْ شرْقُ البلاد مع الغرْب
أناخَ بجِسْرَيْ دجلة القَطعَ والقنا ... شوارعُ والأرواحُ في راحةِ الغضْبِ
وَأمُّ المَنَايَا بالْمَنَايا مُخيلةٌ ... تَفجَّعُ عن خَطْبٍ، وتضحكُ عن خطْبِ
فكانت كنارٍ مَاكَرَتَهَا سَحَابَةٌ ... فأطفأت اللَّهْبَ المُلفَّفَ باللهْبِ
وما قتلُ نفسٍ فِي نفوسٍ كثيرةٍ ... إذا صارَت الدُّنيا إلى الأمن والخصب
بلاءُ أبي العباسِ غيرُ مكفَّر ... إذا فَزِعَ الْكَرْبُ المقيمُ إلى الكربِ

فذكر عن يحيى بن سلمة الكاتب أنّ طاهراً غدا يوم الخميس على المدينة الشرقية وأرباضها، والكَرْخ وأسواقها، وهدم قنطَرَتي الصّراة العتيقة والحديثة واشتدّ عندهما القتال، واشتدّ طاهر على أصحابه، وباشر القتالَ بنفسه، وقاتل مَنْ كان معه بدار الرقيق فهزمهم حتى ألحقهم بالكَرْخ، وقاتل طاهر بباب الكَرْخ وقصر الوضاح، فهزمهم أصحاب محمدورُدّواعلى وجوههم، ومرّ طاهر لا يلوي على أحد حتى دخل قسراً بالسيف. وأمر مناديه فنادى بالأمان لمن لزم منزله، ووضع بقصر الوضّاح وسوق الكرخ والأطراف قوّاداً وجنداً في كل موضع على قدر حاجته منهم؛ وقصد إلى مدينة أبي جعفر، فأحاط بها وبقصر زُبيدة وقصْر الخُلْد من لدن باب الجسر إلى باب خُراسان وباب الشأم وباب الكوفة وباب البصرة وشاطىء الصّراة إلى مصبّها في دجلة بالخيول والعدّة والسلاح، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهِرْش والأفارقة، فنصب المجانيق خلف السور على المدينة وبإزاء قَصر زُبيدة وقصر الخُلْد ورمى، وخرج محمد بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرّق عنه عامّة جنده وخصيانه وجواريه في السّكك والطّرق، لا يلوي منهم أحد على أحد، وتفرّق الغوغاء والسِّفْلة، وفي ذلك يقول عمرو الوارق:

يا طاهر الظُّهر الَّذِي ... مثالُهُ لم يُوجَدِ
يا سيّدَ بن السيدِ بْـ ... ـن السَّيِّد بنِ السيدِ
رجَعَتْ إلى أعمالها الأُ ... ولى غُزاةُ محمّدِ
مِنْ بينِ نَطَّافٍ وسوّ ... اطٍ وبَيْنَ مُقرِّدِ
وَمُجَرِّدٍ يأْوِي إلى ... عَيَّارةٍ ومُجَرَّدِ
ومُقيَّدٍ نَقَبَ السّجو ... ن فعادَ غيرَ مقيَّدِ
ومسوَّدٍ بالنَّهب سا ... دَ وكان غيرَ مسوَّدِ
ذَلُّوا لعزِّك واستكا ... نوا بعدَ طُولِ تمرّدِ

وذُكر عن عليّ بن يزيد، أنه قال: كنتُ يوماً عند عمرو الوراق أنا وجماعة، فجاء رجل، فحدّثنا بوقعة طاهر بباب الكَرْخ وانهزام الناس عنه، فقال عمرو: ناولني قَدحاً، وقال في ذلك:

خُذهَا فلِلخَمْرةِ أسماءُ ... لها دواءٌ ولَها دَاءُ
يُصلِحها الماءُ إذا صُفِّقتْ ... يوماً وَقَدْ يُفسِدُها الماءُ
وقائلٍ كانت لهم وَقعَةٌ ... في يومِنا هذا وأشياءُ

قلتُ له: أنت امرؤ جاهلٌ فيكَ عن الخَيْرَاتِ إبطاءُ
اشْرَبْ ودَعْنَا مِن أَحاديثِهِمْ يَصْطَلِحُ النَّاس إذا شاؤوا

قال: ودخل علينا آخر، فقال: قاتل فلان الغُزاة، وأقدم فلان، وانتهب فلان. قال: فقال أيضاً:

أيُّ دهْرٍ نحنُ فيهِ مَاتَ فِيهِ الكُبَراءُ
هذهِ السِّفْلَةُ والغَوْ غاءُ فينا أُمناءُ
ما لنا شيءٌ من الأشْ ياءِ إلَّا ما يشاءُ
ضجَّت الأرض وقد ضجَّ ت إلى الله السَّماءُ
رُفع الدِّينُ وقد ها نت على الله الدِّماءُ
يا أبا مُوسى لك الخيْ راتُ قَدْ حَانَ اللِّقَاءُ
هاكَها صِرْفاً عُقاراً قد أتاك النُّدَماءُ

وقال أيضاً عمر والوراق في ذلك:

إذا ما شِئتَ أن تُغْضِ بَ جُنديًّا وتستامِرْ
فقل: يا معشر الأجنا دِ قد جاءَكُمْ طاهِرْ

قال وتحصّن محمد بالمدينة هو ومن يقاتل معه، وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب، ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيقَ والماء وغيرهما.

فذكر عن الحسين بن أبي سعيد أنّ طارقاً الخادم ـ وكان من خاصّة محمد، وكان المأمون بعد مقدمه أخبره أنّ محمداً سأله يوماً من الأيام وهو محصور، أو قال في آخر يوم من أيامه، أن يطعمه شيئاً ـ قال: فدخلت المطبخ فلم أجد شيئاً، فجئت إلى جمرة العطارة ـ وكانت جارية الجوهر ـ فقلت لها: إن أمير المؤمنين جائع، فهل عندك شيء، فإني لم أجد في المطبخ شيئاً؟ فقالت لجارية لها يقال لها بنان: أيّ شيء عندك؟ فجاءت بدَجاجة ورغيف، فأتيته بهما فأكل، وطلب ماء يشربه فلم يوجد في خزانة الشَّرَاب فأمسى وقد كان عزم على لقاء هرثمة؛ فما شرب ماء حتى أتى عليه.

وذكر عن محمد بن راشد أنّ إبراهيم بن المهديّ أخبره أنه كان نازلاً مع محمد المخلوع في مدينة المنصور في قصره بباب الذّهب، لما حصره طاهر. قال: فخرج ذاتَ ليلةٍ من القصر يريد أن يتفرّج من الضِّيق الذي هو فيه، فصار إلى قصر القَرار ـ في قَرْن الصَّراة، أسفل من قصر الخلد ـ في جوف الليل، ثم أرسل إليّ فصرت إليه، فقال: يا إبراهيم، أما ترى طيبَ هذه الليلة، وحسن القمر في السماء، وضوءه في الماء! ونحن حينئذ في شاطىء دجلة، فهل لك في الشّرب! فقلت: شأنَك، جعلني الله فداك! فدعا برطل نبيذ فشربه، ثم أمر فسُقيت مثله. قال: فابتدأتُ أغنّيه من غير أن يسألني؛ لعلمي بسوء خلقه، فغنّيت ما كنت أعلم أنه يحبّه، فقال لي: ما تقول فيمن يضرب عليك؟ فقلت: ما أحوجني إلى ذلك؛ فدعا بجارية متقدّمة عنده يقال لها ضَعْف، فتطيّرت من اسمها؛ ونحن في تلك الحال التي هو عليها، فلما صارت بين يديه، قال: تغنَّيْ، فغنّت بشعر النابغة الجعديّ:

كُليبٌ لعَمري كان أكثرَ ناصراً وأيسر ذنباً منك ضُرِّجَ بالدَّم

قال: فاشتدّ ما غنّت به عليه، وتطاير منه، وقال لها: غنّي غير هذا، فتغنّت:

أبكي فِراقهُمُ عَيْني وأرَّقها إنَّ التفرُّقَ للأحباب بَكَّاءُ
ما زالَ يَعْدُو عليهمْ ريبُ دهرهِمُ حتى تَفانَوْا وريْبُ الدَّهرِ عَدَّاءُ

فقال لها: لعنك الله! أما تعرفين من الغناء شيئاً غير هذا! قالت: يا سيّدي، ما تغنّيت إلا بما ظننت أنك تحبّه؛ وما أردت ما تكرهه؛ وما هو إلا شيء جاءني. ثم أخذت في غناء آخر:

أما وَرَبِّ السُّكُون والحَرَكِ إنَّ المنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلفَ الليلُ والنَّهار ولا دارت نُجوم السَّماءِ في الفَلكِ
إلا لنقل النَّعيم من مَلِكٍ عانٍ بحُبِّ الدُّنيا إلى مَلِكِ
ومُلْكُ ذي العرشِ دائمٌ أبداً ليس بفانٍ ولا بمشتَركِ

فقال لها: قومي غضب الله عليك! قال: فقامت. وكان له قَدَحُ بلّور حسن الصنعة، وكان محمد يسميه زُبّ رُباح، وكان موضوعاً بين يديه، فقامت الجارية منصرفة فتعثّرت بالقَدَح فكسرته ـ قال إبراهيم: والعجب أنا لم نجلس مع هذه الجارية قطّ إلا رأينا ما نكره في مجلسنا ذلك ـ فقال لي: ويحك يا إبراهيم! ما ترى ما جاءت به هذه الجارية؛ ثم ما كان من أمر القدح! والله ما أظنّ أمري إلا وقد قَرُب، فقلت: يطيل الله عمرَك، ويعزّ ملكك، ويديم لك، ويكبت عدوّك. فما استتمّ الكلام حتى سمعنا صوتاً من دِجْلة: ﴿قُضيَ الأمرُ الَّذِي فيه تَسْتَفْتيان﴾[1]، فقال: يا إبراهيم، ما سمعتَ ما سمعتُ! قلت: لا والله، ما سَمعتُ شيئاً ـ وقد كنتُ سمعت ـ قال: تسمع حسًّا! قال: فدنوتُ من الشطّ فلم أر شيئاً، ثم عاودنا الحديث، فعاد الصوت: ﴿قُضِي الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان﴾، فوثب من مجلسه ذلك مغتمًّا، ثم ركب فرجع إلى موضعه بالمدينة، فما كان بعد هذا إلا ليلة أو ليلتان حتى حدث ما حدث من قتله، وذلك يوم الأحد لستّ ـ أو لأربع ـ خلون من صفر، سنة ثمان وتسعين ومائة.

وذكر عن أبي الحسن المدائنيّ؛ قال: لما كان ليلة الجمعة لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، دخل محمد بن هارون مدينة السلام هارباً من القصر الذي كان يقال له الخُلْد، ممّا كان يصل إليه من حجارة المنجنيق، وأمر بمجالسه وبُسطه أن تحرق فأحرقت، ثم صار إلى المدينة؛ وذلك لأربع عشرة شهراً، منذ ثارت الحرب مع طاهر إلا اثني عشر يوماً.

وفي هذه السنة قتِل محمد بن هارون.

ذكر الخبر عن مقتله:

ذُكر عن محمد بن عيسى الجُلُوديّ أنه قال: لما صار محمد إلى المدينة، وقرَّ فيها، وعلم قوّاده أنه ليس لهم ولا له فيها عُدّة للحصار، وخافوا أن يُظْفَر بهم؛ دخل على محمد حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقيّ وقوّاده، فقالوا: قد آلت حالُك وحالنا إلى ما ترى؛ وقد رأينا رأياً نعرضه عليك؛ فانظر فيه واعتزم

---

(١) سورة يوسف: ٤١.

عليه؛ فإنّا نرجو أن يكون صواباً، ويجعل الله فيه الخِيرة إن شاء الله. قال: ما هو؟ قالوا: قد تفرّق عنك الناس، وأحاط بك عدوُّك من كلّ جانب، وقد بقيَ من خيلك معك ألفُ فرس من خيارها وجيادها؛ فنرى أن نختار مَنْ قد عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعمائة رجل، فنحملهم على هذه الخيل ونخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب فإن الليل لأهله؛ ولن يثبت لنا أحد إن شاء الله؛ فنخرج حتى نلحق بالجزيرة والشأم فتفرِض الفروض، وتجبي الخراج، وتصير في مملكة واسعة، ومُلْك جديد، فيسارع إليك الناس، وينقطع عن طلبك الجنود، وإلى ذلك ما قد أحدث الله عزّ وجلّ في مَكَرّ الليل والنهار أموراً. فقال لهم: نعم ما رأيتم؛ واعتزم على ذلك.

وخرج الخبر إلى طاهر؛ فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نَهيك وإلى السنديّ بن شاهك: والله لئن لم تُقرّوه وتردّوه عن هذا الرّأي لا تركت لكم ضَيْعةً إلا قبضتُها، ولا تكون لي همّة إلا أنفسكم. فدخلوا على محمد، فقالوا: قد بلغَنا الذي عزمتَ عليه؛ فنحن نذكّرك الله في نفسك! إن هؤلاء صعاليك، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحِصار، وضاق عليهم المذهب، وهم يروْن ألا أمان لهم على أنفسهم وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهَرْثمة لما قد انتشر عنهم من مُباشرة الحرب والجدّ فيها؛ ولسنا نأمن إذا برزوا بك، وحصلتَ في أيديهم أن يأخذوك أسيراً، ويأخذوا رأسك فيتقرّبوا بك، ويجعلوك سبَب أمانهم؛ وضربوا له فيه الأمثال.

قال محمد بن عيسى الجُلُوديّ: وكان أبي وأصحابه قُعوداً في رِواق البيت الذي محمد وسليمان وأصحابه فيه. قال: فلما سمعوا كلامَهم، ورأوا أنه قد قبله مخافة أن يكون الأمر على ما قالوا له؛ همُّوا أن يدخلوا عليهم فيقتلوا سليمان وأصحابه؛ ثم بدا لهم وقالوا: حَرْبٌ من داخل، وحَربٌ من خارج. فكفُّوا وأمسكوا.

قال محمد بن عيسى: فلما نكت ذلك في قلب محمد، ووقع في نفسه ما وقع منه، أضرب عما كان عزم عليه، ورجع إلى قبول ما كانوا بذلُوا له من الأمان والخروج؛ فأجاب سليمان والسنديّ ومحمد بن عيسى إلى ما سألوه من ذلك، فقالوا: إنما غايتك اليوم السلامة واللهو، وأخوك يتركك حيثُ أحببت، ويفردك في موضع، ويجعل لك كلَّ ما يصلحك وكلّ ما تحبّ وتهوى؛ وليس عليك منه بأس ولا مكروه، فركن إلى ذلك، وأجابهم إلى الخروج إلى هرثمة.

قال محمد بن عيسى: وكان أبي وأصحابُه يكرهون الخروجَ إلى هرثمة؛ لأنهم كانوا من أصحابه، وقد عرفوا مذاهبه، وخافوا أن يجفوهم ولا يخصّهم، ولا يجعل لهم مراتب، فدخلوا على محمد فقالوا له: إذ أبيتَ أن تقبل منا ما أشرنا عليك - وهو الصواب - وقبلتَ من هؤلاء المداهنين، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة. قال محمد بن عيسى: فقال لهم: ويحكم! أنا أكره طاهراً؛ وذلك أني رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجرّ شاهق في السماء، عريض الأساس وثيق، لم أر حائطاً يشبهه في الطول والعرض والوَثاقة، وعليّ سَوَادي ومنطقتي وسيفي وقلنسوتي وخفّي؛ وكان طاهر في أصل ذلك الحائط، فما زال يضرب أصلَه حتى سقط الحائط وسقطتُ، ونَدَرتْ قلنسوتي من رأسي، وأنا أتطيّر من طاهر، وأستوحش منه، وأكره الخروج إليه لذلك؛ وهرثمةُ مولانا وبمنزلة الوالد، وأنا به أشدُّ أنساً وأشدّ ثقة.

وذُكِر عن محمد بن إسماعيل، عن حفص بن أرميائيل، أنّ محمداً لمّا أراد أن يعبُر من الدّار بالقرار إلى

منزل كان في بستان موسى ـ وكان له جسر في ذلك الموضع ـ أمر أن يُفرش في ذلك المجلس ويطيّب. قال: فمكثتُ ليلتي أنا وأعواني نتّخذ الروائح والطيب ونكثِب التفاح والرّمان والأترجّ، ونضعه في البيوت؛ فسهرت ليلتي أنا وأعواني؛ ولمّا صليت الصبح دفعت إلى عجوز قطعةَ بخور من عنبر، فيها مائة مثقال كالبِطّيخة، وقلت لها: إني سهرت ونعست نعاساً شديداً؛ ولا بدّ لي من نومة، فإذا نظرتِ إلى أمير المؤمنين قد أقبل على الجسْر، فضعي هذا العنبر على الكانون. وأعطيتُها كانوناً من فضة صغيراً عليه جمر، وأمرتها أن تنفخ حتى تحرقها كلّها، ودخلت حرّاقة فنمت، فما شعرت إلا وبالعجوز قد جاءت فزِعة حتى أيقظتني، فقالت لي: قم يا حفص؛ فقد وقعتَ في بلاء، قلت: وما هو؟ قالت: رجل مقبل على الجسر منفرد، شبيه الجسم بجسم أمير المؤمنين، وبين يديْه جماعة وخلفه جماعة؛ فلم أشكّ أنه هو؛ فأحرقت العنبرة، فلما جاء، فإذا هو عبدالله بن موسى، وهذا أمير المؤمنين قد أقبل. قال: فشتمتُها وعنّفتها. قال: وأعطيتها أخرَى مثل تلك لتحرقها بين يديه، ففعلت؛ وكان هذا من أوائل الإدبار.

وذكر عليّ بن يزيد، قال: لما طال الحصار على محمد، فارقه سليمان بن أبي جعفر وإبراهيم بن المهديّ ومحمد بن عيسى بن نهيك، ولحقوا جميعاً بعسكر المهديّ، ومكث محمد محصوراً في المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت. وناظر محمدٌ أصحابَه ومَنْ بقيَ معه في طلب الأمان؛ وسألهم عن الجهة في النجاة من طاهر؛ فقال له السنديّ: والله يا سيدي؛ لئن ظفر بنا المأمون لعَلَى رغْم منا وتَعْس جدودنا؛ وما أرى فرجاً إلا هرثمة. قال له: وكيف بهرثمة، وقد أحاط الموت بي من كلّ جانب! وأشار عليه آخرون بالخروج إلى طاهر وقالوا: لو حلفتَ له بما يَتوثّق به منك أنك مفوِّض إليه ملكك؛ فلعلّه كان سيرْكَنُ إليك. فقال لهم: أخطأتُم وجْهَ الرأي، وأخطأتُ في مشاورتكم؛ هل كان عبدالله أخي لو جهد نفسه ووليَ الأمور برأيه بالغاً عشر ما بلغه له طاهر! وقد محصّتُه وبحثت عن رأيه، فما رأيته يميل إلى غدر به؛ ولا طمع فيما سواه؛ ولو أجاب إلى طاعتي، وانصرف إليّ ثم ناصبني أهلُ الأرض ما اهتممت بأمر؛ ولوددت أنه أجاب إلى ذلك، فمنحته خزائني وفوّضت إليه أمري، ورضيت أن أعيش في كنفِه؛ ولكني لا أطمع في ذلك منه. فقال له السنديّ: صدقتَ يا أميرَ المؤمنين؛ فبادر بنَا إلى هَرْثمة؛ فإنه يرى ألّا سبيل عليك إذا خرجت إليه من الملك؛ وقد ضمن إليّ أنه مقاتل دونك إنْ همّ عبدالله بقتلك؛ فاخرج ليلاً في ساعة قد نُوِّم الناس فيها؛ فإنّي أرجُو أن يغبَى على الناس أمرُنا.

وقال أبو الحسن المدائنيّ: لما همّ محمد بالخروج إلى هَرْثمة، وأجابه إلى ما أراد، اشتدّ ذلك على طاهر، وأبى أن يرفِّه عنه ويدَعه يخرج، وقال: هو في حيِّزي والجانب الذي أنا فيه، وأنا أخرجتُه بالحصار والحرب؛ حتى صار إلى طلب الأمان؛ ولا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دوني؛ فيكون الفتح له.

ولما رأى هرثمةُ والقوّاد ذلك، اجتمعوا في منزل خُزيمة بن خازم؛ فصار إليهم طاهر وخاصّة قواده، وحضرهم سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسنديّ بن شاهك، وأداروا الرّأيَ بينهم، ودبّروا الأمر، وأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً، وأنه إن لم يجَبْ إلى ما سأل لم يُؤمن أن يكون الأمر في أمره مثله في أيام الحسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان؛ فقالوا له: يخرج ببدنه إلى هرثمة ـ إذْ كان يأمن به ويثق بناحيته، وكان مستوحشاً منك، ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبُرْدة ـ وذلك الخلافة ـ ولا تفسِدْ هذا الأمر واغتنمه إذ يسرّه الله. فأجاب إلى ذلك ورضي به. ثم قيل: إن الهِرْش لما علم بالخبر، أراد التقرّب إلى طاهر، فخبّره أنّ الذي

جرى بينهم وبينه مكر، وأنّ الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع محمد إلى هرثمة. فقبل طاهر ذلك منه، وظنّ أنه كما كتب به إليه، فاغتاظ وكَمَن حول قصر أم جعفر وقصور الخُلد كمناء بالسلاح ومعهم العَتَل والفؤوس، وذلك ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وفي الشهر السرياني خمسة وعشرون من أيلول.

فذكر الحسن بن أبي سعيد، قال: أخبرني طارق الخادم، قال: لما همّ محمد بالخروج إلى هَرْثمة عطش قبل خروجه، فطلبتُ له في خزانة شرابه ماء فلم أجده. قال: وأمسى فبادر يُريد هرثمة للوعْد الذي كان بينه وبينه؛ ولبس ثياب الخلافة؛ دراعة وطيلَساناً والقلنسوة الطويلة، وبين يديه شمعة. فلما انتهينا إلى دار الحرس من باب البصرة، قال: اسقني من جباب الحَرس، فناولته كوزاً من ماء، فعافه لُزهوكته فلم يشرب منه؛ وصار إلى هَرْثمة. فوثب به طاهر، وأكمن له نفسه في الخُلْد؛ فلما صار إلى الحَرّاقة؛ خرج طاهر وأصحابه فرموا الحَرّاقة بالسهام والحجارة؛ فمالوا ناحية الماء، وانكفأت الحَرّاقة؛ فغرق محمد وهرثمة ومن كان فيها، فسبح محمد حتى عبر وصار إلى بستان موسى، وظنّ أن غَرقه إنما كان حيلة من هرثمة، فعبر دِجلة حتى صار إلى قرب الصّراة، وكان على المسلحة إبراهيم بن جعفر البلخيّ ومحمد بن حُميد هو ابن أخي شكلة أم إبراهيم بن المهدي - وكان طاهر ولاه وكان إذا ولّى رجلاً من أصحابه خُراسانيًّا ضم إليه قوماً - فعرفه محمد بن حُميد وهو المعروف بالطاهريّ؛ وكان طاهر يقدّمه في الولايات، فصاح بأصحابه فنزلوا،فأخذوه، فبادر محمداً لمَّاً، فأخذ بساقيه فجذبه، وحُمل على بِرْذون، وألقِيَ عليه إزار من أزُر الجند غير مفتول؛ وصار به إلى منزل إبراهيم بن جعفر البلخيّ، وكان ينزل بباب الكوفة، وأردف رجلاً خلفَه يمسكه لئلا يسقط، كما يُفعل بالأسير.

فذكر عن الحسن بن أبي سعيد، أن خطّاب بن زياد حدّثه أنّ محمداً وهرثمة لما غرقا، بادر طاهر إلى بُستان مؤنسة، بإزاء باب الأنبار، موضع معسكره لئلا يُتّهم بغرق هَرْثمة. قال: فلما انتهى طاهر - ونحن معه في الموكب والحسن بن عليّ المأمونيّ والحسن الكبير الخادم للرشيد - إلى باب الشأم، لحقَنا محمد بن حميد، فترجّل ودنا من طاهر، فأخبره أنه قد أسر محمداً، ووجّه به إلى باب الكوفة إلى منزل إبراهيم البلخيّ. قال: فالتفت إلينا طاهر، فأخبرنا الخبر، وقال: ما تقولون؟ فقال له المأموني: «مَكُن»، أي لا تفعل فعْل حسين بن عليّ. قال: فدعا طاهر بمولًى له يقال له قريش الدّندانيّ، فأمره بقتل محمد. قال: واتّبَعهُ طاهر يريد باب الكوفة إلى الموضع.

وأما المدائنيّ فإنه ذكر عن محمد بن عيسى الجُلوديّ، قال: لما تهيّأ للخروج - وكان بعد عشاء الآخرة من ليلة الأحد - خرج إلى صحن القصر، فقعد على كرسيّ، وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود؛ فدخلنا عليه، فقمنا بين يديه بالأعمدة. قال: فجاء كتلة الخادم، فقال: يا سيّدي، أبو حاتم يقرئك السلام، ويقول: يا سيّدي وافيت للميعاد لحملك، ولكني أرى ألا تخرج الليلة؛ فإني رأيتُ في دِجلة على الشطّ أمراً قد رابني، وأخاف أن أغلَب فتؤخذ من يدي أو تذهب نفسك؛ ولكن أقِمْ بمكانك حتى أرجع ثم استعدّ ثم آتيك القابلةَ فأخرجك؛ فإن حُوربت حاربتُ دونك ومعي عُدّتي. قال: فقال له محمد: ارجع إليه، فقال له: لا تبرح؛ فإني خارج إليك الساعة لا محالة، ولستُ أقيم إلى غد. قال: وقلق وقال: قد تفرّق عني الناس ومَنْ على بابي من الموالي والحَرس، ولا آمن إن أصبحت وانتهى الخبر بتفريقهم إلى طاهر أن يدخل عليّ فيأخذني. ودعا بفرس له أدهم محذوف أغرّ محجّل، كان يسميه الزهريّ، ثم دعا بابنيه فضمّهما إليه، وشمّهما وقبّلهما، وقال: أستودعكما

الله؛ ودمعتْ عيناه، وجعل يمسح دموعه بكمِّه، ثم قام فوثب على الفرس، وخرجنا بين يديه إلى باب القصر؛ حتى ركبنا دوابّنا؛ وبين يديه شمعة واحدة. فلما صرنا إلى الطاقات ممّا يلي باب خراسان، قال لي أبي: يا محمد، ابسط يدك عليه؛ فإني أخاف أن يضربه إنسان بالسيف؛ فإن ضُرب كان الضرب بك دونه. قال: فألقيتُ عنان فرسي بين معرفَته، وبسطت يدي عليه حتى انتهينا إلى باب خُراسان، فأمرنا به ففتح، ثم خرجنا إلى المشرعة، فإذا حَرّاقة هرثمة، فرَقِيَ إليها، فجعل الفرس يتلكّأ وينفر، وضربه بالسوط وحمله عليها، حتى ركبها في دِجْلة، فنزل في الحَرّاقة، وأخذنا الفرس، ورجعنا إلى المدينة، فدخلناها وأمرنا بالباب فأغلِق؛ وسمعنا الواعيةَ، فصعدنا على القبّة التي على الباب؛ فوقفنا فيها نسمع الصوت.

فذُكِر عن أحمد بن سلام صاحب المظالم أنه قال: كنت فيمن ركب مع هَرْثمة من القُوّاد في الحَرّاقة، فلما نزلها محمد قمنا على أرجلنا إعظاماً، وجثى هَرْثمة على ركبتيه، وقال له: يا سيّدي، ما أقدر على القيام لمكان النِّقْرس الذي بي، ثم احتضنه وصيّره في حِجْره، ثم جعل يقبّل يديه ورجليه وعينيه، ويقول: يا سيدي ومولاي وابن سيدي ومولاي. قال: وجعل يتصفّح وجوهنا، قال: ونظر إلى عبيدالله بن الوضّاح، فقال له: أيّهم أنت؟ قال: أنا عبيدالله بن الوضّاح، قال: نعم، فجزاك الله خيراً، فما أشكرني لِمَا كان منك من أمر الثلج! ولو قد لقيت أخي أبقاه الله لم أدعْ أن أشكرك عنده، وسألته مكافأتك عنّي. قال: فبينا نحن كذلك ـ وقد أمر هرثمة بالحَرّاقة أن تُدفع ـ إذ شدّ علينا أصحاب طاهر في الزواريق والشذَوات وعَطْعطوا وتعلقوا بالسُّكان، فبعضٌ يقطع السّكان، وبعضٌ ينقب الحَرّاقة، وبعض يرمي بالآجرّ والنشاب. قال: فنقِبت الحرّاقة، فدخلها الماء فغرِقت، وسقط هَرْثمة إلى الماء، فأخرجه ملّاح؛ وخرج كلّ واحد منا على حَيْله؛ ورأيت محمداً حين صار إلى تلك الحال قد شقّ عليه ثيابه، ورمى بنفسه إلى الماء. قال: فخرجت إلى الشطّ، فعلقني رجل من أصحاب طاهر؛ فمضى بي إلى رجل قاعد على كرسيّ من حديد على شطّ دجلة في ظهر قصر أمّ جعفر، بين يديه نار توقد، فقال بالفارسية: هذا رجل خرج من الماء ممن غرق من أهل الحَرّاقة، فقال لي: مَنْ أنت؟ قلت: من أصحاب هرثمة؛ أنا أحمد بن سلّام صاحب شُرطة مولى أمير المؤمنين، قال: كذبتَ فاصدقني، قال: قلت. قد صدقتك، قال: فما فعل المخلوع؟ قلت: قد رأيتُه حين شقّ عليه ثيابه، وقذف بنفسه في الماء قال: قدّموا دابتي؛ فقدموا دابّته، فركب وأمر بي أن أجنَب. قال: فجُعل في عنقي حبل وجُنبت؛ وأخذ في درب الرشديّة، فلما انتهى إلى مسجد أسد بن المرزبان، انبهرتُ من العَدْو فلم أقدر أن أعدو، فقال الذي يجنُبني: قد قام هذا الرّجل؛ وليس يعدو، قال: انزل، فحُزَّ رأسه، فقلت له: جعلت فداك! لِمَ تقتلني وأنا رجل عليّ من الله نعمة، ولم أقدر على العدوْ، وأنا أفدي نفسي بعشرة آلاف درهم. قال: فلما سمع ذكر العشرة آلاف درهم، قلت: تحبسني عندك حتى تصبح وتدفع إليّ رسولاً حتى أرسله إلى وكيلي في منزلي في عسكر المهديّ، فإنْ لم يأتك بالعشرة آلاف فاضرب عنقي. قال: قد أنصفت، فأمر بحملي، فحُملت رِدْفاً لبعض أصحابه، فمضى بي إلى دار صاحبه، دار أبي صالح الكاتب؛ فأدخلني الدار، وأمر غلمانه أن يحتفظوا بي، وتقدّم إليهم، وأوعز وتفهّم مني خبر محمد ووقعَه في الماء، ومضى إلى طاهر ليخبره خبره؛ فإذا هو إبراهيم البلخيّ. قال: فصيّرني غلمانه في بيت من بيوت الدار فيه بوارٍ ووسادتان أو ثلاث ـ وفي رواية حُصر مُدرّجة ـ قال: فقعدت في البيت، وصيّروا فيه سراجاً، وتوثّقوا من باب الدار، وقعدوا يتحدثون. قال: فلما ذهب من الليل ساعة؛ إذا نحن بحركة الخيل فدقوا الباب، ففتح لهم، فدخلوا وهم يقولون: «يُسَر زبيدة». قال: فأدخِل عليّ رجل عُريان عليه سراويل

وعمامة متلثّم بها، وعلى كتفيه خرقة خَلقة، فصيّروه معي، وتقدموا إلى مَنْ في الدار في حفظه، وخلفوا معهم قوماً آخرين أيضاً منهم.

قال: فلما استقرّ في البيت حَسَر العمامة عن وجهه؛ فإذا هو محمد، فاستعبرت واسترجعت فيما بيني وبين نفسي. قال: وجعل ينظر إليّ، ثم قال: أيهم أنت؟ قال: قلت: أنا مولاك يا سيّدي، قال: وأيّ الموالي؟ قلت: أحمد بن سلام صاحب المظالم، فقال: وأعرفك بغير هذا، كنت تأتيني بالرَّقة؟ قال: قلت: نعم، قال: كنت تأتيني وتُلطفني كثيراً، لست مولايَ بل أنت أخي ومنّي. ثم قال: يا أحمد، قلت: لبّيك يا سيدي؛ قال: ادن مني وضُمّني إليك، فإن أجدُ وحشة شديدة. قال: فضممته إليّ، فإذا قلبه يخفق خَفْقاً شديداً كاد أن يفرَج عن صدره فيخرج. قال: فلم أزل أضمّه إليّ وأسكّنه. قال: ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخي؟ قال: قلت: هو حيّ، قال: قبح الله صاحب بريدهم ما أكذبه! كان يقول: قد مات، شبه المعتذر من محاربته؛ قال: بل قبح الله وزراءك! قال: لا تقُل لوزرائي إلّا خيراً، فما لهم ذنب؛ ولستُ بأوّل من طلب أمراً فلم يقدر عليه. قال: ثم قال: يا أحمد، ما تراهم يصنعون بي؟ أتراهم يقتلوني أو يفون لي بأيمانهم؟ قال: قلت: بل يفون لك يا سيّدي. قال: وجعل يضمّ على نفسه الخرقةَ التي على كتفيه، ويضمها ويمسكها بعضُده يَمنةً ويسرة. قال: فنزعتُ مبطّنة كانت عليّ ثم قلت: يا سيدي، ألْقِ هذه عليك. قال: ويحك! دعني، هذا من الله عزّ وجلّ، لي في هذا الموضع خير.

قال: فبينا نحن كذلك، إذ دقّ باب الدار، ففُتح، فدخل علينا رجل عليه سلاحه، فتطلّع في وجهه مستثبتاً له، فلما أثبتَه معرفة، انصرف وغلَق الباب؛ وإذا هو محمد بن حميد الطاهريّ، قال: فعلمت أن الرّجل مقتول. قال: وكان بقيَ عليّ من صلاتي الوتر، فخفت أن أقتَل معه ولم أوتِر، قال: فقمت أوتر، فقال لي: يا أحمد، لا تتباعد مني، وصلّ إلى جانبي، أجد وحشة شديدة. قال: فاقتربت منه؛ فلما انتصف الليل أو قارب، سمعت حركة الخيل، ودقّ الباب، ففُتح، فدخل الدار قوم من العجم بأيديهم السيوف مسلَّلة، فلما رآهم قام قائماً، وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجُعون! ذهبت والله نفسي في سبيل الله! أما من حيلة! أما من مغيث! أما من أحد من الأبناء! قال: وجاؤوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه، فأحجموا عن الدخول، وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدّم، ويدفع بعضهم بعضاً. قال: فقمتُ فصرتُ خلف الحُصرُ المدرّجة في زاوية البيت، وقام محمد، فأخذ بيده وسادة، وجعل يقول: وَيحكمْ! إني ابن عمّ رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون؛ وأنا أخو المأمون، اللّهَ اللّه في دمي! قال: فدخل عليه رجل منهم يقال له خمارويه ـ غلام لقريش الدندانيّ مولى طاهر ـ فضربه بالسيف ضربة وقعت على مقدّم رأسه؛ وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده، واتّكأ عليه ليأخذ السيف من يده فصاح خمارويه: قتلني قتلني ـ بالفارسية قال: فدخل منهم جماعة، فنخَسه واحد منهم بالسيف في خاصِرته، وركبوه فذبحوه ذبحاً من قفاه، وأخذوا رأسه، فمضوا به إلى طاهر، وتركوا جثّته. قال: ولما كان في وقت السحر جاؤوا إلى جُثّته فأدرجوها في جُلّ، وحملوها. قال: فأصبحت فقيل لي: هات العشرة آلاف درهم وإلا ضربنا عنقك. قال: فبعثت إلى وكيلي فأتاني، فأمرته فأتاني بها، فدفعتها إليه. قال: وكان دخول محمد المدينة يوم الخميس، وخرج إلى دِجْلة يوم الأحد.

وذكر عن أحمد بن سلاّم في هذه القصة أنه قال: قلت لمحمد لّما دخل عليّ البيت وسكن: لاجزى الله

وزراءك خيراً ، فإنهم أوردوك هذا المورد ! فقال لي : يا أخي ؛ ليس بموضع عتاب . ثم قال : أخبِرْني عن المأمون أخي ، أحيٌّ هو ؟ قلت : نعم ؛ هذا القتال عمّن إذاً ! هو إلا عنه ! قال : فقال لي : أخبرَني يحيى أخو عامر بن إسماعيل بن عامر ـ وكان يلي الخبر في عسكر هرثمة ـ أن المأمون مات ، فقلت له : كذب . قال : ثم قلت له : هذا الإزار الذي عليك إزار غليظ فالبس إزاري وقميصي هذا فإنه لينّ ، فقال لي : مَنْ كانت حاله مثل حالي فهذا له كثير . قال : فلقنته ذكرَ الله والاستغفار ، فجعل يستغفر . قال : وبينا نحن كذلك ، إذ هدّة تكاد الأرض ترجُف منها ؛ وإذا أصحاب طاهر قد دخلوا الدار وأرادوا البيت ، وكان في الباب ضِيق ، فدافعهم محمد بِمجنّة كانت معه في البيت ؛ فما وصلوا إليه حتى عرقبُوه ، ثم هجموا عليه ، فحزُّوا رأسه . واستقبلوا به طاهراً ، وحملوا جُثّته إلى بستان مؤنسة إلى معسكره ؛ إذ أقبل عبد السلام بن العلاء صاحب حرس هَرْثمة فأذن له ـ وكان عبَر إليه على الجسر الذي كان بالشَّماسيّة ـ فقال له : أخوك يقرِئك السلام ، فما خبرك ؟ قال : يا غلام ؛ هات الطسّ ، فجاؤوا به وفيه رأس محمد ، فقال : هذا خبَري فاعلمه . فلمّا أصبح نصب رأس محمد على باب الأنبار ، وخرج من أهل بغداد للنظر إليه ما لا يحصى عددهم ، وأقبل طاهر يقول : رأس المخلوع محمد .

وذكر محمد بن عيسى أنه رأى المخلوع على ثوبه قَمْلة ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : شيء يكون في ثياب الناس ، فقال : أعوذ بالله من زَوَال النّعمة ! فقتِل من يومه .

وذكر عن الحسن بن أبي سعيد أن الجندين : جند طاهر وجند أهل بغداد ، ندموا على قتل محمد ، لما كانوا يأخذون من الأموال .

وذكر عنه أنه ذكر أنّ الخزانة التي كان فيها رأس محمد ورأس عيسى بن ماهان ورأس أبي السرايا كانت إليه . قال : فنظرت في رأس محمد ؛ فإذا فيه ضربة في وجهه ، وشعر رأسه ولحيته صحيح لَم يَتَحاتّ منه شيء ، ولونُه على حاله . قال : وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البُرْدة والقضيب والمصلّى ـ وهو من سعف مبطّن ـ مع محمد بن الحسن ابن مصعب ابن عمه ، فأمر له بألف ألف درهم ، فرأيت ذا الرّياستين ، وقد أدخل رأس محمد على ترس بيده إلى المأمون ، فلما رآه سجد .

قال الحسن : فأخبرني ابن أبي حمزة ، قال : حدّثني عليّ بن حمزة العلويّ ، قال : قدم جماعة من آل أبي طالب على طاهر وهو بالبستان حين قِتل محمد بن زبيدة ونحن بالحَضْرة ، فوصلهم ووصلَنا ، وكتب إلى المأمون بالإذن لنا أو لبعضنا، فخرجنا إلى مَرْو، وانصرفنا إلى المدينة، فهنؤونا بالنعمة، ولقينا مَنْ بها من أهلها وسائر أهل المدينة، فوصفنا لهم قَتْل محمد، وأن طاهر بن الحسين دعا مولًى يقال له قريش الدندانيّ، وأمره بقتله. قال: فقال لنا شيخ منهم: كيف قلت! فأخبرته، فقال الشيخ: سبحان الله! كنا نروي هذا أن قريشاً يقتله؛ فذهبنا إلى القبيلة، فوافق الاسم الاسم!

وذكر عن محمد بن أبي الوزير أن عليّ بن محمد بن خالد بن بَرْمك أخبره أن إبراهيم بن المهديّ لما بلغه قتلُ محمد ، استرجع وبكى طويلاً ، ثم قال :

عُوجا بِمَغْنَى طلَلٍ داثِرِ ... بالخُلْدِ ذاتِ الصَّخْرِ والآجُرِ
والمرمَر المسنونِ يُطلَى به ... والبابِ بابِ الذَّهبِ النَّاضرِ

عوجا بها فاستَيقِنا عندها على يقين قُدْرَةَ القادرِ
وأبلِغا عنِّي مقالاً إلى الـ ـمَوْلى على المأمورِ والآمرِ
قولا له : يا بنَ ولِّي الهدَى طَهِّر بلادَ اللّهِ من طاهِرِ
لم يكفه أنْ حَزَّ أوداجَه ذَبْحَ الهدَايا بمُدَى الجازِرِ
حتَّى أتى يَسْحَبُ أوصالَه في شَطَنٍ يُفنِي مَدَى السائرِ
قد بَرَّدَ الموتُ على جَنْبِهِ وطرفُه منكسِرُ الناظرِ

قال : وبلغ ذلك المأمون فاشتدّ عليه .

وذكر عن المدائني أنّ طاهراً كتب إلى المأمون بالفتح :

أما بعد فالحمدُ لله المتعالي ذي العزّة والجلال ، والملك والسلطان ، الذي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

كان فيما قدّر الله فأحكم ، ودبّر فأبرم ،انتكاثُ المخلوع ببيعته ، وانتفاضُه بعهده . وارتكاسه في فتنته ، وقضاؤه عليه القتل بما كسبتْ يداه وما الله بظلام للعبيد . وقد كتبت إلى أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ في إحاطة جند الله بالمدينة والخُلْد ، وأخذهم بأفواهها وطرقها ومسالكها في دِجلة نواحي أزقّة مدينة السلام وانتظام المسالح حواليها وحَذْرِي السفُن والزواريق بالعرّادات والمقاتلة ، إلى ما واجه الخُلْد وباب خراسان ، تحفُّظاً بالمخلوع ، وتخوّفاً من أن يروغ مراغاً ، ويسلك مسلكاً يجدبه السبيل إلى إثارة فتنة ، وإحياء ثائرة ، أو يهايج قتالاً بعد أن حصَره الله عز وجلّ وخذله ، ومتابعة الرّسل بما يعرض عليه هرثمةُ بن أعين مولى أميرِ المؤمنين ، ويسألُني من تخلية الطريق له في الخروج إليه واجتماعي وهرثمة بن أعين ؛ لنتناظر في ذلك ، وكراهتِي ما أحدث وراءه من أمره بعد إرهاق الله إياه ، وقطعه رجاءه من كلّ حيلة ومتعلّق ، وانقطاع المنافع عنه ؛ وحيل بينه وبين الماء ؛ فضلاً عن غيره ؛ حتى همّ به خدمُه وأشياعه من أهل المدينة ومَنْ نجا معه إليها ، وتحزّبوا على الوثوب به للدّفع عن أنفسهم والنجاة بها ، وغير ذلك مما فسّرتُ لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أرجو أن يكون قد أتاه .

وإني أخبر أمير المؤمنين أني رَوّيت فيما دبَر هرثمة بن أعين مولى أمير المؤمنين في المخلوع ، وما عَرَض عليه وأجابه إليه ، فوجدت الفتنة في تخلّصه من موضعه الذي قد أنزله الله فيه بالذّلة والصَّغار وصيّره فيه إلى الضيق والحصار تزداد ، ولا يزيد أهل التربص في الأطراف إلا طمعاً وانتشاراً ، وأعلمت بذلك هرثمةَ بن أعين ، وكراهتي ما أطمعه فيه وأجابه إليه ؛ فذكر أنه لا يرى الرجوعَ عما أعطاه ، فصادرته ـ بعد يأس من انصرافه ـ عن رأيه ، على أن يقدم المخلوع رداءَ رسولِ الله ﷺ وسيفَه وقضيبَه قبل خروجه ؛ ثم أُخلِّي له طريق الخروج إليه ، كراهة أن يكون بيني وبينه اختلاف نصير منه إلى أمرٍ يُطمع الأعداء فينا ، أو فراقُ القلوب بخلاف ما نحن عليه من الائتلاف والاتفاق على ذلك ، وعلى أن نجتمع لميعادنا عشية السبت .

فتوجّهت في خاصة ثقاتي الذين اعتمدت عليهم ، وأثق بهم ، بربط الجأش ، وصدق البأس ، وصحة المناصحة ، حتى طالعتُ جميعَ أمر كلّ منْ كنت وكّلتُ بالمدينة والخُلْد بَرّاً وبحراً ، والتقدمة إليهم في التحفّظ والتيقظ والحراسة والحذر ، ثم انكفأت إلى باب خراسان ، وكنت أعددت حَرّاقات وسفناً ؛ سوى العُدّة التي كانت لأركبها بنفسي لوقت ميعادي بيني وبين هرثمة ، فنزلتها في عدّة ممن كان ركب معي من خاصة ثقاتي وشاكريّتِي ، وصيرت عدّة منهم فرساناً ورجّالة بين باب خُراسان والمشرعة وعلى الشطّ .

وأقبل هرثمة بن أعين حتى صار بقُرْب باب خراسان معِداً مستعدّاً ؛ وقد خاتلني بالرسالة إلى المخلوع إلى أن يخرج إليه إذا وافَى المشرَعة ، ليحمله قبل أن أعلم ، أو يبعث إليّ بالرداء والسيف والقضيب ؛ على ما كان فارقني عليه من ذلك . فلما وافى خروجُ المخلوع على مَنْ وكلت بباب خراسان ، نهضوا عند طلوعه عليهم ليعرفوا الطابَع لأمري كان أتاهم ، وتقدّمي إليهم ألّا يَدَعُو أحداً يجوزهم إلا بأمري . فبادرهم نحو المشرَعة ، وقرّب هرثمةُ إليه الحَرّاقة ، فسبق الناكثَ أصحابي إليها ، وتأخر كَوْثر ، فظفر به قريش مولاي ، ومعه الرّداء والقضيب والسيف ، فأخذه وما معه ، فنفر أصحاب المخلوع عندما رأوْا من إرادة أصحابي منع مخلوعهم من الخروج ، فبادر بعضُهم حَرّاقة هرثمة ، فتكفّأت بهم حتى أغرِقت في الماء ورَسَبَتْ ، فانصرف بعضهم إلى المدينة ، ورمى المخلوع عند ذلك بنفسه من الحَرّاقة في دِجْلة متخلّصاً إلى الشطّ ، نادماً على ما كان من خروجه ، ناقضاً للعهد ، داعياً بشعاره ، فابتدره عدّة من أوليائي الذين كنت وكلتهم بما بين مشرَعة باب خُراسان وركن الصراة ، فأخذوه عَنْوة قَهْراً بلا عهد ولا عقد ؛ فدعا بشعاره ، وعاد في نَكْثه ، فعرض عليهم مائة حبّة ، ذكر أن قيمة كل حبة مائة ألف درهم ، فأبوْا إلا الوفاء لخليفتهم أبقاه الله ، وصيانة لدينهم ، وإيثاراً للحقّ الواجب عليهم ، فتعلقوا به ، قد أسلمه الله وأفرده ؛ كلٌّ يرغبه ، ويريد أن يفوز بالحظوة عندي دون صاحبه ؛ حتى اضطربوا فيما بينهم ، وتناولوه بأسيافهم منازعةً فيه وتشاحًّا عليه ، إلى أن أُتِيح له مَغيظٌ لله ودينه ورسلوه وخليفته ، فأتَى عليه وأتاني الخبر بذلك ، فأمرت بحمل رأسه إليّ ، فلما أتيت به تقدّمت إلى من كنت وكلت بالمدينة والخُلْد وما حواليها وسائر مَنْ في المسالح ، في لزوم مواضعهم ، والاحتفاظ بما يليهم ، إلى أن يأتيَهم أمري . ثم انصرفت . فأعظم الله لأمير المؤمنين الصنع والفتح عليه وعلى الإسلام به وفيه .

فلما اصبحتُ هاج الناس واختلفوا في المخلوع ، فمصدِّق بقتله ، ومكذب وشاكّ وموقن ، فرأيت أن أطرح عنهم الشبهة في أمره ، فمضيت برأسه ، لينظروا إليه فيصحّ بعينهم ، وينقطع بذلك بَعَل قلوبهم ، ودخلُ التياث المستشرفين للفساد والمستوفزين للفتنة ، وغدوت نحو المدينة فاستسلم مَنْ فيها ، وأعطى أهلها الطاعة ، واستقام لأمير المؤمنين شرقيّ ما يلي مدينة السلام وغربيّة وأرْباعه وأرْباضه ونواحيه ؛ وقد وضعت الحربُ أوزارها وتلاقى بالسلام والإسلام أهله ؛ وبعَّد الله الدّغَل عنهم ، وأصارهم ببركة أمير المؤمنين إلى الأمن والسّكون والدّعة والاستقامة والاغتباط ؛ والصّنْع من الله جلّ وعزّ والخيرة ، والحمد لله على ذلك .

فكتبت إلى أمير المؤمنين حفظه الله ، وليس قِبَلي داعٍ إلى فتنة ؛ ولا متحرِّك ولا ساعٍ في فساد ، ولا أحد إلا سامع مطيع باخع حاضر ، قد أذاقه الله حلاوة أمير المؤمنين ودَعَة ولايته ؛ فهو يتقلّبُ في ظلها ؛ يغدو في متجره ويروح في معايشه ؛ والله وليّ ما صنع من ذلك ، والمتمِّم له ، والمانّ بالزيادة فيه برحمته .

وأنا أسأل الله أن تُهنّيء أميرَ المؤمنين نعمتُه ، ويتابع له فيها مزيدَه ويُورعه عليها شكره ؛ وأن يجعل منّته لديه متوالية دائماً متواصلة ؛ حتى يجمع الله له خير الدنيا والآخرة ، ولأوليائه وأنصار حقه ولجماعة المسلمين ببركته وبركة ولايته ويُمْن خلافته ، إنه وليّ ذلك منهم وفيّه ، إنه سميع لطيف لما يشاء .

وكُتِب يوم الأحد لأربع بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر عن محمد المخلوع أنه قبل مقتله ، وبعدما صار في المدينة ، ورأى الأمر قد تولّى عنه ، وأنصاره

يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، قعد في الجناح الذي كان عمله على باب الذهب ـ وكان تقدم في بنائه قبل ذلك ـ وأمر بإحضار كلّ من كان معه في المدينة من القواد والجند ، فجمِعوا في الرحبة ، فأشرف عليهم ، وقال :

الحمدُ لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، وإليه المصير . أحمَده على نوائب الزّمان ؛ وخذلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحُلول النوائب ، وتوقّد المصائب ؛ حمداً يُدّخَر لي به أجزل الجزاء ، ويَرْفدني أحسَن العزاء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه ، وشهدتْ له ملائكته ، وأنّ محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين ، ﷺ ، آمين رب العالمين .

أما بعد يا معشر الأبناء ، وأهلَ السبق إلى الهدى ، فقد علمتم غفْلتي كانت أيام الفضل بن الربيع وزيرٌ عليّ ومشير ، فمادت به الأيام بما لزمني به من الندامة في الخاصّة والعامة ، إلى أن نبّهتوني فانتبهت ، واستعنتموني في جميع ما كرهتهم من نفسي وفيكم ، فبذلك لكم ما حواه مُلكي ، ونالته مقدرتي ، مما جمعته وورثته عن آبائي ، فقوّدت مَنْ لم يَجُز ، واستكفيت مَنْ لم يكْفِ ، واجتهدت ـ عَلم الله ـ في طلب رضاكم بكلّ ما قدرت عليه ، واجتهدتم ـ علم الله ـ في مساءتي في كلّ ما قدرتم عليه ، من ذلك توجيهي إليكم عليّ بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنّن عليكم ؛ فكان منكم ما يطول ذكره ؛ فغفرت الذنب ، وأحسنت واحتملت ، وعزّيت نفسي عند معرفتي بشرود الظفر ، وحرصي على مُقامكم مسْلحة بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، ومَنْ على يدي أبيه كان فخركم ، وبه تمّت طاعتكم : عبدالله بن حَميد بن قَحْطبة ، فصرتم من التألّب عليه إلى ما لا طاقة له به ، ولا صبر عليه . يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً ، إليّ عامدين ، وعلى سيّدكم متوثبين مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين . ثم وثبتم مع الحسين عليّ ، فخلعتموني وشتمتموني ، وانتهبتموني وحبستموني ، وقيّدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ؛ حقْد قلوبكم وتلكّوء طاعتكم أكبرُ وأكثر . فالحمد لله من أسلم لأمره ، ورضي بقدَره ؛ والسلام .

وقيل : لما قُتل محمد ، وارتفعت الثائرة ، وأعطيَ الأمانَ الأبيض والأسود ، وهدأ الناس ، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة ، فصلّى بالناس ، وخطبهم خطبة بليغة ، نزع فيها من قوارع القرآن ، فكان مما حُفظ من ذلك أن قال :

الحمد لله مالك الملك يُوتي الملكَ من يشاء وينزعُ الملك ممّن يشاء، ويُعزّ مَنْ يشاء ويُذلّ مَنْ يشاء بيده الخيرُ وهو على كلّ شيء قدير.

في آي القرآن أتبع بعضُها بعضاً ، وحضّ على الطاعة ولزوم الجماعة ، ورَغّبهم في التمسك بحبل الطاعة . وانصرف إلى معسكره .

وذكر أنه لما صعد المنبر يوم الجمعة ، وحَضره من بني هاشم والقُوّاد وغيرهم جماعة كثيرة ، قال :

الحمد لله مالك الملك ، يؤتيه مَنْ يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ مَنْ يشاء ، بيده الخير ، وهو على كلّ شيء قدير . لا يُصلحُ عملَ المفسدين ، ولا يهدي كيد الخائنينَ ، إنّ ظهور غَلَبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا ، بل اختار الله للخلافة إذ جعلها عماداً لدينه ، وقواماً لعباده ، وضبْط الأطراف وسدّ الثغور ، وإعداد العُدّة ، وجمْع الفيء ، وإنفاذ الحُكْم ، ونشر العدْل ، وإحياء السنة ؛ بعد إذبالِ البَطالات ، والتلذذ بموبق الشهوات . والمُخْلدُ إلى الدنيا مستحسنٌ لداعي غرورها ، محتلبٌ دِرّة نعمتها ، ألِفٌ لزهرة روضتها ، كلِفٌ

برَونْق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء موعود الله عزّ وجلّ لمن بغى عليه ، وما أحلّ به من بأسه ونقمته ، لمّا نكب عن عهده ، وارتكب معصيتَه ، وخالف أمره ، وغيّره ناهيه ، وعظته مردية ؛ فتمسكوا بوثائق عُصُم الطاعة ، واسلكوا مناحيَ سبيل الجماعة ، واحذروا مصارِع أهل الخلاف والمعصية ؛ الذين قدحوا زناد الفتنة ، وصدَعوا شَعْب الألفة ، فأعقبهم الله خسار الدنيا والآخرة .

ولما فتح طاهر بغداد كتب إلى أبي إسحاق المعتصم ـ وقد ذكر بعضهم أنه إنما كتب بذلك إلى إبراهيم بن المهديّ ، وقال الناس : كتبه إلى أبي إسحاق المعتصم :

أما بعد ، فإنه عزيز عليّ أن أكتبَ إلى رجل من أهل بيت الخلافة بغير التأمير ، ولكنّه بلغني أنك تميل بالرأي ، وتُصغي بالهوى ، إلى الناكث المخلوع ؛ وإن كان كذلك فكثير ما كتبتُ به إليك ، وإن كان غيرَ ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات :

ركوبكَ الأمرَ ما لم تُبْلَ فرْصتُهُ ... جهلٌ وَرَأيُكَ بالتَّغرير تَغريرُ
أَقبحْ بِدُنيَا ينالُ المُخطئونَ بها ... حَظَّ المُصِيبينَ والمَغْرورُ مغْرورُ

وفي هذه السنة وثب الجند بعد مقتل محمد بطاهر ، فهرب منهم وتغيّب أياماً حتى أصلِح أمرهم .

ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به وإلى ما آل أمره وأمرهم :

ذُكر عن سعيد بن حميد ، أنه ذكر أنّ أباه حدّثه ؛ أنّ أصحاب طاهر بعد مقتل محمد بخمسة أيام ، وثبوا به ، ولم يكن في يديه مال ، فضاق به أمرُه ، وظنّ أن ذلك عن مواطأةٍ من أهل الأرْباض إياهم ، وأنهم معهم عليه ، ولم يكن تحرّك في ذلك من أهل الأرباض أحد ، فاشتدّت شوكة أصحابه ، وخشيَ على نفسه ، فهرب من البستان ، وانتهبوا بعضَ متاعه ، ومضى إلى عَقرقوف . وكان قد أمر بحفظ أبواب المدينة وباب القصر على أمّ جعفر ، وموسى وعبدالله ابني محمد ، ثم أمر بتحويل زُبيدة وموسى وعبدالله ابنيْ محمد معها من قصر أبي جعفر إلى قصر الخُلْد ، فحوّلوا ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول ، ثم مضى بهم من ليلتهم في حَرّاقة إلى هُمَيْنيا على الغربيّ من الزاب الأعلى ، ثم أمر بحمل موسى وعبدالله إلى عمّهما بخراسان على طريق الأهواز وفارس .

قال : ولما وثب الجند بطاهر ، وطلبوا الأرزاق ، أحرقوا باب الأنبار الذي على الخندق وباب البستان ، وشهروا السلاح ، وكانوا كذلك يومَهم ومن الغد ، ونادوا موسى : يا منصور .وصوّب الناس إخراجَ طاهر موسى وعبدالله ؛ وقد كان طاهر انحاز ومَنْ معه من القوّاد ، وتعبّأ لقتالهم ومحاربتهم . فلما بلغ ذلك القوّاد والوجوه صاروا إليه واعتذروا ، وأحالوا على السفهاء والأحداث ، وسألوه الصّفْح عنهم وقبول عذرهم والرضا عنهم ، وضمنوا له ألاّ يعودوا لمكروه له ما أقام معهم . فقال لهم طاهر : والله ما خرجتُ عنكم إلا لوضع سيفي فيكم ، وأقسم بالله لئن عُدتم لمثلها لأعودنّ إلى رأيي فيكم ، ولأخرجنّ إلى مكروهكم ، فكسرهم بذلك ، وأمر لهم برزق أربعة أشهر ؛ فقال في ذلك بعض الأبناء :

آلَى الأميرُ ـ وقولُهُ وَفِعَالُه ... حَقٌّ ـ بجَمْع مَعَاشِرِ الزُّعَّارِ
إن هاج هَائجُهُمْ وشَغَّبَ شَاغِبٌ ... من كلِّ ناحيةٍ من الأَقطارِ

أَلَّا يُنَاظِرَ مَعْشَراً من جمْعِهِمْ إِمْهَالَ ذي عَدْلٍ وذِي إِنْظارِ
حتى يُنِيخَ عليهمُ بعَظِيمَةٍ تَدَعُ الدِّيارَ بَلاقِعَ الآثارِ

فذكر عن المدائنيّ أن الجند لما شَغَبُوا، وانحاز طاهر، ركب إليه سعيد بن مالك بن قادم ومحمد بن أبي خالد وهبيرة بن خازم، في مشيخة من أهل الأرباض، فحلفوا بالمغلّظة من الأيمان، أنه لم يتحرّك في هذه الأيام أحدٌ من أبناء الأرباض، ولا كان ذلك عن رأيهم، ولا أرادوه، وضمنوا له صلاح نواحيهم من الأرْبَاض، وقيامَ كل إنسان منهم في ناحيته بكلّ ما يجب عليه؛ حتى لا يأتيه من ناحية أمر يكرهه. وأتاه عَميرة ـ أبو شَيْخ بن عَميرة الأسديّ ـ وعليّ بن يزيد؛ في مشيخة من الأبناء، فلقوه بمثل ما لقيه به ابنُ أبي خالد وسعيد بن مالك وهُبيرة، وأعلموه حسنَ رأي مَنْ خلْفهم من الأبناء ولينَ طاعتهم له، وأنهم لم يدخلوا في شيء مما صنع أصحابه في البستان. فطابت نفسه إلّا أنه قال لهم: إن القوم يطلبون أرزاقهم، وليس عندي مال. فضمن لهم سعيد بن مالك عشرين ألف دينار، وحملها إليه، فطابت بها نفسه، وانصرف إلى معسكره بالبستان. وقال طاهر لسعيد: إني أقبلها منك على أن تكون عليّ دَيْناً، فقال له: بل هي إنما صلة وقليل لغلامك وفيها أوجب الله من حقك. فقبلها منه، وأمر للجند برزق أربعة أشهر، فرضُوا وسكنوا.

قال المدائنيّ: وكان مع محمد رجل يقال له السمرقنديّ، وكان يرمي عن مجانيق كانت في سفن من باطن دِجلة؛ وربما كان يشتدّ أمر أهل الأرباض على مَن بإزائهم من أصحاب محمد في الخنادق، فكان يبعث إليه، فيجيء به فيرميهم ـ وكان رامياً لم يكن حجَرُه يخطىء ـ ولم يقتل الناس يومئذ بالحجارة كما قيل، فلما قتِل قُطع الجسر، وأحرقت المجانيق التي كانت في دجلة يرمي عنها، فأشفق على نفسه، وتخوّف من بعض مَنْ وتره أن يطلبه، فاستخفى، وطلبه الناس، فتكارى بغلا، وخرج إلى ناحية خُراسان هارباً، فمضى حتى إذا كان في بعض الطريق استقبله رجلٌ فعرفه؛ فلما جازه قال الرجل للمكاري: ويحك! أين تذهب مع هذا الرجل! والله لئن ظُفر بك معه لتُقتلنّ، وأهون ما هو مصيبُك أن تحبَس، قال: إنا لله وإنا إليك راجعون! قد والله عرفت اسمَه، وسمعت به قتله الله! فانطلق المكاري إلى أصحابه ـ أو مسلحة انتهى إليها ـ فأخبرهم خبره، وكانوا من أصحاب كُنْدُغوش من أصحاب هرثمة، فأخذوه وبعثوا به إلى هرثمة، وبعث به هرثمة إلى خزيمة بن خازم بمدينة السلام، فدفعه خزيمة إلى بعض مَنْ وتره فأخرجه إلى شاطىء دجلة من الجانب الشرقيّ فصُلب حيًّا، فذكروا أنه لما أرادوا شدّه على خشبته، اجتمع خلق كثير، فجعل يقول قبل أن يشدّوه: أنتم بالأمس تقولون: لا قَطَع الله يا سمرقنديّ يدك، واليوم قد هيّأتم حجارتكم ونُشّابكم لترموني! فلما رفعت الخشبة أقبل الناس عليه رمياً بالحجارة والنشاب وطعناً بالرماح حتى قتلوه، وجعلوا يرمونه بعد موته، ثم أحرقوه من غد، وجاؤوا بنار ليحرقوه بها، وأشعلوها فلم تشتعل، وألقوْا عليه قصباً وحطباً، فأشعلوها فيه، فاحترق بعضه، وتمزّقت الكلاب بعضه، وذلك يوم السبت لليلتين خلتا من صفر.

ذكر الخبر عن صفة محمد ابن هارون وكنيته وقدر ما ولى ومبلغ عمره

قال هشام بن محمد وغيره: ولِيَ محمد بن هارون وهو أبو موسى يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقتل ليلة الأحد لستّ بقين من صفر سنة سبع وتسعين ومائة. وأمه

زبيدة ابنة جعفر الأكبر بن أبي جعفر؛ فكانت خلافتُه أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام. وقد قيل: كانت كنيتُه أبا عبد الله.

وأما محمد بن موسى الخُوارزميّ فإنه ذكر عنه أنه قال: أتت الخلافةُ محمّد بن هارون للنصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وحجّ بالناس في هذه السنة التي وُلِّيَ فيها داود بن عيسى بن موسى، وهو على مكة وأبو البختريّ على ولايته، وبعد ولايته بعشرة أشهر وخمسة أيام وجَّه عصمة بن أبي عصمة إلى ساوَة، وعقد ولايته لابنه موسى بولاية العهد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول؛ وكان على شُرَطه عليّ بن عيسى بن ماهان.

وحجّ بالناس سنة أربع وستعين ومائة عليّ بن الرشيد، وعلى المدينة إسماعيل بن العباس بن محمد، وعلى مكة داود بن عيسى، وكان بين أن عقد لابنه إلى التلقاء عليّ بن عيسى بن ماهان وطاهر بن الحسين وقتل عليّ بن عيسى بن ماهان سنة خمس وتسعين ومائة، سنةٌ وثلاثة أشهر وتسعة وعشرون يوماً. قال: وقتل المخلوع ليلة الأحد لخمس بقين من المحرّم، قال: فكانت ولايته مع الفتنة أربع سنين وسبعة أشهر وثلاثة أيام.

ولما قتِل محمد ووصل خبره إلى المأمون في خريطة من طاهر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة أظهر الخبر، وأذن للقوّاد فدخلوا عليه. وقام الفضل بن سهل فقرأ الكتاب بالخبر، فهنِّىء بالظَّفَر، ودعوا الله له. وورد الكتاب من المأمون بعد قتل محمد على طاهر وهرثمة بخلْع القاسم بن هارون، فأظهرا ذلك، ووجّها كتبهما به، وقرىء الكتاب بخلعه يوم الجمعة لليلتين بقيَتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائة، وكان عمر محمد كله - فيما بلغني - ثمانياً وعشرين سنة.

وكان سَبْطاً أنزعَ أبيض صغير العينين أقنى، جميلا، عظيم الكراديس،بعيد ما بين المنكبين. وكان مولده بالرُّصافة.

وذكر أن طاهراً قال حين قتله:

قَـتَـلْـتُ الـخـلـيـفَـةَ فـي دَارِهِ ... وأنـهـبْـتُ بـالـسَّـيْـف أمـوالَـهُ

وقال أيضاً:

مَـلَكْتُ الـنَّـاسَ قَسْـراً واقـتـدارَا ... وَقَـتَّـلْتُ الجـبـابـرَة الـكِـبَـارا
ووجَّـهـتُ الخـلافـة نـحـو مَـرْوٍ ... إلى المـأْمـون تَـبْـتَـدِرُ ابـتـدارَا

ذكر ما قيل في محمد بن هارون ومرثيته

فما قيل في هجائه:

لِـمْ نُـبَـكِّـيـك لِـمـاذا؟ لـلطَّربْ! ... يـا أبـا مـوسى وَتَـرْوِيـج اللَّعِبْ
وَلِـتَـرْكِ الخـمْس في أوقـاتِـهَـا ... حَـرَصـاً مِنـكَ على مـاءِ العِنَبْ
وَشَـنـيـفٍ أنـا لا أبـكـي لَـهُ ... وَعلى كـوثـرَ لا أخشى الْعَـطَبْ
لَمْ تَكُنْ تَعـرفُ مـا حـدّ الـرِّضـا ... لا ولا تَـعْـرفُ مـا حَـدُّ الغَـضَبْ
لـم تـكـن تَـصلُحُ لـلمُـلكِ ولَـمْ ... تُعطكَ الـطاعـةَ بـالمُلك الْعَـرَبْ
أيُّـهـا البـاكِي عَـلَيْـهِ لا بـكـتْ ... عـينُ مَـنْ أبكـاكَ إلاَّ لِـلعَـجَـبْ

لِمْ نُبَكِّيكَ لِما عَرَّضتَنا ... لِلمجانيق وَطَوْراً لِلسَّلَبْ
ولقومٍ صَيَّرونا أعبُداً ... لهمُ يَنزُو على الرأس الذَّنَب
فِي عذابٍ وحصارٍ مُجهِدٍ ... سَدَّد الطُّرْقَ فلا وَجْهَ طَلَبْ
زَعَمُوا أنَّكَ حيٌّ حاشِرٌ ... كُلُّ مَنْ قالَ بهذا قَدْ كَذَبْ
لَيْتَ مَنْ قَدْ قالَهُ فِي وَحْدَةٍ ... مِنْ جميعٍ ذاهبٌ حيثُ ذَهَبْ
أوجَبَ اللهُ عَلَيْنا قَتلَهُ ... فإذا ما أوْجَبَ الأمرَ وَجَبْ
كانَ واللهِ علَينا فتنةً ... غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَكَتَبْ

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكي بغداد، ويهجو طاهراً ويعرّض به:

مَنْ ذا أصابكِ يا بَغدادُ بالعينِ ... ألَمْ تَكُوني زَماناً قرّة العينِ!
ألم يكن فيكِ أقوامٌ لهم شرف ... بالصالحات وبالمعروف يلقوني
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهمْ ... وكان قربهُم زيناً من الزَّيْنِ
صاحَ الزمانُ بهمْ بالبيْن فانقرضُوا ... ماذَا الَّذِي فَجعْتني لوعةُ الْبَينِ
أستَوْدِعُ اللهَ قوماً ما ذكرتُهُمُ ... إلا تحَدَّرَ ماءُ العيْن مِنْ عَيْنِي
كانُوا ففرَّقَهُمْ دهرٌ وصَدَّعَهمْ ... والدَّهْرُ يَصدَعُ ما بيْنَ الفريقين
كم كانَ لِي مُسعدٌ منهم على زَمَنِي ... كمْ كان منهم على المَعروفِ من عوْنِ
للهِ درُّ زَمانٍ كان يجمعُنا ... أينَ الزمانَ الَّذِي ولَّى ومِنْ أينِ!
يا مَنْ يُخَرِّبُ بغداداً ليعْمُرَها ... أهلَكتَ نفسكَ ما بين الطريقيْن
كانت قلوبُ جيمع الناس واحِدَةً ... عيْناً، وليس لكون العيْنِ كالدَّيْنِ
لمَّا أشَتَّهُمُ فرَّقْتَهُمْ فِرَقاً ... والنَّاسُ طُرًّا جميعاً بينَ قَلْبَيْنِ

وذكر عمر بن شبّة أن محمد بن أحمد الهاشميّ حدثه، أن لبانة ابنة عليّ بن المهديّ قالت:

أبكيكَ لا للنَّعيم والأُنس ... بل للمعَالي والرُّمح والتُّرْسِ
أبكِي على هالكٍ فجعْتُ بهِ ... أرْملَني قبلَ ليْلة العُرسِ

وقد قيل إن هذا الشعر لابنة عيسى بن جعفر، وكانت مُمْلَكة بمحمد.

وقال الحسين بن الضّحاك الأشقر، مولى باهلة، يرثي محمداً، وكان من نُدمائه، وكان لا يصدّق بقتله، ويطمع في رجوعه:

يا خيرَ أُسْرتِهِ وإنْ زَعَمُوا ... إنّي عليْكَ لمُثْبَتٌ أسِفُ
اللهُ يعلمُ أنَّ لي كبداً ... حَرَّى عليك ومُقلَةً تَكِفُ
ولئنْ شَجِيتُ بما رُزِئْتُ به ... إنّي لأُضمِرُ فوق ما أصِفُ
هلَّا بَقيتَ لسَدِّ فاقتِنا ... أبداً، وكان لغيرِكَ التلَفُ!
فلقد خلفْتَ خلائفاً سلَفُوا ... ولَسوفَ يُعْوِزُ بعدَكَ الخلَفُ
لابَاتَ رهطُكَ بَعدَ هفوتِهمْ ... إنّي لِرَهْطِكَ بعدها شَنِفُ

هَتكــوا بِحُــرمتِــكَ التي هُـتِكَـتْ ... حَــرَم الـرَّســولِ ودُونَهـا السُّجُفُ
وثـبَتْ أقــاربُــكَ الـتـي خَـذَلَـت ... وجـمـيـعـهـا بــالــذُّلِّ معـتـرِفُ
لم يفـعلوا بــالـشَّطِّ إذ حَضَـرُوا ... مــا تـفـعــلُ الـغـيْـرَانـةُ الأنِـفُ
تــرَكــوا حَــريـمَ أربيـهـمُ نَـفَــلاً ... والـمُحصَنَــاتُ صـوارِخٌ هُـتُفُ
أبْــدَتْ مُـخـلـخلهــا عـلى دَهْشٍ ... أبـكــارُهُـنَّ وَرَنَّــتِ الـنُّـصَــفُ
سُـلَبتْ مـعــاجِــرُهُـنَّ واجـتُـلِـيَتْ ... ذاتُ الـنِّـقــابِ ونــوزِعَ الـشَّـنَـفُ
فـكــأنـهــنَّ خِــلالَ مُـنـتـهَــبِ ... دُرٌّ تـكَــشَّـفَ دُونَـهُ الـصَّـدَفُ
مــلِكٌ تـخَــوَّنَ مُـلـكَــهُ قَـدَرٌ ... فَـوَهَى وصَرْفُ الـدَّهْــر مُختلِفُ
هـيهــاتَ بَـعْـدَك أن يَـدُومَ لـنـا ... عِــزٌّ وأن يَـبـقــى لـنـا شَـرَفُ
لا هَـيَّبُــوا صُحُـفـاً مُـشَـرَّفَـةً ... لـلغــاذِرينَ وتـحْـتـهــا الـجـدَف
أفـبـعــدَ عـهــدِ اللهِ تـقـتـلـهُ ... والـقـتــلُ بـعـد أمـانِـهِ سـرفُ
فَسَتَعْـرِفـون غـداً بـعــاقـبَـةٍ ... عــزَّ الإلــه فـأوردوا وَقِـفــوا
يــا مــن يَـخُــوّنُ نـومَـهُ أرَقٌ ... هَـدَتِ الشجُـونُ وقـلبُـه وجِـف
قــد كـنتَ لـي أمـلاً غَنِيتُ بـه ... فـمضَى وحــلَّ مـحـلَّهُ الأسَـف
مــرِجَ الـنـظامَ وعــادَ منـكَـرُنـا ... عُــرْفــاً وأنـكِـر بَعـدَكَ العُـرُفُ
فــالشمـلُ مُنتشـرٌ لفَقـدكَ والـدّ ... نْيـا سُـدًى والبـالُ مُنكـسِفُ

وقال أيضاً يرثيه:

إذا ذُكِــرَ الأميـنُ نـعَـى الأمـيـنـا ... وإن رقَــدَ الخلِيُّ حمَى الجُفـونَـا
ومــا بـرحت مـنـازلُ بين بُصــرَى ... وكَلْواذَى تـهـيِّـجُ لـي شُـجُــونَـا
عــراصُ المُلك خـاويــةٌ تهـادَى ... بـهــا الأرواحُ تَنسُجُـهـا فُنـونـا
تـخَــوَّن عــزَّ سـاكِـنـهـا زمـانٌ ... تـلَعَّـبَ بــالـقُــرونِ الأوَّلـيـنَـا
فشتَّـتَ شَمْـلَهُمْ بـعــدَ اجتمـاعٍ ... وكُنتُ بِحُسْـنِ أُلفتِهِمْ ضَنِينـا
فلم أرَ بعــدَهـمْ حُسْنـاً سـواهُمْ ... ولمْ تَــرَهُمْ عُيُـونُ الـنَّـاظِـرينَـا
فَـوَا أسفـاً وإن شَمَـتَ الأعــادِي ... وآهِ عَـلى أمـيــر الـمُـؤمِـنـيـنـا
أضــلَّ العُــرْفَ بعـدَك مُتبِعُـوهُ ... وَرُفِّـهَ عَـنْ مَـطَايَــا الـرَّاغِبـيـنَـا
وكـنَّ إلـى جَـنـابِـكَ كـلَّ يـومٍ ... يَــرُحْنَ على السُّعــودِ ويغتَــدِينـا
هُـوَ الجَبـلُ الَّـذي هَـوَتِ المعالِي ... لِـهَـدَّتِـه وَريــعَ الصَّــالـحُـونـا
ستنــدُبُ بعــدَكَ الـدنيـا جـواراً ... وتـنـدُبُ بعْدكَ الـدِّينَ المصُـونَـا
فَقَــدْ ذَهَبَتْ بشَــاشَــةُ كــلِّ شيءٍ ... وعــادَ الـدِّينُ مـطرُوحـاً مَهِـيـنَـا
تـعقَّــدَ عِــزٌّ متصــلٍ بكِسْــرى ... ومِــلَّتِـهِ وَذَلَّ الـمـسـلـمـونَـا

وقال أيضاً يرثيه:

أسفــاً عليـكَ سـلاكَ أقربُ قـرْبَـةً ... مِـنِّي وأحـزَانـي عـلـيـكَ تـزيـدُ

وقال عبد الرحمن بن أبي الهداهد يرثي محمّداً:

يا غَرْبُ جودي قد بُتَّ من وذَمِهْ … فَقَدْ فَقَدْنا العزيزَ من دِيمِهْ
أَلْوَت بِدُنْياك كفُّ نائبةٍ … وصِرْتَ مُغضًى لنا على نِقمهْ
أَصْبَحَ للموتِ عندنا علَمٌ … يَضْحَكُ سِنُّ المَنُونِ من عَلَمِهْ
ما استنزَلَت دَرَّةُ المَنونِ على … أكرَمِ من حلَّ في ثرَى رَحِمِهْ
خليفةُ الله في بريَّتِه … تَقصُر أيدي المُلوكِ عن شِيمه
يفترّ عَنْ وجهِه سَنَا قمرٍ … ينشقّ عن نُورِهِ دُجَى ظُلمِهْ
زُلزِلَتِ الأرْضُ مِنْ جَوانِبِها … إذْ أُولِغَ السَّيْف من نجيع دَمِهْ
مَن سكَتَتْ نَفْسُهُ لمصْرَعِهِ … من عُمُم النَّاس أو ذَوِي رَحِمِهْ
رَأيتُهُ مثلَ ما رَآهُ بهِ … حَتى تذوقَ الأمَرَّ مِنْ سقَمِهْ
كَمْ قَدْ رأينا عزيزَ مملكَةٍ … يُنقَلُ عن أهلِهِ وعَنْ خَدَمِه
يا مَلِكاً لَيْسَ بَعْدَهُ ملِكٌ … لخاتَمِ الأنبياءِ في أُمَمِهْ
جادَ وحيًّا الذي أقمتَ به … سَحٌّ غَزيرُ الوَكيفِ من دِيَمِهْ
لو أحجَمَ الموتُ عن أخي ثقَة … أَسْوِيَ في العِزِّ مستَوَى قَدَمِهْ
أو ملِكٍ لا تُرَامُ سطوَتُهُ … إلَّا مُرامَ الشَّتِيمِ في أجَمِهْ
خلَّدَكَ العزُّ ما سَرَى سَدَفٌ … أو قامَ طِفلُ العشيِّ في قدَمِهْ
أصبحَ مُلكٌ إذا اتَّزرْتَ به … يقرَع سِنّ الشُّقاةِ من ندمه
أثَّر ذو العرش في عِداكَ كما … أثَّر في عادِهِ وفي إرَمِهِ
لا يُبْعِدِ الله سُورَةً تليتْ … لخير داعٍ دعاه في حرمِه
ما كنت إلا كحُلم ذي حُلمٍ … أولَج بابَ السُّرورِ في حُلمِه
حتَّى إذا أطلَقْتهُ رَقدَتُه … عادَ إلى ما اعتراهُ من عَدَمِه

وقال أيضاً يرثيه:

أَقولُ وَقَدْ دنوتُ مِنَ الفِرارِ … سُقيتَ الغيْثَ يا قصْرَ القَرارِ
رَمَتْكَ يدُ الزمانِ بسَهم عينٍ … فصِرْتَ ملوَّحاً بدخانِ نارِ
أبِنْ لِي عَنْ جميعِكَ أينَ حلُّوا … وأينَ مَزَارُهم بَعْدَ المزارِ
وأينَ محمدٌ وابناهُ ما لِي … أرَى أطلالَهُمْ سودَ الدّيارِ!
كأن لم يؤنَسُوا بأنيس مُلكٍ … يصونُ على المُلوك بخيْر جارِ
إمامٌ كان في الحِدثانِ عَوْناً … لَنا والغيثَ يَمْنَحُ بالقِطَارِ
لَقَدْ ترَكَ الزَّمانُ بني أبِيهِ … وقد غمرتهمُ سُودُ البِحَارِ
أضاعُوا شمسهمْ فجرت بنَحْس … فصارُوا في الظَّلَام بلا نهارِ
وأجْلَوْا عنهمُ قمراً منيراً … وداستهمْ خُيُولُ بني الشِّرار

ولـو كـانُـوا لـهمْ كـفْـواً ومِـثْـلاً إذاً مـا تُـوِّجُـوا تِـيـجَـانَ عـارِ
ألا بـانَ الإمـامُ ووارثـاهُ لَقَـدْ ضَـرَمـا الحشَـا منَّـا بـنـار
وقـالـوا الـخُـلدُ بيـعَ فـقلتُ ذلًّا يَـصيـرُ ببـائعيـهِ إلى صَـغَـارِ
كـذاكَ الـمُـلكُ يُـتـبـع أوّلـيـهِ إذا قُـطِعَ الـقـرَارُ مـنَ الـقـرَارِ

وقال مقدّس بن صيفيّ يرثيه:

خـليلي مـا أَتَـتـكَ بـه الخُـطوبُ فقـد أعـطتـكَ طـاعتَـهُ النّحيبُ
تـدلَّتْ مِنْ شَمـاريـخِ المَنَـايَـا مَـنَـايـا مـا تقـومُ لـهـا الـقـلوبُ
خِـلالَ مـقابـرِ الـبُـسـتـانِ قـبْـرٌ يُـجـاورُ قـبْـرَهُ أسـدُ غـريـبُ
لقـد عَـظمَتْ مُـصيبتُـه عَـلى مَنْ لـه فـي كـلِّ مَكْـرُمَـةٍ نـصيـبُ
عـلى أمثَـالـهِ العـبَـراتُ تُـذْرَى وتُـهتَـكُ فـي مـآتمِـهِ الجيـوبُ
ومـا ادَّخـرَتْ زُبَيْـدَةُ عنـهُ دَمعـاً تُـخَصُّ بـه النَّسيبـةُ والـنَّسيـبُ
دعُـوا مُـوسى ابنَـه لِبُكـاءِ دَهـرٍ على مُـوسى ابنِـهِ دَخـل الحـزِيبُ
رأيتُ مشـاهِـدَ الـخُلَفـاءِ مِنـهُ خَـلاءً مـا بسـاحتِـهـا مُجِيبُ
لـيَـهـنِـكَ أنَّـنـي كَـهْـلٌ عـليـه أذُوبُ، وفي الحشـا كَبِـدٌ تـذوبُ
أُصيبَ بـه البعيـدُ فخـرَّ حُـزْنـاً وعـايـن يـومَـهُ فيـهِ الـمُـريـبُ
أُنـادي مِنْ بُطُونِ الأرضِ شخصـاً يـحَـرِّكُـهُ الـنِّـدَاءُ فـمـا يُـجيـبُ
لئن نَعـتِ الحُـرُوبُ إلـيـه نفسـاً لقَـدْ فُجِعَتْ بمصْـرَعِـهِ الحُـروبُ

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر:

لخيْـرِ إمـامٍ قـامَ من خيْـرِ عُنصـرِ وأفضَـل سـامٍ فـوقَ أعـوادِ مِنْـبـرِ
لِـوارِثِ عـلمِ الأوَّلـينَ وفـهـمِهـم ولـلملِكِ الـمـأمـونِ من أُمِّ جعفـرِ
كـتبْتُ وَعينيَ مُستَهـلٌّ دُموعُـا إليك ابنَ عَمِّي من جُفوني ومَحجـري
وقـد مسَّـنـي ضـرٌّ وذلُّ كـآبـةٍ وأرَّقَ عـيني يـابنَ عـمِّي تـفكـري
وهِمتُ لمـا لاقيْتُ بعـدَ مُصـابـه فـأمري عـظيمٌ منكـرٌ جِـدَّ منكـر
سـأشكـو الـذي لاقَيتُهُ بعـدَ فقدِهِ إليْـكَ شَكـاةَ المُستَهـام الـمُقَهَّـر
وأرجُـو لمـا قَـد مرَّ بي مُـذ فقدتُـه فـأنت لبَـثّي خـيْـرُ ربٍّ مغـيِّـرِ
أتى طـاهـرٌ لا طهَّـرَ اللّهُ طـاهـراً فمـا طـاهـرٌ فيـمـا أتى بـمطَـهَّـرِ
فـأخرجني مكشُـوفَةَ الـوْجـهِ حـاسراً وأنـهَـبَ أمـوالـي وأحـرقَ آدُرِي
يعـزُّ على هـارونَ مـا قَـدْ لـقيتُـهُ ومـا مَـرَّ بي من نـاقِص الخلقِ أعـور
فـإن كَـانَ مـا أَسْدَى بـأمرٍ أمرتَـه صَبـرتُ لأمـرٍ مِنْ قَـديـرٍ مقـدِّرِ
تـذكَّـرْ أميـرَ المؤمنينَ قـرابـتي فـديتـك من ذي حُـرمـةٍ متـذكِّـرِ

وقال أيضاً يرثيه:

سُبْحانَ ربِّكَ رَبِّ العِزَّةِ الصمَدِ ماذا أُصِبْنَا بِهِ في صُبْحَةِ الأَحَدِ
وَمَا أُصيبَ بِهِ الإسلامُ قاطِبَةً مِنَ التَّضعْضُعِ في ركنَيْهِ والأَوَدِ
مَنْ لم يُصَبْ بأَميرِ المؤمنين وَلَمْ يُصبِحْ بمهلُكَةٍ والهَمُّ في صُعُدِ
فَقَدْ أُصِبتُ بِهِ حتى تبيَّنَ في عَقلِي وديني وفي دنيايَ والْجَسَدِ
يا ليلةً يشتكي الإسلامُ مُدَّتها والعالَمون جميعاً آخرَ الأَبدِ
غدرت بالملك الميمون طائرهُ وبالإمام وبالضِّرغامةِ الأَسدِ
سارتِ إِلَيْهِ المنايا وهْي تَرْهَبُه فواجهتْهُ بأَوغادٍ ذوي عددِ
بشُورجينَ وأَغتامٍ يقودُهُمُ قريش بالبيض في قُمْصٍ من الزَّرَدِ
فصادَفُوه وحيداً لا مُعينَ لَهُ عليهمُ غائبَ الأنصار بالمددِ
فجرَّعوه المنَايَا غيرَ ممتنِعٍ فرْداً فيالَكَ من مُستسْلم فَردِ
يَلْقَى الوُجُوهَ بوجهٍ غيرِ مبتذَلٍ أَبْهَى وأَنقَى من القُوهيَّةِ الجدُدِ
واحسرتَا وقريشٌ قد أَحاطَ به والسّيفُ مُرتعِدٌ في كفِّ مرتعِد
فما تَحرَّكَ بَلْ ما زالَ منتصِباً مَنكَّسَ الرَّأس لم يُبْدِىء ولم يُعِدِ
حتى إذا السيف وافى وَسْطَ مَفْرِقِه أَذرَتْهُ عَنهُ يداه فَعْلَ مُتَّئِدِ
وقام فاعتقلتْ كفَّاهُ لَبَّتَه كَضَيْغمٍ شَرِسٍ مُستَبْسِلٍ لَبِدِ
فاحتزَّهُ ثم أَهْوَى فاستقلَّ به للأَرضِ من كفِّ ليثٍ مُحْرجٍ حَرِدِ
فكادَ يقتُلُهُ لَوْ لمْ يكاثِرهُ وقام منفلتاً مِنْهُ ولم يكَدِ
هذا حديثُ أميرِ المؤمنينَ وما نقَصْتُ من أَمرِهِ حَرْفاً وَلَمْ أَزِدِ
لا زلتُ أَنْدُبه حتَّى المماتِ وإن أَخْنَى عليْهِ الذي أَخْنَى على لُبَدِ

وذكر عن الموصليّ أنه قال: لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون بكى ذو الرياستين، وقال: سلَّ علينا سيوفَ الناس وألسنتهم؛ أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به عَقيراً! وقال له المأمون: قد مضَى ما مضى فاحتلْ في الاعتذار منه؛ فكتب الناس فأطالوا، وجاء أحمد بن يوسف بشِبْر من قرطاس فيه:

أما بعدُ؛ فإنّ المخلوعَ كان قسيمَ أمير المؤمنين في النسب واللُّحمة، وقد فرّق الله بينه وبينه في الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين؛ يقول الله عزّ وجلّ حين اقتصّ علينا نبأ ابن نوح: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالِحٍ ﴾[1]، فلا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله. وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع، وردّاه رداء نكثه، وأحْصد لأمير المؤمنين أمْره، وأنجز له وعده، وما ينتظر من صادق وعده حين ردّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها.

ذكر الخبر عن بعض سيَر المخلوع محمد بن هارون

ذُكر عن حُميد بن سعيد، قال: لما ملك محمد، وكاتَبه المأمون، وأعطاه بيعتَه، طلب الخِصيان

(١) سورة هود: ٤٦.

وابتاعهم، وغالَى بهم، وصيّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقِوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه؛ وفرض لهم فرضاً سماهم الجراديّة، وفرضاً من الحبشان سمّاهم الغُرابيّة، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمِي بهنّ؛ ففي ذلك يقول بعضهم:

ألا يَا مُزمِنَ المثـوى بـطوسٍ ... عَـزيبـاً مـا يُفـادَى بـالنُّفُـوسِ
لقـد أبقيتَ للخصيـان بعـلا ... تحَمَّـلَ منهـمُ شؤمَ البَسُـوسِ
فـأمّا نـوفـلٌ فـالشـأنُ فِيـهِ ... وفي بـدرٍ، فيا لـك من جَليس!
ومـال العُصمِيُّ بَشَّـارٌ لـديْـهِ ... إذا ذُكِـروا بـذي سهمٍ خَسيسِ
ومـا حَسَنُ الصغيـرُ أخسُّ حـالاً ... لـديـه عنـد مخْـترق الكؤوسِ
لهمْ مـن عُمْـره شَـطرٌ وَشَـطْرٌ ... يُعـاقِرُ فيـه شَربَ الخَنْـدريسِ
وَمَـا لـلغـانيـات لَـدَيْـهِ حظٌّ ... سِوَى التَّقْطِيب بالوَجْـهِ العَبوسِ
إذَا كـانَ الـرئيسُ كَـذَا سَقِيمـاً ... فكيفَ صَـلاحُنا بعـدَ الـرئيسِ!
فلو علمَ المقيـمُ بـدارِ طُـوسٍ ... لَعـزَّ على المقيم بـدارِ طُـوسِ

قال حميد: ولما ملك محمد وجّه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمِّهم إليه، وأجرى لهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فُرْه الدوابّ، وأخذ الوحوش والسباع والطيْر وغير ذلك؛ واحتجب عن إخوته وأهل بيتـه وقوّاده، واستخفّ بهم، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدّثيه، وحُمِل إليه ما كان في الرّقّة من الجوهر والخزائن والسلاح، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخُلْد والخَيْزرانيّة وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلّى ورقة كَلْواذي وباب الأنبار وبناوري والهوب؛ وأمر بعمل خمس حَرّاقات في دِجلة على خِلْقة الأسد والفيل والعُقاب والحيّة والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً، فقال أبو نواس يمدحه:

سَـخَّـرَ آللّهُ لِـلأمـينِ مَـطَايَـا ... لم تُسَخَّرْ لِصَاحِبِ المِحْـرابِ
فـإذا مـا ركـابُـه سِـرْن بـرًّا ... سـارَ في الماءِ راكبـاً ليث غَـابِ
أسـداً بـاسـطاً ذِراعيْـهِ يَهـوى ... أهْـرَتَ الشِّـدْقِ كـالـحَ الأنيَـابِ
لا يعـانيـهِ بـاللِّجام ولا السَّـو ... طِ ولا غمـزِ رجلِه في الـرّكـابِ
عجِب النـاسُ إذ رأوكَ على صُو ... رةِ لـيثٍ تـمـرّ مـرَّ السَّحَـابِ
سبَّحـوا إذ رَأوك سِـرْت عليـه ... كيف لـو أبصرُوك فَـوْقَ العُقابِ
ذاتِ زَور ومِـنْـسـر وجَـنـاحـ ... ـين تَشُقّ العُبـابَ بَعدَ العُبَـابِ
تَسْبِقُ الطيرَ في السَّماءِ إذا ما اسـ ... ـتَعجَـلُوهـا بجَيئـةٍ وذهـابِ
بَـارَكَ الله لـلأميـرِ وأبْـقـا ... هُ وأبْـقَـى لَـهُ رِدَاءَ الـشبـابِ
مِلِكٌ تَقصُـرُ المـدَائـحُ عنـهُ ... هـاشـمـيٌّ مـوفَّـقٌ لـلصـوابِ

وذُكر عن الحسين بن الضّحّاك، قال: ابتنى الأمير سفينةً عظيمة، أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم، واتّخذ أخرى على خلقة شيء يكون في البحر يقال له الدُّلْفِين، فقال في ذلك أبو نواس الحسن بن هانىء:

قد ركبَ الدُّلفينَ بَدرُ الدجى مقتحمـاً في الماءِ قَـدْ لَجَّجا
فـأشْـرَقَتْ دِجلةُ فـي حُسْنِـهِ وأشـرَقَ الشَّـطّان واستَبْهـجـا
لـم تَـرَ عيـني مثلَهُ مَـرْكَبـاً أحسنَ إن سَـارَ وإن أحنجـا
إذا استَحثثْتَـهُ مجـادِيفُـهُ أعنَقَ فَـوْقَ المـاءِ أو هَمْلَجـا
خصَّ بـه الـلّهُ الأمـيـن الّـذِي أضحى بتاج الملك قد تُـوِّجا

وذكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما المغنّي الكُوفيّ أنه قال: كان العباس بن عبدالله بن جعفر بن أبي جعفر من رجالات بني هاشم جَلَداً وعقلاً وصنيعاً؛ وكان يتّخذ الخَدَم، وكان له خادم من آثر خَدَمه عنده يقال له منصور، فوجَد الخادم عليه، فهرب إلى محمد، وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظِي عنده حُظوةً عجيبة. قال: فركب الخادم يوماً في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السّيافة، فمرّ بباب العباس بن عبدالله؛ يريد بذلك أن يُريَ خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها. وبلغ ذلك الخبر العباس، فخرج محضراً في قميص حاسراً، في يده عمود عليه كِيمُخت، فلحقه في سويقة أبي الورد، فعلِق بلجامه، ونازعه أولئك الخدم، فجعل لا يضرب أحداً منهم إلا أوْهنه، حتى تفرّقوا عنه، وجاء به يقوده حتى أدخله داره. وبلغ الخبرُ محمداً، فبعث إلى داره جماعةً، فوقفوا حيالها، وصفّ العباس غلمانه ومواليه على سور داره، ومعهم التّرسة والسهام، فقام أحمد بن إسحاق: فخفنا والله النار أن تحرق منازلنا؛ وذلك أنهم أرادوا أن يحرِقوا دار العباس. قال: وجاء رشيد الهارونيّ، فاستأذن عليه فدخل إليه، فقال: ما تصنع! أتدري ما أنت فيه وما قد جاءك! لو أذِن لهم لاقتلعوا دارك بالأسنّة، ألستَ في الطاعة! قال: بلى، قال: فقم فاركب. قال: فخرج في سَواده، فلما صار على باب داره، قال: يا غلام، هلمّ دابتي فقال رشيد: لا ولا كرامة! ولكن تمضي راجلاً قال: فمضى، فلما صار إلى الشارع نظر؛ فإذا العالمون قد جاؤوا، وجاءه الجُلوديّ والإفريقيّ وأبو البطّ وأصحاب الهِرْش. قال: فجعل ينظر إليهم، وأنا أراه راجلاً ورشيد راكب قال: وبلغ أمّ جعفر الخبرُ، فدخلت على محمد، وجعلت تطلب إلى محمد، فقال لها: نُفيتُ من قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم أقتله! وجعلتْ تلحّ عليه، فقال لها: والله إني لأظنني سأسطو بك. قال: فكشفت شعرَها، وقالت: ومن يدخل عليّ وأنا حاسر! قال: فبينا محمد كذلك ـ ولم يأت العباس بعدُ ـ إذ قدم صاعد الخادم عليه بقتل عليّ بن عيسى بن ماهان، فاشتغل بذلك، وأقام العباس في الدّهليز عشرة أيام، ونسيه ثم ذكره، فقال: يُحبَس في حُجْرة من حُجَر داره، ويدخل عليه ثلاثة رجال من مواليه من مشايخهم يَخْدُمونه، ويُجعل له وظيفة في كلّ يوم ثلاثة ألوان. قال: فلم يزل على هذه الحال حتى خرج حسين بن عليّ بن عيسى بن ماهان، ودعا إلى المأمون، وحبس محمد. قال: فمرّ إسحاق بن عيسى بن عليّ ومحمد بن محمد المعبديّ بالعباس بن عبدالله وهو في منظرة، فقالا له: ما قعودك؟ اخرج إلى هذا الرجل ـ يعنيان حسين بن عليّ ـ قال: فخرج فأتي حسيناً، ثم وقف عند باب الجسر؛ فما ترك لأم جعفر شيئاً من الشتم إلا قاله، وإسحاق بن موسى يأخذ البيعة للمأمون. قال: ثم لم يكن إلّا يسيراً حتى قتِل الحسين، وهرب العباس إلى نهربين إلى هَرْثمة، ومضى ابنه الفضل بن العباس إلى محمد، فسعى إليه بما كان لأبيه، ووجّه محمد إلى منزله، فأخذ منه أربعة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف دينار، وكانت في قماقم في بئر، وأُنْسوا قمقمينْ من تلك القماقم، فقال: ما بقي من ميراث أبي سوى هذين القمقمين، وفيهما سبعون ألف دينار. فلما انقضت الفتنة وقُتِل محمد رجع إلى منزله فأخذ القمقمين وجعلهما. . . وحجّ في تلك السنة،

وهي سنة ثمان وتسعين ومائة.

قال أحمد بن إسحاق: وكان العباس بن عبدالله يحدّث بعد ذلك؛ فيقول: قال لي سليمان بن جعفر ونحن في دار المأمون: أمَا قتلت ابنك بعدُ؟ فقلت: يا عمّ، جعلت فداك! ومن يقتل ابنه! فقال لي: اقتله؛ فهو الذي سعى بك وبمالك فأفقرك.

وذُكر عن أحمد بن إسحاق بن برصوما، قال: لمّا حُصِر محمد وضغطه الأمر، قال: ويحكم! ما أحد يستراح إليه! فقيل له: بلى، رجل من العرب من أهل الكوفة، يقال له وضّاح بن حبيب بن بديل التميميّ؛ وهو بقيّة من بقايا العرب، وذو رأي أصيل، قال: فأرسلوا إليه، قال: فقدم علينا، فلمّا صار إليه قال له: إني قد خُبّرت بمذهبك ورأيك، فأشِرْ علينا في أمرنا، قال له: يا أميرَ المؤمنين، قد بطل الرأي اليوم وذهب؛ ولكن استعمل الأراجيف؛ فإنها من آلة الحرب؛ فنصب رجلاً كان ينزلُ دُجيلاً يقال له بكير بن المعتمر؛ فكان إذا نزلت بمحمد نازلة وحادثة هزيمة قال له: هات؛ فقد جاءنا نازلة، فيضع الأخبار، فإذا مشى الناس تبيّنوا بُطلانها. قال أحمد بن إسحاق: كأني أنظر إلى بكير بن المعتمر شيخ عظيم الخلْق.

وذكر عن العباس بن أحمد بن أبان الكاتب، قال: حدّثنا إبراهيم بن الجرّاح، قال: حدّثني كوثر، قال: أمر محمد بن زُبيدة يوماً أن يفرَش له على دُكان في الخُلْد، فبسط له عليه بساط زَرَعيّ، وطُرِحت عليه نمارق وفُرش مثله، وهُيّىء له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمر عظيم، وأمر قيّمةَ جواريه أن تهيّىء له مائة جارية صانعة، فتُصْعَد إليه عشراً عشراً، بأيديهنّ العيدان يغنّين بصوت واحد؛ فأصعدت إليه عشراً، فلما استوين على الدكان اندفعن فغنّين:

هُم قَتَلُوهُ كَي يَكُونوا مَكَانَهُ ... كَمَا غَدَرَتْ يوماً بِكِسْرَى مرازِبُهْ

قال: فتأفّف من هذا، ولعنها ولعن الجواري، فأمر بهنّ فأنزلن، ثم لبث هنيهة وأمرها أن تُصعد عشراً، فلما استوين على الدكان اندفعن فغنّين:

مَنْ كانَ مَسْروراً بمقتلِ مالكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بِوَجْهِ نَهار
يجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِراً يَنْدُبْنَهُ ... يَلطُمْن قَبْلَ تبلّج الأَسْحَارِ

قال: فضجِر وفعل مثل فَعْلته الأولى، وأطرق طويلاً، ثم قال: أصعِدِي عشراً، فأصعدتهنّ، فلمّا وقفن على الدّكان، اندفعن يغنّين بصوت واحد:

كُلَيبٌ لَعَمْري كَانَ أكثر نَاصِراً ... وأَيْسَرَ ذَنباً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

قال: فقام من مجلسه، وأمر بهدم ذلك المكان تَطَيُّراً مما كان.

وذُكر عن محمد بن عبد الرحمن الكنْديّ، قال: حدّثني محمد بن دينار، قال: كان محمد المخلوع قاعداً يوماً، وقد اشتدّ عليه الحصار، فاشتدّ اغتمامه، وضاق صدره؛ فدعا بندمائه والشراب ليتسلّى به، فَأُتِي به، وكانت له جارية يتخطّاها من جواريه، فأمرها أن تُغَنِّي، وتناول كأساً ليشربه؛ فحبس الله لسانها عن كل شيء، فغنّت:

كُلَيْبٌ لَعَمْري كَانَ أكثر نَاصِراً ... وأَيْسَرَ ذَنباً مِنكَ ضُرِّجَ بالدمِ

فرماها بالكأس الذي في يده، وأمر بها فطُرحت للأسد، ثم تناول كأساً أخرى، ودعا بأخرى فغنَّت:

هُمُ قَتَلُوهُ كَيْ يَكُونُوا مَكَانَهُ ... كَمَا غَدَرَتْ يَوْماً بِكِسْرَى مَرازُبُهْ

فرمى وجهها بالكأس، ثم تناول كأساً أخرى ليشربها، وقال لأخرى: غَنّي، فغنت:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيم أخِي

قال: فرمى وجهها بالكأس، ورمى الصينيّة برجله، وعاد إلى ما كان فيه من همّه، وقُتِل بعد ذلك بأيام يسيرة.

وذُكر عن أبي سعيد أنه قال: ماتت فَطِيم ـ وهي أمّ موسى بن محمد بن هارون المخلوع ـ فجزع عليها جزعاً شديداً، وبلغ أمّ جعفر، فقالت: احملوني إلى أمير المؤمنين،قال: فحمِلتْ إليه، فاستقبلها، فقال: يا سيّدتي، ماتت فَطِيم، فقالت:

نَفْسي فداؤك لا يذهبْ بك اللَّهَفُ ... ففي بقائِكَ مِمَّنْ قَدْ مَضَى خَلَفُ
عُوِّضْتَ مُوسى فهانتْ كلُّ مَرْزِئَةٍ ... ما بَعْدَ مُوسى على مفقودةٍ أَسَفُ

وقالت: أعظم الله أجرك، ووفّر صبرك، وجعل العزاء عنها ذخرك!

وذكر عن إبراهيم بن إسماعيل بن هانىء، ابن أخي أبي نواس، قال: حدّثني أبي قال: هجا عمُّك أبو نواس مُضَر في قصيدته التي يقول فيها:

أمَّا قريشٌ فَلاَ افتخارَ لَهَا ... إلَّا التِّجاراتُ مِنْ مَكَاسِبِها
وأنَّها إن ذكرتَ مكْرُمَةً ... جاءَت قريشٌ تسعى بغالِبِها
إنَّ قُريشاً إذا هي انتَسبت ... كان لها الشَّطرُ من مناسبها

قال: يريد أن أكرمها يُغالب. قال: فبلغ ذلك الرّشيدَ في حياته، فأمر بحبسه؛ فلم يزل محبوساً حتى وليَ محمد، فقال يمدحه، وكان انقطاعه إليه أيام إمارته، فقال:

تَذَكَّرْ أمينَ اللّهِ والعهدُ يُذكَرُ ... مُقامِي وإنشادِيكَ والنَّاسُ حُضَّرُ
ونثري عليك الدُّرَّ يادرّ هاشمٍ ... فيامَنْ رَأى دُرًّا على الدرّ يُنثر!
أَبُوك الَّذِي لم يملكِ الأرضَ مثلُه ... وعمُّك مُوسى عَدْلُهُ المتخَيَّرُ
وجدّك مهديّ الهُدَى وشقيقهُ ... أَبو أُمّك الأدنى أَبو الفضل جعفر
وما مثلُ منصوريْك: منصورِ هاشمٍ ... ومنصور قحطانٍ إذا عُدَّ مفخَر
فَمنْ ذَا الَّذِي يرمي بسهمَيْك في العلا ... وعَبْد منافٍ والداكَ وحِمْيرُ

قال: فتغنّت بهذه الأبيات جارية بين يدي محمد، فقال لها: لمن الأبيات؟ فقيل له: لأبي نواس، فقال: وما فعل؟ فقيل له: محبوس، فقال: ليس عليه بأس. قال: فبعث إليه إسحاق بن فِراشة وسعيد بن جابر أخا محمد من الرضاعة، فقالا: إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال: ليس عليه بأس، فقال أبياتاً، وبعث بها إليه، وهي هذه الأبيات:

أرقتُ وطَـارَ عَنْ عَيْنِي النُّعَـاسُ ... وَنَـامَ السَّـامِـرُون وَلَمْ يُـؤَاسُـوا
أَمـيـنَ الله قــد مُـلِّكـتَ مُـلْكـاً ... عَلَيْـكَ مِن التُّقَى فِيـهِ لِبَـاسُ
ووجهـك يَستهـلُّ نَـدًى فيحيى ... بـه فـي كـلِّ نـاحيـةٍ أُنـاسُ
كـأَنَّ الخلقَ في تمثـالِ رُوحٍ ... لَـهُ جَسـدٌ وأَنْتَ عَـلَيْـهِ رَاسُ
أَمـيـنَ الله إنَّ الـسِّـجْـنَ بـأْسٌ ... وقَـدْ أَرْسَلتَ: ليس عليك بـاسُ

فلما أنشده قال: صدَق، عليّ به، فجيء به في الليل، فكسرتْ قيوده؛ وأخرِج حتى أدخل عليه، فأنشأ يقول:

مَـرحباً مَـرحباً بخيـر إمـامٍ ... صِيغَ من جَوْهَـرِ الخلافـةِ نَحْتَـا
يـا أَميـنَ الإلـه يـكـلؤك الـلـ ... ـه مُقِيماً وظاعناً حيث سِرْنـا
إنَّـمـا الأَرض كـلُّهـا لَـكَ دارٌ ... فلَكَ الله صـاحبٌ حَيْثُ كُنْتَـا

قال: فخلع عليه، وخلَّى سبيله، وجعله في ندمائه.

وذُكر عن عبدالله بن عمرو التميميّ، قال: حدّثني أحمد بن إبراهيم الفارسيّ، قال: شرب أبو نواس الخمر، فرُفع ذلك إلى محمد في أيامه، فأمر بحبسه، فحبسه الفضل بن الربيع ثلاثة أشهر، ثم ذكره محمد، فدعا به وعنده بنو هاشم وغيرهم، ودعا له بالسيف والنِّطَع يهدّده بالقتل، فأنشده أبو نواس هذه الأبيات:

تَـذَكَّـرْ أَمـيـنَ اللّهِ والْعَهْـدُ يُـذْكَـرُ

الشعر الذي ذكرناه قبل، وزاد فيه:

تَـحسَّـنتِ الـدُّنْـيـا بِحُسْنِ خـليفـةٍ ... هُـو الْبَـدْرُ إلاَّ أَنَّـهُ الـدَّهـرَ مُقمِـرُ
إمـامٌ يسُـوسُ النـاسَ سَبْعِين حِجَّـةً ... عـليـه لَـهُ منـهـا لـبـاسٌ ومئـزر
يُـشيـر إليـه الجـودُ مـن وَجَنـاتـهِ ... وَيَـنْـظُرُ من أَعـطافِـه حِينَ يَـنْـظُرُ
أَيـا خيـرَ مـأْمـولٍ يـرجَّى، أَنـا امرؤٌ ... رهِينٌ أَسِيرٌ في سُـجُـونـك مُقـفِـرُ
مَضَى أَشهــرٌ لِي مُـذْ حبسْتُ ثـلاثـةٌ ... كـأَنـيَ قـد أذنبتُ مـا ليس يُـغْفَـرُ
فـإن كنتُ لم أُذْنِبْ فـفيـمَ تَعَقُّبي! ... وإن كُـنتُ ذا ذنـبٍ فـعـفـوُك أَكـثـرُ

قال: فقال له محمد: فإن شربتَها؟ قال: دمي لك حلال يا أمير المؤمنين، فأطلقه. قال: فكان أبو نواس يشمّها ولا يشربها وهو قوله:

لا أَذُوقُ المُـدامَ إلَّا شـمـيـمـا

وذكر عن مسعود بن عيسى العبديّ، قال: أخبرني يحيى بن المسافر القَرْقِسائيّ، قال: أخبرني دُحَيْم غلام أبي نواس؛ أن أبا نواس عتب عليه محمد في شرب الخمر، فطبق به ـ وكان للفضل بن الربيع خـالٌ يستعرض أهل السجون ويتعاهدُهم ويتفقّدهم ـ ودخل في حبس الزنادقة، فرأى فيه أبا نواس ـ ولم يكن يعرفه ـ فقال له: يا شابّ، أنت مع الزنادقة! قال: معاذ الله، قال: فلعلك ممّن يعبد الكبش! قال: أنا آكل الكَبْش بصوفه، قال: فلعلك ممّن يعبد الشمس؟ قال: إني لأتجنب القعود فيها بغضاً لها، قال: فبأيّ جرم حبِست؟

قال: حبست بتهمة أنا منها بريء، قال: ليس إلا هذا؟ قال: والله لقد صدقتُك. قال: فجاء إلى الفضل، فقال له: يا هذا، لا تحسنون جوار نعم الله عزّ وجلّ! أيُحْبَسُ الناس بالتّهمة! قال: وما ذاك؟ فأخبره بما ادّعى من جُرمه، فتبسّم الفضل، ودخل على محمد، فأخبره بذلك، فدعا به، وتقدّم إليه أن يجتنب الخمر والسكر، قال: نعم، قيل له: فبعهد الله! قال: نعم، قال: فأخرِج، فبعث إليه فتيان من قريش فقال لهم: إني لا أشرب، قالوا: وإن لم تشرب فآنِسْنا بحديثك، فأجاب، فلما دارت الكأس بينهم، قالوا: ألم ترتح لها؟ قال: لا سبيل والله إلى شربها، وأنشأ يقول:

أيُّها الرَّائِحَانِ باللوم لُومَا ... لا أذُوق المُدامَ إلا شمِيمَا
نَالَنِي بالمَلام فيها إمامٌ ... لا أرى في خلافِهِ مستقيما
فاصْرِفَاهَا إلى سِوَايَ فإني ... لَسْتُ إلَّا على الحديث نَدِيمَا
إنَّ حظّي منها إذا هي دَارَتْ ... أن أرَاهَا وأن أشَمَّ النَّسيما
فكأنّي وَمَا أحَسِّنُ مِنْهَا ... قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التَّحكيما
كَلَّ عن حَمْلَةِ السِّلاح إلى الحَرْ ... بِ فأوصى المطيقَ ألا يُقيما

وذُكر عن أبي الورد السُّبْعيّ أنه قال: كنت عند الفَضْل بن سهل بخُراسان، فذكر الأمين، فقال: كيف لا يُسْتَحلّ قتال محمد وشاعره يقول في مجلسه:

ألا سَقِّنِي خَمْراً وقُلْ لي هِيَ الْخَمْرُ ... وَلا تَسْقِني سرًّا إذا أمكَنَ الجهْرُ

قال: فبلغت القصّةُ محمداً، فأمر الفضل بن الربيع فأخذ أبا نواس فحبسه.

وذكر كامل بن جامع عن بعض أصحاب أبي نواس ورواته، قال: كان أبو نواس قال أبياتاً بلغت الأمين في آخرها:

وقد زَادَني تِيهاً على النَّاس أنَّني ... أرانيَ أغنَاهُمْ إذا كنتُ ذَا عُسرِ
وَلَوْ لم أنلْ فَخراً لكانت صيانَتي ... فمِي عن جميع الناس حَسْبي من الفخر
ولا يطمَعَنْ في ذَاكَ منِّيَ طامِعٌ ... ولا صَاحِبُ التَّاج المحجَّبُ في القصرِ

قال: فبعث إليه الأمين ـ وعنده سليمان بن أبي جعفر ـ فلما دخل عليه، قال: يا عاضّ بَظْر أمّه العاهرة! يابن اللخناء ـ وشتمه أقبح الشتم ـ أنت تكسب بشعرك أوساخ أيدي اللئام، ثم تقول:

ولا صاحبُ التاج المحجب في القصر

أما والله لانلتَ مني شيئاً أبداً. فقال له سليمان بن أبي جعفر: والله يا أمير المؤمنين، وهو من كبار الثنويَّة، فقال محمد: هل يشهد عليه بذلك شاهد؟ فاستشهد سليمان جماعة، فشهد بعضهم أنه شرب في يوم مطِير، ووضع قَدَحه تحت السماء، فوقع فيه القطر، وقال: يزعمون أنه ينزل مع كلّ قطرة مَلك، فكم ترى أني أشرب الساعة من الملائكة! ثم شرب ما في القَدَح، فأمر محمد بحبسه، فقال أبو نواس في ذلك:

يَا رَبّ إنَّ القَوْمَ قد ظَلَمُوني ... وَبِلَا اقْتِرافِ تَعَطُّلٍ حَبَسُوني
وإلى الجُحودِ بمَا عَرفتَ خلافَهُ ... مِنّي إليه بكيدهمْ نَسَبُوني

مـا كـان إلا الجـرْيُ في مَيْـدانِهِمْ ... في كـلِّ جَـرْيٍ والمخـافـةُ ديني
لا العـذرُ يُقبل لي فَيَفرقَ شَـاهِـدِي ... منهـم ولا يـرضَـوْن حَلفَ يَـمينِـي
ولكـان كـوثـرُ كـان أَوْلى مَحْبسـاً ... فِـي دار مَـنـقَـصَـةٍ ومـنـزل هُـونِ
أَمّـا الأَمـينُ فـلسـت أرجـو دفعَـهُ ... عنِّي، فمن لِي اليـومَ بـالمـأْمـون!

قال: وبلغت المأمونَ أبياته، فقال: والله لئن لحقتُه لأغنِيَنَّه غنى لا يؤمِّله، قال: فمات قبل دخول المأمون مدينة السلام.

قال: ولما طال حبسُ أبي نواس، قال في حبسه ـ فيما ذكر ـ عن دِعامة:

اِحْـمـدُوا الله جـمـيـعـاً ... يـا جَـمِيـعَ المُـسْـلِمِـيـنـا
ثـم قـولـوا لا تَـمَـلُّوا ... رَبَّـنَـا أبـقِ الأمـيـنَـا
صـيَّـر الخِـصـيَـانَ حـتَّـى ... صـيَّر الـتَّـعْـنِـينَ دِيـنَـا
فـاقـتـدى النَّـاس جـمـيـعـاً ... بـأمـيـرِ الـمـؤمـنـيـنـا

قال: وبلغت هذه الأبيات أيضاً المأمون وهو بخراسان، فقال: إنِّي لأتوكَّفُه أن يهرب إليّ.

وذكر يعقوب بن إسحاق، عمّن حدّثه، عن كوثر خادم المخلوع، أنّ محمداً أرِقَ ذات ليلة، وهو في حَرْبه مع طاهر، فطلب مَنْ يسامره فلم يقرب إليه أحد من حاشيته، فدعا حاجبه، فقال: ويلك! قد خطرت بقلبي خطرات فأحضِرْني شاعراً ظريفاً أقطع به بقيّة ليلتي، فخرج الحاجب، فاعتمد أقرب مَنْ بحضرته، فوجد أبا نواس، فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال: له: لعلك أردتَ غيري! قال: لم أرد أحداً سواك. فأتاه به، فقال: مَنْ أنت؟ قال: خادمك الحسن بن هانىء، وطليقك بالأمس، قال: لا تُرَعْ؛ إنه عرضتْ بقلبي أمثال أحببت أن تجعلها في شعر، فإن فعلتَ ذلك أجزتُ حكمك فيما تطلب، فقال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: قولهم: عفا الله عمّا سلف، وبئس والله ما جَرَى فرسي، واكسري عوداً على أنفِك، وتمنّعي أشهى لك. قال: فقال أبو نواس. حكمي أربع وصائف مقدودات، فأمر بإحضارهنّ، فقال:

فـقَـدتِ طُـولَ اعـتـلالِـكْ ... ومـا أرى في مِـطالِـكْ
لَـقَـدْ أرَدْتِ جـفـائـي ... وقـد أردتُ وصـالِـكْ
مـا ذا أردت بـهـذا! ... تمـنّـعـي أشْـهَـى لـكْ

وأخذ بيد وصيفة فعزلها، ثم قال:

قـد صحّتِ الأيمـانُ من حَلْفِـكِ ... وصِحْتُ حتى متُّ مِنْ خلفِـكِ
بـالله يـا ستِّي احـنـثـي مَـرَّةً ... ثـم اكسِري عُـوداً عـلى أنفِـكِ

ثم عزل الثانية، ثم قال:

فـديْـتُـكِ مَـاذَا الـصَّـلَفْ ... وشـتْـمُـكِ أهـلَ الـشـرَفْ!
صِـلِي عـاشـقـاً مـدنـفـاً ... قَـد اعـتِـب مـمّـا اقـتـرفْ
ولا تَـذكُـرِي مـا مـضَـى ... عَـفَـا الله عـمـا سَـلَفْ

ثم عزل الثالثة، وقال:

وبَـاعِـثَـاتٍ إلـيَّ فـي الـغـلَس ... أنِ ائتِنَـا واحتـرسْ من العَسَسِ
حـتى إذا نُـومٌ الـعُـدَاةُ ولمْ ... أخشَ رقـيـبـاً ولا سَـنَـا قـبَسِ
ركبتُ مُـهـري وقـد طـربتُ إلـى ... حُـورٍ حِـسـانٍ نَـواعِـمٍ لـعُسِ
فجئتُ والصبْـح قـد نـهضت لـه ... فَـبئسَ واللهِ مـا جَـرَى فَـرَسِـي

فقال: خذهنّ لا بارك الله لك فيهنّ!

وذكر عن الموصليّ، عن حسين خادم الرّشيد، قال: لما صارت الخلافة إلى محمد هيّىء له منزلٌ من منازله على الشطّ، بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه، فقال: يا سيّدي؛ لم يكن لأبيك فرش يباهي به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا؛ فأحببت أن أفرشه لك، قال: فأحببت أن يفرش لي في أوّل خلافتي المردراج، وقال: مزّقوه، قال: فرأيت والله الخدم والفراشين قد صيّروه ممزقاً وفرّقوه.

وذكر عن محمد بن الحسن، قال: حدثني أحمد بن محمد البرمكيّ أن إبراهيم بن المهديّ غنّى محمد بن زبيدة:

هَجَرْتُـك حتى قِيـلَ لا يَعْـرِفُ القِلَى ... وزُرْتـكِ حَتَّى قِيـلَ لَيْسَ لـه صَبـرُ

فطرب محمد، وقال: أوقروا زورقه ذهباً.

وذُكر عن عليّ بن محمد بن إسماعيل، عن مخارق، قال: إني لعند محمد بن زُبيدة يوماً ماطراً، وهو مصطبح، وأنا جالس بالقرب منه، وأنا أغنّي وليس معه أحد، وعليه جبّة وَشيْ؛ لا والله ما رأيت أحسن منها. فأقبلت أنظر إليها، فقال: كأنك استحسنتَها يا مخارق! قلت: نعم يا سيدي؛ عليك لأنّ وجهك حسن فيها، فأنا أنظر إليه وأعوّذك. قال: يا غلام، فأجابه الخادم، قال: فدعا بجُبّة غير تلك، فلبسها وخلع التي عليه عليّ، ومكثت هنيهة ثم نظرت إليه، فعاودني بمثل ذلك الكلام، وعاودته، فدعا بأخرى حتى فعل ذلك بثلاث جِباب ظاهرتُ بينها. قال: فلما رآها عليَّ ندم وتغيّر وجهه، وقال: يا غلام، اذهب إلى الطباخين فقل لهم: يطبخوا لنا مصليّة، ويجيدوا صنعتها، وأتني بها الساعة، فما هو إلا أن ذهب الغلام حتى جاء الخِوان، وهو لطيف صغير، في وسطه غضّارة ضَخْمة ورغيفان، فوضعت بين يديه، فكسر لقمة فأهوى بها إلى الصحيفَة، ثم قال: كُلْ يا مخارق، قلت: يا سيّدي، أعفِني من الأكل، قال: لست أعفيك فكلْ، فكسرت لقمة، ثم تناولت شيئاً، فلما وضعته في فمي، قال: لعنك الله! ما أشرهك! نغّصتَها عليّ وأفسدتَها، وأدخلت يدك فيها؛ ثم رفع الغضّارة بيده، فإذا هي في حجْري، وقال: قم لعنك الله! فقمت، وذاك الودك والمرَق يسيل من الجباب، فخلعتها وأرسلت بها إلى منزلي، ودعوت القصّارين والوشائين، فجهدت جهدي أن تعود كما كانت فما عادت.

وذُكر عن البحتريّ أبي عبادة، عن عبيد الله بن أبي غسّان، قال: كنت عند محمد في يوم شاتٍ شديد البرْد؛ وهو في مجلس له مفرد مفروش بفرش؛ قلّما رأيت أرفع قيمة مثله ولا أحسن، وأنا في ذلك اليوم طاوٍ ثلاثة أيام ولياليهنّ إلّا من النبيذ؛ والله لا أستطيع أن أتكلّم ولا أعقل، فنهض نهضة البول، فقلت لخادم من خدم الخاصّة: ويلك! قد والله متّ، فهل من حيلة إلى شيء تلقيه في جوفي يبرد عنّي ما أنا فيه! فقال: دعني حتى أحتال لك وأنظر ما أقول، وصدّق مقالتي، فلما رجع محمد وجلس نظر الخادم إليّ نظرة، فتبسّم، فرآه محمد،

فقال: ممَّ تبسَّمت؟ قال: لا شيء يا سيدي، فغضب. قال: البحتريّ: فقال: شيء في عبيد الله بن أبي غسان؛ لا يستطيع أن يشمّ رائحة البطيخ ولا يأكله، ويجزع منه جزعاً شديداً. فقال: يا عبيد الله هذا فيك؟ قال: قلت: إي والله يا سيّدي، ابتليت به، قال: ويحك! مع طيب البطّيخ وطيب ريحه! قال: فقلت: أنا كذا، قال: فتعجّب ثم قال: عليّ ببطيخ؛ فأتيَ منه بعدّة، فلما رأيته أظهرت القشعريرة منه، وتنحّيت. قال: خذوه، وضعوا البِطّيخ بين يديه، قال: فأقبلت أريه الجزع والاضطراب من ذلك، وهو يضحك، ثم قال: كُلْ واحدة، قال: فقلتُ: يا سيّدي، تقتلني وترمي بكلّ شيء في جوفي وتهيّج عليّ العلل، الله الله فيّ! قال: كلْ بطِيخة ولك فرش هذا البيت؛ عليّ عهد الله بذلك وميثاقه، قلت: ما أصنع بفرش بيت، وأنا أموت إن أكلت! قال: فتأبّيت، وألحّ عليّ، وجاء الخادم بالسكاكين فقطعوا بطيخة، فجعلوا يحشونها في فمي، وأنا أصرُخ وأضطرب؛ وأنا مع ذلك أبلع، وأنا أريه أني بِكرْه أفعل ذلك وألطم رأسي، وأصيح وهو يضحك، فلما فرغت تحوّل إلى بيت آخر، ودعا الفرّاشين، فحملوا فرش ذلك البيت إلى منزلي، ثم عاودني في فرش ذلك البيت في بطيخة أخرى، ثم فعل كفعله الأول، وأعطاني فرش البيت؛ حتى أعطاني فرش ثلاث أبيات، وأطعمني ثلاث بطّيخات، قال: وحسنت والله حالي، واشتدّ ظهري.

قال: وكان منصور بن المهديّ يريه أنه ينصح له، فجاء وقد قام محمد يتوضّأ، وعلمت أن محمداً سيعقبني بشرّ ندامة على ما خرج من يديه؛ فأقبل عليّ منصور ومحمد غائب عن المجلس، وقد بلغه الخبر، فقال: يا بن الفاعلة، تخدع أمير المؤمنين، فتأخذ متاعه! والله لقد هممتُ أفعل وأفعل، فقلت: يا سيّدي، قد كان ذاك، وكان السبب فيه كذا وكذا، فإن أحببتَ أن تقتلني فتأثَم فشأنك، وإن تفضّلت فأهلٌ لذلك أنت، ولستُ أعود. قال: فإني أتفضّل عليك. قال: وجاء محمد، فقال: افرشوا لنا على تلك البرْكة، ففرشوا له عليها، فجلس وجلسنا وهي مملوءة ماء، فقال: يا عمّ، اشتهيتُ أن أصنع شيئاً؛ أرمي بعبيد الله إلى البرْكة وتضحك منه. قال: يا سيّدي إن فعلتَ هذا قتلتَه لشدة برد الماء وبرد يومنا هذا؛ ولكني أدلك على شيء خيرتُ به، طيّب، قال: ما هو؟ قال: تأمر به يُشدّ في تخت، ويُطرح على باب المتوضأ، ولا يأتي بابَ المتوضّأ أحد إلا بال على رأسه. فقال: طيّب والله؛ ثم أتيَ بتخت فأمر فشُدِدت فيه، ثم أمر فحمِلت وألقيتُ على باب المتوضأ، وجاء الخدم فأرخُوا الرِّباط عني، وأقبلوا يرونه أنهم يبولون عليّ وأنا أصرخ، فمكث بذلك ما شاء وهو يضحك. ثم أمر بي فحُللتُ وأريته أني تنظّفت وأبدلت ثيابي وجاوزت عليه.

وذكر عن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع عن أبيه وكان حاجبَ المخلوع ـ قال: كنتُ قائماً على رأسه، فأتيَ بغَداء فتغدّى وحده، وأكل أكلا عجيباً، وكان يوماً يعدّ للخلفاء قبله على هيئة ما كان يُهيَّأ لكلّ واحد منهم يأكل من كلّ طعام، ثم يؤتَى بطعامه. قال: فأكل حتى فرغ ثم رفع رأسه إلى أبِي العنبر ـ خادم كان لأمه ـ فقال: اذهب إلى المطبخ، فقل لهم يهيئون لي بزْماوَرْد، ويتركونه طوالا لا يقطّعونه، ويكون حشوه شحوم الدّجاج والسمن والبَقْل والبيض والجبن والزيتون والجوز، ويكثرون منه ويعجلونه؛ فما مكث إلا يسيراً حتى جاؤوا به في خوان مربّع، وقد جعل عليه البزْماورد الطوال، على هيئة القبة العبدصمديّة، حتى صيّر أعلاها بزماوردة واحدة، فوُضع بين يديه، فتناول واحدةً فأكلها، ثم لم يزل كذلك حتى لم يُبقِ على الخوان شيئاً.

وذكر عن عليّ بن محمد أنّ جابر بن مصعب حدّثه، قال: حدّثني مخارق، قال: مرّت بي ليلة ما مرّت بي

مثلها قطّ، إني لفي منزلي بعد ليلٍ ؛ إذ أتاني رسول محمد ـ وهو خليفة ـ فركض بي ركضاً، فانتهى بي إلى داره، فأدخلت فإذا إبراهيم بن المهديّ قد أرسل إليه كما أرسل إليّ، فوافينا جميعاً، فانتهى إلى باب مُفض إلى صحن، فإذا الصحن مملوء شمعاً من شمع محمد العظام، وكأنّ ذلك الصحن في نهار، وإذا محمد في كُرّج، وإذا الدار مملوءة وصائف وخدماً، وإذا اللعّابون يلعبون، ومحمد وسطهم في الكُرّج يرقص فيه، فجاءنا رسول يقول: قال لكما: قُوما في هذا الموضع على هذا الباب مما يلي الصحن، ثم ارفعا أصواتكم معبّراً ومقصّراً عن السورناي، واتبعاه في لحنه قال: وإذا السورناي والجواري واللعابون في شيء واحد:

هذي دنانير تنساني وأذكرها

تتبع الزّمار. قال: فوالله ما زلتُ وإبراهيم قائمين نقولها، نشقّ بها حلوقنا حتى انفلق الصبح، ومحمد في الكرّج ما يسأمه ولا يملّه حتى أصبح يدنو منا، أحياناً نراه، وأحياناً يحول بيننا وبينه الجواري والخدم.

وذكر الحسين بن فراس مولى بني هاشم، قال: غزا الناس في زمان محمد على أن يردّ عليهم الخُمس، فرُدّ عليهم، فأصاب الرجل ستة دنانير، وكان ذلك مالا عظيماً.

وذكر عن ابن الأعرابيّ، قال: كنت حاضر الفضل بن الربيع، وأتِيَ بالحسن بن هانىء، فقال: رُفِع إلى أمير المؤمنين أنك زنديق، فجعل يبرأ من ذلك ويحلف، وجعل الفضل يكرّر عليه، وسأله أن يكلّم الخليفة فيه، ففعل وأطلقه، فخرج وهو يقول:

أَهلي أتيتكُمُ مِنَ القبْرِ ... والناسُ محْتبَسونَ للحَشرِ
لولا أبو العباسِ ما نظرَتْ ... عيني إلى ولدٍ ولا وفرِ
فالله ألبسني به نعماً ... شَغَلَتْ حسابَتها يدَيْ شكري
لقِيتُها من مُفهَمٍ فَهِمٍ ... فمددتها بأناملٍ عشْرِ

وذكر عن الرياشيّ أن أبا حبيب الموشيّ حدّثه، قال: كنت مع مؤنس بن عمران، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد، فقال لي مؤنس: لو دخلنا على أبي نواس! فدخلنا عليه السجن، فقال: لمؤنس: يا أبا عمران، أين تريد؟ قال: أردت أبا العباس الفضل بن الربيع، قال: فتبلّغه رقعة أعطيكها؟ قال: نعم، قال: فأعطاه رقعة فيها:

ما من يدٍ في الناسِ واحدَةٍ ... إلا أبو العباسِ مولاها
نامَ الثقاتُ على مضاجعهِمْ ... وسرى إلى نفسي فأحيَاها
قد كنتُ خفتُكَ ثم أمّنني ... من أن أخافكَ خوفُكَ الله
فَعفوتَ عنّي عفوَ مُقتدِرٍ ... وجبَت له نقَمٌ فألغاها

قال: فكانت هذه الأبيات سببَ خروجه من الحبس.

وذُكر عن محمد بن خلاد الشروِيّ، قال: حدثني أبي قال: سمع محمد شعر أبي نواس وقوله:

ألا سَقِّني خَمْرا وقل لي هي الخَمْرُ

وقوله:

اسقنيها يا ذُفافهْ مُزَّة الطَّعْم سُلافهْ
ذَلَّ عندِي مَنْ قلاها لِرَجاءٍ أو مخافَهْ
مثلَ ما ذَلَّتْ وضاعَتْ بعد هارونَ الخِلافهْ

قال: ثم أنشد له:

فجاءَ بها زَيتِيَّةً ذَهَبِيَّةً فلم نستطِع دُونَ السُّجُودِ لها صَبْرَا

قال: فحبسه محمد على هذا، وقال: إيه! أنت كافر، وأنت زنديق. فكتب في ذلك إلى الفضل بن الربيع

أنتَ يابنَ الرَّبيع علَّمتَني الخيْـ ـرَ وعوَّدتَنيهِ والخيْرُ عادَهْ
فارعَوَى باطِلي وأقصَرَ جَهْـ ـلي وأظهرتُ رهبَةً وَزَهادَهْ
لو تراني شبَّهْتَ بي الحسَنَ البَصـ ـريَّ في حالِ نُسْكِهِ وقتَادَهْ
برُكُوعٍ أزينُهُ بسُجُودٍ واصفِرارٍ مثلِ اصفرار الجرادهْ
فادعُ بي لا عَدِمتَ تقويمَ مثلي فتأَمَّل بعينكَ السَّجّاده
لو رآها بعْضُ المُرائينَ يوماً لاشتَراها يُعِدُّها للشَّهادَهْ

خلافة المأمون عبد الله بن هارون

وفي هذه السنة وضعت الحرب ـ بين محمد وعبد الله ابني هارون الرّشيد ـ أوزارها، واستوسَق الناس بالمشرق والعراق والحجاز لعبد الله المأمون بالطاعة.

وفيها خرج الحسن الهِرْش في ذي الحجة منها يدعو إلى الرضيّ من آل محمد ـ بزعمه ـ في سفْلة الناس، وجماعة كثيرة من الأعراب؛ حتى أتى النّيل، فجبى الأموالَ، وأغار على التجّار، وانتهب القرى، واستاق المواشي.

وفيها ولّى المأمون كلّ ما كان طاهرْ بن الحسين افتتحه من كُور الجبال وفارس والأهواز والبَصْرة والكوفة والحجاز واليمن الحسنَ بن سهل أخا الفضل بن سهل؛ وذلك بعد مقتل محمد المخلوع ودخول الناس في طاعة المأمون.

وفيها كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين، وهو مقيم ببغداد بتسليم جميع ما بيده من الأعمال في البلدان كلّها إلى خلفاء الحسن بن سهل، وأن يشخص عن ذلك كلّه، إلى الرقّة، وجعل إليه حرب نصر بن شبث، وولّاه الموصل والجزيرة والشأم والمغرب.

وفيها قدم عليّ بن أبي سعيد العراق خليفةً للحسن بن سهل على خراجها، فدافع طاهر عليًّا بتسليم الخراج إليه؛ حتى وفّى الجند أرزاقهم، فلما وفّاهم سلّم إليه العمل.

وفيها كتب المأمون إلى هَرْثمة يأمره بالشُّخوص إلى خراسان.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث المشهورة

فمن ذلك قدومُ الحسن بن سهل فيها بغدادَ من عند المأمون، وإليه الحرب والخراج، فلمّا قدمها فرّق عماله في الكُور والبلدان.

وفيها شخص طاهر إلى الرّقة في جُمادى الأولى، ومعه عيسى بن محمد بن أبي خالد. وفيها شخص أيضاً هَرْثمة إلى خُراسان.

وفيها خرج أزهر بن زهير بن المسيّب إلى الهِرْش، فقتله في المحرّم.

وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلوْن من جُمادى الآخرة يدعو إلى الرضيّ من آل محمد والعمل بالكتاب والسنّة، وهو الذي يقال له ابن طباطبا، وكان القيّمَ بأمره في الحرب وتدبيرها وقيادة جيوشه أبو السرايا، واسمه السريّ بن منصور، وكان يذكر أنه من ولد هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهْل بن شيبان.

ذكر الخبر عن سبب خروج محمد بن براهيم بن طباطبا

اختُلف في ذلك، فقال بعضهم: كان سببُ خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عمّا كان إليه من أعمال البلدان التي فتحها وتوجيهه إلى ذلك الحسن بن سهل؛ فلمّا فعل ذلك تحدّث الناس بالعراق بينهم أن الفَضْل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنه قد أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قوّاده من الخاصّة والعامة، وأنه يُبرم الأمور على هواه، ويستبدّ بالرأي دونه. فغضب لذلك بالعراق مَنْ كان بها من بني هاشم ووجوه الناس، وأنفوا من غلَبة الفضل بن سهل على المأمون،واجترؤوا على الحسن بن سهل بذلك، وهاجت الفتن في الأمصار؛ فكان أوّل مَنْ خرج بالكوفة ابن طباطبا الذي ذكرت.

وقيل كان سبب خروجه أن أبا السرّايا كان من رجال هَرْثمة، فمطله بأرزاقه وأخرّه بها، فغضب أبو السرايا من ذلك، ومضى إلى الكوفة فبايع محمد بن إبراهيم وأخذ الكوفة، واستوسق له أهلها بالطاعة، وأقام محمد بن إبراهيم بالكوفة، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم.

وفيها وجّه الحسن بن سهل زُهير بن المسيّب في أصحابه إلى الكوفة ـ وكان عامل الكوفة يومئذ حين دخلها ابن طباطبا سليمان بن أبي جعفر المنصور من قبَل الحسن بن سهل، وكان خليفة سليمان بن أبي جعفر

بها خالد بن محجّل الضبّيّ ـ فلما بلغ الخبر الحسن بن سهل عنّف سليمان وضعّفه، ووجّه زهير بن المسيّب في عشرة آلاف فارس وراجل؛ فلما توجّه إليهم وبلغهم خبرُ شخوصه إليهم تهيؤوا للخروج إليه؛ فلم تكن لهم قوّة على الخروج فأقاموا حتى إذا بلغ زهير قرية شاهي خرجوا فأقاموا حتى إذا بلغوا بالقنطرة أتاهم زُهير، فنزل عشية الثلاثاء صعْنبا، ثم واقعهم من الغد فهزموه واستباحوا عسكره، وأخذوا ما كان معه من مال وسلاح ودوابّ وغير ذلك يوم الأربعاء.

فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة بين أهل الكوفة وزهير بن المسيّب ـ وذلك يوم الخميس لليلة خلت من رجب سنة تسع وتسعين ومائة ـ مات محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجاءةً؛ فذُكر أن أبا السرايا سمّه، وكان السبب في ذلك ـ فيما ذُكر ـ أنّ ابن طباطبا لما أحرَز ما في عسكر زهير من المال والسلاح والدوابّ وغير ذلك منعه أبا السرايا، وحظره عليه؛ وكان الناس له مطيعين، فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمّه؛ فلما مات ابن طباطبا أقام أبو السّرايا مكانَه غلاما أمردَ حَدثاً يقال له محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ فكان أبو السرايا هو الذي ينفِّذ الأمور، ويولّي مَنْ رأى، ويعزل من أحبّ؛ وإليه الأمور كلها، ورجع زهير من يومه الذي هُزم فيه إلى قصر ابن هبيرة، فأقام به. وكان الحسن بن سهل قد وجّه عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروَرُّوذيّ إلى النِّيل حين وُجِّه زهير إلى الكوفة، فخرج بعد ما هُزِم زهير عبدوس يريد الكوفة بأمر الحسن بن سهل؛ حتى بلغ الجامع هو وأصحابه؛ وزهير مقيم بالقصر، فتوجّه أبو السرايا إلى عبدوس، فواقعه بالجامع، يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من رجب فقتله،وأسرَ هارون بن محمد بن أبي خالد، واستباح عسكره. وكان عبدوس ـ فيما ذكر ـ في أربعة آلاف فارس، فلم يفلِت منهم أحد، كانوا بين قتيل وأسير، وانتشر الطالبيُّون في البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، ونقش عليها: ﴿ إنَّ اللهَ يحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سبيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بنُيَانٌ مَرْصوصٌ ﴾[١]، ولما بلغ زهيراً قتلُ أبي السرايا عبدوساً وهو بالقصر، انحاز بمن معه إلى نهر الملك.

ثم إن أبا السرايا أقبل حتى نزل قصر ابن هبيرة بأصحابه، وكانت طلائعه تأتي كُوثَى ونهر الملك، فوجّه أبو السرايا جيوشاً إلى البصرة وواسط فدخلوهما، وكان بواسط ونواحيها عبد الله بن سعيد الحَرَشيّ والياً عليها من قبَل الحسن بن سهل، فواقعه جيش أبي السرايا قريباً من واسط فهزموه، فانصرف راجعاً إلى بغداد، وقد قتل من أصحابه جماعة وأسر جماعة. فلما رأى الحسن بن سهل أنْ أبا السرايا ومَنْ معه لا يلْقوْن له عسكراً إلا هزموه، ولا يتوجّهون إلى بلدة إلا دخلوها؛ ولم يجد فيمن معه من القوّاد مَنْ يكفيه حربه، اضطر إلى هرثمة ـ وكان هرثمة حين قدم عليه الحسن بن سهل العراقَ والياً عليها من قبَل المأمون. سلّم ما كان بيده من الأعمال، وتوجه نحو خُراسان مغاضباً للحسن، فسار حتى بلغ حُلوان ـ فبعث إليه السنديّ وصالحاً صاحب المصلّى يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا، فامتنع وأبي. وانصرف الرسول إلى الحسن بإبائه؛ فأعاد إليه السنديّ بكتب لطيفة، فأجاب، وانصرف إلى بغداد، فقدمها في شعبان؛ فتهيّأ للخروج إلى الكوفة. وأمر الحسن بن سهل عليّ بن أبي سعيد أن يخرج إلى ناحية المدائن وواسط والبصرة، فتهيؤوا لذلك. وبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هبيرة، فوجّه إلى المدائن، فدخلها أصحابه في رمضان، وتقدّم هو بنفسه وبمن معه حتى نزل نهر

---

(١) سورة الصف : آية ٤ .

صَرْصَرَ مما يلي طريق الكوفة في شهر رمضان. وكان هرثمة لمّا احتبس قدومه على الحسن ببغداد أمر المنصور بن المهديّ أن يخرج فيعسكر بالياسريّة إلى قدوم هرثمة، فخرج فعسكر، فلما قدم هَرْثمة خرج فعسكر بالسفينتين بين يدي منصور، ثم مضى حتى عسكر بنهر صرْصر بإزاء أبي السرايا، والنهر بينهما؛ وكان عليّ بن أبي سعيد معسكراً بكلْوَاذى، فشخص يوم الثلاثاء بعد الفِطْر بيوم، ووجّه مقدّمته إلى المدائن، فقاتل بها أصحاب أبي السرايا غداة الخميس إلى اللّيل قتالا شديداً. فلمّا كان الغد غدا وأصحابه على القتال فانكشف أصحاب أبي السرايا وأخذ ابن أبي سعيد المدائن. وبلغ الخبر أبا السرايا وأخذ ابن أبي سعيد المدائن؛ فلمّا كان ليلة السبت لخمس خَلَوْن من شوّال رجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة؛ فنزل به، وأصبح هرثمة فجدّ في طلبه، فوجد جماعة كثيرة من أصحابه فقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل، ثم صار هرثمة إلى قصر ابن هبيرة، فكانت بينه وبين أبي السرايا وقعة قتل فيها من أصحاب أبي السرايا خلْق كثير، فانحاز أبو السرّايا إلى الكوفة، فوثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبيين على دور بني العباس ودور مواليهم وأتباعهم بالكوفة، فانتهبوها وخرّبوها وأخرجوهم من الكوفة، وعملوا في ذلك عملا قبيحاً، واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس فأخذوها. وكان هَرْثمة - فيما ذكر - يخبر الناس أنه يريد الحجّ، فكان قد حبس من يريد الحجّ من خُراسان والجبال والجزيرة وحاجّ بغداد وغيرهم؛ فلم يدَع أحداً يخرج، رجاء أن يأخذ الكوفة، ووجّه أبو السرايا إلى مكة والمدينة مَنْ يأخذهما، ويقيم الحجّ للناس.

وكان الوالي على مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، وكان الذي وجهه أبو السرايا إلى مكة حسين بن حسن الأفطس بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب والذي وجّهه إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فدخلها ولم يقاتله بها أحد، ومضى حسين بن حسن يريد مكة فلمّا قرب منها وقف هُنيهة لمن فيها. وكان داود بن عيسى لمّا بلغه توجيه أبي السرايا حسين بن حسن إلى مكة لإقامة الحجّ للناس جمع موالي بني العبّاس وعبيد حوائطهم، وكان مسرور الكبير الخادم قد حجّ في تلك السنة في مائتي فارس من أصحابه، فتعبأ لحرب مَنْ يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيّين، فقال لداود بن عيسى: أقم لي شخصَك أو شخص بعض ولدك، وأنا أكفيك قتالَهم، فقال له داود: لا استحلُّ القتال في الحرم؛ والله لئن دخلوا من هذا الفجّ لأخرجنّ من هذا الفجّ الآخر، فقال له مسرور: تُسَلِّم ملكك وسلطانك إلى عدوّك ومن لا يأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حرمك ولا مالك! قال له داود: أيّ مُلْك لي! والله لقد أقمتُ معهم حتى شيّخْت فما ولّوْني ولايةً حتى كبرتْ سني، وفنيَ عمري، فولّوني من الحجاز ما فيه القوت؛ إنما هذا الملك لك وأشباهك، فقاتل إن شئت أو دَعْ. فانحاز داود من مكة إلى ناحية المُشاش، وقد شدّ أثقالَه على الإبل، فوجّه بها في طريق العراق، وافتعل كتاباً من المأمون بتولية ابنه محمد بن داود على صلاة الموسم، فقال له: اخرج فصلّ بالناس الظهر والعصر بمنىً، والمغرب والعشاء، وبتْ بمنىً، وصلّ بالناس الصبح، ثم اركب دوابّك فانزل طريق عَرَفة، وخُذْ على يسارك في شعب عمرو؛ حتى تأخذ طريق المشاش، حتى تلحقني ببستان ابن عامر. ففعل ذلك، وافترق الجمع الذي كان داود بن عيسى معهم بمكّة من موالي بني العباس وعبيد الحوائط، وفتّ ذلك في عضد مسرور الخادم، وخشي إن قاتلهم أن يميل أكثر الناس معهم؛ فخرج في أثر داود راجعاً إلى العراق، وبقي الناس بعرفة؛ فلمّا زالت الشمس وحضرت الصّلاة، تدافعها قوم من أهل مكة، فقال أحمد بن محمد بن الوليد الردميّ - وهو المؤذن وقاضي الجماعة والإمام بأهل

المسجد الحرام: إذ لم تحضر الولاة ـ لقاضي مكة محمد بن عبد الرحمن المخزوميّ: تقدم فاخطب بالناس، وصلّ بهم الصلاتين؛ فإنك قاضي البلد. قال: فلمن أخطبُ وقد هرب الإمام؛ وأطلّ هؤلاء القوم على الدخول! قال: لا تدْعُ لأحد، قال له محمد: بل أنت فتقدّمْ واخطب، وصلّ بالناس، فأبى؛ حتى قدّموا رجلا من عُرْض أهل مكة، فصلى بالناس الظهر والعصر بلا خطبة، ثم مضوا فوقفوا جميعاً بالموقف من عَـرَفة حتى غـربت الشمس، فدفع الناس لأنفسهم من عرفة بغير إمام، حتى أتوْا مزدلفة، فصلّى بهم المغرب والعشاء رجلٌ أيضاً من عُرْض الناس وحسين بن حسن يتوقف بسرف يرهب أن يدخل مكة، فيُدفع عنها ويقاتَل دونها، حتى خرج إليه قوم من أهل مكة ممّن يميل إلى الطالبيّين، ويتخوف من العباسيين، فأخبروه أن مكة ومنىً وعَرفة قد خلتْ ممن فيها من السلطان، وأنهم قد خرجوا متوجّهين إلى العراق. فدخل حسين بن حسن مكة قبل المغرب من يوم عرفة، وجميع من معه لا يبلغون عشرة، فطافوا بالبيت وسعوْا بين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة في الليل، فوقفوا بها ساعة من الليل، ثم رجع إلى مُزدلفة فصلّى بالناس الفجْر، ووقف على قُزَح، ودفع بالناس منه.

وأقام بمنى أيامَ الحجّ، فلم يزل مقيماً حتى انقضت سنة تسع وتسعين ومائة، وأقام محمد بن سليمان بن داود الطالبيّ بالمدينة السنة أيضاً، فانصرف الحاج ومَنْ كان شهد مكة والموسم، على أن أهل الموسم قد أفاضوا من عَرَفة بغير إمام.

وقد كان هرثمة لما تخوّف أن يفوته الحجّ ـ وقد نزل قرية شاهي ـ واقع أبا السرايا وأصحابه في المكان الذي واقعه فيه زهير، فكانت الهزيمة على هرثمة في أول النهار، فلما كان آخر النهار كانت الهزيمةُ على أصحاب أبي السرايا، فلما رأى هرثمة أنه لم يصر إلى ما أراد، أقام بقرية شاهي، وردّ الحاج وغيرهم، وبعث إلى المنصور بن المهديّ فأتاه بقرية شاهي، وصار يكاتب رؤساء أهل الكوفة، وقد كان عليّ بن أبي سعيد لما أخذ المدائن توجّه إلى واسط فأخذها، ثم إنه توجّه إلى البصرة فلم يقدر على أخذها حتى انقضت سنة تسع وتسعين ومائة.

ثم دخلت سنة مائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك هرب أبي السرايا من الكوفة ودخول هرثمة إليها.

ذُكِر أن أبا السرايا هرب هو ومن معه من الطالبيّين من الكوفة ليلةَ الأحد لأربع عشرة ليلة بقيتْ من المحرم من سنة مائتين، حتى أتى القادسيّة. ودخل منصور بن المهديّ وهرثمة الكوفة صبيحةَ تلك الليلة، وآمنوا أهلَها، ولم يعرضوا لأحد منهم، فأقاموا بها يومهم إلى العصر، ثم رجعوا إلى معسكرهم، وخلّفوا بها رجلاً منهم يقال له غسان بن أبي الفرج أبو إبراهيم بن غسان صاحب حرس صاحب خراسان، فنزل في الدار التي كان فيها محمد بن محمد وأبو السرايا.

ثم إنّ أبا السرايا خرج من القادسيّة هو ومَنْ معه حتى أتوْا ناحية واسط، وكان بواسط عليّ بن أبي سعيد، وكانت البصرة بيد العلويّين بعد، فجاء أبو السرايا حتى عبر دِجْلة أسفل من واسط، فأتى عبْدَسي؛ فوجد بها مالاً كان حُمِل من الأهواز، فأخذه ثم مضى حتى أتى السوس، فنزلها ومَن معه، وأقام بها أربعة أيام، وجعل يعطي الفارس ألفاً والراجل خمسمائة، فلما كان اليوم الرابع أتاهم الحسن بن عليّ الباذغيسيّ المعروف بالمأمونيّ. فأرسل إليهم: اذهبوا حيث شئتم، فإنه لا حاجةَ لي في قتالكم، وإذا خرجتم من عملي فلست أتبعكم. فأبى أبو السرايا إلا القتال، فقاتلهم، فهزمهم الحسن، واستباح عسكرهم، وجُرح أبو السرايا جراحة شديدة، فهرب، واجتمع هو ومحمد بن محمد وأبو الشوْك، وقد تفرّق أصحابهم، فأخذوا ناحية طريق الجزيرة يريدون منزل أبي السرايا برأس العين؛ فلما انتهوا إلى جلولاء عُصِر بهم، فأتاهم حماد الكُنْدُغُوش فأخذهم، فجاء بهم إلى الحسن بن سهل، وكان مقيماً بالنهْروان حين طردته الحربية، فقدم بأبي السرايا، فضرب عنقه يوم الخميس لعشر خلوْن من ربيع الأول. وذكروا أنّ الذي تولّى ضرب عنقه هارون بن محمد بن أبي خالد، وكان أسيراً في أيدي أبي السرايا. وذكروا أنه لم يروا أحداً عند القتل أشدّ جزعاً من أبي السرايا. كان يضطرب بيديه ورجليه، ويصيح أشدّ ما يكون من الصياح؛ حتى جُعل في رأسه حبل، وهو في ذلك يضطرب ويلتوي ويصيح؛ حتى ضربت عنقه. ثم بعث برأسه فطِيف به في عسكر الحسن بن سهل، وبعث بجسده إلى بغداد، فصُلِب نصفين على الجسر، في كلّ جانب نصف، وكان بين خروجه بالكوفة وقتله عشرة أشهر.

وكان عليّ بن أبي سعيد حين عبر أبو السرايا توجّه إليه، فلمّا فاته توجه إلى البصرة فافتتحها. والذي كان بالبصرة من الطالبيّين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب ومعه جماعة من أهل بيته، وهو الذي يقال له زيد النار ـ وإنما سمي زيد النار لكثرة ما حرّق من الدور بالبصرة من دور بني

العباس وأتباعهم؛ وكان إذا أُتِيَ برجل من المسوّدة كانت عقوبته عنده أن يحرقه بالنار- وانتهبوا بالبصرة أموالا، فأخذه عليّ بن أبي سعيد أسيراً. وقيل إنه طلب الأمان فآمنه. وبعث عليّ بن أبي سعيد ممن كان معه من القواد عيسى بن يزيد الجلُوديّ وورقاء بن جَميل وحمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان وهارون بن المسيّب إلى مكة والمدينة واليمن، وأمرهم بمحاربة مَنْ بها من الطالبيين. وقال التميميّ في قتل الحسن بن سهل أبا السرايا:

ألم تـرَ ضَـرْبـةَ الحَسَنِ بن سهْـلٍ ... بسيفِـكَ يـا أميـرَ المُـؤْمنينَـا
أَدَارت مَـرْوَ رأْسَ أبـي السـرايـا ... وأبـقـت عِـبْـرَةً لـلعـابـريـنـا

وبعث الحسن بن سهل محمد بن محمد حين قتل أبو السرايا إلى المأمون بخراسان.

وفي هذه السنة خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب باليمن.

ذكر الخبر عنه وعن أمره:

وكان إبراهيم بن موسى - فيما ذُكر - وجماعة من أهل بيته بمكّة حين خرج أبو السرايا وأمْرُه وأمر الطالبيين بالعراق ما ذُكر. وبلغ إبراهيم بن موسى خبرهم، فخرج من مكة مع مَنْ كان معه من أهل بيته يريد اليمن، ووالي اليمن يومئذ المقيم بها من قبَل المأمون إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس. فلما سمع بإقبال إبراهيم بن موسى العلويّ وقربه من صنعاء، خرج منصرفاً عن اليمن، في الطريق النجدية بجميع مَنْ في عسكره من الخيل والرَّجْل، وخلّى لإبراهيم بن موسى بن جعفر اليمن وكره قتاله، وبلغه ما كان من فعل عمّه داود بن عيسى بمكة والمدينة؛ ففعل مثل فعله، وأقبل يريد مكة؛ حتى نزل المُشاش، فعسكر هناك، وأراد دخول مكة، فمنعه مَن كان بها من العلويين، وكانت أم إسحاق بن مرسى بن عيسى متوارية بمكة من العلويّين، وكانوا يطلبونها فتوارت منهم، ولم يزل إسحاق بن موسى معسكراً بالمشاش، وجعل مَن كان بمكة مستخفياً يتسللون من رؤوس الجبال، فأتوا بها ابنها في عسكره. وكان يقال لإبراهيم بن موسى: الجزّار؛ لكثرة مَن قتل باليمن من الناس وسبَى وأخذ من الأموال.

وفي هذه السنة في أول يوم من المحرّم منها بعد ما تفرّق الحاجّ من مكة جلس حسين بن حسن الأفطس خلف المقام على نُمرقة مثنيّة، فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجُرّدت منها حتى لم يُبق عليها من كسوتها شيئاً، وبقيَت حجارة مجرّدة، ثم كساها ثوبين من قزّ رقيق، كان أبو السرايا وجّه بهما معه مكتوب عليهما: أمرَ به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد، لكسوة بيت الله الحرام، وأن يطرح عنه كُسوة الظلَمة من ولد العباس، لتطّهر من كُسوتهم. وكتب في سنة تسع وتسعين ومائة.

ثم أمر حسين بن حسن بالكسوة التي كانت على الكعبة فقسمت بين أصحابه من العلويّين وأتباعهم على قدر منازلهم عنده، وعمَد إلى ما في خزانة الكعبة من مالٍ فأخذه، ولم يسمع بأحد عنده وديعة لأحد من ولد العباس وأتباعهم إلّا هجم عليه في داره؛ فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل؛ وإن لم يجد عنده شيئاً حبَسه وعذّبه حتى يفتدي نفسه بقدر طوله، ويقرّ عند الشهود أن ذلك للمسوّدة من بني العباس وأتباعهم، حتى عَمّ هذا خلقاً كثيراً.

وكان الذي يتولى العذابَ لهم رجلاً من أهل الكوفة يقال له محمد بن مسلمة، كان ينزل في دار خالصة عند الحنّاطين؛ فكان يقال لها دار العذاب، وأخافوا الناس؛ حتى هرب منهم خلْق كثير من أهل النّعم، فتعقبوهم بهدم دورهم حتى صاروا من أمر الحرم، وأخذ أبناء الناس في أمر عظيم، وجعلوا يحكّون الذهب الرقيق الذي في رؤوس أساطين المسجد، فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدْر مثقال ذهب أو نحوه؛ حتى عمّ ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام، وقلعوا الحديد الذي على شبابيك زمزم، ومن خشب الساج، فبيع بالثّمن الخسيس. فلما رأى حسين بن حسن ومَنْ معه من أهل بيته تغيّر الناس لهم بسيرتهم، وبلغهم أن أبا السرايا قد قُتل، وأنه قد طرد من الكوفة والبصرة وكور العراق من كان بها من الطالبيين، ورجعت الولاية بها لولد العباس، اجتمعوا إلى محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب - وكان شيخاً وَدّاعاً محبّباً في الناس، مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة، وكان يروي العلم عن أبيه جعفر بن محمد، وكان الناس يكتبون عنه، وكان يظهر سَمْتاً وزهداً - فقالوا له: قد تعلم حالك في الناس، فأبْرِزْ شخصك نبايعْ لك بالخلافة؛ فإنك إن فعلت ذلك لم يختلف عليك رجلان؛ فأبى ذلك عليهم، فلم يزل به ابنه عليّ بن محمد بن جعفر وحسين بن حسن الأفطس حتى غلبا الشيخ على رأيه؛ فأجابهم. فأقاموه يوم صلاة الجمعة بعد الصلاة لستّ خلون من ربيع الآخر، فبايعوه بالخلافة، وحشروا إليه الناسَ من أهل مكة والمجاورين، فبايعوه طوعاً وكرهاً، وسمّوْه بإمرة المؤمنين، فأقام بذلك أشهراً، وليس له من الأمر إلا اسمه، وابنه عليّ وحسين بن حسن وجماعة منهم أسوأ ما كانوا سيرة، وأقبح ما كانوا فعلاً، فوثب حسين بن حسن على امرأة من قريش من بني فهر - وزوْجها رجل من بني مخزوم، وكان لها جمال بارع - فأرسل إليها لتأتيَه، فامتنعت عليه، فأخاف زوْجها وأمر بطلبها فتوارت منه، فأرسل ليلا جماعة من أصحابه فكسروا بابَ الدار، واغتصبوها نفسها، وذهبوا بها إلى حسين، فلبثت عنده إلى قرب خروجه من مكة، فهربت منه، ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة. ووثب عليّ بن محمد بن جعفر على غلام من قريش، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد، وكان جميلا بارعاً في الجمال - فاقتحم عليه بنفسه نهاراً جهاراً في داره على الصفا مشرفاً على المسعى؛ حتى حمله على فرسه في السرْج. وركب عليّ بن محمد على عجُز الفرس، وخرج به يشق السوق حتى أتى بئر ميمون - وكان ينزل في دار داود بن عيسى في طريق منًى - فلما رأى ذلك أهلُ مكة ومَنْ بها من المجاورين، خرجوا فاجتمعوا في المسجد الحرام، وغلقت الدكاكين، ومال معهم أهلُ الطواف بالكعبة؛ حتى أتو محمد بن جعفر بن محمد، وهو نازل دار داود، فقالوا: والله لنخلعنك ولنقتلنّك، أو تردنّ إلينا هذا الغلام الذي ابنك أخذه جهرة. فأغلق باب الدار، وكلمهم من الشباك الشارع في المسجد، فقال: والله ما علمت، وأرسل إلى حسين بن حسن يسأله أن يركب إلى ابنه عليّ فيستنقذ الغلام منه. فأبى ذلك حسين، وقال: والله إنك لتعلم أني لا أقوى على ابنك، ولو جئتُه لقاتلني وحاربني في أصحابه فلما رأى ذلك محمد قال لأهل مكة: آمنوني حتى أركب إليه وآخذ الغلام منه. فآمنوه وأذنوا له في الركوب، فركب بنفسه حتى صار إلى ابنه، فأخذ الغلام منه وسلمه إلى أهله. قال: فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أقبل إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي مقبلاً من اليمن حتى نزل المُشاش، فاجتمع العلويّون إلى محمد بن جعفر بن محمد، فقالوا له: يا أميرَ المؤمنين، هذا إسحاق بن موسى مقبلاً إلينا في الخيل والرجال، وقد رأينا أن نخندق خندقاً بأعلَى مكة، وتبرز شخصك ليراك الناس ويحاربوا معك. وبعثوا إلى مَنْ حولهم من الأعراب، ففرضوا لهم، وخندقوا على مكة ليقاتلوا إسحاق بن موسى من ورائه، فقاتلهم إسحاق أياماً. ثم إن

إسحاق كره القتال والحرب، وخرج يريد العراق، فلقيه ورقاء بن جميل في أصحابه ومَنْ كان معه من أصحاب الجُلوديّ، فقالوا: ارجع معنا إلى مكة ونحن نكفيك القتال. فرجع معهم حتى أتوْا مكة فنزلوا المُشاش. واجتمع إلى محمد بن جعفر من كان معه من غوغائها؛ ومن سودان أهل المياه، ومَن فرض له من الأعراب، فعبّأهم ببئر ميمون، وأقبل إليهم إسحاق بن موسى وورقاء بن جميل بمَنْ معه من القوّاد والجند، فقاتلهم ببئر ميمون، فوقعت بينهم قتلى وجراحات. ثم رجع إسحاق وورقاء إلى معسكرهم، ثم عاودهم بعد ذلك بيوم فقاتلهم، فكانت الهزيمة على محمد بن جعفر وأصحابه؛ فلما رأى ذلك محمد، بعث رجالاً من قريش فيهم قاضي مكة يسألون لهم الأمان؛ حتى يخرجوا من مكة، ويذهبوا حيث شاؤوا، فأجابهم إسحاق وورقاء بن جميل إلى ذلك، وأجّلوهم ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الثالث، دخل إسحاق وورقاء إلى مكة في جمادى الآخرة وورقاء الوالي على مكة للجلودي، وتفرّق الطالبيون من مكة، فذهب كلّ قوم ناحية؛ فأمّا محمد بن جعفر فأخذ ناحية جُدّه، ثم خرج يريد الجُحفة، فعرض له رجل من موالي بني العباس يقال له محمد بن حكيم بن مروان، قد كان الطالبيون انتهبوا داره بمكة، وعذّبوه عذاباً شديداً؛ وكان يتوكّل لبعض العباسيين بمكة لآل جعفر بن سليمان، فجمع عبيد الحوائط من عبيد العبّاسيين حتى لحق محمد بن جعفر بين جُدّة وعُسْفان، فانتهب جميع ما معه مما خرج به من مكة، وجرّده حتى تركه في سراويل، وهمّ بقتله، ثم طرح عليه بعد ذلك قميصاً وعمامة ورداء ودريهمات يتسبّب بها، فخرج محمد بن جعفر حتى أتى بلاد جهينة على الساحل، فلم يزل مقيماً هنالك حتى انقضى الموسم، وهو في ذلك يجمع الجموع. وقد وقع بينه وبين هارون بن المسيّب والي المدينة وقعات عند الشجرة وغيرها، وذلك أن هارون بعث ليأخذه، فلما رأى ذلك أتاه بمن اجتمع حتى بلغ الشجرة، فخرج إليه هارون فقاتله، فهزم محمد بن جعفر، وفقِئت عينه بنشابة، وقتِل منْ أصحابه بشر كثير، فرجع حتى أقام بموضعه الذي كان فيه ينتظر ما يكون من أمر الموسم، فلم يأته مَنْ كان وعده. فلما رأى ذلك وانقضى الموسم، طلب الأمان من الجُلوديّ ومن رجاء ابن عمّ الفضل بن سهل، وضمن له رجاء على المأمون وعلى الفضل بن سهل ألاّ يُهاج، وأن يُوَفَّى له بالأمان، فقبل ذلك ورضيَه، ودخل به إلى مكة، يوم الأحد بعد النفْر الأخير بثمانية أيام لعشر بقين من ذي الحجة، فأمر عيسى بن يزيد الجُلودي ورجاء بن أبي الضحاك ابن عمّ الفضْل بن سهل بالمنبر؛ فوضع بين الركن والمقام حيث كان محمد بن جعفر بويع له فيه، وقد جمع الناس من القريشيين وغيرِهم، فصعد الجُلوديّ رأسَ المنبر، وقام محمد بن جعفر تحته بدرجة، وعليه قَباء أسود وقَلنسوة سوداء؛ وليس عليه سيف ليخلع نفسه. ثم قام محمد، فقال:

أيها الناس مَنْ عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب؛ فإنه كان لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين في رقَبتي بيعة بالسمع والطاعة، طائعاً غير مُكْرَه، وكنت أحَد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه: محمد المخلوع وعبد الله المأمون أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منّا ومن غيرنا. وكان نُميَ إليّ خبر؛ أن عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين كان توفِّيَ؛ فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين، واستحللت قبول ذلك لما كان عليّ من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله عبد الله الإمام المأمون، فبايعتموني ـ أو من فعل منكم ـ ألا وقد بلغني وصحّ عندي أنه حيّ سويّ. ألا وإني أستغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة، وقد خلعت نفسي من بَيْعتي التي بايعتموني عليها؛ كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، وقد صرت كرجل من المسلمين فلا بيعة لي في

رقابهم، وقد أخرجت نفسي من ذلك، وقد ردّ الله الحق إلى الخليفة المأمون عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين؛ والصلاة على محمد خاتم النبيين والسلام عليكم أيها المسلمون.

ثم نزل. فخرج به عيسى بن يزيد الجلوديّ إلى العراق، واستخلف على مكة ابنه محمد بن عيسى في سنة إحدى ومائتين، وخرج عيسى ومحمد بن جعفر حتى سلّمه إلى الحسن بن سهل، فبعث به الحسن بن سهل إلى المأمون بمَرْو مع رجاء بن أبي الضحاك.

وفي هذه السنة وجّه إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد الطالبيّ بعض ولد عَقيل بن أبي طالب من اليمن في جند كثيف إلى مكة ليحجّ بالناس، فحورب العَقيليّ فهزم، ولم يقدر على دخول مكة.

ذكر الخبر عن أمر إبراهيم العقيليّ الذي ذكرنا أمره

ذكر أن أبا إسحاق بن هارون الرشيد حجّ بالناس في سنة مائتين، فسار حتّى دخل مكة، ومعه قوّاد كثير، فيهم حمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان، وقد استعمله الحسن بن سهل على اليمن، ودخلوا مكة، وبها الجلوديّ في جنده وقواده، ووجه إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ من اليمن راجلاً من ولد عَقِيل بن أبي طالب، وأمره أن يحجّ بالناس، فلما صار العقيليّ إلى بستان بن عامر، بلغه أن أبا إسحاق بن هارون الرشيد قد ولي الموسم، وأن معه من القواد والجنود ما لا قِبَل لأحد به، فأقام ببستان ابن عامر، فمرّت به قافلة من الحاجّ والتجار، فيها كسوة الكعبة وطيبها، فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها، وقدم الحاجّ والتجار مكة عراة مسلّبين، فبلغ ذلك أبا إسحاق بن الرشيد وهو نازل بمكة في دار القوارير، فجمع إليه القوّاد فشاورهم، فقال له الجلوديّ ـ وذلك قبل التروية بيومين أو ثلاثة: أصلح الله الأمير! أنا أكفيكهم، أخرج إليهم في خمسين من نخبة أصحابي، وخمسين أنتخبهم من سائر القوّاد. فأجابوه إلى ذلك، فخرج الجُلوديّ في مائة حتى صبّح العقيليّ وأصحابه ببستان ابن عامر، فأحدق بهم، فأسر أكثرهم وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه فأخذ كسوة الكعبة إلّا شيئاً كان هرب به من هرب قبل ذلك بيوم واحد، وأخذ الطيب وأموال التجار والحاجّ، فوجّه به إلى مكة، ودعا بمَنْ أسر من أصحاب العقيليّ، فأمر بهم فقُنِّع كلّ رجل منهم عشرة أسواط، ثم قال: اعزبوا يا كلاب النار؛ فوالله ما قتلكم وعِر، ولا في أسركم جمال. وخلّى سبيلَهم، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً وعرياً.

وخالف ابن أبي سعيد على الحسن بن سهل، فبعث المأمون بسراج الخادم، وقال له: إن وضع عليّ يده في الحسن أو شخص إليّ بمَرْو وإلا فاضرب عنقه. فشخص إلى المأمون مع هَرْثمة بن أعين.

وفي هذه السنة شخص هرثمة في شهر ربيع الأول منها من معسكره إلى المأمون بمرو.

ذكر الخبر عن شخوص هرثمة إلى المأمون وما آل إليه أمره في مسيره ذلك

ذُكر أنّ هرثمة لما فَرغ من أمر أبي السرايا ومحمد بن محمد العلويّ، ودخل الكوفة، أقام في معسكره إلى شهر ربيع الأول؛ فلما أهلّ الشهر خرج حتى أتى نهر صَرْصر، والناس يروْن أنه يأتي الحسن بن سهل بالمدائن، فلما بلغ نهر صرصر خرج على عقْرَقُوف، ثم خرج حتى أتى البرَدَان، ثمّ أتى النَّهْروان، ثم خرج حتى أتى

خُراسان، وقد أتته كتب المأمون في غير منزل، أن يرجع فَيَليَ الشأم أو الحجاز، فأبى وقال: لا أرجع حتى ألْقَى أمير المؤمنين؛ إدلالاً منه عليه؛ لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه، وأراد أن يعرّف المأمون ما يدبّر عليه الفضل بن سهل، وما يكتم عنه من الأخبار، وألّا يدَعه حتى يردّه إلى بغداد، دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه، ويُشرف على أطرافه. فعلم الفضل ما يريد، فقال للمأمون: إنّ هرثمة قد أنْغَل عليك البلاد والعباد، وظاهَر عليك عدوّك، وعادى وليّك، ودسّ أبا السرايا، وهو جنديّ من جنده حتى عمل ما عمل، ولو شاء هرثمة ألّا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعله. وقد كتب إليه أمير المؤمنين عدّة كتب؛ أن يرجع فَيَليَ الشأم أو الحجاز فأبى، وقد رجع إلى باب أمير المؤمنين عاصياً مشاقًّا، يُظهر القوْل الغليظ، ويتواعد بالأمر الجليل، وإن أطلِق هذا كان مفسدة لغيره. فأشرب قلب أمير المؤمنين عليه.

وأبطأ هرثمة في المسير فلم يصل إلى خُراسان حتى كان ذو القعدة؛ فلما بلغ مَرْو خشي أن يكتم المأمون قدومه، فضرب بالطبول لكي يسمعها المأمون، فسمعها فقال: ما هذا؟ قالوا: هرثمة قد أقبل يُرعد ويبرق، وظنّ هرثمةُ أنّ قوله المقبول. فأمر بإدخاله، فلما أدخل ـ وقد أشرِب قلبه ما أشرب ـ قال له المأمون: مالأتَ أهل الكوفة والعلويّين وداهنت ودَسست إلى أبي السرايا حتى خرج وعمل ما عمل؛ وكان رجلا من أصحابك؛ ولو أردت أن تأخذهم جميعاً لفعلت؛ ولكنّك أرخيت خناقهم، وأجررت لهم رَسَنهم. فذهب هرثمةُ ليتكلم ويعتذر، ويدفع عن نفسه ما قُرِف به فلم يُقْبَل ذلك منه، وأمرَ به فوجىء على أنفه، وديس بطنه، وسُحب من بين يديه. وقد تقدّم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظِ عليه والتّشديد حتى حبس، فمكث في الحبس أياماً، ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا له: إنه مات.

وفي هذه السنة هاج الشَّغْب ببغداد بين الحربيّة والحسن بن سهل.

ذكر الخبر عن ذلك وكيف كان:

ذُكر أنّ الحسن بن سهل كان بالمدائن حين شخص هَرْثمة إلى خُراسان، ولم يزل مقيماً بها إلى أن اتّصل بأهل بغداد والحربية ما صُنع به، فبعث الحسن بن سهل إلى عليّ بن هشام ـ وهو والي بغداد، من قبَله: أن أمطل الجندَ من الحربيَّة والبغداديين أرزاقَهم، ومنِّهم ولا تُعطهم. وقد كان الحسن قبل ذلك اتّعدَهم أن يعطيَهم أرزاقهم، وكانت الحربيّة حين خرج هرثمة إلى خُراسان وثبوا وقالوا: لا نرضى حتى نطرد الحسن بن سهل عن بغداد؛ وكان من عمّاله بها محمد بن أبي خالد وأسد بن أبي الأسد، فوثبت الحربية عليهم فطردوهم، وصيّروا إسحاق بن موسى بن المهديّ خليفة للمأمون ببغداد؛ فاجتمع أهل الجانبين على ذلك، ورضُوا به، فدسّ الحسنُ إليهم، وكاتب قوّادهم حتى وثبوا من جانب عسكر المهديّ، وجعل يعطي الجندَ أرزاقهم لستة أشهر عطاء نزْراً؛ فحوّل الحربية إسحاق إليهم، وأنزلوه على دُجيل.

وجاء زهير بن المسيّب فنزل في عسكر المهديّ، وبعث الحسن بن سهل عليّ بن هشام، فجاء من الجانب الآخر؛ حتى نزل نهر صَرْصر، ثم جاء هو ومحمد بن أبي خالد وقوّادهم ليلا؛ حتى دخلوا بغداد، فنزل عليّ بن هشام دارَ العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخُزاعيّ على باب المحوّل لثمانٍ خلوْن من شعبان؛ وقبل ذلك ما كان الحربية حين بلَغهم أنّ أهلَ الكرخ يريدون أن يُدخلوا زهيراً وعليّ بن هشام، شدّوا على باب الكرخ فأحرقوه، وأنهبوا من حدّ قصر الوضّاح إلى داخل باب الكرْخ إلى أصحاب القراطيس ليلةَ الثلاثاء،

ودخل عليّ بن هشام صبيحةَ تلك الليلة، فقاتل الحربية ثلاثة أيام على قنطرة الصّراة العتيقة والجديدة والأرحاء.

ثم إنه وعد الحربيّة أن يعطيَهم رزق ستة أشهر إذا أدركت الغلّة، فسألوه أن يعجّل لهم خمسين درهماً لكل رجل لينفقوها في شهر رمضان، فأجابهم إلى ذلك، وجعل يعطي، فلم يُتمّ لهم إعطاءهم؛ حتى خرج زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب، الخارج بالبَصْرة المعروف بزيد النار؛ كان أفلت من الحَبْس عند عليّ بن أبي سعيد، فخرج في ناحية الأنبار ومعه أخو أبي السرايا في ذي القعدة سنة مائتين، فبعثوا إليه، فأخِذ، فأتِيَ به عليّ بن هشام، فلم يلبث إلاّ جمعة حتى هرب من الحربيّة، فنزل نهر صرصر، وذلك أنه كان يكذِبهم، ولم يفِ لهم بإعطاء الخمسين؛ إلى أن جاء الأضحى؛ وبلغهم خبرُ هرثمة وما صُنع به؛ فشدّوا على عليّ فطردوه.

وكان المتولي ذلك والقائم بأمر الحرْب محمد بن أبي خالد؛ وذلك أن عليّ بن هشام لما دخل بغداد كان يُستخفّ به، فوقع بين محمد بن أبي خالد وبين زُهير بن المسيّب إلى أن قنّعه زهير بالسوط. فغضب محمد من ذلك، وتحوّل إلى الحربية في ذي القعدة، ونصب لهم الحرْب، واجتمع إليه الناس فلم يقْوَ بهم عليّ بن هشام حتى أخرجوه من بغداد؛ ثم اتبعه حتى هزمهم من نهر صرصر.

وفي هذه السنة وجّه المأمون رجاء بن أبي الضحّاك وفرناس الخادم لإشخاص عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر.

وأُحْصيَ في هذه السنة ولد العباس؛ فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكرٍ وأنثى.

وفي هذه السنة قتلت الروم ملكها ليون، فكان قد ملك عليهم سبع سنين وستة أشهر، وملكوا عليهم ميخائيل بن جورجس ثانية.

وفيها قَتَل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل؛ وذلك أن يحيى أغلظ له، فقال له: يا أميرَ الكافرين؛ فقتِل بين يديه.

وأقام للناس الحجّ في هذه السنة أبو إسحاق بن الرّشيد.

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مراودَة أهل بغداد منصورَ بن المهديّ على الخلافة وامتناعه عليهم ؛ فلما امتنع من ذلك راودوه على الإمْرة عليهم ، على أن يدعوَ للمأمون بالخلافة ؛ فأجابهم إلى ذلك.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه :

قد ذكرنا قبل ذلك سببَ إخراج أهل بغداد عليّ بن هشام من بغداد . ويُذكر عن الحسن بن سهل أنّ الخبر عن إخراج أهل بغداد عليّ بن هشام من بغداد لما اتّصل به وهو بالمدائن ، انهزم حتى صار إلى واسط ؛ وذلك في أوّل سنة إحدى ومائتين.

وقد قيل إن سبب إخراج أهل بغداد عليّ بن هشام من بغداد ، كان أنّ الحسن بن سهل وجّه محمد بن خالد المروَرّوذيّ بعد ما قُتل أبو السرايا ، أفسده وولّى عليّ بن هشام الجانب الغربيّ من بغداد وزهير بن المسيّب يلي الجانب الشرقيّ ، وأقام هو بالخيزرانيّة ، وضرب الحسنُ عبدَالله بن عليّ بن عيسى بن ماهان حدّاً بالسياط ، فغضب الأبناء ، فشغب الناس ، فهرب إلى برْبَخا ثم إلى باسَلاَمَا ، وأمر بالأرزاق لأهل عسكر المهديّ ، ومنع أهل الغربيّ ، واقتتل أهل الجانبين ، ففرّق محمد بن أبي خالد على الحربيّة مالاً ، فهُزم عليّ بن هشام ، فانهزم الحسن بن سهل بانهزام عليّ بن هشام ، فلحق بواسط ، فتبعه محمد بن أبي خالد بن الهندوان مخالفاً له ، وقد تولّى القيام بأمر الناس ، وولّى سعيد بن الحسن بن قحطبة الجانب الغربيّ ونصر بن حمزة بن مالك الشرقيّ ، وكنفه ببغداد منصور بن المهديّ وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع .

وقد قيل إنّ عيسى بن محمد بن أبي خالد قدم في هذه السنة من الرّقّة ، وكان عند طاهر بن الحسين ، فاجتمع هو وأبوه على قتال الحسن ، فمضيَا حتى انتهيا ومَنْ معهما من الحربيّة وأهل بغداد إلى قرية أبي قريش قرب واسط ، وكان كلما أتيا موضعاً فيه عسكر من عساكر الحسن فيكون بينهما فيه وقعة ، تكون الهزيمة فيه على أصحاب الحسن .

ولما انتهى محمد بن خالد إلى دير العاقول ، أقام به ثلاثاً ، وزهير بن المسيّب حينئذ مقيم بإسكاف بني الجُنيد ، وهو عامل الحسن على جوخَى مقيم في عمله ؛ فكان يكاتب قوّاد أهل بغداد . فبعث ابنه الأزهر ، فمضى حتى انتهى إلى نهر النهروان ، فلقي محمد بن أبي خالد ، فركب إليه ، فأتاه بإسكاف ، فأحاط به فأعطاه الأمان ، وأخذ أسيراً ، فجاء به إلى عسكره بدير العاقول ، وأخذ أمواله ومتاعه وكلّ قليل وكثير وجد له . ثم

تقدّم محمد بن أبي خالد ، فلما صار إلى واسط بعث به إلى بغداد ، فحبسه عند ابن له مكفوف ، يقال لـه جعفر ؛ فكان الحسن مقيماً بجرْجرايا ، فلما بلغه خبر زهير ، وأنه قد صار في يد محمد بن أبي خالد ارتحل حتى دخل واسط ، فنزل بفم الصِّلح ، ووجه محمّد من دير العاقول ابنَه هارون إلى النيل وبها سعيد بن الساجور الكوفيّ ، فهزمه هارون ، ثم تبعه حتى دخل الكوفة ، فأخذها هارون ، ووَلّي عليها . وقدم عيسى بن يزيد الجلُوديّ من مكّة ، ومعه محمد بن جعفر ، فخرجوا جميعاً حتى أتوْا واسط في طريق البرّ ، ثم رجع هارون إلى أبيه ، فاجتمعوا جميعاً في قرية أبي قريش ليدخلوا واسط ، وبها الحسن بن سهل ، فتقدّم الحسن بن سهل فنزل خلف واسط في أطرافها .

وكان الفضل بن الربيع مختفياً من حين قتِل المخلوع ، فلما رأى أن محمد بن أبي خالد قد بلغ واسطَ بعث إليه يطلب الأمان منه ، فأعطاه إياه وظهر . ثم تعبّأ محمد بن أبي خـالد للقتـال ، فتقدّم هـو وابنه عيسى وأصحابهما ، حتى صاروا على ميلين من واسط ، فوّجه إليهم الحسن أصحابَه وقوّاده ، فاقتتلوا قتالاً شديداً عند أبيات واسط . فلما كان بعد العصر هبّت ريح شديدة وغُبْرة حتى اختلط القوم بعضهم ببعض ؛ وكانت الهزيمة على أصحاب محمد بن أبي خالد، فثبت للقوم فأصابتْه جراحات شديدة في جَسَده، فانهزم هو وأصحابه هزيمةً شديدة قبيحة، فهزم أصحابه الحسن، وذلك يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى ومائتين .

فلما بلغ محمد فم الصِّلْح خرج عليهم أصحابُ الحسن فصافّهم للقتال ، فلما جنّهم الليل ، ارتحلَ هو وأصحابه حتى نزلوا المبارك ، فأقاموا به ؛ فلمّا أصبحوا غدَا عليهم أصحابُ الحسن فصافوّهم ، واقتتلوا .

فلما جنّهم الليل ارتحلوا حتى أتوا جَبُّل ، فأقاموا بها ، ووجّه ابنه هارون إلى النيل ، فأقام بها ، وأقام محمد بجَرْجَرايا ، فلما اشتدّت به الجراحات خلّف قوّاده في عسكره ، وحَمَله ابنهأبو زنبيلحتى أدخله بغداد ليلة الأثنين لستّ خلْون من شهر ربيع الآخر ، فدخل أبو زنبيل ليلة الأثنين ، ومات محمد بن أبي خالد من ليلته من تلك الجراحات ، ودفن من ليلته في داره سرّاً .

وكان زهير بن المسيّب محبوساً عند جعفر بن محمد بن أبي خالد ، فلما قدم أبو زنبيل أتى خزيمة بن خازم يوم الأثنين لثمان خلون من شهر ربيع الآخر ، فأعلمه أمر أبيه ، فبعث خزيمة إلى بني هاشم والقوّاد وأعلمهم ذلك ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد بن أبي خالد ، وأنه يكفيهم الحرب . فرضوا بذلك ، فصار عيسى مكان أبيه على الحرْب ، وانصرف أبو زنبيل من عند خُزيمة حتى أتى زهير بن المسيب ، فأخرجه من حَبْسه ، فضرب عنقه . ويقال : إنه ذبحه ذبحاً وأخذ رأسه ، فبعث به إلى عيسى في عسكره ، فنصبه على رمح وأخذوا جسدَه ، فشدّوا في رجليه حبلاً ، ثم طافوا به في بغداد ، ومرُّوا به على دوره ودور أهل بيته عند باب الكوفة ، ثم طافوا به في الكرْخ ، ثم ردُّوه إلى باب الشأم بالعشيّ ، فلما جنّهم الليل طرحوه في دِجلة ، وذلك يوم الأثنين لثمان خلْون من شهر ربيع الآخر .

ثم رجع أبو زنبيل حتى انتهى إلى عيسى فوجّهه عيسى إلى فم الصّراة .

وبلغ الحسن بن سهل موت محمد بن أبي خالد ، فخرج من واسط حتى انتهى إلى المُبارك ، فأقام بها . فلما كان جمادى الآخرة وجّه حميد بن عبد الحميد الطوسيّ ومعه عركو الأعرابيّ وسعيد بن الساجور وأبو البطّ ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ ، وعدّة سواهم من القوّاد ، فلقوا أبا زنبيل بفم الصَّراة فهزموه ، وانحاز إلى أخيه

هارون بالنّيل ، فالتقوْا عند بيوت النيل ، فاقتتلوا ساعة ، فوقعت الهزيمة على أصحاب هارون ، وأبي زنبيل ، فخرجوا هاربين حتى أتوا المدائن ، وذلك يوم الاثنين لخمس بَقين من جمادى الآخرة .

ودخل حميد وأصحابه النِّيل فانتهبوها ثلاثة أيام ، فانتهبوا أموالَهم وأمتعتهم ، وانتهبوا ما كان حوْلهم من القرى ؛ وقد كان بنو هاشم والقوّاد حين مات محمد بن أبي خالد تكلّموا في ذلك ؛ وقالوا : نصيِّر بعضنا خليفة ونخلع المأمون ، فكانوا يتراضَوْن في ذلك ، إذ بلغهم خبر هارون وأبي زنبيل وهزيمتهم ، فجدُّوا فيما كانوا فيه ، وأرادوا منصور بن المهديّ على الخلافة ، فأبى ذلك عليهم ، فلم يزالوا به حتى صيّروه أميراً خليفة للمأمون ببغداد والعراق ، وقالوا : لا نرضى بالمجوسيّ ابن المجوسيّ الحسن بن سهل ، ونطرده حتى يرجع إلى خراسان .

وقد قيل : إن عيسى بن أبي خالد لّما اجتمع إليه أهل بغداد ، وساعدوه على حرب الحسن بن سهل ، رأى الحسن أنه لا طاقة له بعيسى، فبعث إليه وهب بن سعيد الكاتب، وبذَل له المصاهرة ومائة ألف دينار والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد وولاية أيّ النواحي أحبّ، فطلب كتاب المأمون بذلك بخطِّه ، فردّ الحسن بن سهل وهباً بإجابته ، فغرق وهب بين المُبارك وجَبُّل ؛ فكتب عيسى إلى أهل بغداد : إني مشغول بالحرب عن جباية الخراج ، فولّوا رجلاً من بني هاشم ، فولَّوْا منصور بن المهديّ ، وعسكر منصور بن المهديّ بكَلْواذَى ، وأرادوه على الخلافة فأبى ، وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولّيَ مَنْ أحبّ ، فرضي بذلك بنو هاشم والقوّاد والجند ؛ وكان القيّم بهذا الأمر خزيمة بن خازم ، فوجّه القوّاد في كلّ ناحية ، وجاء حميد الطوسي من فوره في طلب بني محمد حتى انتهى إلى المدائن ، فأقام بها يومه ، ثم انصرف إلى النيل .

فلما بلغ منصوراً خبرُه حتى عسكر بكَلْواذى ، وتقدّم يحيى بن عليّ بن عيسى بن ماهان إلى المدائن .

ثم إن منصوراً وجّه إسحاق بن العباس بن محمد الهاشميّ من الجانب الآخر ، فعسكر بنهر صَرْصر ، ووجّه غسان بن عباد بن أبي الفرج أبا إبراهيم بن غسان صاحب حرس صاحب خُراسان ناحية الكوفة ، فتقدّم حتى أتى قصرَ ابن هبيرة ، فأقام به . فلما بلغ حُميداً الخبر لم يعلم غسان إلا وحُميد قد أحاط بالقصر ، فأخذ غسانَ أسيراً ، وسلب أصحابه ، وقتل منهم ، وذلك يوم الاثنين لأربع خلوْن من رجب .

ثم لم يزل كلُّ قوم مقيمين في عساكرهم ، إلاّ أن محمد بن يقطين بن موسى كان مع الحسن بن سهل ، فهرب منه إلى عيسى ، فوجّهه عيسى إلى منصور ، فوجّهه منصور إلى ناحية حُميد ؛ وكان حُميد مقيماً بالنيل إلاّ أنّ له خيلاً بالقَصْر .

وخرج ابن يقطين من بغداد يوم السبت لليلتين خَلتَا من شعبان حتى أتى كُوثى . وبلغ حُميداً الخبر ، فلم يعلم ابن يقطين حتى أتاه حُميد وأصحابه إلى كُوثى . وبلغ حُميداً الخبر ، فلم يعلم ابن يقطين حتى أتاه حُميد وأصحابه إلى كُوثى ، فقاتلوه فهزموه ، وقتلوا من أصحابه ، وأسروا ، وغرق منهم بشر كثير ، وانتهب حميد وأصحابه ما كان حول كُوثى من القُرى وأخذوا البقر والغنم والحمير وما قَدَروا عليه من حَليٍ ومتاع وغير ذلك ؛ ثم انصرف حتى النّيل ، وراجع ابنُ يقطين ، فأقام بنهر صَرصَر .

وفي محمد بن أبي خالد قال أبو الشدّاخ :

هَوَى خيلُ الأبناءِ بعدَ محمَّدٍ وأصْبحَ منها كاهِلُ العِزِّ أخضَعَا
فلا تَشمَتُوا يا آلَ سهلٍ بموْتِه فإنَّ لكم يوماً من الدهرِ مَصْرَعَاً

وأحْصَى عيسى بن محمد بن أبي خالد ما كان في عسكره ، فكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً بين فارس وراجل ؛ فأعطى الفارس أربعين درهماً ؛ والرّاجل عشرين درهماً .

وفي هذه السنة تجرّدت المطوّعة للنكير على الفساق ببغداد ، ورئيسهم خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاريّ أبو حاتم من أهل خُراسان .

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله فعلت المطوّعة ما ذكرت :

كان السبب في ذلك أن فساق الحربيّة والشطار الذين كانوا ببغداد والكَرْخ آذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسْق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانيةً من الطرق ؛ فكانوا يجتمعون فيأتُون الرّجل ، فيأخذون ابنَه ، فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ؛وكانوا يسألونالرَّجُل أن يُقرِضهم أو يصِلهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم ؛ وكانوا يجتمعون فيأتُون القرى ، فيكاثرون أهلَها ، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك ؛ لا سلطانَ يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم ؛ لأن السلطان كان يعتزّ بهم ، وكانوا بطانته ، فلا يقدر أن يمنَعهم من فسق يركبونه ، وكانوا يَجْبُون المارّة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ، ويقطعون الطرق علانية ، ولا أحد يعدو عليهم ، وكان الناس منهم في بلاء عظيم ؛ ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قُطْرَبّل ، فانتهبوها علانيةً ، وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها بغداد ، وجعلوا يبيعونها علانية ، وجاء أهلها فاستعدَوْا السلطان عليهم ، فلم يمكنه إعداؤهم عليهم ، ولم يردّ عليهم شيئاً مما كان أخِذ منهم ، وذلك آخر شعبان .

فلما رأى الناس ذلك وما قد أخِذ منهم ؛ وما بيع من متاع الناس في أسواقهم ، وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغي وقطْعْ الطريق ، وأن السلطان لا يغيّر عليهم ، قام صُلحاء كل رَبَض وكلّ دَرْب ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنما في الدرّب الفاسق والفاسقان إلى العشرة ، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ؛ فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً ، لقمعتم هؤلاء الفُساق ، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم .

فقام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له خالد الدريوش، فدعا جيرَانه وأهل بيته وأهل محلّته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك ، وشدّ على مَنْ يليه من الفساق والشطار ، فمنعهم مما كانوا يصنعون ، فامتنعوا عليه ، وأرادوا قتاله ، إلا أنه كان لا يرى أن يُغَيّر على السلطان شيئاً ، ثم قام من بعده رجلٌ من أهل الحربيّة ، يقال له سهل بن سلامة الأنصاري من أهل خُراسان ، يكنى أبا حاتم ؛ فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل بكتاب الله جلّ وعزّ وسنّة نبيه ﷺ ، وعلّق مصحفاً في عنقه ، ثم بدأ بجيرانه وأهل محلِتّه ، فأمرهم ونهاهم فقبِلوا منه ، ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك ؛ الشريفَ منهم والوضيعَ ؛ بني هاشم ومَنْ دونهم ، وجعل له ديواناً يثبت فيه اسم من أتاه منهم ، فبايعه على ذلك ، وقتال مَنْ خالفه وخالف ما دعا إليه كائناً من كان ؛ فأتاه خلق كثير ، فبايعوا .

ثمّ إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ؛ ومنع كلّ من يخفر ويجبي المارّة والمختلفة ، وقال : لا

خفارة في الإسلام ـ والخفارة أنه كان يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول : بستانك في خَفَري ، أدفع عنه من أراده بسوء ، ولي في عُنقك كلّ شهر كذا وكذا درهماً ، فيعطيه ذلك شائياً وآبياً ـ فقوي على ذلك إلا أن الدريوش خالفه ، وقال : أنا لا أعيبُ على السلطان شيئاً ولا أغيِّره ، ولا أقاتله ، ولا آمره بشيء ولا أنهاه . وقال سهل بن سلامة : لكني أقاتل كلّ من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان ؛ سلطاناً أوغيره ؛ والحق قائم في الناس أجمعين ، فمن بايعني على هذا قبلتُه ، ومن خالفني قاتلته . فقام في ذلك سهل يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين في مسجد طاهر بن الحسين ؛ الذي كان بناه في الحربيّة . وكان خالد الدريوش قام قبله بيومين أو ثلاثة ، وكان منصور بن المهديّ مقيماً بعسكره بجَبُّل ، فلما كان من ظهور سهل بن سلامة وأصحابه ما كان ، وبلغ ذلك منصوراً وعيسى ـ وإنما كان عظم أصحابها الشّطار ، ومن لا خير فيه ـ كسرهما ذلك ، ودخل منصور بغداد .

وقد كان عيسى يكاتب الحسن بن سهل ، فلما بلغه خبر بغداد ، سأل الحسن بن سهل أن يعطيَه الأمان له ولأهل بيته ولأصحابه ؛ على أن يعطي الحسن أصحابه وجنده وسائر أهل بغداد رزق ستة أشهر إذا أدركتْ له الغَلّة ، فأجابه الحسن ، وارتحل عيسى من مُعسكره ، فدخل بغداد يوم الأثنين لثلاث عشرة خلت من شوّال ، وتقوّضت جميع عساكرهم ، فدخلوا بغداد ، فأعلمهم عيسى ما دخل لهم فيه من الصّلح فرضوُا بذلك .

ثم رجع عيسى إلى المدائن ، وجاء يحيى بن عبدالله ، ابن عمّ الحسن بن سهل ، حتى نزلَ دير العاقول ، فوَلّوْه السواد ، وأشركوا بينه وبين عيسى في الولاية ، وجعلوا لكلّ عدّة من الطّساسيج وأعمال بغداد . فلمّا دخل عيسى فيما دخل فيه ـ وكان أهل عسكر المهديّ مخالفين له ـ وثب المطلب بن عبدالله بن مالك الخُزاعيّ يدعو إلى المأمون وإلى الفضل والحسن ابني سهل؛ فامتنع عليه سهل بن سلامة، وقال: ليس على هذا بايعتَني .

وتحوّل منصور بن المهديّ وخزيمة بن خازم والفضل بن الربيع ـ وكانوا يوم تحوّلوا بايعوا سهلَ بن سلامة على ما يدعُو إليه من العمل بالكتاب والسنة ـ فنزلوا بالحربية فراراً من الطلب ، وجاء سهل بن سلامة إلى الحسن ، وبعث إلى المطلب أن يأتيَه ، وقال : ليس على هذا بايعتَني ، فأبى المطلب أن يجيئَه ، فقاتله سهل يومين أو ثلاثة قتالاً شديداً ؛ حتى اصطلح عيسى والمطلب ، فدسّ عيسى إلى سهلٍ مَن اغتاله فضربه ضربة بالسيف ؛ إلا أنها لم تعمل فيه ؛ فلما اغتيل سهل رجع إلى منزله ، وقام عيسى بأمر الناس ، فكفُّوا عن القتال .

وقد كان حميد بن عبد الحميد مقيماً بالنيل ، فلما بلغه هذا الخبر دخل الكوفة ، فأقام بها أياماً . ثم إنه خرج منها حتى أتى قصر ابن هبيرة ، فأقام به ، واتخذ منزلاً وعمل عليه سوراً وخندقاً ؛ وذلك في آخر ذي القعدة ، وأقام عيسى ببغداد يعرض الجند ويصحّحهم ، إلى أن تدرك الغلّة ، وبعث إلى سهل بن سلامة فاعتذر إليه مما كان صنع به ، وبايعه وأمره أن يعود إلى ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه عونه على ذلك ، فقام سهل بما كان قام به أولاً من الدعاء إلى العمل بالكتاب والسنّة .

وفي هذه السنة جعل المأمون عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده ، وسماه الرّضِيّ من آل محمد ﷺ ، وأمر جنده بطرح السَّواد ولبس ثياب الخُضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

ذكر الخبر عن ذلك وعما كان سبب ذلك وما آل الأمر فيه إليه :

ذُكر أن عيسى بن محمد بن أبي خالد، بينما هو فيما هو فيه من عَرْض أصحابه بعد منصرفَه من عسكره إلى بغداد ، إذ ورد عليه كتاب من الحسن بن سهل يُعلمه أنّ أمير المؤمنين المأمون قد جعل عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد وليّ عهده من بعده ، وذلك أنه نظر في بني العباس وبني عليّ ، فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورَع ولا أعلم منه ، وأنه سمَّاه الرضّي من آل محمد ، وأمره بطرح لُبْس الثياب السود ولبس ثياب الخضرة ، وذلك يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، ويأمره أن يأمر مَنْ قبله من أصحابه والجند والقوّاد وبني هاشم البيعة له ، وأن يأخذهم بلبس الخُضْرة في أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم ، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك .

فلما أتى عيسى الخبر دعا أهلَ بغداد إلى ذلك على أن يعجِّل لهم رزق شهر ، والباقي إذا أدركت الغلّة ، فقال بعضهم : نبايع ونلبس الخضرة ، وقال بعضهم : لا نبايع ولا نلبس الخُضرة ، ولا نُخرج هذا الأمر من ولد العباس ، وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل ، فمكثوا بذلك أياماً . وغضب ولد العباس من ذلك ، واجتمع بعضهم إلى بعض ، وتكلموا فيه ، وقالوا : نولّي بعضنا ، ونخلع المأمون ؛ وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلّد له إبراهيم ومنصور ابنا المهديّ .

وفي هذه السنة بايع أهلُ بغداد إبراهيم بن المهديّ بالخلافة وخلعوا المأمون .

ذكر السبب في ذلك :

قد ذكرنا سببَ إنكار العباسيين ببغداد على المأمون ما أنكروا عليه ، واجتماع مَن اجتمع على محاربة الحسن بن سهل منهم ؛ حتى خرج عن بغداد . ولـمّا كان من بيعة المأمون لعلي بن موسى بن جعفر ـ وأمره الناس بلبس الخضرة ما كان ، وورود كتاب الحسن على عيسى بن محمد بن أبي خالد يأمره بذلك ، وأخْذ الناس به ببغداد ، وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة ـ أظهر العباسيون ببغداد أنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهديّ بالخلافة ، ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهديّ ؛ وأنهم قد خلعوا المأمون ، وأنهم يعطون عشرة دنانير كل إنسان ، أوّل يوم من المحرّم أول يوم من السنة المستقبلة . فقبل بعض ولم يقبل بعض حتى يعطيَ ؛ فلما كان يوم الجمعة وأرادوا الصلاة أرادوا أن يجعلوا إبراهيم خليفة للمأمون مكان منصور ، فأمروا رجلاً يقول حين أذّن المؤذن : إنا نريد أن ندعوَ للمأمون ومن بعده لإبراهيم يكون خليفة ، وكانوا قد دسُّوا قوماً ، فقالوا لهم : إذا قام يقول : ندعُو للمأمون ، فقوموا أنتم فقولوا : لا نرضى إلا أن تبايعوا لإبراهيم ومنْ بعده لإسحاق ، وتخلعوا المأمون أصلاً ، ليس نريد أن تأخذوا أموالنا كما صنع المنصور ، ثم تجلسوا في بيوتكم . فلما قام مَن يتكلم أجابه هؤلاء ، فلم يُصَلّ بهم تلك الجمعة صلاة الجمعة ، ولا خطب أحد ، إنما صلى الناس أربع ركعات ثم انصرفوا ، وذلك يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين .

وفي هذه السنة افتتح عبدالله بن خُرْداذْبه وهو والي طَبرستان اللارز والشيرز ؛ من بلاد الديلم ، وزادهما في بلاد الإسلام ، وافتتح جبال طبرستان ، وأنزل شهريار بن شَروين عنها، فقال سلاّم الخاسر :

إنا لَنَأْمُلُ فتْحَ الرومِ والصِّين   بمن أَدال لنا من مُلك شَرْوِين
فاشدُدْ يديك بِعبدِ اللهِ إنَّ لهُ   مع الأَمانةِ رأْيٌ غيرُ مَوهُونِ

وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون ، وأسر أبا ليلى ملك الديلم بغير عهد في هذه السنة .

وفيها مات محمد بن محمد صاحب أبي السرايا .

وفيها تحرّك بابك الخرَّميّ في الجاويذَانيّة أصحاب جاويذان بن سهل ، صاحب البذّ ، وادّعى أن رُوح جاويذان دخلت فيه ، وأخذ في العيْث والفساد .

وفيها أصابَ أهلَ خراسان والريّ وإصبهان مجاعة ، وعزّ الطعام ، ووقع الموت .

وحجّ بالناس فيها إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ .

ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهديّ بالخلافة، وتسميتهم إيّاه المُبارك. وقيل إنهم بايعوه في أوّل يوم من المحرّم بالخلافة، وخلعوا المأمون؛ فلمّا كان يوم الجمعة صعد إبراهيم المنبر؛ فكان أوّل من بايعه عُبيد الله بن العباس بن محمد الهاشميّ، ثم منصور بن المهديّ، ثم سائر بني هاشم، ثم القوّاد. وكان المتولّي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك؛ وكان الذي سعى في ذلك وقام به السنديّ وصالح صاحب المصلّى ومنْجاب ونُصير الوصيف وسائر الموالي؛ إلا أن هؤلاء كانوا الرؤساء والقادة غضباً منهم على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد عليّ، ولتركه لباس آبائه من السّواد ولبسِه الخُضرة.

ولما فرغ من البيعة وعد الجند أن يعطيهَم أرزاق ستة الأشهر، فدافعهم بها، فلما رأوا ذلك شَغبُوا عليه، فأعطاهم مائتي درهم لكل رجل، وكتب لبعضهم إلى السواد بقيمة بقيّة مالهم حنطة وشعيراً. فخرجوا في قَبْضها فلم يمرّوا بشيء إلا انتهبوه، فأخذوا النَّصيبينْ جميعاً؛ نصيب أهل البلاد ونصيب السلطان. وغلب إبراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسَّواد كله، وعسكر بالمدائن. وولّى الجانب الشرقيّ من بغداد العباس بن موسى الهادي والجانب الغربيّ إسحاق بن موسى الهادي. وقال إبراهيم بن المهديّ:

أَلم تعلَمُوا يا آل فهرٍ بأَنَّني ... شَرَيْتُ بنفسي دُونَكُمْ في المهالكِ

وفي هذه السنة حَكَّم مهديّ بن عُلوان الحروريّ، وكان خروجه بِبُزر جسابور، وغلب على طساسيج هنالك. وعلى نهر بوق والراذانينْ. وقد قيل: إن خروج مهديّ كان في سنة ثلاث ومائتين في شوّال منها، فوجّه إليه إبراهيم بن المهدي أبا إسحاق بن الرشيد في جماعة من القوّاد، منهم أبو البطّ وسعيد بن الساجور، ومع أبي إسحاق غلمان له أتراك؛ فذُكر عن شُبَيل صاحب السلبة، أنه كان معه وهو غلام، فلقوا الشُّراة، فطَعن رجل من الأعراب أبا إسحاق، فحامى عنه غلام له تركيّ، وقال له: أشِناس مَرَا، أي اعرفْني، فسماه يومئذ أشناس؛ وهو أبو جعفر أشِناس، وهُزم مهديّ إلى حَوْلَايا.

وقال بعضهم: إنما وجّه إبراهيم إلى مهديّ بن علوان الدهقانيّ الحروريّ المُطّلبَ، فسار إليه، فلمّا قرب منه أخذ رجلاً من قَعدِ الحروريّة يقال له أقْذَى، فقتله، واجتمعت الأعراب فقاتلوه فهزموه حتى أدخلوه بغداد.

وفي هذه السنة وثب أخو أبي السرايا بالكوفة، فبيّض، واجتمعت إليه جماعة، فلقيه غَسان بن أبي الفرج في رَجب فقتله، وبعث برأسه إلى إبراهيم بن المهديّ.

ذكر الخبر عن تبييض أخي أبي السرايا وظهوره بالكوفة

ذكر أن الحسن بن سهل أتاه وهو مقيم بالمبارَك في معسكره كتاب المأمون يأمره بلبس الخضرة، وأن يبايع لعليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بولاية العهد من بعده، ويأمره أن يتقدّم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها، فارتحل حتى نزل سمّر، وكتب إلى حميد بن عبد الحميد أن يتقدّم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها من ناحية أخرى، ويأمره بلباس الخُضرة، ففعل ذلك حميد. وكان سعيد بن الساجور وأبو البطّ وغسان بن أبي الفرج ومحمد بن إبراهيم الإفريقيّ وعِدّة من قوّاد حُميد كاتبوا إبراهيم بن المهديّ، على أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة، وكان قد تباعد ما بينهم وبين حميد، فكانوا يكتبون إلى الحسن بن سهل يخبرونه أن حُميداً يكاتب إبراهيم، وكان يكتب فيهم بمثل ذلك، وكان الحسن يكتب إلى حُميد يسأله أن يأتيَه فلم يفعل، وخاف إن هو خرج إلى الحسن أن يثب الآخرون بعسكره؛ فكانوا يكتبون إلى الحسن أنّه ليس يمنعه من إتيانك إلاّ أنه مخالف لك، وأنه قد اشترى الضياع بين الصّراة وسُورا والسواد. فلما ألحّ عليه الحسن بالكُتب، خرج إليه يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الآخر، فكتب سعيد وأصحابه إلى إبراهيم يعلمونه، ويسألون أن يبعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد، حتى يدفعوا إليه القصر وعسكر حميد؛ وكان إبراهيم قد خرج من بغداد يوم الثلاثاء حتى عسكر بكَلْواذى يريد المدائن، فلما أتاه الكتاب وجّه عيسى إليهم.

فلما بلغ أهلَ عسكر حميد خروجُ عيسى ونزوله قرية الأعراب على فرسخ من القصر تهيؤوا للهرب؛ وذلك ليلة الثلاثاء، وشدّ أصحاب سعيد وأبي البطّ والفضل بن محمد بن الصباح الكنديّ الكوفيّ على عسكر حميد؛ فانتهبوا ما فيه، وأخذوا لحُميد ـ فيما ذكر ـ مائة بَدْرة أموالاً ومتاعاً، وهرب ابنُ لحُميد ومعاذ بن عبد الله، فأخذ بعضهم نحو الكوفة وبعض نحو النيل؛ فأمّا ابنُ حميد، فإنه انحدر بجواري أبيه إلى الكوفة، فلما أتى الكوفة اكترى بغالا ثم أخذ الطريق، ثم لحق بأبيه بعسكر الحسن، ودخل عيسى القصر وسلّمة له سعيد وأصحابه، وصار عيسى وأخذه منهم، وذلك يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الآخر. وبلغ الحسن بن سهل وحميد عنده، فقال له حميد: ألم أعلمك بذلك! ولكن خُدعت، وخرج من عنده حتى أتى الكوفة،فأخذ أموالاً له كانت هنالك ومتاعاً. وولّى على الكوفة العباس بن موسى بن جعفر العلويّ، وأمره بلباس الخضرة، وأن يدعُوَ للمأمون ومن بعده لأخيه عليّ بن موسى؛ وأعانه بمائة ألف درهم، وقال له: قاتل عن أخيك، فإن أهل الكوفة يُجيبونك إلى ذلك؛ وأنا معك.

فلمّا كان الليل خرج حميد من الكوفة وتَركه، وقد كان الحسن وجّه حكيماً الحارثيّ حين بلغه الخبر إلى النيل، فلما بلغ ذلك عيسى وهو بالقصر تهيّأ هو وأصحابه،حتى خرجوا إلى النّيل؛ فلما كان ليلة السبت لأربع عشرة ليلة خلتْ من ربيع الآخر طلعت حُمرة في السماء، ثم ذهبت الحمرة، وبقي عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل؛ وخرج غداة السبت عيسى وأصحابه من القصر إلى النيل، فواقعهم حكيم، وأتاهم عيسى وسعيد وهم في الوقعة، فانهزم حكيم، ودخلوا النِّيل.

فلما صاروا بالنِّيل، بلغهم خبر العباس بن موسى بن جعفر العلويّ، وما يدعو إليه أهل الكوفة، وأنه قد أجابه قوم كثير منهم، وقال له قوم آخرون: إن كنتَ تدعو للمأمون ثم من بعده لأخيك فلا حاجـةَ لنا في دعوتك، وإن كنت تدعو إلى أخيك أو بعض أهل بيتك أو إلى نفسك أجبناك. فقال: أنا أدعو إلى المأمون ثمّ من

بعده لأخي ؛ فقعد عنه الغالية من الرّافضة وأكثر الشيعة. وكان يُظهر أن حميداً يأتيه فيعينه ويقوّيه، وأن الحسن يوجّه إليه قوماً من قبَله مدداً، فلم يأته منهم أحد، وتوجّه إليه سعيد وأبو البطّ من النيل إلى الكوفة ؛ فلما صاروا بديْر الأعور، أخذوا طريقاً يخرج بهم إلى عسكر هرثمة عند قرية شاهي.

فلمّا التأم إليه أصحابه، خرجوا يوم الاثنين لليلتين خَلتَا من جمادى الأولى. فلما صاروا قرب القنطرة خرج عليهم عليّ بن محمد بن جعفر العلويّ، ابن المبايع له بمكة، وأبو عبد الله أخو أبي السرايا ومعهم جماعة كثيرة، وجّههم مع علي بن محمد ابنُ عمه صاحب الكوفة العباسُ بن موسى بن جعفر، فقاتلوهم ساعة، فانهزم عليّ وأصحابه حتى دخلوا الكوفة، وجاء سعيد وأصحابه حتى نزلوا الحيرة ؛ فلمّا كان يوم الثلاثاء غدوْا فقاتلوهم مما يلي دار عيسى بن موسى، وأجابهم العباسيون ومواليهم، فخرجوا إليهم من الكوفة، فاقتتلوا يومهم إلى الليل، وشعارهم : « يا إبراهيم يا منصور، لا طاعة للمأمون »، وعليهم السّواد، وعلى العباس وأصحابه من أهل الكوفة الخُضْرة.

فلما كان يوم الأربعاء اقتتلوا في ذلك الموضع، فكان كلّ فريق منهم إذا ظهروا على شيء أحرقوه. فلما رأى ذلك رؤساء أهل الكوفة، أتوْا سعيداً وأصحابَه، فسألوه الأمان للعباس بن موسى بن جعفر وأصحابه ؛ على أن يخرج من الكوفة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم أتَوا العباس فأعلموه، وقالوا : إن عامّة مَن معك غوغاء، وقد ترى ما يلقى الناس من الحرْق والنهب والقتل ؛ فاخرج من بين أظهرنا، فلا حاجةَ لنا فيك. فقبل منهم، وخاف أن يُسلموه، وتحوّل من منزله الذي كان فيه بالكُناسة، ولم يعلم أصحابه بذلك، وانصرف سعيد وأصحابه إلى الحيرة، وشدّ أصحاب العباس بن موسى على مَنْ بقي من أصحاب سعيد وموالي عيسى بن موسى العباسيّ، فهزموهم حتى بلغوا بهم الخندق، ونهبُوا ربَض عيسى بن موسى، فأحرقوا الدّور، وقتلوا من ظهروا به. فبعث العباسيّون ومواليهم إلى سعيد يعلمونه بذلك، وأنّ العباس قد رجع عما كان طلب من الأمان. فركب سعيد وأبو البطّ وأصحابها حتى أتوا الكوفة عَتَمةً، فلم يظفروا بأحد منهم ينتهب إلّا قتلوه، ولم يظهروا على شيء مما كان في أيدي أصحاب العباس إلا أحرقوه ؛ حتى بلغوا الكُناسة، فمكثوا بذلك عامة الليل حتى خرج إليهم رؤساء أهل الكوفة، فأعلموهم أنّ هذا من عمل الغوغاء، وأن العباس لم يرجع عن شيء. فانصرفوا عنهم.

فلمّا كان غداة الخميس لخمس خلون من جمادى الأولى، جاء سعيد وأبو البطّ حتى دخلوا الكوفة، ونادى مناديهم : أمن الأبيض والأسود ؛ ولم يعرضوا لأحد من الخلق إلا بسبيل خير، وولّوْا على الكوفة الفضلَ بن محمد بن الصباح الكنديّ، من أهلها. فكتب إليهم إبراهيم بن المهديّ يأمرهم بالخروج إلى ناحية واسط، وكتب إلى سعيد أن يستعمل على الكوفة غير الكنديّ، لميله إلى أهل بلده ؛ فولّاها غسان بن أبي الفرج، ثم عزله بعد ما قتل أبا عبد الله أخا أبي السرايا، فولاها سعيدٌ ابنَ أخيه الهوْل ؛ فلم يزل والياً عليها حتى قدمها حميد بن عبد الحميد، وهرب الهوْل منها، وأمر إبراهيم بن المهديّ عيسى بن محمد بن أبي خالد أن يسيرَ إلى ناحية واسط على طريق النيل، وأمر ابن عائشة الهاشميّ ونعيم بن خازم أن يسيرا جميعاً، فخرجا مما يلي جُوخَى، وبذلك أمرهما، وذلك في جمادى الأولى. ولحق بهما سعيد وأبو البطّ والإفريقي حتى عسكروا بالصيّادة قرب واسط ؛ فاجتمعوا جميعاً في مكان واحد، وعليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد، فكانوا يركبون حتى يأتوا عسكر الحسن وأصحابه بواسط في كلّ يوم، فلا يخرج إليهم من أصحاب الحسن أحد، وهم متحصّنون بمدينة واسط.

ثم إن الحسن أمر أصحابه بالتهيُّؤ للخروج للقتال، فخرجوا إليهم يوم السبت لأربع بقينَ من رجب، فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى قريب الظهر. ثم وقعت الهزيمة على عيسى وأصحابه، فانهزموا حتى بلغوا طرنايا والنيل، وأخذ أصحاب الحسن جميع ما كان في عسكرهم من سلاح ودوابّ وغير ذلك.

وفي هذه السنة ظفر إبراهيم بن المهديّ بسهل بن سلامة المطوّعيّ فحبسه وعاقبه.

ذكر الخبر عن سبب ظفره به وحبسه إياه:

ذُكر أنّ سهل بن سلامة كان مقيماً ببغداد، يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فلم يزل كذلك حتى اجتمع إليه عامةُ أهل بغداد ونزلوا عنده؛ سوى مَنْ هو مقيم في منزله، وهواه ورأيه معه؛ وكان إبراهيم قد همّ بقتاله قبل الوَقعة، ثم أمسك عن ذلك، فلمّا كانت هذه الوقعة وصارت الهزيمة على أصحاب عيسى ومَنْ معه أقبل على سهل بن سلامة، فدسّ إليه وإلى أصحابه الذين بايعوه على العمل بالكتاب والسنة، وألّا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق؛ فكان كلُّ مَنْ أجابه إلى ذلك قد عمل على باب داره بُرجاً بجصّ وآجرّ، ونصب عليه السلاح والمصاحف؛ حتى بلغوا قرب باب الشأم؛ سوى مَنْ أجابه من أهل الكرْخ وسائر الناس؛ فلما رجع عيسى من الهزيمة إلى بغداد، أقبل هو وإخوته وجماعة أصحابه نحو سهل بن سلامة؛ لأنه كان يذكرّهم بأسواء أعمالهم وفعَالهم، ويقول: الفسّاق؛ لم يكن لهم عنده اسم غيره، فقاتلوه أياماً؛ وكان الذي تولى قتاله عيسى بن محمد بن أبي خالد؛ فلمّا صار إلى الدّروب التي قرب سهل أعطى أهلَ الدروب الألف الدرهم والألفين درهماً؛ على أن يتنحوْا له عن الدروب، فأجابوه إلى ذلك؛ فكان نصيبُ الرجل الدرهم والدرهمين ونحو ذلك؛ فلما كان يوم السبت لخمس بقين من شعبان تهيؤوا له من كلّ وجه، وخذَله أهل الدروب حتى وصلوا إلى مسجد طاهر بن الحسين وإلى منزله؛ وهو بالقرب من المسجد؛ فلما وصلوا إليه اختفى منهم، وألقى سلاحه، واختلط بالنظارة، ودخل بين النساء فدخلوا منزله.

فلمّا لم يظفروا به جعلوا عليه العيون؛ فلمّا كان الليل أخذوه في بعض الدّروب التي قرب منزله، فأتوا به إسحاق بن موسى الهادي ـ وهو وليّ العهد بعد عمّه إبراهيم بن المهديّ وهو بمدينة السلام ـ فكلّمه وحاجّه وجمع بينه وبين أصحابه، وقال له: حرّضت علينا الناس، وعبتَ أمرنا! فقال له: إنما كانت دعوتي عباسيّة؛ وإنما كنتُ أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة؛ وأنا على ما كنْت عليه أدعوكم إليه الساعة. فلم يقبلوا ذلك منه. ثم قالوا له: اخرج إلى الناس، فقل لهم: إنّ ما كنتُ أدعوكم إليه باطلٌ. فأخرِج إلى الناس وقال: قد علمتم ما كنتُ أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة، وأنا أدعوكم إليه الساعة. فلما قال لهم هذا وجؤوا عنقه، وضربوا وجهه؛ فلما صنعوا ذلك به قال: المغرور مَنْ غررتموه يا أصحاب الحربيّة؛ فأخِذ فأدخل إلى إسحاق، فقيّده، وذلك يوم الأحد. فلما كان ليلة الاثنين خرجوا به إلى إبراهيم بالمدائن؛ فلما دخل عليه كلمه بما كلم به إسحاق، فردّ عليه مثل ما ردّ على إسحاق. وقد كانوا أخذوا رجلاً من أصحابه يقال له محمد الرواعيّ، فضربه إبراهيم، ونتَف لحيته، وقيّده وحبسه؛ فلما أخذ سهل بن سلامة حبسوه أيضاً، وادّعوْا أنه كان دُفع إلى عيسى، وأنّ عيسى قتله؛ وإنما أشاعوا ذلك تخوّفاً من الناس أن يعلموا بمكانه فيخرجوه؛ فكان بين خروجه وبين أخذه وحبسه اثنا عشر شهراً.

وفي هذه السنة شخص المأمون من مَرْو يريد العراق.

ذكر الخبر عن شخوصه منها:

ذُكر أن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أخبْر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وأنّ أهل بيته والناس قد نقَموا عليه أشياء؛ وأنهم يقولون إنه مسحور مجنون، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمّه إبراهيم بن المهديّ بالخلافة. فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة؛ وإنما صيّروه أميراً يقوم بأمرهم، على ما أخبره به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذَبه وغشّه، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل، وأنّ الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك، فقال: ومَنْ يعلم هذا من أهل عسكري؟ فقال له: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له: أدخلهم عليّ حتى أسائلهم عمّا ذكرْت، فأدخلهم عليه؛ وهم يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وموسى وعليّ بن أبي سعيد - وهو ابن أخت الفضل - وخلف المصريّ، فسألهم عما أخبره، فأبوْا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل؛ ألا يعرض لهم، فضمن ذلك لهم، وكتب لكلّ رجل منهم كتاباً بخطه، ودفعه إليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن، وبيّنوا ذلك له، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّاده عليه في أشياء كثيرة، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأنّ هرثمة إنما جاءه لينصحه وليبين له ما يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأنّ الفضل دسّ إلى هرثمة مَنْ قتله، وأنه أراد نصحه؛ وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى، وافتتح ما افتتح، وقاد إليه الخلافة مزمومة، حتى إذا وطّأ الأمر أخرِج من ذلك كله، وصُيّر في زاوية من الأرض بالرّقة، قد حُظرت عليه الأموال حتى ضعف أمرُه فشغب عليه جنده، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك، ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترِىء به على الحسن بن سهل، وأنّ الدنيا قد تفتّقت من أقطارها، وأن طاهر بن الحسين قد تنُوسيَ في هذه السنين منذ قتل محمد في الرّقة، لا يُستعان به في شيء من هذه الحروب؛ وقد استعين بمن هو دونه أضعافاً، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد في بني هاشم والموالي والقواد، والجندُ لو رأوا عزّتك سكنوا إلى ذلك وبخَعُوا بالطاعة.

فلما تحقق ذلك عند المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد؛ فلمّا أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم، فتعنّتهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضاً، ونتف لحى بعض؛ فعاوده علـيّ بن موسى في أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم؛ فأعلمه أنه يداري ما هو فيه. ثم ارتحل من مَرْو فلما أتى سرَخْس شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام، فضربوه بالسيوف حتى مات؛ وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة اثنتين ومائتين. فأخِذوا. وكان الذين قتلوا الفضل من حشم المأمون وهم أربعة نفر: أحدهم غالب المسعوديّ الأسود، وقسطنطين الروميّ، وفرج الديلميّ، وموفّق الصّقلبيّ، وقتلوه وله ستون سنة؛ وهربوا. فبعث المأمون في طلبهم، وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن الهيثم بن بُـزُرْجمهر الدينوريّ، فقالوا للمأمون: أنت أمرتَنا بقتله، فأمر بهم فضربت أعناقهم. وقد قيل: إن الذين قتلوا الفضل لمّا أخِذوا ساءلهم المأمون؛ فمنهم من قال: إن عليّ بن أبي سعيد، ابن أخت الفضل دسّهم، ومنهم من أنكر ذلك. وأمر بهم فقتلوا. ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران وعليّ وموسى وخلف فساءلهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك؛ فلم يقبل ذلك منهم وأمر بهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل إلى واسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيّره مكانه. ووصل الكتـاب بذلـك إلى الحسن في شهر

رمضان، فلم يزل الحسن وأصحابه حتى أدركت الغلّة وجُبيَ بعض الخراج، ورحَل المأمون من سَرَخْس نحو العراق يوم الفطْر، وكان إبراهيم بن المهديّ بالمدائن وعيسى وأبو البطّ وسعيد بالنيل وطرنايا يراوحون القتال ويغادونه؛ وقد كان المطلب بن عبد الله بن مالك بن عبد الله قدِم من المدائن، فاعتلّ بأنه مريض، وجعل يدعو في السرّ إلى المأمون؛ على أن المنصور بن المهديّ خليفة المأمون، ويخلعون إبراهيم، فأجابه إلى ذلك منصور وخزيمة بن خازم وقوّاد كثير من أهل الجانب الشرقيّ، وكتب المطلب إلى حُميد وعليّ بن هشام أن يتقدّما فينزل حُميد نهر صرصر وعليّ النهروان؛ فلما تحقق عند إبراهيم الخبر خرج من المدائن إلى بغداد، فنزل زَنْدَوَرْد يوم السبت لأربع عشرة خلت من صفر، وبعث إلى المطلب ومنصور وخزيمة، فلما أتاهم رسولُه اعتلّوا عليه؛ فلما رأى ذلك بعث إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد وإخوته؛ فأما منصور وخزيمة فأعطوْا بأيديهما، وأما المطلب فإن مواليه وأصحابه قاتلوا عن منزله حتى كثر الناس عليهم، وأمر إبراهيم منادياً فنادى: من أراد النهب فليأت دار المطّلب، فلما كان وقت الظهر وصلوا إلى داره، فانتهبوا ما وجدوا فيها، وانتهبوا دورَ أهل بيته، وطلبوه فلم يظفروا به، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر.

فلما بلغ حميداً وعليّ بن هشام الخبر بعث حميد قائداً فأخذ المدائن، وقَطَع الجسر، ونزل بها، وبعث عليّ بن هشام قائداً فنزل المدائن، وأتى نهرَديالي فقطَعه، وأقاموا بالمدائن، وندم إبراهيم حيث صنع بالمطّلب ما صنع، ثم لم يظفر به.

وفي هذه السنة تزوّج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل.

وفيها زوّج المأمون عليّ بن موسى الرضِيّ ابنته أم حبيب، وزوّج محمد بن عليّ بن موسى ابنته أم الفضل.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد، فدعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد.

وكان الحسن بن سهل كتب إلى عيسى بن يزيد الجُلُوديّ، وكان بالبصرة فوافى مكة في أصحابه، فشهد الموسم، ثم انصرف ومضى إبراهيم بن موسى إلى اليمن؛ وكان قد غلب عليها حمدويه بن عليّ بن عيسى بن ماهان.

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ذكر أن مما كان فيها موت عليّ بن موسى بن جعفر.

ذكر الخبر عن سبب وفاته:

ذُكر أنّ المأمون شخص من سَرَخْس حتى صار إلى طُوس، فلما صار بها أقام بها عند قبر أبيه أياماً. ثم إنّ عليّ بن موسى أكل عنباً فأكثر منه، فمات فجأة؛ وذلك في آخر صفَر؛ فأمر به المأمون فدفن عند قبر الرّشيد، وكتب في شهر ربيع الأول إلى الحسن بن سهل يعلمه أن عليّ بن موسى بن جعفر مات، ويعلمه ما دخل عليه من الغمّ والمصيبة بموته؛ وكتب إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موتَ عليّ بن موسى، وأنهم إنما نقَموا بيعته له من بعده؛ ويسألهم الدخول في طاعته. فكتبوا إليه وإلى الحسن جواب الكتاب بأغلظِ ما يُكتَب به إلى أحد. وكان الذي صلّى على عليّ بن موسى المأمون.

ورحل المأمون في هذه السنة من طوس يريد بغداد، فلما صار إلى الرّيّ أسقط من وظيفتها ألفي ألف درهم.

وفي هذه السنة غلبت السوداء على الحسن بن سهل، فذُكر سبب ذلك أنه كان مرض مرضاً شديداً، فهاج به من مرضه تغيّر عقله، حتى شُدّ في الحديد وحبِس في بيت. وكتب بذلك قوّاد الحسن إلى المأمون، فأتاهم جواب الكتاب أن يكون على عسكره دينار بن عبدالله، ويعلمهم أنه قادم على أثر كتابه.

وفي هذه السنة ضرب إبراهيم بن المهديّ عيسى بن محمد بن أبي خالد وحبسه.

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

ذُكر أن عيسى بن محمد بن أبي خالد كان يكاتب حُميداً والحسن؛ وكان الرّسول بينهم محمد بن محمد المعبديّ الهاشميّ، وكان يُظهر لإبراهيم الطاعة والنصيحة، ولم يكن يقاتل حُميداً ولا يعرض له في شيء من عمله؛ وكان كلّما قال إبراهيم: تهيّأ للخروج لقتال حُميد، يعتلّ عليه بأنّ الجند يريدون أرزاقهم، ومرة يقول: حتى تُدرِك الغلّة؛ فما زال بذلك حتى إذا توثق مما يريد مما بينه وبين الحسن وحُميد فارقهم، على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهديّ يوم الجمعة لانسلاخ شوّال. وبلغ الخبر إبراهيم؛ فلما كان يوم الخميس، جاء عيسى إلى باب الجسر، فقال للناس: إني قد سالمت حُميداً، وضمنت له ألاّ أدخل عمله، وضمن لي ألاّ يدخل عملي. ثم أمر أن يُحفَر خندق بباب الجسر وباب الشأم، وبلغ إبراهيمَ ما قال وما صنع، وقد كان عيسى سأل إبراهيم أن يصلِّيَ

الجمعة بالمدينة، فأجابه إلى ذلك، فلمّا تكلم عيسى بما تكلم به، وبلغ إبراهيمَ الخبر وأنه يريد أخذه حذر.

وذُكر أنّ هارون أخا عيسى أخبر إبراهيم بما يريد أن يصنع به عيسى؛ فلمّا أخبره، بعث إليه أن يأتيَه حتى يناظره في بعض ما يريد، فاعتلّ عليه عيسى، فلم يزل إبراهيم يعيد إليه الرّسل حتى أتاه إلى قصره بالرّصافة، فلما دخل عليه حُجب الناس، وخلا إبراهيم وعيسى، وجعل يعاتبه، وأخذ عيسى يعتذر إليه مما يعتبه به، وينكر بعض ما يقول؛ فلما قرّره بأشياء أمر به فضرب. ثم إنه حبسه وأخذ عدّة من قوّاده فحبسهم، وبعث إلى منزله، فأخذ أم ولده وصبياناً له صغاراً؛ فحبسهم؛ وذلك ليلة الخميس لليلة بقيت من شوال. وطلب خليفة له يقال له العباس فاختفى. فلما بلغ حبسُ عيسى أهلَ بيته وأصحابه، مشى بعضهُم إلى بعض، وحرّض أهلَ بيته وإخوته الناس على إبراهيم واجتمعوا؛ وكان رأسَهُم عباس خليفة عيسى،فشدُّوا على عامل إبراهيم على الجسر فطردوه، وعبَر إلى إبراهيم فأخبره الخبر، وأمر بقطع الجسر فطردوا كلَّ عامل كان لإبراهيم في الكرخ وغيره، وظهر الفسّاق والشطار، فقعدوا في المسالح. وكتب عباس إلى حُميد يسأله أن يقدم إليهم حتى يسلموا إليه بغداد؛ فلمّا كان يوم الجمعة صلّوا في مسجد المدينة أربع ركعات، صلّى بهم المؤذن بغير خطبة.

وفي هذه السنة خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهديّ، ودعوا للمأمون بالخلافة.

ذكر الخبر عن سبب ذلك:

قد ذكرنا قبل ما كان من إبراهيم وعيسى بن محمد بن أبي خالد وحبْس إبراهيم إياه، واجتماع عباس خليفة عيسى وإخوة عيسى على إبراهيم، وكتابهم إلى حُميد يسألونه المصيرَ إليهم ليُسلّموا بغداد إليه؛ فذكِر أنّ حُميداً لما أتاه كتابُهم، وفيه شرْط منهم عليه أن يعطيَ جند أهل بغداد؛ كلّ رجل منهم خمسين درهماً، فأجابهم إلى ذلك، وجاء حتى نزل صَرْصر بطريق الكوفة يوم الأحد، وخرج إليه عباس وقوّاد أهل بغداد، فلقُوه غَداة الاثنين، فوعدهم ومنَّاهم، وقبلوا ذلك منه،فوعدهم أن يضع لهم العطاء يوم السبت في الياسريّة، على أن يصلّوا الجمعة فيدعو للمأمون، ويخلعوا إبراهيم، فأجابوه إلى ذلك. فلما بلغ إبراهيمَ الخبرُ أخرج عيسى وإخوته من الحبس، وسأله أن يرجع إلى منزله، ويكفيه أمر هذا الجانب، فأبى ذلك عليه.

فلما كان يوم الجمعة بعث عباس إلى محمد بن أبي رجاء الفقيه، فصلّى بالناس الجمعة، ودعا للمأمون، فلما كان يوم السبت جاء حُميد إلى الياسريّة فعرض حُميد جند أهل بغداد، وأعطاهم الخمسين التي وعدهم، فسألوه أن ينقصهم عشرة عشرة، فيعطيَهم أربعين أربعين درهماً لكل رجل منهم، لما كانوا تشاءموا به من عليّ بن هشام حين أعطاهم الخمسين. فغَدر بهم، وقطع العطاء عنهم، فقال لهم حميد: لا بل أزيدكم وأعطيكم ستين درهماً لكل رجل. فلما بلغ ذلك إبراهيم دعا عيسى فسأله أن يقاتل حُميداً، فأجابه إلى ذلك، فخلَّى سبيله، وأخذ منه كُفلاء، فكلم عيسى الجند أن يعطيَهم مثل ما أعطى حميد؛ فأبوا ذلك عليه؛ فلما كان يوم الاثنين عبر إليهم عيسى وإخوته وقوّاد أهل الجانب الشرقيّ، فعرضوا على أهل الجانب الغربيّ أن يزيدُوهم على ما أعطى حُميد، فشتموا عيسى وأصحابه، وقالوا: لا نريد إبراهيم. فخرج عيسى وأصحابه حتى دخلوا المدينة، وأغلقوا الأبواب، وصعدوا السور، وقالتوا الناس ساعة. فلما كثرعليهم الناس انصرفوا راجعين؛ حتى أتوا باب خُراسان، فركبوا في السفن، ورجع عيسى كأنه يريد أن يقاتلهم، ثم احتال حتى صار في أيديهم شبه الأسير، فأخذه بعض قواده فأتى به منزله، ورجع الباقون إلى إبراهيم فأخبروه الخبر، فاغتمّ لذلك غمًّا شديداً؛

وقد كان المطلب بن عبدالله بن مالك اختفى من إبراهيم، فلما قدم حُميد أراد العبور إليه فأخذه المعبِّر، فذهب إلى إبراهيم فحبسه عنده ثلاثة أيام أو أربعة، ثم إنه خلّى عنه ليلة الاثنين لليلة خلت من ذي الحجّة.

وفي هذه السنة اختفى إبراهيم بن المهديّ، وتغيّب بعد حربٍ بينه وبين حميد بن عبد الحميد، وبعد أن أطلق سعد بن سلامة من حبسه.

ذكر الخبر عن اختفائه والسبب في ذلك:

ذُكر أنّ سهل بن سلامة كان الناس يذكرون أنه مقتول، وهو عند إبراهيم محبوس؛ فلمّا صار حُميد إلى بغداد ودخلها أخرجه إبراهيم. وكان يدعو في مسجد الرُّصافة كما كان يدعو، فإذا كان الليل ردّه إلى حبسه؛ فمكث بذلك أياماً، فأتاه أصحابه ليكونوا معه، فقال لهم: الزموا بيوتَكم، فإني أرْزَأ هذا - يعني إبراهيم - فلما كان ليلة الاثنين لليلة خلت من ذي الحجّة خلّى سبيله، فذهب فاختفى، فلما رأى أصحاب إبراهيم وقوّاده أن حُميداً قد نزل في أرجاء عبدالله بن مالك، تحوّل عامّتُهم إليه، وأخذوا له المدائن؛ فلمّا رأى ذلك إبراهيم، أخرج جميع مَنْ عنده حتى يقاتلوا، فالتقوْا على جسر نهر ديَالى، فاقتتلوا، فهزمهم حُميد، فقطعوا الجسر، فتبعهم أصحابُه حتى أدخلوهم بيوت بغداد، وذلك يوم الخميس لانسلاخ ذي القعدة.

فلما كان يوم الأضحى أمر إبراهيم القاضيَ أن يصليَ بالناس في عيساباذ، فصلّى بهم فانصرف الناس، واختفى الفضل بن الربيع، ثم تحوّل إلى حُميد، ثم تحوّل عليّ بن ريطة إلى عسكر حُميد، وجعل الهاشميون والقوّاد يلحقون بحُميد واحداً بعد واحد؛ فلما رأى ذلك إبراهيم أسقِط في يديه، فشقّ عليه. وكان المطّلب يكاتب حميداً على أن يأخذ له الجانب الشرقيّ، وكان سعيد بن الساجور وأبو البطّ وعبدويه وعدّة معهم من القواد يكاتبون عليّ بن هشام، على أن يأخذوا له إبراهيم؛ فلمّا علم إبراهيم بأمرهم وما اجتمع عليه كلّ قوم من أصحابه، وأنهم قد أحدقوا به، جعل يُداريهم؛ فلما جنّه الليل اختفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين، وبعث المطلب إلى حُميد يعلمه أنه قد أحدق بدار إبراهيم هو وأصحابه؛ فإن كان يريده فليأته.

وكتب ابن الساجور وأصحابه إلى عليّ بن هشام، فركب حُميد من ساعته؛ وكان نازلاً في أرجاء عبدالله، فأتى باب الجسر، وجاء عليّ بن هشام حتى نزل نهر بَيْن، وتقدّم إلى مسجد كَوْثر، وخرج إليه ابن الساجور وأصحابه، وجاء المطلب إلى حُميد، فلقوه بباب الجسر، فقرّبهم ووعَدهم ونبّأهم أن يُعلم المأمون ما صنعوا، فأقبلوا إلى دار إبراهيم، وطلبوه فيها فلم يجدوه، فلم يزل إبراهيم متوارياً حتى قدم المأمون وبعد ما قدم؛ حتى كان من أمره ما كان.

وقد كان سهل بن سلامة حيث اختفى وتحوّل إلى منزله وظهر، وبعث إليه حُميد، فقرّبه وأدناه، وحمله على بغل، ورده إلى أهله؛ فلم يزل مقيماً حتى قدم المأمون، فأتاه فأجازه ووصله، وأمره أن يجلس في منزله.

وفي هذه السنة انكسفت الشمس يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي الحجة حتى ذهب ضوءها، وكان غاب أكثر من ثلثيها، وكان انكسافها ارتفاع النهار، فلم يزل كذلك حتى قرب الظهر ثم انجلت.

فكانت أيام إبراهيم بن المهدي كلها سنة وأَحَدَ عشر شهراً واثني عشر يوماً.

وغلب عليّ بن هشام على شرقيّ بغداد وحميد بن عبد الحميد على غربيها، وصار المأمون إلى هَمذان في آخر ذي الحجة.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبدالله بن سليمان بن عليّ.

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فممّا كان فيها من ذلك قدوم المأمون العراق، وانقطاع مادّة الفتن ببغداد.

ذكر الخبر عن مقْدمه العراق وما كان فيه بها عند مقدمه:

ذُكر عن المأمون أنه لمّا قدِم جُرجان أقام بها شهراً، ثم خرج منها، فصار إلى الريّ في ذي الحجة، فأقام بها أيّاماً، ثم خرج منها، فجعل يسير المنازل، ويقيمُ اليوم واليومين حتى صار إلى النهروان؛ وذلك يوم السبت، فأقام فيه ثمانية أيام، وخرجَ إليه أهلُ بيته والقوّاد ووجوه الناس، فسلّموا عليه؛ وقد كان كتب إلى طاهر بن الحسين من الطريق وهو بالرّقة، أن يوافيَه إلى النّهروان، فوافاه بها، فلمّا كان السبت الآخر دخل بغداد ارتفاعَ النهار، لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين، ولباسه ولباس أصحابه؛ أقبيتُهم وقلانسهم وطرّاداتهم وأعلامهم كلُّها الخضرة. فلما قدم نزل الرّصافة، وقدم معه طاهر، فأمره بنزول الخيزرانيّة مع أصحابه، ثم تحوّل فنزل قصره على شطّ دِجْلة، وأمر حميد بن عبد الحميد وعليّ بن هشام وكلّ قائد كان في عسكره أن يقيم في عسكره؛ فكانوا يختلفون إلى دار المأمون في كلّ يوم؛ ولم يكن يدخل عليه أحد إلاّ في الثياب الخُضْر، ولبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون، فكانوا يخرقون كلّ شيء يرونه من السواد على إنسان إلا القلنسوة؛ فإنه كان يلبسها الواحد بعد الواحد على خوف ووجَل؛ فأما قَباء أو علم فلم يكن أحد يجترىء أن يلبس شيئاً من ذلك ولا يحمله. فمكثوا بذلك ثمانية أيام؛ فتكلم في ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصةً، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتهم، ولبست الخضرة. وكتب إليه في ذلك قوّاد أهل خراسان.

وقيل إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه، فكان أوّل حاجة سأله أن يطرح لباس الخضرة، ويرجع إلى لبس السواد وزيّ دولة الآباء؛ فلمّا رأى طاعةَ الناس له في لبس الخُضرة وكراهتَهم لها، وجاء السّبت قعد لهم وعليه ثياب خُضْر، فلما اجتمعوا عنده دعا بسَواد فلبسه، ودعا بخلْعة سواد فألبسها طاهراً، ثم دعا بعدّة من قوّاده، فألبسهم أقبية وقلانس سوداً؛ فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد، طرح سائر القواد والجند لبْس الخضرة، ولبِسوا السّواد، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر.

وقد قيل: إن المأمون لبس الثياب الخضر بعد دخوله بغداد سبعة وعشرين، ثم مزّقت.

وقيل: إنه لم يزل مقيماً ببغداد في الرّصافة حتى بنى منازل على شطّ دجلة عند قصره الأول؛ وفي بستان موسى.

وذكر عن إبراهيم بن العباس الكاتب، عن عمرو بن مسعدة، أن أحمد بن أبي خالد الأحول قال: لمّا قدمنا من خُراسان مع المأمون وصرْنا في عقبة حُلوان ـ وكنت زميله ـ قال لي: يا أحمد، إني أجد رائحة العراق، فأجبتُ بغير جوابه، وقلت: ما أخلقه؟ قال: ليس هذا جوابي، ولكني أحسبك سهوت أو كنت مفكراً، قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فيم فكرت؟ قال: قلت: يا أميرَ المؤمنين، فكرت في هجومنا على أهل بغداد وليس معنا إلا خمسون ألف درهم، مع فتنة غلبت على قلوب الناس، فاستعذبوها، فكيف يكون حالنا إن هاج هائج، أو تحرّك متحرّك! قال: فأطرق مليًّا، ثم قال: صدقت يا أحمد، ما أحسن ما فكرت؛ ولكني أخبرك؛ الناسُ على طبقات ثلاث في هذه المدينة: ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم؛ فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفوَنا وإمساكَنا، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلّا بنا، ومَنْ كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيتُه يسعه. فوالله ما كان إلا كما قال.

وأمر المأمون في هذه السنة بمقاسمة أهل السواد على الخُمسين؛ وكانوا يقاسمون على النصف، واتخذ القفيز الملجم ـ وهو عشرة مكاكيك بالمكُّوك الهارونيّ ـ كيلا مرسَلا.

وفي هذه السنة واقع يحيى بن معاذ بابك، فلم يظفر واحد منهما بصاحبه.

وولّي المأمون صالح بن الرشيد البصرة، وولّي عبيدالله بن الحسن بن عبيدالله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب الحرَمين.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيدالله بن الحسن.

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

ذكر الخبر عما كان في هذه السنة من الأحداث

فمن ذلك تولية المأمون فيها طاهر بن الحسين من مدينة السلام إلى أقصَى عمل المشرق؛ وقد كان قبل ذلك ولّاه الجزيرة والشُّرَط وجانبي بغداد ومعاون السواد، وقعد للناس.

ذكر الخبر عن سبب توليته:

وكان سبب توليته إياه خُراسان والمشرق، ما ذُكر عن حماد بن الحسن، عن بشر بن غياث المريسيّ، قال: حضرتُ عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد بن أبي العباس وعليّ بن الهيثم، فتناظروا في التشيّع، فنصر محمد بن أبي العباس الإمامة، ونصر عليّ بن الهيثم الزيدية، وجرى الكلام بينهما؛ إلى أن قال محمد لعليّ: يا نَبطيّ، ما أنت والكلام! قال: فقال المأمون ـ وكان متّكئاً فجلس: الشتم عيّ، والبذاء لؤم؛ إنا قد أبحنا الكلام، وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل ذلك وقَفناه، ومن جهل الأمرين حكَمنا فيه بما يجب؛ فاجعلا بينكما أصلاً، فإنّ الكلام فروع؛ فإذا افترعتم شيئاً رجعتم إلى الأصول. قال: فإنا نقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وذكرا الفرائض والشرائع في الإسلام، وتناظرا بعد ذلك. فأعاد محمد لعليّ بمثل المقالة الأولى، فقال له عليّ: والله لولا جلالةُ مجلسه وما وهب الله من رأفته، ولولا ما نهى عنه لأعرقتُ جبينك؛ وبحسبك من جهلك غُسْلك المنبر بالمدينة.

قال: فجلس المأمون ـ وكان متّكئاً ـ فقال: وما غُسْلك المنبر؟ ألتقصير مني في أمرك أو لتقصير المنصور كان في أمر أبيك؟ لولا أن الخليفة إذا وهب شيئاً استحيا أن يرجع فيه لكان أقرَب شيء بيني وبينك إلى الأرض رأسك، قمْ وإياك ما عدت.

قال: فخرج محمد بن أبي العباس، ومضى إلى طاهر بن الحسين ـ وهو زوج أخته ـ فقال له: كان من قصّتي كيت وكيت؛ وكان يحجب المأمون على النبيذ فتْح الخادم، وياسر يتولى الخِلَع، وحسين يسقي، وأبو مريم غلام سعيد الجوهريّ يختلف في الحوائج. فركب طاهر إلى الدار؛ فدخل فتح، فقال: طاهر بالباب؛ فقال: إنه ليس من أوقاته، ائذن له: فدخل طاهر فسلّم عليه، فردّ عليه السلام، وقال: اسقوه رِطلا، فأخذه في يده اليمنى، وقال له: اجلس، فخرج فشربه ثم عاد، وقد شرب المأمون رطلاً آخر، فقال: اسقوه ثانياً، ففعل كفعله الأول، ثم دخل، فقال له المأمون: اجلس، فقال يا أميرَ المؤمنين؛ ليس لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدي سيّده، فقال له المأمون: ذلك في مجلس العامة، فأما مجلس الخاصة فطلقٌ، قال: وبكى المأمون، وتغرغرت عيناه، فقال له طاهر: يا أميرَ المؤمنين؛ لِمَ تبكي لا أبكى الله عينيك! فوالله لقد دانتْ لك البلاد،

وأذعن لك العباد، وصرتَ إلى المحبّة في كلّ أمرك. فقال: أبكي لأمر ذِكرُه ذلّ، وستره حزن، ولن يَخْلُوَ أحد من شَجَن؛ فتكلّم بحاجة إن كانت لك، قال: يا أمير المؤمنين، محمد بن أبي العباس أخطأ فأقِلْه عثرتَه، وارض عنه. قال: قد رضيت عنه، وأمرتُ بصلته، ورَددتُ عليه مرتبته؛ ولولا أنّه ليس من أهل الأنس لأحضرتُه.

قال: وانصرف طاهر، فأعلم ابن أبي العباس ذلك، ودعا بهارون بن جبغويه؛ فقال له: إن للكتّاب عشيرة، وإن أهل خُراسان يتعصّب بعضهم لبعض؛ فخذ معك ثلاثمائة ألف درهم، فأعطِ الحسين الخادم مائتي ألف، وأعط كاتبه محمد بن هارون مائة ألف، وسلْه أن يسأل المأمون: لم بكى؟ قال: ففعل ذلك، قال: فلما تغدّى قال: يا حسين اسقني، قال: لا والله لأسقينّك أو تقول لي: لِمَ بكيت حين دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين، وكيف عُنِيتَ بهذا حتى سألتَني عنه! قال: لغمّي بذاك، قال: يا حسين هو أمرٌ إن خرج من رأسك قتلتُك، قال: يا سيّدي، ومتى أخرجتُ لك سرّاً! قال: إني ذكرت محمداً أخي، وما ناله من الذلة، فخنقتني العَبْرة فاسترحت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهراً منّي ما يكره. قال: فأخبر حسين طاهراً بذلك؛ فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد، فقال له: إن الثناء منّي ليس برخيص، وإنّ المعروف عندي ليس بضائع، فغيِّبْني عن عينه، فقال له: سأفعل، فبكِّرْ إليّ غداً. قال: فركب ابنُ أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال: ما نمتُ البارحة، فقال: لِمَ ويحك! فقال: لأنك ولّيتَ غَسَّان خراسان، وهو ومَنْ معه أَكَلةُ رأس، فأخاف أن يخرج عليه خارجة من الترك فتصطلمه، فقال له: لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه، قال: فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين، قال: ويلك يا أحمد! هو والله خالع، قال: أنا الضامن له، قال: فأنفذْه، قال: فدعا بطاهر من ساعته، فعقد له؛ فشخص من ساعته، فنزل في بستان خليل بن هاشم، فحمل إليه في كلّ يوم ما أقام فيه مائة ألف. فأقام شهراً، فحمل إليه عشرة آلاف ألف، التي تحمَل إلى صاحب خراسان.

قال أبو حسان الزياديّ: وكان قد عَقد له على خُراسان والجبال من حلوان إلى خُراسان، وكان شخوصُه من بغداد يوم الجمعة لليلة بقيت من ذي القعدة سنة خمس ومائتين، وقد كان عسكر قبل ذلك بشهرين، فلم يزل مقيماً في عسكره. قال أبو حسان: وكان سبب ولايته ـ فيما اجتمع الناس عليه ـ أن عبدَ الرحمن المُطّوّعيّ جمع جموعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحروريّة بغير أمر والى خراسان، فتخوّفوا أن يكون ذلك لأصل عمله عليه. وكان غسان بن عبّاد يتولى خراسان من قِبَل الحسن بن سهل، وهو ابن عم الفضل بن سهل.

وذكر عن عليّ بن هارون أن طاهر بن الحسين قبل خروجه إلى خُراسان وولايته لها، ندبه الحسن بن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شبث، فقال: حاربتُ خليفة، وسقتُ الخلافة إلى خليفة، وأومر بمثل هذا! وإنما كان ينبغي أن توجّه لهذا قائداً من قوّادي؛ فكان سبب المصارمة بين الحسن وطاهر.

قال: وخرج طاهر إلى خراسان لما تولّاها، وهو لا يكلم الحسن بن سهل، فقيل له في ذلك، فقال: ما كنت لأحلّ عقدة عقدها لي في مصارمته.

وفي هذه السنة ورد عبد الله بن طاهر بغداد منصرفاً من الرّقة، وكان أبوه طاهر استخلفه عليها، وأمره بقتال نصر بن شبَث، وقدم يحيى بن معاذ فولّاه المأمون الجزيرة.

وفيها ولّى المأمون عيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينيَةَ وأذربيجان ومحاربة بابك.

وفيها مات السريّ بن الحَكَم بمصر، وكان واليها.

وفيها مات داود بن يزيد عامل السند، فولّاها المأمون بشر بن داود على أن يحمَل إليه في كلّ سنة ألف ألف درهم.

وفيها ولّى المأمون عيسى بن يزيد الجُلوديّ محاربة الزّطّ.

وفيها شخص طاهر بن الحسين إلى خُراسان في ذي القعدة، وأقام شهرين حتى بلغه خروج عبد الرحمن النيسابوريّ المطوّعِيّ بنيسابور، فشخص ووافى التّغُزْغُزيّة أشْرُوسَنَةَ.

وفيها أخذ فرج الرُّخّجيّ عبد الرحمن بن عمار النيسابوريّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن، وهو والي الحَرمين.

ثم دخلت سنة ست ومائتين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك تولية المأمون داود بن ماسجور محاربة الزّطّ وأعمال البصرة وكُور دجلة واليمامة والبحرين.

وفيها كان المدّ الذي غرق منه السواد وكَسْكر وقطيعة أم جعفر وقطيعة العباس وذهب بأكثرها.

وفيها نَكَبَ بابك بعيسى بن محمد بن أبي خالد.

وفيها ولّى المأمون عبد الله بن طاهر الرّقة لحرب نصر بن شَبَث ومُضَر.

ذكر الخبر عن سبب توليته إياه:

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ أن يحيى بن معاذ كان المأمون ولّاه الجزيرَة؛ فمات في هذه السنة، واستخلف ابنه أحمد على عمله، فذكر عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق، أنّ المأمونَ دعا عبد الله بن طاهر في شهر رمضان، فقال بعض: كان ذلك في سنة خمس ومائتين، وقال بعض: في سنة ست. وقال بعض: في سنة سبع. فلما دخل عليه، قال: يا عبد الله أستخير الله منذ شهر، وأرجو أن يخير الله لي، ورأيت الرّجل يصف ابنه ليطرَيه لرأيه فيه، وليرفعه، ورأيتُك فوق ما قال أبوك فيك، وقد مات يحيى بن معاذ، واستخلف ابنه أحمد بن يحيى، وليس بشيء، وقد رأيت توليتَك مُضر ومحاربة نصر بن شبَث، فقال: السمع والطاعة يا أميرَ المؤمنين، وأرجو أن يجعل الله الخيرة لأمير المؤمنين وللمسلمين.

قال: فعقَد له، ثم أمر أن تقطع حبال القصّارين عن طريقه، وتُنحّى عن الطرقات المظالّ، كيلا يكون في طريقه ما يردّ لواءه، ثم عقد له لواء مكتوباً عليه بصُفرة ما يكتب على الألوية؛ وزاد فيه المأمون: «يا منصور»، وخرج ومعه الناس فصار إلى منزله؛ ولما كان من غدٍ ركب إليه الناس، وركب إليه الفضل بن الربيع؛ فأقام عنده إلى الليل؛ فقام الفضل، فقال عبد الله: يا أبا العباس، قد تفضّلت وأحسنت، وقد تقدّم أبي وأخوك إليّ ألاّ أقطَع أمراً دونَك، وأحتاج أن أستطلع رأيك، وأستضيء بمشورتك؛ فإن رأيتَ أن تقيم عندي إلى أن نُفطر فافعل.

فقال له: إن لي حالات ليس يمكنني معها الإفطار ها هنا. قال: إنْ كنت تكره طعام أهل خُراسان فابعث إلى مطبخك يأتون بطعامك، فقال له: إن لي ركعات بين العشاء والعَتَمة، قال: ففي حفظ الله؛ وخرج معه إلى صحن داره يشاوره في خاصّ أموره.

وقيل: كان خروج عبد الله الصحيح إلى مُضر؛ لقتال نصر بن شبث بعد خروج أبيه إلى خراسان، بستّة أشهر.

وكان طاهر حينَ ولى ابنُه عبد الله ديار ربيعة، كتب إليه كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عليك بتقوى الله وحدَه لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلةَ سخطه وحفظ رعيّتك، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه؛ وموقوف عليه، ومسؤول عنه؛ والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله، وينجيّك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه؛ فإنّ الله قد أحسن إليك وأوجبَ عليك الرّأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم، والقيام بحقه وحدوده فيهم، والذّب عنهم، والدّفع عن حريمهم وبَيْضتهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الرّاحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك، وموقِفك عليه، ومُسائلك عنه، ومُثيبك عليه بما قدّمتَ وأخرّتَ؛ ففرِّغ لذلك فكرَك وعقلَك وبصرَك ورؤيتَك، ولا يذْهلك عنه ذاهل، ولا يَشْغَلك عنه شاغل؛ فإنه رأس أمرِك، وملاك شأنك، وأوَّل ما يوفّقك الله به لرشدك.

وليكن أوّل ما تلزِم به نفسَك، وتَنسب إليه فعالك؛ المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قبَلك في مواقيتها على سننها؛ في إسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله فيها. وترتّل في قراءتك، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهدّك، ولتصْدقُ فيها لربك نيَّتُك. واحضض عليها جماعةَ مَنْ معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها تَأمُرُ بالمَعْروفِ وَتَنْهَى عَن المُنكَرِ. ثم أتْبعْ ذلك الأخذ بسُنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده؛ وإذا ورد عليك أمر فاستعنْ عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه؛ من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار على النبي ﷺ؛ ثم قم فيه بما يحقّ لله عليك، ولا تَمِلْ عن العدل فيما أحببتَ أو كرهتَ لقريب من الناس أو بعيد. وآثر الفقه وأهله، والدِّين وحَمَلته، وكتاب الله والعاملين به؛ فإن أفضل ما تَزيَّنَ به المرء الفقهُ في دين الله، والطلب له، والحثّ عليه والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله؛ فإنه الدليل على الخير كله، والقائد له، والآمر به، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها. وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجلّ، وإجلالاً له، ودركاً للدرجات العلا في المعاد؛ مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك، والهيبة لسلطانك، والأنسَة بك والثقة بعدلك.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها؛ فليس شيء أبينَ نفعاً، ولا أحضر أمناً، ولا أجمعَ فضلاً من القصد، والقصدُ داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التّوفيق، والتوفيق منقاد إلى السّعادة. وقوامُ الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فآثره في دنياك كلها، ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة، ومعالم الرّشد فلا غايةَ للاستكثار من البرّ والسعي له؛ إذا كان يُطلَب به وجه الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه في دار كرامته.

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العزّ، ويحصِّن من الذنوب، وإنك لن تحوط نفسك ومَنْ يليك، ولا تستصلح أمورَك بأفضلَ منه، فأته واهتدِبه، تتمّ أمورك، وتزْدَدْ مقدرتُك، وتصلح خاصتّك وعامتك.

وأحسن الظنّ بالله عَزّ وجلّ تستقمْ لك رعيّتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلّها تستدم به النعمة

عليك؛ ولا تُنهض أحداً من الناس فيما تولّيه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة؛ فإنّ إيقاع التّهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم. واجعل من شأنك حسن الظنّ بأصحابك واطرد عنهم سوء الظنّ بهم، وارفضه عنهم يُعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم. ولا يجدنّ عدوّ الله الشيطان في أمرك مغمَزاً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وَهنك فيدخل عليك من الغمّ في سوء الظنّ ما ينغصك لذاذة عيشِك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوةً وراحة، وتكفي به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبّتك والاستقامة في الأمور كلها لك. ولا يمنعْك حسنُ الظنّ بأصحابك والرأفة برعيّتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرّعيّة والنظر فيما يقيمها ويصلحها؛ بل لتكن المباشرة لأمورِ الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم آثرَ عندك مما سوى ذلك؛ فإنه أقوم للدين، وأحيا للسنة.

وأخلص نيّتك في جميع هذا، وتفرّد بتقويم نفسك تفرّدَ من يعلم أنه مسؤولٌ عما صنع، ومجزي بما أحسن، ومأخوذ بما أساء؛ فإن الله جعل الدين حرْزاً وعزّاً، ورفع من اتّبعه وعزّزه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهجَ الدين وطريقة الهدى. وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم، وما استحقُّوه. ولا تُعَطِّلْ ذلك ولا تهاون به. ولا تؤخرّ عقوبة أهل العقوبة؛ فإنّ في تفريطك في ذلك لَمَا يفسد عليك حسنَ ظنك.

واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب الشُّبَه والبدعات، يسلَمْ لك دينك، وتقم لك مروءتك. وإذا عاهدتَ عهداً فَفِ به، وإذا وعدت الخير فأنجزه؛ واقبل الحسنة، وادفع بها، واغمض عن عيْب كلّ ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزُّور، وابغض أهلَه، وأقص أهلَ النميمة؛ فإنّ أوّل فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمتها؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب، ولا يستقيم لمطيعها أمر.

وأحبّ أهلَ الصدق والصلاح، وأعن الأشراف بالحق، وواصل الضعفاء، وصل الرّحِم، وابتغ بذلك وجْه الله وعزّة أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوءَ الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيَك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيّتك؛ وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحقّ فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملُك نفسك عند الغضب، وآثر الوقار والحلْم، وإيّاك والحدّة والطِّيَرة والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول إنّي مسلّط أفعل ما أشاء؛ فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأي، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له. وأخلص لله النيّة فيه واليقين به؛ واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ولن تجد تغيّر النعمة وحلول النقمة إلى أحدٍ أسرع منه ألى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بنعم الله وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله. ودعْ عنك شرَه نفسك. ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدّخر وتكنز البرَّ والتقوى والمعدلة واستصلاح الرّعية، وعمارة بلادهم، والتفقد لأمورهم، والحفظَ لدهمائهم، والإغاثة لملهوفهم.

واعلم أن الأموال إذا كثُرت وذُخّرتْ في الخزائن لا تثمر؛ وإذا كانت في إصلاح الرّعية وإعطاء حقوقهم وكفّ المؤنة عنهم نمتْ وربتْ، وصلَحت به العامة، وتزيّنت الولاة: وطاب به الزمان، واعتقد فيه العزّ والمنَعة؛ فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفِّرْ منه على أولياء أمير المؤمنين قبَلك حقوقَهم،

وأوْفِ رعيّتك من ذلك حصصَهم، وتعهّد ما يصلح أمورهم ومعايشهم؛ فإنك إذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك، واستوجبتَ المزيد من الله، وكنتَ بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيّتك وعملك أقدَر، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك، وأطيب أنفساً لكلّ ما أردت.

فاجهد نفسك فيما حددتُ لك في هذا الباب، ولتعظم حسبتك فيه؛ فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه، واعرف للشاكرين شكرَهم وأثبهم عليه. وإياك أن تنسيَك الدنيا وغرورُها هولَ الآخرة فتتهاون بما يحقّ عليك؛ فإنّ التهاون يوجب التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى، وارجُ الثوابَ؛ فإنّ الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا، وأظهر لديك فضلَه؛ فاعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً، فإنّ الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين؛ وقضّ الحقّ فيما حمل من النّعم، والبس من العافية والكرامة. ولا تحقرنّ ذنباً، ولا تمايلن حاسداً، ولا ترحمنّ فاجراً، ولا تصلنّ كَفُوراً، ولا تداهننّ عدوّاً، ولا تصدقنّ نماماً، ولا تأمننّ غدّاراً؛ ولا توالينّ فاسقاً، ولا تتبعنّ غاوياً، ولا تحمَدنّ مرائياً، ولا تحقرنّ إنساناً، ولا تردنّ سائلاً فقيراً، ولا تجيبنّ باطلا، ولا تلاحظنّ مضحكاً، ولا تخلفنّ وعداً، ولا ترهبنّ فُجّراً، ولا تعمِلنّ غضباً، ولا تأتينّ بذخاً، ولا تمشينّ مَرحاً، ولا تركبنّ سفهاً، ولا تفرّطنّ في طلب الآخرة، ولا تدفع الأيام عياناً، ولا تغمضنّ عن الظالم رهبةً أو مخافة، ولا تطلبنّ ثواب الآخرة بالدنيا. وأكثرْ مشاورةَ الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلْم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرّأي والحكمة، ولا تُدخلنّ في مشورتك أهل الدِّقة والبخل، ولا تسمعنّ لهم قولاً؛ فإنّ ضرَرهم أكثر من منفعتهم. وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشحّ. واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ، قليل العطية؛ وإذا كنت كذلك لم يستقمْ لك أمرك إلّا قليلاً؛ فإن رعيّتك إنما تعتقد على محبّتك بالكفّ عن أموالهم وترك الجوْر عنهم، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطيّة لهم، فاجتنب الشحّ، واعلم أنه أول ما عَصَى به الإنسان ربّه، وأن العاصي بمنزلة خزي؛ وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئكَ هُمُ المفلِحون ﴾ (١)؛ فسهّل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم من نيّتك حظّاً ونصيباً، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد، فاعدده لنفسك خُلقاً، وارض به عملاً ومذهباً.

وتفقّد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدرر عليهم أرزاقهم، ووسّع عليهم في معايشهم؛ ليُذهب بذلك الله فاقتهم، ويقومَ لك أمرهم، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً، وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيّته رحمةً في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبرّه وتوسعته؛ فزايل مكروه إحدى البليّتين باستشعار تكملة الباب الآخر، ولزوم العمل به تلْق إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

واعلم أنّ القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي تعتدل عليه الأحوال في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل، تصلح الرعيّة، وتأمن السبل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة، ويؤدَّى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء.

واشتدّ في أمر الله، وتورّع عن النَّطَف وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وأبعد من الضّجر والقلق،

---

(١) سورة التغابن: ١٦.

واقنع بالقَسْم، ولتسكن ريحك، ويقرّ جدُّك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، واسددْ في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشُّبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذْك في أحدٍ من رعيتك محاباة ولا محاماة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنَّ، وراقب وانظر، وتدبَّرْ وتفكر، واعتبر، وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعية، وسلّط الحقّ على نفسك، ولا تُسرعنّ إلى سفك دم ـ فإن الدماء من الله بمكان عظيم ـ انتهاكاً لها بغير حقها.

وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزّاً ورفعة، ولأهله سعة ومنَعة، ولعدوّه وعدوهم كَبْتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلّاً وصَغاراً، فوزِّعه بين أصحابه بالحقّ والعدْل، والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعنَّ منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن غنيٍّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحدٍ من خاصتّك. ولا تأخذنّ منه فوق الاحتمال له، ولا تكلفنّ أمراً فيه شطط. واحمل الناس كلَّهم على مرّ الحق؛ فإنّ ذلك أجمعُ لألْفتهم وألزمُ لرضا العامة. واعلم أنك جُعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً، وإنما سُمِّي أهل عملك رعيّتك؛ لأنك راعيهم وقيّمهم؛ تأخذ منهم ما أعطوْك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أوَدهم؛ فاستعمل عليهم في كُور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعَفاف، ووسِّع عليهم في الرزق؛ فإنّ ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت وأسند إليك، ولا يشغلنّك عنه شاغل، ولا يصرفنّك عنه صارف؛ فإنك متى آثرته وقُمْت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادة النعمة من ربّك، وحسن الأحدوثة في أعمالك، واحترزتَ النصيحة من رعيّتك، وأعنت على الصلاح، فدرّت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخِصْب في كُورك، فكثر خراجُك، وتوفَّرَت أموالك، وقويتَ بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة بإقامة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمودَ السياسة، مرضيّ العدل في ذلك عند عدوِّك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوّة، وآلة وعدّة، فنافس في هذا ولا تقدّم عليه شيئاً تحمد مغبة أمرك إن شاء الله.

واجعل في كلّ كورة من عملك أميناً يخبرك أخبارَ عمّالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم؛ حتى كأنك مع كلّ عامل في عمله، معاينٌ لأمره كلِّه. وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك؛ فإن رأيت السَّلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسنَ الدفاع والنصح والصنع فأمضه؛ وإلا فتوقّف عنه. وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدّته؛ فإنه ربما نظر الرجل في أمرٍ من أمره قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقضَ عليه أمرَه.

فاستعمل الحزْم في كلّ ما أردت، وباشره بعد عون الله بالقوّة، وأكثر استخارة ربِّك في جميع أمورك، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخرّه لغدِك؛ وأكثر مباشرته بنفسك؛ فإن لغدٍ أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخّرْت. وأعلم أنّ اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخّرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه؛ فإذا أمضيتَ لكلّ يوم عملَه أرحْتَ نفسَك وبدَنك، وأحكمت أمور سلطَانك.

وانظر أحرارَ الناس وذوِي الشرف منهم، ثم استيقنْ صفاء طويتّهم وتهذيبَ مودتّهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك؛ فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهَدْ أهلَ البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤنْتهم، وأصلح حالهم؛ حتى لا يجدوا لخلتّهم مسّاً. وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك. والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه؛ فاسأل عنه أحفَى

مسألة ، ووكّل بأمثاله أهلَ الصلاح من رعيتّك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم . وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهَم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله ، في العَطْف عليهم ، والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهُم ويرزقك به بركة وزيادة . وأجْرِ للأضرّاء من بيت المال ، وقدّم حَملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقُوّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدّ ذلك إلى سرف في بيت المال . واعلم أنّ الناس إذا أعطُوا حقوقَهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ، ولم تطِب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما برِم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة ، وليس مَنْ يرغب في العدل ، ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل ، كالذي يستقبل ما يقرّبه إلى الله ، ويلتمس رحمته به . وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز لهم وجهَك ، وسكِّنْ لهم أحراسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرَك ، ولِنْ لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفَضْلك ، وإذا أعطيتَ فأعْطِ بسماحة وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر غيرَ مكدّر ولا منّان ، فإنّ العطيّة على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله» .

واعبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قَبْلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة؛ ثم اعتصم في أحوالك كلّها بأمر الله ، والوقوف عند محبَّته ، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه ؛ واجتنب ما فارق ذلك وخالفَه ، ودعا إلى سخط الله . واعرف ما يَجمع عُمّالُك من الأموال وينفقون منها . ولا تجمعْ حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتَهم ومخالطتهم . وليكن هواك اتّباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها؛ وليكن أكرمُ دُخلائك وخاصتّك عليك مَنْ إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتُك من إنهاء ذلك إليك في سرّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصحُ أوليائك ومظاهريك.

وانظر عمّالك الذين بحضرتك وكتّابَك ، فوقّتْ لكلّ رجل منهم في كلِّ يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته ، وما عنده من حوائج عمالك ، وأمر كُورك ورعيتك ، ثم فرّغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ؛ فما كان موقفك للحزم والحق فأمضه واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبّت فيه ، والمسألة عنه .

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلّا الوفاء والاستقامة والعوْن في أمور أمير المؤمنين ، ولا تَضعنّ المعروف إلّا على ذلك .

وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره ، فإن الله مع الصلاح وأهله ؛ وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله رضاً ولدينه نظاماً ، ولأهله عزّاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً .

وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك ، وأن يُنزل عليك فضله ورحمتَه بتمام فضله عليك وكرامته لك ؛ حتى يجعلك أفضلَ مثالك نصيباً ، وأوفرهم حظّاً ، وأسناهم ذكراً ، وأمراً ، وأن يهلك عدّوك ومَنْ ناوأك وبغى عليك ، ويرزقك من رعيّتك العافية ، ويحجز الشيّطان عنك وساوسه ، حتى يستعلي أمرُك بالعزّ والقوْة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكر أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبدالله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه ، وتدارسوه وشاع أمره ، حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقَّى أبو الطيّب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعيّة وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلاّ وقد أحكَمه ، وأوصى به وتقدم ؛ وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

وتوجّه عبدالله إلى عمله فسار بسيرته ، واتبع أمره وعمل بما عهد إليه .

وفي هذه السنة ولّى عبدالله بن طاهر إسحاق بن إبراهيم الجسرين، وجعله خليفتَه على ما كان طاهر أبوه استخلفه فيه من الشُّرَط وأعمال بغداد؛ وذلك حين شخص إلى الرَّقة لحرب نصر بن شبث.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبيدالله بن الحسن ، وهو والي الحرمْين .

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك خروجُ عبد الرحمن بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب ببلاد عكّ من اليمن يدعو إلى الرضيّ من آل محمد ﷺ .

ذكر الخبر عن سبب خروجه :

وكان السبب في خروجه أنّ العمال باليمن أساؤوا السيرة، فبايعوا عبد الرحمن هذا ، فلما بلغ ذلك المأمون وَجّه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيفٍ ، وكتب معه بأمانِه ، فحضر دينار بن عبدالله الموسم وحجّ ، فلما فرغ من حجّه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن ، فبعث إليه بأمانه من المأمون ؛ فقبل ذلك ، ودخل ووضع يده في يد دينار ، فخرج به إلى المأمون ، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه ، وأمر بأخذهم بلبس السواد ؛ وذلك يوم الخميس لليلة بقيث من ذي القعدة .

وفي هذه السنة كانت وفاة طاهر بن الحسين .

ذكر الخبر عن وفاته :

ذكر عن مطهّر بن طاهر ، أنّ وفاة ذي اليمينين كانت من حمّى وحرارة أصابته ، وأنه وُجد في فراشه ميتاً .

وذكر أن عمّيه عليّ بن مصعب وأخاه أحمد بن مصعب ، صارا إليه يعودانه ، فسألا الخادم عن خبره ـ وكان يغلِّس بصلاة الصبح ـ فقال الخادم وهو نائم لم ينتبه ، فانتظراه ساعة ، فلما انبسط الفجر ، وتأخّر عن الحركة في الوقت الذي كان يقوم فيه للصلاة ، أنكرا ذلك ، وقالا للخادم : أيقظْه ، فقال الخادم : لست أجسرُ على ذلك ، فقالا له : اطرق لنا لندخل إليه ، فدخلا فوجداه ملتفّاً في دُواج ، قد أدخله تحته ، وشدّه عليه من عند رأسه ورجليه ، فحركاه فلم يتحرّك ، فكشفا عن وجهه فوجداه قد مات . ولم يعلما الوقت الذي توفِّيَ فيه ، ولا وقف أحد من خدمه على وقت وفاته ؛ وسألا الخادم عن خبره وعن آخر ما وقف عليه منه ؛ فذكر أنه صلى المغرب والعشاء الآخرة ، ثم التفّ في دُواجه . قال الخادم : فسمعتُه يقول بالفارسية كلاماً وهو « دِرْمَرْك ينزمَرْدِي وَيَذْ » ؛ تفسيره أنه يحتاج في الموت أيضاً إلى الرّجلة .

وذُكر عن كلثوم بن ثابت بن أبي سعد ـ وكان يكنى أبا سعدة ـ قال : كنت على بَريد خُراسان ، ومجلسي يوم الجمعة في أصل المنبر ، فلما كان في سنة سبع ومائتين ، بعد ولاية طاهر بن الحسين بسنتين ، حضرت الجمعة ، فصعد طاهر المنبر ، فخطب ، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدّعاء له ، فقال : اللهمَّ أصلح

أمة محمد بما أصلحت به أولياءك ، واكفِها مؤونة مَنْ بغى فيها ، وحشد عليها ، بلمّ الشعث ، وحقْن الدّماء ، وإصلاح ذات البين . قال : فقلت في نفسي : أنا أوّل مقتول ؛ لأني لا أكتم الخبر ؛ فانصرفت واغتسلت بغسل الموتى ، وائتزرت بإزار الموتى ، ولبست قميصاً ، وارتديت رداء ، وطرحت السواد ، وكتبت إلى المأمون . قال : فلمّا صلى العصر دعاني ، وحدَث به حادث في جفن عينه وفي مأقه ، فخرّ ميتاً ، قال : فخرج طلحة بن طاهر ، فقال : ردّوه ردّوه ـ وقد خرجت ـ فردّوني ، فقال : هل كتبت بما كان ؟ قلت : نعم ، قال : فاكتب بوفاته ، وأعطاني خمسمائة ألف ومائتي ثوب ، فكتبت بوفاته وبقيام طلحة بالجيش .

قال : فوردت الخريطة على المأمون بخلعه غدْوة ، فدعا ابنَ أبي خالد فقال له : اشخص : فأتِ به ـ كما زعمت ، وضمنت ـ قال : أبيتُ ليلتي ، قال : لا لعمري لا تبيت إلا على ظَهْر . فلم يزل يناشده حتى أذن له في المبيت . قال : ووافت الخريطة بموته ليلاً ، فدعاه فقال : قد مات ، فمن ترى ؟ قال : ابنه طلحة ، قال : الصواب ما قلت ، فاكتب بتوليته . فكتب بذلك ، وأقام طلحة والياً على خراسان في أيام المأمون سبع سنين بعد موت طاهر ، ثم توفِّيَ ، وولي عبدالله خُراسان ـ وكان يتولى حرب بابك ـ فأقام بالدينور ، ووجّه الجيوش ، ووردت وفاة طلحة على المأمون ؛ فبعث إلى عبدالله يحيى بن أكثم يعزّيه عن أخيه ويهنئه بولاية خراسان ، وولّى عليّ بن هشام حرب بابك .

وذكِر عن العباس أنه قال : شهدت مجلساً للمأمون ، وقد أتاه نعيّ الطاهر ، فقال : لليدين وللفم ! الحمد لله الذي قدّمه وأخّرنا .

وقد ذُكر في أمر ولاية طلحة خراسان بعد أبيه طاهر غير هذا القول ؛ والذي قيل من ذلك ؛ أنّ طاهراً لما مات ـ وكان موته في جمادى الأولى ـ وثب الجند ، فانتهبوا بعض خزائنه ، فقام بأمرهم سلاّم الأبرش الخصيّ ، فأمر فأعطوا رزق ستة أشهر . فصيّر المأمون عمله إلى طلحة خليفة لعبدالله بن طاهر ، وذلك أنّ المأمون ولى عبدالله في قول هؤلاء بعد موت طاهر عمل طاهر كله ـ وكان مقيماً بالرَّقة على حرب نصر بن شبَث ـ وجمع له مع ذلك الشأم ، وبعث إليه بعهده على خُراسان وعمل أبيه ، فوجّه عبدالله أخاه طلحة بخراسان ، واستخلف بمدينة السلام إسحاق بن إبراهيم ، وكاتب المأمونَ طلحةُ باسمه ، فوجّه المأمون أحمد بن أبي خالد إلى خُراسان للقيام بأمر طلحة ، فشخص أحمد إلى ما وراء النهر ، فافتتح أشْروسَنة ، وأسركاوس بن خاراخره وابنه الفضل ، وبعث بهما إلى المأمون ، ووهب طلحة لابن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعَروضاً بألفي ألف ، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد بن أبي خالد خمسمائة ألف درهم .

وفي هذه السنة غلا السعر ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ سعر القفِيز من الحنطة بالهارونيّ أربعين درهماً إلى الخمسين بالقفيز الملجَم .

وفي هذه السنة وُلِّيَ موسى بن حفص طبرستان والرُّويان ودُنْباونْد .

وحجّ بالناس في هذه السنة أبو عيسى بن الرشيد .

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مصير الحسن بن الحسين بن مصعب من خُراسان إلى كرمان ممتنعاً بها ، ومصير أحمد بن خالد إليه حتى أخذه ، فقدِم به على المأمون ، فعفا عنه .

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزوميّ قضاءَ عسكر المهديّ في المحرّم .

وفيها استعفى محمد بن سماعة القاضي من القضاء فأعفِيَ ، وولّيَ مكانه إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة .

وفيها عُزل محمد بن عبد الرحمن عن القضاء بعد أن وُلِّيَه فيها في شهر ربيع الأول ، ووليَه بشر بن الوليد الكنديّ ، فقال بعضهم :

يــأيُّـهــا الـمــلِكُ الـمـوحِّـدُ ربَّـهُ قــاضيكَ بشـرُ بنُ الـوليـدِ حِمـارْ
يَنفِـي شَهــادَةَ مَـن يَــدِينُ بمــا بِـهِ نــطَقَ الـكتـابُ وجـاءَتِ الأَخبـارْ
ويَــعُــدُّ عــدلاً مَـن يـقـولُ بــأَنَّــهُ شيــخٌ يُـحيط بجـسمـه الأَقـطارْ

ومات موسى بن محمد المخلوع في شعبان ، ومات الفضل بن الربيع في ذي القعدة .

وحجَّ بالناس في هذه السنة صالح بن الرشيد .

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من حصر عبدالله بن طاهر نصر بن شبَث وتضييقه عليه ؛ حتى طلب الأمان ، فذُكر عن جعفر بن محمد العامريّ أنه قال : قال المأمون لثُمامة : ألا تدلّني على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة ، يؤدّي عنّي ما أوجّهه به إلى نصر بن شبَث ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، رجل من بني عامر يقال له جعفر بن محمد ، قال له : أحضرنيه ، قال جعفر : فأحضرني ثمامة ، فأدخلني عليه ، فكلّمني بكلام كثير ، ثم أمرني أن أبلغه نصر بن شبَث . قال : فأتيت نصْراً وهو بكفرعَزُون بسَروج ، فأبلغته رسالتَه ، فأذعن وشرط شروطاً ، منها ألا يطأ له بساطاً . قال : فأتيتُ المأمون فأخبرته ، فقال : لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ، ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي ؛ وما باله ينفر منّي ! قال : قلتُ : لجرْمه وما تقدّم منه ، فقال : أتراه أعظم جُرْماً عندي من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن أبي خالد ! أتدري ما صنع بي الفضل ! أخذ قوّادي وجنودي وسلاحي وجميع ما أوْصى به لي أبي ، فذهب به إلى محمد وتركني بمرْو وحيداً فريداً وأسلمني ، وأفسد عليّ أخي ، حتى كان من أمره ما كان ؛ وكان أشدّ عليّ من كلّ شيء . أتدري ما صنع بي عيسى بن أبي خالد ! طرد خليفتي من مدينتي ومدينة آبائي ، وذهب بخراجي وفيئي ، وأخرب عليّ دياري ، وأقعد إبراهيم خليفة دوني ، ودعاه باسمي . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في الكلام فأتكلم ؟ قال : تكلم ، قلتُ : الفضل بن الربيع رضيعكُم ومولاكم ، وحال سلفه حالكم ، وحال سلفكم حاله ، ترجع عليه بضروب كلّها تردّك إليه ، وأما عيسى بن أبي خالد فرجُلٌ من أهل دولتك ، وسابقتُه وسابقة مَنْ مضى من سلفه سابقتهم ، ترجع عليه بذلك ؛ وهذا رجل لم تكن له يد قطّ فيُحْملُ عليها ،ولا لمن مضى من سلفه ، إنما كانوا من جند بني أمية . قال : إن كان ذلك كما تقول ، فكيف بالحَنَق والغيظ ؛ ولكني لستُ أقلع عنه حتى يطأ بساطي ، قال : فأتيت نصراً فأخبرته بذلك كلّه ، قال : فصاح بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه ! هو لم يقْوَ على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ـ يعني الزّط ـ يقوى على حَلْبة العرب !

فذُكر أن عبدالله بن طاهر لما جادّه القتال وحصره وبلغ منه ، طلب الأمان فأعطاه ، وتحوّل من معسكره إلى الرّقة سنة تسع ومائتين ، وصار إلى عبدالله بن طاهر ، وكان المأمون قد كتب إليه قبل ذلك بعد أن هزم عبدالله بن طاهر جيوشَه كتاباً يدعوه إلى طاعته ومفارقة معصيته ، فلم يقبل ، فكتب عبدالله إليه ـ وكان كتاب المأمون إليه من المأمون كتبه عمرو بن مسعدة :

أما بعد ؛ فإنك يا نصر بن شبَث قد عرفتَ الطاعة وعزّها وبَرْد ظلها وطيب مَرْتعها وما في خلافها من

النّدم والخَسار ، وإن طالت مدّة الله بك ، فإنه إنما يُملي لمن يلتمس مظاهرة الحجّة عليه لتقع عبَرة بأهلها على قَدْر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيتُ إذكارَك وتبصيرك لما رجوتُ أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك ؛ فإنّ الصدق صدق والباطل باطل ؛ وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعنَوْن به ، ولم يعاملك من عمّال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرصَ على استنقاذك والانتياش لك من خطائك مني ؛ فبأيّ أوّل أو آخر أو سِطَةٍ أو إمرْة إقدامُك يا نصر على أمير المؤمنين ! تأخذ أموالَه ! وتتولى دونه ما ولاّه الله ، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئناً ، أو وادعاً أو ساكناً أو هادئاً ! فَوعا لِم السرّ والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً وبها خانعاً ،لتستوبلن وخَمَ العاقبة ؛ ثم لأبدأنّ بك قبل كلّ عمل ، فإنّ قرون الشيطان إذا لم تُقطَع كانت في الأرض فتنة وفساداً كبيراً ، ولأطأنّ بمن معي من أنصار الدولة كواهلَ رعاع أصحابك ، ومَنْ تأشَّب إليك من أداني البلدان وأقاصيها وطَغامها وأوباشها ، ومَن انضوى إلى حوْزتك من خُرّاب الناس ، ومن لفظه بلدُه ، ونفته عشيرته ؛ لسوء موضعه فيهم . وقد أعذَرَ من أنذرَ . والسلام .

وكان مقام عبدالله بن طاهر على نصر بن شبَث محارباً له ـ فيما ذكر ـ خمس سنين حتى طلب الأمان ؛ فكتب عبدالله إلى المأمون يعلمه أنه حصره وضيّق عليه ، وقتل رؤساء مَنْ معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب إليه ، أماناً نسختُه :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ؛ فإنّ الإعذار بالحقّ حجة الله المقرون بها النصر ، والأحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العزّ ، ولا يزال المعذِر بالحق ، المحتجّ بالعدل في استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ؛ حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكّن وهو خير الممكّنين ، ولستَ تعدو أن تكون فيما لهجتَ به أحد ثلاثة : طالب دين ، أو ملتمس دنيا ، أو متهوّراً يطلبُ الغَلبَة ظلماً ؛ فإن كنت للدين تسعى بما تصنع ، فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقّاً ، فلعمري ما همّته الكبرى ، ولا غايته القصوى إلاّ الميل مع الحقّ حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال ؛ وإن كنت للدنيا تقصد ، فأعلم أمير المؤمنين غايتَك فيها ؛ والأمر الذي تستحقها به ، فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعلَه بك . فلعمري ما يستجيز مَنْع خلق ما يستحقه وإن عظُم ، وإن كنت متهوّراً فسيكفي الله أميرَ المؤمنين مؤنتكَ . ويعجّل ذلك كما عجّل كفايته مؤن قوم سلكوا مثلَ طريقك كانوا أقوى يداً ، وأكثف جنداً ، وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك فيما أصارهم إليه من مصارع الخاسرين ، وأنزل بهم من جوائح الظالمين. وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ ؛ وضمانه لك في دينه وذِمّتِه الصفح عن سوالف جرائمك ، ومتقدمات جرائرك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العزّ والرفعة إن أتيتَ وراجعتَ ؛ إن شاء الله . والسلام .

ولما خرج نصر بن شبث إلى عبدالله بن طاهر بالأمان هدم كيسوم وخرّبها .

وفي هذه السنة ولّى المأمون صدقة بن عليّ المعروف بزريق أرمينيّة وأذْرَبيجان ومحاربة بابك ، وانتدب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد بن فرزندي الإسكافي ، ثم رجع أحمد بن الجنيد بن فرزندي إلى بغداد ، ثم رجع إلى الخُرّميّة ، فأسره بابك ، فولّى إبراهيم بن الليث بن الفضل التجيبيّ أذْرَبيجان .

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد بن عليّ ، وهو والي مكة .

وفيها مات ميخائيل بن جورجس صاحب الروم ، وكان ملكه تسع سنين ، وملكت الروم عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك وصول نصر بن شبَث فيها إلى بغداد ، وجهّ به عبدالله بن طاهر إلى المأمون ، فكان دخوله إليها يوم الاثنين لسبع خلون من صفر ، فأنزله مدينة أبي جعفر ووكّلَ به من يحفظه .

وفيها ظهر المأمون على إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، الذي يقال لـه ابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الأفريقيّ ومالك بن شاهي وفرج البَغواريّ ومَنْ كان معهم ممّن كان يسعى في البيعة لإبراهيم بن المهـديّ ، وكان الـذي أطلعه عليهم وعـلى ما كـانوا يسعـوْن فيه من ذلـك عمران القَطْرَبُّليُّ ؛ فأرسل إليهم المأمون يوم السبت - فيما ذُكر - لخمس خلوْن من صفر سنة عشر ومائتين ؛ فأمر المأمون بإبراهيم بن عائشة أن يقَام ثلاثة أيام في الشمس على باب دار المأمون ، ثم ضربه يوم الثلاثـاء بالسِّياط ، ثم حبسه في المطبَق ، ثم ضرب مالك بن شاهي وأصحابه ، وكتبوا للمأمون أسماء مَنْ دخل معهم في هذا الأمر من القوّاد والجند وسائر الناس ، فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا له ؛ ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً بُراء ، وكانوا اتّعدوا أن يقطعوا الجسر إذا خرج الجند يتلقوْن نصر بن شبث ، فغُمِر بهم فأخِذوا ، ودخل نصر بن شبَث بعد ذلك وحده ؛ ولم يوجَّه إليه أحدٌ من الجند ، فأنزل عند إسحاق بن إبراهيم ، ثم حُوّل إلى مدينة أبي جعفر .

وفيها أخذ إبراهيم بن المهديّ ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الآخر ، وهو متنقّب مع امرأتين في زيّ امرأة ؛ أخذه حارس أسود ليلاً ، فقال : مَن أنتنّ ؟ وأين تردْن في هذا الوقت ؟ فأعطاه إبراهيم - فيما ذكر - خاتم ياقوت كان في يده ، له قدر عظيم ، ليخلِّيهنّ ، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب بهنّ ، وقال : هذا خاتم رجل له شأن ، فرفعهنّ إلى صاحب المسلحة ، فأمرهنّ أن يُسفرن ، فتمنّع إبراهيم ، فجبذه صاحب المسلَحة ، فبدت لحيته ، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه ؛ فذهب به إلى باب المأمون ، فأعِلم به ؛ فأمر بالاحتفاظ به في الدار ؛ فلما كان غداة الأحد أقعد في دار المأمون لينظر إليه بنو هاشم والقّواد والجند ، وصيّروا المقنعة التي كان متنقباً بها في عُنقه ، والمحلفة التي كان ملتحفاً بها في صدره ، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ . فلما كان يوم الخميس حوّله المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده ، ثم أخرجه المأمون معه حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط ، فقال الناس : إن الحسن كلّمه فيه ، فرضيَ عنه وخلَى سبيله ، وصيره عند أحمد بن أبي خالد ، وصيّر معه أحمد بن يحيى بن معاذ وخـالد بن يزيد بن مزْيَد يحفظانه ؛ إلا أنه موسّع عليه ، عنده أمّه وعياله ، ويركب إلى دار المأمون ، وهؤلاء معه يحفظونه .

وفي هذه السنة قتل المأمون إبراهيم بن عائشة وصلبه .

ذكر الخبر عن سبب قتله إياه :

كان السبب في ذلك أن المأمون حبس ابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الأفريقيّ ورجلين من الشُّطّار ، يقال لأحدهما أبو مسمار وللآخر عمّار ، وفرج البغواريّ ومالك بن شاهي وجماعة معهم ممّن كان سعى في البيعة لإبراهيم ؛ بعد أن ضُربوا بالسياط ما خلا عمّاراً ، فإنه أومن لما كان من إقراره على القوم في المطبَق ، فرفع بعض أهل المطبَق أنهم يريدون أن يشغَبوا وينقبُوا السجن ـ وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدّوا باب السجن من داخل فلم يدَعُوا أحداً يدخل عليهم ـ فلما كان الليل وسمعوا شغبْهم ، بلغ المأمونَ خبرهُم ، فركب إليهم من ساعته بنفسه ، فدعا بهؤلاء الأربعة فضرب أعناقهم صبراً ، وأسمعه ابن عائشة شتماً قبيحاً ، فلما كانت الغداة صُلبوا على الجسر الأسفل ؛ فلما كان من الغداة يوم الأربعاء أنزل إبراهيم بن عائشة ، فكُفِّن وصلى عليه ، ودفن في مقابر قريش ، وأنزل ابن الأفريقي فدفن في مقابر الخيزران وتُرك الباقون .

وذكر أن إبراهيم بن المهديّ لما أخذ صِير به إلى دار أبي إسحاق بن الرشيد ـ وأبو إسحق عند المأمون ـ فحُمل رديفاً لفرج التركيّ ؛ فلما أدخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، وليّ الثأر محكّم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه ؛ وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كلَّ ذي ذنب دونك ؛ فإن تعاقب فبحقِّك ، وإن تعفُ فبفضلك ، قال : بل أعفو يا إبراهيم ، فكبّر ثم خرّ ساجداً .

وقيل إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختفٍ، فوقّع المأمون في حاشية رقعته : «القُدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة، وبينهما عفو الله، وهو أكبر ما نسأله»، فقال إبراهيم يمدح المأمون :

يا خيرَ من ذَمَلَت يمانيةٌ به	بعد الرسول لآيسٍ ولطامعِ
وأبرَّ من عَبَدَ الإله على التقى	عيناً وأقْوَله بحقٍّ صادع
عَسلُ الفوارع ما أُطِعتَ فإن تُهَجْ	فالصَّابُ يُمزَجُ بالسِّمامِ الناقع
متيقظاً حَذِراً وما يخشى العِدَى	نَبْهانُ من وسَنَاتِ ليل الهاجعِ
مُلئت قلوبُ الناسِ منك مخافةً	وتَبيتُ تَكلؤهم بقلبٍ خاشعِ
بأبي وأُمِّي فديةً وبنيهما	من كُلِّ مُعضِلةٍ وريْبٍ واقعِ
ما ألْيَنَ الكَنَفَ الذي بوَّأتني	وَطناً وأمرَعَ رتعَهُ للراتعِ
للصالحات أخاً جُعِلت وللتقى	وأباً رؤوفاً للفقيرِ القانعِ
نفسي فِداؤك إذ تضلُّ معاذري	وألوذُ منك بفضلِ حلمٍ واسعِ
أمَلاً لفضلك والفواضلُ شِيمةٌ	رفَعَت بناءَك بالمحلِّ اليافعِ
فَبَذَلتَ أفضلَ ما يضيقُ ببذْلِه	وُسعُ النفوسِ من الفَعالِ البارع
وعفوتَ عمّن لم يكن عن مثلهِ	عفوٌ، ولم يشفع إليك بشافع
إلّا العلوَّ عن العقوبة بعدما	ظَفَرت يداك بمستكين خاضع

فَـرَحمتَ أَطفـالا كـأفـراخ القَـطَا وعَـويـلَ عَـانِسَـةٍ كقَـوْسِ النـازع
وَعَـطَفـت آصِـرَةً عليَّ كـمـا وَعَـى بعـد انهِيَاضِ الـوشْيِ عَظْمِ الظالـع
الله يـعـلَم مـا أقـولُ فـإنّـهـا جَـهْـدُ الألـيَّـةِ من حَـنيـفٍ راكـع
مـا إن عصيتـك والغُـوَاة تَـقُـودني أسـبـابـهـا إلا بـنِـيَّـةِ طَـائـع
حتى إذا علِقَت حَبَـائـلُ شقـوتـي بـرَدًى إلى حُفَـر المهـالـك هَـائـع
لـم أدْرِ أنَّ لمثـل جُـرمِي غَـافـراً فـوقفتُ أنـظر أيّ حَـتفٍ صـارعي
ردَّ الـحيـاةَ علـيَّ بـعـد ذَهَـابِـهـا وَرَعُ الإمـام الـقَـادِرِ المتـواضـع
أحـيـاك مَـنْ وَلاّك أطـولَ مُـدَّةٍ ورمى عَـدُوَّك في الـوَتِينِ بقَـاطِـع
كَمْ من يَـدٍ لـك لم تُحَـدِّثْني بـهـا نـفسـي إذَا آلَتْ إلـيَّ مـطامِعِـي
أسـديتَـهـا عـفـواً إلـيَّ هـنيئـةً فشكـرتُ مُصطَنعـاً لأكـرم صـانِع
إلاّ يـسيـراً عـنـدمـا أولَيـتَـنـي وهـو الكثيـرُ لـديَّ غيـرُ الضـائـع
إن أنت جـدتَ بهـا عليَّ تكن لهـا أهـلاً، وإن تمنع فـأعـدَلُ مـانـع
إنَّ الـذي قَسَم الخـلافـةَ حَـازَهـا في صُلبِ آدَمَ لـلإمـام السـابـع
جَمَـعَ القلوبَ عليك جَامـعُ أمرِهـا وحَـوَى رِدَاؤك كـلَّ خيـرٍ جـامـع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة، قال: أقول ما قال يوسف لاخوته: ﴿ لا تَثرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾[١].

وفي هذه السنة بنى المأمون ببُوران بنت الحسن بن سهل في رمضان منها.

ذكر الخبر عن أمر المأمون في ذلك وما كان في أيام بنائه:

ذُكر أنّ المأمون لمّا مضى إلى فم الصِّلح إلى معسكر الحسن بن سهل، حمل معه إبراهيمَ بن المهديّ، وشخص المأمون من بغداد حين شخص إلى ما هنالك للبناء ببوران، راكباً زورقاً، حتى أرْسَى على باب الحسن؛ وكان العباس بن المأمون قد تقدّم أباه على الظَّهْر، فتلقّاه الحسن خارجاً عسكره في موضع قد اتُّخذ لـه على شاطىء دِجلة، بُنِيَ له فيه جوسق؛ فلما عاينه العبّاس ثنى رجله لينزل، فحَلف عليه الحسن ألاّ يفعل، فلمّا ساواه ثنى رجلَه الحسن لينزل، فقال له العباس: بحقّ أميرِ المؤمنين لا تنزل؛ فاعتنقه الحسن وهو راكب. ثم أمر أن يقدّم إليه دابّته، ودخلا جميعاً منزل الحسن، ووافى المأمون في وقت العشاء، وذلك في شهر رمضان من سنة عشر ومائتين، فأفطر هو والحسن والعباس - ودينار بن عبدالله قائم على رجله - حتى فرغوا من الإفطار، وغسلوا أيديهُم، فدعا المأمون بشراب، فأتيَ بجام ذهب فصُبَّ فيه وشرب، ومدّ يده بجام فيه شراب إلى الحسن؛ فتباطأ عنه الحسن؛ لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك؛ فغمز دينار بن عبدالله الحسَن، فقال له الحسن: يا أميرَ المؤمنين، أشربه بإذنك وأمرك؟ فقال له المأمون: لولا أمري لم أمدد يدي إليك، فأخذ الجام فشربه. فلما كان في الليلة الثانية، جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذي الرئاستين، فلمّا كان في الليلة الثالثة دخل على بوران، وعندها حمدونة وأمّ جعفر وجدّتها؛ فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدّتها ألف درّة كانت في

(١) سورة يوسف: ٩٢.

صينيّةٍ ذهب، فأمر المأمون أن تُجمع، وسألها عن عدد ذلك الدرّ كم هو؟ فقالت: ألف حبّة، فأمر بعـدّها فنقصَت عشراً، فقال: مَنْ أخذها منكم فليردّها، فقالوا: حُسين زجلة، فأمره بردّها، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنما نُثر لنأخذه، قال: ردّها فإني أخلفها عليك، فردّها. وجمع المأمون ذلك الدرّ في الآنية كما كان، فوُضع في حجْرها، وقال: هذه نحلتك، وسَلِي حوائجك؛ فأمسكت. فقالت لها جدّتها: كلّمي سيدك، وسليه حوائجك فقد أمرك، فسألته الرّضا عن إبراهيم بن المهديّ، فقال: قد فعلت، وسألته الإذن لأمّ جعفر في الحجّ، فأذن لها. وألبستها أم جعفر البَدَنة الأمويّة؛ وابتنى بها في ليلته، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر؛ فيها أربعونَ منًّا في تور ذهب. فأنكر المأمون ذلك عليهم، وقال: هذا سَرَف؛ فلمّا كان من الغد دعا بإبراهيم بن المهديّ فجاء يمشي من شاطىء دِجلة، على مُبطّنةُ ملحَم، وهو معتمّ بعمامة، حتى دخل؛ فلما رُفع الستر عن المأمون رمى بنفسه، فصاح المأمون: يا عمّ، لا بأس عليك، فدخل فسلم عليه تسليمَ الخلافة، وقبّل يده، وأنشد شعره، ودعا بالخلَع فخلع عليه خلعة ثانية، ودعا له بمركَب وقلّده سيفاً، وخرج فسلّم الناس، ورُدّ إلى موضعه.

وذُكر أنّ المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعدّ له في كلّ يوم لجميع مَنْ معه جميع ما يُحتاج إليه، وأنّ الحسن خلع على القوّاد على مراتبهم، وحملهم ووصلهم؛ وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم. قال: وأمر المأمون غسان بن عبّاد عند منصرَفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مالِ فارس، وأقطعه الصِّلح فحمِلت إليه على المكان؛ وكانت معدّة عند غسان بن عباد، فجلس الحسن ففرّقها في قُوّاده، وأصحابه وحشمه وخدمه؛ فلمّا انصرف المأمون شيّعه الحسن، ثم رجع إلى فم الصِّلح.

فذُكر عن أحمد بن الحسن بن سهل، قال: كان أهلنا يتحدّثون أنّ الحسن بن سهل كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه، ونثرها على القوّاد وعلى بني هاشم؛ فمَنْ وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضَيْعة بعث فتسلمها.

وذكِر عن أبي الحسن عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى الكاتب، قال: حدّثني الحسن بن سهل يوماً بأشياء كانت في أم جعفر، ووصف رجاحة عقلها وفهمها، ثمّ قال: سألها يوماً المأمون بفم الصِّلح حيث خرج إلينا عن النفقة على بُوران، وسأل حمدونة بنت غَضِيض عن مقدار ما أنفقت في ذلك الأمر. قـال: فقالت حمدونة: أنفقتُ خمسة وعشرين ألف ألف، قال: فقالت أم جعفر: ما صنعتِ شيئاً، قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم. قال: وأعددنا له شمعتين من عَنبر، قال: فدخل بها ليلاً، فأوقدتا بين يديه؛ فكثر دخانها، فقال: ارفعوهما قد أذانا الدّخان، وهاتوا الشمع. قال: ونحلتْها أمّ جعفر في ذلك اليوم الصّلح قال: فكان سبب عود الصِّلح إلى مُلكي، وكانت قبل ذلك لي، فدخل عليّ يوماً حُميد الطوسيّ فأقرأني أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين، فقلت له: ننفذها لك ذي الرّياستين، وأقطعك الصِّلح في العاجل إلى أن تأتيَ مكافأتك من قبله. فأقطعته إياها، ثم ردَّها المأمون علىٰ أمّ جعفر فنحلتْها بُوران.

وروى عليّ بن الحسين أنّ الحسن بن سهل كان لا ترفع السُّتور عنه، ولا يرفع الشّمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبيّنها إذَا نظر إليها. وكان متطيّراً يحبّ أن يقال له إذا دخل عليه: انصرفنا من فرح وسرور، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت أحد. قال: ودخلتُ عليه يوماً فقال له قائل: إن عليّ بن الحسين أدخل ابنه الحسن اليوم الكتّاب، قال: فدعا لي وانصرفت، فوجدت في منزلي عشرين ألف درهم هبةً للحسن وكتاباً بعشرين ألف درهم. قال: وكان قد وهب لي من أرضه بالبصرة ما قوّم بخمسين ألف دينار، فقبضه عنّي بُغا

الكبير، وأضافه إلى أرضه.

وذكر عن أبي حسان الزياديّ أنه قال: لما صار المأمون إلى الحسن بن سهل، أقام عنده أياماً بعد البناء ببُوران، وكان مقامه في مسيرِه وذهابه ورجوعه أربعين يوماً. ودخل إلى بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلتْ من شوال.

وذكر عن محمد بن موسى الخُوارزميّ أنه قال: خرج المأمون نحو الحسن بن سهل إلى فم الصِّلح لثمانٍ خلوْن من شهر رمضان، ورحلَ من فم الصِّلْح لتسع بقين من شوال سنة عشر ومائتين.

وهلك حُميد بن عبد الحميد يوم الفطر من هذه السنة؛ وقالت جاريته عَذَل:

مَنْ كَانَ أَصْبَح يومَ الفطرِ مُغتَبطاً ... فمَا غَبَطُنا به والله محمودُ

أو كان منتظراً في الفطر سَيِّدَهُ ... فإن سَيِّدَنا في التربِ ملحودُ

وفي هذه السنة افتتح عبدالله بن طاهر مصر؛ واستأمن إليه عبيدالله بن السريّ بن الحكم.

ذكر الخبر عن سبب شخوص عبدالله بن طاهر من الرَّقة إلى مصر وسبب خروج ابن السريّ إليه في الأمان

ذكر أن عبدالله بن طاهر لمّا فرغ من نصر بن شَبث العُقَيليّ، ووجّهه إلى المأمون فوصل إليه ببغداد كتب المأمون يأمره بالمصير إلى مصر؛ فحدّثني أحمد بن محمد بن مَخْلَد، أنه كان يومئذ بمصر، وأن عبدالله بن طاهر لما قَرُب منها، وصار منها على مرحلة، قدّم قائداً من قوّاده إليها ليرتاد لمعسكره موضعاً يعسكر فيه، وقد خندق ابن السريّ عليها خندقاً، فاتّصل الخبر بابن السريّ عن مصير القائد إلى ما قرب منها، فخرج بمن استجاب له من أصحابه إلى القائد الذي كان عبدالله بن طاهر وجّهه لطلب موضع معسكره؛ فالتقى جيش ابن السريّ وقائد عبدالله وأصحابه وهم في قلّة، فجالَ القائد وأصحابه جولةً، وأبرد القائد إلى عبدالله بريداً يخبره بخبره وخبر ابن السريّ، فحمل رجاله على البغال؛ على كلّ بغل رجلين بآلتهما وأدواتهما، وجَنَبُوا الخيل، وأسرعوا السير حتى لحقوا القائد وابن السريّ؛ فلم تكن من عبد الله وأصحابه إلّا حمْلة واحدة حتى انهزم ابن السريّ وأصحابه، وتساقطتْ عامّة أصحابه - يعني ابن السريّ - في الخندق، فمن هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض في الخندق كان أكثرَ ممّن قتله الجند بالسيف، وانهزم ابن السريّ، فدخل الفسطاط، وأغلق على نفسه وأصحابه ومَنْ فيها الباب، وحاصره عبدالله بن طاهر؛ فلم يعاوده ابن السريّ الحربَ بعد ذلك حتى خرج إليه في الأمان.

وذكر عن ابن ذي القلمين، قال: بعث ابن السريّ إلى عبدالله بن طاهر لمّا ورد مصرْ ومانعه من دخولها بألف وَصِيف ووصيفة؛ مع كلّ وصيف ألف دينار في كيس حرير، وبعث بهم ليلاً. قال: فردّ ذلك عليه عبدالله وكتب إليه: لو قبلت هديّتك نهاراً لقبلتُها ليلاً ﴿بل أنتم بهديّتِكم تَفْرَحُون * ارْجعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بجُنُودٍ لا قِبلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخرِجنَّهُمْ مِنهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون﴾[1] قال: فحينئذ طلب الأمان منه، وخرج إليه.

وذكَر أحمد بن حفص بن حمر، عن أبي السمراء، قال: خرجنا مع الأمير عبدالله بن طاهر متوجّهين إلى

---

(١) سورة النمل: ٣٦ - ٣٧.

مصر؛ حتى إذا كنّا بين الرَّمْلة ودمشق؛ إذا نحن بأعرابيّ قد اعترض؛ فإذا شيخ فيه بقيّة على بعير له أوْرَق، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام. قال أبو السمراء: وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقيّ وإسحاق بن أبي رِبعيّ، ونحن نساير الأميرَ، وكنّا يومئذ أفرَه من الأمير دوابّ، وأجود منه كُساً. قال: فجعل الأعرابيّ ينظر في وجوهنا، قال: فقلتُ: يا شيخ؛ قد أَلحَحْت في النظر، أعرفت شيئاً أم أنكرته؟ قال: لا والله ما عرفتُكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتُكم لسوء أراه فيكم؛ ولكني رجلٌ حسن الفراسة في الناس، جيّد المعرفة بهم، قال: فأشرت له إلى إسحاق بن أبي رِبْعيّ، فقلت: ما تقول في هذا؟ فقال:

أَرَى كـاتِبـاً دَاهِي الكتـابَـةِ بـيِّنٌ ... عليـه وتـأْدِيبُ العـرَاقِ مُنـيرُ
لـه حـرَكـاتٌ قـد يشاهِـدْنَ أنَّـه ... عليمٌ بـتقسِيطِ الخَـراج بـصِـيرُ

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقيّ، فقال:

ومُـظهِـر نُسْـكٍ مـا عليـه ضميـرُهُ ... يُحِبُّ الهـدايا، بـالـرِّجـال مَكـورُ
إِخـالُ بـهِ جُبْنـاً وبُخْـلاً وشيـمَـةً ... تُـخـبِّـرُ عـنـهُ أنَّـه لَـوزيـرُ

ثم نظر إليّ وأنشأ يقول:

وهـذا نـديـمٌ لـلأمـيـر ومـؤنسٌ ... يكـونُ لـهُ بـالقـرْبِ منـهُ سـرورُ
إخـالـه لـلأشعـارِ والعِلم رَاوِيـاً ... فـبـعْضُ نـدِيـمٍ مـرَّةً وسـمـيـرُ

ثم نظر إليه الأمير وأنشأ يقول:

وهـذا الأَميـرُ المُـرتجَى سيْبُ كَفِّـهِ ... فمَـا إن لـه فيـمنْ رأَيْتُ نـظيـرُ
عـليـه رِدَاءٌ مـن جـمـالٍ وهـيْـبَـةٍ ... ووجـهٌ بـإدراكِ النـجـاحِ بـشِيـرُ
لقَـد عُصِم الإِسـلامُ مِنـه بـذَابـدٍ ... بـه عـاشَ معـرُوفٌ ومـاتَ نكيـرُ
ألا إنـمـا عبـدُ الإلـهِ بـنُ طـاهِـر ... لـنـا وَالـدٌ بَـرٌّ بـنـا، وأمـيـرُ

قال: فوقع ذلك من عبدالله أحسَن موقع، وأعجبه ما قال الشيخ، فأمر له بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه.

وذكر عن الحسن بن يحيى الفهريّ: قال: لقينا البُطينْ الشاعر الحمصيّ، ونحن مع عبدالله بن طاهر فيما بين سَلَمْيَة وحِمْص، فوقف على الطريق، فقال لعبدالله بن طاهر:

مَـرْحَـبـاً مَـرحَـبـاً وأهـلاً وسَـهْـلاً ... بـابنِ ذِي الجـودِ طـاهِـرِ بن الحُسينِ
مَـرْحـبـاً مَـرحـبـاً وأَهـلاً وسَـهْـلاً ... بـابن ذِي الغُـرَّتينِ في الـدَّعـوَتيـنِ
مَـرْحباً مـرحبـاً بمن كفُّـهُ البَحْـ ... ـرُ إذا فـاضَ مُـزبِـدَ الـرَّجَـوَيـن
مـا يُبـالـي المـأمـونُ أيَّـدهُ اللـ ... ـه إذا كـنْـتُـمـا لـه بـاقـيَـيْـنِ
أنـتَ غَـرْبٌ وذَاكَ شـرقٌ مقـيـمـاً ... أيُّ فـتـق أتـى مـنَ الـجـانـبَـيْـنِ
وحـقـيـقٌ إذ كُـنـتُـمـا فـي قـديـمٍ ... لـزُريْـق ومُـصـعـب وحُـسـيـنِ
أن تـنـالا مـا نـلـتُـمـاهُ مِـن الـمـجـ ... ـدِ وأن تـعْـلُوَا عـلـى الـثَّـقـلَـيْـنِ

قال: من أنت ثكلتك أمك! قال: أنا البُطَين الشاعر الحمصيّ، قال: اركب يا غلام وانظر كم بيتاً؟ قال: قال: سبعة، فأمر له بسعة آلاف درهم أو بسبعمائة دينار، ثم لم يزل معه حتى دَخلوا مصر والإسكندرية، حتى انخسف به وبدابته مَخرَجٌ، فمات فيه بالإسكندرية.

وفي هذه السنة فتح عبدالله بن طاهر الإسكندرية ـ وقيل كان فتحه إياها في سنة إحدى عشرة ومائتين ـ وأجلَى مَنْ كان تغلّب عليها من أهل الأندلس عنها.

ذكر الخبر عن أمره وأمرهم:

حدّثني غير واحد من أهل مصر، أنّ مراكبَ أقبلت من بحر الروم من قِبَل الأندلس، فيها جماعة كبيرة أيام شغل الناس قِبَلهم بفتنة الجَرَويّ وابن السريّ، حتى أرسوا مراكبَهم بالإسكندرية، ورئيسهم يومئذ رجل يدعَى أبا حفص؛ فلم يزالوا بها مقيمين حتى قدم عبدالله بن طاهر مصر. قال لي يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا منْ قبَل المشرق فتىً حدَث ـ يعني عبدالله بن طاهر ـ والدُّنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كلّ ناحية من بلادنا غالب، والناس منهم في بلاء؛ فأصلح الدنيا، وأمَّن البريء، وأخاف السقيم؛ واستوسقتْ له الرعيّة بالطاعة. ثم قال: أخبرنا عبدالله بن وهب، قال: أخبرني عبدالله بن لهيعة، قال: لا أدري رَفعُه إليّ قَبْلُ أم لا! فلم نجد فيما قرأنا من الكتب أن الله بالمشرق جنداً لم يَطعَ عليه أحدٌ من خلقه إلّا بعثهم عليه، وانتقم بهم منه ـ أو كلاماً هذا معناه ـ فلما دخل عبدالله بن طاهر بن الحسين مصر، أرسل إلى مَنْ كان بها من الأندلسيّين، وإلى من كان انضوى إليهم، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة، فأخبروني أنهم أجابوه إلى الطاعة، وسألوه الأمان، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الرّوم التي ليست من بلاد الإسلام، فأعطاهم الأمان على ذلك، وأنهم رحلوا عنها، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر؛ يقال لها إقْريطش، فاستوطنوها وأقاموا بها، وفيها بقايا أولادهم إلى اليوم.

وفي هذه السنة خلع أهل قمّ السلطان ومنعوا الخراج.

ذكر الخبر عن سبب خلعهم السلطان ومآل أمرهم في ذلك:

ذكر أن سبب خلعهم إياه كان أنهم كانوا استكثروا ما عليهم من الخراج، وكان خراجهم ألفيْ ألف درهم، وكان المأمون قد حطّ عن أهل الرّيّ حين دخلها منصرفاً من خراسان إلى العراق، ما قد ذكرت قبلُ، فطمع أهل قُمّ من المأمون في الفعل بهم في الحطّ عنهم والتخفيف مثل الذي فعل من ذلك بأهل الرّيّ، فرفعوا إليه يسألونه الحطّ، ويشكون إليه ثقله عليهم؛ فلم يجبْهم المأمون إلى ما سألوه، فامتنعوا من أدائه، فوجّه المأمون إليهم عليّ بن هشام، ثم أمده بعُجَيف بن عَنْبسة، وقدم قائد لحمَيد يقال له محمد بن يوسف الكج بعرض من خُراسان، فكتب إليه بالمصير إلى قمّ لحرب أهلها مع عليّ بن هشام، فحاربهم عليّ فظفر بهم، وقتل يحيى بن عمران وهدم سور قمّ، وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعدما كانوا يتظلّمون من ألفي ألف درهم.

ومات في هذه السنة شهريار، وهو ابن شروين، وصار في موضعه ابنه سابور، فنازعه مازيار بن قارن فأسره وقتله، وصارت الجبال في يدي مازيار بن قارن.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد وهو يومئذ والي مكة.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك خروج عبيد الله بن السريّ إلى عبد الله بن طاهر بالأمان، ودخول عبد الله بن طاهر مصر ـ وقيل إن ذلك في سنة عشر ومائتين ـ وذكر بعضهم أن ابن السريّ خرج إلى عبد الله بن طاهر يوم السبت لخمس بقين من صفر سنة إحدى عشرة ومائتين، وأدخل بغداد لسبع بقين من رجب سنة إحدى عشرة ومائتين، وأنزل مدينة أبي جعفر، وأقام عبد الله بن طاهر بمصر والياً عليها وعلى سائر الشأم والجزيرة؛ فذُكر عن طاهر بن خالد بن نزار الغساني، قال: كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها في أسفل كتاب له:

أخـي أنـت ومـولايَ ... ومَـنْ أشـكُـرُ نُـعـمَـاهُ
فـمـا أحـبَـبْـتَ مـن أمـرٍ ... فـإنِّـي الـدَّهْـرَ أهْـوَاهُ
ومـا تـكـرَهُ مِـنْ شَـيْءٍ ... فـإنّـي لـسْـتُ أرْضَـاهُ
لـك الله عـلـى ذاكَ ... لَـك اللهُ لَـك اللهُ

وذُكر عن عطاء صاحب مظالم عبد الله بن طاهر، قال: قال رجل من إخوة المأمون للمأمون: يا أميرَ المؤمنين، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وكذا كان أبوه قبله. قال: فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هذا القول، فدسّ إليه رجلا ثم قال له: امض في هيئة القرّاء والنسّاك إلى مصر، فادع جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم ائته فادْعُه ورغبه في استجابته له، وابحث عن دفين نيّته بحثاً شافياً، وائتني بما تسمع منه. قال: ففعل الرجل ما قال له، وأمره به؛ حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام، قعد يوماً بباب عبد الله بن طاهر، وقد ركب إلى عبيد الله بن السريّ بعد صلحه وأمانه، فلما انصرف قام إليه الرجل، فأخرج من كمّه رقعةً فدفعها إليه،فأخذها بيده؛ فما هو إلا أن دخل فخرج الحاجب إليه، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه؛ ما بينه وبين الأرض غيره، وقد مدّ رجليه، وخُفَّاه فيهما، فقال له: قد فهمت ما في رقعتك من جملة كلامك، فهاتِ ما عندك، قال: ولي أمانُك وذمّة الله معك؟ قال: لك ذلك، قال: فأظهر له ما أراد، ودعاه إلى القاسم، وأخبره بفضائله وعلمه وزهده، فقال له عبد الله: أتُنصِفني؟ قال: نعم، قال: هل يجب شكر الله على العباد؟ قال: نعم، قال: فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضّل؟ قال: نعم، قال: فتجيء إليّ وأنا في هذه الحالة التي ترى، لي خاتمٌ في المشرق جائز وفي المغرب كذلك؛ وفيما بينهما أمري مطاع، وقولي مقبول، ثم ما التفتّ يميني ولا شمالي وورائي وقدّامي إلّا رأيت نعمة لرجل أنعمها عليّ، ومنّة ختم بها

رقبتي، ويداً لائحة بيضاء ابتدأني بها تفضّلا وكرماً، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان، وتقول: اغدر بمن كان أولا لهذا وآخراً، واسعْ في إزالة خيْط عنقه وسفك دمه! تراكَ لو دعوتَني إلى الجنة عياناً من حيث أعلم؛ أكان الله يحبّ أن أغدر به، وأكفر إحسانه ومنّته، وأنكث بيعَته! فسكت الرجل، فقال له عبد الله: أما إنه قد بلغني أمرُك، وتالله ما أخاف عليك إلاّ نفْسَك؛ فارحل عن هذا البلد؛ فإنّ السلطان الأعظم إن بلغه أمرُك ـ وما آمنُ ذلك عليك ـ كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك. فلمّا أيسَ الرجل مما عنده جاء إلى المأمون، فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غرس يدي، وإلْف أدبي، وترْب تلقيحي، ولم يُظهر من ذلك لأحدٍ شيئاً، ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وذُكر عن عبد الله بن طاهر أنه قال وهو محاصر بمصر عبيد الله بن السريّ:

بكَرَتْ تُسْبِلُ دَمْعاً ... أنْ رأت وشْكَ بَراص
وَتَبَدَّلتُ صقيلاً ... يمنيًّا بِوِشَاحِي
وتمادَيْتُ بسَيْرٍ ... لِغُدُوٍّ وَرَواحِ
زعمَتْ جَهلا بأنِّي ... تَعِبٌ غيْرُ مُراحِ
أقصِري عنِّي فإنِّي ... سالكٌ قَصْدَ فلاحِي
أنا للمأمونِ عبدٌ ... مِنْهُ في ظلِّ جَنَاحِ
إن يُعافِ اللهُ يوماً ... فَقَريب مُسْتَرَاحي
أوْ يكنْ هُلكٌ فقُولي ... بِعَويلٍ وصِياحٍ:
حلَّ في مصرَ قَتِيلٌ ... وَدِعِي عنكِ التَّلاحِي

وذُكر عن عبد الله بن أحمد بن يوسف أنّ أباه كتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السريّ إليه يهنئه بذلك الفتح:

بلغني أعزّ الله الأميرُ ما فتح الله عليك، وخروجُ ابن السريّ إليك؛ فالحمد لله الناصر لدينه، المعزّ لدولة خليفته على عباده، المذلّ لمن عَنَد عنه وعن حقه، ورغب عن طاعته. ونسأل الله أن يظاهرَ له النِّعم، ويفتح له بلدان الشِّرْك، والحمد لله على ما وليك به مذ ظعنتَ لوجهك؛ فإنّا ومَنْ قبلَنا نتذاكر سيرتَك في حرْبك وسلمك، ونكثر التعجّب لما وُفِّقت له من الشدّة واللِّيان في مواضعها، ولا نعلَم سائس جندٍ ورعيّة عدل بينهم عدلَكَ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك؛ ولَقَلّ ما رأينا ابن شَرف لم يُلق بيده متكلا على ما قدّمَتْ له أبوّته، ومَنْ أوتيَ حظًّا وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا حتى يخلّ بمساماة ما أمامه. ثم لا نَعلم سائساً استحقّ النُّجح لحسن السيرة وكفّ معرّة الأتباع استحقاقَك. وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدّم عليك أحداً يهوى عند الحقاة والنازلة المعضلة فليهنك منّة الله ومزيده، ويسوّغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمّت لك؛ من التّمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين، وملّاك وإيانا العيش ببقائه.

وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرّماً مقدّماً معظماً؛ وقد زادك الله في أعين الخاصّة والعامة جلالاً وَبجَالة؛ فأصبحوا يرجونك لأنفسهم، ويُعدّونك لأحداثهم ونوائبهم؛ وأرجو أن يوفّقك الله لمحابّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه؛ فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك، ولم تزدد إلا تذلُّلاً وتواضعاً؛ فالحمد لله على ما

أنالك وأبلاك، وأودع فيك. والسلام.

وفي هذه السنة قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين مدينة السلام من المغرب، فتلقّاه العباس بن المأمون وأبو إسحاق المعتصم وسائر الناس، وقدم معه بالمتغلّبين على الشأم كابن السرْج وابن أبي الجَمَل وابن أبي الصفر.

ومات موسى بن حفص، فولى محمد بن موسى طَبرِستان مكان أبيه.

وولى حاجب بن صالح الهند فهزمه بشْر بن داود، فانحاز إلى كرمَان.

وفيها أمر المأمون منادياً فنادى: برئت الذمّة ممّن ذكر معاوية بخير، أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس وهو والي مكة.

وفيها مات أبو العتاهية الشاعر.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه المأمون محمد بن حميد الطوسيّ إلى بابك لمحاربته على طريق الموصل وتقويته إياه، فأخذ محمد بن حُميد يعلَى بنَ مرّة ونظراءه من المتغلبة بأذْرَبيجان، فبعث بهم إلى المأمون.

وفيها خلع أحمد بن محمد العمريّ المعروف بالأحمر العين باليمن.

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الحميد المعروف بأبي الرازي اليمن.

وفيها أظهر المأمون القولَ بخلق القرآن وتفضيل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وذلك في شهر ربيع الأول منها.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة عبدالله بن عبدالله بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خلْع عبد السلام وابن جَليس بمصر في القيسية واليمانيّة ووثوبهما بها.

وفيها مات طلحة بن طاهر بخُراسان.

وفيها ولّى المأمون أخاه أبا إسحاق الشأم ومصر، وولّى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم، وأمر لكل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار.

وقيل: إنه لم يفرّق في يوم من المال مثل ذلك.

وفيها ولّى غسان بن عباد السند.

ذكر الخبر عن سبب توليته إيّاه السند:

وكان السبب في ذلك ـ فيما بلغني ـ أن بشر بن داود بن يزيد خالف المأمون، وَجَبى الخراج فلم يحمل إلى المأمون شيئاً منه؛ فذُكر أن المأمون قال يوماً لأصحابه: أخبروني عن غسّان بن عباد؛ فإني أريده لأمر جسيم ـ وكان قد عزم على أن يولِّيه السند لما كان من أمر بشر بن داود ـ فتكلم مَنْ حضر، وأطنبوا في مدحه، فنظر المأمون إلى أحمد بن يوسف وهو ساكت، فقال له: ما تقول يا أحمد؟ قال: يا أميرَ المؤمنين ذاك رجل محاسنه أكثر من مساويه؛ لا تصرف به إلى طَبَقة إلا انتصف منهم؛ فمهما تخوّفت عليه؛ فإنه لن يأتي أمراً يُعتذر منه؛ لأنه قسّم أيامَه بين أيام الفضل، فجعل لكل خلُق نوْبة، إذا نظرت في أمرِه لم تدر أيّ حالاته أعجب! إما هداه إليه عقله؛ أم إما اكتسبه بالأدب، قال: لقد مدحتَه على سوء رأيك فيه! قال: لأنّه فيما قلت كما قال الشاعر:

كفى شكراً بما أسْدَيتَ أنّي ... مدَحتُك في الصَّديق وفي عِداتي

قال: فأعجب المأمونَ كلامُه، واسترجح أدبه.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك مقتل محمد بن حُميد الطوسيّ، قتله بابك بهِشْتَادْسَر، يوم السبت لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول، ورفض عسكره، وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه.

وفيها قُتل أبو الرازيّ باليمن.

وفيها قُتل عُمَير بن الوليد الباذَغيسيّ عامل أبي إسحاق بن الرشيد بمصر بالحوْف في شهر ربيع الأول، فخرج أبو إسحاق إليها فافتتحها، وظفر بعبد السلام وابن جَليس، فقتلهما فضرب المأمونُ بن الحَروريّ وردّه إلى مصر.

وفيها خرج بلال الضَّبابيّ الشاري، فشخص المأمون إلى العَلْث، ثم رجع إلى بغداد، فوجّه عباساً ابنه في جماعة من القوّاد، فيهم عليّ بن هشام وعُجيف وهارون بن محمد بن أبي خالد، فقتلَ هارون بلالا.

وفيها خرج عبد الله بن طاهر إلى الدّينَور، فبعث المأمون إليه إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم يخيّرانه بين خُراسان والجبال وأرمينيَة وأذْرَبيجان، ومحاربة بابك، فاختار خُراسان، وشخص إليها.

وفيها تحرّك جعفر بن داود القُميّ، فظفر به عزيز مولى عبد الله بن طاهر، وكان هرب من مصر فردّ إليها.

وفيها ولّى عليّ بن هشام الجبل وقُمّ وإصبهان وأذرَبيجان.

وحجّ بالناس في هذه السنة إسحاق بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

وفي هذه السنة شخص المأمون من مدينة السّلام لغزو الروم، وذلك يوم السبت، فيما قيل - لثلاث بقين من المحرّم - وقيل كان ارتحاله من الشماسيّة إلى البَرَدان يوم الخميس بعد صلاة الظهر، لستّ بقين من المحرّم سنة خمس عشرة ومائتين - واستخلف حين رَحل عن مدينة السلام عليها إسحاق بن إبراهيم بن مُعصب، وَوُلِّيَ مع ذلك السواد وحُلْوان وكُور دِجْلة. فلما صار المأمون بتَكْريت قدم عليه محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رحمه الله، من المدينة في صَفر ليلة الجمعة من هذه السنة، ولقيَه بها فأجازه، وأمره أن يدخل بابنته أم الفَضْل وكان زوّجها منه؛ فأدخِلت عليه في دار أحمد بن يوسف التي على شاطىء دجْلة، فأقام بها؛ فلما كان أيام الحجّ خرج بأهله وعياله حتى أتى مكة، ثم أتى منزله بالمدينة؛ فأقام بها، ثم سلك المأمون طريق الموصل، حتى صار إلى مَنْبج، ثم إلى دابق، ثم إلى أنطاكيَة، ثم إلى المَصِّيصة، ثم خرج منها إلى طَرَسُوس، ثمّ دخل من طَرَسوس إلى بلاد الرّوم للنصف من جمادى الأولى. ورحل العباس بن المأمون من ملَطْيَة؛ فأقام المأمون على حصن يقال له قُرّة؛ حتى فتحه عَنْوة؛ وأمر بهدمه؛ وذلك يوم الأحد لأربع بقين من جُمادى الأولى؛ وكان قد افتتح قبل ذلك حصناً يقال له ماجدة؛ فمنّ على أهلها.

وقيل إن المأمون لما أناخ على قُرّة، فحارب أهلها طلبوا الأمان، فآمنهم المأمون، فوجه أشناس إلى حصن سندس، فأتاه برئيسه، ووجّه عُجيفاً وجعفراً الخياط إلى صاحب حصن سنان، فسمع وأطاع.

وفي هذه السنة انصرف أبو إسحاق بن الرشيد من مصر، فلقي المأمون قبل دخوله الموصل، ولقيه مَنْوِيل وعباس ابنه برأس العين.

وفيها شخص المأمون بعد خروجه من أرض الروم إلى دمشق.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك كرّ المأمون إلى أرض الروم.

ذكر السبب في كرّه إليها:

اختُلف في ذلك، فقيل: كان السبب فيه ورودُ الخبر على المأمون بقتل ملك الرّوم قوماً من أهل طَرَسوس والمَصِّيصَة؛ وذلك ـ فيما ذُكر ـ ألف وستمائة. فلما بلغه ذلك شخص حتى دخل أرض الرّوم يوم الأثنين لإحدى عشرة بقيتْ من جُمادى الأولى من هذه السنة، فلم يزل مقيماً فيها إلى النّصف من شعبان.

وقيل: إن سبب ذلك أن تَوْفيل بن ميخائيل كتب إليه، فبدأ بنفسه، فلمّا ورد الكتاب عليه لم يقرأه، وخرج إلى أرض الرُّوم، فوافاه رسل تَوْفيل بن ميخائيل بأذَنَة، ووجّه بخمسمائة رجل من أسارى المسلمين إليه؛ فلما دخل المأمون أرضَ الروم، ونزل على أنطيغوا، فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرَقْلَةَ، فخرج أهلها إليه على صلح، ووجّه أخاه أبا إسحاق، فافتتح ثلاثين حصناً ومطمورة. ووجّه يحيى بن أكثم من طُوانة، فأغار وقتل وحرّق، وأصاب سبْياً ورجع إلى العسكر. ثم خرج المأمون إلى كيسوم، فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم ارتحل إلى دمشق.

وفي هذه السنة ظهر عَبْدُوس الفِهْريّ، فوثب بمن معه على عمّال أبي إسحاق، فقتل بعضهم، وذلك في شعبان، فشخص المأمون من دِمشق يوم الأربعاء لأربعَ عشرة بقيتْ من ذي الحجّة إلى مصر.

وفيها قدم الأفشين من بَرْقة منصرفاً عنها، فأقام بمصر.

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتَّكْبير إذا صلُّوا، فبدؤوا بذلك في مسجد المدينة والرُّصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيتْ من شهر رمضان من هذه السنة، حين قضوا الصلاة، فقاموا قياماً، فكبّروا ثلاث تكبيرات، ثم فعلوا ذلك في كلِّ صلاة مكتوبة.

وفيها غضب المأمون على عليّ بن هشام، فوجّه إليه عُجيف بن عنبسة وأحمد بن هشام، وأمر بقبض أمواله وسلاحه.

وفيها ماتت أمّ جعفر ببغداد في جمادي الأولى.

وفيها قدم غسان بن عباد من السِّنْد، وقد استأمن إليه بشر بن داود المهلبيّ، وأصلح السند، واستعمل عليها عمران بن موسى البرمكيّ، فقال الشاعر:

سيفُ غسانَ رَونَقُ الحربِ فيه ... وسمامُ الحُتوفِ في ظُبَتَيْهِ
فإذا جرَّه إلى بلدِ السنـ ... ـدِ فألقَى المَقادَ بِشرٌ إليهِ
مُقسِماً لا يعودُ ما حجَّ للـ ... ـه مُصَلّ وما رمى جَمَرتَيْهِ
غادِراً يَخلَعُ الملوكَ ويغتا ... لُ جُنوداً تأْوى إلى ذِروَتَيْهِ

فرجع غسان إلى المأمون، وهرب جعفر بن داود القميّ إلى قمّ، وخلع بها.

وفي هذه السنة كان البَرْد الشديد.

وحجّ بالناس ـ في قول بعضهم ـ في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس. وفي قول بعضهم: حجّ بهم في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس؛ وكان المأمون ولّاه اليمن، وجعل إليه ولاية كلّ بلدة يدخلها حتى يدخل إلى اليمَن، فخرج من دمشق حتى قدم بغداد، فصلّى بالناس بها يوم الفطْر، فشخص من بغداد يوم الأثنين لليلةٍ خلَتْ من ذي القَعْدة، وأقام الحجّ للناس.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ظَفَرُ الأفشينْ فيها بالبِيَما؛ وهي من أرض مصر، ونزَل أهلها بأمان على حُكْم المأمون، قُرِىء كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر.

وورد المأمون فيها مصر في المحرّم، فأُتِيَ بعبدوس الفهريّ فضرب عنقه، وانصرف إلى الشأم.

وفيها قتل المأمون ابني هشام عليًّا وحُسيناً بأذَنَة في جمادى الأولى.

ذكر الخبر عن سبب قتله عليًّا:

وكان سبب ذلك، أنّ المأمون لِلّذي بلغه من سوء سيرته في أهل عمله الذي كان المأمون ولآه - وكان ولاّه كُور الجبال - وقتلِه الرجال، وأخذِه الأموال؛ فوُجّه إليه عُجيف، فأراد أن يفتك به ويلحق ببابك، فظفر به عُجيف، فقدم به على المأمون، فأمر بضرب عنقه، فتولى قتله ابن الجليل. وتولّى ضربَ عُنُق الحسين محمد بن يوسف ابن أخيه بأذَنَة، يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيتْ من جمادي الأولى، ثم بعث رأس عليّ بن هشام إلى بغداد وخُراسان، فطِيف به، ثم رُدّ إلى الشأم والجزيرة فطِيف به كورةً كورةً، فقدم به دمشق في ذي الحجة، ثم ذهب به إلى مصر، ثم ألقي بعد ذلك في البحر.

وذُكر أن المأمون لما قتل عليّ بن هشام، أمر أن يكتب رقعة وتُعلَّق على رأسه ليقرأها الناس؛ فكتب:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين كان دعا عليّ بن هشام فيمن دعا من أهل خُراسان أيام المخلوع، إلى معاونته والقيام بحقه، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة، وعاون فأحسن المعاونة. فرعى أمير المؤمنين ذلك له واصطنعه، وهو يظنّ به تقوى الله وطاعته والانتهاء إلى أمر أمير المؤمنين في عمل إن أسند إليه في حسن السيرة وعفاف الطُّعمة، وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فولاّه الأعمال السنيّة، ووصله بالصلات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فمدّ يده إلى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقالَ أميرَ المؤمنين عثرَته فأقاله إيّاها، وولاّه الجبل وأذرَبيجان وكُور أرمينيَة، ومحاربة أعداء الخرّميّة، على ألا يعود لما كان منه؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدّرهم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة وعسْف الرعيّة وسفك الدماء المحرّمة، فوجّه أمير المؤمنين عُجيف بن عَنْبسة مباشراً لأمره، وداعياً إلى تلافي ما كان منه؛ فوثب بعُجَيف يريد قتله، فقوّى الله عُجيفاً بنيّته الصادقة في طاعة أمير المؤمنين؛ حتى دفعه عن نفسه، ولو تمّ ما أراد بعُجَيف لكان في ذلك ما لا يستدرك ولا يستقال؛ ولكنّ الله

إذا أراد أمراً كان مفعولا. فلما أمضى أميرُ المؤمنين حكم الله في عليّ بن هشام، رأى ألا يؤاخذ مَنْ خلفه، بذنبه، فأمر أن يجري لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومَنْ كان يجري عليهم مثل الذي كان جارياً لهم في حياته؛ ولولا أن عليّ بن هشام أراد العُظمى بعُجيف، لكان في عداد مَنْ كان في عسكره ممن خالف وخان، كعيسى بن منصور ونظرائه. والسلام:

وفي هذه السنة دخل المأمونُ أرضَ الرّوم، فأناخ على لؤلؤة مائة يوم، ثم رحل عنها وخلّف عليها عُجَيفاً، فاختدعه أهلُها وأسروه؛ فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام، ثم أخرجوه، وصار تَوْفيل إلى لؤلؤة، فأحاط بعُجَيف، فصرف المأمون الجنود إليه، فارتحل تَوْفيل قبل موافاتهم، وخرج أهل لؤلؤة إلى عُجَيف بأمان.

وفيها كَتب تَوْفيل صاحب الرُّوم إلى المأمون يسأله الصلح، وبدأ بنفسه في كتابه، وقدم بالكتاب الفضل وزير توْفيل يطلب الصلح، وعرض الفدية.

وكانت نسخة كتاب توفيل إلى المأمون:

أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظِّهما أوْلى بهما في الرأي مما عاد بالضرّر عليهما؛ ولستَ حريًّا أن تَدع لحظٍّ يصل إلى غيرك حظًّا تحوزُه إلى نفسك، وفي علمك كافٍ عن إخبارك؛ وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كلّ واحد لكل واحد وليًّا وحزباً؛ مع اتصال المرافق والفُسَح في المتاجر، وفكّ المستأسر، وأمن الطرق والبَيْضة؛ فإن أبيتَ فلا أدِبَ لـك في الخَمَر، ولا أزخرف لك في القول؛ فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسدادها؛شان خيلَها ورجالها،وإن أفعل فبعد أن قدّمت المعذرة، وأقمت بيني وبينك عَلَم الحجّة. والسلام.

فكتب إليه المأمون:

أما بعد؛ فقد بلغني كتابُك فيما سألتَ من الهدنة، ودعوتَ إليه من الموادَعة، وخلطت فيه من اللِّين والشدّة؛ مما استعطفتَ به؛ من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفكّ الأسارى، ورفع القَتْل والقتال، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤّدة والأخذ بالحظّ في تقليب الفكرة، وألاّ أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه، لجعلت جوابَ كتابك خيلاً تحمل رجالا من أهل البأس والنّجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثُكلكم ويتقرّبون إلى الله بدمائكم، ويستقلّون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافياً من العُدّةِ والعتاد، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرّتهم عليكم؛ موعدُهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة، أو كريم منقلَب؛ غير أني رأيت أن أتقدّم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفيّة؛ فإن أبيتَ ففدية توجب ذّمة، وتُثبت نَظرة، وإن تركتَ ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يُغني عن الإبلاغ في القول والإغـراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى.

وفيها صار المأمون إلى سَلَغُوس.

وفيها بعث عليّ بن عيسى القميّ جعفر بن داود القميّ فضرب أبو إسحاق بن الرّشيد عنقَه.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن عليّ.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من شخوص المأمون من سَلَغُوس إلى الرّقة، وقتله بها ابنَ أخت الداري.

وفيها أمر بتفريغ الرّافقة لينزلها حشمه، فضجّ من ذلك أهلها فأعفاهم.

وفيها وجّه المأمون ابنَه العباس إلى أرض الرّوم، وأمره بنزول الطُّوانة وبنائها، وكان قد وجّه الفَعَلة والفروض، فابتدأ البناء، وبناها ميلاً في ميل، وجعل سورَها على ثلاثة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب، وبنى على كلّ باب حصْناً؛ وكان توجيهُه ابنَه العباس في ذلك في أوّل يوم من جمادى.

وكتب إلى أخيه أبي إسحاق بن الرّشيد؛ أنه قد فرض على جُند دمشق وحِمْص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل، وأنه يجري على الفارس مائة درهم، وعلى الرّاجل أربعين درهماً، وفرضَ على مصر فَرْضاً، وكتب إلى العباس بمَنْ على قِنّسرين والجزيرة، وإلى إسحاق بن إبراهيم بمن فرض على أهل بغداد وهم ألف رجل، وخرج بعضهم حتى وافَى طُوانة ونزلها مع العباس.

وفي هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدّثين، وأمر بإشحاص جماعة منهم إليه إلى الرّقّة؛ وكان ذلك أوّل كتاب كتب في ذلك، ونسخة كتابه إليه:

أما بعد؛ فإن حقّ الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهادُ في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوّة التي أورثهم، وأثْر العلم الذي استودعهم، والعملُ بالحقّ في رعيّتهم والتشمير لطاعة الله فيهم، واللّهَ يسألَ أميرُ المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرّشد وصريمته والإقساط فيما ولاّه الله من رعيّته برحمته ومنّته. وقد عرف أمير المؤمنين أنّ الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حَشْو الرعية وسفْلة العامة ممن لا نظرَ له ولا روّية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهلُ جهالة بالله، وعمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به. ونكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ أن يقدروا الله حقّ قدره، ويعرفوه كنهَ معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكّر والتذكر؛ وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتّفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أوّل لم يخلقه الله ويُحْدِثه ويخترعه، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدًى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾[1]، فكلُّ ما جعله الله فقد خلقه،

---

(١) سورة الزخرف: ٣.

وقال: ﴿الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضَ وَجَعَلَ الظُّلماتِ وَالنُّورَ﴾[١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿كَذَلِكَ نقصُّ عَلَيْكَ من أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبق﴾[٢]، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدّمها، وقال: ﴿الَرَ * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُن حَكِيمٍ خَبِير﴾[٣]، وكل محكَمٍ مفصَّل فله محكِم مفصِّل، والله محكم كتابه ومفصله؛ فهو خالقه ومبتدعه.

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كلّ فصل من كتاب الله قَصَص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذّب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونِحْلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحقّ والدين والجماعة، وأن مَنْ سواهم أهل الباطل والكفر والفُرْقة، فاستطالوا بذلك على النّاس، وغرّوا به الجهّال حتى مال قوم من أهل السَّمْت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشّف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم، تزّيّناً بذلك عندهم وتصنعاً للرياسة والعَدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتّخذُوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبِلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دَغَل دينهم، ونغَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم. وكان ذلك غايتهم التي إليها أجرْوا، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم، وقد أخِذ عليهم ميثاق الكتاب ألّا يقولوا على الله إلا الحقّ، وَدَرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمّهُم اللّهُ وأعمى أبصارهم، ﴿افَلاَ يَتَدَبَّرونَ الْقُرْآن أَمْ عَلى قلُوبٍ أقفَالُها﴾.

فرأى أمير المؤمنين أنَّ أولئك شرُّ الأمة ورؤوس الضّلالة، المنقوصين من التوحيد حظًّا، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه؛ من أهل دين الله، وأحقّ من يُتّهم في صدقه، وتطرح شهادته، لا يوثَق بقوله ولا عمله؛ فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقينَ إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد، ومن عَميَ عن رُشْده وحظّه من الإيمان بالله وبتوحيده؛ كان عمّا سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمَى وأضلّ سبيلاً. ولعمرُ أمير المؤمنين إنَّ أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرّص الباطل في شهادته، من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإنّ أولاهم بردّ شهادته في حكم الله ودينه من ردّ شهادة الله على كتابه، وبَهت حق الله بباطله.

فاجمعْ من بحضْرتك من القُضاة، واقرأ عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون، في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيّته بمن لا يوثَق بدينه وخلوص توحيده ويقينه؛ فإذا أقرّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة. فمرهم بنصّ من يحضُرهم من الشهود على الناس ومسألتهم على علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقرّ أنه مخلوق محدَث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم؛ والأمر لهم بمثل ذلك؛ ثم أشرف عليهم وتَفَقَّد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدّين والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله.

---

(١) سورة الأنعام: ١.

(٢) سورة طه: ٩٩.

(٣) سورة هود: ١ ـ ٢.

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين.

وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبعة نفر، منهم محمد بن سعد كاتب الواقديّ، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب أبو خيثمة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدّوْرقيّ؛ فأشخِصوا إليه، فامتحنهم وسألهم عن خلْق القرآن، فأجابوا جميعاً إن القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهر أمرهم وقولهم بحضْرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقرُّوا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلّى سبيلهم. وكان ما فعل من ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون.

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم:

أما بعدُ، فإنّ من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رعايةَ خلْقه وإمضاء حكمه وسُننَه والائتمام بعدله في بريته، أن يُجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه ـ تبارك اسمه وتعالى ـ بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردّوا مَنْ أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سَمْت نجاتهم، ويقِفوهم على حدود إيمانهم وسبيلِ فوزهم وعصمتهم ويكشفوا لهم مغطّيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم، بما يدفعون الرّيْب عنهم، ويعود بالضياء والبيِّنة على كافّتهم، وأن يؤثِرُوا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذْ كان جامعاً لفنون مصانعهم، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكّروا ما الله مُرصدٌ من مساءلتهم عمّا حُمّلوه، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحدَه، وحسبه الله وكفى به. ومما بيّنه أمير المؤمنين برويّته، وطالعه بفكره، فتبينَ عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكْفه وضرره، ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم، وأثراً من رسول الله ﷺ وصفيّه محمد ﷺ باقياً لهم، واشتباهه على كثير منهم؛ حتى حسن عندهم، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقاً، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه، وتفرّد بجلالته؛ من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته، والتقدّم عليها بأوليّته التي لا يُبلَغ أولاها، ولا يدرك مداها؛ وكان كل شيء دونه خَلْقاً من خلقه، وحدَثا هو المحدِث له؛ وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاًّ عليه، وقاطعاً للاختلاف فيه، وضاهَوْا به قول النصارى في دعائهم في عيسى بن مريم: إنه ليس بمخلوق؛ إذ كان كلمة الله، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾[1]، وتأويل ذلك أنا خلقناه كما قال جلّ جلاله: ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2] وقال: ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ لباساً وَجَعلنا النَّهَارَ مَعاشا﴾[3]، ﴿وَجَعَلنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شيْءٍ حَيٍّ﴾[4] فسوّى عزّ وجلّ بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآن مَجيدٌ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[5]، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[6] وقال: ﴿مَا يَأْتيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾[7]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترَى عَلى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كذَّبَ بآيَاتِهِ﴾[8]،

(١) سورة الزخرف: ٣.
(٢) سورة الأعراف: ١٨٩.
(٣) سورة النبأ: ١٠ ـ ١١.
(٤) سورة الأنبياء: ٣٠.
(٥) سورة البروج: ٢١ ـ ٢٢.
(٦) سورة القيامة: ١٦.
(٧) سورة الأنبياء: ٢.
(٨) سورة الأنعام: ٢١.

وأخبر عن قوم ذمَّهم بكذبهم أنهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[١]، ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى﴾[٢]، فسمّى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً وإيماناً ونوراً وهدًى ومباركاً وعربيًّا وقصصاً، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[٣]، وقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجنُّ على أن يَأْتوا بمثلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يأْتُونَ بِمثْلِهِ﴾[٤]، وقال: ﴿قُلْ فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفتَرَيَاتٍ﴾[٥]، وقالَ: ﴿لاَ يأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلاَ مِنْ خَلْفِه﴾[٦] فجعل له أولا وآخراً، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق.

وقد عَظّم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثَّلْمَ في دينهم، والحرجَ في أمانتهم وسهّلوا السبيلَ لعدوّ الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا ووصفوا خَلْق الله وفعلَه بالصّفة التي هي لله وحده، وشبّهوه به، والاشتباهُ أولى بخلقه. وليس يرى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظًّا في الدّين، ولا نصيباً من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحلّ أحداً منهم محلّ الثقة في أمانة، ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرّعيّة، وإن ظهر قصْد بعضهم، وعُرف بالسداف مسدّدٌ فيهم؛ فإن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمْد والذمّ عليها؛ ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سوّاه أعظم جهلاً، وعن الرّشد في غيره أعمى وأضلّ سبيلاً.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك، وانصصهما عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقرّ بأن القرآن مخلوق فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك، فتقدّمْ إليهما في امتحان مَنْ يحضر مجالسهما بالشّهادات على الحقوق، ونصّهم عن قولهم في القرآن؛ فمن لم يقلْ منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته، ولم يقطعا حكماً بقوله؛ وإن ثبت عفافُه بالقصد والسّداد في أمره. وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرِف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك. إن شاء الله.

قال: فأحضر إسحاقُ بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدّثين، وأحضر أبا حسان الزياديّ وبشر بن الوليد الكنديّ وعليّ بن أبي مقاتل والفضل بن غانم والذيّال بن الهيثم وَسجّادة والقواريريّ وأحمد بن حنبل وقُتيبة وسعدويه الواسطيّ وعليّ بن الجعد وإسحاق بن أبي إسرائيل وابن الهَرْش وابن عُلَيّة الأكبر ويحيى بن عبد الرحمن العمريّ وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب ـ كان قاضي الرقة ـ وأبا نصر التّمار وأبا مَعْمَر الطيعيّ ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفَرُّخان، وجماعة منهم النضْر بن شُمَيل وابن عليّ بن عاصم وأبو العوام البزّاز وابن شجاع وعبد الرحمن بن إسحاق؛ فأدخلوا جميعاً على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتيْن حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقولُ في القرآن؟ فقال: قد عرّفتُ مقالتي لأمير المؤمنين غير مرّة؛ قال: فقد تجدّدَ من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال: أقول: القرآن

---

(١) سورة الأنعام: ٩١.
(٢) سورة يوسف: ٣.
(٣) سورة الأنعام: ٩١.
(٤) سورة الإسراء: ٨٨.
(٥) سورة هود: ١٣.
(٦) سورة فصلت: ٤٢.

كلام الله، قال: لَمْ أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كلّ شيء، قال: ما القرآن شيء؟ قال: هو شيء، قال: فمخلوق؟ قال: ليس بخالق، قال: ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: ما أحسِنُ غيرَ ما قلت لك، وقد استعهدتُ أمير المؤمنين ألاّ أتكلم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك. فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعةً كانت بين يديه، فقرأها عليه، ووقّفه عليها، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرْداً، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنًى من المعاني، ولا وجه من الوجوه، قال: نعم؛ وقد كنت أضرب الناس على دون هذا، فقال للكاتب: اكتب ما قال.

ثم قال لعليّ بن أبي مقاتل: ما تقول يا عليّ؟ قال: قد سمَّعتُ كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرّة وما عندي غير ما سمع، فامتحنه بالرقعة فأقرّ بما فيها، ثم قال: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، قال: هو كلام الله؛ وإن أمَرَنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. فقال للكاتب: اكتب مقالته.

ثم قال للذيّال نحواً من مقالته لعليّ بن أبي مقاتل، فقال له مثل ذلك.

ثم قال لأبي حسان الزياديّ: ما عندك؟ قال: سلْ عما شئت، فقرأ عليه الرّقعة ووقّفه عليها، فأقرّ بما فيها. ثم قال: من لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال: القرآن مخلوق هو؟ قال: القرآن كلام الله والله خالق كلّ شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامّة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلّده الله أمرنا، فصار يقيم حجنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامةً، إن أمرَنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا. قال: القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته، قال: إن هذه مقالة أمير المؤمنين، قال: قد تكونُ مقالة أمير المؤمنين ولا يأمرُ بها الناس ولا يدعوهم إليها؛ وإن أخبرتَني أن أمير المؤمنين أمَرك أن أقول، قلتُ ما أمرتَني به؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتَني عنه من شيء؛ فإن أبلغتَني عنه بشيء صرت إليه، قال: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال عليّ بن أبي مقاتل: قد يكون قولُه كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها، قال له أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فمرني آتمر، قال: ما أمرني أن آمرك؛ وإنما أمرني أن أمتحنَك.

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل، فقال له: ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها، فامتحَنه بما في الرّقعة، فلما أتى على «ليس كمثله شيء»، قال: ﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه، فاعترض عليه ابن البكّاء الأصغر، فقال: أصلحك الله! إنه يقول: سميع من أذن، بصير من عين، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله: ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري، هو كما وصف نفسه.

ثم دعا بهم رجلا رجلا، كلهم يقول: القرآن كلام الله، إلا هؤلاء النّفر: قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن وابنُ علَيّة الأكبر وابن البكّاء وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبّه والمظفّر بن مُرَجّاً، ورجلاً ضريراً ليس

(١) سورة الشورى: ١١.

من أهل الفقه، ولا يعرَف بشيء منه إلا أنه دُسّ في ذلك الموضع، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرَّقة، وابن الأحمر، فأما ابنُ البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاه قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾(١) والقرآن محدَث لقوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾(٣) قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول؛ فكتب مقالته.

فلمّا فرغ من امتحان القوم، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكّاء الأصغر، فقال: أصلحك الله! إنَّ هذين القاضيين أئمة، فلو أمرتَهما فأعادا الكلام! قال له إسحاق: هما ممّن يقوم بحجة أمير المؤمنين، قال: فلو أمرتَهما أن يُسمعانا مقالتهما، لنحكي ذلك عنهما! قال له إسحاق: إنْ شهدت عندهما بشهادة، فستعلم مقالتهما إن شاء الله.

فكتب مقالة القوم رجلا رجلا، ووُجّهت إلى المأمون، فمكث القوم تسعة أيام؛ ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم، ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد؛ فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جواب كتابه كان إليك، فيما ذهب إليه متصنّعة أهل القِبْلة وملتمسو الرّئاسة، فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم، وتكشيف أحوالهم وإحلالهم محالَّهم. تذكر إحضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممّن كان ينسب إلى الفقه، ويعرف بالجلوس للحديث، وينصب نفسه للفُتْيا بمدينة السلام، وقراءتك عليهم جميعاً كتابَ أمير المؤمنين، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن، والدلالة لهم على حظِّهم، وإطباقهم على نفي التشبيه واختلافهم في القرآن، وأمرك مَنْ لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى في السرّ والعلانية، وتقدّمك إلى السنديّ وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدّمت به فيهم إلى القاضيْين بمثل ما مثّل لك أمير المؤمنين من امتحان مَنْ يحضر مجالسهما من الشهود، وبثّ الكتب إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حدّه أميرُ المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء مَنْ حضر ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصتَ.

وأمير المؤمنين يحمَد الله كثيراً كما هو أهله، ويسأله أن يصلّيَ على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرغبُ إلى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة على صالح نيّته برحمته. وقد تدبّر أميرُ المؤمنين ما كتبتَ به من أسماء مَنْ سألت عن القرآن، وما رجع إليك فيه كلّ امرىء منهم، وما شرحت من مقالتهم.

فأمّا ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أنّ القرآن مخلوق، وادّعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أميرَ المؤمنين؛ فقد كذب بشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهدٌ ولا نظرٌ أكثر من إخباره أميرَ المؤمنين من اعتقاده كلمةَ الإخلاص، والقول بأنّ القرآن مخلوق، فادعُ به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أميرُ المؤمنين من ذلك، وأنصِصْه عن قوله في القرآن، واستتبْه منه؛ فإنّ أمير المؤمنين يرى أن تستيب مَن قال بمقالته؛ إذ كانت تلك المقالة الكفر الصّراح،

(١) سورة الزخرف: ٣.
(٢) سورة الأنبياء ٢.

والشِّرْك المحض عند أمير المؤمنين؛ فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه؛ وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهديّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشراً؛ فإنه كان يقول بقوله. وقد بلغتْ أميرَ المؤمنين عنه بوالغ؛ فإن قال: إنّ القرآن مخلوق فأشهرْ أمره وأكشفه؛ وإلّا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه؛ إن شاء الله.

وأما عليّ بن أبي مقاتل، فقلْ له: ألستَ القائلَ لأمير المؤمنين: إنّك تُحلّل وتحرّم، والمكلّم له بمثل ما كلّمتَه به؛ مما لم يذهب عنه ذكره! وأما الذّيال بن الهيثم؛ فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله؛ وأنّه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم، ومحتذياً سبيلَهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوّام، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبيّ في عقله لا في سنّه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيُحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك، إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه؛ فأعلمه أنّ أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيلَه فيها، واستدلّ على جهله وآفته بها.

وأما الفضلُ بن غانم؛ فأعلمه أنه لم يخفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقلّ من سنة، وما شجَر بينه وبين المطّلب بن عبد الله في ذلك؛ فإنه مَنْ كان شأنه شأنَه، وكانت رغبته في الدّينار والدرهم رغبته، فليس بمستنكَر أن يبيع إيمانَه طمعاً فيهما، وإيثاراً لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القائل لعليّ بن هشام ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه؛ فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره!

وأما الزّياديّ، فأعلمه أنه كان منتحلاً، ولا كأوّلَ دَعيٍّ كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ، وكان جديراً أن يسلك مسلَكه، فأنكر أبو حسّان أن يكون مولًى لزياد أو يكون مولًى لأحد من الناس؛ وذُكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمّار؛ فإن أمير المؤمنين شبّه خَساسة عقله بخساسة متجره.

وأما الفضل بن الفَرُّخان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربُّصاً بمن استودعه، وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيلَ عليه عن تقادم عهده، وتطاول الأيام به، فقلْ لعبد الرحمن بن إسحاق: لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وائْتمانك إياه، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمَر؛ فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الرّبا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحلّ ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شرْكاً، وصار للنصارى مثلًا!

وأما أحمد بن شجاع؛ فأعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجتَه من المال الذي كان

استحلّه من مال عليّ بن هشام؛ وأنه ممّن الدينار والدرهم دينُه.

وأما سَعدويه الواسطيّ، فقل له: قبح الله رجلا بلغ به التَصنّع للحديث، والتزين به، والحِرْص على طلب الرئاسة فيه؛ أن يتمنّى وقت المحنة، فيقول بالتقرّب بها متى يمتحن، فيجلس للحديث!

وأما المعروف بسجّادة، وإنكاره أن يكون سمع ممّن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأنّ القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النّوى وحكّه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه عليّ بن يحيى وغيره ما أذهلَه عن التوحيد وألهاه، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه؛ إن كان شاهدَهما وجالسهما.

وأما القواريريّ؛ ففيما تكشّف من أحواله وقبوله الرّشا والمصانعات، أما أبان عن مذهبه وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحسنيّ مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى في رفضِه، وترك الثقة به والاستنامَة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ؛ فإن كان من ولد عمر بن الخطاب، فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلَفه، لم ينتحل النّحلة التي حُكيت عنه، وإنه بعدُ صبيّ يحتاج إلى تعلم.

وقد كان أمير المؤمنين وجّه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نصّه أميرُ المؤمنين عن محنته في القرآن، فجمجم عنها ولجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذمياً، فأنْصِصْه عن إقراره؛ فإن كان مقيماً عليه فأشهرْ ذلك وأظهره؛ إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شركه ممّن سميتَ لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا؛ ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهديّ فاحملهم أجمعين موثَقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم؛ حتى يؤدّيهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويُسلِّمهم إلى مَنْ يؤمَن بتسليمهم إليه، لينصّهم أمير المؤمنين؛ فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف، إن شاء الله، ولا قوّة إلا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُنداريّة؛ ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطيّة، معجّلا به، تقرُّباً إلى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمّل من جزيل ثواب الله عليه؛ فأنفذ لما أتاك من أمر المؤمنين؛ وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُنْداريّة مفردة عن سائر الخرائط، لتعريف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله.

وكتب سنة ثمان عشرة ومائتين.

فأجاب القوم كلُّهم حين أعاد القول عليهم إلى أنّ القرآن مخلوق، إلّا أربعة نفر؛ منهم أحمد بن حنبل وسجّادة والقواريريّ ومحمد بن نوح المضروب. فأمر بهم إسحاق بن إبْراهيم فشُدّوا في الحديد؛ فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد، فأعاد عليهم المحنة، فأجابه سجّادة إلى أن القرآن مخلوق، فأمر باطلاق قَيْده وخلّى سبيلَه، وأصـرَّ الآخرون على قولهم، فلمّا كان من بعد الغد عاودهم أيضاً، فأعاد عليهم القول،

فأجاب القواريريّ إلى أن القرآن مخلوق، فأمر بإطلاق قيده، وخلّى سبيله، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما، ولم يرجعا، فشُدَّا جميعاً في الحديد، ووُجّها إلى طَرَسُوس، وكتب معهما كتاباً بإشخاصهما، وكتب كتاباً مفرداً بتأويل القوم فيما أجابوا إليه. فمكثوا أياماً، ثمّ دعا بهم فإذا كتابٌ قد ورد من المأمون على إسحاق بن إبراهيم، أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أنّ بشر بن الوليد تأوّل الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر: ﴿ إلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مطمئِنٌّ بالإيمان ﴾[1] وقد أخطأ التأويل؛ إنما عني الله عزّ وجلّ بهذه الآية مَنْ كان معتقد الإيمان، مظهرَ الشرك، فأما مَنْ كان معتقدَ الشرْك مظهر الإيمان؛ فليس هذه له. فأشخِصْهم جميعاً إلى طَرَسُوس؛ ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم.

فأخذ إسحاق بن إبراهيم من القوم الكُفلاء ليوافُوا العسكر بطرَسوس، فأشخص أبا حسان وبشر بن الوليد والفضل بن غانم وعليّ بن أبي مقاتل والذّيال بن الهيثم ويحيى بن عبد الرحمن العمريّ وعليّ بن الجَعْد وأبا العوّام وسجّادة والقواريريّ وابن الحسن بن عليّ بن عاصم وإسحاق بن أبي إسرائيل والنّضْر بن شُميل وأبا نصر التمار وسعدويه الواسطيّ ومحمد بن حاتم بن ميمون وأبا معمَر وابن الهرْش وابن الفرُّخان وأحمد بن شجاع وأبا هارون بن البكّاء.

فلما صاروا الرَّقة بلغتهم وفاة المأمون؛ فأمر بهم عنبسة بن إسحاق - وهو والي الرّقة - أن يصيروا إلى الرّقة، ثم أشخصهم إلى إسحاق بن إبراهيم بمدينة السلام مع الرسول المتوجّه بهم إلى أمير المؤمنين، فسلّمهم إليه، فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم، ثم رخّص لهم بعد ذلك في الخروج، فأما بشر بن الوليد والذيّال وأبو العوّام وعليّ بن أبي مقاتل؛ فأنهم شخصوا من غير أن يؤذَن لهم حتى قدموا بغداد، فلقوا من إسحاق بن إبراهيم في ذلك أذًى، وقدم الآخرون مع رسول إسحاق بن إبراهيم؛ فخلى سبيلهم.

وفي هذه السنة نُفّذت كتبُ المأمون إلى عمّاله في البلدان: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرّشيد. وقيل إنّ ذلك لم يكتبه المأمون كذلك؛ وإنما كتب في حال إفاقة من غَشْيَةٍ أصابته في مرضه بالبَدَنْدُون، عن أمر المأمون إلى العباس بن المأمون، وإلى إسحاق وعبد الله بن طاهر؛ أنه إن حدَث به حدَث الموت في مرضه هذا، فالخليفة من بعده أبو إسحاق ابن أمير المؤمنين الرّشيد. فكتب بذلك محمد بن داود، وختم الكتب وأنفذها.

فكتب أبو إسحاق إلى عمّاله: من أبي إسحاق أخِي أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين.

فورد كتاب من أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد إلى إسحاق بن يحيى بن مُعاذ عامله على جند دمَشق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلتْ من رجب، عنوانه: من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبي إسحاق أمير المؤمنين الرشيد: أما بعد؛ فإنّ أميرَ المؤمنين أمر بالكتاب إليك في التقدّم إلى عمالك في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل عملِك؛ فتقدّم إلى عمّالك في ذلك أشدّ التقدمة، واكتب إلى عمّال الخراج بمثل ذلك.

---

[1] سورة النحل: ١٦٠.

وكتب إلى جميع عمّاله في أجناد الشأم؛ جند حمْص والأردنّ وفلسطين بمثل ذلك؛ فلما كان يوم الجمعة لاحدى عشرة بقيتْ من رجَب صلى الجمعة إسحاق بن يحيى بن مُعاذ في مسجد دمشق، فقال في خطبته بعد دعائه لأمير المؤمنين: اللهمّ وأصلح الأميرَ أخا المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد.

وفي هذه السنة توفّيَ المأمون.

ذكر الخبر عن سبب المرض الذي كانت فيه وفاته:

ذُكر عن سعيد العلاّف القارىء، قال: أرسل إليّ المأمون وهو ببلاد الرّوم ـ وكان دخلَها من طَرسُوس يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة ـ فحُملتُ إليه وهو في البَدَندون؛ فكان يستقرئني، فدعاني يوماً، فجئتُ فوجدْته جالساً على شاطىء البَدَنْدُون، وأبو إسحاق المعتصم جالس عن يمينه، فأمرني فجلست نحوه منه؛ فإذا هو وأبو إسحاق مدلّيان أرجلهما في ماء البَدَنْدُون، فقال: يا سعيد، دَلّ رجليْك في هذا الماء وذقه، فهل رأيت ماء قطّ أشد برداً، ولا أعذب ولا أصفى صفاء منه! ففعلت وقلت: يا أميرَ المؤمنين، ما رأيت مثل هذا قطّ، قال: أيّ شيء يطيب أن يؤكل ويشرب هذا الماء عليه؟ فقلت: أمير المؤمنين أعلم، فقال: رُطَب الآزاذ؛ فبينا هو يقول هذا إذا سمع وقع لجُم البريد فالتفتَ، فنظر فإذا بغالٌ من بغال البريد، على أعجازها حقائب فيها الألطاف، فقال لخادم له: اذهب فانظر: هل في هذه الألطاف رُطَب؟ فانظره، فإن كان آزاذ فأت به؛ فجاء يسعى بسلّتين فيهما رطب آزاذ، كأنما جُني من النخل تلك الساعة؛ فأظهر شكراً لله تعالى؛ وكثر تعجُّبُنا منه، فقال: ادن فكل، فأكل هو وأبو إسحاق، وأكلت معهما، وشرْبنا جميعاً من ذلك الماء؛ فما قام منا أحد إلا وهو محمومٌ؛ فكانت منيّة المأمون من تلك العلّة؛ ولم يزل المعتصم عليلاً حتى دخل العراق، ولم أزل عليلاً حتى كان قريباً.

ولما اشتدّت بالمأمون علّته بعث إلى ابنه العباس، وهو يظنّ أن لن يأتيَه، فأتاه وهو شديد المرض متغيّر العقل، قد نُفّذت الكتب بما نُفذت له في أمر أبي إسحاق بن الرشيد، فأقام العباس عند أبيه أياماً، وقد أوصى قبل ذلك إلى أخيه أبي إسحاق.

وقيل: لم يوصِ إلاّ والعباس حاضر، والقضاة والفقهاء والقوّاد والكتاب، وكانت وصيته: هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤْمنين بحضْرة مَنْ حضره؛ أشهدهم جميعاً على نفسه أن يَشهد ومَنْ حضره أن الله عز وجلّ وحده لا شريك له في ملكه، ولا مدبّر لأمره غيره، وأنه خالقٌ وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل؛ ولا شيء مثله تبارك وتعالى، وأن الموت حقّ، والبعث حقّ، والحساب حقّ، وثواب المُحسن الجنة وعقاب المُسيء النار، وأن محمداً ﷺ قد بلّغ عن ربّه شرائعَ دينه، وأدّى نصيحته إلى أمته؛ حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه أفضلَ صلاة صلاّها على أحد من ملائكته المقرّبين وأنبيائه والمرسلين، وأني مقرّ مذنب، أرجو وأخاف؛ إلا أنّي إذا ذكرت عفْوَ الله رجوتُ؛ فإذا أنا متّ فوجِّهوني وغمّضوني، وأسبغوا وَضوئي وطهوري، وأجيدوا كَفني؛ ثم أكثروا حَمْد الله على الإسلام ومعرفة حقه عليكم في محمد؛ إذ جعلَنا من أمّته المرحومة، ثم أضجعوني على سريري، ثم عجّلوا بيه؛ فإذا أنتم وضعتموني للصلاة؛ فليتقدّم بها من هو أقربكم بي نسباً، وأكبركم سنّاً، فليكبّر خمساً، يبدأ في الأولى في أولها بالحمد لله والثناء عليه والصّلاة على سيدّي وسيد المرسلين

جميعاً، ثم الدعاء اللمؤمنين والمؤمنات؛ الأحياء منهم والأموات، ثم الدّعاء للّذين سبقونا بالإيمان، ثم ليكبّر الرابعة، فيحمد الله ويهلّله ويكبّره ويسلم في الخامسة، ثم أقلّوني فأبلغوا بي حُفرتي، ثم لينزل أقربكم إليّ قرابةً، وأودّكم محبة، وأكثروا من حمد الله وذكره، ثم ضَعُوني على شقي الأيمن واستقبلوا بيَ القبلةَ، وحُلُّوا كفني عن رأسي ورجليّ، ثم سدّوا اللحد باللّبِن، واحْثُوا تراباً عليّ، واخرجوا عني وخلُّوني وعملي؛ فكلكم لا يغني عني شيئاً، ولا يدفع عني مكروهاً، ثم قفوا بأجمعكم فقولوا خيراً إن علمتم، وأمسِكوا عن ذكر شرٍ إن كنتم عرفتم، فإني مأخوذٌ من بينكم بما تقولون وما تلفظون به، ولا تدَعُوا باكيةً عندي؛ فإن المعْوَل عليه يعذّب. رحمَ الله امرأ اتّعظ وفكر فيما حتّم الله على جميع خلقه من الفناء، وقضى عليهم من الموت الذي لا بدّ منه، فالحمد لله الذي توحّد بالبقاء، وقضى على جميع خلقه الفناء. ثم ليَنظر ما كنتُ فيه من عزّ الخلافة؛ هل أغنى ذلك عني شيئاً إذ جاء أمر الله! لا والله، ولكن أضعِف عليّ به الحسابُ، فياليت عبد الله بن هارون لم يكن بشراً، بل ليته لم يكن خلقاً! يا أبا إسحاق، ادنُ مني، واتّعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذا طوَّقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه؛ ولا تغترّ بالله ومهلته؛ فكأنْ قد نزلَ بك الموت. ولا تغفل أمرَ الرّعيّة. الرعيةَ الرعية! العوامّ العوام! فإن المُلْك بهم وبتعهُّدك المسلمين والمنفعة لهم. الله اللهَ فيهم وفي غيرهم من المسلمين! ولا يُنهيَنَّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدّمتَه وآثرتَه على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وأنصف بعضَهم من بعض بالحقّ بينهم، وقرّبهم وتأنّهم، وعجل الرّحلة عنيٍّ، والقدوم إلى دار مُلْكِك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذي أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت. والخُرّمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلَد، وأكْنِفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرّجالة؛ فإن طالت مدتهم فتجرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدّم النِّيّة فيه، راجياً ثواب الله عليه. واعلم أنّ العِظة إذا طالت أوجبتْ على السامع لها والموصى بها الحجّة؛ فاتق الله في أمرك كله، ولا تُفْتَن.

ثم دعا أبا إسحاق بعد ساعة حين اشتدّ به الوجَع، وأحسّ بمجيء أمر الله فقال له: يا أبا إسحاق، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ لتقومنّ بحق الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعته على معصيته؛ إذا أنا نقلتُها من غيرك إليك؟ قال: اللهم نعم، قال: فانظر مَنْ كنت تسمعني أقدّمه على لساني فأضعِف له التّقدمة؛ عبد الله بن طاهر أقرّه على عمله ولا تهجْه، فقد عرفتَ الذي سلَف منكما أيام حياتي وبحضرتي، استعطفه بقلبك، وخُصّه ببرّك، فقد عرفتَ بلاءه وغناءه عن أخيك. وإسحاق بن إبراهيم فأشركْه في ذلك؛ فإنه أهلٌ له. وأهل بيتك، فقد علمتَ أنه لا بقيّة فيهم وإن كان بعضهم يظهر الصّيانة لنفسه. عبد الوهاب عليك به من بين أهلك، فقدّمه عليهم، وصيّر أمرهم إليه. وأبو عبد الله بن أبي داود فلا يفارقْك، وأشركه في المشورة كلّ أمرك؛ فإنه موضع لذلك منك، ولا تتخذّن بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً؛ فقد علمتَ ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبْث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحّة مني، فصرتُ إلى مفارقته! قالياً له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الإسلام خيراً! وهؤلاء بنو عمّك من ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأحسن صحبتَهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبَلْ من محسنهم، وصِلاتهم فلا تغفلْها في كلّ سنة عند محلّها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتّى. اتقوا الله ربكم حقّ تقاتِه ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون. اتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها. أتسودعكم الله ونفسي وأستغفر الله مما سلف، وأستغفر الله مما كان مني،

إنه كان غفاراً، فإنه ليَعْلَمُ كيف ندمِي على ذنوبي، فعليه توكلت من عظيمها، وإليه أنيب ولا قوّة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد نبيّ الهدى والرحمة!

ذكر الخبر عن وقت وفاته والموضع الذي دفن فيه ومَنْ صلّى عليه ومبلغ سنّه وقَدْر مدة خلافته

قال أبو جعفر: وأما وقت وفاته، فإنه اختُلف فيه، فقال بعضهم: توفِّيَ يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيتْ من رجب بعد العصر سنة ثمان عشرة ومائتين.

وقال آخرون: بل توفِّيَ في هذا اليوم مع الظهر، ولما توفِّيَ حمله ابنُه العباس وأخوه أبو إسحاق محمد بن الرشيد إلى طَرسوس، فدفناه في دار كانت لخاقان خادم الرشيد، وصلّى عليه أخوه أبو إسحاق المعتصم، ثم وكّلوا به حرَساً من أبناء أهل طَرَسوس وغيرهم مائة رجل، وأُجْرِي على كلّ رجلٍ منهم تسعون درهماً.

وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً؛ وذلك سوى سنتين كان دُعِيَ له فيهما بمكة وأخوه الأمين محمد بن الرّشيد محصور ببغداد.

وكان ولد للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

وكان يكنى ـ فيما ذكر ابن الكلبي ـ أبا العباس.

وكان رَبْعة أبيض جميلاً، طويل اللحية، قد وخطه الشيب. وقيل كان أسمر تعلوه صفرة، أحْنى أعْين طويل اللحية رقيقها، أشيب، ضيِّق الجبهة، بخدّه خالٌ أسود.

واستُخلَف يوم الخميس لخمس ليال بقين من المحرم.

ذكر بعض أخبار المأمون وسِيَره

ذُكر عن محمد بن الهيثم بن عدّيّ، أن إبراهيم بن عيسى بن بُريهَة بن المنصور، قال: لما أراد الشخوصَ إلى دمشق هيّأت له كلاماً، مكثت فيه يومين وبعض آخر، فلما مثلتُ بين يديه قلتُ: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، في أدوم العزّ وأسبغ الكرامة، وجعلني من كلِّ سوء فداه! إنّ من أمسى وأصبح يتعرّف من نعمة الله، له الحمد كثيراً عليه برأي أمير المؤمنين أيّده الله فيه، وحُسْن تأنيسه له، حقيق بأن يستديم هذه النعمة، ويلتمس الزيادة فيها بشكر الله وشكر أمير المؤمنين، مدّ الله في عمره عليها. وقد أحبّ أن يعلم أميرُ المؤمنين أيّده الله أني لا أرغب بنفسي عن خدمته أيده الله بشيء من الخَفْض والدّعة، إذ كان هو أيّده الله يَتجشَّم خُشونة السفر ونصَب الظَّعْن، وأوْلى الناس بمواساته في ذلك وبذل نفسه فيه أنا، لما عرّفني اللهُ من رأيه، وجعل عندي من طاعته ومعرفة ما أوجب الله من حقه؛ فإن رأي أمير المؤمنين أكرمه الله أن يكرمني بلزوم خدمته، والكينونة معه فعل: فقال لي مبتدئاً من غير تروية: لم يعزم أميرُ المؤمنين في ذلك على شيء، وإن استصحب أحداً من أهل بيتك بدأ بك، وكنت المقدَّم عنده في ذلك؛ ولا سيّما إذْ أنزلتَ نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه؛ وإن ترك ذلك فمن غير قِلًا لمكانك؛ ولكن بالحاجة إليك. قال: فكان والله ابتداؤه أكثرَ من تَرْوِيتي.

وذكر عن محمد بن عليّ بن صالح السرخسيّ، قال: تعرّض رجلٌ للمأمون بالشأم مراراً، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، انظر لعرب الشّأم كما نظرت لعجم أهل خراسان! فقال: أكثرت عليّ يا أخا أهل الشأم، والله

ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلاّ وأنا أرى أنه لم يبقَ في بيتِ مالي درهم واحد ؛ وأما اليمن فوالله ما أحببتُها ولا أحبتّني قطّ ، وأما قُضاعة فسادتُها تنتظر السفيانيّ وخروجَه فتكونُ من أشياعه ، وأمّا رَبيعة فساخطةٌ على الله منذ بعث نبيَّه من مُضَر ؛ ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً ، اعزُبْ فعل الله بك !

وذُكر عن سعيد بن زياد أنه لما دخل على المأمون بدمشق قال له : أرِني الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لكم ، قال : فأريته : قال : فقال : إني لأشتهي أن أدري أيّ شيء هذا الغِشاء على هذا الخاتم ؟ قال : فقال له أبو إسحاق : حُلّ العقد حتى تدري ما هو ، قال : فقال : ما أشكّ أنّ النبيّ ﷺ عقد هذا العقد ، وما كنت لأحلّ عقداً عقده رسول الله ﷺ . ثم قال للواثق . خذه فضعْه على عينك ؛ لعلّ الله يشفيَك. قال : وجعل المأمون يضعه على عينه ويبكي .

وذُكر عن العَيْشيّ صاحب إسحاق بن إبراهيم ، أنه قال : كنت مع المأمون بدمشق ، وكان قد قلّ المالُ عندَه حتى ضاق ، وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم ، فقال له : يا أميرَ المؤمنين ، كأنك بالمال وقد وافاكَ بعد جمعة . قال : وكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف مِنْ خراج ما يتولاه له : قال : فلما وردَ عليه ذلك المال ، قال المأمون ليحيى بن أكثم : اخرج بنا ننظر إلى هذا المال ، قال : فخرجا حتى أصحرَا ، ووقفا ينظرانه ؛ وكان قد هُيِّىءَ بأحسن هيئة ، وحُلِّيَتْ أباعِرُه ، وألبِست الأحلاس الموشّاة والجِلال المصبّغة وقُلِّدت العِهَن ، وجعِلت البدر بالحرير الصينيّ الأحمر والأخضر والأصفر ، وأبديت رؤوسها. قال : فنظر المأمون إلى شيء حسن ، واستكثر ذلك ، فعظم في عينه ، واستشرَفه الناس ينظرون اليه ، ويعجبون منه ، فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد ، ينصرف أصحابنا الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم ، وننصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم ! إنا إذاً للئام. ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له: وقّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها . قال : فوالله إنْ زال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب ، ثم قال : ادفع الباقي إلى المعلّى يعطي جندنا . قال العيشيّ : فجئت حتى قمت نصب عينه ، فلم أردّ طرفي عنها ، لا يلحظني إلا رآني بتلك الحال . فقال : يا أبا محمد ، وقّع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف ألف ؛ لا يختلس ناظري . قال : فلم يأت عليّ ليلتان حتى أخذت المال .

وذكر عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان ؛ أنه كان بالبصرة رجلٌ من بني تميم ، وكان شاعراً ظريفاً خبيثاً منكراً ، وكنت أنا والي البصرة ، انسُ به وأستحليه ؛ فأردتُ أن أخدَعه وأستنزله ، فقلت له : أنت شاعر وأنت ظريف ، والمأمون أجودُ من السحاب الحافل والريح العاصف ؛ فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندي ما يُقلّني ، قلت : فأنا أعطيك نجيباً فارهاً ، ونفقة سابغة ، وتخرج إليه وقد امتدحتَه؛ فإنك إن حظيتَ بلقائه ، صرْت إلى أمنيّتك . قال : والله أيها الأمير ما إخالك أبعدت ؛ فأعدّ لي ما ذكرت . قال : فدعوتُ له بنجيب فاره ، فقلت : شأنك به فامتطه ؛ قال : هذه إحدى الحُسْنَيَيْن ؛ فما بال الأخرى ! فدعوت له بثلاثمائة درهم، وقلت : هذه نفقتك ؛ قال : أحسبك أيها الأمير قصَّرْت في النفقة ، قلت : لا ، هي كافية ، وإن قصّرت عن السَّرف . قال : ومتى رأيت في أكابر سعد سرفاً حتى تراه في أصاغرها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزة ليست بالطويلة ، فأنشد فيها وحذف منها ذكري والثناء عليّ ـ وكان مارداً ـ فقلت له : ما صنعتَ شيئاً . قال : وكيف ؟ قلت : تأتي الخليفةَ ولا تُثْني على أميرك ! قال : أيّها الأمير أردت أن تخدعني فوجدتني

خدّاعاً ، ولمثلها ضرب هذا المثل : « من يَنكِ العَيْرَ يَنك نيّاكاً » ؛ أما والله ما لكرامتي حملتَني على نجيبك ، ولا جُدْت لي بمالك الذي ما رامه أحد قطّ إلا جعل الله خدّه الأسفل ؛ ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة ، أفهم هذا . قلت : قد صدقت ، فقال : أمّا إذْ أبديتَ ما في ضميرك ، فقد ذكرتك ، وأثنيت عليك ، فقلت : فأنشدني ما قلتَ ، فأنشدنيه ، فقلت : أحسنت ، ثم ودّعني وخرج فأتى الشام ؛ وإذا المأمون بسلغوس . قال : فأخبَرَني ، قال : بينا أنا في غَزاة قُرَّة ، قد ركبتُ نجيبي ذاك ، ولبستُ مقطّعاتي ، وأنا أروم العسكر ، فإذا أنا بكهل على بَغْل فاره ما يُقَرّ قراره ، ولا يدرك خطاه . قال : فلتقّاني مكافحة ومواجهة ، وأنا أردّد نشيد أرجوزتي ، فقال : سلام عليكم ـ بكلام جَهْوريّ ولسان بسيط ـ فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، قال : قف إن شئت ، فوقفت فتضوّعتْ منه رائحة العَنْبر والمسك الأذفر ، فقال : ما أوّلك ؟ قلت : رجل من مُضَر ، قال : ونحن من مُضَر ، ثم قال : ثمّ ماذا ؟ قلت : رجل من بني تميم ، قال : وما بعد تميم ؟ قلت : من بني سعد ؟ قال : هيه ، فما أقدمك هذا البلد ؟ قال : قلت : قصدتُ هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحةً ، ولا أوسعَ راحة ، ولا أطولَ باعاً ، ولا أمدّ يفاعاً منه . قال : فما الذي قصدتَهُ به ؟ قلت : شعر طيب يلذّ على الأفواه ، وتقتفيه الرّواة ، ويحلو في آذان المستمعين ، قال : فأنشدْنيه ، فغضبتُ وقلت : يا ركيك، أخبرتُك أني قصدتُ الخليفة بشعر قلتُه ، ومديح حَبّرتُه ، تقول : أنشدنيه ! قال : فتغافل والله عنها ، وتطأمن لها ، وألغى عن جوابها ، قال : وما الذي تأمل منه ؟ قلت : إن كان على ما ذُكر لي عنه فألف دينار ، قال : فأنا أعطيكَ ألفَ دينار إن رأيتُ الشعرَ جيّداً والكلام عذباً وأضع عنك العناء ، وطول التَّرداد ؛ ومني تصلُ إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامحٍ ونابل ! قلت : فلي الله عليك أن تفعَل ! قال : نعم لك الله عليّ أن أفعل ، قلت : ومعك الساعة مال ؟ قال : هذا بغلي وهو خيرٌ من ألف دينار ، أنزلُ لك عن ظهره ، قال : فغضبتُ أيضاً وعارضني نزَق سعْد وخفّة أحلامها ، فقلت : ما يساوي هذا البغل هذا النجيب ! قال : فدعْ عنك البغل ، ولك الله عليّ أن أعطيَك الساعة ألف دينار ، قال : فأنشدته :

مـأْمـونُ يـاذا الـمِنَنِ الـشـريـفَـهْ	وصـاحـبَ الـمـرتـبـةِ الـمُـنـيـفَـهْ
وقـائـدَ الـكـتـيـبـةِ الـكـثـيـفَـهَ	هـل لـك فـي أُرجـوزةٍ ظـريـفَـهْ
أظـرَفَ مِـن فـقـهِ أبـي حـنـيـفَـهْ	لا والـذي أنـت لـه خـلـيـفَـهْ
مـا ظُـلِـمَتْ فـي أرضـنـا ضـعـيـفَـهْ	أمـيـرُنـا مُـؤْنَـتُـهُ خَـفـيـفَـهْ
ومـا اجتبى شيئاً سـوى الـوظـيفَـهْ	فـالـذئـبُ والـنَّـعـجـةُ فـي سَـقـيـفَـهْ

والـلصّ والـتـاجـرُ فـي قَـطـيـفَـهْ

قال : فوالله ما عدا أن أنشدته ، فإذا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق ؛ يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأخذني أفكلٌ ، ونظر إليّ بتلك الحال ، فقال : لا بأس عليك أي أخي ، قلت : يا أميرَ المؤمنين ، جعلني الله فداك ! أتعرف لغات العرب ؟ قال : أي لعمر الله ، قلت : فمن جعل الكاف منهم مكان القاف ؟ قال : هذه حميَر ، قلت : لعنها الله ، ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ، فضحك المأمون ، وعلم ما أردتُ ، والتفت إلى خادم إلى جانبه ، فقال : أعطه ما معك ، فأخرج إليّ كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هاك ، ثم قال : السلام عليك ؛ ومضى فكان آخر العهد به .

وقال أبو سعيد المخزومي :

هـل رأيتَ النُّجـومَ أغنَت عنِ المـأْ ... مـونِ شيئـاً أو ملكِـهِ المـأْسـوسِ
خـلَّفُـوهُ بِعَـرْصـتـيْ طـرسـوس ... مـثـلَ مـا خَـلَّفُـوا أبـاه بـطـوس

وقال عليّ بن عبيدة الرّيحانيّ :

مـا أقـلَّ الـدمـوعَ لـلمـأْمـونِ ... لستُ أرضى إلا دمـاً مِن جـفـوني

وذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي أنّ عليّ بن صالح حدّثه ، قال : قال لي المأمون يوماً : أبغني رجلاً من أهل الشأم ، له أدب ، يجالسني ويحدّثني ، فالتمستُ ذلك فوجدته ، فدعوته فقلت له : إني مدخلك على أمير المؤمنين ، فلا تسأله عن شيء حتى يبتدئك ، فإني أعرفُ الناس بمسألتكم يا أهل الشأم . فقال : ما كنت متجاوزاً ما أمرتني به . فدخلت على المأمون ، فقلت له : قد أصبت الرّجل يا أمير المؤمنين ، فقال : أدخله ، فدخل فسلم ، ثم استدناه ـ وكان المأمون على شغله من الشراب ـ فقال له : إني أردتك لمجالستي ومحادثتي ، فقال الشأميّ : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن الجليس إذا كانت ثيابه دون ثياب جليسه دخله لذلك غضاضة ، قال : فأمر المأمون أن يخلَع عليه ؛ قال : فدخلني من ذلك ما الله به أعلم ، قال : فلما خلع عليه ، ورجع إلى مجلسه ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ قلبي إذا كان متعلّقاً بعيالي لم تنتفع بمحادثتي ، قال : خمسون ألفاً تحمَل إلى منزله ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، وثالثه ، قال : وما هي ؟ قال : قد دعوت بشيء يحول بين المرء وعقله ، فإن كانت منّي هنةٌ فاغتفرها ، قال : وذاك ! قال عليّ : فكأنّ الثالثة جلتْ عني ما كان بي .

وذكر أبو حشيشة محمد بن عليّ بن أمية بن عمرو ، قال : كنا قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علَّوَية :

بَـرئت من الإسـلام إن كَـانَ ذا الـذِي ... أَتـاكِ بـه الـواشونَ عنِّي كمـا قـالـوا
ولـكـنَّـهـمْ لـمّـا رأَوْكِ سَـرِيعَـةً ... إليَّ ، تَـواصَـوْا بـالنَّميمَـةِ واحتـالـوا

فقال : يا علّوية ، لمن هذا الشعر ، فقال : للقاضي ، قال : أيّ قاضي ويحك ! قال : قاضي دمشق ، فقال : يا أبا إسحاق ، اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فيُحضَر الساعة . قال : فأحضر شيخ مخضوب قصير ، فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان ابن فلان الفلانيّ ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله ، فقال : يا علّويه ، أنشده الشعر ، فأنشده ، فقال : هذا الشعرُ لك ؟ قال : نعمْ يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالِق وكلّ ما يملك في سبيل الله إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا في زُهد أو معاتبة صديق ، فقال : يا أبا إسحاق اعزله ؛ فما كنت أولّي رقابَ المسلمين مَن يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام . ثم قال : اسقوه ؛ فأتيَ بقدح فيه شراب ، فأخذه وهو يرتعد ، فقال : يا أمير المؤمنين ما ذقته قطّ ، قال : فلعلك تريد غيره ! قال : لم أذق منه شيئاً قطّ ، قال : فحرام هو؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أَوْلى لك ، بها نجوت ، اخرج . ثمّ قال : يا علّويه ، لا تقل : « برئت من الإسلام » ، ولكن قل :

حـرمتُ منايَ منـكِ إن كـان ذَا الَّـذي ... أتـاك بـه الـواشـون عَنّي كما قـالـوا

قال : وكنّا مع المأمون بدمشق ، فركب يريد جبل الثلج ، فمرّ ببركة عظيمة من برَك بني أميّة ، وعلى

جوانبها أربع سَرَوات ، وكان الماء يدخلها سيْحاً ، ويخرج منها ؛ فاستحسن المأمون الموضع ، فدعا ببزْما وَرد ورطْل ، وذكَر بني أميّة ، فوضع منهم وتنقّصهم ؛ فأقبل علّوية على العُود ، واندفع يغنّي :

أولِئِـك قـومـي بـعـد عـزٍّ وثـروةٍ ... تَفَـانَـوْا فـإلاَّ أذرِفُ العينَ أكـمـدَا

فضرب المأمون الطعام برجله، ووثب وقال لعلّويه: يابن الفاعلة، لم يكن لك وقت تذكر فيه مواليك إلاّ في هذا الوقت! فقال: مولاكم زِرياب عند مواليّ يركب في مائة غلام، وأنا عندكم أموت من الجوع! فغضب عليه عشرين يوماً، ثم رضي عنه.

قال : وزرياب مولى المهديّ ، صار إلى الشأم ثم صار إلى المغرب ، إلى بني أمية هناك .

وذكر السّليطيّ أبو عليّ ، عن عُمارة بن عَقِيل ، قال : أنشدتُ المأمون قصيدةً فيها مديح له ، هي مائة بيت ؛ فأبتدىء بصدر البيت فيبادرني إلى قافيته كما قفَّيتُهُ ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ؛ ما سمعها من أحد قطّ ، قال : هكذا ينبغي أن يكون ؛ ثم أقبل عليّ ، فقال لي : أما بلغك أنّ عمر بن أبي ربيعة أنشد عبدَ الله بن العباس قصيدته التي يقول فيها .

تـشُطُّ غـداً دارُ جـيـرانـنـا

فقال ابنُ العباس

ولـلـدارُ بـعـد غـد أبـعـد

حتى أنشده القصيدة ، يقفّيها ابن عباس ! ثم قال : أنا ابنُ ذاك .

وذُكر عن أبي مروان كازر بن هارون ، أنه قال : قال المأمون :

بـعـثـتُـكَ مُـرتـاداً فـفـزتَ بِـنـظْرةٍ ... وأغفَلْتَني حتى أسـأْتُ بـكَ الـظَّنَّـا
فنـاجيتَ مَن أهْـوَى وكنتُ مبـاعَـداً ... فيـا ليتَ شعري عَن دُنـوّك مـا أغنى !
أرَى أثـراً مـنْـه بـعـيـنَـيـك بَـيِّـنـاً ... لقـد أخـذَت عيناكَ مِن عينه حُسنـاً

قال أبو مروان : وإنما عوّل المأمون في قوله في هذا المعنى على قول العباس بن الأحنف ، فإنه اخترع :

إن تَشْقَ عيني بهـا فـقـد سَعِـدَتْ ... عـينُ رسـولي ، وفُـزتُ بـالخَبَـرِ
وكـلّمـا جـاءَنـي الـرسـولُ لـهَـا ... ردَّدتُ عـمـداً في طـرفـه نَـظري
تَـظْهَـرُ في وجـهِـه مـحـاسـنُـهـا ... قـد أثّـرَتْ فـيـه أحـسـنَ الأثـرِ
خُـذ مـقـلتِي يـا رسـولُ عـاريـةً ... فـانـظر بهـا واحتَكمْ على بصـرِي

قال أبو العتاهية : وجّه إليّ المأمون يوماً ، فصرتُ إليه ، فألفيتُه مطرقاً مفكّراً ، فأحجمتُ عن الدنوّ منه في تلك الحال ؛ فرفع رأسه ؛ فنظر إليّ وأشار بيده ، أن ادنُ ، فدنوتُ ثم أطرق مليّاً ، ورفع رأسه ، فقال : يا أبا إسحاق ؛ شأنُ النفس الملل وحُبّ الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألْفة ، قلت : أجَل يا أمير المؤمنين ، ولي في هذا بيت ، قال : وما هو ؟ قلت :

لا يُصلِح الـنفسَ إذ كـانـت مُقَسَّمَـةً ... إلاَّ الـتَّنـقُّـلُ من حـالٍ إلـى حـالِ

وذُكر عن أبي نزار الضّرير الشاعر أنه قال: قال لي عليّ بن جَبَلة: قلتُ لحُميد بن عبد الحميد: يا أبا غانم، قد امتدحتُ أميرَ المؤمنين بمدْح لا يحسِن مثله أحدٌ من أهل الأرض؛ فاذكرني له، فقال: أنشدْنيه، فأنشدته، فقال: أشهد أنك صادق؛ فأخذ المديح فأدخله على المأمون، فقال: يا أبا غانم، الجواب في هذا واضح، إن شاء عفوْنا عنه وجعلنا ذلك ثواباً بمديحه؛ وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دُلف القاسم بن عيسى؛ فإن كان الذي قال فيك وفيه أجودُ من الذي مدحَنا به ضربنا ظهره، وأطلْنا حبسَه، وإن كان الذي قال فينا أجود أعطيتُه بكلّ بيت من مديحه ألف درهم، وإن شاء أقلناه. فقلت: يا سيّدي، ومن أبو دُلف! ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك! فقال: ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء، فاعرضْ ذلك على الرجل. قال عليّ بن جبلة: فقال لي حُميد: ما ترى؟ قلت: الإقالة أحبُّ إليّ، فأخبر المأمون، فقال: هو أعلم، قال حميد: فقلت لعليّ بن جَبلة: إلى أيّ شيء ذهب في مدحك أبا دُلف وفي مدحك لي؟ قال: إلى قول في أبي دلف:

إنّما الدّنيا أبو دُلَفٍ ... بينَ مغزاهُ ومُحتَضَرهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ ... وَلّتِ الدّنيا على أثَرِهْ

وإلى قولي فيك:

لولا حميدٌ لم يكُنْ ... حسبٌ يُعَدُّ ولا نَسَبْ
يا واحِدَ العَربِ الّذي ... عَزّتْ بعِزّته العربْ

قال: فأطرق حُميد ساعة، ثم قال: يا أبا الحسن، لقد انتقد عليك أمير المؤمنين. وأمر لي بعشرة آلاف درهم وحُملان وخلعة وخادم، وبلغ ذلك أبا دُلَف فأضعف لي العطية، وكان ذلك منهما في ستر لم يعلم به أحد إلى أن حدّثتك يا أبا نزار بهذا.

قال أبو نزار: وظننتُ أنّ المأمون تعقّد عليه هذا البيت في أبي دُلَف:

تحَدَّرَ ماءُ الجُودِ من صُلبِ آدمٍ ... فأثبَتَهُ الرَّحمَنُ في صُلب قاسِمِ

وذُكر عن سليمان بن رَزين الخزاعيّ، ابن أخي دعْبل، قال: هجا دِعْبل المأمونَ، فقال:

ويَسُومُني المأمُونُ خُطّةَ عارِفٍ ... أوَ مَا رأى بالأمسِ رأسَ محمدِ
يُوفِي على هامِ الخلائفِ مثلَ مَا ... يُوفي الجبالُ على رؤوس القَرددِ
ويحِلُّ في أكنافِ كلِّ ممنَّعٍ ... حتى يَذَلّلَ شاهِقاً لم يُصْعَدِ
إنَّ التِّراتِ مُسَهَّدٌ طُلاّبُها ... فاكففْ لُعَابكَ عن لعابِ الأسودِ

فقيل للمأمون: إن دعْبلا هجاك، فقال: هو يهجو أبا عبّاد لا يهجوني. يريد حدّة أبي عبّاد، وكان أبو عبّاد إذا دخل على المأمون كثيراً ما يضحك المأمون، ويقول له: ما أراد دِعبل منك حين يقول:

وكأنه من دَيرِ هِزْقِلَ مفلِتٌ ... حَرِدٌ يجُرُّ سلاسلَ الأقيادِ

وكان المأمون يقول لإبراهيم بن شَكْلة إذا دخل عليه: لقد أوجعك دِعْبل حين يقول:

إن كانَ إبراهيمُ مضطلعاً بِهَا ... فلتَصلُحَنْ من بَعده لِمُخارِقِ

وَلَتصلُحَنْ من بعـد ذاكَ لـزُلـزُلٍ وَلَـتَصْـلُحَنْ مِـنْ بعـدِهِ لـلمَـارِقِ
أَنَّى يَكُـونُ ولا يـكُـونُ وَلَمْ يـكُنْ لِيَنـالَ ذَلِـكَ فـاسقٌ عن فـاسق!

وذكر محمد بن الهيثم الطائيّ أنّ القاسم بن محمد الطيْفوريّ حدّثه، قال: شكا اليزيديّ إلى المأمون خلّةً أصابته، ودَيْناً لحقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ما تريد، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّ الأمرَ قد ضاق عليّ، وإنّ غُرمائي قد أرهقوني. قال: فرُمْ لنفسك أمراً تنال به نفعاً فقال: لك منادمون فيهم مَن إنْ حرّكتُه نلتُ منه ما أحبّ فأطلق ليَ الحيلَة فيهم، قال: قل ما بدالك، قال: فإذا حضرُوا وحضرتُ فمرْ فلاناً الخادم أنْ يوصلَ إليك رقعتي؛ فإذا قرأتَها، فأرسل إليّ؛ دخولُك في هذا الوقت متعذّر؛ ولكن اختر لنفسك مَنْ أحببت. قال: فلما علم أبو محمد بجلُوس المأمون واجتماع ندمائه إليه، وتيقّن أنهم قد ثملوا من شُرْبهم. أتى الباب، فدفع إلى ذلك الخادم رُقعة قد كتبها، فأوصلها له إلى المأمون، فقرأها فإذا فيها:

يـا خيـرَ إخـواني أصْحَـابي هَـذَا الـطّفَيـليُّ لَـدَى الـبـابِ
خُـبّـرَ أنَّ الـقَـومَ فـي لَـذَّةٍ يَـصْـبُـو إلـيـهـا كـلُّ أوّابِ
فـصيِّـرونـي واحـداً مـنـكـمُ أو أخـرِجـوا ألـي بعضَ أتـرابِي

قال: فقرأها المأمون علَى مَنْ حضره، فقالوا: ما ينبغي أن يدخُل هذا الطفيليّ على مثل هذه الحال. فأرسل إليه المأمون: دخولُك في هذا الوقت متعذّر، فاخترْ لنفسك مَنْ أحببت تنادمه، فقال: ما أرى لنفسي اختياراً غير عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك، فصِرْ إليه، قال: يا أميرَ المؤمنين، فأكونُ شريك الطفيليّ! قال: ما يمكن رَدّ أبي محمد عن أمرين؛ فإن أحببت أن تخرج، وإلاّ فافتدِ نفسك، قال: فقال: يا أميرَ المؤمنين، له عليّ عشرة آلاف درهم، قال: لا أحسب ذلك يقنِعه منك ومن مجالستك، قال: فلم يزل يزيدُه عشرة عشرة، والمأمون يقول له: لا أرضى له بذلك، حتى بلغ المائة ألف. قال: فقال له المأمون: فعجّلْها له، قال: فكتب له بها إلى وكيلِه، ووجّه معه رسولا، فأرسل إليه المأمون: قبضُ هذه في هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله، وأنفع عاقبة.

وذُكر عن محمد بن عبد الله صاحب المراكب قال: أخبرَني أبي صالح بن الرشيد، قال: دخلتُ عـلى المأمون، ومعي بيتَان للحسين بن الضحّاك، فقلت: يا أمـيرَ المؤمنين، أحبّ أن تسمـع منِّي بيتين، قـال: أنشدهما، قال: فأنشده صالح:

حَـمِـدْنـا الله شكـراً إذ حَبَـانـا بِـنَصْـرِكَ يـا أمـيـرَ المـؤمنيـنَـا
فـأنـتَ خليـفـةُ الـرَّحْمَـنِ حَقّـاً جَمَعْتَ سَمـاحـةً وجَمعتَ دينـا

فاستحسنها المأمون، وقال: لمن هذان البيتان يا صالح؟ قلت: لعبـدك يا أميرَ المؤمنين الحسين بن الضحاك، قال: قد أحسن، قلت: وله يا أمير المؤمنين ما هو أجود من هذا، قال: وما هو؟ فأنشدته:

أَيَبْخَـلُ فـردُ الحُسنِ فَـرَدُ صفـاتِـه عليَّ، وقـد أفـردْتُـه بهـوًى فَـرْدِ!
رَأى اللهُ عـبـدَ اللهِ خـيـرَ عِـبَـادِهِ فَـمَـلّكَـهُ واللهُ أعـلمُ بـالـعـبـدِ

وذُكر عن عُمارة بن عَقيل، أنه قال: قال لي عبد الله بن أبي السّمط:

علمت أنّ المأمون لا يبصر الشعر، قال قلت: ومَنْ ذا يكون أعلم منه! فوالله إنك لترانا نُنشده أوّلَ البيت فيسبِقنا إلى آخره، قال: أنشدتُه بيتا أجدتُ فيه، فلم أره تحرّك له، قال: قلتُ وما الذي أنشدته؟ قال: أنشدته:

أضحى إمامُ الهدى المأْمونُ مشتغلاً ... بالدينِ والناسُ بالدنيا مشاغيلُ

قال: فقلت له: إنك والله ما صنعتَ شيئاً، وهل زِدتَ على أن جعلته عجوزاً في محْرابها، في يدها سُبحتها! فمن القائمُ بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها، وهو المطوّق بها! هلاّ قلتَ فيه كما قال عمّك جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فَلاَ هُوَ في الدُّنْيا مُضيعٌ نَصِيبَهُ ... وَلاَ عَرَضُ الدُّنيا عِن الدِّين شاغِلُهْ

فقال: الآن علمتُ أني قد أخطأت.

وذُكر عن محمد بن إبراهيم السَّيّاري قال: لما قدِم العتابيّ على المأمون مدينة السلام أذن له، فدخل عليه، وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ـ وكان شيخاً جليلاً ـ فسلّم عليه، فردّ عليه السلام، وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه، فقبّل يده، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله، فجعل يجيبه بلسانٍ طلْق؛ فاستَطرف المأمون ذلك. فأقبل عليه بالمداعبة والمُزاح، فظنّ الشيخ أنه استخفّ به فقال: يا أميرَ المؤمنين الإبساس قبل الإيناس قال: فاشتبه على المأمون الإبساس، فنظر إلى إسحاق بن إبراهيم، ثم قال: نعم، يا غلام ألف دينار؛ فأتِيَ بها، ثم صبّت بين يدي العتابيّ ثم أخذوا في المفاوضة والحديث، وغمز عليه إسحاق بن إبراهيم، فأقبل لا يأخذ العتابيّ في شيء إلاّ عارضه إسحاق بأكثر منه؛ فبقيَ متعجّباً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إيذن لي في مسألة هذا الشيخ عن اسمه، قال: نعم، سله، قال: يا شيخ، مَنْ أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس، واسمي كلْ بصل، قال: أما النسبة فمعروفة، أوما الاسم فمنكر، وما كلْ بَصَل من الأسماء؟ فقال له إسحاق: ما أقلَّ إنصافك! وما كلْ ثوم من الأسماء! البصل أطيب من الثوم، فقال العتابيّ: لله درّك! ما أحجّك! يا أمير المؤمنين، ما رأيتُ كالشيخ قطّ، أتأذنُ لي في صلته بما وصلني به أمير المؤمنين؛ فقد والله غلبني! فقال المأمون: بل هذا موفَّرٌ عليك؛ ونأمر له بمثله، فقال له إسحاق: أما إذا أقررت بهذه فتوهَّمْني تجدْني، فقال: والله ما أظنّك إلا الشيخ الذي يتناهَى إلينا خبره من العراق؛ ويعرف بابن الموصليّ! قال: أنا حيث ظننتَ، فأقبل عليه بالتحيّة والسلام، فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما: أما إذا اتفقتما على الصلح والمودة، فوقما فانصرفا متنادمينْ؛ فانصرف العتابيّ إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

وذُكِر عن محمد بن عبد الله بن جشم الرَّبَعيّ أن عُمارة بن عقيل قال: قال لي المأمون يوماً وأنا أشرب عنده: ما أخبثَك يا أعرابيّ! قال: قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ وهمَّتني نفسي، قال: كيف قلت:

قالت مُفَدَّاةُ لَيما أن رأتْ أرَقِي ... والهمُّ يَعتادُني من طيفِه لَمَمُ
نَهَّبْتَ مالك في الأدْنينَ آصِرَةً ... وفي الأباعِدِ حتى حفَّكَ العَدمُ
فاطلبْ إليهم ترى ما كنتَ من حَسَنٍ ... تُسدِي إليهم فقد باتَتْ لهمْ صِرَمُ
فقلتُ عَذَلُكِ قد أكثَرتِ لائِمتِي ... ولَمْ يَمُتْ حاتم هُزْلاً ولا هرمُ

فقال لي المأمون: أين رميتَ بنفسك إلى هَرِم بن سنان سيد العرب وحاتم الطائيّ! فعلا كذا وفعلا كذا، وأقبل ينثال عليّ بفضلهما، قال: فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنا خيرٌ منهما، أنا مسلم وكانا كافرين، وأنا رجل من العرب.

وذُكر عن محمد بن زكرياء بن ميمون الفرْغانيّ، قال: قال المأمون لمحمد بن الجَهْم: أنشدني ثلاثة أبيات في المديح والهجاء والمراثي؛ ولك بكل بيت كُورة، فأنشده في المديح:

يجــودُ بـالنفس إذ ضنَّ الجــوادُ بهــا والجـودُ بـالنفس أقصى غـايـة الجـودِ

وأنشده في الهجاء:

قَبُحَتْ منــاظــرُهُمْ فحينَ خَبَــرْتُهـمْ حسُنَتْ منــاظــرهم لِقُبــحِ المخبَــرِ

وأنشده في المراثي:

أرادُوا لـيُـخـفُــوا قـبْــرَه عَـنْ عــدُوّهِ فــطِيبُ تـراب القبــرِ دَلَّ على القبــرِ

وذكر عن العباس بن أحمد بن أبان بن القاسم الكاتب، قال: أخبرني الحسين بن الضحاك، قال: قال لي علّوَيه: أخبرُك أنه مرّ بي مرة ما أيستُ من نفسي معه لولا كرم المأمون، فإنه دعا بنا، فلمّا أخذ فيه النبيذ؛ قال: غنّوني، فسبقني مخارق، فاندفع فغنّى صوتاً لابن سُرَيج في شعر جرير:

لمَّــا تَــذَكَّــرت بــالــدَّيــريْنِ أرَّقني صـوتُ الدَّجـاج وضـرْبٌ بـالنَّـواقِيسِ

فقلتُ لِلرَّكبِ إذ جَــدَّ الـمَسـيــرُ بنــا يــا بُعْـدَ يَبْـرينَ من بـاب الفــراديس!

قال: فحُيِّنَ لي أن تغنّيتُ، وكان قد قد همّ بالخروج إلى دمشق يريد الثغر:

الـحَيـنُ ســاقَ إلـى دمـشـق ومَــا كــانــتْ دمـشــق لأهـلهــا بــلدا

فضرب بالقدح الأرض، وقال: ما لك! عليك لعنة الله. ثم قال: يا غلام، أعطِ مخارقاً ثلاثة آلاف درهم؛ وأخِذ بيدي فأقِمتُ وعيناه تدمعان، وهو يقول للمعتصم: هو والله آخر خُروج، ولا أحسبني أن أرى العراق أبداً، فكان والله آخرَ عهدِه بالعراق عند خروجه كما قال.

خلافة أبي إسحاق

المعتصم محمد بن هارون الرشيد

وفي هذه السنة بُويع لأبي إسحاق محمد بن هارون الرّشيد بن محمد المهديّ بن عبد الله المنصور بالخلافة؛ وذلك يوم الخميس لأثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين. وذُكر أنّ الناس كانوا قد أشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة، فسلِمُوا من ذلك.

ذكـر أنّ الجند شغبوا لمّا بُويع لأبي إسحاق بالخلافة، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره، فبايعه ثمّ خرج إلى الجند، فقال: ما هـذا الحبّ البارد! قـد بايعتُ عمّي؛ وسلّمت الخلافة إليه؛ فسكن الجند.

وفيها أمر المعتصم بهدْم ما كان المأمون أمر ببنائه بُطَوانة، وحَمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قَدَر على حمله، وأحرق ما لم يقدر على حمله؛ وأمرَ بصرف مَنْ كان المأمون أسكن ذلك من الناس إلى بلادهم.

وفيها انصرف المعصتم إلى بغداد؛ ومعه العباس بن المأمون، فقدمها ـ فيما ذكر ـ يوم السبت مستهلّ شهر رمضان.

وفيها دخل ـ فيما ذكر ـ جماعة كثيرة من أهل الجبال من هَمَذان وأصبهان وماسبذان ومِهْرجانْقذُق في دين الخرّميّة؛ وتجمعّوا، فعسكروا في عمل هَمَذان، فوجّه المعتصم إليهم عساكر، فكان آخرَ عسكر وجّه إليهم عسكرٌ وجهه مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال في شوّال في هذه السنة، فشخص إليهم في ذي القعدة، وقرىء كتابه بالفتح يوم التّروية، وقتل في عمل هَمَذان ستين ألفاً، وهرب باقيهم إلى بلاد الروم.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد، وضحّى أهلُ مكة يوم الجمعة، وأهل بغداد يوم السبت.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان مِن ظهور محمّد بن القاسم بن عُمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بالطالَقان من خُراسان، يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ؛ فاجتمع إليه بها ناس كثير؛ وكانت بينه وبين قوّاد عبد الله بن طاهر وقعات بناحية الطالقان وجبالها، فهُزِم هو وأصحابه، فخرج هارباً يريد بعض كُور خُراسان، كان أهله كاتبوه؛ فلما صار بنَسا، وبها والد لبعض مَنْ معه، مضى الرّجل الذي معه من أهل نَسا إلى والده ليسلِّم عليه، فلما لقي أباه سأله عن الخبر، فأخبره بأمرهم، وأنهم يقصدون كورةَ كذا، فمضى أبو ذلك الرّجل إلى عامل نَسا، فأخبره بأمر محمد بن القاسم؛ فذُكر أنّ العامل بذل له عشرة آلاف درهم على دلالته عليه فدلّه عليه، فجاء العامل إلى محمد بن القاسم، فأخذه واستوثق منه؛ وبعث به إلى عبدالله بن طاهر، فبعث به عبدالله بن طاهر إلى المعتصم، فقَدِم به عليه يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، فحبس - فيما ذكر - بسامرّا عند مسرور الخادم الكبير في محبس ضيّق، يكون قدر ثلاث أذرع في ذراعين، فمكث فيه ثلاثة أيام، ثم حُوّل إلى موضع أوسعَ من ذلك، وأجريَ عليه طعام، ووكّل به قومٌ يحفظونه؛ فلمّا كان ليلة الفطْر، واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج، ذُكر أنه هرب من الحبس بالليل، وأنهُ دُلّيَ إليه حبل من كُوَّةٍ كانت في أعلى البيت، يدخل عليه منها الضّوء؛ فلما أصبحوا أتوا بالطعام للغداء افتقِد، فذكر أنه جُعِل لمن دلّ عليه مائة ألف درهم، وصاح بذلك الصائح فلم يعرَف له خبر.

وفي هذه السنة قدم إسحاق بن إبراهيم بغداد من الجبل، يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلَتْ من جمادى الأولى، ومعه الأسرى من الخرّميّة والمستأمِنة.

وقيل: إن إسحاق بن إبراهيم قتل منهم في محاربته إياهم نحواً من مائة ألف، سوى النساء والصبيان.

وفي هذه السنة وجّه المعتصم عُجيفَ بن عنبسة في جمادى الآخرة منها لحرب الزُّطّ الذين كانوا قد عاثوا في طريق البصرة، فقطعوا فيه الطريق، واحتملوا الغلّاتِ من البيادر بكَسْكَر وما يليها من البَصْرة، وأخافوا السبيل، ورتّب الخيل في كلّ سكة من سكك البُرد تركض بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عند عُجيْف، فيصل إلى المعتصم من يومِه، وكان الذي يتولى النفقة على عُجيف من قِبَل المعتصم محمد بن منصور كاتب إبراهيم بن البَخْتريّ؛ فلما صار عُجيْف إلى واسط، ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها الصافية في خمسة آلاف رجل، وصار عُجَيف إلى نهر يحمل من دجلة يقال له بَرْدُودَا؛ فلم يزل مقيماً عليه حتى سدّه. وقيل إنّ عُجَيفاً إنما ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها نجيدا، ووجّه هارون بن نعيم بن

الوضاح القائد الخراسانيّ إلى موضع يقال له الصافية في خمسة آلاف رجل، ومضى عُجيف في خمسة آلاف إلى بَرْدُودا، فأقام عليه حتى سدّه وسدّ أنهاراً أُخر كانوا يدخلون منها ويخرجون، فحصرهم من كلّ وجه؛ وكان من الأنهار التي سدّها عجيف، نهر يقال له العروس؛ فلما أخذ عليهم طرقهم حاربهم، وأسر منهم خمسمائة رجل، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل، فضرب أعناق الأسرى، وبعث برؤوس جميعهم إلى باب المعتصم، ثم أقام عُجَيف وراء الزُّطّ خمسة عشر يوماً، فظفر منهم بخلْق كثير. وكان رئيس الزُّط رجلا يقال له محمد بن عثمان، وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق، ومكث عُجَيف يقاتلهم - فيما قيل - تسعة أشهر.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من دخول عُجيف بالزّط بغداد، وقهره إياهم حتى طلبوا منه الأمان فآمنهم، فخرجوا إليه في ذي الحجة سنة تسع عشرة ومائتين على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم؛ وكانت عِدّتهم - فيما ذُكِر - سبعة وعشرين ألفاً؛ المقاتلة منهم اثنا عشر ألفاً؛ وأحصاهم عُجَيف سبعة وعشرين ألف إنسان؛ بين رجل وامرأة وصبيّ؛ ثم جعلهم في السُّفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، فأعطى أصحابه دينارين دينارين جائزة، وأقام بها يوماً، ثمّ عبّأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب؛ معهم البوقات، حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة عشرين ومائتين والمعتصم بالشماسيّة في سفينة يقال لها الزّوّ، حتى مرّ به الزُّطّ على تعبئتهم ينفخون بالبوقات؛ فكان أولهم بالقُفْص وآخرهم بحذاء الشماسيّة، وأقاموا في سُفنهم ثلاثة أيام، ثم عُبر بهم إلى الجانب الشرقيّ؛ فدفِعوا إلى بشر بن السميدع، فذهب بهم إلى خانقين، ثم نقلوا إلى الثَّغْر إلى عين زربة، فأغارت عليهم الرّوم، فاجتاحوهم فلم يفلِتْ منهم أحد، فقال شاعرهم:

يا أهلَ بغدادَ موتوا دامَ غَيظُكُم ... شوقاً إلى تمرِ بَرْنيٍّ وشُهْريز
نحن الذينَ ضربناكمْ مجاهَرَةً ... قَسراً وسُقناكمُ سَوْقَ المعاجيز
لم تشكروا الله نَعماهُ التي سَلَفَتْ ... ولم تحوطوا أياديه بتَعزيز
فاستَنصِروا العبدَ من أبناء دولتِكمْ ... مِنْ يازمانَ ومن بلجٍ ومن تُوز
ومن شِناسَ وأُفشِينٍ، ومن فرجٍ ... المُعلِمينَ بديباجٍ وإبْريز
واللابسِي كيمخار الصين قد خَرَطَت ... أردانَه دَرْزُ بَرْوَازِ الدَّخاريز
والحاملين الشُّكى نِيطتْ علائقها ... إلى مناطقِ خاصٍ غيرِ مَخروز
يَفري ببيضٍ من الهنديّ هامَهُمُ ... بنو بَهِلَّةَ في أبناءِ فيروز
فوارسٌ خيلُها دُهْم مودَّعَةٌ ... على الخراطيمِ منها والفراريز
مسخَّرات لها في الماءِ أجنِحَةٌ ... كالآبَنوس إذا اسْتحضِرْنَ والشِّيز
متى ترومُوا لنا في غَمرِ لجّتِنا ... حِذْراً نَصيدُكُمُ صيدَ المعافيزِ
أوِ اختِطافاً وإزهاقاً كما اختُطفت ... طَيرُ الدِّحال حثاثاً بالمناقيزِ
ليسَ الجلادُ جِلادَ الزطِّ فاعترفوا ... أكلَ الثَّريدِ ولا شُرْبَ القواقيز
نحن الذين سقينا الحربَ دِرَّتَها ... ونقنقنا مقاساة الكواليز

لَنَشْفَعَنَّكُمْ سفعاً يَذِلّ له رب السَّرير ويُشجي صاحبَ التِّيز
فابكوا على التَّمر أبكى اللهُ أعيُنكمْ في كلِّ أضحى، وفي فطرٍ ونيْروزِ

وفي هذه السنة عقد المعتصم للأفشين خيذر بن كاوس على الجبال، ووجّه به لحرب بابك؛ وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة؛ فعسكر بمصلّى بغداد، ثم صار إلى بَرْزَنْد.

ذكر الخبر عن أمر بابك ومخرجه:

ذُكر أن ظهور بابك كان في سنة إحدى ومائتين، وكانت قريته ومدينته البَذّ؛ وهزَم من جيوش السلطان؛ وقتَل من قوّاده جماعة؛ فلما أفضى الأمر إلى المعتصم، وجّه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردَبيل، وأمره أن يبني الحصونَ التي خرّبها بابك فيما بين زَنْجان وأردَبيل، ويجعل فيها الرّجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلِب المِيرَة إلى أردَبيل؛ فتوجّه أبو سعيد لذلك، وبنى الحصون التي خرّبها بابك، ووجّه بابك سريّة له في بعض غاراته، وصيّر أميرهم رجلاً يقال له معاوية؛ فخرج فأغار على بعض النواحي، ورجع منصرفاً؛فبلغ ذلك أبا سعيد محمد بن يوسف، فجمع الناس وخرج إليه يعترضه في بعض الطريق، فواقعه، فقتل من أصحابه جماعة، وأسر منهم جماعة، واستنقذ ما كان حواه؛ فهذه أول هزيمة كانت على أصحاب بابك. ووجّه أبو سعيد الرؤوس والأسرى إلى المعتصم بالله.

ثم كانت الأخرى لمحمد بن البعيث؛ وذلك أن محمد بن البعيث كان في قلعة له حصينة تسمى شاهي؛ كان ابن البعيث أخذها من الوجْناء بن الرّوّاد، عرضها نحو من فرسخين، وهي من كورة أذْرَبيجان، وله حصن آخر في بلاد أذرَبيجان يسمى تِبْريز، وشاهي أمنعهما؛ وكان ابن البعيث مصالحاً لبابك؛ إذا توجهت سراياه نزلت به. فأضافهم، وأحسن إليهم حتى أنِسوا به، وصارت لهم عادة. ثم إنّ بابك وجّه رجلا من أصحابه يقال له عِصْمة من أصبهبذتِه في سريّة، فنزل بابن البعيث، فأنزل إليه ابن البعيث على العادة الجارية الغنم والأنزال وغير ذلك، وبعث إلى عصمة أن يصعد إليه في خاصّته ووجوه أصحابه، فصعِد فغدّاهم وسقاهم حتى أسكرهم، ثم وثب على عصمة فاستوثق منه، وقتل مَنْ كان معه من أصحابه، وأمره أن يسمِّيَ رجلا رجلا من أصحابه باسمه؛ فكان يُدعى بالرجل باسمه فيصعد، ثم يأمر به فيضرب عنقه؛ حتى علموا بذلك؛ فهربوا. ووجّه ابن البعيث بعصمة إلى المعتصم ـ وكان البَعيث أبو محمد صعلوكاً من صعاليك ابن الروّاد ـ فسأل المعتصم عصمة عن بلاد بابك، فأعلمه طُرقها ووجوه القتال فيها؛ ثم لم يزل عصمة محبوساً إلى أيام الواثق. ولما صار الأفشين إلى بَرْزَند عسكر بها، ورمّ الحصون فيما بين برْزَنْد وأردبيل، وأنزل محمد بن يوسف بموضع يقال له خَشّ، فاحتفر فيه خندقاً، وأنزل الهيثم الغنويّ القائد من أهل الجزيرة في رستاق يقال له أرْشق، فرمَّ حصنه، وحفر حوله خندقاً، وأنزل عَلّويه الأعور من قُوّاد الأبناء في حصن ممّا يلي أردَبيل يسمّى حصن النهر؛ فكانت السابلة والقوافل تخرج من أرْدَبيل معها من يُبْذرِقها حتى تصل إلىحصن النّهر، ثم يُبَذْرِقها صاحب حصن النهر إلى الهيثم الغنويّ، ويخرج هَيْثم فيمن جاء من ناحيته حتى يسلمه إلى أصحاب حصن النّهر، ويُبَذْرق مَنْ جاء من أردبيل حتى يصير الهيثم وصاحب حصن النهر في منتصف الطريق، فيسلّم صاحب حصن النهر مَنْ معه إلى هيثم، ويسلّم هيثم مَنْ معه إلى صاحب حصن النهر؛ فيسير هذا مع هؤلاء؛ وهذا مع هؤلاء. وإن سبق أحدهما صاحبه إلى الموضع لم يَجُزْه حتى يجيء الآخر؛ فيدفع كلّ واحد منهما مَنْ معه إلى صاحبه

لِيُبَذْرقهم؛ هذا إلى أردبيل، وهذا إلى عسكر الأفشين، ثم يُبَذْرق الهيثم الغنويّ مَنْ كان معه إلى أصحاب أبي سعيد؛ وقد خرجوا فوقفوا على منتصف الطريق، معهم قوم، فيدفع أبو سعيد وأصحابه مَنْ معهم إلى الهيثم، ويدفع الهيثم مَن معه إلى أصحاب أبي سعيد، فيصير أبو سعيد وأصحابه بمَنْ في القافلة إلى خُشّ، وينصرف الهيثم وأصحابه بمن صار في أيديهم إلى أرْشق حتى يصيروا به من غد، فيدفعوهم إلى عَلّوْيه الأعور وأصحابه ليوصلوهم إلى حيث يريدون، ويصير أبو سعيد ومَن معه إلى خُشّ، ثم إلى عسكر الأفشين، فتلقّاه صاحب سيارة الأفشين، فيقبض منه مَنْ في القافلة، فيؤدّيهم إلى عسكر الأفشين؛ فلم يزل الأمر جارياً على هذا؛ وكلّما صار إلى أبي سعيد أو أحد من المسالح أحدٌ من الجواسيس وجّهوا به إلى الأفشين؛ فكان الأفشين لا يقتل الجواسيس ولا يضربهُم؛ ولكن يهب لهم ويصلهم ويسألهم ما كان بابك يعطيهم، فيُضعفه لهم، ويقول للجاسوس: كن جاسوساً لنا.

وفيها كانت وقعة بين بابك وأفشين بأرْشق، قتَل فيها الأفشِين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً؛ قيل أكثر من ألْف، وهرب بابك إلى مُوقان، ثم شخص منها إلى مدينتِه التي تدعى البَذّ.

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة بين الأفشين وبابك:

ذُكر أن سبب ذلك أن المعتصم وجّه مع بُغَا الكبير بمالٍ إلى الأفشِين عَطاءً لجنده وللنفقات، فقدم بُغا بذلك المال إلى أردَبيل، فلمّا نزل أردبيل بلَغ بابك وأصحابه خبره، هيّأ بابك وأصحابه ليقطعوا عليه قبل وصوله إلى الأفشين، فقدِم صالح الجاسوس على الأفشين، فأخبره أنّ بُغا الكبير قد قدم بمال، وأن بابك وأصحابه تهيّؤوا ليقتطعوه قبل وصوله إليك.

وقيل: كان مجيء صالح إلى أبي سعيد، فوجّه به أبو سعيد إلى الأفشين وهيّأ بابك كميناً في مواضع، فكتب الأفشين إلى أبي سعيد يأمره أن يحتال لمعرفة صحة خبر بابك، فمضى أبو سعيد متنكّراً هو وجماعة من أصحابه، حتى نظروا إلى النيران والوقود في المواضع التي وصفها لهم صالح، فكتب الأفشين إلى بُغا؛ أن يقيم بأرْدَبِيل حتى يأتيَه رأيُه، وكتب أبو سعيد إلى الأفشين بصحّة خبر صالح، فوعد الأفشينُ صالحاً وأحسن إليه. ثم كتب الأفشين إلى بُغا أن يظهر أنه يريد الرّحيل، ويشدّ المال على الإبل ويُقْطرها، ويسير متوجّهاً من أردبيل؛ كأنه يريد بَرْزَنْد؛ فإذا صار إلى مسلحة النهر، أو سار شبيهاً بفرسخين، احتبس القطار حتى يجوز مَنْ صحب المال إلى بَرْزند، فإذا جازت القافلة رجع بالمال إلى أرْدَبيل. ففعل ذلك بُغا، وسارت القافلة حتى نزلت النّهر، وانصرف جواسيس بابكَ إليه يعلمونه أنّ المال قد حُمل، وعاينوه محمولا حتى صار إلى النهر، ورجع بُغا بالمال إلى أرْدَبيل، وركب الأفشين في اليوم الذي وعد فيه بُغا عند العصر من بَرْزند، فوافى خُشَّ مع غروب الشمس، فنـزل معسكراً خارج خندق أبي سعيد؛ فلما أصبح ركب في سرّ؛ لم يضرب طبلا ولا نَشر علماً، وأمر أن يلفّ الأعلام، وأمر الناس بالسكوت، وجدّ في السير، ورحلت القافلة التي كانت توجّهت في ذلك اليوم من النهر إلى ناحية الهيثم الغنويّ، ورحل الأفشين من خُشّ يريد ناحية الهيثم ليصادفه في الطريق ولم يعلم الهيثم بمن كان معه، فرحل بمَنْ كان معه من القافلة يريد بها النهر.

وتعبّأ بابك في خَيْله ورجاله وعساكره، وصار على طريق النهر، وهو يظنّ أن المال موافيه، وخرج صاحب النهر ببَذرق مَنْ قِبَله إلى الهيثم، فخرجت عليه خيل بابك؛ وهم لا يشكُّون أنّ المال معه، فقاتلهم صاحب

النهر، فقتلوه وقتلوا مَنْ كان معه من الجند والسابلة، وأخذوا جميعَ ما كان معهم من المتاع وغيره، وعلموا أن المال قد فاتهم، وأخذوا علَمَه، وأخذوا لباس أهل النهر ودراريعهم وطرّاداتهم وخفاتِينَهم فلبسوها، وتنكّروا ليأخذوا الهيثم الغنويّ ومَنْ معه أيضاً، ولا يعلمون بخروج الأفشين، وجاؤوا كأنهم أصحاب النهر، فلما جاؤوا لم يعرفوا الموضع الذي كان يقف فيه علم صاحب النهر، فوقفوا في غير موضع صاحب النهر، وجاء الهيثم فوقف في موقفه، فأنكر ما رأى، فوجّه ابن عمّ له، فقال له: اذهب إلى هذا البغيض، فقل له: لأيّ شيء وقوفك؟ فجاء ابن عمّ الهيثم، فلما رأى القوم أنكرهم لما دنا منهم، فرجع إلى الهيثم، فقال له: إنّ هؤلاء القوم لستُ أعرفهم، فقال له الهيثم: أخزاك الله! ما أجْبَنَك! ووجّه خمسة فرسان من قبله، فلما جاؤوا وقربوا من بابك، خرج من الخُرّميّة رجلان فتلقَّوْهما وأنكروهما، وأعلموهما أنهم قد عرفوهما، ورجعوا إلى الهيثم ركضاً، فقالوا: إنّ الكافر قد قتل عَلّويْه وأصحابه، وأخذوا أعلامهم ولباسهم، فرحل هيثم منصرفاً، فأتى القافلة التي جاء بها معه، وأمرهم أن يركضوا ويرجعوا ، لئلّا يؤخذوا، ووقف هو في أصحابه، يسير بهم قليلا قليلا، ويقف بهم قليلا، ليشغل الخُرّمية عن القافلة، وصار شبيهاً بالحامية لهم؛ حتى وصلت القافلة إلى الحصن الذي يكون فيه الهيثم - وهو أرشق - وقال لأصحابه: مَنْ يذهب منكم إلى الأمير وإلى أبي سعيد فيعلمهما وله عشرة آلاف درهم وفرس بدل فرسه إن نَفَق فرسه فله مثل فرسه على مكانه؟ فتوجّه رجلان مع أصحابه على فرسينْ فارهين يركضان، ودخل الهيثم الحصنَ، وخرج بابك فيمن معه؛ فنزل بالحصن، ووضع له كرسيّ وجلس على شرف بحيال الحصن، وأرسل إلى الهيثم: خلّ عن الحصن وانصرفْ حتى أهدمه. فأبى الهيثم وحارَبه، وكان من الهيثم في الحصن ستمائة راجل وأربعمائة فارس، وله خندق حَصِين فقاتله، وقعد بابك فيمن معه، ووضع الخمر بين يديه ليشربها، والحرب مشتبكة كعادته، ولقى الفارسان الأفشين على أقلّ من فرسخ من أرشق، فساعة نظر إليهما من بعيد قال لصاحب مقدّمته: أرى فارسين يركُضان ركضاً شديداً، ثم قال: اضربوا الطبل، وانشروا الأعلام، واركضوا نحو الفارسين. ففعل أصحابه ذلك، وأسرعوا السّير، وقال لهم: صيحوا بهما: لبّيك لبيك! فلم يزل الناس في طَلق واحد متراكضين، يكسر بعضهم بعضاً حتى لحقوا بابك؛ وهو جالس، فلم يتدارك أن يتحوّل ويركب حتى وافتْه الخيل والناس؛ واشتبكت الحرب، فلم يفلت من رجّالة بابك أحد، وأفلت هو في نفر يسير، ودخل مُوقان، وقد تقطّع عنه أصحابه، وأقام الأفشين في ذلك الموضع، وبات ليلتَه، ثم رجع إلى معسكره ببرْزَنْد، فأقام بابك بمُوقان أياماً. ثم انه بعث إلى البَذّ، فجاءه في الليل عسكر فيه رجّالة، فرحل بهم من موقان حتى دخل البذّ، فلم يزل الأفشين معسكراً ببرْزَند، فلما كان في بعض الأيام مرّت به قافلة من خُشّ إلى بَرْزند، ومعها رجل من قِبَل أبي سعيد يسمى صالح آبْ كش - تفسيره السقاء - فخرج عليه أصبهبذ بابك، فأخذ القافلة، وقتل مَنْ فيها، وقتل مَنْ كان مع صالح، وأفلت صالح بلا خفّ مع من أفلت، وقتل جميع أهل القافلة، وانتُهب متاعهم، فقحط عسكر الأفشين من أجل تلك القافلة التي أخذت من الآبْ كش؛ وذلك أنها كانت تحمل الميرة فكتب الأفشين إلى صاحب المراغة يأمره بحمل الميرة وتعجليها عليه، فإنّ الناس قد قحطوا وجاعوا، فوجّه إليه صاحب المراغة بقافلة ضخمة، فيها قريب من ألف ثَوْر سوى الحمر والدوابّ وغير ذلك، تحمل الميرة، ومعها جند يُبذرقونها، فخرجت عليهم أيضاً سريّة لبابك، كان عليها طَرْخان - أو آذين - فاستباحوها عن آخرها بجميع ما فيها، وأصاب الناسَ ضيق شديد؛ فكتب الأفشين إلى صاحب السيرَوان أن يحمل إليه طعاماً؛ فحمل إليه طعاماً كثيراً، وأغاث الناس في تلك السنة، وقدم بُغا على الأفشين بمال ورجال.

وفي هذه السنة خرج المعتصم إلى القاطُول، وذلك في ذي القعدة منها.

ذكر الخبر عن سبب خروجه إليها:

ذكر عن أبي الوزير أحمد بن خالد، أنه قال: بعثني المعتصم في سنة تسع عشرة ومائتين، وقال لي: يا أحمد، اشتر لي بناحية سامَرّا موضعاً أبني فيه مدينة؛ فإني أتخوّف أن يصيح هؤلاء الحَرْبيّة صيحة، فيقتلوا غلماني؛ حتى أكون فوقهم، فإن رابني منهم ريْب أتيتُهم في البرّ والبحر؛ حتى آتي عليهم. وقال لي: خذ مائة ألف دينار، قال: قلت: آخذ خمسة آلاف دينار. فكلّما احتجت إلى زيادة بعثت إليك فاستزدت؟ قال: نعم؛ فأتيت الموضع، فاشتريت سامَرّا بخمسمائة درْهم من النصارى أصحاب الدير، واشتريتُ موضع البستان الخاقانيّ بخمسة آلاف درهم، واشتريتُ عدّة مواضع حتى أحكمت ما أردت، ثم انحدرت فأتيته بالصّكاك، فعزم على الخروج إليها في سنة عشرين ومائتين، فخرج حتى إذا قارب القاطول، ضُرِبت له فيه القباب والمضارب، وضرب الناس الأخبية؛ ثم لم يزل يتقدّم، وتُضرب له القباب حتى وضع البناء بسامرّا في سنة إحدى وعشرين ومائتين.

فذكر عن أبي الحسن بن أبي عباد الكاتب، أن مسروراً الخادم الكبير، قال: سألني المعتصم: أين كان الرشيد يتنزّه إذاضجِرمن المقام ببغداد؟ قال: قلت له: بالقاطول، وقد كان بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم؛ وقد كان خافَ من الجند ما خاف المعتصم، فلما وثب أهل الشأم بالشأم وعصوا، خرج الرشيد إلى الرّقة فأقام بها، وبقيت مدينة القاطول لم تستتمّ، ولما خرج المعتصم إلى القاطول استخْلَف ببغداد ابنه هارون الواثق.

وقد حدّثني جعفر بن محمد بن بوّازة الفرّاء، أن سبب خروج المعتصم إلى القاطول، كان أنّ غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدُون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك أنهم كانوا عُجْماً جفاة يركبون الدوابّ، فيتراكضون في طُرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطؤون الصبيّ، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابّهم ويجرحون بعضهم؛ فربما هلَك من الجراح بعضهم، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم، وتأذّت بهم العامة؛ فذُكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفاً من المصلّى في يوم عيد أضحى أو فطر، فلما صار في مرْبعة الحَرَشيّ، نظر إلى شيخ قد قام إليه، فقال له: يا أبا إسحاق، قال: فابتدره الجند ليضربوه؛ فأشار إليهم المعتصم فكفّهم عنه، فقال للشيخ: مالك! قال: لا جزاك الله عن الجوار خيراً! جاورتَنا وجئت بهؤلاء العُلوج فأسكنتَهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نسوانَنا، وقتلت بهم رجالنا! والمعتصم يسمع ذلك كله. قال: ثم دخل داره فلم يُرَ راكباً إلى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم؛ فلما كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلّى بالناس العيد؛ ثم لم يرجع إلى منزله ببغداد؛ ولكنه صرف وجهَ دابته إلى ناحية القاطول؛ وخرج من بغداد ولم يرجع إليها.

وفي هذه السنة غضب المعتصم على الفضل بن مروان وحبسه

ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وحبسه إياه وسبب اتصاله بالمعتصم:

ذُكر أن الفضل بن مروان ـ وهو رجل من أهل البَرَدان ـ كان متصلاً برجل من العمّال يكتب له، وكان حسن الخطّ، ثم صار مع كاتب كان للمعتصم يقال له يحيى الجُرْمقاني، وكان الفضل بن مروان يخطّ بين يديه؛ فلما مات الجُرْمقاني صار الفضل في موضعه، وكان يكتب للفضل عليّ بن حسّان الأنباريّ، فلم يزل كذلك

حتى بلغ المعتصم الحالُ التي بلغها ، والفضل كاتبه ، ثم خرج معه إلى معسكر المأمون ، ثم خرج معه إلى مصر ، فاحتوى على أموال مصر ، ثم قدم الفضل قبل موت المأمون بغدَاد ، ينفذ أمور المعتصم ، ويكتب على لسانه بما أحبّ حتى قدم المعتصم خليفةً ، فصار الفضل صاحب الخلافة ، وصارت الدوّاوين كلها تحت يديه وكنز الأموال ، وأقبل أبو إسحاق حين دخل بغداد يأمره بإعطاء المغنّي والمُلهِي ، فلا ينفذ الفضل ذلك ، فثقُل على أبي إسحاق .

فحدثني إبراهيم بن جهروَيْه أن إبراهيم المعروف بالهَفْتيّ ـ وكان مضحكاً ـ أمر له المعتصم بمال ؛ وتقدّم إلى الفضل بن مروان في إعطائه ذلك ، فلم يعطه الفضل ما أمر به المعتصم ، فبينا الهَفْتيّ يوماً عند المعتصم ، بعدما بُنيت له داره التي ببغداد، واتُّخذ له فيها بستان، قام المعتصم يتمشّى في البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرّياحين والغُروس ، ومعه الهفْتيّ ، وكان الهفتيّ يصحب المعتصم قبل أن تُفضِيَ الخلافة إليه ، فيقول فيما يداعبه : والله لا تفلح أبداً ! قال : وكان الهفْتيّ رجلاً مربوعاً ذا كُدْنة ، والمعتصم رجلاً معرَّقاً خفيف اللحم ، فجعل المعتصم يُسبق الهفْتيَّ في المشي ؛ فإذا تقدمه ولم ير الهفتيّ معه التفت إليه ، فقال له : ما لك لا تمشي ! يستعجله المعتصم في المشي ليلحق به ؛ فلما كثر ذلك من أمر المعتصم على الهَفْتيّ ، قال له الهفْتي ، مداعباً له : كنتُ أصلحك الله ، أراني أماشي خليفة ؛ ولم أكن أراني أماشي فَيْجاً ، والله لا أفلحت ! فضحك منها المعتصم ، وقال ويلك ! هل بقيَ من الفلاح شيء لم أدركه ! أبعد الخلافة تقول هذا لي ! فقال له الهفتيّ : أتحسب أنك قد أفلحت الآن ! إنما لك من الخلافة الاسم ؛ والله ما يجاوز أمرك أذُنيْك ؛ وإنما الخليفة الفَضْل بن مروان ، الذي يأمر فينفُذ أمره من ساعته ، فقال له المعتصم :وأيّ أمر لي لا ينفذ ! فقال له : الهفتيّ : أمرتَ لي بكذا وكذا منذ شهرين ؛ فما أُعطيتُ مما أمرتَ به منذ ذاك حبّة !

قال : فاحتجنَها على الفضل المعتصم حتى أوقع به .

فقيل : إن أوّل ما أحدثه في أمره حين تغيّر له أن صيَّر أحمد بن عمار الخُراسانيّ زماماً عليه في نفقات الخاصة ، ونصر بن منصور بن بسام زماماً عليه في الخراج وجميع الأعمال ؛ فلم يزل كذلك ؛ وكان محمد بن عبد الملك الزّيات يتولّى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل المشمّس والفساطيط وآلة الجمّازات ويكتب على ذلك مما جرى على يدي محمد بن عبد الملك ، وكان يلبس إذا حضر الدار دُرّاعة سوداءَ وسيفاً بحمائل ، فقال له الفضل بن مروان : إنما أنت تاجر ، فما لك وللسواد والسيف ! فترك ذلك محمد ، فلما تركه أخذه الفضل برفع حسابه إلى دُلَيل بن يعقوب النصرانيّ ، فرفعه ، فأحسن دُلَيل في أمره ؛ ولم يرزأه شيئاً ، وعرض عليه محمد هدايا ، فأبى دُليل أن يقبل منها شيئاً ، فلما كانت سنة تسع عشرة ومائتين ـ وقيل سنة عشرين ، وذلك عندي خطأ ـ خرج المعتصم يريد القاطول ، ويريد البناء بسامَرّا ، فصرفه كثرة زيادة دِجْلة ؛ فلم يقدر على الحركة ، فانصرف إلى بغداد إلى الشماسيّة ، ثم خرج بعد ذلك ؛ فلما صار بالقاطول غضب على الفَضْل بن مروان وأهل بيته في صفر ، وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم ؛ وأخذ الفضل وهو مغضوب عليه في عمل حسابِه ؛ فلمّا فرغ من الحساب لم يناظر فيه ، وأمر بحبسه ؛ وأن يحمل إلى منزله ببغداد في شارع الميدان ، وحبس أصحابه ، وصيّر مكانه محمد بن عبد الملك الزيات ، فحبس دُلَيْلاً ، ونفى الفضل إلى قرية في طريق الموصل يقال لها السنّ ، فلم يزل بها مقيماً ، فصار محمد بن عبد الملك وزيراً كاتباً ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرّا من الجانبين الشرقيّ والغربيّ ، ولم يزل في مرتبته حتى استُخْلف المتوكل ، فقتل محمد بن

عبد الملك .

وذكر أن المعتصم لما اَستوزر الفضل بن مروان حلّ من قبَله المحلّ الذي لم يكن أحد يطمع في ملاحظته ، فضلاً عن منازعته ولا في الاعتراض في أمره ونهيه - وإرادته وحكمه ؛ فكانت هذه صفته ومقداره ؛ حتى حملته الدّالة ، وحرّكته الحُرْمة على خلافه في بعض ما كان يأمره به ، ومنَعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهمّ أموره؛ فذكر عن ابن أبي دؤاد أنه قال: كنت أحضر مجلس المعتصم؛ فكثيراً ما كنت أسمعه يقول للفضل بن مروان : احمل إليّ كذا وكذا من المال ، فيقول : ما عندي ، فيقول : فاحتلها من وجه من الوجوه ؛ فيقول : ومن أين أحتالها ! ومَنْ يعطيني هذا القدر من المال ؟ وعند من أجده ؟ فكان ذلك يسوءهُ وأعرفُه في وجهه ؛ فلمّا كثر هذا من فعله ركبتُ إليه يوماً فقلت له مستخلياً به : يا أبا العباس ، إنّ الناس يدخلون بيني وبينك بما أكره وتكره ؛ وأنْت امرؤ قد عرفتُ أخلاقَك ، وقد عرفها الداخلون بيننا ، فإذا حُرِّكت فيك بحقّ فاجعله باطلاً ، وعلى ذلك فما أدع نصيحتَك وأداء ما يجب عليّ في الحقّ لك ؛ وقد أراك كثيراً ما تردّ على أمير المؤمنين أجوبةً غليظة تُرمضه ، وتقدح في قلبه ، والسلطان لا يحتمل هذا لابنه ، لا سيما إذا كثر ذلك وغلظ . قال : وما ذاك يا أبا عبدالله ؟ قلت : أسمعه كثيراً ما يقول لك : نحتاج إلى كذا من المال لنصرفَه في وجه كذا ، فتقول : ومن يعطيني هذا ! وهذا ما لا يحتمله الخلفاء ، قال : فما أصنع إذا طلَب مني ما ليس عندي ؟ قلت : تصنع أن تقول : يا أمير المؤمنين ، نحتال في ذاك بحيلة ، فتدفع عنك أياماً إلى أن يتهيّأ ، وتحمل إليه بعض ما يطلب وتسوّفه بالباقي ، قال : نعم أفعل وأصير إلى ما أشرتَ به . قال : فوالله لكأني كنتُ أغريه بالمنع ، فكان إذا عاوده بمثل ذلك من القول ، عاد إلى مثل ما يكره من الجواب . قال : فلما كَثُر ذلك عليه ، دخل يوماً إليه وبين يديه حزمة نرجس غضّ ، فأخذها المعتصم فهزّها ، ثم قال : حيّاك الله يا أبا العباس ! فأخذها الفضل بيمينه ، وسلّ المعتصم خاتمه من أصبعه بيساره ، وقال له بكلام خفيّ : أعطني خاتمي ، فانتزعه من يده ، ووضعه في يد ابن عبد الملك .

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك الوقعة التي كانت بين بابك وبُغا الكبير من ناحية هَشتادسَر ، فهزِم بُغا واستبيح عسكره .

وفيها واقع الأفشين بابك وهزمه .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وكيف كان السبب فيها :

ذكر أن بُغا الكبير قدِم بالمال الذي قد مضى ذكره ؛ وأنّ المعتصم وجهه معه إلى الأفشين عطاءً للجند الذي كان معه ولنفقات الأفشين ، على الأفشين ، وبالرجال الذين توجّهوا معه إليه ، فأعطى الأفشين أصحابه ، وتجهّز بعد النيروز ، ووجّه بُغَا في عسكر ليدور حول هَشْتادسَر ، وينزل في خندق محمد بن حميد ويحفِزه ويُحكمه وينزله . فتوجّه بُغا إلى خندق محمد بن حُميد ، وصار إليه ، ورحل الأفشين من بَرْزَند ، ورحل أبو سعيد من خُشّ يريد بابك ، فتوافوْا بموضع يقال له دَرْوذ، فاحتفر الأفشين بها خندقاً ، وبنى حوله سوراً ، ونزل هو وأبو سعيد في الخندق مع مَنْ كان صار إليه من المطوّعة ، فكان بينه وبين البَذّ سِتّة أميال . ثم إن بُغا تجهَّز ، وحمل معه الزاد من غير أن يكون الأفشين كتب إليه ولا أمره بذلك ؛ فدار حول هَشْتادسَر حتى دخل إلى قرية البذّ، فنزل في وسطها، وأقام بها يوماً واحداً، ثم وجّه ألف رجل في علاّفة له، فخرج عساكر من عساكر بابك ، فاستباح العلاّفة ، وقتل جميع مَنْ قاتله منهم ، وأسر مَنْ قدر عليه ، وأخذ بعض الأسرى ؛ فأرسل منهم رجُلين مما يلي الأفشين ، وقال لهما : اذهبا إلى الأفشين ، وأعلماه ما نزل بأصحابكم . فأشرف الرَّجُلان ، فنظر إليهما صاحب الكُوهْبانيّة ، فحرّك العلَم ، فصاح أهلُ العسكر : السلاح السلاح ! وركبوا يريدون البذّ ، فتلقّاهم الرجلان عُريانين ، فأخذهما صاحب المقدّمة ، فمضى بهما إلى الأفشين ، فأخبراه بقضيتهما ، فقال : فعل شيئاً من غير أن نأمره . ورجع بُغَا إلى خندق محمد بن حميد شبيهاً بالمنهزِم ، وكتب إلى الأفشين يعلمه ذلك ، ويسأله المدد ، ويعلمه أنّ العسكر مفلول ، فوجّه إليه الأفشين أخاه الفضل بن كاوس وأحمد بن الخليل بن هشام وابن جَوْشن وجنَاحَا الأعور السكريّ ، وصاحب شرطة الحسن بن سهل ـ وأحدُ الأخوَين قرابة الفضل بن سهل ـ فداروا حول هَشْتَادسَر، فسُرّ أهل عسكره بهم ، ثم كتب الأفشين إلى بُغا يعلمه أنه يغزو بابك في يوم سمّاه له ، ويأمره أن يغزوَه في ذلك اليوم بعينه ، ليحاربه من كلا الوجهين ، فخرج الأفشين في ذلك اليوم من دَرْوذ يريد بابك ، وخرج بُغا من خندق محمد بن حميد ، فصعد إلى هَشْتادسَر، فعسكر على دعوة بجنْب قبر محمد بن حميد ، فهاجت ريح باردة ومطر شديد ، فلم يكن للناس عليها صبر لشدة البرد وشدّة الريح ، فانصرف بُغا إلى عسكره ، وواقعهم الأفشين من الغد ، وقد رجع بُغا إلى عسكره ،

فهزمه الأفشين ، وأخذ عسكره وخيمته وامرأة كانت معه في العسكر . ونزل الأفشين في معسكر بابك . ثم تجهّز بُغا من الغد ، وصعد هَشْتادسَر ، فأصاب العسكر الذي كان مقيماً بإزائه بهشْتادسَر ، قد انصرف إلى بابك ، ورحل بُغا إلى موضعه ، فأصاب خُرْثِيّاً وقُماشاً ، وانحدر من هَشْتادسَر يريد البذّ ، فأصاب رجلاً وغلاماً نائمين فأخذهما داودسياه ـ وكان على مقدّمته ـ فساءلهما ، فذكرا أن رسول بابك أتاهم في الليلة التي انهزم فيها بابك ، فأمرهم أن يوافوه بالبذّ فكان الرجل والغلام سكرانين ، فذهب بهما النوم ، فلا يعرفان من الخبر غير هذا ؛ وكان ذلك قبل صلاة العصر . فبعث بُغا إلى داودسياه : قد توسطنا الموضع الذي نعرفه ـ يعني الذي كنا فيه في المرة الأولى ـ وهذا وقت المساء ، وقد تعب الرّجّالة ، فانظر جبلاً حصيناً يسع عسكرنا حتى نعسكر فيه ليلَتنا هذه . فالتمس داودسياه ذلك ، فصعد إلى بعض الجبال ، فالتمس أعلاه فأشرف ، فرأى أعلام الأفشين ومعسكره شبه الخيال فقال : هذا موضعنا إلى غُدوة ، وننحدر من الغد إلى الكافر إن شاء الله ، فجاءهم في تلك الليلة سحابٌ وبرْد ومطر وثلج كثير ؛ فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبَل يأخذ ماء ، ولا يسقي دابته من شدّة البرد وكثرة الثلج ؛ وكأنهم كانوا في ليل من شدّة الظلمة والضباب . فلمّا كان اليوم الثالث قال الناس لبُغا : قد فنِيَ ما معنا من الزّاد ، وقد أضرّ بنا البرْد ، فانزل على أيّ حالة كانتْ ؛ إما راجعين وإما إلى الكافر . وكان في أيام الضبّاب . فبيت بابك الأفشين ونقض عسكره ، وانصرف الأفشين عنه إلى معسكره ، فضرب بُغا بالطَّبْل ، وانحدر يريد البذّ حتى صار إلى البطْن ، فنظر إلى السماء منجلية ، والدنيا طيّبة ، غير رأس الجبل الذي كان عليه بُغا ، فعبىّ بُغا أصحابه ميمنةً وميسرةً ومقدّمة ، وتقدّم وتقدّم يريد البذّ ، وهولا يشك أن الأفشين في موضع معسكره ، فمضى حتى صار بلزق جَبل البذّ ، ولم يبق بينه وبين أن يشرف على أبيات البذّ إلا صعود قَدْر نصف ميل ، وكان على مقدّمته جماعة فيهم غلام لابن البَعِيث ، له قرابة بالبذّ ، فلقيتهم طلائع لبابك ، فعرف بعضهم الغلام ، فقال له : فلان ، فقال : من هذا هاهنا ؟ فسمى له مَنْ كان معه من أهل بيته ، فقال : ادنُ حتى أكلّمك ، فدنا الغلام منه ، فقال له : ارجع وقلْ لمن تعنى به يتنحّى ؛ فإنا قد بيّتنا الأفشين ، وانهزم إلى خندقه وقد هيّأنا لكم عسكْرين ، فعجّل الانصراف لعلك أن تفلت . فرجع الغلام فأخبر ابن البعيث بذلك ، وسمّى له الرجل ، فعرفه ابن البعيث ، فأخبر ابن البعيث بُغا بذلك ؛ فوقف بُغا شاور أصحابَه ، فقال بعضهم : هـذا باطـل ، هذِه خُـدعة ليس من هـذا شيء ، فقال بعض الكُوهبانيّين : إنّ هذا رأس جبل أعرفه ، مَن صعد إلى رأسه نظر إلى عسكر الأفشين . فصعد بغا والفضل بن كاوس وجماعة منهم ممن نشط ، فأشرفوا على الموضع ، فلم يروا فيه عسكر الأفشين فتيقّنوا أنه قد مضى ، وتشـاوروا ، فرأوا أن ينصـرف الناس راجعـين في صدر النهـار قبل أن يجنّهم الليـل ، فأمـر بُغا داودسيـاه بالانصراف ، فتقدّم داود وجدّ في السير ، ولم يقصد الطريق الذي كان دخل منه إلى هَشْتادسَر مخافة المضايق والعِقاب ، وأخذ الطريق الذي كان دخل منه في المرّة الأولى ، يدور حول هَشْتادسَر ، وليس فيه مضيق إلاّ في موضع واحد .

فسار بالناس ، وبعث بالرّجالة ، فطرحوا رماحهم وأسلحتهم في الطريق ، ودخلتْهم وَحْشة شديدة ورُعب ، وصار بُغا والفضل بن كاوس وجماعة القوّاد في الساقة ، وظهرت طلائع بابك ، فكلما نزل هؤلاء جبلاً صعدته طلائع بابك ؛ يتراءوْن لهم مرّة ويغيبون عنهم مرّة ، وهم في ذلك يَقْفُون آثارهم ، وهم قدر عشرة فرسان ؛ حتى كان بين الصّلاتين : الظهر والعصر ، فنزل بُغا ليتوضّأ ويصلّي ، فتدانت منهم طلائع بابك ،

فبرزوا لهم ، وصلى بُغا ، ووقف في وجُوههم ، فوقفوا حين رأوْه ، فتخوّف بُغا على عسكره أن يواقعه الطلائع من ناحية ، ويدور عليهم في بعض الجبال والمضايق قومٌ آخرون ، فشاور مَنْ حضره وقال : لست آمن أن يكونوا جعلوا هؤلاء مشغَلة ، يحبسوننا عن المسير ، ويقدّمون أصحابهم ليأخذوا على أصحابنا المضايِق . فقال لـه الفضل بن كاوس : ليس هؤلاء أصحاب نهار ؛ وإنما هم أصحاب ليل ؛ وإنما يتخوّف على أصحابنا من الليل ، فوَجِّهْ إلى داودسياه ليُسرع السيرَ ولا ينزل ، ولو صار إلى نصف الليل حتى يجاوز المضيق ، ونقف نحن ها هنا ؛ فإنّ هؤلاء ما داموا يرْوننا في وجوههم لا يسيرون ، فنماطلهم ونـدافعهم قليلاً قليـلاً حتى تجيء الظلمة ؛ فإذا جاءت الظلمة لم يعرفوا لنا موضعاً ، وأصحابنا يسيرون فينفذون أوّلاً فأوّلاً ، فإن أخذ علينا نحن المضيقُ تخلصنا من طريق هَشْتادسر أو من طريق آخر .

وأشار غيره على بُغا . فقال : إنّ العسكر قـد تقطّع ، وليس يـدرك أوّله آخـره ، والناس قـد رموْا بسلاحهم ، وقد بقي المال والسلاح على البغال ، وليس معه أحد ، ولا نأمن أن يخرج عليه من يأخذ المال والأسير ـ وكان ابن جويدان معهم أسيراً أرادوا أن يفادوا به كاتباً لعبد الرحمن بن حبيب ، أسره بابك ـ فعزم بُغا على أن يعسكر بالناس حين ذُكر له المال والسلاح والأسير ، فوجّه إلى داودسياه : حيثما رأيت جبلاً حصيناً ، فعسكر عليه .

فعدل داود إلى جبل مُؤرّب ، لم يكن للناس موضع يقعدون فيه من شدّة هبـوطه ، فعسكـر عليه ، فضرب مضرباً لبُغا على طرف الجبل في موضع شبيه بالحائط ؛ ليس فيه مسلك ، وجاء بغا فنزل ، وأنزل الناس وقد تعبُوا وكلّوا ، وفنيت أزوادهُم ، فباتوا على تعبئة وتحارُس من ناحية المصعَد ، فجاءهم العدوّ من الناحية الأخرى ، فتعلّقوا بالجبل حتى صاروا إلى مضرب بُغا ، فكبسوا المضرب ، وبيّتوا العسكر ، وخرج بُغا راجلاً حتى نجا ، وجُرح الفضل بن كاوس ، وقتِل جناح السكريّ ، وقتل ابن جَوْشن ، وقتل أحد الأخوين قرابة الفضل بن سهل ، وخرج بُغا من العسكر راجلاً ، فوَجدَ دابـة فركبهـا ، ومرّ بـابن البعَيث فأصعـده على هَشْتادسَر ، حتى انحدر به على عسكر محمد بن حُميد ، فوافاه في جوف الليل ، وأخذ الخُرَّميّة المال والسلاح والأسير ابن جويدان ، ولم يتبعوا الناس ، ومرّ الناس منهزمين منقطعين حتى وافوا بُغا ، وهو في خندق محمد بن حُميد ، فأقام بُغا في خندق محمد بن حميد خمسةَ عشر يوماً ، فأتاه كتاب الأفشين يأمره بالرجوع إلى المَرَاغة ، وأن يرد إليه المدد الذي كان أمدّه به ، فمضى بُغا إلى المَرَاغة ، وانصرف الفضل بن كاوس وجميعُ مَنْ كان جاء معه من معسكر الأفشين إلى الأفشين ، وفرّق الأفشين الناس في مشاتيهم تلك السنة ، حتى جاء الربيع من السنة المقبلة .

وفي هذه السنة قُتِل قائد لبابك كان يقال له طَرْخان .

ذكر سبب قتله :

ذُكِر أنّ طرْخان هذا كان عظيم المنزلة عند بابك ، وكان أحد قوّاده ، فلمّا دخل الشتاء من هذه السنة ، استأذن بابك في الإذن له أن يشتوَ في قرية له بناحية المَرَاغة ـ وكان الأفشين يرصده ، ويحبّ الظفر به ؛ لمكانه من بابك ـ فأذن له بابك ، فصار إلى قريته ليشتُوَ بها بناحية هَشْتادسَر ، فكتب الأفشين إلى تُرْك مولى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وهو بالمَراغة ، أن يسري إلى تلك القرية ـ ووصفها له ـ حتى يقتل طرخان ، أو يبعث به

إليه أسيراً . فأسرى تُرْك إلى طَرْخان ، فصار إليه في جوف الليل ، فقتَل طرخان وبعث برأسه إلى الأفشين .

وفي هذه السنة قدم صول أرتكين وأهل بلاده في قيود فنُزعت قيودُهم ، وحمِل على الدوابّ منهم نحو من مائتي رجل .

وفيها غضب الأفشين على رجاء الحضاريّ وبعث به مقيَّداً .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن عباس ، وهو والي مكة .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه المعتصم جعفر بن دينار الخياط إلى الأفشين مدداً له ، ثم إتباعه بعد ذلك بإيتاخ وتوجيهه معه ثلاثين ألف ألف درهم عطاء للجند وللنفقات .

وفيها كانت وقعة بين أصحاب الأفشين وقائد لبابك يقال له آذين .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وما كان سببها :

ذكر أن الشتاء لما انقضى من سنة إحدى وعشرين ومائتين وجاء الربيع ، ودخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، ووجّه المعتصم إلى الأفشين ما وجهه إليه من المدد والمال ،فوافاه ذلك كله وهو ببرْزَند ، سلّم إيتاخ إلى الأفشين المال والرجال الذين كانوا معه وانصرف، وأقام جعفر الخياط مع الأفشين مدّة، ثم رحل الأفشين عند إمكان الزّمان، فصار إلى موضع يقال له كلان روذ، فاحتفر فيه خندقاً، وكتب إلى أبي سعيد، فرحل من بَرْزَند إلى إزائه على طرف رستاق كلان روذ، وتفسيره: نهر كبير، بينهما قدر ثلاثة أميال، فأقام معسكراً في خندق، فأقام بكلان روذ خمسة أيام، فأتاه من أخبره أن قائداً من قواد بابك يدعى آذين، قد عسكر بإزاء الأفشين وأنه قد صيّر عياله في جبل يشرف على رُوذ الروذ، وقال: لا أتحصّن من اليهود ـ يعني المسلمين ـ ولا أدخل عيالي حصناً؛ وذلك أنّ بابك قال له: أدخِل عيالك الحصن، قال: أنـا أتحصّن من اليهود! والله لا أدخلتهم حصناً أبداً، فنقلهم إلى هذا الجبل، فوجّه الأفشين ظفر بن العلاء السعديّ والحسين بن خالد المدائنيّ من قواد أبي سعيد في جماعة من الفرسان والكوهبانية، فساروا ليلتهم من كلان روذ؛ حتى انحدروا في مَضِيق لا يمرّ فيه راكب واحد إلاّ بجهد، فأكثر الناس قادوا دوابّهم، وانسلُّوا رجلاً خلْف رجل، فأمرهم أن يصيروا قبل طلوع الفجر على روذ الروذ، فيعبر الكوهبانية رجّالة، لأنه لا يمكن الفارس أن يتحرّك هناك، ويتسلقوا الجبل؛ فصاروا على روذ الروذ قبل السّحَر، ثمّ أمر مَنْ أطاق من الفرسان أن يترجل وينزع ثيـابه، فتـرّجل عـامة الفرسان، وعبَروا وعبر معهم الكوهبانية جميعاً، وصعدوا الجبل؛ فأخذوا عيال آذين وبعض ولده. وعبروا بهم، وبلغ آذينَ الخبر بأخذ عياله؛ وكان الأفشين عند توجّه هؤلاء الرجالة ودخولهم المضيق يخاف أن يؤخذ عليهم المضِيق، فأمر الكُوهبانية أن يكون معهم أعلام، وأن يكونوا على رؤوس الجبال الشواهق في المواضع التي يُشرفون منها على ظَفَر بن العلاء وأصحابه؛ فإن رأوا أحداً يخافونه حرّكوا الأعلام، فبات الكوهبانيّة على رؤوس الجبال، فلما رجع ابن العلاء والحسين بن خالد بمن أخذوا من عيال آذين، وصاروا في بعض الطريق قبل أن يصيروا إلى المضيق، انحدر عليهم رجّالة آذين فحاربوهم قبل أن يدخلوا المضيق، فوقع بينهم قتلى، واستنقذوا بعض النساء. ونظر إليهم الكوهبانية الذين رتّبهم الأفشين؛ وكان آذين قد وجّه عسكريْن؛ عسكراً يقاتلهم، وعسكراً يأخذ عليهم المضيق؛ فلما حرّكوا الأعلام وجّه الأفشين مظفر بن كيدر في كردوس من أصحابه، فأسرع

الرّكض. ووجّه أبا سعيد خلف المظفّر، وأتبعهما ببخاراخُذاه، فوافوْا، فلما نظر إليه رجّالة آذين الذين كانوا على المضيق انحدروا عن المضيق، وانضموا إلى أصحابهم، ونجا ظفر بن العلاء والحسين بن خالد ومَنْ معهما من أصحابهما، ولم يقتل منهم إلاّ من قتل في الوقعة الأولى، وجاؤوا جميعاً إلى عسكر الأفشين؛ ومعهم النساء اللواني أخذوهنّ.

وفي هذه السنة فتحت البذّ مدينة بابك، ودخلها المسلمون، واستباحوها؛ وذلك في يوم الجمعة لعشر بَقِين من شهر رمضان في هذه السنة.

ذكر الخبر عن أمرها وكيف فُتحت والسبب في ذلك:

ذُكِر أنّ الأفشين لما عزم على الدنوّ من البذّ والارتحال من كلان روذ جعل يُزحلف قليلا قليلا ـ على خلاف زحفه قبل ذلك ـ إلى المنازل التي كان ينزلها؛ فكان يتقدّم الأميال الأربعة، فيعسكر في موضع على طريق المضِيق الذي ينحدر إلى روذ الرّوذ، ولا يحفر خندقاً؛ ولكنه يقيم معسكراً في الحسَك، وكتب إليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس نوائبَ كراديس تقف على ظهور الخيل، كما يدور العسكر بالليل؛ فبعض القوم معسكرون وبعضٌ وقوف على ظهور دوابّهم على ميل كما يدور العسكر بالليل والنهار مخافة البَيات؛ كي إن دهمهم أمر يكون الناس على تعبية والرّجالة في العسكر؛ فضجّ الناس من التعب وقالوا: كم نقعد ها هنا في المضيق ونحن قعود في الصحراء، وبيننا وبين العدوّ أربعة فراسخ، ونحن نفعل فعلاً؛ كأنّ العدو بإزائنا! قد استحينا من الناس والجواسيس الذين يمرون بيننا وبين العدو أربعة فراسخ؛ ونحن قد متنا من الفزع؛ أقدم بنا؛ فإمّا لنا وإما علينا، فقال: أنا والله أعلم أنّ ما تقولون حقّ؛ ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا. ولا أجدُ منه بدًّا.

فلم يلبث أن جاءه كتاب المعتصم يأمره أن يتحرّى بِدراجة الليل على حسب ما كان؛ فلم يزل كذلك أياماً، ثم انحدر في خاصّته حتى نزل إلى روذ الرّوذ، وتقدّم حتى شارف الموضع الذي به الرُّكوة التي واقعه عليها بابك في العام الماضي؛ فنظر إليها، ووجد عليها كُردوساً من الخرّمية؛ فلم يحاربوه ولم يحاربهم؛ فقال بعض العلوج: ما لكم تجيئون وتفرّون! أما تستحيون! فأمر الأفشين ألاّ يجيئوهم ولا يبرز إليهم أحـد؛ فلم يزل مُواقفَهم إلى قريب من الظهر، ثم رجع إلى عسكره، فمكث فيه يومين، ثم انحدر أيضاً في أكثر مما كان انحدر في المرّة الأولى، فأمر أبا سعيد أن يذهب فيواقِفهم على حسب ما كان واقفهم في المرّة الأولى، ولا يحرّكهم ولا يهجم عليهم.

وقام الأفشين بروذ الرّوذ، وأمر الكوهبانية أن يصعدوا إلى رؤوس الجبال التي يظنون أنها حصينة، فيتراءوا له فيها، ويختاروا له في رؤوس الجبال مواضع يتحصّن فيها الرجّالة، فاختاروا له ثلاثة أجبل، قد كانت عليها حصون فيما مضى، فخربت فعرفها، ثم بعث إلى أبي سعيد، فصرفه يومه ذلك؛ فلما كان بعد يومين انحدر من معسكره إلى روذ الروذ، وأخذ معه الكِلْغَرية ـ وهم الفعلة ـ وحملوا معهم شِكاء الماء والكعْك؛ فلما صاروا إلى روذ الرّوذ وجّه أبا سعيد، وأمره أن يواقفهم أيضاً على حسب ما كان أمره به في اليوم الأوّل، وأمر الفعلة بنقل الحجارة وتحصين الطرق التي تسلك إلى تلك الثلاثة الأجبل؛ حتى صارت شبه الحصون؛ وأمر فاحتفر على كلّ طريق وراء تلك الحجارة إلى المِصْعد خندقاً؛ فلم يترك مسلكاً إلى جبل منها إلا مسلكاً واحداً. ثم أمر أبا سعيد بالانصراف، فانصرف، ورجع الأفشين إلى معسكره. قال: فلما

كان في اليوم الثامن من الشهر، واستحكم الحصر، دفع إلى الرّجالة كعكاً وسويقاً، ودفع إلى الفرسان الزّاد والشعير، ووكّل بمعسكره ذلك مَنْ يحفظه. وانحدروا، وأمر الرّجالة أن يصعدوا إلى رؤوس تلك الجبال، وأن يصعدوا معهم بالماء، وبجميع ما يحتاجون إليه، ففعلوا ذلك، وعسكر ناحية، ووجّه أبا سعيد ليواقف القوم على حسب ما كان يواقفهم، وأمر الناس بالنزول في سلاحهم، وألا يأخذ الفرسان سروج دوابهم. ثم خَطّ الخندق، وأمر الفَعَلة بالعمل فيه، ووكّل بهم مَنْ يستحثّهم، ونزل هو والفرسان، فوقفوا تحت الشجر في ظل يرعوْن دوابهم، فلما صلى العصر، أمر الفعلة بالصعود إلى رؤوس الجبال التي حصّنها مع الرّجالة، وأمر الرّجالة أن يتحارسوا ولا يناموا، ويدَعوا الفَعلة فوق الجبال ينامون، وأمر الفرسان بالركوب عند اصفرار الشمْس، فصيَّرهم كراديس وقّفها حيالهم، بين كلّ كُردوس وكُردوس قَدْر رمية سهم، وتقدّم إلى جميع الكراديس ألاّ يلتفتنّ كلّ واحد منكم إلى الآخر؛ ليحفظ كلُّ واحد منكم ما يليه؛ فإن سمعتم هدَّةً فلا يلتفتنّ أحد منكم إلى أحد، وكلّ كُردوس منكم قائم بما يليه، فإنه لا بهدّة يأخذ. فلم يزل الكراديس وقوفاً على ظهور دوابهم إلى الصباح، والرّجالة فوق رؤوس الجبال يتحارسون. وتقدّم إلى الرّجالة: متى ما أحسوا في الليل بأحد فلا يكترثوا، وليلْزم كلُّ قوم منهم المواضع التي لهم؛ وليحفظوا جبلهم وخندقهم فلا يلتفتنّ أحدُ إلى أحد. فلم يزالوا كذلك إلى الصباح؛ ثم أمر مَنْ يتعاهد الفرسان والرّجالة بالليل، فينظر إلى حالتهم؛ فلبِثوا في حفر الخندق عشرة أيام، ودخله اليوم العاشر فقسّمه بين الناس، وأمر القوّاد أن يبعثوا إلى أثقالهم وأثقال أصحابهم على الرفق، وأتاه رسول بابك ومعه قِثّاء وبِطّيخ وخِيار؛ يعلمه أنه في أيامه هذه في جفاء؛ إنما يأكل الكعك والسويق هو وأصحابه، وأنه أحبّ أن يُلطفه بذلك. فقال الأفشين للرسول: قد عرفتُ أيَّ شيء أراد أخي بهذا؛ إنما أراد أن ينظر إلى العسكر، وأنا أحقّ مَنْ قبل برَّه، وأعطاه شهوته؛ فقد صدق، أنا في جفاء. وقال للرَّسول: أما أنت فلا بدّ لك أن تصعد حتى ترى معسكرنا، فقد رأيت ما ها هنا، وترى ما وراءنا أيضاً، فأمر بحمله على دابة، وأن يُصعد به حتى يرى الخندق، ويرى خندق كلان روذ وخندق برزند، ولْينظر إلى الخنادق الثلاثة ويتأملها، ولا يخفى عليه منها شيء ليخبر به صاحبه. ففُعل به ذلك؛ حتى صار إلى برزند، ثم ردّه إليه، فأطلقه وقال له: اذهب، فأقرئه مني السلام - وكان من الخرّمية الذين يتعرّضون لمن يجلب الميرة إلى العسكر - ففعل ذلك مرّة أو مرتين، ثم جاءت الخرَّمية بعد ذلك في ثلاثة كراديس، حتى صاروا قريباً من سور خندق الأفشين يصيحون، فأمر الأفشين الناس ألا ينطق أحد منهم، ففعلوا ذلك ليلتين أو ثلاث ليال، وجعلوا يركضون دوابّهم خلْف السور، ففعلوا ذلك غير مرّة؛ فلما أنسوا هيّأ لهم الأفشين أربعة كراديس من الفرسان والرّجالة، فكانت الرّجالة ناشبة، فكمنوا لهم في الأودية، ووضع عليهم العيون؛ فلما انحدروا في وقتهم الّذي كانوا ينحدرون فيه في كلّ مرة، وصاحوا وجلَّبوا كعادتهم شدّت عليهم الخيل والرّجالة الذين رُتِّبوا، فأخذوا عليهم طريقهم.

وأخرج الأفشين إليهم كُردوسين من الرّجالة في جوف الليل، فأحسوا أن قد أخذت عليهم العقبة، فتفرّقوا في عدّة طرق؛ حتى أقبلوا يتسلّقون الجبال، فمرّوا فلم يعودوا إلى ما كانوا يفعلون، ورجع الناس من الطلب مع صلاة الغداة إلى الخندق بروذ الروذ، ولم يلحقوا من الخرّمية أحداً.

ثم إنّ الأفشين كان في كل أسبوع يضرب بالطبول نصفَ الليل، ويخرج بالشمع والنفاطات إلى باب الخندق، وقد عرف كل إنسان منهم كُرْدوسه؛ مَن كان في الميمنة ومن كان في الميسرة؛ فيخرج الناس فيقفون في مواقفهم

ومواضعهم. وكان الأفشينُ يحمل أعلاماً سوداً كباراً، اثني عشر علماً يحملها على البغال؛ ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع، يحمِلها على اثني عشر بغلا؛ وكانت طبوله الكبار واحداً وعشرين طبلا؛ وكانت الأعلام الصغار نحواً من خمسمائة علَم؛ فيقف أصحابه كل فرق على مرتبتهم من رُبْع الليل؛ حتى إذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه، فيؤذِّنه المؤذن بين يديه ويصلي، ثم يصلي الناس بغلَس، ثم يأمر بضرب الطبول، ويسير زحفاً، وكانت علامته في المسير والوقوف تحريك الطبول وسكونها، لكثرة الناس ومسيرهم في الجبال والأزقة على مصافّهم؛ كلما استقبلوا جبلا صعدوه، وإذا هبطوا إلى وادٍ مضوْا فيه؛ إلا أن يكون جبلاً منيعاً لا يمكنهم صعودُه وهبوطه؛ فإنهم كانوا ينضمون إلى العساكر، ويرجعون إذا جاؤوا إلى الجبل إلى مصافّهم ومواضعهم؛ وكانت علامة المسير ضرب الطبول؛ فإن أراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول؛ فيقف الناس جميعاً من كلّ ناحية على جبل، أو في وادٍ أو في مكانهم؛ وكان يسير قليلا قليلا؛ كلما جاءه كوهبانيّ بخبر وقف قليلا؛ وكان يسير هذه الستة الأميال التي بين رُوذ الروذ، وبين البذّ، ما بين طلوع الفجر إلى الضّحى الأكبر؛ فإذا أراد أن يصعد إلى الرّكوة التي كانت الحرب تكون عليها في العام الماضي، خلّف بُخاراخُذاه، على رأس العقبَة مع ألف فارس وستمائة راجل، يحفظون عليه الطريق، لا يخرج أحد من الخُرَّمية؛ فيأخذ عليه الطريق. وكان بابك إذا أحسّ بالعسكر أنه وارد عليه وجه عسكراً له فيه رجّالة إلى وادٍ تحت تلك العقبة التي كان عليها بخُاراخذاه، ويكمنُون لمن يريد أن يأخذ عليه الطريق.

وكان الأفشين يقف بخاراخُذاه يحفظ هذه العقبة التي وجّه بابك عسكره إليها ليأخذها على الأفشين؛ وكان بُخاراخذاه يقف بها أبداً، ما دام الأفشين داخل البذّ على الرّكوة،وكان الأفشين يتقدّم إلى بخاراخذاه أن يقف على وادٍ فيما بينه وبين البذّ شبه الخندق.

وكان يأمر أبا سعيد محمد بن يوسف أن يعبُر ذلك الوادي في كُردوس من أصحابه، ويأمر جعفراً الخياط أن يقف أيضاً في كُردوس من أصحابه، ويأمر أحمد بن الخليل فيقف في كردوس آخر؛ فيصير في جانب ذلك الوادي ثلاثة كراديس في طرف أبياتهم؛ وكان بابك يُخرج عسكراً مع آذين، فيقف على تلّ بإزاء هؤلاء الثلاثة الكراديس خارجاً من البذّ لئلا يتقدّم أحد من عساكر الأفشين إلى باب البذّ. وكان الأفشين يقصد إلى باب البذّ، ويأمرهم إذا عبروا بالوقوف فقط، وترك المحاربة، وكان بابك إذا أحسّ بعساكر الأفشين أنها قد تحركت من الخندق تريده فرّق أصحابه كمناء؛ ولم يبق معه إلا نُفير يسير؛ وبلغ ذلك الأفشين، ولم يكن يعرف المواضع التي يكمنُون فيها. ثم أتاه الخبر بأن الخرّمية قد خرجوا جميعاً، ولم يبق مع بابك إلا شرذمة من أصحابه. وكان الأفشين إذا صعد إلى ذلك الموضع بُسط له نِطع، ووُضع له كرسيّ، وجلس على تلّ مشرف يُشرف على باب قصر بابك، والناس كراديس وقوف، مَنْ كان معه من جانب الوادي هذا أمره بالنزول عن دابته، ومَنْ كان من ذاك الجانب مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأصحابه، وأحمد بن الخليل لم يُنزل لقربه من العدوّ؛ فهم وقوف على ظهور دوابّهم؛ ويفرق رجّالته الكوهبانية ليفتشوا الأودية؛ طمع أن يقع على مواضع الكُمناء فيعرفها. فكانت هذه حالته في التفتيش إلى بعد الظهر، والخُرّمية بين يدي بابك يشربون النبيذ، ويزمرُون بالسُّرْنايات، ويضربون بالطبول؛ حتى إذا صلى الأفشين الظهر؛ تقدم فانحدر إلى خندقه بروذ الروذ؛ فكان أول من ينحدر أبو سعيد ثم أحمد بن الخليل ثم جعفر بن دينار، ثم ينصرف الأفشين؛ وكان مجيئه ذلك مما يغيظ بابك، وانصرافه فإذا دنا الانصراف، ضربوا

بصنُوجهم، ونفخوا بوُقاتهم استهزاء؛ ولا يبرح بخاراخذاه من العقبة التي هو عليها؛ حتى تجوزه الناس جميعاً، ثم ينصرف في آثارهم؛ فلما كان في بعض أيامهم ضجِرت الخُرّمية من المعادلة والتفتيش الذّي كان يفتش عليهم؛ فانصرف الأفشين كعادته، وانصرفت الكراديس أولا فأوّلا، وعبر أبو سعيد الوادي، وعبر أحمد بن الخليل، وعبر بعض أصحاب جعفر الخياط، وفتح الخُرّمية باب خندقهم، وخرج منهم عشرة فوارس، وحملوا على مَنْ بقي من أصحاب جعفر الخياط في ذلك الموضع، وارتفعت الضجّة في العسكر، فرجع جعفر مع كُردوس من أصحابه بنفسه، فحمل على أولئك الفرسان حتى ردّهم إلى باب البذّ، ثم وقعت الضجّة في العسكر، فرجع الأفشين وجعفر وأصحابه من ذلك الجانب يقاتلون؛ وقد خرج من أصحاب جعفر عدّة، وخرج بابك بعدَّة فرسان لم يكن معهم رجّالة؛ لا من أصحاب الأفشين، ولا من أصحاب بابك؛ كان هؤلاء يحملون؛ وهؤلاء يحملون؛ فوقعت بينهم جراحات، ورجع الأفشين حتى طُرح له النطع والكرسيّ، فجلس في موضعه الذي كان يجلس فيه؛ وهو يتلظّى على جعفر، ويقول: قد أفسد عليّ تعبيتي وما أريد.

وارتفعت الضجّة، وكان مع أبي دُلف في كردوس قوم من المطوّعة من أهل البصرة وغيرهم؛ فلما نظروا إلى جعفر يحارب، انحدر أولئك المطوّعة بغير أمر الأفشين، وعبروا إلى ذلك جانب الوادي، حتى صاروا إلى جانب البذّ؛ فتعلّقوا به؛ وأثّروا فيه آثاراً؛ وكادوا يصعدونه فيدخلون البذّ، ووجّه جعفر إلى الأفشين: أن أمدّني بخمسمائة راجل من الناشِبة؛ فإني أرجو أن أدخل البذّ إن شاء الله؛ ولست أرى في وجهي كثير أحد إلّا هذا الكُردوس الذي تراه أنت فقط ـ يعني كردوس آذين ـ فبعث إليه الأفشين أن قد أفسدتَ عليّ أمري، فتخلَّص قليلا قليلاً، وخلِّص أصحابك وانصرف. وارتفعت الضجة من المطوّعة حتى تعلّقوا بالبذّ، وظنّ الكُمناء الذين أخرجهم بابك أنها حرب قد اشتبكت؛ فنعروا ووثبوا من تحت عسكر بُخاراخذاه، ووثب كمين آخر من وراء الرّكوة التي كان الأفشين يقعد عليها، فتحرّكت الخُرّمية، والناس وقوف على رؤوسهم لم يزُل منهم أحد؛ فقال الأفشين: الحمد لله الذي بيّن لنا مواضع هؤلاء.

ثم انصرف جعفر وأصحابه والمطوّعة؛ فجاء جعفر إلى الأفشين؛ فقال له: إنما وجّهني سيّدي أمير المؤمنين للحرب التي ترى، ولم يوجّهني للقعود ها هنا، وقد قطعتَ بي في موضع حاجتي ما كان يكفِيني إلا خمسمائة راجل حتى أدخل البذّ أو جوف داره؛ لأني قد رأيت من بين يديّ. فقال له الأفشين: لا تنظر إلى ما بين يديْك؛ ولكن انظر إلى ما خلفك وما قد وثبوا ببخار اخذاه وأصحابه. فقال الفضل بن كاوس لجعفر الخياط: لو كان الأمر إليك ما كنت تقدر أن تصعَد إلى هذا الموضع الذي أنت عليه واقف؛ حتى تقول: كنت وكنت. . . . فقال له جعفر: هذه الحرب؛ وها أنا واقف لمن جاء. فقال له الفضل: لولا مجلس الأمير لعرّفتُك نفسك الساعة؛ فصاح بهما الأفشين؛ فأمسكا، وأمر أبا دُلف أن يردّ المطوّعة عن السور، فقال: أبو دُلف للمطوّعة: انصرفوا. فجاء رجل منهم ومعه صخرة، فقال: أتردّنا وهذا الحجر أخذته من السور! فقال له الساعة، إذا انصرف تَدْرِي مَن على طريقك جالس ـ يعني العسكر الذي وثب على بخاراخذاه من وراء الناس. ثم قال الأفشين لأبي سعيد في وجه جعفر: أحسن اللهُ جزاءَك عن نفسك وعن أمير المؤمنين؛ فإنِّي ما علمتك عالماً بأمر هذه العساكر وسياستها؛ ليس كلّ من حفّ رأسُه يقول: إنّ الوقوف في الموضع الذي يحتاج إليه خير. من المحاربة في الموضع الذي لا يحتاج إليه، لو وثب هؤلاء الذين تحتك ـ وأشار إلى الكمين الذي تحت الجبل ـ كيف كنت ترى هؤلاء المطوّعة الذين هم في القُمُص؟ أيّ شيء كان يكون حالهم، ومن كان يجمعهم؟ الحمد لله الذي

سلّمهم؛ فقف ها هنا فلا تبرح حتى لا يبقى ها هنا أحد. وانصرف الأفشين؛ وكان من سنّته إذا بدأ بالانصراف ينحدر علم الكراديس وفرسانه ورجّالته، والكُردوس الآخر واقف بينه وبينه قدر رمْية سهم؛ لا يدنو من العقبة، ولا من المضيق؛ حتى يرى أنه قد عبر كلّ مَنْ في الكردوس الذي بين يديه وخلابه الطريق، ثم يدنو بعد ذلك فينحدر في الكُردوس الآخر بفرسانه ورَجّالته؛ ولا يزال كذلك؛ وقد عرّف كلّ كُردوس مِن خلف مَنْ ينصرف؛ فلم يكن يتقدم أحد منهم بين يدي صاحبه، ولا يتأخّر هكذا؛ حتى إذا نفذت الكراديس كلها ولم يبق أحد غير بخاراخذاه؛ انحدر بخاراخذاه وخلّى العقبة. فانصرف ذلك اليوم على هذه الهيئة؛ وكان أبو سعيد آخر من انصرف؛ وكلّما مرّ العسكر بموضع بُخاراخذاه، ونظروا إلى الموضع الذي كان فيه الكَمِين؛ علموا ما كان وُطّيء لهم، وتفرّق أولئك الأعلاج الذين أرادوا أخذ الموضع الذي كان بُخاراخذاه يحفظه، ورجعوا إلى مواضعهم، فأقام الأفشين في خندقه بروذ الروذ أياماً؛ فشكا إليه المطّوّعة الضيق في العلوفة والأزواد والنفقات، فقال لهم: مَنْ صبر منكم فليصبر، ومَنْ لم يصبر فالطريق واسع فلينصرف بسلام؛ معي جند أمير المؤمنين؛ ومَنْ هو في أرزاقه يقيمون معي في الحرّ والبرد؛ ولست أبرح من ها هنا حتى يسقط الثلج. فانصرف المطوّعة وهم يقولون: لو ترك الأفشين جعفراً وتركنا لأخذنا البذّ؛ هذا لا يَشتهي إلا المُماطلة؛ فبلغه ذلك وما كثّر المطوّعة فيه، ويتناولونه بألسنتهم وأنه لا يحبّ المناجزة؛ وإنما يريد التطويل؛ حتى قال بعضهم إنه رأى في المنام، أن رسول الله ﷺ قال له: قل للأفشين: إن أنت حاربت هذا الرجل وجددت في أمره وإلا أمرتُ الجبال أن ترجمك بالحجارة؛ فتحدّث الناس بذلك في العسكر علانية؛ كأنه مستور، فبعث الأفشين إلى رؤساء المطوّعة، فأحضرهم وقال لهم: أحبّ أن تُروني هذا الرجل؛ فإن الناس يرون في المنام أبواباً؛ فأتوه بالرجل في جماعة من الناس، فسلّم عليه، فقرّبه وأدناه، وقال له: قُصّ عليّ رؤياك، لا تحتشم ولا تستحي؛ فإنما تؤدي. قال: رأيت كذا ورأيت كذا؛ فقال: الله يعلم كلّ شيء قبل كل أحد؛ وما أريدَ بهذا الخَلْق. إن الله تبارك وتعالى لو أراد أن يأمر الجبال أن ترجم أحداً لرجم الكافر، وكفانا مؤُنته؛ كيف يرجمني حتى أكفيه مؤنة الكافر كان يرجمه، ولا يحتاج أن أقاتله أنا؛ وأنا أعلم أن الله عز وجلّ لا يخفى عليه خافية؛ فهو مطّلع على قلبي، وما أريد بكم يا مساكين! فقال رجل من المطوّعة من أهل الدين: يا أيها الأمير؛ لا تحرمنا شهادةً إن كانت قد حضرت؛ وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه؛ فدعْنا وحدنا حتى نتقدم بعد أن يكون بإذنك؛ فلعلّ الله أن يفتح علينا. فقال الأفشين: إني أرى نيّاتكم حاضرة؛ وأحسب هذا الأمر يريده الله؛ وهو خير إن شاء الله؛ وقد نشطتم ونشط الناس؛ والله أعلم ما كان هذا رأيي؛ وقد حدث الساعة لمّا سمعت من كلامكم، وأرجو أن يكون أراد هذا الأمر وهو خيْر؛ اعزموا على بركة الله أيَّ يوم أحببتم حتى نناهضهم؛ ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله! فخرج القوم مستبشرين فبشّروا أصحابهم؛ فمن كان أراد أن ينصرف أقام، ومن كان في القرب وقد خرج مسيرة أيام فسمع بذلك رجع؛ ووعد الناس ليوم، وأمر الجند والفرسان والرّجالة وجميع الناس بالأهبة، وأظهر أنه يريد الحرْب لا محالة. وخرج الأفشين وحمل المال والزاد، ولم يبق في العسكر بغل إلاّ وُضع عليه محمل للجرحى، وأخرج معه المتطبّبين، وحمل الكعك والسَّويق وغير ذلك؛ وجميع ما يحتاج إليه؛ وزحف الناس حتى صعد إلى البذّ، وخلّف بخاراخذاه في موضعه الذي كان يخلّفه عليه على العقبة، ثم طُرِح النِّطع ووُضع له الكرسيّ، وجلس عليه كما كان يفعل، وقال لأبي دلف: قل للمطوَّعة: أيّ ناحية هي أسهل عليكم، فاقتصروا عليها. وقال لجعفر: العسكر كلّه بين يديك، والناشبة والنفّاطون؛ فإن أردت رجالا دفعتُهم إليك؛ فخذ حاجتك وما تريد، واعزِم

على بركة الله: فادنُ مِنْ أيّ موضع تريد. قال: أريد أن أقصد الموضع الذي كنت عليه، قال: امض إليه. ودعا أبا سعيد، فقال له: قف بين يديّ؛ أنت وجميعُ أصحابك، ولا يبرحنّ منكم أحدٌ. ودعا أحمد بن الخليل فقال له: قف أنت وأصحابك ها هنا، ودع جعفراً يعبرُ وجميع مَنْ معه من الرجال؛ فإن أراد رجالا أو فرساناً أمددناه؛ ووجّهنا بهم إليه؛ ووجّه أبا دلف وأصحابه من المطوعة، فانحدروا إلى الوادي، وصعدوا إلى حائط البذّ من الموضع الذي كانوا صعدوا عليه تلك المرّة، وعلقوا بالحائط على حسب ما كانوا فعلوا ذلك اليوم؛ وحَمَل جعفر حملةً حتى ضرب باب البذّ، على حسب ما كان فعل تلك المرة الأولى؛ ووقف على الباب، وواقفه الكفرة ساعة صالحة؛ فوجّه الأفشين برجل معه بدرة دنانير، وقال له: اذهب إلى أصحاب جعفر، فقل: مَنْ تقدّم، فاحثُ له ملء كفّك، ودفع بَدْرة أخرى إلى رجل من أصحابه، وقال له: اذهب إلى المطوّعة ومعك هذا المال وأطواق وأسورة؛ وقل لأبي دُلَف: كلّ من رأيته محسناً من المطوّعة وغيرهم فأعطه. ونادى صاحب الشراب، فقال له: اذهب فتوسَّط الحرب معهم حتى أراك بعيني معك السويق والماء؛ لئلا يعطش القوم فيحتاجوا إلى الرجوع؛ وكذلك فعل بأصحاب جعفر في الماء والسويق، ودعا صاحب الكِلْغَرية، فقال له: مَنْ رأيته في وسط الحرب من المطوّعة في يده فأس فله عندي خمسون درهماً؛ ودفع إليه بَدْرة دراهم؛ وفعل مثل ذلك بأصحاب جعفر؛ ووجه إليهم الكِلْغَريّة بأيديهم الفؤوس، ووجه إلى جعفر بصندوق فيه أطواق وأسورة، فقال له: ادفع إلى مَنْ أردت من أصحابك هذا سوى ما لهم عندي، وما تضمن لهم عليّ من الزيادة في أرزاقهم والكتاب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم. فاشتبكت الحرب على الباب طويلا، ثم فتح الخُرّمية الباب، وخرجوا على أصحاب جعفر، فنحّوهم عن الباب، وشدُّوا على المطوّعة من الناحية الأخرى؛ فأخذوا منهم علَمين طرحوهم عن السور، وجرحوهم بالصّخر حتى أثّروا فيهم، فرقّوا عن الحرب، ووقفوا، وصاح جعفر بأصحابه، فبدر منهم نحو من مائة رجل، فبركوا خلف تِراسهم التي كانت معهم، وواقفوهم متحاجزين؛ لا هؤلاء يقدمون على هؤلاء، ولا هؤلاء يقدمون على هؤلاء؛ فلم يزالوا كذلك حتى صلّى الناس الظهر؛ وكان الأفشين قد حمل عرّادات، فنصب عرّادة منها مما يلي جعفراً على الباب، وعرّادة أخرى من طرف الوادي من ناحية المطّوّعة؛ فأما العرّادة التي من ناحية جعفر؛ فدافع عنها جعفر حتى صارت العرّادة فيما بينهم وبين الخُرّمية ساعة طويلة؛ ثم تخلّصها أصحاب جعفر بعد جهد، فقلعوها وردّوها إلى العسكر؛ فلم يزل الناس متواقفين متحاجزين؛ يختلف بينهم النّشاب والحجارة أولئك على سورهم والباب، وهؤلاء قعود تحت أتراسهم، ثم تناجزوا بعد ذلك؛ فلمّا نظر الأفشين إلى ذلك كره أن يطمع العدوّ في الناس، فوجّه الرَّجالة الذين كان أعدّهم قبله؛ حتى وقفوا في موضع المطوّعة، وبعث إلى جعفر بكُردوس فيه رَجّالة، فقال جعفر: لست أوتَى من قلة الرَّجالة معي رجال فُرْهٌ ولكني لست أرى للحرب موضعاً يتقدمون؛ إنما ها هنا موضع مجال رجل أو رجلين قد وقفوا عليه، وانقطعت الحرب، فبعث إليه: انصرف على بركة الله؛ فانصرف جعفر، وبعث الأفشين بالبِغال التي كان جاء بها معه، عليها المحامل؛ فجُعلت فيها الجرحى ومَنْ كان به وهن من الحجارة ولا يقدر على المشي؛ وأمر الناس بالانصراف؛فانصرفوا إلى خَنْدقهم بروذ الرّوذ، وأيس الناس من الفتح في تلك السنة وانصرف أكثر المطوّعة.

ثم إنّ الأفشين تجهّز بعد جمعتين؛ فلمّا كان في جَوْف الليل؛ بعث الرَّجالة الناشبة؛ وهم مقدار ألف رجل، فدفع إلى كل واحد منهم شَكْوة وكَعْكاً، ودفع إلى بعضهم أعلاماً سوداً وغير ذلك، وأرسلهم عند مغيب الشمس، وبعث معهم أدلّاء، فساروا ليلتهم في جبال منكرة صعبة على غير الطريق؛ حتى داروا، فصاروا

خلْف التلّ الذي يقف آذين عليه ـ وهو جبل شاهق ـ وأمرهم ألّا يعلم بهم أحد؛ حتى إذا رأوا أعلام الأفشين وصلّوا الغداة ورأوا الوقعة، ركّبوا تلك الأعلام في الرّماح، وضربوا الطبول، وانحدروا من فوق الجبل، ورمَوْا بالنشاب والصخر على الخُرَّمية؛ وإن هم لم يروا الأعلام لم يتحرّكوا حتى يأتيَهم خبره؛ ففعلوا ذلك. فوافَوْا رأس الجبل عند السَّحر، وجعلوا في تلك الشكاءِ الماء من الوادي؛ وصاروا فوق الجبل، فلمّا كان في بعض الليل وجَّه الأفشين إلى القواد أن يتهيؤوا في السلاح؛ فإنه يركب في السحر؛ فلما كان في بعض الليل، وجّه بشيراً التركيّ وقوّاداً من الفراغنة كانوا معه؛ فأمرهم أن يسيروا حتى يصيروا تحت التلّ مع أسفل الوادي الذي حملوا منه الماء؛ وهو تحت الجبل الذي كان عليه آذين؛ وقد كان الأفشين علم أنّ الكافر يكمن تحت ذلك الجبل كلّما جاءه العسكر؛ فقصد بشير والفراغنة إلى ذلك الموضع الذي علم أن للخرمية فيه عسكراً كامنين، فساروا في بعض الليل؛ ولا يعلم بهم أكثر أهل العسكر. ثم بعث للقوّاد: تأهّبوا للركوب في السلاح؛ فإن الأمير يغدو في السَّحر؛ فلمّا كان السَّحَر خرج وأخرج الناس، وأخرج النَّفاطين والنّفاطات والشمع على حسب ما كان يخرج، فصلّى الغداةَ، وضرب الطبل، وركب حتى وافَى الموضع الذي كان يقف فيه في كلّ مرّة، وبُسط له النِّطع، ووضع له الكرسيّ كعادته.

وكان بخاراخذاه يقف على العقبة التي كان يقف عليها في كلّ يوم؛ فلمّا كان ذلك اليوم صيّر بخاراخذاه في المقدّمة مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأحمد بن الخليل؛ فأنكر الناس هذه التعبية في ذلك الوقت، وأمرهم أن يدنوا من التلّ الذي عليه آذين؛ فيحدقوا به؛ وقد كان ينهاهم عن هذا قبل ذلك اليوم؛ فمضى الناس مع هؤلاء القوّاد الأربعة الذين سمّينا؛ حتى صاروا حول التل. وكان جعفر الخياط مما يلي باب البذّ، وكان أبو سعيد مما يليه، وبخاراخذاه مما يلي أبا سعيد وأحمد بن الخليل بن هشام ممّا يلي بخاراخذاه؛ فصاروا جميعاً حَلْقة حول التلّ، وارتفعت الضجة من أسفل الوادي؛ وإذا الكمين الذي تحت التلّ الذي كان يقف عليه آذين قد وثب ببشير التركي والفراغنة؛ فحاربوهم واشتبكت الحرب بينهم ساعة.

وسمع أهل العسكر ضجّتهم، فتحرّك الناس، فأمر الأفشين أن ينادوا: أيُّها الناس، هذا بشير التركيّ والفراغنة قد وجهتهم؛ فأثاروا كميناً فلا تتحرّكوا. فلما سمع الرجّالة الناشبة الذين كانوا تقدموا، وصاروا فوق الجبل ركبوا الأعلام كما أمرهم الأفشين؛ فنظر الناس إلى أعلام تجيء من جبل شاهق؛ أعلام سود، وبين العسكر وبين الجبل نحو فرسخ؛ وهم ينحدرون على جبل آذين من فوقهم؛ قد ركّبوا الأعلام، وجعلوا ينحدرون يريدون آذين، فلمّا نظر إليهم أهل عسكر آذِين وجّه آذين إليهم بعض رجّالته الذين معه من الخُرّمية. ولما نظر الناس إليهم راعوهم؛ فبعث إليهم الأفشين: أولئك رجالنا أنجدتنا على آذين؛ فحمل جعفر الخياط وأصحابه على آذين وأصحابه، حتى صعدوا إليهم، فحملوا عليهم حملة شديدة، قلَبوه وأصحابه في الوادي، وحمل عليهم رجل ممّن في ناحية أبي سعيد من أصحاب أبي سعيد، يقال له معاذ بن محمد ـ أو محمد بن معاذ ـ في عدّة معه؛ فإذا تحت حوافر دوابّهم آبار محفورة تدخل أيدي الدوابّ فيها، فتساقطت فرسان أبي سعيد فيها؛ فوجّه الأفشين الكِلْغَرية يقْلعون حيطان منازلهم، ويطمُّون بها تلك الآبار؛ ففعلوا ذلك؛ فحمل الناس عليهم حَمْلة واحدة؛ وكان آذين قد هيّأ فوق الجبل عجلا عليها صخر؛ فلما حمل الناس عليه، دفع العجل على الناس فأفرجوا عنها، فتدحرجت؛ ثم حمل الناس من كلّ وجه.

فلمّا نظر بابك إلى أصحابه قد أحدِق بهم، خرج من طرف البذّ، من باب مما يلي الأفشين، يكون بين هذا

الباب وبين التلّ الذي عليه الأفشين قدر ميل. فأقبل بابك في جماعة معه يسألون عن الأفشين، فقال لهم أصحاب أبي دُلف: مَنْ هذا؟ فقالوا: هذا بابك يريد الأفشين؛ فأرسل أبو دلف إلى الأفشين يعلِمه ذلك؛ فأرسل الأفشين رجلا يعرف بابك؛ فنظر إليه، ثم عاد إلى الأفشين، فقال: نعم هو بابك؛ فركب إليه الأفشين، فدنا منه حتى صار في موضع يسمع كلامه وكلام أصحابه، والحرب مشتبكة في ناحية آذِين، فقال له: أريد الأمان من أمير المؤمنين، فقال له الأفشين: قد عرضتُ عليك هذا؛ وهو لك مبذولٌ متى شئتَ، فقال: قد شئتُ الآن؛ على أن تؤجّلني أجلاً أحمل فيه عيالي، وأتجهّز. فقال له الأفشين: قد والله نصحتُك غير مرّة فلم تقبل نصيحتي، وأنا أنصحك الساعة، خروجك اليوم في الأمان خيرٌ من غدٍ. قال: قد قبلت أيها الأمير؛ وأنا على ذلك؛ فقال له الأفشين: فابعث بالرهائن الذين كنت سألتك. قال: نعم، أما فلان وفلان فهم على ذلك التلّ، فمرْ أصحابك بالتوقف.

قال: فجاء رسول الأفشين ليردّ الناس، فقيل له: إن أعلام الفراغنة قد دخلت البذّ وصعدوا بها القصور. فركب وصاح بالناس، فدخل ودخلوا، وصعِد الناس بالأعلام فوق قصور بابك؛ وكان قد كمَن في قصوره - وهي أربعة - ستمائة رجل؛ فوافاهم الناس، فصعدوا بالأعلام فوق القصور، وامتلأت شوارع البذّ وميدانها من الناس، وفتح أولئك الكُمناء أبواب القصور، وخرجوا رجّالة يقاتلون الناس. ومرّ بابك حتى دخل الوادي الذي يلي هشتادسَر، واشتغل الأفشين وجميع قُوّاده بالحرب على أبواب القصور، فقاتل الخرّمية قتالا شديداً، وأحضر النَّفاطين، فجعلوا يصبّون عليهم النِّفط والنار، والناس يهدمون القصور؛ حتى قتِلوا عن آخرهم. وأخذ الأفشين أولاد بابك ومَنْ كان معهم في البذّ من عيالاتهم؛ حتى أدركهم المساء، فأمر الأفشين بالانصراف فانصرفوا، وكان عامة الخرَّمية في البيوت؛ فرجع الأفشين إلى الخندق بروذ الرُّوذ.

فذُكر أن بابك وأصحابه الذين نزلوا معه الوادي حين علموا أنّ الأفشين قد رجع إلى خندقه، رجعوا إلى البذّ، فحملوا من الزاد ما أمكنهم حمله، وحملوا أموالهم، ثم دخلوا الوادي الذي يلي هشتادسَر. فلمّا كان في الغد خرج الأفشين حتى دخل البذّ، فوقف في القرية، وأمر بهدم القصور، ووجّه الرجّالة يطوفون في أطراف القرية، فلم يجدوا فيها أحداً من العلوج، فأصعد الكلغريّة، فهدموا القصور وأحرقوها؛ فعل ذلك ثلاثة أيام حتى أحرق خزائنه وقصوره؛ ولم يَدَع فيها بيتاً ولا قصراً إلا أحرقه وهدمه؛ ثم رجع وعلم أنّ بابك قد أفلت في بعض أصحابه؛ فكتب الأفشين إلى ملوك أرمينيَة وبطارقتها يعلمهم أنّ بابك قد هرب وعدّة معه، وصار إلى وادٍ، وخرج منه إلى ناحية إرمينيَة، وهو مارّ بكم، وأمرهم أن يحفظ كلُّ واحد منهم ناحيته؛ ولا يسكلها أحدٌ إلا أخذوه حتى يعرفوه. فجاء الجواسيس إلى الأفشين، فأخبره بموضعه في الوادي؛ وكان وادياً كثير العشب والشجر، طرفُه بإرمينيَة وطرفُه الآخر بأذرَبيجان، ولم يمكن الخيل أن تنزل إليه، ولا يُرى من يستخفي فيه لكثرة شجره ومياهه؛ إنما كانت غيضةً واحدة؛ ويسمّى هذا الوادي غَيْضة. فوجّه الأفشين إلى كلّ موضع يعلم أن منه طريقاً ينحدر منه إلى تلك الغَيْضة، أو يمكن بابك أن يخرج من ذلك الطريق؛ فصيَّر على كلّ طريق وموضع من هذه المواضع عسكراً فيه ما بين أربعمائة إلى خمسمائة مقاتل، ووجّه معهم الكُوهبانيّة ليقفوهم على الطريق، وأمرهم بحراسة الطريق في الليل لئلا يخرج منه أحد.

وكان يوجّه إلى كل عسكر من هذه العساكر الميرة من عسكره؛ وكانت هذه العساكر خمسة عشر عسكراً، فكانوا كذلك حتى ورد كتاب أمير المؤمنين المعتصم بالذهب مختوماً، فيه «أمان» لبابك. فدعا الأفشين مَن كان

استأمن إليه من أصحاب بابك؛ وفيهم ابن له كبير، أكبر ولده، فقال له وللأسرى: هذا ما لم أكن أرجوه من أمير المؤمنين، ولا أطمع له فيه أن يكتب إليه وهو في هذه الحال بأمان؛ فمن يأخذه منكم ويذهبُ به إليه؟ فلم يجسر على ذلك أحد منهم، فقال بعضهم: أيها الأمير؛ ما فينا أحدٌ يجترىء أن يلقاه بهذا، فقال له الأفشين: ويحك! إنه يفرح بهذا، قالوا: أصلح الله الأمير! نحن أعرف بهذا منك؛ قال: فلا بدّ لكم من أن تهبوا لي أنفسكم، وتُوصلوا هذا الكتاب إليه. فقام رجلان منهم، فقالا له: اضمن لنا أنك تُجرِي على عيالاتنا؛ فضمِن لهما الأفشين ذلك؛ وأخذا الكتاب وتوجّها فلم يزالا يدوران في الغَيْضة حتى أصاباه، وكتب معهما ابن بابك بكتاب يُعلمه الخبر، ويسأله أن يصير إلى الأمان؛ فهو أسلم له وخير. فدفعا إليه كتاب ابنه، فقرأه، وقال: أيّ شيء كنتم تصنعون؟ قالا: أسِرَ عيالاتنا في تلك الليلة وصبياننا؛ ولم نعرف موضعك فنأتيَك، وكنّا في موضع تخوّفنا أن يأخذونا ؛فطلبنا الأمان. فقال للذي كان الكتاب معه: هذا لا أعرفه؛ ولكن أنت يابن الفاعلة، كيف اجترأت على هذا أن تجيئني من عند ذاك ابن الفاعلة! فأخذه وضرب عنقه، وشدّ الكتاب على صدره مختوماً لم يفضّه؛ ثم قال للآخر؛ اذهب وقل لذاك ابن الفاعلة ـ يعني ابنه ـ حيث يكتب إليّ؛ وكتب إليه: لو أنك لحقت بي واتّبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً كنت ابني؛ وقد صحّ عندي الساعة فساد أمّك الفاعلة. يابن الفاعلة، عسى أن أعيش بعد اليوم! قد كنت باسم هذه الرياسة وحيثما كنت أو ذكرت كنت ملكاً ولكنك من جنس لا خير فيه؛ وأنا أشهد أنك لست بابني، تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير، أو تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل!

ورحل من موضعه، ووجّه مع الرجل ثلاثة نفر حتى أصعدوه من موضع من المواضع، ثم لحقوا ببابك؛ فلم يزل في تلك الغَيْضة حتى فني زاده، وخرج ممّا يلي طريقاً كان عليه بعض العساكر، وكان موضع الطريق جبلا ليس فيه ماء؛ فلم يقدر العسكر أن يقيم على الطريق لبعده عن الماء، فتنحّى العسكر عن الطريق إلى قرب الماء، وصيّروا كوهبانيّين وفارسين على طرف الطريق يحرسونه، والعسكر بينه وبين الطريق نحو من ميل ونصف، كان ينوب على الطريق كلّ يوم فارسان وكوهبانيّان؛ فبيناهم ذات يوم نصف النهار؛ إذ خرج بابك وأصحابه؛ فلم يروا أحداً، ولم يروا الفارسين والكوهبانيين، وظنوا أن ليس هناك عسكر؛ فخرج هو وأخواه: عبد الله ومعاوية، وأمه وامرأة له يقال لها ابنة الكَلْنَدانيّة. فخرجوا من الطريق؛ وساروا يريدون إرمينيَة، ونظر إليهم الفارسان والكوهبانيّان، فوجّهوا إلى العسكر، وعليه أبو الساج: إنا قد رأينا فرساناً يمرُّون ولا ندري مَنْ هم. فركب الناس، وساروا، فنظروا إليهم من بُعد وقد نزلوا على عين ماء يتغدَّون عليها؛ فلمّا نظروا إلى الناس بادر الكافر فركب وركب مَنْ كان معه، فأفلت وأخِذ معاوية وأمّ بابك والمرأة التي كانت معه، ومع بابك غلام له، فوجّه أبو الساج بمعاوية والمرأتين إلى العسكر، ومرّ بابك متوجّهاً حتى دخل جبال إرمينية يسير في الجبال متكمّناً، فاحتاج إلى طعام، وكان جميع بطارقة إرمينيَة قد تحفّظوا بنواحيهم وأطرافهم، وأوصَوْا مسالحهم ألا يجتاز عليهم أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه؛ فكان أصحاب المسالح كلهم متحفظين؛ وأصاب بابك الجوع، فأشرف فإذا هو بحرّاث يحرث على فدان له في بعض الأودية، فقال لغلامه: انزل إلى هذا الحرّاث، وخذ معك دنانير ودراهم؛ فإن كان معه خبز فخذه وأعطه؛ وكان للحرّاث شريك ذهب لحاجته، فنزل الغلام إلى الحرّاث، فنظر إليه شريكه من بعيد، فوقف بالبعد يفرق من أن يجيء إلى شريكه وهو ينظر ما يصنع شريكه، فدفع الغلام إلى الحرّاث شيئاً، فجاء الحراث فأخذ الخبز، فدفعه إلى الغلام وشريكه قائم ينظر إليه؛ ويظنّ إنما اغتصبه خبزَه؛ ولم يظنّ أنه أعطاه شيئاً، فعدا إلى المسلحة؛ فأعلمهم أن رجلا جاءهم عليه سيف وسلاح؛ وأنه أخذ

خبز شريكه من الوادي؛ فركب صاحب المسلحة ـ وكان في جبال ابن سُنباط ـ ووجّه إلى سهل بن سنباط بالخبر، فركب ابن سنباط وجماعة معه حتى جاءه مسرعاً، فوافى الحرّاث والغلام عنده، فقال له: ما هذا؟ قال له الحراث: هذا رجل مرّ بي، فطلب مني خبزاً فأعطيته، فقال الغلام: وأين مولاك؟ قال: ها هنا ـ وأومى إليه ـ فاتبعه فأدركه وهو نازل؛ فلمّا رأى وجهه عرفه، فترجل له ابن سنباط عن دابته، ودنا منه فقبّل يده، ثم قال له: يا سيّداه؛ إلى أين؟ قال: أريد بلاد الروم ـ أو موضعاً سمّاه ـ فقال له: لا تجد موضعاً ولا أحداً أعرف بحقك؛ ولا أحقّ أن تكون عنده منّي، تعرف موضعي؛ ليس بيني وبين السلطان عمل؛ ولا تدخل على أحد أصحاب السلطان وأنت عارف بقضيتي وبلدي؛ وكلُّ مَنْ ها هنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك، قد صار لك منهم أولاد؛ وذلك أن بابك كان إذا علم أن عند بعض البطارقة ابنة أو أختاً جميلة وجّه إليها يطلبها؛ فإن بعث بها إليه وإلا بيّته وأخذها وأخذ جميع ماله من متاع وغير ذلك، وصار به إلى بلده غصباً.

ثم قال ابن سنباط له: صرْ عندي في حصني؛ فإنّما هو منزلك؛ وأنا عبدك؛ كُنْ فيه شتوتَك هذه ثم ترى رأيك. وكان بابك قد أصابه الضرّ والجهد، فركن إلى كلام سهل بن سنباط؛ وقال له: ليس يستقيم أن أكون أنا وأخي في موضع واحد؛ فلعله أن يُعثرَ بأحدنا فيبقى الآخر؛ ولكن أقيم عندك أنا، ويتوجّه عبد الله أخي إلى ابن اصطفانوس؛ لا ندري ما يكون؛ وليس لنا خَلفٌ يقوم بدعوتنا. فقال له ابن سنباط: ولدك كثير، قال: ليس فيهم خير. وعزم على أن يصيِّر أخاه في حصن ابن اصطفانوس ـ وكان يثق به ـ فصار هو مع ابن سنباط في حِصْنه، فلما أصبح عبد الله مضى إلى حصن ابن اصطفانوس؛ وأقام بابك عند ابن سنباط، وكتب ابن سنباط إلى الأفشين يعلمُه أن بابك عنده في حصنه. فكتب إليه: إن كان هذا صحيحاً فلك عندي وعند أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ الذي تحبّ؛ وكتب يجزيه خيراً، ووصف الأفشين صفة بابك لرجل من خاصته، ممّن يثق به، ووجّه به إلى ابن سنباط وكتب إليه يعلمه أنه قد وجّه إليه برجل من خاصته، يحبّ أن يرى بابك ليحكيَ للأفشين ذلك. فكره ابن سنباط أن يُوحش بابك، فقال الرجل: ليس يمكن أن تراه إلا في الوقت الذي يكون منكبّاً على طعامه يتغدّى؛ فإذا رأيتنا قد دعونا بالغداء فالبس ثياب الطبّاخين الذين معنا على هيئة علوجنا وتعال كأنّك تقدم الطعام، أو تناول شيئاً؛ فإنه يكون منكبًّا على الطعام؛ فتَفَقّدْ منه ما تريد؛ فاذهب فاحْكه لصاحبك.

ففعل ذلك في وقت الطعام، فرفع بابك رأسه فنظر إليه فأنكره، فقال: مَنْ هذا الرجل؟ فقال له ابن سنباط: هذا رجل من أهل خراسان، منقطع إلينا منذ زمان؛ نصرانيّ. فلقّن ابنُ سنباط الأشروسنيَّ ذلك. فقال له بابك: منذ كم أنت ها هنا؟ قال: منذ كذا وكذا سنة، قال: وكيف أقمتَ ها هنا؟ قال: تزوّجت ها هنا، قال: صدقت إذا قيل للرجل: من أين أنت؟ قال: من حيث امرأتي.

ثم رجع إلى الأفشين فأخبره، ووصف له جميع ما رأى ثَمَّ من بابك. ووجّه الأفشين أبا سعيد وبُوزبارة إلى ابن سنباط، وكتب إليه معهما، وأمرهما إذا صارا إلى بعض الطريق قدّما كتابه إلى ابن سنباط مع عِلْج من الأعلاج، وأمرهما ألاّ يخالفا ابن سنباط فيما يشير به عليهما. ففعلا ذلك، فكتب إليهما ابن سنباط في المقام بموضع ـ قد سماه ووصفه لهما ـ إلى أن يأتيهما رسوله. فلم يزالا مقيمينْ بالموضع الذي وصفه لهما، ووجّه إليهما ابن سنباط بالمِيرة والزاد؛ حتى تحرك بابك للخروج إلى الصّيْد، فقال له: ها هنا وادٍ طيب، وأنت مغموم في جوف هذا الحصن! فلو خرجنا ومعنا بازي وباشق وما يحتاج إليه، فنتفرّج إلى وقت الغداء بالصّيد! فقال له

بابك: إذا شئت. فأنفذ ليركبا بالغداة، وكتب ابن سنباط إلى أبي سعيد وبوزبارة يعلمهما ما قد عزم عليه، ويأمرهما أن يوافياه، واحد من هذا الجانب من الجبل والآخر من الجانب الآخر في عسكرهما وأن يسيرا متكمّنين مع صلاة الصبح؛ فإذا جاءهما رسوله أشرفا على الوادي، فانحدروا عليه إذا رأوهم وأخذوهم.

فلما ركب ابن سنباط وبابك بالغداة وجّه ابن سنباط رسولا إلى أبي سعيد ورسولا إلى بوزبارة، وقال لكل رسول: جيء بهذا إلى موضع كذا، وجيء بهذا إلى موضع كذا؛ فأشرفا علينا؛ فإذا رأيتمونا فقولوا: هم هؤلاء خذوهم؛ وأراد أن يشبّه على بابك، فيقول: هذه خيل جاءتنا، فأخذتنا، ولم يحبّ أن يدفعه إليهما من منزله؛ فصار الرّسولان إلى أبي سعيد وبوزبارة، فمضيا بهما حتى أشرفا على الوادي؛ فإذا هما ببابك وابن سنباط، فنظرا إليه، وانحدرا وأصحابهما عليه؛ هذا من ها هنا، وهذا من ها هنا، وأخذاهما ومعهما البواشيق؛ وعلى بابك دُرّاعة بيضاء وعمامة بيضاء، وخُفّ قصير. ويقال كان بيده باشق، فلمّا نظر إلى العساكر قد أحدقت به وقف، فنظر إليهما، فقالا له: انزل، فقال: ومن أنتما؟ فقال أحدهما: أنا أبو سعيد، والآخر: أنا بوزبارة، فقال: نعم، وثنى رجله، فنزل، وكان ابنُ سنباط ينظر إليه؛ فرفع رأسه إلى ابن سنباط فشتمه، وقال: إنما بعتَني لليهود بالشيء اليسير؛ لو أردت المال وطلبته لأعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء، فقال له أبو سعيد قم فاركب، قال: نعم. فحملوه وجاؤوا به إلى الأفشين؛ فلما قرب من العسكر صعد الأفشين برزند، فضربت له خيمة على بَرْزند، وأمر الناس فاصطفوا صفّين، وجلس الأفشين في فازة، وجاؤوا به، وأمر الأفشين ألّا يتركوا عربياً يدخل بين الصفين فرَقاً أن يقتله إنسان أو يجرحه ممّن قتل أولياءه، أو صنع به داهية.

وكان قد صار إلى الأفشين نساءٌ كثير وصبيان؛ ذكروا أن بابك كان أسرهم؛ وأنهم أحرار من العرب والدهاقين، فأمر الأفشين فجُعلت لهم حظيرة كبيرة، وأسكنهم فيها، وأجرى لهم الخبز، وأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائهم حيث كانوا، فكان كلّ من جاء فعرف امرأة أو صبيًّا أو جارية، وأقام شاهدين أنه يعرفها وأنّها حرمة له أو قرابة دفعها إليه؛ فجاء الناس، فأخذوا منهم خلقاً كثيراً، وبقي منهم كثير ينتظرون أن يجيء أولياؤهم.

ولما كان ذلك اليوم الذي أمر الأفشين الناس أن يصطفّوا، فصار بين بابك وبينه قدْر نصف ميل، أنزِل بابك يمشي بين الصَّفين في دُرّاعته وعمامته وخفيه، حتى جاء فوقف بين يدي الأفْشين فنظر إليه الأفشين، ثم قال: انزلوا به إلى العسكر؛ فنزلوا به راكباً، فلما نظر النساء والصبيان الذين في الحظيرة إليه لَطموا على وجوههم، وصاحوا وبكوا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال لهم الأفشين: أنتم بالأمس؛ تقولون أسَرنا، وأنتم اليوم تبكون عليه! عليكم لعنة الله. قالوا: كان يحسِن إلينا. فأمر به الأفشين فأدخِل بيتاً، ووكل به رجالا من أصحابه.

وكان عبد الله أخو بابك لما أقام بابك عند ابن سنباط، صار إلى عيسى بن يوسف بن اصطفانوس؛ فلما أخذ الأفشين بابك، وصيّره معه في عسكره ووكل به، أعلِم بمكان عبد الله أنه عند ابن اصطفانوس، فكتب الأفشين إلى ابن اصطفانوس أن يوجّه إليه بعبد الله؛ فوجه به ابن اصطفانوس إلى الأفشين، فلما صار في يد الأفشين حبسه مع أخيه في بيت واحد؛ ووكّل بهما قوماً يحفظونهما.

وكتب الأفشين إلى المعتصم بأخذه بابك وأخاه، فكتب المعتصم إليه يأمره بالقدوم بهما عليه، فلما أراد أن يسير إلى العراق وجّه إلى بابك فقال: إني أريد أن أسافر بك، فانظر ما تشتهي من بلاد أذْرَبيجان، فقال:

أشتهي أن أنظر إلى مدينتي ، فوجّه معه الأفشين قوماً في ليلة مُقْمرة إلى البذّ حتى دار فيه ، ونظر إلى القتلى والبيوت إلى وقت الصبح ، ثم رده إلى الأفشين ؛ وكان الأفشين قد وكّل به رجلا من أصحابه فاستعفاه منه بابك ، فقال له الأفشين : لِمَ استعفيت منه؟ قال : يجيء ويده ملأى غَمَراً ، حتى ينام عند رأسي فيؤذيني ريحُها . فأعفاه منه .

وكان وصول بابك إلى الأفشين ببرزند لعشر خلوْن من شوال بين بوزبارة وديوداذ .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك قدوم الأفشين على المعتصم ببابك وأخيه، ذُكر أنّ قدومه عليه به كان ليلَة الخميس لثلاث خَلوْن من صفر بسامرّا، وأنّ المعتصم كان يوجّه إلى الأفشين كلّ يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافَى سامرّا فرساً وخِلْعة، وأنّ المعتصم لعنايته بأمر بابك وأخباره ولفساد الطريق بالثلج وغيره، جعل من سامرّا إلى عقبة حُلْوان خيلا مضمَّرة، على رأس كلّ فرسخ فرساً معه مُجْرٍ مرتب؛ فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد، يداً بيد؛ وكان من خَلْف حُلْوان إلى أذْرَبيجان قد رتَّبوا فيه المرْج؛ فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدّل ويصيّر غيرها، ويُحمل عليها غلمان من أصحاب المرْج كلّ دابة على رأس فرسخ، وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر؛ فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق؛ فيأخذ الخريطة منه؛ فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرّا في أربعة أيام وأقلّ؛ فلما صار الأفشين بقناطر حُذيفة تلقّاه هارون بن المعتصم وأهل بيت المعتصم؛ فلما صار الأفشين ببابك إلى سامرّا أنزله الأفشين في قصره بالمَطِيرة؛ فلمّا كان في جوف الليل ذهب أحمد بن أبي دؤاد متنكراً، فرآه وكلمه، ثم رجع إلى المعتصم، فوصفه له، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين في الحيْر؛ فدخل إليه متنكّراً، ونظر إليه وتأمله، وبابك لا يعرفه؛ فلما كان من غدٍ قعد له المعتصم يوم اثنين أو خميس، واصطفّ الناس من باب العامّة إلى المطيرة، وأراد المعتصم أن يُشهره ويريَه الناس، فقال: على أيّ شيء يُحمل هذا؟ وكيف يُشهر! فقال حزام: ياأمير المؤمنين؛ لا شيء أشهر من الفيل، فقال: صدقت؛ فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به فجُعل في قَباء ديباج وقلنسوة سمّور مدوَّرة؛ وهو وحده؛ فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خُضِبَ الفيلُ كعاداته   يَحملُ شيطانَ خراسانِ
والفيلُ لا تُخضَبُ أعضاؤه   إلا لذي شأنٍ من الشانِ

فاستشرفه الناس من المَطيرة إلى باب العامّة؛ فأدخِل دار العامة إلى أمير المؤمنين؛ وأحضر جزّاراً ليقطع يديه ورجليه؛ ثم أمر أن يحضر سيّافُه، فخرج الحاجب من باب العامة؛ وهو ينادي: نودنود ـ وهو اسم سياف بابك ـ فارتفعت الصيحة بنودنود حتى حضر، فدخل دار العامة، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه، فقطعهما فسقط، وأمر أمير المؤمنين بذبحه وشقّ بطن أحدهما، ووجّه برأسه إلى خُراسان، وصلب بدنه بسامرّا عند العقبة، فموضع خشبته مشهور، وأمر بحمل أخيه عبد الله مع ابن شَرْوِين الطَّبَرِيّ إلى إسحاق بن إبراهيم

خليفته بمدينة السَّلام، وأمره بضرب عنقه، وأن يفعل به مثل ما فعل بأخيه، وصلبه؛ فلما صار به الطبريّ إلى البَرَدَان، نزل به ابن شروين في قصر البردان، فقال عبد الله أخو بابك لابن شروين: مَنْ أنت؟ فقال: ابن شروين ملك طبرستان، فقال: الحمد لله الذي وفّق لي رجلا من الدّهاقين يتولى قتلي. قال: إنما يتولَّى قتلك هذا ـ وكان عنده نودنود، وهو الذي قتل بابك ـ فقال له: أنت صاحبي وإنما هذا علْج، فأخبِرْني، أأمرت أن تطعمني شيئاً أم لا؟ قال: ما شئت، قال: اضرب لي فالوذجة، قال: فأمر فضُربت له فالوذجة في جوف الليل، فأكل منها حتى تملأ، ثم قال: يا أبا فلان، ستعلم غداً أني دِهقان إن شاء الله. ثم قال: تقدر أن تسقَيني نبيذاً؟ قال: نعم، ولا تُكثِر، قال: فإني لا أكثر، قال: فأحضر أربعة أرطال خمر، فقعد فشربها على مَهل إلى قريب من الصبح، ثم رحل في السَّحَر، فوافى به مدينة السلام، ووافى به رأس الجسر، وأمر إسحاق بن إبراهيم بقطع يديْه ورجليه، فلم ينطِق ولم يتكلّم، وأمر بصلْبه فصُلب في الجانب الشرقيّ بين الجسريْن بمدينة السلام.

وذكر عن طَوْق بن أحمد، أنّ بابك لما هرب صار إلى سهل بن سنباط فوجّه الأفشين أبا سعيد وبوزبارة، فأخذاه منه، فبعث سهل مع بابك بمعاوية ابنه إلى الأفشين، فأمر لمعاوية بمائة ألف درهم، وأمر لسهل بألف ألف درهم استخرجها له من أمير المؤمنين، ومنطقة مغرقة بالجوهر وتاج البطرقة، فبطرق سهل بهذا السبب، والذي كان عنده عبد الله أخو بابك عيسى بن يوسف المعروف بابن أخت اصطفانوس ملك البَيْلقان.

وذكر عن محمد بن عمران كاتب عليّ بن مرّ، قال: حدّثني عليّ بن مرّ، عن رجل من الصعاليك يقال له مَطر، قال: كان والله يا أبا الحسن بابك ابني، قلت: وكيف؟ قال: كنا مع ابن الرّواد، وكانت أمه ترتوميذ العوراء من عُلوج ابن الرّواد، فكنت أنزل عليها، وكانت مصكّة، فكانت تخدمني وتغسل ثيابي، فنظرتُ إليها يوماً، فواثبتها بشبق السفر وطول الغربة، فأقررتُه في رحمها، ثم قال: غبْنا غيبة بعد ذلك، ثم قدمنا فإذا هي تطلبني، فنزلت في منزل آخر، فصارت إليّ يوماً، فقالت: حين ملأتَ بطني تنزل ها هنا وتتركني! فأذاعت أنه مِنِّي، فقلت: والله لئن ذكرتِني لأقتلنَّك؛ فأمسكتْ عني، فهو والله ابني.

وكان يُجْرَى الأفشينُ في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق، والأنزال والمعاون في كلّ يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كلّ يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم.

وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان. وغلب يحيى بن معاذ وعيسى بن محمد بن أبي خالد وأحمد بن الجُنيد، وأسره وزُريق بن عليّ بن صدقة ومحمد بن حميد الطوسيّ وإبراهيم بن الليث، وأسِر مع بابك ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة أناسي، واستُنقذ ممّن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان، وعدّة مَنْ صار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلا ومن البنات والكنَّات ثلاث وعشرون امرأة، فتوّج المعتصم الأفشين وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف درهم يفرّقها في أهل عسكره، وعقد له على السِّند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه، وأمر للشعراء بصلات، وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، وكان مما قيل فيه قول أبي تمام الطائيّ:

بَذَّ الجِلادُ البذَّ فهو دفينُ ... ما إنْ به إلَّا الوحوش قطينُ
لم يُقْرَ هذا السيفُ هَذَا الصّبر في ... هَيْجَاءَ إلَّا عَزَّ هذا الدينُ

قــد كــان عُــذرةَ سُودِدٍ فــافتَضَّهــا بــالسيفِ فَحْــلُ المشــرِقِ الأفـشيـنُ
فـأعـادهـا تَعـوِي الثعــالبُ وسْـطهــا ولقــد تُــرَى بــالأمس وهْي عــريـنُ
هــطلتْ عليهـا من جَمـاجِم أهلِهـا دِيــمٌ أمــارَتُــهَــا طُــلًى وشـؤونُ
كــانت من المُهَجـات قبـلُ مفــازةً عسِــراً، فــأضحتْ وهْيَ منــه مَعينُ

وفي هذه السنة أوقع تَوْفِيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زِبَطْرة، فأسرهم وخرّب بلدهم، ومضى من فوره إلى مَلَطْية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين؛ إلى غير ذلك؛ وسبا من المسلمات ـ فيما قيل ـ أكثر من ألف امرأة، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وسمَل أعينهم، وقطع آذانهم وآنافهم.

ذكر الخبر عن سبب فعل صاحب الروم بالمسلمين ما فعل من ذلك:

ذُكر أنّ السبب في ذلك كان ما لحق بابك من تضييق الأفشين عليه وإشرافه على الهلاك، وقَهْر الأفشين إياه؛ فلما أشرف على الهلاك، وأيقن بالضَّعْف من نفسه عن حربه، كتب لى ملك الروم تَوْفيل بن ميخائيل بن جُورجس؛ يعلمه أن ملك العرب قد وجّه عساكره ومقاتلته إليه حتى وجَّه خيّاطه ـ يعني جعفر بن دينار ـ وطباخه ـ يعني إيتاخ ـ ولم يبقَ على بابه أحد؛ فإن أردت الخروج إليه فاعلم أنه ليس في وجهك أحد يمنعك؛ طمعاً منه بكتابه ذلك إليه في أن ملك الروم إن تحرّك انكشف عنه بعض ما هو فيه بصرف المعتصم بعض مَنْ بإزائه من جيوشه إلى ملك الروم، واشتغاله به عنه.

فذكر أن تَوفيل خرج في مائة ألف ـ وقيل أكثر ـ فيهم من الجند نيّف وسبعون ألفاً، وبقيّتهم أتباع حتى صار إلى زِبَطْرة، ومعه من المحمّرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب جماعة رئيسهم بارسيس. وكان ملك الروم قد فَرَض لهم، وزوّجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهمّ أموره، فلما دخل ملك الروم زِبَطْرة وقتل الرجال الذين فيها، وسبى الذراريّ والنساء التي فيها وأحرقها، بلغ النفير ـ فيما ذكر ـ إلى سامرّا، وخرج أهل ثغور الشأم والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح، واستعظم المعتصم ذلك.

فذكر أنه لما انتهى إليه الخبر بذلك صاح في قصره النفير، ثم ركب دابته وسمَّط خلفه شِكالا وسكة حديد وحقيبة، فلم يستقم له أن يخرج إلا بعد التعبية، فجلس ـ فيما ذكر ـ في دار العامة، وقد أحضر من أهل مدينة السلام قاضيها عبد الرحمن بن إسحاق وشعيب بن سهل، ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلا من أهل العدالة، فأشهدهم على ما وقف من الضياع، فجعل ثلثاً لولده، وثلثاً لله، وثلثاً لمواليه. ثم عسكر بغربيّ دجلة، وذلك يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى.

ووجّه عُجيف بن عنبسة وعمراً الفرغانيّ ومحمد كُوتَة وجماعة من القُواد إلى زِبَطْرة إعانة لأهلها، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده بعد ما فعل ما قد ذكرناه، فوقفوا قليلاً؛ حتى تراجع الناس إلى قراهم، واطمأنّوا. فلما ظفِر المعتصم ببابك، قال: أيّ بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمُّوريَة، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبُنْكها؛ وهي أشرف عندهم من القسطنطينيّة.

وفي هذه السنة شخص المعتصم غازياً إلى بلاد الروم. وقيل كان شخوصه إليها من سامرّا في سنة أربع وعشرين ومائتين ـ وقيل في سنة اثنتين وعشرين ومائتين ـ بعد قتله بابك.

فذكر أنه تجهّز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة قطّ، من السلاح والعُدد والآلة وحياض الأدَم والبغال والرّوَايا والقِرَب وآلة الحديد والنِّفط، وجعل على مقدّمته أشِناس، ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته إيتاخ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط، وعلى القلب عُجَيف بن عنبسة.

ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللمِس. وهو على سَلُوقيَة قريباً من البحر، بينه وبين طَرسُوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم، وأمضى المعتصم الأفشِينَ خيذر بن كاوس إلى سَرُوج، وأمره بالبروز منها والدخول من درب الحدَث، وسمّى له يوماً أمره أن يكون دخوله فيه، وقدّر لعسكره وعسكر أشِناس يوماً جعله بينه وبين اليوم الذي يدخل فيه الأفشين، بقدر ما بين المسافتين إلى الموضع الذي رأى أن يجتمع العساكر فيه - وهو أنقِرة - ودبّر النزول على أنقرة، فإذا فتحها الله عليه صار إلى عَمُّوريَة، إذ لم يكن شيء مما يقصد له من بلاد الروم أعظم من هاتين المدينتين، ولا أحرى أن تجعل غايته التي يؤمّها.

وأمر المعتصم أشناس أن يدخل من درب طَرسُوس، وأمره بانتظاره بالصّفصاف فكان شخوص أشناس يوم الأربعاء لثمان بقين من رجب، وقدّم المعتصم وصيفاً في أثر أشناس على مقدّمات المعتصم، ورحل المعتصم يوم الجمعة لست بقين من رجب.

فلما صار أشناس بمرْج الأُسقُفّ، ورد عليه كتاب المعتصم من المطامير يعلمه أن الملك بين يديه، وأنه يريد أن يجوز العساكرُ اللمِس، فيقف على المخاضة، فيكسبهم، ويأمره بالمقام بمرج الأسقُفّ - وكان جعفر بن دينار على ساقة المعتصم - وأعلم المعتصم أشناس في كتابه أن ينتظر موافاة الساقة، لأن فيها الأثقال والمجانيق والزّاد وغير ذلك؛ وكان ذلك بعد في مضيق الدرْب لم يخلُص، ويأمره بالمقام إلى أن يتخلص صاحب الساقة من مضيق الدّرْب بمن معه، ويُصحر حتى يصير في بلاد الروم.

فأقام أشناس بمرج الأسقفّ ثلاثة أيام؛ حتى ورد كتاب المعتصم، يأمره أن يوجّه قائداً من قُوّاده في سريّة يلتمسون رجلا من الروم، يسألونه عن خبر الملك ومَنْ معه، فوجّه أشناس عمراً الفرغانيّ في مائتي فارس، فساروا ليلتهم حتى أتوا حصن قرّة فخرجوا يلتمسون رجلاً من حَوْل الحصن؛ فلم يمكن ذلك، ونذِر بهم صاحب قُرّة، فخرج في جميع فرسانه الذين كانوا معه بالقُرّة، وكمن في الجبل الذي فيما بين قُرّة ودُرّة؛ وهو جبل كبير يحيط برستاق يسمى رستاق قُرّة، وعلم عمرو الفرغانيّ أن صاحب قُرّة قد نذِر بهم، فتقدّم إلى دُرّة، فكمن بها ليلتَه؛ فلما انفجر عمود الصبح صيّر عسكَره ثلاثة كراديس، وأمرهم أن يركُضوا ركضاً سريعاً، بقدر ما يأتونه بأسير عنده خبر الملك، ووعدهم أن يوافُوه به في بعض المواضع التي عرفها الأدلاّء، ووجّه مع كل كُردوس دليلين.

وخرجوا مع الصبح، فتفرّقوا في ثلاثة وجوه؛ فأخذوا عِدّة من الروم؛ بعضهم من أهل عسكر الملك، وبعضهم من الضواحي؛ وأخذ عمرو رجلاً من الروم من فرسان أهل القرّة، فسأله عن الخبر؛ فأخبره أن الملك وعسكره بالقرب منه وراء اللمِس بأربعة فراسخ، وأنّ صاحب قُرّة نذر بهم في ليلتهم هذه، وأنه ركب فكمن في هذا الجبل فوق رؤوسهم؛ فلم يزل عمرو في الموضع الذي كان وعد فيه أصحابه، وأمر الأدلاء الذين معه أن يتفرّقوا في رؤوس الجبال، وأن يشرفوا على الكراديس الذين وجّهم إشفاقاً أن يخالفهم صاحب قُرّة إلى أحد الكراديس، فرآهم الأدلاّء، ولوّحوا لهم، فأقبلوا فتوافوْا هم وعمرو في موضع غير الموضع الذي كانوا اتّعدوا

له، ثم نزلوا قليلاً، ثم ارتحلوا يريدون العسكر، وقد أخذوا عدّة ممن كان في عسكر الملك، فصاروا إلى أشناس في اللِّمِس، فسألهم عن الخبر، فأخبروه أن الملك مقيم منذ أكثر من ثلاثين يوماً ينتظر عُبور المعتصم ومقدّمته باللِّمِس؛ فيواقعهم من وراء اللِّمِس، وأنه جاءه الخبر قريباً؛ أنه قد رحل من ناحية الأرمنياق عسكرٌ ضخم، وتوسط البلاد ـ يعني عسكر الأفشين ـ وأنه قد صار خلفه.

فأمر الملك رجلاً من أهل بيته ابن خاله، فاستخلفه على عسكره، وخرج ملك الروم في طائفة من عسكره يريد ناحية الأفشين، فوجّه أشناس بذلك الرجل الذي أخبره بهذا الخبر إلى المعتصم، فأخبره بالخبر، فوجّه المعتصم من عسكره قوماً من الأدلّاء، وضمِن لهم لكلّ رجل منهم عشرة آلاف درهم؛ على أن يوافُوا بكتابه الأفشين، وأعلمه فيه أنّ أمير المؤمنين مقيم، فليقم إشفاقاً من أن يواقعه ملك الروم. وكتب إلى أشناس كتاباً يأمره أن يوجه من قِبَله رسولاً من الأداء الذين يعرفون الجبال والطرق والمشبهة بالرّوم، وضمِن لكلّ رجل منهم عشرة آلاف درهم إن هو أوصل الكتاب، ويكتب إليه أن ملك الروم قد أقبل نحوه فليُقم مكانه حتى يوافيَه كتاب أمير المؤمنين.

فتوجّهت الرسل إلى ناحية الأفشين، فلم يلحقه أحد منهم؛ وذلك أنه كان وغل في بلاد الروم، وتوافت آلات المعتصم وأثقاله مع صاحب الساقة إلى العسكر، فكتب إلى أشناس يأمره بالتقدّم؛ فتقدّم أشناس والمعتصم من ورائه، بينهم مرحلة، ينزل هذا ويرحل هذا. ولم يرد عليهم من الأفشين خبر؛ حتى صاروا من أنقرة على مسيرة ثلاث مراحل؛ وضاق عسكر المعتصم ضِيقاً شديداً من الماء والعَلَف.

وكان أشناس قد أسر عدّة أسرى في طريقه، فأمر بهم فضُربت أعناقهم حتى بقي منهم شيخٌ كبير؛ فقال الشيخ: ما تَنتفع بقتلي؛ وأنت في هذا الضيق، وعسكرك أيضاً في ضِيق من الماء والزاد، وها هنا قوم قد هربوا من أنقِرة خوفاً من أن ينزل بهم ملك العرب؛ وهم بالقرب منّا ها هنا، معهم من المِيرة والطعام والشعير شيء كثير، فوجِّهْ معي قوماً لأدفعهم إليهم؛ وخلّ سبيلي!

فنادى منادي أشناس: مَنْ كان به نشاط فليركب، فركب معه قريب من خمسمائة فارس؛ فخرج أشناس حتى صار من العسكر على ميل، وبرز معه مَنْ نشط من الناس، ثم برز فضرب دابته بالسوط، فركض قريباً من مِيلين ركضاً شديداً، ثم وقف ينظر إلى أصحابه خَلْفه؛ فمن لم يلحق بالكُردوس لضعف دابته ردّه إلى العسكر، ودفع الرجل الأسير إلى مالك بن كَيْدر، وقال له: متى ما أراك هذا سَبْياً وغنيمة كثيرة فخلّ سبيله على ما ضمِنّا له. فسار بهم الشيخ إلى وقت العَتمة، فأوردهم على واد وحشيش كثير، فأمرج الناس دوابّهم في الحشيش حتى شبعت، وتعشى الناس وشربوا حتى رَووا، ثم سار بهم حتى أخرجهم من الغَيْضة، وسار أشناس مِن موضعه الذي كان به متوجّهاً إلى أنقرة.

وأمر مالك بن كيدر والأدلّاء الذين معه أن يوافُوه بأنقرة، فسار بهم الشيخ العِلْج بقية ليلتهم يدُور بهم في جبل ليس يخرجهم منه. فقال الأدلاء لمالك بن كيدر: هذا الرجل يدور بنا، فسأله مالك عما ذكر الأدلّاء، فقال: صدقوا، القوم الذين تريدهم خارج الجبل، وأخاف أن أخرج من الجبل بالليل فيسمعوا صوت حوافر الخيل على الصخر؛ فيهربوا، فإذا خرجنا من الجبل ولم نر أحداً قتلني، ولكن أدور بك في هذا الجبل إلى الصبح؛ فإذا أصبحنا خرجنا إليهم، فأريتُك إياهم حتى آمن ألّا تقتلني. فقال له مالك: ويحك! فأنْزِلنا في

هذا الجبل حتى نستريح، فقال: رأيك؛ فنزل مالك ونزل الناس على الصّخرة، وأمسكوا لُجم دوابهم حتى انفجر الصبح؛ فلما طلع الفجر قال: وجّهوا رجلين يصعدان هذا الجبل، فينظران ما فَوْقه، فيأخذان مَنْ أدركا فيه، فصعد أربعة من الرجال، فأصابوا رجلاً وامرأة؛ فأنزلوهما، فساءلهما العِلْج: أين بات أهل أنقرة؟ فسمّوا لهم الموضع الذي باتوا فيه، فقال لمالك: خلّ عن هذين؛ فإنا قد أعطيناهما الأمان حتى دلُّونا، فخلَّى مالك عنهما، ثم سار بهم العِلْج إلى الموضع الذي سمّاه لهم، فأشرف بهم على العسكر عسكر أهل أنقرة، وهم في طرف ملّاحة، فلما رأوا العسكر صاحوا بالنساء والصبيان، فدخلوا الملّاحة، ووقفوا لهم على طرف الملّاحة يقاتلون بالقَنا، ولم يكن موضع حجارة ولا موضع خيل، وأخذوا منهم عدّة أسرى، وأصابوا في الأسرى عدّة بهم جراحات عُتق من جراحات متقدمة، فساءلوهم عن تلك الجِراحات، فقالوا: كنا في وقعة الملك مع الأفشين، فقالوا لهم: حدّثونا بالقضية. فأخبروهم أنّ الملك كان معسكراً على أربعة فراسخ من اللَّمِس؛ حتى جاءه رسول، أن عسكراً ضخماً قد دخل من ناحية الأرمنياق، فاستخلف على عسكره رجلاً من أهل بيته، وأمره بالمقام في موضعه؛ فإن ورد عليه مقدّمة ملك العرب، واقعه إلى أن يذهب هو فيواقع العسكر الذي دخل الأرمنياق ـ يعني عسكر الأفشين ـ فقال أميرهم: نعم؛ وكنت ممن سار مع الملك، فواقعناهم صلاة الغداة فهزمناهم. وقتلنا رجّالتهم كلّهم، وتقطعت عساكرنا في طلبهم؛ فلما كان الظهر رجع فرسانهم، فقاتلونا قتالاً شديداً حتى حرّقوا عسكرنا، واختلطوا بنا واختلطنا بهم؛ فلم ندر في أيّ كُردوس الملك! فلم نزل كذلك إلى وقت العصر، ثم رجعنا إلى موضع عسكر الملك الذي كنا فيه فلم نصادفه، فرجعنا إلى موضع معسكر الملك الذي خلّفه على اللَّمِس، فوجدنا العسكر قد انتقض، وانصرف الناس عن الرّجل قرابة الملك الذي كان الملك استخلفه على العسكر؛ فأقمنا على ذلك ليلتنا؛ فلمّا كان الغد، وافانا الملك في جماعة يسيرة، فوجد عسكره قد اختلّ، وأخذ الذي استخلفه على العسكر، فضرب عنقه، وكتب إلى المدن والحصون ألاّ يأخذوا رجلاً ممن انصرف من عسكر الملك إلا ضربوه بالسياط، أو يرجع إلى موضع سماه لهم الملك انحاز إليه ليجتمع إليه الناس، ويعسكر به، ليناهض ملك العرب؛ ووجّه خادماً له خصيًّا إلى أنقرة على أن يقيم بها، ويحفظ أهلها إن نزل بها ملك العرب.

قال الأسير: فجاء الخصيّ إلى أنقرة، وجئنا معه، فإذا أنقرة قد عطّلها أهلها، وهربوا منها، فكتب الخصيّ إلى ملك الروم يعلمه ذلك، فكتب إليه الملك يأمره بالمسير إلى عَمّوريَة.

قال: وسألت عن الموضع الذي قصد إليه أهلها ـ يعني أهل أنقرة ـ فقالوا لي: إنهم بالملّاحة فلحقنا بهم.

قال مالك بن كيدر: فدعوا الناس كلهم، خذوا ما أخذتم، ودعوا الباقي، فترك الناس السبي والمقاتلة وانصرفوا راجعين يريدون عسكر أشناس، وساقوا في طريقهم غنماً كثيراً وبقراً، وأطلق ذلك الشيخَ الأسيرَ مالك، وسار إلى عسكر أشناس بالأسرى؛ حتى لحق بأنقرة، فمكث أشناس يوماً واحداً، ثم لحقه المعتصم من غد؛ فأخبره بالذي أخبره به الأسير، فسُرّ المعتصم بذلك. فلمّا كان اليوم الثالث جاءت البُشرى من ناحية الأفشين يخبرون بالسلامة، وأنه وارد على أمير المؤمنين بأنقرة.

قال: ثم ورد على المعتصم الأفشين بعد ذلك اليوم بيوم بأنقرة، فأقاموا بها أياماً، ثم صيّر العسكر ثلاثة عساكر: عسكر فيه أشناس في الميسرة، والمعتصم في القلب، والأفشين في الميمنة؛ وبين كل عسكر وعسكر

فرسخان، وأمر كل عسكر منهم أن يكون له ميمنة وميسرة، وأن يحرّقوا القرى ويخرّبوها، ويأخذوا مَنْ لحقوا فيها من السَّبْي، وإذا كان وقت النزول توافى كلُّ أهل عسكر إلى صاحبهم ورئيسهم، يفعلون ذلك فيما بين أنقرة إلى عَمّوريَّة؛ وبينهما سبع مراحل؛ حتى توافت العساكر بعمُّورية.

قال: فلما توافت العساكر بعمُّوريَة؛ كان أوّلَ مَنْ وردها أشناس؛ ورَدَها يوم الخميس ضَحْوة، فدار حولها دَوْرة، ثم نزل على ميلين منها بموضع فيه ماء وحشيش؛ فلما طلعت الشمس من الغد، ركب المعتصم، فدار حولها دَوْرةً، ثم جاء الأفشين في اليوم الثالث، فقسمها أمير المؤمنين بين القوّاد كما تدور؛ صيّر إلى كل واحد منهم أبراجاً منها على قدر كثرة أصحابه وقلّتهم، وصار لكلّ قائد منهم ما بين البرجيْن إلى عشرين برجاً، وتحصّن أهل عَمُّوريَة وتحرّزُوا.

وكان رجلٌ من المسلمين قد أسَره أهل عَمُّـورية، فتنصّر وتـزوج فيهم، فحبس نفسه عنـد دخولهم الحصن، فلمّا رأى أمير المؤمنين ظهر وصار إلى المسلمين، وجاء إلى المعتصم، وأعلمه أن موضعاً من المدينة حمل الوادي عليه من مطر جاءهم شديد، فحمل الماء عليه، فوقع السور من ذلك الموضع، فكتب ملك الروم إلى عامل عَمُّوريَة أن يبني ذلك الموضع، فتوانى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينيّة إلى بعض المواضع، فتخوّف الوالي أن يمرّ الملك على تلك الناحية فيمرَّ بالسور، فلا يراه بُني، فوجّه خلف الصنّاع فبنى وجْه السور بالحجارة حجراً حجراً، وصيّر وراءه من جانب المدينة حشواً، ثم عقد فوقه الشُّرَف كما كان، فوقّف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع، ونصب المجانيق على ذلك البناء، فانفرج السور من ذلك الموضع، فلما رأى أهل عَمُّوريَّة انفراج السور، علّقوا عليه الخشب الكبار، كل واحد بلزق الأخرى؛ فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر، فعلّقوا خشباً غيره، وصيَّروا فوق الخشب البراذع ليترِّسوا السور.

فلما ألحّت المجانيق على ذلك الموضع، انصدع السور، فكتب ياطس والخصيُّ إلى ملك الروم، كتاباً يعلمانه أمر السور، ووجّها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام روميّ، واخرجاهما من الفصيل، فعبرا الخندق، ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفـرغانيّ، فلمّا خـرجا من الخنـدق أنكروهمـا، فسألوهما. من أين أنتما؟ قالا لهم: نحن من أصحابكم ،قالوا: من أصحاب مَنْ أنتم؟ فلم يعرفا أحداً من قوّاد أهل العسكر يسميانه لهم، فأنكروهما، وجاؤوا بهما إلى عمر الفرغانيّ بن أربخا، فوجّـه بهما عمـرو إلى أشناس، فوجّه بهما أشناس إلى المعتصم، فساءلهما المعتصم، وفتّشهما، فوجد معهما كتاباً من ياطس إلى ملك الروم، يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جَمْع كثير، وقد ضاق بهم الموضع. وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأ ـ وأنه قد اعتزم على أن يركب، ويحمل خاصة أصحابه على الدوابّ التي في الحصن، ويفتح الأبواب ليلاً غفلة، ويخرج فيحمل على العسكر كائناً فيه ما كان؛ أفلت فيه من أفلت، وأصيب فيه مَنْ أصيب؛ حتى يتخلّص من الحصار، ويصير إلى الملك.

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلّم منهما بالعربية والغلام الروميّ الذي معه ببَدْرة، فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عَمورية، فقالا: ياطس يكون في هذا البرج، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيه ياطس طويلاً، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخلع، ومعهما

الكتاب حتى فهمها ياطس وجميع الروم، وشتّموهما من فوق السور، ثم أمر بهما المعتصم فَنحّوهما، وأمر المعتصم أن يكون الحراسة بينهم نوائب؛ في كلّ ليلة يحضرها الفرسان، يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها؛ لئلا يُفتح الباب ليلاً، فيخرج من عَمُّوريَة إنسان، فلم يزل الناس يبيتون كذلك نوائب على ظهور الدوابّ في السلاح ودوابهم بسروجها، حتى انهدم السّور ما بين بُرْجين من الموضع الذي وصف للمعتصم أنه لم يحكم عمله.

وسمع أهل العسكر الوجبة فتشوّفوا، وظنّوا أن العدوّ قد خرج على بعض الكراديس حتى أرسل المعتصم مَنْ طاف على الناس في العسكر يعلمهم أن ذلك صوت السور وقد سقط، فطِيبُوا نفساً.

وكان المعتصم حين نزل عَمُّوريّة ونظر إلى سعة خندقها وطول سورها؛ وكان قد استاق في طريقه غنماً كثيرة، فدبّر في ذلك أن يتّخذ مجانيق كباراً على قدر ارتفاع السور، يسع كلُّ مِنْجنيق منها أربعة رجال، وعملها أوثق ما يكون وأحكمه، وجعلها على كراسيّ تحتها عجل، ودبّر في ذلك أن يدفع الغنم إلى أهل العسكر إلى كلّ رجل شاة، فيأكل لحمها، ويحشو جلدها تراباً ثم يؤتى بالجلود مملوءة تراباً؛ حتى تطرح في الخندق.

ففعل ذلك بالخندق، وعمِل دبّابات كباراً تسع كل دبّابة عشرة رجال، وأحكمها على أن يُدحرجها على الجلود المملوءة تراباً حتى يمتلىء الخندق؛ ففعل ذلك، وطُرحت الجلود فلم تقع الجلود، مستوية منضّدة خوفاً منهم من حجارة الروم، فوقعت مختلفة؛ ولم يمكن تسويتها، فأمر أن يطرح فوقها التراب حتى استوت، ثم قدّمت دبّابة فدحرجَها، فلما صارت من الخندق في نصفه تعلقت بتلك الجلود، وبقي القوم فيها؛ فما تخلّصوا منها إلا بعد جهد. ثم مكثت تلك العَجلة مقيمة هناك، لم يمكن فيها حيلة حتى فتحت عَمُّوريّة، وبطلت الدبابات والمنجنيقات والسلاليم وغير ذلك؛ حتى أحرقت.

فلما كان من الغد قاتلهم على الثُّلْمة؛ وكان أوّل من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه، وكان الموضع ضَيّقاً، فلم يمكنهم الحرب فيه؛ فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرّقة حول السور، فجمع بعضها إلى بعض، وصيّرها حول الثلمة، وأمر أن يُرمى ذلك الموضع؛ وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه، فأجادوا الحرب وتقدّموا. وكان المعتصم واقفاً على دابته بإزاء الثلمة وأشناس وأفشين وخواصّ القوّاد معه؛ وكان باقي القواد الذين دون الخاصة وقوفاً رجّالة، فقال المعتصم: ما كان أحسن الحرب اليوم! فقال عمرو الفرغانيّ: الحرب اليوم أجودُ منها أمس، وسمعها أشناس فأمسك؛ فلما انتصف النهار، وانصرف المعتصم إلى مضرَبه، فتغدّى وانصرف القواد إلى مضاربهم يتغدّون، وقرب أشناس من باب مضربه، ترجّل له القواد كما كانوا يفعلون؛ وفيهم عمرو الفرغانيّ وأحمد بن الخليل بن هشام، فمشوا بين يديه كعادتهم عند مَضْربه، فقال لهم أشناس: يا أولاد الزنا، أيْش تمشون بين يدي! كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين، فتقولون: إن الحرب اليوم أحسن منها أمس؛ كان أمس يقاتل غيركم، انصرفوا إلى مضاربكم.

فلما انصرف عمرو الفرغانيّ وأحمد بن الخليل بن هشام، قال أحدهما للآخر: أما ترى هذا العبد ابن الفاعلة - يعني أشناس - ما صنع بنا اليوم! أليس الدخول إلى بلاد الروم أهونَ من هذا الذي سمعناه اليوم! فقال عمرو الفرغاني لأحمد بن الخليل - وكان عند عمرو خبر -: يا أبا العباس، سيكفيك الله أمره، عن قريبٍ

أبشر. فأوهم أحمدَ أن عنده خبراً، فألحّ عليه أحمد يسأله؛ فأخبره بما هم فيه؛ وقال: إن العباس بن المأمون قد تمّ أمرُه، وسنبايع له ظاهراً، ونقتل المعتصم وأشناس وغيرهما عن قريب. ثم قال له: أشير عليك أن تأتيَ العباس، فتقدم فتكون في عداد من مال إليه. فقال له أحمد: هذا أمر لا أحسبه يتمّ، فقال له عمرو: قد تمّ وفرغ، وأرشده إلى الحارث السمرقنديّ - قرابة سلَمة بن عبيد الله بن الوضاح؛ وكان المتولّي لإيصال الرجال إلى العباس وأخذ البيعة عليهم - فقال له عمرو: أنا أجمع بينك وبين الحارث حتى تصير في عداد أصحابنا، فقال له أحمد: أنا معكم إن كان هذا الأمر يتم فيما بيننا وبين عشرة أيام، وإن جاوز ذلك فليس بيني وبينكم عمل؛ فذهب الحارث، فلقي العباس فأخبره أن عمراً قد ذكره لأحمد بن الخليل، فقال له: ما كنت أحب أن يطّلع الخليل على شيء من أمرنا؛ أمسكوا عنه؛ ولا تشركوه في شيء من أمركم، دعوه بينهما. فأمسكوا عنه.

فلما كان في اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصّة، ومعهم المغاربة والأتراك، والقيّم بذلك إيتاخ؛ فقاتلوا فأحسنوا واتسع لهم الموضع المنثلم؛ فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات.

وكان قوّاد ملك الروم عند ما نزل بهم عسكر المعتصم اقتسموا البروج؛ لكل قائد وأصحابه عدّة أبرجة؛ وكان الموكّل بالموضع الذي انثلم من السور رجلاً من قوّاد الرّوم يقال له وندوا، وتفسيره بالعربية «ثَور»؛ فقاتل الرّجل وأصحابه قتالاً شديداً بالليل والنهار والحرب عليه وعلى أصحابه، لم يمدّه ياطس ولا غيره بأحد من الرّوم؛ فلما كان بالليل مضى القائد الموكل بالثلمة إلى الرّوم، فقال: إنّ الحَرْبَ عليّ وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلّا قد جُرح؛ فصيِّرُوا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلا؛ وإلا افتضحتم وذهبت المدينة. فأبوْا أن يمدّوه بأحد، فقالوا: سلِم السور من ناحيتنا، وليس نسألك أن تمدّنا؛ فشأنَك وناحيتَك؛ فليس لك عندنا مدد. فاعتزم هو وأصحابه على أن يخرجوا إلى أمير المؤمنين المعتصم، ويسألوه الأمانَ على الذّرّية، ويسلِّموا إليه الحصن بما فيه من الخُرْثيّ والمتاع والسلاح وغير ذلك.

فلما أصبح وكّل أصحابه بجنبي الثلمة؛ وخرج فقال: إني أريد أمير المؤمنين؛ وأمر أصحابه ألا يحاربوا حتى يعود إليهم؛ فخرج حتى وصل إلى المعتصم؛ فصار بين يديه، والناس يتقدّمون إلى الثلْمة؛ وقد أمسك الرّوم عن الحرب حتى وصلوا إلى السور، والروم يقولون بأيديهم: لا تَجيَوْا، وهم يتقدّمون، ووندوا بين يدي المعتصم جالس؛ فدعا المعتصم بفرس فحمله عليه، وقاتل حتى صار الناس معهم على حرف الثلمة، وعبد الوهاب بن عليّ بين يدي المعتصم، فأومأ إلى الناس بيده: أن ادخلوا، فدخل الناس المدينة، فالتفت وندوا؛ وضرب بيده إلى لحيته، فقال له المعتصم: مالك؟ قال: جئت أريد أن أسمع كلامَك وتسمع كلامي، فغدرتَ بي؛ فقال المعتصم: كلّ شيء تريد أن تقوله فهو لك عليّ، قلْ ما شئت؛ فإني لست أخالفك. قال: أيْش لا تخالفني وقد دخلوا المدينة! فقال المعتصم: اضرب بيدك إلى ما شئت فهو لك، وقل ما شئت فإني أعطيكه. فوقف في مضرب المعتصم. وكان ياطس في برجه الذي هو فيه وحوله جماعة من الروم مجتمعين، وصارت طائفة منهم إلى كنيسة كبيرة في زاوية عمُّورية؛ فقاتلوا قتالاً شديداً، فأحرق الناس الكنيسة عليهم فاحترقوا عن آخرهم، وبقي ياطس في بُرْجه حوله أصحابه، وباقي الروم وقد أخذتهم السيوف؛ فبين مقتول ومجروح؛ فركب المعتصم عند ذلك حتى جاء فوقف حذاء ياطس؛ وكان مما يلي عسكر أشناس، فصاحوا: يا ياطس، هذا أمير المؤمنين؛ فصاح الرُّوم من فوق البرج: ليس ياطس ها هنا، قالوا: بلى، قولوا له: إنّ أمير

المؤمنين واقف، فقالوا: ليس ياطس ها هنا. فمرّ أمير المؤمنين مغضباً، فلما جاوز صاح الرّوم: هذا ياطس، هذا ياطس! فرجع المعتصم إلى حيال البُرْج حتى وقف؛ ثم أمر بتلك السلاليم التي هُيِّئت، فحمِل سُلَّم منها، فوضع على البُرْج الذي هو فيه، وصعِد عليه الحسن الرّومي - غلام لأبي سعيد محمد بن يوسف - وكلّمه ياطس، فقال: هذا أمير المؤمنين، فانزل على حكمه؛ فنزل الحسن، فأخبر المعتصم أنه قد رآه وكلّمه، فقال المعتصم: قل له فلينزل؛ فصعد الحسن ثانية، فخرج ياطس من البُرْج متقلّداً سيفاً حتى وقف على البُرْج والمعتصم ينظر إليه، فخلع سيفه من عُنقه، فدفعه إلى الحسن، ثم نزل ياطس، فوقف بين يدي المعتصم؛ فقنّعه سوطاً، وانصرف المعتصم إلى مَضْرَبه، وقال: هاتوه، فمشى قليلا، ثم جاءه رسول المعتصم، أن احملوه، فحملوه، فذُهب به إلى مضرب أمير المؤمنين.

ثم أقبل الناس بالأسرى والسَّبْي من كلّ وجْه حتى امتلأ العسكر ؛ فأمر المعتصم بَسيلَ الترجمان أن يميّز الأسرى ، فيعزل منهم أهل الشرف والقدْر من الرّوم في ناحية ، ويعزل الباقين في ناحية ؛ ففعل ذلك بَسيل . ثم أمر المعتصم فوكّل بالمقاسم قوّاده ، ووكل أشناس بما يخرج من ناحيته ، وأمره أن ينادي عليه ، ووكّل الأفشين بما يخرج من ناحيته ، وأمره أن ينادي ويبيع ، وأمر إيتاخ بناحيته مثل ذلك ، وجعفراً الخياط بمثل ذلك في ناحيته ، ووكّل مع كل قائد من هؤلاء رجلاً من قِبَل أحمد بن أبي دؤاد يحصي عليه ، فبيعت المقاسم في خمسة أيام ، بيع منها ما استباع ، وأمر بالباقي فضُرِب بالنار ، وارتحل المعتصم منصرفاً إلى أرض طَرسوس .

ولما كان يوم إيتاخ قبل أن يرتحِل المعتصم منصرفاً، وثب الناس على المغنم الذي كان إيتاخ على بيعه ، وهو اليوم الذي كان عُجيف وعَد الناس فيه أن يثب بالمعتصم ، فركب المعتصم بنفسه ركضاً ، وسلّ سيفه ، فتنحى الناس عنه من بين يديه ، وكَفُّوا عن انتهاب المغنم ، فرجع إلى مضربه ؛ فلما كان من الغد أمر ألا ينادى على السَّبْي إلا ثلاثة أصوات ، ليتروّج البيع ، فمن زاد بعد ثلاثة أصوات ، وإلّا بيع العلْقُ ، فكان يفعل ذلك في اليوم الخامس ؛ فكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة ، وعشرة عشرة ، والمتاع الكثير جملة واحدة .

قال : وكان ملك الروم قد وجّه رسولاً في أول ما نزل المعتصم على عمّورية فأمر به المعتصم فأنزِل على موضع الماء الذي كان الناس يستقون منه ؛ وكان بينه وبين عَمُّورية ثلاثة أميال ؛ ولم يأذن له في المصير إليه حتى فتح عَمورية، فلما فتحها أذن له في الانصراف إلى ملك الروم فانصرف وانصرف المعتصم يريد الثغور، وذلك انه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج في أثره، أو يريد التعبّث بالعسكر، فمضى في طريق الجادّة مرحلة؛ ثم رجع إلى عَمُّورية، وأمر الناس بالرجوع، ثم عدل عن طريق الجادّة إلى طريق وادي الجَوْر، ففرّق الأسرى على القُوّاد، ودفع إلى كلّ قائد من القوّاد طائفة منهم يحفظهم، ففرّقهم القوّاد على أصحابهم، فساروا في طريق نحواً من أربعين ميلاً؛ ليس فيه ماء؛ فكان كلُّ مَن امتنع من الأسرى أن يمشيَ معهم لشدّة العطش الذي أصابهم ضربوا عنقه؛ فدخل الناس في البرّيّة في طريق وادي الجور فأصابهم العطش، فتساقط الناس والدوابّ وقَتلَ بعض الأسرى بعض الجند وهرب.

وكان المعتصم قد تقدّم العسكر ، فاستقبل الناس ، ومعه الماء قد حمله من الموضع الذي نزله ، وهلك الناس في هذا الوادي من العطش ، وقال الناس للمعتصم : إنّ هؤلاء الأسرى قد قتلوا بعض جندنا ، فأمر عند ذلك بَسيلَ الروميّ بتمييز مَنْ له القدْر منهم ، فعُزلوا ناحية ، ثم أمر الباقين فأصعدوا إلى الجبال ، وأنزِلوا

إلى الأودية فضرِبَت أعناقهم جميعاً ، وهم مقدار ستة آلاف رجل ؛ قتلوا في موضعين بوادي الجور وموضع آخر .

ورحل المعتصم من ذلك الموضع يريد الثغر حتى دخل طَرسوس ، وكان قد نصِب له الحياض من الأدم حول العسكر من الماء إلى العسكر بعمّورية والحياض مملوءة ، والناس يشربون منها لا يتعبون في طلب الماء .

وكانت الوقعة التي وقعت بين الأفشين وملك الروم - فيما ذكر - يوم الخميس لخمس بقين من شعبان وكانت إناخة المعتصم على عَمُّورية يوم الجمعة لستّ خلون من شهر رمضان ، وقفل بعد خمسة وخمسين يوماً .

وقال الحسين بن الضحاك الباهليّ يمدح الأفشين ، ويذكر وقعته التي كانت بينه وبين ملك الروم :

أثبتَ المَعْصُومُ عزّاً لأبي حَسَنٍ أثبَتَ من رُكنِ إضَمْ
كُلُّ مَجْدٍ دُونَ ما أَثَّلَهُ لبَنِي كاوُسَ أملاكِ العَجَمْ
إنما الأفشينُ سيْفٌ سلَّهُ قَدَرُ اللهِ بكَفِّ المُعتَصِمْ
لم يَدَعْ بالبَذِّ من ساكِنَة غير أمثالٍ كأمثالِ إرَمْ
ثم أهْدى سَلَماً بابِكَهُ رَهْنَ حجلَيْنِ نجيّاً للنَدَمْ
وقَرَا تَوْفيلَ طَعناً صادقاً فضَّ جمْعَيْهِ جميعاً وهَزَمْ
قُتِلَ الأكثرُ منهم ونجا من نجا لَحْماً على ظَهْرِ وضَمْ

وفي هذه السنة حبس المعتصم العباس بن المأمون وأمر بلعنه .

ذكر الخبر عن سبب فعله ذلك :

ذُكِر أنّ السبب كان في ذلك أن عُجيف بن عنبسة حين وجّهه المعتصم إلى بلاد الروم ، لمّا كان من أمر ملك الروم بِزِبَطْرَة مع عمرو بن أربخا الفرغانيّ ومحمد كوتة ، لم يطلِق يد عُجيف في النفقات كما أطلِقت يد الأفشين ، واستقصر المعتصم أمرَ عُجيف وأفعاله ، واستبان ذلك لعُجيف ، فوبّخ عُجيف العباس على ما تقدّم من فعله عند وفاة المأمون حين بايع أبا إسحاق وعلى تفريطه فيما فعل ، وشجّعه على أن يتلافىَ ما كان منه .

فقبل العباس ذلك ، ودسّ رجلاً يقال له الحارث السمرقنديّ ، قرابة عبيدالله بن الوضّاح - وكان العباس يأنس به ، وكان الحارث رجلاً أديباً له عقل ومداراة - فصيّره العباس رسوله وسفيره إلى القوّاد ؛ فكان يدور في العسكر حتى تألّف له جماعة من القواد ، وبايعوه وبايعه منهم خواصّ ، وسمّى لكل رجل من قُوّاد المعتصم رجلاً من ثقات أصحابه ممن بايعه ، ووكله بذلك ، وقال : إذا أمرنا بذلك ،فليثب كلّ رجل منكم على من ضمنّاه أن يقتله ، فضمنوا له ذلك ، فكان يقول للرجل ممن بايعه : عليك يا فلان أن تقتُل فلاناً ، فيقول : نعم ، فوكل مَنْ بايعه من خاصّة المعتصم بالمعتصم ومن خاصة الأفشين بالأفشين ، ومن خاصّة أشناس بأشناس ، ممّن بايعه من الأتراك ، فضمنوا ذلك جميعاً . فلما أرادوا أن يدخلوا الدّرب وهم يريدون أنقرة وعَمّوريَة ، ودخل الأفشين من ناحية مَلَطْية ، أشار عُجيف على العباس أن يثب على المعتصم في الدّرب وهو في قلة من الناس ، وقد تقطعت عنه العساكر ، فيقتله ويرجع إلى بغداد ؛ فكان الناس يفرحون بانصرافهم من الغزو ، فأبى العباس عليه ، وقال : لا أفسد هذه الغزاة ، حتى دخلوا بلاد الروم ، وافتتحوا عَمُّورية ، فقال عُجيف للعباس : يا نائم ، كم تنام ! قد فتحت عَمُّوريَّة ، والرجل ممكن ، دُسَّ قوماً ينتهبون هذا

الخُرثيّ ، فإنه إذا بلغه ذلك ركب بسرعة ، فتأمر بقتله هناك ، فأبى عليه العباس ، وقال ، أنتظر حتى يصير إلى الدرّب ، فيخلو كما خلا في البدْأة ، فهو أمكن منه هاهنا . وكان عُجيف قد أمر مَنْ ينتهب المتاع ، فانتُهب بعض الخُرْثيّ في عسكر إيتاخ .

فركب المعتصم وجاء ركضاً ، فسكن الناس ، ولم يطلق العباس أحداً من أولئك الرجال الذين كان واعدهم ، فلم يُحدثوا شيئاً ، وكرهوا أن يفعلوا شيئاً بغير أمره .

وكان عمرو الفرغانيّ قد بلغه الخبر ذلك اليوم ، ولعمرو الفرغانيّ قرابة ، غلام أمرد في خاصة المعتصم ، فجاء الغلام إلى ولد عمرو يشرب عندهم في تلك الليلة ، فأخبرهم أن أمير المؤمنين ركب مستعجلاً ؛ وأنه كان يعدو بين يديه ، وقال : إنّ أمير المؤمنين قد غضب اليوم ، فأمرني أن أسلّ سيفي ، وقال : لا يستقبلك أحد إلا ضربتَه ، فسمع عمرو ذلك من الغلام ، فأشفق عليه أن يصاب ، فقال له : يا بنيّ ، أنت أحمق ، أقلّ من الكينونة عند أمير المؤمنين بالليل ، والزم خيمتَك ، فإن سمعت صيحةً مثل هذه الصيحة ، أو شَغباً أو شيئاً فلا تبرحْ من خيمتك ؛ فإنك غلام غِرّ ، لست تعرف بعدُ العساكر . فعرف الغلام مقالَة عمرو.

وارتحل المعتصم من عَمُّوريّةَ يريد الثغر ، ووجّه الأفشين ابنَ الأقطع في طريق خلاف المعتصم ، وأمره أن يغير على موضع سمّاه له ، وأن يوافيَه في بعض الطريق ، فمضى ابن الأقطع ، وتوجّه المعتصم يريد الثغر ، فسار حتى صار إلى موضع أقام فيه ليُريح ويستريح ، وليسلك الناس من المضيق الذي بين أيديهم . ووافى ابن الأقطع عسكر الأفشين بما أصاب من الغنائم ؛ وكان عسكر المعتصم على حِدة وعسكر الأفشين على حِدة ، بين كل عسكر قدر ميلين أو أكثر ، واعتلّ أشناس فركب المعتصم صلاةَ الغداة يعوده ؛ فجاء إلى مضرِبه فعاده ؛ ولم يكن الأفشين لحقه بعد .

ثم خرج المعتصم منصرفاً ، فتلقاه الأفشين في الطريق ، فقال له المعتصم : تريد أبا جعفر . وكان عمرو الفرغانيّ وأحمد بن الخليل عند منصرف المعتصم من عيادة أشناس توجها إلى ناحية الأفشين لينظرا ما جاء به ابن الأقطع من السَّبي فيشتريا منه ما أعجبهما ، فتوجها ناحية عسكر الأفشين ولقيهما الأفشين يـريد أشنـاس ـ فترجّلا ـ وسلّما عليه ، ونظر إليهما حاجب أشناس من بعد ، فدخل الأفشين إلى أشناس ، ثم انصـرف ، وتوجّها إلى عسكر الأفشين ، فلم يكن السَّبي أخرِج بعدُ ، فوقفا ناحية ينتظران أن ينادَى على السَّبْي ، فيشتريا منه ، ودخل حاجب أشناس على أشناس ، فقال : إن عمراً الفرغانيّ وأحمد بن الخليل تلقيا الأفشين ، وهما يريدان عسكره ، فترجّلا وسلما عليه ، وتوجها إلى عسكره .

فدعا أشناس محمد بن سعيد السعديّ ، فقال له : اذهب إلى عسكر الأفشين ، فانظر هل ترى هناك عمراً الفرغانيّ وأحمد بن الخليل ! وانظر عند مَن نزلا ، وأيّ شيء قصتهما ؟ فجاء محمد بن سعيد ، فأصابهما واقفين على ظهور دوابّهما فقال : مـا أوقفكما ها هنا ؟ قالا : وقفنا ننتظر سَبْيَ ابن الأقطع يخرج ؛ فنشتري بعضَه ؛ فقال لهما محمد بن سعيد : وكّلا وكيلاً يشتري لكما ، فقالا : لا نحب أن نشتري إلا ما نراه ؛ فرجع محمد ، فأخبر أشناس بذلك ، فقال : لحاجبه : قل لهؤلاء الزموا عسكركُم : فهو خير لكم ـ يعني عمراً وابن الخليل ـ ولا تذهبوا ها هنا وها هنا . فذهب الحاجب إليهما ، فأعلمهما ، فاغتمّا لذلك واتفقا على أن يذهبا إلى صاحب خبر العسكر ، فيستعفياه من أشناس ، فصارا إلى صاحب الخبر ، فقالا : نحن عبيد أمير المؤمنين ،

يضمنا إلى من شاء ، فإنّ هذا الرجل يستخفّ بنا ، قد شتمنا وتوعدنا ، ونحن نخاف أن يقدم علينا ، فليضمّنا أمير المؤمنين إلى من أحبّ .

فأنهى صاحب الخبر ذلك إلى المعتصم من يومه ؛ واتفق الرّحيل صلاة الغداة ، وكان إذا ارتحل الناس سارت العساكر على حيالها ، وسار أشناس والأفشين وجميع القوّاد في عسكر أمير المؤمنين ، ووكّلوا خلفاءهم بالعساكر ، فيسيرون بها . وكان الأفشين على الميسرة وأشناس على الميمنة ؛ فلما ذهب أشناس إلى المعتصم ، قال له : أحسِنْ أدب عمرو الفرغانيّ وأحمد بن الخليل ، فإنهما قد حمّقا أنفسهما ، فجاء أشناس راكضاً إلى معسكره ، فسأل عن عمرو وابن الخليل ، فأصاب عمراً ؛ وكان ابن الخليل قد مضى في الميسرة يبادر الروم ، فجاؤوه بعمرو الفرغانيّ ، وقال : هاتوا سياطاً ، فمكث طويلاً مجرّداً ليس يؤتى بالسياط ، فتقدّم عمّه إلى أشناس ، فكلمه في عمرو ـ وكان عمه أعجمياً ـ وعمرو واقف ، فقال : احملوه ، فألبسوه قباء طاق ، فحملوه على بغل في قبّة ، وساروا به إلى العسكر ، وجاء أحمد بن الخليل وهو يركُض ، فقال : احبسوا هذا معه ؛ فأنزل عن دابته ، وصُيِّر عديله ، ودُفعا إلى محمد بن سعيد السعديّ يحفظهما ، فكان يضرب لهما مضرباً في فازّة وحجرة ومائدة ، ويفرش لهما فرشاً وطيّة ، وحوضاً من ماء وأثقالهما وغلمانهما في العسكر ، لم يحرَّك منها شيء ، فلم يزالا كذلك حتى صارا إلى جبل الصَّفْصاف .

فوقف بُغا بأعلامه ينتظر أشناس ، وجاء محمد بن سعيد ومعه عمرو وأحمد بن الخليل ، فقال بغا لأشناس : أمرني أمير المؤمنين أن أوافيَه بعمرو الساعة ، فأنزِل عمرو ، وجعل مع أحمد بن الخليل في القبة رجل يعادله ، ومضى بغا بعمرو إلى المعتصم ، فأرسل أحمد بن الخليل غلاماً من غلمانه إلى عمرو ، لينظر ما يصنع به ، فرجع الغلام فأخبره أنه دخل على أمير المؤمنين ، فمكث ساعة ثم دُفع إلى إيتاخ ؛ وكان أمير المؤمنين لما دخل ساءله عن الكلام الذي قاله للغلام قرابته ، فأنكر وقال : هذا الغلام كان سكران ، ولم يفهم ولم أقل شيئاً ممّا ذكره ، فأمر به فدفع إلى إيتاخ ، وسار المعتصم حتى صار إلى باب مضايق البدندون ، وأقام أشناس ثلاثة أيام على مضيق البدندون ينتظر أن تتخلّص عساكر أمير المؤمنين ؛ لأنه كان على الساقة ، فكتب أحمد بن الخليل إلى أشناس رقعة يعلمه أنّ لأمير المؤمنين عنده نصيحة ، وأشناس مقيم على مضيق البدندون ، فبعث إليه أشناس بأحمد بن الخصيب وأبي سعد محمد بن يوسف يسألانه عن النصيحة ؛ فذكر أنه لا يخبر بها إلا أمير المؤمنين ، فرجعا فأخبرا أشناس بذلك ، فقال : ارجعا فاحلفا له : إني حلفت بحياة أمير المؤمنين ، إن هو لم يخبرني بهذه النصيحة أن أضربه بالسياط حتى يموت ، فرجعَا فأخبرا أحمد بن الخليل بذلك .

فأخرج جميع من عنده ، وبقيَ أحمد بن الخصيب وأبو سعيد فأخبرهما بما ألقى إليه عمرو الفرغانيّ من أمر العباس ، وشرح لهما جميع ما كان عنده ، وأخبرهما بخبر الحارث السمرقنديّ ، فانصرفا إلى أشناس ، فأخبراه بذلك ، فبعث أشناس في طلب الحدّادين ، فجاؤوا بحدّادَيْن من الجند ؛ فدفع إليهما حديداً ، فقال : اعملا لي قيداً مثل قيد أحمد بن الخليل ، وعجّلا به الساعة ، ففعلا ذلك ، فلمّا كان عنده حبسه ، وكان حاجب أشناس يبيت عند أحمد بن الخليل مع محمد بن سعيد السعديّ .

فلما كان تلك الليلة عند العتمة ذهب الحاجب إلى خيمة الحارث السمرقنديّ فأخرجه منها ، وجاء به إلى أشناس فقيّده ، وأمر الحاجب أن يحمله إلى أمير المؤمنين ، فحمله الحاجب إليه ، واتفّق رحيل أشناس صلاة

الغداة ، فجاء أشناس إلى موضع معسكره ، فتلقّاه الحارث معه رجل من قِبَل المعتصم ، وعليه خلع ، فقال له أشناس : مه ، فقال : القيد الذي كان في رجلي صار في رجل العباس . وسأل المعتصم الحارث حين صار إليه عن أمره ، فأقرّ أنه كان صاحب خبر العباس ، وأخبره بجميع أمره وجميع مَنْ بايع العباس من القوّاد فأطلق المعتصم الحارث وخلع عليه ، ولم يصدق على أولئك القواد لكثرتهم وكثرة مَنْ سمى منهم .

وتحيّر المعتصم في أمر العباس ، فدعا به حين خرج إلى الدّرب فأطلقه ومنّاه ، وأوهمه أنه قد صفح عنه ، وتغدّى معه ، وصرفه إلى مضربه ، ثم دعاه بالليل ، فنادمه على النبيذ ، وسقاه حتى أسكره ؛ واستحلفه ألا يكتمه من أمره شيئاً ، فشرح له قصته ، وسمّى له جميع مَنْ كان دبّ في أمره ، وكيف كان السبب في ذلك في كلّ واحد منهم ، فكتبه المعتصم وحفظه ، ثم دعا الحارث السمرقنديّ بعد ذلك ، فسأله عن الأسباب ، فقصّ عليه مثل ما قصّ عليه العباس ، ثم أمر بعد ذلك بتقييد العباس ، ثم قال للحارث : قد رُضتك على أن تكذب ، فأجد السبيل إلى سَفْك دمك فلم تفعل ، فقد أفلتّ ، فقال له : يا أمير المؤمنين، لست بصاحب كذب .

ثم دفع العباس إلى الأفشين ، ثم تتبّع المعتصم أولئك القوّاد ، فأخِذوا جميعاً ، فأمر أن يحمَل أحمد بن الخليل على بغل بإكاف بلا وطاء ، ويطرح في الشمس إذا نزل ، ويطعم في كلّ يوم رغيفاً واحداً ، وأخِذ عُجيف بن عَنْبسة فيمن أُخِذ من القوّاد ، فدفع من سائر القواد إلى إيتاخ ، ودفع ابن الخليل إلى أشناس ، فكان عجيف وأصحابه يحملون في الطريق على بغال بأكُفٍ بلا وطاء ، وأخذ الشاه بن سهل - وهو الرأس ابن الرأس من أهل قرية من خراسان يقال لها سجستان - فدعا به المعتصم والعباس بين يديه ، فقال له : يابن الزانية ، أحسنتُ إليك فلم تشكر ! فقال له الشاه بن سهل : ابن الزانية هذا الذي بين يديك - يعني العباس - لو تركني هذا كنت أنتَ الساعة لا تقدر أن تقعد في هذا المجلس وتقول لي : يابن الفاعلة ؟ فأمر به المعتصم ، فضُربت عنقه ؛ وهو أوّل من قتل من القواد ومعه صحبه ، ودفع عُجيف إلى إيتاخ فعلّق عليه حديدا كثيراً وحمله على بغل في محمل بلا وطاء .

وأما العباس فكان في يدي الأفشين ؛ فلما نزل المعتصم مَنْبج - وكان العباس جائعاً - سأل الطعام ، فقُدّم إليه طعام كثير ؛ فأكل فلمّا طلب الماء مُنِع وأدرج في مِسْحٍ ، فمات بمنبج ، وصلى عليه بعض إخوته .

وأما عمرو الفَرغانيّ : فإنه لما نزل المعتصم بنصيبين في بستان ، دعا صاحب البستان ، فقال له : احفر بئراً في موضع أومأ إليه بقدر قامة ، فبدأ صاحب البستان فحفرها ، ثم دعا بعمرو والمعتصم جالسٌ في البستان ، قد شرب أقداحاً من نبيذ ، فلم يكلمه المعتصم ، ولم يتكلم عمرو حتى مثل بين يديه ، فقال : جرّدُوه فجُرّد ، وضرب بالسياط ضربة الأتراك ، والبئر تُحفر ؛ حتى إذا فُرغ من حفرها قال صاحب البستان : قد حفرتها ، فأمر المعتصم عند ذلك فضُرِب وجه عمرو وجسده بالخشب ، فلم يزل يُضرب حتى سقط ثم قال : جُرّوه إلى البئر فاطرحوه فيها ، فلم يتكلم عمرو ولم ينطق يومه ذلك ، حتى مات فطرح في البئر ، وطُمّت عليه .

وأما عُجيف بن عنبسة ، فلما صار بباعَيْنَاثا ، فوق بلَد قليلا ، مات في المحمل ، فطرح عند صاحب المسلحة ، وأمر أن يُدفن فيها ، فجاء به إلى جانب حائط خرب فطرحه عليه فقبِر هناك .

وذُكر عن عليّ بن حسن الرّيدانيّ أنه قال : كان عُجيف في يد محمد بن ابراهيم بن مُصعب ، فسأله

المعتصم عنه ؛ فقال له : يا محمد ، لم يمت عُجيف ، قال : يا سيّدي اليوم يموت ، ثم أتى محمد مضرَبه ، فقال لعجيف يا أبا صالح ، أيَّ شيء تشتهي ، قال أسفيدباج وحَلْوى فالوذج ، فأمر أن يعمَل له من كلٍّ طعام ؛ فأكل وطلب الماء فمنِع ؛ فلم يزل يطلب وهو يسوق حتى مات ، فدفن بباعَيْناثا .

قال : وأما التركيّ الذي كان ضمن للعباس قتل أشناس متى ما أمره العباس ـ وكان كريماً على أشناس ينادِمه ولا يحجب عنه في ليل ولا نهار ـ فإنه أمر بحبسه ، فحبسه أشناس قبَله في بيت ، وطيّن عليه الباب ، وكان يلقي إليه في كلّ يوم رغيفاً وكوز ماء ؛ فأتاه ابنه في بعض أيامه ، فكلمه من وراء الحائط ، فقال له : يا بنيّ ، لو كنت تقدر لي على سِكِّين كنت أقدر أن أتخلص من موضعي هذا ، فلم يزل ابنه يتلطف في ذلك حتى أوصل إليه سكِّيناً ، فقتل به نفسه .

وأما السنديّ بن بختاشه ، فأمر المعتصم أن يوهب لأبيه بختاشه ـ لأن بختاشه لم يكن يتلطّخ بشيء من أمر العباس ـ فقال المعتصم :لا يُفجع هذا الشيخ بابنه ؛ فأمر بتخلية سبيله .

وأما أحمد بن الخليل ؛ فإنه دفعه أشناس إلى محمد بن سعيد السعديّ ، فحفر له بئراً في الجزيرة بسامَرّا ، فسأل عنه المعتصم يوماً من الأيام ، فقال لأشناس : ما فعل أحمد بن الخليل ؟ فقال له أشناس : هو عند محمد بن سعيد السعديّ ، قد حفر له بئراً وأطبق عليه ، وفتح له فيها كوّة ليرمي إليه بالخبز والماء . فقال المعتصم : هذا أحسبه قد سمِن على هذه الحال، فأخبر أشناس محمد بن سعيد بذلك، فأمر محمد بن سعيد أن يسقى الماء ويصب عليه في البئر حتى يموت : ويمتلىء البئر؛ فلم يزل يصُبّ عليه الماء، والرمل ينشف الماء؛ فلم يغرق ولم يمتلىء البئر، فأمر أشناس بدفعه إلى غِطريف الخجنديّ، فدُفع إليه، فمكث عنده أياماً، ثم مات فدُفن .

وأما هرثمة بن النضر الخُتَّليّ ، فكان والياً على المراغة ، وكان في عِداد مَنْ سماه العباس أنه من أصحابه ؛ فكتب في حمله في الحديد ، فتكلم فيه الأفشين ، واستوهبه من المعتصم ، فوهبه له ، فكتب الأفشين كتاباً إلى هرثمة بن النضر يعلمه أنّ أمير المؤمنين قد وهبه له ، وأنه قد ولّاه البلد الذي يصل إليه الكتاب فيه ، فورد به الدينور عند العشاء مقيّداً ، فطرح في الخان ، وهو موثَقٌ في الحديد ، فوافاه الكتاب في جُنْح الليل ، فأصبح وهو والي الدّينور .

وقُتل باقي القواد ومَنْ لم يُحفظ اسمه من الأتراك والفراغنة وغيرهم ، قُتلوا جميعاً .

وورد المعتصم سامرّا سالماً بأحسن حال ، فسُمي العباس : اللعين يومئذ ؛ ودفع ولد سندُس من ولد المأمون إلى إيتاخ ، فحبِسوا في سرداب من داره ثم ماتوا بعدُ .

وجرح في هذه السنة في شوال إسحاقُ بن إبراهيم ، جرحه خادم له .

وحجّ بالناس فيها محمد بن داود .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك إظهار مَازيار بن قارن بنونداهُرْمز بطبرستان الخلافَ على المعتصم، ومحاربته أهل السفح والأمصار منها.

ذكر الخبر عن سبب إظهاره الخلاف على المعتصم وفعله ما فعل من الوثوب بأهل السفح:

ذُكر أنّ السبب في ذلك، كان أن مَازيار بن قارن كان منافراً لآل طاهر، لا يحمل إليهم الخراج؛ وكان المعتصم يكتب إليه يأمره بحمله إلى عبدالله بن طاهر، فيقول: لا أحمله إليه؛ ولكني أحمله إلى أمير المؤمنين؛ فكان المعتصم إذا حمل المازيار إليه الخراج، يأمر: إذا بلغ المالُ همَذان رجلاً من قِبَله أن يستوفيه ويسلّمه إلى صاحب عبدالله بن طاهر ليردّه إلى خراسان؛ فكانت هذه حاله في السنين كلها. ونافر آل طاهر حتى تفاقم الأمر بينهم.

وكان الأفشين يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدلّ على أنه يريد عزل آل طاهر عن خُراسان؛ فلما ظَفِر الأفشين ببابك، ونزل من المعتصم المنزلة التي لم يتقدّمْه فيها أحدٌ، طمع في ولاية خراسان، وبلغته منافرة مازيار آل طاهر، فرجا أن يكون ذلك سبباً لعزل عبدالله بن طاهر، فدسّ الأفشين الكتب إلى المازيار يستميله بالدّهْقنة، ويعلمه ما هو عليه من المودّة له، وأنه قد وُعد ولاية خراسان؛ فدعا ذلك المازيار إلى ترك حمل خراجه إلى عبدالله بن طاهر، وواترَ عبدالله بن طاهر الكتبَ فيه إلى المعتصم؛ حتى أوحش المعتصم منه وأغضبه عليه، وحمل ذلك المازيار إلى أن وثبَ وخالف، ومنع الخراج، وضبط جبال طبَرستان وأطرافه.

وكان ذلك مما يسُرّ الأفشين ويُطمعه في الولاية؛ فكتب المعتصم إلى عبدالله بن طاهر يأمره بمحاربة مازَيار، وكتب الأفشين إلى المازيار يأمره بمحاربة عبدالله بن طاهر، ويُعلمه أنه يقوم له عند المعتصم بما يحبّ، وكاتبه المازيار أيضاً؛ فلا يشكّ الأفشين أن المازيار سيواقِف عبدالله بن طاهر ويقاومه، حتى يحتاج المعتصم إلى أن يوجّهه وغيره إليه.

فذُكر عن محمد بن حفص الثقَفيّ الطبريّ أنّ المازيار لما عزم على الخلاف، دعا الناس إلى البيْعة، فبايعوه كَرْهاً، وأخذ منهم الرهائن، فحبسهم في بُرْج الأصْبَهْبذ، وأمر أكَرَة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم؛ وكان المازيار يكاتب بابـك، ويحرّضه ويعرض عليه النُّصرة. فلمّا فرغ المعتصم من أمر بابك، أشاع

الناس أنّ أمير المؤمنين يريد المسير إلى قَرْماسين، ويوجّه الأفشين إلى الريّ لمحاربة مازيار؛ فلما سمع المازيار بإرجاف الناس بذلك، أمر أن يمسح البلد، خَلا مَنْ قاطعَ على ضياعه بزيادة العشرة ثلاثة، ومَنْ لم يقاطع رجع عليه، فحسب ما عليه من الفَضْل ولم يحسب له النقصان.

ثم أنشأ كتاباً إلى عامله على الخراج، وكان عامله عليه رجلاً يقال له شاذان بن الفضل، نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ إنّ الأخبار تواترتْ علينا، وصحّت عندنا بما يرجُف به جُهّال أهل خراسان وطبرستان فينا، ويولّدون علينا من الأخبار ويحملون عليه رؤوسهم، من التعصّب لدولتنا والطعن في تدبيرنا، والمَراسلة لأعدائنا وتوقّع الفتن، وانتظار الدوائر فينا، جاحدين للنعم مستقلّين للأمن والدّعَة والرفاهية والسعة التي آثرهم الله بها، فما يردُ الرّيّ قائد ولا مشرّق ولا مغرّب، ولا يأتينا رسول صغير ولا كبير إلا قالوا كيت وكيت، ومدُّوا أعناقهم نحوه، وخاضوا فيها قد كذّب الله أحدوثتهم، وخيّب أمانيهم فيه مرّة بعد مرة، فلا تنهاهم الأولى عن الآخرة، ولا يزجرهم عن ذلك تقيّة ولا خشية، كلّ ذلك نغضي عليه، ونتجرّع مكروهه، استبقاءً على كافّتهم، وطلباً للصلاح والسلامة لهم إلحاحاً؛ فلا يزيدهم استبقاؤنا إلّا لجاجاً، ولا كفُّنا عن تأديبهم إلا إغراء؛ إن أخَّرْنا عنهم افتتاحَ الخراج نظراً لهم ورفقاً بهم قالوا: معزول، وإن بادرنا به قالوا: لحادث أمر؛ لا يزدجرون عن ذلك بالشدّة إن أغلظنا، ولا برفق إن أنعمنا؛ والله حسبُنا وهو ولينا؛ عليه نتوكل وإليه نتيب. وقد أمرنا بالكتاب إلى بندار آمُل والرّويان في استغلاق الخراج في عملهما، وأجّلناهما في ذلك إلى سَلْخ تيرماه؛ فاعلم ذلك، وجرِّدْ جبايتَك، واستخرج ما على أهل ناحيتك كمَلا، ولا يمضينّ عنك تيرماه، ولك درهم باقٍ؛ فإنك إن خالفتَ ذلك إلى غيره لم يكن جزاؤك عندنا إلا الصلب؛ فانظر لنفسك، وحامِ عن مهجتك، وشمّر في أمرك، وتابع كتابَك إلى العباس. وإياك والتغرير؛ واكتب بما يحدث منك من الانكماش والتّشمير؛ فإنا قد رجونا أن يكون في ذلك مشغلة لهم عن الأراجيف، ومانع عن التسويف؛ فقد أشاعوا في هذه الأيام أنّ امير المؤمنين أكرمه الله صائر إلى قَرْماسين، وموجّه الأفشين إلى الرّيّ. ولعمري لئن فعل أيده الله ذلك؛ إنه لمما يسرّنا الله به، ويؤنسنا بجواره، ويبسط الأمل فيها قد عُوّدنا من فوائده وإفضاله، ويكبت أعداءه وأعداءنا؛ ولن يهمل أكرمه الله أمورَه، ويرفض ثغوره، والتصرف في نواحي ملكه؛ لأراجيف مُرجف بعماله، وقول قائل في خاصّته؛ فإنه لا يسرّب أكرمه الله جنده إذا سرّب، ولا يندب قواده إذا ندب؛ إلا إلى المخالف. فاقرأ كتابنا هذا على منْ بحضْرتك من أهل الخراج؛ ليبلِّغ شاهدُهم غائبَهم؛ وعنف عليهم في استخراجه، ومَنْ همّ بكسره. فليُبْدِ بذلك صفحته؛ لينزل الله به ما أنزل بأمثاله؛ فإنّ لهم أسوةً في الوظائف وغيرها بأهل جرجان والرّيّ وما والاهما؛ فإنما خفف الخلفاء عنهم خراجهم، ورُفعت الرفائع عنهم للحاجة التي كانت إليهم في محاربة أهل الجبال ومغازي الديلم الضُّلّال؛ وقد كفى الله أمير المؤمنين أعزّه الله ذلك كله، وجعل أهل الجبال والديلم جنداً وأعواناً، والله المحمود.

قال: فلما ورد كتاب المازيار على شاذان بن الفضل عامله على الخراج، أخذ الناس بالخراج، فجبى جميع الخراج في شهريْن، وكان يُجبَى في اثني عشر شهراً، في كلّ أربعة أشهر الثلث؛ وإنّ رجلاً يقال له عليّ بن يَزْداد العطار؛ وهو ممن أخذ منه رهينة، هرب وخرج من عمل المازيار، فأخبر أبو صالح سرخاستان بذلك؛ وكان خليفة المازيار على ساريَة؛ فجمع وجوه أهل مدينة سارية، وأقبل يوبّخهم، ويقول: كيف يطمئنّ الملك إليكم!

أم كيف يثق بكم! وهذا عليّ بن يزداد ممن قد حلف وبايع، وأعطى الرهينة ثم نكث وخرج، وترك رهينته؛ فأنتم لا تفون بيمين، ولا تكرهون الخُلْف والحِنْث، فكيف يثق بكم الملك، أم كيف يرجع لكم إلى ما تحبون! فقال بعضهم: نقتُل الرهينة حتى لا يعود غيره إلى الهرب، فقال لهم: أتفعلون ذلك؟ قالوا: نعم؛ فكتب إلى صاحب الرهائن، فأمره أن يوجّه بالحسن بن عليّ بن يزداد وهو رهينة أبيه؛ فلمّا صاروا به إلى سارية ندم الناس على ما قالوا لأبي صالح، وجعلوا يرجعون على الذي أشار بقتله بالتعنيف. ثم جمعهم سرخاستان، وقد أحضر الرَّهينة، فقال لهم: إنكم قد ضمنتم شيئاً؛ وهذا الرهينة فاقتلوه، فقال له عبد الكريم بن عبد الرحمن الكاتب: أصلحك الله! إنك أجّلت من خرج من هذا البلد شهرين، وهذا الرهينة قِبَلك؛ نسألك أن تؤجّله شهرين، فإن رجع أبوه وإلا أمضيت فيه رأيك.

قال: فغضِب على القوم، ودعَا بصاحب حَرسه ـ وكان يقال له رستم ابن بارويه ـ فأمره بصلب الغلام. وإن الغلام سأله أن يأذن له أن يصلِّيَ ركعتين، فأذن له، فطوّل في صلاته وهو يُرعَد، وقد مُدّ له جذع، فجذبوا الغلام من صلاته، ومدُّوه فوق الجذْع، وشَدّوا حلقه معه حتى اختنق، وتوفِّيَ فوقه، وأمر سرخاستان أهل مدينة سارية أن يخرجوا إلى آمُل، وتقدّم إلى أصحاب المسالح في إحضار أهل الخنادق من الأبناء والعرب، فأحضِروا ومضى مع أهل سارية إلى آمُل، وقال لهم: إنِّي أريد أن أشهِدكم على أهل آمُل، وأشهِد أهل آمُل عليكم، وأردّ ضياعكم وأموالكم؛ فإن لزمتم الطاعة والمناصحة زدناكم من عندنا ضعف ما كنا أخذنا منكم. فلما وافوْا آمُل جمعهم بقصر الخليل بن ونداسنجان، وصيّر أهل سارية ناحيةً عن غيرهم ووكّل بهم اللوزجان، وكتب أسماء جميع أهل آمُل حتى لم يخف منهم أحدٌ عليه، ثم عرضهم بعد ذلك على الأسماء حتى اجتمعوا؛ ولم يتخلّفْ منهم أحد، وأحدث الرجال في السلاح بهم، وصُفُّوا جميعاً، ووكّل بكلّ واحد منهم رجلين بالسلاح، وأمر الموكّل بهم أن يحمل رأس كلّ من كاع عن المشي، وساقهم مكتّفين حتى وافى بهم جبلاً يقال له هُرْمُزْ داباذ، على ثمانية فراسخ من آمُل وثمانية فراسخ من مدينة سارية، وكبَّلهم بالحديد، وحبسهم.

وبلغت عِدّتهم عشرين ألفاً، وذلك في سنة خمس وعشرين ومائتين فيما ذُكر عن محمد بن حفص.

فأما غيره من أهل الأخبار وجماعة ممّن أدرك ذلك فإنهم قالوا: كان ذلك في سنة أربع وعشرين ومائتين؛ وهذا القول عندي أولى بالصواب، وذلك أن مقتل مازيار كان في سنة خمس وعشرين ومائتين وكان فعله ما فعل بأهل طبرستان قبل ذلك بسنة.

رجع الحديث إلى الخبر عن قصة مازيار وفعله بأهل آمُل على ما ذكر عن محمد بن حفص. قال: وكتب إلى الدُّرّي ليفعل ذلك بوجوه العرب والأبناء ممن كان معه بمرْو، وكبّلهم بالحديد، وحبسهم، ووكّل بهم الرجال في حبْسهم؛ فلمّا تمكن المازيار، واستوى له أمره وأمْر القوم، جمع أصحابه، وأمر سرخاستان بتخريب سُور مدينة آمُل؛ فخرَّبه بالطبول والمزامير، ثم سار إلى مدينة سارية؛ ففعل بها مثل ذلك.

ثم وجّه مازيار أخاه قوهِيَار إلى مدينة طَمِيس ـ وهي على حدّ جرجان من عمل طبرستان ـ فخرّب سورها ومدينتها، وأباح أهلها، فهرب منهم مَنْ هرب، وبُلي مَنْ بُلِيَ. ثم توجّه بعد ذلك إلى طميس سرخاستان، وانصرف عنها قُوهِيار، فلحق بأخيه المازيار، فعمل سرخاستان سوراً من طَمِيس إلى البحر، ومدّه في البحر مقدار ثلاثة أميال. وكانت الأكاسرة بنَتْه بينها وبين الترك؛ لأن الترك كانت تُغير على أهل طبرستان في أيامها،

ونزل معسكراً بطِمِيس سرخاستان وصيّر حولها خندق وثيقاً وأبراجاً للحرس، وصيّر عليها باباً وثيقاً؛ ووكّل به الرجال الثقات؛ ففزع أهل جرجان، وخافوا على أموالهم ومدينتهم؛ فهرب منها نفر إلى نيسابور، وانتهى الخبر إلى عبدالله بن طاهر وإلى المعتصم؛ فوجّه إليه عبدالله بن طاهر عمَّه الحسن بن الحسين بن مُصعب، وضمّ إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جُرجان، وأمره أن يعسكر على الخندق؛ فنزل الحسن بن الحسين معسكراً على الخندق الذي عمله سرخاستان، وصار بين العسكريْن عرض الخندق، ووجّه أيضاً عبدالله بن طاهر حيّان بن جبلة في أربعة آلاف إلى قُومِس معسكراً على حدّ جبال شروين، ووجّه المعتصم من قِبَله محمد بن إبراهيم بن مصعب أخا إسحاق بن إبراهيم في جمع كثيف، وضمّ إليه الحسن بن قارن الطبريّ القائد ومَنْ كان بالباب من الطبريّة، ووجّه منصور بن الحسن هار صاحب دُنْباوند إلى مدينة الرّيّ ليدخل طبرستان من ناحية الرّيّ، ووجّه أبا الساج إلى اللارز ودنباوند؛ فلما أحدقت الخيل بالمازيار من كلّ جانب بعث عند ذلك إبراهيم بن مهران صاحب شُرطته وعليّ بن ربّن الكاتب النصرانيّ، ومعهما خليفة صاحب الحرس إلى أهل المدن المحتبسين عنده؛ أنّ الخيل قد زَحفت إليّ من كل جانب؛ وإنما حبستكم ليبعث إليّ هذا الرجل فيكم - يعني المعتصم - فلم يفعل؛ وقد بلغني أن الحجّاج بن يوسف غضب على صاحب السند في امرأة أسرت من المسلمين، وأدخِلت إلى بلاد السنْد حتى غزا السند، وأنفق بيوت الأموال حتى استنقذ المرأة وردّها إلى مدينتها؛ وهذا الرجل لا يكترث بعشرين ألفاً، ولا يبعث إليّ يسأل فيكم؛ وإني لا أقدم على حربه؛ وأنتم ورائي، فأدّوا إليّ خراج سنتين، وأخلي سبيلكم؛ ومن كان منكم شابًّا قويًّا قدمته للقتال؛ فمن وفّى لي منكم رددت عليه مالَه، ومَنْ لم يفِ أكون قد أخذت ديته، ومن كان شيخاً أو ضعيفاً صيّرتُه من الحفظة والبوّابَين.

فقال رجل يقال له موسى بن هرمز الزاهد - كان يقال إنه لم يشرب الماء منذ عشرين سنة - أنا أؤدي إليك خراج سنتين، وأقوم به، فقال خليفة صاحب الحرس لأحمد بن الصُّقَيْر: لِمَ لا تتكلم، وقد كنتَ أحظى القوم عند الأصبهبذ؛ وقد كنت أراك تتغذّى معه، وتتكيء على وسادته! وهذا شيء لم يفعله الملك بأحد غيرك؛ فأنت أولى بالقيام بهذا الأمر من موسى، قال أحمد: إنّ موسى لا يقدر على القيام بجباية درهم واحد؛ وإنما أجابكم بجهل وبما هو عليه وعلى الناس أجمع؛ ولو علم صاحبكم أنّ عندنا درهماً واحداً لم يحبسنا؛ وإنما حبسنا بعدما استنظف كلّ ما عندنا من الأموال والذخائر؛ فإن أراد الضياع بهذا المال أعطيناه. فقال له عليّ بن ربَّن الكاتب: الضياع للملك لا لكم، فقال له إبراهيم بن مهران: أسألك بالله يا أبا محمد، لَمّا سكتّ عن هذا الكلام! فقال له أحمد: لم أزل ساكتاً حتى كلّمني هذا بما قد سمعت.

ثم انصرفت الرسل على ضمان موسى الزاهد، وأعلموا المازيار ضمانه، وانضمّ إلى موسى الزاهد قومٌ من السعاة، فقالوا: فلان يحتمل عشرة آلاف، وفلان يحتمل عشرين ألفاً وأقلّ وأكثر، وجعلوا يستأكلون الناسَ أهل الخراج وغيرهم؛ فلما مضى لذلك أيام، ردّ مازيار الرُّسل مقتضياً المال، ومتنجّزاً ما كان من ضمان موسى الزاهد؛ فلم يَرَ لذلك أثراً ولا تحقيقاً، وتحقق قول أحمد، وألزمه الذّنْب. وعلم المازيار أن ليس عند القوم ما يؤدّون؛ وإنما أراد أن يلقي الشرّ بين أصحاب الخراج؛ ومن لا خراج عليه من التجار والصناع.

قال: ثمّ إن سرخاستان كان معه ممّن اختار من أبناء القوّاد وغيرهم من أهل آمُل فِتيانٌ لهم جلَد وشجاعة، فجمع منهم في داره مائتين وستين فتىً ممّن يخاف ناحيته، وأظهر أنه يريد جمعهم للمناظرة، وبعث إلى

الأكرة المختارين من الدَّهَاقين، فقال لهم: إنّ الأبناء هواهم مع العرب والمسوِّدة؛ ولست آمَنُ غدرَهم ومكرهم؛ وقد جمعت أهل الظِّنَّة ممن أخاف ناحيتَه، فاقتلوهم لتأمنوا، ولا يكون في عسكركم ممن يخالف هواه هواكم. ثم أمر بكتفهم ودفْعهم إلى الأكرة ليلاً، فدفعوهم إليهم، وصاروا بهم إلى قَناة هناك، فقتلوهم ورَموا بهم في آبار تلك القناة وانصرفوا. فلما ثاب إلى الأكَرة عقولُهم ندِموا على فعلهم، وفزِعوا من ذلك؛ فلما علم المازيار أنّ القوم ليس عندهم ما يؤدّونه إليه، بعث إلى الأكرة المختارين الذين قتلوا المائتين والستين فتًى، فقال لهم: إني قد أبحتُكم منازل أرباب الضياع وحُرمهم - إلا ما كان من جارية جميلة من بناتهم؛ فإنها تصير للملك - وقال لهم: صيروا إلى الحبس فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلك، ثم حُوزوا بعد ذلك، ما وهبتُ لكم من المنازل والحُرَم، فجبُن القوم عن ذلك وخافوا وحذروا فلم يفعلوا ما أمرهم به. قال: وكان الموكّلون بالسّور من أصحاب سرخاستان يتحدثون ليلاً مع حَرَس الحسن بن الحسين بن مصعب، وبينهم عُرْض الخندق؛ حتى استأنس بعضُهم ببعض، وتآمروا وحرس سرخاستان بتسليم السور إليهم، فسلّموه، ودخل أصحابُ الحسن بن الحسين من ذلك الموضع إلى عسكر سرخاستان في غَفلة من الحسن بن الحسين ومن سرخاستان؛ فنظر أصحابُ الحسن إلى قوم يدخلون من الحائط، فدخلوا معهم؛ فنظر الناس بعضهم إلى بعض، فثاروا. وبلغ الحسن بن الحسين بن مصعب، فجعل يصيح بالقوم ويمنعهم، ويقول: يا قوم؛ إني أخاف عليكم أن تكونوا مثلَ قوم داونْدَان، ومضى أصحاب قيس بن زنجويه - وهو من أصحاب الحسن بن الحسين - حتى نصبوا العلَم على السور في معسكر سرخاستان، وانتهى الخبر إلى سرخاستان أنّ العرب قد كسروا السور، ودخلوا بغتةً، فلم تكن له همة إلا الهرب؛ وكان سرخاستان في الحمَّام، فسمع الصّياح، فخرج هارباً في غلالة. وقال الحسن بن الحسين حين لم يقدر على رد أصحابه: اللهمّ إنهم قد عصوْني وأطاعوك؛ اللهمّ فاحفظهم وانصرهم، ولم يزل أصحاب الحسن يتبعون القوم حتى صاروا إلى الدّرْب الذي على السور فكسروه، ودخل الناس من غير مانع حتى استولوا على جميع ما في العسكر، ومضى قوم في الطلب.

وذُكر عن زرارة بن يوسف السجزيّ أنه قال: مررتُ في الطلب؛ فبينا أنا كذلك؛ إذ صرت إلى موضع عن يَسْرة الطريق، فوجلت من الممرّ فيه، ثم تقحَّمتُه بالرمح من غير أن أرى أحداً، وصحتُ: من أنت؟ ويلك! فإذا شيخ جَسِيم قد صاح «زينهار» - يعني الأمان - قال: فحملت عليه، فأخذته، وشددت كتافه، فإذا هو شهريار أخو أبي صالح سرخاستان، صاحب العسكر. قال: فدفعته إلى قائدي يعقوب بن منصور، وحال الليلُ بيننا وبين الطلب؛ فرجع الناس إلى المعسكر، وأتِيَ بشهريار إلى الحسن بن الحسين فضرب عنقه. وأما أبو صالح فمضى حتى صار على خمسة فراسخ من معسكره؛ وكان عليلاً؛ فجهده العطش والفزع، فنزل في غَيْضة يمنةَ الطريق إلى سفح جبل، وشدّ دابته واستلقى، فبصُر به غلام له ورجل من أصحابه يقال له جعفر بن وَنْداميد؛ فنظر إليه نائماً، فقال سرخاستان: يا جعفر؛ شربة ماء، فقد جهدني العطش؛ قال: فقلت: ليس معي إناء أغرف به من هذا الموضع؛ فقال سرخاستان: خذ رأس جُعبتي فاسقني به؛ قال جعفر: وملتُ إلى عِداد من أصحابي، فقلت لهم: هذا الشيطان قد أهلكنا فلمَ لا نتقرّب به إلى السلطان؛ ونأخذ لأنفسنا الأمان! فقالوا لجعفر: كيف لنا به؟ قال: فوقفهم عليه، وقال لهم: أعينوني ساعة، وأنا أثاوره، فأخذ جعفر خشبة عظيمة وسرخاستان مستلقٍ، فألقى نفسه عليه، وملّكوه وشدُّوه كتافاً مع الخشبة، فقال لهم أبو صالح: خذوا مني مائة ألف درهم واتركوني؛ فإنّ العرب لا تعطيكم

شيئاً، قالوا له: أحضرها، قال: هاتوا ميزاناً، قالوا: ومن أين ها هنا ميزان؟ قال: فمن أين ها هنا ما أعطيكم! ولكن صِيرُوا معي إلى المنزل، وأنا أعطيكم العهود والمواثيق أنّي أفي لكم بذلك، وأوفر عليكم، فصاروا به إلى الحسن بن الحسين، فاستقبلتهم خيل للحسن بن الحسين، فضربوا رؤوسهم، وأخذوا سرخاستان منهم، فهمَّتهم أنفُسهم، ومضى أصحاب الحسن بأبي صالح إلى الحسن؛ فلما وقفوه بين يديه، دعا الحسن قوّاد طبرستان؛ مثل محمد بن المغيرة بن شعبة الأزديّ وعبدالله بن محمد القُطقُطيّ الضبيّ والفتح بن قراط وغيرهم؛ فسألهم: هذا سرخاستان؟ قالوا: نعم، فقال لمحمد بن المغيرة؛ قم فاقتله بابنك وأخيك، فقام إليه فضربه بالسيف، وأخذته السيوف فقتِل.

ذكر خبر أبي شاس الشاعر

وكان أبو شاس الشاعر، وهو الغِطْرِيف بن حُصين بن حَنْش فتىً من أهل العراق، رُبِّيَ بخراسان، أديباً فَهِماً، وكان سرخاستان ألزمه نفسه يتعلم منه أخلاق العرب ومذاهبَها، فلما نزل بسرخاستان ما نزل به، وأبو شاس في معسكره، ومعه دوابّ وأثقال، هجم عليه البُخاريّة؛ من أصحاب الحسن؛ فانتهبوا جميع ما كان معه، وأصابته جراحات، فبادر أبو شاس فأخذ جرَّة كانت معه، فوضعها على عاتقه، وأخذ بيده قدحاً، وصاح: الماء للسبيل؛ حتى أصاب غفلة من القوم، فهرب من مضربه، وقد أصابتْه جراحة، فبصر به غلام - وقد كان مرَّ بمضرب عبدالله بن محمد بن حميد القُطْقُطِيّ الطبريّ؛ وكان كاتب الحسن بن الحسين - فعرفوه، عَرَفَهُ خدمه، وعلى عاتقه الجرَّة وهو يسقي الماء، فأدخلوه خيمتهم، وأخبروا صاحبهم بمكانه، فأدخِل عليه، فحمله وكساه، وأكرمه غاية الإكرام، ووصفه للحسن بن الحسين، وقال له: قل في الأمير قصيدة، فقال أبو شاس: والله لقد امّحى ما في صدري من كتاب الله من الهول، فكيف أحسن الشعر! ووجّه الحسن برأس أبي صالح سرخاستان إلى عبدالله بن طاهر، ولم يزُل من معسكره.

وذكر عن محمد بن حفص أن حيّان بن جَبَلة مولى عبد الله بن طاهر، كان أقبل مع الحسن ابن الحسين إلى ناحية طمِيس؛ فكاتب قارن بن شهريار، ورغّبه في الطاعة، وضمِن له أن يملّكه على جبال أبيه وجدّه، وكان قارن من قوّاد مازيار وهو ابن أخيه. وكان مازيار صيَّره مع أخيه عبدالله بن قارن، وضمّ إليهما عدّة من ثقات قوّاده وقراباته؛ فلما استماله حيّان؛ وكان قارن قد ضمِن له أن يسلم له الجبال، ومدينة سارية إلى حدّ جُرجان، على أن يملّكه على جبال أبيه وجدّه إذا وفى له بالضّمان، وكتب بذلك حيان إلى عبدالله بن طاهر، سجَّل له عبدالله بن طاهر بكلّ ما سأل، وكتب إلى حيان بأن يتوقَّف ولا يدخل الجبل ولا يُوغِل حتى يكون من قارن ما يُستدلّ به على الوفاء؛ لئلا يكون منه مكر؛ فكتب حيّان إلى قارن بذلك، فدعا قارن بعبدالله بن قارن وهو أخو مازيار، ودعا جميع قوّاده إلى طعامه؛ فلمّا أكلوا ووضعوا سلاحهم واطمأنّوا أحدق بهم أصحابه في السلاح الشاكّ، وكتفهم ووجَّه بهم إلى حيّان بن جَبَلة، فلما صاروا إليه استوثق منهم، وركب حيَّان في جمعه حتى دخل جبال قارن.

وبلغ مازيار الخبر فاغتمّ لذلك، وقال له القوهِيار أخوه: في حبسك عشرون ألفاً من المسلمين: من بين إسكاف وخياط؛ وقد شغلتَ نفسك بهم؛ وإنما أتيت من مأمنك وأهل بيتك وقرابتك؛ فما تصنع بهؤلاء المحبَّسين عندك؟ قال: فأمر مازيار بتخلية جميع مَنْ في حبسه، ثم دعا إبراهيم بن مهران صاحب شرطته،

وعليَّ بن ربَّن النصرانيَّ كاتبه، وشاذان بن الفضل صاحب خراجه، ويحيى بن الروذ بهارجهبذه؛ وكان من أهل السَّهْل عنده، فقال لهم: إن حرمكم ومنازلكم وضياعكم بالسَّهل، وقد دخلت العرب إليكم، وأكره أن أشُومَكم؛ فاذهبوا إلى منازلكم، وخذوا لأنفسكم الأمان. ثم وصلهم، وأذن لهم في الانصراف، فصاروا إلى منازلهم وأخذوا الأمان لأنفسهم.

ولما بلغ أهل مدينة سارية أخذ سرخاستان واستباحة عسكره ودخول حيان بن جبلة جبل شروين، وثبوا على عامل مازيار بسارية - وكان يقال له مَهْريستاني بن شهريز - فهرب منهم، ونَجا بنفسه، وفتح الناس باب السجن، وأخرجوا مَنْ فيه، ووافَى حيَّان بعد ذلك مدينة سارية. وبلغ قوهِيار أخا مازيار موافاة حيان سارية، فأطلق محمد بن موسى بن حفص الذي كان عامل طبرستان من حبسه، وحمله على بغل بسرج، ووجّه به إلى حيَّان ليأخذ له الأمان، ويجعل له جبال أبيه وجدّه على أن يسلِّم إليه مازيار، ويوثق له بذلك بضمان محمد بن موسى بن حفص وأحمد بن الصُّقَير؛ فلما صار محمد بن موسى إلى حيّان، وأخبره برسالة قوهِيار إليه، قال له حيَّان: من هذا؟ يعني أحمد، قال: شيخ البلاد، وبقية الخلفاء والأمير عبدالله بن طاهر به عارف، فبعث حيّان إلى أحمد، فأتاه فأمره بالخروج إلى مسلحة خُرَّماباذ مع محمد بن موسى. وكان لأحمد ابن يقال له إسحاق، وكان قد هرب من مازيار؛ يأوي نهاره الغياض، ويصيرُ بالليل إلى ضيعة يقال لها ساواشريان؛ وهي على طريق الجادّة من قدح الأصبهبذ الذي فيه قصر مازيار.

فذكر عن إسحاق، أنه قال: كنتُ في هذه الضّيْعة، فمرّ بي عدّة من أصحاب مازيار؛ معهم دوابّ تقاد وغير ذلك؛ قال: فوثبت على فرس منها هجين ضَخْم، فركبته عُرياً؛ وصرت إلى مدينة سارية، فدفعته إلى أبي، فلمّا أراد أحمد الخروج إلى خُرَّماباذ ركب ذلك الفرس، فنظر إليه حيَّان، فأعجبه، فالتفت حيّان إلى اللُّوزجان - وكان من أصحاب قارن - فقال له: رأيت هذا الشيخ على فرس نبيل قلّ ما رأيت مثله، فقال له اللُّوزجان: هذا الفرس كان لمازيار، فبعث حيّان إلى أحمد يسأله البعثة بالفرس إليه؛ لينظر إليه؛ فبعث به إليه، فلما تأمّل النظر وفتّشه وجده مشطّب اليدين، فزهِد فيه، ودفعه إلى اللُّوزَجان، وقال لرسول أحمد: هذا لمازيار، ومال مازيار لأمير المؤمنين؛ فرجع الرسول فأخبر أحمد، فغضب على اللوزجان من ذلك؛ فبعث إليه أحمد بالشّتيمة، فقال اللُّوْزجان: ما لي في هذا ذنب! وردّ الفرس إلى أحمد، ومعه برذون وشِهريّ فاره، فأمر رسولَه فدفعهما إليه. وغضب أحمد من فعل حيان به، وقال: هذا الحائك يبعث إلى شيخ مثلي فيفعل به ما فعل! ثم كتب إلى قوهِيار: ويحك! لِمَ تغلظ في أمرك وتترك مثل الحسن بن الحسين عمّ الأمير عبدالله بن طاهر، وتدخل في أمان هذا العبد الحائك، وتدفع أخاك، وتضع قدرك، وتحقد عليك الحسن بن الحسين بتركك إياه وميلك إلى عبد من عبيده! فكتب إليه قوهِيار: قد غلطتُ في أوّل الأمر؛ وواعدت الرجل أن أصير إليه بعد غد؛ ولا آمن إن خالفته أن يناهضَني ويحاربني؛ ويستبيح منازلي وأموالي؛ وإن قاتلتُه فقتلتُ من أصحابه، وجرت الدماءُ بيننا وقعت الشحناء؛ ويبطل هذا الأمر الذي التمسته. فكتب إليه أحمد: إذا كان يوم الميعاد فابعث إليه رجلاً من أهل بيتك، واكتب إليه أنه قد عرضتْ لك علّة منعتْك من الحركة، وأنك تتعالج ثلاثة أيام، فإن عُوفيتَ وإلاّ صرتَ إليه في محمل، وسنحمله نحن على قبول ذلك منك، والمصير في الوقت.

وإنّ أحمد بن الصُّقَير ومحمد بن موسى بن حفص كتبا إلى الحسن بن الحسين وهو في معسكره بطمِيس

ينتظر أمر عبدالله بن طاهر وجواب كتابه بقتل سرخاستان وفتح طمِيس، فكتبا إليه أن اركب إلينا لندفع إليك مازيار والجبل؛ وإلا فاتك، فلا تَقم. ووجّها الكتاب مع شاذان بن الفضل الكاتب، وأمراه أن يعجل السير.

فلمّا وصل الكتاب إلى الحسن ركب من ساعته، وسار مسيرة ثلاثة أيام في ليلة؛ حتى انتهى إلى سارية، فلمّا أصبح سار إلى خُرّماباذ ـ وهو يوم موعد قُوهيار ـ وسمع حيان وقْعَ طبول الحسن، فركب فتلقّاه على رأس فرسخ، فقال له الحسن: ما تصنع ها هنا! ولِمَ توجّه إلى هذا الموضع، وقد فتحت جبال شروين وتركتها، وصرت إلى هاهنا! فما يؤمنك أن يبدو للقوم، فيغدروا بك، فينتقض عليك جميع ما عملت. ارجع إلى الجبل، فصيّر مسالحك في النواحي والأطراف، وأشرفْ على القوم إشرافاً لا يمكنهم الغدر؛ إن همّوا به. فقال له حيّان: أنا على الرجوع، وأريد أن أحمل أثقالي، وأتقدّم إلى رجالي بالرحْلة، فقال له الحسن: امض أنت؛ فأنا باعث بأثقالك ورجالك خَلْفك، وبتِ الليلةَ بمدينة سارية حتى يوافُوك، ثم تبكّر من غدٍ؛ فخرج حيّان من فوره كما أمره الحسن إلى سارية، ثم ورد عليه كتاب عبدالله بن طاهر أن يعسكر بلَبورة ـ وهي من جبال ونْدا هُرْمز، وهي أحصن موضع من جباله، وكان أكثر مال مازيار بها ـ وأمره عبدالله ألّا يمنع قارن مِمّا يريد من تلك الجبال والأموال. فاحتمل قارن ما كان لمازيار هنالك من المال؛ والذي كان بأسباندَرَة من ذخائر مازيار، وما كان لسرخاستان بقدح السلتان، واحتوى على ذلك كلّه.

فانتقض على حيّان جميع ما كان سنح له بسبب ذلك الفرس، وتوفِّيَ بعد ذلك حيّان بن جبلة. فوجّه عبدالله مكانه على أصحابه محمد الحسين بن مصعب، وتقدّم إليه عبدالله ألّا يضرب على يدي قارن في شيء يريده، وصار الحسن بن الحسين إلى خُرّماباذ، فأتاه محمد بن موسى بن حفص وأحمد بن الصُّقَير، فتناظروا سرًّا، فجزاهما خيراً؛ وكتب هو إلى قوهِيار، فوافى خُرّماباذ، وصار إلى الحسن، فبرّه وأكرمه وأجابه إلى كلّ ما سأل، واتّعدا على يوم؛ ثم صرفه وصار قُوهِيار إلى مازيار، فأعلمه أنه قد أخذ له الأمان، واستوثق له. وكان الحسين بن قارن قد كاتب قوهيار من ناحية محمد بن إبراهيم بن مصعب، وضمن له الرغائب عن أمير المؤمنين، فأجابه قوهِيار، وضمِن له ما ضمن لغيره؛ كلُّ ذلك ليردّهم عن الحرب ومال إليه. فركب محمد بن إبراهيم من مدينة آمُل، وبلغ الحسن بن الحسين الخبر.

فذكر عن إبراهيم بن مِهْران أنه كان يتحدّث عند أبي السعديّ، فلمّا قرب الزوال انصرف يريد منزله وكان طريقه على باب مضرب الحسن. قال: فلما حاذيتُ مضربه؛ إذا بالحسن راكب وحدَه، لم يتبعه إلا ثلاثة غلمان له أتراك، قال: فرميت بنفسي، وسلّمت عليه، فقال: اركب؛ فلمّا ركبت قال: أين طريق آرُم؟ قلت: هي على هذا الوادي، فقال لي: امض أمامي، قال: فمضيتُ حتى بلغت درباً على ميلين من آرُم، قال: ففزِعت، وقلت: أصلح الله الأمير! هذا موضع مَهُول، ولا يسلكه إلّا ألف فارس؛ فأرى لك أن تنصرف ولا تدخله. قال: فصاح بي: امض، فمضيت وأنا طائش العقل؛ ولم نَرَ في طريقنا أحداً حتى وافينا آرم؛ فقال لي: أين طريق هُرْمزداباذ؟ قلت: على هذاالجبل في هذا الشِّراك، قال: فقال لي: سرْ إليها، فقلت: أعز الله الأمير! الله الله في نفسك وفينا وفي هذا الخلق الذي معك! قال: فصاح بي: امض يابنَ اللخناء، قال: فقلت له: أعزّك الله! اضرب أنت عنقي؛ فإنه أحبُّ إليّ من أن يقتلني مازيار، ويلزمني الأمير عبدالله بن طاهر الذنب.

قال: فانتهرني حتى ظننت أنه سيبطش بي، ومضيت وأنا خليع الفؤاد، وقلت في نفسي: الساعة نؤخذ

جميعاً، أو نوقَف بين يدي مازيار فيوبخني ويقول: جئت دليلاً عليّ! فبينا نحن كذلك إذْ وافينا هرمزداباذ مع اصفرار الشمس، فقال لي: أين كان سجن المسلمين هاهنا؟ فقلت له: في هذا الموضع.

قال: فنزل فجلس ونحن صيام، والخيل تلحقنا متقطعة؛ وذلك أنه ركب من غير علم الناس، فعلموا بعد ما مضى؛ فدعا الحسن بيعقوب بن منصور، فقال له: يا أبا طلحة، أحبّ أن تصير إلى الطالقانيّة، فتلطّف بحيَلك لجيش أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن مصعب هنالك ساعتين أو ثلاث ساعات أو أكثر؛ ما أمكنك. وكان بينه وبين الطالقانيّة فَرْسخان أو ثلاثة فراسخ؛ قال إبراهيم: فبينا نحن وقوف بين يدي الحسن؛ إذ دعا بَقيس بن زَنجويه، فقال له: امض إلى درب لبورة؛ وهو على أقلّ من فرسخ؛ فابرز بأصحابك على الدّرب.

قال: فلما صلّينا المغرب وأقبل الليل؛ إذا أنا بفرسان بين أيديهم الشَّمع مشتعلاً مقبلين من طريق لَبُورة، فقال لي: يا إبراهيم؛ أين طريق لبورة؟ فقلت: أرى نيراناً وفرساناً قد أقبلوا من ذلك الطريق، قال: وأنا داهش لا أقف على ما نحن فيه، حتى قربت النيران منا؛ فأنظر فإذا المازيار مع القوهيار؛ فلم أشعر حتى نزلا، وتقدم المازيار، فسلم على الحسن بالإِمْرة، فلم يردّ عليه، وقال لطاهر بن إبراهيم وأوس البلخي: خذاه إليكما.

وذكر عن أخي وميدوار بن خواست جيلان، أنه في تلك الليلة صار مع نفر إلى قوهيار، وقال له: اتق الله، قد خلفت سَرواتنا؛ فأذن لي أكتُف هؤلاء العرب كلَّهم؛ فإن الجند حيارى جياع، وليس لهم طريق يهربون، فتذهب بشرفها ما بقي الدهر، ولا تثق بما يعطيك العرب؛ فليس لهم وفاء! فقال قوهيار: لا تفعلوا؛ وإذا قوهيار قد عبَّى علينا العرب، ودفع مازيار وأهل بيته إلى الحسن لينفرد بالملك؛ ولا يكون أحد ينازعه ويضادّه.

فلما كان في السحر، وجّه الحسن بالمازيار مع طاهر بن إبراهيم وأَوْس البلخيّ إلى خرّماباذ، وأمرهما أن يمرَّا به إلى مدينة سارية؛ وركب الحسن، وأخذ على وادي بابك إلى الكانية مستقبلاً محمد بن إبراهيم بن مُصعب، فالتقيا ومحمد يريد المصير إلى هرمزداباذ لأخذ المازيار، فقال له الحسن: يا أبا عبدالله، أين تريد؟ قال: أريدُ المازيار، فقال: هو بسارية؛ وقد صار إليّ، ووجَّهت به إلى هنالك؛ فبقيَ محمد بن إبراهيم متحيراً. وكان القوهيار قد همّ بالغدر بالحسن، ودفع المازيار إلى محمد بن إبراهيم، فسبق الحسن إلى ذلك، وتخوّف القوهِيار منه أن يحاربه به حين رآه متوسِّطاً الجبل، إنّ أحمد بن الصُّقير كتب إلى القوهيار: لا أرى لك التخليط والمناصبة لعبدالله بن طاهر؛ وقد كُتب إليه بخبرك وضمانك فلا تكن ذا قلبين؛ فعند ذلك حذّره ودفعه إلى الحسن، وصار محمد بن إبراهيم والحسن بن الحسين إلى هرمزداباذ؛ فأحرقا قصر المازيار بها، وأنهبا ماله، ثم صارا إلى معسكر الحسن بخرّماباذ، ووجّها إلى إخوة المازيار، فحبسوا هناك في داره، ووكّلَ بهم. ثم رحل الحسن إلى مدينة سارية؛ فأقام بها، وحبس المازيار بقرب خيمة الحسن، وبعث الحسن إلى محمد بن موسى بن حفص يسأله عن القَيْد الذي كان قيّده به المازيار؛ فبعث به محمد إليه: فقيّد المازيار بذلك القَيْد، ووافى محمد بن إبراهيم الحسن بمدينة سارية ليناظره في مال المازيار وأهل بيته، فكتبا بذلك إلى عبدالله بن طاهر، وانتظرا أمره؛ فورد كتاب عبدالله إلى الحسن بتسليم المازيار وإخوته وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم؛ ليحملَهم إلى أمير المؤمنين المعتصم؛ ولم يعرض عبدالله لأموالهم، وأمره أن يستصفي جميع ما للمازيار ويحرزه؛ فبعث

الحسن إلى المازيار فأحضره، وسأله عن أمواله فذكر أنّ ماله عند قوم سمّاهم، من وجوه أهل سارية وصلحائهم عشرة نفر، وأحضر القوهيار، وكتب عليه كتاباً، وضمنه توفير هذه الأموال التي ذكرها المازيار؛ أنها عند خزانة وأصحاب كنوزه؛ فضمن القوهِيار ذلك وأشهد على نفسه.

ثم إنّ الحسن أمر الشهود الذين أحضرهم أن يصيروا إلى المازيار؛ فيشهدوا عليه؛ فذُكر عن بعضهم، أنه قال: لما دخلنا على المازيار، تخوّفت من أحمد بن الصُّقير أن يفزعه بالكلام، فقلت له: أحبّ أن تمسك عنه، ولا تذكر ما كنت أشرتَ به؛ فسكت أحمد عند ذلك، فقال المازيار: اشهدوا أنّ جميع ما حملتُ من أموالي وصحبني ستة وتسعون ألف دينار، وسبع عشرة قطعة زمرد، وستّ عشرة قطعة ياقوت أحمر، وثمانية أوقار سلال مجلدة، فيها ألوان الثياب، وتاج وسيف من ذهب وجوهر، وخنجر من ذهب مكلّل بالجوهر، وحُقّ كبير مملوء جوهراً؛ وقد وضعه بين أيدينا، وقد سلمت ذلك إلى محمد بن الصباح، وهو خازن عبدالله بن طاهر وصاحب خبره على العسكر وإلى القوهيار. قال: فخرجنا إلى الحسن بن الحسين، فقال: أشهدتم على الرّجل؟ قال: قلنا: نعم، قال: هذا شيء كنت اخترته لي، فأحببت أن يعلم قِلّته وهَوَانه عندي.

وذكر عن عليّ بن ربَّن النصرانيّ الكاتب أن ذلك الحُقّ كان شرى جوهره على المازيار وجدّه وشَهْريار ثمانية عشر ألف ألف درهم، وكان المازيار حمل ذلك كله إلى الحسن بن الحسين؛ على أن يظهر أنه خرج إليه في الأمان، وأنه قد آمنه على نفسه وماله وولده؛ وجعل له جبال أبيه؛ فامتنع الحسن بن الحسين من هذا وعفّ عنه ـ وكان أعفَّ الناس عن أخذ درهم أو دينار ـ فلما أصبح أنفذ المازيار مع طاهر بن إبراهيم وعليّ بن إبراهيم الحربيّ، وورد كتاب عبدالله بن طاهر في إنفاذه مع يعقوب بن منصور، وقد ساروا بالمازيار ثلاث مراحل؛ فبعث الحسن فردّه، وأنفذه مع يعقوب بن منصور. ثم أمر الحسن بن الحسين القُوهِيار أخا المازيار أن يحمل الأموال التي ضمنها، ودفع إليه بغالا من العسكر، وأمر بإنفاذ جيش معه؛ فامتنع القوهِيار، وقال: لا حاجة لي بهم؛ وخرج بالبغال هو وغلمانه؛ فلما ورد الجبل وفتح الخزائن، وأخرج الأموال وعبّاها ليحملها، وثب عليه مماليك المازيار من الديالمة ـ وكانوا ألفاً ومائتين ـ فقالوا له: غدرتَ بصاحبنا، وأسلمته إلى العرب، وجئتَ لتحمل أمواله! فأخذوه وكبّلوه بالحديد؛ فلما جنّه الليل قتلوه؛ وانتهبوا تلك الأموال والبغال؛ فانتهى الخبر إلى الحسن، فوجّه جيشاً إلى الذين قتلوا القوهيار، ووجّه قارن جيشاً من قِبَله في أخذهم؛ فأخذ منهم صاحب قارن عدّة، منهم ابن عمّ للمازيار، يقال له شهريار بن المَصْمُغان ـ وكان رأس العبيد ومحرّضهم ـ فوجّه به قارن إلى عبدالله بن طاهر، فلما صار بقومِس مات، وكان جماعة أولئك الديالمة أخذوا مع السَّفح والغَيْضة يريدون الديلم، فنذِر بهم محمد بن إبراهيم بن مصعب، فوجّه من قِبَله الطبرية وغيرهم حتى عارضوهم، وأخذوا عليهم الطريق، فأخِذوا، فبعث بهم إلى مدينة سارية مع عليّ بن إبراهيم، وكان مدخل محمد بن إبراهيم حين دخل من شَلَنْبَة على طريق الروذبار إلى الوُرّيان.

وقيل: إن فساد أمر مازيار وهلاكه كان من قبل ابن عمّ له يقال له. . . كان في يديه جبال طبرستان كلها، وكان في يد المازيار السهل؛ وكان ذلك كالقسمة بينهم يتوارثونه؛ فذُكر عن محمد بن حفص الطبريّ أن الجبال بطبرستان ثلاثة: جبل وَنْداهُرْمز في وسط جبال طَبَرستان، والثاني جبل أخيه ونداسبْجان بن الأنداد بن قارن، والثالث جَبل شَرْوين بن سُرْخاب بن باب؛ فلمّا قوي أمرُ المازيار بعث إلى ابن عمّه ذلك، وقيل هو أخوه

القوهِيار، فألزمه بابه، وولّى الجبل والياً من قِبَله؛ يقال له درّي؛ فلما احتاج المازيار إلى الرجال لمحاربة عبدالله بن طاهر؛ ودعا بابن عمه أو أخيه القوهِيار؛ فقال له: أنت أعرف بجبلك من غيرك، وأظهره على أمر الأفشين ومكاتبته له، وقال له: صِرْ في ناحية الجبل، فاحتفظ عليّ الجبل.

وكتب المازيار إلى الدرّيّ يأمره بالقدوم عليه، فقدم عليه، فضمّ إليه العساكر، ووجّهه في وجه عبد الله بن طاهر؛ وظنّ أنه قد توثّق من الجبل بابن عمه أو أخيه القُوهيار؛ وذلك أن الجبل لم يُظنّ أنه يُوتى منه. لأنه ليس فيه للعساكر والمحاربة طريق لكثرة المضايق والشّجر الذي فيه، وتوثّق من المواضع التي يتخوّف منها بالدرّي وأصحابه، وضمّ إليه المقاتلة وأهل عسكره، فوجّه عبدالله بن طاهر عمَّه الحسن بن الحسين بن مصعب في جيش كثيف من خُراسان إلى المازيار، ووجّه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب، ووجّه معه صاحب خبر يقال له يعقوب بن إبراهيم البوشنجيّ مولى الهادي، ويعرف بقَوْصَرة؛ يكتب بخبر العسكر؛ فوافى محمد بن إبراهيم الحسن بن الحسين، وزحفت العساكر نحو المازيار حتى قَرِبُوا منه، والمازيار لا يشكّ أنه قد توثّق من الموضع الذي تلقّاه الجبل فيه.

وكان المازيار في مدينته في نفر يسير، فدعا ابنَ عمّ المازيار الحقد الذي كان في قلبه على المازيار وصنيعه به وتنحيته إياه عن جبله، أنْ كاتَبَ الحسن بن الحسين، وأعلمه جميع ما في عساكره، وأنّ الأفشين كاتب المازيار.

فأنفذ الحسن كتاب ابن عمّ المازيار إلى عبدالله بن طاهر، فوجّه به عبدالله برجل إلى المعتصم، وكاتب عبدالله والحسن بنَ الحسين ابن عمّ المازيار ـ وقيل القوهيار ـ وضمنا له جميع ما يريد؛ وكان ابن عم المازيار أعلَم عبدالله بن طاهر أن الجبل الذي هو عليه كان له ولأبيه ولآبائه من قِبَل المازيار، وأن المازيار عند تولية الفضل بن سهل إياه طبرستان انتزع الجبل من يديه، وألزمه بابه، واستخفّ به، فشرط له عبدالله بن طاهر إن هُوَ وثب بالمازيار، واحتال له أن يصير الجبل في يديه على حسب ما لم يزل، ولا يُعرَض له فيه؛ ولا يحارب.

فرضِيَ بذلك ابن عم المازيار، فكتب له عبدالله بن طاهر بذلك كتاباً، وتوثّق له فيه، فوعد ابن عمّ المازيار الحسن بن الحسين ورجالهم أن يدخلهم الجبل؛ فلمّا كان وقت الميعاد، أمر عبدالله بن طاهر الحسن بن الحسين أن يَزْحف للقاء الدريّ، ووجّه عسكراً ضخماً عليه قائد من قواده في جوف الليل، فوافوا ابن عمّ المازيار في الجبل، فسلّم الجبال إليهمْ، وأدخلهم إليها، وصافّ الدرّي العسكر الذي بإزائه؛ فلم يشعر المازيار وهو في قصره حتى وقفت الرّجّالة والخيل على باب قصره، والدرّي يحارب العسكر الآخر؛ فحصروا المازيار، وأنزلوه على حكم أمير المؤمنين المعتصم.

وذكر عمرو بن سعيد الطبريّ أن المازيار كان يتصيّد؛ فوافته الخيل في الصيد؛ فأخِذ أسيراً، ودُخل قصره عَنْوة، وأخِذ جميع ما فيه، وتوجّه الحسن بن الحسين بالمازيار، والدرّيّ يقاتل العسكر الذي بإزائه، لم يعلم بأخذ المازيار؛ فلم يشعر إلّا وعسكر عبدالله بن طاهر مِنْ ورائه، فتقطعت عساكره، فانهزم ومضى يريد الدخول إلى بلاد الديلم، فقتِل أصحابه، واتبعوه فلحقوه في نفر من أصحابه، فرجع يقاتلهم، فقتِل وأخِذ رأسه، فبعث به إلى عبدالله بن طاهر. وقد صار المازيار في يده، فوعده عبدُ الله بن طاهر إن هو أظهره على كتب الأفشين أن يسأل أمير المؤمنين الصَّفْح عنه، وأعلمه عبدالله أنه قد علم أن الكتب عنده. فأقرّ المازيار بذلك، فطُلبت الكتب فوُجدت، وهي عدّة كتب، فأخذها عبدالله بن طاهر، فوجّه بها مع المازيار إلى إسحاق بن إبراهيم،

وأمره ألّا يخرج الكتب من يده ولا المازيار إلّا إلى يد أمير المؤمنين؛ لئلا يُحتال للكتب والمازيار، ففعل إسحاق ذلك، فأوصلها من يده إلى يد المعتصم؛ فسأل المعتصم المازيار عن الكتب، فلم يقرّ بها؛ فأمر بضرب المازيار حتى مات؛ وصلب إلى جانب بابك.

وكان المأمون يكتب إلى المازيار: من عبدالله المأمون إلى جبل جيلان أصبهبذ أصبهبذان بشْوار جِرْشاه محمد بن قارن مولى أمير المؤمنين.

وقد ذكر أن بدء وهْي أمر الدريّ، كان أنه لما بلغه بعدما ضمّ إليه المازيار الجيش نزول جيش محمد بن إبراهيم دُنْباوند، وجّه أخاه بزرجشْنس، وضمّ إليه محمداً وجعفراً ابني رستَم الكلاريّ ورجالاً من أهل الثغر وأهل الرُّويان، وأمرهم أن يصيروا إلى حدّ الرّويان والرّيّ لمنع الجيش؛ وكان الحسن بن قارن قد كاتب محمداً وجعفراً ابني رستم، ورغّبهما؛ وكانا من رؤساء أصحاب الدّريّ، فلما التقى جيش الدرّي وجيش محمد بن إبراهيم، انقلب ابنا رستم وأهل الثغرين وأهل الرُّويان على بزرجشنس أخي الدرّيّ، فأخذوه أسيراً، وصاروا مع محمد بن إبراهيم على مقدّمته؛ وكان الدريّ بموضع يقال له مُزْن في قَصْره مع أهله وجميع عسكره. فلما بلغه غدر محمد وجعفر ابني رستم ومتابعة أهل الثغرين والرّويان لهما وأسر أخيه بزرجشنس، اغتمّ لذلك غمًّا شديداً، وأذعن أصحابه، وهمَّتهم أنفسُهم، وتفرّق عامّتُهم يطلبون الأمان، ويحتالون لأنفسهم. فبعث الدريّ إلى الديالمة فصار ببابه مقدار أربعة آلاف رجل منهم، فرغبهم ومنّاهم. ووصلهم. ثم ركب وحمل الأموال معه، ومضى كأنه يريد أن يستنقذ أخاه ويحارب محمد بن إبراهيم؛ وإنما أراد الدخول إلى الديلم، والاستظهار بهم على محمد بن إبراهيم.

فاستقبله محمد بن إبراهيم في جيشه؛ فكانت بينهم وقعة صعبة؛ فلما مضى الدريّ هرب الموكلون بالسجن، وكسر أهل السجن أقيادهم، وخرجوا هاربين، ولحق كلّ إنسان ببلده. واتّفق خروج أهل سارية الذين كانوا في حبس المازيار وخروج هؤلاء الذين كانوا في حبس الدرّيّ في يوم واحد، وذلك في شعبان لثلاث عشرة ليلة خلت منه سنة خمس وعشرين ومائتين في قول محمد بن حفص. وقال غيره: كان ذلك في سنة أربع وعشرين ومائتين.

وذكر عن داود بن قحذم أن محمد بن رستُم، قال: لما التقى الدرّي ومحمد بن إبراهيم بساحل البحر، بين الجبل والغَيْضة والبحر، والغَيْضة متّصلة بالديلم، وكان الدرّي شجاعاً بطلاً، فكان يحمل بنفسه على أصحاب محمد حتى يكشفهم؛ ثم يحمل معارضةً من غير هزيمة، يريد دخول الغَيْضة، شدّ عليه رجل من أصحاب محمد بن إبراهيم يقال له فند بن حاجبة، فأخذَه أسيراً واسترجع، واتبع الجند أصحابه وأخِذ جميع ما كان معه من الأثاث والمال والدوابّ والسلاح، فأمر محمد بن إبراهيم بقتل بزرجشنس أخي الدّرّيّ، ودُعي بالدرّيّ فمدَّ يده فقُطعت من مرفقه، ومدّت رجله فقطعت من الركبة؛ وكذا باليد الأخرى والرّجل الأخرى، فقعد الدرّي على استه؛ ولم يتكلم ولم يتزعزع، فأمر بضرب عنقه. وظفر محمد بن إبراهيم بأصحاب الدرّي فحملهم مكبّلين.

وفي هذه السنة وَلى جعفر بن دينار اليمن.

وفيها تزوّج الحسن بن الأفشين أترنجة بنت أشناس، ودخل بها في العمريّ، قصر المعتصم في جُمادى

الآخرة، وأحضر عرسها عامة أهل سامرّا فحُدِّثت أنهم كانوا يغلّفون العامة فيها بالغالية في تغار من فضة، وأن المعتصم كان يباشر بنفسه تفقّدَ من حضرها.

وفيها امتنع عبدالله الوَرْثانيّ بِوَرْثان.

وفيها خالف مَنكجور الأشْرُوسني قرابة الأفشين بأذْرَبيجان.

ذكر الخبر عن سبب خلافه:

ذُكر أنّ الأفشين عند فراغه من أمر بابك ومنصَرفه من الجبال ولى أذْرَبيجان ـ وكان من عمله ـ واليه مَنكجورَ هذا، فأصاب في قرية بابك في بعض منازله مالاً عظيماً، فاحتجنه لنفسه؛ ولم يعلم به الأفشين ولا المعتصم؛ وكان على البريد بَأذْرَبيجان رجل من الشيعة يقال له عبدالله بن عبد الرحمن؛ فكتب إلى المعتصم بخبر ذلك المال، وكتب مَنْكجور يكذب ذلك؛ فوقعت المناظرة بين مَنْكَجور وعبدالله بن عبد الرحمن؛ حتى همّ منكجور بقتل عبدالله بن عبد الرحمن، فاستغاث عبدالله بأهل أردبيل، فمنعوه مما أراد به مَنْكجور؛ وبلغ ذلك المعتصم، فأمر الأفشين أن يوجّه رجلاً من قبَله بعزل منكجور، فوجّه رجلاً من قُوّاده في عسكر ضخم؛ فلما بلغ مَنكجور ذلك، خلع وجمع إليه الصعاليك، وخرج من أردبيل، فرآه القائد فواقعه، فانهزم مَنكجُور، وصار إلى حصن من حصون أذْرَبيجان ـ التي كان بابك أخربها ـ حَصِينٍ في جبل منيع، فبناه وأصلحه، وتحصّن فيه؛ فلم يلبث إلا أقلّ من شهر حتى وثب به أصحابه الذين كانوا معه في الحصن، فأسلموه ودفعوه إلى القائد الذي كان يحاربه؛ فقدم به إلى سامرا، فأمر المعتصم بحبسه، فاتُّهم الأفشين في أمره.

وقيل: إن القائد الذي وُجّه لحرب مَنْكجور هذا كان بُغا الكبير.

وقيل: إنّ بغا لمّا لقي مَنكجور خرج مَنكجور إليه بأمان.

وفيها مات ياطس الروميُّ، وصُلب بسامرّا إلى جانب بابك.

وفيها مات إبراهيم بن المهديّ في شهر رمضان وصلّى عليه المعتصم.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك كان قدوم الوَرْثانيّ على المعتصم في المحرّم بالأمان.

وفيها قدم بُغا الكبير بمنكجور سامرّا.

وفيها خرج المعتصم إلى السِّنّ، واستخلف أشناس.

وفيها أجلس المعتصم أشناس على كرسيّ، وتوّجه ووشّحه في شهر ربيع الأول.

وفيها أحرِق غنّام المرتَدّ.

وفيها غضب المعتصم على جعفر بن دينار، وذلك من أجل وُثوبه على مَنْ كان معه من الشاكريّة، وحبسه عند أشناس خمسة عشر يوماً، وعزَله عن اليمن، وولّاها إيتاخ، ثم رضيَ عن جعفر.

وفيها عُزل الأفشين عن الحرس ووليه إسحاق بن يحيى بن معاذ.

وفيها وجّه عبد الله بن طاهر بمازيار، فخرج إسحاق بن إبراهيم إلى الدَّسْكرة؛ فأدخله سامرّا في شوال، وأمر بحمله على الفيل، فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خُضِبَ الفِيلُ كعاداتِهِ يحمِلُ جيلانَ خُراسانِ
والفيلُ لا تخضَبُ أعضاؤهُ إلا لِذي شأْنٍ من الشانِ

فأبى مازيار أن يركب الفيل، فأُدخِلَ على بغْل بإكاف، فجلس المعتصم في دار العامة، لخمس ليال خلوْن من ذي القعدة، وأمر فجمِع بينه وبين الأفشين؛ وقد كان الأفشين حُبِس قبل ذلك بيوم، فأقرّ المازيار أنّ الأفشين كان يكاتبه، ويصوّب له الخلاف والمعصية، فأمر بردّ الأفشين إلى محبسه، وأمر بضرب مازيار، فضرب أربعمائة سوط وخمسين سوطاً، وطلب ماء فسُقِيَ، فمات من ساعته.

وفيها غضب المعتصم على الأفشين فحبسه.

ذكر الخبر عن سبب غضبه عليه وحبسه إياه:

ذكر أن الأفشين كان أيَام حربه بابك ومُقامه بأرض الخرّميّة؛ لا يأتيه هدية من أهل إرمينيَة إلا وجّه بها إلى أشْروسَنَة، فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر، فيكتب عبد الله إلى المعتصم بخبره؛ فكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمر بتعريف جميع ما يوجِّه به الأفشين من الهدايا إلى أشْروسنة؛ ففعل عبد الله بذلك؛ وكان

الأفشين كلّما تهيّأ عنده مال حمّله أوساط أصحابه من الدنانير والهمايين بقدْر طاقتهم؛ كان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه؛ فأخبر عبد الله بذلك؛ فبينا هو في يوم من الأيام، وقد نزل رُسل الأفشين معهم الهدايا نيسابور وجّه إليهم عبد الله بن طاهر، وأخذهم ففتّشهم، فوجد في أوساطهم همايين، فأخذها منهم، وقال لهم: مِن أين لكم هذا المال؟ فقالوا: هذه هدايا الأفشين؛ وهذه أمواله. فقال: كذبتم؛ لو أراد أخي الأفشين أن يرسل بمثل هذه الأموال لكتب إليّ يُعلمني ذلك لآمر بحراسته وبَذْرَقتِه؛ لأن هذا مال عظيم؛ وإنما أنتم لصوص. فأخذ عبدالله بن طاهر المال، وأعطاه الجند قبَله، وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم، وقال: أنا أنكر أن تكون وجّهتَ بمثل هذا المال إلى أشْروسنة، ولم تكتب إليّ تعلمني لأبَذْرقه؛ فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيتَه الجند مكان المال الذي يوجّهه إليّ أمير المؤمنين في كلّ سنة، وإن كان المال لك ـ كما زعم القوم. فإذا جاء المال من قِبَل أمير المؤمنين رددته إليك؛ وإن يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحقّ بهذا المال؛ وإنما دفعته إلى الجند لأني أريد أن أوجّههم إلى بلاد الترك.

فكتب إليه الأفشين يعلمه أن مالَه ومال أمير المؤمنين واحد، ويسأله إطلاق القوم ليمضوا إلى أشروسنة؛ فأطلقهم عبدُ الله بن طاهر، فمضوا؛ فكان ذلك سبب الوحشة بين عبد الله بن طاهر وبين الأفشين.

ثم جعل عبد الله يتتبّع عليه، وكان الأفشين يسمع أحياناً من المعتصم كلاماً يدلّ على أنه يريد أن يعزل آل طاهر عن خراسان، فطمِع الأفشين في ولايتها، فجعل يكاتب مازيار، ويبعثه على الخلاف، ويضمَن له القيام بالدّفْع عنه عند السلطان؛ ظنّاً منه أن مازيار إن خالف احتاج المعتصم إلى أن يوجّهه لمحاربته، ويعزل عبد الله بن طاهر ويولّيه خراسان؛ فكان من أمر مازيار ما قد مضى ذكره.

وكان من أمر منكجور بأذْرَبيجان ما قد وصفنا قبل. فتحقّق عند المعتصم ـ بما كان من أمر الأفشين ومكاتبته مازيار بما كان يكاتبه به ـ ما كان اتهمه به من أمر مَنكجور؛ وأنّ ذلك كان عن رأي الأفشين وأمْره إياه به، فتغيّر المعتصم للأفشين لذلك؛ وأحسّ الأفشين بذلك، وعلم تغيُّر حاله عنده، فلم يَدْر ما يصنع، فعزم ـ فيما ذكر ـ على أن يهيىء أطوافاً في قصره، ويحتال في يوم شغل المعتصم وقوّاده أن يأخذ طريق الموصل، ويعبر الزاب على تلك الأطواف؛ حتى يصير إلى بلاد أرمينيَة، ثم إلى بلاد الخزَر، فعسر ذلك عليه، فهيّأ سمّاً كثيراً، وعزم على أن يعمل طعاماً ويدعو المعتصم وقُوّاده فيسقيهم فإن لم يجبه المعتصم استأذنه في قوّاد الأتراك، مثل أشناس وإيتاخ وغيرهم في يوم تشاغل أمير المؤمنين، فإذا صاروا إليه أطعمهم وسقاهم وسمَّهم؛ فإذا انصرفوا من عنده خرج من أوّل الليل، وحمل تلك الأطواف والآلة التي يعبرُ بها على ظهور الدوابّ حتى يجيء إلى الزّاب فيعبر بأثقاله على الأطراف، ويعبُر الدوابُّ سباحةً كما أمكنه، ثم يرسل الأطواف حتى يعبُر في دِجْلة، ويدخل هو بلاد أرمينيَة؛ وكانت ولاية أرمينيَة إليه، ثم يصير هو إلى بلاد الخَزر مستأمناً، ثم يدور من بلاد الخَزر إلى بلاد الترك، ويرجع من بلاد الترك إلى بلاد أشْرُوسنة، ثم يستميل الخَزر على أهل الإسلام؛ فكان في تهيئة ذلك، وطال به الأمر فلم يمكنه ذلك.

وكان قوّاد الأفشين ينوبون في دار أمير المؤمنين كما ينوبُ القوّاد؛ فكان واجن الأشْرُوسنيّ قد جرى بينه وبين من قد اطّلع على أمر الأفشين حديث؛ فذكر له واجن أنّ هذا الأمر لا أراه يمكن ولا يتمّ؛ فذهب ذلك الرجل الذي سمع قول واجن، فحكاه للأفشين. وسمع بعض من يميل إلى واجن من خدم الأفشين وخاصته ما

قال الأفشين في واجن، فلما انصرف، واجن من النوبة في بعض الليل أتاه فأخبره أنْ قد أُلقِيَ ذلك إلى الأفشين، فحذر واجن على نفسه، فركب من ساعته في جوف الليل حتى أتى دار أمير المؤمنين؛ وقد نام المعتصم؛ فصار إلى إيتاخ، فقال: إن لأمير المؤمنين عندي نصيحة، فقال له إيتاخ: أليس الساعة كنتَ ها هنا! قد نام أمير المؤمنين. فقال له واجن: ليس يمكنني أن أصبر إلى غد، فدقّ إيتاخ الباب على بعض من يُعلم المعتصم بالذي قال واجن، فقال المعتصم: قل له ينصرف الليلة إلى منزله، ويبكّر عليّ في غد. فقال واجن: إن انصرفت الليلة ذهبت نفسي، فأرسل المعتصم إلى إيتاخ: بيِّتْه الليلة عندك. فبيته إيتاخ عنده؛ فلما أصبح بكّر به مع صلاة الغداة، فأوصله إلى المعتصم، فأخبره بجميع ما كان عنده؛ فدعا المعتصم محمد بن حماد بن دَنْقَش الكاتب، فوجّهه يدعو الأفشين، فجاء الأفشين في سواد، فأمر المعتصم بأخذ سواده، وحبَسه، فحبِس في الجوسق؛ ثم بنى له حبساً مرتفعاً، وسمّاه لؤلؤة داخل الجوسق، وهو يعرف إلى الآن بالأفشين.

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتيال للحسن بن الأفشين ـ وكان الحسن قد كثرت كتبه إلى عبدالله بن طاهر في نوح بن أسد ـ يعلمه تحامله على ضياعه وناحيته، فكتب عبدالله بن طاهر إلى نوح بن أسد يعلمه ما كتب به أمير المؤمنين في أمره، ويأمره بجمع أصحابه والتأهب له؛ فإذا قدم عليه الحسن بن الأفشين بكتاب ولايته استوثَق منه، وحمله إليه. فكتب عبدالله بن طاهر إلى الحسن بن الأفشين يُعلمه أنه عزل نوح بن أسد، وأنه قد ولّاه الناحية، ووجّه إليه بكتاب عزل نوح بن أسد.

فخرج الحسن بن الأفشين في قلّة من أصحابه وسلاحه؛ حتى ورد على نوح بن أسد، وهو يظنّ أنه والي الناحية، فأخذه نوح بن أسد، وشدّه وثاقاً. ووجّه به إلى عبد الله بن طاهر، فوجه به عبد الله إلى المعتصم. وكان الحبس الذي بُنِي للأفشين شبيهاً بالمنارة، وجعل في وسطها مقدار مجلسه؛ وكان الرجال ينُوبون تحتها كما تدور.

وذُكِر عن هارون بن عيسى بن المنصور، أنه قال: شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي دُواد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات، فأُتِيَ بالأفشين ولم يكن بعد في الحبس الشديد، فأحضِر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه. ولم يترك في الدار أحدٌ من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور، وصُرف الناس.

وكان المناظر له محمّد بن عبد الملك الزيات، وكان الذين أحضرُوا المازيار صاحب طبرستان والمـوْبذ والمرزبان بن تركش ـ وهو أحد ملوك السُّغد ـ ورجلان من أهل السُّغد؛ فدعا محمد بن عبد الملك بالرَّجُلين، وعليهما ثياب رثة، فقال لهما محمد بن عبد الملك: ما شأنكما؟ فكشفا عن ظهورهما وهي عارية من اللَّحْم، فقال له محمد: تعرف هذين؟ قال: نعم؛ هذا مؤذن، وهذا إمام، بنَيا مسجداً بأشْروسَنة، فضربتُ كلَّ واحد منهما ألَف سوط؛ وذلك أن بيني وبين ملوك السُّغد عهداً وشرطاً، أن أترك كلَّ قوم على دينهم وما هم عليه؛ فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم ـ يعني أهل أشروسنة ـ فأخرجا الأصنام، واتّخذاه مسجداً، فضربتهما على هذا ألفاً ألفاً لتعدّيهما، ومنعهما القوم من بيعتهم. فقال له محمد: ما كتاب عندك قد زيَّنْته بالذهب والجواهر والديباج، فيه الكفر بالله؟ قال: هذا كتاب ورثْتُه عن أبي، فيه أدب من آداب العجم؛ وما ذكرت من الكفر؛ فكنت أستمتع منه بالأدب، وأترك ما سوى ذلك، ووجدتُه محلى، فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه؛

فتركته على حاله؛ ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مَزْدَك في منزلك؛ فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام.

قال: ثم تقدم المَوْبذ، فقال: إن هذا كان يأكل المخنوقة، ويحملني على أكلها، ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة؛ وكان يقتل شاة سوداء كلّ يوم أربعاء، يضرب وسطها بالسَّيف يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها. وقال لي يوماً: إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كلّ شيء أكرهه؛ حتى أكلتُ لهم الزيت وركبت الجمل، ولَبِسْت النعل؛ غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة - يعني لم يَطَّلِ ولم يختتن.

فقال الأفشين: خَبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا الكلام، ثقةٌ هو في دينه؟ - وكان المَوْبذ مجوسيّاً أسلم بعدُ على يد المتوكل ونادمه - قالوا: لا، قال: فما معنى قبولكم شهادة مَنْ لا تثقون به ولا تعدّلونه! ثم أقبل على الموبذ، فقال: هل كان بين منزلي ومنزلك باب أو كوّة تطلع عليّ منها وتعرف أخباري منها؟ قال: لا، قال: أفليس كنت أدخلك إليّ وأبثك سري وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها؟ قال: نعم، قال: فلستَ بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك؛ إذا أفشيت عليّ سرّاً أسررتُه إليك.

ثم تنحّى الموبذ، وتقدّم المرزبان بن تركش، فقالوا للأفشين: هل تعرف هذا؟ قال: لا، فقيل للمرزبان: هل تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين، قالوا له: هذا المرزبان، فقال له المرزبان: يا مُمَخْرق، كم تدافع وتموّه! قال له الأفشين: يا طويلَ اللحية، ما تقول؟ قال: كيف يكتب إليك أهل مملكتك؟ قال: كما كانوا يكتبون إلى أبي وجدي. قال: فقل، قال: لا أقول، فقال المرزبان: أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية؟ قال: بلى، قال: أفليس تفسيره بالعربية «إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان»، قال: بلى! قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا! فما بقَّيت لفرعون حين قال لقومه: ﴿أنا رَبُّكُم الأعْلَى﴾[1]! قال: كانت هذه عادة القوم لأبي وجدّي، ولي قبل أن أدخل في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم. فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب: ويحك يا خيذر! كيف تحلِف بالله لنا فنصدّقك ونصدق يمينَك ونُجريك مجرى المسلمين، وأنت تدّعي ما ادّعى فرعون! قال: يا أبا الحسن؛ هذه سورة قرأها عُجيف على عليّ بن هشام، وأنت تقرؤها عليّ، فانظر غداً من يقرؤها عليك!

قال: ثم قدِّم مازيار صاحب طبرِستان، فقالوا للأفشين: تعرف هذا؟ قال: لا، قالوا للمازيار: تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين، فقالوا له: هذا المازيار؟ قال: نعم، قد عرفتُه الآن، قالوا: هل كاتبتَه؟ قال: لا، قالوا للمازيار: هل كتب إليك؟ قال: نعم، كتب أخوه خاش إلى أخي قوهِيار؛ أنه لم يكن ينصر هذا الدّين الأبيض غيري وغيرُك وغير بابك؛ فأما بابك فإنه بحمْقه قتيلُ نفسِه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلّاه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم مَنْ يرمُونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس؛ فإن وجّهت إليه لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك، والعربيّ بمنزلة الكلب اطرَحْ له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبّوس؛ وهؤلاء الذّباب - يعني المغاربة - إنما هم أكَلَة رأس، وأولاد الشياطين - يعني الأتراك - فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامُهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم؛ ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم. فقال الأفشين: هذا يدّعي على أخيه وأخي دعوى لا تجب عليّ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إليّ ويثق بناحيتي كان غير مستنكَر؛ لأني إذا نصرتُ الخليفة بيدي، كنتُ

---

(١) سورة النازعات ٢٤.

بالحيلة أحرَى أن أنصره لآخذ بقفاه، وآتي به الخليفة لأحظَى به عنده، كما حظيَ به عبد الله بنُ طاهر عند الخليفة. ثم نحّى المازيار.

ولما قال الأفشين للمرزبان التركَشيّ ما قال، وقال لإسحاق بن إبراهيم ما قال، زجر ابن أبي دواد الأفشين، فقال له الأفشين: أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك، فلا تضعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة، فقال له ابن أبي دواد: أمطهّر أنت؟ قال: لا، قال: فما منعك من ذلك، وبه تمام الإسلام، والطهور من النجاسة! قال: أوَ ليس في دين الإسلام استعمال التقيّة؟ قال: بلى، قال: خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت، قال: أنت تطعن بالرمح، وتضرب بالسيف، فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب وتجزع من قطع قلفة! قال: تلك ضرورة تعنيني فأصبر عليها إذا وقعتْ؛ وهذا شيء أستجلبه فلا آمنُ معه خروج نفسي، ولم أعلم أن في تركها الخروجَ من الإسلام، فقال ابن أبي دواد: قد بان لكم أمره يابغا ـ لبغا الكبير أبي موسى التركيّ ـ عليك به!

قال: فضرب بيده بغا على منطقته فجذَبها، فقال قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم، فقلَب بغا ذَيْل القَباء على رأسه، ثم أخذ بمجامع القَباء من عند عنقه، ثم أخرجه من باب الوزيريّ إلى محبسه.

وفي هذه السنة حمل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وأترنجة بنت أشناس إلى سامرّا.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان فيها من وثوب عليّ بن إسحاق بن يحيى بن معاذ - وكان على المعُونة بدمشق من قبَل صول أرتكين - برجاء بن أبي الضحاك، وكان على الخراج، فقتله، وأظهر الوسواس، ثم تكلم أحمد بن أبي دواد فيه، فأطلِق من محبسه؛ فكان الحسن بن رجاء يلْقاه في طريق سامرّا، فقال البحتريّ الطائيّ:

عَفَا عليُّ بن إسحاق بفتكَتِهِ ... على غرَائِب تِيهٍ كنَّ في الحَسنِ
أنْسَتهُ تَنقِيعَهُ في اللفظ نازلةٌ ... لم تُبق فيه سوى التسليم للزمن
فلم يكن كابنِ حُجْرٍ حين ثار ولا ... أخي كليبٍ ولا سيفِ بن ذي يزنِ
ولم يُقَلْ لك في وِترٍ طلبتَ به ... تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لَبنِ

وفيها مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، فصلّى عليه المعتصم في دار محمد.

وفيها مات الأفشين.

ذكر الخبر عن موته وما فُعل به عند موته وبعده:

ذكر عن حمدون بن إسماعيل، أنه قال: لما جاءت الفاكهة الحديثة، جمع المعتصم من الفواكه الحديثة في طَبق، وقال لابنه هارون الواثق: اذهب بهذه الفاكهة بنفسك إلى الأفشين، فأدخلها إليه. فحمِلت مع هارون الواثق حتى صعد بها إليه في البناء الذي بُني له الذي يسمى لؤلؤة؛ فحُبس فيه؛ فنظر إليه الأفشين، فافتقد بعضَ الفاكهة؛ إما الإجاص وإما الشاهلوج؛ فقال للواثق: لا إله إلا الله، ما أحسنه من طبق، ولكن ليس لي فيه إجّاص ولا شاهلوج! فقال له الواثق: هو ذا، انصرف أوجِّه به إليك، ولم يمسّ من الفاكهة شيئاً؛ فلما أراد الواثق الانصراف قال له الأفشين: أقرىء سيدي السلام، وقل له: أسألك أن توجه إليّ ثقة من قبَلك يؤدي عني ما أقول، فأمر المعتصم حمدون بن إسماعيل - وكان حمدون في أيام المتوكل في حبس سليمان بن وهب في حبس الأفشين هذا؛ فحدّث بهذا الحديث وهو فيه:

قال حمدون: فبعث بي المعتصم إلى الأفشين، فقال لي: إنه سيُطَوّلُ عليك فلا تحتبس. قال: فدخلت عليه، وطبق الفاكهة بين يديه لم يمسّ منه واحدةً فما فوقها، فقال لي: اجلس، فجلست فاستمالني بالدهقنة، فقلت: لا تُطوّل؛ فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ ألّا أحتبس عندك، فأوجزْ. فقال: قل لأمير المؤمنين؛ أحسنتَ إليّ وشرّفتَني، وأوطأت الرّجال عَقِبي، ثم قبلْتَ فيّ كلاماً لم يتحقّق عندك؛ ولم تتدبّرْه بعقلك؛ كيف يكون

هذا، وكيف يجوز لي أن أفعل هذا الذي بلغك! تخبَر بأني دَسستُ إلى مَنكجور أن يخرج، وتقبله، وتخبَر أني قلت للقائد الذي وجهته إلى منكجور: لا تحاربه، واعْذِرْ، وإن أحسست بأحد منا فانهزم من بين يديه؛ أنت رجل قد عرفتَ الحرب، وحاربت الرجال، وسُسْتَ العساكر؛ هذا يمكن رأس عسكر يقول لجند يلقون قوماً: افعلوا كذا وكذا؛ هذا ما لا يسوغ لأحد أن يفعله؛ ولو كان هذا يمكن ما كان ينبغي أن تقبله من عدوّ قد عرفت سببه؛ وأنت أوْلى بي، إنما أنا عبد من عبيدك، وصنيعك؛ ولكن مَثَلي ومثلك يا أمير المؤمنين مَثَل رجل ربَّى عِجْلا له حتى أسمنه وكَبِر، وحسنت حالُه، وكان له أصحاب اشتهوا أن يأكلوا من لحمه، فعرّضوا له بذبح العِجْل فلم يجبهم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم: ويحك! لمَ تُربِّي هذا الأسد؟ هذا سبُع، وقد كبر، والسَّبُع إذا كبر يرجع إلى جنسه! فقال لهم: ويحك هذا عجل بقر، ما هو سبع، فقالوا: هذا سبع؛ سلْ مَنْ شئت عنه؛ وقد تقدموا إلى جميع من يعرفونه، فقالوا له: إن سألكم عن العِجْل، فقولوا له: هذا سبع؛ فكلما سأل الرّجل إنساناً عنه، وقال له: أما ترى هذا العِجْل ما أحسنه! قال الآخر: هذا سبع؛ هذا أسد، ويحك! فأمر بالعجل فذُبح؛ ولكني أنا ذلك العِجْل، كيف أقدر أن أكون أسداً! الله الله في أمري؛ اصطنعتَني وشرّفتَني وأنت سيدي ومولاي، أسأل الله أن يعطف بقلبك عليّ.

قال حمدون: فقمت فانصرفت، وتركت الطَّبَق على حاله لم يمسّ منه شيئاً، ثم ما لبثنا إلا قليلاً؛ حتى قيل: إنه يموت أو قد مات؛ فقال المعتصم: أروه ابنَه، فأخرجوه فطرحوه بين يديه، فنتف لحيتَه وشعرَه، ثم أمر به فحمل إلى منزل إيتاخ.

قال: وكان أحمد بن أبي دواد دعا به في دار العامة من الحبس، فقال له: قد بلغ أمير المؤمنين أنك يا خيدر، أقلف، قال: نعم، وإنما أراد ابن أبي دواد أن يشهد عليه؛ فإن تكشّف نُسب إلى الخرَع؛ وإن لم يتكشف صحّ عليه أنه أقلف، فقال: نعم، أنا أقلف؛ وحضر الدار ذلك اليوم جميع القوّاد والناس؛ وكان ابن أبي دواد أخرجه إلى دار العامّة قبل مصير الواثق إليه بالفاكهة، وقبل مصير حمدون بن إسماعيل إليه.

قال حمدون: فقلت له: أنت أقلف كما زعمت؟ فقال الأفشين: أخرجني إلى مثل ذلك الموضع، وجميع القواد والناس قد اجتمعوا، فقال لي ما قال؛ وإنما أراد أن يفضحني؛ إن قلت له: نعم لم يقبل قولي، وقال لي: تكشّف، فيفضحني بين الناس؛ فالموت كان أحبَّ إليّ من أن أتكشّف بين أيدي الناس؛ ولكن يا حمدون إن أحببتَ أن أتكشَّف بين يديك حتى تراني فعلتُ؛ قال حمدون: فقلت له: أنت عندي صدُوق؛ وما أريد أن تكشّف.

فلما انصرف حمدون فأبلغ المعتصم رسالتَه، أمر بمنع الطعام منه إلّا القليل؛ فكان يدفع إليه في كلّ يوم رغيف حتى مات؛ فلما ذُهِب به بعد موته ألى دار إيتاخ، أخرجوه فصلَبُوه على باب العامّة ليراه الناس، ثم طُرِح بباب العامة مع خشبته؛ فأحرِق وحُمِل الرّماد، وطرح في دِجْلة.

وكان المعتصم حين أمر بحبسه وجّه سليمان بن وهب الكاتب يحصي جميع ما في دار الأفشين ويكتُبه في ليلة من الليالي، وقصر الأفشين بالمطيرة، فوُجِد في داره بيت فيه تمثال إنسان من خشب، عليه حلية كثيرة وجوهر، وفي أذنيه حجران أبيضان مشتبكان؛ عليهما ذهب، فأخذ بعض مَنْ كان مع سليمان أحد الحجرين؛ وظنّ أنه جوهر له قيمة؛ وكان ذلك ليلاً؛ فلما أصبح ونزع عنه شباك الذّهب، وجده حجراً شبيهاً بالصَّدَف

الذي يسمى الحبرون، من جنس الصَّدَف الذي يقال له البوق، من صدف أخرِج من منزله صُوَر السماجة وغيرها وأصنام وغيرذلك، والأطواف والخشب التي كان أعدّها؛ وكان له متاع بالوزيريّة، فوُجد فيه أيضاً صنم آخر، ووجدوا في كتبه كتاباً من كتب المجوس يقال له زراوه وأشياء كثيرة من الكُتب؛ فيها ديانته التي كان يدين بها ربه.

وكان موت الأفشين في شعبان من سنة ست وعشرين ومائتين.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود بأمر أشناس؛ وكان أشناس حاجّاً في هذه السنة، فولّي كل بلدة يدخلها فدُعي له على جميع المنابر التي مرّ بها من سامرّا إلى مكة والمدينة.

وكان الذي دعا له على منبر الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن موسى، وعلى منبر فَيْد هارون بن محمد بن أبي خالد المرورُّوذيّ، وعلى منبر المدينة محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان، وعلى منبر مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى، وسُلّم عليه في هذه الكُور كلها بالإمارة، وكانت له ولايتها إلى أن رجع إلى سامرّا.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خروج أبي حرب المُبَرقع اليمانيّ بفلسطين وخلافه على السلطان .

ذكر الخبر عن سبب خروجه وما آل إليه أمره :

ذَكَر لي بعض أصحابي ممن ذكر أنـه خبير بأمره ، أنّ سبب خروجه على السلطان كان أنّ بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها ، وفيها إما زوجته وإما أخته ، فمانعتْه ذلك ، فضربها بسوط كان معه ؛ فاتّقته بذراعها ، فأصاب السوط ذراعها ، فأثّر فيها ؛ فلما رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكَتْ إليه ما فعل بها ، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضَرْبه ؛ فأخذ أبو حرب سيفه ومشى إلى الجنديّ وهو غارّ ؛ فضربه به حتى قتله ؛ ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف ، فصار إلى جبل من جبال الأردنّ ، فطلبه السلطان فلم يُعرف له خبر ؛ وكان أبو حرب يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً ، فيراه الرائي فيأتيه ، فيذكره ويحرّضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه ؛ فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حرّاثي أهل تلك الناحية وأهل القرى ، وكان يزعم أنه أمويّ ، فقال الذين استجابوا له : هذا هو السفيانيّ ، فلما كثرت غاشيته وتبّاعه من هذه الطبقة من الناس ، دعا أهل البُيوتات من أهل تلك الناحية ، فاستجاب له منهم جماعة مـن رؤساء اليمانية ، منهم رجل يقال له ابن بَيْهس ، كان مطاعاً في أهل اليمن ورجلان آخران من أهل دمشق ، فاتّصل الخبر بالمعتصم وهو عليل ؛ علّته التي مات فيها ، فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاريّ في زُهاء ألف من الجند ؛ فلما صار رجاء إليه وجده في عالم من الناس .

فذكر الذي أخبرني بقصته أنه كان في زُهاء مائة ألف ، فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه ، وطاوله ؛ حتى كان أوّل عمارة الناس الأرضين وحِراثتهم ، وانصرف مَنْ كان من الحراثين مع أبي حرب إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم ، وبقي أبو حرب في نفر زُهاء ألفٍ أو ألفين ، ناجزه رجاء الحرب ، فالتقى العسكران : عسكر رجاء وعسكر المبرقع ، فلما التقوا تأمل رجاء عسكر المبرقع ، فقال لأصحابه : ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره ، وإنه سيُظهر لأصحابه من نفسه بعض ما عنده من الرُّجلة ، فلا تعجلوا عليه . قال : وكان الأمر كما قال رجاء ؛ فما لبث المبرقَع أن حمل على عسكر رجاء ، فقال رجاء لأصحابه : أفرجوا له ، فأفرجوا له ؛ حتى جاوزهم ثم كرّ راجعاً ، فأمر رجاء أصحابَه أن يُفرجوا له ، فأفرجوا له حتى جاوزهم ، ورجـع إلى عسكر نفسه ، ثم أمهل رجاء ، وقال لأصحابه : إنه سيحمل عليكم مرّة أخرى ، فأفرِجوا له ؛

فإذا أراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك ، وخُذُوه . ففعل المبرقع ذلك ، فحمل على أصحاب رجاء ، فأفرجوا له حتى جاوزهم ، ثمّ كرّ راجعاً فأحاطوا به ، فأخذوه فأنزلوه عن دابته .

قال : وقد كان قدم على على رجاء حين ترك معاجلة المبرقَع الحرب من قِبَل المعتصم مستحثٌّ ، فأخذ الرسول فقيده إلى أن كان من أمره ، وأمر أبي حرب ما كان مما ذكرنا ، ثم أطلقه .

قال : فلما كان يوم قدوم رجاء بأبي حرب على المعتصم ، عزله المعتصم على ما فعل برسوله ، فقال له رجاء : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ! وجّهتني في ألف إلى مائة ألف ؛ فكرهت أن أعاجله فأهلك ويهلك مَنْ معي ، ولا نغني شيئاً ، فتمهّلت حتى خفَّ مَنْ معه ، ووجدت فرصة ، ورأيت لحربه وجهاً وقياماً ، فناهضته وقد خفَّ مَنْ معه وهو في ضعف ، ونحن في قُوّة ، وقد جئتك بالرجل أسيراً .

قال أبو جعفر : وأما غير من ذكرت أنه حدثني حديث أبي حرب على ما وصفت ، فإنه زعم أن خروجه إنما كان في سنة ست وعشرين ومائتين بالرّملة ، فقالوا : إنه سفيانيّ ، فصار في خمسين ألفاً من أهل اليمن وغيرهم ، واعتقد ابن بيهس وآخران معه من أهل دِمشق ، فوجّه إليهم المعتصم رجاء الحضاريّ في جماعة كبيرة ، فواقعهم بدمشق ، فقتِل من أصحاب ابن بيهس وصاحبيه نحواً من خمسة آلاف ، وأخذ ابن بيهس أسيراً ، وقتل صاحبيه ، وواقع أبا حَرْب بالرّملة ، فقتل من أصحابه نحواً من عشرين ألفاً ، وأسر أبا حرب ، فحمِل إلى سامرّا ، فجعل وابن بيهس في المطبق .

وفي هذه السنة أظهر جعفر بن مهرجش الكرديّ الخلاف ، فبعث إليه المعتصم في المُحرّم إيتاخ إلى جبال الموصل لحربه ، فوثب بجعفر بعض أصحابه فقتله .

وفيها كانت وفاة بشر بن الحارث الحافي في شهر ربيع الأول وأصله من مرْو .

وفيها كانت وفاة المعتصم وذلك ـ فيما ذكر ـ يوم الخميس ، فقال بعضهم : لثماني عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول لساعتين مضَتا من النهار .

ذكر الخبر عن العلة التي كانت منها وفاته وقَدْر مدّة عمره وصفته

ذُكر أن بدء علّته أنه احتجم أوّل يوم من المحرم ، واعتلّ عندها ، فذكر عن محمد بن أحمد بن رشيد عن زُنَام الزامر، قال: قد وجد المعتصم في علته التي توفي فيها إفاقة، فقال: هيّئوا إلي الزلال لأركب، فركب وركبت معه ، فمرّ في دِجْلة بإزاء منازله، فقال: يا زنام، ازمر لي:

يا منزلا لم تَبْلَ أطلالُه حاشى لأطلالك أن تَبْلَى
لم أبكِ أطلالك لكنّني بَكيْتُ عَيْشي فيك إذ وَلّى
والعيش أوْلى ما بكاه الْفَتى لا بدّ للمحزون أن يَسْلَى

قال : فما زلتُ أزمر هذا الصوت حتى دعا برطليّة ، فشرب منها قدحاً وجعلت أزمره وأكرّره ، وقد تناول منديلاً بين يديه ؛ فما زال يبكي ويمسح دموعَه فيه وينتحب ؛ حتى رجع إلى منزله ، ولم يستتمّ شرب الرطليّة .

وذكر عن عليّ بن الجعدانة ، قال : لما احتُضر المعتصم جعل يقول : ذهبت الحيل ليس حيلة ، حتى أُصْمِتَ .

وذكر عن غيره أنه جعل يقول : إني أخِذت من بين هذا الخلق .

وذكر عنه أنه قال : لو علمت أنّ عمري هكذا قصير ما فعلتُ ما فعلت .

فلما مات دُفن بسامُرّا ؛ فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ويومين . وقيل : كان مولده سنة ثمانين ومائة في شعبان . وقيل : كان في سنة تسع وسبعين ومائة ؛ فإن كان مولده سنة ثمانين ومائة فإنّ عمره كله كان ستّاً وأربعين سنة وسبعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وإنْ كان مولده سنة تسع وسبعين ومائة ؛ فإنّ عمره كان سبعاً وأربعين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً .

وكان - فيما ذُكر - أبيض أصهب اللحية طويلَها ، مربوعاً مشرَب اللون حمرة ، حسن العينين .

وكان مولده بالخُلْدِ. وقال بعضهم : ولد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن .

وهو ثامن الخلفاء ، والثامن من ولد العباس ، وعمره كان ثمانياً وأربعين سنة .

ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر ، فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد قلتُ إذ غيَّبوك واصطَفَقَت ... عليك أيدٍ بالتُّرْبِ والطينِ

اذهبْ فنِعْم الحَفيظ كنتَ على الدّ ... نيا ونعم الظهيرُ للدينِ

لا جَبرَ اللهُ أمةً فَقَدَتْ ... مِثلكَ إلا بمثل هارون

وقال مَرْوان بن أبي الجنوب وهو ابن أبي حفصة :

أبو إسحاقَ ماتَ ضحىً فمتنا ... وأمسينا بهارون حُيِينا

لئن جاءَ الخميسُ بما كرهنا ... لقد جاءَ الخميسُ بما هوينا

ذكر الخبر عن بعض أخلاق المعتصم وسيره

ذُكِر عن ابن أبي دواد أنه ذكر المعتصم بالله ، فأسهب في ذكره ، وأكثر في وصفه ، وأطنب في فضله ، وذكَر من سعة أخلاقه وكَرَم أعراقه وطيب مرْكَبِه ولين جانبه ، وجميل عشرته ، فقال : قال لي يوماً ونحن بعمُّوريَّة : ما تقول في البُسْر يا أبا عبدالله ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ نحن ببلاد الروم والبُسر بالعراق ؛ قال : صدقت قد وجَّهت إلى مدينة السلام ، فجاؤوا بكِبَاستَيْن ، وعلمت أنك تشتهيه ، ثم قال : يا إيتاخ ، هات إحدى الكِبَاستين ، فجاء بكباسة بُسْر ، فمدّ ذراعه ، وقبض عليها بيده ، وقال : كُلْ بحياتي عليك من يدي ، فقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ! بل تضعها فآكل كما أريد ، قال : لا والله إلا من يدي ، قال : فوالله ما زال حاسراً عن ذراعه ، ومادّاً يده ، وأنا أجتبي من العِذْق ، وآكلُ حتى رمى به خالياً ما فيه بُسرة .

قال : وكنت كثيراً ما أزامله في سفره ذلك ؛ إلى أن قلت له يوماً : يا أمير المؤمنين ، لو زاملك بعضُ مواليك وبطانتك فاسترحتَ مني إليهم مرّة ، ومنهم إليّ مرة أخرى ، كان ذلك أنشط لقلبك ، وأطيب لنفسك ، وأشدّ لراحتك ، قال : فإنّ سِيما الدمشقي يزاملني اليوم ، فمن يزاملك أنت ؟ قلت : الحسن بن يونس ، قال : فأنت وذاك . قال : فدَعوت الحسن فزاملني . وتهيأ أن ركب المعتصم بغلا ، فاختار أن يكون

منفرداً ، قال : فجعل يسير بسير بعيري ، فإذا أراد أن يكلمني رفع رأسه إليّ ، وإذا أردتُ أن أكلمه خفضت رأسي ، قال : فانتهينا إلى وادٍ لم نعرف غَوره ؛ وقد خلفنا العسكر وراءنا ، فقال لي : مكانَك حتى أتقدّم . فأعرف غَوْر الماء وأطلب قلته ، واتبع أنت موضع سيري ، قال : فتقدّم فدخل الوادي ، وجعل يطلب قلة الماء ، فمرّة ينحرف عن يمينه ، ومرّة عن شماله ، وتارة يمشي لسَنَنِه ، وأنا خلفه متبع لأثره حتى قطعنا الوادي .

قال : واستخرجت منه لأهل الشاش ألفي ألف درهم لكَرْي نهرٍ لهم اندفن في صدر الإسلام ، فأضرّ ذلك بهم ، فقال لي : يا أبا عبدالله ، ما لي ولك ؛ تأخذ مالي لأهل الشاش وفَرْغانة ! قلت : هم رعيّتك يا أمير المؤمنين ، والأقصى والأدنى في حُسن نظر الإمام سواءٌ .

وقال غيره : إنه إذا غضب لا يبالي مَن قتل ولا ما فعل .

وذكر عن الفضل بن مروان أنه قال : لم يكن للمعتصم لَذّة في تزيين البناء ؛ وكانت غايته في الإحكام . قال : ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنّفقة في الحرب .

وذكر محمد بن راشد ، قال : قال لي أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم : دعاني أمير المؤمنين المعتصم يوماً ، فدخلت عليه وعليه صُدرة وشي ومنطقة ذهب وخفّ أحمر ، فقال لي : يا إسحاق ، أحببت أن أضرب معك بالصوالجة ، فبحياتي عليك إلاّ لبستَ مثل لباسي ، فاستعفيتُه مِنْ ذلك فأبى ، فلبست مثل لباسه ، ثم قُدّم إليه فرس محلاّة بحلية الذهب ، ودخلنا المَيْدان ، فلما ضرب ساعة ، قال لي : أراك كسلان ، وأحسبك تكره هذا الزّيّ ، فقلت : هو ذاك يا أمير المؤمنين ، فنزل وأخذ بيدِي ، ومضى يمشي وأنا معه إلى أن صار إلى حجرة الحمّام ، فقال : خذ ثيابي يا إسحاق ، فأخذت ثيابَه حتى تجرّد ، ثم أمرني بنزع ثيابي ففعلت ؛ ثم دخلنا أنا وهو الحمّام ، وليس معنا غلام ؛ فقمت عليه ودلكته ، وتولى أمير المؤمنين المعتصم مني مثل ذلك ، وأنا في كل ذلك أستعفيه ، فيأبى عليّ ، ثم خرج من الحمّام فأعطيته ثيابَه ، ولبست ثيابي ، ثم أخذ بيدي ومضى يمشي ؛ وأنا معه حتى صار إلى مجلسه فقال : يا إسحاق ؛ جئني بمصلًى ومخدّتين . فجئته بذلك ، فوضع المخدّتين ، ونام على وجهه ، ثم قال : هات مصلًى ومخدّتين ، فجئت بهما ، فقال : ألقِه ونم عليه بحذائي ، فحلفتُ ألاّ أفعلَ ، فجلست عليه ، ثم حضر إيتاخ التركيّ وأشناس ، فقال لهما : امضيا إلى حيث إذا صحت سمعتما ، ثم قال : يا أبا إسحاق ، في قلبي أمر أنا مفكّر فيه منذ مدّة طويلة ، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيَه إليك ، فقلت : قل يا سيدي يا أمير المؤمنين ؛ فإنما أنا عبدك وابن عبدك ، قال : نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعةً أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلْح أحدٌ منهم ؛ قلت : ومَن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ؛ فقد رأيتُ وسمعتُ ، وعبدالله بن طاهر ، فهو الرّجل الذي لم يُرَ مثله ، وأنت ، فأنت والله لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ! وأنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيتَ إلى ما صار أمْرُه ، وأشناس ففشِلَ آيه وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ! أجيب على أمانٍ من غضبك ، قال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين أعزّك الله نظر أخوك إلى الأصول ، فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها ، قال : يا إسحاق لمقاساةُ ما مرّ بي في طول هذه المدّة أسهلُ عليّ من هذا الجواب .

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، أنه قال : أتيتُ أمير المؤمنين المعتصم بالله يوماً وعنده قينة كان

معجَباً بها ، وهي تغنّيه ، فلما سلّمتُ وأخذت مجلسي ، قال لها : خذي فيما كنت فيه ، فغنّت فقال لي : كيف تراها يا إسحاق ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، أراها تقهره بحذْق وتختله برْفق ، ولا تخرج من شيء إلّا إلى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذور أحسن من نظم الدر على النحور ، فقال : يا إسحاق ، لَصفتُك لها أحسن منها ومن غنائها ، وقال لابنه هارون : إسمع هذا الكلام .

وذكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ أنه قال : قلت للمعتصم في شيء ، فقال لي : يا إسحاق ؛ إذا نصِر الهوى بطل الرّأي ، فقلت له : كنت أحبّ يا أمير المؤمنين أن يكون معي شبابي ، فأقوم مِنْ خدمتك بما أنويه ، قال لي : أوَلست كنت تبلغ إذ ذاك جهدك ؟ قلت : بلى ، قال : فأنت الآن تبلغ جهدك فسيّانِ إذاً .

وذكر عن أبي حسان أنه قال : كانت أمّ أبي إسحاق المعتصم من مولّدات الكوفة يقال لها ماردة .

وذكر عن الفضل بن مروان ، أنه قال : كانت أمّ المعتصم ماردة سُغدّية ، وكان أبوها نشأ بالسَّواد ، قال : أحسبه بالبَنْدَنيجين .

وكان للرشيد من ماردة مع أبي إسحاق ، أبو إسماعيل ، وأمّ حبيب ، وآخران لم يُعرف اسماهما .

وذكر عن أحمد بن أبي داود أنه قال : تصدّق المعتصم ووهب على يدي وبسببي بقيمة مائة ألف ألف درهم .

خلافة هارون الواثق أبي جعفر

وبُويع في يَوم تُوُفِّيَ المعتصم ابنه هارون الواثق بن محمد المعتصم ، وذلك في يوم الأربعاء لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ويكنى أبا جعفر ، وأمه أمّ ولد رومية تسمى قراطيس .

وهلك هذه السنة توفيل ملك الروم وكان ملكه اثنتي عشرة سنة .

وفيها ملكت بعده امرأته تذورة ، وابنها ميخائيل بن توفيل صبيّ .

وحجّ بالناس فيها جعفر بن المعتصم ، وكانت أم الواثق خرجت معه تريد الحج ، فماتت بالحيرة لأربع خلون من ذي القعدة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من الواثق إلى أشناس أن توّجه وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان .

وفيها مات أبو الحسن المدائنيّ في منزل إسحاق بن إبراهيم الموصليّ .

وفيها مات حبيب بن أوس الطائيّ أبو تمام الشاعر .

وفيها حجّ سليمان بن عبدالله بن طاهر .

وفيها غلا السعر بطريق مكة ، فبلغ رطل خبز بدرهم وراوية ماء بأربعين درهماً . وأصاب الناس في الموقف حرّ شديد ثم مطر شديد فيه برد ، فأضرّ بهم شدّة الحر ، ثم شدة البرد في ساعة واحدة ، ومُطروا بمنىً في يوم النحر مطراً شديداً لم يروا مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة قتلت عدّة من الحاج .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من حبس الواثق بالله الكتّاب وإلزامهم أموالاً ، فدفع أحمد بن إسرائيل إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ صاحب الحرس ، وأمر بضربه كلّ يوم عشرة أسواط ؛ فضربه - فيما قيل - نحواً من ألف سوط ، فأدى ثمانين ألف دينار . وأخذ من سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف دينار ، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار . وأخذ من أحمد بن الخصيب وكتّابه ألف ألف دينار ، ومن إبراهيم بن رَباح وكتّابه مائة ألف دينار ، ومن نجاح ستين ألف دينار ، ومن أبي الوزير صلحاً مائة ألف وأربعين ألف دينار ؛ وذلك سوى ما أخذ من العمّال بسبب عِمَالاتهم . ونصب محمد بن عبد الملك لابن أبي داود وسائر أصحاب المظالم العداوة ، فكُشفوا وحُبسوا ، وأجلس إسحاق بن إبراهيم ، فنظر في أمرهم وأقيموا للناس ولقوا كلّ جهد .

ذكر الخبر عن السبب الذي بعث الواثق على فعله ما ذكرت بالكتّاب في هذه السنة :

ذكر عن عزُّون بن عبد العزيز الأنصاريّ ، أنه قال : كنّا ليلة في هذه السنة عند الواثق . فقال : لست أشتهي الليلة النبيذ ؛ ولكن هلموا نتحدث الليلة ؛ فجلس في رواقه الأوسط في الهارونيّ في البناء الأول الذي كان إبراهيم بن رَبَاح بناه ؛ وقد كان في أحد شِقّي ذلك الرّواق قُبّةٌ مرتفعة في السماء بيضاء ، كأنها بيضة إلا قدْر ذراع - فيما ترى العين - حولها في وسطها ساج منقوش مغشى باللازورْد ، وكانت تسمّى قبة المنطقة ، وكان ذلك الرواق يسمّى رواق قبّة المنطقة .

قال : فتحدَّثنا عامة الليل ، فقال الواثق ، مَنْ منكم يعلم السبب الذي به وثب جدّي الرشيد على البرامكة فأزال نعمتهم ؟ قال عزّون : فقلت : أنا والله أحدّثك يا أميرَ المؤمنين ، كان سبب ذلك أن الرشيد ذُكرت له جارية لعوْن الخياط ، فأرسل إليها فاعترضها ، فرضِيَ جمالها وعقلها وحسن أدبها ، فقال لعون : ما تقول في ثمنها؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، أمر ثمنها واضح مشهور؛ حلفتُ بعتقها وعتق رقيقي جميعاً وصدقة مالي الأيمان المغلظة التي لا مخرج منها لي ، وأشهدت عليّ بذلك العدول ألاّ أنقص ثمنها عن مائة ألف دينار ، ولا أحتال في ذلك بشيء من الحيل ، هذه قضيتها . فقال أمير المؤمنين : قد أخذتها منك بمائة ألف دينار ، ثم أرسل إلى يحيى بن خالد يخبره بخبَر الجارية ، ويأمره أن يرسل إليه بمائة ألف دينار ، فقال يحيى : هذا مفتاح سوء ؛ إذا اجترأ في ثمن جارية واحدة على طلب مائة ألف دينار فهو أحْرَى أن يطلب المال على قدر ذلك ؛ فأرسل يخبره أنه لا يقدر على ذلك ، فغضب عليه الرّشيد ، وقال : ليس في بيت مالي مائة ألف دينار ،

فأعاد عليه : لا بدّ منها ، فقال يحيى : اجعلوها دراهم ، ليراها فيستكثرها ، فلعله يردّها ، فأرسل بها دراهم ، وقال : هذه قيمة مائة ألف دينار ، وأمر أن تُوضع في رواقه الذي يمرّ فيه إذا أراد المتوضّأ لصلاة الظهر . قال : فخرج الرّشيد في ذلك الوقت ، فإذا جبل من بِدَر ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : ثمن الجارية ، لم تحضر دنانير ، فأرسل قيمتها دراهم ، فاستكثر الرشيد ذلك ، ودعا خادماً له ، فقال : اضمم هذه إليك ، واجعل لي بيت مالي لأضمّ إليه ما أريد وسمّاه بيت مال العروس ، وأمر بردّ الجارية إلى عون ، وأخذ في التفتيش عن المال ، فوجد البرامكة قد استهلكوه ، فأقبل يهمّ بهم ويمسك ، فكان يرسل إلى الصحابة وإلى قوم من أهل الأدب من غيرهم فيسامرهم ، ويتعشّى معهم ؛ فكان فيمن يحضر إنسان كان معروفاً بالأدب ، وكان يعرف بكنيته يقال له أبو العُود ؛ فحضر ليلةً فيمن حضره ، فأعجبه حديثه ؛ فأمر خادماً له أن يأتيَ يحيى بن خالد إذا أصْبَح ، فيأمره أن يعطيَه ثلاثين ألف درهم ، ففعل ، فقال يحيى لأبي العود : أفعلُ ، وليس بحضرتنا اليوم مال ، غداً يجيء المال ، ونعطيك إن شاء الله . ثم دافعه حتى طالت به الأيام ، قال : فأقبل أبو العود يحتال أن يجد من الرشيد وقتاً يحرّضه فيه على البرامكة . وقد كان شاع في الناس ما كان يهمّ به الرشيد في أمرهم ـ فدخل عليه ليلةً ، فتحدّثوا ، فلم يزل أبو العود يحتال للحديث حتى وصله بقول عمر بن أبي ربيعة :

وَعَدَتْ هندٌ وما كانت تَعِدْ ... ليتَ هنداً أنْجزَتنا ما تَعِدْ
واسْتَبدتْ مرَّةً واحدةً ... إنما العاجز مَن لا يَسْتَبِدّْ

فقال الرشيد : أجل والله ؛ إنما العاجز من لا يستبدّ ، حتى انقضى المجلس . وكان يحيى قد اتخذ من خدم الرشيد خادماً يأتيه بأخباره ، وأصبح يحيى غادياً على الرَّشيد ، فلما رآه قال : قد أردت البارحة أن أرسل إليك بِشعرٍ أنشدنيه بعضُ مَنْ كان عندي ، ثم كرهت أن أزعجك ، فأنشده البيتين ، فقال : ما أحسنَها يا أمير المؤمنين ! وفطن لما أراد ، فلما انصرف أرسل إلى ذلك الخادم ، فسأله عن إنشاد ذلك الشعر ، فقال : أبو العود أنشده ، فدعا الوزير يحيى بأبي العود ؛ فقال له : إنا كنا قد لويناك بمالك ، وقد جاءنا مال ، ثم قال لبعض خدمه : اذهب فأعطه ثلاثين ألف درهم من بيت مال أمير المؤمنين ، وأعطه من عندي عشرين ألف درهم لمُطْلنا إياه ، واذهب إلى الفضل وجعفر فقل لهما هذا رجل مستحقّ أن يبرّ ، وقد كان أمير المؤمنين أمر له بمال فأطلْت مطله ، ثم حضر المال ؛ فأمرت أن يعطى ووصلتُه من عندي صِلة ، وقد أحببت أن تصلاه ، فسألاه : بكَم وصله قال : بعشرين ألف درهم ، فوصله كلّ واحد منهما بعشرين ألف درهم ؛ فانصرف بذلك المال كله إلى منزله ، وجدّ الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم ، وأزال نعمتهم ، وقتل جعفراً وصنع ما صنع .

فقال الواثق : صدق والله جدّي ؛ إنما العاجز من لا يستبدّ ! وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها .

قال عزُّون : أحسبه سيوقع بكتّابه ، فما مضى أسبوع حتى أوقع بكتّابه ، وأخذ إبراهيم بن رباح وسليمان بن وهب وأبا الوزير وأحمد بن الخصيب وجماعتهم . قال : وأمر الواثق بحبس سليمان بن وَهْب كاتب إيتاخ ، وأخذه بمائتي ألف درهم ـ وقيل دينار ـ فقيد وألبس مَدْرعة من مدارع الملاحين ، فأدّى مائة ألف درهم ، وسأل أن يؤخذ بالباقي عشرين شهراً ، فأجابه الوَاثق إلى ذلك ، وأمر بتخلية سبيله وردّه إلى كتابة إيتاخ ، وأمره بلبس السواد .

وفي هذه السنة وِليَ شاربامِيَان لإيتاخ اليمن وشَخص إليها في شهر ربيع الآخر .

وفيها وَلِيَ محمد بن صالح بن العباس المدينة .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود .

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

ذكر خبر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه الواثق بُغا الكبير إلى الأعراب الذين عاثوا بالمدينة وما حواليها.

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر أن بدء ذلك كان أن بني سُليم كانت تطاول على الناس حول المدينة بالشرّ وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤوا، ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالحجاز بناس من بني كنانة وباهلة ، فأصابوهم وقَتلوا بعضهم ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ، وكان رأسهم عُزيزة بن قطّاب السُّلَمِيّ . فوجّه إليهم محمدُ بن صالح بن العباس الهاشميّ ؛ وهو يومئذ عامل المدينة ؛ مدينة الرسول ﷺ حمادَ بن جرير الطبريّ ـ وكان الواثق وجّه حماداً مسلحةً للمدينة لئلا يتطرّقها الأعراب ، في مائتي فارس من الشاكريّة ـ فتوجّه إليهم حمّاد في جماعة من الجند ومَنْ تطوّع للخروج من قريش والأنصار ومواليهم وغيرهم من أهل المدينة ؛ فسار إليهم فلقيتْه طلائعهم . وكانت بنو سليم كارهة للقتال ، فأمر حماد بن جرير بقتالهم ، وحمل عليهم بموضع يقال له الرّوَيْثة من المدينة على ثلاث مراحل ؛ وكانت بنو سليم يومئذ وأمدادها جاؤوا من البادية في ستمائة وخمسين ، وعامة مَنْ لقيَهم من بني عَوف من بني سُلَيم ، ومعهم أشهب بن دُوَيكل بن يحيى بن حمير العوفيّ وعمه سلَمة بن يحيى وعُزيزة بن قطّاب اللَّبيديّ من بني لبيد بن سُليم ، فكان هؤلاء قوّادهم ، وكانت خيلهم مائة وخمسين فرساً ، فقاتلهم حماد وأصحابه ، ثم أتت بني سليم أمدادُها خمسمائة من موضع فيه بَدْوهم ؛ وهو موضع يسمّى أعلى الرويثة ، بينها وبين موضع القتال أربعة أميال ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت سودان المدينة بالناس ؛ وثبت حمّاد وأصحابه وقريش والأنصار ، فصلُوا بالقتال حتى قُتِل حمّاد وعامة أصحابه ؛ وقُتل مِمّن ثبت من قريش والأنصار عددٌ صالح ، وحازت بنو سُلَيم الكُراع والسلاح والثياب ؛ وغلُظ أمر بني سُلَيم ، فاستباحت القرى والمناهل ؛ فيما بينها وبين مكة والمدينة ؛ حتى لم يمكن أحداً أن يسلك ذلك الطريق ؛ وتطرّقوا مَنْ يليهم من قبائل العرب .

فوجّه إليهم الواثق بُغا الكبير أبا موسى التركيّ في الشاكرية والأتراك والمغاربة ، فقدِمها بُغا في شعبان سنة ثلاثين ومائتين ، وشخص إلى حَرّة بني سليم ، لأيام بقين من شعبان ؛ وعلى مقدّمته طردوش التركيّ ، فلقيهم ببعض مياه الحرّة ؛ وكانت الوقعة بشقّ الحرّة من وراء السُّوارِقيَّة ، وهي قريتهم التي كانوا يأوون إليها ـ والسوارقية حصون ـ وكان جُلّ من لقيه منهم من بني عوف فيهم عُزيزة بن قطّاب والأشهب ـ وهما رأسا القوّاد يومئذ ـ فقتَل بُغا منهم نحواً من خمسين رجلاً ، وأسر مثلهم ، فانهزم الباقون ، وانكشف بنو سليم لذلك ،

ودعاهم بُغا بعد الوقعة إلى الأمان على حُكْم أمير المؤمنين الواثق ، وأقام بالسوارِقيَّة فأتوْه ، واجتمعوا إليه ، وجمعهم من عشرة واثنين وخمسة وواحد ، وأخذ مَن جمعت السوارقيّة من غير بني سليم من أفناء الناس ، وهربت خُفَاف بني سُلَيم إلاّ أقلها ، وهي التي كانت تؤذي الناس ، وتطرّق الطريق ، وجلّ مَنْ صار في يده ممّن ثبت من بني عَوْف ، وكان اخر من أخذ منهم من بني حُبْشيّ من بني سُلَيم ، فاحتبس عنده من وُصف بالشرّ والفساد ؛ وهم زُهاء ألف رجل ، وخلّى سبيلَ سائرهم ؛ ثم رحل عن السوارقيّة بمَن صار في يده من أسارى بني سُلَيم ومستأمنيهمإلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين ومائتين ، فحبسهم فيها في الدّار المعروفة بيزيد بن معاوية ، ثم شخص إلى مكة حاجّاً في ذي الحجة ؛ فلمّا انقضى الموسم انصرف إلى ذات عرْق ، ووجه إلى بني هلال مَنْ عرض عليهم مثل الذي عَرض على بني سُلَيم فأقبلوا ،فأخذوا من مَردَتهم وعُتاتهم نحواً من ثلاثمائة رجل ، وخلّى سائرهم ، ورجع من ذات عِرْق وهي على مرحلة من البستان ، بينها وبين مكة مرحلتان .

وفي هذه السنة مات أبو العباس عبدالله بن طاهر بنيسابور يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول بعد موت أشناس التركيّ بتسعة أيام ومات عبدالله بن طاهر وإليه الحرب والشرطة والسّواد وخُراسان وأعمالها والريّ وطبرستان وما يتصل بها وكِرْمان ، وخراج هذه الأعمال كان يوم مات ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ؛ فولّى الواثق أعمال عبدالله بن طاهر كلها ابنه طاهراً .

وحجّ في هذه السنة إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، فولِيَ أحداث الموسم .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من أمر الفِداء الذي جرى على يد خاقان الخادم بين المسلمين والرّوم في المحرّم منها ، فبلغت عدّة المسلمين - فيما قيل - أربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين إنساناً .

وفيها قُتِل مَنْ قُتِل من بني سُليم بالمدينة في حبس بُغا .

ذكر الخبر عن سبب قتلهم وما كان من أمرهم :

ذكر أنّ بُغا لّما صار إليه بنو هلال بذات عِرْق ، فأخذ منهم مَنْ ذكرت أنه أخذ منهم ، شخص مُعْتمراً عُمْرة المحرَّم ، ثم انصرف إلى المدينة ، فجمع كلّ من أخذ من بني هلال واحتبسهم عنده مع الذين كان أخذ من بني سُليم ، وجمعهم جميعاً في دار يزيد بن معاوية في الاغلال والأقياد وكانت بنو سليم حُبِست قبل ذلك بأشهر . ثم سار بُغا إلى بني مرّة ، وفي حبس المدينة نحو من ألف وثلاثمائة رجل من بني سُليم وهلال ، فنقبوا الدار ليخرجوا ، فرأت امرأة من أهل المدينة النَّقْب ، فاستصرخت أهل المدينة فجاؤوا ، فوجدوهم قد وثبوا على الموكَّلين بهم ، فقتلوا منهم رجلاً أو رجلين ، وخرج بعضهم أو عامتهم ، فأخذوا سلاح الموكَّلين بهم ، واجتمع عليهم أهل المدينة ، أحرارهم وعبيدهم - وعامل المدينة يومئذ عبدالله بن أحمد بن داود الهاشميّ - فمنعوهم الخروج ، وباتوا محاصريهم حول الدار حتى أصبحوا ؛ وكان وثوبهم عشيّة الجمعة ؛ وذلك أن عُزيزة بن قَطّاب قال لهم : إني اتشاءم بيوم السبت ؛ ولم يزل أهل المدينة يتعقبون القتال ، وقاتلتْهم بنو سُليم ، فظهر أهل المدينة عليهم ، فقتلوهم أجمعين ، وكان عُزيزة يرتجز ، ويقول :

لا بُدَّ مِنْ زَحْم وإن ضاقَ البابْ ... إنـي أنـا عُـزَيـزة بـنُ الـقـطّابْ

لَلمـوْت خيـرٌ للفتَـى من العَـابْ ... هـذا وربِّـي عـمـلٌ لِـلبَـوَّابْ

وَقيْده في يده قد فكّه ، فرمى به رجلا ، فخرّ صريعاً ، وقُتلوا جميعاً ، وقتلت سودان المدينة مَنْ لقيت من الأعراب في أزقة المدينة ممّن دخل يمتار ، حتى لقوا أعرابيًّا خارجاً من قبر النبي ﷺ فقتلوه ؛ وكان أحد بني أبي بكر بن كلاب من ولد عبد العزيز بن زُرارة . وكان بُغا غائباً عنهم ؛ فلمّا قدم فوجدهم قد قُتِلوا شقَّ ذلك عليه ، ووجد منه وجداً شديداً .

وذُكر أن البوّاب كان قد ارتشى منهم ، ووعدهم أن يفتح لهم الباب ، فعجلوا قبل ميعاده ؛ فكانوا يرتجزون ويقولون وهم يقاتلون :

الموت خيرٌ للفتى مِنَ العارْ   قد أخَذَ البوابُ ألْف دينارْ

وجعلوا يقولون حين أخذهم بُغَا:

يا بُغيَة الخيْرِ وسَيْفَ المُنتبِه   وجانِبَ الجورِ البَعيدِ المشتَبِهْ
مَنْ كان منا جانِياً فلستُ بِهْ   افْعَلْ هَداكَ اللهُ ما أُمِرتَ بِهْ

فقال: أمِرْت أن أقتلَكم. وكان عُزَيزة بن قَطّاب رأس بني سُليم حين قتِل أصحابه صار إلى بئر، فدخلها، فدخل عليه رجل من أهل المدينة فقتله، وصُفَّت القتلى على باب مَرْوان بن الحكم؛ بعضُها فوق بعض.

وحدّثني أحمد بن محمد أن مؤذّن أهل المدينة أذّن ليلةَ حراستهم بني سليم بليل ترهيباً لهم بطلوع الفجر، وأنهم قد أصبحوا، فجعل الأعراب يضحكون، ويقولون: يا شرَبة السَّويق؛ تُعلموننا بالليل، ونحن أعلم به منكم! فقال رجل من بني سُليم:

متى كانَ ابنُ عباسٍ أميراً   يَصِلُّ لِصَقلِ نابيْهِ صَرِيفُ
يجورُ ولا يُرَدُّ الجَوْرُ منه   ويَسطو ما لِوَقعَتِهِ ضعيفُ
وقد كنا نَرُدُّ الجور عنَّا   إذا انتُضِيتْ بأيدينا السُّيوفُ
أميرُ المؤمنينَ سَمَا إلينا   سُمُوَّ الليثِ ثار من الغَرِيفِ
فإنْ يَمْنُنْ فَعَفْوَ اللهِ نرجو   وإن يَقتلْ فقاتِلنا شَرِيفُ

وكان سبب غَيْبة بُغا عنهم أنه توجه إلى فَدَك لمحاربة مَنْ فيها ممّن كان تغلّب عليها من بني فزارة ومُرّة؛ فلما شارفهم وجّه إليهم رجلا من فَزارة يعرض عليهم الأمان، ويأتيه بأخبارهم، فلمّا قدم عليهم الفزاريّ حذّرَهم سطوته، وزيّن لهم الهرب، فهربوا ودخلوا في البرّ، ودخلوا فَدَكَ إلاّ نفراً بقُوا فيها منهم؛ وكان قصدهم خَيْبَر وجَنَفاء ونواحيها؛ فظفر ببعضهم، واستأمن بعضهم، وهرب الباقون مع رأس لهم يقال له الرّكاض إلى موضع من البلْقاء من عمل دمشق، وأقام بُغا بجَنَفاء وهي قرية من حدّ عمل الشأم، مما يلي الحجاز نحواً من أربعين ليلة، ثم انصرف إلى المدينة بمن صار في يديه من بني مُرّة وفزارة.

وفي هذه السنة صار إلى بُغا من بطون غَطَفان وفَزارة وأشْجع جماعة؛ وكان وجّه إليهم وإلى بني ثعلبة؛ فلمّا صاروا إليه - فيما ذكر - أمر محمد بن يوسف الجعفريّ، فاستحلفهم الأيمان الموكدة ألاّ يتخلّفوا عنه متى دعاهم. فحلفوا، ثم شخص إلى ضَرِيَّة لطلب بني كِلاب، ووجّه إليهم رسلَه، فاجتمع إليه منهم - فيما قيل - نحو من ثلاثة آلاف رجل، فاحتبس منهم من أهل الفساد نحواً من ألف رجل وثلاثمائة رجل، وخلّى سائرهم، ثم قدم بهم المدينة في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فحبسهم في دار يزيد بن معاوية، ثم شخص إلى مكة بُغا، وأقام بها حتى شهِد الموسم، فبقي بنو كلاب في الحبس لا يجري عليهم شيءٌ مدّة غيبة بُغا؛ حتى رجع إلى المدينة، فلما صار إلى المدينة أرسل إلى مَنْ كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفَزارة فلم يجيبوه، وتفرّقوا في البلاد، فوجّه في طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد.

وفي هذه السنة تحرّك ببغداد قومٌ في رَبَض عمرو بن عطاء، فأخذوا على أحمد بن نصر الخُزاعي البيعة.

ذكر الخبر عن سبب حركة هؤلاء القوم وما آل إليه أمرهم وأمر أحمد بن نصر:

وكان السبب في ذلك أنّ أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخُزاعيّ - ومالك بن الهيثم أحد نقباء بني العبّاس، وكان ابنه أحمد يغْشاه أصحاب الحديث؛ كيحيى بن مَعين وابن الدَّوْرَقيّ وابن خَيْثمة، وكان يُظهر المباينة لمن يقول: القرآن مخلوق؛ مع منزلة أبيه كانت من السلطان في دولة بني العباس، ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك، مع غِلْظة الواثق كانت على من يقول ذلك وامتحانه إياهم فيه، وغلبة أحمد بن أبي دواد عليه - فحدثني بعض أشياخنا، عمّن ذكره، أنه دخل على أحمد بن نصر في بعض تلك الأيام وعنده جماعة من الناس، فذُكر عنده الواثق، فجعل يقول: ألاّ فعل هذا الخنزير! أو قال: هذا الكافر؛ وفشا ذلك من أمره، فخُوِّف بالسلطان، وقيل له: قد اتّصل أمرُك به، فخافه.

وكان فيمن يغشاه رجل - فيما ذكر - يعرف بأبي هارون السرّاج وآخر يقال له طالب، وآخر من أهل خُراسان من أصحاب إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب صاحب الشرْطة ممّن يظهر له القول بمقالته، فحرّك المطيفون به - يعني أحمد بن نصر - من أصحاب الحديث، وممّن ينكر القول بخلْق القرآن من أهل بغداد - أحمد، وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلْق القرآن، وقصدوه بذلك دون غيره، لما كان لأبيه وجدّه في دولة بني العباس من الأثَر، ولَمّا كان له ببغداد،وأنه كان أحدَ مَنْ بايع له أهل الجانب الشرقيّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسمع له في سنة إحدى ومائتين، لَمّا كثر الدّعّار بمدينة السلام، وظهر بها الفساد والمأمون بخراسان؛ وقد ذكرنا خبره فيما مضى. وأنه لم يزل أمره على ذلك ثابتاً إلى أن قدم المأمون بغداد في سنة أربع ومائتين، فرجوا استجابة العامة له إذا هو تحرّك للأسباب التي ذكرت.

فذكر أنه أجاب من سأله ذلك؛ وأنّ الذي كا يسعى له في دعاء الناس له الرجلان اللذان ذكرت اسميهما قبل. وأن أبا هارون السرّاج وطالباً فرّقا في قوم مالا، فأعطيا كلّ رجل منهم ديناراً ديناراً، وواعداهم ليلةً يضربون فيها الطَّبْل للاجتماع في صبيحتها للوثوب بالسلطان؛ فكان طالب بالجانب الغربيّ من مدينة السَّلام فيمن عاقده على ذلك، وأبو هارون بالجانب الشرقيّ فيمن عاقده عليه؛ وكان طالب وأبو هارون أعطيا فيمَنْ أعطيا رجلين من بني أشرس القائد دنانير يفرّقانها في جيرانهم، فانتبذ بعضُهم نبيذاً، واجتمع عدّة منهم على شربه، فلمّا ثمِلوا ضربوا بالطبل ليلة الأربعاء قبل الموعد بليلة؛ وكان الموعد لذلك ليلة الخميس في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، لثلاث تخلو منه، وهم يحسبونها ليلة الخميس التي اتّعدوا لها، فأكثروا ضرب الطبْل، فلم يجبهم أحد. وكان إسحاق بن إبراهيم غائباً عن بغداد وخليفته بها أخوه محمد بن إبراهيم، فوجّه إليهم محمد بن إبراهيم غلاماً له يقال له رَحش، فأتاهم فسألهم عن قصّتهم، فلم يظهر له أحد ممن ذكر بضرب الطَّبْل، فدُلّ، على رجل يكون في الحمامات مصاب بعينه، يقال له عيسى الأعور، فهدّده بالضرب، فأقرّ على ابني أشرس وعلى أحمد بن نصر بن مالك وعلى آخرين سمّاهم، فتتبّع القوم من ليلتهم؛ فأخذ بعضهم، وأخذ طالباً ومنزلُه في الرَّبض من الجانب الغربي، وأخذ أبا هارون السرّاج ومنزله في الجانب الشرقيّ، وتتبّع مَنْ سمّاه عيسى الأعور في أيام وليال، فصُيِّروا في الحبس في الجانب الشرقيّ والغربيّ، كلُّ قوم في ناحيتهم التي أخِذوا فيها، وقيّد أبو هارون وطالب بسبعين رطلاً من الحديد كلّ واحد منهما، وأصيب في منزل ابني أشرس عَلَمان أخضران فيهما حُمرة في بئر، فتولّى

إخراجها، رجل من أعوان محمد بن عيّاش ـ وهو عامل الجانب الغربيّ، وعامل الجانب الشرقيّ العباس بن محمد بن جبريل القائد الخراسانيّ ـ ثم أخِذَ خصيّ لأحمد بن نصر فتُهُدِّد، فأقرّ بما أقرّ به عيسى الأعور، فمضى إلى أحمد بن نصر وهو في الحمّام، فقال لأعوان السلطان: هذا منزلي؛ فإن أصبتم فيه عَلَماً أو عُدَّة أو سلاحاً لفتنة فأنتم في حِلّ منه ومن دمِي؛ ففتش فلم يُوجد فيه شيء، فحمِل إلى محمد بن إبراهيم بن مصعب وأخذوا خصيّين وابنين له ورجلاً ممن كان يغشاه يقال له إسماعيل بن محمد بن معاوية بن بكر الباهليّ، ومنزله بالجانب الشرقيّ، فحمِل هؤلاء الستة إلى أمير المؤمنين الواثق وهو بسامرّا على بغال بأكُفٍ ليس تحتهم وطاء، فَقيِّد أحمد بن نصر بزوج قيود، وأخرِجوا من بغداد يوم الخميس لليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وكان الواثق قد أعلِم بمكانهم، وأحضر ابن أبي دواد وأصحابه، وجلس لهم مجلساً عامًّا ليُمتحنوا امتحاناً مكشوفاً، فحضر القوم واجتمعوا عنده.

وكان أحمد بن أبي دواد ـ فيما ذكر ـ كارهاً قتله في الظاهر؛ فلما أتِيَ بأحمد بن نصر لم يناظره الواثق في الشَّغْب ولا فيما رُفع عليه من إرادته الخروج عليه؛ ولكنه قال له: يا أحمد، ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله ـ وأحمد بن نصر مستقتل قد تنوّر وتطيّب، قال: أفمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربّك، أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ترَوْن ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته»؛ فنحن على الخبر. قال: وحدّثني سفيان بن عيينة بحديث يرفعه: «أن قلب ابن آدم بين إصبعينْ من أصابع الله يقلِّبه»؛ وكان النبيّ ﷺ يدعو: «يا مقلِّب القلوب، ثبت قلبي على دينك»؛ فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك! انظر ماذا تقول! قال: أنت أمرتني بذلك؛ فأشفق إسحاق من كلامه، وقال: أنا أمرتُك بذلك! قال: نعم، أمَرتَني أن أنصح له إذا كان أمير المؤمنين، ومِنْ نصيحتي له ألّا يخالِف حديث رسول الله ﷺ. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فأكثروا، فقال عبد الرحمن بن إسحاق ـ وكان قاضياً على الجانب الغربيّ فعزِل؛ وكان حاضراً وكان أحمد بن نصر ودًّا له ـ: يا أمير المؤمنين؛ هو حلال الدمّ، وقال أبو عبدالله الأرمنيّ صاحب ابن أبي دواد: اسقني دمَه يا أمير المؤمنين، فقال الواثق: القتل يأتي على ما تريد، وقال ابن أبي دواد: يا أميرَ المؤمنين كافر يُستتاب؛ لعلّ به عاهة أو تَغيُّر عقل ـ كأنه كره أن يقتَل بسببه ـ فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قـمتُ إليه، فلا يقومنّ أحد معي، فإني أحتسب خُطاي إليه. ودعا بـالصَّماصمـة ـ سيف عمرو بن معد يكرب الزّبيديّ وكان في الخزانة، كان أهدِي إلى موسى الهادي، فأمر سَلْماً الخاسر الشاعر أن يصفه له، فوصفه فأجازَه ـ فأخذ الواثق الصّمصامة ـ وهي صفيحة موصولة من أسفلها مسمورة بثلاثة مسامير تجمع بين الصّفيحة والصلة ـ فمشى إليه وهو في وسط الدار، ودعا بنطع فصيِّر في وسطه، وحبْل فشُدَّ رأسه، ومُدّ الحبل، فضربه الواثق ضربة، فوقعت على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم انتضى سِيَما الدمشقيّ سيفه، فضرب عنقه وحزّ رأسه.

وقد ذُكر أن بُغا الشرابيّ ضربه ضربة أخرى، وطعنه الواثق بطرف الصَّمْصامة في بطنه، فحمِل معترضاً حتى أتِيَ به الحَظِيرة التي فيها بابك، فصلِب فيها وفي رجله زَوْج قيود، وعليه سراويل وقميص، وحمِل رأسه إلى بغداد، فنُصب في الجانب الشرقيّ أياماً، وفي الجانب الغربيّ أياماً، ثم حُوّل إلى الشرقيّ، وحُظر على الرأس حظيرة، وضرِب عليه فسطاط، وأقيم عليه الحرس، وعُرف ذلك الموضع برأس أحمد بن نصر؛ وكتب في أذنه رُقْعة: هذا رأس الكافر المشرك الضالّ؛ وهو أحمد بن نصر بن مالك؛ ممّن قتله الله على يدي عبد الله هارون

الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خَلْق القرآن ونفي التشبيه، وعرَض عليه التوبة، ومكّنه من الرجوع إلى الحق؛ فأبى إلا المعاندة والتصريح، والحمد لله الذي عجّل به إلى ناره وأليم عقابه. وإنّ أمير المؤمنين سأله عن ذلك؛ فأقرّ بالتشبيه وتكلّم بالكفر، فاستحلّ بذلك أمير المؤمنين دَمه، ولعنه.

وأمر أن يُتتبع من وُسِم بصحبة أحمد بن نصر؛ ممن ذُكر أنه كان متشايعاً له؛ فوُضِعوا في الحبوس، ثم جُعل نيِّف وعشرون رجلا وسُموا في حبوس الظلمة؛ ومُنعوا من أخذ الصدقة التي يُعطاها أهل السجون، ومُنِعوا من الزُّوّار، وثقّلوا بالحديد. وحمِل أبو هارون السراج وآخَرُ معه إلى سامرّا، ثم رُدُّوا إلى بغداد، فجُعلوا في المحابس.

وكان سبب أخذ الذين أخِذوا بسبب أحمد بن نصر، أنّ رجلا قصّاراً كان في الرَّبض جاء إلى إسحاقَ بن إبراهيم بن مصعب، فقال: أنا أدلّك على أصحاب أحمد بن نصر، فوجّه معه من يتبعهم؛ فلمّا اجتمعوا وجدوا على القصّار سبباً حبسوه معهم؛ وكان له في المِهْر زار نخل، فقُطع وانتُهبَ منزله؛ وكان ممن حُبس بسببه قوْم من ولد عمرو بن اسفنديار، فماتوا في الحبس؛ فقال بعض الشعراء في أحمد بن أبي دواد:

مـا إنْ تـحـوّلـتَ مـن إيـادِ صِـرْتَ عـذابـاً عـلى الـعـبـادِ
أنـتَ كـمـا قـلـتَ مـن إيـادِ فـارْفقْ بهـذا الـخلقِ يـا إيـادِي

وفي هذه السنة أراد الواثق الحجّ، فاستعدّ له، ووجّه عمر بن فرَج إلى الطريق لإصلاحه، فرجع فأخبره بقلّة الماء فبدا له.

وحجّ بالناس فيها محمد بن داود بن عيسى.

وفيها ولّى الواثق جعفر بن دينار اليمن، فشخص إليها في شعبان. وحجّ هو وبُغا الكبير، وعلى أحداث الموسم بُغا الكبير؛ وكان شخوص جعفر إلى اليمن في أربعة آلاف فارس وألفي راجل وأعطي رزق ستةّ أشهر.

وعقد محمد بن عبد الملك الزيات لإسحاق بن ابراهيم بن أبي خَمِيصة مولى بني قُشير من أهل أضاخ فيها على اليمامة والبحرين وطريق مكة، مما يلي البصرة في دار الخلافة؛ ولم يذكر أن أحداً عقد لأحد في دار الخلافة إلّا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيّات.

وفي هذه السنة نقب قوم من اللصوص بيت المال الذي في دار العامّة في جوف القصر، وأخذوا اثنين وأربعين ألفاً من الدراهم؛ وشيئاً من الدنانير يسيراً، فأخِذوا بعدُ وتتبع أخذهم يزيد الحلوانيّ، صاحب الشرطة خليفة إيتاخ.

وفيها خرج محمد بن عمرو الخارجيّ من بني زيد بن تغلب في ثلاثة عشر رجلا في ديار ربيعة، فخرج إليه غانم بن أبي مسلم بن حُميد الطوسيّ، وكان على حرب الموصل في مثل عدّته، فقتل من الخوارج أربعة، وأخِذ محمد بن عمرو أسيراً فبعث به إلى سامرّا، فبعث به إلى مطبق بغداد، ونُصبت رؤوس أصحابه وأعلامه عند خشبة بابك.

وفي هذه السنة قدم وصيف التركيّ من ناحية أصبهان والجبال وفارس؛ وكان شخص في طلب الأكراد، لأنهم قد كانوا تطرّقوا إلى هذه النواحي، وقدم معه منهم بنحو من خمسمائة نفس؛ فيهم غلمان صغار، جمعهم

في قيود وأغلال؛ فأمر بحبسهم، وأجيز وصيف بخمسة وسبعين ألف دينار، وقلّد سيفاً وكُسيَ.

وفي هذه السنة، تمّ الفداء بين المسلمين وصاحب الرُّوم، واجتمع فيها المسلمون والرُّوم على نهر يقال له اللمس على سَلُوقيَةَ علَى مسيرة يوم من طَرَسُوس.

ذكر الخبر عن سبب هذا الفداء وكيف كان:

ذُكر عن أحمد بن أبي قَحْطَبة صاحب خاقان الخادم ـ وكان خادم الرشيد، وكان قد نشأ بالثغر ـ أنّ خاقان هذا قدِم على الواثق، وقدم معه نفر من وجوه أهل طَرَسوس وغيرها يشكون صاحب مظالم كان عليهم، يكنى أبا وهب؛ فأحضِر، فلم يزل محمد بن عبد الملك يجمع بينه وبينهم في دار العامّة عند انصراف الناس يوم الاثنين والخميس، فيمكثون إلى وقت الظهر؛ وينصرف محمد بن عبد الملك وينصرفون، فعُزل عنهم، وأمر الواثق بامتحان أهل الثغور في القرآن، فقالوا بخلقه جميعاً؛ إلا أربعة نفر؛ فأمر الواثق بضرب أعناقهم إن لم يقولوه، وأمر لجميع أهل الثغور بجوائز على ما رأى خاقان، وتعجّل أهلُ الثغور إلى ثغورهم، وتأخّر خاقان بعدهم قليلا؛ فقدم على الواثق رسلُ صاحب الروم ـ وهو ميخائيل بن توفيل بن ميخائيل بن أليون بن جورجس ـ يسأله أن يفادِيَ بمن في يده من أسارى المسلمين، فوجّه الواثق خاقان في ذلك، فخرج خاقان ومَنْ معه في فداء أسارى المسلمين في آخر سنة ثلاثين ومائتين على موعد بين خاقان ورسل صاحب الرّوم للالتقاء للفداء في يوم عاشوراء؛ وذلك في العاشر من المحرّم سنة إحدى وثلاثين ومائتين. ثم عقد الواثق لأحمد بن سعيد بن سلْم بن قتيبة الباهليّ على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء؛ فخرج على سبعة عشر من البُرُد وكان الرسل الذين قدموا في طلب الفداء قد جرى بينهم وبين ابن الزيّات اختلاف في الفِداء، قالوا: لا نأخذ في الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبيًّا، فلم يزل ذلك بينهم أياماً حتى رضُوا عن كلّ نفس بنفس.

فوجّه الواثق إلى بغداد والرّقة في شرى مَنْ يباع من الرقيق من مماليك، فاشترى مَنْ قدرَ عليه منهم، فلم تتمّ العدة، فأخرج الواثق من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهنّ؛ حتى تمّت العِدّة، ووجّه ممن مع ابن أبي دواد رجلين، يقال لأحدهما يحيى بن آدم الكرخيّ، ويكنى أبا رملة، وجعفر بن أحمد بن الحذّاء؛ ووجّه معهما كاتباً من كتّاب العرْض، يقال له طالب بن داود، وأمره بامتحانهم هو وجعفر، فمن قال: القرآن مخلوق فودي به، ومن أبى ذلك تُرك في أيدي الروم؛ وأمَرَ لطالب بخمسة آلاف درهم؛ وأمر أن يعطوا جميع من قال: إن القرآن مخلوق؛ ممن فُودِي به ديناراً لكل إنسان من ماله حُمل معهم، فمضى القوم.

فذكر عن أحمد بن الحارث أنه قال: سألت ابن أبي قحطبة صاحب خاقان الخادم ـ وكان السفير الموجّه بين المسلمين والروم، وُجِّه ليعرف عدّة المسلمين في بلاد الروم. فأتى ملك الروم وعرف عدّتهم قبل الفداء ـ فذكَر أنه بلغت عِدّتهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة؛ فأمر الواثق بفدائهم، وعجّل أحمد بن سعيد على البَريد ليكون الفِداء على يديه؛ ووجّه من يمتحن الأسراء من المسلمين، فمن قال منهم: إنّ القرآن مخلوق، وإنّ الله عزّ وجلّ لا يُرى في الآخرة فُودي به؛ ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الرّوم، ولم يكن فداء منذ أيام محمد بن زبيدة في سنة أربع أو خمس وتسعين ومائة.

قال: فلما كان يوم عاشوراء، لعشر خلوْن من المحرم سنة إحدى وثلاثين ومائتين، اجتمع المسلمون ومَنْ معهم من العُلوج وقائدان من قوّاد الروم؛ يقال لأحدهما أنقاس وللآخر لمسنوس، والمسلمون والمطوّعة في أربعة آلاف بين فارس وراجل، فاجتمعوا بموضع يقال له اللمس؛ فذكر عن محمد بن أحمد بن سعيد بن قتيبة الباهليّ أن كتاب أبيه أتاه، أنّ من فُودِي به من المسلمين ومَنْ كان معهم من أهل ذمتهم أربعة آلاف وستمائة إنسان؛ منهم صبيان ونساء ستمائة؛ ومنهم من أهل الذمّة أقلّ من خمسمائة والباقون رجالٌ من جميع الآفاق.

وذكر أبو قحطبة ـ وكان رسول خاقان الخادم إلى ملك الروم لينظر كَمْ عِدد الأسرى، ويعلم صحّة ما عزم عليه ميخائيل ملك الروم ـ أنّ عدد المسلمين قبل الفِداء كان ثلاث آلاف رجل وخمسمائة امرأة وصبيّ، ممّن كان بالقسطنطينية وغيرها؛ إلا مَنْ أحضره الرّوم ومحمد بن عبد الله الطرسوسيّ ـ وكان عندهم ـ فأوفده أحمد بن سعيد بن سلْم وخاقان مع نَفر من وجوه الأسرى على الواثق، فحملهم الواثق على فرس فرس؛ وأعطى لكلّ رجل منهم ألف درهم.

وذكر محمد هذا أنه كان أسيراً في أيدي الرّوم ثلاثين سنة، وأنه كان أسِر في غزاة رامية كان في العلّافة فأسِر، وكان فيمن فُودي به في هذا الفداء، وقال: فودِيَ بنا في يوم عاشوراءعلى نهر يقال له اللامس، على سَلوقيَة قريباً من البحر، وأنّ عِدتهم كانت أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً؛ النساء وأزواجهنّ وصبيانهنّ ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة أو أكثر، فوقع الفداء كلّ نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً، فاستفرغ خاقان جميعَ مَنْ كان في بلد الرّوم من المسلمين ممن علم موضعه.

قال: فلمّا جُمعوا للفداء، وقف المسلمون من جانب النهر الشرقيّ والرّوم من الجانب الغربيّ ـ وهو مخاضة ـ فكان هؤلاء يرسلون من ها هنا رجلا وهؤلاء من ها هنا رجلا، فيلتقيان في وسط النهر، فإذا صار المسلم إلى المسلمين كبّر وكبّروا، وإذا صار الروميّ إلى الروم تكلم بكلامهم، وتكلموا شبيهاً بالتكبير.

وذكر عن السنديّ مولى حسين الخادم، أنه قال: عقد المسلمون جسراً على النهر، وعقد الرُّوم جسراً؛ فكنا نرسل الروميّ على جسرنا ويرسل الروم المسلم على جسرهم؛ فيصير هذا إلينا وذاك إليهم، وأنكر أن يكون مخاضَة.

وذكر عن محمد بن كريم أنه قال: لما صرنا في أيدي المسلمين، امتحَنَنا جعفر ويحيى، فقلنا، وأعطينا دينارين دينارين.

قال: وكان البطريقان اللذان قدما بالأسرى لا بأس بهما في معاشرتهما.

قال: وخاف الرّوم عدد المسلمين لقلّتهم وكثرة المسلمين؛ فآمنهم خاقان من ذلك، وضرب بينهم وبين المسلمين أربعين يوماً لا يُغْزَون حتى يصلوا إلى بلادهم ومأمنهم؛ وكان الفداء في أربعة أيام، ففضل مع خاقان ممن كان أمير المؤمنين أعدّ لفداء المسلمين عدّة كبيرة، وأعطى خاقان صاحب الروم ممن كان قد فضل في يده مائة نفس؛ ليكون عليهم الفضل استظهاراً مكان مَنْ يخشى أن يأسروه من المسلمين إلى انقضاء المدّة، وردّ الباقين إلى طَرَسوس، فباعهم.

قال: وكان خرج معنا ممن كان تنصّر ببلاد الروم من المسلمين نحوٌ من ثلاثين رجلا فُودي بهم.

قال محمد بن كريم: ولما انقضت المدّة بين خاقان والرّوم الأربعون يوماً، غزا أحمد بن سعيد بن سلم بن قُتيبة، فأصاب الناس الثلج والمطر، فمات منهم قَدْر مائتي إنسان وغرِق منهم في البَدَنْدُون قوم كثير، وأسِر منهم نحو من مائتين؛ فوجد، أمير المؤمنين الواثق عليه لذلك، وحصل جميع مَنْ مات وغرق خمسمائة إنسان؛ وكان أقبل إلى أحمد بن سعيد وهو في سبعة آلاف بِطْريق من عظمائهم فجبُنَ عنه، فقال له وجوه الناس: إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا يتخوّف عليه؛ فإن كنت لا تواجه القوم فتطرّق بلادهم. فأخذ نحواً من ألف بقَرة وعشرة آلاف شاة، وخرج فعزله الواثق، وعقد لنصر بن حمزة الخُزاعيّ يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيتْ من جمادى الأولى من هذه السنة.

وفي هذه السنة مات الحسن بن الحسين، أخو طاهر بن الحسين بطبَرِستان في شهر رمضان.

وفيها مات الخطاب بن وجه الفُلْس.

وفيها مات أبو عبد الله الأعرابيّ الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من شعبان وهو ابن ثمانين سنة.

وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت عليّ بن موسى الرضيّ.

وفيها مات مخارق المغني، وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعيّ، وعمرو بن أبي عمرو الشيبانيّ ومحمد بن سعدان النحويّ.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مسير بغا الكبير إلى بني نمير حتى أوقع بهم.

ذكر الخبر عن سبب مسيره إليهم وكيف كان الأمر بينه وبينهم:

حدثني أحمد بن محمد بن مخلد بمُعْظم خبرهم؛ وذكر أنه كان مع بُغا في ذلك السفر، وأما سياق الكلام فلغيره. ذكر أنّ سبب شخوص بُغا إلى بني نُمير كان أنّ عُمارة بن عُقَيل بن بلال بن جرير بن الخَطَفي امتدح الواثق بقصيدة، فدخل عليه فأنشده إياها، فأمر له بثلاثين ألف درهم؛ وبنُزُل فكلّم عُمارة الواثق في بني نُمير، وأخبره بعبثهم وفسادهم في الأرض، وإغارتهم على الناس وعلى اليمامة وما قرب منها؛ فكتب الواثق إلى بُغا يأمره بحربهم.

فذكر أحمد بن محمد أنّ بُغا لمّا أراد الشخوص من المدينة إليهم حمل معه محمد بن يوسف الجعفريّ دليلاً له على الطريق، فمضى نحو اليمامة يُريدهم، فلقي منهم جماعة بموضع يقال له الشُّريف؛ فحاربوه، فقتل بُغا منهم نيِّفا وخمسين رجلا، وأسر نحواً من أربعين، ثم سار إلى حُظَيَّان، ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة، فنزل بها، ثم تابع إليهم رسله، يَعرض عليهم الأمان، ودعاهم إلى السمع والطاعة؛ وهم في ذلك يمتنعون عليه، ويشتمون رسله، ويتفلّتون إلى حرب، حتى كان آخر من وجّه إليهم رجلين؛ أحدهما من بني عديّ من تميم والآخر من بني نُمير، فقتلوا التميميّ وأثبتوا النميريّ جراحاً؛ فسار بُغا إليهم من مرأة. وكان مسيره إليهم في أول صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، فورد بطن نخل، وسار حتى دخل نُخَيلة، وأرسل إليهم أن ائتوني، فاحتملت بنو ضَبّة من نمير، فركبت جبالها مياسر جبال السَّوْد - وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله باهلة - فأرسل إليهم فأبوا أن يأتوه، فأرسل إليهم سريّة فلم تدركهم، فوجّه سرايا، فأصابت فيهم وأسرت منهم. ثم إنه أتبعهم بجماعة مَنْ معه وهم نحو من ألف رجل سوى من تخلّف في العسكر من الضعفاء والأتباع، فلقيهم وقد جمعوا له، وحشدوا لحربه، وهم يومئذ نحو من ثلاثة آلاف، بموضع يقال له روضة الأبَان وبطن السرّ من القرْنين على مرحلتين، ومن أضاخ على مرحلة؛ فهزموا مقدّمته، وكشفوا ميسرته، وقتلوا من أصحابه نحواً من مائة وعشرين أو مائة وثلاثين رجلاً، وعقروا من إبل عسكره نحواً من سبعمائة بعير ومائة دابة. وانتهبوا الأثقال وبعض ما كان مع بُغا من الأموال.

قال لي أحمد لقيهم بُغا وهجم عليهم، وغلَبه الليل، فجعل بُغا يناشدهم، ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين، ويكلّمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفريّ، فجعلوا يقولون له: يا محمد بن يوسف، قد

والله ولدناك فما رعيتَ حُرمة الرَّحِم، ثم جئتَنا بهؤلاء العبيد والعلُوج تقاتلنا بهم! والله لنرينّك العبر، ونحو ذلك من القول.

فلما دنا الصبح قال محمد بن يُوسف لبُغا: أوقع بهم من قبل أن يضيء الصبح، فيروْا قِلَّة عددنا، فيجترئوا علينا، فأبى عليه؛ فلمَّا أضاء الصبح ونظروا إلى عدد مَنْ مع بُغا ـ وكانوا قد جعلوا رجَّالتهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونَعمهم ومواشيهم من ورائهم ـ حملوا علينا، فهزمونا حتى بلغت هزيمتنا معسكرنا، وأيقنَّا بالهلكة.

قال: وكان قد بلغ بُغا أنّ خيلاً لهم بمكان من بلادهم، فوجَّه من أصحابه نحواً من مائتي فارس إليها. قال: فبينا نحن فيما نحن فيه من الإشراف على العَطَب، وقد هزِم بُغا ومَنْ معه إذ خرجت الجماعة التي كان بُغا وجّهها من الليل إلى تلك الخيل، وقد أقبلت منصرِفة من الموضع الذي وُجِّهت إليه من العسكر في ظهور بني نُمير، وقد فعلوا ما فعلوا ببُغا وأصحابه، فنفخوا في صَفَّاراتهم؛ فلما سمعوا نَفْخَ الصّفارات، ونظروا إلى مَنْ خرج عليهم في أدبارهم، قالوا: غَدَر والله العبد، وولَّوْا هاربين، وأسلم فرسانهم رجَّالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عليهم.

قال لي أحمد بن محمد: فلم يفلت من رجَّالتهم كثير أحد؛ حتى قُتلوا عن آخرهم؛ وأما الفرسان فطاروا هُرّاباً على ظهور الخيل.

وأما غير أحمد بن محمد فإنه قال: لم تزل الهزيمة على بُغا وأصحابه منذ غدوة إلى انتصاف النهار؛ وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ثنتين وثلاثين ومائتين، ثم تشاغلوا بالنَّهب وعَقْر الإبل والدوابّ حتى ثاب إلى بُغا من كان انكشف من أصحابه، واجتمع إليه مَنْ كان تفرّق عنه، فكرُّوا على بني نُمير، فهزمهم وقتل منهم منذ زوال الشمس إلى وقت العصر زهاء ألف وخمسمائة رجل. وأقام بُغا بموضع الوقعة على الماء المعروف ببطن السرّ، حتى جُمعت له رؤوس مَنْ قتِل من بني نمير، واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام.

فحدثني أحمد بن محمد أنّ مَنْ هرب من فرسان بني نمير من الوقعة أرسلوا إلى بُغا يطلبون منه الأمان؛ فأعطاهم الأمان، فصاروا إليه، فقيَّدهم وأشخصهم معه.

وأمَّا غيره فإنه قال: سار بُغا من موضع الوقعة في طلب من شذّ عنه منهم، فلم يدرك إلّا الضعيف ممن لم يكن له نهوض منهم وبعض المواشي والنَّعَم، ورجع إلى حصن باهلة. قال: وإنما قاتل بُغا من بني نُمير بنو عبدالله بن نُمير وبنو بُسْرة وبلحَجَّاج وبنو قَطَن وبنو سلاه وبنو شُرَيح وبطون من الخوالف ـ وهم من بني عبدالله بن نمير، ولم يكن في القتال من بني عامر بن نُمير إلا القليل ـ وبنو عامر بن نُمير أصحاب نخل وشاء، وليسوا أصحاب خيل، وعبدالله بن نمير هي التي تحارب العرب ـ فقال عُمارة بن عَقيل لبُغا:

تـرَكـتَ الأعـقـفـين وبـطْنَ قـوٍّ ومَـلأتَ السجـونَ من القمـاشِ

فحدثني أحمد بن محمد أنّ الذين دخلوا إلى بُغا بالأمان من بني نُمير لَمَّا قيدهم وحبسهم وأشخصهم معه شَغَبُوا في الطريق، وحاولوا كسر قُيودهم والهرب، فأمر بإحضارهم واحداً بعد واحد؛ فكان إذا حضر الواحد يضربه ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة وأقلّ من ذلك وأكثر؛ فزعم أحمد أنه حضر ضربهم ولم ينطق منهم ناطق يتوجَّع من الضرب؛ وأنه أحضر منهم شيخ قد عَلّق في عنقه مصحفاً، ومحمد بن يوسف جالس إلى جنب بُغا،

فضحك منه محمد بن يوسف، وقال لبُغا: هذا أخبث ما كان ـ أصلحك الله ـ حين علَّق المصحف في عنقه! فضربه أربعمائة أو خمسمائة، فما توجَّع وما استغاث.

وذُكر أن فارساً من بني نُمير لقي بُغا في وقعتهم التي ذكرت أمرها يُدْعَى المجنون، فطعن بُغا ورمى المجنونَ رجلٌ من الأتراك. فأفلت، وعاش أياماً ثلاثة، ثم مات من رميته.

قال: ثم قدم عليه واجن الأشروسني الصُّغديّ في سبعمائة رجل مدداً له من الأشُر وسنيّة الإشتيخنيّة، فوجَّهه بُغا ومحمد بن يوسف الجعفريّ في أثرهم؛ فلم يزل يتبعهم حتى وغلوا في البلاد، وصاروا بتَبَالة وما يليها من حدّ عمل اليمن وفاتوه؛ فانصرف ولم يصر في يديه منهم إلاّ ستّة نفر أو سبعة، وأقام بحصن باهلة، ووجّه إلى جبال بني نُمير وسهلها من هلان والسَّوْد وغيرها من عمل اليمامة سرايا في محاربة من امتنع ممن قبل الأمان منهم، فقتلوا جماعة وأسروا جماعة، وأقبل عدّة من سادتهم، كلُّهم يطلب الأمان لنفسه والبطن الذي هو منه، فقبل ذلك منهم وبسطهم وآنسهم؛ ولم يزل مقيماً إلى أن جمع إليه كلَّ مَنْ ظنّ أنه كان في هذه النواحي منهم، وأخذ منهم زُهاء ثمانمائة رجل، فأثقلهم بالحديد وحملهم إلى البصرة، في ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وكتب إلى صالح العباسيّ بالمسير بمَنْ قبله في المدينة من بني كِلاب وفَزارة ومُرّة وثعلبة وغيرهم واللحاق به؛ فوافاه صالح العباسيّ ببغداد، وصاروا جميعاً في المحرّم إلى سامرّا سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وكانت عدّة مَنْ قدم به بُغا وصالح العباسيّ من الأعراب سوى مَنْ مات منهم وهرب. وقتِل في هذه الوقائع التي وصفناها ألفا رجل ومائتا رجل من بني نمير ومن بني كلاب ومن مرّة وفزارة ومن ثعلبة وطيّىء.

وفي هذه السنة أصاب الحاجّ في المرجع عطش شديد في أربعة منازل إلى الرَّبَذَة، فبلغت الشَّرْبة عدّة دنانير. ومات خلق كثير من العطش.

وفيها ولِّيَ محمد بن إبراهيم بن مصعب فارس.

وفيها أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر.

وفيها اشتدّ البرد في نِيسان حتى جمد الماء لخمس خلون منه.

وفيها مات الواثق.

ذكر الخبر عن العلة التي كانت بها وفاته:

ذكر لي جماعةٌ من أصحابنا أنّ عِلَّته التي تُوفِّيَ منها كانت الاستسقاء، فعُولج بالإقعاد في تَنُّور مسخَّن، فوجَد لذلك راحة وخفّة مما كان به، فأمرهم من غدِ ذلك اليوم بزيادة في إسخان التَّنُّور، ففعُل ذلك وقعد فيه أكثر من قعوده في اليوم الذي قبله، فحمِيَ عليه، فأخرِج منه، وصُيِّر في محفّة؛ وحضره الفضل بن إسحاق الهاشميّ وعمر بن فرَج وغيرهم؛ ثم حضر ابن الزيات وابن أبي دؤاد، فلم يعلموا بموته حتى ضرب بوجهه المحفَّة، فعلموا أنه قد مات.

وقد قيل: إن أحمد بن أبي دُؤاد حضره وقد أغمي عليه، فقضى وهو عنده فأقبل يغمضه ويصلح من شأنه. وكانت وفاته لستٍّ بقين من ذي الحجة ودُفِن في قصره بالهارونيّ. وكان الذي صلَّى عليه وأدخله قبرَه وتولَّى أمره أحمد بن أبي دواد؛ وكان الواثق أمر أحمد بن أبي دواد أن يُصَلِّيَ بالناس يوم الأضحى في المصلَّى، فصلى

بهم العيد؛ لأن الواثق كان شديد العِلّة فلم يقدر على الحضور إلى المصلّى، ومات من عِلَّته تلك.

ذكر الخبر عن صفة الواثق وسنه وقدر مدة خلافته

ذكَر من رآه وشاهده أنه كان أبيضَ مشرباً حُمرة، جميلاً رَبْعة، حسن الجسم، قائم العين اليسرى؛ وفيها نُكتة بياض.

وتوفِّيَ - فيما زعم بعضهم - وهو ابن ستّ وثلاثين سنة، وفي قول بعضهم: وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة؛ فقال الذين زعموا أنه كان ابن ست وثلاثين: كان مولده سنة ست وتسعين ومائة، وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام. وقال بعضهم: وسبعة أيام واثنتي عشرة ساعة.

وكان وُلِد بطريق مكة، وأمه أم ولد روميّة؛ يقال لها قراطيس.

واسمه هارون وكنيته أبو جعفر.

وذكر أنه لما اعتلّ علته التي مات فيها وسقى بطنه أمر بإحضار المنجّمين، فأحضِروا؛ وكان ممن حضر الحسن بن سهل، أخو الفضل بن سهل، والفضل بن إسحاق الهاشميّ وإسماعيل بن نُوبخت ومحمد بن موسى الخُوارزميّ المجوسيّ القطرُبُّليُّ وسند صاحب محمد بن الهيثم وعامة مَنْ ينظر في النجوم، فنظروا في علّته ونجمه ومولده؛ فقالوا: يعيش دهراً طويلا، وقدّروا له خمسين سنة مستقبلة؛ فلم يلبث إلا عشرة أيام حتى مات.

ذكر بعض أخباره

ذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام، وقد قعد مجلساً كان أوّل مجلس قعَده؛ فكان أوّل ما تُغُنِّيَ به من الغناء في ذلك المجلس؛ أن تغنّت شارية جارية إبراهيم بن المهديّ:

مـا دَرَى الحـامِلونَ يـومَ استقلُّوا ... نَـعْشَـه لـلثـواءِ أمْ لـلفـنـاء
فـليقـل فيـك بـاكِيـاتُـكَ مـاشِئـ ... ـنَ صبـاحـاً ووقـت كـلِّ مَـسَـاءِ

قال: فبكى والله وبكينا حتى شغلَنا البكاء عن جميع ما كنّا فيه، ثم اندفع بعض المغنين فغنّى:

وَدِّعْ هـريـرة إنَّ الـرَّكبَ مـرتحِـلُ ... وهـل تـطِيقُ وَداعـاً أيها الـرجـلُ!

قال: فازداد والله في البكاء؛ وقال: ما سمعت كاليوم قطّ تعزية بأب ونعيّ نفس؛ ثم ارفض ذلك المجلس.

وذكر عن عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع أن عليّ بن الجهم قال في الواثق بعد أن ولي الخلافة:

قـد فـازَ ذو الـدُّنيـا وذو الـدِّينِ ... بـدولـةِ الـواثـق هـارونِ
أفـاضَ مـن عَـدْلٍ ومن نـائـلٍ ... مـا أحسنَ الـدنيـا مـع الـدينِ!
قـد عـمَّ بـالإحسـانِ في فضـلِهِ ... فـالـنـاس في خَـفض وفي لـيـن
مـا أكثـرَ الـداعِي لـه بـالبقـا ... وأكـثـرَ الـتـالِـي بـآمـيـنِ

وقال عليّ بن الجهم أيضاً فيه:

وثـقَـتْ بـالـمَـلـكِ الـوا ثِـقِ بـالله الـنـفـوسُ
مَـلـكٌ يـشـقَـى بـه الـمـا لُ ولا يـشـقـى الـجـليسُ
أَنِسَ الـسـيـفُ بـه واسـتـ ـوحشَ الـعِـلْقُ الـنـفِـيس
أسـدٌ تـضْـحَـك عـن شـدّاتِـهِ الـحـربُ العَـبُـوس
يـا بـني الـعبـاسِ يـأبَى الـلّـ ـهُ إلا أنْ تَـسُـوسُـوا

فغنّت قلم جارية صالح بن عبد الوهاب في هذين الشعرين، وغنّت في شعر محمد بن كُناسة:

فيَّ انقبـاض وحِشـمَـةٌ فـإذا جـالَسْتُ أهـلَ الـوفـاءِ والكَـرَم
أرسـلتُ نفسي عـلى سَجِيّتهـا وقلتُ مـا شئتُ غـيرَ محتشِم

فغنّته الواثق؛ فاستحسنه؛ فبعث إلى ابن الزيات: ويحك من صالح بن عبد الوهاب هذا! فابعث إليه فأشخصْه؛ وليحمل جاريتَه؛ فغدا بها صالح إلى الواثق، فأدخِلَتْ عليه، فلما تغنَّت ارتضاها، فبعث إليه، فقال: قلْ، فقال: مائة ألف دينار يا أمير المؤمنين وولاية مصر، فردّها، ثم قال أحمد بن عبد الوهاب أخو صالح في الواثق:

أبَـتْ دارُ الأحِـبَّـةِ أن تُـبِـيـنـا أجـدَّكَ مـا رأيتَ لـهـا مُـعـيـنَـا
تُـقَـطِّعُ حَسْـرَةً مـن حُـبِّ لَـيْـلى نـفـوسٌ مـا أُثِـبْـن ولا جُـزِيـنـا

فصنعت فيه قلم جارية صالح، فغنّاه زرزر الكبير للواثق، فقال: لمن ذا؟ فقال: لقلم، فبعث إلى ابن الزيات، فأشخص صالحاً ومعه قلم؛ فلمّا دخلت عليه، قال: هذا لك؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: بارك الله عليك! وبعث إلى صالح: اسَتمْ وقلْ قولا يتهيأ أن تُعطاه؛ فبعث إليه: قد أهديتُها إلى أمير المؤمنين؛ فبارك الله لأمير المؤمنين فيها. قال: قد قبلتُها، يا محمد، عَوِّضْه خمسة آلاف دينار، وسمّاها «اغتباط» فمطَله ابن الزيّات، فأعادت الصوت وهو:

أبـت دار الأحـبـةِ أن تُـبـيـنَـا أجـدَّك هـل رأيت لهـا مـعينـا

فقال لها: بارك الله عليك وعلى من ربّاك؛ فقالت: يا سيّدي وما ينتفع مَنْ رباني، وقد أمرت له بشيء لم يصل إليه! فقال الواثق: يا سمّانة، الدواة؛ فكتب إلى ابن الزيّات: ادفع إلى صالح بن عبد الوهاب ما عوّضناه من ثمن اغتباط خمسة آلاف دينار، وأضعفها. قال صالح: فصرت إلى ابن الزّيات فقرّبني، وقال: هذه الخمسة الأولى؛ خذها، والخمسة آلاف الأخرى أدفعها إليك بعد جمعة؛ فإن سئلت، فقل: إني قبضت المال. قال: فكرهت أن أسأل فأقرّ بالقبض؛ فاختفيت في منزلي حتى دفع إليّ المال، فقال لي سمانة: قبضت المال؟ قلت: نعم، وترك عمل السلطان، وتجر بها، حتى تُوُفِّيَ.

خلافة جعفر المتوكل على الله

وفي هذه السنة بُويع لجعفر المتوكل على الله بالخلافة؛ وهو جعفر بن محمد بن هـارون بن محمد بن عبد الله بن محمد ذي الثَّفِنات بن عليّ السجّاد بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

ذكر الخبر عن سبب خلافته ووقتها

حدّثني غير واحد؛ أن الواثق لما تُوُفِّيَ حضر الدارَ أحمد بن أبي دواد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرَج وابن الزّيات وأحمد بن خالد أبو الوزير، فعزموا على البَيْعة لمحمد بن الواثق؛ وهو غلام أمْرد، فألبسوه درّاعة سوداء وقلنسوة رُصافية، فإذا هو قصير، فقال لهم وصيف: أما تتقون الله! تولّون مثل هذا الخلافة؛ وهو لا يجوز معه الصلاة!

قال: فتناظروا فيمن يولّونها، فذكروا عدّة، فذُكر عن بعض من حضر الدار مع هؤلاء، أنه قال: خرجتُ من الموضع الذي كنتُ فيه، فمررت بجعفر المتوكل؛ فإذا هو في قميص وسِرْوال قاعد مع أبناء الأتراك، فقال لي: ما الخبر؟ فقلت: لم ينقطع أمرهم؛ ثم دَعوْا به، فأخبره بُغا الشرابيّ الخبرَ، وجاء به، فقال: أخاف أن يكون الواثق لم يمت، قال: فمرّ به، فنظر إليه مسجًّى، فجاء فجلس، فألبسه أحمد بن أبي دواد الطويلة وعَمّمه وقبّله بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته! ثم غُسِّل الواثق وصُلِّيَ عليه ودفن، ثم صاروا من فَوْرهم إلى دار العامة؛ ولم يكن لقِّب المتوكل.

وذكر أنه كان يوم بُويع له ابنَ ست وعشرين سنة؛ ووضع العطاء للجند لثمانية أشهر؛ وكان الذي كتب البيعة له محمد بن عبد الملك الزيات؛ وهو إذ ذاك على ديوان الرسائل؛ واجتمعوا بعد ذلك على اختيار لقب له، فقال ابن الزيات: نسمّيه المنتصر بالله؛ وخاض الناس فيها حتى لم يشكّوا فيها، فلما كان غداة يوم بكّر أحمد بن أبي دواد إلى المتوكل، فقال: قد روّيت في لقب أرجو أن يكون موافقاً حسناً إن شاء الله، وهو المتوكل على الله، فأمر بإمضائه، وأحضر محمد بن عبد الملك، فأمر بالكتاب بذلك إلى الناس، فنفذت إليهم الكتب، نسخة ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أمَر - أبقاك الله - أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يكون الرّسمُ الذي يجرى به ذكرُه على أعواد منابرِه، وفي كتبه إلى قضاته وكُتّابه وعمّاله وأصحاب دواوينه وغيرهم مِنْ سائر مَنْ تجري المكاتبة بينه وبينه: «من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين»؛ فرأيك في العمل بذلك وإعلامي بوصول كتابي إليك موفّقاً إن شاء الله.

وذُكِر أنه لما أمر للأتراك برزق أربعة أشهر وللجند والشاكريّة ومَنْ يجري مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهر، أمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر، فأبوْا أن يقبضوا، فأرسل إليهم: من كان منكم مملوكاً؛ فليمض إلى أحمد بن أبي دواد حتى يبيعَه؛ ومَنْ كان حرًّا صيرناه أسْوَة الجند؛ فرضُوا بذلك؛ وتكلّم وصيف فيهم حتى رضيَ عنهم؛ فأعْطُوا ثلاثة؛ ثم أجروا بعد ذلك مُجْرَى الأتراك. وبويع للمتوكل ساعة مات الواثق بيعة الخاصّة وبايعته العامّة حين زالت الشمس من ذلك اليوم.

وذكر عن سعيد الصَّغير أن المتوكل قبل أن يُستخلف ذكر له ولجماعة معه أنه رأى في المنام أن سكّراً سليمانياً يسقط عليه من السماء، مكتوباً عليه «جعفر المتوكل على الله»، فعبَّرها علينا، فقلنا: هي والله أيها الأمير أعزّك الله الخلافة، قال: وبلغ الواثق ذلك فحبسه، وحبس سعيداً معه، وضيِّق على جعفر بسبب ذلك.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمدُ بن داود.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من غضب المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات وحبسه إياه.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وإلى ما آل إليه الأمر فيه:

أما السبب في غضبه عليه؛ فإنه كان - فيما ذكر - أنّ الواثق كان استوزر محمد بن عبد الملك الزيات وفوّض إليه الأمور؛ وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر المتوكل لبعض الأمور، فوكّل عليه عمر بن فرج الرُّخَّجيّ ومحمد بن العَلاء الخادم؛ فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كلّ وقت؛ فصار جعفر إلى محمد بن عبد الملك يسأله أن يكلِّم له أخاه الواثق ليرضَى عنه؛ فلمّا دخل عليه مكث واقفاً بين يديه مليًّا لا يكلمه، ثم أشار إليه أن يقعد فقعد؛ فلما فرغ من نظره في الكتب، التفت إليه كالمتهدّد له، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لتسأل أمير المؤمنين الرّضا عني، فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا، يُغضب أخاه، ويسألني أن استرضيَه له! اذهب فإنك إذا صلحت رضِيَ عنك؛ فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقيه به من قُبْح اللقاء والتقصير به؛ فخرج من عنده، فأتى عمر بن فرج ليسأله أن يختم له صَكَّه ليقبض أرزاقه، فلقيه عمر بن فرج بالخيبة؛ وأخذ الصكَّ، فرمى به إلى صَحْن المسجد.

وكان عمر يجلس في مسجد؛ وكان أبو الوزير أحمد بن خالد حاضراً، فقام لينصرف، فقام معه جعفر، فقال: يا أبا الوزير؛ أرأيتَ ما صنع بي عمر بن فرج؟ قال: جعلت فداك! أنا زِمَامٌ عليه؛ وليس يختم صَكيّ بأرزاقي إلا بالطلب والترنُّق به؛ فابعث إليّ بوكيلك؛ فبعث جعفر بوكيله؛ فدفع إليه عشرين ألفاً، وقال: أنْفِق هذا حتى يهيِّىء الله أمرك؛ فأخذها ثم أعاد إلى أبي الوزير رسوله بعد شهر؛ يسأله إعانتَه، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم؛ ثم صار جعفر من فوْرِه حين خرج من عند عمر إلى أحمد بن أبي دواد، فدخل عليه، فقام له أحمد، واستقبله على باب البيت، وقبَّله والتزمه، وقال: ما جاء بك، جعلتُ فداك! قال: قد جئتُ لتسترضيَ لي أمير المؤمنين، قال: أفعل ونعمةَ عين وكرامة، فكلّم أحمد بن أبي دواد الواثق فيه، فوعده ولم يـرضِ عنه؛ فلما كان يوم الحلْبة كلّم أحمد بن أبي دواد الواثق، وقال: معروف المعتصم عندي معروف، وجعفر ابنـه؛ فقد كلمتك فيه، ووعدتَ الرضا؛ فبحقّ المعتصم يا أمير المؤمنين إلَّا رضيتَ عنه! فرضيَ عنه من ساعته وكساه، وانصرف الواثق وقد قلّد أحمد بن أبي دواد جعفراً بكلامه حتى رضيَ عنه أخوه شكراً، فأحظاه ذلك عنده حين ملك.

وذكر أنّ محمد بن عبد الملك كان كتب إلى الواثق حين خرج جعفر من عندِه: يا أميرَ المؤمنين، أتاني

جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه في زيّ المخنثين له شعر قفاً. فكتب إليه الواثق: ابعث إليه فأحضره، ومُرْ مَنْ يجزّ شعر قفاه، ثم مُرْ من يأخذ من شعره ويضرب به وجهه، واصرفه إلى منزله. فذكر عن المتوكّل أنه قال: لما أتاني رسوله، لبست سواداً لي جديداً، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عَنِّي، فقال: يا غلام، ادع لي حجّاماً، فدُعي به، فقال: خذ شعره واجمعه، فأخذه على السَّواد الجديد. ولم يأته بمنديل؛ فأخذ شعره قفاه وضرب به وجهه.

قال المتوكِّل: فما دخلَني من الجزع على شيء مثل ما دخلني حين أخذني على السواد الجديد؛ وقد جئته فيه طامعاً في الرضا، فأخذ شعري عليه.

ولما تُوفِّيَ الواثق أشار محمد بن عبد الملك بابن الواثق، وتكلّم في ذلك وجعفر في حُجْرة غير الحجرة التي يتشاورون فيها، فيمن يعقدون، حتى بُعث إليه، فعُقد له هناك؛ فكان سبب هلاك ابن الزّيات.

وكان بُغَا الشرابيّ الرسولَ إليه يدعوه، فسلم عليه بالخلافة في الطريق، فعقدوا له وبايعوا، فأمهل حتى إذا كان يوم الأربعاء لسبع خَلَوْن من صفر؛ وقد عزم المتوكِّل على مكروه أن يناله به، أمر إيتاخ بأخذه وعذابه؛ فبعث إليه إيتاخ، فظنّ أنه دُعي به، فركب بعد غدائه مبادراً يظنّ أن الخليفة دعا به، فلما حاذى منزل إيتاخ قيل له: اعدل إلى منزل أبي منصور، فعدَل وأوجس في نفسه خيفةً؛ فلمّا جاء إلى الموضع الذي كان ينزل فيه إيتاخ عُدِل به يمْنةً، فأحسّ بالشرّ، ثم أدخِل حجرة، وأخِذ سيفه ومِنطقته وقلنسوته ودرّاعته؛ فدُفع إلى غلمانه، وقيل لهم: انصرفوا، فانصرفوا لا يشكّون أنه مقيم عند إيتاخ ليشرب النبيذ.

قال: وقد كان إيتاخ أعدّ له رجلين من وُجوه أصحابه؛ يقال لهما يزيد بن عبد الله الحلواني وهَرْثمة شارباميان فلما حصل محمد بن عبد الملك خرجا يركُضان في جُنْدهما وشاكريتهما، حتى أتيا دار محمد بن عبد الملك، فقال لهم غلمان محمد: أين تريدون؟ قد ركب أبو جعفر؛ فهجما على داره، وأخذا جميع ما فيها.

فذكر عن ابن الحلوانيّ أنه قال: أتيت البيت الذي كان محمد بن عبد الملك يجلس فيه، فرأيته رثّ الهيئة قليل المتاع، ورأيت فيه طنافس أربعة وقنانيّ رطليّات، فيها شراب؛ ورأيت بيتاً ينام فيه جواريه، فرأيت فيه بُوريًّا ومخادَّ منضّدة في جانب البيت؛ على أن جواريه كنّ ينمْنَ فيه بلا فُرش.

وذكر أنّ المتوكل وجّه في هذا اليوم من قَبَض ما في منزله من متاع ودوابّ وجوار وغلمان، فصيِّر ذلك كله في الهارونيّ، ووجّه راشداً المغربيَّ إلى بغداد في قبض ما هنالك من أمواله وخَدَمِه، وأمر أبا الوزير بقبض ضِياعه وضياع أهل بيته حيث كانت. فأمّا ما كان بسامرّا فحمل إلى خزائن مَسرور سمانة، بعد أن اشتُريَ للخليفة؛ وقيل لمحمد بن عبد الملك: وكِّلْ ببيع متاعك. وأتوه بالعباس بن أحمد بن رشيد كاتب عُجيف، فوكّله بالبيع عليه، فلم يزل أياماً في حَبْسه مطلقاً، ثم أمِر بتقييده فقُيِّد، وامتنع من الطعام؛ وكان لا يذوق شيئاً، وكان شديد الجَزع في حبسه، كثير البكاء، قليل الكلام، كثير التفكّر، فمكث أياماً ثم سُوهر، ومُنِع من النوم، يساهرَ ويُنْخَس بمسلّة، ثم تُرك يوماً وليلة، فنام وانتبه؛ فاشتهى فاكهة وعِنَباً؛ فأتِيَ به، فأكل ثم أعيد إلى المساهرة؛ ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد قيامٌ. فذكر عن ابن أبي دواد وأبي الوزير أنهما قالا: هو أوّل مَنْ أمر بعمل ذلك؛ فعذّب به ابن أسباط المصريّ حتى استخرج منه جميع ما عنده، ثم ابتُلِيَ به فعُذِّب به أياماً.

فذُكر عن الدنداني الموكّل بعذابه أنه قال: كنت أخرج وأقفل الباب عليه؛ فيمدّ يديه إلى السماء جميعاً حتى يدقّ موضع كتفيه؛ ثم يدخل التّنّور فيجلس، والتّنّور فيه مسامير حديد وفي وسطه خشبة معترضة، يجلس عليها المعذَّب؛ إذا أراد أن يستريح، فيجلس على الخشبة ساعة، ثم يجيء الموكّل به؛ فإذا هو سمع صوت الباب يُفتح قام قائماً كما كان، ثم شدّدوا عليه.

قال المعذِّب له: خاتلته يوماً، وأريتُه أني أقفلت الباب ولم أقفله؛ إنما أغلقته بالقفل، ثم مكثت قليلا، ثم دفعت الباب غَفْلة؛ فإذا هو قاعد في التّنّور على الخشبة، فقلت: أراك تعمل هذا العمل! فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه، فكان لا يقدر على القعود، واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه؛ فما مكَث بعد ذلك إلا أياماً حتى مات.

واختلف في الذي قتِل به، فقيل: بُطِح، فضُرب على بطنه خمسين مَقْرعة، ثم قُلِب فضرِب على استه مثلها، فمات وهو يُضرَب؛ وهم لا يعلمون، فأصبح ميِّتاً قد التوت عنُقه، ونُتفت لحيته. وقيل: مات بغير ضرب.

وذكر عن مبارك المغربيّ أنه قال: ما أظنه أكل في طول حبسه إلّا رغيفاً واحداً؛ وكان يأكل العِنبة والعنبتين.

قال: وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه: يا محمد بن عبد الملك؛ لم يقنعك النعمة والدواب الفُرَّة والدّار النظيفة والكسوة الفاخرة؛ وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة؛ ذُق ما عملت بنفسك! فكان يكرّر ذلك على نفسه؛ فلمّا كان قبل موته بيوم؛ ذهب عنه عتابُ نفسه؛ فكان لا يزيد على التشهّد وذكر الله؛ فلما مات أحْضِرَ ابناه سليمان وعبيد الله ـ كانا محبوسين ـ وقد طُرِح على باب من خشب في قميصه الذي حُبس فيه؛ وقد اتَّسخ فقالا: الحمد لله الذي أراح من هذا الفاسق؛ فدُفعت جُثّته إليهما، فغسلاه على الباب الخشب، ودفناه وحفرا له، فلم يعمِّقا؛ فذُكِر أن الكلاب نبشته؛ وأكلت لحمه.

وكان إبراهيم بن العباس على الأهواز، وكان محمد بن عبد الملك له صديقاً، فوجّه إليه محمد أحمدَ بن يوسف أبا الجهم، فأقامه للناس فصالحه عن نفسه بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، فقال إبراهيم:

وكنتَ أخي بإخاءِ الزمانِ ... فلما نَبا عُدْتَ حرباً عَوانا
وكنت أذمُّ إليك الزمانَ ... فأصْبَحْتُ منك اذمُّ الزمانا
وكنت أُعِدُّك للنائباتِ ... فها أنا أطلبُ منك الأَمانا

وقال:

أصبحتُ مِن رأي أبي جعفرٍ ... في هيئةٍ تنذِرُ بالصَّيْلَمِ
مِنْ غيرِ ما ذَنبٍ ولكنَّها ... عَداوة الزنديقِ للمسْلِمِ

وأحدِر بعد ما قبض عليه مع راشد المغربيّ إلى بغداد، لأخذ ماله بها، فوردها، فأخذ رَوْحاً غلامَه ـ وكان قَهرمانه ـ في يده أمواله يتّجر بها، وأخذ عدّة من أهل بيته، وأخذ معهم حمل بغل، ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة من الحِنْطة والشعير والدّقيق والحبوب والزيت والزبيب والتين وبيت مملوء ثوماً، فكان جميع ما قبض له

مع قيمته تسعين ألف دينار، وكان حبس المتوكل إياه يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر ووفاته يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من شهر ربيع الأول.

وفيها غضب المتوكل على عمر بن فرج؛ وذلك في شهر رمضان، فدفع إلى إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب، فحُبس عنده، وكتب في قبض ضياعه وأمواله، وصار نَجاح بن سَلَمة إلى منزله، فلم يجد فيه إلا خمسة عشر ألف درهم، وحضر مسرور سمانة، فقبض جواريه، وقُيِّد عمر ثلاثين رطلا، وأحضر مولاه نصر من بغداد، فحمل ثلاثين ألف دينار، وحمل نصر من مال نفسه أربعة عشر ألف دينار، وأصيب له بالأهواز أربعون ألف دينار، ولأخيه محمد بن فرج مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار وحُمِل من داره من المتاع ستة عشر بعيراً فُرُشاً، ومن الجوهر قيمة أربعين ألف دينار، وحُمِل متاعه وفرشه على خمسين جملاً، كرّت مراراً، وألبس فَرَجيّة صوف وقُيِّد، فمكث بذلك سبعاً، ثم أطلق عنه وقبض قصره، وأخذ عياله، ففتّشوا وكنّ مائة جارية، ثم صولح على عشرة آلاف ألف درهم، على أن يردّ عليه ما حيز عنه من ضياع الأهواز فقط، ونزعت عنه الجبة الصّوف والقيد؛ وذلك في شوّال.

وقال عليّ بن الجهم بن بدر لنجاح بن سلمة يحرّضه على عمر بن فرج:

أبلغْ نَجاحاً فتى الكتّاب مَألُكةً ... تمضِي بها الرِّيحُ إصداراً وإيرادَا
لا يخرُجِ المالُ عفواً من يَدَيْ عمرٍ ... أو يُغْمَدَ السَّيفُ في فَوْدَيْه إغمادا
الرُّخَّجيُّونَ لا يوفُون ما وَعَدُوا ... والرخَّجيّات لا يُخلِفْنَ ميعادا

وقال أيضاً يهجوه:

جَمَعتَ أمرَيْنِ ضاعَ الحزمُ بينهما ... تِيهَ المُلوكِ وأفعالَ المماليكِ
أردتَ شكراً بلا برٍّ ومَرْزئَةٍ ... لقد سَلَكتَ سبيلا غيرَ مسلوكِ
ظَنَنْتَ عِرْضكَ لم يُقرَعْ بقارعة ... وما أراكَ على حالٍ بمتروكِ

وفي هذه السنة أمر المتوكّل بإبراهيم بن الجنيد النصرانيّ، أخي أيوب كاتب سمانة، فضُرِب له بالأعمدة حتى أقرّ بسبعين ألف دينار، فوجّه معه مباركاً المغربيّ إلى بغداد حتى استخرجها من منزله، وجيء به فحُبس.

وفيها غضب المتوكل على أبي الوزير في ذي الحجة، وأمر بمحاسبته، فحمل نحواً من ستين ألف دينار، وحمل بدورَ دراهم وحليًّا، وأخذ له من متاع مصر اثنين وستين سَفَطا واثنين وثلاثين غلاماً وفرشاً كثيراً، وحبس بخيانته محمد بن عبد الملك أخا موسى بن عبد الملك والهيثم بن خالد النصرانيّ وابن أخيه سعدون بن عليّ، وصولح سعدون على أربعين ألف دينار، وصولح ابنا أخيه عبد الله وأحمد على نيّف وثلاثين ألف دينار؛ وأخذت ضياعهم بذلك.

وفي هذه السنة استكتب المتوكل محمد بن الفضل الجرجرائيّ.

وفي هذه السنة عزل المتوكل يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيَت من شهر رمضان عن ديوان الخراج الفضلَ بن مرْوان، وولاّه يحيى بن خاقان الخُراسانيّ مولى الأزْد، وولّى إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول في هذا اليوم ديوان زِمام النفقات وعزل عنه أبا الوزير.

وفيها ولّى المتوكل ابنه محمداً المنتصر الحَرَمين واليمن والطائف، وعقد له يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة

خلت من شهر رمضان.

وفيها فُلِج أحمد بن أبي دواد لستّ خلون من جمادى الآخرة.

وفيها قدم يحيى بن هرثمة مكة وهو والي طريق مكة بعليّ بن محمد بن عليّ الرضيّ بن موسى بن جعفر من المدينة.

وفيها وثب ميخائيل بن توفيل على أمّه تذورة فشمّسها وأدخلها الدير، وقتل اللُّغُثِيط لأنه اتهمها به؛ وكان ملكها ستّ سنين.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من هرب محمد بن البعيث بن حَلْبَس؛ جيء به أسيراً من قبل أذْرَبيجان فحبس.

ذكر الخبر عن سبب هربه وما كان آل إليه أمره:

ذكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ المتوكل كان اعتلّ في هذه السنة؛ وكان مع ابن البعيث رجلٌ يخدمه يسمّى خليفة، فأخبره بأنّ المتوكل قد تُوفّيَ، وأعدّ له دوابّ، فهرب هو وخليفة الذي أخبره الخبر إلى موضعه من أذْرَبيجان، وموضعه منها مَرَنْد - وقيل: كانت له قلعتان تُدْعى إحداهما شاهي والأخرى يَكدُر - ويكدر خارج البحيرة، وشاهي في وسط البحيرة، والبحيرة قدرُ خمسين فرسخاً من حدّ أرْمِية، إلى رُستاق داخَرّقان بلاد محمد بن الرّوّاد، وشاهي قلعة ابن البعيث حصينة يحيط بها ماء قائم ثَمَّ، يركب الناس من أطراف المراغة إلى أرْمِيَة وهي بحيرة لا سمك فيها ولا خير.

وذُكِر أنّ ابن البَعيث كان في حبس إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فتكلم فيه بُغَا الشرابيّ، وأخذ منه الكُفَلاء نحواً من ثلاثين كَفيلاً، منهم محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانيّ؛ فكان يتردّد بسامرّا؛ فهرب إلى مَرَنْد، فجمع بِمَرَنْد الطعام؛ وفيها عيون ماء، فرَمَّ ما كان وَهى من سُورها، وأتاه من أراد الفتنة من كلّ ناحية؛ من ربيعة وغيرهم؛ فصار في نحو من ألفين ومائتي رجل.

وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة، فقصّر في طلبه، فولّى المتوكل حمدويه بن عليّ بن الفضل السعديّ أذْرَبيجان، ووجّهه من سامرّا على البريد، فلما صار إليها جمع الجند والشاكريّة ومَن استجاب له، فصار في عشرة آلاف، فزَحف إلى ابن البَعيث، فألجأه إلى مدينة مَرَنْد - وهي مدينة استدارتها فرسخان وفي داخلها بساتين كثيرة، ومن خارجها كما تدور شجر إلاّ في موضع أبوابها - وقد جمع فيها ابن البعيث آلة الحصار، وفيها عيون ماء، فلما طالت مدّته، وجّه المتوكل زِيرَك التركيّ في مائتي ألف فارس من الأتراك؛ فلم يصنع شيئاً؛ فوجّه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكرية، فلم يُغنِ شيئاً، فوجّه إليه بغا الشرابيّ في أربعة آلاف ما بين تركيّ وشاكريّ ومغربيّ، وكان حمدويه بن عليّ وعمر بن سيسل وزيرك زحفوا إلى مدينة مَرَنْد، وقطعوا ما حولَها من الشجر، فقطعوا نحواً من مائة ألف شجرة وغير ذلك من شجر الغِياض، ونصبوا عليها عشرين مِنْجَنيقا، وبنوْا بحذاء المدينة ما يستكنّون فيه، ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثلَ ذلك؛ وكان مَنْ معه من عُلُوج رساتيقه يرمون بالمقاليع، فكان الرَّجُل لا يقدر على الدنوّ من سُور المدينة، فقُتل

من أولياء السلطان في حَرْبه في ثمانية أشهر نحو من مائة رجل، وجُرح نحو من أربعمائة، وقتِل وجرِح من أصحابه مثل ذلك.

وكان حمدويه وعمرو وزيرك يغادونه القتال ويُراوحونه؛ وكان السور من قِبَل المدينة ذليلاً، ومن القرار نحواً من عشرين ذراعاً، وكانت الجماعة من أصحاب ابن البعيث يتدلَّوْن بالحبال معهم الرماح فيقاتلون؛ فإذا حُمِل عليهم من أصحاب السلطان لجؤوا إلى الحائط؛ وكانوا ربما فتحوا باباً يقال له باب الماء؛ فيخرج منه العِدّة يقاتلون ثم يرجعون.

ولما قرب بُغا الشرابيّ من مَرَنْد بعث ـ فيما ذكر ـ عيسى بن الشيخ بن السَّليل الشيبانيّ، ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث، ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين؛ وإلاّ قاتلهم، فإن ظفر بهم لم يستبقِ منهم أحداً، ومَنْ نزل فله الأمان؛ وكان عامة مَنْ مع ابن البَعيث من ربيعة من قوم عيسى بن الشيخ؛ فنزل منهم قوم كثير بالحبال، ونزل خَتن ابن البعيث على أخته أبو الأغر.

وذكر عن أبي الأغرّ هذا أنه قال: ثم فتحوا باب المدينة، فدخل أصحاب حمدويه وزيرك، وخرج ابن البعيث من منزله هارباً يريد أن يخرج من وجه آخر؛ فلحقه قوم من الجند، معهم منصور قَهرمانه؛ وهو راكب دابةً، يريد أن يصير إلى نهر عليه رحاً ليستخفيَ في الرحا، وفي عنقه السيف، فأخذوه أسيراً وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة، ثم نودي بعد ما انتهب الناس: برئت الذّمة ممن انتهب وأخذوا له أختين وثلاث بنات وخالته والبواقي سراريّ؛ فحصل في يد السلطان من حرمه ثلاث عشرة امرأة، وأخذ من وجوه أصحابه المذكورين نحوٌ من مائتي رجل، وهرب الباقون؛ فوافاهم بُغا الشرابيّ من غد، فنادى مناديه بالمنع من النهْب، فكتب بُغا الشرابيّ بالفتح لنفسه.

وخرج المتوكل فيها إلى المدائن في جمادى الأولى.

وحجّ في هذه السنة إيتاخ، وكان والي مكة والمدينة والموسم، ودُعِي له على المنابر.

ذكر الخبر عن سبب حجه في هذه السنة:

ذُكر أن إيتاخ كان غلاماً خَزَريّاً لسلام الأبرش طباخاً، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة، وكان لإيتاخ رُجْلة وبأس، فرفعه المعتصم ومِنْ بعده الواثق؛ حتى ضمّ إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة، وولاّه المعتصم معونة سامرّا مع إسحاق بن إبراهيم؛ وكان مِنْ قِبَله رجل، ومن قبَل إسحاق رجل؛ وكان مَنْ أراد المعتصم أو الواثق قَتْلَه فعند إيتاخ يُقتل، وبيدهُ يحبْس؛ منهم محمد بن عبد الملك الزيات، وأولاد المأمون من سُنْدس، وصالح بن عُجيف وغيرهم؛ فلمّا ولِيَ المتوكل كان إيتاخ في مرتبته، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة؛ فخرج المتوكل بعد ما استوتْ له الخلافة متنزِّهاً إلى ناحية القَاطُول، فشرب ليلة، فعربَد على إيتاخ؛ فهمّ إيتاخ بقتله؛ فلما أصبح المتوكل قيل له، فاعتذر إليه والتزمه، وقال له: أنت أبي وربَّيْتَني، فلما صار المتوكل إلى سامرّا دسَّ إليه مَنْ يشير عليه بالاستئذان للحجّ، ففعل وأذِن له، وصيَّره أمير كلِّ بلدة يدخلها، وخلع عليه، وركب جميع القوَّاد معه، وخرج معه من الشاكرية والقوّاد والغلمان سوى غلمانه وحَشمه بشر كثير؛ فحين خرج صُيِّرت الحجابة إلى وصيف، وذلك يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة.

وقد قيل إن هذه القصة من أمر إيتاخ كانت في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وإن المتوكل إنما صيَّر إلى وصيف الحجابة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة من سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك مقتل إيتاخ الخزَريّ.

ذكر الخبر عن صفة مقتله:

ذُكر عن إيتاخ أنه لما انصرف من مكّة راجعاً إلى العراق، وجّه المتوكل إليه سعيد بن صالح الحاجب مع كسوة وألطاف، وأمره أن يلقاه بالكُوفة أو ببعض طريقه؛ وقد تقدّم المتوكل إلى عامله على الشرطة ببغداد بأمره فيه.

فذكر عن إبراهيم بن المدبّر، أنه قال: خرجت مع إسحاق بن إبراهيم حين قَرُب إيتاخ من بغداد، وكان يريد أن يأخذ طريق الفُرات إلى الأنبار، ثم يخرج إلى سامرّا، فكتب إليه إسحاق بن إبراهيم: إنّ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، قد أمر أن تدخل بغداد، وأنْ يلقَاك بنو هاشم ووُجوه الناس، وأن تقعد لهم في دار خُزيمة بن خازم، فتأمر لهم بجوائز. قال: فخرجنا حتى إذا كنا بالياسرية، وقد شحن ابن إبراهيم الجسر بالجُنْد والشاكرية، وخرج في خاصته، وطُرِح له بالياسرية صُفَّة، فجلس عليها حتى قالوا: قد قَرُب منك. فركب فاستقبله؛ فلما نظر إليه أهوى إسحاق لينزل، فحلف عليه إيتاخ ألّا يفعل.

قال: وكان إيتاخ في ثلاثمائة من أصحابه وغلمانه، عليه قَباء أبيض، متقلّداً سيفاً بحمائل، فسارا جميعاً؛ حتى إذا صارا عند الجسر تقدّمه إسحاق عند الجسر، وعبرَ حتى وقف على باب خُزيمة بن خازم، وقال لإيتاخ: تدخل أصلح الله الأمير! وكان الموكَّلون بالجسْر كلما مرّ بهم غلام من غلمانه قدّموه؛ حتى بقيَ في خاصّة غلمانه، ودخل بين يديه قوم، وقد فرشت له دار خزيمة، وتأخّر إسحاق، وأمر ألّا يدخل الدار من غلمانه إلا ثلاثة أو أربعة، وأخذت عليه الأبواب، وأمر بحراسته من ناحية الشطّ، وكسرت كل درجة في قصر خُزيمة بن خازم، فحين دخل أغلق الباب خلفه، فنظر فإذا ليس معه إلّا ثلاثة غلمان، فقال: قد فعلوها! ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه؛ ولو دخل إلى سامرّا، فأراد بأصحابه قتلَ جميع من خالفه أمكنه ذلك. فأُتيَ بطعام قرب الليل، فأكل فمكث يومين أو ثلاثة، ثم ركب إسحاق في حَرّاقة وأعدّ لإيتاخ أخرى، ثم أرسل إليه أن يصير إلى الحرّاقة، وأمر بأخذ سيفه، فحدَروه إلى الحرّاقة، وصُيِّرَ معه قوم في السلاح وصاعَدَ إسحاق، حتى صار إلى منزله، وأخرِج إيتاخ حين بلغ دار إسحاق، فأدخِل ناحية منها، ثم قيِّد فأثقِل بالحديد في عُنقه ورجليه؛ ثم قدِّم بابنيه منصور ومظفر، وبكاتبيه سليمان بن وهْب وقدامة بن زياد النصرانيّ بغداد. وكان سليمان على أعمال السلطان، وقدامة على ضياع إيتاخ خاصّة، فحبِسوا ببغداد؛ فأما سليمان وقُدامة فضُرِبا، فأسلم قُدامة

وحُبس منصور ومظفر.

وذكر عن تُرْك مولى إسحاق أنه قال: وقفت على باب البيت الذي فيه إيتاخ محبوس، فقال لي: يا ترك، قلت: ما تريد يا منصور؟ قال: أقرىء الأمير السلام، وقل له: قد علمتَ ما كان يأمرني به المعتصم والواثق في أمرك؛ فكنت أدفع عنك ما أمكنني؛ فلينفعْني ذلك عندك؛ أما أنا فقد مرّ بي شدّة ورخاء؛ فما أبالي ما أكلت وما شربت، وأمّا هذان الغلامان؛ فإنهما عاشا في نعمة ولم يعرفا البؤس، فصيّرْ لهما مَرَقة ولحماً وشيئاً يأكلان منه. قال: تُرْك فوقفتُ على باب مجلس إسحاق، قال لي: مالك يا ترك؟ أتريد أن تتكلم بشيء؟ قلت: نعم، قال لي إيتاخ كذا، كذا، قال: وكانت وظيفة إيتاخ رغيفاً وكوزاً من ماء، ويأمر لابنيه بخوان فيه سبعة أرغفة وخمس غُرف؛ فلم يزل ذلك قائماً حياة إسحاق، ثم لا أدري ما صنِع بهما؛ فأما إيتاخ فقُيِّد وصُيِّر في عنقه ثمانون رطلاً، وقَيْدٌ ثقيل، فمات يوم الأربعاء لخمس خلوْن من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين، وأشهد إسحاق على موته أبا الحسن إسحاق بن ثابت بن أبي عباد وصاحب بريد بغداد والقضاة، وأراهم إياه لاضَرْبَ به ولا أثر.

وحدثني بعض شيوخنا أن إيتاخ كان موته بالعطش، وأنه أطعِم فاستسقى فمنع الماء، حتى مات عطشاً، وبقي ابناه في الحبس حياةَ المتوكل، فلما أفضى الأمر إلى المنتصر أخرجَهما؛ فأما مظفّر فإنه لم يعش بعد أن أخرِج من السجن إلا ثلاثة أشهر حتى مات؛ وأما منصور فعاش بعده.

وفي هذه السنة قدم بُغا الشرابيّ بابن البَعيث في شوّال وبخليفته أبي الأغرّ وبأخوَي ابن البعيث صقْر وخالد ـ وكانا نزلا بأمان ـ وبابن لابن البعيث، يقال له العلاء؛ خرج بأمان، وقدم من الأسرى بنحو من مائة وثمانين رجلاً، ومات باقيهم قبل أن يصلوا؛ فلمّا قربوا من سامرّا حُملوا على الجِمال يستشرفهم الناس، فأمر المتوكل بحبسه وحبسهم، وأثقله حديداً.

فذُكر عن عليّ بن الجهم، أنه قال: أتِيَ المتوكل بمحمد بن البعيث، فأمر بضرب عنقه، فطرِح على نِطَع، وجاء السيَّافون فلوّحوا له، فقال المتوكّل، وغلظ عليه: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعتَ؟ قال: الشقوة، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإن لي فيك لظنَّيْن أسبقهما إلى قلبي أوْلاهما بك؛ وهو العفو؛ ثم اندفع بلا فصل، فقال:

أَبى النــاسُ إلاَّ أنـك اليــومَ قــاتِلِي ... إمـامَ الهُدَى والصفح بالنـاس أَجمَلُ
وهــل أنــا إلا جُـبلةٌ مــن خَــطيَّـةٍ ... وعـفــوك من نــور النـبــوّةِ يُـجْـبَــلُ
فــإنَّــك خيــرُ الســابقين إلى العُــلاَ ... ولا شــكَّ أنْ خيــر الفعَــالَيْن تَفعَــل

قال عليّ: ثم التفت إليّ المتوكل، فقال: إن معه لأدباً، وبادرت فقلت: بل يفعل أمير المؤمنين خيرَهما ويمنّ عليك؛ فقال: ارجع إلى منزلك.

وحدّثني... أنه أنشدني بالمراغة جماعة من أشياخها أشعاراً لابن البعيث بالفارسية، ويذكرون أدبه وشجاعته، وله أخبار وأحاديث.

...ني بعضُ مَنْ ذكر أنه شهد المتوكّل حين أتِيَ بابن البَعِيث، وكلّمه ابن البَعيث بما كلّمه به، فتكلّم فيه جالس مع أبيه المتوكل، فاستوهبه فُوهِب له، وعُفِي عنه.

وكان ابن البَعيث حين هرب قال:

كمْ قــد قضيت أمـوراً كــان أهمَلَهــا ... غيـري وقـد أخـذ الإفـلاسُ بـالكَـظَم
لا تَـعْــذِلِينِيَ فـيمــا لـيس ينفعُـني ... إليــكَ عني جَـرى المِقــدارُ بــالقَلمِ
ســأُتلِفُ المـالَ في عُســرٍ وفي يَسرٍ ... إن الجـوَادَ الذي يُعْـطِي على العـدَمِ

وكان ابن البعيث حين هرب خلّف في منزله ثلاثة بنين له، يقال لهم: البعيث وجعفر وحَلْبس، وجواريَ، فحبِسوا ببغداد في قصر الذّهب، فتكلّم بُغا الشرابيّ بعد موت ابن البعيث - ومات بعد دخوله سامُرّا بشهر - في أبي الأغرّ ختَنَه، فأطلِق وأطلقتْ خالةٌ لابن البعيث، فخرجتْ من السجن، فماتت فرحاً من يومها، وبقي الباقون في الحبس.

وذكر أنّ ابن البعيث صُيِّر في عنقه مائة رطل، فلم يزل مكبوباً على وجهه حتى مات.

ولما أخِذ ابنُ البعيث أخرِج من الحبس مَنْ كان محبوساً بسبب كفالته به، وقد كـان بعضهم مات في الحبْس، فأخرِج بعدُ باقي عياله وصُيِّر بنوه: حَلْبسَ والبعيث وجعفر في عِداد الشاكرية مع عبيد الله بن خاقان، وأُجْريتْ عليهم الأنزال.

وفي هذه السنة أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمّة كلهم بلبس الطيالسة العسليّة والزّنانير وركوب السروج بركب الخشبَ وبتصيير كُرَتَيْن على مؤخر السروج، وبتصيير زِرّين على قَلانس مَنْ لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالفٌ لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه؛ وأن تكون إحدى الرُّقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منها خلْف ظهره؛ وتكون كلُّ واحدة من الرُّقعتين قَدْر أربع أصابع، ولونهما عسليّاً، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لـون العسليّ، ومن خرج من نسائهم فبرزتْ فلا تبرز إلاّ في إزار عسليّ، وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزّنانير وبمنعهم لبسَ المناطق، وأمر بهدم بيَعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإن كان الموضع واسعاً صُيِّر مسجداً، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صُيِّر فضاء، وأمر أن يجعل على أبـواب دورهم صورَ شيـاطين من خشب مسمورة؛ تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلّم أولادهُم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلّمهم مسلم، ونهى أن يُظهروا في شعانينهم صليباً، وأن يشمعلّوا في الـطريق، وأمر بتسـوية قبـورهم مع الأرض، لئلا تشبه قبـور المسلمين.

وكتب إلى عماله في الآفاق:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد؛ فإنّ الله تبارك وتعالى بعزّته التي لا تحاوَل وقدرته على ما يـريد؛ اصطفى الإسلام فَرَضِيَهُ لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيّد به أولياءه، وكَنَفَه بالبرّ، وحاطه بالنصر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديَان، مبـرّأً من الشبهات، معصوماً من الآفات، محبوّاً بمناقب الخير، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفهـا، ومن الأحكام بـأعدلهـا وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها؛ وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلالِه، وحرّم عليهم من حرامه؛ وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه، فقال في كتابه فيما

أمر به ونهى عنه، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ (١)، وقال فيما حرّم على أهله مما غمط فيه أهل الأديان من رديء المطعم والمشرب والمنكح لينزّههم عنه وليظهر به دينهم، ليفضّلهم عليهم تفضيلا: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ. . . ﴾(٢) إلى آخر الآية، ثم ختم ما حرّم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه؛ ممن عَنَد عنه وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم، فقال عز وجل: ﴿ اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ. . . ﴾ (٢) الآية، وقال عزّ وجلّ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُم. . . ﴾ (٣) وقال: ﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ. . . ﴾ (٤) الآية، فحرّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء، وأصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزْراً، وأولاها عند ذوي الحِجَى والألباب تحريماً، ثم حباهم محاسنَ الأخلاق وفضائل الكرامات؛ فجعلهم أهلَ الإيمان والأمانة، والفَضْل والتراحم واليقين والصدق؛ ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر، ولا الحميّة ولا التكبر، ولا الخيانة ولا الغدر، ولا التباغيَ ولا التظالم؛ بل أمر بالأولى ونهى عن الأخرى، ووعد وأوعد عليها جَنّته ونارَه، وثوابه وعقابه؛ فالمسلمون بما اختصّهم الله من كرامتِه، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم، بائنون على الأديان بشرائِعهم الزّاكية، وأحكامهم المرضية الطاهرة، وبراهينهم المنيرة، وبتطهير الله دينهم بما أحلّ وحرّم فيه لهم وعليهم، قضاء من الله عزّ وجلّ في إعزاز دينه؛ حتماً ومشيئةً منه في إظهار حقه ماضية، وإرادةً منه في إتمام نعمته على أهله نافذة ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنَة ﴾ (٥)، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين.

وقد رأى أمير المؤمنين ـ وبالله توفيقه وإرشاده ـ أن يحمِل أهل الذمّة جميعاً بحضرته وفي نواحي أعماله؛ أقربها وأبعدِها، وأخصّهم وأخسّهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها؛ مَنْ لبسها من تجّارهم وكتابهم، وكبيرهم وصغيرهم، على ألوان الثياب العسليّة، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره، ومَنْ قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم، ومَنْ يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خِرْقتين صبغهما ذلك الصِّبغ يكون استدارة كلّ واحدة منهما شبراً تامّاً في مثله، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه، تلقاء صدره، ومن وراء ظهره، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرّة عليها تُخالف ألوانها القلانس؛ ترتفع في أماكنها التي تقع بها، لئلا تلصق فتُستَر ولا ما يركّب منها على حباك فتخفى؛ وكذلك في سروجهم باتّخاذ رُكب خشب لها، ونَصْب أكَرٍ على قرابيسها؛ تكون ناتئة عنها، وموفية عليها، لا يرخَّص لهم في إزالتها عن قرابيسهم، وتأخيرها إلى جوانبها؛ بل يُتفقّد ذلك منهم؛ ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يتبيّنُه الناظر من غير تأمّل، وتأخذه الأعين من غير طلب، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم، ومَنْ يلبس

(١) سورة النحل: ٩٠.
(٢) سورة المائدة: ٣.
(٣) سورة النساء: ٢٣.
(٤) سورة المائدة: ٩٠.
(٥) سورة الأنفال: ٤٤.

المناطق من تلك الطبقة بشدّ الزنانير والكساتيج مكان المناطق التي كانت في أوساطهم، وأن توعِزَ إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدّم إليهم فيه، وتحذّرهم إدهاناً وميلاً، وتتقدّم إليهم في إنزال العقوبة بِمَنْ خالف ذلك من جميع أهل الذّمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره؛ ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها، وأخذهم بها إن شاء الله.

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وأمره، وأنفذ إلى عمالك في نواحِي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله؛ وأمير المؤمنين يسأل الله ربَّه ووليَّه أن يُصَلِّيَ على محمد عبده ورسوله ﷺ وملائكته، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه، ويتولى ما ولاّهُ مما لا يبلغ حقه فيه إلاّ بعونه؛ حفظاً يحمل به ما حمله، وولاية يقضي بها حقه منه ويوجب بها له أكمل ثوابه، وأفضل مزيده؛ إنه كريم رحيم.

وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين.

فقال عليّ بن الجهم:

العَسلِيَّاتُ التي فرَّقَتْ ... بين ذوي الرِّشْدَةِ والغَيِّ
وما على العاقل إنْ تَكثُرُوا ... فإنه أكثرُ للفَيِّ

وفي هذه السنة ظهر بسامرّا رجلٌ يقال له محمود بن الفرج النيسابوريّ فزعم أنه ذو القرنين، ومعه سبعة وعشرون رجلاً عند خشبة بابَك، وخرج من أصحابه بباب العامة رجُلان، وببغداد في مسجد مدينتها آخران، وزعما أنه نبيّ، وأنه ذو القرنين، فأتِيَ به وبأصحابه المتوكّل، فأمر بضربه بالسياط، فضرب ضرباً شديداً، فمات من بعد من ضَرْبه، وحُبِس أصحابه، وكانوا قدموا من نيسابور، ومعهم شيء يقرؤونه، وكان معهم عيالاتهم، وفيهم شيخ يشهد له بالنبوّة، ويزعم أنه يوحَى إليه، وأنّ جبريل يأتيه بالوحي، فضُرب محمود مائة سوط، فلم ينكر نبوّته حين ضُرب، وضُرب الشيخ الذي كان يشهد له أربعين سوطاً، فأنكر نبوَّته حين ضرب. وحُمل محمود إلى باب العامّة، فأكذب نفسه، وقال: الشيخ قد اختدعني، وأمر أصحاب محمود أن يصفعوه فصفعوه؛ كلّ واحد منهم عشر صفعات، وأُخِذ له مصحف فيه كلام قد جمعه ذكر أنه قرآنه، وأن جبريل عليه السلام كان يأتيه به، ثم مات يوم الأربعاء لثلاث خلْون من ذي الحجة في هذه السنة ودفن في الجزيرة.

وفي هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة: لمحمد وسماه المنتصر، ولأبي عبدالله ابن قبيحة - ويختلف في اسمه، فقيل ان إسمه محمد، وقيل: اسمه الزبير، ولقبه المعتزّ - ولإبراهيم وسماه المؤيّد بولاية العهد، وذلك - فيما قيل - يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة - وقيل لليلتين بقيتا منه - وعقد لكلّ واحد منهم لواءين؛ أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل، وضمّ إلى كلّ واحد من العمل ما أنا ذاكره.

فكان ما ضمّ إلى ابنه محمد المنتصر من ذلك إفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنَّسرين والعواصم والثغور الشأمية والجزريّة وديار مُضر وديار ربيعة والموصل وهِيت وعَانات والخابُور وقَرقيسيا وكور باجَرْمى وتَكرِيت وطساسيج السواد وكور دِجلة والحَرمين واليمَن وعكّ وحضرموت

واليَمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفَرْج بيت الذهب وكُور الأهواز والمستغلّات بسامرّا وماه الكوفة وماه البصرة وماسَبَذان ومِهرجان قَذَق وشهر زُور ودراباذ والصامغان وأصبهان وقمّ وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة .

وكان ما ضمّ إلى ابنه المعتزّ كُور خراسان وما يضاف إليها ، وطبرستان والرّيّ وإرمينيَة وأذْربيجان وكُور فارس . ضم إليه في سنة أربعين خَزْن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب ، وأمر بضرب اسمه على الدراهم .

وكان ما ضمّ إلى ابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردنّ وجند فلسطين ، فقال أبو الغصْن الأعرابيّ :

إنَّ وُلاةَ المسلمينَ الجِلَّهْ ... محمّدُ ثم أَبو عَبْدِ اللّهْ
ثمَّتَ إبراهيمُ آبي الذِّلَّهْ ... بُورِكَ في بني خليفةِ اللّهْ

وكتب بينهم كتاباً نسخته :

هذا كتاب كتبه عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، وأشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ومَنْ حضر من أهل بيته وشيعته وقوّاده وقُضاته وكفاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لمحمد المنتصر بالله ، ولأبي عبدالله المعتزّ بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ؛ بني أمير المؤمنين ؛ في أصالةٍ من رأيه ، وعمومٍ من عافية بدنه ، واجتماع من فهمه ؛ مختاراً لما شهد به ، متوخيّاً بذلك طاعةَ ربه ، وسلامة رعيّته واستقامتها وانقياد طاعتها ، واتساع كَلمتها ؛ وصلاح ذات بينها ، وذلك في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين أنه جعل ؛ إلى محمد المنتصر بالله بن جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين في حياته والخلافة عليهم من بعده ؛ وأمره بتقوى الله التي هي عِصْمة مَن اعتصم بها ونجاةُ من لجأ إليها ، وعزّ من اقتصر عليها ، فإن بطاعة الله تتمّ النعمة ، وتجب من الله الرحمة ، والله غفور رحيم . وجعل عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين الخلافة من بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين إلى أبي عبدالله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ، ثم من بعد أبي عبدالله المعتز ابن أمير المؤمنين الخلافة إلى إبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين .

وجعلَ عبدُ الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين لمحمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبدالله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ابني أمير المؤمنين السمع والطاعة والنصيحة والمشايعة والمُوالاة لأوليائه والمعاداة لأعدائه ، في السرّ والجهر ، والغضب والرضا ، والمنع والإعطاء ، والتمسك ببيعته ، والوفاء بعهده ، لا يَبغيانه غائلة . ولا يحاولانه مخاتلةً . ولا يمالئان عليه عدوّاً ، ولا يستبدّان دونه بأمر يكون فيه نقضٌ لما جعل إليه أمير المؤمنين من ولاية العهد في حياته والخلافة من بعده .

وجعل عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبدالله المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ابني أمير المؤمنين الوفاء بما عقده لهما ، وعهد به إليهما من الخلافة بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، وإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخليفة من بعد أبي عبد الله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، والإتمام على ذلك . وألّا يَخْلعهما ولا واحداً منهما ، ولا يعقد دونهما ولا دون واحد منهما بيعةً

لولد ، ولا لأحد من جميع البرية ، ولا يؤخر منها مقدّماً ، ولا يقدّم منها مؤخّراً . ولا يَنْقصها ولا واحداً منها شيئاً من أعمالها التي ولاهما عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين وكلّ واحد منها ، من الصلاة والمعاون والقضاء والمظالم والخراج والضياع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من حقوق أعمالها ، وما في عمل كلّ واحد منها ؛ من البريد والطُّرُز وخَزْن بيوت الأموال والمعاون ودُور الضَّرْب وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين ، ويجعلها إلى كلّ واحد منها ، ولا ينقل عن واحد منها أحداً من ناحيته من القوّاد والجند والشاكرية والموالي والغلمان وغيرهم ؛ ولا يعترض عليه في شيء من ضياعه وإقطاعاته وسائر أمواله وذخائره وجميع ما في يده ، وما حواه وملكتْ يده من تالد وطارف ، وقديم ومستأنف ؛ وجميع ما يستفيده ويُستفاد له بنقص ، ولا يحرم ولا يجنف ، ولا يعرض لأحد من عماله وكتّابه وقضاته وخدمه ووكلائه وأصحابه ، وجميع أسبابه بمناظرة ولا محاسبة ، ولا غير ذلك من الوجوه والأسباب كلها ، ولا يفسخ فيها وكّده أمير المؤمنين لهما في هذا العقد والعهد ، بما يزيل ذلك عن جهته ، أو يؤخّره عن وقته ، أو يكون ناقضاً لشيء منه .

وجعل عبدالله جعفر المتوكل على الله أمير المؤمنين على أبي عبد الله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين إن أفضت إليه الخلافة بعد محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين مثل الشرائط التي اشترطها على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين بجميع ما سميّ فيه ووصف في هذا الكتاب ، وعلى ما بيّن وفسّر ، مع الوفاء من أبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين ، بما جعله أمير المؤمنين لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين من الخلافة وتسليم ذلك راضياً به ممضياً له ؛ مقدّماً ما فيه حق الله عليه وما أمره به أمير المؤمنين ، غير ناكث ولا ناكب بذلك ، ولا مبدّل ، فإن الله تعالى جدُّه وعَزّ ذكره يتوعّد مَن خالف أمره ، وعَنَد عن سبيله في محكم كتابه : ﴿ فَمَنْ بدَّلَهُ بعْدَ مَا سَمِعَهُ فإنَّما إثْمُهُ عَلَى الَّذِين يُبَدِّلونه إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

على أن لأبي عبدالله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ولإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، الأمان ، وهما مقيمان بحضرته أو أحدهما ، أو كانا غائبين عنه ؛ أو مجتمعين كانا أو متفرّقين . ويستمر أبو عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بخراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، ويستمر إبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين في ولايته بالشأم وأجنادها ؛ فعلى محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين ، أن يُمضيَ أبا عبدالله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين إلى خُراسان وأعمالها المتصلة بها والمضمومة إليها ، وأن يسلّم له ولايتَها وأعمالها كلها وأجنادها والكُور الداخلة فيها ولّى جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين أبا عبدالله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ، فلا يعوّقه عنها ، ولا يحبسه قبَله ولا في شيء من البلدان دون خراسان والكور والأعمال المضمومة إليها ، وأن يعجّل إشخاصه إليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، مُفْرَداً بها مفوّضاً إليه أعمالها كلها ؛ لينزل حيث أحبّ من كُور عمله ، ولا ينقله عنها ، وأن يَشخص معه جميع من ضَمّ إليه أمير المؤمنين ، ويضمّ من مواليه وقوّاده وشاكريته وأصحابه وكتابه وعماله وخَدَمه ومَن اتبعه من صُنوف الناس بأهاليهم وأولادهم وعيالهم وأموالهم ، ولا يحبس عنه أحداً ، ولا يشرك في شيء من أعماله أحداً ، ولا يوجه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً ، ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير .

وأن يطلق محمد المنتصر بالله لإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين الخروجَ إلى الشأم وأجنادها فيمن ضمّ

---

(١) سورة البقرة : ١٨١ .

أمير المؤمنين ويضمه إليه من مواليه وقوّاده وخَدمه وجنوده وشاكريّته وصحابته وعُمّاله وخدّامه ومن اتبعه من صنوف الناس بأهاليها وأولادهم وأموالهم ، ولا يحبس عنهم أحداً ، ويسلّم إليه ولايتها وأعمالها وجنودها كلّها ، لا يعوّقه عنها ، ولا يحبسه قِبَله ولا في شيء من البلدان دونَها ، وأن يعجِّل إشخاصه إلى الشأم وأجنادها والياً عليها ، ولا ينقله عنها ، وأنّ عليه له فيمن ضمّ إليه من القوّاد والموالي والغلمان والجنود والشاكرية وأصناف الناس وفي جميع الأسباب والوجوه مثل الذي اشترط على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبي عبدالله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين في خُراسان وأعمالها على ما رسم من ذلك . وبينّ ولخص ، وشرح في هذا الكتاب .

ولإبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين على أبي عبدالله المعتزّ بالله ابن أمير المؤمنين ـ إذا أفضت الخلافة إليه ، وإبراهيم المؤيد بالله مقيم بالشام ـ أن يُقرّه بها أو كان بحضرته ، أو كان غائباً عنه ، أن يمضيَه إلى عمله من الشأم ، ويسلّم إليه أجنادَها وولايتها وأعمالها كلها ، ولا يعوّقه عنها ، ولا يحبسه قِبَله ولا في شيء من البلدان دونها ، وأن يُعجّل إشخاصه إليها والياً عليها وعلى جميع أعمالها ، على مثل الشرط الذي أخذ لأبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين في خراسان وأعمالها ، على ما رسم ووصف وشرط في هذا الكتاب ، لم يجعل أمير المؤمنين لواحد ممن وقعت عليه وله هذه الشروط ؛ من محمد المنتصر بالله ، وأبي عبدالله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين ، أن يزيلَ شيئاً مما اشترطنا في هذا الكتاب ، ووكّدنا ، وعليهم جميعاً الوفاءُ به ، لا يقبل الله منهم إلاّ ذلك ، ولا التمسُّك إلا بعهد الله فيه ؛ وكان عهد الله مسؤولاً .

أشهد اللّهَ ربَّ العالمين جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ومن حضره من المسلمين بجميع ما في هذا الكتاب على إمضائه إياه ؛ على محمد المنتصر بالله ، وأبي عبدالله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، بني أمير المؤمنين بجميع ما سمى ووصَف فيه ، وكفى بالله شهيداً ومعيناً لمن أطاعه راجياً ، ووفّى بعهده خائفاً وحسيباً ؛ ومعاقباً من خالفه معانداً ، أو صَدَف عن أمره مجاهداً .

وقد كتب هذا الكتاب أربع نسخ ، وقعت شهادة الشهود بحضرة أمير المؤمنين في كلّ نسخة منها ؛ في خزانة أمير المؤمنين نسخة ، وعند محمد المنتصر ابن أمير المؤمنين نسخة ، وعند أبي عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند إبراهيم المؤيد بالله ابن أمير المؤمنين.

وقد ولى جعفر الإمام المتوكل على الله أبا عبدالله المعتز بالله ابن أمير المؤمنين أعمال فارس وإرمينيَة وأذْرَبيجان إلى ما يلي أعمال خراسان وكُورها والأعمال المتّصلة بها والمضمومة إليها . على أن يجعل له على محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين في ذلك الذي جعل له في الحياطة في نفسه . والواثق في أعماله ، والمضمومين إليه ، وسائر من يستعين به من الناس جميعاً في خراسان والكُور المضمومة إليها والمتصلة بها على ما سمَّى ووصف في هذا الكتاب .

وقال إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول يمدح بني المتوكل الثلاثة : المنتصر ، والمعتزّ، والمؤيد:

أَضْحَتْ عُرَى الإسلامِ وهي مَنُوطةٌ ... بالنَّصْرِ والإعزاز والتأْييدِ
بخليفةٍ من هاشمٍ وثلاثةٍ ... كَنَفوا الخلافةَ من وُلاةِ عهودِ

قـمـرٌ تـوالـتْ حـولـهُ أقـمـارُه ... يـكـنـفْـنَ مـطـلَعَ سـعـدِهِ بـسـعـود
كَـنَفَـتْـهُـمُ الآبـاءُ واكـتـنـفـت بهـمْ ... فسعـوْا بـأكـرمِ أنـفسٍ وجُـدُودِ

وله في المعتز بالله :

أشـرقَ المـشـرِقُ بـالمـعـ ... ـتـزّ بـالـلهِ ولاحَـا
إنمـا المـعـتز طِـيـبٌ ... بُثَّ في الـنـاس فَـفـاحـا

وله أيضاً فيها :

الـلهُ أظـهـرَ ديـنَـهُ ... وأعـزَّهُ بمـحـمـدِ
والـلهُ أكـرَم بـالخـلا ... فـةِ جـعـفـرَ بـنَ محـمـدِ
والـلهُ أيّـد عـهـده ... بمـحـمـدٍ ومحـمـدِ
ومُـؤيّـدِ لمـؤيـدَيْـنِ ... إلى الـنـبـيّ محـمَّـدِ

وفيها كانت وفاة إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر في يوم الثلاثاء لستٍّ بقين من ذي الحجة . وقيل كانت وفاته لسبع بقين منه . وصيّر ابنه مكانه ، وكسي خمس خلع . وقلّد سيفاً . وبعث المتوكل حين انتهى إليه خبرُ مرضه بابنه المعتزّ لعيادته مع بُغا الشرابيّ وجماعة من القواد والجند .

وذكر أن ماء دجلة تغيّر في هذه السنة إلى الصُّفرة ثلاثة أيام . ففزع الناس لذلك، ثم صار لون ماء المدود وذلك في ذي الحجة .

وفيها أتِي المتوكـل بيحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علـيّ بن أبي طالب عليه السلام من بعض النواحي ؛ وكان ـ فيما ذكر ـ قد جمع قوماً ، فضربه عمر بن فرج ثمان عشرة مقرعة ، وحبس ببغداد في المطَبق .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود .

ثم دخلت سنة ستّ وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مقتل محمد بن إبراهيم بن مُصعب بن زُرَيق ، أخي إسحاق بن إبراهيم بفارس .

ذكر الخبر عن مقتله وكيف قتل :

حدّثني غير واحد ، عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم ؛ أن أباه إسحاق بلَغه عنه أنه أكول لا يملأ جوفَه شيء ، وأنه أمر باتخاذ الطعام والإكثار منه ، ثم أرسل إليه فدعاه ، ثم أمره أن يأكل ، وقال له : إني أحبّ أن أرى أكلك ، فأكل وأكثر حتى عجب إسحاق منه ، ثمّ قُدّم إليه بعد ما ظنّ أنه شبع وامتلأ من الطعام حَمَلٌ مشويّ ، فأكل منه حتى لم يبق منه إلا عظامُه ؛ فلما فرغ من أكله ، قال : يا بنيَّ ، مالُ أبيك لا يقوم بطعام بطنك ؛ فالحق أمير المؤمنين ؛ فإنّ ماله أحْمَلُ لك من مالي . فوجّهه إلى الباب وألزمه الخدمة ، فكان في خدمة السلطان حياة أبيه ، وخليفة أبيه ببابه ، حتى مات أبوه إسحاق ؛ فعقد له المعتز على فارس ، وعقد له المنتصر على اليمامة والبحرين وطريق مكة ، في المحرّم من هذه السنة ، وضمّ إليه المتوكّل أعمال أبيه كلها ، وزاده المنتصر ولاية مصر ، وذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ حمل إلى المتوكل وأولياء عهده مما كان في خزائن أبيه من الجواهر والأشياء النفيسة ما حظِيَ به عندهم ، فرفعوه ورفعوا مرتبته .

فلما بلغ محمد بن إبراهيم ما فعِل بابن أخيه محمد بن إسحاق تنَكّر للسلطان ، وبلغ المتوكل عنه أمور أنكرها ، فأخبرني بعضهم أنّ تنكّر محمد بن إبراهيم إنما كان لابن أخيه محمد بن إسحاق ، واعتلاله عليه بحمْل خراج فارس إليه . وأن محمداً شكا إلى المتوكل ما كان من تنكر عمّه محمد بن إبراهيم في ذلك ،فبسط يده عليه ، وأطلق له العمل فيه بما أحبّ ، فولّى محمد بن إسحاق الحسينَ بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب فارسَ ، وعزل عمه ، وتقدم محمد إلى الحسين بن إسماعيل في قتل عمِّه محمد بن إبراهيم ، فذُكر أنه لما صار إلى فارس أهدى إليه في يوم النيروز هدايا ؛ فكان فيما أهدى إليه حَلْواء ، فأكل محمد بن إبراهيم منها ، ثم دخل الحسين بن إسماعيل عليه ، فأمر بإدخاله إلى موضع آخر وإعادة الحلواء عليه ، فأكل أيضاً منها ، فعطش فاستسقى ، فمنع الماء ، ورام الخروج من الموضع الذي أُدخِل ، فإذا هو محبوس لا سبيلَ له إلى الخروج ؛ فعاش يومين وليلتين ، ومات . فحُمِل ماله وعياله إلى سامرّا على مائة جمل . ولما ورد نعيُّ محمد بن إبراهيم على المتوكل أمرَ بالكتاب فيه إلى طاهر بن عبدالله بن طاهر بالتعزية فكُتِب :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يوجب لك مع كلِّ فائدة ونعمة تهنئتك بمواهب الله وتعْزِيَتك عن ملمّات أقداره ، وقد قضى الله في محمد بن إبراهيم مولى أمير المؤمنين ما هو قضاؤه في عباده ، حتى يكون الفناء لهم

والبقاء له . وأمير المؤمنين يعزّيك عن محمد بما أوجب الله لمن عمل بما أمره به في مصائبه ، من جزيل ثوابه وأجره ، فليكن الله وما قرّبك منه أوْلى بك في أحوالك كلها ؛ فإنّ مع شكر الله مزيدَه ، ومع التسليم لأمر الله رضاه ؛ وبالله توفيق أمير المؤمنين . والسلام .

وفي هذه السنة تُوفِّيَ الحسنُ بن سهل في قول بعضهم في أوّل ذي الحجة منها ، وقال قائل هذه المقالة : مات محمد بن إسحاق بن إبراهيم في هذا الشهر لأربع بقين منه . وذكر عن القاسم بن أحمد الكوفيّ ، أنه قال : كنت في خدمة الفتح بن خاقان في سنة خمس وثلاثين ومائتين ، وكان الفتح يتولّى للمتوكل أعمالاً ، منها أخبار الخاصة والعامّة بسامرّا والهارونيّ وما يليها ، فورد كتاب إبراهيم بن عطاء المتولّي الأخبارَ بسامرّا يذكر وفاة الحسن بن سهل ، وأنه شرب شربة دواء في صبيحة يوم الخميس لخمس ليال بقين من ذي القعدة من سنة خمس وثلاثين ومائتين أفرطت عليه ، وأنه توفِّيَ في هذا اليوم وقت الظهر ، وأنّ المتوكل أمر بتجهيز جهازه من خزائنه . فلمّا وضع على سريره تعلق به جماعة من التجار من غرماء الحسن بن سهل ، ومنعوه من دفنه ، فتوسّط أمرهم يحيى بن خاقان وإبراهيم بن عتّاب ورجل يعرف ببرغوث ؛ فقطعوا أمرهم ، ودفن . فلما كان من الغد وردَ كتاب صاحب البريد بمدينة السلام بوفاة محمد بن إسحاق بن إبراهيم بعد الظهر يوم الخميس لخمس خلون من ذي الحجة ، فجزع عليه المتوكل جزعاً ، وقال : تبارك الله وتعالى ! كيف توافت منيّة الحسن ومحمد بن إسحاق في وقت واحد !

وفيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن عليّ وهدْم ما حوله من المنازل والدّور ، وأن يُحرَث ويبُذر ويُسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر أنّ عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبَق ، فهرب الناس ، وامتنعوا من المصير إليه ؛ وحُرِث ذلك الموضع ، وزُرع ما حواليه .

وفيها استكتب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وصرف محمد بن الفضل الجرجرائيّ .

وفيها حجّ محمد المنتصر ، وحجّت معه جدّته شجاع أمّ المتوكل ، فشيّعها المتوكل إلى النَّجَف .

وفيها هلك أبو سعيد محمد بن يوسف المروزي الكَبِحَ فجاءةً ، ذكر أن فارس بن بُغا الشرابيّ وهو خليفة أبيه ، عقد لأبي سعيد هذا ، وهو مولى طيّيء على أذربيجان وإرمينيَة ، فعسكر بالكرخ ، كرخ فيروز ، فلما كان لسبع بقين من شوّال وهو بالكرخ مات فُجاءة ، لبس أحد خُفّيْه ومدّ الآخر ليلبسه فسقط ميتاً ، فولّى المتوكل ابنه يوسف ما كان أبوه وليَه من الحرب ، وولّاه بعد ذلك خراج الناحية وضِياعها ، فشخص إلى الناحية فضبَطها ، ووجّه عُمّاله في كل ناحية .

وحجّ بالناس في هذه السنة المنتصر محمد بن جعفر المتوكل .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من وثوب أهل إرمينيَة بيوسف بن محمد فيها.

ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به:

قد ذكرنا فيما مضى قبلُ سبب استعمال المتوكل يوسف بن محمد هذا إيّاه على إرمينيَة؛ فأما سبب وثُوب أهل إرمينيَة به؛ فإنه كان - فيما ذكر - أنه لما صار إلى عمله من إرمينيَة خرج رجل من البطارقة يقال له بُقراط بن أشُوط؛ وكان يقال له بطريق البطارقة، يطلب الإمارة؛ فأخذه يوسف بن محمد، وقيّده وبعث بـه إلى باب الخليفة، فأسلم بُقراط وابنه؛ فذُكر أن يوسف لمّا حمل بقراط بن أشُوط اجتمع عليه ابن أخي بُقراط بن أشوط وجماعة من بطارقة إرمينيَة، وكان الثلج قد وقع في المدينة التي فيها يوسف، وهي - فيما قيل - طَرُون؛ فلما سكن الثلج أناخوا عليها من كلّ ناحية، وحاصروا يوسف ومَنْ معه في المدينة، فخرج يوسف إلى باب المدينـة، فقاتلهم فقتلوه وكلّ مَنْ قاتل معه؛ فأما من لم يقاتل معه؛ فإنهم قالوا له: ضع ثيابك، وانجُ عرياناً، فطرح قوم منهم كثير ثيابهم، ونجوا عُراة حُفاة، فمات أكثرهم من البَرْد، وسقطت أصابع قوم منهم ونجـوا؛ وكانت البطارقة لمّا حمل يوسف بقراط بن أشوط تحَالفُوا على قتله، ونذروا دمَه، ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة، وهو على ابنة بقراط، فنهى سوادة بن عبد الحميد الحجّافيّ يوسفَ بن أبي سعيد عن المقام بموضعه، وأعلمه بما أتاه من أخبار البطارقة، فأبى أن يفعل، فوافاه القوم في شهر رمضان، فأحدقوا بسُور المدينة والثلج ما بين عشرين ذراعاً إلى أقلّ حول المدينة إلى خِلاط إلى دُبَيل، والدنيا كلها ثلج.

وكان يوسف قبل ذلك قد فرّق أصحابه في رساتيق عمله، فتوجّه إلى كلّ ناحية منها قوم من أصحابه، فوُجِّه إلى كل طائفة منهم من البطارقة، وممن معهم جماعة، فقتلوهم في يوم واحد، وكانوا قد حاصروه في المدينة أياماً، فخرج إليهم فقاتل حتى قُتِل، فوجّه المتوكل بُغا الشرابيّ إلى إرمينيَة طالباً بدم يوسف، فشخص إليها من ناحية الجزيرة، فبدأ بأرزَن بموسى بن زرارة، وهو أبو الحرّ وله إخوة: إسماعيل وسليمان وأحمد وعيسى ومحمد وهارون، فحمل بغا موسى بن زرارة إلى باب الخليفة، ثم سار فأناخ بجبل الخويثية؛ وهم جَمّة أهل إرمينيَة، وقتلة يوسف بن محمد، فحاربهم فظفِر بهم، فقتل زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى منهم خلقاً كثيراً، فباعهم بإرمينيَة، ثم سار إلى بلاد الباق فأسر أشُوط بن حمزة أبا العباس وهو صاحب الباق - والباق من كُور البُسفُرّجان وبنَى النشَوَى، ثم سار إلى مدينة دُبيل من إرمينية، فأقام بها شهراً، ثم سار إلى تفليس.

وفي هذه السنة وُلّي عبدالله بن إسحاق بن إبراهيم بغداد ومعاون السواد.

وفيها قدم محمد بن عبدالله بن طاهر من خُراسان، لثمان بقين من شهر ربيع الآخر، فولّيَ الشرطة والجزية وأعمال السَّوَاد وخلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام، ثم صار إلى بغداد.

وفيها عزل المتوكلُ محمد بن أحمد بن أبي دواد عن المظالم، وولاها محمد بن يعقوب المعروف بأبي الربيع.

وفيها رضي عن ابن أكثم، وكان ببغداد فأشخص إلى سامرّا، فوُلِّيَ القضاء على القضاة، ثم ولِّيَ أيضاً المظالم، وكان عزل المتوكل محمد بن أحمد بن أبي دواد عن مظالم سامرّا لعشر بقين من صفَر من هذه السنة.

وفيها غضب المتوكّل على ابن أبي دواد؛ وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دواد لخمسٍ بقين من صفر، وحُبِسَ يوم السبت لثلاث خَلَوْن من شهر ربيع الأول ابنه أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد في ديوان الخراج، وحبس إخوته عند عبيدالله بن السريّ خليفة صاحب الشرطة، فلما كان يوم الاثنين حمل أبو الوليد مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار، ثم صُولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم، وأشهد عليهم جميعاً ببيع كلّ ضيعة لهم؛ وكان أحمد بن أبي دواد قد فُلج، فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلوْن من شعبان، أمر المتوكل بولد أحمد بن أبي دواد، فحُدِروا إلى بغداد، فقال أبو العتاهية:

لو كنتَ في الرأيِ منسوباً إلى رشَدٍ ... وكان عزمُك عزماً فيه توفيقُ
لكانَ في الفقه شغلٌ لو قَنِعْتَ به ... عن أنْ تقولَ: كلامُ اللّهِ مخلوقُ
ماذا عليك وأصلُ الدينِ يَجمَعهمْ ... ما كان في الفرعِ لولا الجهلُ والمُوقُ

وأقيم فيها الخلنجيّ للناس في جمادى الآخرة.

وفيها ولّى ابن أكثم قضاء الشرقية حيّان بن بشر، وولّى سَوّار بن عبدالله العنبريّ قضاء الجانب الغربيّ، وكلاهما أعور، فقال الجمّاز:

رأيتُ من الكبائرِ قاضِيَيْنْ ... همـا أحدُوثةٌ في الخافقينْ
هما اقتَسَمَا العمَى نِصفَين قدًّا ... كما اقتسما قَضاءَ الجانبَيْنْ
وتَحسبُ منهما مَن هزَّ رأساً ... ليَنظرَ في مَواريثٍ ودَيْنِ
كأَنكَ قد وضَعْتَ عليه دنًّا ... فَتَحْتَ بُزالَهُ من فَرْدِ عَيْنْ
هما فَألُ الزمانِ بهُلْكِ يحيى ... إذِ افتتَح القضاءَ بأعْوَرَيْنِ

وفيها أمر المتوكل في يوم الفطر منها بإنزال جُثّة أحمد بن نصر بن مالك الخُزاعيّ، ودفعه إلى أوليائه.

ذكر الخبر عما فعل به وما كان من الأمر بسبب ذلك:

ذُكر أنّ المتوكل لّما أمر بدفع جُثّته إلى أوليائه لدفنه، فُعل ذلك، فدُفع إليهم؛ وقد كان المتوكل لما أفضت إليه الخلافة، نهى عن الجدال في القرآن وغيره، ونفذت كتبه بذلك إلى الآفاق، وهمّ بإنزال أحمد بن نصر عن خَشبته، فاجتمع الغَوْغاء والرّعاع إلى موضع تلك الخشبة، وكثّروا وتكلّموا، فبلغ ذلك المتوكل، فوجّه إليهم نصر بن الليث، فأخذ منهم نحواً من عشرين رجلاً، فضربهم وحبَسهم، وترك إنزال أحمد بن نصر من خَشبته لِمَا بلغه من تكثير العامة في أمره، وبقيَ الذين أخذوا بسببه في الحبْس حيناً، ثم أطلِقوا؛ فلما دفع بدنه إلى أوليائه في الوقت الذي ذكرت، حمله ابن أخيه موسى إلى بغداد، وغُسل ودُفن، وضُمّ رأسه إلى بدنه، وأخذ عبد

الرحمن بن حمزة جسدَه في منديل مصريّ، فمضى به إلى منزله، فكفّنه وصلى عليه، وتولّى إدخاله القبر مع بعض أهله رجلٌ من التجار، ويقال له الأبزاريّ.

فكتب صاحب البريد ببغداد ـ وكان يعرف بابن الكلبي، من موضع بناحية واسط، يقال له الكلبانية ـ إلى المتوكل بخبر العامة، وما كان من اجتماعها وتمسحها بالجنازة؛ جنازة أحمد بن نصر وبخشبة رأسه؛ فقال المتوكل ليحيى بن أكثم: كيف دخل ابن الأبزاريّ القبرَ على كُبْرة خزاعة! فقال: يا أمير المؤمنين، كان صديقاً له. فأمر المتوكل بالكتاب إلى محمد بن عبدالله بن طاهر بمنع العامة من الاجتماع والحرَكة في مثل هذا وشبهه؛ وكان بعضهم أوصى ابنَه عند موته أن يُرهِبَ العامة؛ فكتب المتوكل ينهى عن الاجتماع.

وغزا الصائفة في هذه السنة عليّ بن يحيى الأرمنيّ.

وحجّ بالناس فيها عليّ بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، وكان والي مكة.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من ظفر بغا بإسحاق بن إسماعيل مولى بني أميّة بتفليس وإحراقه مدينة تَفليس.

ذكر الخبر عما كان من بغا في ذلك:

ذُكر أنّ بغا لما صار إلى دبيل بسبب قتل القاتلين من أهل إرمينيَة يوسفَ بن محمد، أقام بها شهراً؛ فلما كان يوم السبت لعشْر خلوْن من شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وجّه بغا زيرك التركي، فجاوز الكُرّ ـ وهو نهر عظيم مثل الصراة ببغداد وأكبر، وهو ما بين المدينة وتفليس في الجانب الغربيّ وصُغدبيل في الجانب الشرقيّ ـ وكان معسكر بُغا في الشرقي، فجاوز زيرك الكرّ إلى ميدان تَفْلِيس، ولتفليس خمسة أبواب: باب الميدان، وباب قريس، وباب الصغير، وباب الرَّبَض، وباب صغدبيل ـ والكُرّ نهر ينحدر مع المدينة ـ ووجّه بغا أيضاً أبا العباس الواثيّ النصرانيّ إلى أهل إرمينيَة عربها وعجمها، فأتاهم زيرك مما يلي الميدان وأبو العباس مما يلي الرَّبَض، فخرج إسحاق بن إسماعيل إلى زيرك، فناوشه القتال، ووقف بغا على تلّ مطلّ على المدينة مما يلي صغدبيل؛ لينظر ما يصنع زيرك وأبو العباس، فبعث بُغا النفّاطين فضربوا المدينة بالنار؛ وهي من خشب الصَّنَوْبر، فهاجت الرّيح في الصنوبر، فأقبل إسحاق بن إسماعيل إلى المدينة لينظر؛ فإذا بالنار قد أخذت في قصره وجواريه، وأحاطت به النار؛ ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً، وأخذوا ابنه عمراً، فأتوْا بهما بُغَا، فأمر بُغا به، فرُدّ إلى باب الحسك، فضربت عنقه هناك صَبْراً، وحُمِل رأسه إلى بُغَا، وصُلِبتْ جيفته على الكُرّ؛ وكان شيخاً محدوداً ضخم الرأس، يخضب بالوَسِمة، آدم أصلع أحول؛ فنُصب رأسه على باب الحَسك.

وكان الذي تولَّى قتلَه غامش خليفة بُغا، واحترق في المدينة نحو من خمسين ألف إنسان، وأُطفِئتِ النار في يوم وليلة؛ لأنها نار الصَّنَوْبر، لا بقاء لها، وصبَّحهم المغاربة، فأسروا مَنْ كان حيًّا، وسلبوا الموتى. وكانت امرأة إسحاق نازلةً بصغدبيل، وهي حذاء تَفْلِيس في الجانب الشرقيّ، وهي مدينة بناها كسرى أنو شروان؛ وكان إسحاق قد حصّنها وحفر خندقَها، وجعل فيها مقاتلة من الخويثيّة وغيرهم. وأعطاهم بُغا الأمان على أن يضعوا أسلحتَهم، ويذهبوا حيث شاء. وكانت امرأة إسحاق ابنة صاحب السرير.

ثم وجّه بُغا ـ فيما ذكر ـ زيرك إلى قلعة الجَرْدمان ـ وهي بين برذعة وتَفْلِيس ـ في جماعة من جنده، ففتح زيرك الجَرْدمان، وأخذ بطْريقها القِطْريج أسيراً، فحمله إلى العسكر. ثم نهض بُغا إلى عيسى بن يوسف ابن أخت أصطفانوس؛ وهو في قلعة كثيش من كورة البَيْلَقان، وبينها وبين البَيْلَقان عشرة فراسخ، وبينها وبين

برذعة خمسة عشر فرسخاً، فحاربه، ففتحها، وأخذه وحمله وحمل ابنه معه وأباه، وحمل أبا العباس الواثيّ - واسمه سَنْبَاط بن أشُوط - وحمل معه معاوية بن سهل بن سَنْبَاط بطريق أرّان، وحمل آذر نرسي بن إسحاق الخاشنيّ.

وفي هذه السنة جاءت للروم ثلاثمائة مركب مع عرفا وابن قطونا وأمردناقه - وهم كانوا الرؤساء في البحر - مع كلّ واحد منهم مائة مركب، فأناخ ابن قطونا بدمياط، وبينها وبين الشطّ شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدْر الرجل؛ فمن جازها إلى الأرض أمِن من مراكب البحر؛ فجازها قوم فسلِموا، وغرق قوم كثير من نساء وصبيان؛ واحتمل من كانت له قوّة في السفن؛ فنجوا إلى ناحية الفسطاط، وبينها وبين الفسطاط مسيرة أربعة أيام. وكان والي معونة مصر عنْبسة بن إسحاق الضّبيّ، فلما قرب العيد، أمر الجند الذين بدمياط أن يحضُروا الفسطاط لتحمل لهم في العيد، وأخلى دمياط من الجند؛ فانتهى مراكب الروم من ناحية شَطَا التي يعمل فيها الشطَويّ، فأناخ بها مائة مركب من الشلنديّة؛ يَحمل كلّ مركب ما بين الخمسين رجلاً إلى المائة؛ فخرجوا إليه وأحرقوا ما وصلوا إليه من دورها وأخصاصها، واحتملوا سلاحاً كان فيها أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب إقريطش نحواً من ألف قناة وآلتها، وقَتلُوا مَنْ أمكنهم قتله من الرجال، وأخذوا من الأمتعة والقَنْد والكَتّان ما كان عُبّىء ليُحمل إلى العراق، وسبوا من المسلمات والقِبْطيات نحواً من ستمائة امرأة؛ ويقال إن المسلمات منهنّ مائة وخمس وعشرون امرأة والباقي من نساء القِبْط.

ويقال إنّ الروم الذين كانوا في الشلنديات التي أناخت بدمياط كانوا نحواً من خمسة آلاف رجُل، فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء، وأحرقوا خزانة القلوع وهي شُرُع السفن، وأحرقوا مسجد الجامع بدمياط، وأحرقوا كنائس؛ وكان مَنْ حُزر منهم ممن غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان أكثر ممن سباه الرّوم. ثم رحل الروم عنها.

وذُكر أنّ ابن الأكشف كان محبوساً في سجن دمياط، حبسه عنبسة، فكسر قيده وخرج؛ فقاتلهم، وأعانه قوم، فقتَل من الروم جماعة، ثم صاروا إلى أشتوم تِنّيس، فلم يحمل الماء سفنهم إليها، فخشوا أن توحَل؛ فلما لم يحملهم الماء صاروا إلى أشتومها - وهي مرسى بينه وبين تِنّيس أربعة فراسخ وأقلّ، وله سور وباب حديد كان المعتصم أمر بعمله . فخرّبوا عامته، وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرّادات، وأخذوا بابيه الحديد، فحملوهما، ثم توجّهوا إلى بلادهم، لم يعرض لهم أحد.

وخرج المتوكل في هذه السنة يوم الاثنين لخمس خلون من جمادى الآخرة من سامرّا يريد المدائن، فصار إلى الشمّاسية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، فأقام هنالك إلى يوم السبت، وعبر بالعشيّ إلى قُطْربُّل، ثم رجع ودخل بغداد يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت منه فمضى في سوقها وشارعها حتى نزل الزّعفرانية، ثمّ صار إلى المدائن.

وغزا الصائفة فيها عليّ بن يحيى الأرمنيّ.

وحجّ بالناس فيها عليّ بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك أمرُ المتوكل بأخذ أهل الذمّة بلبس دُرّاعتين عسليتين على الأقبية والدّراريع في المحرّم منها، ثم أمرُه في صفر بالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحُمر دون الخيل والبراذين.

وفيها قتل صاحب الصَّنّاريّة بباب العامة في جمادى الآخرة منها.

وفيها أمر المتوكل بهدم البِيَع المحدثة في الإسلام.

وفيها مات أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ببغداد في ذي الحجة. وفيها غزا الصائفة عليّ بن يحيى الأرمنيّ.

وحجّ بالناس فيها عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ، وكان والي مكة.

وفيها حجّ جعفر بن دينار؛ وكان والي طريق مكة مما يلي الكوفة فوُلِّيَ أحداث الموسم.

وفيها اتفق شعانين النصارى ويوم النيروز؛ وذلك يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة، فذُكر أن النصارى زعمت أنهما لم يجتمعا في الإسلام قطّ.

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك وثوب أهل حمص بعاملهم على المعونة.

ذكر الخبر عن سبب ذلك وما آل إليه أمرهم ووثوبهم:

ذكر أن عاملهم على المعونة قتل رجلاً كان من رؤسائهم؛ وكان العامل يومئذ أبو المغيث الرافعيّ موسى بن إبراهيم، فوثب أهل حِمْص في جُمادى الآخرة من هذه السنة، فقتلوا جماعة من أصحابه، ثم أخرجوه وأخرجوا صاحب الخَراج من مدينتهم؛ فبلغ ذلك المتوكل؛ فوجّه إليهم عتّاب بن عتاب، ووجه معه محمد بن عَبْدويه كرداس الأنباريّ، وأمره أن يقول لهم: إنّ أمير المؤمنين قد أبدلكم رجلاً مكان رجل؛ فإن سمعوا وأطاعوا ورضُوا؛ فوَلّ عليهم محمد بن عبدَويه؛ وإن أبوْا وثبتوا على الخلاف فأقِمْ بمكانك، واكتب إلى أمير المؤمنين حتى يوجّهَ إليك رجاء، أو محمد بن رجاء الحضاريّ أو غيره من الخيل لمحاربتهم؛ فخرج عتّاب بن عتّاب من سامُرّا يوم الاثنين لخمس بقين من شهر جمادى الآخرة، فرضوا بمحمد بن عبدويه، فولّاه عليهم ففعل فيهم الأعاجيب.

وفيها مات أحمد بن أبي‌دواد ببغداد في المحرّم بعد ابنه أبي الوليد محمد؛ وكان ابنه محمد تُوُفِّيَ قبله بعشرين يوماً في ذي الحجة ببغداد.

وفيها عزل يحيى بن أكثم عن القضاء في صفَر، وقبض منه ما كان له ببغداد ومبلغه خمسة وسبعون ألف دينار، ومن أسطوانة في داره ألفا دينار وأربعة آلاف جريب بالبصرة.

وفيها ولّي جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن عليّ القضاء على القضاة في صفر.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن محمد بن داود وحجّ جعفر بن دينار وهو والي الأحداث بالموسم.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من وثُوب أهل حمص بعاملهم على المعونة؛ وهو محمد بن عبدوَيْه.

ذكر الخبر عما كان من أمرهم فيها وما آل إليه الأمر بينهم.

ذُكِر أنّ أهل حمص وثبوا في جمادى الآخرة من هذه السنة بمحمد بن عبدويه عاملهم على المعونة، وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حِمْص، فكتب بذلك إلى المتوكل، فكتب إليه يأمره بمناهضتهم، وأمدّه بجند من راتبة دمشق، مع صالح العباسيّ التركيّ؛ وهو عامل دمشق وجند من جند الرّملة، فأمره أن يأخذ من رؤسائهم ثلاثة نفر فيضربهم بالسياط ضرب التّلف؛ فإذا ماتوا صلبهم على أبوابهم؛ وأن يأخذ بعد ذلك من وُجوههم عشرين إنساناً فيضربهم ثلاثمائة سوط، كلّ واحد منهم، ويحملهم في الحديد إلى باب أمير المؤمنين، وأن يخرّب ما بها من الكنائس والبِيَع، وأن يُدخل البيعة التي إلى جانب مسجدها في المسجد، وألاّ يترك في المدينة نصرانيّاً إلا أخرجه منها، وينادَى فيهم قبل ذلك؛ فمن وجده فيها بعد ثلاثة أحسن أدبه. وأمر لخليفته عليّ بن الحسين بخمسة عشر ألف درهم، ولقوّاده بخمسة آلاف خمسة آلاف درهم، وأمر بخلَع؛ فأخذ محمد بن عبدويه عشرة منهم؛ فكتب بأخذهم، وأنه قد حملهم إلى دار أمير المؤمنين ولم يضربهم؛ فوجّه المتوكل رجلاً من أصحاب الفتح بن خاقان يقال له محمد بن رزق الله، ليردّ من الذين وجّه بهم ابن عبدويه محمد بن عبد الحميد الحميديّ والقاسم بن موسى بن فوعُوس إلى حمص؛ وأن يضربهما ضرب التلف، ويصلبَهما على باب حِمْص، فردّهما وضربهما بالسياط حتى ماتا، وصلبهما على باب حمص، وقدم بالآخرين سامرّا وهم ثمانية؛ فلما صاروا بنصيبين مات واحد منهم، فأخذ المتوكل بهم رأسه، وقدم بسبعة منهم سامرّا وبرأس الميت. ثم كتب محمد بن عبدويه أنه أخذ عشرة نفر منهم بعد ذلك، وضرب منهم خمسة نفر بالسياط فماتوا، ثم ضرب خمسة فلم يموتوا. ثم كتب محمد بن عبدويه بعد ذلك أنه ظفر برجل منهم من المخالفين يقال له عبد الملك بن إسحاق بن عمارة ـ وكان فيما ذكر ـ رأساً من رؤوس الفتنة؛ فضربه بباب حِمْص بالسياط حتى مات، وصلبه على حصن يعرف بتلّ العباس.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة مُطر الناس ـ فيما ذكر ـ بسامرّا مطراً جوْداً في آب. وفيها ولي القضاء بالشرقيّة في المحرّم أبو حسان الزياديّ.

وفيها ضُرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ببغداد ـ فيما قيل ـ ألف سوط.

ذكر الخبر عن سبب ضربه وما كان من أمره في ذلك:

وكان السبب في ذلك أنه شُهد عند أبي حسان الزياديّ قاضي الشرقية عليه أنه شتم أبا بكر وعمر وعائشة

وحفصة، سبعة عشر رجلاً؛ شهاداتهم - فيما ذكر - مختلفة من هذا النحو؛ فكتب بذلك صاحب بريد بغداد إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فأنهى عبيدُ الله ذلك إلى المتوكل، فأمر المتوكل أن يكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يأمره بضرب عيسى هذا بالسياط، فإذا مات رَمَى به في دجلة، ولم تدفع جيفته إلى أهله.

فكتب عبيد الله إلى الحسن بن عثمان جواب كتابه إليه في عيسى:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ أبقاك الله وحفظك، وأتمّ نعمته عليك؛ وصل كتابك في الرّجل المسمّى عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الخانات، وما شهد به الشهود عليه من شَتْم أصحاب رسول الله ﷺ ولعنهم وإكفارِهم، ورميهم بالكبائر، ونسبتهم إلى النفاق؛ وغير ذلك مما خرج به إلى المعاندة لله ولرسوله ﷺ، وتثبُّتك في أمر أولئك الشهود وما شهدوا به، وما صحّ عندك من عدالة مَنْ عدل منهم، ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به، وشرحك ذلك في رُقعة درج كتابك؛ فعرضت على أمير المؤمنين أبقاه الله بما قد نفذ إليه، مما يشبه ما عنده أبقاه الله، في نُصرة دين الله، وإحياء سنّته، والانتقام ممن ألحد فيه، وأن يُضرب الرجل حدّاً في مجمع الناس حدّ الشتم، وخمسمائة سوط بعد الحدّ للأمور العظام التي اجترأ عليها، فإن مات ألقِيَ في الماء في غير صلاة ليكون ذلك ناهياً لكل مُلْحِد في الدين، خارج من جماعة المسلمين؛ وأعلمتك ذلك لتعرفه إن شاء الله تعالى - والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وذُكر أن عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم هذا - وقد قال بعضهم: إن اسمه أحمد بن محمد بن عاصم - لما ضُرِب ترِك في الشمس حتى مات، ثم رُمِيَ به في دِجلة.

وفي هذه السنة انقضّت الكواكب ببغداد وتناثرت، وذلك ليلة الخميس لليلة خلتْ من جمادى الآخرة.

وفيها وقع بها الصدام فنفقت الدّوابّ والبقر.

وفيها أغارت الروم على عين زَرْبة، فأسَرت مَنْ كان بها من الزّط؛ مع نسائهم وذراريّهم وجواميسهم وبقرهم.

وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم.

ذكر الخبر عن السبب الذي كان ذلك من أجله:

ذكر أن تَذُورة صاحبة الروم أمّ ميخائيل، وجّهت رجلاً يقال له جُورْجِس بن قريافس يطلب الفداء لمن في أيدي الرّوم من المسلمين، وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفاً، فوجّه المتوكل رجلاً من الشيعة يقال له نصر بن الأزهر بن فرج، ليعرف صحة مَنْ في أيدي الروم من أسارى المسلمين، ليأمر بمفاداتهم، وذلك في شعبان من هذه السنة بعد أن أقام عندهم حيناً. فذُكر أن تَذُورة أمرتْ بعد خروج نصر بعرض من في إسارها من المسلمين على النصرانية؛ فمن تنصرّ منهم كان أسوة من تَنَصّر قبل ذلك، ومن أبى قتلته؛ فذُكر أنها قتلت من الأسرى اثنى عشر ألفاً؛ ويقال إن قنقلة الخصيّ كان يقتلهم من غير أمرها. ونفذَ كتاب المتوكل إلى عمال الثغور الشامية والجزرّية أن شُنيفاً الخادم قد جرى بينه وبين جورجس رسول عظيم الروم في أمر الفِداء قول، وقد اتفق الأمر بينهما، وسأل جورجس هذا هدنة لخمس ليال تخلو من رجب سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سبع ليال بقين من شوّال من هذه السنة، ليجمعوا الأسرى، ولتكون مدّة لهم إلى انصرافهم إلى مأمنهم، فنفذ الكتاب بذلك يوم الأربعاء لخمس خلوْن من رجب؛ وكان الفداء يقع في يوم الفِطْر من هذه السنة.

وخرج جورجس رسول ملكة الروم إلى ناحية الثغور يوم السبت لثمان بقين من رجب على سبعين بغلاً اكْتُرِيت له، وخرج معه أبو قحطبة المغربيّ الطرطوسيّ لينظروا وقتَ الفطر؛ وكان جورجس قدم معه جماعة من البطاركة وغلمانه بنحو من خمسين إنساناً، وخرج شُنيف الخادم للفداء في النصف من شعبان، معه مائة فارس: ثلاثون من الأتراك، وثلاثون من المغاربة، وأربعون من فرسان الشاكرية؛ فسأل جعفر بن عبد الواحد ـ وهو قاضي القضاة ـ أن يؤذَن له في حضور الفِداء، وأن يستخلف رجلاً يقوم مقامه ـ فأذن له، وأمر له بمائة وخمسين ألفاً مَعُونة وأرزاق ستين ألفاً؛ فاستخلف ابن أبي الشوارب ـ وهو يومئذ فتىً حدَث السنّ ـ وخرج فلحق شُنيفاً، وخرج أهل بغداد من أوساط الناس، فذكر أن الفِداء وقع من بلاد الروم على نهر اللامس، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين، فكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين إنساناً، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة.

وفي هذه السنة جعل المتوكل كُورة شمشاط عُشْراً، ونقلهم من الخراج إلى العشر، وأخرج لهم بذلك كتاباً.

وفي هذه السنة غارت البُجة على حرس من أرض مصر، فوجّه المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله القُمّيّ.

ذكر الخبر عن أمرهم وما آلت إليه حالهم:

ذُكر أن البُجَة كانت لا تغزو المسلمين ولا يغزوهم المسلمون لهدنة بينهم قديمة، قد ذكرناها فيما مضى قبل من كتابنا هذا، وهم جنس من أجناس الحَبَش بالمغرب، وبالمغرب من السودان ـ فيما ذكر ـ البُجة وأهل غانة الغافر وبينور ورعوين والفرويّة وبِكسوم ومكاره أكرم والنوبة والحبش. وفي بلاد البجة معادن ذهب؛ فهم يقاسمون مَنْ يعمل فيها، ويؤدون إلى عمال السلطان في مصر في كلّ سنة عن معادنهم أربعمائة مثقال تِبْر قبل أن يطبخ ويصفَّى.

فلما كان أيام المتوكل امتنعت البُجهَة عن اداء ذلك الخراج سنين متوالية فذُكر أنّ المتوكل ولَّى بريد مصر رجلاً من خَدَمِه يقال له يعقوب بن إبراهيم الباذغيسيّ مولى الهادي، وهو المعروف بقوصرة، وجعل إليه بريد مصر والإسكندرية وبرقة ونواحي المغرب؛ فكتب يعقوب إلى المتوكل أن البُجة قد نقضت العهد الذي كان بينها وبين المسلمين، وخرجت من بلادها إلى معادن الذّهب والجوهر؛ وهي على التّخوم فيما بين أرض مصر وبلاد البُجة؛ فقتلوا عدّة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجوهر، وسبَوْا عدّة من ذراريّهم ونسائهم؛ وذكروا أن المعادن لهم في بلادهم، وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها؛ وأن ذلك أوحش جميع من كان يعمل في المعادن من المسلمين؛ فانصرفوا عنها خوفاً على أنفسهم وذراريّهم فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحقّ الخمس من الذّهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن؛ فاشتدّ إنكار المتوكل لذلك وأحفظه، وشاور في أمر البُجة، فأُنهِيَ إليه أنهم قوم أهل بدو وأصحاب إبل وماشية، وأن الوصول إلى بلادهم صَعب لا يمكن أن يسلك إليهم الجيوش؛ لأنها مفاوز وصحارى، وبين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر؛ في أرض قفر وجبال وعرة لا ماء فيها ولا زرع ولا معقِل، ولا حصن؛ وأن مَنْ يدخلها من أولياء السلطان يحتاج أن يتزوّد لجميع المدّة التي يتوهم أن يقيمها في بلادهم إلى أن يخرج إلى أرض الإسلام، فإن امتدّ به المقام حتى

يتجاوز تلك المدة هلك وجميع من معه، وأخذتهم البُجَة بالأيدي دون المحاربة، وأنّ أرضهم أرض لا تردُّ على السلطان شيئاً من خراج ولا غيره.

فأمسك المتوكل عن التوجيه إليهم، وجعل أمرُهم يتزيّد، وجرأتهم على المسلمين تشتدّ حتى خاف أهلُ الصعيد من أرض مصر على أنفسهم وذراريّهم منهم؛ فولّى المتوكل محمد بن عبد الله المعروف بالقميّ محاربتهم، وولّاه معاون تلك الكور - وهي قفط والأقصر وإسنا وأرمنت وأسوان - وتقدّم إليه في محاربة البُجَة؛ وأن يكاتب عنبسة بن إسحاق الضبيّ العامل على حرب مصر. وكتب إلى عنبسة بإعطائه جميعَ ما يحتاج إليه من الجند والشاكرية المقيمين بمصر.

فأزاح عنبسة عِلّته في ذلك، وخرج إلى أرض البُجَة، وانضمّ إليه جميع مَنْ كان يعمل في المعادن وقوم كثير من المتطوّعة؛ فكانت عدّة من معه نحواً من عشرين ألف إنسان؛ بين فارس وراجل، ووجّه إلى القلزم، فحمل في البحر سبعة مراكب موقَرةبالدّقيقِوالزيتوالتمر والسويق والشعير، وأمر قوماً من أصحابه أن يلجّجوا بها في البحر حتى يوافُوه في ساحل البحر من أرض البُجَة؛ فلم يزل محمد بن عبد الله القميّ يسير في أرض البُجَة حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذّهب، وصار إلى حصونهم وقلاعهم، وخرج إليه ملكهم - واسمه علي بابا واسم ابنه لعيس - في جيش كثير وعدد أضعاف مَنْ كان مع القمّي من الناس؛ وكانت البُجَة على إبلهم ومعهم الحراب وإبلهم فرّةٌ تشبّه بالمهارِي في النجابة، فجعلوا يلتقون أياماً متوالية، فيتناوشون ولا يصحّحون المحاربة، وجعل ملك البُجَة يتطارد للقميّ لكيْ تطول الأيام طمعاً في نفاد الزاد والعلوفة التي معهم؛ فلا يكون لهم قوّة، ويموتون هزلاً، فيأخذهم البُجَة بالأيدي.

فلما توهّم عظيم البُجَة أن الأزواد قد نفدت، أقبلت السبع المراكب التي حملها القميّ حتى خرجت إلى ساحل من سواحل البحر في موضع يعرف بصنجة، فوجّه القميّ إلى هنالك جماعة من أصحابه يحمون المراكب من البُجة، وفرّق ما كان فيها على أصحابه، فاتّسعوا في الزاد والعَلوفة؛ فلما رأى ذلك علي بابا رئيس البُجة قصد لمحاربتهم، وجمع لهم، والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ وكانت الإبل التي يحاربون عليها إبلا زعِرة، تكثر الفزَع والرّعب من كل شيء؛ فلما رأى ذلك القميّ جمع أجراس الإبل والخيل التي كانت في عسكره كلها، فجعلها في أعناق الخيل، ثم حمل على البُجَة، فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس، واشتدّ رعبها، فحملتهم على الجبال والأودية، فمزّقتهم كلّ ممزّق، وأتبعهم القميّ بأصحابه، فأخذهم قتلاً وأسراً حتى أدركه الليل؛ وذلك في أول سنة إحدى وأربعين، ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم؛ فلما أصبح القميّ وجدهم قد جمعوا جمعاً من الرّجالة، ثم صاروا إلى موضع أمنوا فيه طلب القميّ، فوافاهم القميّ في الليل في خيله، فهرب ملكهم؛ فأخذ تاجه ومتاعَه، ثم طلب علي بابا الأمان على أن يُرَدّ إلى مملكته وبلاده، فأعطاه القميّ ذلك، فأدى إليه الخراج للمدة التي كان منعها - وهي أربع سنين - لكل سنة أربعمائة مثقال، واستخلف علي بابا على مملكته ابنه لعيس، وانصرف القميّ بعلي بابا إلى باب المتوكل، فوصل إليه في آخر سنة إحدى وأربعين ومائتين، فكسا علي بابا هذا دُرّاعة ديباج وعمامة سوداء، وكما حمله رحْلا مُدبّجاً وجلال ديباج، ووقف بباب العامّة مع قوم من البُجَة نحو من سبعين غلاماً على الإبل بالرّحَال، ومعهم الحراب في رؤوس حرابهم رؤوس القوم الذين قتِلوا من عسكرهم؛ قتلهم القميّ. فأمر المتوكل أن يقبضوا من القميّ يوم الأضحى من سنة إحدى وأربعين ومائتين. وولّى المتوكل البُجة وطريق ما بين مصر ومكة سعداً الخادم الإيتاخيّ، فولّى سعد محمد بن عبد الله

القميّ ، فخرج القميّ بعلي بابا ؛ وهو مقيم على دينه ؛ فذكر بعضهم أنه رأى معه صنماً من حجارة كهيئة الصبيّ يسجد له .

ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة في جمادى الآخرة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود ، وحجّ جعفر بن دينار فيها ، وهو والي طريق مكة وأحدَاث الموسم .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك الزلازل الهائلة التي كانت بقومِس ورساتيقها في شعبان؛ فتهدّمت فيها الدّور، ومات من الناس بها مما سقط عليهم من الحيطان وغيرها بشرٌ كثير؛ ذُكر أنه بلغت عدّتهم خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً؛ وكان عُظْم ذلك بالدامَغان.

وذكر أنه كان بفارس وخراسان والشأم في هذه السنة زلازل وأصوات منكرة، وكان باليمن أيضاً مثل ذلك مع خسف بها.

وفيها خرجت الروم من ناحية شِمْشاط بعد خروج عليّ بن يحيى الأرمنيّ من الصّائفة حتى قاربوا آمِد، ثم خرجوا من الثغور الجزريّة، فانتهبوا عدّة قرى، وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان؛ وكان دخولهم من ناحية أبريق؛ قرية قربياس؛ ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، فخرج قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوّعة في أثرهم، فلم يلحقوا منهم أحداً، فكتب إلى عليّ بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتياً.

وفيها قتل المتوكل عطارداً - رجلاً كان نصرانيّاً فأسلم - فمكث مسلماً سنين كثيرة ثم ارتدّ فاستُتيب، فأبى الرجوع الى الإسلام، فضُربت عنقه لليلتين خلتا من شوال، وأحرِق بباب العامة.

وفي هذه السنة مات أبو حسان الزياديّ قاضي الشرقيّة في رجب.

وفيها مات الحسن بن عليّ بن الجعد قاضي مدينة المنصور.

وحجّ بالناس فيها عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن عليّ؛ وهو والي مكة.

وحجّ فيها جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان شخوص المتوكّل إلى دمشق لعشر بقين من ذي القعدة ، فضحّى ببلَد ، فقال يزيد بن محمد المهلبيُّ حين خرج :

أَظُنُّ الشّامَ تشمَتُ بالعِراقِ   إذَا عزم الإمامُ على انْطلاقِ
فإن تدَعِ العراقَ وساكِنِيها   فقد تبْلى المليحةُ بالطّلاقِ

وفيها مات إبراهيم بن العبّاس ، فولي ديوان الضياع الحسن بن مخلَد بن الجرّاح ، خليفة إبراهيم في شعبان ، ومات هاشم بن بنَجور في ذي الحجة .

وحجّ بالناس فيها عبد الصمد بن موسى .

وحجّ جعفر بن دينار ، وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك دخولُ المتوكل دمشق في صفر ؛ وكان من لدن شخَص من سامُرّا إلى أن دخلها سبعة وتسعون يوماً ـ وقيل سبعة وسبعون يوماً ـ وعزم على المقام بها ، ونقل دواوين الملك إليها ، وأمر بالبناء بها فتحرّك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم ، فأمر لهم بما أرضاهم به . ثم استوْبأ بالبلد ، وذلك أنّ الهواء بها باردٌ نَدِيّ والماء ثقيل ، والريح تهبّ فيها مع العصر ؛ فلا تزال تشتدّ حتى يمضي عامّة الليل ؛ وهي كثيرة البراغيث ؛ وغلَت فيها الأسعار ؛ وحال الثلج بين السّابلة والميرة .

وفيها وجّه المتوكّل بُغا من دمشق لغزو الرّوم في شهر ربيع الآخر ، فغزا الصائفة ،فافتتح صُمُلّة ، وأقام المتوكّل بدمشق شهرين وأياماً ، ثم رجع إلى سامُرّا ، فأخذ في منصرَفه على الفرات ، ثم عدل إلى الأنبار ، ثم عدل من الأنبار على طريق الحُرْف إليها ، فدخلها يوم الاثنين لسبع بَقِين من جمادى الآخرة .

وفيها عقد المتوكّل لأبي الساج على طريق مكة مكان جعفر بن دينار ـ فيما زعم بعضهم ـ والصواب عندي أنه عقد له على طريق مكة في سنة ثنتين وأربعين ومائتين .

وفيها أتِيَ المتوكل ـ فيما ذكر ـ بحربة كانت للنبيّ ﷺ تسمى العَنزة ، ذكر أنها كانت للنجاشي ملك الحبشة ، فوهبها للزُّبير بن العوّام ، فأهداها الزُّبيرُ لرسول ﷺ ؛ فكانت عند المؤذّنين ، وكان يُمْشَى بها بين يدي رسول الله ﷺ في العِيدين ؛ وكانت تركز بين يديه في الفناء فيصلّي إليها فأمر المتوكّل بحملها بين يديه ؛ فكان يحملها بين يديه صاحب الشرطة ، ويحمل حربته خليفة صاحب الشرطة .

وفيها غضب المتوكل على بَختيُشُوع ، وقبض ماله ، ونفاه إلى البحرين ، فقال أعرابيّ:

يا سَخطةً جاءَت على مقدارِ	ثار له الليث على اقتدارِ
منه وبَختيشُوعُ في اغترارِ	لمَّا سَعى بالسَّادةِ الأَقمارِ
بالأمرَاءِ القادةِ الأَبرارِ	وُلاةِ عهدِ السَّيِّدِ المختارِ
وبالمَوالِي وبني الأَحرارِ	رَمى به في مُوحِش القِفارِ

بساحِلِ البحْرينِ للصَّغَارِ

وفي هذه السنة اتفق عيد المسلمين الأضحى وشعانين النصارى وعيد الفطر لليهود .

وحجّ بالناس فيها عبد الصمد بن موسى .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها أمر المتوكل ببناء الماحُوزَة ؛ وسمّاها الجعفريّ ، وأقطع القوّاد وأصحابه فيها ، وجدّ في بنائها ، وتحوّل إلى المحمّدية ليتمّ أمر الماحوزة ، وأمر بنقض القصر المختار والبديع ، وحمل ساجهما إلى الجعفريّ ، وأنفق عليها ـ فيما قيل ـ أكثر من ألفي ألف دينار ، وجمع فيها القُرّاء فقرؤوا وحضر أصحاب الملاهي فوهب لهم ألفي ألف درهم ، وكان يسميها هو وأصحابه الخاصّة المتوكليّة ، وبنى فيها قصراً سمّاه لؤلؤة ، لم يُرَ مثله في علّوه ، وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة من موضع يقال له كَرْمى يكون شِرْباً لما حولها من فُوهةِ النهر إليها ، وأمر بأخذ جَبِلتّا والخَصَاصَة العليا والسفلى وكرْمَى ، وحمل أهلها على بيع منازلهم وأرضهم ، فأجبروا على ذلك حتى تكون الأرض والمنازل في تلك القرى كلها له ، ويخرجهم عنها ، وقدّر للنهر من النفقة مائتي ألف دينار ، وصيّر النفقة عليه إلى دُلَيل بن يعقوب النصرانيّ كاتب بغا في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين ومائتين ، وألقى في حفر النهر اثني عشر ألف رجل يعملون فيه ؛ فلم يزل دليل يعتمل فيه ، ويحمل المال بعد المال ويقسم عامته في الكتاب ؛ حتى قتِل المتوكل ، فبطل النهر ، وأخربت الجعفريّة ، ونقضت ولم يتمّ أمر النهر .

وزلزلت في هذه السنة بلاد المغرب حتى تهدّمت الحصون والمنازل والقناطر ؛ فأمر المتوكل بتفرقة ثلاثة آلاف درهم في الذين أصيبوا بمنازلهم ، وزلزل عسكر المهدي ببغداد فيها ، وزلزلت المدائن .

وبعث ملك الروم فيها بأسْرَى من المسلمين ، وبعث يسأل المفاداة بمن عنده ؛ وكان الذي قدم من قِبَل صاحب الروم رسولاً إلى المتوكِّل شيخاً يدعى أطرو بَيْليس معه سبعة وسبعون رجلاً من أسرى المسلمين ، أهداهم ميخائيل بن تَوْفِيل ملك الروم إلى المتوكِّل ، وكان قدومه عليه لخمس بقين من صفر من هذه السنة ، فأنزل على شُنيف الخادم . ثمّ وجّه المتوكل نصر بن الأزهر الشيعيّ مع رسول صاحب الروم ، فشخص في هذه السنة ، ولم يقع الفداء إلا في سنة ست وأربعين .

وذكر أنه كانت في هذه السنة بأنطاكيّة زلزلة ورجفة في شوّال ، قتلت خلقاً كثيراً ، وسقط منها ألف وخمسمائة دار ، وسقط من سورها نيّف وتسعون برجاً ، وسمعوا أصواتاً هائلة لا يحسنون وصفَها من كُوى المنازل ، وهرب أهلها إلى الصحارى ، وتقطّع جبلها الأقرع ، وسقط في البحر ، فهاج البحر في ذلك اليوم ؛ وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وغار منها نهر على فرسخ لا يدرى أين ذهب .

وسمع فيها ـ فيما قيل ـ أهلُ تنِيِّس في مصر ضجّة دائمة هائلة ، فمات منها خلق كثير .

وفيها زُلزلت بالس والرّقة وحَرّان ورأس عين وحمص ودمشق والرُّها وطَرسُوس والمَصِّيصة وأذنة وسواحل الشأم . ورجفت اللاذقية ، فما بقي منها منزل ، ولا أفلت من أهلها إلا اليَسير ، وذهبت جَبَلَةَ بأهلها .

وفيها غارت مُشاش ـ عين مكة ـ حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً ، فبعثتْ أم المتوكل فأنفقت عليها .

وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوّار بن عبدالله وهلال الرازيّ وفيها هلك نجَاح بن سلمة .

ذكر الخبر عن سبب هلاكه :

حدّثني الحارث بن أبي أسامة ببعض ما أنا ذاكره من أخباره وببعض ذلك غيره ؛ أن نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع والتتبُّع على العمال ، وكان قبل ذلك كاتب إبراهيم بن رباح الجوهريّ ، وكان على الضياع ، فكان جميع العمال يتّقونه ويقضون حوائجه ؛ ولا يقدرون على مَنْعِه من شيء يريدُه ، وكان المتوكل ربما نادمه ، وكان انقطاع الحسن بن مخلد وموسى بن عبد الملك إلى عبيدالله بن يحيى بن خاقان وهو وزير المتوكل ، وكانا يحملان إليه كلَّ ما يأمرهما به ، وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع ، وموسى على ديوان الخراج ؛ فكتب نجاح بن سَلمة رُقْعة إلى المتوكل في الحسن وموسى يذكر أنهما قد خانا وقصّرا فيما هما بسبيله ؛ وأنه يستخرج منهما أربعين ألف ألف درهم ؛ فأدناه المتوكّل وشاربه تلك العشيّة ، وقال : يا نجاح ، خذَل الله من يخذُلك ، فبكّرْ إليّ غداً حتى أدفعهما إليك ؛ غدا وقد رتّب أصحابه ، وقال : يا فلان خذ أنت الحسن ، ويا فلان خذ أنت موسى ، فغدا نجاح إلى المتوكل ، فلقي عبيدالله ، وقد أمر عبيدالله أن يحجب نجاح عن المتوكل ، فقال له : يا أبا الفضل ، انصرف حتى ننظر وتنظر في هذا الأمر ، وأنا أشير عليك بأمر لك فيه صلاح ، قال : وما هو ؟ قال : أصلِح بينك وبينهما ، وتكتب رقعة تذكر فيها أنك كنت شارباً ، وأنك تكلمت بأشياء تحتاج إلى معاودة النَّظر فيها ، وأنا أصلح الأمر عند أمير المؤمنين ، فلم يزل يخدعه حتى كتب رقعة بما أمره به ، فأدخلها على المتوكل ، وقال : يا أمير المؤمنين قد رجع نجاح عَمّا قال البارحة ؛ وهذه رقعة موسى والحسن يتقبّلان به بما كتبا ؛ فتأخذ ما ضمنا عنه ، ثم تعطف عليهما . فتأخذ منهما قريباً مما ضمن لك عنهما .

فسرّ المتوكل ، وطمع فيما قال له عبيدالله ، فقال : ادفعه إليهما ؛ فانصرفا به ، وأمرا بأخذ قَلنسوته عن رأسه وكانت خَزّاً ، فوجد البرد ، فقال : ويحك يا حسن ! قد وجدتِ البرد ، فأمر بوضع قلنسوته على رأسه ، وصار به موسى إلى ديوان الخراج ، ووجّها إلى ابنيه أبي الفرج وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، ابن بنت حسن بن شنيف ، وأخذ كاتبه إسحاق بن سعد بن مسعود القُطْربُّليّ وعبدالله بن مخلد المعروف بابن البواب ـ وكان انقطاعه إلى نجاح ـ فأقرّ لهما نجاح وابنه بنحو من مائة وأربعين ألف دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرّا وبغداد ، وسوى ضياع لهما كثيرة ، فأمر بقبض ذلك كله ، وضُرِب مراراً بالمقارع في غير موضع الضرب نحواً من مائتي مَقْرعة ، وغُمز وخُنِق ، خنقه موسى الفرانق والمعلوف .

فأما الحارث فإنه قال : عصر خصيتيه حتى مات ؛ فأصبح ميتاً يوم الاثنين لثمان بقين من ذي القعدة من هذه السنة ، فأمر بغسله ودفنه ، فدُفن ليلاً ؛ وضرب ابنه محمد وعبدالله بن مخلد وإسحاق بن سعد نحواً من خمسين خمسين ، فأقرّ إسحاق بخمسين ألف دينار ، وأقرّ عبدالله بن مخلد بخمسة عشر ألف دينار ـ وقيل عشرين ألف دينار .

وكان ابنه أحمدابن بنت حسن قد هرب فظُفر به بعد موت نجاح ، فحبس في الديوان ، وأخذ جميع ما في دار نجاح وابنه أبي الفرج من مَتاع ، وقبضت دورهما وضياعهما حيث كانتْ وأخرِجت عيالهما ، وأخذ وكيله بناحية السَّواد ، وهو ابن عياش ، فأقرّ بعشرين ألف دينار . وبعث إلى مكة في طلب الحسن بن سهل بن نوح الأهوازيّ وحسن بن يعقوب البغدادي ، وأخِذ بسببه قوم فحبسوا .

وقد ذكر في سبب هلاكه غير ما قد ذكرناه ، ذكر أنه كان يضادّ عبيدالله بن يحيى بن خاقان - وكان عُبيدالله متمكناً من المتوكل ، وإليه الوزارة وعامة أعماله ، وإلى نجاح توقيع العامة - فلما عزم المتوكل على بناء الجعفريّ قال له نجاح - وكان في الندماء - يا أميرَ المؤمنين ، أسمي لك قوماً تدفعهم إليَّ حتى أستخرج لك منهم أموالاً تبني بها مدينتك هذه ؛ إنه يلزمك من الأموال في بنائها ما يعظم قدره ؛ ويجلّ ذكره . فقال له : سَمِّهم ، فرفع رقعة يذكر فيها موسى بن عبد الملك وعيسى بن فَرُّخانشاه خليفة الحسن بن مخلد ، والحسن بن مخلد وزيدان بن إبراهيم ، خليفة موسى بن عبد الملك ، وعبيدالله بن يحيى وأخويه : عبدالله بن يحيى وزكرياء ، وميمون بن إبراهيم ومحمد بن موسى المنجم وأخاه أحمد بن موسى ؛ وعليّ بن يحيى بن أبي منصور وجعفراً المعلوف مستخرج ديوان الخراج وغيرهم نحواً من عشرين رجلاً ، فوقعَ ذلك من المتوكل موقِعاً أعجبه ، وقال له : اغْدُ غَدوةً ؛ فلما أصبح لم يشكّ في ذلك . وناظر عبيدالله بن يحيى المتوكل ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أراد ألّا يدع كاتباً ولا قائداً إلاّ أوقع بهم ، فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين ! وغدا نجاح ؛ فأجلسه عبيدالله في مجلسه ؛ ولم يُؤذن له ، وأحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد ، فقال لهما عبيدالله : إنه إن دخل إلى أمير المؤمنين دفعكُما إليه فقتلكما وأخذ ما تملكان، ولكن اكتبانّ إلى امير المؤمنين رُقعة تقبَّلان به فيها بألفي ألف دينار ؛ فكتبا رقعة بخطوطهما ، وأوصلهما عبيدالله بن يحيى ، وجعل يختلف بين أمير المؤمنين ونجاح وموسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد ، فلم يزل يدخل ويخرج ويعين موسى والحسن ؛ ثم أدخلهما على المتوكل ؛ فضمنا ذلك ؛ وخرج معهما فدفعه إليهما جميعاً ، والناس جميعاً الخواصّ والعوامّ ، وهما لا يشكان أنهما وعبيدالله بن يحيى مدفوعون إلى نجاح ، للكلام الذي دار بينه وبين المتوكل فأخذاه ، وتولى تعذيبه موسى بن عبد الملك ، فحبسه في ديوان الخراج بسامُرّا ، وضربه دِرَراً وأمر المتوكل بكاتبه إسحاق بن سعد - وكان يتولى خاصَّ أموره وأمر ضياع بعض الولد - أن يغرَم واحداً وخمسين ألف دينار ، وحُلِّفَ على ذلك ، وقال : إنه أخذ مني في أيام الواثق وهو يخلف عن عمر بن فرج خمسين ديناراً ؛ حتى أطلق أرزاقي ؛ فخذوا لكل دينار ألفاً وزيادةَ ألف فضلاً كما أخذ فضلاً . فحبِس ونُجِّمَ عليه في ثلاثة أنجم ؛ ولم يطلَق حتى أدّى تعجيلَ سبعة عشر ألف دينار ، وأطلِق بعد أن أخذ منه كُفلاء بالباقي ، وأخذ عبدالله بن مخلَد ، فأغرم سبعة عشر ألف دينار . ووجّه عبيدالله الحسين بن إسماعيل - وكان أحد حجاب المتوكل - وعتّاب بن عتاب عن رسالة المتوكل أن يضرَب نجاح خمسين مقرعة إن هو لم يقرّ ويؤدّ ما وُصف عليه ، فضربه ثم عاوده في اليوم الثاني بمثل ذلك ، ثم عاوده في اليوم الثالث بمثل ذلك ؛ فقال : أبلغْ أمير المؤمنين أني ميّت . وأمر موسى بن عبد الملك جعفراً المعلوف ومعه عوْنان من أعوان ديوان الخراج ، فعصروا مذاكيره حتى برد فمات . وأصبح فركب إلى المتوكل فأخبره بما حدث من وفاة نجاح ، فقال لهما المتوكل : إني أريد مالي الذي ضمنتماه، فاحتالاه ، فقبضا من أمواله وأموال ولده جملة ، وحبسا أبا الفرج - وكان على ديوان زمام الضياع من قبل أبي صالح بن يَزْداد - وقبضا أمتعته كلها وجميع ملكه ، وكتبا على ضياعه لأمير المؤمنين ، وأخذا ما أخذا من أصحابه ؛ فكان المتوكل كثيراً ما

يقول لهما كلّما شرب : ردُّوا عليّ كتابي ، وإلا فهاتوا المال ؛ وضمّ توقيع ديوان العامة إلى عبيدالله بن يحيى ، فاستخلف عليه يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان ، ابن عمّه ، ومكث موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد على ذلك يطالبهما المتوكل بالأموال التي ضمناها من قبَل نجاح ؛ فما أتى على ذلك إلا يسيراً حتى ركب موسى بن عبد الملك يشيّع المنتصر من الجعفريّ ، وهو يريد سامرّا إلى منزله الذي ينزله بالجوْسق ، فبلغه معه ساعة ، ثم انصرف راجعاً ؛ فبينا هو يسير إذ صاح بمن معه : خذوني ، فبدروه فسقط على أيديهم مفلوجاً ، فحمل إلى منزله ، فمكث يومه وليلته ، ثم توفِّيَ ، فصيِّر على ديوان الخراج أيضاً عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، فاستخلف عليه أحمد بن إسرائيل كاتب المعتزّ ، وكان أيضاً خليفته على كتابة المعتزّ فقال القصّافيّ :

مَا كانَ يخشى نجاحُ صَوْلَة الزَّمنِ حتَّى أُدِيلَ لموسى منه والحَسَنِ
غَدا على نِعَمِ الأحرارِ يَسلُبها فراحَ وهْو سَليبُ المال والبدن

وفيها ضُرب بَخْتِيشوع المتطبّب مائة وخمسين مقرعة ، وأثقِل بالحديد ، وحبِس في المطبق في رجب .

وفيها أغارت الروم على سُمْيساط ، فقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائة .

وغزا عليّ بن يحيى الأرمنيّ الصائفة ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً . فبعث ملك الروم إليهم بِطْريقاً يضمن لكلّ رجل منهم ألف دينار . على أن يسلموا إليه لؤلؤة ، فأصعدوه إليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ، فسلَّموا لؤلؤة والبطريق إلى بَلْكاجُور في ذي الحجة ، وكان البطريق الذي كان صاحب الروم وجّهه إليهم يقال له لُغُثِيط ، فلما دفعه أهل لؤلؤة إلى بَلْكاجور . وقيل : إن عليّ بن يحيى الأرمني حمله إلى المتوكل إلى الفتح بن خاقان ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقالوا : نقتلك : فقال : أنتم أعلم ؛ وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم الإمام ، وهو يعرف بالزينبيّ ، وهو والي مكة .

وكان نيروز المتوكل الذي أرفق أهل الخراج بتأخيره إياه عنهم فيها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ؛ ولسبع عشرة ليلة خلت من حَزِيران ولثمان وعشرين من أرديوهشت ماه ، فقال البحتريّ الطائي :

إنَّ يومَ النَّيرُوزِ عادَ إلى العهـ ـدِ الذي كان سَنَّهُ أَرْدَشيرُ

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزو عمر بن عبد الله الأقطع الصّائفة، فأخرج سبعة آلاف رأس. وغزوة قربياس، فأخرج خمسة آلاف رأس، وغزو الفضل بن قارن بحراً في عشرين مركباً؛ فافتتح حصن أنطالِية. وغزوة بلكاجور فغنم وسبى. وغزو عليّ بن يحيى الأرمنيّ الصائفة، فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الدوابّ والرّمَك والحمير نحواً من عشرة آلاف.

وفيها تحوّل المتوكل إلى المدينة التي بناها الماحوزة، فنزلها يوم عاشوراء من هذه السنة.

وفيها كان الفداء في صفر على يدي عليّ بن يحيى الأرمني،ففُودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفساً. وقال بعضهم: لم يتمّ الفداء في هذه السنة إلا في جمادى الأولى.

وذكر عن نصر بن الأزهر الشِّيعيّ ـ وكان رسول المتوكل إلى ملك الروم في أمر الفداء ـ أنه قال: لمّا صرتُ إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي، فجرت بيني وبين خال الملك بطرناس المناظرة ـ وهم القيّم بشأن الملك ـ وأبوْا أن يدخلوني بسيفي وسوادي، فقلت: أنصرف، فانصرفت فرُدِدتُ من الطريق ومعي الهدايا نحو من ألف نافجة مسك وثيابٌ حريرٌ وزعفران كثير وطرائف؛ وقد كان أذن لوفود بُرْجان وغيرهم ممن ورد عليه، وحُملت الهدايا التي معي، فدخلت عليه؛ فإذا هو على سرير فوق سرير، وإذا البطارقة حوله قيام، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير، وقد هُيِّيء لي مجلس، ووضعت الهدايا بين يديه، وبين يديه ثلاثة تراجمة: غلام فرّاش كان لمسرور الخادم، وغلام لعباس بن سعيد الجوهريّ، وترجمان له قديم يقال له سُرْحُون؛ فقالوا لي: ما نبلّغه؟ قلت: لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً؛ فأقبلوا يترجمون ما أقول، فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء، وقرّبني وأكرمني، وهيّأ لي منزلاً بقربه، فخرجت فنزلت في منزلي، وأتاه أهل لؤلؤة برغبتهم في النصرانية، وأنهم معه، ووجّهوا برجلين ممّن فيها رهينة من المسلمين.

قال: فتغافل عني نحواً من أربعة أشهر؛ حتى أتاه كتاب مخالفة أهل لؤلؤة، وأخذهم رسلَه واستيلاء العرب عليها؛ فراجعوا مخاطبتي، وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفِداء؛ على أن يعطوا جميع مَنْ عندهم وأعْطِي جميع مَنْ عندي؛ وكانوا أكثر من ألف قليلا؛ وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين؛ منهم عشرون امرأة، معهنّ عشرة من الصبيان؛ فأجابوني إلى المخالفة؛ فاستحلفت خالَه، فحلف عن ميخائيل، فقلت: أيّها الملك قد حلف لي خالك؛ فهذه اليمين لازمة لك؟ فقال برأسه: نعم، ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلتُ بلاد

الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع، فيقول برأسه: نعم أوْ لا، وليس يتكلّم وخالُه المدبّر أمرَه، ثم خرجت من عنده بالأسْرى بأحسن حال؛ حتى إذا جئنا موضع الفِداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة؛ وكان عِداد مَنْ صار في أيدينا من المسلمين أكثر من ألفين منهم عدّة ممن كان تنصّر وصار في أيديهم أكثر من ألف قليلا؛ وكان قوم تنصَّرُوا؛ فقال لهم ملك الروم: لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء، فمن أراد أن أقبله في النصرانية فليرجع من موضع الفداء؛ وإلا فليضمن ويمضِ مع أصحابه؛ وأكثر من تنصّر أهل المغرب، وأكثر من تنصّر بالقسطنطينية؛ وكان هنالك صائغان قد تنصَّرا، فكانا يحسنان إلى الأسرى؛ فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين ممن ظهر عليه الملك إلا سبعة نفر، خمسة أتيَ بهم من سقِليّة، أعطيتُ فداءهم على أن يوجّه بهم إلى سقليّة، ورجلان كانا من رهائن لؤلؤ، فتركتهما، وقلت: اقتلوهما، فإنهما رغَبا في النصرانية.

ومُطر أهلُ بغداد في هذه السنة واحداً وعشرين يوماً في شعبان ورمضان؛ حتى نبت العشب فوق الأجاجير.

وصلَّى المتوكلُ فيها صلاة الفطر بالجعفريّة، وصلى عبد الصمد بن موسى في مسجد جامعها، ولم يصلّ بسامرّاء أحد.

وورد فيها الخبر أنّ سكة بناحية بَلْخ تنسب إلى الدَّهاقين مُطرت دماً عبيطاً.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان الزينبيّ.

وحجّ فيها محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فولي أعمال الموسم.

وضحّى أهل سامرّا فيها يوم الاثنين على الرؤية وأهل مكة يوم الثلاثاء.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك مقتل المتوكل.

ذكر الخبر عن سبب مقتله وكيف قتل:

قال أبو جعفر: ذُكر لي أنّ سبب ذلك كان أنّ المتوكل كان أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصِيف بأصبهان والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان؛ فكُتِبت الكتب بذلك، وصارت إلى الخاتم على أن تنفذ يوم الخميس لخمس خلوْن من شعبان؛ فبلغ ذلك وصيفاً، واستقرّ عنده الذي أمر به في أمره؛ وكان المتوكّل أراد أن يُصَلِّيَ بالناس يوم الجمعة في شهر رمضان في آخر جمعة منه؛ وكان قد شاع في الناس في أوّل رمضان أنّ أمير المؤمنين يصلي في آخر جمعة من الشهر بالناس، فاجتمع الناس لذلك واحتشدوا، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القِصص وكلامِه إذا هو ركب. فلما كان يوم الجمعة أراد الرّكوبَ للصلاة، فقال له عبيدالله بن يحيى والفتح بن خاقان: يا أميرَ المؤمنين، إن الناس قد اجتمعوا وكثروا؛ من أهل بيتك وغيرهم؛ وبعضٌ متظلّم وبعض طالب حاجة؛ وأمير المؤمنين يشكو ضِيق الصدر ووعْكة؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمر بعضَ ولاة العهود بالصّلاة، ونكونَ معه جميعاً فليفعل. فقال: قد رأيتُ ما رأيتما؛ فأمر المنتصر بالصّلاة، فلمّا نهض المنتصر ليركب للصلاة قالا: يا أمير المؤمنين، قد رأينا رأياً؛ وأمير المؤمنين أعلَى عيناً، قال: وما هو؟ اعرضاه عليّ، قالا: يا أمير المؤمنين، مُرْ أبا عبدالله المعتزّ بالله الصلاة لتشرفّه بذلك في هذا اليوم الشريف؛ فقد اجتمع أهلُ بيته؛ والناس جميعاً فقد بلغ الله به.

قال: وقد كان وُلد للمعتزّ قبل ذلك بيوم؛ فأمر المعتزّ، فركب وصلّى بالناس، فأقام المنتصر في منزله - وكان بالجعفريّة. وكان ذلك مما زاد في إغرائه به؛ فلمّا فرغ المعتزّ من خطبته قام إليه عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان، فقبّلا يديه ورجليه، وفرغ المعتزّ من الصلاة، فانصرف وانصرفا معه؛ ومعهم الناس في موكب الخلافة، والعالم بين يديه؛ حتى دخل على أبيه وهما معه؛ ودخل معه داود بن محمد بن أبي العباس الطوسيّ، فقال داود: يا أميرَ المؤمنين؛ ائذن لي فأتكلّم، قال: قل، فقال: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت الأمين والمأمون ورأيت المعتصم صلواتُ الله عليهم، ورأيت الواثق بالله؛ فوالله ما رأيتُ رجلا على منبر أحسن قواماً، ولا أحسن بديهاً، ولا أجهر صوتاً، ولا أعذب لساناً، ولا أخطب من المعتزّ بالله، أعزه الله يا أمير المؤمنين ببقائك، وأمتعك الله وإيانا بحياته! فقال له المتوكل: أسمعك الله خيراً، وأمتعنا بك؛ فلما كان يوم الأحد؛ وذلك يوم الفِطْر وجد المتوكّل فترة، فقال: مُروا المنتصر فَليصلّ بالناس، فقال له عبيد الله بن يحيى بن خاقان: يا أميرَ المؤمنين؛ قد

كان الناس تطلعوا إلى رؤية أمير المؤمنين في يوم الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا، فلم يركب أمير المؤمنين؛ ولا نأمن إن هو لم يركب أن يرجُف الناس بِعلّته، ويتكلّموا في أمره؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يَسُرّ الأولياء ويكْبِت الأعداء بركوبه فعل. فأمرهم بالتأهب والتهيّؤ لركوبه؛ فركب فصلى بالناس وانصرف إلى منزله، فأقام يومه ذلك ومن الغد لم يدع بأحد من ندمائه.

وذُكر أنه ركب يوم الفِطْر؛ وقد ضربت له المصافّ نحواً من أربعة أميال؛ وترجّل الناس بين يديْه، فصلّى بالناس، ورجع إلى قصره، فأخذ حِفْنةً من تراب، فوضعها على رأسه، فقيل له في ذلك، فقال: إنّي رأيتُ كثرة هذا الجمع، ورأيتهم تحت يدي، فأحببت أن أتواضع لله عزّ وجلّ؛ فلمّا كان من غد يوم الفطر لم يدعُ بأحد من ندمائه؛ فلما كان اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال ـ أصبح نشيطاً فرحاً مسروراً، فقال: كأني أجد مسّ الدم، فقال الطَّيْفُوريّ وابن الأبرش ـ وهما طبيباه: يا أمير المؤمنين، عزم الله لك على الخير؛ افعلْ، ففعل؛ واشتهى لحم جَزور، فأمر به فأحضِر بين يديه، فاتّخذه بيده.

وذكر عن ابن الحفصيّ المغنيّ أنه كان حاضر المجلس، قال ابن الحفصيّ: وما كان أحدٌ ممن يأكل بين يديه حاضراً غيري وغير عَثْعث وزُنام وبُنان غلام أحمد بن يحيى بن معاذ؛ فإنه جاء مع المنتصر. قال: وكان المتوكل والفتح بن خاقان يأكلان معاً، ونحن في ناحية بإزائهم والندماء مفترقون في حجرهم، لم يدع بأحد منهم بعد. قال ابن الحفصيّ: فالتفت إليّ أمير المؤمنين، فقال: كلْ أنتَ وعثْعث بين يديّ. ويأكل معكما نصر بن سعيد الجهْبذ، قال: فقلت: يا سيديّ، نصر والله يأكلني، فكيف ما يوضع بين أيدينا! فقال: كلُوا بحياتي، فأكلنا ثم علَّقنا أيدينا بحذائِه. قال: فالتفت أميرُ المؤمنين التفاتةً، فنظر إلينا معلَّقي الأيدي، فقال: ما لكم لا تأكلون؟ قلت: يـا سيّدي، قد نفد ما بين أيدينا؛ فأمر أن يُزاد، فغُرِف لنا من بين يديه.

قال ابن الحفصيّ: ولم يكن أميرُ المؤمنين في يوم من الأيام أسرّ منه في ذلك اليوم. قال: وأخذ مجلسَه، ودعا بالندماء والمغنِّين فحضروا، وأهدت إليه قَبيحة أمّ المعتز مُطرَف خزّ أخضر؛ لم ير الناس مثله حسناً، فنظر إليه فأطال النظر، فاستحسنه وكثر تعجّبه منه؛ وأمر به فقطِع نصفين، وأمر بردّه عليها، ثم قال لرسولها: أذْكَرَتْني به، ثم قال: والله إنّ نفسي لتحدّثني أني لا ألبسه، وما أحبّ أن يلبسه أحد بعدي، وإنما أمرت بشقّه لئلا يلبسه أحد بعدي، فقلنا له: يا سيّدنا، هذا يوم سرور يا أمير المؤمنين نعيذك بالله أن تقول هذا يا سيّدنا، قال: وأخذ في الشراب واللهو، ولهج بأن يقول: أنا والله مفارقكم عن قليل، قال: فلم يزل في لهوه وسروره إلى الليل.

وذكر بعضهم أنّ المتوكل عزم هو والفتح أن يصيّرا غداءهما عند عبد الله بن عمر البازيار يوم الخميس لخمس ليال خلوْن من شوال؛ على أن يفتك بالمنتصر، ويقتل وصيفا وبُغا وغيرهما من قُوّاد الأتراك ووجوههم؛ فكثر عبثُه يوم الثلاثاء قبل ذلك بيوم ـ فيما ذكر ابن الحفصيّ ـ بابنه المنتصر مرّة يشتمه، ومرّة يسقيه فوق طاقته، ومرّةً يأمر بصفعه، ومرّةً يتهدّده بالقتل.

فذكر عن هارون بن محمد بن سليمان الهاشميّ أنه قال: حدّثني بعض مَنْ كان في الستارة من النساء، أنه التفت إلى الفتح، فقال: برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله ﷺ إن لم تلطِمْه ـ يعني المنتصر ـ فقام الفتح ولطمه مرّتين؛ يمرّ يده على قفاه، ثم قال المتوكّل لمن حضر: اشهدوا جميعاً أني قد خلعتُ المستعجـل ـ المنتصر ـ ثم التفت إليه، فقال: سمّيتُك المنتصر، فسمّاك الناس لحمقك المنتظر، ثم صرت الآن المستعجـل، فقال

المنتصر: يا أميرَ المؤمنين، لو أمرتَ بضرب عنقي كان أسهل عليّ مما تفعله بي، فقال: اسقوه، ثم أمر بالعشاء فأحضر وذلك في جوف الليل، فخرج المنتصر من عنده، وأمر بُناناً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه؛ فلما خرج وضعت المائدة بين يدي المتوكل، وجعل يأكلها ويلقم وهو سكران.

وذُكر عن ابن الحفصيّ أنّ المنتصر لمّا خرج إلى حُجْرته أخذ بيد زرافة، فقال له: : امض معي، فقال: يا سيّدي؛ إنّ أمير المؤمنين لم يقُم، فقال: إن أمير المؤمنين قد أخذه النبيذ، والساعة يخرج بُغا والندماء؛ وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك إليّ، فإن أوتامش سألني أن أزوّج ابنه من ابنتك، وابنك من ابنته، فقال له زُرافة: نحن عبيدك يا سيدي، فمرنا بأمرك. وأخذ المنتصر بيده وانصرف به معه. قال: وكان زُرافة قد قال لي قبل ذلك: ارفق بنفسك، فإنّ أمير المؤمنين سكران والساعة يُفيق، وقد دعاني تمرة، وسألني أن أسألك أن تصير إليه فنصير جميعاً إلى حجرته. قال: فقلت له: أنا أتقدّمك إليه، قال: ومضى زرافة مع المنتصر إلى حجرته.

فذكر بُنان غلام أحمد بن يحيى أنّ المنتصر قال له: قد أملكتُ ابن زرافة من ابنة أوتامش وابن أوتامش من ابنة زرافة؟ قال بُنان: فقلت للمنتصر: يا سيدي، فأين النّثار فهو يُحسّن الإملاك؟ فقال: غداً إن شاء الله فإنّ الليل قد مضى. قال: وانصرف زرافة إلى حجرة تمرة، فلما دخل دعا بالطعام فأُتيَ به، فما أكل إلا أيسر ذلك حتى سمعنا الضجّة والصراخ؛ فقمنا، فقال بنان: فما هو إلاّ أن خرج زرافة من منزل تمرة؛ إذا بُغا استقبل المنتصر، فقال المنتصر: ما هذه الضجة؟ قال: خير يا أمير المؤمنين قال: ما تقول، ويلك! قال: أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين! كان عبداً لله دعاه فأجابه، قال: فجلس المنتصر؛ وأمر بباب البيت الذي قُتل فيه المتوكل والمجلس، فأغلق وأغلقت الأبواب كلها، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتزّ والمؤيد عن رسالة المتوكل.

وذكر عن عَثْعَث أنّ المتوكل دعا بالمائدة بعد قيام المنتصر وخروجه ومعه زُرافة، وكان بُغا الصغير المعروف بالشرابيّ قائماً عند الستر؛ وذلك اليوم كان نوبة بُغا الكبير في الدار؛ وكان خليفته في الدار ابنه موسى - وموسى هذا هو ابن خالة المتوكل، وبُغا الكبير يومئذ بسُمَيساط - فدخل بُغا الصغير إلى المجلس، فأمر الندماء بالانصراف إلى حُجرهم، فقال له الفتح: ليس هذا وقت انصرافهم، وأمير المؤمنين لم يرتفع، فقال له بغا: إن أمير المؤمنين أمرني إذا جاوز السبعة ألاّ أترك في المجلس أحداً، وقد شُرِّبَ أربعة عشر رطلا، فكره الفتح قيامَهم، فقال له بغا: إن حُرَم أمير المؤمنين خلْف الستارة، وقد سكر، فقوموا فاخرجوا، فخرجوا جميعاً، فلم يبق إلا الفتح وعثعث وأربعة من خدَم الخاصّة؛ منهم شفيع وفرج الصّغير ومؤنس وأبو عيسى مارد المحْرِزيّ. قال: ووضع الطباخ المائدة بين يدي المتوكل، فجعل يأكل ويلقم، ويقول لمارد: كلْ معي حتى أكل بعض طعامه وهو سكران، ثم شرب أيضاً بعد ذلك.

فذكر عثعث أن أبا أحمد بن المتوكل أخا المؤيد لأمه - كان معهم في المجلس، فقام إلى الخلاء، وقد كان بُغا الشرابيّ أغلق الأبواب كلها غير باب الشطّ، ومنه دخل القوم الذين عُيِّنُوا لقتْله، فبصر بهم أبو أحمد، فصاح بهم: ما هذا يا سفل! وإذا بسيوف مسللة، قال: وقد كان تقدّم النفرَ الذين تولوا قتلَه بغلون التركيّ وباغر وموسى بن بغا وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابيّ؛ فلمّا سمع المتوكل صوتَ أبي أحمد رفع رأسه، فرأى القوم، فقال: يا بغا، ما هذا؟ قال: هؤلاء رجال النوبة التي تبيت على باب سيّدي أمير المؤمنين، فرجع القوم إلى ورائهم عند كلام المتوكل لبُغا؛ ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم بعد. قال عثعث:

فسمعت بُغا يقول لهم: يا سفل، أنتم مقتولون لا محالة، فموتوا كراماً؛ فرجع القوم إلى المجلس، فابتدره بغلون فرشبه فضربه على كَتِفه وأذنه فقدّه، فقال: مهلا قطع الله يدك! ثم قام وأراد الوُثوب به، فاستقبله بيده فأبانها، وشركه باغر، فقال الفتح: ويلكم، أمير المؤمنين! فقال بغا: يا حَلَقيّ، لا تَسْكُتُ! فرمى الفتح بنفسه على المتوكل، فبعجه هارون بسيفه، فصاح: الموت! واعتوره هارون وموسى بن بُغا بأسيافهما، فقتلاه وقطعاه، وأصابت عثعثَ ضربة في رأسه. وكان مع المتوكل خادم صغير، فدخل تحت الستارة، فنجا، وتهارب الباقون. قال: وقد كانوا قالوا لوصيف في وقت ما جاؤوا إليه: كن معنا فإنا نتخوّف ألّا يتم ما نريد فنقتَل، فقال: لا بأس عليكم، فقالوا له: فأرسل معنا بعضَ ولدك، فأرسل معهم خمسة من ولده: صالحاً، وأحمد، وعبد الله، ونصراً، وعبيد الله؛ حتى صاروا إلى ما أرادوا.

وذكر عن زُرْقان خليفة زرافة على البوابين وغيرهم أنّ المنتصر لما أخذ بيد زرافة فأخرجه من الدّار ودخل القوم، نظر إليهم عثعث، فقال للمتوكل: قد فرغنا من الأسد والحيات والعقارب، وصرنا إلى السيوف؛ وذلك أنه كان ربما أشلى الحيّة والعقرب أو الأسد؛ فلما ذكر عثعث السيوف،قال له :ويلك! أيّ شيء تقول؟ فما استتم كلامه حتى دخلوا عليه، فقام الفتح في وجوههم، فقال لهم: يا كلاب ،وراءكم وراءكم! فبدرإليه بُغا الشرابيّ، فبعج بطنه بالسَّيف، وبدر الباقون إلى المتوكل، وهرب عثعث على وجهه. وكان أبو أحمد في حُجْرته، فلما سمع الضجة خرج فوقع على أبيه، فبادره بغلون فضربه ضربتين؛ فلما رأى السيوف تأخذه خرج وتركهم، وخرج القوم إلى المنتصر، فسلَّمُوا عليه بالخلافة، وقالوا: مات أمير المؤمنين، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف، فقالوا له: بايع، فبايعه. وأرسل المنتصر إلى وصيف: إنّ الفتح قتل أبي، فقتلتُه، فاحضر في وجوه أصحابك. فحضر وصيف وأصحابه فبايعوا. قال: وكان عبيد الله بن يحيى في حُجرته لا يعلم بشيء من أمر القوم ينفذ الأمور.

وقد ذكر أنّ امرأة من نساء الأتراك ألقت رقعة تخبر ما عزم عليه القوم، فوصلت الرُّقعة إلى عبيد الله، فشاور الفتحَ فيها؛ وكان ذلك وقع إلى أبي نوح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بن خاقان، فأنهاه إلى الفتح، فاتفق رأيُهم على كتمان المتوكل لما رأوا من سروره؛ فكرهوا أن ينغِّصوا عليه يومه؛ وهان عليهم أمرُ القوم، ووثقوا بأنّ ذلك لا يجسر عليه أحد ولا يقدر.

فذُكر أنّ أبا نوح احتال في الهرب من ليلته، وعبيدالله جالس في عمله ينفذ الأمور، وبين يديه جعفر بن حامد، إذْ طلَع عليه بعض الخدم، فقال: يا سيديّ، ما يجلسك؟ قال: وما ذاك! قال: الدار سيف واحد، فأمرجعفراً بالخروج؛ فخرج وعاد؛ فأخبره أنّ أمير المؤمنين والفتح قد قتلا، فخرج فيمن معه من خدمه وخاصّته، فأخبر أنّ الأبواب مغلقة، فأخذ نحو الشطّ، فإذا أبوابه أيضاً مغلَقة، فأمر بكسر ما كان مما يلي الشطّ، فكسرت ثلاثة أبواب حتى خرج إلى الشطّ، فصار إلى زورق. فقعد فيه ومعه جعفر بن حامد، وغلام له، فصار إلى منزل المعتزّ، فسأل عنه فلم يصادفه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قتلني وقتل نفسه، وتلهّف عليه، واجتمع إلى عبيد الله أصحابُه غداة يوم الأربعاء من الأبناء والعجم والأرمن والزّواقيل والأعراب والصّعاليك وغيرهم وقد اختلف في عدّتهم، فقال بعضهم: كانوا زهاء عشرين ألف فارس وقال آخرون: كان معه ثلاثة عشر ألف رجل، وقال آخرون: كان معه ثلاثة عشر ألف لجام، وقال المقلّلون: ما بين الخمسة آلاف إلى العشرة آلاف؛ فقالوا له: انما كنت تصطنعنا لهذا اليوم؛ فأمُر بأمرك، وأذن لنا نَمِلْ على القوم ميلة؛ نقتل المنتصر ومَنْ معه من

الأتراك وغيرهم. فأبى ذلك، وقال: ليس في هذا حِيلة، والرجل في أيديهم ـ يعني المعتزّ.

وذُكر عن عليّ بن يحيى المنجّم أنه قال: كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتاباً من كتب الملاحم، فوقفت على موضع من الكتاب فيه: إن الخليفة العاشر يُقتل في مجلسه، فتوقّفت عن قراءته وقطعتُه، فقال لي: مالك قد وقفت! قلت: خير، قال: لا بدّ والله من أن تقرأه، فقرأته وحِدْتُ عن ذكر الخلفاء؛ فقال المتوكل: ليت شعري مَنْ هذا الشقيّ المقتول!

وذُكر عن سلمة بن سعيد النصرانيّ أنّ المتوكل رأى أشُوط بن حمزة الأرمنيّ قبل قتله بأيام، فتأفّف برؤيته، وأمر بإخراجه، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين؛ أليس قد كنت تحبُّ خدمته؟ قال: بلى، ولكنيّ رأيت في المنام منذ ليال كأني قد ركبته، فالتفت إليّ وقد صار رأسه مثل رأس البغل فقال لي: إلى كم تؤذينا! إنما بقي من أجلك تمام خمسة عشر سنة غير أيام. قال: فكان بعدد أيام خلافته.

وذكر عن ابن أبي ربعيّ أنه قال: رأيتُ في منامي كأنّ رجلا دخل من باب الرَّسْتَن على عجلة ووجهه إلى الصحراء وقفاه إلى المدينة، وهو ينشد:

يا عَينُ ويلكِ فاهملي ... بالدمعِ سحًّا واسبلي

دَلَّتْ على قرْبِ القيامةِ ... قِتلَةُ المتوكلِ

وذكِر أن حُبشيّ بن أبي ربعيّ مات قبل قتْل المتوكل بسنتين.

وذكر عن محمد بن سعيد، قال: قال أبو الوارث قاضي نَصيبين: رأيت في النوم آتياً أتاني، وهو يقول:

يا نائمَ العينِ في جُثمانِ يقظانِ ... ما بالُ عينِكَ لا تبكي بتَهتانِ!

أما رأيتَ صُرُوفَ الدهرِ ما فَعَلَتْ ... بالهاشميِّ وبالفتح بن خاقان!

وسوفَ يَتبعُهُمْ قَومٌ لهم غَدَروا ... حتى يصيروا كأمسِ الذاهِب الفاني

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما جميعاً.

قال أبو جعفر: وقتِل ليلة الأربعاء بعد العتمة بساعة لأربع خلوْن من شوال ـ وقيل: بل قتِل ليلة الخميس ـ فكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام. وقتل يوم قُتل وهو ـ فيما قيل ـ ابن أربعين سنة؛ وكان ولد بفم الصِّلح في شوال من سنة ست ومائتين.

وكان أسمر حسن العينين خفيف العارضين نحيفاً.

ذكر الخبر عن بعض أمور المتوكل وسيرته:

ذُكر عن مروان بن أبي الجَنوب أبي السمط، أنه قال: أنشدتُ أمير المؤمنين فيه شعراً، وذكرتُ الرَّافضة فيه، فعقد لي على البحرين واليمامة، وخلَع عليّ أربع خِلَع في دار العامّة، وخلع عليّ المنتصر وأمر لي بثلاثة آلاف دينار، فنثرت على رأسي، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخيّ يلقطانها لي، ولا أمسّ منها شيئاً؛ فجمعاها، فانصرفت بها.

قال: والشعر الذي قال فيه:

مُـلك الـخـلـيفـةِ جـعـفـرٍ … لـلدين والـدنـيـا سَـلامَـهْ
لـكـمُ تـراث مـحـمـدٍ … وبِعَـدْلِكـمْ تُنفَى الـظلامـه
يـرجـو التُّـراثَ بنـو البـنـا … تِ ومـا لـهم فـيـهـا قُـلامَـهْ
والـصِّـهـرُ لـيس بـوارثٍ … والبـنـتُ لا تَـرث الإمـامَـهْ
مـا لـلذيـنَ تَـنَـحَّـلوا … مـيـراثـكـمْ إلا الـنـدامـهْ
أخَـذ الـوراثـةَ أهـلُهـا … فـعَلام لـومُـكـمُ عـلامـهْ!
لـو كـان حـقّـكُـمُ لمـا … قـامَتْ عـلى النـاسِ القيـامَـهْ
لـيـس التُّرَاثُ لـغيـركـمْ … لاَ والإلـهِ ولا كَـرَامَـهْ
أصبَحْـتُ بيـن مـحـبِّـكـمْ … والمُبْغِضِـينَ لَكُـمْ عـلامَـهْ

ثم نثر على رأسي ـ بعد ذلك لشعر قلته في هذا المعنى ـ عشرة آلاف درهم.

وذكر عن مروان بن أبي الجَنوب، أنه قال: لما استُخلف المتوكل بعثتُ بقصيدة ـ مدحتُ فيها ابن أبي دواد ـ إلى ابن أبي دواد، وكان في آخرها بيتان ذكرت فيهما أمر ابن الزيات وهما:

وقيـل لِيَ الـزَّيـات لاقى حِمـامـهُ … فقلت أتـاني الله بـالفتـح والنصـرِ
لقـد حَفَـرَ الـزيـاتُ بـالغـدر حُفـرَةً … فـأُلقِيَ فيهـا بـالخيـانـةِ والـغـدرِ

قال: فلما صارت القصيدة إلى ابن أبي دواد ذكرها للمتوكل، وأنشده البيتين فأمره بإحضاره، فقال: هو باليمامة، كان الواثق نفاه لمودّته لأمير المؤمنين. قال: يُحمل، قال: عليه دين، قال: كَمْ هو؟ قال: ستة آلاف دينار، قال: يُعطاها، فأعطِيَ وحُمل من اليمامة، فصار إلى سامرّا، وامتدح المتوكل بقصيدة يقول فيها:

رَحَـلَ الشبـابُ وليتَـهُ لم يَـرحَـلِ … والـشـيـبُ حـل ولَيْتَه لـم يَـحلُلِ

فلما صار إلى هذين البيتين من القصيدة:

كـانـتْ خـلافـة جـعـفـر كـنبـوَّةٍ … جـاءتْ بـلاَ طلَبٍ ولا بِتَـنَـحُّـلِ
وهبَ الإلـهُ لـه الخـلافة مثـل مـا … وهَـبَ النبـوَّةَ لـلنبيِّ المُـرْسـلِ

أمر له بخمسين ألف درهم.

وذكر عن أبي يحيى بن مروان بن محمد الشنيّ الكلبيّ، قال: أخبرني أبو السمط مَرْوان بن أبي الجَنوب، قال: لَما صرتُ إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله مدحت ولاة العهود، وأنشدته:

سقى اللهُ نجْـداً والسـلامُ على نجْـدِ … ويـا حبّذا نَجْـدٌ على النـأْيِ والبُعْـدِ!
نَـظَرْتُ إلـى نَجْـدٍ وبَـغـدادُ دُونَهَـا … لَعَلِّي أرى نَجْـداً وهَيْهـاتَ مِنْ نَجْـدِ!
ونجـدٌ بهـا قـومٌ هـواهُمْ زيـارتِي … وَلاَ شَيءَ أحْلَى من زيـارتهم عِنْـدي

قال: فلما استتممت إنشادها، أمر لي بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوباً وثلاثة من الظَّهر: فرس وبغلة وحمار، فما برحت حتى قلت في شكره:

تخيَّـرَ ربّ النـاسِ للنـاسِ جعفـراً … فـمـلَّكَـهُ أمـرَ الـعبـادِ تَـخَيُّـرَا

قال: فلما صرتُ إلى هذا البيت:

فأمسِكْ نَدَى كَفَّيْكَ عنِّي ولا تَزِدْ فقد خِفت أنْ أطغَى وأنْ أتجبَّرا

قال: لا والله، لا أمسك حتى أعرِّفك بجودي، ولا برحتَ حتى تسأل حاجة؛ قلت: يا أميرَ المؤمنين، الضيعة التي أمرت بإقطاعي إياها باليمامة؛ ذكر ابن المدبر أنها وقْف من المعتصم على ولده، ولا يجوز إقطاعها. قال: فإني أقبِّلكها بدرهم في السنة مائة سنة، قلت: لا يحسن يا أمير المؤمنين أن يؤدَّى درهم في الديوان، قال: فقال ابن المدبر: فألف درهم؟ فقلت: نعم، فأنفذها لي ولعقبي، ثمّ قال: ليس هذه حاجة، هذه قبالة، قلت: فضياعي التي كانت لي كان الواثق أمر بإقطاعي إياها، فنفاني ابن الزيات، وحال بيني وبينها، فتُنفذها لي. فأمر بإنفاذها بمائة درهم في السنة وهي السُّيوح.

وذُكر عن أبي حَشيشة أنه كان يقول: كان المأمون يقول: إن الخليفة بعدي في اسمه عين، فكان يُظَنُّ أنه العباس ابنه فكان المعتصم، وكان يقول: وبعده هاء، فيظنّ أنه هارون، فكان الواثق؛ وكان يقول: وبعده أصفر الساقين؛ فكان يظنّ أنه أبو الحائز العباس فكان المتوكل ذلك، فلقد رأيته إذا جلس على السرير يكشف ساقيه؛ فكانا أصفرين؛ كأنما صُبِغا بزعفران.

وذُكر عن يحيى بن أكثم، أنه قال: حضرتُ المتوكل، فجرى بيني وبينه ذكرُ المأمون وكتبه إلى الحسن بن سهل، فقلت بتفضيله وتقريظه ووصف محاسِنه وعلمه ومعرفته ونباهتِه قولاً كثيراً؛ لم يقع بموافقة بعض من حضر؛ فقال المتوكل: كيف كان يقول في القرآن؟ قلت: كان يقول: ما مع القرآن حاجة إلى علم فرض، ولا مع سنة الرسول ﷺ وَحْشة إلى فعل أحد؛ ولا مع البيان والإفهام حجّة لتعلّم، ولا بعد الجحود للبرهان والحقّ إلا السيف لظهور الحجة. فقال له المتوكل: لم أرِدْ منك ما ذهبت إليه من هذا المعنى، قال له يحيى: القول بالمحاسن في المغيب فريضة على ذي نعمة، قال: فما كان يقول خلال حديثه؛ فإن المعتصم بالله يرحمه الله كان يقوله، وقد أنسيته؟ فقال: كان يقول: اللهم إني أحمَدك على النّعم التي لا يحصيها أحدٌ غيرُك، وأستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها إلا عفوك. قال: فما كان يقول إذا استحسن شيئاً أو بُشِّرَ بشيء، فقد كان المعتصم بالله أمر عليّ بن يَزْداد أن يكتبه لنا؛ فكتبه فعلّمناه ثم أنسيناه؟ قال: كان يقول: إنَّ ذِكرَ آلاء الله ونشرَها وتَعداد نعمه والحديث بها فرض من الله على أهلها، وطاعة لأمره فيها، وشكرٌ له عليها؛ فالحمد لله العظيم الآلاء، السابغ النَّعماء بما هو أهلُه، ومستوجبه من محامده القاضية حقه، البالغة شُكرَه، الموجبة مزيدَه على ما لا يحصيه تعدادُنا، ولا يحيط به ذكرُنا، من ترادُفِ مِنَنِه، وتتابُع فضله، ودوام طَوْله، حَمْد من يعلم أن ذلك منه، والشكر له عليه. فقال المتوكل: صدقت، هذا هو الكلام بعينه، وهذا كلّه حُكْم من ذي حُنْكة وعلم؛ وانقضى المجلس.

وقدم في هذه السنة محمد بن عبد الله بن طاهر بغداد منصرفاً من مكة في صفر؛ فشكا ما ناله من الغمّ بما وقع من الخلاف في يوم النَّحر؛ فأمر المتوكل بإنفاذ خريطة صفراء من الباب إلى أهل المْوسم برؤية هلال ذي الحجة، وأن يُسار بها كما يسار بالخرِيطة الواردة بسلامة الموسم، وأمر أن يقام على المشعر الحرام وسائر المشاعر الشَّمع مكان الزيت والنِّفط.

وفيها ماتت أمّ المتوكل بالجعفرية لستّ خلوْن من شهر ربيع الآخر وصلّى عليها المنتصر، ودُفِنت عند المسجد الجامع.

خلافة المنتصر محمد بن جعفر

وفيها بُويع للمنتصر محمد بن جعفر بالخلافة في يوم الأربعاء لأربع خلوْن من شوال ـ وقيل لثلاث خلون منه ـ وهو ابن خمس وعشرين سنة. وكنيته أبو جعفر بالجعفرية، فأقام بها بعد ما بويع له عشرة أيام، ثم تحوّل منه بعياله وقوّاده وجنوده إلى سامرّا.

وكان قد بايعه ليلة الأربعاء الذين ذكرناهم قبلُ، فذُكر عن بعضهم، أنه قال: لمّا كان صبيحة يوم الأربعاء، حضر الناس الجعفريّة من القوّاد والكتاب والوُجوه والشاكريّة والجُند وغيرهم؛ فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتاباً يخبر فيه عن أمير المؤمنين المُنْتَصر؛ أن الفتح بن خاقان قتل أباه جعفراً المتوكل، فقتله به، فبايع الناس، وحضر عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فبايع وانصرف.

وذكر عن أبي عثمان سعيد الصغير أنه قال: لما كانت الليلة التي قُتِل فيها المتوكل، كنا في الدّار مع المنتصر؛ فكان كلّما خرج الفَتْح خرج معه، وكلّما رجع قام لقيامه وجلس لجلوسه، وخرج في أثره؛ وكلّما ركب أخذ بركابه، وسوّى عليه ثيابه في سَرْج دابته؛ وكان اتّصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى قد أعدّ له قوماً في طريقه ليغتالوه عند انصرافه؛ وقد كان المتوكل أسمعه وأحفظه قبل انصرافه، ووثب به؛ فانصرف على غضب، وانصرفنا معه، فلمّا صار إلى داره أرسل إلى نُدمائه وخاصته ـ وقد كان واعد الأتراك على قتل المتوكل قبل انصرافه إذا ثمل من النبيذ ـ قال: فلم ألبث أن جاءني الرّسول: أن احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير؛ وهو على الركوب؛ فوقع في نفسي ما كانَ دار بيننا أنهم على اغتيال المنتصر؛ وأنه انما يُدعَى لذلك؛ فركبت في سلاح وعِدّة، وصرت إلى باب الأمير، فإذا هم يموجون؛ وإذا واجن قد جاءه فأخبره أنه قد فَرَغَ من أمره، فركب فلحقتُه في بعض الطريق وأنا مرعوب؛ فرأى ما بي، فقال: ليس عليك! إنّ أمير المؤمنين قد شرِق بقدح شربه بعد اصرافنا، فمات رحمه الله. فأكبرت ذلك، وشقّ عليّ، ومضينا وأحمد بن الخصيب وجماعة من القوّاد معنا حتى دخلنا الحَيْر، وتتابعت الأخبار بقتْل المتوكّل، فأخِذت الأبواب، ووُكّل بها، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، وسلَّمْتُ عليه بالخلافة، وقلت: لا ينبغي أن نفارقك لموضع الشَّفَقة عليك من مواليك في هذا الوقت، قال: أجل؛ فكن أنت من ورائي وسليمان الروميّ. وأُلْقِيَ منديلٌ، فجلس عليه، وأحطْنا به، وحضر أحمد بن الخصيب وكاتبه سعيد بن حميد لأخذ البيعة.

فذُكر عن سعيد بن حُميد أن أحمد بن الخصيب، قال له: ويلك يا سعيد! معك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة، قلت: نعم؛ وكلمات. وعملت كتاب البيعة، وأخذتها على مَنْ حضر وكلّ من جاء حتى جاء سعيد الكبير، فأرسله إلى المؤيّد، وقال لسعيد الصغير: امض أنت إلى المعتزّ حتى تُحضره، قال سعيد الصغير: فقلت: أمّا ما دمْتَ يا أمير المؤمنين في قلّة ممّن معك فلا أبرح والله من وراء ظهرك؛ حتى يجتمع الناس. قال أحمد بن الخصيب: ها هنا مَنْ يكفيك، فامض؛ فقلت: لا أمضي حتى يجتمع مَنْ يكفي؛ فإنِّي الساعة أوْلى به منك! فلما كثر القوّاد، وبايعوا، ومضيت وأنا آيس من نفسي، ومعي غلامان؛ فلما صرتُ إلى باب أبي نوح، والناس يموجون ويذهبون ويجيئون؛ وإذا على الباب جمعٌ كبير في سلاح وعِدّة، فلما أحسُّوا بي لحقني فارس منهم؛ فسألني وهو لا يعرفني: مَنْ أنت؟ فعمَّيت عليه خبري، وأخبرته أنِّي مِنْ بعض أصحاب الفتح، ومضيتُ حتى صرت إلى باب المعتزّ، فلم أجد به أحداً من الحرس والبوابين والمكبّرين ولا خلقاً من خلق الله حتى صرت إلى الباب

الكبير، فدقَقتُه دقّاً عنيفاً مفرطاً، فأجبت بعد مدّة طويلة، فقيل لي: من هذا؟ فقلت: سعيد الصغير، رسول أمير المؤمنين المنتصر؛ فمضى الرّسول، وأبطأ عليّ، وأحسست بالمنكر وضاقت عليّ الأرض. ثم فُتح الباب فإذا ببيدون الخادم قد خرج؛ وقال لي: ادخل وأغلق الباب دوني، فقلت: ذهبتْ والله نفسي، ثم سألني عن الخبر، فأخبرته أنَّ أمير المؤمنين شرِق بكأسٍ شربها ومات من ساعته؛ وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر، وأنه أرسلني إلى الأمير أبي عبد الله المعتزّ بالله ليحضر البَيْعة. فدخل ثم خرج إليّ؛ فقال: ادخل، فدخلت على المعتزّ؛ فقال لي: ويلك يا سعيد! ما الخبر؟ فأخبرته بمثل ما أخبرت به بيدون، وعزّيته وبكيت، وقلت: تحضر يا سيّدي، وتكون في أوائل مَنْ بايع، فتستدعي بذلك قلب أخيك، فقال لي: ويلك حتى نصبح! فما زلت أفتلُه في الحبل والغارب؛ ويُعينني عليه بيدون الخادم، حتى تهيّأ للصلاة، ودعا بثيابه فلبسَها، وأخرِج له دابّة، وركب وركبت معه، وأخذت طريقاً غير طريق الجادّة، وجعلت أحدّثه وأسهل الأمر عليه، وأذكره أشياء يعرفها من أخيه، حتى إذا صرنا إلى باب عبيد الله بن يحيى بن خاقان سألني عنه، فقلت: هو يأخذ البيعة على الناس، والفتح قد بايع، فيئس حينئذ؛ وإذا بفارس قد لَحِق بنا، وصار إلى بيدون الخادم، فسارّه بشيء لا أعلمه، فصاح به بيدون؛ فمضى ثم رجع ثلاثاً؛ كلّ ذلك يردّه بيدون ويصيح به: دعنا؛ حتى وافينا بابَ الحَيْر فاستفحته فقيل لي: مَنْ أنت؟ قلت: سعيد الصغير والأمير المعتزّ، ففُتح لي الباب، وصرنا إلى المنتصر؛ فلمّا رآه قرّبه وعانقه وعزّاه، وأخذ البيعة عليه، ثم وافى المؤيد مع سعيد الكبير، ففعل به مثل ذلك، وأصبح الناس، وصار المنتصر إلى الجعفريّ. فأمر بدفن المتوكل والفتح، وسكن الناس، فقال سعيد الصغير: ولم أزل أطالب المعتزّ بالبُشرى بخلافة المنتصر وهو محبوس في الدار؛ حتى وَهب لي عشرة آلاف درهم.

وفي هذه السنة خلع المعتز والمؤيد أنفسهما، وأظهر خلعهما في القصر الجعفريّ المحدث.

وكانت نسخة البيعة التي أخذت للمنتصر:

بسم الله الرحمن الرحيم. تُبايعون عبدَ الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بَيْعةَ طوعٍ واعتقاد ورضاً، ورغبة بإخلاص من سرائركم، وانشراح من صدوركم، وصدق من نياتكم؛ لا مكرَهين ولا مجبَرين، بل مقرّين عالمين بما في هذه البَيْعة وتأكيدها من طاعة الله وتَقْواه، وإعزاز دين الله وحقه، ومن عموم صلاح عباد الله، واجتماع الكلمة، ولمّ الشعث، وسكون الدهماء، وأمْن العواقب، وعزّ الأولياء، وقَمْع الملحدين؛ على أن محمدا الإمام المنتصر بالله عبد الله وخليفته المفترض عليكم طاعته ومناصحته والوفاء بحقه وعقده، لا تشكّون ولا تُدْهنون، ولا تميلون ولا ترتابون؛ وعلى السَّمْع له، والطاعة والمسالمة، والنُّصرة والوفاء والاستقامة، والنصيحة في السرّ والعلانية، والخُفوف والوقوف عند كلّ ما يأمر به عبد الله الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين؛ وعلى أنّكم أولياء أوليائه، وأعداء أعدائه؛ من خاصٍّ وعامٍّ، وأبعَد وأقربَ، وتتمسكون ببيعته بوفاء العقد، وذمّة العهد؛ سرائرُكم في ذلك مثل علانيتكم، وضمائركم مثل ألسنتكم؛ راضين بما يرضاه لكم أمير المؤمنين في عاجِلكم وآجلكم. وعلى إعطائكم أمير المؤمنين بعد تجديدكم بيعَته هذه على أنفسكم، وتأكيدكم إياها في أعناقكم؛ صَفْقة أيْمانكم، راغبين طائعين، عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم ونياتكم؛ وعلى ألّا تسعوْا في نقض شيء مما أكد الله عليكم؛ وعلى ألّا يميل بكم مميل في ذلك عن نُصرة وإخلاص، ونصح وموالاة، وعلى ألّا تبدّلوا، ولا يرجع منكم راجع عن نيّته، وانطوائه إلى غير علانيته، وعلى أن تكون بيعتُكم التي أعطيتُم بها ألسنَتكم

وعهودَكم بيعة يطلع الله من قلوبكم على اجتبائها واعتقادها، وعلى الوفاء بذمّتِه بها، وعلى إخلاصكم في نصرتها وموالاة أهلها، لا يشوب ذلك منكم دَغَل ولا إدهان ولا احتيال ولا تأوّل؛ حتى تلقوا الله، مُوفين بعهده، ومؤدّين حقَّه عليكم، غير مستشرفين ولا ناكثين، إذ كان الذين يبايعون منكم أميرَ المؤمنين إنما يبايعون الله؛ يد الله فوق أيديهم، فمن نَكَث فإنما ينكُث عن نفسه، ومَنْ أوفَى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً.

عليكم بذلك وبما أكّدت هذه البيعة في أعناقكم، وأعطيتم بها من صَفْقة أيْمانكم؛ وبما اشترط عليكم بها من وفاء ونَصْر، وموالاة واجتهاد ونُصْح؛ وعليكم عهد الله؛ إنّ عهده كان مسؤولاً؛ وذّمة الله وذمة رسوله. وأشدّ ما أخذ على أنبيائه ورسله، وعلى أحد من عباده من متأكِّدِ وثائقه، أن تسمعوا ما أخِذ عليكم في هذه البيعة، ولا تبدّلوا، وأن تُطيعوا ولا تعصوا، وأن تُخلصوا ولا ترتابوا، وأن تتمسّكوا بما عاهدتم عليه تمسك أهل الطاعة بطاعتهم وذوي العهد والوفاء بوفائهم وحقهم؛ لا يلفتكم عن ذلك هوىً ولا مميل، ولا يزيغ بكم فيه ضلال عن هدىً؛ باذلين في ذلك أنفسَكم واجتهادكم، ومقدّمين فيه حقَّ الدين والطاعة بما جعلتم على أنفسكم؛ لا يقبل الله منكم في هذه البيعة إلا الوفاء بها.

فمَنْ نَكَث منكم ممن بايع أمير المؤمنين هذه البيعة عما أكّد عليه مسرّاً أو معلناً، أو مصرّحاً أو محتالاً؛ فادّهن فيما أعطى الله من نفسه، وفيما أخِذَت به مواثيق أمير المؤمنين، وعهود الله عليه؛ مستعملاً في ذلك الهوينى دون الجدّ، والركون إلى الباطل دون نُصرة الحق، وزاغ عن السبيل التي يعتصم بها أولو الوفاء منهم بعهودهم؛ فكلّ ما يملك كلُّ واحد ممّن خان في ذلك بشيء نقض عهدَه من مال أو عقار أو سائمة، أو زرع أو ضَرْع صدقةٌ على المساكين في وجوه سبيل الله، محرّمٌ عليه أن يرجع شيء من ذلك إلى ماله عن حيلةيقدّمهالنفسه، أو يحتال بها. وما أفاد في بقية عمره من فائدةمالٍ يقلّ خطرها أو يجلّ قدرها، فتلك سبيله إلى أن توافيَه منيَّته، ويأتي عليه أجلُه؛ وكلُّ مملوك يملكه اليوم إلى ثلاثين سنة من ذكر أو أنثى أحرار لوجه الله؛ ونساؤه في يومٍ يلزمه الحِنْث، ومن يتزوجه بعدهنّ إلى ثلاثين سنة طوالق البتّة طلاق الحَرج والسنة؛ لا مثنويّة فيه ولا رَجْعة. وعليه المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة، لا يقبلُ الله منه إلّا الوفاء بها؛ وهو بريء من الله ورسوله، والله ورسوله منه بريئان؛ ولا قبلَ الله منه صَرْفاً ولا عدلاً؛ والله عليكم بذلك شهيد، وكفى بالله شهيداً.

وذكر أنه لّما كانت صبيحة اليوم الذي بويع فيه المنتصر شاع الخبر في الماحوزة ـ وهي المدينة التي كان جعفر بناها في أهل سامرّا ـ بقتل جعفر، وتوافَى الجندُ والشاكرية بباب العامة بالجعفريّ وغيرهم من الغوغاء والعوامّ، وكثر الناس وتسامعوا، وركب بعضهم بعضاً، وتكلموا في أمرِ البيعة، فخرج إليهم عَتّاب بن عتّاب ـ وقيل: إنّ الذي خرج إليهم زُرافة ـ فأبلغهم عن المنتصر ما يحبون، فأسمعوه؛ فدخل إلى المنتصر فأخبره؛ فخرج وبين يديه جماعة من المغاربة، فصاح بهم: يا كلاب! خذوهم؛ فحملوا على الناس فدفعوهم إلى الثلاثة الأبواب، فازدحم الناس ووقع بعضهم على بعض؛ ثم تفرّقوا عن عِدّة قد ماتوا من الزَّحْمة والدَّوْس؛ فمنهم من ذكر أنهم كانوا ستة نفر، ومنهم من قال: كانوا ما بين الثلاثة إلى الستة.

وفيها ولَّى المنتصر أبا عَمْرة أحمد بن سعيد ـ مولى بني هاشم، بعد البيعة له بيوم ـ المظالم، فقال قائل:

يا ضيعةَ الإسلامِ لمّا وَلي ... مظالمَ النّاسِ أبو عَمْرَهْ
صُيِّرَ مأموناً على أمةٍ ... وليسَ مأموناً على بَعْرَهْ

وفي ذي الحجة من هذه السنة أخرج المنتصر عليّ بن المعتصم من سامرّا إلى بغداد ووكّل به.

وحجّ بالناس فيها محمد بن سليمان الزينبيّ.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من إغزاء المنتصر وصيفاً التركي صائفة أرض الروم.

ذكر الخبر عن سبب ذلك، وما كان في ذلك من وصيف:

ذُكر أنّ السبب في ذلك أنه كان بين أحمد بن الخصيب ووصيف شحناء وتباغض؛ فلمّا استُخلف المنتصر، وابن الخصيب وزيرُه، حرَّضَ أحمد بن الخصيب المنتصر على وصيف، وأشار عليه بإخراجه من عسكره غازياً إلى الثّغر؛ فلم يزل به حتى أحضره المنتصر، فأمره بالغزو.

وقد ذُكر عن المنتصر أنه لمّا عَزَم على أن يُغزي وصيفاً الثغر الشاميّ، قال له أحمد بن الخصيب: ومَنْ يجترىء على الموالي حتى تأمر وصيفاً بالشخوص! فقال المنتصر لبعض من الحَجَبة: ائذن لمن حضر الدار؛ فأذن لهم وفيهم وصيف، فأقبل عليه، فقال له: يا وصيف؛ أتانا عن طاغية الروم أنه أقبل يريد الثغور، وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه؛ فإمّا شخصتَ وإما شخصتُ؛ فقال وصيف: بل أشخصُ يا أمير المؤمنين، قال: يا أحمد؛ انظر ما يحتاج إليه على أبْلَغ ما يكون فأقمه له. قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ما نَعْم! قم الساعة لذلك، يا وصيف مُركاتبَك يوافقه على ما يحتاج إليه، ويلزمه حتى يزيح علّتك فيه. فقام أحمد بن الخصيب، وقام وصيف، فلم يزل في جهازه حتى خَرَج، فما أفلح ولا أنجح.

وذكر أنّ المنتصر لما أحضر وصيفاً وأمره بالغزو، قال له: إنّ الطاغية ـ يعني ملك الروم ـ قد تحرّك ولست آمنه أن يهلك كلّ ما يمرّ به من بلاد الإسلام، ويقتل ويسبي الذراريّ؛ فإذا غزوتَ وأردت الرّجعة انصرفت إلى باب أمير المؤمنين من فورك. وأمر جماعة من القوّاد وغيرهم بالخروج معه وانتخب له الرجال؛ فكان معه من الشاكريّة والجند والموالي زُهاء عشرة آلاف رجل؛ فكان على مقدّمته في بدأته مُزاحم بن خاقان؛ أخو الفتح بن خاقان؛ وعلى السّاقة محمد بن رجاء، وعلى الميمنة السنديّ بن بختاشة، وعلى الدّرّاجة نصر بن سعيد المغربيّ؛ واستعمل على الناس والعسكر أبا عون خليفته؛ وكان على الشّرْطة بسامرّا.

وكتب المنتصر عند إغزائه وصيفاً مولاه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين.

سلام عليك؛ فإن أميرَ المؤمنين يحمَد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلّيَ على محمد عبده

ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله . أما بعد : فإنّ الله وله الحمد على آلائه ، والشكرُ بجميل بلائه ، اختار الإسلام وفضّله ، وأتمّه وأكمله ، وجعله وسيلة إلى رضاه ومثوبته ، وسبيلاً نَهْجاً إلى رحمته ، وسبباً إلى مذْخُور كرامته ؛ فقهر له مَنْ خالفه ، وأذلّ له من عَنَدَ عن حقه ، وابتغى غير سبيله ، وخصّه بأتمّ الشرائع وأكملها ، وأفضل الأحكام وأعدلها ؛ وبعث به خيرته مِنْ خلقه وصفوته من عباده محمّداً ﷺ ، وجعل الجهاد أعظمَ فرائضه منزلةً عنده ، وأعلاها رتبة لديه ، وأنجحها وسيلة إليه ؛ لأن الله عزّ وجلّ أعزّ دينَه ، وأذلّ عُتاة الشرك ، قال عزّ وجلّ آمراً بالجهاد ، ومفترضاً له : ﴿ انفرُوا خِفَافاً وثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكمْ وَأَنفُسِكم في سَبِيلِ آللهِ ذَلِكمْ خيرٌ لَكمْ إِنْ كنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حالٌ لا يكابد في الله نَصَباً ولا أذىً ، ولا ينفق نفقة ولا يقارع عدوّاً ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضاً ؛ إلا وله بذلك أمر مكتوب ، وثواب جزيل ، وأجر مأمول ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفّارَ وَلاَ ينالُونَ مِنْ عَدوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَملٌ صَالحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ آلْمُحْسِنِينَ * ولا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ آللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ثم أثنى عزّ وجلّ بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده ، وما وعدهم من جزائه ومثوبته ، وما لهم من الزّلفى عنده ، فقال : ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غيرُ أُولِي الضَّرَرِ والْمُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ آللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ على الْقَاعدينَ دَرَجَةً وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ آلْحُسْنى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣) .

فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم ، وجعل جنته ثمنا لهم ، ورضوانه جزاء لهم على بذلها ؛ وعْداً منه حقّاً لا ريب فيه ، وحكماً عدلاً لا تبديل له ، قال اللهُ عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهم بِأَنَّ لهمُ الجنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ آللهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٤) .

وحكَم الله عزّ وجلّ لإحياء المجاهدين بنصره ، والفوز برحمته ، وأشهد لموتاهم بالحياة الدائمة ، والزلفى لديه ، والحظّ الجزيل من ثوابه ، فقال : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلوا فِي سَبِيلِ آللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فرِحِينَ بمَا آتاهُمُ آللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبشِرُونَ بِالَّذِينَ لم يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥) .

وليس من شيء يتقرّب به المؤمنون إلى الله عزَّ وجلّ من أعمالهم ، ويسعَوْن بِهِ في حطّ أوزارهم ، وفَكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثَّواب من ربهم ، إلاّ والجهاد عنده أعظم منه منزلة ، وأعلى لديه رتبة ، وأوْلَى بالفوز في العاجلة والآجلة ؛ لأنّ أهله بذلُوا لله أنفسَهم ، لتكون كلمةُ الله هي العليا ، وسمحوا بها دون مَنْ وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبَيْضتهم ، ووَقَمُوا بجهادهم العدوّ .

(١) سورة التوبة : ٤١ .
(٢) سورة التوبة : ١٢٠ ـ ١٢١ .
(٣) سورة النساء : ٩٥ .
(٤) سورة التوبة : ١١١ .
(٥) سورة آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧٠ .

وقد رأى أمير المؤمنين ـ لما يحبّه من التقرّب إلى الله بجهاد عدوه، وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه، والتماس الزُّلفى له في إعزاز أوليائه، وإحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه، وكذّب رسله، وفارق طاعتَه ـ أن يُنهض وصيفاً مولى أمير المؤمنين في هذا العام إلى بلاد أعداء الله الكفرة والرّوم، غازياً لما عرّف الله أمير المؤمنين من طاعتِه ومناصحتِه ومحمود نقيبتِه وخُلُوص نيّته، في كلّ ما قرّبه من الله ومن خليفته.

وقد رأى أمير المؤمنين ـ والله وليّ معونته وتوفيقه ـ أن تكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين مَعه من مواليه وجنده وشاكريتِه ثغر مَلطية لأثنتي عشرة ليلة تخلُو من شهرِ ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين؛ وذلك من شهور العجم للنصف من حَزيران ودخلوه بلاد أعداء الله في أوّل يوم من تَمّوز؛ فاعلم ذلك واكتب إلى عمّالك على نواحي عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا؛ ومُرْهم بقراءته على مَنْ قِبَلهم من المسلمين وترغيبهم في الجهاد، وحثّهم عليه واستنفارهم إليه، وتعريفهم ما جعل الله من الثّواب لأهله، ليعمل ذوو النيات والحِسْبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في النهوض إلى عدوّهم والخُفوف إلى معاونة إخوانهم والذياد عن دينهم والرّميْ من وراء حَوْزتهم بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين مَلَطْيَةَ في الوقت الذي حدّه أمير المؤمنين لهم إن شاء الله. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب أحمد بن الخصيب لسبع ليالٍ خلون من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين؛ وصيّر على ما ذكر على نفقات عسكر وصيف والمغانم والمقاسم المعروف بأبي الوليد الجريريّ البَجَليّ.

وكتب معه المنتصر كتاباً إلى وصيف يأمره بالمقام ببلاد الثغر إذا هو انصرف من غزاته أربع سنين، يغزو في أوقات الغزو منها إلى أن يأتيه رأي أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة خلع المعتزّ والمؤيّد أنفسهما، وأظهر المنتصر خلْعهما في القصر الجعفريّ المحدث.

ذكر الخبر عن خلعهما أنفسهما:

ذُكر أن محمداً المنتصر بالله لمّا استقامت له الأمور، قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبغا: إنا لا نأمن الحدثان؛ وأن يموت أمير المؤمنين، فيليَ الأمرَ المعتزّ، فلا يُبقي منّا باقية، ويُبيد خضراءنَا؛ والرأي أن نعمل في خَلْع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا. فجدّ الأتراك في ذلك؛ وألحّوا على المنتصر وقالوا: يا أميرَ المؤمنين؛ تخلعهما من الخلافة، وتبايع لابنك عبد الوهاب، فلم يزالوا به حتى فعل، ولم يزل مكرماً المعتزّ والمؤيد؛ على ميل منه شديد إلى المؤيد؛ فلمّا كان بعد أربعين يوماً من ولايته؛ أمر بإحضار المعتز والمؤيد بعد انصرافهما من عِنده، فأحضِرا وجُعلا في دار، فقال المعتزّ للمؤيد: يا أخي، لمَ ترانا أحضرنا؟ فقال: يا شقيّ، للخلع! فقال: لا أظنه يفعل بنا ذلك، فبيناهم كذلك، إذ جاءهم الرسل بالخلْع، فقال المؤيد: السمع والطاعة، وقال المعتزّ: ما كنت لأفعل، فإن أردتم القتل فشأنكم، فرجعوا إليه، فأعلموه ثم عادوا بغلظة شديدة، فأخذوا المعتزّ بعنف، وأدخلوه إلى بيت، وأغلقوا عليه الباب.

فذُكر عن يعقوب بن السكيت، أنه قال: حدّثني المؤيد، قال: لما رأيتُ ذلك قلت لهم بجرأة واستطالة: ما هذا يا كلاب! فقد ضريْتم على دمائنا، تثبون على مولاكم هذا الوثوب! اعزبُوا قبحكم الله! دعوني أكلّمه؛ فكاعوا عن جوابي بعد تسرُّع كان منهم، وأقاموا ساعة، ثم قالوا لي: القه إن أحببت؛ فظننت أنهم استأمروا؛ فقمت إليه، فإذا هو في البيت يبكي، فقلت: يا جاهل؛ تراهم قد نالوا من أبيك ـ

وهو هو - ما نالوا ، ثم تمتنع عليهم ! خلع ويلك ولا تراجعْهم ! ؛ قال : سبحان الله ! أمرٌ قد مضيت عليه ، وجرى في الآفاق أخلعه من عنقي ! فقلت : هذا الأمرُ قتل أباك ، فلَيته لا يقتلك ! اخلعه ويلك ! فوالله لئن كان في سابق علم الله أن تلي لِتَلينّ . قال : أفعلُ . قال : فخرجت فقلت : قد أجاب ، فأعلِموا أمير المؤمنين ، فمضوْا ثم عادوا فجزَوني خيراً ، ودخل معهم كاتب قد سمّاه ، ومعه دواة وقرطاس ، فجلس ، ثم أقبل على أبي عبد الله ، فقال : اكتب بخطّك خلعك ، فتلكأ ، فقلت للكاتب : هات قرطاساً ، أملِلْ ما شئت . فأملى عليّ كتاباً إلى المنتصر ، أعلِمُه فيه ضعفِي عن هذا الأمر ؛ وأني علمت أنه لا يحلّ أن أتقلدَه ، وكرهت أن يأثم المتوكل بسببي إذ لم أكن موضعاً له ، وأسأله الخلْع ، وأعلِمه أني خلعت نفسي ، وأحللت الناسَ مِنْ بيعتي . فكتبت كلّ ما أراد ، ثم قلت : اكتب يا أبا عبدالله ، فامتنع ، فقلت : اكتب ويلك ! فكتب وخرج الكاتب عنا ، ثم دعانا فقلت : نجدّد ثيابنا أو نأتي في هذه ؟ فقال : بل جدّدا ، فدعوت بثياب فلبستها ، وفعل أبو عبدالله كذلك ، وخرجنا فدخلنا ؛ وهو في مجلسه ، والناس على مراتبهم ، فسلمنا فردُّوا ، وأمر بالجلوس ، ثم قال : هذا كتابكما ؟ فسكت المعتزّ ، فبدرت فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ! هذا كتابي بمسألتي ورغبتي ، وقلت للمعتزّ : تكلم ، فقال مثل ذلك ، ثم أقبل علينا والأتراكُ وقوفٌ ، وقال : أترياني خلعتُكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له ! والله ما طمعتُ في ذلك ساعة قطّ ، وإذا لم يكن في ذلك طمع ، فوالله لأنْ يليَها بنو أبي أحبُّ إليّ من أن يليَها بنو عمي ؛ولكن هؤلاء - وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد - ألحُّوا عليّ في خلعكما ، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضُهم بحديدة ، فيأتي عليكما ، فما ترياني صانعاً ! أقتله ؟ فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم ؛ فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليّ . قال : فأكبّا عليه ، فقبَّلا يده ، فضمّهما إليه ، ثم انصرفا .

وذكر أنه لما كان يوم السبت لسبع بقين من صفر سنة ثمان وأربعين ومائتين خلع المعتزّ والمؤيد أنفسهما ، وكتب كلّ واحدمنهما رُقعةبخطه أنه خلَع نفسه من البيعة التي بويع له ، وأنّ الناس في حلٍّ من حَلّها ونَقضها ، وأنهما يعجزان عن القيام بشيء منها ، ثم قاما بذلك على رؤوس الناس والأتراك والوجوه والصحابة والقضاة ، وجعفر بن عبد الواحد قاضي القضاة ، والقوّاد وبني هاشم ، وولاة الدّواوين والشيعة ووجوه الحرس ، ومحمد بن عبدالله بن طاهر ، ووصيف وبُغا الكبير وبُغا الصغير ، وجميع مَنْ حضر دار الخاصّة والعامة ، ثم انصرف الناس بعد ذلك .

والنسخة التي كتباها :

بسم الله الرحمن الرحيم : إنّ أمير المؤمنين المتوكل على الله رضي الله عنه قلّدني هذا الأمر ، وبايع لي وأنا صغير ، من غير إرادتي ومحبتي ، فلما فهمت أمري علمت أني لا أقوم بما قلّدني ، ولا أصلح لخلافة المسلمين ، فمن كانت بَيْعتي في عنقه فهو مِنْ نقضِها في حلّ ، وقد أحللتكم منها ، وأبرأتكم من أيمانكم ، ولا عهد لي في رقابكم ولا عَقْد ، وأنتم بُراء من ذلك .

وكان الذي قرأ الرقاع أحمد بن الخصيب . ثم قام كلُّ واحد منهما قائماً ، فقال لمن حضر : هذه رقعتي وهذا قولي ، فاشهدوا عليّ ، وقد أبرأتكم من أيْمانكم ، وحللتكُم منها ، فقال لهما المنتصر عند ذلك : قد خار الله لكما وللمسلمين ، وقام فدخل . وكان قد قعد للناس ، وأقعدهما بالقرب منه ، فكتب كتاباً إلى العمال بخلعهما وذلك في صفر سنة ثمان وأربعين ومائتين .

نسخة كتاب المنتصر بالله إلى أبي العباس محمد بن عبدالله ابن طاهر مولى أمير المؤمنين في خلع أبي عبدالله المعتزّ وإبراهيم المؤيد

من عبدالله محمد الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبدالله مولى أمير المؤمنين ؛ أما بعد ؛ فإن الله وله الحمد على آلائه ، والشكر بجميل بلائه ؛ جعل ولاة الأمر من خُلَفائه القائمين بما بعث به رسوله ﷺ والذّابين عن دينه ، والدّاعين إلى حقه والممضِين لأحكامه ، وجعل ما اختصّهم به من كرامته قِواماً لعباده . وصلاحاً لبلاده ، ورحمة غمر بها خلقه ، وافترض طاعَتهم ، ووصلها بطاعته وطاعة رسوله محمد ﷺ ،وأوجبها في محكم تنزيله ؛ لما جمع فيها من سكون الدَّهماء ، واتّساق الأهواء ، ولمّ الشعث ، وأمْن السبُل ، ووقْم العدو ، وحفظ الحريم ، وسدّ الثغور ، وانتظام الأمور ، فقال : ﴿ أَطِيعُوا آللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكم ﴾[1] ، فمن الحقّ على خلفاء الله الذين حباهم بعظيم نعمته ، واختصّهم بأعلى رتب كرامته ، واستحفظهم فيما جعله وسيلة إلى رحْمته ، وسبباً لرضاه ومثوبته . لأن يؤثروا طاعته في كلّ حال تصرّفت بهم ، ويقيموا حقه في أنفسهم والأقرب فالأقرب منهم ، وأن يكون محلّهم من الاجتهاد في كلّ ما قرب من الله عز وجل حسب موقِعهم من الدّين وولاية أمر المسلمين . وأميرُ المؤمنين يسأل الله مسألةً رغبة إليه ، وتذلّلاً لعظمته ، أن يتولاّه فيما استرعاه ولايةً يجمع له بها صلاح ما قلّده ، ويحمل عنه أعباء ما حمّله ، ويعينه بتوفيقه على طاعته ؛ إنه سميع قريب .

وقد علمتَ ما حضرتَ من رفْع أبي عبد الله وإبراهيم ابني أمير المؤمنين المتوكّل على الله رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين رقعتيْن بخطوطهما ، يذكران فيهما ما عرّفهما الله من عَطْف أمير المؤمنين عليهما ، ورأفته بهما ، وجميل نظره لهما ؛ وما كان أمير المؤمنين المتوكل على الله عَقَده لأبي عبد الله من ولاية عهد أمير المؤمنين ولإبراهيم من ولاية العهد بعد أبي عبد الله . وإنّ ذلك العقد كان وأبو عبد الله طفل لم يبلغ ثلاث سنين ، ولم يفهم ما عُقِد له ولا وقف على ما قُلّده ، وإبراهيم صغير لم يبلغ الحلُم ، ولم يجر أحكامهما ولا جرتْ أحكامُ الإسلام عليهما ، وإنه قد يجب عليهما إذ بلغا ووقفا على عَجْزهما عن القيام بما عقد لهما من العَهْد ، وأسْنِدَ إليهما من الأعمال أن يَنْصحا لله ولجماعة المسلمين ، بأن يُخرجا من هذا الأمر الذي عقِد لهما أنفسهما ، ويعتزلا الأعمال التي قُلّداها ، ويجعلا كلّ مَنْ في عنقه لهما بَيْعة وعليه يمين في حلّ ، إذ كانا لا يقومان بما رُشِّحا له ، ولا يصلحان لتقلده ، وأن يخرج من كان ضُمّ إليهما ممّن في نواحيهما من قُوّاد أمير المؤمنين ومواليه وغلمانه وجنده وشاكريته وجميع مَنْ مع أولئك القواد بالحضْرة وخُراسان وسائر النواحي عن رسومهما . ويُزال عنهم جميعاً ذكر الضمّ إليهما ، وأن يكونا سُوقة من سوق المسلمين وعامتهم ، ويصفان ما لم يزالا يذكران لأمير المؤمنين من ذلك ؛ ويسألانه فيه ، منذ أفضى الله بخلافته إليه ، وأنهما قد خلعا أنفسهما من ولاية العهد ، وخرجا منها ، وجعلا كلَّ من لهما عليه بيعة ويمين من قُوّاد أمير المؤمنين وجميع أوليائه ورعيّته ؛ قريبهم وبعيدهم ، وحاضرهم وغائبهم ؛ في حلّ وسعة من بيعتهم وأيْمانهم ؛ ليخلعوهما كما خلعا أنفسهما .

وجعلا لأمير المؤمنين على أنفسهما عهدَ الله ؛ وأشد ما أُخِذ على ملائكته وأنبيائه وعباده من عهد وميثاق ، وجميع ما أكده أمير المؤمنين عليهما من الأيْمان ، بإقامتهما على طاعته ومناصحته وموالاته في السرّ والعلانية ،

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

ويسألان أمير المؤمنين أن يُظهر ما فعلاه ، وينشره ، ويُحْضِر جميع أوليائه ؛ ليسمعوا ذلك منهما طالبيْنْ راغبيْنْ ، طائعيْنْ غير مكرهيْنْ ولا مجبريْن ، ويُقْرَأ عليهم الرّقعتان اللتان رفعاهما بخطوطهما ، بما ذكرا من وقوع الأمر لهما من ولاية العهد ؛ وهما صبيان ، وخلعهما أنفسهما بعد بلوغهما ، وما سألا مِنْ صرفهما عن الأعمال التي يتوليانها وإخراج مَنْ كان بها ضمّ إليها في نواحيها من قُوّاد أمير المؤمنين وجنده وغلمانه وشاكريّته مَنْ مع أولئك القوّاد بالحضرة وخراسان وسائر النواحي عن رسومهما وإزالة ذكر الضمّ إليهما عنهم ، وأن يُكتب بالكتاب بذلك إلى جميع عمال النواحي .

وإنّ أمير المؤمنين وقف على صدقهما فيما ذكـروا ورفعا ، وتقدّم في إحضار جميع إخوته ومَنْ بحضرته من أهل بيته وقوّاده ومواليه وشيعته ورؤساء جنده وشـاكريّته وكتّابه وقضاته والفقهاء وغيرهم ؛ وسائر أوليائه الذين كانت وقعت البيعة لهما بذلك عليهم . وحضر أبو عبد الله وإبراهيم ابنا أمير المؤمنين المتوكل على الله رضي الله عنه ؛ وقرئت رقعتاهما بخطوطهما بحضرتهما ؛ إلى مجلس أمير المؤمنين عليهما وعلَى جميع من حضر ، وأعادا من القول بعد قراءة الرُّقعتين مثل الذي كتبا به .

ورأى أمير المؤمنين أن يجمع في إجابتهما إلى نشر ما فعلاه وإظهاره ، وإمضائه ذلك ، قضاءَ حقوق ثلاثة : منها حقّ الله عز وجل فيما استحفظه من خلافته ، وأوجب عليه من النظر لأوليائه فيما يجمع لهم كلمتَهم في يومهم وغدِهم ، ويؤلِّف بين قلوبهم . ومنها حقّ الرعيّة الذين هم ودائع الله عنده حتى يكون المتقلّد لأمورهم ممّن يراعيهم آناء الليل والنهار بعنايته ونظره وتفقّده وعدله ورأفته ، ومن يقوم بأحكام الله في خلقه ، ومن يضطلع بثقل السياسة وصواب التدبير . ومنها حقّ أبي عبدالله وإبراهيم فيما يُوجبه أمير المؤمنين لهما بإخوّتهما ومـاسّ رحمهما ؛ لأنهما لو أقاما على ما خرجا منه ؛ لم يؤمَن أن يؤدّيَ ذلك إلى ما يعظم في الدين ضرره ، ويعمّ المسلمين مكروهه ، ويرجع عليهما عظيم الوزر فيه ؛ فخلعهما أمير المؤمنين إذ خلعا أنفسهما من ولاية العهد ، وخلَعهما جميع إخوة أمير المؤمنين ومَنْ بحضرته من أهل بيته ، وخلَعهما جميع من حضر من قوّاد أمير المؤمنين ومواليه وشيعته ، ورؤسـاء جنده وشاكريّته وكتّابه وقضاته والفقهاء وغيرهم ممن سائر أولياء أمير المؤمنـين ؛ الذين كانت أُخِذَتْ لهما البيعة عليهم .

وأمر أمير المؤمنين بإنشاء الكتب بذلك إلى جميع العمال ، ليتقدّموا في العمل بحسب ما فيها ، ويخلعوا أبا عبدالله وإبراهيم مِنْ ولاية العهد ؛ إذ كانا قد خَلعا أنفسهما من ذلك ، وحلّلا الخاصّ والعامّ ، والحـاضر والغائب ، والدانيَ والقاصيَ منه ، ويسقطوا ذكرَهما بولاية العهد ، وذكْرَ ما نُسِبا إليه مِنْ نسب ولاية العهد من المعتزّ بالله والمؤيد بالله من كتبهم وألفاظهم ، والدعاء لهما على المنابر ، ويسقطوا كُلّ ما ثبت في دواوينهم من رُسومهما القديمة والحديثة الواقعة على مَنْ كان مضموماً إليهما ، ويزيلوا ما على الأعلام والمطارد من ذكرهما ؛ وما وسمت به دوابّ الشاكريّة والرابطة من أسمائهما . ومحلك من أمير المؤمنين وحالُك عنده على حسب ما أخلص الله لأمير المؤمنين من طاعتك ومناصحتك ، ومولاتك ومشايعتك ؛ ما أوجب الله لك بسلفك ونفسك ؛ وما عرف الله أمير المؤمنين من طاعتك ويُمْن نَقيبتك ، واجتهادك في قضاء الحق .

وقد أفردك أمير المؤمنين بقيادتك ، وإزالة الضمّ إلى أبي عبدالله عنك وعمّن في ناحيتك بالحضرة وسائر النواحي ، ولم يجعل أمير المؤمنين بينَك وبينه أحد يَرؤُسك ، وخرج أمره بذلك إلى ولاة دواوينه .

فاعلم ذلك واكتب إلى عُمّالك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، وأوعِزْ إليهم في العمل على حسبه . إن شاء الله ، والسلام .

وكتب أحمد بن الخصيب يوم السبت لعشر بقين من صفر سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وفي هذه السنة توفِّي المنتصر .

ذكر الخبر عن العلة التي كانت فيها وفاته والوقت الذي توفِّيَ فيه وقدر المدة التي كانت فيها حياته :

فأما العلّة التي كانت بها وفاته ؛ فإنه اختُلف فيها ، فقال بعضهم : أصابته الذّبحة في حَلْقه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول ، ومات مع صلاة العصر في يوم الأحد لخمس ليال خَلَوْن من شهر ربيع الآخر .

وقيل : تُوفِّيَ يوم السبت وقت العصر لأربع خلون من شهر ربيع الآخر ؛ وإن علّته كانت من ورم في معدتِه ، ثم تصعّد إلى فؤاده فمات ؛ وإنّ علّته كانت ثلاثة أيام أو نحوها .

وحدّثني بعضُ أصحابنا أنه كان وجد حرارة ، فدعا بَعْضَ مَنْ كان يتطبّب له ، وأمره بفَصْده ، ففصده بمبْضع مسموم ، فكان فيه منيته ، وإن الطبيب الذي فَصَده انصرف إلى منزله ، وقد وجد حرارةً ، فدعا تلميذاً له ؛ فأمره بفصْده ووضع مباضعه بين يديه ليتخيّر أجودها ؛ وفيها المبضع المسموم الذي فُصِد به المنتصر ؛ وقد نسيه فلم يجد التلميذ في المباضع التي وُضعت بين يديه مبضعاً أجود من المبضع المسموم ؛ ففصد به أستاذه وهو لا يعلم أمره ؛ فلمّا فصده به نظر إليه صاحبه فعُلم أنه هالك ؛ فأوصى من ساعته ، وهلك من يومه .

وقد ذكر أنه وُجد في رأسه علّة فقطّر ابن الطيفوريّ في أذنه دُهناً ، فورم رأسه ، وعوجل فمات . وقد قيل : إن ابن الطيفوريّ إنما سمّه في محاجمه .

قال أبو جعفر : ولم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لَدُنْ وَلِيَ إلى أن مات يقولون : إنما مدّة حياته ستة أشهر ، مدّة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه ، مستفيضاً ذلك على ألسن العامة والخاصة .

وذُكر عن يُسْر الخادم ؛ وكان ـ فيما ذكر ـ يتولى بيت المال للمنتصر في أيام إمارته ، أنه قال : كان المنتصر يوماً من الأيام في خلافته نائماً في إيوانه ؛ فانتبه وهو يبكي وينتحب ؛ قال : فهبته أن أسأله عن بكائه ، ووقفتُ وراء الباب ؛ فإذا عبدالله بن عمر البازيار قد وافى فسمع نحيبه وشهيقه ؛ فقال لي : ما له ؟ ويحك يا يسر ! فأعلمته أنه كان نائماً فانتبه باكياً ، فدنا منه ، فقال له : ما لك يا أمير المؤمنين تبكي لا أبكى الله عينك ؟! قال : ادنُ مني يا عبدالله ، فدنا منه فقال له : كنت نائماً ، فرأيت فيما يرى النائم كأنّ المتوكل قد جاءني ، فقال لي : ويلك يا محمد ! قتلتني وظلَمتني وغبنْتني في خلافتي ؛ والله لا تمتعت بها بعدي إلا أياماً يسيرة ، ثم مصيرك إلى النار . فانتبهتُ ؛ وما أملك عيني ولا جزَعي . فقال له عبدالله : هذه رؤيا ، وهي تصدق وتكذب ، بل يعمّرك ويسرّك الله ؛ فادع الآن بالنبيذ ، وخذ في اللهو ، ولا تعبأ بالرؤيا . قال : ففعل ذلك ، وما زال منكسراً إلى أن تُوِّفي .

وذكر أنّ المنتصر كان شاور في قتل أبيه جماعةً من الفقهاء ، وأعلمهم بمذاهبه ، وحكي عنه أموراً قبيحة كرهت ذكرها في الكتاب ، فأشاروا عليه بقتلِه ؛ فكان من أمره ما ذكرنا بعضه .

وذُكر عنه أنه لما اشتدّت به علّته ، خرجت إليه أمُّه فسألته عن حاله ، فقال : ذهبتْ والله مني الدنيا والآخرة .

قال إبراهيم بن جيش : حدثني موسى بن عيسى الكاتب ، كاتب عمي يعقوب وابن عمي يزيد ، أنّ المنتصر لما أفضت الخلافة إليه ، كان يُكثِر إذا سكر قتلَ أبيه المتوكل ، ويقول في الأتراك : هؤلاء قَتَلة الخلفاء ، ويذكر من ذلك ما تخوّفوه ، فجعلوا لخادم له ثلاثين ألف دينار على أن يحتال في سمّه ، وجعلوا لعليّ بن طيفور جملة ، وكان المنتصرُ يكثر أكل الكمثرى إذا قُدّمت إليه الفاكهة ، فعمد ابن طيفور إلى كمثّراة كبيرة نضيجة ، فأدخل في رأسها خلالة ، ثم سقاها سمّاً ، فجعلها الخادم في أعلى الكمثرى الذي قدّمه إليه ، فلما نظر إليها المنتصر أمره أن يَقْشِرها ويطعمه إياها ، فقشرها وقطعها ، ثم أعطاه قطعة قطعة حتى أتى عليها ، فلما أكلها وجد فترةً، فقال لابن طيفور: أجد حرارة، فقال: يا أمير المؤمنين؛ احتجم تبرأ من علّة الدّم، وقدّر أنه إذا خرج الدم قوي عليه السمّ . فحجم فحُمّ ، وغلظت علّته عليه . فتخوف هو والأتراك أن تطول علته ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ الحجامة لم يكن فيها ما قدّرْنا في عافيتك ، وتحتاج إلى الفَصد ، فإنه أنجح لما تريد ، فقال : أفعل ، ففَصده بمبضع مسموم ، ودهش ، فألقاه في مباضعه ـ وكان أحدّها وأجودها . ثم إن عليّ بن طيفور ، وجد حرارة ، فدعا تلميذاً له ليفصده ، فنظر في المباضع فلم يجد أحدّ منه ، ولا أخير ففصده ، فكانت منيته فيه .

وذكر عن ابن دهقانة أنه قال : كنا في مجلس المنتصر يوماً بعدما قتل المتوكل ، فتحدّث المسدود الطنبوريّ بحديث ، فقال المنتصر : متى كان هذا ؟ فقال : ليلة لاناهٍ ولا زاجر ؛ فأحفظَ ذلك المنتصر .

وذُكر عن سعيد بن سلمة النصرانيّ أنه قال : خرج علينا أحمد بن الخصيب مسروراً يذكر أن أمير المؤمنين المنتصر رأى في ليلة في المنام ؛ أنه صعد دَرَجَةً حتى انتهى إلى خمس وعشرين مِرْقاة منها ، فقيل له : هذا ملكك ؛ وبلغ الخبر ابنَ المنجّم ، فدخل عليه محمد بن موسى وعليّ بن يحيى المنجّم مهنئين له بالرؤيا ، فقال : لم يكن الأمر على ما ذكر لكم أحمد بن الخصيب ، ولكني حين بلغتُ آخر المراقي ، قيل لي : قف فهذا آخر عمرك ، واغتمّ لذلك غمّاً شديداً ، فعاش بعد ذلك أياماً تتمّة سنة ، ثمّ مات وهو ابن خمس وعشرين سنة .

وقيل : تُوُفي وهو ابن خمس وعشرين سنة وستة أشهر .

وقيل : بل كان عمره أربعاً وعشرين سنة ، وكانت مدة خلافته ستة أشهر في قول بعضهم ويومين .

وقيل : كانت ستة أشهر سواء .

وقيل : كانت مائة يوم وتسعة وسبعين يوماً .

وكان وفاته بسامرّا بالقصر المحدث ، بعد أن أظهر في إخوته ما أظهر بأربع وأربعين ليلة ، وذكر أنه لما حضرته الوفاة قال:

فما فَرِحَتْ نفسي بدُنْيا أخذتها ... ولكنْ إلى الربِّ الكريم أصيرُ

وصلّى عليه أحمد بن محمد بن المعتصم بسامرّا ؛ وبها كان مولده .

وكان أعينَ أقنى قصيراً جَيّد البَضعة . وكان ـ فيما ذكر ـ مهيباً .

وهو أول خليفة من بني العباس ـ فيما بعد ـ عرف قبره ؛ وذلك أن أمه طلبت إظهار قبره .

وكانت كنيته أبا جعفر واسم أمه حبشيّة وهي أمّ ولد روميّة .

ذكر بعض سيره

ذكر أن المنتصر لمّا وليَ الخلافة كان أول شيء أحدث من الأمور عَزْل صالح عن المدينة وتولية عليّ بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد إياها ؛ فذُكر عن عليّ بن الحسين ، أنه قال : دخلت عليه أودّعه ، فقال لي : يا عليّ ، إني أوجّهك إلى لحمي ودمي ـ ومدّ جِلْـد ساعِده ـ وقال : إلى هذا وجهتك ، فانظر كيف تكون للقوم ، وكيف تعاملهم ! يعني آل أبي طالب ، فقلت : أرجو أن أمتثل رأي أمير المؤمنين أيده الله فيهم إن شاء الله ، فقال : إذاً تسعد بذلك عندي .

وذُكر عن محمد بن هارون ، كاتب محمد بن عليّ برد الخيار وخليفته على ديوان ضياع إبراهيم المؤيد ، أنه أصيب مقتولاً على فراشه ، به عدّة ضربات بالسيف ، فأحضر ولدُه خادماً أسود كان له ووصيفاً ، ذكر أن الوصيف أقرّ على الأسود ، فأدخل على المنتصر ، وأحضِر جعفر بن عبد الواحد ، فسئل عن قتله مولاه ، فأقرّ به ، ووصَف فعله به وسبب قتله إياه ، فقال له المنتصر : ويلك ! لم قتلته ؟ فقال له الأسود : لما قتلتَ أنت أباك المتوكل ! فسأل الفقهاء في أمره ، فأشاروا بقتله . فضربِ عنقه وصلَبه ، عند خشبة بابك .

وفي هـذه السنة حكّم محمـد بن عمرو الـشـاري ، وخـرج بنـاحيـة المـوصـل، فـوجّـه إليـه المنتصر إسحاق بن ثابت الفرغانيّ ، فأخذه أسيراً مع عِدّة من أصحابه ، فقتِلوا وصُلبوا .

وفيها تحرّك يعقوب بن الليث الصفار من سِجستان ، فصار إلى هَرَاة .

وذكر عن أحمد بن عبدالله بن صالح صاحب المصلَّى أنه قال : كان لأبي مؤذّن ، فرآه بعض أهلنا في المنام كأنه أذَّن أذاناً لبعض الصَّلَوات ، ثم دنا من بيت فيه المنتصر ، فنادى : يـا محمد ، يـا منتصر ، إنَّ رَبَّك لبالمِرْصاد .

وذكر عن بُنان المغنّي ـ وكان فيما قيل أخصّ الناس بالمنتصر في حياة أبيه وبعد ما ولي الخلافة ـ أنه قال : سألت المنتصر أن يهب لي ثوبَ ديباج وهو خليفة ؛ فقال : أوَخير لك من الثوب الديباج ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تتمارض حتى أعودك ؛ فإنه سيهدَى لك أكثر من الثوب الديباج ؛ قال : فمات في تلك الأيام ، ولم يهب لي شيئاً .

وفي هذه السنة بويع بالخلافة أحمد بن محمد بن المعتصم .

خلافة أحمد بن محمد بن المعتصم وهو المستعين ويكنى أبا العباس

ذكر الخبر عن سبب ولايته والوقت الذي بويع له فيه:

ذُكر أنّ المنتصر لما توفّيَ؛ وذلك يوم السبت عند العصر لأربع خلوْن من شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وأربعين ومائتين، اجتمع الموالي إلى الهارونيّ يوم الأحد، وفيهم بُغا الصغير وبغا الكبير أوتامش ومَنْ معهم، فاستحلفوا قوّاد الأتراك والمغـاربة والأشـروسنيّة ـ وكـان الذي يستحلفهم عـليّ بن الحسين بن عبـد الأعلى

الأسكافيّ كاتب بغا الكبير ـ على أن يرضوْا بمن يرضى به بُغا الصغير وبغا الكبير أوتامش، وذلك بتدبير أحمد بن الخصيب، فحلف القوم وتشاوروا بينهم، وكرهوا أن يتولّى الخلافة أحدٌ من ولد المتوكل؛ لقتلهم أباه، وخوفهم أن يغتالهم مَنْ يتولى الخلافة منهم؛ فأجمع أحمد بن الخصيب ومَنْ حضر من الموالي على أحمد بن محمد بن المعتصم، فقالوا: لا نُخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم، وقد كانوا قبله ذكروا جماعة من بني هاشم؛ فبايعوه وقت العشاء الآخرة من ليلة الاثنين، لست خلوْن من شهر ربيع الآخر من السنة؛ وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ويكنى أبا العباس.

فاستكتب أحمد بن الخصيب، واستوزر أوتامش. فلما كان يوم الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر صار إلى دار العامة من طريق العمريّ بين البساتين، وقد ألبسوه الطويلة وزيّ الخلافة؛ وحمل إبراهيم بن إسحاق بين يديه الحربة قبل طلوع الشمس، ووافى واجن الأشروسنيّ باب العامة من طريق الشارع على بيت المال، فصفّ أصحابه صفين، وقام في الصفّ هو وعِدّة من وجوه أصحابه، وحضر الدار أصحابُ المراتب من ولد المتوكّل والعباسيين والطالبيّين وغيرهم ممن لهم مرتبة؛ فبيناهم كذلك، وقد مضى من النهار ساعة ونصف؛ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق؛ فإذا نحوٌ من خمسين فارساً من الشاكرية؛ ذكروا أنهم من أصحاب أبي العباس محمد بن عبد الله، ومعهم قوم من فرسان طَبريّة وأخلاط من الناس ومعهم من الغَوْغاء والسوقة نحو من ألف رجل؛ فشهروا السلاح، وصاحوا: يا معتزّ يا منصور، وشدّوا على صفَّي الأشروسنيّة اللّذين صفَّهما واجن، فتضعضعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، ونفر من على باب العامة من المبيّضة مع الشاكريّة، فكثروا، فشدّ عليهم المغاربة والأشروسنيّة، فهزموهم حتى أدخلوهم الدّرْب الكبير المعروف بزُرافة وعَزُّون. وحمل قوم منهم على المعتزّية، فكشفوهم؛ حتى جاوزوا بهم دار أخِي عَزّون بن إسماعيل وهم في مضيق الطريق، فوقف المعتزّية هنالك، ورمى الأشر وسنيةعدّة منهم بالنّشاب، وضربوهم بالسيوف، ونشبت الحرب بينهم؛ وأقبلت المعتزّية والغوغاء يكبّرون؛ فوقعت بينهم قتلى كثيرة؛ إلى أن مضى من النهار ثلاث ساعات. ثم انصرف الأتراك وقد بايعوا أحمد بن محمد بن المعتصم؛ وانصرفوا مما يلي العمريّ والبساتين، وأخذ الموالي قبل انصرافهم البَيْعة على منْ حضر الدار من الهاشميين وغيرهم وأصحاب المراتب. وخرج المستعين من باب العامّة منصرفاً إلى الهارونيّ، فبات هنالك. ومضى الأشروسنيّة إلى الهارونيّ، وقد قُتِل من الفريقين عدَدٌ كثير، ودخل قوم من الأشروسنيّة دوراً، فظفرت بهم الغوغاء، فأخذوا دروعهم وسلاحهم وجواشنهم ودوابّهم، ودخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة منصرفين إلى الهارونيّ، فانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح والدروع والجواشن واللجم المغربية وأكثروا منها؛ وربّما مرّ أحدهم بالجواشن والحِراب فأكثر، وانتهبوا في دار أرمش بن أبي أيوب بحضرة أصحاب الفقّاع تراس خيزران وقناً بلا أسنّة؛ فكثرت الرّماح والتراس في أيدي الغوغاء وأصحاب الحمامات وغلمان الباقِلّي، ثم جاءتهم جماعة من الأتراك منهم بُغا الصغير من درب زُرافة، فأحلّوهم من الخزانة، وقتلوا منهم عدة، وأمسكوا قليلا. ثم انصرف الفريقان، وقد كثرت القتلى بينهم؛ وأقبل الغوغاء لا يمرّ أحد من الأتراك من أسافل سامُرّا يريد باب العامة إلّا انتهبوا سلاحه، وقتلوا جماعة منهم عند دار مبارك المغربي، وعند دار حبش أخي يعقوب قوصرة في شوارع سامُرّا، وعامّة من انتهب ـ فيما ذكر ـ هذا السلاح أصحاب الفقّاع والناطف وأصحاب الحمّامات والسقاؤون وغوغاء الأسواق؛ فلم يزل ذلك أمرهم إلى نصف النهار، وتحرّك أهل السجن بسامرّا في هذا اليوم، فهرب منهم جماعة، ثم وضع العطاء على البيعة، وبعث بكتاب البيعة إلى محمد بن

عبد الله بن طاهر في اليوم الذي بويع له فيه، وكان وصوله إلى محمد في اليوم الثاني، ووافى به أخ لأتامش ومحمد بن عبد الله في نزهة له، فوجّه الحاجب إليه، وأعلمه مكانه، فرجع من ساعته، وبعث إلى الهاشميّين والقوّاد والجند، ووضع لهم الأرزاق.

وورد في هذه السنة على المستعين وفاة طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان في رجب، فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر على خراسان، ولمحمد بن عبد الله على العراق، وجعل إليه الحرَمين والشرْطة ومعاون السواد برأسه وأفرده به، وعقد في الجوسق لمحمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر على خراسان والأعمال المضمومة إليها خاصّة يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من شعبان.

ومرض بُغا الكبير في جمادى الآخرة، فعاده المستعين في النصف منها، ومات بغا من يومه، فعقد لموسى ابنه على أعماله وعلى أعمال أبيه كلّها. ووليِّ ديوان البريد.

وفي هذه السنة وجّه أنوجو التركيّ إلى أبي العمود الثعلبيّ، فقتله يوم السبت بكَفَرْ توثَى لخمس بقين من شهر ربيع الآخر.

وفيها خرج عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الحجّ؛ فوجّه خلفه رسول من الشيعة اسمه شعيب بنفيه إلى بَرْقة، ومنعه من الحجّ.

وفيها ابتاع المستعين من المعتزّ والمؤيد في جمادى الأولى منها جميع ما كان لهما، خلا شيئاً استثنى منه المعتزّ قيمته مائة ألف دينار، وأخذ له ولإبراهيم غلة بثمانين ألف دينار في السنة؛ فلما كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان ابتيع من المعتز والمؤيد جميعُ ما لهما من الدّور والمنازل والضّياع والقصور والفُرش والآلة وغير ذلك بعشرين ألف دينار، وأشهدا عليهما بذلك الشهود والعُدول والقضلة وغيرهم. وقيل: ابتيع ما لهما من الضياع وترك إلى أبي عبد الله ما يكون غلّته من العَين في السنة عشرين ألف دينار، ولإبراهيم ما تبلغ قيمة غلّته في السنة خمسة آلاف دينار؛ فكان ما ابتيع من أبي عبد الله بعشرة آلاف ألف دينار وعشر حبّات لؤلؤ، ومن إبراهيم بثلاثة آلاف ألف درهم وثلاث حبات لؤلؤ؛ وأشهدا عليهما بذلك الفقهاء والقضاة. وكان الشّراء باسم الحسن بن مخلد للمستعين، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين وحُبِسا في حجرة الجوسق، ووُكِّل بهما؛ وجعل أمرهما إلى بُغا الصغير؛ وكان الأتراك قد أرادوا حين شغَّب الغوغاء والشاكريّة قتلهما؛ فمنعهم من ذلك أحمد بن الخصيب، وقال: ليس لهما ذنب ولا المشغِّبة من أصحابهما، وإنما المشغِّبة من أصحاب ابن طاهر، ولكن احبسوهما فحُبسا.

وفيها غضب الموالي على أحمد بن الخصيب؛ وذلك في جُمادى الأولى منها، واستصفي ماله ومال ولده، ونُفي إلى أقريطش.

وفيها صرف عليّ بن يحيى عن الثغور الشاميّة، وعقد له على إرمينيَة وأذْرَبيجان في شهر رمضان من هذه السنة.

وفيها شَغَّب أهلُ حمص على كيدر بن عبيد الله عامل المستعين عليها فأخرجوه منها، فوجّه إليهم الفضل بن قارن، فمكَر بهم حتى أخذهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل منهم مائة رجل من عيونهم إلى سامرّا،

وهدم سورهم .

وفيها غزا الصائفة وصيف، وكان مقيماً بالثغر الشأميّ حتى ورد عليه موت المنتصر، ثم دخل بلاد الروم؛ فافتتح حصناً يقال له فرورية، وعقد المستعين فيها لأوتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيراً.

وفيها عقد لبُغا الشرابيّ على حُلْوان وما سبذان ومهرجان قَذق، وصيّر المستعين شاهك الخادم على دارِه وكُراعه وحرمه وخزائنه وخاصّ أموره وقدّمه أوتَامش على جميع الناس.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان الزينبيّ .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك غزو جعفر بن دينار الصائفة، فافتتح حصناً ومطامير، واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع في المصير إلى ناحية من بلاد الرّوم؛ فأذن له؛ فسار ومعه خلْق كثير من أهل مَلَطْيَة، فلقيه الملك في جمْع من الروم عظيم بموضع، يقال له أرز من مَرْج الأسقفّ، فحاربه بمَنْ معه محاربة شديدة، قتِل فيها خلق كثير من الفريقين، ثم أحاطت به الرُّوم وهم خمسون ألفاً، فقتل عمر وألفا رجل من المسلمين؛ وذلك في يوم الجمعة للنِّصف من رجب.

وفيها قتل عليّ بن يحيى الأرمنيّ.

ذكر الخبر عن سبب قتله:

ذُكر أن الروم لما قتلت عمر بن عبيد الله، خرجوا إلى الثغور الجزريّة، وكلبوا عليها وعلى حرم المسلمين بها، فبلغ ذلك عليّ بن يحيى وهو قافل من إرمينيَة إلى ميّافارِقين، فنفر إليهم في جماعة من أهل مَيّافارِقين والسلسلة، فقُتل في نحو من أربعمائة رجل، وذلك في شهر رمضان.

وشغب الجند والشاكريّة ببغداد في هذه السنة في أوّل يوم من صفر.

ذكر الخبر عن السبب في ذلك:

وكان السبب في ذلك أنّ الخبر لما اتّصل بأهل مدينة السلام وسامرًّا وسائر ما قرب منهما من مُدُن الإسلام بمقتل عمر بن عبيد الله الأقطع وعليّ بن يحيى الأرمنيّ - وكانا نابين من أنياب المسلمين، شديداً بأسهما، عظيماً غَناؤهما عنهم في الثغور التي هما بها - شقّ ذلك عليهم، وعظم مقتلُهما في صدورهم، مع قُرب مقتل أحدهما من مقتَل الآخر، ومع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتْلَ المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء، واستخلافهم من أحبّوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة، ولا نظر للمسلمين، فاجتمعت العامة ببغداد بالصُّراخ والنداء بالنفير، وانضمت إليها الأبناء والشاكريّة تُظهر أنها تطلب الأرزاق؛ وذلك أوّل يوم من صفر، ففتحوا سجن نصر بن مالك، وأخرجوا مَنْ فيه وفي القنطرة بباب الجسر؛ وكان فيها جماعة - فيما ذكر - من رفوغ خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمّرة وغيرهم، وقطعوا أحد الجسرين وضربوا الآخر بالنار، وانحدرت سُفُنه، وانتُهب ديوان قصص المحبّسين، وقطعت الدفاتر، وألقيت في الماء، وانتهبوا دار بشر وإبراهيم ابني هارون النصرانيّين كاتبي محمد بن عبد الله؛ وذلك كله بالجانب الشرقيّ من بغداد. وكان والي الجانب الشرقي حينئذ أحمد بن محمد بن خالد بن هرثمة. ثم أخرج أهلُ اليسار من أهل

بغداد وسامُرّا أموالا كثيرة من أموالهم، فقوّوا مَن خفَّ للنهوض إلى الثغور لحرب الرّوم بذلك؛ وأقبلت العامة من نواحي الجبل وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم؛ فلم يبلغنا أنه كان من نواحي الجبل وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم؛ فلم يبلغنا أنه كان للسلطان فيما كان من الرّوم إلى المسلمين من ذلك تغيير، ولا توجيه جيش إليهم لحربهم في تلك الأيام.

ولتسع بقِين من شهر ربيع الأول، وثب نفر من النَّاس لا يُدْرَى مَنْ هم يوم الجمعة بسامُرّا، ففتحوا السجن بها، وأخرجوا مَنْ فيه، فوجّه في طلب النَّفر الذين فعلوا ذلك زُرافة في جماعة من الموالي، فوثبت بهم العامّة فهزموهم، ثم ركب في ذلك أوتامش ووصيف وبُغا وعامة الأتراك، فقتلوا من العامة جماعة، وأُلْقِيَ على وصيف - فيما ذكر لي - قدر مطبوخ، ويقال: بل رماه قوم من العامة عند السريجة بحجر؛ فأمر وصيف النفاطين، فقذفوا ما هنالك من حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار؛ فأنا رأيت ذلك الموضع محترقاً؛ وذلك بسامرّا عند دار إسحاق.

وذُكر أن المغاربة انتهبتْ منازل جماعة من العامة في ذلك اليوم، ثم سكن الأمر في آخر ذلك اليوم، وعُزل بسبب ما كان من العامة والنفر الذي ذكرت في ذلك اليوم من الحركة، أحمد بن جميل عمّا كان إليه من المعونة بسامُرّا، وولي مكانه إبراهيم بن سهل الدّراج.

وفي هذه السنة قُتِل أوتامش وكاتبه شجاع بن القاسم؛ وذلك يوم السبت لأربع عشرة خلوْن من شهر ربيع الآخر منها.

ذكر الخبر عن سبب مقتله:

ذُكر أن المستعين لما أفضت إليه الخلافة، أطلق يد أوتامش وشاهَك الخادم في بيوت الأموال، وأباحهما فِعْل ما أرادا فعله فيها، وفعل ذلك أيضاً بأمّ نفسه؛ فلم يمنعها من شيء تريده؛ وكان كاتبها سلمة بن سعيد النصرانيّ، وكانت الأموال التي ترد على السلطان من الآفاق إنما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة الأنفس، فعمِد أوتامش إلى ما في بيوت الأموال من الأموال فاكتسحه؛ وكان المستعين قد جعل ابنه العباس في حجْر أوتامش؛ فكان ما فضَل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة الأنفس يؤخذ للعباس، فيصرَف في نفقاته وأسبابه - وصاحب ديوان ضياعه يومئذ دُلَيْل - فاقتطع من ذلك أموالاً جليلة لنفسه؛ وجعلت الموالي تنظر إلى الأموال تُستهلك؛ وهم في ضِيقة، وجعل أوتامش وهو صاحب المستعين وصاحب أمره، والمستولي عليه يُنفِذُ أمور الخلافة؛ ووصيف وبُغا من ذلك كلِّه بمعزل، فأغريا الموالي به، ولم يزالا يدبّران الأمر عليه حتى أحكما التدبير، فتذمّرت الأتراك والفراغنة على أوتامش، وخرج إليه منهم يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من هذه السنة أهل الدُّور والكرْخ، فعسكروا وزحفوا إليه وهو في الجَوْسق مع المستعين.

وبلغه الخبر، فأراد الهرب، فلم يمكنه، واستجار بالمستعين فلم يجِرْه فأقاموا على ذلك من أمرهم يوم الخميس ويوم الجمعة؛ فلما كان يوم السبت دخلوا الجوسق، فاستخرجوا أوتامش من موضِعه الذي تَوارى فيه، فقتِل وقتل كاتبهُ شجاع بن القاسم، وانتهبت دار أوتامش، فأخذ منها - فيما بلغني - أموالٌ جليلة ومتاع وفرش وآلة.

ولما قُتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وعزل الفضل بن مَروان عن

ديوان الخراج، ووليه عيسى بن فرّخانشاه، وولي وصيف الأهواز، وبغا الصغير فلَسطين في شهر ربيع الآخر. ثم غضب بغا الصغير وحزبُه على أبي صالح بن يزداد، فهرب أبو صالح إلى بغداد في شعبان، وصيّر المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجرائي؛ فصيّر ديوان الرسائل إلى سعيد بن حُميد رياسةً، فقال في ذلك الحمدونيّ:

لَبِسَ السَّيفَ سعيدٌ بعدما عاشَ ذا طِمْرَيْنِ لا نَوْبَةَ لَهْ
إنَّ للهِ لآياتٍ وذا آيةٌ للهِ فينا مُنزَلَهْ

وفيها قُتِل عليّ بن الجهم بن بدر؛ وكان سبب ذلك أنه توجّه من بغداد إلى الثغر، فلما كان بقرب حلَب بموضع يقال له خساف؛ لقيته خيل لكلْب، فقتلته، وأخذ الأعراب ما كان معه، فقال وهو في السياق:

أزِيدَ في الليلِ لَيْلُ أمْ سالَ بالصبحِ سَيْلُ
ذكرْتُ أهلَ دُجَيْلٍ وأينَ مني دُجَيْلُ!

وكان منزله في شارع الدّجيل.

وفيها عزل جعفر بن عبد الواحد عن القضاء، ووليه جعفر بن محمد بن عمار البرجميّ من أهل الكوفة؛ وقد قيل إن ذلك في سنة خمسين ومائتين.

وفيها أصاب أهل الريّ في ذي الحجة زلزلة شديدة ورجْفة تهدّمت منها الدور ومات خلق من أهلها وهرب الباقون من أهلها من المدينة؛ فنزلوا خارجها.

ومُطر أهل سامرّا يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الأولى؛ وذلك يوم السادس عشر من تمُّوز مطرٌ جَوْد برعد وبرق، فأطبَق الغيم ذلك اليوم؛ ولم يزل المطر جوْداً سائلا يومئذ إلى اصفرار الشمس ثم سكن.

وتحرّكت المغاربة في هذه السنة يوم الخميس لثلاث خلون من جمادى الأولى، وكانوا يجتمعون قرب الجسر بسامُرّا، ثم تفرّقوا يوم الجمعة.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام وهو والي مكة.

ثم دخلت سنة خمسين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ المكنى بأبي الحسين بالكوفة، وفيها كان مقتله رضي الله عنه.

ذكر الخبر عن سبب ظهوره وما آل إليه أمره:

ذُكِر أنّ أبا الحسين يحيى بن عمر ـ وأمّه أم الحسين فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ـ نالتْه ضيقة شديدة، ولزمه دَيْن ضاق به ذرعاً، فلقي عمرَ بن فرج ـ وهو يتولّى أمر الطالبيين ـ عند مقدَمه من خراسان أيام المتوكل، فكلّمه في صلته، فأغلظ عليه عمر القول؛ فقذفه يحيى بن عمر في مجلسه، فحُبِس، فلم يزل محبوساً إلى أن كفر به أهلُه، فأطلِق، فشخص إلى مدينة السلام، فأقام بها بحال سيّئة، ثم صار إلى سامُرّا، فلقي وصيفاً في رِزْق يُجرَى له، فأغلظ له وصيفٌ في القول، وقال: لأيّ شيء يُجرى على مثلك! فانصرف عنه.

فذكر ابن أبي طاهر أن ابن الصوفيّ الطالبيّ حدّثه، أنه أتاه في الليلة التي كان خروجه في صبيحتها، فبات عنده، ولم يعلمه بشيء مما عزم عليه؛ وأنه عرض عليه الطَّعام، وتبيّنّ فيه أنه جائع، فأبى أن يأكل، وقال: إنْ عشنا أكلنا، قلنا: فتبيّنت أنه قد عزم على فتكة؛ وخرج من عندي؛ فجعل وجهه إلى الكوفة؛ وبها أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان عاملاً عليها من قِبَل محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فجمع يحيى بن عمر جَمْعاً كثيراً من الأعراب، وضوى إليه جماعة من أهل الكوفة؛ فأتى الفَلُّوجة؛ فصار إلى قرية تعرف بالعمد؛ فكتب صاحب البريد بخبره؛ فكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أيوب بن الحسن وعبد الله بن محمود السرخسيّ ـ وكان عامل محمد بن عبد الله على معاون السواد ـ يأمرهما بالاجتماع على محاربة يحيى بن عمر ـ وكان على الخراج بالكوفة بدر بن الأصبغ ـ فمضى يحيى بن عمر في سبعة نفر من الفرسان إلى الكوفة فدخلها، وصار إلى بيت مالها؛ فأخذ ما فيه؛ والذي وُجد فيه ألفا دينار وزيادة شيء، ومن الورِق سبعون ألف درهم؛ وأظهر أمره بالكوفة وفتح السجنين، وأخرج جميع ما كان فيهما؛ وأخرج عمّالها عنها، فلقيه عبدالله بن محمود السرخسيّ ـ وكان في عداد الشاكريّة، فضربه يحيى بن عمر ضربةً على قُصاص شعره في وجهه أثْخنته؛ فانهزم ابن محمود مع أصحابه، وحوى يحيى ما كان مع ابن محمود من الدوابّ والمال.

ثم خرج يحيى بن عمر من الكوفة إلى سوادها، فصار إلى موضع يقال له بستان ـ أو قريباً منه ـ على ثلاثة

فراسخ من جُنْبلاء؛ ولم يقم بالكوفة، وتبعتْه جماعة من الزيديّة، واجتمعت على نُصرته جماعة من قرب من تلك الناحية من الأعراب وأهل الطُّفوف والسِّيب الأسفل، وإلى ظهر واسط. ثم أقام بالبستان، فكثر جمعُه، فوجّه محمد بن عبد الله لمحاربته الحسينَ بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب، وضمّ إليه من ذَوِي البأس والنجدة من قوّاده جماعة؛ مثل خالد بن عمران وعبد الرحمن بن الخطاب المعروف بوجه الفَلْس، وأبي السناء الغَنَويّ، وعبد الله بن نصر بن حمزة، وسعد الضِّبابيّ، ومن الإسحاقية أحمد بن محمد بن الفضل وجماعة من خاصّة الخراسانية وغيرهم.

وشخص الحسين بن إسماعيل، فنزل بإزاء هَفَنْدَى في وجه يحيى بن عمر، لا يقدم عليه الحسين بن إسماعيل ومَنْ معه؛ وقصد يحيى نحو البحرية ـ وهي قرية بينها وبين قُسِّين خمسة فراسخ، ولو شاء الحسين أن يلحقه لحقه ـ ثم مضى يحيى بن عمر في شرقيّ السِّيب والحسين في غربيّه، حتى صار إلى أحمد أباذ فعبر إلى ناحية سُورا، وجعل الجند لا يلحقون ضعيفاً عجز عن اللحاق بيحيى إلا أخذوه، وأوقعوا بمن صار إلى يحيى بن عمر من أهل تلك القرى.

وكان أحمد بن الفرج المعروف بابن الفزاريّ يتولى معونة السِّيب لمحمد بن عبد الله، فحمل ما اجتمع عنده من حاصل السِّيب قبل دخول يحيى بن عمر أحمد أباذ، فلم يظفر به.

ومضى يحيى بن عمر نحو الكوفة، فلقيَه عبد الرحمن بن الخطاب وَجْهُ الفَلْس، فقاتله بقرب جسر الكوفة قتالاً شديداً، فانهزم عبد الرحمن بن الخطاب، وانحاز إلى ناحية شاهي، ووافاه الحسين بن إسماعيل، فعسكر بها، ودخل يحيى بن عمر الكوفة، واجتمعت إليه الزيديّة، ودعا إلى الرضا من آل محمد وكثفَ أمره، واجتمعت إليه جماعة من الناس وأحبّوه، وتولّاه العامة من أهل بغداد ـ ولا يُعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره ـ وبايعه بالكوفة جماعة لهم بصائر وتدبير في تشيُّعهم؛ ودخل فيهم أخلاط لا ديانة لهم.

وأقام الحسين بن إسماعيل بشاهي، واستراح وأراح أصحابه دوابَّهم، ورجعت إليهم أنفسهم، وشربوا العذب من ماء الفُرات؛ واتّصلت بهم الأمداد والمِيرة والأموال. وأقام يحيى بن عمر بالكوفة يعدّ العدد، ويطبع السيوف، ويعرض الرجال، ويجمع السلاح.

وإن جماعة من الزيديّة ممّن لا علم له بالحرب، أشاروا على يحيى بمعالجة الحسين، وألحّت عليه عوامّ أصحابه بمثل ذلك، فزحف إليه من ظهر الكوفة من وراء الخندق ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من رجب، ومعه الهيضَم العِجليّ، في فرسان من بني عِجْل وأناس من بني أسد ورجّالة من أهل الكوفة ليسوا بذوي علْم ولا تدبير ولا شجاعة، فأسْرَوْا ليلتهم؛ ثم صبّحوا حسيناً وأصحابَه ـ وأصحابُ حسين مستريحون ومستعدّون ـ فثاروا إليهم في الغَلَس فرموا ساعة، ثم حمل عليهم أصحاب الحسين فانهزموا، ووُضع فيهم السيف؛ فكان أوّل أسير الهيضم بن العَلاء بن جمهور العِجليّ، فانهزم رجّالةُ أهل الكوفة، وأكثرهم عُزْل بغير سلاح، ضَعْفى القوى، خلقان الثياب؛ فداستهم الخيل، وانكشف العسكر عن يحيى بن عمر، وعليه جوشن تُبَّتِيّ، وقد تقطّر به البرذون الذي أخذه من عبد الله بن محمد، فوقف عليه ابنٌ لخالد بن عمران يقال له خير؛ فلم يعرفه، وظنّ أنه رجل من أهل خراسان؛ لمّا رأى عليه الجوشن. ووقف عليه أيضاً أبو الغور بن خالد بن عمران، فقال لخير بن خالد: يا أخي، هذا والله أبو الحسين قد انفرج قلبُه، وهو نازل لا يعرف القصّة لانفراج قلبه، فأمر

خير رجلاً من أصحابه المواصلين من العرَفاء يقال له مُحْسِن بن المنتاب، فنزل إليه فذَبَحه، وأخذ رأسه وجعله في قَوْصرة، ووجّهه مع عمر بن الخطاب، أخي عبد الرحمن بن الخطاب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر.

وادّعى قتلَه غير واحد، فذكر عن العرس بن عراهم أنهم وجدوه باركاً، ووجدوا خاتمه مع رجل يعرف بالعسقلانيّ مع سيفه، وادّعى أنه طعنه وسلبَه، وادّعى سعد الضِّبابيّ أنه قتله.

وذكر عن أبي الحسين خال أبي السناء أنه طعن في الغَلَس رجلا في ظهره لا يعرفه، فأصابوا في ظهر أبي الحسين طعنة ولا يُدْرَى مَنْ قتله، لكثرة من ادّعاه، وورد الرأس دار محمد بن عبد الله بن طاهر، وقد تغبّر، فطلبوا مَنْ يقوّر ذلك اللحم، ويخرِج الحدَقة والغَلْصمة، فلم يوجد، وهرب الجزّارون، وطُلب ممن في السجن من الخرّمية الذبّاحين من يفعل ذلك فلم يقدم عليه أحد، إلا رجل من عمال السجن الجديد، يقال له سهل بن الصغديّ، فإنه تولى إخراج دماغه وعينيه وقوّره بيديه، وحُشي بالصبر والمسك والكافور بعد أن غسل وصُيِّر في القطن. وذكر أنهم رأوا بجنبيه ضربة بالسيف منكرة.

ثم إنّ محمد بن عبد الله بن طاهر أمر بحمل رأسه إلى المستعين من غد اليوم الذي وافاه فيه، وكتب إليه بالفتح بيده، ونصب رأسه بباب العامّة بسامُرّا، واجتمع الناس لذلك، وكثروا وتذمَّرُوا، وتولَّى إبراهيم الديرج نَصْبَه؛ لأن إبراهيم بن إسحاق خليفة محمد بن عبد الله أمرَهَ فنصبه لحظة، ثم حُطّ، وردّ إلى بغداد لينصب بها بباب الجسر، فلم يتهيّأ ذلك لمحمد بن عبد الله لكثرة مَن اجتمع من الناس وذُكر لمحمد بن عبد الله أنهم على أخذه اجتمعوا، فلم ينصبه، وجعله في صندوق في بيت السلاح في داره، ووجّه الحسين بن إسماعيل بالأسرَى ورؤوس مَنْ قتل معه مع رجل يقال له أحمد بن عصمويه، ممّن كان مع إسحاق بن إبراهيم، فكدّهم وأجاعهم وأساء بهم؛ فأمر بهم فحبِسوا في سجن الجديد، وكتب فيهم محمد بن عبد الله يسأل الصفح عنهم، فأمر بتخليتهم، وأن تدفن الرؤوس ولا تُنصب، فدفنت في قصر بباب الذهب.

وذُكِر عن بعض الطاهريّين أنه حضر مجلس محمد بن عبد الله وهو يُهنّأ بمقتل يحيى بن عمر وبالفتح وجماعة من الهاشميين والطالبيّين وغيرهم حضور؛ فدخل عليه داود بن القاسم أبو هاشم الجعفريّ فيمن دخل، فسمعهم يهنّئونه، فقال: أيها الأمير؛ إنك لتُهنّأ بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حيًّا لَعُزِّيَ به! فما ردّ عليه محمد بن عبد الله شيئاً؛ فخرج أبو هاشم الجعفريّ، وهو يقول:

يا بَني طاهرٍ كُلُوهُ وَبِيًّا ... إن لحمَ النبيِّ غيرُ مَريِّ
إنَّ وِتراً يكونُ طالِبَهُ اللـ ... ـهُ لَوِترٌ نجاحُهُ بالحَرِيِّ

وكان المستعين قد وجّه كلباتكين مدداً للحسين ومستظهراً به، فلحق حسيناً بعد ما هُزم القوم وقتل يحيى بن عمر، فمضى ومعهم صاحب بريد الكوفة فلقيَ جماعة ممّن كان معه يحيى بن عمر، ومعهم أسوقة وأطعمة يريدون عسكر يحيى؛ فوضع فيهم السَّيْف فقتلهم، ودخل الكوفة؛ فأراد أن ينهبها ويضعَ السيف في أهلها، فمنعه الحسين وآمن الأسودَ والأبيض بها؛ وأقام أياماً ثم انصرف عنها.

وفي هذه السنة كان خروج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب في شهر رمضان منها.

ذكر الخبر عن سبب خروجه:

حدّثني جماعة من أهل طَبرِستان وغيرهم؛ أنّ سبب ذلك كانَ أنّ محمد بن عبد الله بن طاهر لّما جرى على يده ما جرى من قَتْل يحيى بن عمر، ودخول أصحابه وجيشه الكوفةَ بعد فراغهم من قَتْل يحيى، أقطعه المستعين من صوافي السلطان بطبرستان قطائعَ؛ وأن من تلك القطائع التي أقطعها قطيعة فيما قرب من ثَغْرَيْ طبرستان مما يلي الدَّيْلَم؛ وهما كلار وسالوس، كان بحذائها أرض لأهْل تلك الناحية فيها مرافق، منها مُحْتَطبهم ومراعي مواشيهم ومسرح سارِحتهم؛ وليس لأحد عليها مُلْك؛ وإنما هي صحراء من موتان الأرض؛ غير أنها ذات غياض وأشجار وكلأ.

فوجّه - فيما ذكر لي - محمد بن عبد الله بن طاهر أخاً لكاتبه بشر بن هارون النصرانيّ يقال له جابر بن هارون، لحيازة ما أقطع هنالك من الأرض، وعامل طَبَرستان يومئذ سليمان بن عبد الله خليفة محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، أخو محمد بن عبد الله بن طاهر، والمستولي على سليمان، والغالب على أمره محمد بن أوس البلخيّ؛ وقد فرّق محمد بن أوس ولده في مدن طَبرستان؛ وجعلهم ولاتها، وضمّ إلى كلّ واحد منهم مدينة منها؛ وهم أحداث سُفَهاء؛ قد تأذّى بهم وبسفههم مَنْ تحت أيديهم من الرعيّة واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفَههم وسيرَهم فيهم، وغلظ عليهم سوءُ أثرهم فيهم؛ بِقصَص يطول الكتاب بشرح أكثرها.

ووتَر مع ذلك - فيما ذُكر لي - محمد بن أوس الديلم بدخوله إلى ما قرب من بلادهم من حدود طِبرستان؛ وهم أهل سِلْم وموادعة لأهل طَبرستان على اغترار من الدّيلم بما يلتمس بدخوله إليهم بغارة، فسبَى منهم وقتل، ثم انكفأ راجعاً إلى طَبرستان، فكان ذلك مما زاد أهل طبرستان عليه حَنَقاً وغيظاً، فلما صار رسول محمد بن عبد الله - وهو جابر بن هارون النصرانيّ - إلى طبرستان لحيازة ما أقْطِعه هنالك محمد، عمد - فيما قيل لي - جابر بن هارون إلى ما أقطِع محمد بن عبد الله من صَوافي السلطان فحازه، وحاز ما اتّصل به من موات الأرض التي يَرْتفِق بها أهل تلك الناحية - فيما ذُكر فكان فيما رام حيازته من ذلك المواتُ الذي يقرب من الثغريْن اللذين يسمى أحدهما كلار والآخر سالوس؛ وكان في تلك الناحية يومئذ رجلان معروفان بالبأس والشجاعة، وكانا مذكورين قديماً بضبط تلك الناحية ممن رامها من الدَّيْلم، وبإطعام الناس بها وبالإفضال عن مَنْ ضوى إليهما، يقال لأحدهما محمد وللآخر جعفر؛ وهما ابنا رستم أخوان؛ فأنكرا ما فعل جابر بن هارون من حيازته المَوات الذي وصفت أمره، ومانعاه ذلك.

وكان ابنا رستم في تلك الناحية مُطاعين فاستنهضا مَنْ أطاعهما ممّن في ناحيتهما لمنع جابر بن هارون من حيازة ما رام حيازَته من الموات الذي هو مَرْفق لأهل تلك الناحية - فيما ذُكر - وغير داخل فيما أقطعَه صاحبه محمد بن عبد الله، فنهضوا معهما، وهرب جابر بن هارون خوفاً على نفسه منهما وممن قد نهض معهما، لإنكار ما رام جابر النصراني فعلَه. فلحق بسليمان بن عبد الله بن طاهر، وأيقن محمد وجعفر ابنا رستم ومَنْ نهض معهما في منع جابر عما حاول من حيازة ما حاول حيازته من الموات الذي ذكرتُ بالشرّ، وذلك أن عامل طبرستان كلّها سليمان بن عبد الله؛ وهو أخو محمد بن عبد الله بن طاهر وعمّ محمد بن طاهر بن عبد الله عامل المستعين على خُراسان وطبرستان والرّيّ والمشرق كله يومئذ.

فلما أيقن القوم بذلك، راسلوا جيرانهم الدّيْلم، وذكّروهم وفاءهم لهم بالعهد الذي بينهم وبينهم، وما ركبهم به محمد بن أوس من الغدر والقتل والسبْي، وأنهم لا يأمنون من ركوبه إياهم بمثل الذي ركبهم به، ويسألونهم مظاهرتهم عليه وعلى مَنْ معه؛ فأعلمهم الديلم أنّ ما يلي أرضَهم من جميع نواحيها من الأرضين والبلاد؛ إنما عمّالُها إمّا عمال لطاهر؛ وإمّا عمال مَنْ يتّخذ آل طاهر إن احتاجوا إلى إنجادهم؛ وإن ما سألوا من معاونتهم لا سبيل لهم إليه إلا بزوال الخوْف عنهم من أن يُؤتَوا من قبل ظهورهم إذا هم اشتغلوا بحرْب من بين أيديهم من عمال سليمان بن عبد الله؛ فأعلمهم الذين سألوهم المظاهرة على حَرْب سليمان وعماله أنهم لا يغفلون عن كفايتهم ذلك؛ حتى يأمنوا مما خافوا منه. فأجابهم الدّيلم إلى ما سألوهم من ذلك، وتعاقدوا هم وأهل كلار وسالوس على معاونة بعضهم بعضاً على حَرْب سليمان بن عبد الله وابن أوس وغيرهم ممن قصدهم بحرب.

ثم أرسل ابنا رستم محمد وجعفر - فيما ذكر - إلى رجل من الطالبيّين المقيمين كانوا يومئذ بطبَرستان، يقال له محمد بن إبراهيم، يدعونه إلى البَيْعة له، فأبى وامتنع عليهم، وقال لهم: لكني أدلُّكم على رجل منا هو أقوم بما دعوتموه إليه منّي، فقالوا: مَنْ هو؟ فأخبرهم أنه الحسن بن زيد، ودلّهم على منزله ومسكنه بالرّيّ. فوجّه القومُ إلى الرّيّ عن رسالة محمد بن إبراهيم العلويّ إليه مَنْ يدعوه إلى الشخوص معه إلى طبرستان؛ فشخص معه إليها، فوافاهم الحسن بن زيد، وقد صارت كلمة الديلم وأهل كلار وسالوس ورُويان على بيعتِه وقتال سليمان بن عبدالله واحدةً؛ فلما وافاهم الحسن بن زيد بايع له ابنا رستم، وجماعة أهل الثغور ورؤساء الديلم: كجايا ولاشام ووَهْسُودان بن جستان، ومِنْ أهل رويان عبدالله بن وَنْداميد - وكان عندهم من أهل التألّه والتعبّد - ثم ناهضوا من في تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنها، فلحقوا بابن أوس وسليمان بن عبدالله؛ وهما بمدينة سارية، وانضمّ إلى الحسن بن زيد مع مَنْ بايعه من أهل النواحي التي ذكرت؛ لما بلغهم ظهوره بها حوزيّة جبال طبرستان كما صْمُغَان وفادُسْبان وليث بن قباذ؛ ومن أهل السفح خشكجستان بن إبراهيم بن الخليل بن ونداسفجان، خلا ما كان من سكان جبل فِريم؛ فإن رئيسهم كان يومئذ والمتملك عليهم قارن بن شهريار؛ فإنه كان ممتنعاً بجبله وأصحابه، فلم ينقَدْ للحسن بن زيد ولا مَنْ معه حتى مات ميتة نفسه، مع موادعة كانت بينهما في بعض الأحوال، ومخاتنة ومصاهرةٍ كفًّا من قارن بذلك من فعله عادية الحسن بن زيد ومن معه.

ثم زحف الحسن بن زيد وقُوّاده من أهل النواحي التي ذكرت نحو مدينة آمُل؛ وهي أول مدن طبرستان مما يلي كلار وسالوس من السفْح - وأقبل ابن أوس من سارية إليها يريد دفعَه عنها، فالتقى جيشاهما في بعض نواحي آمُل، ونشَبت الحرب بينهم. وخالف الحسن بن زيد وجماعة ممن معه من أصحابه موضع معركة القوم إلى ناحية أخرى، فدخلوها. فاتصل الخبر بدخوله مدينة آمل بابن أوس؛ وهو مشتغل بحرب مَنْ هو في وجهه من رجال الحسن بن زيد؛ فلم يكن له همٌّ إلا النّجاء بنفسه واللحاق بسليمان بسارية؛ فلما دخل الحسن بن زيد آمُل كثف جيشه، وغلظ أمره، وانقضّ إليه كلّ طالب نهبٍ ومُريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم؛ فأقام - فيما حُدّثت - الحسن بن زيد بآمُل أياماً؛ حتى جبى الخَراج من أهلها، واستعدّ. ثم نهض بمن معه نحو سارية مريداً سليمان بن عبد الله، فخرج سليمان وابن أوس بمَنْ معهما من جيوشهما؛ فالتقى الفريقان خارج مدينة سارية، ونشبت الحرب بينهم، فخالف الوجهَ الذي التقى فيه الجيشان بعضُ قواد الحسن بن زيد إلى وجه

آخر من وجوه سارية، فدخلها برجاله وأصحابه، فانتهى الخبر إلى سليمان بن عبد الله ومَنْ معه من الجند؛ فلم يكن لهم هَمٌّ غير النجاة بأنفسهم.

ولقد حدثني جماعة من أهل تلك الناحية وغيرها، أنّ سليمان بن عبد الله هَرَب وترك أهله وعِياله وثَقَله وكلّ ما كان له بسارية من مال وأثاث وغير ذلك بغير مانع ولا دفاع؛ فلم يكن له ناهية دون جُرجان. وغلب على ما كان له ولغيره بها من جُنده الحسن بن زيد وأصحابه.

فأما عيال سليمان وأهله وأثاثه فإنه بلغني أن الحسن بن زيد أمر لهم بمركب حملهم فيه حتى ألحقهم بسليمان وهو بجرجان؛ وأمّا ما كان لأصحابه فإن مَنْ كان من الحسن بن زيد من التَّبَع انتهبه، فاجتمع للحسن بن زيد بلحاق سليمان بن عبد الله بجُرجان إمْرة طبرستان كلها.

فلما اجتمعت للحسن بن زيد طَبرستان، وأخرج عنها سليمان بن عبد الله وأصحابه وجّه إلى الرّيّ خيلاً مع رجل من أهل بيته، يقال له الحسن بن زيد، فصار إليها، فطرد عنها عاملها من قِبَل الطاهرية، فلما دخل الموجّه به من قِبَل الطالبيّين الريّ هرب منها عاملُها، فاستخلف بها رجلا من الطالبيين يقال له محمد بن جعفر، وانصرف عنها، فاجتمعت للحسن بن زيد مع طبرستان الرّي إلى حدّ همذان، وورد الخبر بذلك على المستعين، ومدبّر أمره يومئذ وصيف التركيّ، وكاتبه أحمد بن صالح بن شيرزاد، وإليه خاتم المستعين ووزارته. فوجّه إسماعيل بن فَرَاشة في جمع إلى همذان، وأمره بالمقام بها وضبطها إلى أن يتجاوز إليها خيل الحسن بن زيد؛ وذلك أنّ ما وراء عمل هَمَذان كان إلى محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، وبه عماله وعليه صلاحه.

فلما استقرّ بمحمد بن جعفر الطالبيّ القرار بالرّيّ ظهرت منه ـ فيما ذكر ـ أمور كرهها أهل الرّيّ، فوجّه محمد بن طاهر بن عبد الله قائداً له من قِبَله، يقال له محمد بن ميكال ـ وهو أخو الشاه بن ميكال ـ في جَمْع من الخيل والرّجالة إلى الرّيّ، فالتقى هو ومحمد بن جعفر الطالبيّ خارج الرّيّ؛ فذُكر أن محمد بن ميكال أسر محمد بن جعفر الطالبيّ، وفضّ جيشه، ودخل الرّيّ! فأقام بها، ودعا بها للسلطان؛ فلم يتطاول بها مكثُه حتى وجّه الحسن بن زيد إليه خيلا، عليها قائد له من أهل اللازر، يقال له واجن. فلما صار واجن إلى الرّيّ خرج إليه محمد بن ميكال، فاقتتلا، فهزم واجن وأصحابه محمد بن ميكال وجيشه، والتجأ محمد بن ميكال إلى مدينة الرّيّ معتصماً بها، فاتّبعه واجن وأصحابه حتى قتلوه، وصارت الرّيّ إلى أصحاب الحسن بن زيد.

فلمّا كان يوم عرفة من هذه السنة بعد مقتل محمد بن ميكال، ظهر بالرّيّ أحمد بن عيسى بن عليّ بن حسين الصغير بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب؛ فصلّى أحمد بن عيسى بأهل الرّيّ صلاة العيد، ودعا للرضا من آل محمد؛ فحاربه محمد بن عليّ بن طاهر، فهزمه أحمد بن عيسى، فصار إلى قزوين.

وفي هذه السنة غُضب على جعفر بن عبد الواحد، لأنه كان بعث إلى الشاكريّة، فزعم وصيف أنه أفسدهم، فنُفي إلى البصرة لسبع بقين من شهر ربيع الأول.

وفيها أسقِطت مرتبة مَنْ كانت له مرتبة في دار العامة من بني أميّة، كابن أبي الشوارب والعثمانيين.

وأخرِج في هذه السنة من الحبس الحسنُ بن الأفشين.

وأجلِس فيها العباسُ بن أحمد بن محمد، فعقد لجعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى المعروف ببشاشات على مكة في جمادى الأولى.

وفيها وثب أهل حِمْص وقومٌ من كلب - عليهم رجل يقال له عُطَيف بن نعمة الكلبيّ - بالفَضْل بن قارن أخي مازيار بن قارن؛ وهو يومئذ عامل السلطان على حِمْص، فقتلوه في رجَب؛ فوجّه المستعين إليهم موسى بن بُغا الكبير، فشخص موسى من سامُرّا يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خَلَتْ من شهر رمضان؛ فلمّا قرب موسى تلقّاه أهلُها فيما بينها وبين الرَّستَن، فحاربهم فهزمهم؛ وافتتح حمص وقتل مِنْ أهلها مقتلة عظيمة، وأحرقها وأسر جماعة من رؤساء أهلِها، وكان عطيف قد لحق بالبدو.

وفيها مات جعفر بن أحمد بن عَمّار القاضي يوم الأحد لسبع بقين من شهر رمضان.

وفيها مات أحمد بن عبد الكريم الجواري والتيميّ قاضي البصرة.

وفيها ولي أحمد بن الوزير قضاء سامرّاء.

وفيها وثبت الشاكريّة والجُنْد بفارس بعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، فانتهبوا منزله، وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن، وهرب عبد الله بن إسحاق.

وفيها وجّه محمد بن طاهر من خُراسان بفيلَيْن كان وُجِّه بهما إليه من كابُل وأصنام وفوائح.

وغزا الصائفة فيها بلكاجُور.

وحجّ بالناس في هذه السنة جَعْفر بن الفضل بشاشات وهو والي مكة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممّا كان فيها من ذلك قتل وصيف وبُغا الصغير باغر التركيّ واضطراب أمر الموالي.

ذكر الخبر عن سبب قتلهما باغر:

ذُكر أنّ سبب ذلك كان أن باغر كان أحد قتلَة المتوكل، فزِيد لذلك في أرزاقه، وأقطع قطائع؛ فكان مما أقطِع ضياع بسواد الكوفة، فتضمّن تلك الضياع التي أقطِعها باغرُ هنالك مِن كاتب كان لباغر يهوديّ ـ رجل من دهاقين بارُوسما ونهر الملك ـ بألفيْ دينار في السنة، فعدا رجل بتلك الناحية، يقال له ابن مارِمّة على وكيل لباغر هنالك، فتناوله أو دسّ إليه مَنْ تناوله، فحُبس ابن مارمة، وقُيِّد، ثم عمل حتى تخلص من الحبس، فصار إلى سامُرّا؛ فلقي دُلَيْل بن يعقوب النصرانيّ وهو يومئذ كاتب بُغا الشرابيّ وصاحب أمره، واليه أمر العسكر، يركبُ إليه القوّاد والعمال؛ لمكانه من بُغا. وكان ابن مارِمّة صديقاً لدُليل، وكان باغر أحد قُوّاد بُغا، فمنع دُليل باغر من ظلم أحمد بن مارمة؛ وانتصف له منه، فأوغر ذلك من فعله بصدر باغر، وبايَنَ كلّ واحد من دُليل وباغر صاحبَه بذلك السبب، وباغرشجاع بطل معروف القَدْر في الأترك، يتوقّاه بُغا وغيره، ويخافون شرّه.

فذكِر أنّ باغر جاء يوم الثلاثاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة خمسين ومائتين إلى بُغا، وبُغا في الحمام، وباغر سكران شديد السكر، وانتظره حتى خرج من الحمام، ثم دخل عليه، فقال له: والله ما من قتل دُليل بُدٌّ ثم سبّه، فقال له بغا: لو أردتَ قتل ابني فارس ما منعتُك، فكيف دُليل النصرانيّ! ولكنّ أمري وأمر الخلافة في يديْه فتنتظره حتى أصيِّر مكانه إنساناً، وشأنَك به. ثم وجّه بُغا إلى دُلَيل يأمره ألّا يركب؛ وقيل: بل تلقاه طبيب لبُغا، يقال له ابن سرجويه، فأخبره بالقصّة، فرجع إلى منزله، فاستخفى، وبعث بُغا إلى محمد بن يحيى بن فيروز، وكان ابن فيروز يكتب له قبل ذلك، فجعله مكانُ دليل، فيوهم باغر أنه قد عزل دُليلا؛ فسكن باغر، ثم أصلح بُغا بين دُليل وباغر، وباغر يتهدّد دُليلا بالقَتْل إذا خلا بأصحابه، ثم تلطّف باغر للمستعين، ولزم الخدمة في الدار، وكره المستعين مكانَه ، فلمّا كان يوم نوبة بُغا في منزله قال المستعين: أيّ شيء كان إلى إيتاخ من الأعمال؟ فأخبره وصيف، فقال: ينبغي أن تصيّروا هذه الأعمال إلى أبي محمد باغر، فقال وصيف: نعم، وبلغت القصة دُليلا، فركب إلى بُغا فقال له: أنت في بيتك؛ وهم في تدبيرعزلك عن كلّ أعمالك؛ فإذا عُزلت فما بقاؤك إلّا أن يقتلوك! فركب بُغا الى دار الخلافة في اليوم الذي نَوْبته في منزله بالعشيّ، فقال لوصيف: أردتَ أن تُزيلني عن مرتبتي، وتجيء بباغر فتصيّره مكاني؛ وإنما باغر عبدٌ من عبيدي ورجل من أصحابي، فقال له وصيف: ما علمتُ ما أراد الخليفة من ذلك. فتعاقد وصيف وبُغا على تنْحِية باغر من الدار والاحتيال له،

وأرجفوا له أنه يؤمّر ويضَمّ اليه جيش سوى جيشه؛ ويُخْلَع عليه، ويُجلَس في الدار مجلس بُغا ووصيف ـ وهما يسمَّيان الأميرين ـ ودافعوه ذلك. وإنما كان المستعين تقرّب إليه بذلك ليأمن ناحيته، فأحسَّ هو ومن في ناحيته بالشرّ، فجمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل أو بعضها مع غيرهم؛ فلمّا جمعهم ناظرهم ووكّد البيعة عليهم كما وكّدها في قتل المتوكل، فقالوا: نحن على بيعتنا، فقال: الزموا الدّار حتى نقتل المستعين وبُغا ووصيفاً، ونجيء بعليّ بن المعتصم أو بابن الواثق، فنُقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا، كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا، وبقينا نحن في غير شيء؛ فأجابوه إلى ذلك، وانتهى الخبر إلى المستعين. فبعث إلى بُغا ووصيف؛ وذلك يوم الاثنين، فقال لهما: ما طلبتُ إليكما أن تجعلاني خليفةً؛ وإنما جعلتماني وأصحابكما، ثم تريدان أن تقتلاني! فحلفا له أنهما ما علما بذلك، فأعلمهما الخبر.

وقيل: إنّ امرأة لباغر كانت مطلّقة منه، سعت إلى أمّ المستعين وإلى بُغا بذلك، وبكّر دُليل إلى بُغا، وحضر وصيف إلى منزل بُغا ومع وصيف أحمد بن صالح كاتبه؛ فاتّفق رأيهم على أخذ باغر واثنين من الأتراك معه وحبسهم حتى يروا رأيَهم فيهم، فأحضروا باغر، فأقبل في عِدّة حتى دخل الدار إلى بُغا.

فذكر عن بشر بن سعيد المَرْثديّ أنه قال: كنت حاضراً دخولَه، فمُنع من الوصول إلى بُغا ووصيف، وعُطِف به إلى حمّام لبُغا، ودعِيَ له بالقيود؛ فامتنع عليهم؛ فحبسوه في الحمّام؛ وبلغ ذلك الأتراك في الهارونيّ والكرْخ والدّور، فوثبوا على إصطبل السلطان، فأخذوا ما كان فيه من الدوابّ فانتهبوها وركبوها، وحضروا الجوْسق بالسلاح؛ فلما أمسَوْا أمر وصيف وبُغا رشيدَ ابن سعاد أخت وصيف أن يقتل باغر، فأتاه في عدّة؛ فشدَخُوه بالطَّبرزِينات حتى أسكنوه؛ فلما علم المستعين باجتماعهم، ركب ووصيف وبُغا حَرّاقة، وصاروا إلى دار وصيف جميعاً، وتراكض الناس يومهم ـ وهو يوم الثلاثاء وليلته ـ بالسلاح جائين وذاهبين؛ فقال لهم وصيف: ترفَّقُوا حتى تنظروا؛ فإن ثبتوا على المقاومة رمينا إليهم برأسه. فلما انتهى قتله إلى الأتراك المشغبة، أقاموا على ما هم عليه من الشَّغَب حتى علموا أنّ المستعين وبُغا ووصيف قد انحدروا إلى بغداد؛ وقد كان وصيف أعطى قوماً من المغاربة فُرساناً ورجّالة السلاح والرّماح، ووجّه بهم إلى هؤلاء المشغبة، وبعث إلى الشاكريّة أن يكونوا على عُدّة إن احتيج إليهم، وسكن الناس عند الظهر، وهدأت الأمور؛ وقد كان عِدّةٌ من قُوّاد الأتراك صاروا إلى هؤلاء المشغبين وسألوهم الانصراف، فقالوا: يُوقْ يُوقْ، أي لا لا.

فذكر عن بشر بن سعيد عن جامع بن خالد ـ وكان أحد خلفاء وصيف من الأتراك ـ أنه كان المتولِّيَ مخاطبتهم مع عدّة ممن يعرف التركية، فأعلموهم أن المستعين وبُغا ووصيف قد خرجوا إلى بغداد، فأظهروا التندّم، وانصرفوا منكسرين؛ فلما انتشر الخبر بخروج المستعين صار الأتراك إلى دور دُليل بن يعقوب ودور أهل بيته ممن قرب منه وجيرانه؛ فانتهبوا ما فيها حتى صاروا إلى الخشب والدّرْوَنْدات؛ وقتلوا ما قدروا عليه من البغال، وانتهبوا علَف الدوابّ والخمر التي في خزانة الشراب؛ ودفع عن دار سلمة بن سعيد النصرانيّ جماعة كان وكّلهم بها؛ من المصارعين وغيرهم من جيرانهم، ومنعوهم من دخول الدار؛ لأنهم أرادوا دار إبراهيم بن مهران النصرانيّ العسكريّ، فدفعوهم عنها، وسلِم سلمة وإبراهيم من النهب.

وقال في قتل باغر والفتنة التي هاجت بسببه بعض الشعراء ذُكر أن قائله أحمد بن الحارث اليماميّ:

لعمري لئن قَتلوا باغراً ... لقد هاج باغِرُ حرباً طَحُونَا

وفَرَّ الخليفةُ والقائدَا ... نِ بالليلِ يلتمسانِ السَّفينا
وصَاحُوا بمَيْسَانَ ملَّاحِهِمْ ... فجاءَهُمُ يَسبِقُ الناظرينَا
فألزَمَهمْ بطنَ حَرَّاقةٍ ... وصَرَّتْ مَجَاذيفهم سَائِرينَا
وما كان قَدْرُ ابنِ مارمَّةٍ ... فتكسبَ فيه الحروب الزَّبونا
ولكنْ دُليلُ سَعَى سَعْيَةً ... فأخْزَى الإلهُ بها العالمينا
فحَلَّ ببغدادَ قبل الشُّروقِ ... فحلَّ بها منه ما يَكرهُونا
فليتَ السَّفينةَ لم تأْتِنا ... وغرَّقها اللّهُ والرَّاكِبينَا
وأقبلتِ الترْكُ والمَغربونَ ... وجاءَ الفراغِنةُ الدَّارعونا
تَسيرُ كراديسُهُمْ في السِّلاحِ ... يَرُوحونَ خيلاً ورَجْلاً ثُبِينا
فقامَ بحربِهمُ عالمٌ ... بأمرِ الحُروبِ تولَّاهُ حِينَا
فجدَّدَ سوراً على الجانبَيْنِ ... حتَّى أحاطَهُمُ أجمعينا
وأحكَمَ أبوابَها المُصْمتَاتِ ... على السُّورِ يَحمِي بها المُسْتَعِينا
وهيّا مَجَانيقَ خَطَّارَةً ... تُفِيتُ النفوسَ وتحْمِي العرينا
وعَبَّى فَرُوضاً وجَيْشِيَّةً ... ألوفَ ألوفٍ إذ تحْسُبُونا
وعبّى المجانيقَ منظومةً ... على السور حتى أغار العيونا

فذكر أنهم لما قدموا بغداد اعتلّ ابن مارمة، فعاده دُليل بن يعقوب، فقال له: ما سببُ علتك؟ قال: عَقرُ القيد انتقض عليّ، فقال دُليل: لئن عقرك القَيْد؛ لقد نقضت الخلافة، وبعثتَ فتنة. ومات ابن مارِمّة في تلك الأيام؛ فقال أبو عليّ اليمامي الحَنفيّ في شخوص المستعين إلى بغداد:

ما زَالَ إلَّا لزوالِ مُلكِه ... وحَتفِهِ من بعده وهُلكِهِ

ومنع الأتراك الناس من الانحدار إلى بغداد، فذُكر أنهم أخذوا ملَّاحاً قد أكرى سفينته، فضربوه مائتي سوط، وصلَبوه على دَقَل سفينته، فامتنع أصحاب السفن من الانحدار إلَّا سرّاً أو بمؤنة ثقيلة.

وفي هذه السنة هاجت الفتنة ووقعت الحرب بين أهل بغداد وجند السلطان الذين كانوا بسامرّا، فبايع كلُّ من كان بسامُرّا منهم المعتزّ، وأقام من ببغداد منهم على الوفاء ببيعة المستعين.

ذكر الخبر عن سبب هيج هذه الفتنة، وسبب بيعة من كان بسامرّا من الجند المعتزّ وخلعهم المستعين، ونصبهم الحرب لمن أقام على الوفاء ببيعته:

قال أبو جعفر: قد ذكرنا قبلُ موافاةَ المستعين وشاهك الخادم ووصيف وبُغا وأحمد بن صالح بن شير زاد بغداد؛ وكانت موافاتهم إياها يوم الأربعاء لثلاث ساعات مضيْن من النهار لأربعة أيام ـ وقيل لخمسة أيام ـ خلوْن من المحرّم من هذه السنة؛ فلما وافاها، نزل المستعين على محمد بن عبد الله بن طاهر في داره، ثم وافى بغداد خليفة لوصيف على أعماله، يعرف بسلام؛ فاستعلم ما عنده، ثم انصرف راجعاً إلى منزله بسامرّا، فوافى القوّاد خلا جعفر الخياط وسليمان بن يحيى بن معاذ بغداد مع جِلّة الكتاب والعمال وبني هاشم، ثم وافَى بعد ذلك من قُوّاد الأتراك الذين في ناحية وصيف كلباتكين القائد وطيْغج الخليفة، تركيّ، وابن عجوز الخليفة،

نَسائيّ؛ وممّن في ناحية بُغا بايكباك القائد من غلمان الخدمة مع عدّة من خلفاء بُغا.

وكان ـ فيما ذكر ـ وجّه إليهم وصيف وبُغا قبل قدومهم رسولاً، يأمرانهم أن يصيرُوا إذا قدموا بغداد إلى الجزيرة التي حِذاء دار محمد بن عبد الله بن طاهر، ولا يصيروا إلى الجِسْر، فيُرعبوا العامة بدخولهم. ففعلوا وصاروا إلى الجزيرة، فنزلوا عن دوابهم، فوجِّهَتْ إليهم زواريق حتى عبروا فيها، فصعد كلباتكين وبايكباك والقوّاد من أهل الدور وأرناتجور التركيّ، فدخلوا على المستعين، فرموْا بأنفسهم بين يديه، وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذلُّلاً وخضوعاً، وكلموا المستعين وسألوه الصَّفْح عنهم والرّضا، فقال لهم: أنتم أهل بَغْي وفساد واستقلال للنعم؛ ألم ترفعوا إليّ في أولادكم، فألحقتهم بكم؛ وهم نحو من ألفي غلام، وفي بناتكم فأمرت بتصييرهنّ في عداد المتزوّجات وهنّ نحو من أربعة آلاف امرأة في المدّركين والمولودين! وكلّ هذا قد أجبتكم إليه، وأدرَرْت لكم الأرزاق حتى سبكتُ لكم آنية الذهب والفضة، ومنعتُ نفسي لذّتها وشهوتها؛ كلُّ ذلك إرادةً لصلاحكم ورضاكم؛ وأنتم تزدادون بَغْياً وفساداً وتهدُّدا وإبعاداً!

فتضرّعوا، وقالوا: قد أخطأنا، وأمير المؤمنين الصّادق في كلّ قوله، ونحن نسأله العفو عنا والصَّفْح عن زَلّتنا! فقال المستعين: قد صفحت عنكمُ ورضيت؛ فقال له بايكباك: فإن كنتَ قد رضيتَ عنا وصفحت، فقم فاركب معنا إلى سامُرّا؛ فإنّ الأتراك ينتظرونك؛ فأومأ محمد بن عبد الله إلى محمد بن أبي عون، فلكز في حَلْق بايكباك. وقال له محمد بن عبد الله: هكذا يقال لأمير المؤمنين؛ قُمْ فاركب معنا! فضحك المستعين من ذلك. وقال: هؤلاء قوم عَجَم؛ ليس لهم معرفة بحدُود الكلام. وقال لهم المستعين، تصيرون إلى سامُرّا؛ فإنَّ أرزاقكم دارّة عليكم، وأنظر في أمري ها هنا ومقامي.

فانصرفوا آيسين منه، وأغضبهم ما كان من محمد بن عبد الله، وأخبروا مَنْ وردوا عليه من الأتراك خبرهم، وخالفوا فيما ردّ عليهم تحريضاً لهم على خلعه والاستبدال به، وأجْمع رأيهم على إخراج المعتز والبيعة له؛ وكان المعتزّ والمؤيد في حبس في الجوسق في حُجْرة صغيرة، مع كلّ واحد منهما غلام يخدمه؛ موكّلٌ بهم رجل من الأتراك يقال له عيسى خليفة بليار ومعه عدّة من الأعوان، فأخرجوا المعتزّ من يومهم، فأخذوا من شعره، وقد كان بُويع له بالخلافة؛ وأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة، فلم يتمّ المال، فأعطُوا شهرين لقلة المال عندهم.

وكان المستعين خلّف بسامرّا في بيت المال مما كان طلمجُور وأساتكين القائدان قد قدما به من ناحية الموصل من مال الشأم نحواً من خمسمائة ألف دينار؛ وفي بيت مال أمّ المستعين قيمة ألف ألف دينار، وفي بيت مال العباس بن المستعين قيمة ستمائة ألف دينار؛ فذكر أن نسخة البيعة التي أخذت:

بسم الله الرحمن الرحيم. تبايعونَ عبد الله الإمام المعتّز بالله أمير المؤمنين بيعة طَوْع واعتقاد، ورضاً ورغبة وإخلاص من سرائركم، وانشراح من صدوركم، وصدْق من نِيّاتِكم؛ لا مكرهين ولا مجبرين؛ بل مقرّين عالمين بما في هذه البيعة وتأكيدها من تقوى الله وإيثار طاعته، وإعزاز حقه ودينه؛ ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة، ولَمّ الشعث، وسكون الدّهماء، وأمْن العواقب، وعزّ الأولياء، وقمع الملحدين؛ على أن أبا عبد الله المعتزّ بالله عبد الله وخليفتُه المفتَرض عليكم طاعته ونصيحته والوفاء بحقه وعهده؛ لا تشكُّون ولا تُدْهنون، ولا تَميلون ولا تَرْتابون، وعلى السمع والطاعة، والمشايعة والوفاء، والاستقامة والنصيحة في السرّ

والعلانية، والخفوف والوقوف عند كلّ ما يأمر به عبد الله أبو عبد الله الإمام المعتزّ بالله أمير المؤمنين؛ من موالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه؛ من خاصٍّ وعامّ، وقريب وبعيد، متمسكين ببيعتِه بوَفاء العَقْد وذمة العهد؛ سرائركم في ذلك كعلانيتكم، وضمائركم فيه كمثل ألسنتكم، راضين بما يرضى به أمير المؤمنين بعد بَيْعتكم هذه على أنفسكم، وتأكيدكم إياها في أعناقكم صفقةً، راغبين طائعين؛ عن سلامة من قلوبكم وأهوائكم ونياتكم، وبولاية عهد المسلمين لإبراهيم المؤيد بالله أخي أمير المؤمنين، وعلى ألا تسعَوْا في نقض شيء مما أكد عليكم، وعلى ألّا يميل بكم في ذلك مميل عن نصرة وإخلاص وموالاة؛ وعلى ألّا تبدّلوا ولا تغيّروا، ولا يرجع منكم راجع عن بيعته وانطوائه على غير علانيته؛ وعلى أن تكون بيعتكم التي أعطيتموها بألسنتكم وعهودكم بيعةً يَطّلع الله من قلوبكم على اجتبائها واعتمادها. وعلى الوفاء بذّمةِ الله فيها، وعلى إخلاصكم في نُصْرتها وموالاة أهلها؛ لا يشوب ذلك منكم نفاق ولا إدهان ولا تأوّل؛ حتى تلقوا الله مُوفِين بعهده، مؤدّين حقَّه عليكم، غير مستريبين ولا ناكثين؛ إذ كان الذين يبايعون منكم أمير المؤمنين بيعةَ خلافتِه وولاية العهد من بعده لإبراهيم المؤيد بالله أخي أمير المؤمنين: ﴿ إِنَّما يُبَايِعُونَ ٱللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهم فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عليهُ اللهَ فَسَيُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١).

عليكم بذلك وبما أكدت عليكم به هذه البَيْعة في أعناقكم، وأعطيتم بها من صفقة أَيْمانكم، وبما اشترط عليكم من وفاء ونُصْرة، وموالاة واجتهاد وعليكم عهد الله إنَّ عهده كان مسؤولا، وذمّة الله عزّ وجلّ وذمة محمد ﷺ، وما أخذ الله على أنبيائه ورسُله، وعلى أحد من عباده من مواكيده ومواثيقه؛ أن تسمعوا ما أخِذ عليكم في هذه البَيْعَة ولا تبدّلوا ولا تميلوا، وأن تمسَّكوا بما عاهدتم الله عليه تمسُّك أهلِ الطاعة بطاعتهم، وذوي الوفاء والعهد بوفائهم، ولا يلفتكم عن ذلك هوىً ولا مَيْلٌ، ولا يُزيغ قلوبكم فتنة أو ضلالة عن هُدىً، باذلين في ذلك أنفسَكم واجتهادكم، ومقدّمين فيه حقّ الدين والطاعة والوفاء بما جعلتم على أنفسكم؛ لا يقبل الله منكم في هذه البَيْعَة إلّا الوفاء بها.

فمن نكث منكم ممّن بايع أمير المؤمنين ووليّ عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين هذه البيعة على ما أخذ عليكم، مسرّاً أو معلناً، مصرّحاً أو محتالاً أو متأوّلا؛ وادّهن فيما أعطى الله من نفسه، وفيما أخذ عليه من مواثيق الله وعهوده، وزاغ عن السبيل التي يعتصم بها أولو الرّأي؛ فكلّ ما يملك كلّ واحد منكم ممن ختر في ذلك منكم عهدَه، من مال أو عقار أو سائمة أو زَرْع أو ضَرْع صدقةٌ على المساكين في وجوه سبيل الله، محبوس محرّم عليه أن يُرجع شيئاً من ذلك إلى مالِه؛ عن حيلة يقدمها لنفسه، أو يحتال له بها؛ وما أفاد في بقية عمره من فائدة مال يقلّ خطرها أو يجلّ؛ فذلك سبيلُها، إلى أن توافِيَه منيّته، ويأتي عليه أجله. وكلّ مملوك يملكه اليوم وإلى ثلاثين سنة؛ ذكر أو أنثى، أحرار لوجه الله، ونساؤه يوم يلزمه فيه الحِنْث ومَنْ يتزّوج بعدهنّ إلى ثلاثين سنة طوالق طلاق الحَرج ؛ لا يقبل الله منه إلا الوفاء بها ، وهو بريء من الله ورسوله، والله ورسوله منه بريئان؛ ولا قَبِل الله منه صرفاً ولا عَدْلاً؛ والله عليكم بذلك شهيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأحضِر ـ فيما ذكر ـ البيعة أبو أحمد بن الرشيد وبه النّقْرس محمولاً في مَحفّة؛ فأمر بالبيعة فامتنع؛ وقال

---

(١) سورة الفتح : ١٠ .

للمعتزّ: خرجتَ إلينا خروج طائع فخلعتها، وزعمت أنك لا تقوم بها؛ فقال المعتز: أكْرِهتُ على ذلك وخفت السيف. فقال أبو أحمد: ما علينا أنك أكرِهت؛ وقد بايعنا هذا الرجل؛ فتريد أن نطلّق نساءنا، ونخرج من أموالنا، ولا ندري ما يكون! إن تركتني على أمري حتى يجتمع الناس؛ وإلا فهذا السيف. فقال المعتزّ اتركوه، فُردّ إلى منزله من غير بيعة.

وكان ممن بايع إبراهيم الديرج وعتّاب بن عتّاب، فهرب فصار إلى بغداد، وأما الديرج فخُلِع عليه، وأقِرّ على الشرطة، وخُلع على سليمان بن يسار الكاتب، وصُيِّر على ديوان الضياع، وأقام يومه يأمر وينهى وينفّذ الأعمال، ثم توارَى في الليل، وصار إلى بغداد.

ولما بايع الأتراك المعتزّ ولّى عمالَه، فولّى سعيد بن صالح الشرْطة، وجعفر بن دينار الحرس، وجعفر بن محمود الوزارة، وأبا الحمار ديوان الخراج؛ ثم عُزِل وجُعِل مكانه محمد بن إبراهيم منقار، وولى ديوان جيش الأتراك المعروف بأبي عمر، كاتب سيما الشرابيّ، وولّى مقلّداً كَيْد الكلب أخا أبي عمر بيوتَ الأموال وإعطاءَ الأتراك والمغاربة والشاكريّة، وولّى بريد الآفاق والخاتم سيما الساربانيّ، واستكتب أبا عمر؛ فكان في حدّ الوزارة.

ولما اتّصل بمحمد بن عبد الله خبرُ البيعة للمعتزّ وتوجيهه العمال، أمر بقطع الميرة عن أهل سامُرّا، وكتب إلى مالك بن طَوْق في المصير إلى بغداد هو ومَنْ معه من أهل بيته وجنده، وإلى نجوبة بن قيس وهو على الأنبار في الاحتشاد والجمع، وإلى سليمان بن عمران الموصلي في جَمْع أهل بيته ومَنْع السفن أو شيء من الميرة أن ينحدِر إلى سامُرّا، ومنَع أن يصعدشيء من المِيرة من بغداد إلى سامرّا، وأخذت سفينة فيها أرزّ وسَقَطٌ، فهرب الملاّح منها وبقيت السفينة حتى غرقت، وأمر المستعين محمد بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد؛ فتقدّم في ذلك؛ فأدير عليها السور من دِجْلة من باب الشّماسية إلى سوق الثلاثاء حتى أورده دِجْلة ومن دِجْلةِ من باب قطيعة أم جعفر، حتى أورده قصر حميد بن عبد الحميد، ورتّب على كلّ باب قائداً في جماعة من أصحابه وغيرهم وأمر بحفر الخنادق حول السورين كما يدوران في الجانبين جميعاً ومظلاّت يأوي إليها الفرسان في الحرّ والأمطار؛ فبلغت النفقة - فيما ذكر - على السورين وحفر الخنادق والمظلات ثلاثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار؛ وجعل على باب الشماسية خمس شدّاخات بعرض الطريق؛ فيها العوارض والألواح والمسامير الطِّوال الظاهرة، وجُعل من خارج الباب الثاني باب معلّق بمقدار الباب ثخين، قد ألبِس بصفائح الحديد، وشُدّ بالحبال كي إن وافى أحدٌ ذلك البابَ أرسل عليه الباب المعلّق، فقتل مَنْ تحته. وجعل على الباب الداخل عرّادة، وعلى الباب الخارج خمسة مجانيق كبار؛ وفيها واحدٌ كبير سمّوْه الغضبان، وستّ عرّادات ترمي بها إلى ناحية رقّه الشمّاسيّة؛ وصُيّر على باب البَرَدان ثماني عَرّادات، في كلّ ناحية أربع، وأربع شدّاخات وكذلك على كل باب من أبواب بغداد في الجانب الشرقيّ والغربيّ، وجعل على كلّ باب من أبوابها قواداً برجالهم وجعل لكلّ باب من أبوابها دهليزاً بسقائف تَسع مائة فارس ومائة راجل؛ ولكل منجنيق وعرّادة رجالاً مرتّبين يمدّون بحباله. وراميا يرمي إذا كان القتال. وفرض فروضاً ببغداد ومرّ قوم من أهل خراسان قدموا حجّاجاً، فسألوا المعونة على قتال الأتراك. فأعينوا. وأمر محمد بن عبد الله بن طاهر أن يُفْرَض من العيّارين فرض، وأن يُجعل عليهم عريف، ويُعمل لهم تراس من البواريّ المقيَّرة، وأن يُعمل لهم مخالٍ تُملأ حجارة. ففعل ذلك وتولى - فيما ذكر - عمل البواريّ المقيّرة

محمد بن أبي عون . وكان الرّجل منهم يقوم خلْف الباريّة فلا يُرى منها . عُمِلت نسائجات ، أنفق عليها زيادة على مائة دينار؛ وكان العريف على أصحاب البواريّ المقيرة من العيّارين رجلاً يقال له يَنْتَوَيْه . وكان الفراغ من عمل السور يوم الخميس لسبع بقين من المحرم .

وكتب المستعين إلى عمّال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى السلطان إلى بغداد، ولا يحملون إلى سامُرّا شيئاً؛ وإلى عمّال المعاون في ردّ كتب الأتراك . وأمر بالكتاب إلى الأتراك والجند الذين بسامُرّا يأمرهم بنقض بيعة المعتزّ ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه، ويذكرهم أياديه عندهم، وينهاهم عن معصيتِه ونَكْث بيعته؛ وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابيّ .

ثم جرتْ بين المعتزّ ومحمد بن عبدالله بن طاهر مكاتبات ومراسلات ، يدعو المعتزّ محمداً إلى الدّخُول فيما دخل فيه مَنْ بايعه بالخلافة وخلع المستعين ، ويذكّره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العَهْد وعقد الخلافة ، ودعوة محمدِ بن عبد الله المعتز إلى ما عليه من الأوبة إلى طاعة المستعين ، واحتجاج كلّ واحد منهما على صاحبه فيما يدعوه إليه من ذلك بما يراه حُجّة له ؛ تركتُ ذكرها كراهة الإطالة بذكرها .

وأمر محمد بن عبد الله بكسر القناطِر وبَثق المياه بطسّوج الأنبار وما قرب منه من طسُّوج بادورَيَا ، ليقطع طريق الأتراك حيث تخوّف من ورودهـم الأنبار . وكان الذي تولّى ذلك نجوبة بن قيس ومحمد بن حمد بن منصور السعديّ . وبلغ محمد بن عبد الله توجيه الأتراك لاستقبال الشمسة التي كانت مع البينُوق الفرغانيّ مَنْ يحميها من أصحابه . فوجّه محمد ليلة الأربعاء لعشر بقِين من المحرّم خالد بن عمران وبندار الطبريّ إلى ناحية الأنبار .

ثم وجّه بعدهما رشيد بن كاوس ، فصادفوا البينوق ومَنْ معه من الأتراك والمغاربة ، وطالبهم خالـد وبندار بالشمسة ، فصار البيْنُوق وأصحابه مع خالد وبندار إلى بغداد إلى المستعين .

وكان محمد بن الحسن بن جيلويه الكردي يتولّى معونة عُكبراء ؛ وكان على الراذان رجل من المغاربة قد اجتمع عنده مالٌ ، فتوجّه إليه ابن جيلويه ، ودعاه إلى حَمْل مال الناحية ، فامتنع عليه ، ونَصَب له الحرب ، فأسر ابن جيلويه المغربيّ ، وحمله إلى باب محمد بن عبدالله ، ومعه من مال الناحية اثنا عشر ألف دينار وثلاثون ألف درهم ، فأمر محمد بن عبدالله لابن جيلويه بعشرة آلاف درهم . وكتب كلُّ واحد من المستعين والمعتزّ إلى موسى بن بغا ، وهو مقيم بأطراف الشأم قرب الجزيرة ـ وكان خرج إلى حِمْص لحرب أهلها ـ يدعوه إلى نفسه ، وبعَث كلُّ واحد منهما إليه بِعدّة ألوية يعقدها لمن أحبّ ، ويأمره المستعين بالانصراف إلى مدينة السـلام ، ويستخلف على عمله من رأى . فانصرف إلى المعتزّ وصار معه . وقدم عبد الله بن بُغا الصغير بغداد على أبيه ؛ وكان قد تخلّف بسامُرّا حين خرج أبوه منها مع المستعين ، وصار إلى المستعين ، فاعتذر إليه وقال لأبيه : إنما قدمتُ إليك لأموت تحت ركابك . وأقام ببغداد أياماً ، ثم استأذن ليخرج إلى قرية بقرب بغداد على طريق الأنبار ، فأذن له ؛ فأقام فيها إلى الليل ، ثم هرب من تحت ليلته ، فمضى في الجانب الغربيّ إلى سامُرّا مجانباً لأبيه ، وممالئاً عليه ؛ واعتذر إلى المعتزّ من مصيره إلى بغداد ، وأخبره أنه إنما صار إليها ليعرف أخبارهم ، وليصير إليه فيُعرّفه صحتها . فقبل ذلك منه ، وردّه إلى خدمته .

وورد الحسن بن الأفشين بغداد، فخلع عليه المستعين، وضمّ إليه من الأشروسنيّة وغيرهم جماعة

كثيرة ، وزاد في أرزاقه ستة عشر ألف درهم في كلّ شهر .

ولم يزل أسد بن داودسياه مقيماً بسامُرّا ، حتى هرب منها ، فذُكر أن الأتراك بعثوا في طلبه إلى ناحية الموصل والأنبار والجانب الغربيّ في كل ناحية خمسين فارساً ، فوافَى مدينة السلام ؛ فدخل على محمد بن عبد الله ، فضمّ إليه من أصحاب إبراهيم الديرج مائة فارس ومائتي رجل، ووكّله بباب الأنبار مع عبد الله بن موسى بن أبي خالد .

وعقد المعتزّ لأخيه أبي أحمد بن المتوكل يوم السبت لسبع بقين من المحرّم من هذه السنة ـ وهي سنة إحدى وخمسين ومائتين ـ على حرب المستعين وابن طاهر، وولّاه ذلك، وضمّ إليه الجيش، وجعل إليه الأمرَ والنهي، وجعل التدبير إلى كلباتكين التركيّ ، فعسكر بالقاطول في خمسة آلاف من الأتراك والفراغنة وألفين من المغاربة ، وضمّ المغاربة إلى محمد بن راشد المغربيّ ، فوافوا عُكْبراء ليلة الجمعة لليلة بقيتْ من المحرّم ، فصلّى أبو أحمد ، ودعا للمعتزّ بالخلافة ؛ وكتب بذلك نسخاً إلى المعتز ؛ فذكر جماعة من أهل عكْبراء أنهم رأوا الأتراك والمغاربة وسائر أتباعهم ، وهم على خوف شديد ، يروْن أنّ محمد بن عبد الله قد خرج إليهم فسبقهم إلى حربهم ، وجعلوا ينتهبون القرى ما بين عُكبراء وبغداد وأوانا وسائر القرى من الجانب الغربيّ ، تخوّفاً على أنفسهم وخلّوْا عن الغَلّات والضّياع ، فخرّبت الضياع ، وانتُهبت الغَلّات والأمتعة وهدِمت المنازل ، وسُلب الناس في الطريق .

ولّما وافى أبو أحمد عُكبراء ومن معه خرج جماعة من الأتراك الذين كانوا مع بُغا الشرابيّ بمدينة السلام من مَواليه والمضمومين إليه ، فهربوا ليلاً ، فاجتازوا بباب الشمّاسية ؛ وكان على الباب عبد الرحمن بن الخطاب ، ولم يعلم بخبرهم ؛ وبلغ محمد بن عبد الله ذلك ، فأنكره عليه وعنّفه ، وتقدّم في حفظ الأبواب وحراستها والنفقة على من يتولّاها .

ولما وافى الحسن بن الأفشين مدينة السلام وُكّل بباب الشمّاسية .

ثم وافى أبو أحمد وعسكره الشماسيّة ليلةَ الأحد لسبع خلون من صفر ، ومعه كاتبه محمد بن عبد الله بن بشر بن سعد المرثديّ ، وصاحب خبر العسكر من قِبَل المعتزّ الحسن بن عمرو بن قماش ومن قِبَله ، صاحب خبر له يقال له جعفر بن أحمد البناتي ، يعرف بابن الخبازة ، فقال رجل من البصريّين كان في عسكره ويعرف بباذنجانة :

يا بني طاهر أتتكمْ جنودُ اللّـ	ـهِ والموتُ بينها منثورُ
وجيوشٌ أمامَهُنّ أبو أحمـ	ـد نعْمَ المولى ونِعْمَ النصيرُ

ولّما صار أبو أحمد بباب الشمّاسية ولّى المستعين الحسين بن إسماعيل باب الشماسية ، وصيَّرَمَنْ هناك من القوّاد تحت يده ؛ فلم يزل مقيماً هناك مدّة الحرب إلى أن شخص إلى الأنبار ؛ فولّى مكانه إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم ، ولثلاث عشرة مضتْ من صفر ؛ صار إلى محمد بن عبد الله جاسوس له ؛ فأعلمه أن أبا أحمد قد عبّى قوماً يحرقون ظلال الأسواق من جانبيْ بغداد ، فكُشطت في ذلك اليوم .

وذكر أن محمد بن عبد الله وجّه محمد بن موسى المنجم والحسين بن إسماعيل ، وأمرهما أن يخرجا من

الجانب الغربيّ ، وأن يرتفعا حتى يجاوزا عسكر أبي أحمد ويحزُرا : كَمْ في عسكره ؟ فزعم محمد بن موسى أنه حَزَرهم ألفيْ إنسان ، معهم ألف دابة ؛ فلما كان يوم الاثنين لعشر خلون من صفر وافت طلائع الأتراك إلى باب الشمّاسيّة ، فوقفوا بالقرب منه ، فوجّه محمد بن عبد الله الحسينَ بن إسماعيل والشاه بن ميكال وبُندار الطبريّ فيمن معهم ؛ وعزم على الركوب لمقاتلتهم ، فانصرف إليه الشاه ، فأعلمه أنه وافَى بمَنْ معه باب الشمّاسيّة .

فلمّا عاين الأتراك الأعلام والرايات وقد أقبلت نحوَهم انصرفوا إلى معسكرهم ، فانصرف الشاه والحسين ، وترك محمد الركوب يومئذ .

فلمّا كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر عزم محمد بن عبد الله على توجيه الجيوش إلى القُفْص ليعرض جنده هنالك ، ويُرهب بذلك الأتراك ؛ وركب معه وصيف وبُغا في الدُّروع ، وعلى محمد درْع ، وفوق الدرْع صُدرة من درع طاهر ؛ وعليه ساعد حديد ؛ ومضى معه بالفقهاء والقضاة ، وعزم على دعائهم إلى الرجوع عمّا هم عليه من التمادي في الطُّغيان واللجَاج والعِصْيان ، وبعث يبذل لهم الأمان على أن يكون أبو عبد الله وليّ العهد بعد المستعين ، فإنْ قبلوا الأمان وإلّا باكرهم بالقتال يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة تخلو من صفر؛ فمضى نحو باب قُطْربل، فنزل على شاطىء دجلة هو ووصيف وبغا، ولم يمكنْه التقدّم لكثرة الناس ؛ وعارضهم من جانب دِجلة الشرقيّ محمد بن راشد المغربيّ.

ثم انصرف محمد ؛ فلما كان من الغد وافتْه رسل عبد الرحمن بن الخطاب وجه الفُلْس وعَلك القائد ومَنْ معهما من القوّاد ، يعلمونه أنّ القوم قد دنوْا منهم ، وأنهم قد رجعوا إلى عسكرهم إلى رقة الشماسية ، فنزلوا وضربوا مضاربَهم فأرسل إليهم ألا تبدؤوهم ، وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم ؛ وادفعوهم اليوم . فوافى باب الشماسيّة اثنا عشر فارساً من عسكر الأتراك - وكان على باب الشماسيّة باب وسَرَب ، وعلى السَّرَب باب ، فوقف الاثنا عشر الفارس بإزاء الباب، وشتموا مَنْ عليه، ورموا بالسهام، ومن بباب الشماسية سكوتٌ عنهم ؛ فلما أكثروا أمر علَك صاحب المِنجنيق أن يرميَهم ؛ فرماهم فأصاب منهم رجلاً فقتله ، فنزل أصحابه إليه ، فحملوه وانصرفوا إلى عسكرهم بباب الشماسيّة .

وقدم عبد الله بن سليمان خليفة وصيف التركيّ الموجّه إلى طريق مكة لضبط الطريق مع أبي الساج في ثلاثمائة رجل من الشاكريّة ، فدخل على محمد بن عبد الله ، فخلع عليه خمس خلع ، وعلى آخر ممن معه أربع خلع .

ودخل أيضاً في هذا اليوم رجل من الأعراب من أهل الثعلبيّة يطلب الفَرْض معه خمسون رجلاً ، وورد الشاكريّة القادمون من سامُرّا من قيادات شتى ، وهم أربعون رجلاً ، فأمر بإعطائهم وإنزالهم فأعْطَوْا .

ووافى الأتراك في هذا اليوم باب الشماسيّة ، فرُمُوا بالسهام والمنجنيق والعرّادات ، وكان بينهم قتلَى وجرحى كثير ؛ وكان الأمير الحسين بن إسماعيل لمحاربتهم ، ثم أمِدّ بأربعمائة رجل من الملطيّين مع رجل يعرف بأبي السنا الغنويّ وهو ابن أخت الهيثم الغنوي؛ ثم أمدّهم بقوم من الأعراب نحو من ثلاثمائة رجل ، وحمل في هذا اليوم من الصلات لمن أبلَى في الحرب خمسة وعشرين ألف درهم ، وأطوقة وأسورة من ذهب ، فصار ذلك إلى الحسين بن إسماعيل وعبد الرحمن بن الخطاب وعلَك ويحيى بن هرثمة والحسن بن

الأفشين وصاحب الحرب الحسين بن إسماعيل ، فكان الجرحَى من أهل بغداد أكثر من مائتي إنسان ، والقتلى عدّة ، وكذلك الجِراحات في الأتراك والقتلَى أكثرهم بالمجانيق ؛ وانهزم أكثر عامة أهل بغداد ، وثبت أصحاب البواريّ وانصرفوا جميعاً ، وهم في القتلى والجرحى شبيه بالسواء ؛ وجُرح من هؤلاء ـ فيما ذكر ـ مائتان ، ومن هؤلاء مائتان ، وقتل جماعة من الفريقين .

وجاء كردوس من الفراغنة والأتراك في هذا اليوم إلى باب خُراسان من الجانب الشرقيّ ليدخْلوا منه ، وأتى الصريخ محمد بن عبد الله ، وثبت لهم المبيّضة والغوغاء فردّوهم . وقد كان محمد أمر أن يُمخَر تلك الناحية ؛ فلما أرادوا الانصراف ، وحلّت عامة دوابهم ، ونجا أكثرهم ، أحضر الأتراك منجنيقاً ، فغلبهم الغوغاء عليه والمبيّضة ، وكسروا قائمة من قوائمه ، وقتِل اثنان من الشاشية من الحجاج ، وأمر بحمل الآجرّ من قصر الطين وتلك الناحية إلى باب الشماسيّة ، وفتحو باب الشماسيّة ، وأخرجوا إلى الآجرّ من لقطه ، وردوّه إلى هذا الجانب من السور .

وكان محمد بن عبد الله اتّصل به أنّ جماعة من الأتراك قد صاروا إلى ناحية النّهروان ، فوجّه قائدين من قوّاده يقال لهما عبد الله بن محمود السرخسيّ ويحيى بن حفص المعروف بحَبُوس في خمسمائة من الفرسان والرّجالة إلى هذه الناحية ، ثم أردفهم بسبعمائة رجل أيضاً ، وأمرهم بالمقام هناك ، ومنع مَنْ أراده من الأتراك ؛ فتوجّه آخرهم إلى هذه الناحية يوم الجمعة لسبع خلون من صفر .

فلما كان ليلة الاثنين لثلاث عشرة بقيت من صفر ، صار قوم من الأتراك إلى النَّهْروان ، فخرج جماعة ممن كان مع عبد الله بن محمود ، فرجعوا هُرّاباً ، وأُخِذت دوابّهم ، وانصرف مَنْ نجا منهم إلى مدينة السلام مفلولين ، وقتل زهاء خمسين رجلاً ، وأخذوا ستين دابة ، وعدّة من البغال قد كانت جاءت من ناحية حُلوان عليها الثلج ، فوجّهوا بها إلى سامرّا ، ووجهوا برؤوس مَنْ قتلوا من الجند ، فكانت أول رؤوس وافت في تلك الحرب سامرّا .

وانصرف عبد الله بن محمود مفلولاً في شِرذمة ، وصار طريق خراسان في أيدي الأتراك ، وانقطع الطريق من بغداد إلى خراسان .

وكان إسماعيل بن فرشة وُجّه إلى همذان للمقام بها ، فكتب إليه بالانصراف ، فانصرف ، فأعطِيَ هو وأصحابه استحقاقهم .

ووجَّه المعتز عسكراً من الأتراك والمغاربة والفراغنة ومَنْ هو في عدادهم . وعلى الأتراك والفراغنة الدرغمان الفرغانيّ ، وعلى المغاربة ربلة المغربيّ ، فساروا إلى مدينة السلام من الجانب الغربيّ ، فجازوا قُطربّل إلى بغداد ، وضربوا عسكرهم بين قُطْربّل وقطيعة أم جعفر ، وذلك عشيّة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر . .

فلما كان يوم الأربعاء من غد هذه الليلة ، وجّه محمد بن عبد الله بن طاهر الشاهَ بن ميكال من باب القطيعة وبُنداراً وخالد بن عمران فيمن معهم من أصحابهم من الفرسان والرّجالة . فصافّهم الشاه وأصحابه ، فترامَوْا بالحجارة والسهام ، وألجؤوا الشاه إلى مضيق عند باب القطيعة ، وكثر المبيّضة من أهل بغداد ، ثم حمل الشاه والمبيّضة حملة واحدة أزالوا بها الأتراك والمغاربة ومَنْ معهم عن موضعهم ، وحمل عليهم

المبيّضة ، وأصحروا بهم ، وحمل عليهم الطبريّة فخالطوهم ، وخرج عليهم بُندار وخالد بن عمران من الكمِين ، وكانوا كمنوا في ناحية قُطْربّل ، فوضعوا في أصحاب أبي أحمد الأتراك منهم وغيرهم السيف ، فقتلوهم أبرح قتل ، فلم يفُلت منهم إلّا القليل ، وانتهب المبيضة عسكرهم وما كان فيه من المتاع والأهل والأثقال والمضارب والخُرْثيّ ، فكلّ من أفلت منهم من السيف رمى بنفسه في دِجْلة ليعبُرَ إلى عسكر أبي أحمد ؛ فأخذه أصحاب الشّبارات ، وكانت الشبّارات قد شُحنت بالمقاتلة ـ فقُتِلوا وأُسِروا ، وجُعل القتلى والرؤوس من الأتراك والمغاربة وغيرهم في الزّواريق ، فنصبت بعضها في الجسرين ، وعلى باب محمد بن عبد الله ، فأمر محمد بن عبدالله لمن أبلى في هذا اليوم بالأسورة ، فسُوِّر قوم كثير من الجند وغيرهم ، فطُلب المنهزمة ، فبلغ بعضهم أوانا ، وبلغ بعضهم ناحية عسكر أبي أحمد عَبْرَ دجلة ، وبعضهم نفذ إلى سامُرَّا .

وذُكر أن عسكر الأتراك يوم هُزِموا بباب القطيعة كانوا أربعة آلاف ، فقتل منهم يوم الوقعة هنالك ألفان ، وكان وضع فيهم بالسيف من باب القَطيعة إلى القُفْص ، فقتَلوا مَنْ قتلوا ، وغرِّق مَنْ غُرِّق ، وأسِر منهم جماعة ، فخلَع محمد بن عبدالله على بُندار أربع خلع مُلحم ، ووشي وسواد وخزّ ، وطوّقه طوقاً من ذهب ، وخلع على أبي السنا أربع خِلَع ، وعلى خالد بن عمران وجميع القوّاد ، كلّ رجل أربع خِلع ، وكان انصرافهم من الوقعة مع المغرب ، وسُخّرت البغال ، وأخِذ لها الجواليق لتحمل فيها الرؤوس إلى بغداد .

وكان كلُّ مَنْ وافى دار محمد برأس تركيّ أو مغربيّ أعطوه خمسين درهماً ، وكان أكثر ذلك العمل للمبيّضة والعيّارين ، ثم وافى عيَّارو بغداد قُطْربُّل ، فانتهبوا ما تركه الأتراك من متاع أهل قُطْربُّل وأبواب دورهم ؛ فوجّه محمد في آخر هذا اليوم أخاه أبا أحمد عبيد الله بن عبد الله والمظفّر بن سيسَل في أثر المنهزمين حِياطة لأهل بغداد ، لأنه لم يأمن رجعتهم عليه فبلغا القُفْص ، وانصرفا سالمين ، وزعجا مَنْ أقام من الرّجالة والعيارين بناحية قُطْربل ، وأشير على محمد بن عبدالله أن يتبعهم بعسكر في اليوم الثاني وفي تلك الليلة ، ليوغل في آثارهم ، فأبى ذلك ولم يتبع مولّياً ، ولم يأمر أن يُجهز على جريح ، وقبل أمان مَن استأمن ، وأمر سعيد بن حُميد فكتب كتاباً يذكر فيه هذه الوقعة ، فقرىء على أهل بغداد في مسجد جامعها ، نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ؛ فالحمد لله المنعم فلا يبلغ أحد شكرَ نعمته ، والقادر فلا يعارض في قدرته ، والعزيز فلا يغالب في أمره ، والحَكم العدل فلا يردّ حكمه ، والناصر فلا يكون نصره إلّا للحق وأهله ، والمالك لكلّ شيء فلا يخرج أحد عن أمره ، والهادي إلى الرحمة فلا يضلّ من انقاد لطاعته ، والمقدّم إعذاره ليظاهر به حجته ، الذي جعل دينه لعباده رحمة ، وخلافته لدينه عصمة ، وطاعة خلفائه فرضاً واجباً على كافة الأمة ؛ فهم المستحفظون في أرضه على ما بعث به رسله ، وأمناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على منهاج حقه ، لئلا يتشعبّ بهم الطريق إلى المخالفة لسبيله ، والهادي لهم إلى صراطه ، ليجمعهم على الجادّة التي نَدب إليها عبادَه الذين بهم يُحمى الدّين من الغواة والمخالفين ، محتجّين على الأمم بكتاب الله الذي استعملهم به ، ودعا الأمة بحقّ الله الذي اختارهم له ؛ إن جاهدوا كانت حجة الله معهم ، وإن حاربوا حكَم بالنصر لهم ، وإن بغاهم عدوّ كانت كفاية الله حائلةً دونهم ومعقلاً لهم . وإن كادهم كائد فاللهُ من وراء عونهم ، نَصَبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنما عادى الدّين الذي أعزّه وحرسه بهم ، ومن ناوأهم فإنما طعن على الحق الذي يكلؤه بحراستهم ، جيوشُهم بالنّصر والعزّ منصورة ، وكتائبهم بسلطان الله

من عدّوهم محفوظة ، وأيديهم عن دين الله دافعة ، وأشياعهم بتناصرهم في الحقّ عالية ، وأحزاب أعدائهم ببغيهم مقموعة ، وحجتهم عند الله وعند خلْقه داحضة ، ووسائلهم إلى النصر مردودة، تجمعهم مواطن التحاكم ، وأحكام الله بخذلانهم واقعة ، وأقداره بإسلامهم إلى أوليائه جارية ، وعاداتهم في الأمم السالفة والقرون الخالية ماضية؛ ليكون أهلُ الحق على ثقة من إنجاز سابق الوعد، وأعداؤه محجُوبون بما قدّم إليهم من الأنذار ، معجّلة لهم نقمة الله بأيدي أوليائه، معَدٌّ لهم العذاب عند ربهم ، والخزي موصول بتواصيهم في دنياهم، وعذاب الآخرة من ورائهم وما الله بظلّام للعبيد.

وصلى الله على نبيه المصطفى ، ورسوله المرتَضى ، والمنقذ من الضّلالة إلى الهدى ، صلاة تامّة نامية بركاتها ، دائمة اتصالها ، وسلم تسليماً .

والحمد لله تواضعاً لعظمته ، والحمد لله إقراراً بربوبيته ، والحمد لله اعترافاً بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته . والحمد لله الهادي إلى حَمْدِه . والموجب به مزيده ، والمحصي به عوائد إحسانه ، حمداً يرضاه ويتقبّله ، ويوجب طوْله وإفضاله . والحمدُ لله الذي حكم بالخذلان على مَنْ بَغى على أهل دينه ، وسبق وعده بالنصر لمن بُغي عليه من أنصار حقه .

وأنزل بذلك كتابَه العزيز، موعظة للباغين، فأن اقلعوا كانت التذكِرَة نافعة لهم، والحجة عند الله لمن قام بها فيهم ، ثم أوجب بعد التذكرة والإصرار جهادهم ، فقال فيما قدَّم من وَعْده ، وأبان من برهانه : ﴿ ثُمَّ بُغِي عَلَيْه لَيَنْصُرنَّه الله﴾[1]، وعداً من الله حقًّا نهى به أعداءه عن معصيته، وثبَّت به أولياءه على سبيله؛ والله لا يخلف الميعاد.

ولله عند أمير المؤمنين في رئيس دعوته، وسيف دولته، والمحامي عن سلطانه ومحلّ ثقته، والمتقدّم في طاعته ونصيحته لأوليائه، والذابُّ عن حقه، والقائم بمجاهدة أعدائه؛ محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين، نعمةٌ يُرغب إلى الله في إتمامها، والتوفيقِ لشكرها، والتطوّلِ بمن أراد المزيد فيها؛ فإن الله قدّر لآبائه القيام بالدّعوة الأولى لآباء أمير المؤمنين، ثم جمع له آثارهم بقيامه بالدّولة الثانية؛ حين حاول أعداء الله أن يطمِسُوا معالم دينه ويعفّوها؛ فقام بحقّ الله وحقّ خليفته، محامياً عنها، ومرامياً من ورائها، متناولاً للبعيد برأيه ونظره، مباشراً للقريب بإشرافه وتفقّده، باذلاً نفسه في كلّ ما قرّبه من الله، وأوجب له الزُّلْفة عنده، وسيمتّع الله أمير المؤمنين به وليًّا، مكانفاً على الحق، وناصراً موازراً على الخير، وظهيراً مجاهداً لعدوّ الدين.

وقد علمتم ما كان كتاب أمير المؤمنين تقدّم به إليكم فيما أحدثته الفرقة الضالة عن سبيل ربها ، المفارقة لعصمة دينها ، الكافرة لنعم الله ونعم خليفته عندها ، المباينة لجماعة الأمة التي ألَّف الله بخلافته نظامَها ، المحاولة لتشتيت الكلمة بعد اجتماعها ، الناكثة لبيعته ، الخالعة لربقة الإسلام من أعناقها، الموالي الأتراكُ، وما صارت إليه من نصر الغلام المعروف بأبي عبد الله بن المتوكل لإقامتها عند مصير أمير المؤمنين إلى مدينة السلام ، محلّ سلطانه ؛ ومجتمع أنصاره وأبناء أنصار آبائه ، وما قابل به أمير المؤمنين خيانتهَم وآثره من الأناة في أمرهم .

---

(١) سورة الحج : ٦٠ .

ثم إنّ هؤلاء الناكثين جمعوا جمعاً من الأتراك والمغاربة ، ومن ولج في سوادهم ، ودخل في غُمارهم ، مؤاتياً للفتنة من ألفاف الغيّ ، ورأسوا عليهم المعروف بأبي أحمد بن المتوكل ، ثم ساروا نحو مدينة السلام في الجانب الشرقيّ ، معلنين للبغي والاقتدار ، مظهرين للغيّ والإصرار ؛ فتأنّاهم أمير المؤمنين ، وفسَّح لهم في النَّظرة لهم ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهُم الرشد ، وتذكيرهم بما قدّموا من البيعة ، وإفهامهم ما لله عليهم وله في ذلك من الحقّ، وأن خروجهم مما دخلوا فيه من بيعتهم طوعاً، الخروجُ من دين الله البراءة منه ومن رسوله، وتحريمهم أموالَهم ونساءهم عليهم ، وأن في تمسكهم به سلامة أديانهم، وبقاء نعمتهم ، والاحتراس من حُلول النقمَ بهم ، وأن يبين لهم ما سلف من بلائه عندهم ؛ من أسْنى المواهب ، وأرفع الرغائب، والاختصاص بسنيّ المراتب ، والتقدّم في المحافل ، فأبوْا إلا تمادياً ونفاراً ، وتمسكاً بالغيّ وإصراراً .

فقلّد أمير المؤمنين نصيحة المؤتمن ووليّه محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين تدبيرَ أمورهم ودعائهم إلى الحقّ ما كانت الإنابة أو محاربتهم إن جنح بهم غيُّهم ، وتتابعوا في ضلالهم ، فلم يألهم نظراً وإفهاماً ، وتبييناً وإرشاداً ، وهم في ذلك رافعون أصواتهم بالتوّعد لأهل مدينة السلام ؛ بسفك دمائهم وسَبْي نسائهم وتغنُّم أموالهم ، وقبل ذلك ما كانوا في مسيرهم على السبيل التي يستعملها أهل الشرْك في غاراتهم ، ويميلون إليها عند إمكان النّهزة لهم ؛ لا يجتازون بعامر إلا أخربوه ، ولا بحريم لمسلم ولا غيره إلا أباحوه ، ولا بمسلم يعجز عنهم إلا قتلوه ، ولا بمال لمسلم ولا ذمّي إلا أخذوه ، حتى انتقل كثير ممن سبقت إليه أخبارهم ممن أمامهم عن أوطانهم ، وفارقوا منازلهم ورباعهم ، وفزعوا إلى باب أمير المؤمنين تحصّناً من معرّتهم ، لا يمرُّون بغنيّ إلا خلعوا عنه لباس الغنى ، ولا بمستور إلا هتكوا عن الذرّية والنساء ستره ، لا يرقبون في مؤمن إلّاولا ذمّة ، ولا يتوقّفُون عن مسلم بهتك ولا مُثْلة ، ولا يرغبون عما حرم الله من دم ولا حرمة .

ثم تلقّوا التذكرة بالحرب ، وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار في الباطل ، فذلَفُوا نحو باب الشّماسية ، وقد رتب محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين بذلك الباب والأبواب التي سبيلها سبيله من أبواب مدينة السلام الجيوشَ في العُدّة الكاملة ، والعدّة المتظاهرة ، معاقلهم التوكّلُ على ربّهم ، وحصونهم الاعتصام بطاعته ، وشعارهم التكبير والتهليل أمام عدوهم .

ومحمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين ، يأمُرهم بتحصين ما يليهم والإمساك عن الحرب ما كانت مندوحة لهم ؛ فبادأهم الأولياء بالموعظة ، وبدأهم الغواة الناكثون بحربهم ، وعادَوهم أياماً بجموعهم وعدادهم ، مُدلين بعِدّتهم ومقدّرين ألا غالب لهم ، ولا يعلمون بالله أنّ قدرته فوق قدرتهم ، وأن أقداره نافذة بخلاف إرادتهم ، وأحكامه عادلة ماضية لأهل الحقّ عليهم ؛ حتى إذا كان يوم السبت للنصف من صَفر وافوْا باب الشماسيّة بأجمعهم ، قد نشروا أعلامهم ، وتنادوْا بشعارهم ، وتحصّنوا بأسلحتهم . وبدا الأمر منهم لمن عاينهم ، ليس لهم وعيد دون سفك الدماء ، وسبي النساء ، واستباحة الأموال ، فبدأهم الأولياء بالموعظة فلم يسمعوا ، وقابلوهم بالتذكرة فلم يُصغوا إليها ، وبدؤوا بالحرب منابذين لها ، فتسرّع الأولياء عند ذلك إليهم ، واستنصروا عليهم ، واستحكمت بالله ثقتهم ، ونفذت به بصائرهم ، فلم تزل الحرب بينهم إلى وقت العصر من هذا اليوم ، فقتل الله من حُماتهم وفرسانهم ورؤسائهم وقادة باطلهم جماعة كثيراً عَددها ، ونالت الجراحة المثخنة التي تأتي على مَنْ نالته أكثر عامتهم .

فلما رأى أعداء الله وأعداء دينه أنْ قد أكذب ظنونَهم ، وحال بينهم وبين أمانيهم ، وجعل عـواقبها حسرات عليهم ، استنهضوا جيشاً من سامرّا من الأتراك والمغاربة في العتاد والعُدّة والجلَد والأسلحة في الجانب الغربيّ . طالبين المعرّة ، ومؤمّلين أن ينالوا نيلاً من أهله باشتغال إخوانهم في الجانب الشرقيّ بأعدائهم .

وقد كان محمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين شَحَن الجانبين جميعاً بالرّجال والعُدّة ، ووكّل بكلّ ناحية مَنْ يقوم بحفظها وحراستها ، ويكفّ عن الرعية بوائقَ أعدائهم ، ووكل بكل باب من الأبواب قائـداً في جَمْع كثيف ، ورتَّب على السور مَنْ يراعيه في الليل والنهار وبث الرجال ليعـرف أخبار أعـداء الله في حركـاتهم ونهوضهم ومقامهم وتصرّفهم ، فيعامل كلَّ حال لهم بحال يفت الله في أعضادهم بها .

فلما كان يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر، وافَى الجيش الذي أنهضوه من الجانب الغربيّ البابَ المعروف بباب قُطْرُبّل، فوقَفوا بإزاء الناكثين المعسكرين بالجانب الشرقيّ من دجلة في عدد لا يسعه إلّا الفضاء، ولا يحمله إلا المجال الفسيح، وقد تواعَدُوا أن يكـون دنوّهم مِن الأبواب معاً لشغل الأولياء بحربهم من الجهات، فيضعفوا عنهم ويغلبوا حقَّهم بباطلهم؛ أملاً كاذباً كادهم الله فيه غير صادق، وظنًّا خائباً لله فيه قضاء نافذ. وأنهض محمد بن عبد الله نحوهم محمد بن أبي عون وبُندار بن موسى الطبريّ مولى أمير المؤمنين وعبد الله بن نصر بن حمزة من باب قطربُّل، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، والاتباع لأمره والتصرّف مع كتابه، والتوقّف عن الحرب حتى تسبق التذكرة الأسماع، وتزول الحجة بالتتابع منهم والإصرار، فنفذوا في جمعٍ يقابل جمعهم، مستبصرين في حقّ الله عليهم، مسارعين إلى لقاء عدوّهم، محتسبين خـطاهم ومسيرهم، واثقـين بالثواب الآجل والجزاء العاجل. فتلقـاهم ومَنْ معهم أعداء الله، قـد أطلقوا نحـوهم أعنَّتهم، وأشرعـوا لِنُحورهم أسنَّتهم، لا يشكون أنهم نُهزة المختلس، وغنيمة المنتهب؛ فنادوْهم بالموعظة نداء مسْمعاً؛ فمجّتها أسماعهم، وعميت عنها أبصارهم، وصدَقهم أولياءُ الله في لقائهم، بقلوب مستجمعة لهم، وعلم بأنّ الله لا يخلِف وعده فيهم؛ فجالت الخيل بهم جَوْلة، وعاودت كَرّة بعد كرّة عليهم، طعناً بالرماح، وضرباً بالسيوف، ورَشقاً بالسهام؛ فلما مسّهم ألم جِراحها، وكلَمتْهم الحربُ بأنيابها، ودارت عليهم رحاهـا، وصمم عليهم أبناؤها، ظمأ إلى دمائهم، ولَّوا أدبارَهم، ومنح الله أكتافهم، وأوقع بأسه بهم، فقتِلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة، ولم يتحصّنوا من عقابه بأمانة، ثم ثابت ثانية، فوقفوا بإزاء الأولياء، وعبَر إليهم أشياعُهم الغاوُون من عسكرهم بباب الشّماسية ألف رجل من أنجادهم في السفن، معاونين لهم على ضلالتهم؛ فأنهض لهم محمد بن عبد الله خالد بن عمران والشاهَ بن مكيال مولى طاهر نحوهم، فنفـذوا ببصيرة لا يتخوّنها فتور، ونيّة لا يلحقها تقصير؛ ومعهما العباس بن قارن مولى أمير المؤمنين.

فلما وافى الشاه فيمَنْ معه أعداء الله، وكل بالمواضع التي يتخوّف منها مدخل الكُمناء، ثم حمل مَنْ توجّه معه من القواد المسمَّين ماضين لا يغويهم الوعيد، ولا يشكُّون من الله في النصر والتأييد، فوضعوا أسيافهم فيهم، تمضي أحكام الله عليهم؛ حتى ألحقوهم بالمعسكر الذي كانوا عسكروا فيه وجاوزوه، وسلبوهم كل ما كان من سلاح وكُراع وعتاد الحرب؛ فمِن قتيلٍ غُودرت جثّته بمصرعه، ونقلت هامته إلى مصيرٍ فيه معتَبرٌ لغيره، ومن لاجىء من السيف إلى الغَرَق لم يجِرْه الله من حذاره، ومن أسيرٍ مصفود يُقاد إلى دار أولياء الله وحزبه، ومن هاربٍ بحشاشة نفسه، قد أسكن الله الخوف قلبه؛ فكانت النقم بحمد لله واقعة بالفريقين ممن وافى الجانب

الغربيّ قادماً، ومن عبر إليهم من الجانب الشرقيّ مُنجداً، لم ينْجُ منهم ناجٍ، ولم يعتصم منهم بالتوبة معتصم، ولا أقبل إلى الله مقبل، فرقاً أربعاً يجمعها النار، ويشملها عاجل النكال، عظةً ومعتبراً لأولى الأبصار؛ فكانوا كما قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَار * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾[1].

ولم تزَل الحرب بين الأولياء وبين الفرقة التي كانت في الجانب الشرقيّ والقتل محتفل في أعلامهم، والجراح فاشية فيهم؛ حتى إذا عاينوا ما أنزل الله بأشياعهم من البَوار، وأحلّ بهم من النقمة والاستئصال؛ ما لهم من الله من عاصم، ولا من أوليائه ملجأ ولا موئل؛ ولَّوْا منهزمين مفلولين منكوبين، قد أراهم الله العبرَ في إخوانهم الغاوية، وطوائفهم المضلَّة؛ وضلّ ما كان في أنفسهم لما رأوْا من نصر الله لجنده؛ وإعزازه لأوليائه؛ والحمد لله ربّ العالمين، قامع الغواة الناكبين عن دينه، والبغاة الناقضين لعهده، والمرّاق الخارجين من جملة أهل حقّه؛ حمداً مبلِغاً رضاه، وموجباً أفضل مزيده، وصلى الله أوّلاً وآخراً على محمد عبده ورسوله، الهادي إلى سبيله، والدّاعي إليه بإذنه، وسلم تسليماً.

وكتب سعيد بن حُميد يوم السبت لسبع خلون من صفر سنة إحدى وخمسين ومائتين.

وركب محمد بن عبد الله بن طاهر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر إلى باب الشمّاسية، وأمر بهدم ما وراء سُور بغداد من الدور والحوانيت والبَساتين وقطْع النَّخْل والشَّجر من باب الشَّماسية إلى ثلاث أبواب؛ لتتسع الناحية على مَنْ يحارب فيها؛ وكان وُجّه من ناحية فارس والأهواز نيّفٌ وسبعون حماراً بمالٍ إلى بغداد، قدم به ـ فيما ذكر ـ منكجور بن قارن الأشروسنيّ القائد، فوجَّه الأتراك وأبو أحمد بن بابك إلى طرارستان في ثلاثمائة فارس وراجل؛ ليلتقي ذلك المال إذا صار إليها. فوجّه محمد بن عبد الله قائداً له يقال له يحيى بن حفص، يحمل ذلك المال، فعدَل به عن طرارستان، خوفاً من ابن بابك؛ فلما علم ابن بابك أن المال قد فاته صار بمن معه إلى النهروان؛ فأوقع من كان معه من الجند بأهلها، وأخرج أكثرهم، وأحرق سفن الجسر؛ وهي أكثر من عشرين سفينة، وانصرف إلى سامرّا.

وقدم محمد بن خالد بن يزيد ـ وكان المستعين قلده الثغور الجزريّة، وكان مقيماً بمدينة بلد ينتظر من يصير إليه من الجند والمال ـ فلما كان من اضطراب أمر الأتراك ودخول المستعين بغداد ما كان، لم يمكنه المصير إلى بغداد إلّا من طريق الرّقة، فصار إليها بمَن معه من خاصّته وأصحابه، وهم زهاء أربعمائة فارس وراجل؛ ثم انحدر منها إلى مدينة السلام، فدخلها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر، فصار إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فخلع عليه خمس خلع: دَبيقيّ، ومُلْحم، وخزّ، ووشي، وسواد، ثم وجهه في جيش كثيف لمحاربة أيوب بن أحمد؛ فأخذ على ظهر الفرات فحاربه في نفر يسير، فهُزم وصار إلى ضَيْعته بالسواد.

فذكر عن سعيد بن حميد أنه قال: لمّا انتهى خبر هزيمة محمد بن عبد الله، قال: ليس يُفلح أحدٌ من العرب إلّا أن يكون معه نبيّ ينصره به.

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٨ ـ ٢٩ .

وفي هذا اليوم كانت للأتراك وقعة باب الشمّاسية، وكانوا صاروا إلى الباب، فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى كشفوا مَنْ عليه، ورموا المنجنيق المنصوب بسرّة الباب بالنّفط والنار، فلم يعمل فيه نارهم، وكثَرهم من على الباب من الجند حتى أزالوهم عن موقفهم، ودفعوهم عن الباب بعد قتلهم عدّة يسيرة من أهل بغداد، وجرحهم منهم جماعة كثيرة بالسِّهام. فوجّه محمد بن عبد الله إليهم عند ذلك العرّادات التي كانت تحمل في السفن والزّواريق، فرموْهم بها رمياً شديداً، فقتلوا منهم جماعة كثيرة نحواً من مائة إنسان، فتنحَّوْا عن الباب؛ وكان بعض المغاربة صار في هذا اليوم إلى سور باب الشماسية؛ فرمى كُلاّباً إلى السور، وتعلّق به وصعد، فأخذه الموكلُون بالسور فقتلوه، ورَموْا برأسه في المنجنيق إلى عسكر الأتراك؛ وانصرفوا عند ذلك إلى معسكرهم.

وذكر أنّ بعض الموكلين بسُور باب الشّماسية من الأبناء هاله ما رأى من كثرة مَنْ ورد باب الشماسية في هذا اليوم من الأتراك والمغاربة؛ وكانوا قَربُوا من الباب بأعلامهم وطبولهم، ووضع بعض المغاربة كلاّباً على السور؛ فأراد بعض الموكّلين بالسور أن يصيح: يا مستعين، يا منصور، فغلط؛ فصاح: يا معتزّ، يا منصور؛ فظنّه بعض الموكلين بالباب من المغاربة، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى دار محمد بن عبد الله؛ فأمر بنصبه، فجاءت أمه وأخوه في عشية هذا اليوم بجُثّته في محمل يصيحان ويطلبان رأسه؛ فلم يُدفع إليهما؛ ولم يزل منصوباً على الحسر إلى أن أنزل مع ما أنزل من الرؤوس.

ووافى ليلة الجمعة لسبع بقين من صَفَر جماعة من الأتراك باب البَرَدان؛ وكان الموكّل به محمد بن رجاء؛ وذلك قبل شخوصه إلى ناحية واسط؛ فقتل منهم ستة نفر، وأسر أربعة، وكان الدّرغمان شجاعاً بطلاً، وصار في بعض الأيام مع الأتراك إلى باب الشماسيّة، فرمى بحجر منْجنيق، فأصاب صدره؛ فانصُرف به إلى سامُرّا، فمات بين بُصرى وعُكْبَراء؛ فحمِل إلى سامرّا؛ فذكر يحيى بن العكيّ القائد المغربيّ أنه كان إلى جنب الدّرْغمان في يوم من أيامهم؛ إذ وافاه ناوكيّ، فأصاب عينه، ثم أصابه بعد ذلك حَجَر فأطار رأسه، فحمل ميّتاً.

وذُكر عن عليّ بن حسن الرامي، أنه قال: كنّا قد جمعنا على السور على باب الشّماسية من الرّماة جماعة، وكان مغربيّ يجيء حتى يقرب من الباب، ثم يكشف استه ثم يضرط ويصيح؛ قال: فانتخبت له سهماً فأنفذته في دُبره حتى خرج من حلقه، وسقط ميتاً. وخرج من الباب جماعة فنصبوه كالمصلوب، وجاءت المغاربة بعد ذلك، فاحتملوه.

وذكر أنّ الغوغاء اجتمعوا بسامُرّا بعد هزيمة الأتراك يوم قُطْربّل، ورأوا ضعف أمر المعتزّ، فانتهبوا سوق أصحاب الحُلَى والسيوف والصيارفة، وأخذوا جميعَ ما وجدوا فيها من متاع وغيره، فاجتمع التجار إلى إبراهيم المؤيد أخي المعتزّ، فشكوا ذلك إليه، وأعلموه أنهم قد كانوا ضمنوا لهم أموالهم وحفظها عليهم. قال: فقال لهم: كان ينبغي لكم أن تحوّلوا متاعكم إلى منازلكم؛ وكبُر عنده ذلك.

وقدم بحونة بن قيس بن أبي السعديّ يوم السبت لثمان بقين من صفر بمن فرَض من الأعراب وهم ستمائة راجل ومائتا فارس. وقدم في هذا اليوم عشرة نفر من وجوه أهل طَرَسوس يشكون بلكاجور، ويزعمون أن بيعة المعتزّ وردت عليه، فخرج بعد ساعتين من وصول الكتاب، ودعا إلى بيعة المعتزّ، وأخذ القوّادَ وأهل الثغر بذلك؛ فبايع أكثرهم، وامتنع بعض، فأقبل على مَن امتنع بالضرب والقيد والحبس. وذُكر أنهم امتنعوا

وهربوا لّما أخذهم بالبيعة كرهاً، فقال وصيف: ما أظن الرّجل إلاّ اغترّ ومُوِّه عليه وأن الوارد عليه بكتاب المعتزّ هو الليث بن بابَك، وذكر له أنّ المستعين مات، وأقاموا المعتزّ مكانه؛ فتكلّم هؤلاء النّفر يشكون بلكاجور، ونسبوه إلى أنه فعل ذلك على عمد، ورفعوا عليه أنه كان يرَى في بني الواثق، وقد ورد كتاب بلكاجور يوم الأربعاء لأربع بقين من صفر مع رجل يقال له عليّ بن الحسين المعروف بابن الصّعلوك؛ يذكر فيه أنه ورد عليه كتاب من أبي عبد الله بن المتوكل، أنه قد وليَ الخلافة، وبايع له. فلما ورد عليه كتاب المستعين بصحة الأمر، جدّد أخذ البيعة على مَنْ قِبَله ، وأنه على السمع والطاعة له. فأمر للرسول بألف درهم فقبضها، وقد كان أمر بالكتاب إلى محمد بن عليّ الأرمني المعروف بأبي نصر بولايته على الثغوو الشأمية. فلما ورد كتاب بلكاجور بالطاعة أمسك عن إنفاذ كتاب محمد بن عليّ الأرمنيّ بالولاية.

وفي يوم الاثنين لست بقين من صفر من هذه السنة قدم إسماعيل بن فراشة من ناحية همذَان في نحو ثلاثمائة فارس، وكان جنده ألفاً وخمسمائة، فتقدّم بعضُهم وتأخر بعض، وتفرّقوا، وقدم معه برسول للمعتز، كان وُجّه إليه لأخذ البيعة، فقيّد الرسول وصار به إلى مدينة السلام على بغل بلا إكاف، فخلع على إسماعيل خمس خلع. وورد برجل ذكر أنه علويّ أخِذ بناحية الريّ وطبرستان، متوجهاً إلى من هناك من العلوية؛ وكان معه دوابّ وغلمان؛ فأمر به فحبِس في دار العامة أشهراً، ثم أخِذ منه كفيل وأطلِق.

وقرىء في هذا اليوم كتاب موسى بن بغا يذكر فيه أنه ورد كتاب المعتزّ، وأنه دعا أصحابه، وأخبرهم بما حدَث، وأمرهم بالانصراف معه إلى مدينة السلام؛ فامتنعوا، وأجابه الشاكريّة والأبناء، واعتزله الأتراك ومَنْ كانَفهم، وحاربوه فقُتل منهم جماعة وأسِر أسرى؛ فهم قادمون معه. فكبّروا في دار ابن طاهر عند قراءتهم كتابه.

ولخمس بَقين من صَفَر دخل من البصرة عشر سفائن بحريّة؛ تسمى البوارج، في كل سفينة اشْتيام وثلاثة نفّاطين ونجّار وخباز وتسعة وثلاثون رجلا من الجذّافين والمقاتلة؛ فذلك في كلّ سفينة خمسة وأربعون رجلا. فمدّت إلى الجزيرة التي بحذاء دار ابن طاهر، ولعب أصحابها بالنيران، ثمّ مدّت إلى ناحية الشماسيّة في هذه الليلة، فرُمِي مَنْ فيها من الأتراك بالنيران، فعزموا على الانتقال من معسكرهم برقّة الشماسية إلى بُستان أبي جعفر بالحير، ثم بدا لهم فارتفعوا فوق عسكرهم في موضع لا ينالهم شيء من النار.

ولليلة بقيت من صَفَر صار الأتراك والمغاربة إلى أبواب مدينة السلام من الجانب الشرقيّ، فأغلقت الأبواب في وجوههم، ورموا بالسهام والمنجنيقات والعرّادات، فقتل من الفريقين وجُرح جماعة كثيرة، فلم يزالوا كذلك إلى العصر.

وفي هذه السنة كرّ سليمان بن عبد الله راجعاً من جُرجان إلى طبرستان وشخص من آمُل، وخرج بجمع كثير وخيل وسلاح، فتنحّى الحسن بن زيد ولحق بالدّيم، فكتب إلى السلطان ابن أخيه محمد بن طاهر بدخوله طبرستان، فقرىء كتابه ببغداد، وكتب نسخة ذلك المستعين إلى بغا الصغير مولى أمير المؤمنين بفتح طَبرستان على يدي محمد بن طاهر وهزيمة الحسن بن زيد؛ وأن سليمان بن عبد الله دخل سارية على حالٍ من السلامة، وأنه ورد عليه ابنان لقارن بن شهريار مولى أمير المؤمنين؛ يقال لهما مازيار ورستم، في خمسمائة رجل، إلى ما ذكر من غير ذلك في الفتح، وأنّ أهل آمُل أتوْه مُنيبين مظهرين إنابتَهم، مستقبلين عثراتهم، فلقيهم بما زاد في

سكونهم وثقتهم، ونهض بعسكره على تعبيته، مستقرئاً للقرى والطرق، وتقدم بالنهي عن القتل، وترك العَرْض لأحدٍ في سلب وغيره، وتوعّد من جاوز ذلك؛ وأن كتاب أسد بن جندان وافاه بهزيمة عليّ بن عبد الله الطالبيّ المسمى بالمرعشيّ فيمن كان معه؛ وهم أكثر من ألفَيْ رجُل ورجلين من رؤساء الجبل، في جمع عظيم عند تأدّي الخبر إليهم بانهزام الحسن بن زيد ودخوله بالأولياء إلى تلك الناحية، وأنه دخل مدينة آمُل في أحسن هيئة، وأظهر عزّةً وسلامة شاملة، وانقطعت عنه أسباب الفتنة.

ولخمس بقين من المحرم من هذه السنة ورد كتاب العلاء بن أحمد عامل بغا الشرابيّ على الخراج والضِّياع بإرمينيَة، بما كان من خروج رجلين بتلك الناحية؛ سمّاهما وذكر إيقاعه بهما، وأنهما التجآ إلى قلعة،فوضع عليها المجانيق حتى جهدها، وأنّهما خرجا من القلعة هاربين، وخفي أمرُهما وصارت القلعة في أيدي الأولياء.

وفيها أيضاً ورد كتاب مؤرّخ لإحدى عشرة ليلة بقيَت من المحرّم بانتقاض أهل أردبيل، وكتاب الطالبيّ إليهم، وأنـه بعث أربعة عساكر على أربعة أبواب مدينتهم ليحاصرهم.

وفيها ورد كتاب مخبر عن الحرب التي كانت بين عيسى بن الشيخ والموفّق الخارجيّ وأسْر عيسى الموفّق، ومسألة عيسى المستعين توجيه ما يحتاج إليه من السلاح؛ ليكون عدّة له في البلد، يقوى به الجند على الغزو، وأن يكتب إلى صاحب الصّور في توجيه أربع مراكب إليه بجميع آلتها، تكون قبلَه مع ما قبله منها.

وفيها أيضاً ورد كتاب محمد بن طاهر بخبر الطالبيّ الذي ظهر بالريّ ونواحيها، وما أعدّ له من العساكر، ووجّه إليه من المقاتلة، وبهرب الحسن بن زيد عند مصيره إلى المحمدية وإحاطة عسكره بها؛ وأنه عند دخوله المحمّدية وكّل بالمسالك والطرق، وبثّ أصحابه، وأنّ الله أظفره بمحمد بن جعفر أسيراً على غير عَقْد ولا عهد. والذي صار إلى الريّ من العلوية في المرة الثانية بعد ما أسِر محمد بن جعفر أحمدُ بن عيسى بن عليّ بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن عليّ بن أبي طالب، وهو الذي خرج في مصعد الحاج، والذي بطبَرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رحمة الله عليه ورضوانه.

وفيها أيضاً ورد كتابٌ من محمد بن طاهر على المستعين،يذكر فيه انهزام الحسن بن زيد منه،وأنه لقيه في زُهاء ثلاثين ألفاً، فجرت فيما بينه وبينه حرب، وأنه قتَل من رؤوس أصحابه ثلاثمائة وَنيّفاً وأربعين رجلاً. وأمر المستعين أن يقرأ نسخة كتابه في الآفاق.

وفيها خرج يوسف بن إسماعيل العلويّ ابن أخت موسى بن عبد الله الحسينيّ.

وفي شهر ربيع الأول منها أمر محمد بن عبد الله أن يُتخذ لعيّاري أهل بغداد كافر كوبات، وأن يصيّر فيها مسامير الحديد، ويجعل ذلك في دار المظفر بن سيسل؛ لأنهم كانوا يحضرون القتال بغير سلاح، وكانوا يرمون بالآجُرّ، ثم أمر منادياً، فنادى: مَنْ أراد السلاح فليحضر دار المظفّر، فوافاها العيّارون من كلّ جانب، فقسم ذلك فيهم، وأثبت أسماءهم، ورأس العيّارون عليهم رجلا يدعى ينتويه؛ ويكنى أبا جعفر وعدّة أخَر؛ يدعى أحدهم دُونـل، والآخر دمحال، والآخر أبا نملة، والآخر أبا عصارة، فلم يثبت منهم إلّا ينتويه؛ فإنه لم يزل رئيساً على عيّاري الجانب الغربيّ، حتى انقضى أمر هذه الفتنة. ولما أعْطِيَ العيّارون الكافر كوبات تفرّقوا على أبواب بغداد، فقتلوا من الأتراك ومنْ أتباعهم نحواً من خمسين نفساً في ذلك اليوم، وقتل منهم عشرة أنفس

وجُرح منهم خمسمائة بالنّشاب، وأخذوا من الأتراك عَلَمَيْن وسُلَّمين.

وفيها كانت لبحونة بن قيس وقعة مع جماعة من الأتراك بناحية بَزُوغَى، لقيهم هو ومحمد بن أبي عون وغيرهما، فأسروا منهم سبعة، وقتلوا ثلاثة، ورمى بعضُهم بنفسه في الماء، فغرق بعضهم ونجا بعضهم.

وذُكر عن أحمد بن صالح بن شيرزاد، أنه سأل رجلًا من الأسرى عن عدّة القوم الذين لقيهم بحونة، قال: كنا أربعين رجلا، فلقينا بحونة وأصحابه سحراً، فقتِل منا ثلاثة، وغرق ثلاثة، وأسر ثمانية، وأفلت الباقون، وأخِذ ثماني عشرة دابة وجواشن وراية لعامل أوانا؛ وهو أخو هارون بن شعيب. وكانت الوقعة بأوانا يوم الأربعاء، وأقام جند بحونة وعبد الله بن نصر بن حمزة بقُطْرُبُّل مسلحة.

وخرج - فيما ذكر - ينتويه وأصحابه من العيّارين في بعض هذه الأيام من باب قُطْربّل، فمضوا يشتمون الأتراك حتى جازوا قُطْربّل، فعبَر مَن عَبر إليهم من الأتراك ناشبة في الزواريق، فقتلوا منهم رجلا، وجرحوا منهم عشرة؛ وكاثرهم العيّارون بالحجارة فأثخنوهم، فرجعوا إلى معسكرهم، فأحضر ينتويه دار ابن طاهر؛ فأمر ألّا يخرج إلّا في يوم قتال، وسُوّر، وأمر له بخمسمائة درهم.

ولأربع عشرة خلتْ من ربيع الأوّل منها، قدم من ناحية الرّقة مزاحم بن خاقان، وأمر القوّاد وبني هاشم وأصحاب الدواوين بتلقّيه، وقدم معه مَنْ كان معه من أصحابه من الخراسانية والأتراك والمغاربة، وكانوا زهاء ألف رجل؛ معهم عتاد الحرب من كل صنْف، ودخل بغداد ووصيف عن يمينه وبغا عن شماله، وعبيد الله بن عبدالله بن طاهر عن يسار بغا، وإبراهيم بن إسحاق خَلْفهم؛ وهو بوقارٍ ظاهر؛ فلمّا وصل خلع عليه سبع خلع، وقُلّد سيفاً، وخلع على ابنيه، على كلّ منهما خمس خلع. ثم أمر أن يفرَض له ثلاثة آلاف رجل من الفرسان والرّجالة، ووجّه المعتز موسى بن أشناس ومعه حاتم بن داود بن بنحور في ثلاثة آلاف رجل من الفرسان والرّجالة فعسكر بإزاء عسكر أبي أحمد من الجانب الغربيّ بباب قُطْربّل لليلةٍ خلت من ربيع الأول. وخرج رجل من العيّارين يعرف بديكويه على حمار وخليفته على حمار، ومعهم تِرسَة وسلاح؛ وخرج آخر في الجانب الشرقي يكنى أبا جعفر ويعرف بالمخرّميّ في خمسمائة رجل في سلاح ظاهر، معهم التِّرسة وبواريّ مُقيَّرة وسيوف وسكاكين في مناطقهم، ومعهم كافر كوبات، وقرب العسكر الوارد من سامرّا إلى الجانب الغربيّ من بغداد. فركب محمد بن عبد الله ومعه أربعة عشر قائداً من قوّاده في عُدّة كاملة، وخرج من المبيضة والنظارة خلق كثير، فسار حتى حاذى عسكر أبي أحمد؛ وكانت بينهم في الماء جَوْلة قتِل من عسكر أبي أحمد أكثر من خمسين رجلا، ومضى المبيّضة حتى جازت العسكر بأكثر من نصف فرسخ، فعبرت إليهم شبّارات من عسكر أبي أحمد؛ فكانت بينهم مناوشة، وأخذوا عِدّة من الشبارات بما فيها من المقاتلة والملاحين، فاستوثق منهم، وانصرف محمد بن عبد الله، وأمر ابن أبي عون أن يصرف الناس، فوجّه ابنُ أبي عون إلى النّظارة والعامة من صرفهم وأغلظ لهم القول، وشتَمهم وشتموه، وضرب رجلا منهم فقتله. وحملت عليه العامة؛ فانكشف من بين أيديهم؛ وقد كان أربع شبّارات من شبّارات أهل بغداد تخلّفت؛ فلما انصرف ابن أبي عون منهزماً من العامة نظر إليها أهل عسكر أبي أحمد فوجّهوا في طلبها شبّارات، فأخذوها وأحرقوا سفينة فيها عرّادة لأهل بغداد وصار العامة من فورهم إلى دار ابن أبي عوْن لينهبوها، وقالوا: مايَلَ الأتراك، وأعانهم وانهزم بأصحابه. وكلّموا محمد بن عبد الله في صرفه وضجّوا، فوجّه المظفر بن سيسل في أصحابه، وأمره أن يصرِف العامة ويمنعهم أن يأخذوا لابن أبي عون شيئاً

من متاعه، وأعلمهم أنه قد عزله عن أمر الشبّارات والبحريات والحرب، وصيّر ذلك إلى أخيه عبيد الله بن عبد الله، فمضى مظفّر، فصرف الناس عن دار محمد بن أبي عون.

وفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول وافَى عسكر الأتراك الشاخص من سامُرّا إلى بغداد عُكْبَراء، فأخرج ابن طاهر بندار الطبريّ وأخاه عبيد الله وأبا السنا ومزاحم بن خاقان وأسد بن داود سياه وخالد بن عمران وغيرهم من قُوّاده، فمضوا حتى بلغوا قُطْرُبّل، وفيها كمين الأتراك فأوقع بهم، ونشبت الحرب بينهم، فدفعهم الأتراك حتى بلغوا الحائطين بطريق قُطْربّل. وقاتل أبو السنا وأسد بن داود قتالا شديداً، وقتل كلّ واحد منهما عدّة من الأتراك والمغاربة، ومال أبو السنا ميْلةً، وتبعه الناس، فقتل قائداً من قوّاد الأتراك يقال له سور، ورُفع رأسه فصار من فوره إلى دار ابن طاهر، وأعلمه هزيمة الناس وسأله المدد، فأمر ابن طاهر به فطُوِّق - وكان وزن الأطواق كلّ طوق ثلاثين ديناراً، وكلُّ سوار سبعة مثاقيل ونصف - وانصرف أبو السنا راجعاً إلى الناس فيمن أخرج إليهم من المدد من جميع الأبواب، فذكر أن محمد بن عبد الله عنّف أبا السنا بإخلاله بموضعه ومجيئه نفسه بالرأس، وقال له: أخللتَ بالناس، فقبح الله هذا الرأس ومجيئك به!

ولما انصرف محمد بن عبدوس قاتل أسد بن داود أشدّ قتال بعد تفرّق الناس عنه، فقتِل. وثاب إلى موضعه قوم من أهل بغداد بعد ما أخذ الأتراك رأسه، فدافعوهم عن جثّته، فحملوه إلى بغداد في زورق، وبلغ الأتراك باب قُطْربُل، فخرج الناس إليهم فدفعوهم عن الباب دفعاً شديداً، واتبعوهم حتى نحّوْهم؛ فأتِيَ دار ابن طاهر بعدة رؤوس ممن قتل من الأتراك والمغاربة في هذا اليوم، فأمر بنصبها بباب الشماسية، فنصبت هنالك، ثم رجع الأتراك والمغاربة على أهل بغداد من ناحية قُطْربّل، فقتل من أهل بغداد خَلْق كثير، وقتل من الأتراك جمع كثير؛ ولم يزل بندار ومن معه يقاتلونهم حتى أمسوا. وانصرف بُندار بالناس، وغلّقت الأبواب، وأمر ابن طاهر المظفر بن سَيْسَل ورشيد بن كاوس وقائداً معهم فتوجّهوا في نحو من خمسمائة فارس من باب قُطْربُل إلى ناحية عسكر ابن أشناس، فوافَوهم على حالِ سكون وأمْن، فقتلوا منهم نحواً من ثلاثمائة، وأسروا عدّة وانصرفوا.

وذُكر أنّ الأتراك والمغاربة وافوْا في هذا اليوم باب القطيعة، فنقَبوا نقباً بقرب الحمام الذي يعرف بباب القطيعة، فقتِل أوّل مَنْ خرج منهم من النقب، وكان القتل في هذا اليوم أكثر في الأتراك والمغاربة والجراح بالسهام في أهل بغداد.

وسمعت جماعة يذكرون أنه حضر هذه الوقعة غلام لم يبلغ الحلم، ومعه مخلاة فيها حجارة ومِقلاع في يده، يرمي عنه فلا يخطىء وجوهَ الأتراك ووجوه دوابّهم. وأنّ أربعة من فرسان الأتراك الناشبة جعلوا يرمُونه فيخطئونه، وجعل يرميهم فلا يخطىء، وتقطّر بهم دوابهم؛ فمضوا حتى جاءوا معهم بأربعة من رجّالة المغاربة بأيديهم الرماح والتراس، فجعلوا يحملون عليه، ثم داخله اثنان منهم، فرمى بنفسه في الماء، ودخلا خلفه فلم يلحقاه، وعبر إلى الجانب الشرقيّ، وصِيحَ بهما، وكبّر الناس، فرجعوا ولم يصلوا إليه.

وذُكر أنّ عبيد الله بن عبد الله دعا القوّاد في هذا اليوم وهم خمسة نفر، فأمر كلَّ واحد منهم بناحية، ثم مضى الناس إلى الحرب، وانصرف هو إلى الباب؛ فقال لعبد الله بن جهم وهو موكّل بباب قُطْربل: إياك أن تَدَعَ منهم أحداً يدخل منهزماً من الباب. ونشبت الحرب، وتشتّت الناس، ووقعت الهزيمة؛ وثبت أسد بن داود؛

حتى قُتِل وقتَل بيده ثلاثة، ثم أتاه سهم غَرَب، فوقع في حلْقه فولّى، وجاء سهم آخر فوقع في كَفَل دابته فشبّت به فصرعته؛ ولم يثبت معه أحد إلا ابنُه، فجُرِح؛ وكان إغلاق الباب على المنهزمين أشدَّ من عدوّهم. وحُمِل - فيما ذكر - إلى سامُرّا من أهل بغداد سبعون أسيراً، ومن الرؤوس ثلاثمائة رأس.

وذكر أنّ الأسرى لمّا قربوا من سامُرّا أمر الذي وجّه به معهم ألّا يُدخلهم سامرا إلّا مغطّي الوجوه، وأنّ أهل سامرّا لمّا رأوْهم كثرضجيجهم وبكاؤهم،وارتفعت أصواتهم وأصوات نسائِهم بالصُّرَاخ والدعاء، فبلغ ذلك المعتزّ، فكره أن تغلظ قلوب مَنْ بحضرته من الناس عليه، فأمر لكل أسير بدينارين، وتقدّم إليهم بترك معاودة القتال، وأمر بالرؤوس فدفِنت.

وكان في الأسرى ابن لمحمد بن نصر بن حمزة وأخ لقُسطنطينَة جارية أم حبيب وخمسة من وجوه بغداد ممن كان في النظّارة؛ فأما ابن محمد بن نصر، فذكر أنه قُتِل وصلب بإزاء باب الشّماسيّة لمكان أبيه.

وفي يوم الخميس لأربع بَقِين من شهر ربيع الأول، قدم أبو الساج من طريق مكة في نحو من سبعمائة فَارس ومعه ثمانية عشر محملا فيها ستة وثلاثون أسيراً من أسارى الأعراب في الأغلال، ودخل هو وأصحابه بغداد في زِيّ حسن وسلاح ظاهر، فصار إلى الدّار، فخلِع عليه خمس خِلع، وقلّد سيفاً، وانصرف إلى منزله مع أصحابه؛ وقد خلع على أربع نفر من أصحابه.

وفي يوم الاثنين لانسلاخ شهر ربيع الأول، وافى باب الشّماسية - فيما قيل - جماعة من الأتراك، معهم من المعتزّ كتاب إلى محمد بن عبد الله، وسألوا إيصاله إليه، فامتنع الحسين بن إسماعيل من قبوله حتى استأمر؛ فأمر بقبوله؛ فوافَى يوم الجمعة ثلاثة فوارس، فأخرج إليهم الحسين بن إسماعيل رجلاً معه سيف وتُرس، فأخذ الكتاب من خريطة، فأخرِج، فأوصله إلى محمد؛ فإذا فيه تذكير محمد بما يجب عليه من حفظه لقديم العهد بينه وبين المعتزّ والحرمة؛ وأن الواجب كان عليه أن يكون أوّل من سعى في أمره وتوجيه خلافته؛ وذكر أنّ ذلك أوّل كتاب ورد عليه من المعتزّ بعد الحرب.

وفي يوم السبت لخمس خلوْن من ربيع الآخر وافَى بغداد حَبْشون بن بغا الكبير ومعه يوسف بن يعقوب قوصرّة مولى الهادي فيمن كان مع موسى بن بغا من الشاكريّة، وانضم إليهم عامة الشاكريّة المقيمين بالرّقة؛ وهم في نحو من ألف وثلاثمائة، فخلع عليه خمس خلع، وعلى يوسف أربع خلع، وعلى نحو من عشرين من وجوه الشاكريّة، وانصرفوا إلى منازلهم.

وقدِم بغداد رجل ذكر أن عِدّة الأتراك والمغاربة وحشْوَهم في الجانب الغربيّ اثنا عشر ألف رجل ورأسهم بايكباك القائد، وأنّ عدة مَنْ مع أبي أحمد في الجانب الشرقيّ سبعة آلاف رجل خليفته عليهم الدّرغمان الفرغانيّ، وأنه ليس بسامرّا من قوّاد الأتراك ولا من قوّاد المغاربة إلّا ستة نفر، وُكّلُوا بحفظ الأبواب. وكانت بين الفريقين وقعة يوم الأربعاء لسبع خَلَوْن من شهر ربيع الآخر، فقتل - فيما ذكر - فيها من أصحاب المعتزّ مع من غرق منهم أربعمائة رجل، وقتل من أصحاب ابن طاهر مع مَن غرق ثلاثمائة رجل، لم يكن فيهم إلا جنديّ؛ وذلك أنه لم يخرج في ذلك اليوم من الغوغاء أحد. وقتِل الحسن بن عليّ الحربيّ؛ وكان يوماً صعباً على الفريقيْن جميعاً.

وذُكر أنّ مزاحم بن خاقان رَمى فيه موسى بن أشناس بسهم فأصابه، فانصرف مجروحاً، وافتُقد من عكسر أبي أحمد نحو من عشرين قائداً من الأتراك والمغاربة.

ولما كان يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر خلَع على أبي الساج خمس خِلَع، وعلى ابن فراشة أربع خِلع، وعلى يحيى بن حفص حبُوس ثلاث خلع. وعسكر أبو الساج في سوق الثلاثاء، وأعطِيَ الجند بغالاً من بغال السلطان يُحمل عليها الرّجالة، وحوّل مزاحم بن خاقان من باب حَرْب إلى باب السلامة، وصار مكان مزاحم خالد بن عمران الطائيّ الموصليّ.

وذكر أن أبا السّاج لما أمره ابن طاهر بالشخوص قال له: أيّها الأمير، عندي مشورة أشير بها، قال: قل يا أبا جعفر؛ فإنك غير متَّهم، قال: إن كنت تريد أن تجادّ هؤلاء القوم فالرأي لك ألاّ تفارق قوّادك ولا تفرّقهم، واجمعهم حتى تفضّ هذا العسكر المقيم بإزائك؛ فإنك إذا فرغت من هؤلاء فما أقدرك على من وراءك! فقال: إنّ لي تدبيراً، ويكفي إن شاء. فقال أبو الساج: السمع والطاعة؛ ومضى لما أمِر به.

وذكر أن المعتزّ كتب إلى أبي أحمد يلومه للتقصير في قتال أهل بغداد، فكتب إليه:

لِأمْـرِ المنـايـا علينـا طـريـقٌ ... ولـلدّهـرِ فيـه اتسـاعٌ وضيـقُ
فـأيّـامُـنـا عِـبـرٌ لـلأنـام ... فمنهـا البُكـورُ ومنهـا الـطُّروقُ
ومنهـا هَنَـاتٌ تُشِيبُ الـوليـدَ ... ويَخذُلُ فيهـا الصَّـديقَ الصديقُ
وسُـورٌ عَـريضٌ لـه ذِرْوَةٌ ... تَفُـوتُ العيـونَ وبحْـرٌ عَـمِيـقُ
قِـتَـالٌ مُبيـدٌ، وسَيْـفٌ عَتِيـدٌ ... وخَـوْف شـديـد، وحِصْن وثيقُ
وطـولُ صياحٍ لـداعي الصباح الـ ... ـسلاحَ السـلاحَ، فمـا يَسْتَفيق
فـهـذا قـتيـلٌ وهـذا جـريـحٌ ... وهـذا حـريـقٌ وهـذا غـريـق
وهـذا قـتـيـل وهـذا تـليـل ... وآخـرُ يَشْـدَخُـهُ المنجنيقُ
هُنـاكَ اغتـصـاب وثَمَّ انتهـاب ... ودُورٌ خـرابٌ وكـانـت تَـرُوقُ
إذا مـا سَمـوْنـا إلى مَسـلَكٍ ... وجدنـاه قـد سُدَّ عنـا الطريقُ
فـبـاللهِ نبـلُغُ مـا نَـرْتـجيـهِ ... وبـاللهِ نَـدفَـعُ مـا لا نـطِيـقُ

فأجابه محمد بن عبد الله ـ أو قيل على لسانه:

ألَا كـلّ مـن زاغَ عـن أمـره ... وجـارَ بـهِ عـن هُـداهُ الطريق
مـلاقٍ من الأمرِ مـا قـد وصَفْتَ ... وهـذا بـأمثـالِ هـذا خَليـقُ
ولَا سـيّـمـا نـاكـثُ بَـيـعـةً ... وتـوكيـدُهـا فيـه عـهـد وثيـقُ
يُـسَـدُّ عـليـه طـريـقُ الهـدى ... ويـلقى مِنَ الأمـر مـا لا يُـطيقُ
وليسَ بِبـالـغِ مـا يَـرْتجيـه ... مَـنْ كـان عـن غيـه لا يُفيـقُ
أتـانَـا بـه خَـبـرٌ سـائـرٌ ... رواه لـنـا عـن خُـلوقٍ خُـلوقُ
وهـذا الـكـتـابُ لـنـا شـاهـدٌ ... يُـصَـدِّقـهُ ذَا النبـيُّ الصَّدُوقُ

أما الشعر الأول؛ فإنه ينشد لعليّ بن أمية في فتنة المخلوع والمأمون، والجواب لا يعرف قائله.

وفي ربيع الآخر من هذه السنة ذُكر أن مائتي نفس من بين فارس وراجل مضوْا من قِبَل المعتزّ إلى ناحية البَندنيجيين ورئيسهم تركيّ يدعى أبلج، فقصدوا الحسن بن عليّ، فانتهبوا داره، وأغاروا على قريته، ثم صاروا إلى قرية قريبة منها، فأكلوا وشربوا، فلمّا اطمأنوا استصرخ عليهم الحسن بن عليّ أكراداً من أخواله وقوماً من قرى حوله، فصاروا إليهم وهم غارّون، فأوقع بهم وقُتل أكثرهم، وأسر سبعة عشر رجلا منهم، وقتل أبلج، وهرب مَنْ بقي منهم ليلاً، ثم بعث الحسن بن عليّ الأسرى ورأس أبلج ورؤوس مَنْ قتِل معه إلى بغداد.

والحسن بن عليّ هذا رجل من شيبان كان يخلف - فيما ذكر - يحيى بن حفص في عمله، وأمّه من الأكراد.

ذكر خبر المدائن في هذه الفتنة

ذُكر أنّ أبا الساج وإسماعيل بن فراشة ويحيى بن حفص، لمّا خُلع عليهم للشخوص نحو المدائن، عسكروا بسُوق الثلاثاء؛ فلما كان يوم الأحد لعشر بَقِين من شهر ربيع الأول، حمل رجّالته على البغال، وصار إلى المدائن، ثم إلى الصيّادة؛ وابتدأ في حفر خندق المدائن - وهو خندق كسرى - وكتب يستمد؛ فوجّه إليه خمسمائة رجل من رجالة الجيشيّة؛ وكان شخوصه في ثلاثة آلاف فارس وراجل، ثم استمدّه فأمدّه، فحصل في عسكره ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل، ثم أمِدّ بمائتي راجل من الشاكريّة القدماء، وحُملوا في السفن. وانحدروا إليه يوم الأحد لأربع خَلَوْن من جمادى الآخرة.

ذكر الخبر عن أمر الأنبار وما كان فيها من هذه الفتنة

فممّا كان بها أن محمد بن عبد الله وجّه بحونة بن قيس في الأعراب إلى الأنبار، وأمره بالمقام بها والفرض لأعراب الناحية، ففرَض قوماً منهم ومن المشبّهة بهم نحواً من ألفي رجل؛ فأقام بالأنبارِ وضبطها؛ فبلغه أن قوماً من الأتراك قد قصدُوه، فبثَق الماء من الفرات إلى خندق الأنبار، فامتلأ الخندق لزيادة الماء، وفاض على ما يليه من الصحارى؛ فصار الماء إلى السالحين فصار ما يلي الأنبار بطيحة واحدةً، وقطع القناطر التي توصّل إلى الأنبار؛ وكتب يستمدّ. فندب للخروج إليه رشيد بن كاوس أخو الأفشين، وضمّ إليه ممن كان معه من رجاله تتمة ألف رجل؛ خمسمائة فارس وخمسمائة راجل، فشخص وعسكر في قصر عبدويه، وأمدّه ابنُ طاهر بثلاثمائة راجل من المَلَطِيّين القادمين من الثغور، وانتخِبوا، ودفع إليهم استحقاقهم، ونفذوا إليه يوم الثلاثاء. ورحل من قصر عَبْدَوَيْه يوم الاثنين سَلْخ ربيع الآخر في نحو من ألف وخمسمائة رجل، وأخرج المعتزّ أبا نصر بن بُغا من سامُرّا على طريق الاسحاقيّ يوم الثلاثاء، فسار يومه وليلتَه، فصبّح الأنبار ساعة نزلها رُشيد بن كاوس.

وكان بحونة نازلا في المدينة ورُشيد خارجها، فلمّا وافى أبو نصر عاجَل رشيداً وأصحابَه وهم غارُّون على غير تعبية، فوضع أصحابه فيهم السَّيْف، ورموْهم بالنشاب فقتلوا عِدّة، وثار بعضُ أصحاب رشيد إلى أسلحتهم، فقاتلوا الأتراك والمغاربة قتالا شديداً، وقتلوا منهم جماعة، ثم انهزم الشاكـريّة ورشيـد على الطريق الذي جاءوا فيه منصرفين إلى بغداد.

ولما بلغ بحونة ما لقيه أصحاب رشيد، وأنّ الأتراك قد مالوا عند انهزام رشيد إلى الأنبار عَبَر إلى الجانب الغربيّ، وقطع جسر الأنبار، وعبر معه جماعة من أصحابه، وصار رشيد إلى المُحَوَّل في ليلته، وسار بحونة في الجانب الغربيّ حتى وافى بغداد يوم الخميس بالعشيّ. ثم دخل رشيد في هذه العشيّة إلى دار ابن طاهر، فأعلم بحونة محمد بن عبدالله أنه عند مصير الأتراك إلى الأنبار وجّه إلى رشيد يسأله أن يوجّه إليه مائة رجل من الناشبة ليرتبهم قُدّام أصحابه، فامتنع من ذلك، وسأله أن يضمّ إليه ناشبة من الفرسان والرّجالة ليصير إلى بني عمه، وذكر أنهم مقيمون هنالك في الجانب الغربيّ على الطاعة وانتظار أمير المؤمنين، وضمن أن يتلافى ما كان منه. فضمّ إليه ثلاثمائة رجُل من فرسان الشاكريّة الناشبة ورجّالتهم، وخلع عليه خَمس خلع، ومضى إلى قصر ابن هُبيرة يستعدّ هنالك.

ثم اختار محمد بن عبد الله الحسينَ بن إسماعيل للأنبار، ووجّه محمد بن رجاء الحِضاريّ معه وعبد الله بن نصر بن حمزة ورشيد بن كاوس ومحمد بن يحيى وجماعة من الناس، وأمر بإخراج المال لمن يخرج مع الحسين ومع هؤلاء القوم؛ فامتنع مَنْ كان قدم من مَلَطْية من الشاكريّة وهم عُظْم الناس من قَبْض رزق أربعة أشهر؛ لأنّ أكثرهم كان بغير دوابّ، وقالوا: نحتاج إلى أن نقوى في أنفسنا، ونشتريَ الدوابّ. وكان الذي أطلِق لهم أربعة آلاف دينار، ثم رضُوا بقبض أربعة أشهر؛ فجلس الحسين في مجلسٍ على باب محمد بن عبد الله، وتقدّم في تَصحيح الجرائد، ليكون عَرضُه الناس وأصحابه في مدينة أبي جعفر، فأعطى في ذلك اليوم جماعة من خاصته. ثم صار الحسين وأصحابُ الدّواوين بعد ذلك إلى مدينة أبي جعفر، ووضع العطاء لمَنْ يخرج معه من الجُنْد في ثلاثة مجالس؛ واستتمّ إعطاؤهم يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى.

فلمّا كان يوم الاثنين أحضِر الحسين بن إسماعيل الدّار ومعه القواد الخارجون معه: رشيد بن كاوس، ومحمد بن رجاء، وعبد الله بن نصر بن حمزة، وأرمش الفرغانيّ، ومحمد بن يعقوب أخو حزام، ويوسف بن منصور بن يوسف البرْم، والحسين بن عليّ بن يحيى الأرمنيّ، والفضل بن محمد بن الفضل، ومحمد بن هَرْثمة بن النصر، وخلع على الحسين؛ وقُدّمت مرتبتُه إلى الفَوْج الثاني - وكان في الفوج الرابع - وخلع على هؤلاء القوّاد، وصُيّر رُشيد بن كاوس على المقدمة، ومحمد بن رجاء على الساقة، ومضى الحسين ومَنْ ضُمّ إليه من عشيرته وقوّاده إلى معسكرهم، وأمر وصيف وبغا أن يسبقا الحسين إلى معسكره، وشيّعه عبيدُ الله بن عبد الله وجميع قوّاد ابن طاهر وكتّابه وبنو هاشم والوجُوه إلى الياسريّة، وأخرِج لأهل العسكر من المال ستة وثلاثون ألف دينار، وحمل إلى معسكر الياسرية بعد لإعطاء مَنْ بقي ألف وثمانمائة دينار، تمامَ استحقاقهم.

فلمّا كان يوم الخميس سارت مقدّمة الحسين والمقلّد لها عبد الله بن نصر ومحمد بن يعقوب في ألف فارس وراجل، فنزلوا البَثْق المعروف بالقاطوفة وكان الأتراك قد وجّهوا إلى المنصوريّة على خمسة فراسخ من بغداد جماعةً منهم ومن المغاربة والغوغاء زُهاء مائة إنسان، فظُفر بسبعة من المغاربة، فوُجّه بهم إلى الحسين، فأنفذهم إلى الباب، وسار الحسين يوم الجمعة لسبع بقِين من جمادى الأولى. وقد كان أهل الأنبار حين تنحّى بحونة ورشيد، وصار الأتراك والمغاربة إلى الأنبار ونادوا الأمان؛ فأعطُوه، وأمِروا بفتح حوانيتهم والتسوّق فيها والانتشار في أمورهم، واطمأنُّوا إلى ذلك منهم وسكنوا، وطمعوا فيهم أن يفوا لهم، فأقاموا

بذلك يومهم وليلتهم حتى أصبحوا، وكان في وقت غلبتهم عليها وافتْهم سفن من الرَّمّة فيها دقيق وأطواف فيها زيت وغير ذلك؛ فأخذوه وجمعوا ما وجدوا فيها من إبل ودوابّ وبغال وحمير، ووجّهوا بذلك مع مَنْ يؤديه إلى منازلهم بسامُرّا، وانتهبوا ما وجدوا، ووجّهوا برؤوس مَنْ قُتل من أصحاب رشيد وبحونة وأهل بغداد وبمن أسروا وكانوا مائة وعشرين رجلا، والرؤوس سبعون رأساً، وجعلوا الأسرى في الجُوالقات، قد أخرجوا منها رؤوسهم حتى صاروا إلى سامُرّا، وصار الأتراك إلى فم الأستانة، وحاولوا سدّها ليقطعوا ماء الفرات عن بغداد؛ فوجَّهوا رجلا، ودفعوا إليه مالاً لآلةِ السِّكْر، وسدّه مع القُلُوس والصواري، ففُطِن به وهو يبتاع ذلك، فحُمِل إلى دار ابن طاهر بعد أن نالتْه العامّة بالضرب والشتم؛ حتى أشفى على الموت، فسئل عن أمره فصدَق، فوُجّه به إلى الحبس.

وكان ابن طاهر قد وجّه الحارث خليفة أبي الساج، فكان على طريق مكة إلى قصر ابن هبيرة، وضمّ إليه خمسمائة رجل من فرسان الشاكريّة القادمين معه؛ فنفذ ومَنْ معه لسبع خلون من جمادى الاولى، ووجّه ابن أبي دلف هشام بن القاسم في مائتي راجل وفارس إلى السِّيبَيْن، ليقيم هناك؛ فلما توجّه الحسين إلى الأنبار كُتب إليه باللحاق بعسكر الحسين ليصير معه إلى الأنبار، ونُودِي ببغداد في أصحاب الحسين ومزاحم بن خاقان أن يلحَقُوا بقوّادهم. فسار الحسين، وتقدّم خالد بن عمران حتى نزل دِممًّا؛ فأراد أن يعقد على نهر أنق جسراً ليعبُر عليه أصحابه، فمانعه الأتراك، فعبَر إليهم جماعة من الرّجالة فكشفوهم، وعقد خالد الجسر، فعبر هو وأصحابه، وصار الحسين إلى دِممّا، فعسكر خارجها، وأقام في معسكره يوماً، ووافتْه طلائع الأتراك ممّا يلي نهر أنق ونهر رُفَيْل فوق قرية دِممًّا، فصفّ الحسين أصحابه من جانب النهر والأتراك من الجانب الآخر، وهم زُهاء ألف رجل، وتراشقوا بالسهام، فجُرح بينهم عداد، وانصرف الأتراك إلى الأنبار.

وكان بحونة مقيماً بقصر ابن هبيرة، فانضمّ إلى الحسين في جميع من كان معه من الأعراب وغيرهم، وكتب بحونة يسأل مالاً لإعطاء أصحابه، فأمر أن يحمل إلى معسكر الحُسين لإعطاء أصحاب بحونة ثلاثة آلاف دينار، وحمِل إلى الحسين مال وأطواق وأسورة وجوائز لمن أبلى في الحرب، وكان الحسين وُعد أنْ يُمَدّ بالرجال حتى يكمل عسكره عشرة آلاف رجل، فكتب ينتجز ذلك؛ فأمر بتوجيه أبي السنا محمد بن عبدوس الغنويّ والجحاف بن سواد في ألف فارس وراجل من المَلَطِيّين وجند انتخبوا من قِيادات شتى، فقبضوا أنزالهم لليلتين بقيتا من جمادى. وساروا مع أبي السناء والجحاف على نهر كَرْخايا إلى المحوّل، ثم إلى دِممّا، ونزل الحسين بعسكره في موضع يعرف بالقَطيعة واسع يحتمل العسكر، فأقام فيه يومَه، ثم عزم على الرّحلة منه إلى قرب الأنبار، فأشار عليه رُشيد والقوّاد أن يُنزل عسكره بهذا الموضع لسَعته وحَصَانته، ويسير هو وقوّاده في خيلٍ جريدةً، فإن كان الأمر له كان قادراً أن ينقل عسكره؛ وإن كان عليه انحاز إلى عسكره وراجع عدُوّه؛ فلم يقبل الرأي، وحملهم على المسير من موضعهم، فساروا وبين الموضعين فرسخان أو نحوهما. فلما بلغوا الموضع الذي أراد الحسين النزول فيه، أمر الناس بالنزول، وكان جواسيس الأتراك في عسكر الحُسين، فساروا إليهم، وأعلموهم رحلة الحسين، وضيق العسكر بالموضع الذي نزل فيه، فوافوْهم والناس يحطُّون أثقالهم، فسار أهل العسكر، ونادوْا السلاح، فصافّوهم، فكانت بينهم قتلَى من الفريقين، وحمل أصحاب الحسين عليهم فكشفوهم كشفاً قبيحاً، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق كثير في الفُرات. وكان الأتراك قد كمنوا قوماً،

فخرج الكمِين عند ذلك على بقيّة العسكر؛ فلم يكن لهم ملجأ إلاّ الفرات. وغرق من أصحاب الحسين خلق كثير، وقُتِل جماعة وأسرَ من الرجّالة جماعة؛ وأما الفرسان فضربُوا دوابّهم هُرّاباً لا يلوون على شيء، والقوّاد ينادونهم يسألونهم الرَّجْعة، فلم يرجع منهم أحد، وأبلى محمد بن رجاء ورُشيد يومئذ بلاء حسناً؛ ولم يكن لمن انهزم معقل دون الياسريّة على باب بغداد، فلم يملك القوّاد أمور أصحابهم، فأشفقوا حينئذ على أنفسهم، فانثنوْا راجعين وراءهم، يحمونهم من أدبارهم أن يُتبعوا، وحوَى الأتراك جميع عسكر الحسين بما فيه من المضارب وأثاث الجند وتجارات أهل السوق؛ وكان معه في السفن سلاح سلِم؛ لأن الملاّحين حَرزُوا سفنهم، فسلِم ما كان معهم من السلاح ومن تجارات التجّار.

وذكر عن ابن زنبور كاتب الحسين أنه أخِذ للحسين اثنا عشر صندوقاً فيها كسوة ومال من مال السلطان مبلغه ثمانية آلاف دينار، ونحو من أربعة آلاف دينار لنفسه، ونحو من مائة بغل، وانتهب فروضُ الحسين مضارب الحسين وأصحابه، وطاروا مع مَنْ طار، فوافوا الياسريّة، وكان أكثر النهب مع أصحاب أبي السنا.

ووافى الحسين والفلّ الياسرية يوم الثلاثاء لستٍّ خلوْن من جمادى الآخرة. ولقي الحسينَ رجل من التجار في جماعة ممن ذهبت أموالهم في عسكره، فقال: الحمد لله الذي بيّض وجهك! أصعدتَ في اثني عشر يوماً، وانصرفت في يوم واحد! فتغافل عنه.

قال أبو جعفر: ومّما انتهى إلينا من خبر الحسين بن إسماعيل ومَن كان معه من القُوّاد والجند الذين كان محمد بن عبد الله بن طاهر استنهضَهم من بغداد في هذه السَّنة لحرب من كان قصد الأنبار وما اتّصل بها من البلاد من الأتراك والمغاربة، أنه لما صار إلى الياسرية منصَرفه مهزوماً من دِمَّا، أقام بها في بستان ابن الحَروريّ، وأقام مَنْ وافى الياسرية من المنهزمة في الجانب الغربيّ من الياسريّة. ومُنِعوا من العبور، ونُودي ببغداد فيمن دخلها من الجند الذين في عسكر الحسين أن يلحقوا بالحسين في معسكره، وأجلوا ثلاثة أيام، فمن وجد منهم ببغداد بعد ثلاثة ضُرب ثلاثمائة سوط. ومُحي اسمه من الديوان. فخرج الناس، وأمر خالد بن عمران في الليلة التي قدم فيها الحسين أن يعسكر في أصحابه بالمحوَّل. وأعطى أصحابه أرزاقهم في تلك الليلة في الشَّرْج، ونودي في أصحابه بالمحوَّل باللحاق به.

ونودي في الفَرض القُدماء الذين كانوا فرضوا بسبب أبي الحسين يحيى بن عمر بالكوفة وهم خمسمائة رجل، وأصحاب خالد وهم نحو من ألف رجل، فعسكروا بالمحوّل يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الأخرة وأمر ابن طاهر الشاهَ بن ميكال في صَبيحة الليلة التي وافى فيها الحسين أن يتلقاه ويمنعه من دخول بغداد. فلقيه في الطريق. فردّه إلى بستان ابن الحَروريّ. وأقاموا يومهم؛ فلما كان الليل صاروا إلى دار ابن طاهر. فوبّخه ابن طاهر وأمره بالرُّجوع إلى الياسريّة لينفذِ إلى الأنبار مع مَنْ ينفذ إليها من الجند، فصار من ليلته إلى الياسريّة. ثم أمر بإخراج مال لإعطاء شهر واحد لآل هذا العسكر فحمل تسعة آلاف دينار، وصار كتّاب ديوان العطاء وديوان العَرْض إلى الياسريّة لعرض الجند وإعطائهم.

فلما كان يوم الجمعة لسبع خلوْن من جمادى الآخرة توجَّه خالد بن عمران مُصعِداً إلى قنطرة بهلايا ـ وهي موضع السِّكْر ـ وخرجت معه نحو من عشرين سفينة، وركب عبيد الله بن عبد الله وأحمد بن إسرائيل

والحسن بن مخلد إلى عسكر الحسين بن إسماعيل بالياسريَّة، فقرؤوا على الحسين والقوّاد كتاباً كُتب به عن المستعين، يخبرهم فيه بسوء طاعتهم وما ركبوا من العصيان والتخاذل؛ فقرىء عليهم والعسكر مقيم، والعُرّاض يعرضونهم ليتعرّفوا مَنْ قُتِل ومَنْ غرق من كلّ قيادة، ونودي باللَّحاق بعسكرهم؛ فخرجوا. وأتاهم كتاب بعض عيونهم بالأنبار يخبر أنّ القتلى كانت من الأتراك أكثر من مائتين، والجرحى نحواً من أربعمائة، وأن جميع مَنْ أسره الأتراك من أهل بغداد الجيشية والفروض من الرّجّالة مائتان وعشرون إنساناً، وأنه عدّ رؤوس مَنْ قتِل فوجدها سبعين رأساً، وكانوا أخذوا جماعة من أهل الأسواق فصاحوا لأبي نصر: نحن أهل السوق، فقال: ما بالكم معهم! فقالوا: أكرِهنا فخرجنا، شئنا أو أبينا فأطلق من كان منهم يشبه السوقة. وأمر بحبس الأسرى في القَطيعة.

وذُكر عن صاحب بغال السلطان: أن جميع ما ذهب من بغال السلطان مائة وعشرون بغلا.

ورحل الحسين يوم الاثنين لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الآخرة، وكتب إلى خالد بن عمران وهو مقيم على السِّكْر، أن يرحل متقدّماً أمامه، فامتنع خالد من ذلك؛ وذكر أنه لا يبرح من موضعه إلا أن يأتيَه قائد في جُند كثيف فيقيم مكانه، لأنه يتخوّف أن يأتيَه الأتراك من خَلْفه من عسكرهم بناحية قُطْرُبُّل. وأمر ابن طاهر بمال. فحمل إلى الحسين بن إسماعيل لإعطاء جميع من في عسكره رزق شهر واحد؛ ليُفرَّق فيهم بدمّا، وأمر أن يخرج معه الكتاب والعُرّاض لأصحابه هنالك، وقلَّد أمر نفقات عسكره وإعطاء الجند من قبَل الخراج الفضلَ بن مظفَّر السبعيّ، وحَمل المال مع السَّبعيّ إلى معسكر الحسين، لينفذ معه إذا نفذ.

وقد قيل: إنّ الحسين ارتحل إلى الأنبار في النصف من ليلة الأربعاء لعشر بقين من جمادى الآخرة، فسارَ وتبعه من في عسكره يوم الأربعاء، ونودي في أصحابه باللحاق به، فسار حتى نزل دِمَّا، وأراد أن يعقد على نهرأنق جسراً ليعبُر عليه، فمانعه الأتراك، فعبر إليهم جماعة من أصحابه من الرجَّالة، فحاربوهم حتى كشفوهم. وعقد خالد الجسر، فعبر أصحابه ووجّه محمد بن عبد الله بكاتبه محمد بن عيسى بشيء شافهه به، فيقال: إنه حمل معه أطْواقاً وأسورة، وانصرف إلى منزله، وصار إلى الحسين يوم السبت لثمان خَلَوْن من رجب رجل، فأخبره أن الأتراك قد دُلُّوا على عدّة مواضع في الفُرات، تُخاض إلى عسكره، فأمر بضرب الرجل مائتي سوط، ووكل بالمخاوض رجلاً من قُوّاده، يقال له الحسين بن عليّ بن يحيى الأرمنيّ في مائة راجل ومائة فارس؛ فطلع أوَّل القوم، فخرج عليهم وقد أتاه منهم أربعة عشر علماً، فقاتل أصحابه ساعةً، ووكل بالقنطرة أبا السَّنا، وأمره أن يمنع مَن انهزم من العُبور؛ فأتى الأتراك المخاضة، فرأوا الموكَّل بها، فتركوه واقفاً، وصاروا إلى مخاضة أخرى خَلْف الموكّل فقاتلوهم، فصبر الحسين بن عليّ وقاتل، فقيل للحسين بن إسماعيل، فقصد نحوَه، ولم يصل إليه حتى انهزم، وانهزم خالد بن عمران معه ومَنْ معه، ومنعهم أبو السنا من العبُور على القنطرة، فرجع الرجَّالة والخراسانية فرَموْا بأنفسهم في الفُرات. فغرق من لم يُحسن السباحة، وعَبَر مَنْ كان يحسن السباحة، فنجا عُرياناً، وخرج إلى جزيرة لا يصل منها إلى الشَّطّ، لِمَا على الشطّ من الأتراك، فذكر عن بعض جند الحسين، أنه قال: بعث الحسين بن عليّ الأرمني إلى الحسين بن إسماعيل أنّ الأتراك قد وافوا المخاضَة، فأتاه الرسول، فقيل: الأمير نائم، فرجع الرسول فأعلمه، فردّ آخر، فقال له الحاجب: الأمير في المخرَج، فرجع فأخبره، فردّ رسولا ثالثاً، فقال: قد خرج من المخرج ونام؛ فعلت الصيحة فعبَر الأتراك، فعقد الحسين في زورق أو شبّارة، وانحدر. واستأثر قوم من

الخُراسانية، ورموْا ثيابهم وسلاحهم، وقعدوا على الشطّ عُراةً، وشدّ أصحاب أعلام الأتراك حتى ضربوا أعلامهم على مضرب الحسين بن إسماعيل، واقتطعوا السوق، وانحدرت عامة السفن، فسلمت إلّا ما كان موكّلاً به منها، ولحق الأتراك أصحاب الحسين، فوضعوا فيهم السيف، فقتلوا وأسروا نحواً من مائتين، وغرق خَلْق كثير؛ ووافى الحسين والمنهزمة بغدادَ نصف الليل، ووافى فلّهم وبقيّتهم في النهار، وفيهم جرحى كثيرة، فلم يزالوا إلى نصف النهار يتتابعون عُراة مجرَّحين، وفُقِد من قواد الحسين بن يُوسف البَرْم وغيره. ثم جاء كتابه أنه أسير في أيدي الأتراك عند مُفْلح؛ وأنّ عدّة الأسرى من وقعة الحسين الثانية مائة ونيّف وسبعون إنساناً، والقتلى مائة، والدوابّ نحو من ألفي دابة ومائتي بغل وأكثر، وقيمة السلاح والثياب وغير ذلك أكثر من مائة ألف دينار، فقال الهندوانيّ في الحسين بن إسماعيل:

يا أحْزَمَ الناسِ رأياً في تخلُّفِهِ ... عن القتالِ خَلطْتَ الصفْوَ بالكدَرِ
لمّا رأيتَ سُيُوفَ التركِ مُصلَتَةً ... علِمْتَ ما في سيوفِ التُرْك من قَدَرِ
فَصِرْتَ منحجزاً ذُلّاً ومَنقَصَةً ... والنُّجْحُ يذهبُ بينَ العجْزِ والضَّجَرِ

ولحق بالمعتزّ في جمادى الآخرة منها من بغداد جماعة من الكتاب وبني هاشم، ومن القوّاد مُزاحم بن خاقان أرطوج، ومن الكتّاب عيسى بن إبراهيم بن نوح ويعقوب بن إسحاق ونماري ويعقوب بن صالح بن مرشد ومقلة وابنٌ لأبي مزاحم بن يحيى بن خاقان ومن بني هاشم عليّ ومحمد ابنا الواثق، ومحمد بن هارون بن عيسى بن جعفر، ومحمد بن سليمان من ولد عبد الصمد بن عليّ.

وفيها كانت وقعة بين محمد بن خالد بن يزيد وأحمد المولد وأيوب بن أحمد بالسُّكَيْر من أرض بني تغلب، قتل بين الفريقين جماعة كثيرة، وانهزم محمد بن خالد، وانتهب الآخرون متاعه، وهدم أيوب دور آل هارون بن معمر. وقتَل من ظفر به من رجالهم.

وفيها كانت لبلكاجور غزوة فتح - فيما ذكر - فيها مطمورة أصاب فيها غنيمة كثيرة، وأسر جماعة من الأعلاج، وورد بذلك على المستعين كتاب تاريخه يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وخمسين ومائتين.

وفي يوم السبت لثمان بقين من رجب من هذه السنة كانت وقعة بين محمد بن رجاء وإسماعيل بن فراشة وبين جُعلان التركيّ بناحية بادَرايا وباكُسايا، فهزم ابن رجاء وابن فراشة جُعلانَ، وقتلا من أصحابه جماعة وأسرا جماعة.

وفي رجب منها كان - فيما ذكر - وقعة بين ديوداد أبي الساج وبين بايكباك بناحية جرجرايا، قتل فيها أبو الساج بايكباكَ، وقتل من رجاله جماعة، وأسر منهم جماعة، وغرق منهم في النهروان جماعة.

وفي النصف من رجب منها اجتمع مَن كان ببغداد من بني هاشم من العباسيين، فصاروا إلى الجزيرة التي بإزاء دار محمد بن عبد الله، فصاحوا بالمستعين وتناولوا محمد بن عبد الله بالشتم القبيح، وقالوا: قد مُنعنا أرزاقنا، وتُدفع الأموال إلى غيرنا ممن لا يستحقها، ونحن نموت هزلاً وجوعاً: فإن دفعت إلينا أرزاقنا وإلا قصدنا إلى الأبواب ففتحناها، وأدخلنا الأتراك، فليس يخالفنا أحد من أهل بغداد. فعبر إليهم الشاه بن ميكال، فكلمّهم ورفق بهم، وسألهم أن يعبر معه منهم ثلاثة أنفس ليدخلهم على ابن

طاهر، فامتنعوا من ذلك، وأبوا إلا الصياح وشتْم محمد بن عبد الله؛ فانصرف عنهم الشاه، فلم يزالوا على حالهم إلى قُرْب الليل. ثم انصرفوا واجتمعوا من غد ذلك اليوم، فوجّه إليهم محمد بن عبد الله، فأمرهم بحضُور الدّار يوم الاثنين ليأمر من يناظرهم، فصاروا إلى الدّار، فأمر محمد بن داود الطوسيّ بمناظرتهم؛ وبذل لهم رزق شهر واحد؛ وأمرهم أن يقبضوا ذلك؛ ولا يكلّفوا الخليفة أكثر من هذا؛ فأبوْا أن يقبضوا رزْق شهر، وانصرفوا.

وفيها خرج بالكوفة رجلٌ من الطالبيّين يقال له الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن عليّ بن حسين بن عليّ بن أبي طالب، فاستخلف بها رجلا منهم يقال له محمد بن جعفر بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن حسن، ويكنى أبا أحمد، فوجّه إليه المستعين مزاحم بن خاقان أرطُوج؛ وكان العلويّ بسوَاد الكوفية في ثلاثمائة رجل من بني أسد وثلاثمائة رجل من الجارودية والزيديّة وعامتهم صَوَّافيّة، وكان العامل يومئذ بالكوفة أحمد بن نصر بن مالك الخُزاعيّ، فقتَل العَلويّ؛ من أصحاب ابن نصر أحدَ عشر رجلا، منهم من جند الكوفة أربعة، وهرب أحمد بن نصر إلى قَصر ابن هبيرة؛ فاجتمع هو وهشام بن أبي دلف؛ وكان يلي بعضَ سواد الكوفة ـ فلما صار مزاحم إلى قرية شاهي كتب إليه في المقام حتى يوجّه إلى العلوي مَنْ يردّه إلى الفيئة والرجوع. فوجّه إليه داود بن القاسم الجعفريّ، وأمر له بمالٍ، فتوجّه إليه وأبطأ داود وخبرُه على مزاحم، فزحف إلى الكوفة من قرية شاهي، فدخلها وقصد العَلويّ فهرب، فوجّه في طلبه قائداً، وكتب بفتحه الكوفة في خريطة مُرَيّشة.

وقد ذكر أن أهل الكوفة عند ورود مزاحم حملوا العلويّ على قتاله، ووعدوه النّصر، فخرج في غربيّ الفُرات؛ فوجّه مزاحم قائداً من قُوّاده في الشرقيّ من الفرات، وأمره أن يمضيَ حتى يعبر قنطرة الكوفة ثم يرجع، فمضى القائد لذلك، وأمر مزاحم بعض أصحابه الذين بقوا معه أن يعبروا مخاضة الفرات في قرية شاهي، وأن يتقدّموا حتى يحاربوا أهل الكوفة ويصافّوهم من أمامهم فساروا ومعهم مزاحم، وعبَر الفرات، وخلَّفَ أثقالَه ومَنْ بقِي معه من أصحابه، فلما رآهم أهل الكوفة ناوشوهم الحرب، ووافاهم قائد مزاحم، فقاتلهم من ورائهم ومُزاحم من أمامهم؛ فأطبقوا عليهم جميعاً فلم يفلت منهم أحد.

وذكر عن ابن الكردِيّة أنّ مزاحماً قتل من أصحابه قبل دخوله الكوفة ثلاثة عشر رجلا، وقتل من الزيدية أصحاب الصّوف سبعة عشر رجلا، ومن الأعراب ثلاثمائة رجل؛ وأنه لما دخل الكوفة رُمِيَ بالحجارة فضرب ناحيتي الكوفة بالنار، وأحرق سبعة أسواق؛ حتى خرجت النار إلى السَّبيع، وهجم على الدار التي فيها العلويّ فهرب؛ ثم أتِي به وقُتِل في المعركة من العلويّة رجل وذكر أنه حبس جميع من بالكوفة من العَلويّة، وحبس أبناء هاشم، وكان العلوّي فيهم.

وذكر عن أبي إسماعيل العلويّ أن مُزاحماً أحرق بالكوفة ألف دار، وأنه أخذ ابنة الرجل منهم فعنّفها.

وذكر أنه أخِذ للعلويّ جوارٍ، فيهم امرأة حُرّة مضمومة، فأقامها على باب المسجد ونادى عليها.

وفي النصف من رجب من هذه السنة، ورد على مزاحم كتاب من المعتزّ يأمره بالمصير إليه، ويعده وأصحابه ما يحبّ ويحبّون. فقرأ الكتاب مزاحم على أصحابه؛ فأجابه الأتراك والفراغنة والمغاربة، وأبى

الشاكرية ذلك، فمضى فيمن أطاعه منهم وهم زُهاء أربعمائة إنسان. وقد كان أبو نوح تقدّمه إلى سامُرّا، فأشار بالكتاب إليه، وكان مزاحم ينتظر أمر الحسين بن إسماعيل، فلما انهزم الحسين مضى إلى سامُرّا؛ وقد كان المستعين وجّه إلى مزاحم عند فتح الكوفة عشرة آلاف دينار وخمس خلَع وسيفاً، ونفذ الرسول إليه، وألقى الجند الذين كانوا معه في الطريق؛ فردّوا جميع ذلك معهم، وصاروا إلى باب محمد بن عبد الله، وأعلموه ما فعل مزاحم. وكان في الجند والشاكرية خليفة الحسين بن يزيد الحرانيّ وهشام بن أبي دلف والحارث خليفة أبي الساج، فأمر ابن طاهر أن يخلع على كلّ واحد منهم ثلاث خلَع.

وذكر أن هذا العلويّ كان قد ظهر بنينَوى في آخر جمادى الآخرة من هذه السنة؛ فاجتمع إليه جماعة من الأعراب، وفيهم قومٌ ممن كان خرج مع يحيى بن عمر في سنة خمسين ومائتين، وقد كان قدم إلى تلك الناحية هشام بن أبي دلف، فواقعهم العلويّ في جماعة نحو من خمسين رجلا، فهزمه وُقتل عِدّة من أصحابه، وأسر عشرين رجلا وغلاماً، وهرب العلويّ إلى الكوفة؛ فاختفى بها، ثم ظهر بعد ذلك. وحمِل الأسرى والرؤوس إلى بغداد، فعرف خمسة نفر ممن كان مع أصحاب أبي الحسين يحيى بن عمر، فأطلقوا. وأمر محمد بن عبد الله أن يضرب كلّ واحد ممن أطلق وعاد خمسمائة سوط، فضرِبوا في آخر يوم من جمادى الآخرة.

وذُكر أن كتب أبي الساج لّما وردت بما كان من إيقاعه ببايكباك، وذلك لاثنتي عشرة بقيَتْ من رجب من هذه السنة، وجّه إليه بعشرة آلاف دينار معونة له، وبخلعة فيها خمسة أثواب وسيف.

وفيها كانت وقعة ـ فيما ذكر ـ بين منكجور بن خيدر وبين جماعة من الأتراك بباب المدائن هزمهم فيها مَنْكَجور، وقتل منهم جماعة.

وفيها كانت لبلكاجور صائفة، فتح فيها فتوحاً فيما ذكر.

وفيها كانت وقعة بين يحيى بن هرثمة وأبي الحسين بن قريش، قُتِل من الفريقين جماعة، ثم انهزم أبو الحسين بن قريش.

وفي يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من شعبان كانت بباب بَغواريا وقعة بين الأتراك وأصحاب ابن طاهر؛ وكان السبب في ذلك أن الموكّل كان باب بغواريا إبراهيم بن محمد بن حاتم والقائد المعروف بالنّساويّ في نحو من ثلاثمائة فارس وراجل، فجاءت الأتراك والمغاربة في جَمْع كثير، فنقبوا السور في موضعين، فدخلوا منهما، فقاتلهم النساويّ فهزموه، ووافوْا باب الأنبار، وعليه إبراهيم بن مصعب وابن أبي خالد وابن أسد بن داود سياه، وهم لا يعلمون بدخولهم باب بغواريا، فقاتلهم قتالا شديداً، فقتل من الفريقين جماعة. ثم إنّ مَنْ كان على باب الأنبار من أهل بغداد انهزموا لا يلوون على شيء، فضرب الأتراك والمغاربة باب الأنبار بالنار فاحترق، وأحرقوا ما كان على باب الأنبار من المجانيق والعرّادات، ودخلوا بغداد حتى صاروا إلى باب الحديد ومقابر الرّهينة ومن ناحية الشارع إلى موضع أصحاب الدواليب، فأحرقوا ما هنالك وأحرقوا كلّ ما قرب من ذلك من أمامهم وورائهم، ونصبوا أعلامهم على الحوانيت التي تقرب من ذلك الموضع، وانهزم الناس؛ حتى لم يقف بين أيديهم أحد؛ وكان ذلك مع صلاة الغَداة، فوجّه ابن طاهر إلى القوّاد، ثم ركب في السلاح فوقف على باب درب صالح المسكين، ووافاه القوّاد، فوجّههم إلى باب الأنبار وباب

بغواريا وجميع الأبواب التي في الجانب الغربيّ؛ وشحنها بالرجال، وركب بُغا ووصيف، فتوجّه بُغا في أصحابه وولده إلى باب بغواريا، وصار الشاه بن ميكال والعباس بن قارن والحسين بن إسماعيل إلى باب الأنبار والغوغاء، فالتقوا والأتراك في داخل الباب، فبادرهم العباس بن قارن - فقتِل - فيما ذكر - في مقام واحد جماعة من الأتراك، ووجّه برؤوسهم إلى باب ابن طاهر، وكاثرهم الناس على هذه الأبواب، فدفعوهم حتى أخرجوهم بعد أن قُتِل منهم جماعة؛ وكان بُغا الشرابيّ خرج إلى باب بغواريا في جمع كثير، فوافاهم وهم غارُّون، فقتل منهم جماعة كثيرة، وهرب الباقون، فخرجوا من الباب؛ فلم يزل بُغا يحاربهم إلى العصر؛ ثم انهزموا وانصرفوا، ووكّل بالباب مَنْ يحفظه، وانصرف إلى باب الأنبار، ووجّه في حمل الجصّ والآجرّ، وأمر بسدّه.

وفي هذا اليوم أيضاً كانت حرب شديدة بباب الشّماسية، قُتِل من الفريقين - فيما ذكر - جماعة كثيرة، وجُرح آخرون؛ وكان الذي قاتل الأتراك في هذا اليوم - فيما ذكر - يوسف بن يعقوب قوصرّة.

وفيها أمر محمد بن عبد الله المظفّر بن سيسل أن يعسكر بالياسرية، ففعل ذلك، ثم انتقل إلى الكُناسة إلى أن وافاه بالفَردل بن إيزنكجيك الأشروسني فأمر له بفرض، وضمّ إليه رجالاً من الشاكرية وغيرهم، وأمر أن يضامّ المظفر ويعسكر بالكُناسة، ويكون أمرهما واحداً، ويضبط تلك الناحية؛ فأقاما هنالك حيناً، ثم أمر بالفردل المظفّرَ بالمضيّ، ليعرف خبر الأتراك ليدبّر في أمرهم بما يراه؛ فامتنع من ذلك المظفّر، وزعم أنّ الأمير لم يأمره بشيء مما سأله، وكتب كلُّ واحد منهما يشكو صاحبَه، وكتب المظفر يستعفي من المقام بالكُناسة، ويزعم أنه ليس بصاحب حرب، فأعفِيَ، وأمر بالانصراف ولزوم البيت؛ وقلد أمر ذلك العسكر ومَنْ فيه من الجند النائبة والأثبات بالفردل، وضمّ إليه أثبات المظفّر وأفْرِد بالناحية.

وفي شهر رمضان من هذه السنة التقى هشام بن أبي دلف والعلويّ الخارج بنينَوى، ومعه رجل من بني أسد، فاقتتلوا فقتِل من أصحاب العَلويّ - فيما ذكر - نحو من أربعين رجلاً، ثم افترقا، فدخل العلويّ الكوفة فبايع أهلها المعتزّ، ودخل هشام بن أبي دُلف بغداد.

وفي شهر رمضان من هذه السنة كانت بين أبي الساج والأتراك وقعة بناحية جَرْجَرَايا، هزمهم فيها أبو الساج، وقتَل منهم جماعة كثيرة، وأسر منهم جماعة أخَر.

ولليلة بقيتْ من شهر رمضان منها قُتِل بالفردل، وكان سبب قتله أن أبا نصر بن بغا لما غلب على الأنبار وما قرب منها، وهزم جيوش ابن طاهر من تلك الناحية وأجلاهم عنها، بث خيله ورجالَه في أطراف بغداد من الجانب الغربيّ، وصار إلى قصر ابن هبيرة، وبها بحونة بن قيس من قِبَل ابن طاهر، فهرب منه من غير قتال جرى بينه وبينه، ثم صار أبو نصر إلى نهر صَرْصر، واتصل بابن طاهر خبرهُ وخبر الوقْعة التي كانت بين أبي الساج والأتراك بجرجَرايا وخذلان مَنْ معه من الفروض إياه عند احمرار البأس. فندبَ بالفردلَ إلى اللحاق بأبي الساج والمسير بمَن معه إليه، فسار بالفردل فيمَن معه غداةَ يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فسار يومَه وصبّح المدائن، فوافاها مع موافاة الأتراك ومَنْ هو مضموم إليهم من غيرهم، وبالمدائن رجال ابن طاهر وقوّاده، فقاتلهم الأتراك، فانهزموا. ولحق مَنْ فيها من القواد بأبي الساج، وقاتل بالفردل قتالاً شديداً؛ ولما رأى انهزام مَنْ هنالك من أصحاب ابن طاهر مضى متوجّهاً نحو أبي الساج بمن معه فأدرِك فقتل.

وذكر عن ابن القواريريّ ـ وكان أحد القوّاد ـ قال: كنتُ وأبو الحسين بن هشام موكّلين بباب بغداد ومنكجور منفرد بباب ساباط، وكان بقرب بابه ثُلْمة في سور المدائن، فسألت منكجور أن يسدّها فأبى، فدخل الأتراك منها، وتفرّق أصحابه. قال: وبقيت في نحو من عشرة أنفس، ووافى بالفردل هو وأصحابه، فقال: أنا الأمير، أنا فارس ومعي فرسان، نمضي على الشطّ، وتكون الرجّالة على السفن، فدافع ساعة ثم مضى لوجهه وعسكرُه في السفن على حالهم يريد أبا الساج، أو تلك الناحية، وأقمتُ بعده ساعة تامة، وتحتي أشقر عليه حلية، فصرت إلى نهر فعثر بي، فسقطت عنه؛ وقصدوني يقولون: صاحب الأشقر! فخرجت من النهر راجلاً قد طرحت عني السلاح، فنجوت.

وغضب ابن طاهر على ابن القواريريّ وأصحابه، وأمرهم بلزوم منازلهم، وغرق بالفردل.

ولأربع خلون من شوّال من هذه السنة، جمع ـ فيما ذكر ـ محمد بن عبد الله بن طاهر جميعَ قوّاده الموكلين بأبواب بغداد وغيرهم؛ فشاورهم جميعاً في الأمور، وأعلمهم ما ورد عليهم من الهزائم؛ فكلٌّ أجاب بما أحبّ من بذل النفس والدم والأموال، فجزاهم خيراً وأدخلهم إلى المستعين، وأعلمه ما ناظرهم فيه وما ردّوا عليه من الجواب، فقال لهم المستعين: والله يا معشرَ القوّاد، لئن قاتلت عن نفسي وسلطاني ما أقاتل إلّا عن دولتكم وعامتكم، وأن يردّ الله إليكم أموركم قبل مجيء الأتراك وأشباههم؛ فقد يجب عليكم المناصحة والجهد في قتال هؤلاء الفسقة؛ فردّوا أحسن مَرَدّ، وجزاهم الخير، وأمرهم بالانصراف إلى مراكزهم فانصرفوا.

وفي يوم الاثنين لأيام خلَتْ من ذي القعدة من هذه السنة كانت وقعة عظيمة لأهل بغداد، هزموا فيها الأتراك، وانتهبوا عسكرهم؛ وكان سبب ذلك أن الأبوابَ كلّها من الجانبين فُتِحت ونُصبت المجانيق والعرّادات في الأبواب كلها والشّبارات في دِجْلة ، وخرج منها الجند كلُّهم، وخرج ابن طاهر وبُغا ووصيف حين تزاحف الفريقان، واشتدّت الحرب إلى باب القطيعة، ثم عبروا إلى باب الشّماسية، وقعد ابن طاهر في قُبّة ضربت له، وأقبلت الرُّماة من بغداد بالناوكيّة في الزواريق؛ ربما انتظم السهم الواحد عدّة منهم فقتلهم، فهزِمت الأتراك، وتبعهم أهل بغداد حتى صاروا إلى عسكرهم، وانتهبوا سوقهم هنالك، وضربوا زورقاً لهم كان يقال له الحديديّ،كان آفةً على أهل بغداد بالنار، وغرق من فيه، وأخذوا لهم شبّارتين؛ وهرب الأتراك على وجوههم لا يلوون على شيء، وجعل وصيف وبغا يقولان كلما جيءَ برأس: ذهب والله الموالي. واتّبعهم أهلُ بغداد إلى الرُّوذَبار، ووقف أبو أحمد بن المتوكل يردّ الموالي، ويخبرهم أنهم إن لم يكرّوا لم يبق لهم بقيّة؛ وأن القوم يتبعونهم إلى سامُرّا. فتراجعوا، وثاب بعضهم، وأقبلت العامة تحزّ رؤوس مَنْ قتل؛ وجعل محمد بن عبد الله يطوّق كلّ مَنْ جاء برأس ويصله، حتى كثر ذلك، وبدت الكراهة في وجوه من مع بُغا ووصيف من الأتراك والموالي؛ ثم ارتفعت غَبرة من ريح جنوب، وارتفع الدخان مما احترق، وأقبلت أعلام الحسن بن الأفشين مع أعلام الأتراك يقدُمها علمٌ أحمر، قد استلبه غلام لشاهك، فنسي أن ينكّسه؛ فلما رأى الناسُ العلمُ الأحمر ومَنْ خلفه، توهموا أن الأتراك قد رجعوا عليهم وانهزموا؛ وأراد بعضُ مَنْ وقف أن يقتل غلام شاهك، ففهمه، فنكس العلم، والناس قد ازدحموا منهزمين؛ وتراجع الأتراك إلى معسكرهم ولم يعلموا بهزيمة أهل بغداد، فتحمَّلُوا عليهم؛ فانصرف الفريقان بعضهم عن بعض.

وفيها كانت وقعة لأبي السلاسل وكيل وصيف بناحية الجبل مع المغاربة، وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر ـ أنّ رجلاً من المغاربة يقال له نصر سلهب، صار بجماعة من المغاربة إلى عمل بعض ما إلى أبي الساج من الأرض، وانتهب هو وأصحابه ما هنالك من القُوَى؛ فكتب أبو السلاسل إلى أبي الساج يعلمه ذلك، فوجّه أبو الساج إليه ـ فيما ذكر ـ بنحو من مائة نفس بين فارس وراجل؛ فلمّا صاروا إليه كبس أولئك المغاربة، فقتل منهم تسعة، وأسر عشرين، وأفلت نصر سلهب سارياً.

ووضعت الحربُ أوزارها بعد هذه الوقعة بين الموالي وابن طاهر؛ فلم يعودوا لها، وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ أنّ ابن طاهر قد كان كاتب المعتزّ قبل ذلك في الصلح؛ فلما كانت هذه الوقعة أنْكِرَتْ عليه؛ فكتب إليه؛ فذكر أنه لا يعود بعدها لشيء يكرهه؛ ثم أغلقت بعد ذلك على أهل بغداد أبوابها؛ فاشتدّ عليهم الحصار، فصاحوا في أوّل ذي القعدة من هذه السنة في يوم الجمعة: الجوعَ! ومضوْا إلى الجزيرة التي هي تلقاء دار ابن طاهر؛ فأرسل اليهم ابن طاهر: وجِّهوا إليّ منكم خمسة مشايخ، فوجَّهُوا بهم، فأدخِلوا عليه؛ فقال لهم: إنّ من الأمور أموراً لا يعلم بها العامَّة؛ وأنا عليل، ولعلي أعطي الجند أرزاقهم ثم أخرج بهم إلى عدوّكم. فطابت أنفسُهم، وخرجوا عن غير شيء، وعادت العامة والتجار بعدُ إلى الجزيرة التي بحذاء دار ابن طاهر؛ فصاحوا وشكوْا ما هم فيه من غلاء السعر، فبعث إليهم فسكَّنهم؛ ووعدهم ومنَّاهم. وأرسل ابن طاهر الى المعتزّ في الصلح. واضطرب أمرُ أهل بغداد، فوافَى بغداد للنصف من ذي القعدة من هذه السنة حماد بن إسحاق بن حماد بن زيد، وَوُجِّه مكانه أبو سعيد الأنصاريّ إلى عسكر أبي أحمد رهينة، فلقي حماد بن إسحاق ابن طاهر، فخلا به فلم يُذكَر ما جرى بينهما. ثم انصرف حماد إلى عسكر أبي أحمد، ورجع أبو سعيد الأنصاريّ، ثم رجع حماد إلى ابن طاهر، فجرت بين ابن طاهر وبين أبي أحمد رسائل مع حَمّاد.

ولتسع بقِين من ذي القعدة خرج أحمد بن إسرائيل إلى عَسْكر أبي أحمد مع حماد وأحمد بن إسحاق وكيل عبيد الله بن يحيى بإذن ابن طاهر لمناظرة أبي أحمد في الصلح.

ولسبعٍ بقين من ذي القعدة أمر ابنُ طاهر بإطلاق جميع مَنْ في الحبوس ممن كان حُبس بسبب ما كان بينه وبين أبي أحمد من الحروب ومعاونته إياه عليه فأطلقه. ومن غد هذا اليوم اجتمع قوم من رجّالة الجند وكثيرٌ من العامة، فطلب الجند أرزاقَهم، وشكت العامة سوءَ الحال التي هم بها من الضيق وغلاء السعر وشدّة الحصار، وقالوا: إمّا خرجتَ فقاتلتَ؛ وإما تركتَنا؛ فوعدهم أيضاً الخروج أو فتح الباب للصلح، ومنَّاهم. فانصرفوا.

فلما كان بعد ذلك، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة شَحَن السجون والجسر وباب داره والجزيرة بالجند والرجال، فحضر الجزيرة بَشَرٌ كثير، فطردوا مَنْ كان ابن طاهر صيّرهم فيها، ثم صاروا إلى الجسر من الجانب الشرقيّ، ففتحوا سجن النساء، وأخرجوا مَنْ فيه، ومنعهم عليّ بن جهشيار ومَنْ معه من الطبريَّة من سجن الرجال، ومانعهم أبو مالك الموكل بالجسر. الشرقيّ، فشجّوه وجرحوا دابتين لأصحابه؛ فدخل داره وخلاّهم، فانتهبوا ما في مجلسه، وشدّ عليهم الطبريّة فنحَّوْهم حتى أخرجوهم من الأبواب، وأغلقوها دونهم، وخرج منهم جماعة، ثم عبر إليهم محمد بن أبي عون، فضمِن للجند رزق أربعة

أشهر ؛ فانصرفوا على ذلك ، وأمر ابن طاهر بإعطاء أصحاب ابن جهشيار أرزاقهم لشهرين من يومهم فأعْطُوا .

ووجّه أبو أحمد خمس سفائن من دقيق وحنطة وشعير وقَتّ وتبن إلى ابن طاهر في هذه الأيام، فوصلت إليه. ولما كان يوم الخميس لأربع خلوْن من ذي الحجّة علم الناس ما عليه ابن طاهر من خَلْعه المستعين وبيعته للمعتزّ، ووجّه ابن طاهر قُوّاده إلى أبي أحمد حتى بايعوه للمعتزّ، فخلع على كل واحد منهم أربع خلع، وظنت العامة أن الصلح جرى بإذن الخليفة المستعين، وأن المعتزّ وليّ عهده.

ولما كان يوم الأربعاء خرج رشيد بن كاوُس - وكان موكَّلا بباب السلامة - مع قائد يقال له نهشل بن صخر بن خزيمة بن خازم وعبد الله بن محمود، ووجّه إلى الأتراك بأنه على المصير إليهم ليكون معهم، فوافاه من الأتراك زُهاء ألف فارس؛ فخرج إليهم على سبيل التسليم عليهم؛ على أنّ الصلح قد وقع، فسلم عليهم، وعانق مَنْ عرف منهم، وأخذوا بلجام دابته، ومضوْا به وبابنه في أثره؛ فلما كان يوم الاثنين صار رُشيد إلى باب الشّماسيّة فكلّم الناس، وقال: إنّ أمير المؤمنين وأبا جعفر يقرئان عليكم السلام، ويقولان لكم: مَنْ دخل في طاعتنا قرّبناه. ووصلناه، ومن آثر غير ذلك فهو أعلم؛ فشتمه العامة. ثم طاف على جميع أبواب الشرقية بمثل ذلك، وهو يُشْتَم في كل باب، ويشتَم المعتزّ. فلما فعل رشيد ذلك علمت العامة ما عليه ابن طاهر، فمضت إلى الجزيرة التي بحذاء دار ابن طاهر؛ فصاحوا به وشَتمُوه أقبح شتم؛ ثم صاروا إلى بابه، ففعلوا مثل ذلك؛ فخرج إليهم راغب الخادم، فحضّهم على ما فعلوا، وسألهم الزيادة فيما هم فيه من نصرة المستعين، ثم مضى إلى الحظيرة التي فيها الجيش، فمَضى بهم وجماعة أُخَر غيرهم وهم زُهاء ثلاثمائة في السلاح، فصاروا إلى باب ابن طاهر، فكشفوا من عليه وردُّوهم، فلم يبرحوا يقاتلونهم؛ حتى صاروا إلى دهليز الدّار، وأرادوا إحراق الباب الداخل فلم يجدوا ناراً، وقد كانوا باتوا بالجزيرة الليل كله يشتمونه ويتناولونه بالقبيح .

وذكر عن ابن شجاع البلخيّ أنه قال: كنتُ عند الأمير وهو يحدّثني ويسمع ما يُقذف به من كلّ إنسان؛ حتى ذكروا اسم أمِّه، فضحك وقال: يا أبا عبد الله، ما أدري كيف عرفوا اسم أمي! ولقد كان كثير من جواري أبي العباس عبد الله بن طاهر لا يعرفون اسمَها، فقلت له: أيها الأمير، ما رأيت أوسعَ من حلمك، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما رأيتُ أوفَق من الصبر عليهم؛ ولا بدّ من ذلك. فلما أصبحوا وافوا الباب، فصاحوا؛ فصار ابن طاهر إلى المستعين يسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعلمهم ما هو عليه لهم؛ فأشرف عليهم من أعلى الباب وعليه البُرْدة والطَّويلة، وابن طاهر إلى جانبه؛ فحلف لهم بالله ما أتّهمُه؛ وإني لفي عافية ما عليّ منه بأس؛ وإنه لم يخلع، ووعدهم أنه يخرج في غد يوم الجمعة ليصلّي بهم، ويظهر لهم. فانصرف عامّتهم بعد قتلى وقعت.

ولما كان يوم الجمعة بكّر الناس بالصياح يطلبون المستعين، وانتهبُوا دوابّ عليّ بن جهشيار - وكانت في الخراب، على باب الجسر الشرقيّ - وانتهب جميع ما كان في منزله وهرب؛ وما زال الناس وقوفاً على ما هم عليه إلى ارتفاع النهار، فوافى وصيف وبُغا وأولادهما ومواليهما وقُوّادهما وأخوال المستعين؛ فصار الناس جميعاً إلى الباب، فدخل وصيف وبُغا في خاصتهما، ودخل أخوال المستعين معهم إلى الدهليز، ووقفوا على

دوابّهم ، وأعلم ابن طاهر بمكان الأخوال ؛ فأذِن لهم بالنزول فأبوْا ، وقالوا : ليس هذا نزولنا عن ظهور دوابنا حتى نعلم نحن والعامة ما نحن عليه ؛ ولم تزل الرّسل تختلف إليهم ، وهم يأبوْن ، فخرج إليهم محمد بن عبد الله نفسه ، فسألهم النزول والدخول إلى المستعين ، فأعلموه أنّ العامة قد ضجّت مما بلغها وصحّ عندها ما أنت عليه من خلْع المستعين والبَيْعة للمعتزّ ، وتوجيهك القوّاد بعد القواد للبيعة للمعتزّ ، وإرادتك التهويل ليصيرَ الأمر إليه وإدخاله الأتراك والمغاربة بغداد ، فيحكموا فيهم بحكمهم فيمن ظهروا عليه من أهل المدائن والقُرى ، واستراب بك أهـل بغداد ، واتّهمُـوك على خليفتهم وأمـوالهم وأولادهم وأنفسهم ؛ وسألوا إخراج الخليفة إليهم ليروْه ويكذّبوا ما بلغهم عنه . فلما تبين محمد بن عبد الله صحّةَ قولهم ، ونظر إلى كثرة اجتماع الناس وضجيجهم سأل المستعين الخروج إليهم ؛ فخرج إلى دار العامة التي كان يدخلها جميعُ الناس ، فنُصب له فيها كرسيٌّ ، وأدخل إليه جماعة من الناس فنظرُوا إليه ، ثم خرجوا إلى من وراءهم ؛ فأعلموهم صحّة أمره ، فلم يقنعوا بذلك ؛ فلما تبين له أنهم لا يسكنون دون أن يخرج إليهم - وقد كان عرف كثرة الناس - أمَر بإغلاق الباب الحديد الخارج فأغلِق ، وصار المستعين وأخواله ومحمد بن موسى المنجّم ومحمد بن عبدالله إلى الدرجة التي تُفضي إلى سطوح دار العامة وخـزائن السلاح ، ثم نصب لهم سلاليم على سطح المجلس الذي يجلس فيه محمد بن عبدالله والفتح بن سهل ، فأشرف المستعين عـلى الناس وعليه سَواد ، وفوق السواد بُرْدة النبي ﷺ ، ومعه القضيب ؛ فكلّم الناس وناشدَهم ، وسألهم بحقّ صاحب البردة إلاّ انصرفوا ؛ فإنه في أمْن وسلامة ، وإنه لا بأس عليه من محمد بن عبد الله ، فسألوه الرُّكوب معهم والخروج من دار محمد بن عبد الله لأنهم لا يأمنونه عليه ، فأعلمهم أنه على النقلة منها إلى دار عمته أمّ حبيب ابنة الرشيد ؛ بعد أن يصلح له ما ينبغي أن يسكن فيه ؛ وبعد أن يحوّل أمواله وخزائنه وسلاحه وفرشه وجميع ما له في دار محمد بن عبد الله ؛ فانصرف أكثرُ الناس ، وسكن أهل بغداد .

ولما فعل أهل بغداد ما فعلوا من اجتماعهم على ابن طاهر مرّة بعد مرّة وإسماعهم إياه المكروه ، تقدّم إلى أصحاب المعاون ببغداد بتسخير ما قَدرُوا عليه من الإبل والبغال والحمير لينتقل عنها .

وذكروا أنه أراد أن يقصد المدائن ، واجتمع على بابه جماعة من مشايخ الحربية والأرباض جميعاً ، يعتذرون إليه ، ويسألونه الصَّفْح عَمّا كان منهم ، ويذكرون أنّ الذي فعل ذلك الغوغاء والسُّفهاء لسوء الحال التي كانوا بها والفاقة التي نالتْهم ، فردّ عليهم - فيما ذكر - مردّاً جميلًا ، وقال لهم قولاً حسناً ، وأثنى عليهم ، وصفح عمّا كان منهم ، وتقدّم إليهم بالتقدّم إلى شبابهم وسفهائهم في الأخْذِ على أيديهم ، وأجابهم إلى ترك النقْلة ، وكتب إلى أصحاب المعاون بترك السخْرة .

ولأيام خَلَوْن من ذي الحجة انتقل المستعين من دار محمد بن عبد الله ، وركب منها ، فصار إلى دار رزق الخادم في الرُّصافة ، ومرّ بدار عـليّ بن المعتصم ، فخرج إليـه عليّ ، فسـأله النـزولَ عنده ؛ فـأمره بالرّكوب ، فلما صار إلى دار رزق الخادم نزلها ، فوصل إليها - فيما ذكر - مساء ، فأمر للفرسان من الجند حين صار إليها بعشرة دنانير لكلّ فارس منهم ، وبخمسة دنانير لكلّ راجل . وركب بركوب المستعين ابن طاهر ، وبيده الحربة يسير بها بين يديه ، والقوّاد خلفه ، وأقام - فيما ذكر - مع المستعـين ليلة انتقل إلى دار رزق محمد بن عبد الله إلى ثلث الليل ؛ ثم انصرف ، وبات عنده وصيف وبُغا حتى السَّحَر ، ثم انصـرفا إلى

منازلهما.

ولمّا كان صبيحةُ الليلة التي انتقل المستعين فيها من دار ابن طاهر اجتمع الناس في الرُّصافة، وأمِر القوّاد وبنُو هاشم بالمصير إلى ابن طاهر والسلام عليه، وأن يسيرُوا معه إذا ركب إلى الرّصافة. فصاروا إليه؛ فلما كان الضحى الأكبر من ذلك اليوم، ركب ابن طاهر وجميع قوّاده في تعبئة وحوله ناشبة رجّالة؛ فلما خرج من داره وقَف للناس، فعاتبهم وحلف أنه ما أضمر لأمير المؤمنين - أعزّه الله - ولا لوليّ له ولا لأحدٍ من الناس سوءاً، وأنه ما يريد إلا إصلاح أحوالهم، وما تدوم به النعمة عليهم، وأنهم قد توهّموا عليه ما لا يعرفه، حتى أبكى الناس. فدعا له مَنْ حضر، وعبر الجسر، وصار إلى المستعين، وبعث فأحضر جيرانه ووجوه أهل الأرباض من الجانب الغربيّ، فخاطبهم بكلام عاتبهم فيه، واعتذر إليهم مما بلغهم، ووجّه وصيف وبُغا مَنْ طاف على أبواب بغداد، ووكّلا صالح بن وصيف بباب الشّماسية.

وذُكِر أنّ المستعين كان كارهاً لنقله عن دار محمد؛ ولكنه انتقل عنها من أجل أنّ الناس ركبوا الزواريق بالنّفاطين ليضربوا روشن ابن طاهر بالنار لمّا صعب عليهِم فتحُ بابه يوم الجمعة.

وذكر أنّ قوماً منهم كنجور، وقفوا بباب الشّماسيّة من قِبَل أبي أحمد، فطلبوا ابنَ طاهر ليكلموه، فكتب إلى وصيف يعلمه خبر القوم، ويسأله أن يعلم المستعين ذلك ليأمر فيه بما يرى؛ فردّ المستعين الأمر في ذلك إليه؛ وأنّ التدبير في جميع ذلك مردود إليه، فيتقدّم في ذلك بما رأى.

وذُكر أنّ عليّ بن يحيى بن أبي منصور المنجم كلّم محمد بن عبد الله في ذلك بكلام غليظ، فوثب عليه محمد بن أبي عون فأسمعه وتناوله.

وذُكِر عن سعيد بن حُميد أنّ أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وعبيد الله بن يحيى خَلَوْا بابن طاهر؛ فما زالوا يفتلونه في الذّرْوة والغارب، ويشيرون عليه بالصلح، وأنه ربما كان عنده قوم فأجْرَوا الكلام في خلاف الصُّلْح، فيكشر في وجوههم، ويعرض عنهم؛ فإذا حضر هؤلاء الثلاثة أقبل عليهم وحادثهم وشاورهم.

وذكر عن بعضهم أنه قال: قلت لسعيد بن حميد يوماً: ما ينبغي إلاّ أن يكون قد كان انطوى على المداهنة في أوّل أمره؛ قال: وددت أنه كان كذلك؛ لا والله ما هو إلاّ أن هُزِم أصحابه من المدائن والأنبار حتى كاتب القوم، وأجابهم بعد أن كان قد جادّهم.

وحدّثني أحمد بن يحيى النحويّ - وكان يؤدّب ولد ابن طاهر - أنّ محمد بن عبد الله لم يزل جادّاً في نُصْرة المستعين حتى أحفظه عبيد الله بن يحيى بن خاقان، فقال له: أطال الله بقاءك! إنّ هذا الذي تنصره وتجدّ في أمره من أشدّ الناس نفاقاً، وأخبثهم ديناً؛ والله لقد أمر وصيفاً وبغا بقتلك، فاستعظما ذلك ولم يفعلاه، وإن كنت شاكاً فيما وصفت من أمره، فسلْ تُخْبَرْه؛ وإن مِنْ ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامُرّا لا يجهر في صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم؛ فلما صار إلى ما قبَلك، جهر بها مراءاةً لك؛ وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك؛ ونحو ذلك من كلام كلّمه به؛ فقال محمد بن عبد الله: أخزى الله هذا، لا يصلح لدين ولا دنيا، قال: وكان أوّل مَنْ تقدّم على صرف محمد بن عبد الله عن الجِدّ في أمر المستعين عبيد الله بن يحيى في هذا

المجلس، ثم ظاهر عبيد الله بن يحيى على ذلك أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد؛ فلم يزالوا بـه حتى صرفوه عمّا كان عليه من الرّأي في نصرة المستعين.

وفي يوم الأضحى من هذه السنة صلّى بالناس المستعين صلاة الأضْحَى في الجزيرة التي بحذاء دار ابن طاهر، وركب وبين يديه عبيد الله بن عبد الله، معه الحربة التي لسليمان، وبيد الحسين بن إسماعيل حربة السلطان، وبُغا ووصيف يكتُفانه؛ ولم يركب محمد بن عبد الله بن طاهر، وصلى عبد الله بن إسحاق في الرُّصَافة.

وفي يوم الخميس ركب محمد بن عبد الله إلى المستعين، وحضره عدّة من الفقهاء والقضاة، فذُكِر أنه قال للمستعين: قد كنتَ فارقتَني على أن تنفِّذ في كل ما أعزم عليه؛ ولك عندي بخطّك رقعة بذلك؛ فقال المستعين: أحضِر الرُّقعة. فأحضرها؛ فإذا فيها ذكر الصلح؛ وليس فيها ذكر الخَلْع، فقال: نعم، أنفذ الصلح، فقام الخَلنجيّ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنه يسألك أن تخلع قميصاً قَمَّصك به الله. وتكلّم عليّ بن يحيى المنجّم فأغلظ لمحمد بن عبد الله.

ثم ركب بعد ذلك محمد بن عبد الله ـ وذلك للنصف من ذي الحجة ـ إلى المستعين بالرّصافة، ثم انصرف ومعه وصيف وبُغا، فمضوْا جميعاً حتى صاروا إلى باب الشماسيّة، فوقف محمد بن عبد الله على دابته، ومضى وصيف وبُغا إلى دار الحسن بن الأفشين، وانحدرت المبيّضة والغوغاء من السور، ولم يطلق لأحد فتح الأبواب، وقد كان خرج قبل ذلك جماعةٌ كثيرة إلى عسكر أبي أحمد، فاشتروا ما أرادوا؛ فلمّا خرج مَنْ ذكرنا إلى باب الشّماسية نودي في أصحاب أبي أحمد ألاّ يباع من أحد من أهل بغداد شيء؛ فمُنعوا من الشراء، وكان قد ضرب لمحمد بن عبد الله بباب الشَّماسيّة مضرب كبير أحمر؛ وكان مع ابن طاهر بندار الطبريّ وأبو السنا ونحو من مائتي فارس ومائتي راجل، وجاء أبو أحمد في زلّال حتى قرب من المضرب، ثم خرج ودخل المضرَب مع محمد بن عبد الله، ووقف الذين مع كلّ واحد منهما من الجُنْد ناحية، فتناظر ابن طاهر وأبو أحمد طويلاً، ثم خرجا من المضرَب، وانصرف ابنُ طاهر من مضرَبه إلى داره في زلّال؛ فلما صار إليها خرج من الزلّال، فركب ومضى إلى المستعين ليخبرَه بما دار بينه وبين أبي أحمد، وأقام عنده إلى العَصر، ثم انصرف؛ فذُكر أنه فارقه على أن يعطَى خمسين ألف دينار، ويقطع غلّة ثلاثين ألف دينار في السنة؛ وأن يكون مقامه ببغداد حتى يجتمع لهم مال يُعطون الجند، وعلى أن يولَّى بُغا مكة والمدينة والحجاز، ووصيف الجبل وما والاه، ويكون ثلث ما يجيء من المال لمحمد بن عبدالله، وجُنْد بغداد والثلثان للموالي والأتراك.

وذُكر أن أحمد بن إسرائيل لما صار إلى المعتزّ ولاّه ديوانَ البريد، وفارقه على أن يكون هـو الوزيـر وعيسى بن فرّخانشاه على ديوان الخراج وأبو نوح على الخاتم والتوقيع؛ فاقتسموا الأعمال، فوردت خريطة الموسم إلى بغداد بالسلامة، فبعث بها إلى أبي أحمد، ثم ركب ابن طاهر ـ فيما قيل ـ لأربع عشرة بقيت من ذي الحجة من هذه السنة إلى المستعين، لمناظرته في الخَلْع، فناظره فامتنع عليه المستعين، وظنّ المستعين أن بُغا ووصيفاً معه، فكاشفاه، فقال المستعين: هذا عُنقي والسيف والنِّطع، فلما رأى امتناعه انصرف عنه، فبعث المستعين إلى ابن طاهر بعليّ بن يحيى المنجم وقوم من ثقاته، وقال: قولوا له: اتق الله، فإنما جئتك لتدفع عني؛ فإن لم تدفع عني فكُفّ عني. فردّ عليه؛ أمّا أنا فأقعد في بيتي، ولكن لا بدّ لك من خلعها طائعاً أو مكرهاً.

وذكر عن عليّ بن يحيى أنه قال له : قل له : إن خلعتها فلا بأس ، فوالله لقد تمزّقت تمزقاً لا يُرقع ، وما تركتَ فيها فضلاً . فلما رأى المستعين ضعفَ أمره وخذلانَ ناصريه أجاب إلى الخَلْع ؛ فلما كان يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيَتْ من ذي الحجة ، وجَّه ابنُ طاهر ابنَ الكرديّة وهو محمد بن إبراهيم بن جعفر الأصغر بن المنصور والخلنجيّ وموسى بن صالح بن شيخ وأبا سعيد الأنصاري وأحمد بن إسرائيل ومحمد بن موسى المنجم إلى عسكر أبي أحمد ليوصلوا كتابَ محمد إليه بأشياء سألها المستعين من حين نُدب إلى أن يخلع نفسه . فأوصلوا الكتاب ، فأجاب إلى ما سأل . وكتب الجواب بأن يُقطع وينزل مدينة الرسول ﷺ ، وأن يكون مضطرَبه من مكة إلى المدينة ، ومن المدينة إلى مكة ، فأجابه إلى ذلك ، فلم يقنع المستعين إلا بخروج ابن الكرديّة بما سأل إلى المعتزّ ، حتى يكتب بإجابته بذلك بخطه بعد مشافهة ابن الكرديّة المعتزّ بذلك ، فتوجَّه ابن الكردية بها .

وكان سبب إجابة المستعين إلى الخَلْع ـ فيما ذكر ـ أن وصيفاً وبُغا وابن طاهر ناظروه في ذلك وأشاروا عليه ، فأغلظ لهم ، فقال له وصيف : أنت أمرتَنا بقتل باغر ؛ فصرنا إلى ما نحن فيه ؛ وأنت عرّضتَنا لقتل أوتامش ، وقلت : إنّ محمداً ليس بناصح ؛ وما زالوا يفزِّعونه ويحتالون له ، فقال محمد بن عبدالله : وقد قلت لي إنّ أمرنا لا يصطلح إلا باستراحتنا من هذيْن ؛ فلمّا اجتمعت كلمتُهم أذعن لهم بالخَلْع ، وكتب بما اشترط لنفسه عليهم ، وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة .

ولّما كان يومُ السبت لعشر بقين من ذي الحجَّة ، ركب محمد بن عبدالله إلى الرُّصافة وجميع القضاة والفقهاء ، وأدخلهم على المستعين فوجاً فوجاً ، وأشهدهم عليه أنه صيَّر أمره إلى محمد بن عبدالله بن طاهر ، ثم أدخل عليه البوّابين والخدَم ؛ وأخذ منه جوهر الخلافة ، وأقام عنده حتى مضى هُويّ من الليل ، وأصبح الناس يرجفُون بألوان الأراجيف ، وبعث ابن طاهر إلى قوّاده في موافاته ، مع كلّ قائد منهم عشرة نفر من وجوه أصحابه ، فوافوْه ، فأدخلهم ومنَّاهم ، وقال لهم : إنما أردت بما فعلت صلاحَكم وسلامتَكم وحقْنَ الدماء. وأعدّ للخروج إلى المعتزّ في الشروط التي اشترطها للمستعين ولنفسه ولقوّاده قوماً ليوقِّع المعتز في ذلك بخطه. ثم أخرجهم إلى المعتز، فمضوا إليه حتى وقّع في ذلك بخطه إمضاءً كل ما سأل المستعين وابن طاهر لأنفسهما من الشُروط، وشهدوا عليه بإقراره بذلك كله، وخلَع المعتزّ على الرّسل، وقلَّدهم سيوفاً، وانصرفوا بغير جائزة ولا نظر في حاجة لهم، ووجَّه معهم لأخذ البيعة له على المستعين جماعة من عنده، ولم يأمر للجند بشيء. وحُمل إلى المستعين أمه وابنته وعياله بعد ما فتّش عياله، وأخذ منهم بعض ما كان معهم مع سعيد بن صالح، فكان دخول الرسل بغداد منصرَفهم من عند المعتزّ يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

وذكر أن رسل المعتزّ لما صاروا بالشماسيّة ، قال ابن سجّادة : أنا أخاف من أهل بغداد ، فإمّا أن يحمل المستعين إلى الشماسيّة أو إلى دار محمد بن عبدالله ليبايع المعتزّ ، ويخلَع نفسه ويُؤخذ منه القضيب والبُردة .

وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة كان ظهورُ المعروف بالكوكبي بقزوين وزَنجان وغلبتُه عليها

وطرده عنها آل طاهر ، واسم الكوكبيّ الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

وفيها قطعت بنو عُقيل طريق جُدّة ، فحاربهم جعفر بشاشات ، فقُتِل من أهل مكة نحوٌ من ثلاثمائة رجل ، وبعض بني عقيل القائل :

عليك ثوبانِ وأُمّي عاريَهْ فألقِ لي ثوبَك يا بنَ الزانيةْ

فلما فعل بنو عُقَيْل ما فعلوا غلتْ بمكة الأسعار ، وأغارت الأعراب على القرى .

وفيها ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب بمكة ، فهرب جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى العامل على مكة ، فانتهب إسماعيل بن يوسف منزلَ جعفر ومنزلَ أصحاب السلطان ، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة ، وأخذ ما كان حمل لإصلاح العين من المال وما كان في الكعبة من الذّهب ، وما في خزائنها من الذَّهَب والفِضّة والطّيب وكُسوة الكعبة ، وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار ، وأنهب مكة ، وأحرق بعضها في شهر ربيع الأول منها . ثم خرج منها بعد خمسين يوماً ، ثم صار إلى المدينة ، فتوارَى عليّ بن الحسين بن إسماعيل العامل عليها ، ثم رجع إسماعيل إلى مكة في رَجب ، فحصرهم حتى تماوَت أهلُها جوعاً وعطشاً ، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم ، واللحم رطل بأربعة دراهم ، وشربة ماء ثلاثة دراهم ، ولقيَ أهلُ مكة منه كلَّ بلاء . ثم رحل بعد مقام سبعةٍوخمسين يوماً إلى جُدّة ، فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب ، فحمل إلى مكة الحنطة وَالذّرة من اليمن ، ثم وافت المراكب من القُلْزُم .

ثم وافى إسماعيل بن يوسف الموقف ؛ وذلك يوم عرفة ، وبه محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور الملقب كعب البقر ، وعيسى بن محمد المخزوميّ صاحب جيش مكة - وكان المعتزّ وجّههما إليها - فقاتلهم ، فقتل نحو من ألف ومائة من الحاجّ ، وسلب الناس ، وهربوا إلى مكة ، ولم يقفوا بعرَفة ليلاً ولا نهاراً ، ووقف إسماعيل وأصحابه ، ثم رجع إلى جُدّة فأفنى أموالها .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خلع المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم نفسه من الخلافة . وبيعته للمعتزّ محمد بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم ، والدّعاء للمعتزّ على منبرَيْ بغداد ومسجديْ جانبيها الشرقيّ منها والغربيّ ، يوم الجمعة لأربع خلوْن من المحرّم من هذه السنة ، وأخذ البيعة له على مَنْ كان يومئذ بها من الجُنْد .

وذكر أن ابن طاهر دخل على المستعين ومعه سعيد بن حميد حين كتب له بشروط الأمان ، فقال له : يا أميرَ المؤمنين ، قد كتب سعيد كتب الشروط وأكّد غاية التأكيد ، فنقرؤه عليك فتسمعه ؟ فقال له المستعين : لا عليك ألا تركتها يا أبا العباس ، فما القوم بأعلم بالله منك ، قد أكدتَ على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت ؛ فما ردّ عليه محمد شيئاً .

ولما بايع المستعين المعتزّ وأخذ عليه البيعة ببغداد ، وأشهد عليه الشهود من بني هاشم والقضاة والفقهاء والقوّاد نقل من الموضع الذي كان به من الرُّصافة إلى قصر الحسن بن سهل بالمحرَّم هو وعياله وولده وجواريه ، فأنزلوهم فيه جميعاً ، ووكّل بهم سعيد بن رجاء الحِضَاريّ في أصحابه ، وأخذ المستعين البُرْدة والقضيب والخاتم ، ووجّه مع عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وكتب معه :

أما بعد ، فالحمد لله متمّم النعم برحمته ، والهادي إلى شكره بفضله ، وصلّى الله على محمد عبده ورسوله ؛ الذي جمع له ما فرّق من الفضل في الرّسل قبلَه ، وجعل تراثه راجعاً إلى مَنْ خَصّه بخلافته ، وسلّم تسليماً . كتابي إلى أمير المؤمنين وقد تمّم الله له أمرَه ، وتسلّمت تُراث رسول الله ﷺ ممن كان عنده ، وأنفذتُه إلى أمير المؤمنين مع عبيدالله بن عبدالله مولى أمير المؤمنين وعبده .

ومنع المستعين الخروج إلى مكة ، واختار أن ينزل البصرة ، فذكر عن سعيد بن حميد أن محمد بن موسى بن شاكر قال : البصرة وبيّة . فكيف اخترت أن تنزلها ! فقال المستعين : هي أوْبى ، أو ترك الخلافة !

وذكر أنّ قُرْب جارية قبيحة برسالة إلى المستعين من المعتزّ . يسأله أن ينزل عن ثلاث جوارٍ كان المستعين تزوجهنّ من جواري المتوكل ، فنزل عنهن ، وجعل أمرهنّ إليهنّ ، وكان احتبس عنده من الجوهر خاتمين يقال لأحدهما البُرْج وللآخر الجبَل ، فوجّه إليه محمد بن عبدالله بقُرْب خاصيّة المعتزّ وجماعة ، فدفعهما إليهم ، وانصرفوا بذلك إلى محمد بن عبدالله ، فوجّه به إلى المعتزّ .

ولست خلون من المحرَّم دخل ـ فيما قيل ـ بغداد أكثر من مائتي سفينة ، فيها من صنوف التجارات وغنم كثير ، وأُشخص المستعين مع محمد بن مظفّر بن سَيسَل وابن أبي حفصة إلى واسط في نحو من أربعمائة فرسان ورجّالة . وقدم بعد ذلك ابن طاهر عيسى بن فرّخانشاه وقُرْب ، فأخبراه أن ياقوتة من جوهر الخلافة قد حَبسها أحمد بن محمّد عنده ، فوجّه ابنُ طاهر الحسين بن إسماعيل فأخرجها ، فإذا ياقوتة بهيّة ، أربع أصابع طولاً في عرض مثل ذلك ، وإذا هو قد كتب عليها اسمه ، فدفعت إلى قُرْب ، فبعثتْ بها إلى المعتزّ .

واستوزر المعتزّ أحمد بن إسرائيل ، وخلع عليه ، ووضع تاجاً على رأسه ، وشخص أبو أحمد إلى سامُرَّا يوم السبت لاثنتي عشرة خلت من المحرّم منها ، وشيَّعه محمد بن عبدالله والحسن بن مخلد ، فخلع على محمد بن عبدالله خمس خلع وسيفاً ، ورجع من الرّوذباز .

وقال بعض الشعراء في خلع المستعين :

خُلِعَ الخلافَة أحمدُ بن مُحمد ... وسيُقتَلُ التالي له أو يُخلَعُ
ويزولُ مُلكُ بني أبيه ولا يُرى ... أحدٌ تَملّكَ منهمُ يَستَمتِعُ
إيهاً بني العباس إنَّ سبيلَكمْ ... في قتلِ أعبُدكُمْ طريقٌ مَهْيَعُ
رَقَّعتُم دُنياكُمُ فتمزَّقَتْ ... بكم الحياةُ تمزُّقاً لا يُرقَعُ

وقال بعض البغداديين :

إنّي أراكَ من الفِراقِ جَزوعَاً ... أضحى الإمامُ مَسيَّراً مخلوعاً
كانت به الآفاقُ تَضحَكُ بهجَةً ... وَهو الربيعُ لمن أراد ربيعَاً
لا تُنكِري حَدَثَ الزمانِ وريْبه ... إنّ الزمانَ يُفرِّقُ المجمُوعا
لَبِسَ الخلافةَ واستجدَّ محبةً ... يقضي أُمورَ المسلمينَ جميعا
فجنَتْ عليه يدُ الزمانِ بصرفِه ... حَرْباً وكَانَ عن الحُروب شَسُوعا
وتجانفَ الأتراك عنه تمرُّداً ... أَضْحَى ، وكان ولا يُرَاعُ مروعا
فَنزا بهم ، فَنَزْوا به وتَعَاورتْ ... أَيْدِي الكماةِ من الرؤوس نجيعا
فأزَالَه المقدارُ عن رُتَبِ العلا ... فثَوَى بِواسطَ لا يُحِسُّ رُجوعا
غَدَرُوا به ، مكروا به ، خانوا به ... لزِمَ الفراشَ ، وحالَفَ التَّضجيعا
وتكنَّفُوا بغدادَ من أقطارِها ... قد ذَلَّلوا ما كان قبلُ مَنِيعا
ولو انه سَعَر الحروبَ بنفسِه ... متلبِّباً للقائهِنَّ دُروعَا
حتى يُصادِمَ بالكماة كماتَهُ ... فيكون من قَصدَ الحروبَ صَريعا
لَغَدَا على رَيْبِ الزمانِ مُحرَّماً ... ولَكان إذ غَدَرَ اللئامُ مَنِيعا
لكنْ عصَى رأيَ الشفيق وعذْلَهُ ... وغَدا لأمر الناكثينَ مُطيعَا
والمُلكُ ليس بمالكٍ سلطانَه ... مَنْ كان للرأيِ السَّديد مضيعا

مـا زالَ يَخْـدَعُ نفسَـه عن نـفسِـه حتى غَـدا عـن ملكـه مـخـدُوعـا
بـاع ابنُ طـاهـر دينَـه عن بيعـةٍ أمسى بـهـا مُلكُ الإمـام مَـنيـعـا
خلعَ الخـلافـة والـرعيّة فـاغتـدى مـن ديـنِ ربِّ مـحـمـدٍ مـخـلوعـا
فـلْيَـجْـرَعَـنَّ بـذاك كـأسـاً مُـرَّةً ولـيُـلفَـيَـنَّ لـتـابـعـيـه تـبـيـعـا

وقال محمد بن مروان بن أبي الجَنوب بن مروان حين خلع المستعين، وصار إلى واسط:

إنَّ الأُمـورَ إلى المعتزّ قـد رَجَعَتْ والمُستعـان إلى حـالاتِـهِ رَجَعَـا
وكـانَ يَعلمُ أنَّ المُـلكَ ليس لـه وأنّـه لَـكَ لكنْ نـفسَـه خـدعَـا
ومـالـكُ المُلكِ مؤتيـهِ ونـازعُـه آتـاك مُلْكا ومنه الملك قد نَـزَعا
إنَّ الخِـلافَـةَ كـانت لا تُـلائِمُـهُ كـانت كَـذاتِ حليـل زُوِّجَتْ مُتَعَا
ما كـانَ أقبـحَ عند النـاسِ بَيعتَه وكـان أَحسَنَ قَوْل الناسِ قد خلِعا
ليتَ السَّفِينَ إلى قـافٍ دَفَعْنَ بـه نفسي الفِـداءُ لمـلَّاحٍ بـه دَفَعـا
كم ساسَ قبلكَ أمرَ الناسِ من ملك لـو كـان حُمِّـلَ مـا حُمِّلتَـه ظَلَعـا
أمْسَى بكَ الناسُ بعد الضِّيقِ في سَعَةٍ والله يَجعـلُ بعـد الضِّيق مُتَّسَعـاً
والله يـدفـعُ عنـك السّوءَ من مَلكٍ فـإنـه بـكَ عنَّـا السـوءَ قـد دَفَعَـا
ما ضاع مدحي ولا ضاع اصطناعُك لي وقـد وَجَـدْتُ بحمـد الله مُصْطَنعـا
فـارْدُدْ عليَّ بنجـدٍ ضَيْعـة قبِضَتْ فـإنَّ مِثلكَ مثلي يُـقـطِعُ الضـيَعـا
فـإنْ رَدَدْتَ إمامَ العَـدْلِ غَلَّتَـهـا فـاللَّهُ آنُفَ حُسَّـادي بِـه جَـدَعَـا

وقال يمدح المعتزّ بعد خلع المستعين:

قـد عـادَتِ الـدنيـا إلى حَـالِهَـا وسَـرَّنـا الله بـإقـبـالِـهـا
دنـيـا بـك الله كـفـى أهـلهـا مـا كـان مـن شِـدَّة أهـوالِـهـا
وكـانَ قَـدْ مـلَكَـهـا جـاهِـلٌ لا تَـصلُحُ الـدُّنيـا لجُـهَّـالِهَـا
قـد كـانـتِ الـدنيـا بـه قُـفِّلَتْ فـكـنـتَ مِـفـتـاحـاً لأقـفـالِـهَـا
إنَّ الـتـي فُـزتَ بـهـا دُونَـهُ عـادَتْ إلـى أحسَـنِ أحـوالِـهَـا
خـلافـةٌ كـنـتَ حـقـيـقـاً بـهـا فـضَّـلكَ الـلهُ بِـسِـرْبـالِـهـا
فـردَّه الـلهُ إلـى حـالِـهِ وردّهـا الـلهُ إلـى حـالِـهَـا
ولـم تـكـن أَوَّلَ عـاريـةٍ رُدّتْ عـلى رغْـمٍ إلـى آلـهـا
والـلهِ لـو كـان عـلى قـريـةٍ مـا كـان يُجـزي بعضَ أعمـالهـا
أدخـلَ فـي الـمـلكِ يـداً رِعـدةً أخـرجَـهـا من بـعـدِ إدخـالهـا
بَـدَّلَـنـا الـلهُ بـه سَـيِّـداً أسـكَـنَ دُنـيـا بـعـد زلـزالـهـا
بُـدِّلَـتِ الأُمَّـةُ هـذا بـذا كـأنَّـهـا فـي وقـتِ دَجَّـالِـهـا

وقـامَ بـالـمُـلكِ وأثـقـالـه ... وقـام بـالـحـرب وأثـقـالـهـا
أَبْـطلَ مـا كـان الـعِـدَا أمَّـلوا ... رَمْـيُـك بـالـخـيـلِ وأبـطالِـهَـا
تُـعِمـلُ خَـيْـلاً طـالَمَـا نـجـحَـتْ ... مـا عَـمِلَتْ خـيـلٌ كـأعـمـالـهـا

وقال الوليد بن عبيد البحتريّ في خلع المستعين ومدح المعتز :

ألا هـل أتـاهـا أنَّ مُـظْلِمَـةَ الـدُّجى ... تجلَّتْ وأنَّ العيشَ سُـهِّـلَ جـانـبـهْ
وأنَّـا ردَدْنـا المُستَعـارَ مُـذَمَّـمـاً ... على أهلِه واستـأنَفَ الحقَّ صاحبـهْ
عجبتُ لهـذا الدّهـر أعيَتْ صُـرُوفُه ... ومـا الـدّهـرُ إلا صـرْفُـه وعجـائبـه
متى أمَّـلَ الـدَّيّـاك أن يُصطفى لَـهُ ... عُـرَى التّـاج أو يُثْنى عليه عصـائِبُهْ
وكيف ادَّعى حقَّ الخـلافِة غـاصبٌ ... حَـوَى دونـه إرثَ الـنبـيِّ أقـاربُـه
بكى المِنبـر الشـرقيُّ إذْ خـارَ فـوقَـه ... على النّـاسِ ثور قـد تَدَلَّت غَبَـاغبـهْ
ثَقيـل على جنبِ الثَّـريـد مُـراقِبٌ ... لشخص الخـوانِ يَبتَـدِي فيُـواثِبُـهْ
إذا ما احتشى من حاضِر الزَّادِ لم يُبَلْ ... أضـاءَ شِهَـابُ المُلكِ أم كـلُّ ثـاقِبُـه
إذا بَكَّـرَ الفَـرَّاشُ ينثـو حـديثَـه ... تضـاءَل مُـطْريـهِ وأطنَب عـائبُـهْ
تَخَطَّى إلى الأمْـر الَّـذي ليس أهلَهُ ... فَـطوْراً يُنـاغيـه وطـوراً يُشـاغِبُـهْ
فـكـيـف رأيتَ الـحـقَّ قَـرَّ قـرارُه ... وكَيْفَ رأيتَ الـظُّلمَ زالتْ عـواقبـهْ
ولم يكنِ المغْـتـرُّ بـاللهِ إذ سَـرَى ... لِيُعـجِـزَ والمعتـزُّ بـالله طـالِبُـهْ
رَمَى بـالقضِيب عَنوةً وهْـو صـاغـرٌ ... وعُـرِّيَ مـن بُـرْدِ النَّبيّ مـنـاكبـه
وقـد سـرَّني أنْ قيـل وُجِّه مسـرعـاً ... إلى الشَّـرْقِ تُحْدَى سُفْنُـه وركـائبُـه
إلى كَسْكَـر خَلْفَ الدَّجاج ولم يَكن ... لِتُنْشَبَ إلا في الـدجـاج مخـالبُـه
ومـا لِحيَـةُ القصَّـارِ حيثُ تَنَقَّشَتْ ... بجـالبـةٍ خيـراً على من ينـاسِبُـهْ
يحـوز ابن خَـلاَّدٍ على الشِّعْـرِ عنْدَه ... ويُضحي شُجاعٌ وهْو للجهـل كاتِبُهْ
فأقسمْتُ بالْوادِي الحَرامِ ومـا حَوَتْ ... أبـاطحُـه من مَحْـرَمٍ وأخـاشبـهْ
لقـد حمـلَ المعتـزُّ أمـةَ أحمـدٍ ... على سَنَنٍ يَسـرِي إلى الحق لاَحِبُهْ
تَـدارَكَ دينَ اللهِ من بعـدِ مـا عَفَتْ ... معـالِمُـه فينَـا وغـارَت كـواكبُـهْ
وضـمَّ شعـاعَ المُلكِ حتى تَجمَّعتْ ... مـشـارِقُـهُ مـوفـورةً ومـغـارِبـهْ

وانصرف أبو الساج ديوداد بن ديودست إلى بغداد لسبع بقين من المحرّم من هذه السنة ، فقلّده محمد بن عبدالله معاون ما سقَى الفرات من السَّواد ، فوجّه أبو الساج خليفةً له يقال له كربه إلى الأنبار ، ووجَّه قوماً من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة مع خليفة له ، ووجَّه الحارث بن أسد في خمسمائة فارس وراجل ، يستقرىء أعماله ، ويطرد الأتراك والمغاربة عنها ، وقد كانوا عاثوا في النواحي وتلصّصوا ، ثم شخص أبو الساج من بغداد لثلاث خلون من ربيع الأول ، ففرّق أصحابه في طساسيج الفرات ، ونزل قصر ابن هبيرة ، ثم صار إلى الكوفة ، ووافى أبو أحمد سامرّا منصرفاً من معسكره إليها لإحدى عشرة بقيتْ

من المحرّم ، فخلع المعتزّ عليه ستة أثواب وسيفاً ، وتُوِّج تاج ذهب بقلنسوة مجوهرة ، ووُشِّح وشاحيْ ذهب بجوهر ، وقُلِّد سيفاً آخر مرصّعاً بالجوهر ، وأجلس على كرسيّ ، وخلع على الوجوه من القوّاد .

وفيها قتل شريح الحبشيّ ، وكان سبب ذلك أنه حين وقع الصّلْح ، هرب في عدّة من الحَبشة ، فقطع الطريق فيما بين واسط وناحية الجبل والأهواز، ونزل قريةً من قُرى أمّ المتوكل يقال لها ديري ، فنزل في خانها في خمسة عشرة رجلًا، فشربوا وسكروا، فوثب عليهم أهل القرية فكتفوهم، وحملوهم إلى واسط، إلى منصور بن نصر، فحملهم منصور إلى بغداد، فأنفذهم محمد بن عبدالله إلى العسكر، فلمّا وصلوا قام بايكباك إلى شُريح . فوسَّطه بالسيف وصُلِب على خشبة بابك، وضرب أصحابه بالسياط ما بين الخمسمائة إلى الألف .

وفي شهر ربيع الآخر منها توفِّيَ عبيدالله بن يحيى بن خاقان في مدينة أبي جعفر .

وفيها كتب المعتز إلى محمد بن عبدالله في إسقاط اسم بغا ووصيف ومن كان في رسمهما من الدواوين .

وذكر أن محمد بن أبي عون أحد قوّاد محمد بن عبدالله ناظره لّما صار أبو أحمد إلى سامرّا في قتل بُغا ووَصيف ، فوعَده أن يقتلهما ، فبعث المعتزّ إلى محمد بن عبدالله بلواء ، وعقد لمحمد بن أبي عون لواء على البصرة واليمامة والبحرين ، فكتب قومٌ من أصحاب بُغا ووصيف إليهما بذلك ، وحذّرُوهما محمدَ بن عبدالله ، فركب وصيف وبُغا إليه يوم الثلاثاء لخمس بقين من ربيع الأول ، فقال له بغا : بلَغنا أيها الأمير ما ضمنه ابن أبي عون من قتلنا ؛ والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه ؛ والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا عليه . فَحلف لهما أنه ما علم بشيء من ذلك ، وتكلّم بُغا بكلام شديد ، ووصيف يكفُّه ، وقال وصيف : أيّها الأمير، قد غدر القوم ونحن نُمسك ونقعد في منازلنا حتى يجيء مَنْ يقتلنا! وكانا دخلا مع جماعة، ثم رجعا إلى منازلهما، فجمعا جندهما ومواليَهما، وأخذا في الاستعداد وشِرَى السّلاح وتفريق الأموال في جيرانهما إلى سلخ ربيع . وكان وصيف وبُغا عند قدوم قُرْب ، وجه إليهما محمد بن عبدالله كاتبَه محمد بن عيسى ، فأقبلا معه حتى صارا عند دار محمد بن عبدالله بقرْب الجسر ، فلقيهما جعفر الكرديّ وابن خالد البرمكيّ ؛ فتعلقّ كلّ واحد منهما بلجام واحد منهما ، وقال لهما : إنما دُعيتما لتحملا إلى العسكر ، وقد أعدّ لكما لذلك قومٌ أو لتقتلا ، فرجعا وجمعا جمعاً ، وأجريا على كلّ رجل كل يوم درهمين ، فأقاما في منازلهما .

وكان وصيف وجّه أختَه سعاد إلى المؤيد ، وكان المؤيّد في حِجْرها ، فأخرجت من قصر وصيف ألف ألف دينار وكانت مدفونة فيه ؛ فدفعتها إلى المؤيّد ؛ فكلّم المؤيد المعتزَّ في الرضا عن وصيف ؛ فكتب إليه بالرضا عنه ؛ فضرب مضاربه بباب الشمّاسيّة على أن يخرج ، وتكلّم أبو أحمدَ بن المتوكل في الرضا عن بغا ، فكتب إليه بالرّضا . واضطرب أمرهما وهما مقيمان ببغداد .

ثم اجتمع على المعتز الأتراك فسألوه الأمْرَ بإحضارهما ، وقالوا : هما كبيرانا ورئيسانا ، فكتب إليهما بذلك ، فجاء بالكتاب بايكباك في نحو من ثلاثمائة رجل ؛ فأقام بالبرْدان ، ووجّه إليهما الكتاب لسبع بقين

من شهر رمضان من هذه السنة ؛ فكتب إلى محمد بن عبدالله بمنعهما ، فوجَّها بكاتبيهما أحمد بن صالح ودُلَيل بن يعقوب إلى محمد بن عبدالله ليستأذناه ، فأتاهما جيش من الأتراك ؛ فنزلوا بالمصلى ، وخرج وصيف وبُغا وأولادهما وفرسانهما في نحو من أربعمائة إنسان ، وخلفا في دورهما الثّقَل والعيال ، ودعا أهل بغداد لهما ودعوْا لهم .

وقد كان ابن طاهر وجّه محمد بن يحيى الواثقيّ وبندار الطبريّ إلى باب الشماسيّة وباب البرَدان ليمنعوهما ، ومضيا من باب خراسان ، ونفذا ولم يعلم كاتباهما حتى قال محمد بن عبدالله لأحمد ودُليل : ما صنع صاحباكما ؟ فقال أحمد بن صالح : خلّفتُ وصيفاً في منزله . قال : فإنه قد شخص الساعة ، قال : ما علمتُ ؛ فلمّا صار إلى سامُرّا بكّر أحمد بن إسرائيل يوم الأحد لتسع بقين من شوال من هذه السنة في السَّحَر إلى وصيف ، وأقام عنده مليّاً ، ثم انصرف إلى بُغا ، فأقام عنده مليّاً ، ثم صار إلى الدّار ، فاجتمع الموالي وسألوا ردّهما إلى مراتبهما، فأجيبوا إلى ذلك، وبعث إليهما، فحضرا ورتّبا في مرتبتهما التي كانت قبل مصيرهما إلى بغداد ، وأمر بردّ ضياعهما ، وخلع عليهما خلع المرتبة . ثم ركب المعتزّ إلى دار العامة ، وعقد لبُغا ووصيف على أعمالهما وردّ ديوان البريد كما كان قبل إلى موسى بن بغا الكبير ، فقبل موسى ذلك.

وفي شهر رمضان من هذه السنة كانت وقعة بين جند بغداد وأصحاب محمد بن عبدالله طاهر، ورئيس الجند يومئذ ابن الخليل . وكان السبب في ذلك -فيما ذكر- أن المعتزكتب إلى محمد بن عبدالله في بيع غلّة طساسيج ضياع بادرويا وقُطْرُبّل ومَسْكِن وغيرها ، كلّ كُرَّين بالمعدّل بخمسة وثلاثين ديناراً من غلة سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وكان المعتزّ ولّى بريد بغداد رجلًا يقال له صالح بن الهيثم ، وكان أخوه منقطعاً إلى أتامش أيام المتوكل ، فارتفع أمرُ صالح هذا أيام المستعين ؛ وكان ممن أقام بسامرّا ، وهو من أهل المخرّم، وكان أبوه حائكاً ثم صار يبيع الغزْل ؛ ثم انتقل أخوه إليه لما ارتفع . فلما أقام ببغداد كُتِبَ إليه أن يُؤمر أن يقرأ الكتاب على قوّاد أهل بغداد كعتاب بن عتاب ومحمد بن يحيى الواثقيّ ومحمد بن هرثمة ومحمد بن رجاء وشعيب بن عجيف ونظرائهم ، فقرأه عليهم ، فصاروا إلى محمد بن عبدالله ، فأخبروه ، فأمر محمد بن عبدالله فأحضر صالح بن الهيثم ، وقال : ما حملك على هذا بغير علمي ! وتهدّده وأسمعه . وقال للقوّاد : انتظروا حتى أرى رأيي ، وآمركم بما أعزم عليه ، فانصرفوا من عنده على ذلك ، وشخص بعد ذلك ، واجتمع الفروض والشاكريّة والنائبة إلى باب محمد بن عبدالله يطلبون أرزاقهم لعشر خَلْون من شهر رمضان ؛ فأخبرهم أنّ كتاب الخليفة ورد عليه ، جوابَ كتاب له كان كتب بمسألة أرزاق جند بغداد ، إن كنتَ فرضت الفروض لنفسك ، فأعطِهم أرزاقهم ، وإن كنت فرضتَ لنا فلا حاجة لنا فيهم . فلما ورد الكتاب عليه أخرج لهم بعد شغَبهم بيوم ألفي دينار ، فوُضعت لهم ثم سكنوا .

ثم اجتمعوا لإحدى عشرة خلت من شهر رمضان ، ومعهم الأعلام والطبول ، وضربوا المضارب والخيم على باب حرْب وباب الشماسيّة وغيرهما ، وبنوا بيوتاً من بوارِيّ وقصب ، وباتوا ليلتَهم ، فلما أصبحوا كُثر جمعهم ، وبيّت ابنُ طاهر قوماً من خاصته في داره ، وأعطاهم درهماً درهماً، فلما أصبحوا

مضوا من داره إلى المشغّبة ، فصاروا معهم . فجمع ابن طاهر جنده القادمين معه من خُراسان ، وأعطاهم لشهرين ، وأعطى جند بغداد القدماء ؛ الفارس دينارين والراجلَ ديناراً ، وشَحَن داره بالرجال ؛ فلما كان يوم الجمعة اجتمع من المشغبة خلق كثير بباب حرب بالسلاح والأعلام والطبول ، ورئيسهم رجل يقال له عبدان بن الموفّق ، ويكنى أبا القاسم ؛ وكان من أثبات عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وكان ديوان عبدان في ديوان وصيف ، فقدم بغداد ، فباع داراً له بمائة ألف دينار ، فشخص إلى سامُرّا ، فلما وثبت الشاكريّة بباب العامة كان معهم ، فضربه سعيد الحاجب خمسمائة سوط ، وحبسه حبساً طويلاً ، ثم أطلق . فلما كان فتنة المستعين صار إلى بغداد ، وانضمّ إليه هؤلاء المشغبة ، فحضّهم على الطلب بأرزاقهم وفائتهم ، وضمن لهم أن يكون لهم رأساً يدبّر أمرهم . فأجابوه إلى ذلك ، فأنفق عليهم يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة نحواً من ثلاثين ديناراً فيما أقام لهم من الطعام ، ومَنْ كانت لهم كفاية لم يحتج إلى نفقته ؛ فكان ينصرف إلى منزله ، فلمّا كان يوم الجمعة اجتمعتْ منهم جماعة كثيرة ، وعزموا على المصير إلى المدينة ليمضوا إلى الإمام فيمنعوه من الصّلاة والدعاء للمعتزّ ، فساروا على تعبية في شارع باب حَرْب ؛ حتى انتهوْا إلى باب المدينة في شارع باب الشأم ، وجعل أبو القاسم هذا على كلّ درب يمرّ به قوماً من المشغبة ، من بين رامح وصاحب سيف ليحفظوا الدروب ، كيلا يخرج منها أحد لقتالهم .

ولما انتهى إلى باب المدينة دخل معهم المدينة جماعة كثيرة ، فصاروا بين البابين وبين الطاقات ، فأقاموا هناك ساعة ، ثم وجهوا جماعة منهم يكونوا نحواً من ثلاثمائة رجل بالسلاح إلى رُحْبة الجامع بالمدينة ، ودخل معهم من العامة خلْق كثير ، فأقاموا في الرُّحبة ، وصاروا إلى جعفر بن العباس الإمام ، فأعلموه أنهم لا يمنعونه من الصّلاة ، وأنهم يمنعونه من الدعاء للمعتزّ . فأعلمهم جعفر أنه مريض لا يقدر على الخروج إلى الصلاة ، فانصرفوا عنه ، وصاروا إلى درب أسد بن مرزبان ، فشحنوا الشارع النافذ إلى درب الرقيق ، ووكّلوا بباب درب سليمان بن أبي جعفر جماعة ، ثم مضوْا يريدون الجسر في شارع الحدّادين ، فوجّه إليهم ابن طاهر عِدّة من قوّاده فيهم الحسين بن إسماعيل والعباس بن قارن وعليّ بن جهشيار وعبدالله بن الأفشين في جماعة من الفرسان ، فناظروهم ودفعوهم دفعاً رفيقاً ، وحمل عليهم الجند والشاكريّة حملة جرحوا فيها جماعة من قوّاد ابن طاهر ، وأخذوا دابة ابن قارن وابن جهشيار ورجلٍ من فرض عبيدالله بن يحيى من الشأميين يقال له سعد الضبابيّ ، وجرحوا المعروف بأبي السنا ، ودفعوهم عن الجسر حتى صيّروهم إلى باب عمرو بن مسعدة .

فلما رأى الذين بالجانب الشرقيّ منهم أنّ أصحابهم قد أزالوا أصحابَ ابن طاهر عن الجِسْر كبّروا ، وحملُوا يريدون العبور إلى أصحابهم ؛ وكان ابن طاهر قد أعدّ سفينة فيها شوك وقصب ليُضرِم فيها النار ، ويرسلها على الجسر الأعلى ؛ ففعل ذلك ، فأحرقت عامة سفنه وقطعته ؛ وصارت إلى الآخر ، فأدركها أهلُ الجانب الغربي ، ففرّقوها وأطفؤوا النار التي تعلّقت بسفن الجسر . وعبر من الجانب الشرقيّ إلى الجانب الغربي خلْق كثير ، ودفعوا أصحاب ابن طاهر عن ساباط عمرو بن مسعدة ، وصاروا إلى باب ابن طاهر ، وصار الشاكريّة والجند إلى ساباط عمرو بن مسعدة ، وقُتِل من الفريقين إلى الظهر نحو من عشرة نفر ، وصار جماعة من الغوغاء والعامة إلى المجلس الذي يعرَف بمجلس الشرْطة في الجسر من الجانب الغربيّ إلى بيت يقال له بيت الرفوع ، فكسروا الباب ، وانتهبوا ما فيه ؛ وكان فيه أصناف من المتاع ، فاقتتلوا عليه فلم يتركوا فيه

شيئاً، وكان كثيراً جليلا. وأحرق ابنُ طاهر الجسرين لما رأى الجند قد ظهروا على أصحابه، وأمر بالحوانيت التي على باب الجسر التي تتصل بدرب سليمان أن تحرَق يمنة ويسرة، ففعل فاحترق فيها للتجار متاع كثير، وتهدّم حيطان مجلس صاحب الشرطة؛ وكبّرت الجند عند ذلك تكبيرة شديدة؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم بباب حرب، وصار الحسين بن إسماعيل مع جماعة من القوّاد والشاكرية إلى باب الشام، فوقَف على التّجار والعامة فوبّخهم على معونتهم الجند، وقال: هؤلاء قاتلوا على خبزهم وهم معذُورون؛ وأنتم جيران الأمير ومَنْ يجب عليه نُصْرته، فلِمَ فعلتم ما فعلتم، وأعنتم الشاكريّة عليه ورميتم بالحجارة، والأمير متحوّل عنكم! ثم صار محمد بن أبي عون إليهم، فقال لهم مثل ذلك؛ وانصرف إلى ابن طاهر، فمكث الجُند المشتَغبون في مواضِعهم ومعسكرهم، وانضمّ إلى ابن طاهر جماعة من الأثبات وجَمع جميع أصحابه، فجعل بعضهم في داره، وبعضهم في الشارع النافذ من الجسر إلى داره، قد عبّأهم تعبية الحرب حذاراً من كَرّة الجند عليه أياماً؛ فلم يكن لهم عودة؛ فصار في بعض الأيام التي كان من عودتهم ابنُ طاهر على وَجَلٍ - فيما ذكر - رجلان من المشغّبة استأمنا إليه، فأخبراه بعورة أصحابهما، فأمر لهما بمائتي دينار، ثم أمر الشاه بن ميكال والحسين بن إسماعيل بعد العشاء الآخرة بالمصير في جماعة من أصحابهما إلى باب حَرْب، فتلطّفا لأبي القاسم رئيس القوم وابن الخليل - وكان من أصحاب محمد بن أبي عون - فصاروا إلى ما هناك؛ وكان أبو القاسم وابن الخليل قد صار كلُّ واحد منهما عند مفارقة الرَّجُلين اللذيْن صارا إلى ابن طاهر ورجل آخر يقال له القُميّ؛ وتفرّق الشاكريّة عنهما إلى ناحية خوفاً على أنفسهم فمضى الشاه والحسين في طلبهما حتى خرجا من باب الأنبار، وتوجّها نحو جسر بَطَاطِيا، فذُكر أنّ ابن الخليل استقبلهما قبل أن يصيرا إلى جسر بطاطِيا، فصاح بهما ابن الخليل ومَنْ معهما من هؤلاء، وصاحوا به؛ فلمّا عرفهم حمل عليهم، فجرح منهم عدّة، فأحدقوا به، وصار في وسط القوم، فطعنه رجل من أصحاب الشاه، فرمى به إلى الأرض، فبَعَجه عليّ بن جهشيار بالسَّيْف وهو في الأرض، ثم حُمل على بغل وبه رَمق، فلم يصلوا به إلى ابن طاهر حتى قَضى. وأمر الشاه بطرحه في كَنِيف في دهليز الدَّار إلى أن حُمل إلى الجانب الشرقيّ؛ وأما عبدان بن الموفّق فإنه كان قد صار إلى منزله وإلى موضع اختفى فيه، فدُلَّ عليه، وأخِذ وحُمل إلى ابن طاهر، وتفرّق الشاكريّة الذين كانوا بباب حرب، وصاروا إلى منازلهم، وقُيِّد عبدان بن الموفق بقيدين فيهما ثلاثون رطلا. ثم صار الحسين بن إسماعيل الذي هو فيه في دار العامة، وقعد على كرسيّ، ودعا به، فسأله: هل هو دسيس لأحد، أو فعل ما فعل من قِبَل نفسه؟ فأخبره أنه لم يدسّه أحد؛ وإنما هو رجل من الشاكريّة طلب بخبزه. فرجع الحسين إلى ابن طاهر فأعلمه ذلك، فخرج طاهر بن محمد وأخوه إلى دار العامة الداخلة، فقعدا وأحضرا مَنْ بات في الدار من القواد والحسين بن إسماعيل والشاه بن ميكال، وأحضرا عبدانَ، فحمله رجلان؛ فكان المخاطب له الحسين، فقال: أنت رئيس القوم؟ فقال: لا؛ إنما أنا رجل منهم؛ طلبت ما طلبُوا، فشتمه الحسين، وقال حرب بن محمد بن عبد الله بن حرب: كذبت؛ بل أنت رئيس القوم؛ وقد رأيناك تعبِّيهم بباب حرب وفي المدينة وباب الشأم، فقال: ما كنت لهم برأس؛ وإنما أنا رجل منهم؛ طلبت ما طلبوا، فأعاد عليه الحسين الشّتم وأمر بصفعه فصُفع، وأمر بسحبه فسُحب بقيوده إلى أن أخرج من الدار، وشتمه كلُّ مَنْ لحقه، ودخل طاهر بن محمد إلى أبيه فأخبره خبَره، وحمل عبدان على بغل؛ ومُضِي به إلى الحبس، وحمل ابن الخليل في زورق عُبِرَ به إلى الجانب الشرقيّ، وصلب، وأمر بعبدان فجرِّد وضرب مائة سوط بثمارها. وأراد الحسين قتله، فقال لمحمد بن

نصر: ما ترى في ضربه خمسين سوطاً على خاصرته؟ فقال له محمد: هذا شهر عظيم؛ ولا يحلّ لك أن تصنع به هذا؛ فأمر به فصُلِب حيًّا، وحُمِل على سلّم حتى صلِب على الجسر، وربِط بالحبال، فاستسقى بعد ما صُلب، فمنعه الحسين فقيل له: إن شرب الماء مات، قال: فاسقوه إذاً، فسقوْه، فتُرك مصلوباً إلى وقت العصر، ثم حُبس، فلم يزل في الحبس يومين ثم مات اليوم الثالث مع الظهر؛ وأمر بصلبه على الخشبة التي كان صُلب عليها ابن الخليل، ودُفع ابن الخليل إلى أوليائه فدُفن.

وفي رجب من هذه السنة خَلَع المعتزّ المؤيدَ أخاه من ولاية العهد بعده.

ذكر الخبر عن سبب خلعه إياه:

وكان السبب في ذلك ـ فيما بلغنا ـ أنّ العلاء بن أحمد عامل إرمينيَة بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره، فبعث ابن فَرّخانشاه إليه، فأخذها، فأغرى المؤيد الأتراك بعيسى بن فرّخانشاه، وخالفهم المغاربة، فبعث المعتزّ إلى أخويه: المؤيد وأبي أحمد؛ فحبسهما في الجوْسق، وقيّد المؤيد وصيّره في حجرة ضيّقة، وأدرّ العطاء للأتراك والمغاربة، وحبس كنجور حاجب المؤيد، وضربه خمسين مقرعة، وضرب خليفته أبا الهول خمسمائة سَوْط وطُوِّف به على جمل، ثم رضيَ عنه وعن كَنجور، فصُرف إلى منزله.

وقد ذكر أنه ضرب أخاه المؤيد أربعين مقرعة، ثم خُلع بسامرّا يوم الجمعة لسبع خلوْن من رجب، وخُلع ببغداد يوم الأحد لإحدى عشرة خلتْ من رجب، وأخِذت رقعة بخطه بخلْع نفسه.

ولست بقين من رجب من هذه السنة ـ وقيل لثمان بقين منه ـ كانت وفاة إبراهيم بن جعفر المعروف بالمؤيد.

ذكر الخبر عن سبب وفاته:

ذكر أنّ امرأة من نساء الأتراك جاءت محمد بن راشد المغربيّ، فأخبرته أن الأتراك يريدون إخراج إبراهيم المؤيد من الحبْس؛ وركب محمد بن راشد إلى المعتزّ، فأعلمه ذلك، فدعا بموسى بن بُغا، فسأله فأنكر، وقال: يا أمير المؤمنين؛ إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكّل لأنسهم به كان في الحرب التي كانت وأما المؤيّد فلا. فلما كان يوم الخميس لثمان بَقِين من رجب دعا بالقضاة والفقهاء والشهود والوجوه، فأخرج إليهم إبراهيم المؤيد ميّتاً لا أثر به ولا جرح، وحمِل إلى أمه إسحاق ـ وهي أمّ أبي أحمد ـ على حمار، وحُمِل معه كفن وحنوط وأمر بدفنه، وحوّل أبو أحمد إلى الحجرة التي كان فيها المؤيد.

وذكر أنّ المؤيد أدرِج في لحاف سمّور، ثم أمسِك طرفاه حتى مات.

وقيل: إنه أقْعِدَ في حَجَر من ثلج، ونضّدت عليه حجارة الثلج فمات برداً.

وفي شوال منها قتِل أحمد بن محمد المستعين.

ذكر الخبر عن قتله:

ذُكر أن المعتزّ لما همَّ بقتل المستعين، ورد كتابه على محمد بن عبد الله بن طاهر بنكبته، وأمره بتوجيه أصحاب معاونه في الطسَاسيج، ثم ورد عليه منه بعد ذلك كتاب مع خادم يدعى سيما، يُؤمَر فيه بالكتاب إلى منصور بن نصر بن حمزة ـ وهو على واسط ـ بتسليم المستعين إليه؛ وكان المستعين بها مقيماً، وكان الموكَّل به ابن أبي خميصة وابن المظفَّر بن سيسل ومنصور بن نصر بن حمزة وصاحب البريد؛ فكتب محمد في تسليم المستعين إليه، ثم وجّه ـ فيما قيل ـ أحمد بن طولون التركيّ في جيش، فأخرج المستعين لستّ بقين من شهر رمضان، فوافى به القاطول لثلاث خلوْن من شوال. وقيل إن أحمد بن طولون كان موكَّلاً بالمستعين، فوجّه سعيد بن صالح إلى المستعين في حَمْلِه، فصار إليه سعيد فحمله.

وقيل إن سعيداً إنما تسلّم المستعين من ابن طولون في القاطول بعد ما صار به ابن طولون إليها، ثم اختُلف في أمرهما، فقال بعضهم: قتله سعيد بالقاطول؛ فلمّا كان غد اليوم الذي قتله فيه أحضر جواريَه وقال: انظرنَ إلى مولاكنّ قد مات، وقد قال بعضهم: بل أدخله سعيد وابن طولون سامرّا، ثم صار به سعيد إلى منزل له فعذّبه حتى مات.

وقيل: بل ركب معه في زورق ومعه عدّة حتى حاذى به فم دُجَيل، وشدّ في رجله حجراً، وألقاه في الماء.

وذُكِر عن متطبّب كان مع المستعين نصرانيّ يقال له فضلان، أنه قال: كنتُ معه حين حمل، وأنه أخذ به على طريق سامُرّا، فلما انتهى إلى نهرٍ نظر إلى موكب وأعلام وجماعة، فقال لفضلان: تقدم فانظر مَنْ هذا؛ فإن كان سعيداً فقد ذهبتْ نفسي؛ قال فضلان. فتقدّمت إلى أوّل الجيش، فسألتهم فقالوا: سعيد الحاجب، فرجعت إليه فأعلمته ـ وكان في قبّة تعادله امرأة ـ فقال: إن لله وإنا إليه راجعون! ذهبت نفسي والله! وتأخرت عنه قليلا.

قال: فلقيَه أوّل الجيش، فأقاموا عليه وأنزلوه ودابته، فضربوه ضربةً بالسيف، فصاح وصاحت دابته، ثم قُتِل، فلما قُتِل انصرف الجيش.

قال: فصرت إلى الموضع؛ فإذا هو مقتول في سراويل بلا رأس؛ وإذا المرأة مقتولة، وبها عدّة ضربات؛ فطرحنا عليهما نحن تراب النّهر حتى واريناهما، ثم انصرفنا.

قال: وأتيَ المعتزّ برأسه وهو يلعب بالشطرنج؛ فقيل: هذا رأس المخلوع فقال: ضعوه هنالك، ثم فرغ من لعبه، ودعا به فنظر إليه، ثم أمر بدفنه، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم ووُلِّيَ معونة البصرة.

وذكر عن بعض غلمان المستعين أنّ سعيداً لما استقبله أنزله، ووكّل به رجلا من الأتراك يقتله، فسأله أن يمهله حتى يُصَلّيَ ركعتين؛ وكانت عليه جبة، فسأل سعيد التركيّ الموكل بقتله أن يطلبها منه قبل قتله، ففعل ذلك، فلما سجد في الركعة الثانية قتله واحتزّ رأسه، وأمر بدفنه، وخفيَ مكانه.

وقال محمد بن مروان بن أبي الجَنُوب بن مروان بن أبي حفصة في أمرِ المؤيّد، ويمدح المعتزّ:

أنتَ الذي يُمسكُ الدُّنْيا إذا اضطرَبتْ ... يا مُمْسكَ الدّينِ والدّنيا إذا اضْطَرَبا

إنَّ الرّعيّة ـ أبْقاكَ الإلهُ لَها ـ ... ترْجُو بِعَدْلك أن تبقى لها حِقَبَا

لَقَدْ عُنِيتَ بحربٍ غيرِ هَيِّنَةٍ وكان عُودُك نَبْعاً لم يكن غَرَبا
ما كنتَ أولَ رأسٍ خانَهُ ذَنَبٌ والرأسَ كنتَ وكان النَّاكثُ الذَّنَبا
لَوْ كانَ تمَّ له ما كان دَبَّرَهُ لأصبحَ المُلكُ والإسلامُ قد ذَهَبا
أراد يُهلكُ دُنيانا ويُعْطِبُها وقَدْ أرادَ هَلاَكَ الدِّين والعَطَبا
لَمّا أراد وثُوباً من سَفَاهتِهِ أمسَى عليه إمامُ الْعَدْلِ قد وثَبا
لَقَدْ رَمَاكَ بسهْمٍ لم يُصِبْكَ به ومنْ رَمَاكَ عليه سهمُهُ انقلبا
لَقَدْ رَعَيْتَ له ما كان من سببٍ فَمَا رَعى لكَ إحساناً ولا سبَبا
كحُسْنِ فعلِك لم يفعلْ أخٌ بأخٍ كُنَّا لِذَاك شهوداً لم نكن غَيَبَا
قَدْ كُنتَ مشتغلاً بالحربِ ذا تَعبٍ وَكَانَ يَلْعبُ ما كلَّفتهُ تَعبا
قَدْ كانَ ياذَا النَّدَى يُعطَى بلا طلبٍ وكنتَ يا ذَا النَدَى تعطيه ما طلبا
وكنتَ أكثرَ بِرًّا من أبيه به ولم تكن بأخٍ في البِرّ، كنتَ أبا
وكان قرْبَ سَريرِ الملكِ مَجلِسُهُ فَقَدْ تباعدَ منه بعدَ ما اقتربا
وكان في نِعَمٍ زالت وكان له بابٌ يُزارُ فأمسى اليومَ مُحْتَجَبَا
أمسَى وحيداً وقد كانتْ مواكبُهُ عشرينَ ألفاً تراهمْ خلفَهُ عُصَبا
أين الصُّفوفُ الّتي كانت تقومُ له كما يقومُ إذا ما جاء أو ذهبا
وذلَّ بعدَ تَمادِيهِ ونَخْوَتِهِ كالحوتِ أصبح عنه الماءُ قد نَضَبا
وقد فَسَخْتَ عن الأعناقِ بَيعتَهُ فلا خطيبَ له يدعو إذا اختطبا
لَقَّبتَهُ لَقباً من بعدِ إمْرتِهِ واللهُ بدَّلهُ بالإمْرَةِ اللَّقبَا
كَسَوْتَهُ ثوبَ عزٍّ فاستهانَ بِهِ ولم يَصُنْهُ فأمْسَى عنه مُغتَصَبا
كم نعمةٍ لك فيها كنتَ تشرَكه واللهُ أخرجهُ منها بما اكتسبا
شبَّهتَهُ بسراجٍ كَانَ ذا لَهَبٍ فما تركتَ له نوراً ولا لهبا
أمسَتْ قطيعةُ إبراهيمَ قد قَطَعتْ حبلَ الصَّفاءِ وحبلَ الوُدِّ فانقَضَبا
وما تؤاخِذُ يا حِلفَ النَّدَى أحداً حَتَّى تُبيِّن فيه النَّكْثَ والرِّيَبَا
إني بمَدْحِ بني العباسِ ذُو حسبٍ وكان مدْح بني العباسِ لي حَسبا
إنَّ التُّقَى يا بني العبَّاس أدَّبكمْ حتى استفادتْ قريش منكُمُ الأدبا
مَنْ كان مُقتَضباً في حوْلِ مدحكمُ فلستُ فيه بحمْدِ اللهِ مُقتضَبا

ذُكر عن أبي عبد الرحمن الفانيّ أنّ فتىً من أهل سامُرّا أملى عليه مما عمله بعض أهلها عن ألسن الأتراك أن المعتزّ لمّا أفضت إليه الخلافة، وقلده الله القيام بأمر عباده في المشارق والمغارب، والبرّ والبحر، والبدو والحضر، والسهل والجبل، تألّم بسوء اختيار أهل بغداد وفتنتهم؛ فأمر المعتزّ بالله بإحضار جماعة ممّن صَفَتْ أذهانهم، ورقّتْ طبائعهم، ولطُف ظَنُّهم، وصحَّتْ نحائزهم، وجادت غرائزهم، وكملت عقولهم بالمشورة، فقال أمير المؤمنين: أما تنظرون إلى هذه العصابة التي ذاع نفاقهم، وغار شأْوهم؛ الهَمَج الطغام، والأوغاد الذين لا مُسْكَة بهم، ولا اختيارَ لهم، ولا تمييز معهم؛ قد زَيّن لهم تقحّمُ الخطأ سوءَ أعمَالهم،

فهم الأقلُّون وإن كثروا. والمذمومون إن ذُكروا؛ وقد علمت أنه لا يصلح لقود الجيوش وسدّ الثغور وإبرام الأمور وتدبير الأقاليم إلّا رجل قد تكامَلَتْ فيه خلالٌ أربع: حَـزْمٌ يُقَيِّف به عنـد موارد الأمـور حقائق مصادرها، وعلم يحجزه عن التهوّر والتغرير في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا ينقصها الملمّات مع تواتر حوائجها، وجُودٌ يَهون به تبذير جلائل الأموال عند سؤالها. وأما الثلاث: فسرعة مكافأةُ الإحسان إلى صالح الأعوان، وثقل الوطأة على أهل الزّيغ والعدوان، والاستعداد للحوادث؛ إذ لا تؤمن من نوائب الزمان. وأما الاثنتان؛ فإسقاط الحاجب عن الرّعيّة، والحكم بين القويّ والضعيف بالسويّة. وأما الواحدة فالتيقظ في الأمور مع عدم تأخير عمل اليوم لغد؛ فما ترون؛ وقد اخترت رجالاً لهم من مواليّ، أحدهم شديد الشكيمة، ماضي العزيمة؛ لا تبطِره السرّاء، ولا تدهشه الضرّاء، لا يهاب ما وراءه، ولا يهوله ما تلقاءه، وهو كالحَريش في أصل السِّلام؛ إن حُرّك حمل، وإن نهش قتل؛ عُدّته عتيدة، ونقمته شديدة، يلقى الجيش في النفر القليل العدد بقلب أشدّ من الحديد. طالبٌ للثأر، لا يفلّه العساكر، باسلُ البأس، مقتضب الأنفاس لا يعوزه مـا طلَب، ولا يفوتـه من هرب؛ وارِي الـزناد، مُـطّلع العِماد، لا تُشْـرهه الرّغائب، ولا تُعجزه النوائب؛ إن وليَ كفى، وإن وعد وَفى، وإن نازل فبطل، وإن قال فعل، ظِلّه لوليه ظليل، وبأسه في الهياج عليه دليل؛ يفوق مَنْ ساماه، ويُعجز مَنْ ناواه، ويُتعب مَن جاراه، وينعش مَنْ والاه.

فقام إليه رجل من القوم، فقال: قد جمع الله لك يا أمير المؤمنين فضائل الأدب، وخَصّك بإرث النبوّة، وألقى إليك أزمّة الحكمة، ووفّر نصيبَك من حِباء الكرامة؛ وفسّح لك في الفَهْم، ونوّر قلبك بأنفس العلوم وصفاء الذهن؛ فأفصح عن القلب البيانُ، وأدرك فهمك يا أمير المؤمنين ما والله خبيء على من لم يُحْبَ بما حُبيتَ من المنن العظام، والأيادي الجسام، والفضائل المحمودة، وشرف الطباع. فنطَقت الحكمة على لسانك، فما ظننتَه فهو صواب، وما فهمته فهو الحقّ الذي لا يعاب، وأنت والله يا أمير المؤمنين نسيجُ وحدِه، وقَريع دهرِه، لا يبلغ كليَّة فضله الوصفُ، ولا يحصر أجزاء شرف فضله النعت.

ثم أمر أمير المؤمنين بالعقد لأنصاره على النواحي، وأطلقهم في أشعار أعدائهم وأبشارهم ودمائهم. فلما بلغ محمد بن عبد الله ما أمر به في النواحي أنشأ كتاباً نسخته:

أما بعد فإنّ زيْغ الهوى صَدَف بكم عن حَزْم الرّأي، فأقحمكم حبائل الخطأ، ولـو ملّكتُم الحقّ عليكم، وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرةَ، ونفى عنكم غيابة الحَيْرة. والآن فإن تجنحوا للسِّلم تحقنوا دماءكم، وترغدوا عيشكم، ويصفح أمير المؤمنين عن جريرة جارِمكم؛ وأخْلَى لكم ذِرْوة سُبوغ النعمة عليكم، وإن مضيتم على غُلَوائكم، وَسوَّل لكم الأمل أسوأ أعمالِكم، فأذنوا بحرب من الله ورسوله، بعد نَبْذ المعذرة إليكم، وإقامة الحجة عليكم، ولئن شُنّت الغارات، وشبّ ضرام الحرب، ودارت رحاها على قطبها، وحسمت الصوارم أوصال حُماتها، واستجرّت العوالي مَنْ نهمها، ودُعيَت نزالِ، والتحم الأبطال، وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقَها، وألقت للتجرّد عنها قِنَاعها، واختلفت أعناق الخيل، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغي، لتعلمنّ أيّ الفريقين أسمح بالموت نفساً، وأشدّ عند اللقاء بطشاً، ولات حين معذرة، ولا قبول فدية! وقد أعذر مَنْ أنذر؛ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلَب ينقلبون!

فبلغ كتاب محمد بن عبد الله الأتراكَ، فكتبوا جواب كتابه:

إن شخص الباطل تصوَّر لك في صورة الحقّ، فتخيّل لك الغيّ رشداً كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ولو راجعتَ عُزوب عقلك أنار لك برهان البصيرة، وحسم عنكَ موادّ الشبهة؛ لكن حِصْتَ عن سنّة الحقيقة، ونكصت على عقبيك لِمَا ملك طباعك مِنْ دَواعي الحيرة؛ فكنت في الإصغاء والتجرّد إلى وروده كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران. ولعمرك يا محمد؛ لقد وَرَدَ وعدُك لنا ووعيدُك إيانا، فلم يُدنِنَا منك، ولم يُنئنا عنك، إذ كان فحصُ اليقين قد كشف عن مكنون ضميرك، وألفاك كالمكتفِي بالبرق نَهْجاً؛ إذا أضاء له مَشى فيه؛ وإذا أظلم عليه قام. ولعمرُك لئن اشتدّ في البغي شأوُكَ، ومتعت بصُبابة من الأمل لَيكوننّ أمرك عليك غمة؛ ولَنأتينّك بجنود لا قِبل لك بها، ولنُخرجنّك منها ذليلا، وأنت من الصاغرين. ولولا انتظارنا كتابَ أمير المؤمنين بإعلامنا ما نعمل في شاكلته، بلغْنا بالسّيَاط النياط، وغمدْنا السيوف وهي كالّة، وجعلنا عاليها سافلها، وجعلناها مأوى الظّلمان والحيات والبوم؛ وقد ناديناك من كَثب، وأسمعناك إن كنت حيًّا، فإن تجب تُفلح، وإن تأب إلا غيًّا نخزك به، وعمّا قليل لتصبحُنّ نادمين.

وفي أوّلِ يَوْم من رجب من هذه السنة كانت بين المغاربة والأتراك ملحَمة؛ وذلك أنّ المغاربة اجتمعت فيه مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد؛ فغلبوا الأتراك على الجوْسَق، وأخرجوهم منه، وقالوا لهم: في كلّ يوم تقتلون خليفة، وتخلعون آخر، وتقتلون وزيراً! وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرّخانشاه؛ فتناولوه بالضَّرْب، وأخذوا دوابّه. ولما أخرجت المغاربة الأتراكَ من الجوْسق، وغلبوهم على بيت المال، أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها؛ فاجتمع الأتراك، وأرسلوا إلى مَنْ بالكرخ والدّور منهم، فتلاقوا هم والمغاربة، فقتِل من المغاربة رجلٌ، فأخذت المغاربة قاتله، وأعانت المغاربة الغوْغاء والشاكريّة، فضعف الأتراك، وانقادوا للمغاربة. فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين، فاصطلحوا على ألّا يُحْدِثوا شيئاً، ويكون في كلّ موضع يكون فيه رجل من قِبَل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر؛ فمكثوا على ذلك مُدَيدة.

وبلغ الأتراكَ اجتماع المغاربة إلى محمد بن راشد ونصر بن سعيد، واجتمع الأتراك إلى بايكباك، فقالوا: نطلب هذين الرأسين؛ فإن ظفرنا بهما فلا أحدَ ينطق؛ وكان محمد بن راشد ونصر بن سعيد قد اجتمعا في صدر اليوم الذي عَزَم الأتراك فيه على الوثوب بهما، ثم انصرفا إلى منازلهما، فبلغهما أن بايكباك قد صار إلى منزل ابن راشد، فعدل محمد بن راشد ونصر بن سعيد إلى منزل محمد بن عزّون ليكونا عنده حتى يسكن الأتراك، ثم يرجعا إلى جمعهما، فغمز إلى بايكباك رجلٌ، ودله عليهما. وقيل إن ابن عزّون هو الذي دسّ من دلّ بايكباك والأتراك عليهما؛ فأخذهما الأتراك فقتلوهما؛ فبلغ ذلك المعتز، فأراد قتل ابن عزّون، فكلِّم فيه فنفاه إلى بغداد.

وفيها حُمل محمد بن عليّ بن خلف العطار وجماعة من الطالبيين من بغداد إلى سامُرّا، فيهم أبو أحمد محمد بن جعفر بن حسن بن جعفر بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب، وحمل معهم أبو هاشم داود بن القاسم الجعفريّ وذلك لثمانٍ خلون من شعبان منها.

ذكر السبب في حملهم:

وكان السبب - فيما ذكر - أنّ رجلا من الطالبيين شخص من بغداد في جماعة من الجيشية والشاكريّة إلى ناحية الكوفة، وكانت الكوفة وسوادها من عمل أبي الساج في تلك الأيام؛ وكان مقيماً ببغداد لمناظرة ابن طاهر إياه في الخروج إلى الريّ، فلما بلغ ابنَ طاهر خبرُ الطالبيّ الشاخص من بغداد إلى ناحية الكوفة، أمر أبا الساج بالشخوص إلى عمله بالكوفة، فقدّم أبو الساج خليفته عبد الرحمن إلى الكوفة، فلقيَ أبا الساج أبو هاشم الجعفريّ مع جماعة معه من الطالبيين، ببغداد، فكلموه في أمر الطالبيّ الشاخص إلى الكوفة، فقال لهم أبو الساج: قولوا له يتنحَّى عنّي، ولا أراه. فلمّا صار عبد الرحمن خليفة أبي الساج إلى الكوفة ودخلها رُمِيَ بالحجارة حتى صار إلى المسجد، فظنُّوا أنه جاء لحرب العلويّ، فقال لهم: إني لست بعامل؛ إنما أنا رجل وجِّهتُ لحرب الأعراب، فكفّوا عنه؛ وأقام بالكوفة. وكان أبو أحمد محمد بن جعفر الطالبيّ الذي ذكرت أنه حمل من الطالبيين إلى سامُرّا كان المعتزّ ولاه الكوفة بعد ما هزم مزاحمُ بن خاقان العلويّ الذي كان وُجِّه لقتاله بها الذي قد مضى ذكره قبل في موضعه، فعاث - فيما ذكر - أبو أحمد هذا في نواحي الكوفة وآذى الناس، وأخذ أموالهم وضياعهم. فلمّا أقام خليفة أبي الساج بالكوفة لطف لأبي أحمد العلَويّ هذا وآنسه حتى خالطه في المؤاكلة والمشاربة، وداخلَهُ. ثم خرج متنزّهاً معه إلى بستان من بساتين الكُوفة، فأمسى وقد عبيّ له عبد الرحمن أصحابه، فقيّده وحمله مقيّداً بالليل على بغال الدخول؛ حتى ورد به بغداد في أول شهر ربيع الآخر، فلما أتى به محمد بن عبد الله حبَسه عنده، ثم أخذ منه كفيلا وأطلقه، ووجِدت مع ابن أخ لمحمد بن عليّ بن خلف العطار كُتبٌ من الحسن بن زيد؛ فكتب بخبره إلى المعتزّ، فورد الكتاب بحمله مع عتّاب بن عتّاب، وحمل هؤلاء الطالبيين، فحملوا جميعاً مع خمسين فارساً، وحمل أبو أحمد هذا وأبو هاشم الجعفريّ وعليّ بن عبيد الله بن عبد الله بن حسن بن جعفر بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب.

وتحدّث الناس في عليّ بن عبيد الله أنه إنما استأذن في المصير إلى منزله بسامُرّا، فأذن له ووصَله - فيما قيل - محمد بن عبد الله بألف درهم؛ لأنه شكا إليه ضيقه، وودّع أبو هاشم أهله.

وقيل إن سبب حمل أبي هاشم، إنما كان ابن الكردية وعبد الله بن داود بن عيسى بن موسى قالا للمعتزّ: إنك إن كتبتَ إلى محمد بن عبد الله في حَمْل داود بن القاسم لم يحمله، فاكتب إليه، وأعلمه أنك تريد توجيهه إلى طبرستان لإصلاح أمرها، فإذا صار إليك رأيت فيه رأيك؛ فحُمل على هذا السبيل ولم يُعرض له بمكروه.

وفيها ولّي الحسن بن أبي الشوارب قضاء القضاة؛ وكان محمد بن عمران الضبيّ مؤدّب المعتزّ قد سمى رجالا للمعتزّ للقضاء نحو ثمانية رجال؛ فيهم الخلنجيّ والخصّاف، وكتب كتبَهم، فوقّع فيه شفيع الخادم ومحمد بن إبراهيم بن الكردية وعبد السميع بن هارون بن سليمان بن أبي جعفر، وقالوا: إنهم من أصحاب ابن أبي دواد، وهم رافضة وقدَرية وزيديّة وجهميّة. فأمر المعتزّ بطردهم وإخراجهم إلى بغداد، ووثب العامة بالخصاف، وخرج الآخرون إلى بغداد، وعزِل الضبيّ إلا عن المظالم.

وذكر أن أرزاق الأتراك والمغاربة والشاكريّة قُدّرت في هذه السنة، فكان مبلغ ما يحتاجون إليه في

السنة مائتي ألف ألف دينار، وذلك خراج المملكة كلها لسنتين.

وفيها توجّه أبو الساج إلى طريق مكة، وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر ـ أن وَصيفاً لمّا صلَح أمره، ودفع المعتزّ إليه خاتمه كتب إلى أبي الساج يأمره بالخروج إلى طريق مكة ليصلحه، ووجّه إليه من المال ما يحتاج إليه؛ فأخذ في الجهاز، فكتب محمد بن عبد الله يسأل أن يصير طريق مكة إليه؛ فأجيب إلى ذلك، فوجّه أبا الساج مِنْ قِبَله.

وفي أوّل ذي الحجة عقد لعيسى بن الشيخ بن السليل على الرَّمْلة، فأنفذ خليفته أبا المغراء إليها، فقيل: إنه أعطى بُغا أربعين ألف دينار على ذلك، أو ضمنها إليه.

وفيها كتب وصيفٌ إلى عبد العزيز بن أبي دُلَف بتوليته الجَبل، وبعث إليه بخِلَع، فتولّى ذلك من قِبَله.

وفيها قتِل محمد بن عمرو الشاري بديار ربيعة؛ قتله خليفة لأيوب بن أحمد في ذي القعدة.

وفيها سخط على كنجور، وأمر بحبسه في الجوْسق، ثم حُمِل إلى بغداد مقيَّداً، ثو وجّه به إلى اليمامة فحبس هنالك.

وفيها أغار ابن جُسْتان صاحب الدّيْلم مع أحمد بن عيسى العلويّ والحسين بن أحمد الكوكبيّ على الرّيّ فقتلوا وسبوا، وكان ما بها حين قصدوها عبد الله بن عزيز، فهرب منها؛ فصالحهم أهل الرّيّ على ألفي درهم، فأدَّوْها، وارتحل عنها ابن جُسْتان، وعاد إليها ابنُ عزيز، فأسر أحمد بن عيسى وبعث به إلى نيسابور.

وفيها مات إسماعيل بن يوسف الطالبيّ الذي كان فعل بمكة ما فعل.

وحجّ فيها بالناس محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور من قبل المعتزّ.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من عَقد المعتزّ في اليوم الرابع من رجب لموسى بن بُغا الكبير على الجبل ، ومعه من الجيش يومئذ من الأتراك وَمَنْ يجري مجراهم ألفان وأربعمائة وثلاثة وأربعون رجلاً ، منهم مع مُفلح ألف ومائة وثلاثون رجلاً .

وفيها أوقع مُفْلح وهو على مقدّمة موسى بن بُغا بعبد العزيز بن أبي دُلَف لثمان ليال بَقِين من رجب من هذه السنة وعبد العزيز في زُهاء عشرين ألفاً من الصعاليك وغيرهم ؛ وكانت الوقعة بينهما - فيما قيل - خارج هَمَذان على نحو من ميل ، فهزمه مُفْلح ثلاثة فراسخ يقتلون ويأسِرون ، ثم رجع مفلِح ومَنْ معه سالمين ؛ وكتب بالفتح في ذلك اليوم . فلما كان في شهر رمضان عبأ مفْلح خيلَه نحو الكَرَج ، وجعل لهم كمينين ، ووجّه عبد العزيز عسكراً فيه أربعة آلاف فقاتلهم مفلح ، وخرج كمين مفلح على أصحاب عبد العزيز فانهزموا ، ووضع أصحاب مُفْلح فيهم السَّيف ، فقتلوا وأسروا ، وأقبل عبد العزيز معيناً لأصحابه ؛ فانهزم بانهزام أصحابه ، وترك الكرَج ، ومضى إلى قَلْعة له في الكَرَج يقال له زز ، متحصناً بها ، ودخل مفلح الكَرَج ، فأخذ جماعة من آل أبي دُلَف أسراً ، وأخذ نساءً من نسائهم ؛ يقال إنه كان فيهم أمّ عبد العزيز ؛ فأوثقهم .

وذكر أنه وجّه سبعين حملاً من الرؤوس إلى سامرّا وأعلاماً كثيرة .

وشخص فيها موسى بن بُغا من سامرّا إلى هَمذان فنزلها .

وفيها خلَع المعتزّ على بُغا الشرابيّ في شهر رمضان ، وألبسه التاج والوشاحين ، فخرج فيهما إلى منزله .

ذكر الخبر عن قتل وصيف

وفيها قُتل وصيف التركيّ ؛ وذلك لثلاث بَقِين من شوّال منها ؛ وكان السبب في ذلك - فيما ذكر - أنّ الأتراك والفراغنة والأشروسنيّة شغّبوا وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر ؛ فخرج إليهم بُغا ووصيف وسيما الشرابيّ في نحو من مائة إنسان من أصحابهم ؛ فكلّمهم وصيف ، وقال : ما تريدون ؟ قالوا : أرزاقنا ، فقال : خذوا تراباً ؛ وهل عندنا مال ! وقال بغا : نعم ، نسأل أميرَ المؤمنين في ذلك ؛ ونتناظر في دار أشناس ، وينصرف عنكم مَن ليس منكم ، فدخلوا دار أشناس ، ومضى سيما الشرابيّ منصرفاً إلى سامُرّا ، ثم تَبِعه بُغا لاستئمار الخليفة في إعطائهم ؛ وكان وصيف في أيديهم ؛ فوثب عليه بعضُهم ، فضربه بالسيف ضربتين ، ووجأه آخر بسكين ، فاحتمله نُوشِرى بن طاجبك - وهو أحد قوّاده - إلى منزله ؛ فلما أبطأ عليهم بُغا ظنوا أنهم في التعبية

عليهم ؛ فاستخرجوه من منزل نوشرى ؛ فضربوه بالطبرزينات حتى كسروا عُضَديه ، ثم ضربوا عنقَه ، ونصبوا رأسه على محراك تَنّور ، وقصدت العامة بسامرّا الانتهاب لمنازل وصيف وولده ، فرجع بنو وَصيف ، فمنعوا منازلهم ، ثم جعل المعتزّ ما كان إلى وصيف من الأمور إلى بُغا الشرابيّ .

وفي يوم الفِطْر من هذه السنة قُتل بندار الطبريّ .

ذكر سبب قتله :

فكان سبب ذلك أنه حكّم بالبوازيج محكّم يدعى مُساور بن عبد الحميد ، في رجب من هذه السنة ، فوجّه المعتزّ إليه في شهر رمضان ساتكين ، فمال إلى ناحية طريق خراسان ، فوجّه محمد بن عبد الله إليه ؛ وذلك أنّ طريق خراسان كان إليه بندار ومظفر بن سيسل مَسْلَحة ، فلما صارا بدسْكرة الملك أقاما ؛ فذُكِر أنّ بندار خرج في آخر يوم من شهر رمضان متصيّداً ، فبَعُد في طلب الصّيْد حتى جاوز دُور الدّسْكرة بنحو فرسخ ؛ فبينا هو كذلك ؛ إذ نظر إلى عَلَمين مقبلين معهما جماعة مُقْبلة نحو الدّسْكرة ، فوجّه بعض أصحابه لينظر ما الأعلام ؛ فأخبره صاحب الجماعة أنه عامل كَرْخ جُدّان ، وأنه انتهى إليه أنّ رجلاً يقال له مساور بن عبد الحميد من الدّهاقين من أهل البوازيج شَرَى ، وأنه بلغه أنه يصير إلى كَرْخ جُدّان ؛ فلما بلغه ذلك خرج هارباً إلى الدّسْكرة ليأنس بقرب بندار ومظفر ؛ فانصرف بُندار من ساعته إلى المظفّر فقال له : إن الشاري يقصد كَرْخ جُدّان ، ويريدنا ؛ فامض بنا نتلقّاه ، فقال له المظفّر : قد أمسينا ونريد أن نصليَ الجمعة ، وغداً العيد ؛ فإذا انقضى العيد قصدناه . فأبى بُندار ، ومضى من ساعته طمعاً بالمظفر الشارِي وحدَه دون مظفّر ؛ فأقام مظفّر ولم يبرح من الدّسكرة ـ وبين الدسكرة وتَلّ عُكْبَراء ثمانية فراسخ ، وبين تل عُكْبَراء وموضع الوقعة أربعة فراسخ ـ فصار بُندار إلى تلّ عُكْبراء ، فوافاها عند العَتمة ليلة الفطر . فعلف دوابه شيئاً ، ثم ركب ، فسار حتى أشرف على عسكر الشاري ليلاً وهم يصلّون ويقرؤون القرآن ؛ فأشار عليه بعضُ أصحابه وخاصّته أن يبيّتهم وهم غارُّون ، فأبى وقال : لا ؛ حتى أنظر إليهم وينظروا إليّ . فوجّه فارسيْن أو ثلاثة ليأتُوه بخبرِهم ؛ فلمّا قَرُبُوا من عسكرهم نَذِروا بهم ، فصاحوا : السلاح ! وركبوا فتواقَفُوا إلى أن أصبحوا ، ثم اقتتلوا ، فلم يمكن أصحابَ بندار أن يرموا بسَهْم واحد ، وكانوا زهاء ثلاثمائة فارس وراجل فعبّاهُم ميمنة وميسرة وساقة ، وأقام هو في القلب ، فحمل عليهم مساور وأصحابُه ، فثبت لهم بُندار وأصحابه ؛ ثم انحدر لهم الشُّرَاة عن موضع عسكرهم ومبيتهم ؛ ليطمع بندار وأصحابه في النَّهْب ، فلم يعرض بُندار وأصحابه لعسكرهم . ثم كرّ الشُّرَاة عليهم بالسيوف والرماح ، وهم زهاء سبعمائة ؛ فصبر الفريقان ، فصار الشراة إلى السيوف دون الرماح ، فقتِل من الشُّراة نحو من خمسين رجلاً ، ومن أصحاب بندار مثلهم ، ثم حمل الشراة حملةً ، فاقتطعوا من أصحاب بُندار نحواً من مائة رجل ، فصبر لهم المائة ساعة ، ثم قُتِلوا جميعاً ، وانهزم بُندار وأصحابه ، فجعلوا يقتطعونهم قطعة بعد قطعة فيقتلونهم . وأمعن بُندار في الهَرب ، فطلبوه فلحقوه بقرب تلّ عُكْبَراء على قَدْر أربعة فراسخ من موضع الوقعة ؛ فقتلوه ونصبوا رأسَه ، ونجا مِنْ أصحاب بُندار نحو من خمسين رجلاً ـ وقيل مائة رجل ـ انحازوا عن الوقْعَة عند اشتغال الخوارج بمَنْ كانوا يقتطعون منهم ، وانتهى خبرُه إلى مظفّر وهو مقيم بالدّسْكرة ، فتنحّى من الدّسكرة إلى ما قَرُب من بغداد ، ووصل خبرُ مقتله إلى محمد بن عبد الله بغدِ الفِطْر ، فذُكِر أنه لم يشرب ولم يَلْهُ كما كان يفعل ؛ غمّاً بما ورد عليه من مقتله . ثم مضى مُساور من فوره إلى حُلوان ؛

فخرج إليه أهلها فقاتلوه ، فقتل منهم أربعمائة إنسان ، وقتلوا جماعة من أصحاب الشارِي ، وقُتِل عدّةٌ من حجّاج خراسان كانوا بحُلوَان ، فأعانوا أهلَ حُلّوان ، ثم انصرفوا عنهم .

وليلة أربع عشرة من ذي القعدة منها ، انخسف القمر ؛ فغرِق كله أو غاب أكثره ؛ ومات محمد بن عبد اللّه بن طاهر مع انتهاء خسوفه ـ فيما ذكر ـ وكانت علّته التي مات فيها قروحاً أصابته في حَلْقِه ورأسه فذبحته . وذكر أن القروح التي كانت في حَلْقه ورأسه كانت تدخل فيها الفتائل ؛ فلما مات تنازع الصلاةَ عليه أخوه عُبيد اللّه وابنه طاهر ؛ فصلّى عليه ابنُه . وكان أوصى بذلك ـ فيما قيل .

ثم وقع بين عبيد اللّه بن عبد اللّه أخي محمد بن عبد اللّه وبين حشم محمد بن عبد اللّه تنازعٌ حتى سلوا السيوف عليه ، ورُمي بالحجارة ، ومالت الغوغاء والعامة وموالي إسحاق بن إبراهيم مع طاهر بن محمد بن عبد اللّه بن طاهر ، ثم صاحوا : طاهر يا منصور ؛ فعبَر عبيدُ اللّه إلى ناحية الشرقية إلى داره ، ومال معه القوّاد لاستخلاف محمد بن عبد اللّه كان إياه على أعماله ووصيّته بذلك ، وكتابه بذلك إلى عمّاله ، ثم وجّه المعتزّ الخلع وولاية بغداد إلى عبيد اللّه ، وأمر عبيد اللّه للذي أتاه بالخلع من قِبَل المعتزّ فيما قيل بخمسين ألف درهم .

نسخة الكتاب الذي كتبه محمد بن عبد اللّه إلى عمّاله باستخلافه أخاه عبيد اللّه بعده :

أما بعد فإنّ الله عزّ وجل جعل الموت حَتْماً مقضيًّا جارياً على الباقين من خلقه ، حسبما جرى على الماضين ؛ وحقيق على من أعْطِيَ حظًّا من توفيق الله ، أن يكون على استعداد لحلول ما لا بدّ منه ولا محيص عنه في كلّ الأحوال ، وكتابي هذا وأنا في علّة قد اشتدّ الإشفاق منها ، وكاد الإياس يغلب على الرّجاء فيها ؛ فإن يَبُلّ الله ويدفع فبقدرته وكريم عادته ؛ وإن يَحْدُث بي الحدثُ الذي هو سبيل الأولين والآخرين ؛ فقد استخلفتُ عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخي الموثوق باقتفائه أثري ، وأخذه بسدّ ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيَه من أمره ما يعمل بحسبه ؛ فاعلمْ ذلك وائتمرْ فيما تتولاّه بما يرِد به كتب عبيد الله وأمره إن شاء الله .

وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين ومائتين .

وفيها نفى المعتزُّ أبا أحمد بن المتوكل إلى واسط ، ثم إلى البصرة ، ثم ردّ إلى بغداد ، وأنزل إلى الجانب الشرقيّ في قصر دينار بن عبد الله .

وفيها نفي أيضاً عليّ بن المعتصم إلى واسط ثم رُدّ إلى بغداد فيها .

وفيها مات مزاحم بن خاقان بمصر في ذي الحجة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن سليمان الزينبي .

وفيها غزا محمد بن معاذ بالمسلمين في ذي القعدة من ناحية مَلَطية ، فهُزِموا وأسر محمد بن معاذ .

وفيها التقى موسى بن بُغا والكوكبيّ الطالبيّ على فرسخ من قَزْوين يوم الاثنين سَلْخ ذي القعدة منها ، فهزم موسى الكوكبيّ ، فلحق بالدّيْلم ، ودخل موسى بن بُغا قَزْوين .

وذكر لي بعض مَنْ شهد الوقعة ، أنّ أصحاب الكوكبيّ من الدّيلم لما التقوْا بموسى وأصحابه صفّوا

صفوفاً ، وأقاموا تِرَستهم في وجوههم يتّقون بذلك سهام أصحاب موسى ؛ فلما رأى موسى أنّ سهام أصحابه لا تصل إليهم مع ما قد فعلوا ، أمر بما معه من النِّفط أن يُصَبّ في الأرض التي التقى هو وهم فيها ؛ ثم أمر أصحابه بالاستطرادِ لهم ، وإظهار هزيمة منهم ؛ ففعل ذلك أصحابه ؛ فلمّا فعلوا ذلك ظنّ الكوكبيّ وأصحابه أنهم انهزموا ؛ فتبعوهم . فلما علم موسى أن أصحاب الكوكبيّ قد توسطوا النّفْط أمر بالنار فأشعلتْ فيه ، فأخذتْ فيه النار ، وخرجت من تحت أصحاب الكوكبيّ ، فجعلت تحرقهم ؛ وهرب الآخرون . وكان هزيمة القوم عند ذلك ودخول موسى قَزْوين .

وفيها لقي خطارمش مساور الشاري بناحية جَلولاء في ذي الحجة ، فهزمه مساور .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من مقتل بغا الشرابيّ .

ذكر الخبر عن سبب مقتله :

ذُكِر أنّ السبب في ذلك كان أنه كان يحضّ المعتزّ على المصير إلى بغداد ، والمعتزّ يأبى ذلك عليه . ثم إن بُغا اشتغل مع صالح بن وصيف في خاصّته بعُرس جمعة بنت بُغا ؛ كان صالح بن وصيف تزوّجها للنصف من ذي القعدة ؛ فركب المعتزّ ليلاً ، ومعه أحمد بن إسرائيل إلى كرخ سامرّا يريد بايكباك ومَنْ معه على مثل ما هو عليه من انحرافه عن بُغا . وكان سببُ انحرافه عنه ـ فيما ذكر ـ أنهما كانا في شراب لهما يشربانه ، فعَربد أحدُهما على صاحبه ؛ فتهاجرا لذلك ؛ وكان بايكباك بسبب ذلك هارباً من بُغا مستخفياً منه ؛ فلما وَافَى المعتزّ بمَنْ معه الكرْخ اجتمع مع بايكباك أهلُ الكَرْخ وأهل الدُّور ، ثم أقبلوا مع المعتزّ إلى الجوسق بسامرّا ؛ وبلغ ذلك بُغا ، فخرج في غلمانه وهم زُهاء خمسمائة ومثلهم من ولده وأصحابه وقوّاده ، وصار إلى نهر نَيْزك ، ثم انتقل إلى مواضع ، ثم صار إلى السنّ ، ومعه من العين تسع عشرة بَدْرة دنانير ومائة بَدْرة دراهم ؛ أخذها من بيت ماله وبيوت أموال السلطان ؛ فأنفق منها شيئاً يسيراً حتى قُتِل .

وذكر أنه لما بلغه أن المعتزّ قد صار إلى موضع الكرْخ مع أحمد بن إسرائيل خرج في خاصّة قوّاده حتى صار إلى تَلّ عُكْبَراء ، ثم مضى فصار إلى السنّ ؛ فشكا أصحابُهُ بعضُهم إلى بعض ما هم فيه من العسف ، وأنهم لَم يخرجوا معهم بمضارب ، ولا ما يتدفؤون به من البرد ، وأنهم في شتاء . وكان بُغا في مضرب له صغير على دِجْلة ، كان يكون فيه ، فأتاه ساتكين ، فقال : أصلح الله الأمير ! قد تكلّم أهل العسكر ، وخاضوا في كذا وأنا رسولهم إليك ، فقال : كلّهم يقول مثل قولك ؟ قال : نعم ؛ وإن شئت فابعثْ إليهم حتى يقولوا مثل قولِي ، قال : دعْني الليلة حتى أنظر ، ويخرج إليكم أمري بالغَداة ، فلما جنّ عليه الليل دعا بزَوْرق ، فركبه مع خادمين معه ، وحمل معه شيئاً من المال ، ولم يحمل معه سلاحاً ولا سِكّيناً ولا عَموداً ، ولا يعلم أهل عسكره بذلك من أمره ، والمعتزّ في غَيْبة بُغا لا ينام إلاّ في ثيابه ، وعليه السلاح ، ولا يشرب نبيذاً ، وجميع جواريه على رجل . فصار بُغا إلى الجسر في الثلث الأوّل من الليل ؛ فلما قارب الزّورق الجسر بعث الموكّلون به مَن في الزّوْرق ، فصاح بالغلام ، فرجع إليهم . وخرج بُغا في البستان الخاقانيّ ، فلحقه عدّة منهم ؛ فوقف لهم وقال : أنا بُغا . ولحقه وليد المغربيّ ، فقال له : ما لك جعلت فداك ! فقال : إما أن تذهب بي إلى منزل صالح بن وصيف ، وإما أن تصيروا معي إلى منزلي ؛ حتى أحسن إليكم . فوكّل به وليد المغربيّ ، ومرّ يركض

إلى الجوْسق ، فاستأذن على المعتزّ ، فأذن له ، فقال : يا سيدي هذا بُغا قد أخذته ووكّلت به ، قال : ويلك ، جئني برأسه ؛ فرجع وليد ، فقال للموكلين به : تنحَّوْا عنه حتى أبلغه الرّسالة ، فتنحَّوْا عنه، فضربه ضربة على جبهته ورأسه ؛ ثم تناهى على يديْه فقطعهما ، ثم ضربه حتى صرعه وذبحه ، وحمل رأسه في بِرْكة قبائه ، وأتى به المعتزّ ؛ فوهب له عشرة آلاف دينار ، وخلع عليه خِلعة ، ونصب رأسَه بسامرّا ؛ ثم ببغداد ، ووثبت المغاربة على جُثّته ، فأحرقوه بالنار ؛ وبعث المعتزّ من ساعته إلى أحمد بن إسرائيل والحسن بن مَخْلد وأبي نوح ، فأحضرهم وأخبرهم ، وتتبّع عبيد اللّه بن طاهر بنيه ببغداد ؛ وكانوا صاروا إليها هُرّاباً مع قوم يثقون بهم ؛ فاستتروا عندهم .

فذكر أنه حُبِس في قصر الذّهب من ولده وأصحابه ، خمسة عشر إنساناً ، وفي المطبَق عشرة .

وقيل : إنّ بُغا لّما انحدر إلى سامرّا ليلةَ أخِذ شاور أصحابه في الانحدار إليها مكتتماً ، فيصير إلى منزل صالح بن وصيف ، وإذا قرب العيد دخل أهل العسكر ، وخرج هو وصالح بن وصيف وأصحابُه ، فوثبوا بالمغاربة ، فوثبوا بالمعتزّ .

وفيها عقد صالح بن وصيف لديوداد على ديار مُضَر وقِنّسْرين والعواصم فوثبوا بالمعتزّ في ربيع الأوّل منها .

وفيها عقد بايكباك لأحمد بن طولون على مصر .

وفيها أوقع مفلح وباجور بأهل قمّ ، فقتلا منهم مقتلة عظيمة ؛ وذلك في شهر ربيع الأوّل منها .

وفيها مات علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا يوم الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة ، وصلّى عليه أبو أحمد بن المتوكل في الشارع المنسوب إلى أبي أحمد ، ودفن في داره .

وفيها في جمادى الآخرة وافى الأهواز دُلف بن عبد العزيز بن أبي دُلف بتوجيه والده عبد العزيز إيّاه إليها وجُنْدَيْ سابور وتُسْتَر ، فجباها مائتي ألف دينار ثم انصرف .

وفي شهر رمضان منها شخص نوشرى إلى مُساور الشاري فلقيَه وهزمه ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عليّ بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من دخول مُفْلِح طَبَرستان ووقْعة كانت بينه وبين الحسن بن زيد الطالبيّ ، هزم فيها مُفْلح الحسنَ بن زيد ، فلحق بالدّيلم ، ثم دخل مفلح آمُل ، وأحرق منازل الحسن بن زيد ، ثم توجّه نحو الديلم في طلب الحسن بن زيد .

وفيها كانت وقعة بين يعقوب بن الليث وطوق بن المغلِّس خارج كِرْمان أسر فيها يعقوب طوقاً ؛ وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ أنّ عليّ بن الحسين بن قُرَيش بن شِبْل كتب إلى السلطان يخطُب كِرْمان ـ وكان قَبْلُ من عمّال آل طاهر ـ وكتب يذكر ضعف آل طاهر وقلة ضبطهم، بما إليهم من البلاد ، وأنّ يعقوب بن الليث قد غَلبهم على سجستان ، وتباطأ على السلْطان بتوجيه خراج فارس ؛ فكتب السلطان إليه بولاية كِرْمان ، وكتب إلى يعقوب بولايتها يلتمس بذلك إغراءَ كلّ واحد منهما بصاحبه ليسقط مؤنة الهالك منهما عنه ويتفرّد بمُؤنة الآخر ؛ إذ كان كلّ واحد منهما عنده حرباً له وفي غير طاعته ؛ فلما فعل ذلك بهما زحف يعقوب بن الليث من سِجِسْتان يريد كِرْمان ، ووجّه عليّ بن الحسين طوق بن المغلّس وقد بلغه خبر يعقوب وقصده كِرْمان في جيش عظيم من فارس ، فصار طوق بكِرْمان ، وسبق يعقوب إليها فدخلها ، وأقبل يعقوب من سِجِسْتان ، فصار من كِرْمان على مرحلة .

فحدثني مَنْ ذكر أنه كان شاهداً أمرهما ، أن يعقوب بَقيَ مقيماً في الموضع الذي أقام به من كِرْمان على مرحلة لا يرتحل عنه شهراً أو شهرين ، يتجسّس أخبار طَوْق ؛ ويسأل عن أمره كلّ من مَرّ به خارجاً من كِرْمان إلى ناحيته ، ولا يَدَع أحداً يجوز عسكره من ناحيته إلى كِرْمان ، ولا يزحف طَوْقٌ إليه ولا هو إلى طَوْق . فلما طال ذلك من أمرهما كذلك أظهر يعقوب الارتحال عن معسكره إلى ناحية سِجِسْتان ، فارتحل عنه مرحلة . وبلغ طوْقاً ارتحالُه ، فظنّ أنه قد بدا له في حربه ، وترك عليه كِرْمان وعلى عليّ بن الحسين ؛ فوضع آلة الحرْب ، وقعد للشرب ، ودعا بالملاهي ، ويعقوب في كلّ ذلك لا يغفل عن البحث عن أخباره . فاتصل به وضع طوْق آلة الحرب وإقباله على الشراب واللهو بارتحاله ؛ فكرّ راجعاً ، فطوى المرحلتين إليه في يوم واحد ، فلم يشعر طوْق وهو في لهوه وشربه في آخر نهاره إلّا بغَبَرة قد ارتفعت من خارج المدينة التي هو فيها من كِرْمان ، فقال لأهل القرية : ما هذه الغَبرة ؟ فقيل له : غَبَرة مواشي أهل القرية منصرفة إلى أهلها ، ثم لم يكن إلّا كلا ولا ؛ حتى وفاه يعقوب في أصحابه ، فأحاط به وبأصحابه ؛ فذهب أصحاب طوق لمّا أحيط بهم يريدون المدافعة عن أنفسهم ، فقال يعقوب لأصحابه : أفرِجوا للقوم ، فأفرَجوا لهم ، فمرُّوا هاربين على وجوههم ، وخلَّوْا كلَّ

شيء لهم مما كان معهم في معسكرهم ، وأسر يعقوب طَوْقاً .

فحدثني ابنُ حماد البربريّ أن عليّ بن الحسين لمّا وَجّه طوقاً حمّله صناديق في بعضها أطواقه وأسورة ليطوّق ويسوّر من أبلى معه من أصحابه ، وفي بعضها أموال ليجيز من استحقّ الجائزة منهم ، وفي بعضها قيود وأغلال ليقيّد بها مَنْ أخذ من أصحاب يعقوب ؛ فلما أسَر يعقوب طَوقاً ورؤساء الجيش الذين كانوا معه أمر بحيازة كلّ ما كان مع طَوْق وأصحابه من المال والأثاث والكُراع والسلاح ، فحيزَ ذلك كله ، وجُمع إليه ؛ فلما أُتِيَ بالصناديق أُتِيَ بها مقفلَة ، فأمر ببعضها أن يُفتح ، ففتح فإذا فيه القيود والأغلال ، فقال لطَوْق : يا طوْق ؛ ما هذه القيود والأغلال ؟ قال : حمّلنيها عليّ بن الحسين لأقيّد بها الأسرى وأغلّهم بها ، فقال : يا فلان ، انظر أكبرها وأثقلها فاجعله في رجْلي طَوْق وغُلّه بغُلّ . ثم جعل يفعل مثل ذلك بمن أسر من أصحاب طوق . قال : ثمّ أمر بصناديق أُخَر ففتحت ؛ فإذا فيها أطوقة وأسورة ، فقال : يا طوْق . ما هذه ؟ قال : حمّلنِيها عليّ لأطوّق بها وأسوّر أهل البلاء من أصحابي ، قال : يا فلان ؛ خذ من ذلك طَوْق كذا وسوار كذا ، فطوّق فلاناً وسوّره ، ثم جعل يفعل ذلك بأصحاب نفسه حتى طوّقهم وسوّرهم ، ثم جعل يفعل كذلك بالصناديق . قال : ولما أمر يعقوب بمدّ يد طوق ليضعها في الغلّ ، إذا على ذراعه عصابة ، فقال له : ما هذا يا طوق ؟ قال : أصلح اللّه الأمير ! إني وجدت حرارة ففصدتها ، فدعا بعض من معه فأمر بمدّ خفه من رجله ففعل ذلك ، فلما نزعه من رجله تناثر من خُفِّه كسر خبز يابسة . فقال : يا طوْق هذا خفِّي لم أنزعه من رجلي منذ شهرين ، وخبزي في خفِّي منه آكل لا أطأ فراشاً ، وأنت جالس في الشرب والملاهي ! بهذا التدبير أردت حربي وقتالي !

فلمّا فَرغ يعقوب بن الليث من أمر طَوْق دخل كِرْمان وحازها وصارت مع سِجِسْتان من عَمَله .

وفيها دخل يعقوب بن الليث فارس وأسر عليّ بن الحسين بن قريش .

ذكر الخبر عن سبب أسره إياه وكيف وصل إليه :

حدّثني ابن حمّاد البربريّ ، قال : كنتُ يومئذ بفارس عند عليّ بن الحسين بن قريش ، فورد عليه خبر وَقْعة يعقوب بن الليث بصاحبه طَوْق بن المغلِّس ودخول يعقوب كِرْمان واستيلائه عليها ، ورجع إليه الفَلّ ، فأيقن بإقبال يعقوب إلى فارس ؛ وعليّ يومئذ بشِيراز من أرض فارس ، فضمّ إليه جيشه ورجّالة الفلّ من عند طَوْق وغيرهم ، وأعطاهم السلاح ، ثم برز من شِيراز ، فصار إلى كُرّ خارج شيراز بين آخر طرفه عرضاً ممّا يلي أرض شِيراز ، وبين عَرْض جبل بها من الفضاء قدرُ ممرّ رجل أو دابة ، لا يمكن من ضيقه أن يمرّ فيه أكثر من رجل واحد . فأقام في ذلك الموضع ، وضرب عسكره على شطّ ذلك الكُرّ مما يلي شِيراز ، وأخرج معه المتسوّقة والتجار من مدينة شِيراز إلى مُعسكره ، وقال : إن جاء يعقوب لم يجد موضعاً يجوز الفلاة إلينا ؛ لأنه لا طريق له إلّا الفضاء الذي بين الجبل والكرّ ؛ وإنما هو قدر ممرّ رجل ؛ إذا أقام عليه رجل واحد منع من يريد أن يجوزه ، وإن لم يقدر أن يجوز إلينا بقي في البرّ بحيث لا طعام له ولا لأصحابه ولا عَلَف لدوابهم .

قال ابن حماد : فأقبل يعقوب حتى قَرُب من الكُرّ ، فأمر أصحابه بالنزول أوّل يوم على نحو من ميل من الكُرّ مما يلي كِرْمان ، ثم أقبل هو وحده وبيده رمح عُشارِيّ ؛ يقول ابن حماد : كأني أنظر إليه حين أقبل وحدَه على دابته ، ما معه إلّا رجل واحد ، فنظر إلى الكُرّ والجبل والطريق ، وقرب من الكرّ ، وتأمل عسكر عليّ بن الحسين ، فجعل أصحاب علي يشتمونه ، ويقولون : لنردنّك إلى شَعْب المراجل والقماقم ، يا صفّار ـ وهو

ساكت لا يردّ عليهم شيئاً ـ قال : فلمّا تأمل ما أراد من ذلك ورآه ، انصرف راجعاً إلى أصحابه . قال : فلمّا كان من الغد عند الظهر أقبل بأصحابه ورجاله حتى صار على شطّ كُرّ مما يلي بَرّ كِرمان ، فأمر أصحابه فنزلوا عن دوابهم ، وحطُّوا أثقالهم . قال : ثم فتح صندوقاً كان معه .

قال ابن حماد : كأني أنظُر إليهم وقد أخرجوا كلباً ذئبيًّا ، ثم ركبوا دوابّهم أعراء ، وأخذوا رماحهم بأيديهم . قال : وقبل ذلك كان قد عبّأ عليّ بن الحسين أصحابَه ، فأقامهم صفوفاً على الممرّ الذي بين الجبل والكُرّ ؛ وهم يرون أنه لا سبيل ليعقوب ، ولا طريق له يمكنه أن يجوزه غيره . قال : ثم جاؤوا بالكلب ، فرموا به في الكُرّ ، ونحن وأصحاب عليٍّ ينظرون إليهم يضحكون منهم ومنه . قال : فلما رموا بالكلب فيه ، جعل الكلب يسبَحُ في الماء إلى جانب عسكر عليّ بن الحسين ، وأقحم أصحاب يعقوب دوابّهم خلْف الكلب ، وبأيديهم رماحُهم ، يسيرون في أثر الكلب . فلما رأى عليّ بن الحسين أن يعقوب قدقطع عامّة الكُرّ إليه وإلى أصحابه ، انتقض عليه تدبيرُه ، وتحيّر في أمره ؛ ولم يلبث أصحاب يعقوب إلاّ أيسر ذلك حتى خرجوا من الكُر من وراء أصحاب عليّ بن الحسين ؛ فلم يكن بأسرَع من أن خرج أوائلهم منه حتى هرب أصحاب عليّ يطلبون مدينة شيراز ، لأنهم كانوا يصيرون إذا خرج أصحاب يعقوب من الكرّ بين جيش يعقوب وبين الكُرّ ، ولا يجدون ملجأ إن هُزموا . وانهزم عليّ بن الحسين بانهزام أصحابه ؛ وقد خرج أصحاب يعقوب من الكُرّ ، فكبتْ به دابته ، فسقط إلى الأرض ولحقه بعض السِّجْزيّة فهمَّ عليه بسيفه ليضربه ؛ فبلغ إليه خادم له ، فقال : الأمير . فنزل إليه السجزيّ ، فوضع في عنقه عمامته ، ثم جرّه إلى يعقوب، فلما أتي به أمر بتقييده ، وأمر بما كان في عسكره من آلة الحرب من السلاح والكُراع وغير ذلك ، فجُمع إليه ، ثم أقام بموضعه حتى أمسى ، وهجم عليه اللّيل ، ثم رحل من موضعه . ودخل مدينة شِيراز ليلاً وأصحابه يضربون بالطّبول ، فلم يتحرّك في المدينة أحد ، فلمّا أصبح أنهب أصحَابه دار عليّ بن الحسين ودور أصحابه ؛ ثم نظر إلى ما اجتمع في بيت المال من مال الخَرَاج والضِّياع ، فاحتمله ووضع الخراج ، فجباه ، ثم شخص منها متوجِّهاً إلى سِجِستان ، وحمل معه ابن قريش ومَنْ أسِرَ معه .

وفيها وجّه يعقوب بن الليث إلى المعتزّ بدوابّ وبُزاة ومِسْك هديَّةً .

وفيها ولِيَ سليمان بن عبد الله بن طاهر شرطة بغداد والسواد ، وذلك لستّ خلون من شهر ربيع الآخر ، وكانت موافاته سامُرّا من خُراسان ـ فيما ذكر ـ يوم الخميس لثمان خلَوْن من شهر ربيع الأوّل ، وصار إلى الإيتاخية ، ثم دخل على المعتزّ يوم السبت ، فخلع عليه وانصرف .

وفيها كانت وقعة بين مساور الشاري ويارجوخ ، فهزمه الشاري وانصرف إلى سامُرّا مفلولاً .

ومات المعلّى بن أيوب في شهر ربيع الآخر منها .

وفيها أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل والحسن بن مَخْلد وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيَّدهم ، وطالبهم بأموال ؛ وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر ـ أنّ هؤلاء الكتّاب الذين ذكرتُ كانوا اجتمعوا يوم الأربعاء لليلتين خَلَتَا من جمادى الآخرة من هذه السّنة على شراب لهم يشربونه ، فلمّا كان يوم الخميس غد ذلك اليوم ، ركب ابن إسرائيل في جَمْع عظيم إلى دار السلطان التي يَقْعُد فيها ، وركب ابن مَخْلد إلى دار قَبيحة أمّ المعتز ـ وهو كاتبها ـ وحضر أبو نوح الدّار ، والمعتز نائم ؛ فانتبه قريباً من انتصاف النهار ، فأذن لهم ، فحمل صالح بن

وصيف على أحمد بن إسرائيل ، وقال للمعتزّ : يا أميرَ المؤمنين ؛ ليس للأتراك عطاء ولا في بيت المال مالٌ ؛ وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابُه بأموال الدنيا ، فقال له أحمد : يا عاصي يا بن العاصي ! ثم لم يزالا يتراجعان الكلام حتى سقط صالح مغشيًّا عليه ، فرُشّ على وجهه الماء . وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب ، فصاحوا صيحةً واحدة ، واخترطُوا سُيوفَهم ، ودخلوا على المعتزّ مُصْلِتين ؛ فلما رأى ذلك المعتزّ دخل وتركهم ، وأخذ صالح بن وصيف ابنَ إسرائيل وابنَ مخلد وعيسى بن إبراهيم فقيّدهم ، وأثقلهم بالحديد ، وحملهم إلى داره ، فقال المعتزّ لصالح قبل أن يحملهم : هَبْ لي أحمد ؛ فإنه كاتبي ؛ وقد ربّاني ، فلم يفعل ذلك صالح ، ثم ضرب ابن إسرائيل ؛ حتى كسرت أسنانُه ، وبطح ابن مَخْلد فضُرِب مائة سوط ؛ وكان عيسى بن إبراهيم محتجِماً فلم يزل يُصفع حتى جَرَت الدماء من محاجمه ؛ ثم لم يُتركوا حتى أخذت رقاعهم بمالٍ جليل قُسّط عليهم .

وتوجّه قوم من الأتراك إلى إسكاف ليأتوا بجعفر بن محمود ، فقال المعتزّ : أمّا جعفر فلا أرَبَ لي فيه ولا يعمل لي . فمضوا ، فبعث المعتزّ إلى أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزداد المروزيّ ، فحمِل ليصيّره وزيراً ، وبعث إلى إسحاق بن منصور ، فأشخص . وبعثت قبيحة إلى صالح بن وصيف في ابن إسرائيل : إمّا حملتَه إلى المعتزّ وإما ركبتُ إليك فيه .

وقد ذُكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ الأتراك طلبوا أرزاقَهم ، وأنهم جعلوا ذلك سبباً لما كان من أمرهم ، وأنّ الرسلَ لم تزل تختلف بينهم وبين هؤلاء الكتّاب ؛ إلى أن قال أبو نوح لصالح بن وصيف : هذا تدبيرك على الخليفة ، فغُشيَ على صالح حينئذ مما دخله من الحَرَد والغَيْظ حتى رشُّوا على وجهه الماء ، فلمّا أفاق جرى بين يدي المعتزّ كلام كثير ، ثم خرجوا إلى الصلاة ، وخلا صالح بالمعتزّ ، ثم دُعِيَ بالقوم فلم يلبثوا إلّا قليلاً ، حتى أخرجوا إلى قُبّة في الصحن ؛ ثُم دُعِي بأبي نوح وابن مخلد فأخذت سيوفُهما وقلانسهما ومُزِّقت ثيابهما ، ولحقهما ابن إسرائيل فألقى نفسه عليهما ؛ فثُلّت به ؛ ثم أخرجوا إلى الدهليز وحُمِلوا على الدواب والبغال ، وارتدف خلف كلّ واحد منهم تركي ، وبعث بهم إلى دار صالح على طريق الحَيْر ، وانصرف صالح بعد ساعة ، وتفرّق الأتراك ، فانصرفوا . فلما كان بعد ذلك بأيام جُعل في رِجْل كلّ واحد منهم ثلاثون رطلاً ، وفي عنق كل واحد منهم عشرون رطلاً من حديد ، وطولبوا بالأموال ، فلم يُجب واحد منهم إلى شيء ؛ ولم ينقطع أمرُهم إلى أن دخل رجب ؛ فوُجّهوا في قبض ضياعهم ودورهم وضياع أسبابهم وأموالهم ، وسُمّوا الكتّاب الخونة ، فقدم جعفر بن محمود يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة فوليَ الأمر والنهي .

ولليلتين خَلَتَا من رجب ظهر بالكوفة عيسى بن جعفر وعليّ بن زيد الحسنيّان ، فقتلا بها عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى .

ولثلاث بقين من رجب منها خُلع المعتزّ . ولليلتين خلتا من شعبان أظهر موته ؛ وكان سبب خلعه ـ فيما ذكر ـ أن الكتّاب الذي ذكرنا أمرهم ، لمّا فعل بهم الأتراك ما فعلوا ، ولم يُقِرُّوا لهم بشيء ، صاروا إلى المعتزّ يطلبون أرزاقهم ، وقالوا له : أعطِنا أرزاقنا حتى نقتُل لك صالح بن وصيف ، فأرسل المعتزّ إلى أمه يسألها أن تعطيَه مالاً ليعطيَهم ، فأرسلت إليه : ما عندي شيء ، فلما رأى الأتراك ومَنْ بسامُرّا من الجند أن قد امتنع الكُتّاب من أن يُعطوهم شيئاً ، ولم يجدوا في بيت المال شيئاً ، والمعتزّ وأمه قد امتنعا من أن يَسْمَحا لهم بشيء ؛

صارت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة واحدةً ، فاجتمعوا على خَلْع المعتزّ ، فصاروا إليه لثلاث بَقِين من رجب ؛ فذكر بعض أسباب السلطان أنه كان في اليوم الذي صاروا إليه عند نحرير الخادم في دار المعتز ، فلم يَرعْه إلّا صياح القوم من أهل الكَرْخ والدُّور ، وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بُغا المعروف بأبي نصر ، قد دخلوا في السلاح ، فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتزّ ، ثم بعثوا إليه : اخرُج إلينا ، فبعث إليهم : إني أخذت الدّواء أمس ، وقد أجفلني اثنتي عشرة مرّة ؛ ولا أقدر على الكلام من الضعف ؛ فإن كان أمراً لا بدّ منه ، فليدخل إليّ بعضُكم فَلْيُعْلِمْني . وهو يرى أن أمره واقف على حاله . فدخل إليه جماعة من أهل الكَرْخ والدّور من خلفاء القُوّاد ، فجرّوا برجْلِه إلى باب الحُجْرة ؛ قال : وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرْب بالدبابيس ، فخرج وقميصه مخرّق في مواضع ، وآثار الدم على منكبِه ، فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحرّ . قال : فجعلتُ أنظر إليه يرفعُ قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه . قال : فرأيتُ بعضَهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وجعلوا يقولون : اخلعْها ، فأدخلوه حجرَة على باب حجرة المعتزّ كان موسى بن بُغا يسكنها حين كان حاضراً ، ثم بعثوا إلى ابن أبي الشوارب ، فأحضروه مع جماعة من أصحابه ؛ فقال له صالح وأصحابه : أكتبْ عليه كتاب خَلْع ، فقال : لا أحسنه ؛ وكان معه رجل أصبهانيّ ، فقال : أنا أكتب ، فكتب وشهدوا عليه وخرجوا . وقال ابن أبي الشوارب لصالح : قد شهدوا أنّ له ولأخته وابنه وأمه الأمان ، فقال صالح بكفّه : أي نعم ؛ ووكلوا بذلك المجلس وبأمّه نساء يحفظنها .

فذكر أن قبيحة كانت اتّخذت في الدار التي كانت فيها سَرَباً ، وأنها احتالت هي وقُرْب وأخت المعتزّ ، فخرجوا من السَّرَب ، وكانوا أخذوا عليها الطُرُق ، ومنعوا الناس أن يجوزوا من يوم فعلوا بالمعتزّ ما فعلوا ؛ وذلك يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب .

فذُكر أنه لما خُلع دفع إلى من يعذّبه ومُنِع الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلَب حَسْوةً من ماء البئر ، فمنعوه . ثم جصّصوا سرداباً بالجِصّ الثخين ، ثم أدخلوه فيه ، وأطبقوا عليه بابَه ، فأصبح ميّتاً .

وكانت وفاته لليلتين خَلَتَا من شعبان من هذه السنة . فلمّا مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد ؛ وأنه صحيح لا أثر فيه ، فدُفِن مع المنتصر في ناحية قصر الصّوامع ؛ فكانت خلافته من يوم بويع له بسامُرّا إلى أن خُلع أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً . وكانَ عمره كلّه أربعاً وعشرين سنة .

وكان أبيض أسود الشعر كثيفَه ، حسن العينين والوجه ، ضيّق الجبين ، أحمر الوجنتين ، حسن الجِسم ، طويلاً .

وكان مولده بسامُرّا .

خلافة ابن الواثق المهتدي بالله

وفي يوم الأربعاء لليلة بقيت من رَجب من هذه السنة ، بويع محمد بن الواثق ، فسُمِّي بالمهتدي بالله ؛ وكان يكنى أبا عبد الله ؛ وأمه روميّة ؛ وكانت تسمى قُرْب .

وذكر عن بعض من كان شاهداً أمرهم ، أنّ محمد بن الواثق لم يقْبَل بيعةَ أحد ؛ حتى أتِيَ بالمعتز فخلع

نفسه ؛ وأخبَر عن عجزه عن القيام بما أسْنِد إليه ، ورغبته في تسليمها إلى محمد بن الواثق ؛ وأن المعتزّ مدّ يده فبايع الواثق ؛ فسمَّوْه بالمهتدي ، ثم تنحّى وبايع خاصّة الموالي .

وكانت نسخة الرقعة بخلع المعتزّ نفسه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا ما أشهـد عليه الشهـود المسمَّوْن في هـذا الكتاب ؛ شهـدوا أنّ أبا عبد الله ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله أقرّ عندهم ، وأشهدهم على نفسه في صحّةٍ من عقله ، وجوازٍ من أمره ؛ طائعاً غير مكرهٍ ، أنه نظر فيما كان تقلّده من أمر الخلافة والقيام بأمور المسلمين ؛ فرأى أنه لا يصلحُ لذلك ، ولا يكمُل له ؛ وأنه عاجز عن القيام بما يجب عليه منها ، ضعيف عن ذلك ؛ فأخرج نفسَه ، وتبرّأ منها ، وخلعها من رَقَبته ، وخلع نفسه منها ، وَبَرأ كلّ من كانت له في عنقه بَيْعة من جميع أوليائه وسائر الناس مما كان له في رقابهم من البيْعة والعهود والمواثيق والأيمان بالطّلاق والعتاق والصَّدَقة والحجّ وسائر الأيمان ، وحلَّلهم من جميع ذلك وجعلَهم في سَعَة منه في الدنيا والآخرة ، بعد أن تبين له أنّ الصلاح له وللمسلمين في خروجه عن الخلافة والتبرؤ منها ، وأشهد على نفسه بجميع ما سمى ، ووصف في هذا الكتاب جميعَ الشهود المسمّيْن فيه ، وجميع مَنْ حضر ؛ بعد أن قرىء عليه حرفاً حرفاً ، فأقرّ بفهمه ومعرفته جميع ما فيه طائعاً غير مكره ؛ وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين .

فوقّع المعتزّ في ذلك : « أقرّ أبو عبد الله بجميع ما في هذا الكتاب ، وكتب بخطه » .

وكتب الشهود شهاداتهم : شهد الحسن بن محمد ومحمد بن يحيـى وأحمد بن جناب ويحيـى بن زكرياء بن أبي يعقوب الأصبهانيّ وعبد الله بن محمد العامريّ وأحمد بن الفضل بن يحيـى وحماد بن إسحاق وعبد الله بن محمد وإبراهيم بن محمد ؛ وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين .

وفي سلْخ رَجَب من هذه السنة ، كان ببغداد شَغَب ووثُوب العامة بسليمان بن عبد الله بن طاهر .

ذكر الخبر عن سبب ذلك وإلى ما آل الأمر إليه :

وكان السببُ في ذلك ، أنّ الكتاب من محمد بن الواثق ورَد يوم الخميس سلْخ رجب على سليمان ببغداد ببيعة الناس له ، وبها أبو أحمد بن المتوكل ؛ وكان أخوه المعتزّ سيّره إلى البصرة حين سخط على أخيه من أمه المؤيد ؛ فلما وقعت العصبية بالبصرة نقله إلى بغداد ؛ فكان مقيماً بها ، فبعث سليمان بن عبد الله بن طاهر وإليه الشرطة يومئذ ببغداد ، فأحضره دارَه ، وسمع مَنْ ببغداد من الجند والغَوْغاء بأمر المعتزّ وابن الواثق ، فاجتمعوا إلى باب سليمان ، وضجّوا هنالك ، ثم انصرفوا على أنه قيل لهم : لم يَرِدْ علينا من الخبر ما نعلم به ما عمل به القوم ، فغَدَوْا يوم الجمعة على ذلك من الصياح والقَوْل الذي كان قيل لهم يوم الخميس ، وصلى الناس في المسجديْن ، ودُعِيَ فيهما للمعتزّ ، فلما كان يوم السبت غدا القوم ، فهجموا على دار سليمان ، وهتفوا باسم أبي أحمد ، ودَعَوْا إلى بيعته ، وخلصوا إلى سليمان في داره ، وسألوه أن يريَهم أبا أحمد بن المتوكل ، فأظهره لهم ، ووعدهم المصير إلى محبَّتهم إن تأخر عنهم ما يحبّون ، فانصرفوا عنه بعد أن أكّدُوا عليه في حفظه .

وقدم يارجوخ فنزل البَرَدان ومعه ثلاثون ألف دينار لإعطاء الجند ممّن بمدينـة السلام ، ثم صـار إلى الشمّاسيّة ، ثم غدا ليدخل بغداد ؛ فبلغ الناس الخبرُ ، فضجُّوا وتبادروا بالخروج إليه ، وبلغ يارجوخ الخبرُ ،

فرجع إلى البَرَدان ، فأقام بها ، وكتب إلى السلطان ، واختلفت الكتب حتى وجّه إلى أهل بغداد بمال ٍ رضُوا به ، ووقعت بيعة الخاصّة ببغداد للمهتدي يوم الخميس لسبع ليال خَلَوْن من شعبان ، ودعي له يوم الجمعة لثمان خلوْن من شعبان بعد أن كانت ببغداد فِتْنة ، قتل فيها وغرق في دِجْلة قوم ، وجرح آخرون لأن سليمان كان يحفظ داره قوم من الطَّبَرِية بالسلاح ، فحاربهم أهلُ بغداد في شارع دِجْلة وعلى الجسر ؛ ثم استقام الأمر بعد ذلك وسكنوا .

وفي شهر رمضان من هذه السنة ظهرت قَبيحة للأتراك ، ودلّتهم على الأموال التي عندها والذخائر والجوهر ؛ وذلك أنها ـ فيما ذُكر ـ قد قَدّرَت الفتك بصالح ، وواطأت على ذلك النَّفر من الكتّاب الذين أوقع بهم صالح ؛ فلما أوقع بهم صالح ، وعلمت أنهم لم يطووا عن صالح شيئاً من الخبر بسبب ما نالهم من العذاب ؛ أيقنت بالهلاك ؛ فعملت في التخلّص ، فأخرجت ما في الخزائن داخل الجوْسق من الأموال والجواهر وفاخرِ المتاع ، فأودعت ذلك كله مع ما كانت أودعت قبل ذلك مما هو في هذا المعنى ، ثم لم تأمن المعاجلة إلى ما نَزَل بها وبابنها ، فاحتالت للهرب وجهاً ، فحفرت سَرَباً من داخل القصر من حجرة لها خاصّة ينفذ إلى موضع يفوت التفتيش ، فلمّا علمت بالحادثة بادرت من غير تلبّث ولا تلوّم ؛ حتى صارت في ذلك السَّرَب ، ثم خرجت من القَصْر ؛ فلما فرغ الذين شغبوا في أمر ابنها مما أرادوا إحكامَه ؛ فصاروا إلى طلبها غير شاكّين في القدرة عليها ، وجدوا القصر منها خالياً ، وأمْرَها عنهم مستتراً ؛ لا يقفون منه على شيء ؛ ولا ما يؤديهم إلى معرفته ؛ حتى وقفوا على السَّرَب ، فعلموا حينئذ أنهم منه أوتوا فسلكوه ؛ وانتهوا إلى موضع لا يُوقف منه على خبر ولا أثر ، فأيقنوا بالفَوْت ، ثم رجموا الظّنُون ؛ فلم يجدوا لها معقلاً أعزّ ولا أمنع إن هي لجأت إليه من حبيبَ حرّة موسى بن بغا التي تزوّجها من جواري المتوكل ، فأحالوا على تلك الناحية ، وكرهوا التعرّض لشيء من أسبابها ، ووضعوا العيون والأرصاد عليها ، وأظهروا التوعّد لمن وقفوا على معرفته بأمرها ؛ ثم لم يُظهرْهم عليها ؛ فلم يزل الأمر منطوياً عنهم ؛ حتى ظهرت في شهر رمضان ؛ وصارت إلى صالح بن وصِيف ، ووسَّطت بينها وبين صالح العطّارة ؛ وكانت تثِق بها ؛ وكانت لها أموال ببغداد ، فكتبت في حَمْلِها ؛ فاستخرج وحُمِل منها إلى سامُرّا .

فذُكِر أنه وافَى سامُرّا يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلَتْ من شهر رمضان من هذه السَّنَة قدر خمسمائة ألف دينار ، ووقَعُوا لها على خزائن ببغداد . فوجّه في حملها ، فاستخرج وحمل منها ، فحمل إلى السلطان من ذلك متاعٌ كثير ، وأحيل من ببغداد من الجند والشاكرية المرتزقة بمال عظيم عليه ولم تزل تُباع تلك الخزائن متّصلاً ببغداد وسامُرّا عدّة شهور ؛ حتى نفدت .

ولم تزل قبيحة مقيمة إلى أن شخص الناس إلى مكة في هذه السنة ، فسُيّرت إليها مع رجاء الربابيّ ووحش مولى المهتدي ؛ فذُكِر عمّن سمعها في طريقها وهي تدعو الله على صالح بن وصيف بصوت عال ٍ وتقول : اللهم أخز صالح بن وصيف ؛ كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وبدّد شملي ، وأخذ مالي ، وغرّبني عن بلدي ، وركب الفاحشة مني ! فانصرف الناس عن الموسم واحتبست بمكة .

وذكر أنّ الأتراك لما تحركوا ، وثاروا بالمعتزّ أرسلوا إليه يطلبون منه خمسين ألف دينار ؛ على أن يقتلوا صالحاً ؛ ويستوي لهم الأمر . فأرسل إلى أمه يعلمها اضطرابهم عليه ، وأنه خائف على نفسه منهم ، فقالت :

ما عندي مال ، وقد وردت لنا سفاتج ؛ فلينتظروا حتى نقبض ونعطيَهم ؛ فلما قُتل المعتزّ ، أرسل صالح إلى رجل جوهريّ . قال الرجل : فدخلت إليه وعنده أحمد بن خاقان ؛ فقال : ويحك ! هوذا ترى ما أنا فيه ! وكان صالح قد أخافوه وطالبوه بالمال ؛ ولم يكن عنده شيء ، فقال لي : قد بلغني أنّ لقبيحة خزانةً في موضع يرشدك إليه هذا الرجل ـ وإذا رجلٌ بين يديه ـ فامض ومعك أحمد بن خاقان ؛ فإن أصبتم شيئاً فأثبته عندك ، وسلِّمه إلى أحمد بن خاقان ؛ وصِرْ إليّ معه . قال : فمضيت إلى الصُّفوف بحضرة المسجد الجامع ؛ فجاء بنا ذلك الرَّجُل إلى دار صغيرة معمورة نظيفة ؛ فدخلنا ففتشنا كلّ موضع فيها فلم نجد شيئاً ، وجعل ذلك يغلُظ على أحمد بن خاقان ، وهو يتهدّد الرجل ويتوعده ، ويُغلظ له ، وأخذ الرجل فأساً ينقر به الحيطان يطلب موضعاً قد سُتر فيه المال ؛ فلم يزل كذلك حتى وقع الفأس على مكان في الحائط استدلّ بصوته على أن فيه شيئاً ، فهدمه وإذا من ورائه باب ، ففتحناه ودخلنا إليه ؛ فأدّانا إلى سَرَب ، وصرنا إلى دار تحت الدار التي دخلناها على بنائها وقسمتها ، فوجدنا من المال على رُفوف في أسفاط زهاء ألف ألف دينار ، فأخذ أحمد منها ومَن كان معه قدر ثلاثمائة ألف دينار، ووجدنا ثلاثة أسفاط: سَفَطاً فيه مقدار مكّوك زمرّد إلا أنه من الزّمرد الذي لم أر للمتوكل مثله ولا لغيره ، وسفَطاً دونه فيه نصف مكّوك حَبّ كبار ، لم أر والله للمتوكل ولا لغيره مثله ، وسفَطاً دونه فيه مقدار كيلجة ياقوت أحمر لم أر مثله ، ولا ظننت أن مثله يكون في الدنيا ؛ فقوّمت الجميع على البيع ؛ فكانت قيمته ألفي ألف دينار ، فحملناه كله إلى صالح ؛ فلما رآه جعل لا يصدق ولا يوقنُ حتى أحضر بحضرته ووقف عليه ، فقال عند ذلك : فعل الله بها وفعل ؛ عرّضت ابنها للقتْل في مقدار خمسين ألف دينار ، وعندها مثل هذا في خزانة واحدة من خزائنها !

وكانت أم محمد بن الواثق توفِّيت قبل أن يبايعَ ؛ وكانت تحت المستعين ؛ فلما قُتِل المستعين صيرها المعتزّ في قصر الرُّصافة الذي فيه الحرم ، فلما ولي الخلافة المهتدي قال يوماً لجماعة من الموالي : أمّا أنا فليس لي أمّ أحتاج لها إلى غلّة عشرة آلاف ألف في كل سنة لجواريها وخدمها والمتصلين بها ؛ وما أريد لنفسي وولدي إلا القوت ، وما أريد فضلاً إلّا لإخوتي فإن الضيّقة قد مسّتهم .

ولثلاث بقين من رمضان من هذه السنة قتِل أحمد بن إسرائيل وأبو نوح .

ذكر الخبر عن صفة القِتْلة التي قتلا بها :

فأما السبب الذي أدّاهما إلى القتل ؛ فقد ذكرناه قبلُ ، وأما القِتْلة التي قُتِلا بها ، فإنه ذكر أن صالح بن وصيف لما استصفَى أموالها ومال الحسن بن مَخْلَد ، وعذّبهم بالضرب والقَيْد وقرّب كوانين الفحم في شدّة الحرّ منهم ، ومنعهم كلّ راحة ، وهم في يده على الهم ، ونسبهم إلى أمور عظام من الخيانة والقصد لذلّ السلطان والحِرْص على دوام الفتن والسعي في شقّ عصا المسلمين ، فلم يعارضْه المهتدي في شيء من أمورهم ، ولم يوافقه على شيء أنكره من فعله بهم . ثمّ وجّه إليهم الحسن بن سليمان الدوشابيّ في شهر رمضان ، ليتولّى استخراجَ شيء إن كان زُوِيَ عنه من أموالهم .

قال : فأخرِج إليّ أحمد بن إسرائيل ، فقلت له : يا فاجر ، تظنّ أنّ الله يُمهلك ، وأنّ أمير المؤمنين لا يستحلّ قتلك ؛ وأنت السببُ في الفتن ، والشريك في الدماء ، مع عظيم الخيانة وفساد النية والطويّة ! إنّ في أقلّ من هذا ما تستوجب به المُثْلة كما استوجب مَن كان قبلك ، والقتل في العاجلة والعذاب والخزي في

الآجلة ، إن لم تسعَد من الله بعفو وإمهال ، ومن إمامك بصفح واحتمال ؛ فاستر نفسَك من نزول ما تستحقّ بالصدق عما عندك من المال ؛ فإنك إن تفعل ويوقَف على صدقك تسلم بنفسك . قال : فذكر أنه لا شيء عنده ، ولا تُرِكَ له إلى هذا الوقت مال ولا عُقْدة . قال : فدعوتُ بالمقارع وأمرت أن يقامَ في الشمس ، وأرعدتُ وأبرقتُ ، وإن كان ليفوتني الظفر منه بشيء من صَرامة ورُجْلة حتى أومَى إلى قدر تسعة عشر ألف دينار ؛ فأخذت رقعته بها .

قال : ثمّ أحضرت أبا نوح عيسى بن إبراهيم فقلت له مثل الذي قلت لأحمد أو نحوه ، وزدت في ذلك بأن قلت : وأنت مع هذا مقيم على دينك النصرانية ، مرتكب فروج المسلمات تشفِّياً من الإسلام وأهله ! ولا دلالة أدلّ على ذلك ممن لم يزل في منزلك على حالِ النصرانية من أهلٍ وولدٍ ، ومَن كان ذا عَقْدُه فقد أباح الله دمه .

قال : فلم يُجب إلى شيء ، وأظهر ضعفاً وفقراً .

قال : وأما الحسن بن مَخْلد فأخرجتُه ؛ فلما خاطبته خاطبت رجلاً موضَّعاً رخواً ، قال : فبكَّتُّه بما ظهر منه ، وقلت : مَنْ كان له الراضة بين يديه إذا سار على الشهاريّ وقدّر ما قدّرت ، وأراد ما أردت ، لم يكن موضَّعاً رطباً ولا مخنَّثاً رخواً . قال : ولم أزل به حتى كتب رقعة بجوهر قيمته نَيِّف وثلاثون ألف دينار ؛ قال : وردّوا جميعاً إلى موضعهم ؛ وانصرفت . فكانت مناظرة الحسن بن سليمان الدوشابيّ لهم آخر مناظرة كانت معهم ؛ ولم يناظروا أيام المهتدي فيما بلغني مناظرة غيرها .

فلما كان يوم الخميس لثلاث بقين من شهر رمضان أخرج أحمد بن إسرائيل وأبو نوح عيسى بن إبراهيم إلى باب العامة ، فقعد صالح بن وصيف في الدار ، ووكّل بضربهما حمّاد بن محمد بن حماد بن دَنْقَش ، فأقام أحمد بن إسرائيل وابن دَنْقَش يقول : أوجع ، وكان كلّ جلّاد يضربه سوطين ، ويتنحّى حتى وفّوْه خمسمائة سوط . ثم أقاموا أبا نوح أيضاً فضُرب خمسمائة سوط ضربَ التّلف ، ثم حُمِلا على بغلين من بغال السّقائين على بطونهما ، منكّسةً رؤوسهما ، ظاهرة ظهورهما للناس . فأما أحمد فحين بلغ خشبةَ بابك مات ، وحين وصلوا بأبي نوح مات فدفن أحمد بين الحائطين. ويقال إن أبا نوح مات من يومه في حبس السرخسيّ خليفة طلمجور على شُرَط الخاصّة ، وبقيَ الحسن بن مَخْلَد في الحبس .

وذُكِر عن بعض من حضر أنه قال : لقد رأيت حمّاد بن محمد بن حماد بن دَنقش وهو يقول للجلادين : أنفسَكم يا بني الفاعلة ـ لا يكني ـ ويقول : أوجعوا وغيّروا السياط ، وبدّلوا الرّجال ، وأحمد بن إسرائيل وعيسى يستغيثان ؛ فذكِر أن المهتدي لمّا بلغه ذلك قال : أمَا عقوبة إلّا السوط أو القتل ! أمَا يقوم مقام هذا شيء ! أما يكفي ! إنا لله وإنا إليه راجعون ، يقول ذلك ويسترجع مراراً .

وذكر عن الحسن بن مَخْلَد أنه قال : لم يكن الأمر فينا عند صالح إذا لم يحضره عبد الله بن محمد بن يَزْدَاد على ما كان يكون عليه من الغلظة إذا حضر . قال : وكان يقول لصالح : اضرب وعذّب فإنّ الأصلح من وراء ذلك القتل ؛ فإنهم إن أفلتوا لم تؤمَن بوائقهم في الأعقاب ؛ فضلاً عن الواترين ؛ ويذكره قبيحَ ما بلغه عنهم . وكان يسرّ بذلك .

قال : وكان داود بن أبي العباس الطوسيّ يحضرنا عند صالح فيقول : وما هؤلاء أعزّك الله ، فبلغ منك

الغضب بسببهم هذا المبلغ ! فظنه يرقّقه علينا حتى يقول : على إني والله أعلم أنهم إن تخلصوا انتشر منهم شرٌّ كبير وفساد في الإسلام عظيم ؛ فينصرف وقد أفتاه بقتلنا ، وأشار عليه بإهلاكنا ؛ فيزداد برأيه وما قال له علينا غيظاً ، وإلى الإساءة بنا أنساً فسُئل بعض من كان يخبر أمرهم : كيف نجا الحسن بن مَخْلَد مما صَلِيَ به صاحباه ؟ فقال : بخصلتين ؛ إحداهما أنه صَدَقه عن الخبر في أول وهلة وأوجد الدَّلائل على ما قاله له إنه حقّ ؛ وقد كان وعَده العفو إن صدَقه ، وحلف له على ذلك ، والأخرى أنّ أمير المؤمنين كلمه فيه وأعلمه حرمة أهله به ، وأومأ إلى محبته لإصلاح شأنه ، فردّه عن عظيم المكروه فيه ؛ وقد كنت أرى أنه لو طالت لصالح مدّة وهو في يده ، أطلقه وأصطنعه ، ولم يكن صالح بن وصيف اقتصر في أمر الكتاب على أخذ أموالهم وأموال أولادهم ؛ حتى أخاف أسبابهم وقراباتهم بأخذ أموالهم ، وتخطّى إلى المتصلين بهم .

ولثلاث عشرة خلت من شهر رمضان منها فتح السجن ببغداد ، ووثبت الشاكرية والنائبة ببغداد من جندها بمحمد بن أوس البلخيّ :

ذكر الخبر عن سبب ذلك وما آل الأمر إليه فيه :

ذُكر أنَّ السبب في ذلك كان أنّ محمد بن أوس ، قدِم بغداد مع سليمان بن عبد الله بن طاهر وهو على الجيش القادمين من خُراسان مع سليمان والصعاليك الذين تألّفهم سُليمان بالريّ ، ولم تكن أسماؤهم في ديوان السلطان بالعراق ، ولا أمِر سُليمان فيهم بشيء ؛ وكانت السنّة فيهم أن يقام لمن قدم معه من خراسان بالعراق حسب ما يُقام بخُراسان لنظرائهم من مال ضياع وَرَثة ذي اليمينين ، ويكتب بذلك إلى خُراسان ليُعارض الوَرَثة هناك من مال العامة ، بدل ما كان دُفع من مالهم بالعراق . فلما قدم سُليمان بن عبد الله العراق ، وجد بيت مال الوَرَثة فارغاً وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد تقدّم عندما صحّ عنده من الخبر بتصيير الأمر فيها كان يتولّاه إلى أخيه سليمان بن عبد الله ، فأخذ ما كان حاصلاً لورثة أبيه وجدّه في بيت مالهم ، واستسلف على ما لم يرتفع ، وتعجّل من المتقبّلين أموال نجوم لم تحلّ حتى استنظف ذلك أجمع ، وشخص . فأقام بالجُوَيْث في شرقيّ دِجْلة ، ثم عَبَر حتى صار في غربيّها ، فضاقت بسليمان الدّنيا ، وتحرّك الشاكرية والجُند في طلب الأرزاق ، وكتب سليمان إلى أبي عبد الله المعتزّ بذلك وقدّر أموالهم ، وأدخل في المال تقدير القادمين معه ؛ ووجّه محمد بن عيسى بن عبد الرحمن الكاتب الخراسانيّ كاتبَه في ذلك . فأجيب بعد مناظرات إلى أن سُبِّبَ له على عمال السَّواد مالٌ صودر عليه لطمع مَنْ بمدينة السلام وشِحَنِ السواد لا يقوم بما يجب للنائبة فضلاً عن القادمين مع النائبة ؛ فلم يتهيّأ لسُليمان الوصولُ إلى شيء من المال ، وقدم ابنُ أوس والصعاليك وأصحابه ، فقصرّ المال عنه وعمن كان يقدّر وصوله إليه من النائبة ، فوقفوا على ذلك وعلى السبب المضرّ بهم فيه . وكان القادمون مع سليمان من الصَّعاليك وغيرهم لما قدِموا بغداد أساءوا المجاورة لأهلها ، وجاهروا بالفاحشة ، وتعرَّضوا للحُرَم والعبيد والغِلْمان ، وعادوْهم لمكانهم من السلطان ؛ حتى امتلؤوا عليهم غيظاً وحَنقاً . وقد كان سليمان بن عبد الله وحَرَ على الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب بن رزيق ؛ لمكانه كان من عُبيدالله بن عبدالله بن طاهر ونصرته له وكفايته، وانصرافه عن سليمان وأسبابه. فلما انصرف الحسين بن إسماعيل إلى بغداد بعقب ما كان يتولّاه لعبيد الله من أمر الجند والشاكرية ، فحبس كاتبه في المطبَق وحاجبه في سجن باب الشأم ، ووكّل بباب الحسين بن إسماعيل جنداً من قِبَل إبراهيم بن إسحاق بن

إبراهيم ؛ لأنّ سليمان ولّى إبراهيم ما كان الحسين بن إسماعيل يتولّاه لعبيد الله من أمر جسرَيْ بغداد وطساسيج قطربُّل ومسكن والأنبار ؛ فلما حدث ما حدث من بيعة المهتدي وشَغَب الجند والشاكرية بمدينة السلام ، ووقعت الحرب في تلك الأيام ، شدّ محمد بن أوس على رجل من المراوزة ، كان من الشيعة ، فضربه في دار سليمان ثلاثمائة سوط ضرباً مبرِّحاً ، وحبسه بباب الشأم ؛ وكان هذا الرّجل من خاصّة الحسين بن إسماعيل ؛ فلمّا حدث هذا الحادث احتيج إلى الحُسين بن إسماعيل ، لفضل جلده وإقدامه فنُحِّيَ مَنْ كان ببابه موكّلاً فظهر ، فتراجع أصحابُه من غير أمر ؛ وقد كانوا فُرّقوا على القوّاد ، وضُمّ منهم جمع كبير إلى محمد بن أبي عون القائد ؛ فذُكِر أن المضمومين إلى ابن أبي عون لما صاروا إلى بابه ، فرّق فيهم من ماله ؛ للرّاجل عشرة دراهم ، وللفارس ديناراً ؛ فلما رجعوا إلى الحسين رفع ابن أبي عون بذكر ذلك ؛ فلم يخرج في ذلك تعيين ولا أمر ؛ فلم يزل الحال على هذا والجند والشاكريّة يَصيحون في طلب مال البيعة وما بقيَ لهم من مال الطمع المتقدّم ؛ وقد ردّ أمرهم في تَقسيط مالهم ، وقبضهم إلى الحسين على ما كان الأمر عليه أيام عبيد الله بن عبد الله بن طاهر . وكان الحسين لا يزال يلقي إليهم ما عليه محمد بن أوس ومَنْ قدم مع سليمان من القَصْد لأخذ أموالهم الفوز بها دونهم ؛ حتى امتلأت قلوبهم . فلمّا كان يومُ الجمعة لثلاث عشرة خلتْ من شهر رمضان ، اجتمع جماعة من الجند والشاكريّة ، ومعهم جماعة من العامة حتى صاروا إلى سجن باب الشأم ليلاً ، فكسروا بابه ، وأطلقوا في تلك الليلة أكثرَ مَنْ كان فيه ، ولم يبقَ فيه من أصحاب الجرائم أحدٌ إلّا الضعيف والمريض والمثقَل ؛ فكان ممن خرج في تلك الليلة نفرٌ من أهل بيت مساور بن عبد الحميد الشاري ، وخرج معهم المروزيّ مضروب محمد بن أوس وجماعة ممن قد لزم السلطانَ إلى أن صاروا إلى قبْضته زُهاء خمسين ألفاً ، وأصبح الناس في يوم الجمعة وباب الحبس مفتوح ؛ فمَنْ قدر أن يمشيَ مشى ، ومَن لم يقدر اكترى له ما يركبه ؛ وما يمنع من ذلك مانع ، ولا يدفع دافع ؛ فكان ذلك من أقوى الأمور التي بعثت الخاصّة والعامة على دفع الهيْبة بينهم وبين سليمان بن عبد الله وسُدّ باب السجن بباب الشأم بآجرٍّ وطين ؛ ولم يعلم أنه كان لإبراهيم بن إسحاق في هذه الليلة ولا لأحد من أصحابه حركة أصلاً ؛ فتحدّث الناس أن الذي جُنيَ على سجن باب الشأم بمكان المروزيّ الذي ضربه ابن أوس فيه حتى يخلص . ثم لم يمض بعد ذلك خمسة أيام ، حتى نافر ابن أوس الحسينَ بن إسماعيل في أمر مال النائبة أراده محمد بن أوس لأصحابه ومنعه الحسين ، وتجاريا في ذلك كلاماً غلظ بينهما ، فخرج محمد متنكراً ؛ فلما كان الغد من ذلك اليوم غَدا محمد بن أوس إلى دار سليمان ، وغدا الحسين بن إسماعيل والشاه بن ميكال مولى طاهر ، وحضر الناس باب سليمان ؛ وكان بين مَنْ حضر من أصحاب ابن أوس وبين النائبة محادثة ، علت فيها الأصوات ؛ فتبادر أصحابُ ابن أوس والقادمون إلى الجزيرة ، وعبر إليهم ابن أوس وولده ؛ وتصايح الناس بالسلاح ، وخرج الحسين بن إسماعيل والشاه بن ميكال والمظفر بن سيسل في أصحابهم ، وصاح الناس بالعامة : مَنْ أراد النَّهب فليلحق بنا ؛ فقيل : إنه عبر الجسرين من العامة في ذلك الوقت مائة ألف إنسان في الزَّواريق ، وتوافَى الجند والشاكرية بالسلاح ؛ فوافى أوائل الناس الجزيرة ؛ فلم يكن إلّا قدر اللحظة حتى حمل رجل من أهل سَرَخس على الكبير من ولد محمد بن أوس ، وطعنه ، فأرداه عن شهريّ كان تحته ؛ ثم أخذته السيوف فانهزم عنه أصحابه ، فلم يعمل أحد منهم شيئاً ، وسُلب الجريح وحمل في زورق ، حتى عُبِر به إلى دار سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ألقي هناك .

فذكر بعضُ مَنْ حضر سليمانَ ، أنه لما رآه اغرورقت عيناه من الدمع ، ومهّد له ، وأحضِر له الأطباء ، ومضى ابن أوس من وجهه إلى منزله ؛ وكان ينزل في دار لآل أحمد بن صالح بن شيرزاد بالدّور ، مما يلي قصر جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك . وجدّ أهلُ بغداد في آثارهم والقوّاد معهم حتى تلقوْهم ، فكانت بينهم وقعة بالدور ؛ أولها في آخر الساعة الثانية وآخرها في أوّل الساعة السابعة ؛ فلم يزالوا يتراشقُون بالنّشاب ، ويتطاعنون بالرِّماح ، ويتخابطون بالسيوف . وأعان ابنَ أوس جيرانه من أهـل سويقـة قُطوطـاً وأصحاب الزّواريق من ملاّحي الدور . واشتدّت الحرب ، ووجّه أهلُ بغداد يطلبون نفّاطين من دار سليمان . فذكروا أنّ حاجبه دخل ، فأعلمه ذلك ؛ فأمر بمنعهم منه ؛ وقاتل ابنُ أوس قتالاً شديداً ، فناله جِراحٌ من سهام وطعن ، فانهزم وأصحابه ؛ وقد كان أخرج حرمه من داره ؛ فلم يزل أهلُ بغداد يتبعونهم حتى أخرجوهم من باب الشّماسية ، ووصل الناس إلى منزل ابن أوس ؛ فانتهبوا جميعَ ما كان فيه ؛ فذُكِر أنه انتهب له بقيمة ألفي ألف درهم ؛ والمقلِّل يقول : ألف ألف وخمسين ألفاً ؛ وأنه انتهب له زُهاء مائة سراويل مبطّن بسمّور ؛ سوى ما كان مبطَّناً بغيره من الوَبَر مما يشاكل ذلك ؛ وانتهب له من الفرش الطبرّي الخام والمقصور والمدرج والمقطوع ما يكون قيمته ألف ألف درهم ؛ وانصرف الناس ، فجعل الجند يدخلون دار سليمان ، وهم يكثرون ، ومعهم النهب وهم يصيحون ، وما لهم مانع ولا زاجر . وأقام ابنُ أوس ليلتَه تلك بالشَّمَّاسيّة مع من لحق به من أصحابه . وقد كان أهل بغداد وثبوا بمنازل الصّعاليك التي كانوا فيها سكّاناً ، فنهبوها ، وتعرّضوا لمن كان تخلّف منهم ، فتلاحق القومُ هُرّاباً ، ولم يبق منهم في اليوم الثاني ببغداد أحد ظاهراً .

فذُكر أنّ سليمان وجّه تلك الليلة إلى ابن أوْس ثياباً وفرشاً وطعاماً ؛ فيقال : إنّ محمداً قبله ، وقيل : إنه ردّه . وأصبح الناس في اليوم الثاني وغَدا الحُسين بن إسماعيل والمظفر بن سيسل إلى دار الشاه بن ميكال ، ولحِق به وجوهُ الشاكرية والنائبة وغيرهم ؛ فأقاموا هناك مُراغمين سليمان بن عبد الله بن طاهر . وخلت دار سليمان فلم يحضرها إلاّ جُميّعة . فبعث إليهم سليمان مع محمّد بن نصر بن حمزة بن مالك الخُزاعيّ ، وهو لا يعلم ما عليه عقد القوم ، يُعلمهم قبح ما ركبوا من محمد بن أوس ، وما يجب لمحمد بحُرمته وقديمه ، وأنّهم لو أنهوْا إليه ما أنكروا منه لتقدّم في ذلك بما يكفيهم معه الحال التي ركِبوها ، فضجّ الشاكريّة الذين حضروا دار الشاه جميعاً وقالوا : لا نرضى بمجاورة ابن أوس ولا بمجاورة أحدٍ من أصحابه ولا من الصعاليك المنضمين إليـه ؛ وإنهم إن أكرِهـوا على ذلـك تعاقـدوا مباينتـه ، وخلع مَنْ يسومهم إيـاه ، وأحال الشـاه بن ميكال والحسين بن إسماعيل والمظفّر بن سيسل على كراهة القوم ، فرجع الرّسول بذلك إلى سليمان ، فردّه إليهم بكلام دون ذلك ، ووعدهم وقال : أنا أثِق بقولكم وضمانكم دون أيمانكم وعهودِكم . ثمّ استوى جالساً .

وذكر أنه لم يزل مستثقلاً محمد بن أوس ومَنْ لحق به من الصعاليك وغيرهم ، عارفاً بسوء رغبتهم ورداءة مذاهبهم ، وبسَوْم محمد بن أوس في نفسه خاصّة ومحبّته وشروعه في كلّ ما دعا إلى خلاف وفرقة ، وأسبغ هذا المعنى ، وكثر فيه حتى خرج به إلى الإغراق فيه ؛ إلى أن قال : لقد كنت أدخِلُ في قُنوتي في الصلاة طلب الراحة من ابن أوس . ثم التفت إلى محمد بن عليّ بن طاهر ، فأمره بالمصير إلى ابن أوس ، والتقدّم إليه في العزم على الانصراف إلى خُراسان ، وأن يعلمَه أنه لا سبيل له إلى الرجوع إلى مدينة السلام ؛ ولا إلى تولّي شيء من الأمور التي يتولاّها لسليمان .

فلمّا تناهى الخبرُ إلى ابن أوْس رحل من الشمّاسيّة ، فصار في رَقّةِ البَرْداء على دجْلَة ، فأقام بها أياماً حتى اجتمع إليه مَنْ تفرّق من أصحابه ، ثم رحل فنزل النَّهروان ؛ فلم يزل بها مقيماً . وقد كان كتب إلى بايكباك وصالح بن وصيف يعرِض عليهما نفسه ، ويشكو إليهما ما نزل به ؛ فلم يجد عندهما شيئاً مما قصد ؛ وقد كان محمد بن عيسى بن عبد الرحمن مقيماً بسامرّا لينهي أمورَ سليمان ، وكان كارهاً لابن أوْس ، منحرفاً عنه . وكان ابن أوْس مضطرب الأمر لسوء مَحْضر محمد بن عيسى الكاتب ؛ فلما انقطعت عن ابن أوس وأصحابه المادّة ، تعبّثوا بأهل القُرى والسابلة ، وأكثروا الغارات والنهب ، ورحل حتى نزل النّهروان .

فذُكِر عن بعض مَنْ قصدوه لينتهبوه ، فذكّرهم المعاد ، وخوّفهم الله أنهم ردّوا عليه أن قالوا له : إن كان النهب والقتل جائزاً في مدينة السلام ؛ وهي قبّة الإسلام ، ودار عز السلطان ، فما استنكارُ ذلك في الصحاري والبراري ! ثم رحل ابنُ أوس عن النَّهروان بعد أن أثّر في تلك الناحية آثاراً قبيحة ، وأخذ أهلَ البلاد بأداء الأموال ، وحمل منها الطعام في السفن في بطن النّهروان إلى إسكاف بني جنيد لبيعه هناك .

وكان محمد بن المظفّر بن سيسل بالمدائن ، فلمّا بلغه مصيرُ ابنِ أوس إلى النَّهروان صيّر إقامته بالنّعمانية من عمل الزوابي خوفاً على نفسه منه لحضور أبيه كان في يوم الوقعة .

فذُكِر عن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ـ وعبرتا ضيعتُه ـ أنّ وكيله انصرف عنها هارباً بعد أن أدّى إلى ابن أوس تحت العذاب وخوف الموت قريباً من ألف وخمسمائة دينار ؛ ولم يزل ابن أوس مقيماً هناك ، يقرّب ويباعد ، ويقبض ويبسط ، ويشتد ويلين ، ويرهب ؛ حتى أتاه كتاب بايكباك بولاية طريق خراسان من قِبَله ، فكان من وقت خروجه من مدينة السلام إلى وقت ورود الكتاب عليه بالولاية شهران وخمسة عشر يوماً .

وذُكر عن بعض ولد عاصم بن يونس العِجليّ أن أباه كان يتولّىٰ ضياعاً للنوشريّ بناحية طريق خُراسان ، وأنه كتب إلى النوشريّ يذكر ما عاين من قُوّة عسكر ابن أوس وظاهر عدتهم ، ويشير بأن يذكر ذلك لبايكباك ، ويصف خلاء طريق خُراسان من سلطان يتولّاه ويحوط أهلَه ، وأنّ هذا عسكر مشْحَنٌ بالرّجال والعُدّة والعتاد ، مقيم في العمل ، وأن النوشري ذكر ذلك لبايكباك ، وأشار عليه بتوليته طريق خراسان ، وتخفيف المؤنة عن السلطان ، فقبِل ما أشار به عليه ، وأمر بكتُبه فكتبت ، ووَلّي طريق خراسان في ذي القعدة من هذه السنة ـ وهي سنة خمس وخمسين ومائتين ـ وكان موسى خليفة مساور بن عبد الحميد الشاري مقيماً بالدَّسكَرَة ونواحيها في زهاء ثلاثمائة رجل ، قد ولّاه مُساور ما بين حُلوان إلى السوس على طريق خُراسان وبطن جُوخى وما قرب ذلك من طساسيج السواد .

وفيها أمر المهتدي بإخراج القِيان والمغنين والمغنيات من سامُرّا ونفيهم منها إلى بغداد ؛ بعد أمرٍ كان قد تقدّم من قبيحة في ذلك قبل أن ينزل بابنها ما نزل ، وأمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطَرْد الكلاب وإبطال الملاهي وردّ المظالم ، وجلس لذلك للعامة ، وكانت ولايته والدّنيا كلها من أرض الإسلام مفتونة .

وفيها شخص موسى بن بغا ومَنْ معه من الموالي وجند السلطان من الرّيّ وانصرف مُفلح عن طبرستان بعد أن دخلها ، وهزم الحسن بن زيد ، وأخرجه عنها إلى أرض الديلم .

ذكر الخبر عن شخوصه عنها :

ذُكِر أنّ السبب في ذلك أنّ قبيحة أمّ المعتزّ ، لمّا رأت من الأتراك اضطراباً ، وأنكرت أمرَهم ، كتبت إلى

موسى بن بغا تسأله القدومَ إلى ما قِبَلها ، وأمّلت وروده عليها قبل حدوث ما حدث عليها وعلى ابنها المعتزّ ، فعزم موسى على الانصراف إليها ، وكان ورودُ كتابها عليه ومفُلح بطبرستان ، فكتب موسى إلى مفلح يأمره بالانصراف إليها وهو بالرّيّ ، فحدّثني بعض أصحابنا من أهل طَبرستان ، أنّ كتاب موسى ورد على مُفلح بذلك ، وقد توجّه نحو أرض الدَّيْلم في طلب الحسن بن زيد الطالبيّ . فلما ورد عليه الكتابُ انصرف راجعاً إلى حيث توجه منه ، فعظم ذلك على قوم كانوا معه من رؤساء أهل طَبَرِستان ممن كان هارباً قبل مقدم مُفلح عليهم من الحسن بن زيد ، لِمَا كانوا قد رجوْا من مقدمه عليهم وكفايتهم أمرَ الحسن بن زيد والرجوع إلى منازلهم وأوطانهم ؛ وذلك أنّ مفلحاً كان يعدُهم اتّباع الحسن بن زيد حيث توجّه حتى يظفر به أو يُخْتَرَم دونه ، ويقول لهم ـ فيما ذكر لي ـ : لو رميتُ قلنسوتي في أرض الدّيلم ما اجترأ أحد منهم أن يدنُوَ منها . فلما رأى القوم انصرافَه عن الوجه الذي توجّه له من غير عسكر للحسن بن زيد ولا أحد من الديلم صدّه ، سألوه ـ فيما ذكر لي ـ عن السبب الذي صَرَفه عما كان يعدُهم به من اتّباع ابن زيد ، وجعلوا يكلمونه ـ فيما أخبـرت ـ وهو كالمسبوت لا يجيبهم بشيء ؛ فلما أكثروا عليه قال لهم : ورد عليّ كتاب الأمير موسى بعزمةٍ منه ألّا أضع كتابه من يدي بعدما يصل إليّ حتى أقبِلَ إليه . وأنا مغموم بأمركم ؛ ولكن لا سبيل إلى مخالفة الأمير . فلم يتهيّأ لموسى الشخوص من الرّيّ إلى سامُرّا حتى وافاه الكتاب بهلاك المعتزّ وقيام المهتدي بعده بالأمر ، ففثأه ذلك عمّا كان عزم عليه من الشخوص ، لفوته ما قدّر إدراكه من أمر المعتزّ .

ولّما وردتْ عليه بيعة المهتدي ، امتنع أصحابه عليه من بيعته ، ثم بايعوا . فورد خبر بيعتهم سامُرّا لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان من هذه السنة .

ثم إنّ المواليَ الذين في عسكر موسى بلغهم ما استخرج صالح بن وصيف من أموال الكتّاب وأسباب المعتزّ والمتوكل ، فشحُّوا بذلك على المقيمين بسامُرّا ؛ فدعوا موسى إلى الانصراف بهم إلى سامُرّا .

وقدم مفلح على موسى بالرّيّ تاركاً طبرستان على الحسن بن زيد ، فذكر عن القاشانيّ أنه قال : كتب إليّ ابن أخي من الرّيّ يذكر أنه لقي مفلحاً بالرّيّ ، فسأله عن سبب انصرافه فذكر أن الموالي قد أبوا أن يقيموا ، وأنهم إذا انصرفوا لم يُغنِ مقامه شيئاً .

ثم إن موسى افتتح خراج سنة ست وخمسين ومائتين يوم الأحد مستهلّ شهر رمضان سنة ستٍّ وخمسين ومائتين ، فاجتنى ـ فيما ذكر ـ في يوم الأحد قدر خمسمائة ألف درهم ، فاجتمع أهل الريّ ، فقالوا : أعزّ الله الأمير ! إنك تزعم أنّ الموالي يرجعون إلى سامُرّا لما يقدّرونه من كثرة العطاء هناك ، وأنت وأصحابُك في أكثر وأوسع مما القوم هناك فيه ؛ فإن رأيتَ أن تسدّ هذا الثغر ، وتحتسب في أهله الأجر والثواب ، وتلزمنا من خراجنا في خاصِّ أموالنا لمن معك ما ترى أن نحتمله فعلت . فلم يُجبهم إلى ما سألوا ، فقالوا : أصلح الله الأمير ! فإذا كان الأمير عزم على تركنا ، والانصراف عنا ، فما معنى أخذنا بالخراج لسنة لم نبتدىء بعمارتها ؛ وأكثر غلة سنة خمس وخمسين ومائتين ، التي قد أخذ الأمير خراجها في الصحاري لا يمكننا الوصول إليها إن رحل الأمير عنا ! فلم يلتفت إلى شيء مما وصفوه له ، وسألوه إياه .

واتصل خبرُ انصرافه بالمهتدي ، فكتب إليه في ذلك كتباً كثيرة ، لم تؤثر أثراً . فلما انتهى إليه قفول موسى من الرّيّ ، ولم تغن الكتب شيئاً وجّه رجلين من بني هاشم ، يقال لأحدهما عبد الصمد بن موسى ، ويعرف

الآخر بأبي عيسى يحيى بن إسحاق بن موسى بن عيسى بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، وحمّلا رسالة إلى موسى وإلى من ضمّ عسكره من الموالي ، يصدقهم فيها عن الحال بالحضْرة وضيق الأموال بها ، وما يُحاذر من ذهاب ما يخلفونه وراء ظهورهم ، وغلبة الطالبين عليه واتساع آثارهم إلى ناحية الجبل . فشخص بذلك الهاشميان في جماعة من الموالي وأتباعهم من الديلم، وأقبل موسى ومن معه، وصالح بن وصيف في ذلك يعظم على المهتدي انصرافه ، وينسبه إلى المعصية والخلاف ، ويبتهل عليه في أكثر ذلك ، ويبرأ إلى الله من فعله .

فذكر أن كتاب صاحب البريد بهَمَذَان لمّا ورد على المهتدي بفصُول موسى عنها ، رفع المهتدي يديه إلى السماء ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : اللهمّ إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بُغا وإخلاله بالثّغر وإباحته العدوّ ؛ فإني قد أعذرت إليه فيما بيني وبينه . اللهمّ تولّ كيد مَنْ كايد المسلمين ، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا ، اللهم إني شاخص بنيّتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصراً لهم ودافعاً عنهم . اللهمّ فآجرْني بنيتي إذ عدمتُ صالِحَ الأعوان ! ثم انحدرتْ دموعه يبكي .

وذكر عن بعض من حضر المهتدي في بعض مجالسه التي يقول فيها هذا القول ، وحضره سليمان بن وهب ، فقال : أيأمرني أميرُ المؤمنين أن أكتب إلى موسى بما أسمع منه ؟ فقال له : نعم ، اكتب بما تسمعُ مني ؛ وإن أمكنك أن تنقشه في الصخر ، فافعل . فلقيه الهاشميان في الطريق ولم يُغنيا شيئاً ، وضجّ الموالي ، وكادوا يثبون بالرّسل ، ورد موسى في جواب الرّسالة يعتذر بتخلّف من معه عن الرجوع إلى قوله دون ورود باب أمير المؤمنين ، وأنه إن رام التخلف عنهم لم يأمنهم على نفسه ، ويحتجّ بما عاين الرّسل الموجهون إليه . فورد الرسل بذلك ، وأوفد مع الرسل موسى وفداً من عسكره ، فوافوا سامرّا لأربع خلوْن من المحرّم سنة ست وخمسين ومائتين .

وفي هذه السنة فارق كنجور عليَّ بن الحسين بن قريش ، وكان قد نُفِيَ أيام المعتز إلى فارس ، فوكل به عليّ بن الحسين ، وحبسه ؛ فلما أراد عليّ بن الحسين محاربَة يعقوب بن الليث أخرجه من الحبس ، وضمّ إليه خيلاً ورجالاً ، فلما انهزم الناس عن عليّ بن الحسين لحق كنجور بناحية الأهواز ، فأثّر في ناحية رامهرمز أثراً ، ثم لحق بابن أبي دُلف ، فوافاه بهمَذان ، وأساء السيرة في أسباب وصيف وضياعه ووكلائه في تلك الناحية ، ثم لحق بعد ذلك بعسكر موسى . فلما أقبل موسى فيمنْ ضمه العسكر ، بلغ ذلك صالحاً ، فكتب عن المهتدي في حمل كنجور إلى الباب مقيّداً ، فأبى ذلك الموالي ، ثم لم تزل الكتب تختلف فيه إلى أن نزل العسكر القاطول . ثم ظهر أن صالحاً قعد لمراغمته ، وأنّ موسى ترحّل إلى سامرّا على المباينة لصالح ومن مال إليه ، ولحق بايكباك بعسكر موسى ، وأقام موسى هناك يومين . ووجّه المهتدي إليه أخاه إبراهيم لأمه في أمر كنجور يعلِمه أنّ الموالي بسامرّا قد أبوْا أن يقارّوا على دخول كنجور ، ويأمره بتقييده وحمله إلى مدينة السلام ؛ فلم يتهيأ في ذلك ما قدّره صالح ، وكان جوابهم أن قالوا : إذا دخلنا سامرّا امتثلنا ما أمر به أمير المؤمنين في كنجور وغيره .

خروج أول علويّ بالبصرة

وللنصف من شوّال من هذه السنة ، ظهر في فُرات البصرة رجل زعم أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عليّ بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، وجمع إليه الزّنج الذين كانوا يكسحون السِّباخَ ، ثم عبر دِجلة ، فنزل الدِّيناريّ .

ذكر الخبر عن أمره والسبب الذي بعثه على الخروج هنالك :

وكان اسمه ونسبه ـ فيما ذُكر ـ عليّ بن محمد بن عبد الرحيم ، ونسبهُ في عبد القَيْس ، وأمه قرّة ابنة عليّ بن رحيب بن محمد بن حكيم ، من بني أسد بن خزيمة ، من ساكني قرية من قرى الرّي ، يقال لها وَرْزَنين ، بها مولده ومنشؤه ؛ فذُكر عنه أنه كان يقول : جدّي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن عليّ بن الحسين . فلما قُتل زيد هرب فلحق بالرّيّ ، فلجأ إلى وَرْزَنين ، فأقام بها . وإن أبا أبيه عبد الرحيم رجلٌ من عبد القيس ، كان مولده بالطالقان ، وأنه قدم العراق فأقام بها ، واشترى جارية سنديّة ،فأولدها محمداً أباه ؛ فهو عليّ بن محمد هذا ، وأنه كان متصلاً قبل بجماعة من آل المنتصر ؛ منهم غانم الشطرنجيّ وسعيد الصغير ويُسُر الخادم ؛ وكان منهم معاشه ومن قوم من أصحاب السلطان وكتّابه يمدحهم ويستميحهم بشعره .

ثم إنه شخص ـ فيما ذُكر ـ من سامرّا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادّعى بها أنه عليّ بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب ، ودعا الناس بهجر إلى طاعته ، واتّبعه جماعة كثيرة من أهلها ، وأبته جماعة أخر ؛ فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين أَبَوْهُ عصبية قُتِلت بينهم جماعة ، فانتقل عنهم لما حدث ذلك إلى الأحساء ، وضوى إلى حيّ من بني تميم ثم من بني سعد ، يقال لهم بنو الشّماس ؛ فكان بينهم مقامه . وقد كان أهل البحرين أحلُّوه من أنفسهم محلّ النبيّ ـ فيما ذكر ـ حتى جُبيَ له الخراج هنالك ونفذ حكمه بينهم ، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه ووتَر منهم جماعة كثيرة ، فتنكّروا له ، فتحوّل عنهم إلى البادية .

ولما انتقل إلى البادية صحبه جماعة من أهل البحرين ، منهم رجل كيّال من أهل الأحْسَاء ، يقال له يحيى بن محمد الأزرق المعروف بالبَحْرانيّ ، مولى لبني دارم ويحيى بن أبي ثعلب ، وكان تاجراً من أهل هَجَر ، وبعضُ موالي بني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع ؛ وهو قائد جيشه ، ثم كان ينتقل في البادية من حيّ إلى حيّ .

فذكر عنه أنه كان يقول : أوتيت في تلك الأيام آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس ؛ منها ـ فيما ذكر عنه ـ أنه قال : إني لُقِّيتُ سُوَراً من القرآن لا أحفظها ، فجرى بها لساني في ساعة واحدة ، منها سبحان ، والكهف ، وص . قال : ومن ذلك أني ألقيت نفسي على فراشي ، فجعلت أفكر في الموضع الذي أقصد له ، وأجعل مقامي به ؛ إذ نَبَتْ بي البادية ، وضقت بسوء طاعة أهلها ؛ فأظلتْني سحابة ، فبرقت ورعدت ، واتّصل صوت الرَّعد منها بسمعي ، فخُوطبتُ فيه ، فقيل : اقصد البصرة ، فقلت لأصحابي وهم يكنُفونني : إني أمِرت بصوت هذا الرّعد بالمصير إلى البصرة .

وذكر أنه عند مصيره إلى البادية أوْهم أهلها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة ، فاختدع بذلك قوماً منهم ، حتى اجتمع بها منهم جماعة كثيرة ، فزحف بهم إلى موضع بالبحرين يقال له الرّدْم ، فكانت بينهم وقعة عظيمة ، كانت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه ، قُتلوا فيها قتلاً ذريعاً ، فنفرت عنه العرب وكرهتْه ، وتجنّبت صحبته . فلما تفرّقت عنه العرب ، ونبت به البادية ، شخص عنها إلى البصرة ، فنزل بها في بني ضُبيعة ، فاتّبعه بها جماعة ؛ منهم عليّ بن أبان المعروف بالمهلبيّ وأخواه محمد والخليل وغيرهم .

وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين ، ومحمد بن رجاء الحضاريّ عامل السلطان بها ، ووافق ذلك فتنةُ أهل البصرة بالبلالية والسعدية ، فطمع في أحد الفريقين أن يميل إليه ، فأمر أربعة نفر من أصحابه ، فخرجوا بمسجد عبّاد ، أحدهم يسمى محمد بن سلْم القصاب الهجريّ ، والآخر بُرَيش القُرَيعيّ ، والثالث عليّ الضرّاب ، والرابع الحسين الصيدنانيّ ؛ وهم الذين كانوا صحبوه بالبحرين ، فدعوْا إليه ، فلم يجبه من أهل البلد أحد ، وثاب إليهم الجند ، فتفرّقوا ولم يظفر بأحد منهم . فخرج من البصرة هارباً ، فطلبه ابن رجاء فلم يقدِرْ عليه ، وأُخْبر ابن رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه ، فأخذهم فحبسهم ؛ فكان فيمن حبس يحيى بن أبي ثعلب ومحمد بن الحسن الأياديّ وابن صاحب الزَّنْج عليّ بن محمد الأكبر وزوجتُه أمّ ابنه ومعها ابنة له وجارية حامل ، فحبسهم ومضى هو لوجهه يريد بغداد ، ومعه من أصحابه محمد بن سلْم ويحيى بن محمد وسليمان بن جامع وبُريش القريعيّ . فلما صاروا بالبَطيحة نذِر بهم بعض موالي الباهليّين ، كان يلي أمر البَطيحة ، يقال له عُمَير بن عمار ، فأخذهم وحَملهم إلى محمد بن أبي عَوْن ، وهو عامل السلطان بواسط ، فاحتال لابن أبي عَوْن حتى تخلّص هو وأصحابه من يده ، ثم صار إلى مدينة السلام ، فأقام بها حَوْلاً ، وانتسب فيها إلى أحمد بن عيسى بن زيد ؛ وكان يزعم أنه ظهر له أيام مقامه بها آيات ، وعرف ما في ضمائر أصحابه ، وما يفعله كلّ واحد منهم ؛ وأنه سأل ربه بها آيةً أن يعلم حقيقة أمره ، فرأى كتاباً يُكتب له ، وهو ينظر إليه على حائط ، ولا يرى شخص كاتبه .

وذكر عن بعض تُبَّاعه أنه بمقامه بمدينة السلام استمال جماعةً ، منهم جعفر بن محمد الصُّوحانيّ ـ كان ينتسب إلى زيد بن صُوحان ـ ومحمد بن القاسم وغلاما يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان : مشرق ورفيق ؛ فسمّى مشرقاً حمزة وكنّاه أبا أحمد ، وسمّى رفيقاً جعفراً وكناه أبا الفضل . ثم لم يزل عامة ذلك بمدينة السلام حتى عُزِل محمد بن رجاء عن البصرة ، فخرج عنها ، فوثب رؤساء الفتنة من البلاليّة والسعدية ، ففتحوا المحابس ، وأطلقوا مَنْ كان فيها ؛ فتخلّصوا فيمن تخلّص . فلما بلغه خلاصُ أهله ، شخص إلى البصرة ، فكان رجوعه إليها في شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين ، ومعه عليّ بن أبان ـ وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام ـ ويحيى بن محمد ، ومحمد بن سلم ، وسليمان بن جامع ، وغلاما يحيى بن عبد الرحمن : مشرق ورفيق ؛ وكان يحضر هؤلاء الستة رجلٌ من الجند يكنى أبا يعقوب ، ولقّب نفسه بعد ذلك بجُرْبان ، فساروا جميعاً حتى وافوْا برنخل ، فنزلوا قصراً هنالك يعرف بقصر القرشيّ ، على نهر يعرف بعمود ابن المنجم ؛ كان بنو موسى بن المنجم احتفروه ؛ وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع السباخ ، وأمر أصحابه أن يَنْحلوه ذلك ، فأقام هنالك .

فذُكر عن ريحان بن صالح أحدُ غلمان الشُّورَجيّين ـ وهو أوّل من صحبه منهم ـ أنه قال : كنت موكلاً بغلمان مولاي ، أنقل الدقيق إليهم من البصرة ، وأفرّقه فيهم ، فحملت ذلك إليهم كما كنت أفعل ، فمررت به وهو مقيم ببرنخل في قصر القرشيّ ، فأخذني أصحابُه ، فصاروا بي إليه ، وأمروني بالتسليم عليه بالإِمْرة ، ففعلت ذلك ، فسألني عن الموضع الذي جئتُ منه ، فأخبرته أني أقبلت من البصرة ، فقال : هل سمعتَ لنا بالبصرة خبراً ؟ قلت : لا ، قال : فما خبر الزينبيّ ؟ قلت : لا علم لي به ، قال : فخبر البلاليّة والسعديّة ؟ قلت : ولا أعرف أخبارهم أيضاً ، فسألني عن أخبار غلمان الشُّورجيّين وما يجري لكلّ غلام منهم من الدقيق والسوِيق والتمر وعمّن يعمل في الشورج من الأحرار والعبيد ، فأعلمته ذلك ، فدعاني إلى ما هو عليه ،

فأجبته ، فقال لي : احتَلْ فيمن قدرت عليه من الغلمان ، فأقبلْ بهم إليّ . ووعدني أن يقوّدني على من آتيه به منهم ، وأن يحسن إليّ ؛ واستحلفني ألاّ أعلِم أحداً بموضعه ، وأن أرجع إليه . فخلّى سبيلي ، فأتيت بالدقيق الذي معي الموضع الذي كنت قصدته به ، وأقمت عنده يومي ، ثم رجعت إليه من غد ، فوافيته وقد قدم عليه رفيق غلام يحيى بن عبد الرحمن ، وكان وُجِّه إلى البصرة في حوائج من حوائجه ، ووافاه بشبل بن سالم ـ وكان من غلمان الدّباسين ـ وبحريرة كان أمره بابتياعها ليتخذها لواء ؛ فكتب فيها بحمرة وخضرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] ، إلى آخر الآية ، وكتب اسمه واسم أبيه ، وعلّقها في رأس مُرْديّ ، وخرج في السحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

فلما صار إلى مؤخّر القصر الذي كان فيه ، لقيه غلمان رجل من الشورجيين يعرف بالعطار ، متوجّهين إلى أعمالهم ، فأمر بأخذهم فأخِذوا ، وكُتف وكيلهم ، وأخذ معهم ، وكانوا خمسين غلاماً ، ثم صار إلى الموضع الذي يعمل فيه السّنائيّ ، فأخذ منه خمسمائة غلام ، فيهم المعروف بأبي حُدَيد ، وأمر بوكيلهم فأخِذ معهم مكتوفاً ، وكانوا في نهر يعرف بنهر المكاثر ، ثم مضى إلى موضع السيرافيّ ، فأخذ منه خمسين ومائة غلام ، فيهم زُرَيق وأبو الخنجر . ثم صار إلى موضع ابن عطاء، فأخذ طريقاً وصبيحاً الأعسر وراشداً المغربيّ وراشداً القرماطيّ ، وأخذ معهم ثمانين غلاماً . ثم أتى موضع إسماعيل المعروف بغلام سَهْل الطحان ، ثم لم يزل يفعل ذلك كذلك في يومه ، حتى اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيّين ، ثم جمعهم وقام فيهم خطيباً ، فمنّاهم ووعدَهم أن يقودهم ويرأسهم ، ويملّكهم الأموال ، وحلف لهم الأيمان الغِلاظ ألاّ يغدر بهم ، ولا يخذلَهم ، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلاّ أتى إليهم . ثم دعا مواليَهم ، فقال : قد أردت ضرب أعناقكم لِمَا كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم ما لا يُطيقون ، فكلمني أصحابي فيكم ، فرأيت إطلاقكم ، فقالوا : إنَّ هؤلاء الغلمان أُبّاق ، وهم يهربُون منك فلا يُبقون عليك ولا علينا ، فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا . فأمر غلمانهم فأحضَروا شَطْباً ثم بَطَح كلُّ قوم مولاهم ووكيلهم ، فضرب كلّ رجل منهم خمسمائة شَطْبة ، وأحلفهم بطلاق نسائهم ألاّ يُعلموا أحداً بموضعه ، ولا بعدد أصحابه ، وأطلقهم . فمضوْا نحو البصرة .

ومضى رجل منهم يقال له عبد الله ، ويعرف بكَرِيخَا ، حتى عَبَر دُجَيْلاً ، فأنذر الشورجيّين ليحرِزوا غلمانهم ، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام .

ثم سار بعدما صلّى العصر حتى وافى دُجَيلاً ، فوجد سفن سَمَاد تدخل في المدّ، فقدّمها ، فركب فيها ، وركب أصحابُه حتى عبروا دُجَيلاً ، وصاروا إلى نهر ميمون ، فنزل المسجد الذي في وسط السوق الشارع على نهر ميمون ، وأقام هناك . ولم يزل ذلك دأبه ، يجتمع إليه السودان إلى يوم الفِطْر . فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة الفطر فاجتمعوا ، وركز المرديّ الذي عليه لواؤه ، وصلّى بهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ، ويملّكهم العبيد والأموال والمنازل ، ويبلغ بهم أعلَى الأمور ، ثم حلف لهم على ذلك . فلما فرغ من صلاته وخطبته ، أمر الذين فهموا عنه قولَه أن يُفهموه من لا فهم له من عجمهم ، لتطيب بذلك أنفسُهم . ففعلوا ذلك ، ودخل القصر .

---

(١) سورة التوبة ١١١ .

فلمّا كان بعد يوم قصد نهر بور ، فوافى جماعة من أصحابه هناك الحميريّ في جماعة ، فدفعوهم حتى أخرجوهم إلى الصحراء ، فلحقهم صاحب الزّنج فيمن معه ، فأوقع بالحميريّ وأصحابه ، فانهزموا حتى صاروا إلى بطن دِجلة . واستأمن إليه رجل من رؤساء الزّنْج يكنى بأبي صالح ، يعرَف بالقصير ، في ثلاثمائة من الزّنج ، فمنّاهم ووعدهم .

فلما كثر مَن اجتمع إليه من الزّنج قوَّد قواده وقال لهم : كلّ مَنْ أتى منكم برجل فهو مضموم إليه . وقيل إنه لم يقوّد قوّاده إلاّ بعد مواقعة الخَوَل ببَيَان ومصيره إلى سَبَخة القَنْدَل .

وكان ابنُ أبي عَون نقِل عن ولاية واسط إلى ولاية الأبُلّة وكُور دِجلة ، فذُكِر أنه انتهى إليه في اليوم الذي قوّد فيه قوّاده أن الحميريّ وعَقَيلاً مع خليفةِ ابن أبي عون المقيم كان بالأبُلّة، قد أقبلوا نحوه، ونزلوا نهر طير، فأمر أصحابه بالمصير إلى الِرهْزيقية وهي في مؤخّر الباذاورد ، فصار إليها في وقت صلاة الظهر ، فصلوا بها ، واستعدُّوا للقتال ، وليس في عسكره يومئذ إلاّ ثلاثة أسياف : سيفُه ، وسيف عليّ بن أبان ، وسيف محمد بن سلم . ونهض بأصحابه فيما بين الظهر والعصر راجعاً نحو المحمديّة ، وجعل عليّ بن أبان في آخر أصحابه ، وأمره أن يعرف خبر مَنْ يأتيه من ورائه، وتقدّم في أوائل الناس حتى وافى المحمديّة ، فقعد على النهر ، وأمر الناس فشربوا منه ، وتَوَافَى إليه أصحابُه ، فقال له عليّ بن أبان : قد كنا نرى من ورائنا بارقةً ونسمع حسّ قوم يتبعوننا ، فلسنا ندري : أرجعوا عنا أم هم قاصدون إلينا ؟ فلم يستتمّ كلامه حتى لحق القوم ، وتنادى الزنج السلاح ، فبدر مفرّج النوبيّ المكنى بأبي صالح ، وريحان بن صالح ، وفتح الحجام ـ وكان فَتْح يأكل ـ فلما نهض تناول طبقاً كان بين يديه ، وتقدّم أصحابه ، فلقيه رجل من الشورجيّين ، يقال له بلبل ، فلمّا رآه فَتْح حمل عليه وحذَفَه بالطبق الذي كان في يده ، فرمى بلبل بسلاحِه ، وولّى هارباً ، وانهزم أصحابه ، وكانوا أربعة آلاف رجل ، فذهبوا على وجوههم ، وقُتِل مَنْ قُتِل منهم ، ومات بعضهم عطشاً ، وأُسِرَ منهم قوم ، فأتِيَ بهم صاحب الزّنج ، فأمر بضرب أعناقهم فضربت ، وحملت الرؤوس على بغال كان أخذَها من الشورجيّين ، كانت تنقل الشورج ؛ ومضى حتى وافى القادسيّة ؛ وذلك وقت المغرب ، فخرج من القرية رجل من موالي بعض الهاشميين على أصحابه ، فقتل رجلاً من السودان ، فأتاه الخبر ، فقال له أصحابه : ائذن لنا في انتهاب القرية وطلب قاتل صاحبنا ، فقال : لا سبيلَ إلى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسألهم أن يدفعوه إلينا ؛ فإن فعلوا وإلاّ ساغ لنا قتالُهم .

وأعجلهم المسير ، فصاروا إلى نهر ميمون راجعين ، فأقام في المسجد الذي كان أقام فيه في بدأته وأمر بالرؤوس المحمولة معه فنُصبت ، وأمر بالأذان أبا صالح النوبيّ فأذّن ، وسلم عليه بالإمْـرَة ، فقام فصلى بأصحابه العشاء الآخرة ، وبات ليلته بها ، ثم مضى من الغد حتى مرّ بالكرخ فطواها ، وأتى قرية تعرف بجُبّى في وقت صلاة الظهر ، فعبر دُجَيلاً من مخاضَة دلّ عليها ، ولم يدخل القرية ، وأقام خارجاً منها ، وأرسل إلى مَنْ فيها ، فأتاه كبراؤهم وكبراء أهل الكَرْخِ ، فأمرهم بإقامة الأنزال له ولأصحابه فأقيم له ما أراد ، وبات عندهم ليلتَه تلك ، فلما أصبح أهدى له رجل من أهل جُبَّى فرساً كُميتاً ، فلم يجد سَرْجاً ولا لجاماً ، فركبه بحبل وسَنَفَه بليف ، وسار حتى انتهى إلى المعروف بالعباسيّ العتيق ، فأخذ منه دليلاً إلى السِّيب ، وهو نهر القرية المعروفة بالجعفريّة ، ونذِر به أهل القرية ، فهربوا عنها ، ودخلها فنزل دار جعفر بن سليمان وهي في السوق ،

وتفرّق أصحابُه في القرية ، فأتوْه برجل وجدُوه ، فسأله عن وكلاء الهاشميّين ، فأخبره أنهم في الأجمة ، فوجّه الملقب بجُرْبان ، فأتاه برئيسهم وهو يحيى بن يحيى المعروف بالزبيريّ أحد موالي الزياديّين ، فسأله عن المال ، فقال : لا مال عندي ، فأمر بضرب عنقه ، فلما خاف القتل أقرّ بشيء قد كان أخفاه ، فوجّه معه ، فأتاه بمائتي دينار وخمسين ديناراً وألف درهم ؛ فكان هذا أول ما صار إليه ، ثم سأله عن دوابّ وكُلاء الهاشميّين فدله على ثلاثة براذين : كُميت ، وأشقر ، وأشهب ؛ فدفع أحدها إلى ابن سلْم ، والآخر إلى يحيى بن محمد ، وأعطى مُشرقاً غلام يحيى بن عبد الرحمن الثالث .

وكان رفيق يركب بغلاً كان يحمل عليه الثَّقَل ، ووجد بعض السودان داراً لبعض بني هاشم فيها سلاح ، فانتهبوه ، فجاء النوبيّ الصغير بسيف ، فأخذه صاحب الزَّنج ، فدفعه إلى يحيى بن محمد ، فصار في أيدي الزَّنج سيوفٌ وبالات وزقايات وتِراس ، وبات ليلته تلك بالسِّيب ؛ فلما أصبح أتاه الخبر أن رُميساً والحميريّ وعَقيلا الأبُلّي قد وافوا السِّيب ؛ فوجّه يحيى بن محمد في خمسمائة رجل ، فيهم سليمان وريحان بن صالح وأبو صالح النوبيّ الصغير ، فلقوا القوم فهزموهم ، وأخذوا سُمَيريّة وسلاحاً ، وهرب مَنْ كان هنالك ، ورجع يحيى بن محمد فأخبره الخبر ، فأقام يومه ، وسار من غد يريد المذار ، بعد أن اتّخذ على أهل الجعفرية ألاّ يقاتلوه ، ولا يعينوا عليه أحداً ، ولا يستُروا عنه . فلما عبر السّيب صار إلى قرية تعرف بقرية اليهود شارعة على دِجْلة ، فوافق هنالك رُمَيْساً في جَمْع ، فلم يزل يقاتلهم يومه ذلك ، وأسرَ من أصحابه عِدّة ، وعقر منهم جماعة بالنُّشاب . وقتِل غلام لمحمد بن أبي عون كان مع رُمَيْس ، وغرقت سميريّة كان فيها ملاّحُها ، فأخِذ وضربت عنقه ، وسار من ذلك الموضع يريد المَذَار . فلمّا صار إلى النهر المعروف بباب مداد جاوزه حتى أصحر ، فرأى بُستاناً ، وتلاًّ يعرف بجبل الشياطين ، فقصد التلّ فقعد عليه ، وأثبت أصحابه في الصحراء ، وجعل لنفسه طليعة .

فذُكر عن شبل أنه قال : أنا كنت طليعته على دِجْلة ، فأرسلت إليه أخبره أن رُميساً بشاطىء دِجْلة يطلب رجُلاً يؤدِّي عنه رسالة ، فوجّه إليه عليّ بن أبان ومحمد بن سلم وسليمان بن جامع ، فلما أتوْه قال لهم : اقرؤوا على صاحبكم السلام ، وقولوا له : أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض ؛ لا يعرض لك أحدٌ ، واردد هؤلاء العبيد على مواليهم ، وآخذ لك عن كلّ رأسٍ خمسة دنانير . فأتوْه فأعلموه ما قال لهم رُميس ، فغضب من ذلك وآلى ليرجعنّ فليبقرنّ بطن امرأة رُميس ، وليحرقنّ داره ، وليخوضنّ الدماء هنالك . فانصرفوا إليه ، فأجابوه بما أمِرُوا به ، فانصرف إلى مقابل الموضع الذي هو به من دِجْلة ، فأقام به ، فوافاه في ذلك اليوم إبراهيم بن جعفر المعروف بالهمْدانيّ ؛ ولم يكن لحق به إلاّ في ذلك الوقت ، وأتاه بكتب فقرأها ، فلما صلى العشاء الآخرة ، أتاه إبراهيم ، فقال له : ليس الرّأي لك إتيان المذار ، قال : فما الرأي ؟ قال : ترجع ، فقد بايع لك أهل عبّادان ومَيَان رُوذان وسليمانان ، وخلّفت جمعاً من البلالية بفوّهة القَنْدل وأبرسان ينتظرونك . فلمّا سمع السودان ذلك من قول إبراهيم مع ما كان رُمَيس عَرَض عليه في ذلك اليوم خافوا أن يكونَ احتال عليهم ليردّهم إلى مواليهم ، فهرب بعضُهم ، واضطرب الباقون . فجاءه محمد بن سلْم فأعلمه اضطرابَهم ، وهرَب مَنْ هرب منهم ، فأمر بجمعهم في ليلته تلك ، ودعا مصلحاً ، وميّز الزّنج من الفراتية . ثم أمر مصلحاً أن يعلمهم أنه لا يردّهم ولا أحداً منهم إلى مواليهم ، وحلف لهم على ذلك بالأيمان الغِلاظ ، وقال : لِيَحُطْ بي منكم جماعة ، فإن أحسّوا مني غدراً فتكُوا بي . ثم جمع الباقين ؛ وهم الفراتيّة والقرماطيّون

والنوبة وغيرهم ممن يفصح بلسان العرب ، فحلف لهم على مثل ذلك ، وضمن ووثّق من نفسه ، وأعلمهم أنه لم يخرج لعَرَض من أعراض الدنيا ، وما خرج إلّا غضباً لله ، ولَمّا رأى ما عليه الناس من الفساد في الدين ، وقال : ها أنا ذا معكم في كلّ حرب ، أشرككم فيها بيدي ، وأخاطر معكم فيها بنفسي . فرضوا ودعوْا له بخير . فلمّا أسحر أمر غلاماً من الشورجيّين يكنى أبا مَنارة ، فنفخ في بوق لهم كانوا يجتمعون بصوته وسار حتى أتى السِّيب راجعاً ، فألفى هناك الحميريّ ورُمَيْساً وصاحب ابن أبي عون ، فوجّه إليهم مشرقاً برسالة أخفاها ، فرجع إليه بجوابها ، فصار صاحب الزّنج إلى النهر ، فتقدم صاحب محمد بن أبي عون ، فسلّم عليه ، وقال له : لم يكن جزاء صاحبنا منك أن تفسد عليه عمَلَه ، وقد كان منه إليك ما قد علمت بواسط ، فقال : لم آت لقتالكم ، فقل لأصحابك يوسّعون لي في الطريق ، حتى أجاوزكم .

فخرج من النَّهر إلى دِجْلة ، ولم يلبَثْ أن جاء الجند ومعهم أهل الجعفريّة في السلاح الشاك ؛ فتقدّم المكتنى بأبي يعقوب المعروف بجُرْبان ، فقال لهم : يا أهل الجعفريّة ، أما علمتم ما أعطيتمونا من الأيْمان المغلّظة ألّا تقاتلونا ، ولا تُعِينوا علينا أحداً ، وأن تعينونا متى اجتاز بكم أحد منا ! فارتفعت أصواتُهم بالنعير والضّجيج ، ورموْه بالحجارة والنّشاب . وكان هناك موضع فيه زُهاء ثلاثمائة زرنوق، فأمر بأخذها فأخذت ، وقرن بعضها ببعض حتى صارت كالشاشات ، وطرحت إلى الماء ، وركبها المقاتلة فلحقوا القوم ، فقال بعضهم : عبر عليّ بن أبان يومئذ قبل أخذ الزَّرانيق سباحة ، ثم جمعت الزَّرانيق ، وعبر الزنج ، وقد زالوا عن شاطىء النهر فوضعوا فيهم السيف ، فقتل منهم خلق كثير ، وأتى منهم بأسرى ، فوبّخهم وخلّى سبيلهم ، ووجه غلاماً من غلمان الشورجيين يقال له سالم يعرف بالزغاويّ ، إلى مَنْ كان دخل الجعفرية من أصحابه ، فردَّهم ، ونادى : ألا برئت الذّمة ممن انتهب شيئاً من هذه القرية ، أو سبى منها أحداً ، فمن فعل ذلك فقد حلّت به العقوبة الموجِعة .

ثم عبر من غربيّ السيّب إلى شرقيّه ، واجتمع أصحابه الرؤساء حتى إذا جاوز القرية بمقدار غَلْوة سمع النعير من ورائه في بطن النهر ، فتراجع الزّنج ، فإذا رُميس والحميريّ وصاحب ابن أبي عون قد وافوْه لَمّا بلغهم حال أهل الجعفرية . فألقى السودان أنفسَهم عليهم ، فأخذوا منهم أربع سُمَيريّات بملّاحيها ومقاتليها ، فأخرجوا السميريّات بمن فيها ، ودعا بالمقاتلة فسألهم ، فأخبروه أن رُميساً وصاحب ابن أبي عون لم يَدَعاهم حتى حملاهم على المصير إليه ، وأنّ أهل القرى حرّضوا رُميساً وضمِنوا له ولصاحب ابن أبي عون مالاً جليلاً ، وضمن له الشورجيّون على ردّ غلمانهم ؛ لكلّ غلام خمسة دنانير ، فسألهم عن الغلام المعروف بالنميريّ المأسور والمعروف بالحجّام ، فقالوا : أما النميريّ فأسير في أيديهم ، وأما الحجام فإن أهل الناحية ذكروا أنه كان يتلصص في ناحيتهم ، ويسفك الدماء ، فضُرِبت عنقه ، وصُلب على نهر أبي الأسد . فلما عرف خبرَهم أمر بضرب أعناقهم ، فضرِبت إلّا رجلاً يقال له محمد بن الحسن البغداديّ ، فإنه حلف له أنه جاء في الأمان ، لم يُشْهِر عليه سيفاً ، ولا نصب له حرباً ، فأطلقه . وحمل الرؤوس والأعلام على البغال ، وأمر بإحراق سفنهم فأحرِقت .

وسار حتى أتى نهر فريد ، فانتهى إلى نهر يعرف بالحسن بن محمد القاضي وعليه مسنّاة تعترض بين الجعفرية ورُستاق القُفْص ، فجاءه قوم من أهل القرية من بني عجْل ، فعرضوا عليه أنفسَهم ، وبذلوا له ما

لديْهم ، فجزاهم خيراً ، وأمر بترك العرض لهم .

وسار حتى أتى نهراً يعرف بباقثا ، فنزل خارجاً من القرية التي على النهر وهي قرية تشرع على دُجيل ، فأتاه أهل الكرخ ، فسلّموا عليه ، ودَعَوْا له بخير ، وأمدُّوه من الأنزال بما أراد . وجاءه رجل يهوديّ خيبريّ يقال له ماندويه فقبّل يده ، وسجَد له ـ زعم ـ شكراً لرؤيته إيّاه ، ثم سأله عن مسائل كثيرة ، فأجابه عنها ، فزعم أنه يجدُ صفته في التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله عن علامات في بدنه ذكر أنه عرفها فيه ، فأقام معه ليلَته تلك يحادثه .

وكان إذا نزل اعتزل عسكره بأصحابه الستة ، ولم يكن يومئذ يُنكر النبيذ على أحد من أصحابه ، وكان يتقدّم إلى محمد بن سلْم في حفظ عسكره ؛ فلما كان في تلك الليلة أتاه في آخر الليل رجلٌ من أهل الكَرْخ ، فأعلمه أن رُمَيْساً وأهل المفتح والقرى التي تتصل بها وعَقيلاً وأهل الأبُلّة قد أتوه ومعهم الدّبيلا بالسلاح الشاك ، وأنّ الحميريّ في جمع من أهل الفُرات وقد صاروا في تلك الليلة إلى قنطرة نهر ميمون ، فقطعوها ليمنعوه العبور . فلمّا أصبح أمر ، فصيح بالزّنج ، فعبروا دُجيلاً ، وأخذ في مؤخّر الكرخ حتى وافى نهر ميمون ، فوجد القنطرة مقطوعة ، والناس في شرقيّ النّهر والسُّمَيْريّات في بطنه ، والدَبيلاَ في السُّمْيريّات ، وأهل القرى في الجريبيّات والمجونحات ؛ فأمر أصحابه بالإمساك عنهم ، وأن يرحلوا عن النهر توقّياً للنُّشاب ، ورجع فقعد على مائة ذراع من القرية ؛ فلمّا لم يروا أحداً يقاتلهم خرج منهم قوم ليعرفوا الخبر ، وقد كان أمر جماعة من أصحابه ، فأتوا القرية ، فكَمَنُوا فيها مخفين لأشخاصهم ؛ فلما أحسوا خروج مَنْ خرج منهم ، شدّوا عليهم ، فأسروا اثنين وعشرين رجلاً ، وسعوا نحو الباقين ، فقتلوا منهم جماعة على شاطىء النهر ، ورجعوا إليه بالرؤوس والأسرى ، فأمر بضرب أعناقهم بعد مناظرة جرتْ بينه وبينهم ، وأمر بالاحتفاظ بالرؤوس ، وأقام إلى نصف النهار ؛ وهو يسمع أصواتهم ، فأتاه رجل من أهل البادية مستأمناً ، فسأله عن غَوْر النهر ؛ فأعلمه أنه يعرف موضعاً منه يُخاض ، وأعلمه أن القوم على معاودته بجمْعهم يقاتلونه ؛ فنهض مع الرَّجل حتى أتى به موضعاً على مقدار مِيل من المحمّدية ، فخاض النهر بين يديه ، وخاض الناس خلفه ، وحمله ناصح المعروف بالرمليّ ، وعبر بالدوابّ ؛ فلما صار في شرقيّ النهر كرّ راجعاً نحو نهر ميمون ؛ حتى أتى المسجد فنزل فيه ، وأمر بالرؤوس فنُصِبت، وأقام يومه ، وانحدر جيش رُميس بجمعه في بطن دُجيل ، فأقاموا بموضع يعرف بأقشَى بإزاء النهر المعروف ببَرد الخيار ، ووجّه طليعة فرجع إليه ، فأخبره بمقام القوم هناك ، فوجّه من ساعته ألفَ رجل ، فأقاموا بسبَخة هناك على فُوّهة هذا النهر ، وقال لهم : إن أتوْكم إلى المغرب ؛ وإلاّ فأعلموني . وكتب كتاباً إلى عَقيل ، يذكره فيه أنه قد بايعه في جماعة من أهل الأبُلّة ، وكتب إلى رُمَيس يذكّره حِلفه له بالسِّيب أنه لا يقاتله ؛ وأنه يُنهي أخبارَ السلطان إليه ، ووجّه بالكتابين إليهما مع بعض الأكرة بعد أن أحلفه أن يوصلهما .

وسار من نهر ميمون يريد السَّبَخَة التي كان هيّأ فيها طليعةً ؛ فلمّا صار إلى القادسية والشيِّفيَا ، سمع هناك نعيراً ، ورأى رمياً ؛ وكان إذا سار يتنكب القرى ؛ فلم يدخلْها ، وأمر محمد بن سَلْم أن يصير إلى الشيفيا في جماعة ؛ فيسأل أهلها أن يُسلموا إليه قاتل الرجل من أصحابه في ممرّه كان بهم ؛ فرجع إليه ، فأخبره أنهم زعموا أنّه لا طاقة لهم بذلك الرّجل لولائه من الهاشميين ومنعهم له ؛ فصاح بالغلمان ، وأمرهم بانتهاب القريتين ،

فانتهب منها مالاً عظيماً ؛ عيناً وَوَرِقاً وجوهراً وحُلِيًّا وأواني ذهب وفضة ، وسبى منها يومئذ غلماناً ونسوة ؛ وذلك أوّلُ سَبْيٍ سُبي ، ووقفوا على دار فيها أربعة عشر غلاماً من غلمان الشورج ، قد سُدّ عليهم باب ؛ فأخذهم وأتِيَ بمولى الهاشميين القاتل صاحبه فأمر محمد بن سلم بضرب عنقه ، ففعل ذلك ، وخرج من القريتين في وقت العصر ، فنزل السَّبَخة المعروفة ببرَد الخيار .

فلما كان في وقت المغرب أتاه أحد أصحابه الستّة ، فأعلمه أن أصحابه ، قد شغلوا بخمور وأنبذة وجدوها في القادسيّة ؛ فصار ومعه محمد بن سلم ويحيى بن محمد إليهم ، فأعلمهم أنّ ذلك مما لا يجوز لهم ، وحرّم النبيذ في ذلك اليوم عليهم ، وقال لهم : إنكم تلاقون جيوشاً تقاتلونهم ، فدعوا شُرب النبيذ والتشاغل به ، فأجابوه إلى ذلك ؛ فلما أصبح جاءه غلام من السودان ، يقال له قاقويه ، فأخبره أن أصحاب رُميس قد صاروا إلى شرقيّ دُجيل ، وخرجوا إلى الشطّ ، فدعا عليّ بن أبان ، فتقدم إليه أن يمضِيَ بالزّنج ، فيوقع بهم ، ودعا مشرقاً ، فأخذ منه إصطرلاباً ، فقاس به الشمس ، ونظر في الوقت ، ثم عبر وعبر الناس خَلْفَه القنطرة التي على النهر المعروف ببرَد الخيار ؛ فلما صاروا في شرقيّه ، تلاحق الناس بعليّ بن أبان ، فوجدوا أصحاب رُميس وأصحاب عَقيل على الشطّ ، والدَّبيلا في السفن يرمون بالنُّشاب ، فحملوا عليهم ؛ فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وهبّتْ ريح من غربيّ دُجيل ، فحملت السفن ، فأدنتها من الشطّ ، فنزل السودان إليها ، فقتلوا مَنْ وجدوا فيها ، وانحاز رُميس ومَنْ كان معه إلى نهر الدير على طريق أقشي ، وترك سفنه لم يحرّكها ليظنّ أنه مقيم ، وخرج عَقيل وصاحب ابن أبي عون إلى دِجلة مبادرَيْن ؛ لا يلويان على شيء .

وأمر صاحب الزَّنْج بإخراج ما في السفن التي فيها الدَّبيلا ؛ وكان مقروناً بعضها ببعض ، فنزل قاقويه ليفتّشها ، فوجد رجلاً من الدَّبيلا ، فحاول إخراجَه فامتنع عليه ، وأهوى إليه بسُرتَى كان معه ؛ فضربه ضربة على ساعده ، فقطع بها عِرقاً من عروقه ، وضربه ضربةً على رجله ، فقطعتْ عصبةً من عصبه ، وأهوى له قاقويه ، فضربه ضربةً على هامته فسقط ، فأخذ بشعره ، واحتزّ رأسه ؛ فأتى به صاحب الزّنج ، فأمر له بدينار خفيف ، وأمر يحيى بن محمد أن يقوِّدَه على مائة من السودان . ثم سار صاحب الزَّنج إلى قرية تعرف بالمهلبي تقابل قَيَّاران ، ورجع السودان الذين كانوا اتّبعوا عَقيلاً وخليفة ابن أبي عون ، وقد أخذ سُميريّة فيها ملّاحان ؛ فسألهم عن الخبر ، فقالوا : اتّبعناهم فطرحوا أنفسهم إلى الشطّ ، وتركوا هذه السميريّة ، فجئنا بها . فسأل الملّاحيْن ، فأخبراه أن عقيلاً حملها على اتباعه قهراً ، وحبس نساءهما حتى اتّبعاه ، وفعل ذلك بجميع مَنْ تبعه من الملّاحين ؛ فسألهما عن سبب مجيء الدّبيلا ، فقالا : إنّ عقيلاً وعدهم مالاً ؛ فتبعوه ؛ فسألهما عن السفن الواقعة بأقشي ، فقالا : هذه سفن رُميس وقد تركها ، وهرب في أوّل النهار ، فرجع حتى إذا حاذاها أمر السودان فعبروا ، فأتوه بها ؛ فأنهبهم ما كان فيها ، وأمر بها فأحرِقت ، ثم صار إلى القرية المعروفة بالمهلّبيّة واسمها تنغت ، فنزل قريباً منها ، وأمر بانتهابها وإحراقها ؛ فانتُهبتْ وأحرقت ، وسار على نهر المادِيان ، فوجد فيها تموراً ، فأمر بإحراقها .

وكان لصاحب الزَّنج بعد ذلك أمور من عيْثه هو وأصحابه في تلك الناحية تركنا ذكرها ، إذ لم تكن عظيمة ؛ وإن كان كلّ أموره كانت عظيمة .

ثم كان من عظيم ما كان له من الوقائع مع أصحاب السلطان وقعة كانت مع رجل من الأتراك يكنى أبا

هلال في سوق الرّيان ؛ ذكر عن قائد من قوّاده يقال له ريحان ، أن هذا التركيّ وافاهم في هذا السوق ، ومعه زهاء أربعة آلاف رجل أو يزيدون ؛ وفي مقدّمته قوم عليهم ثياب مُشهرَة وأعلام وطبول ، وأن السودان حملوا عليه حملة صادقة ، وأنّ بعض السودان ألقى صاحب علم القوم فضربه بخشبتين كانتا معه في يده فصرعه ، وانهزم القوم ، وتلاحق السودان ، فقتلوا من أصحاب أبي هلال زُهاء ألف وخمسمائة . وإن بعضهم اتبع أبا هلال ففاته بنفسه على دابة عُرْي ، وحال بينهم وبين من أفلت ظلمة الليل ؛ وأنه لما أصبَحَ أمر بتتبعهم ، ففعلوا ذلك فجاءوا بأسرى ورؤوس ، فقتل الأسرى كلهم . ثُمَّ كانت له وقعة أخرى بعد هذه الوقعة مع أصحاب السلطان ؛ هزمهم فيها ، وظفر بهم ، وكان مبتدأ الأمر في ذلك ـ فيما ذكر عن قائد لصاحب الزنج من السودان يقال له ريحان ـ أنه قال : لما كان في بعض الليل من ليالي هذه السنة التي ذكرنا أنه ظهر فيها ، سمع نباح كلب في أبواب تعرف بعمرو بن مسعدة ، فأمر بتعرّف الموضع الذي يأتي منه النّباح ، فوجّه لذلك رجلاً من أصحابه ، ثم رجع فأخبره أنه لم ير شيئاً ؛ وعاد النباح . قال ريحان : فدعاني ، فقال لي : صر إلى موضع هذا الكلب النابح ؛ فإنه إنما نَبَح شخصاً يراه ، فصرتُ فإذا أنا بالكلب على المسنّاة ، ولم أر شيئاً ، فأشرفتُ فإذا أنا برجل قاعد في درجات هنالك ، فكلّمتُه ، فلما سمعني أفصُحُ بالعربيّة كلّمني ، فقال : أنا سَيْران بن عفو الله ، أتيتُ صاحبكم بكتب من شيعته بالبصْرة ، وكان سيْران هذ أحدَ مَنْ صحب صاحب الزّنج أيام مُقامه بالبصرة ، فأخذته فأتيته به ، فقرأ الكتب التي كانت معه ، وسأله عن الزّينبيّ وعن عدّه مَنْ كان معه ، فقال : إن الزّينبيّ قد أعدّ لك الخَوَل والمطوّعة والبلالية والسعدية ؛ وهم خلق كثير ، وهو على لقائك بهم ببَيَان . فقال له : اخفِض صوتَك ، لئلا يرتاع الغلمان بخبرك . وسأله عن الذي يقود هذا الجيش ، فقال : قد نُدِب لذلك المعروف بأبي منصور؛ وهو أحد موالي الهاشميّين : قال له : أفرأيتَ جمعَهم ؟ قال : نعم ؛ وقد أعدُّوا الشُّرط لكتف من ظفروا به من السودان ، فأمره بالانصراف إلى الموضع الذي يكون فيه مُقامه ، فانصرف سيران إلى عليّ بن أبان ومحمد بن سلم ويحيى بن محمد ، فجعل يحدّثهم إلى أن أسْفَر الصبح ، ثم سار صاحب الزَّنج إلى أن أشرف عليهم . فلما انتهى إلى مؤخَّر تُرْسَى وبرسوناً وسندادان بَيَان ، عرض له قوم يريدون قتاله ، فأمر عليّ بن أبان فأتاهم فهزمهم ، وكان معهم مائة أسود ، فظفر بهم . قال ريحان : فسمعته يقول لأصحابه : من أمارات تمام أمركم ما تروْن من إتيان هؤلاء القوم بعبيدهم فيسلّمونهم إليكم ؛ فيزيد الله في عددكم . ثم سار حتى صار إلى بَيَان .

قال ريحان : فوجّهني وجماعة من أصحابه إلى الحجر لطلب الكاروان وعسكرهم في طرف النخل في الجانب الغربيّ من بيان ، فوجّهنا إلى الموضع الذي أمرنا بالمصير إليه ، فألفينا هناك ألفاً وتسعمائة سفينة ، ومعها قوم من المطوّعة قد احتبسوها ، فلما رأوْنا خلَّوْا عن السفن ، وعبروا سُلبان عَرايا ماضِين نحو جُوبك . وسقْنا السفن حتى وافيناه بها ، فلما أتيناه بها أمر فبُسِط له على نشز من الأرض وقعد ، وكان في السفن قوم حجّاج أرادوا سلوك طريق البصرة ؛ فناظرهم بقيّة يومه إلى وقت غروب الشمس ، فجعلوا يصدقونه في جميع قوله ، وقالوا : لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك ، فردّهم إلى سُفُنهم ؛ فلما أصبحوا أخرجهم ، فأحلفهم ألّا يخبروا أحداً بعدّة أصحابه ، وأن يقللوا أمره عند من سألهم عنه . وعرضوا عليه بساطاً كان معهم ، فأبدله ببساط كان معه ، واستحلفهم أنه لا مال للسلطان معهم ولا تجارة ، فقالوا : معنا رجل من أصحاب السلطان ، فأمر بإحضاره ، فأحضر ، فحلف الرَّجل أنه ليس من أصحاب السلطان ، وأنه رجل معه نُقْل أراد

به البصرة ، فأحضر صاحب السفينة التي وُجد فيها ، فحلف له أنه إنما اتّجر فيه ، فحمله فخلى سبيله ، وأطلق الحجاج فذهبوا ، وشرع أهل سليمانان على بيان بإزائه في شرقيّ النهر ؛ فكلمهم أصحابُه وكان فيهم حسين الصيدنانيّ الذي كان صحبه بالبصرة ؛ وهو أحد الأربعة الذين ظهروا بمسجد عبّاد ، فلحق به يومئذ ؛ فقال له : لِمَ أبطأتَ عني إلى هذه الغاية ؟ قال : كنتُ مختفياً ، فلما خرج هذا الجيش دخلتُ في سواده . قال : فأخبِرْني عن هذا الجيش ، ما هم ؟ وما عدّة أصحابه ؟ قال : خرج من الخَوَل بحضرتي ألف ومائتا مقاتل ، ومن أصحاب الزينبيّ ألف ، ومن البلاليّة والسعديّة زهاء ألفين ، والفرسان مائتا فارس . ولما صاروا بالأُبُلّة وقع بينهم وبين أهلها اختلاف ؛ حتى تلاعنوا ، وشتم الخَوَلُ محمد بن أبي عون ، وخلفتُهم بشاطىء عثمان وأحسبهم مصبّحيك في غد . قال : فكيف يريدون أن يفعلوا إذا أتونا ؟ قال : هم على إدخال الخيل من سندادان بَيَان ، ويأتيك رجّالتهم من جنبتي النهر .

فلما أصبح وجّه طليعةً ليعرف الخبر ، واختاره شيخاً ضعيفاً زمِناً لئلا يُعرض له ؛ فلم يرجع إليه طليعتُه . فلمّا أبطأ عنه وجّه فتحاً الحجام ومعه ثلاثمائة رجل، ووجّه يحيى بن محمد إلى سندادان ، وأمره أن يخرج في سوق بَيَان ، فجاءه فَتْح فأخبره أن القوم مقبلون إليه في جمع كثير ، وأنهم قد أخذُوا جنبتي النَّهر ؛ فسأل عن المدّ ، فقيل : لم يأتِ بعدُ ، فقال : لم تدخل خيلُهم بعد ، وأمر محمد بن سَلْم وعليّ بن أبان أن يقعدا لهم في النخل ، وقعد هو على جَبَل مشرف عليهم ؛ فلم يلبث أن طلعت الأعلام والرّجال حتى صاروا إلى الأرض المعروفة بأبي العلاء البلخيّ ؛ وهي عطفة على دُبَيران ؛ فأمر الزّنج فكبَّروا ثم حملوا عليهم فوافوا بهم دبيران ، ثم حمل الخَوَل يقدُمهم أبو العباس بن أيمن المعروف بأبي الكباش وبشير القيسيّ ، فتراجع الزَّنج حتى بلغوا الجبل الذي هو عليه ، ثم رجعوا عليهم ؛ فثبتوا لهم ، وحمل أبو الكباش على فَتْح الحجام فقتله ، وأدرك غلاماً يقال له دينار من السودان فضربَه ضربات ، ثم حمل السودان عليهم ، فوافَوْا بهم شاطىء بيان ، وأخذتهم السيوف .

قال ريحان : فعهدِي بمحمد بن سلم وقد ضرب أبا الكباش ، فألقى نفسه في الطين ، فلحقه بعضُ الزّنج ، فاحتزّ رأسه . وأما عليّ بن أبان ؛ فإنّه كان ينتحل قتل أبي الكباش وبشير القيسيّ ، وكان يتحدّث عن ذلك اليوم فيقول : كان أوّل مَنْ لقيني بشير القيسيّ ، فضربني وضربتُه ، فوقعتْ ضربته في تُرسي ، ووقعت ضربتي في صدره وبطنه ؛ فانتظمتْ جوانح صدره ، وفريتُ بطنَه ، وسقط فأتيته ، فاحتززتُ رأسه . ولقيني أبو الكَباش، فشُغِل بي ، وأتاه بعضُ السودان من ورائه فضربه بعصاً كانت في يده على ساقيه ؛ فكسرهما فسقط ، فأتيتُه ولا امتناع به ، فقتلته واحتززتُ رأسه ؛ فأتيت بالرأسين صاحب الزَّنج .

قال محمد بن الحسن بن سهل : سمعت صاحبَ الزّنج يخبر أن عليًّا أتاه برأس أبي الكباش ورأس بشير القيسيّ ـ قال : ولا أعرفهما ـ فقال : كان هذان يقدمان القوم ، فقتلهما فانهزم أصحابهما لمّا رأوا مصرعهما .

قال ريحان ـ فيما ذكر عنه : وانهزم الناس فذهبوا كلّ مذهب ، واتّبعهم السودان إلى نهر بَيَان ، وقد جَزَر النهر ، فلما وافوْه انغمسوا في الوحْل ، فقتِل أكثرهم . قال : وجعل السودان يمرّون بصاحِبهم دينار الأسود الذي كان أبو الكباش ضربه ، وهو جريح ملقىً ، فيحسبونه من الخَوَل فيضربونه بالمناجل حتى أثخِن ، ومرّ به من عرفه ، فحمل إلى صاحب الزّنج ، فأمر بمداواة كلومِه .

قال ريحان : فلما صار القوم إلى فُوّهة نهر بيان ، وغرق مَنْ غرق ، وأخذت السفن التي كانت فيها الدوابّ ، إذا ملوّح يلوّح من سفينة ، فأتيناه فقال : ادخلوا النهر المعروف بشريكان ، فإنّ لهم كميناً هناك ، فدخل يحيى بن محمد وعليّ بن أبان ، فأخذ يحيى في غربيّ النهر ، وسلك عليّ بن أبان في شرقيّة ؛ فإذا كمين في زهاء ألف من المغاربة ، ومعهم حسين الصَّيْدانيّ أسيراً قال : فلمّا رأوْنا شدّوا على الحسين ، فقطّعوه قِطعاً ، ثم أقبلوا إلينا ، ومدّوا رماحَهم ، فقاتلوا إلى صلاة الظهر ، ثم أكبّ السودان عليهم فقتلوهم أجمعين ، وحَوْوا سلاحهم ؛ ورجع السودان إلى عسكرهم ؛ فوجدوا صاحبهم قاعداً على شاطىء بيان ، وقد أتِيَ بنيّف وثلاثين عَلَماً وزهاء ألف رأس ، فيها رؤوس أنجاد الخَوَل وأبطالهم ؛ ولم يلبث أن أتوْه بزهير يومئذ.

قال ريحان : فلم أعرفه ، فأتى يحيى وهو بين يديْه ، فعرفه فقال لي : هذا زهير الخَوَل ؛ فما استبقاؤك إياه ! فأمر به فضُربت عنقه . وأقام صاحب الزنج يومه وليلته . فلما أصبح وجّه طليعة إلى شاطىء دِجْلة ، فأتاه طليعته ، فأعلمه أن بدجلة شَذَاتَين لاصقتين بالجزيرة ، والجزيرة يومئذ على فُوّهة القَنْدَل ، فردّ الطليعة بعد العصر إلى دِجلة ليعرف الخبر ؛ فلمّا كان وقت المغرب أتاه المعروف بأبي العباس خال ابنه الأكبر ، ومعه رجل من الجند يقال له عمران ، وهو زَوْج أم أبي العباس هذا ، فصفّ لهما أصحابه ، ودعا بهما ؛ فأدّى إليه عمران رسالة ابن أبي عون ، وسأله أن يعبر بياناً ليفارق عمله ، وأعلمه أنه قد نحّى الشذَا عن طريقه ، فأمر بأخذ السفن التي تخترق بَيَاناً من جُبَّى ، فصار أصحابه إلى الحجر ، فوجدوا في سُلبان مائتي سفينة ، فيها أعدال دقيق ، فأخِذَتْ ، ووُجد فيها أكسية وبرّكانات ، وفيها عشرة من الزَّنْج ، وأمر الناس بركوب السفن ؛ فلما جاء المدّ ـ وذلك في وقت المغرب ـ عبر وعبر أصحابه حيال فُوّهة القندل ، واشتدّت الريح ، فانقطع عنه من أصحابه المكنّى بأبي دلف ، وكان معه السفن التي فيها الدقيق ؛ فلمّا أصبح وافاه أبو دلف فأخبره أن الرّيح حملته إلى حسك عِمْران ، وأن أهل القرية همُّوا به ؛ وبما كان معه ، فدفعهم عن ذلك . وأتاه من السودان خمسون رجلاً ، فسار عند موافاة السفن والسودان إياه حتى دخل القَنْدل ، فصار إلى قرية للمعَلَّىٰ بن أيوب ، فنزلها ، وانبثّ أصحابه إلى دُبّا ، فوجدوا هناك ثلاثمائةرجل من الزَّنْج ، فأتوْه بهم ، ووجدوا وكيلاً للمعلّى بن أيوب ، فطالبه بمال ، فقال : اعبر إلى برسان ، فآتيكَ بالمال ، فأطلقه ، فذهب ولم يَعُد إليه ؛ فلما أبطأ عليه أمر بانتهاب القرية فانتُهبت .

قال ريحان ـ فيما ذكر عنه : فلقد رأيتُ صاحب الزَّنج يومئذ ينتهب معنا ، ولقد وقعتْ يدي ويده على جبّة صوف مُضرّبة ؛ فصار بعضها في يده وبعضها في يدي ، وجعل يجاذبني عليها حتى تركتُها له . ثم سار حتى صار إلى مسلحة الزينبيّ على شاطىء القَنْدَل في غربيّ النهر ، فثبت له القوم الذين كانوا في المسلحة ؛ وهم يروْن أنهم يطيقونه ، فعجزوا عنه ؛ فقتِلوا أجمعين ؛ وكانوا زُهاء مائتين ، وبات ليلته في القَصْر ، ثم غدا في وقت المدّ قاصداً إلى سَبَخة القَنْدل ، واكتنف أصحابه حافتي النهر ، حتى وافوا مُنْذُران ، فدخل أصحابُه القرية فانتهبوها ، ووجدوا فيها جمعاً من الزَّنج ، فأتوه بهم ، ففرّقهم على قوّاده ، ثم صار إلى مؤخّر القَنْدل ، فأدخل السفن النهر المعروف بالحَسَنيّ النافذ إلى النهر المعروف بالصالحيّ ؛ وهو نهر يؤديّ إلى دُبَّا ، فأقام بسبَخةٍ هناك .

فذكر عن بعض أصحابه أنه قال : ها هنا قوّد القوّاد ؛ وأنكر أن يكون قوّد قبل ذلك . وتفرّق أصحابُه في الأنهار حتى صاروا إلى مربّعةِ دُبًّا ، فوجدوا رجلاً من التمّارين من أهل كلّاء البصرة ، يقال له محمد بن جعفر المُريديّ ، فأتوه به ، فسلّم عليه وعرفه ، وسأله عن البلاليّة ، فقال : إنما أتيتُك برسالتهم ، فلقيني

السودان ، فأتوْك بي ، وهم يسألونك شروطاً إذا أعطيتَهم إياها سمعوا لك وأطاعوا ، فأعطاه ما سأل لهم ، وضمن القيام له بأمرهم ؛ حتى يصيروا في حيّزه ، ثم خلّى سبيله ، ووجّه معه مَنْ صيّره إلى الفيّاض ، ورجع عنه ، فأقام أربعة أيام ينتظره ؛ فلم يأته ، فسار في اليوم الخامس وقد سرّح السفن التي كانت معه في النهر ، وأخذ هو على الظهر فيما بين نهر يقال له الدّاورْدانيّ والنهر المعروف بالحسَنيّ والنهر المعروف بالصالحي ، فلم يتعدّ حتى رأى خيلاً مقبلة من نحو نهر الأمير زهاء ستمائة فارس ، فأسرع أصحابُه إلى النهر الدّاوردانيّ ، وكان الخيل في غربيّه ، فكلّموهم طويلاً ، وإذا هم قوم من الأعراب فيهم عنترة بن حجنا وثمال ، فوجّه إليهم محمد بن سلم ، فكلّم ثمالاً وعنترة ، وسألا عن صاحب الزّنج ، فقال : ها هو ذا ، فقال : نريد كلامَه ، فأتاه فأخبره بقولهما ، وقال له : لو كلّمتَهما ! فزجره ، وقال : إنّ هذا مكيدة ، وأمر السودان بقتالهم ، فعَبَـرُوا النهر ، فعدلت الخيل عن السودان ، ورفعوا علماً أسود ، وظهر سليمان أخو الزينبيّ ـ وكان معهم ـ ورجع أصحاب صاحب الزّنْج ، وانصرف القوم ، فقال لمحمد بن سلم : ألم أعلمك أنهم إنما أرادوا كيدَنا !

وسار حتى صار إلى دُبّا ، وانبثّ أصحابه في النخل ، فجاؤوا بالغنم والبقر ، فجعلوا يذبحون ويأكلون ، وأقام ليلته هناك ؛ فلما أصبح سار حتى دخل الأرخنج المعروف بالمطّهريّ ، وهو أرخنج ينفذ إلى نهر الأمير المقابل للفيّاض من جانبيه ، فوجدوا هناك شهاب بن العلاء العنبريّ ، ومعه قوم من الخَول ، فأوقعوا به ، وأفلت شهاب في نُفَير ممن كان معه ، وقُتِل من أصحابه جماعة ، ولحق شهاب بالمنصف من الفيّاض ، ووجد أصحاب صاحب الزّنج ستمائة غلام من غلمان الشورجيّين هناك ، فأخذوهم ، وقتلوا وكلاءهم ، وأتـوْه بهم ، ومضى حتى انتهى إلى قصر يعرف بالجوهريّ على السَّبَخة المعروفة بالبرامكة ، فأقام فيه ليلتَه تلك ؛ ثم سار حيث أصبح حتى وافى السَّبَخة التي تُشَرع على النهر المعروف بالدينارّي ، ومؤخّـرها يُفضي إلى النهـر المعروف بالمحَدث ، فأقام بها ، وجمع أصحابه ، وأمرهم ألّا يعجلوا بالذهاب إلى البصرة حتى يأمرهم وتفرّق أصحابُه في انتهاب كلّ ما وجدوا ، وبات هناك ليلته تلك .

ذكر الخبر عن مسير صاحب الزنج بزنوجه وجيوشه فيها إلى البصرة

ذكر أنه سار من السَّبخَة التي تشرع على النهر المعروف بالدينارّي ، ومؤخّرها يفضِي إلى النهر المعروف بالحدث ، بعدما جمع بها أصحابه يريد البصرة ؛ حتى إذا قابل النهر المعروف بالرياحيّ أتاه قوم من السودان ، فأعلموه أنهم رأوا في الرياحيّ بارقةً ، فلم يلبث إلّا يسيراً حتى تنادى الزّنج السلاح ، فأمر عليّ بن أبان بالعُبُور إليهم ، وكان القوم في شرقيّ النهر المعروف بالدينارّي ، فعبَر في زهاء ثلاثة آلاف ، وحبّس صاحب الزَّنْج عنده أصحابه ، وقال لعليّ : إن احتجتَ إلى مزيد في الرّجال فاستمدّني . فلما مضى ، صاح الزّنج : السلاح ! لحركة رأوْها من غير الجهة التي صار إليها عليّ ، فسأل عن الخبر ، فأخبِر أنه قد أتاه قوم من ناحية القرية الشارعة على نهر حرْب المعروفة بالجعفريّة ، فوجّه محمد بن سلْم إلى تلك الناحية .

فذكر عن صاحبه المعروف بريحان ، أنه قال : كنتُ فيمن توجّـه مع محمـد ، وذلك في وقت صـلاة الظهر ، فوافينا القومَ بالجعفريّة ، فنَشَب القتال بيننا وبينهم إلى آخر وقت العصر ، ثم حمل السودان عليهم حملةً

صادقة ، فولّوْا منهزمين وقُتِل من الجند والأعراب وأهل البصرة البلالية والسعدية خمسمائة رجل ، وكان فتْح المعروف بغلام أبي شيث معهم يومئذ ، فولّى هارباً ، فاتّبعه فيروز الكبير ؛ فلمّا رآه جادًّا في طلبه رماه ببيضة كانت على رأسه ؛ فلم يرجع عنه ؛ فرماه بترسه فلم يرجع عنه ، فرماه بتنّور حديد كان عليه فلم يرجع عنه ؛ ووافى به نهر حرْب ، فألقى فتحٌ نفسه فيه ، فأفلت ورجع فيْروز ، ومعه ما كان فتح ألقاه من سلاحه ؛ حتى أتى به صاحب الزّنج .

قال محمد بن الحسن : قال شِبْل : حُكِي لنا أنّ فتحاً طَفَر يومئذ نهرَ حرب ، قال : فحدّثت هذا الحديث الفضل بن عديّ الدارميَّ ، فقال : أنا يومئذ مع السعديّة ، ولم يكن على فتح تنُّور حديدٍ ، وما كان عليه إلّا صُدْرة حرير صفراء ، ولقد قاتل يومئذ حتى لم يبق أحد يقاتل ، وأتى نهر حرب ، فوثبه حتى صار إلى الجانب الغربيّ منه . ولم يُعرف ما حكى ريحان من خبر فيروز .

قال : وقال ريحان : لقيتُ فيروز قبل انتهائه إلى صاحب الزّنج ، فاقتصّ عليّ قصّته وقصّة فَتْح ، وأراني السلاح . وأقبل الزّنج على أخذ الأسلاب ، وأخذتُ على النهر المعروف بالدّيناريّ ؛ فإذا أنا برجل تحت نخلة عليه قلنسوة خزّ ، وخُفّ أحمر ودرّاعة ، فأخذتُه فأراني كتباً معه ، وقال لي : هذه كتبٌ لقوم من أهل البصرة ، وجّهوني بها ، فألقيت في عنقه عمامة ، وقدته إليه ، وأعلمته خبره ، فسأله عن اسمه فقال : أنا محمد بن عبد الله ، وأكنَى بأبي الليث ، من أهل أصبهان ؛ وإنما أتيتُك راغباً في صحبتك ، فقبِله ، ولم يلبث أن سمع تكبيراً ؛ فإذا عليّ بن أبان قد وافاه ومعه رأسُ البلاليّ المعروف بأبي الليث القواريريّ .

قال : وقال شِبْل : الذي قتل أبا الليث القواريريّ وصيف المعروف بالزّهريّ وهو من مذكوري البلاليّة ، ورأس المعروف بعبْدان الكسبيّ ، وكان له في البلاليّة صوت في رؤوس جماعة منهم ، فسأله عن الخبر فأخبره أنه لم يكن فيمن قاتله أشدّ قتالاً من هذين ـ يعني أبا الليث وعبدان ـ وأنه هزمهم حتى ألقاهم في نهر نافذ ؛ وكانت معهم شذاة فغرّقها ، ثم جاءه محمد بن سلْم ومعه رجل من البلالية أسيراً ، أسره شِبْل يقال له محمد الأزرق القواريريّ ، ومعه رؤوس كثيرة ، فدعا الأسير فسأله عن أصحاب هذين الجيشين ، فقال له : أما الذين كانوا في الرياحيّ فإنّ قائدهم كان أبا منصور الزّينبيّ ، وأما الذين كانوا مما يلي نهر حرب ، فإن قائدهم كان سليمان أخا الزينبي من ورائهم مُصْحراً ، فسأله عن عددهم فقال له : لا أحصيهم ، إلّا أني أعلم أنهم كثيرعددهم . فأطلق محمد القواريريّ ، وضمه إلى شِبْل ، وسار حتى وافى سَبَخة الجعفرية ، فأقام ليلتَه بين القتلى ؛ فلما أصبح جمع أصحابه فحذّرهم أن يدخل أحد منهم البصرة ، وسار فتسرّع منهم أنكلويه وزُريق وأبو الخَنْجر ـ ولم يكن قُوِّد يومئذ ـ وسليم ووصيف الكوفيّ . فوافَوا النهر المعروف بالشاذاني ، وأتاهم أهل البصرة ، وكَثروا عليهم ؛ وانتهى الخبر إليه ، فوجّه محمد بن سلْم وعليّ بن أبان ومشرقاً غلام يحيى في خلق كثير ، وجاء هو يسايرهم ؛ ومعه السفن التي فيها الدوابّ المحمولة ونساء الغلمان حتى أقام بقنطرة نهر كثير .

قال ريحان : فأتيته وقد رُميت بحجر ، فأصاب ساقي ، فسألني عن الخبر فأخبرته أنّ الحرب قائمة ، فأمرني بالرّجوع ، وأقبل معي حتى أشرف على نهر السيابجة . ثم قال لي : امض إلى أصحابنا ، فقل لهم يستأخروا عنهم ، فقلت له : ابعد عن هذا الموضع فإني لست آمنُ عليك الخَوَل . فتنحّى ، ومضيت فأخبرت

القوّاد بما أمر به ، فتراجعوا ، وأكبّ أهل البصرة عليهم ، وكانت هزيمة وذلك عند العصر ، ووقع الناس في النهرين : نهر كثير ونهر شَيْطان ، فجعل يهتف بهم ويردّهم فلا يرجعون ، وغرق جماعة من أصحابه في نهر كثير ، وقتِل منهم جماعة على شطّ النهر وفي الشاذانيّ ؛ فكان ممن غرق يومئذ من قوّاده أبو الجون ومبارك البحرانيّ وعطاء البربريّ وسلام الشأميّ ، ولحقه غلام أبي شيث وحارث القَيْسيّ وسُحيل ، فَعَلَوا القنطرة ، فرجع إليهم وانهزموا عنه حتى صاروا إلى الأرض ، وهو يومئذ في دُرّاعة وعمامة ونعل وسيف ، وتُرسه في يده ؛ ونزل عن القنطرة وصعدها البصريون يطلبونه ، فرجع فقتل منهم بيده رجلاً على خمس مراق من القنطرة ، وجعل يهتف بأصحابه ويعرّفهم مكانه ، ولم يكن بقي معه في ذلك الموضع من أصحابه إلاّ أبو الشّوْك ومصلح رفيق غلام يحيى .

قال ريحان : فكنت معه فرجع ؛ حتى صار إلى المعلّى ، فنزل في غربيّ نهر شيطان .

قال محمد بن الحسن : فسمعتُ صاحب الزَّنج يحدّث ، قال : لقد رأيتُني في بعض نهار هذا اليوم ؛ وقد ضللت عن أصحابي ، وضلّوا عني ، فلم يبق معي إلاّ مصلح ورفيق ، وفي رِجْلي نعل سنديّ ، وعليّ عمامة قد انحلّ كُور منها فأنا أسحبها من ورائي ، ويعجلني المشيُ عن رفعها ، ومعي سيفي وتُرسي . وأسرع مصلح ورفيق في المشي وقصّرتُ ، فغابا عني ، ورأيت في أثري رجلين من أهل البصرة ؛ في يد أحدهما سيف ، وفي يد الآخر حجارة ، فلما رأياني عَرَفاني ، فجدّا في طلبي ، فرجعت إليهما ، فانصرفا عني ، ومضيتُ حتى خرجت إلى الموضع الذي فيه مجمع أصحابي ؛ وكانوا قد تحيَّروا لفقدي ؛ فلما رأوْني سكنوا إلى رؤيتي .

قال ريحان : فرجع بأصحابه إلى موضع يعرف بالمعلّى في غربيّ نهر شيطان ، فنزل به ، وسأل عن الرجال ؛ فإذا قد هرب كثير منهم ، ونظر فإذا هو من جميع أصحابه في مقدار خمسمائة رجل ، فأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته ، فلم يرجع إليه أحد ، وبات ليلته ، فلما كان في بعض الليل جاء الملقب بجُرْبان ، وقد كان هرب فيمن هرب ، ومعه ثلاثون غلاماً فسأله : أين كانت غيبته ؟ فقال : ذهبت إلى الزّوارقة طليعةً .

قال ريحان : ووجّهني لأتعرّف له مَنْ في قنطرة نهر حَرْب ، فلم أجد هناك أحداً ، وقد كان أهل البصرة انتهبُوا السفن التي كانت معه ،وأخذوا الدواب التي كانت فيها في هذا اليوم ، وظفروا بمتاع من متاعه ، وكتب من كتبه ، وإصطرلابات كانت معه ؛ فلما أصبح من غد هذا اليوم نظر في عدة أصحابه ، فإذا هم ألف رجل قد كانوا ثابوا إليه في ليلتهم تلك .

قال ريحان : فكان فيمن هرب شبل ، وكان ناصح الرّمليّ ينكر هرب شبل . قال ريحان : فرجع شبل من غد ، ومعه عشرة غلمان ، فلامه وعنّفه ، وسأل عن غلام كان يقال له نادر يكنى بأبي نعجة ، وعن عنبر البربريّ ؛ فأخبر أنهما هربا فيمن هرب ، فأقام في موضعه ، وأمر محمد بن سلم أن يصير إلى قنطرة نهر كَثير ، فيعظ الناس ويُعلمهم ما الذي دعاه إلى الخروج ، فصار محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد ، فوقف سليمان ويحيى ، وعبر محمد بن سلم حتى توسَّط أهل البصـرة ، وجعل يكلّمهم ، ورأوْا منه غِرّة فانطووا عليه ؛ فقتلوه .

قال الفضل بن عـديّ : عَبَر محمد بن سلم إلى أهل البصرة ليعظهم وهم مجتمعون في أرض تعرف

بالفَضْل بن ميمون ؛ فكان أوّل من بدر إليه وضربه بالسيف فَتحٌ غلام أبي شيث ، وأتاه ابن التّومنيّ السعديّ ، فاحتزّ رأسه ، فرجع سليمان ويحيى إليه ، فأخبراه الخبر ، فأمرهما بطيّ ذلك عن الناس حتى يكون هو الذي يقوله لهم ، فلمّا صلى العصر نعى محمد بن سلم لأصحابه ، وعرف خبره من لم يكن عرفه ، فقال لهم : إنكم تقتلون به في غد عشرة آلاف من أهل البصرة . ووجّه زُريقاً وغلاماً له يقال له سقلبتويا ، وأمرهما بمنع الناس من العبور ؛ وذلك في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين .

قال محمد بن الحسن : فحدّثني محمد بن سمعان الكاتب ، قال : لما كان في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة جمع له أهل البصرة ، وحشدوا له لَمَا رأوا من ظهورهم عليه في يوم الأحد ، وانتدب لذلك رجل من أهل البصرة يعرف بحمّاد الساجيّ ـ وكان من غُزاة البحر ـ في الشّذا ، وله علم بركوبها والحرب فيها ، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومَنْ خفّ معه من حزبي البلالية والسعدية ، ومَنْ أحبّ النظر من غير هذه الأصناف من الهاشميّين والقرشيين وسائر أصناف الناس ، فشحن ثلاثة مراكب من الشّذا من الرماة ، وجعلوا يزدحمون في الشذا حرصاً على حضور ذلك المشهد ، ومضى جمهور الناس رجّالة ، منهم من معه السلاح ، ومنهم نظّارة لا سلاح معهم ، فدخلت الشّذا والسفن النهرَ المعروف بأم حبيب بعد زوال الشمس من ذلك اليوم في المدّ . ومرّت الرّجالة والنظارة على شاطىء النهر ، قد سدّوا ما ينفذ فيه البصر تكاثفاً وكثرة ، وكان صاحب الزنج مقيماً بموضعه من النهر المعروف بشيطان .

قال محمد بن الحسن : فأخبرنا صاحبُ الزّنج أنه لما أحسّ بمصير الجمع إليه ، وأتته طلائعه بذلك وجه زُريقاً وأبا الليث الأصبهانيّ في جماعة معهما في الجانب الشرقيّ من النهر كميناً وشِبْلاً وحسيناً الحماميّ في جماعة من أصحابه في الجانب الغربيّ بمثل ذلك ، وأمر عليّ بن أبان ومَنْ بقي معه من جمْعه بتلقّي القوم ، وأن يجثو لهم فيمن معه ، ويستتروا بتراسهم فلا يثور إليهم منهم ثائر حتى يوافيَهم القوم ويُوموا إليهم بأسيافهم ؛ فإذا فَعلوا ذلك ثاروا إليهم . وتقدّم إلى الكمينين : إذا جاوزهما الجمع وأحسَّا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجا من جنبتي النهر ، ويصيحا بالناس . وأمر نساء الزّنج بجمع الآجرّ وإمداد الرجال به .

قال : وكان يقول لأصحابه بعد ذلك : لمّا أقبل إليّ الجمع يومئذ وعاينته رأيت أمراً هائلاً راعني ، وملأ صدري رهبة وجَزعاً ، وفزعت إلى الدعاء ، وليس معي من أصحابي إلاّ نفر يسير ؛ منهم مصلح ؛ وليس منا أحد إلاّ وقد خُيِّل له مصرعه في ذلك . فجعل مصلح يعجّبني من كثرة ذلك الجمع ، وجعلت أومي إليه أن يمسك فلما قرب القوم مني قلت : اللهم إن هذه ساعة العسرة ، فأعنّي ، فرأيت طيوراً بيضاً تلقّتْ ذلك الجمع ، فلم أستتمّ كلامي حتى بصرت بسُميريّة قد انقلبتْ بمن فيها ، فغرقوا ثم تلتها الشّذَا ، وثار أصحابي إلى القوم الذين قصدوا لهم فصاحوا بهم . وخرج الكمينان عن جنبتي النهر من وراء السفن والرّجّالة ، وخبطوا مَنْ ولّى من الرّجّالة والنظّارة الذين كانوا على شاطىء النهر المعروف ، فغرقت طائفة ، وقتلت طائفة ، وهربت طائفة نحو الشطّ طمعاً في النجاة ، فأدركها السيف ؛ فمن ثبت قُتِل ، ومن رجع إلى الماء غرق ، ولجأ من كان على شاطىء النهر من الرّجّالة إلى النهر فغرقوا وقتِلوا ، حتى أبير أكثر ذلك الجمع ، ولم ينج منهم إلاّ الشريد ، وكثر المفقودون بالبصرة ، وعلا العويل من نسائهم . وهذا يوم الشذا الذي ذكره الناس ، وأعظموا ما كان فيه من القتل . وكان فيمن قتل من بني هاشم جماعة من ولد جعفر بن سليمان وأربعون رجلاً من الرّماة

المشهورين ؛ في خلق كثير لا يحصى عددهم وانصرف الخبيث وجُمعت له الرؤوس ، فذهب إليه جماعة من أولياء القتلى ، فعرضها عليهم ، فأخذوا ما عرفوا منها ، وعبّأ ما بقي عنده من الرؤوس التي لم يأت لها طالب في جريبيّة ملأها منها ، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب في الجزر ، وأطلقها . فوافت البصرة ، فوقفت في مشرعة تعرف بمشرعة القيّار ، فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس ، فيأخذ رأسَ كل رجل أولياؤه ، وقويَ عدوّ الله بعد هذا اليوم ، وتمكن الرّعب في قلوب أهل البصرة منه ، وأمسكوا عن حربه . وكتِب إلى السلطان بخبر ما كان منه ، فوجّه جُعْلان التركيّ مدداً لأهل البصرة ، وأمر أبا الأحوص الباهليّ بالمصير إلى الأبُلّة والياً ، وأمدّه برجل من الأتراك يقال له جُريح .

فزعم الخبيث أنّ أصحابه قالوا له بعقب هذه الوقعة : إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة ، ولم يبق فيها إلاّ ضعفاؤهم ومَنْ لا حراك به ، فأذنْ لنا في تقحُّمها . فزَبَرَهم وهجَّن آراءهم ، وقال لهم : لا بل ابعدوا عنها ؛ فقد أرعبناهم وأخفناهم وأمنتم جانبهم ؛ فالرأي الآن أن تَدَعوا حربَهم حتى يكونوا هم الذين يطلبونكم . ثم انصرف بأصحابه إلى سَبَخة بمآخير أنهارهم ، إردبّ يقارب النهر المعروف بالحاجر . قال شبل : هي سبَخة أبي قرّة وقعها بين النهرين : نهر أبي قرّة والنهر المعروف بالحاجر .

فأقام هناك ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ ، وهذه السبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات ، وبثّ أصحابه يميناً وشمالاً يغير بهم على القرى ، ويقتل بهم الأكرة وينهب أموالهم ، ويسوق مواشيَهم .

فهذا ما كان من خبره وخبر الناس الذين قربوا من موضع مخرجه في هذه السنة .

ولليلتين بقيتا من ذي القعدة منها حُبس الحسن بن محمد بن أبي الشوارب القاضي ، ووُلّيَ عبد الرحمن بن نائل البصريّ قضاء سامرّا في ذي الحجة منها .

وحجّ بالناس فيها عليّ بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن عليّ .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما كان من موافاة موسى بن بُغا سامُرّا واختفاء صالح بن وصيف لمقدَمه ، وحَمْل من كان مع موسى من قوّاد المهتدي من الجوسق إلى دار ياجور .

ذكر أنّ دخول موسى بن بغا سامرّا بمن معه كان يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلتْ من المحرّم من هذه السنة ؛ فلما دخلها أخذ في الحَيْر ، وعبّأ أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً في السلاح ، حتى صار إلى باب الحَيْر مما يلي الجوسق والقصر الأحمر ؛ وكان ذلك يوماً جلس فيه المهتدي للناس للمظالم ؛ فكان ممن أحضره في ذلك اليوم بسبب المظالم أحمد بن المتوكل بن فِتيان ؛ فكان في الدار إلى أن دخل الموالي ، فحملوا المهتدي إلى دار ياجور ، واتّبعه أحمد بن المتوكِّل إلى ما هناك ، فلم يزل موكّلاً به في مضرب مفلح إلى أن انقطع الأمر ، ورُدَّ المهتدي إلى الجوسق ، ثم أطلق . وكان القيّم بأمر دار الخلافة بايكباك ، فصيّرها إلى ساتكين قبل ذلك بأيام ، فظنّ الناس أنه إنما فعل ذلك لثقتِه بساتكين ، وأنه على أن يغلب على الدار والخليفة وقت قدوم موسى . فلما كان في ذلك اليوم لزم منزله ، وترك الدار خالية ، وصار موسى في جيشه إلى الدار ، والمهتدي جالس للمظالم ، فأعلم بمكانه ؛ فأمسك ساعة عن الإذن ، ثم أذن لهم ، فدخلوا فجرى من الكلام نحوُ ما جرى يوم قَدِم الوفد والرسل ، فلمّا طال الكلام تراطنوا فيما بينهم بالتركيّة ، وأقاموه من مجلسه ، وحملوه على دابة من دواب الشاكريّة ، وانتهبوا ما كان في الجوْسق من دوابّ الخاصة ، ومضوْا يريدون الكرخ ، فلما صاروا عند باب الحيْر في القطائع عند دار ياجور أدخلوه دار ياجور .

فذُكِر عن بعضِ الموالي ممن حضرهم ذلك اليوم ، أنّ سبب أخذهم المهتدي ذلك اليوم كان أنّ بعضهم قال لبعض : إنّ هذه المطاولة إنما هي حيلة عليكم حتى يكبسكُمْ صالح بن وصيف بجيشه . فخافوا ذلك ، فحملوه وذهبوا به إلى الموضع الآخر ؛ فذُكِر عمّن سمع المهتدي يقول لموسى : ما تريد ويحك ! اتّق الله وخَفْه ؛ فإنك تركب أمراً عظيماً . قال : فردّ عليه موسى : إنا ما نريد إلّا خيراً ، ولا وتربة المتوكل لا نالك منا شرٌّ البتة .

قال الذي ذكر ذلك : فقلت في نفسي : لو أراد خيراً لحلف بتربة المعتصم أو الواثق .

ولما صاروا به إلى دار ياجور أخذوا عليه العهود والمواثيق ألّا يمايل صالحاً عليهم ، ولا يضمر لهم إلّا مِثل ما يظهر ؛ ففعل ذلك ، فجدّدوا له البيعة ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرّم ، وأصبحوا يوم الثلاثاء ، فوجّهوا إلى صالح أن يحضرهم للمناظرة ، فوعدهم أن يصير إليهم .

فذكر عن بعض رؤساء الفراغنة ، أنه قيل له : ما الذي تطالبون به صالح بن وصيف ؟ فقال : دماء الكتّاب وأموالهم ودم المعتزّ وأمواله وأسبابه . ثم أقبل القوم على إبرام الأمور وعسكرهم خارج باب الحيْر عند باب ياجور ؛ فلما كانت ليلة الأربعاء استتر صالح ؛ فذكر عن طلمجُور أنه قال : لما كانت ليلة الأربعاء اجتمعنا عند صالح ، وقد أمر أن يفرّق أرزاق أصحاب النوبة عليهم ، فقال لبعض من حضره : اخرج فاعرض مَنْ حضر من الناس ، فكانوا بالغداة زُهاء خمسة آلاف . قال : فعاد إليه ، وقال : يكونون ثمانمائة رجل ، أكثرهم غلمانك ومواليك . فأطرق مليًّا ، ثم قام وتركنَا ، ولم يأمر بشيء وكان آخر العهد .

وذكر عمّن سمع بَخْتِيشُوع يقول وهو يعرّض بصالح قبل قدوم موسى : حرّكْنَا هذا الجيش الخشن ، وأرغمناه ، حتى إذا أقبل إلينا تشاغلنا بالنرد والشرب ، كأنا بنا وقد اختفينا إذا ورد القاطول ! فكان الأمر كذلك .

وغدا طُغتا إلى باب ياجور سَحَرَ يوم الأربعاء فلقيه مفلح ، فضربه بطبرزين ؛ فشجّه في جانب جبينه الأيمن ، فكان الذين أقاموا مع صالح الليلة التي استتر فيها من القوّاد الكبار طُغْتا بن الصيْغُون وطلمجُور صاحب المؤيد ومحمد بن تركش وخمّوش والنوشريّ ، ومن الكتّاب الكبار أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وعبد الله بن منصور وأبو الفرج . وأصبح الناس يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من المحرّم وقد استتر صالح ، وغدا أبو صالح إلى دار ياجور ، وجاء عبد الله بن منصور ، فدخل الدار مع سليمان بن وهب ، وتنَصّح إليهم أن عنده سفاتج بخمسة آلاف دينار .

وذكر أن صالحاً أراده على حملها ، فأبى أن يقرّ الأمر قراره .

وخلع في هذا اليوم على كنجور ليتولّى أمر دار صالح وتفتيشها ، ومضى ياجور صاحب موسى فأتى بالحسن بن مَخْلَد من الموضع الذي كان فيه محبوساً من دار صالح .

وفي هذا اليوم من هذا الشهر وُلِّي سليمان بن عبد الله بن طاهر مدينة السلام والسواد ، ووجّه إليه بخلَع ، وزيد على ما كان يخلع على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

وفيه رُدّ المهتدي إلى الجوسق ، ودفع عبد الله بن محمد بن يزداد إلى الحسن بن مَخْلَد .

وفيه أظهر النداء على صالح .

ولثمان بقين من صفر من هذه السنة قتِل صالح بن وصيف .

ذكر الخبر عن سبب قتله وسبب الوصول إليه بعد اختفائه :

ذكر أن سبب ذلك كان أن المهتدي لمّا كان يوم الأربعاء لثلاث بقين من المحرّم سنة ست وخمسين ومائتين أظهر كتاباً ، ذكر أن سيما الشرابيّ زعم أنّ امرأة جاءت به مما يلي القصر الأحمر ، ودفعته إلى كافور الخادم الموكّل بالمحرم ، وقالت له : إن فيه نصيحة ، وإن منزلي في موضع كذا فإن أردتموني فاطلبوني هناك ، فأوصل الكتاب إلى المهتدي ، فلما طُلبت في الموضع الذي وصفت حين احتيج إلى بحثها عن الكتاب لم توجد ، ولم يعرف لها خبر .

وقد ذُكر أن المهتدي أصاب ذلك الكتاب ، ولم يدر من رمى به ، فذُكر أن المهتدي دعا سليمان بن وهب

بحضرة جماعة من الموالي فيهم موسى بن بغا ومفلح وبايكباك وياجور وبكالبا وغيرهم ؛ فدفع الكتاب إلى سليمان ، وقال له : تعرف هذا الخطّ ؟ قال : نعم ، هذا خطّ صالح بن وصيف ، فأمره أن يقرأه عليهم ، فإذا صالح يذكر فيه أنه مستخفٍ بسامرَّا ، وأنه إنما استتر متخيراً للسلامة وإبقاءً على الموالي ، وخوفاً من إيصال الفتن بحرب إن حدثت بينهم ، وقصداً لأن يبيت القوم ، ويكون ما يأتونه بعد بصيرة مما ذكر في هذا الباب . ثم ذكر ما صار إليه من أموال الكتّاب ، وقال : إنّ عِلْم ذلك عند الحسن بن مَخْلَد ، وهو أحدهم ، وهو في أيديكم . ثم ذكر من وصل إليه ذلك المال وتولّى تفريقه ، وذكر ما صار إليه من أمر قبيحة ، وأشار إلى أن علم ذلك عند أبي صالح بن يزداد وصالح العطار، ثم ذكر أشياء في هذا المعنى ، بعضها يعتذر به وبعضها يحتجّ به ، ومخرج القول في ذلك يدلّ على قوّة في نفسه .

فلما فَرغ سليمان من قراءة الكتاب وصله المهتدي بقول منه يحثُّ على الصلح والهدنة والألفة والاتفاق ، ويكرّه إليهم الفرقة والتفاني والتباغض ، فدعا ذلك القوم إلى تُهمته ، وأنه يعلم بمكان صالح ، وأنه يتقدّمهم عنده ، فكان بينهم في ذلك كلام كثير ومناظرات طويلة ، ثم أصبحوا يوم الخميس لليلتين بقيتا من المحرّم سنة ست وخمسين ومائتين ، فصاروا جميعاً إلى دار موسى بن بغا في داخل الجوسق يتراطنون ويتكلمون. واتصل الخبر بالمهتدي .

فذكر عن أحمد بن خاقان الواثقيّ أنه قال : من ناحيتي انتهى الخبر إلى المهتدي ؛ وذلك أني سمعت بعض مَنْ كان حاضر المجلس وهو يقول : أجمع القوم على خلع الرجل .

قال : فصرت إلى أخيه إبراهيم ، فأعلمته بذلك ، فدخل عليه فأعلمه ذلك ، وحكاه عني ؛ فلم أزل خائفاً أن يعجل أمير المؤمنين فيخبرهم عني بالخبر ، فرزق الله السلامة .

وذكر أن أخا بايكباك قال لهم في هذا المجلس لما أطلعوه على ما كانوا عزموا عليه : إنكم قتلتم ابن المتوكل ، وهو حسن الوجه ، سخيّ الكف ، فاضل النفس ، وتريدون أن تقتلوا هذا وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب ! والله لئن قتلتم هذا لألْحَقنّ بخراسان ، ولأشيعنّ أمركم هناك .

فلما اتصل الخبر بالمهتدي خرج إلى مجلسه متقلّداً سيفاً ، وقد لبس ثياباً نظافاً ، وتطيّب ، ثم أمر بإدخالهم إليه ، فأبوْا ذلك مليًّا ، ثم دخلوا عليه ، فقال لهم : إنه قد بلغني ما أنتم عليه من أمري ؛ ولستُ كَمَنْ تقدّمني مثل أحمد بن محمد المستعين ، ولا مثل ابن قبيحة ؛ والله ما خرجتُ إليكم إلّا وأنا متحنّط ، وقد أوصيتُ إلى أخي بولدي ، وهذا سيفي ؛ والله لأضربنّ به ما استمسك قائمهُ بيدي ؛ والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكنّ أو ليذهبنّ بها أكثركم . أمَا دين ! أمَا حياء ! أمَا رِعة ! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله ! سواء عليكم مَنْ قصد الإبقاء عليكم ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها مسروراً بمكروهكم وحبًّا لبواركم ! خبِّروني عنكم ؛ هل تعلمون أنه وصل إليّ من دنياكم هذه شيء ! أما إنك تعلم يا بايكباك أنّ بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي ؛ وإن أحببتَ أن تعرف ذلك فانظر : هل ترى في منازلهم فرشاً أو وصائف أو خدماً أو جواريَ ! أو لهم ضياع أو غلات ! سوءة لكم ! ثم تقولون : إني أعلم علم صالح ، وهل صالحٌ إلّا رجل من الموالي ، وكواحد منكم ! فكيف الإقامة معه إذا ساء رأيكم فيه ! فإن آثرتم الصلح كان ذلك ما أهوى لجمعكم ، وإن أبيتم إلّا الإقامة على ما أنتم عليه

فشأنَكم ؛ فاطلبوا صالحاً ، ثم ابلغوا شفاء أنفسكم ؛ وأما أنا فما أعلم علمه . قالوا : فاحلف لنا على ذلك . قال : أمّا اليمين فإني أبذلها لكم ؛ ولكني أؤخّرها حتى تكون بحضرة الهاشميين والقضاة والمعدّلين وأصحاب المراتب غداً إذا صلّيت الجمعة . فكأنهم لانوا قليلاً ، ووجّه في إحضار الهاشميين فحضروا في عشيّتهم ، فأذن لهم ، فسلّموا ولم يذكرْ لهم شيئاً ، وأمِروا بالمصير إلى الدار لصلاة الجمعة ، فانصرفوا ، وغدا الناس يوم الجمعة ولم يحدثوا شيئاً ، وصلّى المهتدي ، وسكن الناس وانصرفوا هادنين .

وذُكِر عن بعض مَنْ سمع الكلام في يوم الأربعاء يقول : إن المهتدي لما خُوّن صالح قال : إن بايكباك قد كان حاضراً ما عمل به صالح في أمر الكتّاب ومال ابن قبيحة ، فإن كان صالح قد أخذ من ذلك شيئاً فقد أخذ مثل ذلك بايكباك ؛ فكان ذلك الذي أحفظ بايكباك .

وقال آخر : إنه سمع هذا القول ، وإنه ذكر محمد بن بغا ، وقال : قد كان حاضراً وعالماً بما أجروا عليه الأمر ، والشريك في ذلك أجمع . فأحفظ ذلك أبا نصر .

وقد قيل : إن القوم من لدن قدم موسى كان مضمرين هذا المعنى ، منطوين على الغِلّ ؛ وإنما كان يمنعهم منه خوف الاضطراب وقلة الأموال ؛ فلما ورد عليهم مال فارس والأهواز تحرّكوا ، وكان ورود ذلك عليهم يوم الأربعاء لثلاث بقين من المحرّم ، ومبلغه سبعة عشر ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم .

فلما كان يوم السبت انتشر الخبر في العامة أنّ القوم على أن يخلعوا المهتدي ، ويفتكوا به ، وأنهم أرادوه على ذلك ، وأرهقوه ، وكتبوا الرقاع وألقوْها في المسجد الجامع والطرقات ؛ فذكر بعض من زعم أنه قرأ رقعة منها فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يا معشرَ المسلمين ، ادعوا الله لخليفتكم العدْل الرضيّ المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصرَه على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتمّ النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ؛ فإن الموالِيَ قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذَّب منذ أيام ، والمدبّر لذلك أحمد بن محمد بن ثوابة والحسن بن مَخْلَد ، رحم الله من أخلص النيّة ودعا وصلى على محمد ﷺ !

فلما كان يوم الأربعاء لأربع خلوْن من صفر من هذه السنة ، تحرّكَ الموالي بالكرْخ والدّور ، ووجّهوا إلى المهتدي على لسان رجل منهم يقال له عيسى : إنّا نحتاج أن نلقي إلى أمير المؤمنين شيئاً ، وسألوا أن يوجّه أمير المؤمنين إليهم أحد إخوته ، فوجّه إليهم أخاه عبد الله أبا القاسم ، وهو أكبر إخوته ، ووجّه معه محمد بن مباشر المعروف بالكرخيّ ، فمضيا إليهم ، فسألاهم عن شأنهم ، فذكروا أنهم سامعون مطيعون لأمير المؤمنين ، وأنه بلغهم أن موسى بن بغا وبايكباك وجماعة من قوّادهم يريدونه على الخلع ، وأنهم يبذلون دماءهم دون ذلك ، وأنهم قد قرؤوا بذلك رقاعاً أُلْقِيَتْ في المسجد والطرقات ، وشكوا مع ذلك سوء حالهم ، وتأخُر أرزاقهم ، وما صار من الإقطاعات إلى قوّادهم التي قد أجحفت بالضياع والخراج ، وما صار لكبرائهم من المعاون والزّيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدّخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج . وكثر كلامهم في ذلك ، فقال لهم أبو القاسم عبد الله بن الواثق : اكتبوا هذا في كتاب إلى أمير المؤمنين ، أتولّى إيصاله لكم ؛ فكتبوا ذلك ، وكاتبهم في الذي يكتبون محمد بن ثقيف الأسود ؛ وكان يكتب لعيسى صاحب الكرخ أحياناً . وانْصرف أبو القاسم ومحمد بن مباشر ، فأوصلا الكتاب إلى المهتدي ، فكتب جوابَه بخطّه ، وختمه بخاتمه ،

وغدا أبو القاسم إلى الكَرْخ ، فوافاهم . فصاروا به إلى دار أشناس وقد صيروها مسجداً جامعاً لهم ، فوقف ووقفوا له في الرَّحَبَة ، واجتمع منهم زهاء مائة وخمسين فارساً ونحو من خمسمائة راجل ، فأقرأهم من المهتدي السلام ، وقال : يقول لكم أمير المؤمنين : هذا كتابي إليكم بخطّي وخاتمي ، فاسمعوه وتدبّروه ، ثم دفع الكتاب إلى كاتبهم فقرأه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، وصلى الله على محمد النبيّ وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً ، أرشدنا الله وإياكم ، وكان لنا ولكم وليًّا وحافظاً . فهمت كتابكُم ، وسرّني ما ذكرتم من طاعتكم وما أنتم عليه ؛ فأحسن الله جزاءكم ، وتولى حياطتكم ؛ فأما ما ذكرتم من خَلّتكم وحاجتكم ، فعزيز عليّ ذلك فيكم ، ولوددت والله أنّ صلاحكم يهيّأ بألا آكل ولا أطعم ولدي وأهلي إلَّا القوت الذي لا شبع دونه ، ولا ألبس أحداً من ولدي إلَّا ما ستر العورة ، ولا والله ـ حاطكم الله ـ ما صار إليّ منذ تقلدت أمرَكم لنفسي وأهلي وولدي ومتقدمي غلماني وحشمي إلا خمسة عشر ألف دينار ، وأنتم تقِفون على ما ورد ويَرد ، كلّ ذلك مصروف إليكم ، غير مدّخر عنكم . وأما ما ذكرتم مما بلغكم ، وقرأتم به الرّقاع التي ألقيت في المساجد والطرق ، وما بذلتم من أنفسكم ؛ فأنتم أهل ذلك . وأين تعتذرون مما ذكرتم ونحن وأنتم نفس واحدة ! فجزاكم الله عن أنفسكم وعهودكم وأمانَتكم خيراً . وليس الأمر كما بلغكم ، فعلى ذلك فليكن عملكم إن شاء الله . وأما ما ذكرتم من الإقطاعات والمعاون وغيرها ، فأنا أنظر في ذلك وأصير منه إلى محبّتكم إن شاء الله والسلام عليكم . أرشدنا الله وإياكم ، وكان لنا ولكم حافظاً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً كثيراً .

فلما بلغ القارىء من الكتاب إلى الموضع الذي قال : « ولم يصل إليّ إلَّا قدر خمسة عشر ألف دينار » ، أشار أبو القاسم إلى القارىء ، فسكت ثم قال : وهذا ما قدِّر ، هذا قد كان أمير المؤمنين في أيام إمارته يستحق في أقلّ من هذه المدة ما هو أكثر منه بأرزاقه وأنزاله ومعونته ، وقد تعلمون ما كان مَنْ تقدّمه يصرفه في صِلات المخنّثين والمغنين وأصحاب الملاهي وبناء القصور وغير ذلك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين . ثم قرأ الكتاب حتى أتى على الكتاب .

فلما فرغ كثُر الكلام وقالوا قولاً ، فقال لهم أبو القاسم : اكتبوا بذلك كتاباً صدّروه على مجاري الكتب إلى الخلفاء ، واكتبوه عن القوّاد وخلفائهم والعُرفاء بالكرخ والدّور وسامرّا . فكتبوا ـ بعد أن دعوا الله فيه لأمير المؤمنين ـ : إن الذي يسألون ، أن تردّ الأمور إلى أمير المؤمنين في الخاصّ والعام ، ولا يعترض عليه معترض ، وأن تردَّ رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين بالله ؛ وهو أن يكون على كلّ تسعة منهم عريف ، وعلى كل خمسين خليفة ، وعلى كل مائة قائد ، وأن تسقط النساء والزيادات والمعاون ، ولا يدخل مولىً في قَبالة ولا غيرها ، وأن يوضع لهم العطاء في كلّ شهرين على ما لم يزل ، وأن تبطل الإقطاعات ، وأن يكون أمير المؤمنين يزيد مَنْ شاء ويرفع مَنْ شاء . وذكروا أنهم صائرون في أثر كتابهم إلى باب أمير المؤمنين ، ومقيمون هناك إلى أن تقضى حوائجُهم . وأنه إن بلغهم أنّ أحداً اعترض أمير المؤمنين في شيء من الأمور أخذوا رأسه ، وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحاً وياجور وبكالبا وغيرهم .

ودعوا الله لأمير المؤمنين ودفعوا الكتاب إلى أبي القاسم . فانصرف به حتى أوصله ، وتحرّك الموالي

بسامرّا ، واضطرب القوّاد جدًّا ، وقد كان المهتدي قعد للمظالم وأدخل الفقهاء والقضاة ، وأخذوا مجالسهم ، وقام القوّاد في مراتبهم ، وسبق دخول أبي القاسم دخول المتظلّمين .

فقرأ المهتدي الكتاب قراءة ظاهرة ، وخلا بموسى بن بغا ، ثم أمر سليمان بن وهب أن يوقّع في رقعتهم بإجابتهم إلى ما سألوا ، فلما فعل ذلك في فصل من الكتاب أو فصلين ، قال أبو القاسم : يا أمير المؤمنين ، لا يقنعهم إلا خطّ أمير المؤمنين وتوقيعه ، فأخذ المهتدي كتابهم فضرب على ما كان سليمان وقع في ذلك ، ووقع في كل باب بإجابتهم إلى ما سألوا ، وبأن يفعل ذلك . ثم كتب كتاباً مفرداً بخطّه وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى أبي القاسم ، فقال أبو القاسم لموسى وبايكباك ومحمد بن بغا : وجّهوا إليهم معي رسلاً يعتذرون إليهم مما بلغهم عنكم . فوجّه كل واحد منهم رجلاً ،وصار أبو القاسم إليهم وهم في مواضعهم ، وقد صاروا زهاء ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ؛ وذلك في وقت الظهر من يوم الخميس لخمس ليال خلوْن من صفر من هذه السنة ، فأقرأهم من أمير المؤمنين السلام ، وقال لهم : إنَّ أمير المؤمنين ، قد أجابكم إلى كلّ ما سألتم ، فادعوا الله لأمير المؤمنين . ثم دفع كتابهم إلى كاتبهم ، فقرأ عليهم بما فيه من التوقيعات ؛ ثم قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ؛ فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم ؛ أرشدكم الله وحاطكم ، وأمتع بكم ، وأصلح أموركم وأمور المسلمين بكم ؛ وعلى أيديكم . فهمتُ كتابكم ، وقرأته على رؤسائكم ، فذكروا مثل الذي ذكرتم ، وسألوا مثل الذي سألتم ، وقد أجبتكم إلى جميع ما سألتم محبّةً لصلاحكم وألفتكم واجتماع كلمتكم ، وقد أمرت بتقرير أرزاقكم ، وأن تصير دارَّة عليكم ، فليست لكم حاجة إلى حركة ، فطيبُوا نفساً ، والسلام . أرشدكم الله وحاطكم وأمتع بكم ، وأصلح أموركم وأمور المسلمين بكم ، وعلى أيديكم !

فلما فرغ القارىء من الكتاب ، قال لهم أبو القاسم : وهؤلاء رسل رؤسائكم يعتذرون إليكم من شيء إن كان بلغكم عنهم ، وهم يقولون : إنما أنتم إخوة ؛ وأنتم منّا وإلينا .

وتكلم الرسل بمثل ذلك ، فتكلّموا أيضاً كلاماً كثيراً ، ثم كتبوا كتاباً يعتذرون فيه بمثل العذر الأوّل إلى أمير المؤمنين ، وذكروا فيه خصالاً مما ذكروه في الكتاب الذي قبله ، ووصفوا أنه لا يقنعهم إلَّا أن ينفذ إليهم خمس توقيعات ، توقيعاً بحط الزيادات ، وتوقيعاً بردّ الإقطاعات ، وتوقيعاً بإخراج الموالي البوابين من الخاصّة إلى عداد البرانيّين ، وتوقيعاً بردّ الرسوم إلى ما كانت عليه أيام المستعين ، وتوقيعاً بردّ التلاجىء حتى يدفعوها إلى رجل يضمُّون إليه خمسين رجلاً من أهل الدور ، وخمسين رجلاً من أهل سامُرّا ينتجزون من الدواوين ، ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ممن يرى ليسفر بينه وبينهم بأمورهم ، ولا يكون رجلاً من الموالي ، وأن يؤمر صالح بن وصيف فيحاسب هو وموسى بن بغا على ما عندهم من الأموال ، وأنه لا يرضيهم دونَ ما سألوا في كتبهم كلها مع تعجيل العطاء ، وإدرار أرزاقهم عليهم في كلّ شهرين ، وأنهم قد كتبوا إلى أهل سامُرّا والمغاربة في موافاتهم ، وأنهم صائرون إلى باب أمير المؤمنين لينجز ذلك لهم ، ودفعوا الكتاب إلى أبي القاسم أخي أمير المؤمنين ، وكتبوا كتاباً آخر إلى موسى بن بغا وبايكباك ومحمد بن بغا ومفلح وياجور وبكالبا وغيرهم من القوّاد الذين ذكروا أنهم كتبوا كتاباً ، ذكروا فيه أنهم قد

كتبوا إلى أمير المؤمنين بما كتبوا ، وأن أمير المؤمنين لا يمنعهم ما سألوا إلَّا أن يعترضوا عليه ، وأنهم إن فعلوا ذلك وخالفوهم لم يوافقوهم على شيء ، وأنّ أمير المؤمنين إن شاكتْه شوكة أو أخذ من رأسه شعرة ، أخذوا رؤوسهم جميعاً ، وأنه ليس يقنعهم إلَّا أن يظهر صالح بن وصيف حتى يجمع بينه وبين موسى بن بُغا ، حتى ينظر أين موضع الأموال ؛ فإن صالحاً قد كان وعدهم قبل استتاره أن يعطيَهم أرزاق ستة أشهر .

ثم دفعوا هذا الكتاب إلى رسول موسى ، ووجّهوا مع أبي القاسم عدّة نفر منهم ؛ ليوصلوا إلى أمير المؤمنين كتابهم ، وليستمعوا كلامه .

فلما رجع أبو القاسم وجّه موسى زهاء خمسمائة فارس ، فوقفوا على باب الحيْر بين الجوسق والكَرْخ ، فمال إليهم أبو القاسم ورسل القوم ورسل أنفسهم ، فدفع رسول موسى إلى موسى كتاب القوم إليه وإلى أصحابه ـ وفي الجماعة سليمان بن وهب وولده وأحمد بن محمد بن ثَوَابة وغيرهم من الكتاب ـ فلما قرأ الكتاب عليهم أعلمهم أبو القاسم أنّ معه كتاباً من القوم إلى أمير المؤمنين ، ولم يدفعه إليهم . فركبوا جميعاً وانصرفوا إلى المهتدي ، فوجدوه في الشمس قاعداً على لِبد ، قد صلَّىٰ المكتوبة ؛ وكسر جميع ما كان في القصر من الملاهي وآلاتها وآلات اللعب والهَزْل ، فدخلوا فأوصلوا إليه الكتب ، وخلوا مليًّا . ثم أمر المهتدي سليمان بن وهب بإنشاء الكتب على ما سألوا في خمس رقاع ، فأنفذها المهتدي في دَرج كتاب منه بخطّه ، ودفعه إلى أخيه ، وكتب القُوّاد إليهم جواب كتابهم ، ودفعوه إلى صاحب موسى ، فصارْ إليهم أبو القاسم في وقت المغرب ، فأقرأهم من المهتدي السلام ، وقرأ عليهم كتابه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . وفّقنا الله وإياكم لطاعته وما يرضيه . فهمت كتابكم . حاطكم الله ، وقد أنفذت إليكم التوقيعات الخمس على ما سألتم ، فوكّلوا منْ يتنجّزها من الدواوين إن شاء الله . وأما ما سألتم من تصيير أمركم إلى أحد إخوتي ليوصل إليّ أخباركم ، ويؤدي إليّ حوائجكم ؛ فوالله إني لأحبّ أن أتفقّد ذلك بنفسي ، وأن أطّلع على كلّ أمركم وما فيه مصلحتكم ، وأنا مختار لكم الرجل الذي سألتم ، من إخوتي أو غيرهم إن شاء الله ؛ فاكتبوا إليّ بحوائجكم وما تعلمون أن فيه صلاحكم ؛ فإني صائر من ذلك إلى ما تحبّون إن شاء الله ، وفقنا الله وإياكم لطاعته وما يرضيه .

وأوصل إليهم رسول موسى كتاب موسى وأصحابه ؛ فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أبقاكم الله وحفظكم ، وأتمّ نعمته عليكم ، فهمنا كتابكم ؛ وإنما أنتم إخواننا وبنو عمنا ، ونحن صائرون إلى ما تحبّون ، وقد أمر أمير المؤمنين أعزه الله في كل ما سألتم بما تحبون وأنفذ التوقيعات به إليكم . وأما ما ذكرتم من أمر صالح مولى أمير المؤمنين وتغيّرنا له فهو الأخ وابن العم ، وما أردنا من ذلك ما تكرهون ؛ فإن وعدكم أن يعطيَكم أرزاق ستة أشهر فقد رفعنا إلى أمير المؤمنين رقاعاً ، نسأله مثل الذي سألتم . وأما ما قلتم من ترك الاعتراض على أمير المؤمنين وتفويض الأمر إليه ، فنحن سامعون مطيعون لأمير المؤمنون ، والأمور مفوَّضة إلى الله وهو مولانا ونحن عبيده ، وما نعترض عليه في شيء من الأمور أصلاً . وأما ما ذكرتم أنا نريد بأمير المؤمنين سوءاً ، فمَنْ أراد ذلك فجعل الله دائرة السوْء عليه ، وأخزاه في دنياه وآخرته . أبقاكم الله وحفظكم وأتّم نعمتَه عليكم !

فلما قرأ الكتابات عليهم ، قالوا لأبي القاسم : هذا المساء قد أقبل ، ننظر في أمرنا الليلة ، ونعود

بالغداة لنعرّفك رأينا . فافترقوا ، وانصرف أبو القاسم إلى أمير المؤمنين .

ثم أصبح القوم من غداة يوم الجمعة ، فلما كان في آخر الساعة الأولى ، ركب موسى بن بغا من دار أمير المؤمنين ، وركب الناس معه وهم قدر ألف وخمسمائة رجل ؛ حتى خرج من باب الحيْر الذي يَلي القطائع من الجوْسق والكَرْخ ، فعسكر هناك ، وخرج أبو القاسم أخو المهتدي ، ومعه الكرخيّ ، حتى صار إلى القوم ، وهم زهاء خمسمائة فارس وثلاثة آلاف راجل ؛ وقد كان أبو القاسم انصرف في الليل ومعه التوقيعات ؛ فلما صار بينهم أخرج كتاباً من المهتدي نسخته شبيه بالكتاب الذي في درجه التوقيعات . فلما قرأ الكتاب ضجّوا ؛ ، واختلفتْ أقاويلهم ، وكَثُر مَنْ يلحقُ بهم من رجّالة الموالي من ناحية سامرّا في الحيْر ؛ فلم يزل أبو القاسم ينتظر أن ينصرف من عندهم بجواب يحصّله يؤديه إلى أمير المؤمنين ، فلم يتهيأ ذلك إلى الساعة الرابعة ، وانصرفوا ، فطائفة يقولون : نريد أن يعزّ الله أمير المؤمنين ، ويوفِّر علينا أرزاقنا ؛ فإنا قد هلكنا بتأخيرها عنا . وطائفة يقولون : لا نرضى حتى يوَلِّيَ علينا أمير المؤمنين إخوَتَه ، فيكونَ واحدٌ بالكرْخ ، وآخر بالدّور ، وآخر بسامُرّا ، ولا نريد أحداً من الموالي يكون علينا رأساً . وطائفة تقول : نريد أن يظهر صالح بن وصيف ـ وهي الأقل ـ .

فلما طال الكلام بهذا منهم ، انصرف أبو القاسم إلى المهتدي بجملة من الخبر ، وبدأ بموسى في الموضع الذي هو معسكر فيه ؛ فانصرف بانصرافه ، فلما صلّى المهتدي الجمعة صيّر الجيش إلى محمد بن بغا ، وأمره بالمصير إلى القوم مع أخيه أبي القاسم ، فركب معه محمد بن بُغا في زهاء خمسمائة فارس ، ورجع موسى إلى الموضع الذي كان فيه بالغَداة ، ومضى أبو القاسم ومحمد بن بغا حتى خالطا القوم ، وأحاط الجميع به ، فقال أبو القاسم لهم : إنّ أمير المؤمنين يقول : قد أخرجت التوقيعات لكم بجميع ما سألتم ، ولم يبق لكم مما تحبّون شيء إلاّ وأمير المؤمنين يبلغ فيه الغاية ؛ وهذا أمان لصالح بن وصيف بالظهور . وقرأ عليهم أماناً لصالح ، بأنّ موسى وبايكباك سألا أمير المؤمنين أعزّه الله ذلك ، فأجابهما إليه ، وأكده بغاية التأكيد ، ثم قال : فعلامَ اجتماعكم ! فأكثروا الكلام ؛ فكان الذي حصّله عند انصرافه أن قالوا : نريد أن يكون موسى في مرتبة بُغا الكبير ، وصالح في مرتبة وصيف أيام بُغا ، وبايكباك في مرتبته الأولى ، ويكون الجيش في يد مَنْ هو في يده ؛ إلى أن يظهر صالح بن وصيف ، فيوضع لهم العطاء ، وتتنجّز لهم الأرزاق بما في التوقيعات . فقال : نعم .

فانصرف القوم ، فلما صاروا على قدر خمسمائة ذراع اختلفوا ، فقال قوم : قد رضينا ، وقال قوم : لم نرض ، وانصرف رسلُ المهتدِي إليه : إنّ القومَ قد تفرّقوا ؛ وهم على أن ينصرفوا ، فانصرف موسى عند ذلك ، وتفرّق الناس إلى مواضعهم من الكَرْخ والدّور وسامرّا . فلما كان غداة يوم السبت ، ركب ولد وصيف وجماعة من مواليهم وغلمانهم ، وتنادى الناس : السلاح ! وانتهب دوابّ العامة الرّجالة ؛ رجّالة أصحاب صالح بن وصيف ، ومضوا فعسكروا بسامرّا في طرف وادي إسحاق بن إبراهيم ، عند مسجد لُجَين أمّ ولد المتوكل . وركب أبو القاسم عند ذلك يريد دار المهتدي ، فمرّ بهم في طريقه ، فتعلّقوا به وبمن كان معه من حشمه وغلمانه ، فقالوا له : تؤدي إلى أمير المؤمنين عنا رسالة ؟ فقال لهم : قولوا : فخلطوا ولم يتحصل من قولهم شيئاً إلاّ : إنا نريد صالحاً ، فمضى حتى أدى إلى أمير المؤمنين ذلك وإلى موسى ،

وجماعة القواد حضور .

فذُكر عمّن حضر المجلس أنّ موسى بن بغا ، قال : يطلبون صالحاً مني ؛ كأني أنا أخفيتُه وهو عندي ! فإن كان عندهم فينبغي لهم أن يظهروه ، وتأكّد عندهم الخبر باجتماع القوم ، وتحلّب الناس إليهم ، وتهايجوا من دار أمير المؤمنين ؛ فركبوا في السلاح ، وأخذوا في الحيْر حتى اجتمعوا ما بين الدكة وظهر المسجد الجامع ؛ فاتّصل الخبر بالأتراك ومَنْ كان ضَوَى إليهم ، فانصرفوا ركضاً وعدْواً لا يلوي فارس على راجل ، ولا كبير على صغير حتى دخلوا الدروب والأزقة ، ولحقوا بمنازلهم ، وزحف موسى وأصحابه جميعاً ، فلم يبق بسامُرّا قائد يركب إلى دار أمير المؤمنين إلّا ركب معه ، ولزموا الحيْر حتى خرجوا مما يلي الحائطين . ثم خرجوا ؛ فأما مفلح وواجن ومن انضم إليهما فسلكوا شارع بغداد حتى بلغوا سوق الغنم ، ثم عطفوا إلى شارع أبي أحمد ، حتى لحقوا بجيش موسى . وأما موسى وجماعة القواد الذين كانوا معه مثل ياجور وساتكين ويارْجُوخ وعيسى الكرخيّ ، فإنهم سلكوا على سَمْت شارع أبي أحمد ، حتى صاروا إلى الوادي ، وانصرفوا إلى الجوْسق ؛ فكان تقدير الجيش الذين كانوا مع موسى في هذا اليوم ـ وهو يوم السبت ـ أربعة آلاف فارس في السلاح والقسيّ الموتّرة والدّروع والجَواشن والرّماح والطبرزينات . وكان أكثرُ القوّاد الذين كانوا بالكرْخ يطلبون صالحاً مع موسى في هذا الجيش يريدون محاربة مَنْ يطلب صالحاً .

وقد ذكر عن بعض من تخبّر أمرهم ؛ أنّ أكثر مَنْ كان راكباً مع موسى كان هواه مع صالح ، ولم يكن للكرخيين والدّوريِّين في هذا اليوم حركة ؛ فلمّا وصل القوم إلى الجوسق كان أوّل ما ظهر منهم النداء بأن مَنْ لم يحضر دار أمير المؤمنين في غداة يوم الأحد من قُوّاد صالح وأهله وغلمانه وأصحابه أسقط اسمه ، وخُرّب منزله ، وضرب وقُيِّد وحُذّر إلى المطبَق ؛ ومن وُجد بعد ثالثة من هذه الطبقة ظاهراً بعد استتار ، فقد حلّ به مثل ذلك ، ومن أخذ دابّة لعاميّ أو تعرّض له في طريق ؛ فقد حلّت به العقوبة المُوجعة .

وبات الناس ليلة الأحد لثمانٍ خلون من صَفَر على ذلك ؛ فلما كان غداة يوم الاثنين انتهى إلى المهتدي أن مساوراً الشاري صار إلى بَلَد ، فقتل بها وحرّق ، فنادى في مجلسه بالنفير ، وأمر موسى ومفلحاً وبايكباك بالخروج ، وأخرج موسى مضاربه ؛ فلمّا كان يوم الأربعاء لإحدى عشرة مَضَت من صَفَر بطل أمر موسى ومحمد بن بغا ومُفْلح في الخروج ، وقالوا : لا يبرح أحدٌ منا حتى ينقطع أمرنا وأمر صالح ؛ وهم مجمعون على ذلك ، يخافون من صالح أن يخلفهم بمكروه .

وذكر عن بعض الموالي أنه قال : رأيت بعض بني وصيف ـ وهو الذي كان جمع تلك الجموع ـ يلعب مع موسى وبايكباك بالصوالجة في ميدان بغا الصغير يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر . ثم جدّ هؤلاء في طلب صالح بن وصيف ، فهُجم بسببه على جماعة ممن كان متصلاً به قبل ذلك . وممّن اتهموه أنه آواه ، منهم إبراهيم بن سعدان النحويّ وإبراهيم الطالبيّ وهارون بن عبد الرحمن بن الأزهر الشيعيّ وأبو الأحوص بن أحمد بن سعيد بن سلْم بن قُتيبة وأبو بكر خَتَن أبي حَرْملة الحجّام وشارية المغنية والسرخسيّ صاحب شُرطة الخاصة وجماعة غيرهم .

فذُكر عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مصعب بن زريق ، قال : حدّثني صاحب رُبع القبّة ـ وهو

ربع تلقاء دار صالح بن وصيف ـ قال : بينا نحن قعود يوم الأحد ، إذا غلام قد خرج من زُقاق ، وأراه مذعوراً ، فأنكرناه ، فأردنا مسألَته عن شأنه ؛ ففاتنا ؛ فلم نلبث أن أقبل عَيَّار من موالي صالح بن وصيف يعرف بروزبه ، ومعه ثلاثة نفر أو أربعة ، فدخلوا الزّقاق ، فأنكرناهم ، فلم يلبثوا أن خرجوا ، وأخرجوا صالح بن وصيف ، فسألنا عن الخبر ، فإذا الغلام قد دخل داراً في الزّقاق يطلب ماءً ليشربه . قال : فسمع قائلاً يقول بالفارسية : أيها الأمير تنحّ ، فإن غلاماً قد جاء يطلب ماء ؛ فسمع الغلام ذلك ، وكان بينه وبين هذا العيّار معرفة ، فجاء فأخبره ، فجمع العيّار ثلاثة أناسيّ ، وهجم عليه فأخرجه .

وذكر عن العيّار الذي هجم عليه ، أنه قال : قال لي الغلام ما قال : فأقبلت ومعي ثلاثة نفر ، فإذا بصالح بن وصيف بيده مرآة ومُشط ، وهو يسرّح لحيته ، فلما رآني بادر فدخل بيتاً ، فخفت أن يكون قصد لأخذ سيف أو سلاح ، فتلوّمت ثم نظرت إليه ؛ فإذا هو قد لجأ إلى زاوية ، فدخلت إليه فاستخرجتُه فلم يزدني على التضرّع شيئاً. قال: فلما تضرّع إليّ قلت: ليس إلى تركك سبيل ؛ ولكني أمرّ بك على أبواب إخوتك وأصحابك وقوّادك وصنائعك ؛ فإن اعترض لي منهم اثنان أطلقتُك في أيديهم . قال: فأخرجته فما لقيت إلاّ مَنْ هو عوني على مكروهه .

فذكر أنه لما أخذ مضى به نحو ميلين، ليس معه إلا أقلّ من خمسة نفر من أصحاب السلطان . وذكر أنه أخذ حين آخِذ، وعليه قميص ومبطنة ملحم وسراويل، وليس على رأسه شيء وهو حاف .

وقيل إنه حمل على بِرْذون صِنابيّ والعامة تعدو خلفَه وخمسة من الخاصّة يمنعون منه ؛ حتى انتهوْا به إلى دار موسى بن بُغا ؛ فلما صاروا به إلى دار موسى بن بغا أتاه بايكباك ومُفْلح وياجور وساتكين وغيرهم من القوّاد، ثمّ أخرجوه من باب الحيْر الذي يلي قِبْلة المسجد الجامع ؛ ليذهبوا به إلى الجوسق، وهو على بغل بإكاف، فلمّا صاروا به إلى حدّ المنارة، ضربه رجل من أصحاب مفلح ضربة من ورائه على عاتقه كاد يقدُهُ منها، ثم احتزُّوا رأسه وتركوا جيفته هناك، وصاروا به إلى المهتدي ؛ فوافوْا به قبيل المغرب وهو في بِرْكة قباء رجل من غلمان مفلح يقطر دماً، فوصلوا به إليه، وقد قام لصلاة المغرب، فلم يره، فأخرجوه ليُصلَح ، فلما قضى المهتدي صلاته، وخبّروه أنهم قتلوا صالحاً، وجاؤوا برأسه لم يزدهم على أن قال: واروُه؛ وأخذ في تسبيحه . ووصل الخبر إلى منزله، فارتفعت الواعية وباتوا ليلتهم .

فلما كان يوم الاثنين لسبع بقين من صفر حُمل رأس صالح بن وصيف على قناة، وطِيف به، ونودي عليه : هذا جزاء مَنْ قتَل مولاه، ونصِب بباب العامة ساعة ثم نُحّي ، وفُعِل به ذلك ثلاثة أيام تتابعاً، وأخرِج رأس بغ الصغير في وقت صلب رأس صالح يوم الاثنين، فدُفع إلى أهله ليدفنوه .

فذكر عن بعض الموالي أنه قال: رأيت مفلحاً وقد نظر إلى رأس بغا، فبكى وقال: قتلني الله إنْ لم أقتل قاتلكَ ؛ فلمّا كان يوم الخميس لأربع بَقين من صفر، وجّه موسى بالرأس إلى أمّ الفضل ابنة وَصيف، وهي امرأة النوشريّ، وكانت قبله عند سلَمة بن خاقان .

فذُكِر عن بعض بني هاشم أنه قال : هَنَّأتُ موسى بن بغا بقتل صالح فقال : كان عدوّ أمير المؤمنين استحقّ القتل . قال : وهنّأتُ بايكباك بذلك ؛ فقال : ما لي أنا وهذا ! إنما كان صالح أخِي ، فقال السَّلوليّ لموسى إذ قتل صالح بن وصيف :

وَنِلْتَ وِتْـرَكَ من فـرعـون حينَ طَغَىٰ ... وجئتَ إذْ جئتَ يـا مُـوسى على قـدَرِ
ثـلاثـةٌ كـلُّهُـم بـاغٍ أخـو حَسَـدٍ ... يَـرمِيكَ بـالظُّلم والعُـدْوَانِ عن وَتَـرِ
وصيفُ بـالكـرْخِ ممثُـولٌ بـه وبُغـا ... بـالجسْـرِ محتَـرِقٌ بـالجمـر والشَّـررِ
وصـالـحُ بن وصيفٍ بَعـدُ مُنعَفِـرٌ ... في الحيْـرِ جيفَتُه ، والـرُّوحُ في سَقَرِ

وفي مستهلّ جُمادى الأولى من هذه السنة رحل موسى بن بغا وبايكباك إلى مساور ، وشيّعهم محمّد بن الواثق .

وفي جمادى الأولى أيضاً منها التقى مُساور بن عبد الحميد وعُبيدة العُمروسيّ الشاري بالكُحَيل ، وكانا مختلفي الآراء ، فظفر مساور بعبيدة فقتله .

وفي هذا الشهر من هذه السنة التقَى مساور الشاري ومفلح ، فحُدّثت عن مساور ، أنه انصرف من الكحَيل بعد قتله العمروسيّ ، وقد كُلِم كثير من أصحابه فلم تندمل كُلُومهم ، ولَغِبوا من الحرب التي كانت جرت بين الفريقين إلى عسكر موسى ومن ضمّه ذلك العسكر وهم حامون ، فأوقع بهم ؛ فلما لم يصل إلى ما أراد منهم من الظفر بهم ، وكان التقاؤهم بجبل زيني تعلق هو وأصحابه بالجبل فصاروا إلى ذِرْوته ، ثم أوقدوا النيران ، وركزوا رماحهم ، وعسكر موسى بسفح الجبل ثم هبط مساور وأصحابه من الجبل ، من غير الوجه الذي عسكر به موسى ، فمضى وموسى وأصحابه يحسبون أنهم فوق الجبل ففاتوهم .

وفي رجب من هذه السنة لأربع عشرة ليلة خلت منه خُلِع المهتدي ، وتوفِّيَ يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب .

ذكر الخبر عن سبب خلعه ووفاته :

ذكر أن ساكني الكرخ بسامرّا والدور تحرّكوا لليلتـين خَلَتا من رجب من هذه السنـة ، يطلبـون أرزاقهم ، فوجّه إليهم المهتدي طابيغو الرئيس عليهم وعبد الله أخا المهتدي ، فكلّمهم فلم يقبلوا منهما ، وقالوا : نحن نريد أن نكلّم أميرَ المؤمنين مشافهةً . وخرج أبو نصر بن بُغا تحت ليلتِه إلى عسكر أخيه ، وهو بالسِّنّ بالقرب من الشاري ، ودخل دار الجَوْسق جماعة منهم ؛ وذلك يوم الأربعاء ، فكلّماهم المهتدي بكلام كثير ، وقطع العطاء عن الناس يوم الأربعاء والخميس والناس متـوقّفون حتى يعـرفوا مـا يصنع موسى بن بُغا ، وكـان موسى وضـع العطاء في عسكـره لشهر ، وكـان على منـاجزة الشـاري إذ استوى أصحابه ، فوقع الاختلاف ، ومضى موسى يريد طريق خُراسان .

واختُلف في سبب الاختلاف الذي جرى ، فصار من أجله موسى إلى طريق خُراسان ، والسبب الذي من أجله خرج المهتدي لحرب من حاربه من الأتراك ، فقال بعضهم : كان السبب الذي من أجْله تنحّى موسى عن وجه الشاري وتَرَك حربه وصار إلى طريق خُراسان ، أنّ المهتدي استمال بايكباك ، وهو مع موسى مقيم في وجه الشاري مساور ، وكتب إليه يأمره أن يضمّ العسكر الذي مع موسى إلى نفسه ، وأن يكون هو الأميرَ عليهم ، وأن يقتل موسى بن بغا ومُفلحاً ، و يحملَهما إليه مقيَّديْن . فلما وصل الكتاب إلى بايكباك ، أخذه ومضى به إلى موسى بن بغا ، فقال : إني لستُ أفرح بهذا ؛ وإنما هذا تدبير علينا جميعاً ، وإذا فُعِل بك اليوم شيء فُعِل بي غداً مثلُه ، فما ترى ؟ قال : أرى أن تصير إلى سامرّا ، فتخبره أنك في

طاعته ، وناصرُه على موسى ومفلح ؛ فإنه يطمئنّ إليك ، ثم ندبّر في قتله .

فقدم بايكباك فدخل على المهتدي ، وقد مضوْا إلى منازلهم كما قدموا من عند الشاري ؛ فأظهر له المهتدي الغضب ، وقال : تركتَ العسكر ، وقد أمرتُك أن تقتل موسى ومفلحاً ، وداهنتَ في أمرهما ! قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف لي بهما ؟ وكيف يتهيأ لي قتلهما ؟ وهما أعظم جيشاً مني ، وأعزّ مني ! ولقد جرى بيني وبين مفلِح شيء في بعض الأمر ؛ فما انتصفتُ منه ؛ ولكني قد قـدمتُ بجيشي وأصحابي ومَنْ أطـاعني لأنصرك عليهما ، وأقوّي أمرك ؛ وقد بقي موسى في أقلّ العدد . قال : ضعْ سلاحك ، وأمر بإدخاله داراً ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ليس هذا سبيل مثلي إذا قدم من مثل هذا الوجه ؛ حتى أصير إلى منزلي ، وآمر أصحابي وأهلي بأمري . قال : ليس إلى ذلك سبيل ، أحتاج إلى مناظرتك . فأخذ سلاحَه ، فلما أبطأ خبرُهُ على أصحابه سعى فيهم أحمد بن خاقان حاجب بايكباك ، فقال : اطلبوا صاحبَكم قبل أن يحدُث به حدث ؛ فجاشت الترك ، وأحاطوا بالجوسق . فلما رأى ذلك المهتدي وعنده صالح بن عليّ بن يعقوب بن أبي جعفر المنصور شاوره ، وقال : ما ترى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لم يبلغْ أحد من آبائك ما بلغتَه من الشجاعة والإقدام ، وقد كان أبو مسلم أعظمَ شأناً عند أهل خراسان من هذا التركيّ عند أصحابه ؛ فما كان إلَّا أن طرح رأسه إليهم حتى سكنوا ، وقد كان فيهم مَنْ يعبده ويتّخذه ربًّا ، فلو فعلتَ مثل ذلك سكنوا ؛ فأنت أشدّ من المنصور إقداماً ، وأشجع قلباً . فأمر المهتدي الكرخيّ ـ واسمه محمد بن المباشر ، وكان حدّاداً بالكرخ يطرق المسامير ، فانقطع إلى المهدي ببغداد فوثق به ولزمه ـ فأمره بضرب عنق بايكباك ، فضرب عنقه ، والأتراك مصطفون في الجوسَق في السلاح ، يطلبون بايكباك ؛ فأمر المهتدي عتّاب بن عتّاب القائد أن يرميَهم برأسه فأخذ عتّاب الرأس ؛ فرمى به إليهم ، فتأخّروا وجاشوا ، ثم شدّ رجل منهم على عتّاب ، فقتله ، فـوجّه المهـتدي إلى الفراغنـة والمغاربة والأوكشيّة والأشروسنيّة والأتراك الذين بايعوه على الدرهمين والسويق ، فجاؤوا ، فكانت بينهم قتلَى كثيرة ، كثر فيها الناسُ ، فقيل : قُتلَ من الأتراك الذين قاتلوا نحو من أربعة آلاف ، وقيل ألفان وقيل ألف ؛ وذلك يومَ السبت لثلاث عشرة خلتْ من رجب من هذه السنة .

ثمّ تتامّ القوم يوم الأحد ، فاجتمع جميع الأتراك ، فصار أمرهم واحداً ، فجاء منهم زُهاء عشرة آلاف رجل ، وجاء طوغيتا أخو بايكباك وأحمد بن خاقان حاجب بايكباك في نحو من خمسمائة ؛ مع مَنْ جاء مع طوغيتا من الأتراك والعجم ، وخرج المهتدي ومعه صالح بن عليّ ، والمصحفُ في عنقه ، يدعو الناس إلى أن ينصروا خليفتَهم . فلما التحم الشرّ مال الأتراك الذين مع المهتدي إلى أصحابهم الذين مع أخي بايكباك ، وبقي المهتدي في الفراغنة والمغاربة ومَنْ خفّ معه من العامة ، فحمل عليهم طوغيتا أخو بايكباك حَمْلَة ثائر حرّان موتور ، فنقض تعبيتَهم ، وهزمهم ، وأكثر فيهم القتل وولّوْا منهزمين، ومضى المهتدي يركضُ منهزماً ، والسيف في يده مشهور ، وهو ينادي : يا معشرَ الناس ، انصروا خليفَتكم ؛ حتى صار إلى دار أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وهي بعد خشبة بابك ؛ وفيها أحمد بن جُمَيل صاحب المعونـة ، فدخلهـا ووضع سلاحه ، ولبس البياض ليعلوَ داراً وينزل أخرى ويهرب . فطُلِب فلم يُوجَد ، وجاء أحمد بن خاقان في ثلاثين فارساً يسأل عنه حتى وقف على خبره في دار ابن جميل ، فبادرهم ليصعد ، فرمي بسهم وبُعِج بالسيف ، ثم حمله أحمد بن خاقان على دابة أو بغل ، وأردف خلفه سائساً حتى صار به إلى داره ، فدخلوا عليه ، فجعلوا يصفعونه ويبزُقُون في وجهه ، وسألوه عن ثمن ما باع من المتاع والخُرْثيّ ، فأقرّ لهم بستمائة ألف قد أودعها

الكرخيّ الناسَ ببغداد ، وأصابوا عنده خسفَ الواضحة مُغنّية ، فأخذوا رقعته بستمائة ألف دينار ؛ ودفعوه إلى رجل ، فوطىء على خُصَيْيه حتى قتله .

وقال بعضهم : كان السببُ وأول الخلاف ، أنّ اللاحِقين من أولاد الأتراك اجتمعوا ، وقالوا : لا نرضى أن يكون علينا رئيسٌ غير أمير المؤمنين ، وكتبوا إلى موسى بن بُغا وبايكباك ؛ وهما في وجه الشاري ، فوافى موسى في رجاله حتى صار إلى قنطرة في ناحية الوزيريّة يوم الجمعة ، وعسكر المهتدي في الحَيْر ، وقرب منهم ، ثم خرج إلى الجَوْسق ، وعليه السلاح ؛ فلما كان يوم السبت لثلاث عشرة خلتْ من رجب ، دخل بايكباك طائعاً ، ومضى موسى إلى ناحية طريق خراسان في نحو من ألفي رجل ، وجاء المهتدِي رجلٌ من الموالي ؛ فقال له : إنّ بايكباك قد وعد موسى أن يفتك بك في الجَوسق ، فأخذ المهتدي بايكباك ، وأمر بنزع سلاحه وحبسه ، فحُبس يوم السبت إلى وقت العصر ، ثم خرج أهل الكرخ وأهل الدّور يطلبونه ، وانصرفوا وبكّروا يوم الأحد ، فلم يتخلفْ منهم أحد إلّا حضر راكباً وراجلاً في السلاح ، فلما صاروا إلى الجوْسق ، صلّى المهتدي الظهر ، وخرج إليهم في الفراغنة والمغاربة ، فتطارد لهم الأتراك ، فحملوا عليهم . فلمّا تَبِعوهم خرج كمين لهم ، فقتل من الفراغنة والمغاربة جماعةً كبيرة ، وهرب المهتدي ، ومرّ على باب أبي الوزير وغلام له يصيح : يا معشرَ الناس ، هذا خليفتكم ، وتراكض الأتراكُ خلْفه ، فدخل دار أحمد بن جميل ، وتسلق المهتدي من دار إلى دار ، وأحدق الأتراك بتلك الناحية كلها ، فأخرجوه من دار غلام لعبد الله بن عمر البازيار ، وحملوه وبه طعنةٌ في خاصرته على برْذون أعجف ، في قميص وسراويل ، وانتهبوا دار الكرخيّ ودور بني ثَوَابة وجماعة من الناس ؛ فلمّا كان يوم الاثنين حمل أحمد بن المتوكل المعروف بابن فتيان إلى دار يارْجوخ ، والأتراك يدورون في الشوارع ، ويحمَدون العامة إذ لم يتعرّضوا لهم .

وقال آخرون : بل كان السبب في ذلك ؛ أن أهل دور سامرّا والكرخ تحرّكوا في يوم الاثنين لليلة خلتْ من رجب من هذه السنة ، واجتمعوا بالكرْخ وفوقها ، فوجّه المهتدي إليهم كيغَلَغ وطبايغو بن صول أرتكين وعبد الله أخا نفسه ، فلم يزالوا بهم حتى سكنوا ورجعوا إلى الدار ، وبلغ أبا نصر محمد بن بغا الكبير أنّ المهتدي قد تكلّم فيه وفي أخيه موسى ، وقال للموالي : إنّ الأموال عندهم ، فتخوّفه وإياهم ، فهرب في ليلة الأربعاء لثلاث خلوْن من رجب ، فكتب إليهم المهتدي أربعة كتب يعطيه فيها الأمان على نفسه ومَنْ معه ، ووصل كتابان إليه وهو بالمحمّدية مع أبرتكين بن برنمكاتكين ، ووصل الآخران إليه مع فرج الصغير ، فوثق بذلك ، فرجع حتى دخل الدار هو وأخوه حَبْشون وبكالبا ، فحبِسوا وحُبِس معهم كَيْغَلغ ، فأفرد أبو نصر عنهم ؛ فطلب منه المال ، فقبض من وكيله خمسة عشر ألف دينار ، وقتِل يوم الثلاثاء لثلاث خلوْن من رجب ، ورُمِي به في بئر من آبار القناة ، وأخرج من البئر يوم الاثنين للنصف من رجب ، ومضي به إلى منزله وقد أراح ، فاشتُري له ثلاثمائة مثقال مسك وستمائة مثقال كافور ، وصُيِّر عليه فلم تنقطع الرائحة ، وصلى عليه الحسن بن المأمون ، وكتب المهتدي إلى موسى بن بُغا عند حبسه أبا نصر يأمره بتسليم العسكر إلى بايكباك والإقبال إلى سامرّا في مواليه ، وكتب إلى بايكباك في تسلُّم العسكر والقيام بقتال الشاري ، فصار بايكباك بالكتاب إلى موسى فقرأه ، فاجتمعوا على الانصراف إلى سامرّا ، وبلغ المهتدي ذلك ، وأنهم على خلافه ، فجمع الموالي ، فحضّهم على الطاعة ، وأمرهم بلزومه في الدّار وترك الإخلال به ، وأجرى على كل رجل من الأتراك ومَنْ يجري مجراهم في كلّ يوم درهمين ، وعلى كلّ رجل من المغاربة درهماً . فاجتمع له من الفريقين

وأخدانهم زهاء خمسة عشر ألف إنسان ، منهم من الأتراك المعروف بالكاملي في الجوْسق وغيره من المقاصير . وكان القيّم بأمر الدار بعد حبس كيغَلَغ مسرور البلخيّ والرئيس من القوّاد طبايغو ، والقيّم بحبس من حُبس من هؤلاء عبد الله بن تكين . وبلغ موسى ومفلحاً وبايكباك حبسُ أبي نصر وحبشون ومَنْ حُبِس ، فأخذوا حذَرهم .

وجرت الرسل والكتب بينهم وبين المهتدي يوم الخميس ، وخرج المهتدي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلتْ من رجب بجمعة متوقّعاً ورود القوم عليه ؛ فلم يأت أحد . فلما كان يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب صحّ الخبر بأنّ موسى قد عَرَج عن طريق سامرّا إلى ناحية الجبل مع مفلح ، ودخل يوم السبت بايكباك ويارجوخ وأساتكين وعليّ بن بارس وسيما الطويل وخطارمش إلى الدار ، فحبس بايكباك وأحمد بن خاقان خليفته ، وصُرف الباقون ، فاجتمع أصحاب بايكباك وغيره من الأتراك ، وقالوا : لِمَ يُحبَس قائدنا ؟ ولِمَ قتِل أبو نصر ؟ فوجّه إليهم المهتدي يوم السبت ـ ولم يكن بينهم حرب ـ فرجع ، وخرج يوم الأحد وقد اجتمعوا له ، وجمع هو المغاربة والأتراك البرّانيين والفراغنة فصير على الميمنة مسروراً البلخيّ ، وعلى الميسرة يارجوخ ، والمهتدي في القلب مع أساتكين وطبايغو وغيرهما من القوّاد .

فلما حمِيت الشمس ، قرب القوم بعضهم من بعض ، وهاجت الحرب ، وطلبوا بايكباك ، فرمى إليهم المهتدي برأسه ـ وكان عتّاب بن عتاب أخرجه من بركة قبائه ـ فلما رأوه شدّ أخوه طغوتيا في جماعة من خاصّته على جمع المهتدي ، وعطفت الميمنة والميسرة من عسكر المهتدي ، فصاروا معهم ، وانهزم الباقون عن المهتدي ، وقُتل جماعة من الفريقين .

فذُكر عن حَبْشون بن بغا ، أنه قال : قُتِل سبعمائة وثمانون إنساناً ، وتفرّق الناس ، ودخل المهتدي الدار ، فأغلق الباب الذي دخل منه ، وخرج من باب المصافّ حتى خرج من الباب المعروف بإيتاخ ، ثم إلى سويقة مسرور ، ثم درب الواثق ؛ حتى خرج إلى باب العامة ، وهو ينادي : يا معشرَ الناس ، أنا أمير المؤمنين ؛ قاتلوا عن خليفتكم . فلم تجبه العامة إلى ذلك ، وهو يمرّ في الشارع وينادي ، فلم يرهم ينصرونه ، فصار إلى باب السجن ، فأطلق مَنْ فيه ، وهو يظنّ أنهم يعينونه ؛ فلم يكن منهم إلا الهرب ، ولم يجبه أحد . فلمّا لم يجيبوه ، صار إلى دار أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ، وفيها أحمد بن جميل صاحب الشّرطة نازل ، فدخل عليه ، فأخرج من ناحية ديوان الضياع ، ثم صيّر به إلى الجوسق ، فحبس فيه عند أحمد بن خاقان ، وانتهب دار أحمد بن جَميل .

وكان ممن قتل في المعركة من قواد المغاربة نصر بن أحمد الزبيريّ ، ومن قوّاد الشاكرية عتّاب بن عتاب حين جاء برأس بايكباك إليهم ، وقَتَل المهتدي ـ فيما قيل ـ في الوقعة عدة كثيرة بيده ، ثم جرى بينهم وبينه بعد أن حُبس كلام شديد ، وأرادوه على الخلع فأبى ، واستسلم للقتل ، فقالوا : إنه كان كتب رُقعة بيده لموسى بن بغا وبايكباك وجماعة من القوّاد ؛ أنه لا يغدر بهم ولا يغتالهم ، ولا يفتك بهم ، ولا يهمّ بذلك ، وأنه متى فعل ذلك بهم أو بأحد منهم ووقفوا عليه فهم في حلّ من بيعته ، والأمر إليهم يُقعدون من شاؤوا . فاستحلُّوا بذلك نقضَ أمره .

وقد كان يارجوخ بعد انهزام الناس صار إلى الدار ، فأخرج من ولد المتوكل جماعة ، فصار بهم إلى داره ،

فبايعوا أحمد بن المتوكل المعروف بابن فِتْيان يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب ، وسُمِّي المعتمد على الله ، وأشهِد يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب على وفاة المهتدي محمد بن الواثق ، وأنه سليم ليس به إلّا الجراحتان اللتان نالتاه يوم الأحد في الوقعة ؛ إحداهما من سَهْم والأخرى من ضَرْبة ، وصلى عليه جعفر بن عبد الواحد وعدّة من إخوة أمير المؤمنين ، ودُفِن في مقبرة المنتصر ، ودخل موسى بن بغا ومفلح سامرّا يوم السبت لعشر بقين من رَجب ، فسلّم على المعتمد فخلَع عليه ، وصار إلى منزله وسكن الناس .

وقال بعضهم ـ وذكر أنه كان شاهداً أمرهم : لما كان ليلة الاثنين لليلة خلت من رجب ثار أهل الكرْخ والدّور جميعاً ، فاجتمعوا ، وكان المهتدي يوجّه إليهم إذا تحرّكوا أخاه عبد الله ، فوجّه إليهم في هذا اليوم عبد الله أخاه كما كان يوجّهه ، فصار إليهم ؛ فوجَدهم قد أقبلوا يريدون الجَوْسق ، فكلّمهم ، وضمِن لهم القيام بحوائجهم ، فأبوْا وقالوا : لا نرجع حتى نصيرَ إلى أمير المؤمنين ونشكُو إليه قصتنا . فانصرف منهم عبد الله ، وفي الدار في هذا الوقت أبو نصر محمد بن بغا وحَبْشون وكَيْغَلغ ومسرور البلخيّ وجماعة ؛ فلما أدّى عبد الله إلى المهتدي ما دار بينه وبينهم ، أمره بالرجوع إليهم ، وأن يأتيَ بجماعة منهم فيوصلَهم إليه ؛ فخرج فتلقاهم قريباً من الجوْسَق ، فأدارهم على أن يقفوا بموضعهم ، ويوجّهوا معه جماعة منهم فأبوْا . فلمّا تناهَى إلى أبي نصر ومَنْ كان معه في الدّار بأنّ جمعهم قد أقبل ، خرجوا جميعاً من الدار مما يلي باب النزالة ، فلم يبق في الدّار إلّا مسرور البلخيّ وألطون خليفة كَيْغَلَغ ، ومن الكتّاب عيسى بن فَرُّخانشاه ، ودخل الموالي مما يلي باب القصر الأحمر ، فملؤوا الدار زُهاء أربعة آلاف ، فصاروا إلى المهتدي ، فشكوْا إليه حالهم .

وكان اعتمادهم في مسألتهم أن يعزل عنهم أمراءهم ، ويضمّ أمورهم إلى إخوة أمير المؤمنين ، وأن يُؤخذ الأمراء والكتّاب بالخروج مما اختانوه من أموال السلطان ؛ وذكروا أن قدره خمسون ومائة ألف ألف . فوعدهم النظر في أمرهم وإجابتهم إلى ما سألوا ، فأقاموا يومَهم ذلك في الدّار ، فوجّه المهتدي محمد بن مباشر الكرخيّ ، فاشترى لهم الأسوقة ، ومضى أبو نصر بن بغا من فوره ذلك ؛ حتى عسكر في الحَيْر بالقرب من موضع الحَلْبة ، فلحق به زهاء خمسمائة رجل ، ثم تفرّقوا عنه في ليلتهم ؛ فلم يبقَ إلّا في أقلّ من مائة ، ومضى فصار إلى المحمّدية ، وأصبح الموالي في غداة يوم الأربعاء يطالبون بما كانوا يطالبون به أولاً ، فقيل لهم : إنَّ هذا الأمر الذي تريدونه أمرٌ صعب ، وإخراج الأمر عن أيدي هؤلاء الأمراء ليس بسهل عليكم ؛ فكيف إذا جمع إلى ذلك أخذهم بالأموال ! فانظروا في أموركم ؛ فإن كنتم تظنون أنكم تصبرون على هذا الأمر حتى يبلغَ منه غايته أجابكم إليه أمير المؤمنين ، وإن تكن الأخرى فإنّ أميرَ المؤمنين يحسن لكم النظر . فأبوْا إلّا ما سألوه أولاً ، فدُعُوا إلى أيمان البيعة على أن يقيموا على هذا القول ، ولا يرجعوا عنه ، وأن يقاتلوا مَنْ قاتلهم فيه ، وينصحوا لأمير المؤمنين ويوالُوه . فأجابوه إلى ذلك ، فأخذت عليهم أيمان البيعة ، فبايع في ذلك اليوم زُهاء ألف رجل وعيسى بن فرّخانشاه الذي تجري على يده الأمور ، ومقامه مقام الوزير . ثم كتبوا إلى أبي نصر كتاباً عن أنفسهم ، كتبه لهم عيسى بن فرّخانشاه ، يذكرون فيه إنكارهم خروجَه من الدار عن غير سبب ، وأنهم إنما قصدوا أميرَ المؤمنين ليشكوا إليه حاجتَهم ، وأنهم لما وجدوا الدار فارغة أقاموا فيها ، وأنهم إذا عاد ردّوه إلى حاله ، ولم يهيّجوه . وكتب عيسى عن الخليفة بمثل ذلك إليه ، فأقبل من المحمّدية بين العصر والعشاء ، فدخل الدار ، ومعه أخوه حَبْشون وكيغلغ وبكالبا وجماعة منهم ، فقام الموالي في وجوههم معهم السلاح ، وقعد

المهتدي ، فوصل إليه أبو نصر ومَنْ معه ، فسلّم عليه ، ودنا فقبل يد المهتدي ورجلَه والبساط ، وتأخّر فخاطبه المهتدي بأن قال له : يا محمد ، ما عندك فيما يقول الموالي ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يذكرون أنكم احتجنتم الأموال ، واستبددتم بالأعمال ، فما تنظرون في شيء من أمورهم ، ولا فيما عاد لمصلحتهم . فقال محمد : يا أميرَ المؤمنين ؛ وما أنا والأموال ! ما كنتُ كاتبَ ديوان ، ولا جرتْ علي يدي أعمال . فقال له : فأين هي الأموال ؟ وهل هي إلاّ عندك وعند أخيك ، وكتّابكم وأصحابكم ! ودنا الموالي ، فتقدّم عبد الله بن تكين وجماعة منهم ، فأخذوا بيد أبي نصر وقالوا : هذا عدوّ أمير المؤمنين ، يقوم بين يديه بسيفٍ ، فأخذوا سيفَه ، ودخل غلام لأبي نصر كان حاضراً يقال له ثيتل ، فسلّ سيفه ، وخطا ليمنعهم من أبي نصر ، وكانت خطوته تلي الخليفة ، فسبقه عبد الله بن تكين ، فضرب رأسه بالسيف ، فما بَقيَ في الدار أحدُ إلاّ سلَّ سيفه ، وقام المهتدي ، فدخل بيتاً كان بقربه ، وأخِذ محمد بن بُغا ، فأدخِل حجرة في الدار ، وحُبس أصحابه الباقون ، وأراد القوم قتلَ الغلام ، فمنعهم المهتدي ، وقال : إنَّ لي في هذا نظراً . ثم أمر فأعطِيَ قميصاً من الخزانة ، وأمر بغسل رأسه من الدّم ، وحُبِس .

فأصبح الناس يوم الأربعاء وقد كثرُوا ، والبيعة تؤخذ ، ثمّ أمر عبد الله بن الواثق بالخروج إلى الرفيف في ألف رجل من الشاكرية والفراغنة وغيرهم ؛ وكان ممن أمر بالخروج من قوّاد خراسان محمد بن يحيى الواثقيّ وعتاب بن عتاب وهارون بن عبد الرحمن بن الأزهر وإبراهيم أخو أبي عون ويحيى بن محمد بن داود وولد نصر بن شيث وعبد الرحمن بن دينار وأحمد بن فريدون وغيرهم .

ثم إن عبد الله بن الواثق بلغه عن هؤلاء القوّاد أنهم يقولون : إنه ليس بصواب شخوصهم إلى تلك الناحية ، فترك الخروج إليها .

ثم إنهم أرادوا أن يكتبوا إلى موسى ومفلح بالانصراف وتسليم العسكر إلى مَنْ فيه من القوّاد ، فأجمعوا على أن يكتبوا إليهما بذلك كتاباً ، وكتبا إلى بعض القوّاد في تسلّم العسكر منهما ، وكُتُبا إلى الصغار بما سأل أصحابهم بسامُرّا ، وما أجيبوا إليه ، وأمر بنسخ الكتب التي كُتبت إلى القوّاد ، وأن ينظروا ؛ فإن سارع موسى ومفلح إلى ما أمِرا به من الإقبال إلى الباب في غلمانهم وتسليم العسكر إلى مَن أمِرا بتسليمه إليه ؛ وإلاّ شدّوهما وثاقاً ، وحملوهما إلى الباب ، ووجّهوا هذه الكتب مع ثلاثين رجلاً منهم ، فشخصوا عن سامرّا ليلة الجمعة لخمس خلون من رجب من هذه السنة ، وأجْرِيَ على مَنْ أخِذت عليه البيعة في الدار على كلّ رجل منهم في اليوم درهمان ، فكان المتولي لتفرقة ذلك عليهم عبد الله بن تكين ، وهو خال ولد كنجور .

ولما تناهى الخبر إلى موسى وأصحابه اتّهم كنجور ، وأمر بحبسه بعد أن ناله بالضرب ، وموسى حينئذ بالسنّ . ولما انتهى الخبر إلى بايكباك وهو بالحديثة أقبل إلى السنّ ، فاستخرج كنجور من الحبس ، واجتمع العسكر بالسنّ ، ووصل إليهم الرسل ، وأوصلوا الكتب ، وقرؤوا بعضها على أهل العسكر ، وأخذوا عليهم البيعة بالنصرة لهم ، فارتحلوا حتى نزلوا قنطرة الرفيف يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب ؛ وخرج المهتدي في هذا اليوم إلى الحَيْر ، وعرض الناس ، وسار قليلاً ، ثم عاد وأمر أن تخرج الخيام والمضارب فتضرب في الحَيْر ، وأصبح الناس يوم الجمعة ، وقد انصرف مِن عسكر موسى زُهاء ألف رجل ؛ منهم كوتكين وحشنَج .

ثم خرج المهتدي إلى الحَيْر ، ثم صيّر ميمنته عليها كوتكين ، وميسرته عليها حشنَج ، وصار هو في

القلب ، ثم رجع الرسل تختلف بين العسكرين . والذي يريد موسى بن بغا أن يُولّى ناحية ينصرف إليها ، والذي يريد القوم من موسى أن يُقبل في غلمانه ليناظرهم ؛ فلم يتهيّأ بينهم في ذلك اليوم شيء . فلما كان ليلة السبت ، انصرف مَنْ أراد الانصراف عن موسى ، ورجع موسى ومفلح يريدان طريق خُراسان في زهاء ألف رجل ، ومضى بايكباك وجماعة من قوّاده في ليلتهم مع عيسى الكرخيّ ، فباتوا معه ، ثم أصبحوا يوم السبت ، وأقبل بايكباك ومَنْ معه حتى دخلوا الدار ، فأخذت سيوفهم بايكباك ويارجوخ وأساتكين وأحمد بن خاقان وخطارمش وغيرهم . فوصلوا جميعاً إلى المهتدِي ، فسلّموا ، فأمِروا بالانصراف إلّا بايكباك ؛ فإنّ المهتدي أمر أن يوقَف بين يديه ، ثم أقبل يعدّد عليه ذنوبه ، وما ركب من أمر المسلمين والإسلام .

ثم إنّ الموالي اعترضوه ، فأدخلوه حجرة في الدار ، وأغلقوا عليه الباب ، ثم لم يلبث إلا قدر خمس ساعات حتى قُتِل يوم السبت من الزّوال . واستوى الأمر ، فلم تكن حركة ، ولا تكلّم أحد إلّا نَفر يسير أنكروا أمر بايكباك ، ولم يُظهروا كلّ الجزع . فلما كان يوم الأحد ، أنكر الأتراك مساواة الفراغنة لهم في الدار ودخولهم معهم ، ووضَح عندهم أنّ التدبير إنما جرى في قتل رؤسائهم حتى يقدم عليهم الفراغنة والمغاربة ، فخرجوا من الدّار بأجمعهم ، وبقيت الدّار على الفراغنة والمغاربة ، وأنكر الأتراك بناحية الكَرْخ ذلك ، وأضافوا إليه طلب بايكباك لاجتماع أصحاب بايكباك معهم ، فأدخل المهتدي إليه جماعة من الفراغنة ، وأخبرهم بما أنكره الأتراك ، وقال لهم : إنّ كنتم تعلمون أنكم تقومون بهم ؛ فما يكره أمير المؤمنين قربكم ؛ وإن كنتم بأنفسكم تظنّون عجزاً عنهم أرضيناهم بالمصير إلى محبتهم من قَبْل تفاقم الأمر . فذكر الفراغنة أنهم يقومون بهم ويقهرونهم ، إذا اجتمعت كلمتهم وكلمة المغاربة ، وعدّدوا أشياء كثيرة من تقديمهم عليهم . وأرادوا المهتدي على الخروج إليهم ؛ فلم يزل كذلك إلى الظهر ، ثم ركب وأكثر الفرسان الفراغنة وأكثر الرجّالة المغاربة ، ووجّه إليهم وهُم بين الكرخ والقطائع والأتراك زُهاء عشرة آلاف ، وهم في ستة آلاف لم يكن معهم من الأتراك إلّا أقل من ألف ، وهم أصحاب صالح بن وصيف وجماعة مع يارجوخ . فلما التقى الزّحفان ، انحاز يارجوخ بمَن معه من الأتراك ، وانهزم أصحاب صالح بن وصيف ، فرجعوا إلى منازلهم وخرج طاشتُمُر من خلف الدكّة ، وكانوا جعلوا كميناً ، وتصادم القوم ، فكانت الحرب بينهم ساعة من النهار ، ضرباً وطعناً ورمياً .

ثم وقعت الهزيمة على أصحاب المهتدي ، فثبت وأقبل يدعوهم إلى نفسه ، ويقاتل حتى يئس من رجوعهم ثم انهزم وبيده سيف مشطّب ، وعليه دِرْع وقَبَاء ؛ ظاهَرَ به حرير أبيض معينّ ، فمضى حتى صار إلى موضع خشبة بابك ، وهو يحثّ الناس على مجاهدة القوم ونُصرته ؛ فلم يتبعه أحد إلّا جماعة من العيّارين ؛ فلما صاروا إلى باب السجن تعلقوا بلجامه ، وسألوه إطلاق مَن في السجن ، فانصرف بوجهه عنهم ، فلم يتركوه حتى أمر بإطلاقهم ، فانصرفوا عنه ، واشتغلوا بباب السجن ، وبقيَ وحده ، فمرّ حتى صار إلى موضع دار أبي صالح بن يَزْداد ، وفيها أحمد بن جُمَيل ، فدخل الدار وأغلِقت الأبواب ، فنزع ثيابه وسلاحه ؛ وكانت به طعنة في وركه ، فطلب قميصاً وسراويل ، فأعطاه أحمد بن جُمَيل ، وغسل الدّم عن نفسه ، وشرب ماء وصلّى ، فأقبل جماعة من الأتراك مع يارْجوخ نحو من ثلاثين رجلاً ؛ حتى صاروا إلى دار أبي صالح ، فضربوا الباب حتى دخلوها ؛ فلما أحسّ بهم أخذ السيف وسعى ، فصعِد على درجة في الدار ، ودخل القوم ؛ وقد علا السطح ؛ فأراد بعضهُم الصعود لأخذه ، فضربه بالسيف فأخطأه ، وسقط الرجل عن الدّرجة ، فرمَوْه

بالنشاب ، فوقعت نُشّابة في صدره ، فجرحته جراحة خفيفة ، وعلم أنه الموت ؛ فأعطى بيده ، ونزل فرمى بسيفه فأخذوه ، فجعلوه على دابة بين يدي أحدهم ، وسلكوا الطريق الذي جاء منه ، حتى صيّروه إلى دار يارْجوخ في القطائع ، وأنهبوا الجوسق ؛ فلم يبق فيه شيء ، وأخرجوا أحمد بن المتوكل المعروف بابن فِتْيان ـ وكان محبوساً في الجوْسق ـ وكتبوا إلى موسى بن بغا وسألوه الانصراف إليهم ، فأقام المهتدي عندهم لم يُحدثوا في أمره شيئاً ؛ فلما كان يوم الثلاثاء بايعوا أحمد بن المتوكل في القَطائع ، وصاروا به يوم الأربعاء إلى الجوْسق فبايعه الهاشميون والخاصّة، وأرادوا المهتدي على الخلْع في هذه الأيام ، فأبى ولم يجبهم ، ومات يوم الأربعاء ، وأظهروه يوم الخميس لجماعة الهاشميّين والخاصّة ، فكشفوا عن وجهه وغسلوه ، وصلى عليه جعفر بن عبد الواحد يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين .

وقدم موسى بن بغا يوم السبت لعشر بقين من رجب وركب أحمد بن فتيان إلى دار العامة يوم الاثنين لثمان بقين من رجب ، فبايعوه بيعة العامة .

فذكر عن محمد بن عيسى القرشيّ أنه قال : لما صار المهتدي في أيديهم أبى أن يخلع نفسَه ، فخلعوا أصابع يديْه ورجليْه من كفيه وقدميه ، حتى ورمت كفاه وقدماه ، وفعلوا به غير شيء حتى مات .

وقد ذكر في سبب قتل أبي نصر محمد بن بغا أنه كان خرج من سامرّا يريد أخاه موسى ، فوجّه إليه المهتدي أخاه عبد الله في جماعة من المغاربة والفراغنة ، فلحقوه بالرّفيف ، فجيء به فحبس ، وكان قد دخل على المهتدي مسلِّما قبل خلافهم ، فقال له : يا محمد ؛ إنما قدم أخوك موسى في جيشه وعبيده حتى يُقتل صالح بن وصيف وينصرف ، قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أعيذك بالله ! موسى عبدُك وفي طاعتك ؛ وهو مع هذا في وجه عدوّ كلب ، قال : قد كان صالحٌ أنفعَ لنا منه ، وأحسنَ سياسة للملك ، وهذا العَلَويّ قد رجع إلى الرَّيّ ، قال : وما حيلته يا أمير المؤمنين ؟ قد هزمه وقتل أصحابه وشرّد به كلّ مشرّد ، فلما انصرف عاد ، وهذا فعله أبداً ؛ اللّهمّ إلّا أن تأمره بالمقام بالرّيّ دهرَه . قال : دع هذا عنك ، فإنّ أخاك ما صنع شيئاً أكثر من أخذ الأموال واحتجانها لنفسه . فأغلظ له أبو نصر ، وقال : يُنظر فيما صار إليه وإلى أهل بيته منذ وليتَ الخلافة فيردّ ، ويُنْظَر ما صار إليك وإلى إخوتك فيردّ . فأمر به فأخِذ وضُرِب وحُبِس ،وانتُهبت داره ودار ابن ثوابة ، ثم أباح دم الحسن بن مَخْلَد وابن ثوابة وسليمان بن وهب القطان كاتب مُفلِح ، فهربوا فانتهبت دورهم . ثم جاء المهتدي بالفراغنة والأشروسنية والطبرية والديالمة والإشتاخنيّة ومَنْ بقي من أتراك الكرخ وولد وصيف ، فسألهم النصرة على موسى ومفلح ، وضرب بينهم ، وقال : قد أخذوا الأموال واستأثروا بالفيء ، وأنا أخاف أن يقتلوني ، وإن نصرتموني أعطيتكُم جميعَ ما فاتكم ، وزدتكم في أرزاقكم . فأجابوه إلى نصره والخلاف على موسى وأصحابه ، ولزموا الجَوْسق ، وبايعوه بيعة جديدة وأمر بالسويق والسكر فاشتُرِي لهم ، وأجرى على كلّ رجل منهم في كلّ يوم درهمين ، وأطعِموا في بعض أيامهم الخبز واللحم . وتولى أمرَ جيشه أحمد بن وصيف وعبد الله بن بُغا الشرابيّ والتفّتْ معهم بنو هاشم ، وجعل يركب في بني هاشم ، ويدور في الأسواق ، ويسأل الناس النصرة ، ويقول : هؤلاء الفساق يقتلون الخلفاء ، ويثِبون على مواليهم ، وقد استأثروا بالفيء ، فأعينوا أمير المؤمنين وانصروه . وتكلّم صالح بن يعقوب بن المنصور وغيره من بني هاشم ، ثم كتب بعدُ إلى بايكباك يأمره أن يضمّ الجيش كله إليه ، وأنه الأمير على الجيش أجمَع ، ويأمره بأخذ موسى ومفلح .

ولما هلك المهتدي طلبوا أبا نصر بن بغا ، وهم يظنُّون أنه حَيّ ، فدُلوا على موضعه ، فنُبِش فوجدوه مذبوحاً ، فحمِل إلى أهله ، وحُملت جثّة بايكباك فدُفنت . وكسرت الأتراك على قبر محمد بن بغا ألف سيف ، وكذلك يفعلون بالسيد منهم إذا مات . وقيل إنّ المهتدي لما أبى أن يخلعها ، أمروا مَنْ عَصَرَ خصيته حتى مات ؛ وقيل : إنَّ المهتدي لما احتُضر قال :

أَهُمّ بِـأَمْـر الحـزْمِ لـو أَسْـتـطيعُـهُ　　　وقـدْ حيـلَ بيـنَ العيـرِ والنـزوان

وقيل إنّ محمد بن بغا لم يحدثوا في أمره يوم حُبِس شيئاً ، وطالبوه بالأموال ، فدفع إليهم نيّفاً وعشرين ألف دينار ، ثم قتلوه بعد ؛ بعجوا بطنَه ، وعصروا حَلْقه ، وأُلْقِيَ في بئر من القناة ، فلم يزل هنالك حتى أخرجه الموالي بعد أسرهم المهتدي بيوم ، فدفن .

وكانت خلافة المهتدي كلها إلى أن انقضى أمره أحدَ عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً ، وعمره كله ثمان وثلاثون سنة . وكان رحْبَ الجبهة ، أجْلَح ، جهم الوجه ، أشْهَلَ ، عـظيم البطن ، عـريض المنكبين ، قصيراً ، طويل اللحية . وكان ولِد بالقاطول .

وفي هذه السنة وافَى جعلان البصرة لحرب صاحب الزنج .

ذكر الخبر عما كان من أمرهما هنالك :

ذكر أن جُعلان لما صار إلى البصرة زحف بعسكره منها ، حتى صار بينه وبين عسكر صاحب الـزّنْج فرسخ ، فخندق على نفسه ومَنْ معه ، فأقام ستة أشهر في خندقه ، فوجّه الزينبيُّ وبُريه وبنو هاشم ومَنْ خفّ لحرب الخبيث من أهل البصرة في اليوم الذي تواعدهم جعلان للقائه ، فلما التقوْا لم يكن بينهم إلاّ الرميُ بالحجارة والنشاب ، ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلاً لضيق الموضع بما فيه من النخل والدّغل عن مجال الخيل ، وأصحابه أكثرهم فرسان .

فذكر عن محمد بن الحسن أنّ صاحب الزنج قال : لّما طال مقام جُعلان في خندقه ، رأيتُ أن أخفِيَ له من أصحابي جماعة يأخذون عليه مسالك الخندق ، ويبيّتونه فيه ، ففعل ذلك ، وبيته في خندقه ، فقُتِل جماعة من رجاله ، ورِيع الباقون رَوْعاً شديداً . فترك جعلان عسكره ذلك ، وانصرف إلى البصرة ؛ وقد كان الزينبيّ قبل بيات الخبيث جعلان جمع مقاتلة البلالية والسعدية ، ثم وجّه لهم من ناحية نهر نافذ وناحية هَزَارْدر ، فواقعوه من وجهين ، ولقيهم الزّنْج ، فلم يثبتوا لهم ، وقهرهم الزّنج ، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وانصرفوا مفلولين ، وانحاز جعلان إلى البصرة ، فأقام بها وظهر عجزه للسلطان .

وفيها صرف جُعلان عن حرب الخبيث ، وأمر سعيد الحاجب بالشخوص إليها لحربه .

وفيها تحوّل صاحب الزّنْج من السَّبَخة التي كـان ينزلهـا إلى الجانب الغـربيّ من النهر المعـروف بأبي الخصيب .

وفيها أخذ صاحب الزّنج ـ فيما ذكر ـ أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر ، كانت اجتمعت تريد البصرة ، فلمّا انتهى إلى أصحابها خبره وخبر مَنْ معه من الزّنج وقطعهم السبيل ، اجتمعت آراؤهم على أن يشدُّوا مراكبهم بعضها إلى بعض ؛ حتى تصير كالجزيرة ، يتصل أولها بآخرها ، ثم يسيـروا بها في دِجْلة .

فاتّصل به خبرها ، فندب إليها أصحابه ، وحرّضهم عليها ، وقال لهم : هذه الغنيمة الباردة .

قال أبو الحسن : فسمعت صاحب الزّنْج يقول : لمّا بلغني قربُ المراكب مني نهضت للصلاة ، وأخذت في الدعاء والتضرّع ، فخوطبتُ بأن قيل لي : قد أظلّك فتح عظيم ، والتفتُّ فلم ألبث أن طلعت المراكب ، فنهض أصحابي إليها في الجريبيّات ؛ فلم يلبثوا أن حَوَوْها وقتلوا مقاتلتها ، وسبَوْا ما فيها من الرّقيق ، وغنموا منها أموالاً عظاماً لا تُحصَى ولا يعرف قدرها ، فأنهب ذلك أصحابه ثلاثة أيام ، ثم أمر بما بقي فحيزَ له .

ولخمس بَقِين من رجب من هذه السنة ، دخل الزّنج الأبلّة ، فقتلوا بها خلقاً كثيراً وأحرقوها .

ذكر الخبر عنها وعن سبب الوصول إليها :

ذكر أن صاحب الزّنج لما تنحّى جعلان عن خندقه بشاطىء عثمان الذي كان فيه ، وانحاز إلى البصرة ألحَّ بالسرايا على أهل الأبُلّة ، فجعل يحاربهم من ناحية شاطىء عثمان بالرجالة ، وبما خفّ له من السفن من ناحية دِجْلة ، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر مَعْقِل .

فذكر عن صاحب الزّنج ، أنه قال : ميّلت بين عبّادان والأبلّة ، فملتُ إلى التوجّه إلى عَبّادان ، وندبتُ الرّجالة لذلك ، فقيل لي : إن أقرب العدو داراً ، وأولاه بألّا تتشاغل بغيره عنه أهلُ الأبلّة ، فرددت الجيش الذي كنت سيّرتُ نحو عبّادان إلى الأبُلّة . فلم يزالوا يحاربون أهل الأبلّة إلى ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب سنة ست وخمسين ومائتين . فلما كان في هذه الليلة اقتحمها الزنج مما يلي دِجْلة ونهر الأبُلّة ، فقتل بها أبو الأحوص وابنه ، وأضرمت ناراً ، وكانت مبنية بالساج محفوفة بناء متكاثفاً . فأسرعت فيها النار ، ونشأت ريحٌ عاصف ، فأطارت شرر ذلك الحريق حتى وصلت بشاطىء عثمان ، فاحترقَ . وقُتِل بالأبُلّة خلقٌ كثير ، وغرق خلق كثير ، وحُويت الأسلاب ، فكان ما احترق من الأمتعة أكثر مما انتُهب .

وقتِل في هذه الليلة عبدُ الله بن حميد الطوسي وابنٌ له ؛ كانا في شَذاة بنهر مَعْقِل مع نُصير المعروف بأبي حمزة .

وفيها استسلم أهل عبّادان لصاحب الزّنج فسلّموا إليه حصنهم .

ذكر الخبر عن السبب الذي دعاهم إلى ذلك :

ذُكر أنّ السبب في ذلك أنّ الخبيث لما فعل أصحابُه من الزّنج بأهل الأبُلّة ما فعلوا ، ضعفت قلوبهم ، وخافوهم على أنفسهم وحُرمهم ، فأعطوا بأيديهم ، وسلموا إليه بلدهم ، فدخلها أصحابه ، فأخذوا مَنْ كان فيها من العبيد ، وحملوا ما كان فيها من السلاح إليه ، ففرّقه عليهم .

وفيها دخل أصحابه الأهواز وأسروا إبراهيم بن المدبر .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان الخبيث لما أوقع أصحابه بالأبلّة ، وفعلوا بها ما فعلوا ، واستسلم له أهلُ عَبّادان ، فأخذ مماليكهم ، فضمّهم إلى أصحابه من الزّنْج ، وفرّق بينهم ما أخذ من السلاح الذي كان بها ، طمع في الأهواز ، فاستنهض أصحابه نحوجُبّى ، فلم يثبتْ لهم أهلها ، وهربوا منهم ، فدخلوا فقتلوا وأحرقوا ، ونهبوا وأخربوا ما وراءها ؛ حتى وافوا الأهواز ، وبها يومئذ سعيد بن يكسين والٍ وإليه حربُها ، وإبراهيم بن محمد بن المدبر

وإليه الخراج والضيّاع ؛ فهرب الناس منهم أيضاً فلم يقاتلهم كثير أحد ، وانحاز سعيد بن يكسين فيمَن كان معه من الجُند ، وثبت إبراهيم بن المدبّر فيمن كان معه من غلمانه وخَدَمِه ، فدخلوا المدينة ، فاحتوَوْها ، وأسروا إبراهيم بن محمد بعد أن ضُرب ضربةً على وجهه ؛ وحوَوْا كلّ ما كان يملك من مال وأثاث ورقيق ؛ وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين .

ولما كان من أمره ما كان بالأهواز بعد الذي كان منه بالأبُلّة ، رعب أهل البصرة رعباً شديداً ، فانتقل كثير من أهلها عنها ، وتفرّقوا في بلدان شتّى ، وكثرت الأراجيف من عوامّها .

وفي ذي الحجة من هذه السنة وجّه صاحب الزَّنْج إلى شاهين بن بسْطام جيشاً عليهم يحيى بن محمد البحرانيّ لحربه ؛ فلم يَنَلْ يحيى من شاهين ما أمّل وانصرف عنه .

وفي رجب من هذه السنة وافى البصرة سعيد بن صالح المعروف بالحاجب من قِبَل السلطان لحرب صاحب الزَّنْج .

وفيها كانت بين موسى بن بُغا الذين كان توجّهوا معه إلى ناحية الجبل مخالفين لمحمد بن الواثق وبين مساور بن عبد الحميد الشاري وقعة بناحية خانِقين ومُساور في جمع كثير وموسى وأصحابه في مائتين ، فهزموا مساوراً وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة .

خلافة المعتمد على الله

وفيها بويع أحمد بن أبي جعفر المعروف بابن فِتْيان ، وسُمِّيَ المعتمد على الله ، وذلك يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب .

وفيها بعث إلى موسى بن بغا وهو بخانِقين بموت محمد بن الواثق وبيعة المعتمد ، فوافى سامُرّا لعشر بقين من رجب .

ولليلتين خَلَتا من شعبان ، ولِيَ الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان .

وفيها ظهر بالكوفة عليّ بن زيد الطالبيّ ، فوجّه إليه الشاه بن ميكال في عسكر كثيف ، فلقيَه عليّ بن زيد في أصحابه ، فهزمه وقتل جماعة كثيرة من أصحابه ، ونجا الشاه .

وفيها وثب محمد بن واصل بن إبراهيم التميميّ ؛ وهو من أهل فارس ، ورجلٌ من أكرادها يقال له أحمد بن الليث بالحارث بن سيما الشرابيّ عامل فارس ، فحارباه ، فقتِل الحارث ، وغلب محمد بن واصل على فارس .

وفيها وجّه مفلح لحرب مساور الشاري وكنجور لحرب عليّ بن زيد الطالبيّ بالكوفة .

وفيها غَلَب جيش الحسن بن زيد الطالبيّ على الريّ ، في شهر رمضان منها .

وفيها شخص موسى بن بغا ـ لإحدى عشرة ليلةً خلت من شوّال منها ـ من سامرّا إلى الريّ ، وشيّعه المعتمد .

وفيها كانت بين أماجور وابن لعيسى بن الشيخ على باب دِمشق وقعة ، فسمعتُ مَنْ ذكر أنـه حضر أماجور، وقد خرج في اليوم الذي كانت فيه هذه الوقْعة من مدينة دمشق مرتاداً لنفسه عسكراً وابنُ عيسى بن الشيخ وقائد لعيسى يقال له أبو الصهباء في عسكر لهما بالقرب من مدينة دمشق ، فاتصل بهما خبـرُ خروج أماجور ، وأنه خرج في نفر من أصحابه يسير ،فطمعا فيه ، فزحفا بمَنْ معهما إليه ، ولا يعلم أماجور بزحُوفهما إليه حتى لقياه ، والتحمت الحرب بين الفريقين ، فقتِل أبو الصهباء ، وهُزم الجمع الذي كان معه ومع ابن عيسى ؛ ولقد سمعتُ مَنْ يذكر أنّ عيسى وأبا الصهباء كانا يومئذ في زُهاء عشرين ألفاً من رجالهما ،وأن أماجور في مقدار مائتين إلى أربعمائة .

وفي يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة منها قدم أبو أحمد بن المتوكل من مكة إلى سامرّا .

وفيها وجّه إلى عيسى بن الشيخ إسماعيل بن عبد الله المروزيّ المعروف بأبي النصر ومحمد بن عبيد الله الكريزيّ القاضي والحسين الخادم المعروف بعرق الموت ، بولاية أرمينيَة ، على أن ينصرف عن الشأم آمناً ؛ فقبل ذلك وشخص عن الشأم إليها .

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن أحمد بن عيسى بن أبي جعفر المنصور .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأمور الجليلة

فمن ذلك ما كان من مصير يعقوب بن الليث إلى فارس ، وبعثة المعتمد إليه طُغتا وإسماعيل بن إسحاق وأبا سعيد الأنصاريّ في شعبان منها ، وكتاب أبي أحمد بن المتوكل إليه بولاية بَلْخ وطَخارستان إلى ما يلي ذلك من كَرْمان وسجستان والسِّند وغيرها ، وما جعل له من المال في كلّ سنة ، وقبوله ذلك وانصرافه .

وفي ربيع الآخر منها قدم رسول يعقوب بن الليث بأصنام ذكر أنه أخذها من كابُل .

ولاثنتي عشرة خلتْ من صفر عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ، ثم عقد له أيضاً بعد ذلك لسبع خَلَوْن من شهر رمضان على بغداد والسواد وواسط وكُور دِجلة والبصرة والأهواز وفارس ، وأمر أن يُوَلّي صاحب بغداد أعماله ، وأن يُعْقد ليارْجوخ على البصرة وكُور دِجْلة واليمامة والبحرين مكان سعيد بن صالح ، فولّى يارجوخ منصور بن جعفر بن دينار البصرة وكُور دجلة إلى ما يلي الأهواز .

وفيها أمِر بُغراج باستحثاث سعيد الحاجب في المصير إلى دِجْلة والإناخة بإزاء عسكر صاحب الزَّنج ، ففعل ذلك بُغراج ـ فيما قيل ـ ومضى سعيد الحاجب لما أُمِر به من ذلك في رجب من هذه السنة .

فذُكر أن سعيداً لما صار إلى نهر مَعْقِل وجد هنالك جيشاً لصاحب الزَّنج بالنهر المعروف بالمُرْغاب ـ وهو أحَد الأنهار المعترضة في نهر معقِل ـ فأوقع بهم فهزمهم ، واستنقذ ما في أيديهم من النِّساء والنهب ، وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات ، منها جراحة في فيه . ثم سار سعيد حتى صار إلى الموضع المعروف بعسكر أبي جعفر المنصور ، فأقام به ليلة ، ثم سار حتى أناخ بموضع يقال له هَطَمَة من أرض الفرات ، فأقام هنالك أياماً يعبِّي أصحابه ، ويستعدّ للقاء صاحب الزَّنْج . وبلغه في أيام مقامه هنالك ، أن جيشاً لصاحب الزَّنْج بالفُرات ، فقصد لهم بجماعة من أصحابه ، فهزمهم ، وكان فيهم عمران زَوْج جدّة ابن صاحب الزَّنْج المعروف بأنكلاي ، فاستأمن عمران هذا إلى بُغراج ، وتفرّق ذلك الجمع . قال محمد بن الحسن : فلقد رأيتُ المرأة من سكان الفرات تجد الزنجيَّ مستتراً بتلك الأدغال ، فتقبض عليه حتى تأتي به عسكر سعيد ما به منها امتناع . ثم قصد سعيد حرب الخبيث فعبر إلى غربيّ دجلة ، فأوقع به وقعات في أيام متوالية ، ثم انصرف سعيد إلى معسكره بهَطَمَة ، فأقام به يحاربه باقي رجب وعامّة شعبان .

وفيها تخلص إبراهيم بن محمد بن المدبر من حبس الخبيث ، وكان سبب تخلصه منه ـ فيما ذكر ـ أنه كان محبوساً في غرفة في منزل يحيى بن محمد البحرانيّ، فضاق مكانه على البَحْرانيّ، فأنزله إلى بيت من أبيات داره ،

فحبسه فيه ، وكان موكَّلًا به رجلان ، ملاصقٌ مسكنهما المنزل الذي فيه إبراهيم ، فبذل لهما ، ورغّبهما ، فسرَبَا له سرَباً إلى الموضع الذي فيه إبراهيم من ناحيتهما ، فخرج هو وابن أخ له يعرف بأبي غالب ورجل من بني هاشم كان محبوساً معهما .

وفيها أوقع أصحاب الخبيث بسعيد وأصحابه فقتلوه ومَنْ معه .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة :

ذُكر أن الخبيث وجّه إلى يحيى بن محمد البحرانيّ وهو مقيم بنهر مَعْقِل في جيش كثيف يأمره بالتوجّه بألف رجل من أصحابه ، يرئّس عليهم سليمان بن جامع وأبا الليث ، ويأمرهما بالقَصْد لعسكر سعيد ليلًا حتى يوقعا به في وقت طلوع الفجر . ففعل ذلك ، فصارا إلى عسكر سعيد ، فصادفا منهم غِرّةً وغفلة ، فأوقعا بهم وقْعَةً ، فقتلا منهم مقتلة عظيمة ، وأحرَق الزّنج يومئذ عسكر سعيد، فضعف سعيد ومَنْ معه ، ودخل أمرَهم خللٌ للبيات الذي تهيّأ عليهم ، ولاحتباس الأرزاق عنهم ، وكانت سبّبت لهم من مال الأهواز ؛ فأبطأ بها عليهم منصور بن جعفر الخياط ، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز ، وله من ذلك يدٌ في الخراج .

ولما كان من أمر سعيد بن صالح ما كان ، أمِر بالانصراف إلى باب السلطان وتسليم الجيش الذي معه وما إليه من العمل هنالك إلى منصور بن جعفر ؛ وذلك أنّ سعيداً ترك بعدما كان من بيات الزّنْج أصحابه وإحراقهم عسكره ؛ فلم يكن له حركة إلى أن صُرِف عمّا كان إليه من العمل هنالك .

وفيها كانت وقعة بين منصور بن جعفر الخياط وبين صاحب الزنّج ، قُتل فيها من أصحاب منصور جماعة كثيرة .

ذكر الخبر عن صفة هذه الوقعة :

ذُكر أن سعيداً الحاجب لّما صُرف عن البصرة ، أقام بُغْرَاج بها يحمِي أهلها ، وجعل منصور يجمع السفن التي تأتي بالميرة ، ثم يُبذْرِقها في الشَّذَا إلى البصرة ، فضاق بالزنج الميرة . ثم عبّأ منصور أصحابه ، وجمع إلى الشذا التي كانت معه الشَّذَا الجنّابيات والسفن ، وقصد صاحبَ الزّنج في عسكره ، فصعد قصراً على دجلة ، فأحرقه وما حوله ، ودخل عسكر الخبيث من ذلك الوجه ، ووافاه الزّنج ، وكمّنوا له كميناً ، فقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة ، وألجىء الباقون إلى الماء ، فغرق منهم خلق كثير ، وحمِل من الرؤوس يومئذٍ - فيما ذكر - زهاء خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن محمد البحرانيّ بنهر معقِل ، وأمر بنصبها هنالك .

وفيها ظَهر من بغداد بموضع يقال له برْكَةُ زلزلٍ ، على خنّاق ، وقد قتل خلقاً كثيراً من النساء ودفنهنّ في دار كان فيها ساكناً ، فحمِل إلى المعتمد ؛ فبلغني أنه أمَر بضربه ، فضُرِب ألفي سوط وأربعمائة أرزن فلم يمت حتى ضرب الجلّادون أنثيَيْه بخشب العقابيْن ، فمات ، فرُدّ إلى بغداد فصُلب بها ثم أُحرِقت جثته .

وفيها قتِل شاهين بن بسطام وهزِم إبراهيم بن سيما .

ذكر الخبر عن سبب مقتل شاهين وانهزام إبراهيم :

ذُكر أن البحرانيّ كان كتب إلى الخبيث يُشير عليه بتوجيه جيش إلى الأهواز للمقام بها ، ويرغّبه في ذلك ، وأن يبدأ بقطع قنطرة أرْبُك ؛ لئلا يصلَ الخيل إلى الجيش . وإن الخبيث وجّه عليّ بن أبان لقطع القنطرة ،

فلقيَه إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس ؛ وكان بها مع الحارث بن سيما في الصَّحْراء المعروفة بدَسْت أربُك ، وهي صحراء بين الأهواز والقنطرة . فلما انتهى عليّ بن أبان إلى القنطرة ، أقام مُخْفِياً نفسه ومَنْ معه ، فلمّا أصحَرَت الخيل ، خرجت عليه من جهات ، فَقَتَلَتْ من الزَّنْج خَلْقاً كثيراً ، وانهزم عليّ ، وتبعته الخيل إلى الفَنْدم ، وأصابته طعنة في أخمَصِه ، فأمسك عن التوجّه إلى الأهواز ، وانصرف على وجهه إلى جُبَّى ، وصُرف سعيد بن يكسين ووليَ إبراهيم بن سيما ، وكاتبه شاهين ، فأقبلا جميعاً ، إبراهيم بن سيما على طريق الفرات قاصداً لذُنَابة نهر جُبّى ، وعليّ بن أبان بالخيزرانيّة؛ فأقبل شاهين بن بِسْطام على طريق نهر موسى ، يقدّر لقاء إبراهيم في الموضع الذي قصد إليه ، وقد اتّعدا لمواقعة عليّ بن أبان ، فسبق شاهين . وأتى عليّ بن أبان رجلٌ من نهر موسى فأخبره بإقبال شاهين إليه ؛ فوجّه عليّ نحوه ، فالتقيا في وقت العصر على نهر يعرف بأبي العباس - وهو نهر بين نهر موسى ونهر جُبّى - ونشبت الحرب بينهما ، وثبت أصحاب شاهين ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، ثم صدمهم الزّنج صدمة صادقة ، فولّوْا منهزمين ؛ فكان أوّل مَنْ قتِل يومئذ شاهين وابن عمٍّ له يقال له حيّان ، وذلك أنه كان في مقدّمة القوم ، وقُتِل معه من أصحابه بشر كثير . وأتى عليّ بن أبان مخبر فأخبره بورود إبراهيم بن سيما ؛ وذلك بعد فراغه من أمر شاهين ، فسار من فوره إلى نهر جُبّى ، وإبراهيم بن سيما معسكر هنالك لا يعلم خبر شاهين ، فوافاه عليّ في وقت العشاء الآخرة ، فأوقع بهم وقعة غليظة قتل فيها جمعاً كثيراً ؛ وكان قتلُ شاهين والإيقاع بإبراهيم فيما بين العصر والعشاء والآخرة .

قال محمد بن الحسن : فسمعت عليّ بن أبان يحدّث عن ذلك ، قال : لقد رأيتُني يومئذ ، وقد ركبني حُمّى نافض كانت تعتادني ، وقد كان أصحابي حين نالوا ما نالوا من شاهين تفرّقوا عني ، فلم يصر إلى عسكر إبراهيم بن سيما معي إلا نحو من خمسين رجلاً ، فوصلت إلى العسكر ، فألقيت نفسي قريباً منه ، وجعلت أسمع ضجيج أهلِ العسكر وكلامهم ؛ فلما سكنتْ حركتُهُم ، نهضت فأوقعتُ بهم .

ثم انصرف عليّ بن أبان عن جُبّى لمّا قُتِل شاهين ، وهُزم إبراهيم بن سيما ، لورود كتاب الخبيث عليه بالمصير إلى البصرة لحرب أهلها .

وفيها دخل أصحاب الخبيث البصرة .

ذكر الخبر عن سبب وصولهم إلى ذلك وما عملوا بها حين دخلوها :

ذُكر أنّ سعيد بن صالح لمّا شَخَصَ من البَصْرة ضمّ السلطان عملَه إلى منصور بن جعفر الخياط ؛ وكان من أمرِ منصور وأمرِ أصحاب الخبيث ما قد ذكرناه قبلُ ، وضعف أمر منصور ، ولم يَعُدْ لقتال الخبيث في عسكره ، واقتصر عَلَى بذْرقة القَيْروانات ، واتّسع أهلُ البصرة لوصول المِيَر إليهم ؛ وكان انقطاع ذلك عنهم قد أضرّ بهم ، وانتهى إلى الخبيث الخبر بذلك ، واتساعُ أهل البصرة ، فعظم ذلك على الخبيث ، فوجّه عليّ بن أبان إلى نواحي جُبَّى ، فعسكر بالخيزُرانيّة ، وشغل منصور بن جعفر عن بَذْرَقة القيْروانات إلى البصرة ، فعاد حال أهل البصرة إلى ما كانت عليه من الضيق . وألحّ أصحاب الخبيث على أهل البصرة بالحرب صباحاً ومساء .

فلما كان في شوال من هذه السنة أزمع الخبيث على جَمْع أصحابه للهجوم على أهل البصرة ، والجدّ في خرابها ، وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفرّقهم ، وإضرار الحصار بهم ، وخراب ما حولها من القرى ؛ وكان قد

نظر في حساب النجوم ، ووقف على انكساف القمر ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة تخلو من الشهر .

فذكر عن محمد بن الحسن بن سهل أنه قال : سمعتُه يقول : اجتهدتُ في الدعاء على أهل البصرة ، وابتهلت إلى الله في تعجيل خَرَابها ، فخوطبتُ ، فقيل لي : إنما البصرة خُبْزةٌ لك تأكلها من جوانبها ؛ فإذا انكسر نصْفُ الرغيف خربت البصرة ؛ فأوّلْتُ انكسار نصف الرغيف انكساف القمر المتوقَّع في هذه الأيام ، وما أخلق أمر البصرة أن يكون بعده .

قال : فكان يحدّث بهذا حتى أفاض فيه أصحابه ، وكثر تردده في أسماعهم وإحالته إياه بينهم .

ثم ندب محمد بن يزيد الدارميّ ؛ وهو أحد مَنْ كان صحبه بالبحرين للخروج إلى الأعراب ، وأنفذه فأتاه منهم خَلْق كثير ، فأناخوا بالقَنْدل ، ووجّه إليهم الخبيث سليمان بن موسى الشعرانيّ ، وأمرهم بتطرّق البصرة ، والإيقاع بها ، وتقدّم إلى سليمان بن موسى في تمرين الأعراب على ذلك ؛ فلمّا وقع الكسوف أنهض عليّ بن أبان ، وضمّ إليه طائفة من الأعراب ، وأمره بإتيان البصرة مما يلي بني سعد ، وكتب إلى يحيى بن محمد البحرانيّ - وهو يومئذ محاصر أهل البصرة - في إتيانها مما يلي نهر عديّ ، وضمّ سائر الأعراب إليه . قال محمد بن الحسن : قال شبل : فكان أوّل مَنْ واقع أهل البصرة عليّ بن أبان ، وبُغراج يومئذ بالبصرة في جماعة من الجُند ، فأقام يقاتلهم يومين ،ومال الناس نحوه.

وأقبل يحيى بمن معه مما يلي قصر أنس قاصداً نحو الجسر ، فدخل عليّ بن أبان المهلبيّ وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال ، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت ، وغادى يحيى البصرة يوم الأحد ، فتلقّاه بُغراج وبُرَيْهٌ في جَمْع فردّاه ، فرجع فأقام يومه ذلك ، ثم غاداهم يوم الاثنين ، فدخل وقد تفرّق الجند ، وهرب بُريه ، وانحاز بغراج بمَن معه، فلم يكن في وجهه أحدٌ يدافعه ، ولقيَه إبراهيم بن يحيى المهلبيّ ، فاستأمنه لأهل البصرة فآمنهم ، ونادى منادي إبراهيم بن يحيى : مَنْ أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم، فحضر أهل البصرة قاطبةً حتى ملؤوا الرّحاب. فلما رأى اجتماعَهم انتهز الفرصة في ذلك منهم، فأمر بأخذ السكك والطرق والدروب لئلا يتفرقوا وغدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم، فقتل كلّ مَنْ شهد ذلك المشهد إلّا الشاذّ. ثم انصرف يومَه ذلك، فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخُرَيبة.

قال محمد : وحدّثني الفضل بن عديّ الدارميّ ، قال : أنا حين وجّه الخائن لحرب أهل البصرة في حَيز أهل البصرة مُقيمٌ في بني سعد ، قال : فأتانا آت في الليل ؛ فذكر أنه رأى خيلاً مجتازة تؤمّ قصر عيسى بالخَرَيبة ، فقال لي أصحابي : اخرج فتعرّف لنا خَبَر هذه الخيل ، فخرجتُ فإذا جماعة من بني تميم وبني أسد ، فسألتهم عن حالهم ، فزعموا أنهم أصحاب العَلَويّ المضمومون إلى عليّ بن أبان، وأنّ عليًّا يوافي البصرة في غدِ تلك الليلة ، وأنّ قصده لناحية بني سعد ، وأن يحيى بن محمد بجمعه قاصد لناحية آل المهلب . فقالوا : قل لأصحابك من بني سعد : إن كنتم تريدون تحصينَ حُرَمكم ، فبادروا إخراجهم قبل إحاطة الجيش بكم .

قال الفضل : فرجعتُ إلى أصحابي ، فأعلمتُهم خبرَ الأعراب فاستعدّوا، فوجهوا إلى بُريْهٍ يعلِمونه الخبر ، فوافاهم فيمن كان بقِيَ من الخَوَل وجماعة من الجند وقت طلوع الفجر ، فساروا حتى انتهوْا إلى خندق يعرف ببني حِمَّان ، ووافاهم بنو تميم ومقاتلة السعديّة ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم عليّ بن أبان في جماعة الزَّنْج والأعراب على مُتُون الخيل ، فذهِل بُريه قبل لقاء القوم ، فرجع إلى منزله ؛ فكانت هزيمةٌ ، وتفرّق مَنْ كان

اجتمع من بني تميم ، ووافى عليّ فلم يدافعه أحدٌ ، ومرّ قاصداً إلى المِرْبد ، ووجّه بُرَيه إلى بني تميم يستصرخُهم ؛ فنهض إليه منهم جماعة ، فكان القتال بالمِرْبَد بحضرة دار بُرَيْه ، ثم انهزم بُريه عن داره ، وتفرّق الناس لانهزامه ، فأحرقت الزنج دارَه ، وانتهبوا ما كان فيها ، فأقام الناس يقتلون هنالك ، وقد ضعُف أهلُ البصرة ، وقَوِي عليهم الزَّنْج ، واتصلت الحرب بينهم إلى آخر ذلك اليوم ، ودخل عليّ المسجد الجامع فأحرقه ، وأدركه فتح غلام أبي شيث في جماعة من البصريّين ، فانكشف عليّ وأصحابه عنهم ، وقُتِل من الزَّنْج قوم ، ورجع عليّ فعسكر في الموضع المعروف بمقبرة بني شيبان ، فطلب الناس سلطاناً يقاتلون معه فلم يجدوه ، وطلبوا بُرَيْهاً ، فوجدوه قد هرب ، وأصبح أهلُ البصرة يوم السبت ، فلم يأتهم عليّ بن أبان ، وغاداهم يوم الأحد ، فلم يقف له أحد ، وظفر بالبصرة .

قال محمد بن الحسن : وحدّثني محمد بن سمعان ، قال : كنت مقيماً بالبصرة في الوقت الذي دخلها الزَّنْج ، وكنت أحضرُ مجلس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المعروف ببُريه ، فحضرته وحضر يوم الجمعة لعشر ليال خلون من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين وعنده شهاب بن العلاء العنبريّ ، فسمعتُ شهاباً يحدّثه أن الخائن قد وجه بالأموال إلى البادية ليعرّض بها رجال العرب ، وأنه قد جمع جمعاً كثيراً من الخيل ، وهو يريد تورّد البصرة بهم وبرجّالته من الزنج ، وليس بالبصرة يومئذ من جند السلطان إلّا نيّف وخمسون فارساً مع بُغراج ، فقال بُريه لشهاب : إنَّ العرب لا تقدم عليّ بمساءة ؛ وكان بُريه مطاعاً في العرب ، محبّباً إليهم .

قال ابن سمعان : فانصرفت من مجلس بُرَيه ، فلقيت أحمد بن أيوب الكاتب ، فسمعته يحكي عن هارون بن عبد الرحيم الشيعيّ ؛ وهو يومئذ يلي بَريد البصرة ، أنّه صَحّ عنده أنّ الخائن جَمّع لثلاث خَلَوْن من شَوّال في تسعة أنفس ؛ فكان وجوه أهل البصرة وسلطانها المقيم بها من الغَبَا عن حقيقة خبر الخائن على ما وصفت . وقد كان الحصار عضّ أهل البصرة ، وكثر الوَباء بها ، واستعرَت الحرب فيها بين الحزبين المعروفين بالبلالية والسعدية .

فلما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيَتْ من شوّال من هذه السنة ، أغارت خيل الخائن على البَصْرة صبحاً في هذا اليوم ؛ من ثلاثة أوجه من ناحية بني سَعْد والمربد والخُرَيبة ؛ فكان يقودُ الجيش الذي سار إلى المِربَد عليّ بن أبان ، وقد جعل أصحابه فرقتين ؛ فرقة وَلّى عليها رفيقاً غلام يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان ، وأمرهم بالمصير إلى بني سعد ، والفرقة الأخرى سار هو فيها إلى المِرْبَد ؛ وكان يقود الخيل التي أتت من ناحية الخُريبة يحيى بن محمد الأزرق البحرانيّ ، وقد جمع أصحابه من جهة واحدة ؛ وهو فيهم ؛ فخرج إلى كلّ فرقة من هؤلاء من خفّ مِن ضعفاء أهل البصرة ، وقد جَهَدهم الجوع والحصار ، وتفرّقت الخيل التي كانت مع بُغراج فرقتين : فرقة صارت إلى ناحية المِرْبَد وفرقة صارت إلى ناحية الخُرَيبة ، وقاتل من ورد ناحية بني سعد جماعة من مقاتلة السعديّة فتح غلام أبي شيث وصحبه ، فلم يُغْنِ قليلٌ من أهل البصرة إلى جموع الخبيث شيئاً ، وهجم القوم بخيلهم ورجلهم .

قال ابن سمعان : فإنّي يومئذ لفِي المسجد الجامع ، إذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه : زهران والمِرْبد وبني حِمّان في وقت واحد ؛ كأنّ موقِدِيها كانوا على ميعاد ؛ وذلك صدْر يوم الجمعة ، وجلّ الخطب ، وأيقن أهل البصرة بالهلاك، وسَعَىٰ مَنْ كان في المسجد الجامع إلى منازلهم ، ومضيتُ مبادراً إلى منزلي ؛ وهو

يومئذ في سكة المِرْبد ، فلقيني منهزمو أهل البصرة في السكة راجعين نحو المسجد الجامع ، وفي أخراهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ ؛ وهو على بغل متقلّد سيفاً يصيح بالناس : ويحكم ! أتسلمون بلدكم وحرمكم ! هذا عدوّكم قد دخل البلد ، فلم يلووا عليه ، ولم يسمعوا منه ، فمضى وانكشفت سكة المِرْبد ؛ فصار بين المنهزمين والزَّنج فيها فضاء يسافر فيه البصَر .

قال محمد : فلما رأيتُ ذلك دخلت منزلي ، وأغلقت بابي ، وأشرفتُ فإذا خيل من الأعراب ورجّالة الزنج ، تقدَّمهم رجل على حصان كُميت ، بيده رمح ، عليه عَذَبة صفراء ؛ فسألت بعد أن صِير بي إلى مدينة الخائن عن ذلك الرجل ، فادّعى عليّ بن أبان أنه ذلك الرجل ، وأنَّ الراية الصفراء رايتُه ، ودخل القوم ، فغابوا في سكة المِرْبد إلى أن بلغوا باب عثمان ؛ وذلك بعد الزوال ثم انصرفوا ، فظنّ الناس من رعاع أهل البصرة وجهالهم أنّ القوم قد مضوْا لصلاة الجمعة ؛ وكان الذي صرفهم أنهم خشوا أن يخرجَ عليهم جمع السعديّة والبِلالية من المربَّعة ، وخافوا الكمناء هناك ، فانصرفوا وانصرف من كان بناحية زَهْران وبني حصن ؛ وذلك بعد أن أحرقوا وأنهبوا واقتدروا على البلد ، وعلموا أنه لا مانع لهم منه ، فأغبُّوا السبت والأحد ، ثم غادوا البصرة يوم الاثنين ، فلم يجدوا عنها مدافعاً ، وجُمع الناس إلى باب إبراهيم بن يحيى المهلبيّ وأعطوا الأمان .

قال محمد بن سمعان : فحدثني الحسن بن عثمان المهلبيّ الملقب بمُنْدَلِقَة ـ وكان من أصحاب يحيى بن محمد ـ قال : أمرني يحيى في تلك الغداة بالمصير إلى مقبره بني يَشْكر ، وحَمْل ما كان هناك من التنانير ، فصرتُ إليها ، فحملتُ نَيّفاً وعشرين تَنّوراً على رؤوس الرجال ، حتى أتيت بها دار إبراهيم بن يحيى ، والناس يظنّون أنها تعدّ لاتّخاذ طعام لهم ؛ وهم من الجوع وشدة الحصار والجهد على أمر عظيم ، وكثر الجمع بباب إبراهيم بن يحيى ، وجعلوا ينوبون ويزدادون ؛ حتى أصبحوا وارتفعت الشمس .

قال ابن سمعان : وأنا يومئذ قد انتقلت من سكة المربد من منزلي إلى دار جدّ أمي هشام المعروف بالداف ، وكانت في بني تميم ، وذلك للذي استفاض في الناس من دخول بني تميم في سِلْم الخائن ؛ فإني لهناك إذ أتى المخبرون بخبر الوَقْعة بحضرة دار إبراهيم بن يحيى ، فذكروا أن يحيى بن محمد البحرانيّ أمر الزَّنج ، فأحاطوا بذلك الجمع ، ثم قال : مَنْ كان من آل المهلب فلْيدخل دار إبراهيم بن يحيى ، فدخلتْ جماعة قليلة ، وأغلقوا الباب دونهم . ثم قيل للزَّنج : دونكم الناس فاقتلوهم ، ولا تُبقوا منهم أحداً . فخرج إليهم محمد بن عبد الله المعروف بأبي الليث الأصبهاني ، فقال للزَّنج : كيلوا ـ وهي العلامة التي كانوا يعرفونها فيمن يؤمرون بقتله ـ فأخذ الناسَ السيف .

قال الحسن بن عثمان : فإني لأسمع تشهّدهم وضجيجهم ، وهم يقتَلون ، ولقد ارتفعت أصواتهم بالتشهّد ؛ حتى لقد سمعت بالطُّفَاوة ، وهم على بُعد من الموضع الذي كانوا به . قال : ولما أُتِيَ على الجمع الذي ذكرنا أقبل الزّنج على قتل مَنْ أصابوا ، ودخل عليّ بن أبان يومئذ ، فأحرق المسجد الجامع ، وراح إلى الكَلاَّء ، فأحرقه من الجبل إلى الجسر ، والنار في كلّ ذلك تأخذ في كلّ شيء مَرّت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع ، ثم ألحّوا بالغُدو والرّواح على مَنْ وجدوا يسوقونهم إلى يحيى بن محمد ؛ وهو يومئذ نازلٌ بسَيْحان ؛ فمن كان ذا مال قرّره حتى يستخرج ماله ، ويقتله ، ومن كان مُمْلِقاً قتله .

وذُكِرَ عن شبْل أنه قال : باكر يحيى البصْرة يوم الثلاثاء بعد قتل مَنْ قتل بباب إبراهيم بن يحيى ، فجعل ينادي بالأمان في الناس ليظهروا ، فلم يظهر له أحدٌ ، وانتهى الخبر إلى الخبيث ، فصرف عليّ بن أبان عن البصرة ، وأفرد يحيى بها لموافقة ما كان أتى يحيى من القتل إياه ووقوعه لمحبّته ، وأنه استقصر ما كان من عليّ بن أبان المهلّبيّ من الإمساك عن العيْث بناحية بني سعد . وقد كان عليّ بن أبان أوفد إلى الخبيث من بني سعد وفداً ، فصاروا إليه ، فلم يجدوا عنده خيراً ، فخرجوا إلى عَبّادان ، وأقام يحيى بالبصرة ، فكتب إليه الخبيث يأمره بإظهار استخلاف شِبْل على البصرة ليسكن الناس ، ويظهر المستخفي ومَنْ قد عُرف بكثرة المال ، فإذا ظهروا أخِذوا بالدلالة على ما دفنوا وأخفَوْا من أموالهم . ففعل ذلك يحيى ؛ فكان لا يخلو في يوم من الأيام من جَماعة يُؤتى بهم ، فمَنْ عُرف منهم باليسار استنظف ما عنده وقتله ، ومن ظهرت له خَلّتُهُ عاجله بالقتل ؛ حتى لم يدع أحداً ظهر له إلّا أتى عليه ، وهرب الناس على وجوههم ، وصرف الخبيث جيشه عن البصرة .

قال محمد بن الحسين : ولما أخرب الخائن البصرة ، وانتهى إليه عظيم ما فعل أصحابه فيها ، سمعته يقول : دعوتُ على أهل البصرة في غداة اليوم الذي دخلها أصحابي ، واجتهدت في الدعاء ، وسجدت ، وجعلت أدعو في سجودي ، فرُفعتْ إليّ البصرة ، فريتها ورأيت أصحابي يقاتلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلاً واقفاً في الهواء في صورة جَعْفر المعلوف المَتَولّي كان للاستخراج في ديوان الخراج بسامُرّا ، وهو قائم قد خفض يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلب البصرة بأهلها ، فعلمتُ أن الملائكة تولّت إخرابها دون أصحابي ، ولو كان أصحابي تولَّوْا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم الذي يحكى عنها . وإن الملائكة لتنصرني وتؤيدني في حربي ، وتثبِّت مَنْ ضعُف قلبه من أصحابي .

قال محمد بن الحسن : وانتسب الخبيث إلى يحيى بن زيد بن عليّ بعد إخرابه البصرة ، وذلك لمصير جماعة من العلويّة الذين كانوا بالبصرة إليه ، وأنه كان فيمن أتاه منهم علِيّ بن أحمد بن عيسى بن زيد ، وعبد الله بن عليّ في جماعة من نسائهم وحُرَمهم ، فلمّاجاؤوه ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى ، وانتسب إلى يحيى بن زيد .

قال محمد بن الحسن : سمعتُ الخبيث وقدحضره جماعة من النوْفليّين ، فقال القاسم بن الحسن النوفليّ : إنه قد كان انتهى إلينا أنك من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فقال : لست من ولد عيسى ، أنا من ولد يحيى بن زيد . وهو في ذلك كاذب ، لأن الإجماع في يحيى أنه لم يعقِب إلّا بنتاً ماتت وهي ترضع .

وفيها أشخص السلطان محمداً المولّد إلى البصرة لحرب صاحب الزَّنْج فشخص من سامُرّا يوم الجمعة لليلة خلت من ذي القعدة .

ذكر الخبر عما كان من أمر المولّد هناك :

ذكر أن محمداً المعروف بالمولّد لما صار إلى ما هنالك نزل الأبُلّة ، وجاء بُرَيه ، فنزل البصرة ، واجتمع إلى بُريه من أهل البصرة خلق كثير ممن كان هرب ، وكان يحيى حين انصرف عن البصرة أقام بالنهر المعروف بالغوثيّ .

قال محمد : قال شِبْل : فلما قدم محمد المولد كتب الخبيث إلى يحيى يأمره بالمصير إلى نهر أوّا ، فصار إليه

بالجيش ، وأقام يحارب المولّد عشرة أيام ، ثم أوطن المولّد المقام واستقرّ وفتر عن الحرب ، فكتب الخبيث إلى يحيى يأمره بتبييته ، ووجَّهَ إليه الشذا مع المعروف بأبي الليث الأصبهانيّ ، فبيّته ونهض المولّد بأصحابه ، فقاتلهم بقية ليلته ومن غدٍ إلى العصر ، ثم ولى منصرفاً ، ودخل الزَّنج عسكره ، فغنموا ما فيه . فكتب يحيى إلى الخبيث بخبره ، فكتب إليه يأمره باتباعه ، فاتبعه إلى الحوانيت ، وانصرف ، فمرّ بالجامدَة ، فأوقع بأهلها ، وانتهب كلَّ ما كان في تلك القرى ، وسفَك ما قدر على سفكه من الدماء ، ثم عسكر بالجالة ، فأقام هناك مدّة ، ثمّ عاد إلى نهر معقل .

وفيها أخذ محمد المولّد سعيد بن أحمد بن سعيد بن سَلْم الباهليّ ، وكان قد تغلّب على البطائح ، هو وأصحابه من باهلة وأفسدوا الطريق .

وفيها خالف محمد بن واصل السلطان بفارس ، وغلب عليها .

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس .

وفيها وثب بسيل المعروف بالصقلبيّ ـ وقيل له الصقلبيّ وهو من أهل بيت المملكة ، لأنه أمه صقلبيَّة ـ على ميخائيل بن توفيل ملك الروم فقتله ، وكان ميخائيل منفرداً بالمملكة أربعاً وعشرين سنة ، وتملّك الصقلبيّ بعده على الروم .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأمور الجليلة

فمن ذلك ما كان من الموافاة بسعيد بن أحمد بن سعيد بن سلْم الباهليّ باب السلطان ، وأمر السلطان بضربه بالسياط ، فضرب سبعمائة سوط ـ فيما قيل ـ في شهر ربيع الآخر منها ، فمات فصُلِب .

وفيها ضُرب عنق قاضٍ لصاحب الزَّنج ، كان يقضي له بعبّادان ، وأعناق أربعة عشر رجلاً من الزَّنْج بباب العامّة بسامُرّا ، كانوا أسِرُوا من ناحية البصرة .

وفيها أوقع مُفْلح بأعراب بتَكريت ، ذكر أنهم كانوا مايَلوا الشاري مساوراً .

وفيها أوقع مسرور البلخيّ بالأكراد اليعقوبيّة فهزمهم ، وأصاب فيهم .

وفيها دخل محمد بن واصل في طاعة السلطان ، وسلم الخراج والضياع بفارس إلى محمد بن الحسين بن الفيّاض .

وعقد المعتمد يوم الاثنين لعشر بقين من شهر ربيع الأول لأبي أحمد أخيه على ديار مُضر وقنّسرين والعواصم ، وجلس يوم الخميس مستهلّ شهر ربيع الآخر ، فخلع عليه وعلى مُفلِح ، فشخصا نحو البصرة وركب ركوباً عامًّا ، وشيع أبا أحمد إلى بَرْكُوَار ، وانصرف .

وفيها قُتِل منصور بن جعفر بن دينار الخيّاط .

ذكر الخبر عن سبب مقتله وكيف كان أمره :

ذكر أن الخبيث لما فرغ أصحابه من أمر البصرة ، أمر عليّ بن أبان المهلبيّ بالمصير إلى جُبّى لحرب منصور بن جعفر ، وهو يومئذ بالأهواز ، فخرج إليه ، فأقام بإزائه شهراً ، وجعل منصور يأتي عسكر عليّ وهو مقيمٍ بالخيزُرانيّة ، ومنصور إذ ذاك في خفّ من الرجال ، فوجّه الخبيث إلى عليّ بن أبان باثنتي عشرة شذاة مشحونة بجُلْدِ أصحابه ،وولّى أمرها المعروف بأبي الليث الأصبهانيّ ، وأمره بالسمع والطاعة لعليّ بن أبان ، فصار المعروف بأبي الليث إلى عليّ ، فأقام مخالفاً له ، مستبدًّا بالرأي عليه ، وجاء منصور كما كان يجيء للحرب ، ومعه شذوات ، فبدر إليه أبو الليث عن غير مؤامرة منه لعليّ بن أبان ، فظفِر منصور بالشَّذَوات التي كانت معه، وقَتَل فيها من البيضان والزَّنج خلقاً كثيراً ، وأفلت أبو الليث ، فانصرف إلى الخبيث ، فانصرف عليّ بن أبان وجميع مَنْ كان معه ، فأقاموا شهراً ، ثم رجع عليّ لمحاربة منصور في رجاله ، فلما استقرّ عليّ وجّه طلائع يأتونه بأخبار منصور وعساكره ، وكان لمنصور والٍ مقيم بَكَرْنَبا ، فبيّت عليّ بن أبان ذلك القائد ، فقتله

وقتل عامّة مَنْ كان معه ، وغنم ما كان في عسكره ، وأصاب أفراساً ، وأحرق العسكر ، وانصرف من ليلته حتى صار في ذُنابة نهر جُبَّى . وبلغ الخبر منصوراً ، فسار حتى انتهى إلى الخيزُرانيّة ، فخرج إليه عليّ في نُفَير من أصحابه ، وكانت الحرب بينهما منذ ضحى ذلك اليوم إلى وقت الظهر ، ثم انهزم منصورٌ ، وتفرّق عنه أصحابُه ، وانقطع عنهم ، وأدركته طائفة من الزَّنْج اتبعوا أثره إلى نهر يعرف بعمر بن مهْران ، فلم يزل يكرّ عليهم حتى تقصّفت رماحه ، ونفذت سهامه ، ولم يبق معه سلاح ، ثم حمل نفسه على النهر ليعبر ، فصاح بحصان كان تحته ، فوثب وقصرت رجلاه ، فانغمس في الماء .

قال شبل : كان سبب تقصير الفرس عن عبور النهر بمنصور ، أنّ رجلاً من الزَّنْج كان ألقى نفسه لمّا رأى منصوراً قاصداً نحو النهر يريد عبورَه فسبقه سباحةً ، فلمّا وثب الفرس تلقاه الأسود ، فنكص به ، فغاصا معاً ، ثم أطلع منصور رأسَه ، فنزل إليه غلام من السودان من عُرفاء مصلِح يقال له أبرون ، فاحتزَّ رأسَه ، وأخذ سَلبه ، وقُتل ممن كان معه جماعة كثيرة ، وقُتل مع منصور أخوه خَلَف بن جعفر ، فولّى يارجوخ ما كان إلى منصور من العمل أصغجون .

ولاثنتي عشرة بقيتْ من جُمادى الأولى منها ، قُتِل مفلِح بسهم أصابه بغير نصل في صُدغه يوم الثلاثاء ، فأصبح ميتاً يوم الأربعاء في غدِ ذلك اليوم ، وحُمِلت جثّته إلى سامُرّا ، فدفن بها .

ذكر الخبر عن سبب مقتله وكيف كان الوصول إليه :

قد مضى ذكري شخوص أبي أحمد بن المتوكل من سامُرّا إلى البصرة لحرب اللعين لمّا تناهى إليه وإلى المعتمد ما كان من فظيع ما ركب من المسلمين بالبصرة ، وما قرب منها من سائر أرض الإسلام ، فعاينتُ أنا الجيش الذي شخص فيه أبو أحمد ومفلح ببغداد ، وقد اجتازوا بباب الطاق ، وأنا يومئذ نازلٌ هنالك ، فسمعت جماعةً من مشايخ أهلِ بغداد يقولون : قد رأينا جيوشاً كثيرة من الخلفاء ، فما رأينا مثلَ هذا الجيش أحسن عُدّة ، وأكمل سلاحاً وعتاداً ، وأكثر عدداً وجمعاً ، وأتبع ذلك الجيش من متسوّقة أهل بغداد خلق كثير .

وذكر عن محمد بن الحسن أن يحيى بن محمد البحرانيّ كان مقيماً بنهر معقِل قبل موافاة أبي أحمد موضعَ الخبيث ، فاستأذنه في المصير إلى نهر العباس ، فكره ذلك ، وخاف أن يوافيَه جيشُ السلطان ، وأصحابه متفرّقون ، فألحّ عليه يحيى حتى أذن له ، فخرج واتّبعَه أكثر أهل عسكر الخبيث .

وكان عليّ بن أبان مقيماً بجُبَّى في جمع كثير من الزَّنج ، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر الخبيث ؛ فهم يغادونها ويراوحونها لنقل ما نالته أيديهم منها ، فليس بعسكر الخبيث يومئذ من أصحابه إلّا القليل ؛ فهو على ذلك من حاله حتى وافى أبو أحمد في الجيش الذي كان معه فيه مفلح ، فوافى جيشٌ عظيم هائل لم يرد على الخبيث مثله ؛ فلمّا انتهى إلى نهر معقِل هرب مَنْ كان هناك من جيش الخبيث ، فلحقوا به مرعوبين ، فراع ذلك الخبيث ، فدعا برئيسين من رؤساء جيشه الذي كان هناك ، فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما ؛ فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد ، وكثرة عدد أهله وإحكام عُدّتهم ؛ وأنّ الذي عاينا من ذلك لم يكن في قوتهما الوقوف له في العِدّة التي كانا فيها ، فسألهما : هل علما مَنْ يقود الجيش ؟ فقالا : لا قد اجتهدنا في علم ذلك ، فلم نجد من يصدُقُنا عنه . فوجّه الخبيث طلائعَه في سُميريّات لتعرف الخبر ، فرجعت رسله إليه

بتعظيم أمر الجيش وتفخيمه ؛ ولم يقف أحدٌ منهم على مَنْ يقوده ويرأسه ، فزاد ذلك في جزعه وارتياعه ، فبادر با لإرسال إلى عليّ بن أبان ، يعلمه خبر الجيش الوارد ، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه ، ووافى الجيش ، فأناخ بإزائه ؛ فلما كان اليوم الذي كانت فيه الوقعة وهو يوم الأربعاء ، خرج الخبيث ليطوف في عسكره ماشياً ، ويتأمل الحال فيمن هو مقيم معه من حزبه ومَنْ هو مقيم بإزائه من أهل حربه ، وقد كانت السّماء مطرت في ذلك اليوم مطراً خفيفاً والأرض ثريّة تزلّ عنها الأقدام ، فطوّف ساعة من أول النهار ، ثم رجع فدعا بدواة وقرطاس لينفذ كتاباً إلى عليّ بن أبان ، يعلمه ما قدأظَلّه من الجيش ويأمره بتقديم مَنْ قدر على تقديمه من الرّجال ، فإنه لَفِي ذلك إذ أتاه المكتنى أبا دُلف ـ وهو أحد قوّاد السودان ـ فقال له : إن القوم قد صعدوا وانهزم عنهم الزَّنج ، وليس في وجوههم مَنْ يردّهم حتى انتهوْا إلى الحبل الرابع . فصاح به وانتهره ، وقال : اغرُب عني فإنك كاذب فيما حكيتَ ؛ وإنما ذلك جزع دخلك لكثرة ما رأيتَ من الجمع ، فانخلع قلبُك ، ولست تدري ما تقول . فخرج أبو دلف من بين يديه ، وأقبل على كاتبه ، وقد كان أمر جعفر بن إبراهيم السجّان بالنداء في الزنج وتحريكهم للخروج إلى موضع الحرب ؛ فأتاه السجّان ، فأخبره أنه قد ندب الزَّنج ، فخرجوا . وإنَّ أصحابه قد ظفروا بسُمَيريّتين ، فأمره بالرجوع لتحريك الرّجّالة ، فرجع ولم يلبث بعد ذلك إلّا يسيراً ، حتى أصيب مفلح بسهم غَرَبٍ لا يُعرف الرامي به ، ووقعت الهزيمة ، وقَويَ الزنج على أهل حربهم ، فنالوهم بما نالوهم به من القتل . ووافى الخبيث زنجه بالرؤوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوْها بين يديه ، فكثرت الرؤوس يومئذ حتى ملأت كلّ شيء ، وجعل الزّنج يقتسمون لحوم القتلى ويتهادوْنها بينهم .

وأتيَ الخائن بأسير من أبناء الفراغنة ، فسأله عن رأس الجيش ، فأعلمه بمكان أبي أحمد ومُفلح ، فارتاع لذكر أبي أحمد ـ وكان إذا راعه أمر كذّب به ـ فقال : ليس في الجيش غير مفلِح ! لأني لست أسمع الذكر إلّا له ؛ ولو كان في الجيش مَنْ ذكر هذا الأسير لكان صوتُه أبعد ، ولَما كان مفلح إلّا تابعاً له ، ومضافاً إلى صحبته .

وقد كان أهلُ عسكر الخبيث لمّا خرج عليهم أصحاب أبي أحمد ، جزعوا جزعاً شديداً ، وهربوا من منازلهم ، ولجؤوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ولا جسر يومئذ عليه ، فغرق فيه يومئذ خلق كثير من النساء والصبيان ، ولم يلبث الخبيث بعد الوقعة إلّا يسيراً ، حتى وافاه عليّ بن أبان في جمع من أصحابه ، فوافاه وقد استغنى عنه ، ولم يلبث مُفلحُ أن مات ، وتحيّز أبو أحمد إلى الأُبلّة ، ليجمع ما فرّقت الهزيمة منه ، ويجدّد الاستعداد ، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به .

قال محمد بن الحسن : فكان الخبيث لا يدري كيف قُتل مُفْلِحَ ، فلما بلغه أنه أصيب بسهم ، ولم ير أحداً ينتحل رميَه ادّعى أنه كان الراميَ له .

قال : فسمعته يقول : سقط بين يديّ سهم ، فأتاني به واح خادمي ، فدفعه إليّ ، فرميت به فأصبت مفلحاً .

قال محمد : وكذَبَ في ذلك ، لأني كنت حاضراً ذلك المشهد ، وما زال عن فرسه حتى أتاه المخبر بخبر الهزيمة ، وأتيَ بالرؤوس وانقضت الحرب .

وفي هذه السنة وقع الوباء في الناس في كور دِجْلة ، فهلك فيها خَلْق كثير في مدينة السَّلام وسامُرّا وواسط وغيرها .

وفيها قُتل خرسخارس ببلاد الروم في جماعة من أصحابه.

وفيها أسِر يحيى بن محمد البحرانيّ صاحب قائد الزّنج، وفيها قُتِل.

ذكر الخبر عن أسره وقتله وكيف كان ذلك:

ذكِر عن محمد بن سمعان الكاتب أنه قال: لمّا وافَى يحيى بن محمد نهر العباس، لقيه بفُوّهة النهر ثلاثمائة وسبعون فارساً من أصحاب أصغجون العامل - كان عامل الأهواز في ذلك الوقت، كانوا مرتّبين في تلك الناحية - فلما بصر بهم يحيى استقلّهم، ورأى كثرة مَنْ معه من الجمع مما لا خوف عليه معهم، فلقيتهم أصحابه غير مستجنّين بشيء يردّ عنهم عاديَتهم، ورشقتهم أصحابُ أصغجون بالسهام، فأكثروا الجراح فيهم. فلمّا رأى ذلك يحيى عبّر إليهم عشرين ومائة فارس كانت معه، وضمّ إليهم من الرّجال جمعاً كثيراً، وانحاز أصحاب أصغجون عنهم، وولج البحرانيّ ومَنْ معه نهر العباس؛ وذلك وقت قلّة الماء في النهر، وسفنُ القَيْروانات جانحة على الطين. فلما أبصر أصحابُ تلك السفن بالزّنْج تركوا سفنَهم، وحازها الزّنج، وغنموا ما كان فيها غنائم عظيمة جليلة، ومضوْا بها متوجّهين نحو البطيحة المعروفة ببطيحة الصحناة، وتركوا الطريق النّهج، وذلك للتحاسد الذي كان بين البحرانيّ وعليّ بن أبان المهلبيّ. وإن أصحاب يحيى أشاروا عليه ألّا يسلك الطريق الذي يمرّ فيها بعسكر عليّ، فأصغى إلى مشورتهم، فشرعوا له الطريق المؤدي إلى البطيحة التي ذكرنا، فسلكها حتى ولج البطيحة، وسرّح الخيل التي كانت معه، وجعل معها أبا الليث الأصبهانيّ، وأمره بالمصير بها إلى عسكر قائد الزّنج. وكان الخبيث وجّه إلى يحيى البحرانيّ يعلمه ورودَ الجيش الذي ورد عليه، ويأمره بالتحرزّ في منصرفه من أن يلقاه أحدٌ منهم، فوجّه البحرانيّ الطلائع إلى دِجْلة، فانصرفت طلائعه وجيش أبي أحمد منصرف من الأبُلّة إلى نهر أبي الأسد، وكان السبب في رجوع الجيش إلى نهر أبي الأسد، أنّ رافع بن بِسطام وغيره من مجاوري نهر العباس وبطيحة الصّحْناة كتبوا إلى أبي أحمد يعرّفونه خبر البحرانيّ وكثرة جمعه، وأنه يقدّر أن يخرج من نهر العباس إلى دِجلَة، فيسبق إلى نهر أبي الأسد ويعسكر به، ويمنعه المِيرة، ويحولُ بينه وبين من يأتيه أو يصدر عنه؛ فرجعت إليه طلائعهُ بخبره، وعظم أمر الجيش عنده، وهيبته منه؛ فرجع في الطريق الذي كان سلكه بمشقة شديدة نالتْه ونالت أصحابه، وأصابهم وباء من تردّدهم في تلك البطيحة، فكثر المرض فيهم. فلما قربوا من نهر العباس جعل يحيى بن محمد سليمان بن جامع على مقدّمته، فمضى يقود أوائل الزّنْج، وهم يجرّون سفنَهم، يريدون الخروج من نهر العباس، وفي النهر للسلطان شذوات وسميريات تحمي فوّهته من قبل أصغجون، ومعها جَمْعٌ من الفُرْسان والرّجالة، فراعه وأصحابه ذلك، فخلّوْا سفنهم، وألقوْا أنفسَهم في غربيّ نهر العباس، وأخذوا على طريق الزّيدان ماضين نحو عسكر الخبيث، ويحيى غارّ بما أصابهم، لم يأتِه علم شيء من خبرِهم، وهو متوسِّط عسكره، قد وقف على قنطرة قُورَج العباس في موضع ضيّق تَشتدّ فيه جرية الماء، فهو مشرف على أصحابه الزَّنْج، وهم في جرّ تلك السفن التي كانت معهم، فمنها ما يغرق، ومنها ما يسلم.

قال محمد بن سمعان: وأنا في تلك الحال معه واقف، فأقبل عليّ متعجّباً من شدّة جرية الماء وشدّة ما يلقى أصحابه من تلقّيه بالسفن، فقال لي: أرأيتَ لو هجم علينا عدوّنا في هذه الحال، مَنْ كان أسوأ حالاً منا! فما انقضى كلامُهُ حتى وافاه طاشتمر التركيّ في الجيش الذي أنفذه إليهم أبو أحمد عند رجوعه من الأبُلّة إلى

نهر أبي الأسد ، ووقعت الضّجّة في عسكره .

قال محمد : فنهضت مُتشوقاً للنظر ؛ فإذا الأعلام الحمر قد أقبلتْ في الجانب الغربيّ من نهر العباس ويحيى به ؛ فلما رآها الزّنْج ألقَوْا أنفسهم في الماء جملة ، فعبروا إلى الجانب الشرقيّ ، وعرِيَ الموضع الذي كان فيه يحيى ، فلم يبق معه إلاّ بضعة عشر رجلاً ، فنهض يحيى عند ذلك ، فأخذ درقتَه وسيفه ، واحتزم بمنديل ، وتلقّى القوم الذين أتوْه في النفر الذين معه ، فرشقهم أصحاب طاشتمر بالسهام ، وأسرع فيهم الجراح ، وجرح البحرانيّ بأسهم ثلاثة في عَضُديْه وساقه اليسرى . فلما رآه أصحابه جريحاً تفرّقوا عنه ، فلم يعرَف فيقصد له . فرجع حتى دخل بعض تلك السفن ، وعَبَر به إلى الجانب الشرقيّ من النهر ؛ وذلك وقت الضحى من ذلك اليوم ، وأثقَلت يحيى الجراحات التي أصابتْه . فلما رأى الزّنج ما نزل به اشتدّ جزعهم ، وضعفت قلوبهم ، فتركوا القتال . وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم ، وحاز أصحاب السلطان الغنائم التي كانت في السفن بالجانب الغربيّ من النهر ؛ فلما حَوَوْها أقعدوا في بعض تلك السفن النّفاطين ، وعبّروهم إلى شرقيّ النهر ، فأحرقوا ما كان هناك من السفن التي كانت في أيدي الزّنج ، وانفضّ الزّنـج عن يحيى ، فجعلوا يتسللون بقية نهارهم بعد قتل فيهم ذريع ، وأسر كثير ؛ فلمّا أمسوا وأسدف الليل طارُوا على وجوههم ، فلما رأى يحيى تفرّق أصحابه ، ركب سُمَيريّة كانت لرجل من المقاتلة البِيضان ، وأقعَد معه فيها متطبِّباً يقال له عبّاد يعرف بأبي جيش ؛ وذلك لِمَا كان به من الجراح ، وطمع في التخلّص إلى عسكر الخبيث ، فسار حتى قرب من فُوّهة النهر ، فبصُر ملاّحو السميريّة بالشذا والسميريّات واعتراضها في النهر ، فجزعوا من المرور بهم ، وأيقنوا أنهم مدرَكون ، فعبروا إلى الجانب الغربيّ ، فألقَوْه ومَنْ معه على الأرض في زرع كان هناك ، فخرج يمشي وهو مثقَل ؛ حتى ألقى نفسه ؛ فأقام بموضعه ليلتَه تلك ، فلما أصبح بموضعه ذلك نهض عبّاد المتطبّب الذي كان معه ، فجعل يمشي متشوقاً لأن يرى إنساناً ، فرأى بعض أصحاب السلطان ، فأشار إليهم فأخبرهم بمكان يحيى ، وأتاه بهم حتى سلّمه إليهم .

وقد زعم قوم أنّ قوماً مرُّوا به ، فرأوه فدلّوا عليه ، فأخِذ . فانتهى خبره إلى الخبيث صاحب الزّنْج ، فاشتدّ لذلك جزعه ، وعظم عليه توجّعه .

ثم حمِل يحيى بن محمد الأزرق البحرانيّ إلى أبي أحمد ، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد بسامُرّا ، فأمر ببناء دكة بالحَيْر ، بحضرة مجرى الحلبة فبُنيت، ثم رفع للناس حتى أبصروه ، فضرب بالسياط .

وذُكر أنه دخل سامرّا يوم الأربعاء لتسع خلوْن من رجب على جمل ، وجلس المعتمد من غدِ ذلك اليوم ـ وذلك يوم الخميس ـ فضُرب بين يديه مائتي سوط بثمارها ، ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف ، ثم خُبط بالسيوف ثم ذُبح ثم أحرق .

قال محمد بن الحسن : لما قُتِل يحيى البحرانيّ وانتهى خبره إلى صاحب الزّنج ، قال : عَظُم عليّ قتله ، واشتدّ اهتمامي به ، فخوطبتُ فقيل لي : قتلُه خير لك ، إنه كان شرهاً . ثم أقبل على جماعة كنت أنا فيهم ، قال : ومَنْ شرهه أنا غنمنا غنيمة من بعض ما كنّا نصيبه ؛ فكان فيه عقدان ، فوقعا في يد يحيى ، فأخفى عني أعظمهما خطراً ، وعرض عليّ أخسهما ، واستوهبنيه فوهبته له ، فرُفع لي العقد الذي أخفاه ، فدعوته فقلت: أحضرْني العقد الذي أخفيتَه ، فأتاني بالعقد الذي وهبتُه له ، وجحد أن يكون أخـذ غيره ، فرُفِع لي العقد ،

فجعلت أصفه وأنا أراه ، فبُهت ، وذهب فأتاني به ، واستوهبنيه فوهبتُه له ، وأمرته بالاستغفار .

وذكر عن محمد بن الحسن أن محمد بن سمعان حدّثه أنّ قائد الزنج قال لي في بعض أيامه : لقد عُرِضَتْ عليّ النبوّة فأبيتُها ، فقلتُ : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنّ لها أعباء خِفت ألاّ أطيق حملها !

وفي هذه السنة انحاز أبو أحمد بن المتوكل من الموضع الذي كان به من قرب موضع قائد الزّنج إلى واسط .

ذكر الخبر عن سبب انحيازه ذلك إليها :

ذُكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ أبا أحمد لما صار إلى نهر أبي الأسد، فأقام به، كثر العلل فيمن معه من جنده وغيرهم ،وفشا فيهم الموت ؛ فلم يزل مقيماً هنالك حتى أبلّ مَنْ نجا منهم من الموت من عِلّته ، ثم انصرف راجعاً إلى باذاوَرْد ، فعسكر به ، وأمر بتجديد الآلات وإعطاء مَنْ معه من الجند أرزاقَهم وإصلاح الشذوات والسميريات والمعابر ، وشحنها بالقوّاد مِنْ مواليه وغلمانه ، ونهض نحو عسكر الخبيث ، وأمر جماعة من قُوّاده بقصد مواضع سمّاها لهم من نهر أبي الخصيب وغيره ، وأمر جماعة منهم بلزومه والمحاربة معه في الموضع الذي يكون فيه ، فمال أكثر القوم حين وقعت الحرب ، والتقى الفريقان إلى نهر أبي الخصيب ، وبقي أبو أحمد في قلّة من أصحابه ، فلم يَزُلْ عن موضعه إشفاقاً من أن يطمع فيه الزّنْج ، وفيمن بإزائهم من أصحابه وهم بسبخة نهر منكى ، وتأمل الزّنج تفرّق أصحاب أبي أحمد عنه ، وعرفوا موضعه ، فكثروا عليه ، واستعَرَت الحرب ، وكثر القتل والجراح بين الفريقين ، وأحرق أصحاب أبي أحمد قصوراً ومنازل من منازل الزّنج ، واستنقذوا من النساء جمعاً كثيراً ، وصرف الزّنج جمعهم إلى الموضع الذي كان به أبو أحمد فظهر الموفّق على الشّذَا ، وتوسَّط الحرب محرّضاً أصحابه حتى أتاه مِنْ جمع الزّنْج ما عَلمَ أنه لا يقاوَم بمثل العدّة اليسيرة التي كان فيها ، فرأى أنّ الحزم في محاجزتهم ، فأمر أصحابه عند ذلك بالرجوع إلى سفنهم على تُؤدَة وَمَهَل ، فصار أبو أحمد إلى الشّذَا التي كان فيها بعد أن استقرّ أكثرُ الناس في سفنهم، وبقيت طائفة من الناس، ولجؤوا إلى تلك الأدغال والمضايق ، فانقطعوا عن أصحابهم، فخرج عليهم كُمناء الزّنج ، فاقتطعوهم ووقعوا بهم ، فحامَوْا عن أنفسهم ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، وقتلوا عدداً كثيراً من الزّنْج ، وأدركتهم المنايا فقتِلوا ، وحَملوا إلى قائد الزنج مائة رأس وعشرة أرؤس ، فزاد ذلك في عُتوّه . ثم انصرف أبو أحمد إلى الباذاوَرْد في الجيش ، وأقام يعبي أصحابه للرجوع إلى الزّنج ، فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره ؛ وذلك في أيام عصوف الريح ، فاحترق العسكر ، ورحل أبو أحمد منصرفاً ، وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط ، فلمّا صار إلى واسط تفرّق عنه عامة من كان معه من أصحابه .

ولعشر خلون من شعبان كانت هدّة صعبة هائلة بالصَّيْمَرَة . ثم سُمع من غد ذلك اليوم وذلك يوم الأحد ، هدّة هي أعظم من التي كانت في اليوم الأول ، فتهدّم من ذلك أكثر المدينة ، وتساقطت الحيطان وهلك من أهلها ـ فيما قيل ـ زهاء عشرين ألفاً .

وضرب بباب العامة بسامرّا رجل يعرف بأبي فَقْعَس ، قامت عليه البيّنة ـ فيما قيل ـ بشتم السلف ألف سوط وعشرين سوطاً ، فمات وذلك يوم الخميس لسبع خلوْن من شهر رمضان .

ومات يارْجُوخ يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رمضان ، فصلى عليه أبو عيسى بن المتوكل ، وحضر جعفر بن المعتمد .

وفيها كانت وقْعَة بين موسى بن بُغا وأصحاب الحسن بن زيد ، فهزم موسى أصحابَ الحسن .

وفيها انصرف مسرور البلخيّ عن مساور الشاري إلى سامُرّا ، ومعه أسراء من الشُراة ، واستخلف على عسكره بالحَديثة جعلانَ . ثم شخص أيضاً مسرور البلخيّ إلى ناحية البوازيج ، فلقيَ مساوراً بها ، فكانت بينهما وقعة بها أسر مسرور من أصحابه جماعة ، ثم انصرف لليال بقيت من ذي الحجة .

وفي هذه السنة حدث في الناس ببغداد داء كان أهلها يسمُّونه القُفّاع .

وفيها رجع أكثر الحاجّ من القَرْعاءِ خوفَ العطش ، وسلم مَنْ سار منهم إلى مكة .

وحجّ بالناس فيها الفضل بن إسحاق بن الحسن .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك منصرف أبي أحمد بن المتوكل من واسط ، وقدومه سامُرّا يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الأول ، واستخلافه على واسط وحرب الخبيث بتلك الناحية محمداً المولَّد .

ومن ذلك مقتل كَنْجور .

ذكر الخبر عن سبب مقتله :

وكان سبب ذلك أنه كان واليَ الكوفة ، فانصرف عنها يريد سامُرّا بغير إذن ، فأمِر بالرجوع فأبى ، فحمِل إليه ـ فيما ذكر ـ مالٌ ليفرّق في أصحابه أرزاقهم منه ، فلم يقنع بذلك ، ومضى حتى ورد عُكْبَرَاء في ربيع الأول ، فتوجّه إليه من سامُرّا عدّة من القواد ، فيهم : ساتكين وتكين وعبد الرحمن بن مفلح وموسى بن أتامش وغيرهم ؛ فذبحوه ذبحاً ، وحُمِل رأسه إلى سامُرّا ، لليلة بقيت من شهر ربيع الأول ، وأصيب معه نيّف وأربعون ألف دينار ، وألزِم كاتب له نصرانيّ مالاً ، ثم ضرِب هذا الكاتب في شهر ربيع الآخر بباب العامة ألف سوط ، فمات .

وفيها غلب شركب الجمّال على مرْو وناحيتها وأنهبها .

وفيها انصرف يعقوب بن الليث عن بلخ ، فأقام بقُهستان ، وولّىٰ عماله هَرَاة وبُوشنَج وباذَغِيس ، وانصرف إلى سِجستان .

وفيها فارق عبد الله السِّجزيّ يعقوب بن الليث مخالفاً له ، وحاصر نيسابور ، فوجّه محمد بن طاهر إليه الرّسل والفقهاء ، فاختلفوا بينهما ، ثمّ ولاه الطَّبَسَين وقُهستان .

ولست خلوْن من رجب منها ، دخل المهلبيّ ويحيى بن خلف النّهْرَبَطِّيّ سوق الأهواز ، فقتلوا بها خَلْقاً كثيراً ، وقتلوا صاحب المعونة بها .

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة وكيف كان هلاك صاحب الحرب من قبل السلطان فيها :

ذُكر أنّ قائد الزنج خفيَ عليه أمرُ الحريق الذي كان في عسكر أبي أحمد بالباذَاورد ، فلم يعلم خبرهُ إلّا بعد ثلاثة أيام ، ورد به عليه رجلان من أهل عبّادان فأخبراه ، فعاد للعيْث ، وانقطعت عنه المِيرة ، فأنهض عليّ بن أبان المهلبي ، وضمّ إليه أكثر الجيْش ، وسار معه سُليمان بن جامع ، وقد ضمّ إليه الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحرانيّ وسليمان بن موسى الشعرانيّ ، وقد ضُمّت إليه الخيل وسائر الناس مع عليّ بن أبان

المهلبيّ والمتولي للأهواز يومئذ رجلٌ يقال له أصغجون ، ومعه نيزَك في جماعة من القوّاد ، فَسَار إليهم عليّ بن أبان في جمعه من الزنج ، ونذِر به أصغجون ، فنهض نحوه في أصحابه ، فالتقى العسكران بصحراء تُعرف بدَسْتماران ، فكانت الدّبرة يومئذ على أصغجون ، فقُتِل نَيْزك في جمع كثير من أصحابه ، وغرق أصغجون ، وأسِر الحسن بن هرثمة المعروف بالشار يومئذ ، والحسن بن جعفر المعروف براوشار .

قال محمّد بن الحسن : فحدّثني الحسن بن الشار ، قال : خرجنا يومئذ مع أصغجون للقاء الزّنج ؛ فلم يثبت أصحابنا ، وانهزموا ، وقُتِل نيزك ، وفقد أصغجون ، فلمّا رأيت ذلك نزلت عن فرس محذوف كان تحتي ، وقدّرتُ أن أتناول بذنَب جَنيبة كانت معي ، وأقحمها النهر ، فأنجو بها ، فسبقني إلى ذلك غلامي ، فنجا وتركني ، فأتيت موسى بن جعفر لأتخلّص معه ، فركب سفينة ، ومضى فيها ، ولم يُقِمْ عليّ ، وبصرت بزورق فأتيته فركبته ، فكثر الناس عليّ وجعلوا يطلبون الركوب معي فيتعلّقون بالزّورق حتى غرقوه ، فانقلب ، وعلوتُ ظهره ، وذهب الناس عني ، وأدركني الزّنْج ، فجعلوا يرمونني بالنُّشاب ، فلما خفت التّلف قلت : أمسكوا عن رميي ، وألقوا إليّ شيئاً أتعلّق به ، وأصِير إليكم ، فمدّوا إليّ رمحاً ، فتناولتُه بيديّ وصرت إليهم .

وأما الحسن بن جعفر ، فإن أخاه حمله على فرس ، وأعدّه ليسفر بينه وبين أمير الجيش ، فلما وقعت الهزيمة بادر في طلب النجاة ، فعثر به فرسُه فأخِذ .

فكتب عليّ بن أبان إلى الخبيث بأمر الوقعة ، وحمل إليه رؤوساً وأعلاماً كثيرة ، ووجّه الحسن بن الشار والحسن بن جعفر وأحمد بن روح ، فأمر بالأسرى إلى السجن ، ودخل عليّ بن أبان الأهواز ، فأقام يعيث بها إلى أن ندب السلطان موسى بن بُغا لحرب الخبيث .

وفيها شخص موسى بن بُغا عن سامرّا لحربه ، وذلك لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة ، وشيّعه المعتمد إلى خلف الحائطيْن ، وخلع عليه هناك .

وفيها وافى عبد الرحمن بن مفلح الأهواز وإسحاق بن كُنْدَاج البصرة وإبراهيم بن سيما باذاورد لحرب قائد الزنج من قبل موسى بن بغا .

ذكر الخبر عما كان من أمر هؤلاء في النواحي التي ضمت إليهم مع أصحاب قائد الزّنج في هذه السنة :

ذكر أن ابن مُفلح لما وافى الأهواز ، أقام بقنطرة أربُك عشرة أيام ، ثم مضى إلى المهلبيّ ، فواقعه ، فهزمه المهلبيّ وانصرف ، واستعدّ ثم عاد لمحاربته ، فأوقع به وقعة غليظة ، وقتل من الزّنْج قتلاً ذريعاً ، وأسر أسرى كثيرة ، وانهزم عليّ بن أبان ، وأفلت ومن معه من الزّنج ، حتى وافوا بَياناً ، فأراد الخبيث ردّهم ، فلم يرجعوا للذّعر الذي خالط قلوبهم . فلمّا رأى ذلك أذِن لهم في دخول عسكره ، فدخلوا جميعاً ، فأقاموا بمدينته . ووافى عبد الرحمن حصن المهديّ ليعسكر به ، فوجّه إليه الخبيث عليّ بن أبان ، فواقعه فلم يقدر عليه ، ومضى عليّ يريد الموضع المعروف بالدّكر ، وإبراهيم بن سيما يومئذ بالباذاوَرْد ، فواقعه إبراهيم ، فهُزم عليّ بن أبان ، وعاوده فهزمه أيضاً إبراهيم ، فمضى في الليل ، وأخذ معه أدلاّء ؛ فسلكوا به الآجام والأدغال ؛ حتى وافى نهر يحيى ، وانتهى خبره إلى عبد الرحمن ، فوجّه إليه طاشتِمُر في جمع من الموالي ، فلم يصل إلى عليّ ومَنْ معه

لوعورة الموضع الذي كانوا فيه ، وامتناعه بالقصب والحلافي ، فأضرمه عليهم ناراً ، فخرجوا منه هاربين ، فأسر منهم أسرى ، وانصرف إلى عبد الرحمن بن مفلح بالأسرى والظَّفَر ، ومضى عليّ بن أبان حتى وافى نسوخا ، فأقام هناك فيمن معه من أصحابه ، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فصرف وجهه نحو العمود ، فوافاه وأقام به .

وصار عليّ بن أبان إلى نهر السِّدرة ، وكتب إلى الخبيث يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشذاءات ، فوجّه إليه ثلاث عشرة شَذاة ، فيها جمع كثير من أصحابه فسار عليّ ومعه الشَّذا حتى وافى عبد الرحمن ، وخرج إليه عبد الرحمن بمن معه ، فلم يكن بينهما قتال ، وتواقف الجيشان يَومهما ذلك ؛ فلما كان الليل ، انتخب عليّ بنْ أبان من أصحابه جماعةً يثِق بجَلَدهم وصبرهم ، ومضى فيهم ومعه سليمان بن موسى المعروف بالشعرانيّ ، وترك سائر عسكره مكانَه ليخفى أمرُه ، فصار من وراء عبد الرحمن ، ثم بيّته في عسكره ، فنال منه ومن أصحابه نيلاً ، وانحاز عبد الرحمن عنه ، وخلى عن أربع شذوات من شَذَوَاته ، فأخذها عليّ وانصرف ، ومضى عبد الرحمن لوجهه حتى وافى الدولاب فأقام به ، وأعدّ رجالاً من رجاله ، وولّى عليهم طاشتمر ، وأنفذهم إلى عليّ بن أبان . فوافوْه بنواحي بباب آزر ، فأوقعوا به وقعة ، انهزم منها إلى نهر السِّدرة ، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بانهزام عليّ عنه ، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وافى العمود ، فأقام به ، واستعدّ أصحابه للحرب ، وهيّأ شذواته ، وولّى عليها طاشتمر ، فسار إلى فُوّهة نهر السدرة ، فواقع عليّ بن أبان وقعةً عظيمة ، انهزم منها عليّ ، وأخذ منه عشر شذوات ، ورجع عليّ إلى الخبيث مفلولاً مهزوماً ، وسار عبد الرحمن من فورِه ، فعسكر ببيَان ، فكان عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر الخبيث ، فيُوقعان به ، ويُخيفان مَنْ فيه ، وإسحاق بن كُنْداج يومئذ مقيم بالبصرة ، قد قطع المِيرة عن عسكر الخبيث ؛ فكان الخبيث يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما حتى ينقضيَ الحرب ، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة ، فيواقع بهم إسحاق بن كُنْداج ، فأقاموا في ذلك بضعة عشر شهراً إلى أن صُرِف موسى بن بغا عن حرب الخبيث ، ووُلِّيها مسرور البلخيّ ، وانتهى الخبر بذلك إلى الخبيث .

وفيها غلب الحسن بن زيد على قومِس ، ودخلها أصحابه .

وفيها كانت وقعة بين محمد بن الفضل بن سنان القزويني ووهْسُوذان بن جُسْتَان الديلميّ ، فهُزِم محمد بن الفضل وهسوذان .

وفيها ولّيَ موسى بن بغا الصَّلابيَّ الرّيّ حين وثب كَيْغَلَغ على تكين ، فقتله فسار إليها .

وفيها غلب صاحب الروم على سُمَيساط ، ثم نزل على مَلَطْية ، وحاصر أهلها ، فحاربه أهل مَلَطْيَة فهزموه ، وقتل أحمدُ بن محمد القابوس نصراً الإقريطشيَّ بطريق البطارقة .

وفيها وُجِّه من الأهواز جماعة من الزّنْج أسروا إلى سامُرّا ، فوثبت العامة بهم بسامُرّا ، فقتلوا أكثرهم وسلبوهم .

وفيها دخل يعقوب بن الليث نيسابور .

ذكر الخبر عن الكائن الذي كان منه هناك :

ذكر أن يعقوب بن الليث صار إلى هَراة ، ثم قصد نيسابور ، فلمّا قرب منها وأراد دخولها ، وجّه محمد بن طاهر يستأذنه في تلقّيه ، فلم يأذن له ، فبعث بعمومته وأهل بيته ، فتلقَّوْه ، ثم دخل نيسابور لأربع خَلَوْن من شوال بالعشيّ ، فنزل طرفاً من أطرافها يعرف بداوداباذ ، فركب إليه محمد بن طاهر ، فدخل عليه في مضربه ، فساءله ، ثم أقبل على تأنيبه وتوبيخه على تفريطه في عمله ، ثم انصرف وأمر عُزَير بن السريّ بالتوكيل به ، وصرف محمد بن طاهر وولّى عزيراً نيسابور ، ثم حبس محمد بن طاهر وأهل بيته . وورد الخبر بذلك على السلطان ، فوجّه إليه حاتم بن زيرك بن سلام ، ووردت كتب يعقوب على السلطان لعشر بقين من ذي القعدة ، فقعد ـ فيما ذكر ـ جعفر بن المعتمد وأبو أحمد بن المتوكل في إيوان الجوسق ، وحضر القوّاد ، وأذِن لرسل يعقوب . فذكر رسلُه ما تناهَىٰ إلى يعقوب من حال أهل خراسان ، وأنّ الشراة والمخالفين قد غلبوا عليها ، وضعف محمد بن طاهر، وذكروا مكاتبة أهل خراسان يعقوب ومسألتهم إياه قدومَه عليهم واستعانتهم ، وأنه صار إليها ، فلمّا كان على عشرة فراسخ من نيسابور ، سار إليه أهلُها ، فدفعوها إليه فدَخَلها . فتكلّم أبو أحمد وعبيد الله بن يحيى ، وقالا للرسل : إنّ أمير المؤمنين لا يقارّ يعقوب على ما فعل ، وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه إياه ، وأنه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره فليرجع ، فإنه إن فعل كان من الأولياء ، وإلاّ لم يكن له إلاّ ما للمخالفين . وصرف إليه رسله بذلك ووصلوا ، وخلَع على كلّ واحد منهم خلعة فيها ثلاثة أثواب ؛ وكانوا أحضروا رأساً على قناة فيه رقعة فيها : هذا رأس عدوّ الله عبد الرحمن الخارجيّ بهَراة ، ينتحل الخلافة منذ ثلاثين سنة ، قتله يعقوب بن الليث .

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس المعروف بِبُرَيه .

ثم دخلت سنة ستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك قتلُ رجل من أكراد مساور الشاري محمد بن هارون بن المعمَّر ، وجده في زورق يريد سامُرّا ، فقتله وحَمل رأسه إلى مساور ، فطلبت ربيعة بدمه في جمادى الآخرة ، فندب مسرور البلخيّ وجماعة من القوّاد إلى أخذ الطريق على مساور .

وفيها قُتِل قائد الزِّنج عليّ بن زيد العلويّ صاحب الكوفة .

وفيها واقع يعقوب بن الليث الحسنَ بن زيد الطالبيّ ، فهزمه ودخل طبرستان .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وعن سبب مصير يعقوب إلى طبرستان :

أخبرني جماعة من أهل الخِبرة بيعقوب أنّ عبد الله السجزيّ كان يتنافس الرياسة بسجستان ، فقهره يعقوب ، فتخلّص منه عبد الله ، فلحق بمحمد بن طاهر بنيسابور ، فلمّا صار يعقوب إلى نيسابور وهـرب عبد الله ، فلحق بالحسن بن زيد ، فشخص يعقوب في أثره بعدما كان من أمره وأمر محمد بن طاهر ما قد ذكرت قبلُ ، فمرّ في طريقه إلى طبرستان بأسفرائيم ونواحيها ، وبها رجل كنت أعرفه يطلب الحديث ، يقال له بديل الكشّيّ ، يظهر التطوّع والأمر بالمعروف ، وقد استجاب له عامة أهل تلك الناحية ، فلما نزلها يعقوب راسلَه ، وأخبره أنه مثله في التطوّع وأنه معه ، فلم يزل يرفق به حتى صار إليه بديل ، فلمّا تمكن منه قيّده ، ومضى به معه إلى طَبَرِستان ، فلما صار إلى قرب ساريَة لقيه الحسن بن زيد .

فقيل لي : إنَّ يعقوب بعث إلى الحسن بن زيد يسأله أن يبعث إليه بعبد الله السجزّي حتى ينصرف عنه ؛ فإنه إنما قصد طَبَرِستان من أجلِه لا لحربه ، فأبى الحسن بن زيد تسليمَه إليه ، فآذنه يعقوب بالحرب ، فالتقى عسكراهما ، فلم تكن إلاّ كَلا ولا ، حتى هزِم الحسن بن زيد ، ومضى نحو الشِّرز وأرض الديلم ، ودخل يعقوب سارية ، ثم تقدّم منها إلى آمُل ، فجبى أهلَها خراج سنة ، ثم شخص من آمُل نحو الشِّرْز في طلب الحسن بن زيد حتى صار إلى بعض جبال طَبَرِستان ، فأدركتْه فيه الأمطار ، وتتابعت عليه ـ فيما ذكر لي ـ نحواً من أربعين يوماً ، فلم يتخلّص مِن موضعه ذلك إلاّ بمشقة شديدة . وكان ـ فيما قيل لي ـ قد صعد جبلاً ، لمّا رام النزول عنه لم يمكنه ذلك إلاّ محمولاً على ظهور الرجال ، وهلك عامّة ما كان معه من الظهر .

ثم رام الدخول خَلْف الحسن بن زيد إلى الشِّرز ؛ فحدثني بعض أهل تلك الناحية أنه انتهى إلى الطريق الذي أراد سلوكَه إليه ، فوقف عليه ، وأمر أصحابه بالوقوف ، ثم تقدّم أمامهم يتأمّل الطريق ، ثم رجع إلى

أصحابه ، فأمرهم بالانصراف ، وقال لهم : إن لم يكن إليه طريق غير هذا فلا طريق إليه .

فأخبرني الذي ذكر لي ذلك ، أن نساء أهل تلك الناحية قلن لرجالهنّ : دعُوه يدخل هذا الطريق ؛ فإنه إنْ دخل كفيناكم أمرَه ، وعلينا أخذُه وأسره لكم . فلما انصرف راجعاً ، وشخص عن حدود طَبَرِستان ، عرض رجالَه ، ففقد منهم ـ فيما قيل لي ـ أربعين ألفاً ، وانصرف عنها ، وقد ذهب عظم ما كان معه من الخيل والإبل والأثقال .

وذُكر أنه كتب إلى السلطان كتاباً يذكر فيه مسيرَه إلى الحسن بن زيد ، وأنه سار من جُرجان إلى طَمِيس . فافتتحها . ثم سار إلى سارية ، وقد أخرب الحسن بن زيد القناطر ، ورفع المعابر ، وعوَّر الطريق ، وعسكر الحسن بن زيد على باب سارية متحصِّناً بأودية عظام ، وقد مالأه خُرْشاد بن جِيلاو ، صاحب الدَّيْلم ، فزحف باقتدار فيمن جمع إليه من الطبرية والديالمة والخراسانية والقُمّية والجبلية والشأمية والجزريّة ، فهزمته وقتلتُ عُدّة لم يبلغها بعهدي عدّة ، وأسرتُ سبعين من الطالبيّين ؛ وذلك في رجب ، وسار الحسن بن زيد إلى الشِّرْز ومعه الديلم .

وفي هذه السنة اشتدّ الغلاء في عامّة بلاد الإسلام ، فانجلى ـ فيما ذكر ـ عن مكة من شدة الغلاء مَنْ كان بها مجاوراً إلى المدينة وغيرها من البلدان، ورحل عنها العامل الذي كان بها مقيماً وهو بُرَيه، وارتفع السعر ببغداد، فبلغ الكُرّ الشعير عشرين ومائة دينار، والحنطة خمسين ومائة، ودام ذلك شهوراً.

وفيها قتَلت الأعراب منجور والي حمص ، فاستعمِل عليها بُكْتمر .

وفيها صار يعقوب بن الليث حين انصرف عن طَبَرستان إلى ناحية الريّ ، وكان السبب في مصيره إليها ـ فيما ذكر لي ـ مصير عبد الله السجزيّ إلى الصَّلابيّ مستجيراً به من يعقوب ، لّما هزم يعقوب الحسن بن زيد ، فلما صار يعقوب إلى خوار الريّ كتب إلى الصَّلابيّ يخيِّره بين تسليم عبد الله السجْزيّ إليه حتى ينصرف عنه ، ويرتحل عن عمله ، وبين أن يأذن بحربه . فاختار الصَّلابيّ ـ فيما قيل لي ـ تسليم عبد الله ، فسلّمه إليه ، فقتله يعقوب ، وانصرف عن عمل الصلابيّ .

وفيها قتِل العلاء بن أحمد الأزديّ .

ذكر الخبر عن سبب مقتله :

ذُكر أن العلاء بن أحمد فُلِج وتعطّل ، فكتب السلطان إلى أبي الرُّدَيْنيّ عمر بن عليّ بن مُرّ بولاية أذْرَبيجان ، وكانت قبلُ إلى العلاء ، فصار أبو الردينيّ إليها ليتسلّمها من العلاء ، فخرج العلاء في قُبّة في شهر رمضان لحرب أبي الردينيّ ، ومع أبي الردينيّ جماعة من الشُّراة وغيرهم ، فقتِل العلاء .

فذكر أنه وجّه عدّة من الرجال في حمل ما خلّف العلاء ، فحُمل من قلعته ما بلغت قيمته ألفي وسبعمائة ألف درهم .

وفيها أخذت الروم لؤلؤة من المسلمين .

وحجّ بالناس فيها إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي المعروف ببُرَيْه .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من انصراف الحسن بن زيد من أرض الدّيلم إلى طَبَرستان وإحراقه شالوس لما كان من ممالأتهم يعقوب وإقطاعه ضياعهم الدّيالمة .

ومن ذلك ما كان من أمر السلطان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بجمع مَنْ كان ببغداد من حاجّ خراسان والريّ وطبرستان وجرجان ، فجمعهم في صفر منها ، ثم قرىء عليهم كتاب يُعلَمون فيه أنّ السلطان لم يولّ يعقوب بن الليث خُراسان ، ويأمرهم بالبراءة منه لإنكاره دخولَه خُراسان وأسره محمد بن طاهر .

وفي هذه السنة تُوفِّيَ عبد الله بن الواثق في عسكر الصفار يعقوب .

وفيها قَتَلَ مساور الشاري يحيى بن حفص الذي كان يلِي خراسان بكَرْخ جُدَّان في جمادى الآخرة ، فشخص مسرور البلخيّ في طلبه ، ثم تبعه أبو أحمد بن المتوكل ، وتنحّى مساور فلم يلحق .

وفي جمادى الأولى منها هلك أبو هاشم داود بن القاسم الجعفريّ .

وفيها كانت بين محمد بن واصل وعبد الله بن مُفَلِح وطاشتمر وقعة برامَهُرْمُز ، فقتل ابنُ واصل طاشتمر ، وأسر ابن مُفلح .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة والسبب فيها :

كان السبب في ذلك ـ فيما ذكر لي ـ أنّ ابن واصل قتل الحارث بن سيما وهو عامل السلطان بفارس وتغلّب عليها ، فضُمَّت إلى موسى بن بُغا فارس والأهواز والبَصْرة والبحرين واليمامة؛ مع ما كان إليه من عمل المشرق ؛ فوجّه موسى بن بغا عبدَ الرحمن بن مفلح إلى الأهواز ، وولاّه إياها وفارس ، وضمّ إليه طاشتمر ، فاتّصل بابن واصل ذلك من فعل موسى ، وأنّ ابن مفلح قد توجّه إلى فارس يريده ، وكان قبلُ مقيماً بالأهواز على حرب الخارجيّ بناحية البصرة . فزحف إليه ابنُ واصل ، فالتقيا برامَهُرْمز ، وانضمّ أبو داود الصّعلوك إلى ابن واصل معيناً له على ابن مُفْلح ، فظفر ابن واصل بابن مُفْلِح ، فأسره وقتل طاشتمر ، واصطلم عسكرَ ابن مفلح ، ثمّ لم يزل ابن مُفلح في يده حتى قتله ، وقد كان السلطان وجّه إسماعيل بن إسحاق إلى ابن واصل في إطلاق ابن مُفلح ، فلم يجبه إلى ذلك ابنُ واصل . ولما فرغ ابنُ واصل من ابن مُفلح أقبل مظهراً أنه يريد واسطاً لحرب موسى بن بغا حتى انتهى إلى الأهواز ، وبها إبراهيم بن سيما في جمع كثير . فلما رأى موسى بن بغا شدَّة الأمر وكثرة المتغلّبين على نواحي المشرق ، وأنه لا قَوام له بهم ، سأل أن يُعفَى من أعمال المشرق ، فأعفِي

منها ، وضُمّ ذلك إلى أبي أحمد ، ووُلّيه أبو أحمد بن المتوكل ، فانصرف موسى بن بغا من واسط إلى باب السلطان مع عُمّاله عن أعمال المشرق .

وفيها ولِّيَ أبو الساج الأهواز وحرب قائد الزّنج ، فصار إليها أبو الساج بعد شخوص عبد الرحمن بن مفلح إلى ناحية فارس .

وفيها كانت بين عبد الرحمن صهر أبي الساج وعليّ بن أبان المهلبيّ وقعة بناحية الدولاب ، قُتِل فيها عبدُ الرحمن ، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرَم ، ودخل الزَّنج الأهواز ، فقتلوا أهلَها ، وسبَوْا وانتهبوا ، وأحرقوا دورَها . ثمّ صُرِف أبو الساج عمّا كان إليه من عمل الأهواز وحرب الزّنج ، ووُلِّيَ ذلك إبراهيم بن سيما ، فلم يزل مقيماً في عمله ذلك حتى انصرف عنه بانصراف موسى بن بغا ، عمّا كان إليه من عمل المشرق .

وفيها وُلِّيَ محمد بن أوس البلخيّ طريقَ خراسان .

ولما ضُمّ عمل المشرق إلى أبي أحمد ولَّى مسروراً البلخيّ الأهواز والبصرة وكُور دِجْلة واليمامة والبحرين في شعبان من هذه السنة ، وحرب قائد الزنج .

وفيها وُلِّيَ نصر بن أحمد بن أسد السامانيّ ما وراءَ نهر بلخ ، وذلك في شهر رمضان منها ، وكتب إليه بولايته ذلك .

وفي شوّال منها زحف يعقوب بن الليث إلى فارس ، وابنُ واصل مقيم بالأهواز ، فانصرف منها إلى فارس ، فالتقى هو ويعقوب بن الليث في ذي القعدة ، فهزمه يعقوب وفلَّ عسكره ، وبعث إلى خُرَّمَة إلى قلعة ابن واصل ، فأخذ ما كان فيها ، فذُكر أنه بلغت قيمة ما أخذ يعقوب منها أربعين ألف ألف درهم ، وأسر مرداساً خال ابن واصل .

وفيها أوْقع أصحابُ يعقوب بن الليث بأهل زَمّ موسى بن مِهْران الكرديّ ، لما كان من ممالأتهم محمد بن واصل ، فقتلوهم ، وانهزم موسى بن مِهْران .

وفيها لاثنتي عشرة مضت من شوّال منها ، جلس المعتمد في دار العامّة ، فولّى ابنه جعفراً العهد ، وسماه المفوّض إلى الله ، وولّاه المغرب ، وضمّ إليه موسى بن بغا ، وولّاه إفريقية ومصر والشأم والجزيرة والموصل وإرمينيَة وطريق خراسان ومِهْرَجا نَقَذَقَ وحُلوان ، وولّى أخاه أبا أحمد العهد بعد جعفر ، وولّاه المشرق ، وضمّ إليه مسروراً البلخيَّ ، وولّاه بغداد والسواد والكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن وكَسْكر وكُور دِجلة والأهواز وفارس وأصبهان وقمَّ والكَرَج والديْنَوَر والرّيّ وزِنجان وقزوين وخراسان وطَبَرِستان وجُرجان وكَرْمان وسِجِستان والسند ، وعقد لكلّ واحد منهما لواءين : أسود وأبيض ، وشرط إن حدث به حدث الموت وجعفر لم يكمل للأمر ، أن يكون الأمر لأبي أحمد ثم لجعفر . وأخذت البيعة على الناس بذلك ، وفرّقت نسخ الكتاب ، وبُعث بنسخة مع الحسن بن محمد بن أبي الشوارب ليعلّقها في الكعبة ، فعقد جعفر المفوّض لموسى بن بغا على المغرب في شوال وبعث إليه بالعقد مع محمد المولَّد .

وفيها فارق محمد بن زَيْدَويه يعقوبَ بن الليث ، فاعتزل عسكره في آلاف من أصحابه ، فصار إلى أبي الساج فقبِله ، وأقام معه بالأهواز ، وبعث إليه من سامُرّا بخلعة ، ثم سأل ابن زيدويه السلطان توجيه

الحسين بن طاهر بن عبد الله معه إلى خراسان .

وسار مسرور البلخيّ مقدّمة لأبي أحمد من سامُرّا ، لسبع خَلَوْن من ذي الحجة ، وخلع عليه وعلى أربعة وثلاثين من قوّاده - فيما ذكر - وشيّعه وليًّا العهد ، واتبعه الموفّق شاخصاً من سامُرّا لتسع بقين من ذي الحجة .

وحجّ بالناس فيها الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس .

ومات الحسن بن محمد بن أبي الشوارب فيها بمكّة بعدما حجّ .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك موافاة يعقوب بن الليث رامَهُرْمُز في المحرّم وتوجيه السلطان إليه إسماعيل بن إسحاق وبُغراج ، وإخراج السلطان مَنْ كان محبوساً من أسباب يعقوب بن الليث من السجْن ؛ لأنه لما كان من أمره ما كان في أمر محمد بن طاهر ، حبَس السلطانُ غلامَه وصيفاً ومَنْ كان قِبَلَه من أسبابه ، فأطلق عنهم بعدما وافى يعقوب رامهرمز ؛ وذلك لخمس خَلَوْن من شهر ربيع الأول . ثم قدم إسماعيل بن إسحاق من عند يعقوب ، وخرج إلى سامُرّا برسالة من عنده ، فجلس أبو أحمد ببغداد ، ودعا بجماعة من التجار ، وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين أمر بتولية يعقوب بن الليث خُراسان وطَبَرِستان وجُرجان والرّيّ وفارس والشُّرطة بمدينة السلام ؛ وذلك بمحضر من درْهم بن نصر صاحب يعقوب . وكان المعتمد قد صرف درهماً هذا من سامُرّا إلى يعقوب بجواب ما كان يعقوب أرسله ، يسأله لنفسه ، فأرسل معه إليه عمر بن سيما ومحمد بن تركشة ، ووافى فيها رسل ابن زيدويه بغداد في شهر ربيع الأول منها برسالة من عنده ، فخلع عليه أبو أحمد ، ثمّ انصرف في هذه السنة الذين توجّهوا إلى يعقوب بن الليث إلى السلطان ، فأعلموه أنه يقول : إنه لا يرضيه ما كتب إليه دون أن يصير إلى باب السلطان ، وارتحل يعقوب من عسكر مَكْرَم ، فصار أبو الساج إليه ، فقبله وأكرمه ووصله .

ولما رجعت الرسل بما كان من جواب يعقوب عسكر المعتمد يوم السبت لثلاث خلوْن من جمادى الآخرة بالقائم بسامُرّا ، واستخلَف على سامُرّا ابنه جعفراً ، وضمّ إليه محمداً المولَّد ، ثم سار منها يوم الثلاثاء لستٍّ خلون من جمادى الآخرة ، ووافى بغداد يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة ، فاشتقّها حتى جازها ، وصار إلى الزعفرانيّة فنزلها ، وقدّم أخاه أبا أحمد من الزعفرانيّة . فسار يعقوب بجيشه من عسكر مكرَم ؛ حتى صار من واسط على فرسخ ، فصادف هنالك بَثْقاً قد بثقه مسرور البلخيّ من دِجلة لئلا يقدر على جوازه ، فأقام عليه حتى سدّه وعبره ؛ وذلك لست بقين من جمادى الآخرة ، وصار إلى باذبين ، ثم وافَى محمد بن كثير من قِبَل يعقوب عسكرَ مسرور البلخيّ ، فصار بإزائه ، فصار مسرور بعسكره إلى النعمانيّة ، ووافى يعقوب واسطاً ، فدخلها لستّ بقين من جمادى الآخرة .

وارتحل المعتمد من الزعفرانيّة يوم الخميس لليلة بقيت من جمادى الآخرة ؛ حتى صار إلى سِيب بني كُوما ، فوافاه هنالك مسرور البلخيّ ؛ وكان مسيرُ مسرور البلخيّ إليه في الجانب الغربيّ من دِجْلة ، فعبَرَ إلى الجانب الذي فيه العسكر ، فأقام المعتمد بسِيب بني كوما أياماً ، حتى اجتمعت إليه عساكره ، وزحف يعقوب

من واسط إلى دير العاقول ، ثم زحف من دير العاقول نحو عسكر السلطان ، فأقام المعتمد بالسِّيب ، ومعه عبيد الله بن يحيى ، وأنهض أخاه أبا أحمد لحرب يعقوب ، فجعل أبو أحمد موسى بن بغا على ميمنتِهِ ، ومسروراً البلخيّ على ميسرته ، وصار هو في خاصته ، ونخبة رجاله في القلب . والتقى العسكران يوم الأحد لليال خَلَوْن من رجب بموضع يقال له اصطربد بين سِيب بني كوما ودير العاقول . فشدّت ميسرة يعقوب على ميمنة أبي أحمد فهزمتها ، وقتلت منها جماعة كثيرة منهم من قوّادهم إبراهيم بن سيما التركيّ وطباغوا التركيّ ومحمد طُغَتا التركيّ والمعرف بالمبرقع المغربيّ وغيرهم . ثم ثاب المنهزمون وسائر عسكر أبي أحمد ثابت ، فحَملوا على يعقوب وأصحابه ، فثبتوا وحاربوا حرباً شديداً ، وقتِل من أصحاب يعقوب جماعة من أهل البأس ؛ منهم الحسن الدرهميّ ومحمد بن كثير . وكان على مقدمة يعقوب ـ والمعروف بلبادة ـ فأصابت يعقوب ثلاثة أسهم في حَلْقِه ويديه ، ولم تزل الحرب بين الفريقين ـ فيما قيل ـ إلى آخر وقت صلاة العصر .

ثمّ وافى أبا أحمد الدَّيرانيّ ومحمد بن أوس ، واجتمع جميعُ من في عسكر أبي أحمد ، وقد ظهر من كثير ممن مع يعقوب كراهة القتال معه إذا رأوا السلطان قد حضر لقتاله ، فحملوا على يعقوب ومَنْ قد ثبت للقتال ، فانهزم أصحابُ يعقوب ، وثبت يعقوب في خاصّة أصحابه ؛ حتى مضوا وفارقوا موضع الحرب .

فذُكر أنه أخذ من عسكره من الدّوابّ والبغال أكثر من عشرة آلاف رأس ، ومن الدنانير والدّراهم ما يكلّ عن حمله ، ومن جرب المسك أمر عظيم ، وتخلّص محمد بن طاهر بن عبد الله ، وكان مثقلاً بالحديد ؛ خلّصه الذي كان موكَّلا به .

ثم أحضر محمد بن طاهر ، فخُلع عليه على مرتبته ، وقرىء على الناس كتابٌ فيه :

ولم يزل الملعون المارق المسمّى يعقوب بن الليث الصفار ينتحل الطاعة ،حتى أحدث الأحداث المنكرة ؛ من مصيره إلى صاحب خراسان ، وغلبته إياه عليها ، وتقلّده الصلاة والإحداث بها ، ومصيره إلى فارس مَرّة بعد مرة ، واستيلائه على أموالها ، وإقباله إلى باب أمير المؤمنين مُظهرَ المسألة في أمور أجابه أمير المؤمنين منها ما لم يكن يستحقه ، استصلاحاً له ، ودفعاً بالتي هي أحسن ؛ فولاّه خُراسان والرّيّ وفارس وقزوين وزنجان والشرطة بمدينة السلام ، وأمر بتكنيته في كُتُبه ، وأقطعه الضياع النفيسة ؛ فما زاده ذلك إلّا طغياناً وبغياً ، فأمره بالرجوع فأبى ، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسَّط الطريق بين مدينة السلام وواسط ، وأظهر يعقوب أعلاماً على بعضها الصّلبان ، فقدّم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله وليّ عهد المسلمين في القلب ، ومعه أبو عمران موسى بن بغا في الميمنة وفي جناح الميمنة إبراهيم بن سيما ، وفي الميسرة أبو هاشم مسرور البلخيّ ، وفي جناح الميسرة الديرانيّ ، فتسرّع وأشياعه في المحاربة ، فحاربه حتى أثخِن بالجراح ، وحتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر سالماً من أيديهم ، وولّوْا منهزمين مجروحين مسلوبين ، وسلّم الملعون كلّ ما حواه ملكه » .

كتاباً مؤرخاً بيوم الثلاثاء لإحدى عشرة خلت من رجب .

ثم رجع المعتمد إلى معسكره وكتب إلى ابن واصل بتولية فارس ، وقد كان صار إليها وجمع جماعة .

ثم رجع المعتمد إلى المدائن ، ومضى أبو أحمد ومعه مسرور وساتكين وجماعة من القوّاد ، وقبض على ما لأبي الساج من الضّياع والمنازل ، وأقطعها مسروراً البلخيّ . وقدم محمد بن طاهر بن عبد الله بغداد يوم

الاثنين لأربع عشرة بقيت من رجب ، وقد رُدّ إليه العمل ، فخُلع عليه في الرُّصافة ، فنزل دار عبد الله بن طاهر ، فلم يعزل أحداً ، ولم يولِّ وأمر له بخمسمائة ألف درهم .

وكانت الوقعة التي كانت بين السلطان والصفّار يوم الشعانين .

وقال محمد بن عليّ بن فَيْد الطائيّ يمدح أبا أحمد ويذكر أمر الصفّار :

نَعَب الغرابُ عَدِمتُه من ناعِبِ ... وصَبا فؤادي لادِّكارِ حَبائبي
نادى ببَينهمُ فجادَتْ مُقْلَتي ... لزيالِ أرحُلهم بدَمْعٍ ساكب
بانوا بأتراب أوانِسَ كالدُّمَى ... مثلِ المَهاقُبِّ البُطونِ كواعبِ
فأولئكنَّ غَرائِرٌ تيَّمْنَني ... بَسَوالفٍ وقَوائمٍ وحَواجِب
لوَلي عهدِ المسلمينَ مَناسِبٌ ... شَرُفَتْ وأشرَقَ نورُها بمناصِب
ومراتبٌ في ذِرْوةٍ لا تُرْتَقَى ... أكرِمْ بها من ذِرْوةٍ ومراتب
ولقد أتى الصَّفارُ في عُددٍ لها ... حُسْنٌ فوافَتْهُنَّ نكبةُ ناكب
جَلَبَ القضاءُ إليه حَتْفاً عاجلاً ... سَقياً ورَعْياً للقضاءِ الجالِبِ
أغواه إبليسُ اللعينُ بكَيْدِه ... واغترَّه منه بوعدٍ كاذبِ
حتى إذا اختلَفوا وظنَّ بأنه ... قد عزَّ بين عساكرٍ وكتائب
دَلَفَتْ إليه عساكرٌ مَيْمونةٌ ... يَلقَوْنَ زَحفاً باللواءِ الغالب
في جَحفلٍ لجبٍ تُرى أبطالُهُ ... من دارعٍ أو رامحٍ أو ناشب
وبدا الإمامُ برَايةٍ منصُورةٍ ... لمحمّدٍ سَيفِ الإلهِ القاضب
ووليُّ عهدِ المسلمينَ موفقٌ ... باللّهِ أمضى من شِهابٍ ثاقب
وكأنه في الناس بَدْرٌ طالع ... متهلِّلٌ بالنورِ بين كواكب
لمّا التقَوْا بالمشرَفيّة والقنا ... ضرباً وطَعْنَ محاربٍ لمحارب
ثارَ العجاجُ وفوقَ ذاك غمامةٌ ... غرّاءُ تَسكُبُ وَبْلَ صَوْبٍ صائبِ
فَلَّ الجُمُوعَ بحَزمِ رأيٍ ثاقب ... منه وأفرَدَ صاحباً عن صاحبِ
للّهِ درُّ مُوَفّقٍ ذي بهجةٍ ... ثَبْتِ المقامِ لَدَى الهياج مواثِبِ
يا فارسَ العربِ الذي ما مثله ... في الناس يُعرفُ آخَرٌ لنَوائب
من فادحِ الزَّمَنِ العضوضِ ومن لُقا ... جيشٍ لِذي غدرٍ خَؤونٍ غاصبِ

وفيها وجه قائد الزنج جيوشه إلى ناحية البطيحة ودَست مَيسَان .

ذكر الخبر عن سبب توجيهه إياهم إليها :

ذُكر أنّ سبب ذلك كان أنّ المعتمد لمّا صرف موسى بن بغا عن أعمال المشرق وما كان متّصلاً بها ، وضمّها إلى أخيه أبي أحمد ، وضمّ أبو أحمد عمل كُور دِجلة إلى مسرور البلخيّ ، وأقبل يعقوب بن الليث مريداً أبا أحمد ، وصار إلى واسط ، خَلت كُور دجْلة من أسباب السلطان ، خلا المدائن وما فوق ذلك . وكان مسرور قد وجّه قبل ذلك إلى الباذاوَرْد مكان موسى بن أتامش جُعلان التركيّ ، وكان بإزاء موسى بن أتامش ، من

قِبَل قائد الزَّنْج سليمان بن جامع، وقد كان سليمان قبل أن يصرف ابنُ أتامش عن الباذاوَرْد، قد نال من عسكره؛ فلمّا صُرف ابن أتامش وجُعل موضعه جعلان، وجّه سليمان من قِبَله رجلاً من البحرانيّين يقال له ثعلب بن حفص، فأوقع به، وأخذ منه خيلاً ورجلاً، ووجّه قائد الزنج من قِبَله رجلاً من أهل جُبّى يقال له أحمد بن مهديّ في سُميريّات، فيها رماة من أصحابه، فأنفذه إلى نهر المرأة، فجعل الجبائيّ يوقع بالقُرى التي بنواحي المَذار - فيما ذكر - فيعيث فيها، ويعود إلى نهر المرأة فيقيم به.

فكتب هذا الجبائيّ إلى قائد الزَّنج يخبر بأن البطيحة خالية من رجال السلطان، لانصراف مسرور وعساكره عند ورود يعقوب بن الليث واسطاً. فأمر قائد الزَّنْج سليمان بن جامع وجماعة من قُوّاده بالمصير إلى الحوانيت، وأمر رجلاً من الباهليّين يقال له عُمَيْر بن عمار، كان عالماً بطرق البَطيحة ومسالكها، أن يسير مع الجبائيّ حتى يستقرّ بالحوانيت.

فذكر محمد بن الحسن أن محمد بن عثمان العبّاداني قال: لمّا عزم صاحب الزَّنْج على توجيه الجيوش إلى ناحية البطيحة ودَسْتُمِيسان أمر سليمان بن جامع أن يعسكر بالمُطوّعة وسليمان بن موسى أن يعسكر على فُوّهة النهر المعروف باليهوديّ، ففعلا ذلك، وأقاما إلى أن أتاهما إذنه، فنهضا، فكان مسير سليمان بن موسى إلى القَرْية المعروفة بالقادسيّة، ومسير سليمان بن جامع إلى الحوانيت والجُبّائيّ في السميريّات أمام جيش سليمان بن جامع، ووافى أبَّا التركيّ دجْلة في ثلاثين شَذاة، فانحدر يريد عسكر قائد الزّنج، فمرّ بالقرية التي كانت داخلة في سلْم الخبيث فنال منها، وأحرق؛ فكتب الخبيث إلى سليمان بن موسى في منعه الرجوع، وأخذ عليه سليمان الطريق، فأقام شهراً يقاتل حتى تخلّص فصار إلى البطيحة.

وذكر محمد بن عثمان أن جَبَّاشاً الخادم زعم أنّ أبَّا التركيّ لم يكن صار إلى دجلة في هذا الوقت، وأنّ المقيم كان هناك نُصير المعروف بأبي حمزة.

وذكر أن سليمان بن جامع لما فصل متوجّهاً إلى الحوانيت، انتهى إلى موضع يعرف بنهر العتيق. وقد كان الجبائيّ سار في طريق الماديان، فتلقّاه رميس، فواقعه الجبائيّ، فهزمه، وأخذ منه أربعاً وعشرين سُميريّة ونيّفاً وثلاثين صلغة، وأفلت رميس، فاعتصم بأجَمة لجأ إليها، فأتاه قوم من الجوخانيّين، فأخرجوه منها فنجا. ووافق المنهزمين من أصحاب رميس خروج سليمان من النهر العتيق، فتلقاهم فأوقع بهم، ونال منهم نيلاً، ومضى رميس حتى لحق بالموضع المعروف ببرّ مساور، وانحاز إلى سليمان جماعة من مذكوري البلاليّين وأنجادهم في خمسين ومائة سُميريّة، فاستخبرهم عما أمامه، فقالوا: ليس بينك وبين واسط أحدٌ من عمّال السلطان وولاته. فاغترّ سليمان بذلك، وركن إليه، فسار حتى انتهى إلى الموضع الذي يعرف بالجازرة، فتلقّاه رجل يقال له أبو معاذ القرشيّ، فواقعه، فانهزم سليمان عنه، وقتل أبو معاذ جماعة من أصحابه، وأسر قائداً من قواد الزَّنْج، يقال له رياح القندليّ. فانصرف سليمان إلى الموضع الذي كان معسكراً به، فأتاه رجلان من البلاليّة، فقالا له: ليس بواسط أحد يدفع عنها غير أبي معاذ في الشّذَوات الخمس التي لقيك بها. فاستعدّ سليمان وجمع أصحابه وكتب إلى الخبيث كتاباً مع البلاليّة الذين كانوا استأمنوا إليه وأنقذهم إلّا جُمَيِّعة يسيرة في عشر سُميريّات، انتخبهم للمقام معه، واحتبس الاثنين معه اللذين أخبراه عن واسط بما أخبراه به، وصار قاصداً لنهر أبان، فاعترض له أبو معاذ في طريقه، وشبّت الحرب بينهما، وعصفت الريح، فاضطربت

شذا أبي معاذ ، وقويَ عليه سليمان وأصحابه ، فأدبر عنهم معرّداً ، ومضى سليمان حتى انتهى إلى نهر أبان ، فاقتحمه ، وأحرق وأنهب ، وسبى النساء والصبيان ، فانتهى الخبر بذلك إلى وُكلاء كانوا لأبي أحمد في ضياع من ضِياعه مُقيمين بنهر سِنداد ، فساروا إلى سليمان في جماعة ، فأوقعوا به وقعةً ، قتلوا فيها جمعاً كثيراً من الزَّنْج ، وانهزم سليمان وأحمد بن مهديّ ومن معهما إلى معسكرهما .

قال محمد بن الحسن : قال محمد بن عثمان : لما استقرّ سليمان بن جامع بالحوانيت، ونزل بنهر يعرف بيعقوب بن النضر ، وجّه رجلاً ليعرف خبر واسط ومَنْ فيها من أصحاب السلطان ؛ وذلك بعد خروج مسرور البلخيّ وأصحابه عنها ، لورود يعقوب إياها . فرجع إليه ، فأخبره بمسير يعقوب نحو السلطان ، وقد كان مسرور قبل شخوصه عن واسط إلى السِّيب وَجّه إلى سليمان رجلاً يقال له وصيف الرّحال في شَذَوات ؛ فواقعه سليمان فقتله ، وأخذ منه سبع شَذَوات ، وقتل مَنْ ظفر به ، وألقى القتلى بالحوانيت ليُدخل الرّهبة في قلوب المجتازين بهم من أصحاب السلطان .

فلمّا ورد على سليمان خبرُ مسير مسرور عن واسط ، دعا سليمان عُمير بن عمار خليفته ورجلاً من رؤساء الباهليّين يقال له أحمد بن شريك ، فشاورهما في التنحّي عن الموضع الذي تصل إليه الخيل والشَّذَوات ، وأن يلتمس موضعاً يتصل بطريق متى أراد الهرب منه إلى عسكر الخبيث سلكه ، فأشارا عليه بالمصير إلى عقر ماور ، والتحصّن بطهيثا والأدْغال التي فيها . وكره الباهليون خروجَ سليمان بن جامع من بين أظهرهم لغمسهم أيديهم معه ، وما خافوا من تعقب السلطان إياهم ، فحمل سليمان بأصحابه ماضياً في نهر البرور إلى طَهيثا ، وأنفذ الجُبّائيّ إلى النهر المعروف بالعتيق في السُّمَيريّات ، وأمره بالبدار إليه بما يعرف من خبر الشذا ، ومن يأتي فيها ومن أصحاب السلطان ، وخلّف جماعة من السودان لإشخاص مَنْ تخلّف من أصحابه ، وسار حتى وافى عقر ماور ، فنزل القرية المعروفة بقرية مرْوان بالجانب الشرقيّ من نهر طهيثا في جزيرة هناك .

وجمع إليه رؤساء الباهليّين وأهل الطفوف ، وكتب إلى الخبيث يعلمه ما صنع ، فكتب إليه يصوّب رأيه ، ويأمره بإنفاذ ما قبله من مِيرَة ونَعَم وغنم ، فأنفذ ذلك إليه ، وسار مسرور إلى موضع معسكر سليمان الأول ، فلم يجد هناك كثير شيء ، ووجد القوم قد سبقوه إلى نقل ما كان في معسكرهم ، وانحدر أبّا التركيّ إلى البطائح في طلب سليمان ؛ وهو يظنّ قد ترك الناحية ، وتوجّه نحو مدينة الخبيث فمضى . فلم يقف لسليمان على أثر ، وكرّ راجعاً ، فوجد سليمان قد أنفذ جيشاً إلى الحوانيت ليطرُق من شذّ من عسكر مسرور ، فخالف الطريق الذي خاف أن يؤدّيَهُ إليهم ، ومضى في طريق آخر ؛ حتى انتهى إلى مسرور ، فأخبره أنه لم يعرف لسليمان خبراً .

وانصرف جيش سليمان إليه بما امتاروا ، وأقام سليمان ، فوجّه الجُبائيَّ في السُّميريّات للوقوف على مواضع الطعام والمِيَر والاحْتيال في حَمْلها . فكان الجبائيّ لا ينتهي إلى ناحية فيجد فيها شيئاً من المِيرَة إلاّ أحرقه ، فساء ذلك سليمان ، فنهاه عنه فلم يَنْتَهِ ، وكان يقول : إن هذه المِيرة مادّة لعدوّنا ، فليس الرأي ترك شيء منها .

فكتب سليمان إلى الخبيث يشكو ما كان من الجُبَّائيّ في ذلك ، فورد كتاب الخبيث على الجُبّائيّ يأمره بالسمع والطاعة لسليمان ، والائتمار له فيما يأمره به .

وورد على سليمان أن أغَرْتمش وخُشيشاً قد أقبلا قاصديْن إليه في الخيل والرِّجال والشَّذا والسُّميريّات ، يريدان مواقعته . فجزع جزعاً شديداً ، وأنفذ الجبائيَّ ليعرف أخبارهما ، وأخذ في الاستعداد للقائهما ، فلم يلبث أن عاد إليه الجُبّائيّ مهزوماً ، فأخبره أنهما قد وافيا باب طنج ؛ وذلك على نصف فرسخ من عسكر سليمان حينئذ ، فأمره بالرّجوع والوقوف في وجه الجيش ، وشغله عن المصير إلى العسكر إلى أنْ يلحق به ؛ فلما أنفذ الجبائيّ لِمَا وُجّه له صعد سليمان سطحاً ، فأشرف منه ، فرأى الجيش مقبلاً ، فنزل مسرعاً ، فعبَر نهر طهيثا ، ومضى راجلاً ، وتبعه جَمْعٌ من قوّاد السودان حتى وافوْا باب طنج ، فاستدبر أغرتمش ، وتركهم حتى جدُّوا في المسير إلى عسكره . وقد كان أمر الذي استخلفه على جيشه ألاّ يدع أحداً من السودان يظهر لأحد من أهل جيش أغرتمش ، وأن يخفوا أشخاصهم ما قدروا ، ويَدَعُوا القوم حتى يتوغّلوا النهر إلى أن يسمعوا أصوات طبوله ؛ فإذا سمعوها خرجوا عليهم ، وقصدوا أغرتمش .

فجاء أغرتمش بجيشه حتى لم يكن بينه وبين العسكر إلاّ نهر يأخذ من طهيثا يقال له جارورة بني مَرْوان . فانهزم الجُبائيّ في السُّميريّات حتى وافى طهيثاً ، فخلف سُميريّاته بها ، وعاد راجلاً إلى جيش سليمان ، واشتدّ جزع أهل عسكر سليمان منه ، فتفرّقوا أيادي سبا ، ونهضت منهم شِرذمة فيها قائد من قوّاد السودان يقال له أبو النداء ، فتلقَّوْهم فواقعوهم ، وشغلوهم عن دخول العسكر ، وشدّ سليمان من وراء القوم ، وضرب الزَّنج بطبولهم ، وألقوْا أنفسهم في الماء للعبور إليهم ؛ فانهزم أصحابُ أغرتمش وشدّ عليهم مَنْ كان بطهيثا من السودان ، ووضعوا السيوف فيهم ، وأقبل خُشيش على أشهب كان تحته يريد الرجوع إلى عسكره ، فتلقّاه السودان ، فصرعوه وأخذتْه سيوفهم ، فقتِل وحُمل رأسه إلى سليمان ، وقد كان خُشيش حين انتزعوا إليه ، قال لهم : أنا خُشيش ؛ فلا تقتلوني ، وامضوا بي إلى صاحبكم . فلم يسمعوا لقوله وانهزم أغرتمش ، وكان في آخر أصحابه ، ومضى حتى ألقى نفسه إلى الأرض ، فركب دابّة ومضى ، وتبعهم الزّنج حتى وصلوا إلى عسكرهم ؛ فنالوا حاجتَهم منه ، وظفروا بشذوات كانت مع خُشيش ، وظفر الذين اتبعوا الجيش المولي بشَذَوات كانت مع أغرتمش فيها مال . فلما انتهى الخبر إلى أغرتمش ، كرّ راجعاً حتى انتزعها من أيديهم ، ورجع سليمان إلى عسكره ، وقد ظفر بأسلاب ودوابّ ، وكتب بخبر الوقعة إلى قائد الزَّنْج ؛ وما كان منه فيها . وحمل إليه رأس خشيش وخاتمه ، وأقرّ الشَّذَوَات التي أخذها في عسكره . فلما وافى كتابُ سليمان ورأس خُشيش ، فأمر فطِيف به في عسكره ، ونصب يوماً ؛ ثم حمله إلى عليّ بن أبان ، وهو يومئذ مقيم بنواحي الأهواز ، وأمر بنصبه هناك ؛ وخرج سليمان والجُبائيّ معه وجماعة من قُوّاد السودان إلى ناحية الحوانيت متطرّفين ، فتوافقوا هناك ثلاث عشرة شَذَاة مع المعروف بأبي تميم أخي المعروف بأبي عَوْن صاحب وصيف التركيّ ، فأوقعوا به ، فقتل وغرق ، وظفروا من شَذَوَاته بإحدى عشرة شذاة .

قال محمد بن الحسن : هذا خبر محمد بن عثمان العبّادانيّ ؛ فأما جَبّاش ؛ فزعم أن الشّذا التي كانت مع أبي تَميم كانت ثمانية ، فأفلت منها شذاتان كانتا متأخرتين ، فمضتا بمَنْ فيهما وأصاب سلاحاً ونهباً ، وأتى على أكثر مَنْ كان في تلك الشَّذَوات من الجيش ، ورجع سليمان إلى عسكره ، وكتب إلى الخبيث بما كان منه مِنْ قتل المعروف بأبي تميم ؛ ومن كان معه ، واحتبس الشَّذَوات في عسكره .

وفيها كبس ابن زيدويه الطيب ، فأنهبها .

وفيها وُلِّيَ القضاء عليّ بن محمد بن أبي الشوارب .

وفيها خرج الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر من بغداد لليال بقين منه ، فصار إلى الجبل .

وفيها مات الصَّلابيّ ، ووُلِّيَ الريّ كيغَلغ .

ومات صالح بن عليّ بن يعقوب بن المنصور في ربيع الآخر منها . ووُلِّيَ إسماعيل بن إسحاق قضاء الجانب الشرقيّ من بغداد ، فجمع له قضاء الجانبين .

وفيها قتِل محمد بن عتّاب بن عتّاب ، وكان وُلِّيَ السّيبينْ فصار إليها ، فقتلتْه الأعراب .

وللنصف من شهر رمضان صار موسى بن بغا إلى الأنبار متوجّهاً إلى الرّقة .

وفيها قتِل أيضاً القطان صاحب مفلِح ، وكان عاملاً بالموصل على الخراج ، فانصرف منها ، فقتِل في الطريق .

وعقد فيها لكفتمر عليّ بن الحسين بن داود كاتب أحمد بن سهل اللطفيّ على طريق مكة في شهر رمضان .

وفيها وقع بين الحنّاطين والجزّارين بمكة قتال قبل يوم التّروية بيوم ، حتى خاف الناس أن يبطل الحج ، ثم تحاجزوا إلى أن يحجَّ الناس ، وقد قتل منهم سبعة عشر رجلاً .

وفيها غلب يعقوب بن الليث على فارس وهرب ابن واصل .

وفيها كانت وقعة بين الزّنج وأحمد بن لَيْثَوَيْه ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسر أبا داود الصعلوك وقد كان صار معهم .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسبب أسر الصعلوك :

ذكر أن مسروراً البلخيّ وجه أحمد بن ليثويه إلى ناحية كور الأهواز ، فلما وصل إليها نزل السوس ، وكان الصفّار قد قلّد محمد بن عبيد الله بن أزاذَمَرْد الكرديّ كُور الأهواز ، فكتب محمد بن عبيد الله إلى قائد الزّنج يطمعه في الميل إليه ، وقد كانت العادة جرت بمكاتبة محمد إياه من أوّل مخرجه ، وأوهمه أنه يتولّى له كور الأهواز ويداري الصفّار حتى يستويَ له الأمر فيها ، فأجابه الخبيث إلى ذلك على أن يكون عليّ بن أبان المتولي لها ، ويكون محمد بن عبيد الله يخلفُه عليها ، فقبل محمّد بن عبيد الله ذلك ، فوجّه عليّ بن أبان أخاه الخليل بن أبان ، في جمع كثير من السودان وغيرهم ، وأيّدهم محمد بن عبيد الله بأبي داود الصُّعلوك ، فمضوْا نحو السوس ؛ فلم يصلوا إليها ، ودفعهم ابن ليثويه ومن كان معه من أصحاب السلطان عنها ، فانصرفوا مفلولين ، وقد قتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر منهم جماعة ، وسار أحمد بن ليثويه حتى نزل جنديْ سابور .

وسار عليّ بن أبان من الأهواز منجِداً محمد بن عبيد الله على أحمد بن لَيْثَوَيْه ، فتلقاه محمد بن عبيد الله في جَمْع من الأكراد والصعاليك ؛ فلما قرب منه محمد بن عبيد الله سارا جميعاً ، وجعلا بينهما المسرُقان ؛ فكانا يسيران عن جانبيه ، ووجّه محمد بن عبيد الله رجلاً من أصحابه في ثلاثمائة فارس ، فانضمّ إلى عليّ بن أبان ، فسار عليّ بن أبان ومحمد بن عبيد الله إلى أن وَافيَا عسكر مُكْرَم ، فصار محمد بن عبيد الله إلى عليّ بن أبان

وحده ، فالتقيا وتحادثا ، وانصرف محمد إلى عسكره ، ووجّه إلى عليّ بن أبان القاسم بن عليّ ورجلاً من رؤساء الأكراد ، يقال له حازم ، وشيخاً من أصحاب الصفار يعرف بالطّالقاني ، وأتوْا عليًّا ، فسلّموا عليه ، ولم يزل محمد وعليّ على ألفة ، إلى أن وافى عليٌّ قنطرة فارس ، ودخل محمد بن عبيد الله تُسْتَر ، وانتهى إلى أحمد بن ليثَوَيْه تضافُر عليّ بن أبان ومحمد بن عبيد الله على قتالِه ، فخرج عن جنديْ سابور ، وصار إلى السوس . وكانت موافاة عليّ قنطرة فارس في يوم الجُمعة ، وقد وعده محمد بن عبيد الله أن يخْطُب الخاطب يومئذ ، فيدعو لقائد الزّنج ، وله على منبر تُسْتَر ، فأقام عليّ منتظراً ذلك ، ووجّه بهبوذ بن عبد الوهاب لحضور الجمعة وإتيانه بالخبر ؛ فلما حضرت الصلاة قام الخطيب ، فدعا للمعتمد والصفّار ومحمد بن عبيد الله ، فرجع بهبوذ إلى عليّ بالخبر ، فنهض عليّ من ساعته ، فركب دوابّه ، وأمر أصحابه بالانصراف إلى الأهواز ، وقدّمهم أمامه ، وقدّم معهم ابن أخيه محمد بن صالح ومحمد بن يحيى الكرمانيّ خليفته ، وكاتبه وأقام حتى إذا جاوزوا كسر قنطرة كانت هناك لئلا يتبعه الخيل .

قال محمد بن الحسن : وكنت فيمن انصرف مع المتقدّمين من أصحاب عليّ ، ومرّ الجيش في ليلتهم تلك مسرعين ، فانتهوْا إلى عسكر مكرَم في وقت طلوع الفجر ؛ وكانت داخلة في سلْم الخبيث ؛ فنكث أصحابه ، وأوقعوا بعسكر مَكْرَم ، ونالوا نهباً ؛ ووافى عليّ بن أبان في أثر أصحابه ، فوقف على ما أحدثوا فلم يقدِر على تغييره ، فمضى حتى صار إلى الأهواز ولما انتهى إلى أحمد بن ليثويْه انصرافُ عليّ ، كرّ راجعاً حتى وافى تُسْتَر ، فأوقع بمحمد بن عبيد الله ومَنْ معه ، فأفلت محمد ، ووقع في يده المعروف بأبي داود الصعلوك ، فحمله إلى باب السلطان المعتمد ، وأقام أحمد بن ليثويْه بتُسْتَر .

قال محمد بن الحسن : فحدّثني الفضل بن عديّ الدارميّ - وهو أحد مَنْ كان من أصحاب قائد الزّنج انضمّ إلى محمد بن أبان أخي عليّ بن أبان قال : لّما استقرّ أحمد بن ليثويْه بتُسْتَر ، خرج إليه عليّ بن أبان بجيشه ، فنزل قرية يقال لها برنجان ، ووجّه طلائع يأتونه بأخباره ، فرجعوا إليه ، فأخبروه أنّ ابن ليثويه قد أقبل نحوه ، وأنّ أوائل خيله قد وافت قرية تعرف بالباهليّين ، فزحف عليّ بن أبان إليه ، وهو يبشّر أصحابَه ، ويعِدُهم الظفر ، ويحكي لهم ذلك عن الخبيث . فلمّا وافى الباهليين تلقاه ابن ليثويه في خيله ، وهي زهاء أربعمائة فارس ؛ فلم يلبثوا أن أتاهم مدد خيل ، فكثرت خيلُ أصحاب السلطان واستأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع عليّ بن أبان إلى ابن ليثويْه ، وانهزم باقي خيل عليّ بن أبان ، وثبت جُمَيِّعة من الرّجّالة ، وتفرّق عنه أكثرهم ، واشتدّ القتال بين الفريقين ، وترجّل عليّ بن أبان ، وباشر القتال بنفسه راجلاً ، وبين يديه غلام من أصحابه يقال له فَتْح ، يعرف بغلام أبي الحديد ، فجعل يقاتل معه . وبصر بعليّ أبو نصر سَلْهب وبدر الروميّ المعروف بالشعرانيّ فعرفاه ،فأنذرا الناس به ، فانصرف هارباً حتى لجأ إلى المسرُقان ، فألقى بنفسه فيه ، وتلاه فَتْح ، فألقى نفسه معه ، فغرق فتح ، ولحق عليّ بن أبان نصر المعروف بالروميّ ، فتخلّصه من الماء ، فألقاه في سُمَيريّة ورُمي عليّ بسهم ، وأصيب به في ساقه ، وانصرف مفلولاً ، وقتل من أنجاد السودان وأبطالهم جماعة كثيرة .

وحج بالناس فيها الفضل بن إسحاق بن الحسن بن العباس بن محمد .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من ظفر عُزَيز بن السريّ صاحب يعقوب بن الليث بمحمد بن واصل وأخذه أسيراً .

وفيها كانت بين موسى دالجويه والأعراب بناحية الأنبار وقعة ، فهزموه وفلّوه ، فوجّه أبو أحمد ابنه أحمد في جماعة من قوّاده في طلب الأعراب الذين فلّوا موسى دالجويه .

وفيها وثب الدّيرانيّ بابن أوس فبيّته ليلاً ، وفرّق جمعه ، ونهب عسكره ، وأفلت ابن أوس ، ومضى نحو واسط .

وفيها خرج في طريق الموصل رجلٌ من الفراغنة ، فقطع الطريق ، فظُفِر به فقتِل .

وفيها أقبل يعقوب بن الليث من فارس ، فلمّا صار إلى النُّوبنْدَجان انصرف أحمد بن ليثويْه عن تُسْتَر ، وصار فيها يعقوب إلى الأهواز ، وقد كان لابن ليثويه قبل ارتحاله عن تُستر وقعة مع أخي عليّ بن أبان ، ظفر فيها بجماعة كثيرة من زنوجه .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة :

ذكر عن عليّ بن أبان ، أن ابن ليثويْه لما هزمه في الوقْعة التي كانت بينهما في الباهليّين ، فأصابه ما أصابه فيها ، ووافى الأهواز ، لم يقمْ بها ، ومضى إلى عسكر صاحبه قائد الزّنْج ، فعالج ما قد أصابه من الجِراح حتى برأ ، ثم كرّ راجعاً إلى الأهواز ، ووجّه أخاه الخليل بن أبان وابن أخيه محمد بن صالح المعروف بأبي سهل ، في جيش كثيف إلى ابن لَيثويْه ؛ وهو يومئذ مقيم بعسكر مكرَم فسارا فيمن معهما ، فلقيهما ابنُ ليثويْه على فرسخ من عسكر مكرَم ، قاصداً إليهما ، فالتقى الجمعان ، وقد كمّن ابن ليثويْه كميناً . فلما استحرّ القتال تطارد ابن ليثويْه ، فطمع الزّنج فيه ، فتبِعوه حتى جاوزوا الكمين ، فخرج من ورائهم ؛ فانهزموا وتفرّقوا ، وكرّ عليهم ابن ليثْويه ، فنال حاجته منهم ، ورجعوا مفلولين . فانصرف ابن ليثويه بما أصاب من الرؤوس إلى تُسْتَر ، ووجّه عليّ بن أبان انكلويه مسلحةً إلى المسرُقان إلى أحمد بن لَيْثَوَيْه ، فوجّه إليه ثلاثين فارساً من جُلْد أصحابه ، وانتهى إلى الخليل بن أبان مسيرُ أصحاب ابن ليثويه إلى المسلَحة ، فكمن لهم فيمن معه ، فلما وافوْه خرج إليهم ، فلم يفلِتْ منهم أحد ، وقُتلوا عن آخرهم ، وحُمِلت رؤوسهم إلى عليّ بن أبان ، وهو بالأهـواز ، فوجّهها إلى الخبيث ، وحينئذ أتى الصفّار الأهواز ، وهرب عنها ابن ليثويه .

ذكر الخبر عما كان من أمر الصفّار هنالك في هذه السنة :

ذُكر أنّ يعقوب بن الليث لما صار إلى جنديْ سابور ، نزلها وارتحل عن تلك الناحية كلّ مَنْ كان بها من قبَل السلطان ، ووجّه إلى الأهواز رجلاً من قبَله يقال له الحصن بن العنبر ، فلمّا قاربها خرج عنها عليّ بن أبان صاحب قائد الزَّنج ، فنزل نهر السدرة، ودخل حصن الأهواز ، فأقام بها ، وجعل أصحابه وأصحاب عليّ بن أبان يُغير بعضهم على بعض ، فيصيب كلّ فريق منهم مِن صاحبه ، إلى أن استعدّ عليّ بن أبان ، وسار إلى الأهواز ، فأوقع بالحصن ومَنْ معه وقعةً غليظة ، قتلَ فيها من أصحاب يعقوب خلقاً كثيراً ، وأصاب خيلاً ، وغنم غنائم كثيرة ، وهرب الحصن ومَنْ معه إلى عسكر مكرَم ، وأقام عليّ بالأهواز حتى استباح ما كان فيها ، ثم رجع عنها إلى نهر السدرة، وكتب إلى بَهْبُوذ يأمره بالإيقاع برجل من الأكراد من أصحاب الصفّار كان مقيماً بدَوْرَق ، فأوقع به بهبوذ ، فقتل رجاله وأسره ، فمنَّ عليه وأطلقه ؛ فكان عليّ بعد ذلك يتوقّع مسير يعقوب إليه فلم يَسِرْ ، وأمدّ الحصن بن العنبر بأخيه الفضل بن العنبر ، وأمرهما بالكفّ عن قتال أصحـاب الخبيث ، والاقتصار على المقام بالأهواز . وكتب إلى عليّ بن أبان يسأله المهادنة ، وأن يقرّ أصحابه بالأهواز ، فأبى ذلك عليّ دون نقل طعام كان هناك ، فتجافَى له الصفّار عن نقل ذلك الطعام ، وتجافى عليّ للصفّار عن عَلَف كان بالأهواز ، فنقل عليّ الطعام ، وترك العَلَف ، وتكافّ الفريقان ، أصحاب عليٍّ وأصحاب الصفار .

وفيها توفِّيَ مَساور بن عبد الحميد الشاري .

وفيها مات عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، سقط عن دابته في الميدان مِنْ صدمة خادم له ، يقال له رشيق ، يوم الجمعة لعشر خَلَوْن من ذي القعدة ، فسال من منخره وأذنه دم ، فمات بعد أن سقط بثلاث ساعات ، وصلى عليه أبو أحمد بن المتوكل ، ومشى في جنازته ، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد . ثم قدم موسى بن بغا سامرّا لثلاث بقين من ذي القعدة ، فهرب الحسن بن مخلد إلى بغداد ، واستوزر مكانه سليمان بن وهب ، لستّ ليال خلَوْن من ذي الحجة ، ثم ولي عبيد الله بن سليمان كتبة المفوّض والموفق إلى ما كان يلي من كتبة موسى بن بغا ، ودفعت دار عبيد الله بن يحيى إلى كيغَلغ .

وفيها أخرج أخو شركب الحسينَ بن طاهر عن نيسابور ، وغلب عليها ، وأخذ أهلها بإعطائه ثلث أموالهم ، وصار الحسين إلى مَرْو ، وبها أخو خوارزم شاه يدعو لمحمد بن طاهر .

وفي هذه السنة سلّمت الصقالبة لؤلؤة إلى الطاغية .

وحجّ بالناس فيها الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل .

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك توجيهُ يعقوب الصفّار جيشاً إلى الصَّيْمَرَة ، فتقدّمه إليها ، وأخذوا صَيغُون ومُضيَ به إليه أسيراً ، فمات عنده .

ولإحدى عشرة خلت من المحرّم ، عسكر أبو أحمد ومعه موسى بن بغا بالقائم ، وشيّعهما المعتمد ، ثم شخصا من سامرّا لليلتين خلتا من صفر ، فلمّا صارا ببغداد ، مات بها موسى بن بغا ، وحُمِل إلى سامرّا ، فدفن بها .

وفيها في شهر ربيع الأول ماتت قَبيحة أمّ المعتزّ .

وفيها صار ابن الدَّيْرَانيّ إلى الدينَور ، وتعاون ابن عياض ودُلَف بن عبد العزيز بن أبي دَلَف عليه ، فهزماه وأخذا أمواله وضياعه ، ورجع إلى حُلوان مفلولاً .

وفيها أسرت الروم عبد الله بن رشيد بن كاوس .

ذكر الخبر عن سبب أسرهم إياه :

ذُكِر أنّ سبب ذلك كان ، أنه دخل أرض الروم في أربعة آلاف من أهل الثغور الشأمية ، فصار إلى حصنَيْن والمسكنين ، فغنم المسلمون ، وقفل ، فلمّا رحل عن البَدَنْدون ، خرج عليه بطريق سلوقيَة وبطريق قَذَيْذيَة وبطريق قُرّة وكوكب وخَرْشنة ، فأحدقوا بهم ، فنزل المسلمون فعرقبوا دوابهم ، وقاتلوا ، فقُتلوا ، إلّا خمسمائة أو ستمائة ، وضعوا السياط في خواصر دوابّهم، وخرجوا ، فقتل الرّوم مَنْ قتلوا، وأسر عبد الله بن رشيد بعد ضرباتٍ أصابته ، وحُمِل إلى لؤلؤة ، ثم حمِل إلى الطاغية على البريد .

وفيها وُلّيَ محمد المولّد واسطاً ، فحاربه سليمان بن جامع ، وهو عامل على ما يلي تلك الناحية من قِبَل قائد الزّنج ، فهزمه وأخرجه عن واسط فدخلها .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسببها :

ذُكر أنّ السبب في ذلك كان أنّ سليمان بن جامع الموجّه كان من قبل قائد الزّنج إلى ناحية الحوانيت والبطائح ، لمّا هزم جُعلان التركيّ عامل السلطان ، وأوقع بأغَرْتمِش ، ففلّ عسكره ، وقتل خُشَيْشاً ، ونهب ما كان معهم ، كتب إلى صاحبه قائد الزّنج يستأذنه في المصير إليه ، ليحدث به عهداً ، ويصلح أموراً من أمور

منزله ؛ فلمّا أنفذ الكتاب بذلك ، أشار عليه أحمد بن مهديّ الجبائيُّ بتطرُّق عسكر البخاريّ ، وهو يومئذ مقيم ببَرْدُودا ، فقبل ذلك ، وسار إلى بَرْدودا ، فوافى موضعاً يقال له أكرمهر ؛ وذلك على خمسة فراسخ من عسكر تكين . فلما وافى ذلك الموضع ، قال الجبائيّ لسليمان : إن الرأي أن تقيم أنت ها هنا ، وأمضي أنا في السُّميريّات ، فأجرّ القوم إليك ، وأتعبهم فيأتوك وقد لغِبوا ، فتنال حاجتَك منهم . ففعل سليمان ذلك ، فعبّى خيله ورجّالته في موضعه ذلك ، ومضى أحمد بن مهديّ في السُّميريات مُسحراً ، فوافى عسكر تكين ، فقاتله ساعة ، وأعدّ تكين خيلَه ورجاله ، وتطارد الجُبائيّ له ، وأنفذ غلاماً إلى سليمان يعلمه أنّ أصحاب تكين واردون عليه بخيلهم . فلقي الرسول سليمان ، وقد أقبل يقفو أثر الجُبَّائيّ لما أبطأ عليه خبره . فردّه إلى معسكره ، ووافى رسول آخر للجبائيّ بمثل الخبر الأوّل ، فلما رجع سليمان إلى عسكره ، أنفذ ثعلب بن حفص البحرانيّ وقائداً من قواد الزَّنج ، يقال له منينا في جماعة من الزَّنْج ، فجعلهما كميناً في الصحراء ممّا يلي ميسرة خيل تكين ، وأمرهما إذا جاوزهم خيل تَكين أن يخرجوا من ورائهم . فلما علم الجبائيُّ أن سليمان قد أحكم لهم خيلَه وأمر الكمين ، رفع صوته ليسمع أصحاب تكين ؛ يقول لأصحابه : غررتموني وأهلكتموني ، وقد كنت أمرتكم ألاّ تدخلوا هذا المدخل ، فأبيتم إلاّ إلقائي وأنفسكم هذا الملْقَى الذي لا أرانا ننجو منه . فطمع أصحاب تكين لمّا سمعوا قوله ، وجدُّوا في طلبه ، وجعلوا ينادون : بلبل في قفص . وسار الجبائيُّ سيراً حثيثاً ، وأتبعوه يرشقونه بالسهام ، حتى جاوزوا موضع الكمين ، وقاربوا عسكر سليمان ، وهو كامن من وراء الجدُر في خيله وأصحابه ، فزحف سليمان ، فتلقّى الجيش ، وخرج الكمين من وراء الخيل ، وثنى الجبائيّ صدور سُميريّاته إلى مَنْ في النهر ، فاستحكمت الهزيمة عليهم من الوجوه كلها ، وركبهم الزّنج يقتلونهم ويسلبونهم ؛ حتى قطعوا نحواً من ثلاثة فراسخ .

ثم وقف سليمان وقال للجبائيّ : نرجع فقد غنمنا وسلمنا ، والسلامة أفضل من كل شيء . فقال الجبائيُّ : كلا ؛ قد نَخبنا قلوبَهم ، ونفذتْ حيلتنا فيهم ، والرأي أن نكسبهم في ليلتنا هذه ، فلعلّنا أن نزيلهم عن عسكرهم ، ونفضَّ جمعهم . فاتبع سليمان رأي الجبّائيّ ، وصار إلى عسكر تكين ، فوافاه في وقت المغرب ، فأوقع به ، ونهض تكين فيمن معه ، فقاتل قتالاً شديداً ، فانكشف عنه سليمان وأصحابه . ثم وقف سليمان وعبّأ أصحابه ، فوجّه شبلاً في خيل من خيله ، وضمّ إليه جمعاً من الرّجّالة إلى الصحراء ، وأمر الجبّائيّ ، فسار في السُّمَيريّات في بطن النهر ، وسار هو فيمن معه من أصحابه الخيّالة والرّجالة ، فتقدّم أصحابه حتى وافى تكين ، فلم يقف له أحد ، وانكشفوا جميعاً وتركوا عسكرهم ، فغنم ما وجد فيه ، وأحرق العسكر ، وانصرف إلى معسكره بما أصاب من الغنيمة . ووافى عسكره ، فألفى كتاب الخبيث قد ورد بالإذن له في المصير إلى منزله ، فاستخلف الجُبائيّ ، وحمل الأعلام التي أصابها من عسكر تكين والشَّذوات التي أخذها من المعروف بأبي تميم ومن خُشيش ومن تكين ، وأقبل حتى ورد عسكر الخبيث ؛ وذلك في جمادى الأولى من سنة أربع وستين ومائتين .

ذكر الخبر عن السبب الذي من أجله تهيأ للزنج دخول واسط ، وذكر الخبر عن الأحداث الجليلة في سنة أربع وستين ومائتين :

ذكر أن الجُبّائيّ يحيى بن خلف لمّا شخص سليمان بن جامع من معسكره بعد الوقعة التي أوقعها بتكين

إلى صاحب الزّنج ، خرج في السُّمَيريّات بالعسكر الذي خلّفه سليمان معه إلى مازروان لطلب المِيرة ، ومعه جماعة من السودان ، فاعترضه أصحاب جُعْلان ، فأخذوا سفناً كانتْ معه ، وهزموه ، فرجع مفلولاً حتى وَافَى طهيثا ، ووافتْه كتب أهل القرية ، يخبرونه أنّ منجور مولى أمير المؤمنين ومحمد بن عليّ بن حبيب اليشكريّ لما اتّصل بهما خبر غيبة سليمان بن جامع عن طَهيثا ، اجتمعا وجمعا أصحابهما ، وقصدا القرية ، فقتلا فيها وأحرقا وانصرفا ، وجلا من أفلت ممن كان فيها ، فصاروا إلى القرية المعروفة بالحجّاجية ، فأقاموا بها . فكتب الجُبّائيّ إلى سليمان بخبر ما وردت به كُتُب أهل القرية ، مع ما ناله من أصحاب جُعْلان ، فأنهض قائد الزّنج سليمان إلى طهيثا معجّلا ، فوافاها ، فأظهر أنه يقصد لقتال جُعْلان ، وعبّأ جيشه ، وقدّم الجبائيّ أمامه في السميريّات ، وجعل معه خيلاً ورجلاً ، وأمره بموافاة مازروان والوقوف بإزاء عسكر جُعْلان ، وأنْ يظهر الخيل ويرعاها بحيث يراها أصحاب جُعْلان ، ولا يُوقع بهم ، وركب هو في جيشه أجمع إلاّ نفراً يسيراً خلّفهم في عسكره ، ومضى في الأهواز حتى خرج على الهورَيْن المعروفين بالربّة والعمرقة . ثم مضى نحو محمد بن عليّ بن حبيب ، وهو يومئذ بموضع يقال له تلْفَخّار ، فوافاه فأوقع به وقعةً غليظة ، قتل فيها قتلى كثيرة ، وأخذ خيلاً كثيرة وحاز غنائم جزيلة ، وقتل أخاً لمحمد بن عليّ ، وأفلت محمد ، ورجع سليمان ، فلما صار في صحراء بين البزّاق والقرية وافته خيل لبني شيبان ، وقد كان فيمن أصاب سليمان بتلّفخّار سيد من سادات بني شيبان ، فقتله وأسر ابناً له صغيراً ، وأخذ حِجْراً كانت تحته ،فانتهى خبره إلى عشيرته ،فعارضوا سليمان بهذه الصحراء في أربعمائة فارس . وقد كان سليمان وجّه إلى عُمير بن عمار خليفته بالطفّ حين توجّه إلى ابن حبيب ، فصار إليه ، فجعله دليلاً لعلمه بتلك الطريق ، فلمّا رأى سليمان خيل بني شيبان قدّم أصحابه أجمعين إلاّ عمير بن عمار فإنه انفرد ، فظفرت به بنو شيبان فقتلوه ، وحملوا رأسه ، وانصرفوا .

وانتهى الخبر إلى الخبيث ، فعظُم عليه قتل عُمير ، وحمل سليمان إلى الخبيث ما كان أصاب من بلد محمد بن عليّ بن حبيب ؛ وذلك في آخر رجب من هذه السنة . فلما كان في شعبان نهض سليمان في جَمْع من أصحابه ؛ حتى وافى قرية حسان ، وبها يومئذ قائد من قوّاد السلطان يقال له جيْش بن حمرتكين ، فأوقع به ، فأجفل عنه ، وظفر بالقرية فانتهبها ، وأحرق فيها وأخذ خيلاً ، وعاد إلى عسكره . ثم خرج لعشر خلوْن من شعبان إلى الحوانيت ، وأصعد الجبائيّ في السميريّات إلى برمساور ، فوجد هنالك صلاغاً فيها خيل من خيل جُعلان ، كان أراد أن يوافي بها نهر أبان . وقد كان خرج إلى ما هناك متصيّداً ، فأوقع الجبائيّ بتلك الصلاغ ، فقتل مَنْ فيها ، وأخذ الخيل - وكانت اثني عشر فرساً - وعاد إلى طَهيثا . ثم نهض سليمان إلى تلّ رمانا ، لثلاث بقين من شعبان فأوقع بها ، وجلا عنها أهلها ، وحاز ما كان فيها . ثم رجع إلى عسكره ، ونهض لعشر ليال خَلَوْن من شهر رمضان إلى الموضع المعروف بالجازرة ، وأبّا يومئذ هناك ، وجُعْلان بمازروان .

وقد كان سليمان كتب إلى الخبيث في التوجيه إليه بالشّذا ، فوجّه إليه عشر شذوات ، مع رجل من أهل عبّادان يقال له الصقر بن الحسين ، فلمّا وفى سليمان الصّقر بالشَّذا أظهر أنه يريد جُعْلان ، وبادرت الأخبار إلى جُعْلان بأن سليمان يريد موافاته ؛ فكانت همّته ضبط عسكره . فلما قَرُب سليمان من موضع أبّا مال إليه ، فأوقع به ، وألفاه غارًّا بمجيئه ، فنال حاجته ، وأصاب ستّ شذَوات .

قال محمد بن الحسن : قال جبّاش : كانت الشَّذَوات ثمانية ، وجدها في عسكره ، وأحرق شذاتين كانَتا

على الشطّ ، وأصاب خيلاً وسلاحاً وأسلاباً ، وانصرف إلى عسكره ، ثم أظهر أنه يريد قصد تكين البخاريّ ، وأعدّ مع الجبائيّ وجعفر بن أحمد خال ابن الخبيث الملعون المعروف بأنكلاي سفنا . فلما وافت السفن عسكر جُعْلان ، نهض إليها ، فأوقع بها ، وحازها وأوقع سليمان من وجهة البرّ ، فهزمه إلى الرُّصافة ، واسترجع سفنه ، وحاز سبعة وعشرين فرساً ومهرين من خيل جُعْلان وثلاثة أبغل ، وأصاب نهباً كثيراً وسلاحاً ، ورجع إلى طَهيثا .

قال محمد : أنكر جبّاش أن يكون لتكين في هذا الموضع ذكر ، ولم يعرف خبر العباداني في تكين ، وزعم أنّ القصد لم يكن إلّا إلى جُعْلان ، وقد كان خبره خفيَ على أهل عسكره حتى أرجفوا بأنه قد قُتِل وقتل الجبّائيّ معه ، فجزعوا أشدّ الجزع ، ثم ظهر خبره وما كان منه من الإيقاع بجعلان ، فسكنوا وقرّوا إلى أن وافَى سليمان ، وكتب بما كان منه إلى الخبيث ، وحمل أعلاماً وسلاحاً ، ثم صار سليمان إلى الرُّصافة في ذي القعدة ، فأوقع بمطر بن جامع ، وهو يومئذ مقيم بها ، فغنم غنائم كثيرة ، وأحرق الرّصافة ، واستباحها ، وحمل أعلاماً إلى الخبيث ، وانحدر لخمس ليالٍ خلون من ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين إلى مدينة الخبيث ، فأقام ليعيّد هناك ويقيم في منزله ، ووافى مطر بن جامع القرية المعروفة بالحجّاجية ، فأوقع بها ، وأسر جماعةً من أهلِها . وكان القاضي بها من قبَل سليمان رجلاً من أهلها يقال له سعيد بن السيد العدويّ ، فأسِر وحُمِل إلى واسط هو وثعلب بن حفص وأربعة قوّاد كانوا معه ، فصاروا إلى الحرجليّة على فرسخيْن ونصف من طهيثا ، ومضى الجبّائيّ في الخيل والرجل لمعارضة مطر ، فوافى الناحية وقد نال مطر ما نال منها ، فانصرف عنها ، وكتب إلى سليمان بالخبر ، فوافى سليمان يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة من هذه السنة ، ثم صرف جُعْلان ، ووافى أحمد بن ليثويْه ، فأقام بالشديديّة ، ومضى سليمان إلى موضع يقال له نهر أبان ، فوجد هناك قائداً من قوّاد ابن ليثويْه يقال له طُرْناج ، فأوقع به وقتله .

قال محمد : قال جبّاش : المقتول بهذا الموضع بينَك ، فأما طُرْناج فإنه قتِل بمازروان . ثم وافى الرّصافة ، وبها يومئذ عسكر مطر بن جامع ، فأوقع به ، فاستباح عسكره ، وأخذ منه سبع شَذَوات ، وأحرق شَذَاتين ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين .

قال محمد : قال جبّاش : كانت هذه الوقعة بالشديديّة ، والذي أخِذ يومئذ ستّ شذوات ، ثم مضى سليمان في خمس شَذَوات ، ورتّب فيها صناديد قوّاده وأصحابه ، فواقعه تكين البخاريّ بالشديديّة ، وقد كان ابن ليْثويْه حينئذ صار إلى ناحية الكوفة وجُنبُلَاء ، فظهر تكين على سليمان ، وأخذ منه الشذّوات التي كانت معه بآلتها وسلاحها ومقاتلتها ، وقتِل في هذه الوقعة جِلّة قوّاد سليمان .

ثم زحف ابن ليثويْه إلى الشديديّة ، وضبط تلك النواحي إلى أن ولّى أبو أحمد محمّداً المولّد واسطاً .

قال محمد : قال جبّاش : لمّا وافَى ابن ليثويه الشديديّة سار إليه سليمان ، فأقام يومين يقاتله ، ثم تطارد له سليمان في اليوم الثالث ، وتبعه ابن ليثويه فيمن تسرّع معه ، فرجع إليه سليمان ، فألقاه في فوّهة بردودا ، فتخلص بعد أن أشفى على الغرق . وأصاب سليمان سبع عشرة دابة من دوابّ ابن ليثويه .

قال : وكتب سليمان إلى الخبيث يستمدّه ، فوجّه إليه الخليل بن أبان في زُهاء ألف وخمسمائة فارس ، ومعه المذوّب ، فقصد عند موافاة هذا المدد إياه لمحاربة محمد المولّد ، فأوقع به فهرب المولّد ، ودخل الزّنج

واسطاً ، فقتِل بها خلْق كثير ، وانتهبت وأحرقت ، وكان بها إذ ذاك كنجور البخاريّ ، فحامى يومه ذلك إلى وقت العصر ، ثم قتِل . وكان الذي يقود الخيل يومئذ في عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوّب . وكان الجُبّائيّ في السميريّات ، وكان الزنجيّ بن مهربان في الشَّذَوات ، وكان سليمان بن جامع في قوّاده من السودان ورجّالته منهم ، وكان سليمان بن موسى الشعرانيّ وأخواه في خيله ورجْله مع سليمان بن جامع ؛ فكان القوم جميعاً يداً واحدة . ثم انصرف سليمان بن جامع عن واسط ، ومضى بجميع الجيش إلى جُنْبُلاء ليعيث ويخرب ، ووقع بينه وبين الخليل بن أبان اختلافٌ ، فكتب الخليل بذلك إلى أخيه عليّ بن أبان ، فاستعفى له قائد الزنج من المُقام مع سليمان ، وأذن للخليل بالرجوع إلى مدينة الخبيث مع أصحاب عليّ بن أبان وغلمانه ، وتخلّف المذوَّب في الأعراب مع سليمان ، وأقام بمعسكره أياماً ، ثم مضى إلى نهر الأمير ، فعسكر به ، ووجّه الجبائيَّ والمذوّب إلى جُنْبُلاء ، فأقاما هنالك تسعين ليلة ، وسليمان معسكر بنهر الأمير .

قال محمد : قال جبّاش : كان سليمان معسكراً بالشديديّة .

ذكر خبر خروج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرّا

وفي هذه السنة خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامُرّا ، ومعه الحسن بن وهب ، وشيّعه أحمد بن الموفّق ومسرور البلخيّ وعامة القواد ؛ فلما صار بسامُرّا غضب عليه المعتمد وحبسه وقيّده ، وانتهب داره وداري ابنيْه وهب وإبراهيم ، واستوزر الحسن بن مخلّد لثلاث بقين من ذي القعدة ، فشخص الموفّق من بغداد ومعه عبيد الله بن سليمان ، فلما قرب أبو أحمد من سامُرّا تحوّل المعتمد إلى الجانب الغربيّ ، فعسكر به ، ونزل أبو أحمد ومَنْ معه جزيرة المؤيّد ، واختلفت الرسل بينهما . فلمّا كان بعد أيام خَلَوْن من ذي الحجة ، صار المعتمد إلى حَرّاقة في دِجْلة ، وصار إليه أخوه أبو أحمد في زَلّالٍ ؛ فخلع على أبي أحمد وعلى مسرور البلخيّ وكَيْغَلغ وأحمد بن موسى بن بغا . فلما كان يوم الثلاثاء لثمان خَلَوْن من ذي الحِجة يوم التّروية عَبَر أهلُ عسكر أبي أحمد إلى عسكر المعتمد ، وأطلق سليمان بن وهب ، ورجع المعتمد إلى الجوْسق ، وهرب الحسن بن مخلّد وأحمد بن صالح بن شيرزاد ، وكتب في قبض أموالهما وأموال أسبابهما ، وحبس أحمد بن أبي الأصبغ ، وهرب القوّاد المقيمون كانوا بسامرّا إلى تَكْريت ، وتغيّب أبو موسى بن المتوكل ، ثم ظهر . ثم شخص القوّاد الذين كانوا صاروا إلى تَكْريت إلى المْوصل ، ووضعوا أيديهم في الجباية .

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشميّ الكوفيّ .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائتين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من وقعة كانت بين أحمد بن لَيْثويْه وسليمان بن جامع قائد صاحب الزَّنج بناحية جُنْبُلاء .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسببها :

ذُكر أن سليمان بن جامع كتب إلى صاحب الزَّنج ، يخبره بحال نهر يعرف بالزهيريّ ، ويسأله الإذن له في النفقة على إنفاذ كَرْيه إلى سَوَاد الكوفة والبرار ، ويُعلِمه أنّ المسافة في ذلك قريبة ، وأنه متى أنفذه تهيّأ له بذلك حَمْل كلّ ما بنواحي جُنْبُلاء وسواد الكوفة من المِيرة . فوجّه الخبيث بذلك رجلاً يقال له محمد بن يزيد البصريّ ، وكتب إلى سليمان بإزاحة عياله في المال والإقامة معه في جيشه إلى وقت فراغه ، مما وُجّه له ، فمضى سليمان بجميع جيشه حتى أقام بالشريطيّة نحواً من شهر ، وألقى الفعَلة في النهر ؛ وخلال ذلك ما كان سليمان يتطرّق ما حوله من أهل خُسْرُ سابور ؛ وكانت المِيرة تتّصل به من ناحية الصين وما والاها إلى أن واقعه ابن لَيْثويْه عامل أبي أحمد على جُنْبُلاء ، فقتل له أربعة عشر قائداً .

قال محمد بن الحسن : قتل سبعة وأربعين قائداً وخَلْقاً من الخلق لا يحصى كثرة، واستبيح عسكره ، وأحرِقت سفنه ، وكانت مقيمةً في هذا النهر الذي كان مقيماً على إنفاذه ، فمضى مفلولاً حتى وافى طَهيثا ، فأقام بها ، ووافى الجُبّائيُّ في عقب ذلك ، ثم أصعد فأقام بالموضع المعروف ببرّ تمرتا ، واستخلف على الشَّذَوات الاشتيام الذي يقال له الزنجيّ بن مهربان ، وقد كان السلطان وجّه نُصيراً لتقييد شامرْج ، وحمْله إلى الباب ، وتقلّد ما كان يتقلّده ، فوافى نصير الزّنجيّ بن مهربان بعد حمله شامرج مقيّداً بنهر برّتمرتا ، وأخذ منه تسع شذَوات ، واستردّ الزنجيّ منها ستّاً .

قال محمد بن الحسن : أنكر جبّاش أن يكون الزّنجيّ بن مهربان استردّ من الشَّذَوات شيئاً ، وزعم أنّ نصيراً ذهب بالشَّذَوات أجمع ، وانصرف إلى طَهيثا ، وبادر بالكتاب إلى سليمان ، ووافاه . فأقام سليمان بطهيثا إلى أن اتّصل به خبر إقبال الموفّق .

وفيها أوقع أحمد بن طولون بسيما الطويل بأنطاكية ، فحصره بها ، وذلك في المحرّم منها ، فلم يزل ابن طولون مقيماً عليها حتى افتتحها ، وقتل سيما .

وفيها وثب القاسم بن مماه بدُلَف بن عبد العزيز بن أبي دُلف بأصبهان ، فقتله . ثم وثب جماعة من

أصحاب دُلف على القاسم ، فقتلوه ورأسوا عليهم أحمد بن عبد العزيز .

وفيها لحق محمد المولَّد بيعقوب بن الليث ، فصار إليه، وذلك في المحرّم منها ، فأمر السلطان بقبض أمواله وعقاراته .

وفيها قتلت الأعراب جُعلان المعروف بالعيّار بدِمًا ، وكان خرج لبَذْرقة قافلة ، فقتلوه ؛ وذلك في جمادى الأولى ؛ فوجّه السلطان في طلب الذين قتلوه جماعةً من الموالي ، فهرب الأعراب ، وبلغ الذين شخصوا في طلبهم عين التّمر ، ثم رجعوا إلى بغداد ، وقد مات منهم من البرد جماعة ؛ وذلك أنّ البرد اشتدّ في تلك الأيام ودام أياماً ، وسقط الثلج ببغداد .

وفيها أمر أبو أحمد بحبس سليمان بن وهب وابنه عُبيد الله ، فحبِسا وعدة من أسبابهم في دار أبي أحمد ، وانتهبت دور عِدّة من أسبابه ، ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبيد الله ، وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهم خلا أحمد بن سليمان . ثم صولح سليمان وابنه عبيد الله على تسعمائة ألف دينار ، وصيِّرا في موضع يصل إليهما من أحبّا .

وفيها عسكر موسى بن أتامش وإسحاق بن كُنْداجيق وبنغجور بن أرخُوز والفضل بن موسى بن بغا بباب الشماسيّة ، ثم عبروا جسر بغداد ، فصاروا إلى السفينتين ، وتبعهم أحمد بن الموفّق ، فلم يرجعوا ، ونزلوا صَرْصَر .

وفيها استكتب أبو أحمد صاعد بن مخلَد ؛ وذلك لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الآخرة ، وخلع عليه ، فمضى صاعد إلى القوّاد بصرصَر ، ثم بعث أبو أحمد ابنه أحمد إليهم ، فناظرهم فانصرفوا معه فخلع عليهم .

وفيها خرج ـ فيما ذكر ـ خمسة من بطارقة الرّوم في ثلاثين ألفاً من الروم إلى أذَنة ، فصاروا إلى المصلى .

وأسروا أرخوز ـ وكان والي الثغور ـ ثم عُزِل ، فرابط هناك فأسِر ، وأسِر معه نحوٌ من أربعمائة رجل ، وقَتلوا ممّن نفر إليهم نحواً من ألف وأربعمائة رجل ، وانصرفوا اليوم الرابع ، وذلك في جُمادى الأولى منها .

وفي رجب منها عسكر موسى بن أتامش وإسحاق بن كُنْداجيق وبنغجور بن أرخوز بنهر دَيَالى .

وفيها غلب أحمد بن عبد الله الخُجُستانيّ على نيسابور ، وصار الحسين بن طاهر عامل محمد بن طاهر إلى مَرْو ، فأقام بها وأخو شركب الجمّال بين الحسين والخُجستانيّ أحمد بن عبد الله .

وفيها أخرِبت طوس .

وفيها استوزر إسماعيل بن بلبُل .

وفيها مات يعقوب بن الليث بالأهواز وخلفه أخوه عمرو بن الليث ؛ وكتب عمرو إلى السلطان بأنه سامع له ومطيع ؛ فوجّه إليه أحمد بن أبي الأصبغ في ذي القعدة منها .

وفيها قتلت جماعة من أعراب بني أسد عليّ بن مسرور البلخيّ بطريق مكة قبل مصيره إلى المُغيثة ، وكان أبو أحمد ولّى محمد بن مسرور البلخيّ طريق مكة ، فولّاه أخاه عليّ بن مسرور .

وفيها بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد بن كاوس الذي كان عامل الثغور ، فأسير ، إلى أحمد بن

طولون مع عِدّة من أسراء المسلمين وعِدّة مصاحف هدية منه له .

وفيها صارت جماعة من الزّنج في ثلاثين سُمَيريّة إلى جَبُّل ، فأخذوا أربع سفن فيها طعام ، ثم انصرفوا .

وفيها لحق العباس بن أحمد بن طولون مع مَنْ تبعه ببرْقة ، مخالفاً لأبيه أحمد ، وكان أبوه أحمد استخلفه - فيما ذكر - على عمله بمصر لمّا توجّه إلى الشأم ؛ فلما انصرف أحمد عن الشأم راجعاً إلى مصر حمل العباس ما في بيت مال مصر من الأموال ؛ وما كان لأبيه هناك من الأثاث وغير ذلك . ثم مضى إلى بَرْقة ، فوجّه إليه أحمد جيشاً ، فظفروا به وردّوه إلى أبيه أحمد ، فحبسه عنده ، وقُتِل لسبب ما كان منه جماعةٌ كانوا شايعوا ابنَه على ذلك .

وفيها دخل الزَّنج النّعمانيّة ، فأحرقوا سوقَها ، وأكثر منازل أهلها ، وسَبَوا ، وصاروا إلى جَرْجَرَايا ، ودخل أهلُ السواد بغداد .

وفيها ولّى أبو أحمد عمرَو بن الليث خُراسان وفارس وأصبهان وسِجْستان وكَرْمان والسند ، وأشهد له بذلك ، ووجّه بكتابه إليه بتوليته ذلك مع أحمد بن أبي الأصبغ ، ووجّه إليه مع ذلك العهد والعقد والخلع .

وفي ذي الحجة منها صار مسرور البلخيّ إلى النيل ، فتنحّى عنها عبد الله بن ليْثويْه في أصحاب أخيه ، وقد أظهر الخلاف على السلطان ، فصار ومَنْ معه إلى أحمد أباذ ، فتبعهم مسرور البلخيّ يريد محاربتهم ؛ فبدر عبد الله بن ليثويْه ومَنْ كان معه ، فترجّلوا لمسرور ، وانقادوا له بالسمع والطاعة ، وعبد الله بن ليثويْه نزع سيفه ومنطقته فعلقهما في عُنُقه ، يعتذر إليه ، ويحلف أنه حمل على ما فعل ، فقبل منه ، وأمر فخلع عليه وعلى عدّة من القوّاد معه .

وفيها شخص تكين البخاريُّ إلى الأهواز مقدّمة لمسرور البلخي

ذكر الخبر عمّا كان من أمر تكين بالأهواز حين صار إليها :

ذكر محمد بن الحسن أنّ تكين البخاريّ ولّاه مسرور البلخيّ كور الأهواز حين ولّاه أبو أحمد عليها ، فتوجّه تكين إليها ، فوافاها ، وقد صار إليها عليّ بن أبان المهلبيّ ، فقصد تُسْتَرَ ، فأحاط بها في جَمْع كثير من أصحابه الزَّنج وغيرهم ؛ فراع ذلك أهلَها ، وكادوا أن يُسلموها ، فوافاها تكين في تلك الحال ، فلم يضع عنه ثياب السَّفَر ؛ حتى واقع عليّ بن أبان وأصحابه ؛ فكانت الدَّبْرَة على الزَّنج ؛ فقتِلوا وهُزِموا وتفرّقوا ، وانصرف عليّ فيمن بقي معه مفلولاً مدحوراً ، وهذه وقعة باب كُودَك المشهورة .

ورجع تكين البخاريّ ، فنزل تُسْتَر ، وانضمّ إليه جمعٌ كثير من الصعاليك وغيرهم ، ورحل إليه عليّ بن أبان في جمع كثير من أصحابه ، فنزل شرقيّ المسرُقان ، وجعل أخاه في الجانب الغربيّ في جماعة من الخيل ، وجعل رجّالة الزّنج معه ، وقدم جماعة من قوّاد الزّنج ؛ منهم أنكلويه وحسين المعروف بالحمـاميّ وجماعـة غيرهما ، فأمرهم بالمقام بقنطرة فارس .

وانتهى الخبر بما دبّره عليّ بن أبان إلى تكين ، وكان الذي نقل إليه الخبر غلاماً يقال له وصيف الروميّ ، وهرب إليه من عسكر عليّ بن أبان ، فأخبره بمقام هؤلاء القوم بقنطرة فارس ، وأعلمه تشاغُلَهم بشرب النبيذ وتفرّق أصحابهم في جمع الطعام ، فسار إليهم تكين في الليل في جمع من أصحابه ، فأوقع بهم ؛ فقتل من قوّاد

الزّنج أنكلويه والحسين المعروف بالحمّاميّ ومفرّج المكنى أبا صالح وأندرون ، وانهزم الباقون ، فلحقوا بالخليل بن أبان ، فأعلموه ما نزل بهم ؛ وسار تكين على شرقيّ المسرُقان حتى لقيَ عليّ بن أبان في جمعه ، فلم يقف له عليّ وانهزم عنه ، وأسِر غلام لعليّ من الخيالة يعرف بجَعْفَرَوَيْه ، ورجع عليّ والخليل في جمعهما إلى الأهواز ، ورجع تكين إلى تُسْتَر ، وكتب عليُّ بن أبان إلى تكين يسأله الكفَّ عن قتل جعفرويه . فحبسه ، وجرت بين تكين وعليّ بن أبان مراسلات وملاطفات ، وانتهى الخبر إلى مسرور ، فأنكرها . وانتهى إلى مسرور أنّ تكين قد ساءت طاعته ، وركن إلى عليّ بن أبان ومايله .

قال محمد بن الحسن : فحدّثني محمد بن دينار ، قال : حدّثني محمد بن عبد الله بن الحسن بن عليّ المأمونيّ الباذغيسيّ ـ وكان من أصحاب تكين البخاريّ ـ قال : لمّا انتهى إلى مسرور الخبر بالتياث تكين عليه توقّف حتى عرف صحة أمره ، ثم سار يريد كُور الأهواز وهو مظهرٌ الرضا عن تكين والإحماد لأمره ، فجعل طريقه على شابَرْزان ، ثم سار منها حتى وافَى السوس ، وتكين قد عرف ما انتهى إلى مسرور من خبره، فهو مستوحش من ذلك ومن جماعة كانت تبعته عند مسرور من قوّاده ، فجرت بين مسرور وتكين رسائل حتى أمنَ تكين ، فصار مسرور إلى وادي تُسْتَر ، وبعث إلى تكين ، فعبَر إليه مسلِّماً ، فأمر به فأخِذ سيفه ، ووُكّلَ به ؛ فلما رأى ذلك جيش تكين انفضّوا من ساعتهم ، ففرقة منهم صارت إلى ناحية صاحب الزّنج ، وفرقة صارت إلى محمد بن عبيد الله الكرديّ . وانتهى الخبر إلى مسرور ، فبسط الأمان لمن بقي من جيش تَكين ، فلحقوا به .

قال محمد بن عبد الله بن الحسن المأمونيّ : فكنت أحد الصائرين إلى عسكر مسرور ، ودفع مسرور تكين إلى إبراهيم بن جُعْلان ، فأقام في يده محبوساً ، حتى وافاه أجلُه فتوفِّيَ .

وكان بعض أمر مسرور وتكين الذي ذكرناه في سنة خمس وستين ، وبعضه في سنة ست وستين .

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشميّ .

وفيها كانت موافاة المعروف بأبي المغيرة بن عيسى بن محمد المخزومي متغلّباً بزنج معه على مكة .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من تولية عمرو بن الليث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر خلافتَه على الشرْطة ببغداد وسامُرّا في صفر ، وخلع أبي أحمد عليه ، ثم مصير عبيد الله بن عبد الله إلى منزِلِه ، فخلع عليه فيه خلعة عمرو بن الليث ، وبعث إليه عمرو بعمود من ذهب .

وفي صفر منها غلب أساتكين على الرّيّ ، وأخرج عنها طَلَمَجُور العامل كان عليها ، ثم مضى هو وابنه أذكوتكين إلى قَزْوين ، وعليها أبردون أخو كيغَلغ ، فصالحاه ودخلا قَزْوين ، وأخذا محمد بن الفضل بن سنان العجليّ ، فأخذا أمواله وضياعه ، وقتله أساتكين . ثم رجع إلى الرّيّ ، فقاتله أهلها فغلبهم ودخلها .

وفيها وردت سريّة من سرايا الرّوم تلَّ بَسْمَى من ديار ربيعة ، فقتلَتْ من المسلمين ، وأسرَتْ نحواً من مائتين وخمسين إنساناً ، فنفر أهلُ نَصِيبين وأهل الموصِلِ ، فرجعت الروم .

وفيها مات أبو الساج بجنديْسابور في شهر ربيع الآخر ، منصرفاً عن عسكر عمرو بن الليث إلى بَغداد ، ومات قبله في المحرّم منها سليمان بن عبد الله بن طاهر .

وولّى عمرو بن الليث فيها أحمد بن عبد العزيز بني أبي دُلف أصبهان .

وولّي فيها محمد بن أبي الساج الحَرَمَيْنْ وطريق مكة .

وفيها ولِّيَ أغرتمش ما كان تكين البخاريّ يليه من عمال الأهواز ، فسار أغرتمش إليها ، ودخلها في شهر رمضان ، فذكر محمد بن الحسن أن مسروراً وجّه أغرتمش وأبّا ومَطَر بن جامع لقتال عليّ بن أبان ، فساروا حتى انتهوْا إلى تُسْتَر ، فأقاموا بها ، واستخرجوا مَن كان في حبس تكين ، وكان فيه جعفرويه في جماعة من أصحاب قائد الزَّنج ، فقتِلوا جميعاً . وكان مطر بن جامع المتولّي قتلهم ، ثم ساروا حتى وافَوْا عسكر مكرَم ، ورحل إليهم عليّ بن أبان ، وقدّم أمامه إليهم الخليل أخاه ، فصار إليهم الخليل ، فواقفهم وتلاه عليّ ، فلما كثر عليهم جَمْع الزَّنج ، قطعوا الجسر وتحاجزوا ، وجنّهم الليل ، فانصرف عليّ بن أبان في جميع أصحابه ، فصار إلى الأهواز ، وأقام الخليل فيمن معه بالمسرُقان ، وأتاه الخبر بأن أغرتمش وأبّا ومَطَر بن جامع قد أقبلوا نحوه ، ونزلوا الجانب الشرقيّ من قنطرة أربُك ليعبروا إليه ، فكتب الخليل بذلك إلى أخيه عليّ بن أبان ، فرحل عليّ إليهم حتى وافاهم بالقنطرة ، ووجّه إلى الخليل يأمره بالمصير إليه ، فوافاه وارتاع مَنْ كان بالأهواز من أصحاب عليّ ، فقلعوا عسكره ، ومضوْا إلى نهر السِّدرة ، ونشبت الحرب بين عليّ بن أبان وقوّاد السلطان هناك ؛ وكان ذلك

يومهم، ثم تحاجزوا . وانصرف عليّ بن أبان إلى الأهواز ، فلم يجد بها أحداً ، ووجد أصحابه أجمعين قد لحقوا بنهر السِّدرة ، فوجّه إليهم مَنْ يردّهم ، فعسر ذلك عليه فتبعهم ، فأقام بنهر السِّدرة ، ورجع قوّاد السلطان حتى نزلوا عسكر مكرم ؛ وأخذ عليّ بن أبان في الاستعداد لقتالهم . وأرسل إلى بهبوذ بن عبد الوهاب ، فأتاه فيمن معه من أصحابه ، وبلغ أغرتمش وأصحابه ما أجمع عليه من المسير إليهم عليّ ، فساروا نحوه ، وقد جعل عليّ بن أبان أخاه على مقدّمته ، وضمّ إليه بَهْبُوذ وأحمد بن الزَّرَنجيّ ، فالتقى الفريقان بالدُّولاب . فأمر عليّ الخليلَ بن أبان أن يجعلَ بَهْبُوذ كميناً ، فجعله . وسار الخليل حتى لقيَ القوم ، ونشب القتال بينهم ، فكان أوّل نهار ذلك اليوم لأصحاب السلطان ، ثم جالوا جَوْلة وخرج عليهم الكمين ، وأكبّ الزّنج إكبابةً ، فهزموهم ، وأسِر مطر بن جامع ، صُرِعَ عن فرس كان تحته ، فأخذه بهبوذ ، فأتي به عليًّا ، وقتل سيما المعروف بصغراج في جماعة من القوّاد .

ولّما وافى بهبوذ عليًّا بمطر ، سأله مطر استبقاءه ، فأبى ذلك عليّ ، وقال : لو كنت أبقيت على جعفرويْه لأبقينا عليك . وأمر به فأدْنِيَ إليه ، فضرب عنقَه بيده .

ودخل عليّ بن أبان الأهواز ، وانصرف أغرتمش وأبَّا فيمن أفلت معهما ، حتى وافيا تُسْتَرَ ، ووجّه عليّ بن أبان بالرؤوس إلى الخبيث ، فأمر بنصبها علىَ سُور مدينته .

قال : وكان عليّ بن أبان بعد ذلك يأتي أغرتمش وأصحابه ، فتكون الحرب بينهم سِجالاً عليه وله ، وصرَف الخبيث أكثر جنوده إلى ناحية عليّ بن أبان ، فكثروا على أغرتمش ، فركن إلى الموادعة ، وأحبّ عليّ بن أبان مثل ذلك ، فتهادَنَا . وجعل عليّ بن أبان يُغير على النواحي ، فمن غاراته مصيره إلى القرية المعروفة ببيرُوذ ، فظهر عليها ، ونال منها غنائم كثيرة ، فكتب بما كان منه من ذلك إلى الخبيث ، ووجّه بالغنائم التي أصابها وأقام .

وفيها فارق إسحاق بن كُنْدَاجيق عسكر أحمد بن موسى بن بُغا ؛ وذلك أن أحمد بن موسى بن بغا لما شخص إلى الجزيرة ولّى موسى بن أتامش ديار ربيعة ، فأنكر ذلك إسحاق ، وفارق عسكره لسبب ذلك ، وصار إلى بَلَد ، فأوقع بالأكراد اليعقوبية فهزَمَهم ، وأخذ أموالهم فقويَ بذلك ، ثم لقي ابن مساور الشاري فقتله .

وفي شوّال منها قَتَل أهلُ حِمْص عاملَهم عيسى الكرخيّ .

وفيها أسر لؤلؤ غلام أحمد بن طولون موسى بن أتامش ؛ وذلك أنّ لؤلؤاً كان مقيماً برابية بني تميم ، وكان موسى بن أتامش مقيماً برأس العين ، فخرج ليلاً سكران ليكبِسهم ، فكمنوا له ، فأخذوه أسيراً ، وبعثوا به إلى الرّقة . ثم لقي لؤلؤ أحمدَ بن موسى وقوّاده ومَنْ معهم من الأعراب في شوّال ، فهزم لؤلؤ ، وقُتل من أصحابه جماعة كثيرة ، ورجع ابن صفوان العُقَيليّ والأعراب إلى ثقل عسكر أحمد بن موسى لينتهبوه ، وأكبّ عليهم أصحاب لؤلؤ ، فبلغت هزيمة المنفلت منهم قَرقيسيا ، ثم صاروا إلى بغداد وسامرّا ، فوافوْها في ذي القعدة ، وهرب ابنُ صفوان إلى البادية .

وفيها كانت بين أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف وبكتمر وَقْعة ؛ وذلك في شوّال منها ، فهزم أحمد بن عبد العزيز بكتمر فصار إلى بغداد .

وفيها أوْقَع الخُجُستانيّ بالحسن بن زيد بجُرجان على غِرّة من الحسن ، فهرب منه الحسن ، فلحق بآمُل ، وغلب الخُجُسْتَانيّ على جُرجان ، وبعض أطراف طَبَرِستان ؛ وذلك في جُمادى الآخرة منها ورجب .

وفيها دعا الحسن بن محمد بن جَعفر بن عبد الله بن حسن الأصغر العقيقيّ أهل طبرسْتان إلى البَيْعة له ؛ وذلك أنّ الحسن بن زيد عند شخوصه إلى جُرجان كان استخلفَه بسارية ، فلمّا كان من أمر الخُجُستانيّ وأمر الحسن ما كان بجُرجان ، وهرب الحسن منها ، أظهر العقيقيّ بسارية أنّ الحسن قد أسِرَ ؛ ودعا من قبَلهَ إلى بيعته ، فبايعه قومٌ ، ووافاه الحسن بن زيد فحاربه ، ثم احتال له الحسن حتى ظفر به فقتله .

وفيها نهب الخُجستانيّ أموالَ تجّار أهل جُرجان ؛ وأضرم النار في البلد .

وفيها كانت وقعة بين الخُجْسْتانيّ وعمرو بن الليث، علا فيها الخجستانيّ على عمرو وهزمه ، ودخل نيسابور ، فأخرج عامل عمرو بها عنها، وقتل جماعة مما كان يميل إلى عمرو بها .

وفيها كانت فتنة بالمدينة ونواحيها بين الجعفريّة والعَلَويّة .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان سببُ ذلك ـ فيما ذُكر ـ أنّ القيّم بأمر المدينة ووادي القرى ونواحيها كان في هذه السنة إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفريّ ، فولّى وادي القرى عاملاً من قِبَله ، فوثَب أهلُ وادي القُرى على عامل إسحاق بن محمد ، فقتلوه ، وقتلوا أخوين لإسحاق ، فخرج إسحاق إلى وادي القُرى ، فمرض به ومات . فقام بأمر المدينة أخوه موسى بن محمد ، فخرج عليه الحسن بن موسى بن جعفر، فأرضاه بثمانمائة دينار . ثم خرج عليه أبو القاسم أحمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد ، ابن عمّ الحسن بن زيد صاحب طَبَرستان ؛ فقتل موسى ، وغلب على المدينة . وقدمها أحمد بن محمد بن إسماعيل بن الحَسن بن زيد ، فضبط المدينة ؛ وقد كان غلا بها السعر ، فوجّه إلى الجار ، وضمن للتجار أموالهم ، ورفع الجباية ؛ فرخُص السعر ، وسكنت المدينة ، فولّى السلطان الحسنيّ المدينة إلى أن قدمها ابنُ أبي الساج .

وفيها وثبت الأعراب على كُسوة الكعبة ، فانتهبوها ، وصار بعضُها إلى صاحب الزّنج ، وأصاب الحاجّ فيها شدّة شديدة .

وفيها خرجت الرّوم إلى ديار ربيعة، فاستنفر الناس ، فنفروا في برد ووقت لا يمكنُ الناس فيه دخول الدّرب .

وفيها غزا سيما خليفة أحمد بن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة رجل من أهل طَرَسُوس ، فخرج عليهم العدوّ في بلاد هَرقلة ، وهم نحو من أربعة آلاف ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل المسلمون من العدوّ خَلْقاً كثيراً ، وأصيب من المسلمين جماعة كثيرة .

وفيها كانت بين إسحاق بن كُنْدَاجيق وإسحاق بن أيوب وقْعة ، هزم فيها ابن كنداجيق إسحاق بن أيوب ، فألحقه بنصِيبين ، وأخَذ ما في عسكره ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة ، وتبعه ابن كُنْدَاجيق ، وصار إلى نَصيبين ، فدخلها ، وهرب إسحاق بن أيوب منه ، واستنجد عليه عيسى بن الشيخ وهو بآمد وأبا المَغْراء بن موسى بن زرارة ؛ وهو بأرْزَن ، فتظاهروا على ابن كُنْدَاجيق ، وبعث السلطان إلى ابن كُنْدَاجيق

بخلع ولواء على الموصل وديار ربيعة وأرمينيَة مع يوسف بن يعقوب ، فخلع عليه ، فبعثوا يطلبون الصّلح ، ويبذلون له مالاً على أن يُقِرّهم على أعمالهم مائتي ألف دينار .

وفيها وافى محمد بن أبي الساج مكة ، فحاربه ابن المخزوميّ ، فهزمه ابن أبي الساج ، واستباح ماله ؛ وذلك يوم التروية من هذه السنة .

وفيها شخص كيغَلغ إلى الجبل ، ورجع بكتمر إلى الدِّينور .

وفيها دخل أصحاب قائد الزنج رَامَهُرْمُز .

ذكر الخبر عن سبب مصيرهم إليها :

قد ذكرنا قبلُ ما كان من أمر محمد بن عبيد الله الكرديّ وعليّ بن أبان صاحب الخبيث ، حين تلاقَيا على صلْح منهما ، فذُكِر أنّ عليًّا كان قد احتجن على محمد ضِغْناً في نفسه ؛ لما كان في سفره ذلك ؛ وكان يرصده بشرّ ، وقد عرف ذلك منه محمد بن عبيد الله ، وكان يروم النَّجاة منه ؛ فكاتبَ ابنَ الخبيث المعروف بأنكلاي ، وسأله مسألة الخبيث ضمّ ناحيته إليه لتزول يد عليّ منه ، وهاداه ، فزاد ذلك عليّ بن أبان عليه غيظاً وحَنَقاً ؛ فكتب إلى الخبيث يعرّفه به ، ويصحّح عنده أنه مصرّ على غَدرِه ، ويستأذنه في الإيقاع به ، وأن يجعل الذّريعة إلى ذلك مسألته حَمل خراج ناحيته إليه ، فأذن له الخبيث في ذلك ، فكتب عليّ إلى محمد بن عبيد الله في حَمْل المال ، فلواه به ، ودافعه عنه ، فاستعدّ له عليّ ، وسار إليه ، فأوقع برامهرمز ، ومحمدُ بن عبيد الله يومئذ مقيمٌ بها ، فلم يكن لمحمد منه امتناع ، فهرب ودخل عليّ رامهرمُز ، فاستباحها ، ولحق محمد بن عبيد الله بأقصى معاقله من أرْبَق والبيلم ، وانصرف عليّ غانماً ، وراع ما كان من ذلك من عليٍّ محمداً ، فكتب يطلب المسألة ، فأنهى ذلك عليّ إلى الخبيث ، فكتب إليه يأمره بقبول ذلك ، وإرهاق محمد بحمْل المال ، فحمل محمد بن عبيد الله مائتي ألف درهم ، فأنفذها عليّ إلى الخبيث ، وأمسك عن محمد بن عبيد الله وعن أعماله .

وفيها كانت وقعةٌ لأكراد الداربان مع زَنْج الخبيث ، هُزِموا فيها وفُلُّوا .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

ذُكر عن محمد بن عبيد الله بن أزارْمَرْد أنه كتب إلى عليّ بن أبان بعد حمله إليه المالَ الذي ذكرنا مبلغه قبلُ ، وكفِّ عليّ عنه وعن أعماله ، يسأله المعونة على جماعة من الأكراد كانوا بموضع يقال له الداربان ، على أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم . فكتب عليّ إلى الخبيث يسأله الإذن له في النهوض لذلك ، فكتب إليه أن وجِّه الخليل بن أبان وبهبوذ بن عبد الوهاب ، وأقِمْ أنت ، ولا تنفُذ جيشك حتى تتوثّق من محمد بن عبيد الله برهائن تكون في يدك منه ، تأمن بها من غدره فقد وترتَه ، وهو غير مأمون على الطلب بثأره . فكاتب عليٌّ محمّدَ بن عبيد الله بما أمره به الخبيث ، وسأله الرهائن ، فأعطاه محمد بن عبد الله الأيمان والعهود ، ودافعه على الرهائن . فدعا عليًّا الحِرْصُ على الغنائم التي أطمعه فيها محمد بن عبيد الله إلى أن أنفذ الجيش ، فساروا ومعهم رجال محمد بن عبيد الله ؛ حتى وافوا الموضع الذي قصدوا له ، فخرج إليهم أهله ، ونشبت الحرب ، فظهر الزّنج في ابتداء الأمر على الأكراد ، ثم صدّقهم الأكراد ، وخذلهم أصحاب محمد بن عبيد الله ، فتصدّعوا وانهزموا مفلولين مقهورين ؛ وقد كان محمد بن عبيد الله أعدّ لهم قوماً أمرهم بمعارضتهم إذا انهزموا ،

فعارضوهم وأوقعوا بهم ، ونالوا منهم أسلاباً ، وأرجلوا طائفة منهم عن دوابّهم فأخذوها ، فرجعوا بأسوإ حال ، فكتب المهلبيّ إلى الخبيث بما نال أصحابه . فكتب إليه يعنّفه ، ويقول : قد كنتُ تقدّمت إليك ألاّ تركن إلى محمد بن عبيد الله ، وأن تجعل الوثيقة بينك وبينه الرّهائن ، فتركتَ أمري ، واتبعتَ هواك ، فذاك الذي أردَاك وأردى جيشك .

وكتب الخبيث إلى محمد بن عبيد الله ، أنه لم يخف عليّ تدبيرُك على جيش عليّ بن أبان ، ولن تعدم الجزاء على ما كان منك .

فارتاع محمد بن عبيد الله مما ورد به عليه كتاب الخبيث ، وكتب إليه بالتضرّع والخضوع ، ووجّه بما كان أصحابه أصابوا من خيل أصحاب عليّ حيث عورضوا وهم منهزمون ، فقال : إني صرتُ بجميع مَنْ معي إلى هؤلاء القوم الذين أوقعوا بالخليل وبَهْبُوذ ، فتوعّدتهم وأخفتهم ، حتى ارتجعت هذه الخيل منهم ، ووجّهت بها . فأظهر الخبيث غضباً ، وكتب إليه يتهدده بجيش كثيف يرميه به ، فأعاد محمد الكتاب بالتضرّع والاستكانة ، فأرسل إلى بَهْبُوذ ، فضمن له مالاً ، وضمن لمحمد بن يحيى الكِرمانيّ مثل ذلك ، ومحمد بن يحيى يومئذ الغالب على عليّ بن أبان ، والمصرّف له برأيه ، فصار بَهْبُوذ إلى عليّ بن أبان ، وظاهره محمد بن يحيى الكِرْمانيّ على أمره حتى أصلحا رأي عليّ في محمد بن عبيد الله وسلاّ ما في قلبه من الغَيْظ والحَنَق عليه ، ثم مضيا إلى الخبيث . ووافق ذلك ورودُ كتاب محمد بن عبيد الله عليه ، فصوّبا وصعّدا حتى أظهرا لهما الخبيث قبولَ قولهما ، والرجوعَ لمحمد بن عبيد الله إلى ما أحبّ ، وقال : لست قابلاً منه بعد هذا إلاّ أن يَخطب لي على منابر أعماله .

فانصرف بَهْبُوذ والكرمانيّ بما فارقهما عليه الخبيث ، وكتبا به إلى محمد بن عبيد الله ، فأصدر جوابه إلى كلّ ما أراده الخبيث ، وجعل يُراوغ عن الدّعاء له على المنابر. وأقام عليّ بعد هذا مدّة ، ثمّ استعدّ لمَتوث ، وسار إليها ؛ فرامها فلم يطقها لحصانتها وكثرة مَنْ يدافع عنها من أهلها ، فرجع خائباً ، فاتّخذ سلاليم وآلات ليرقى بها السور ، وجمع أصحابه واستعدّ . وقد كان مسرور البلخيّ عرف قصدَ عليٍّ مَتُّوث ، وهو يومئذ مقيمٌ بكُور الأهواز . فلما عاود المسيرَ إليها ، سار إليه مسرور ، فوافاه قبيل غروب الشمس ، وهو مقيم عليها ؛ فلما عاين أصحاب عليّ أوائل خيل مسرور ، انهزموا أقبَحَ هزيمة ، وتركوا جميع آلاتهم التي كانوا حملوها ، وقتِل منهم جمع كثير ، وانصرف عليّ بن أبان مدحوراً ، ولم يلبث بعد ذلك إلاّ يسيراً حتى تتابعت الأخبار بإقبال أبي أحمد ، ثم لم يكن لعليّ بعد رجوعه من متُّوث وقعة حتى فتحت سوق الخميس وطهيثا على أبي أحمد ، فانصرف بكتاب ورد عليه من الخبيث يحفِزه فيه حفزاً شديداً بالمصير إلى عسكره .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشميّ الكوفيّ .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك حبس السلطان محمد بن طاهر بن عبد الله وعدّة من أهل بيته بعقب هزيمة أحمد بن عبدالله الخُجُستانيّ عمرو بن الليث وتهمة عمرو بن الليث محمد بن طاهر بمكاتبة الخُجُسْتانيّ والحسين بن طاهر ، ودعا الحسين والخجستانيّ لمحمد بن طاهر على منابر خراسان .

وفيها غلب أبو العباس بن الموفّق على عامة ما كان سليمان بن جامع صاحب قائد الزنج غلب عليه من قرى كور دجلة كَعَبْدَسي ونحوها .

ذكر الخبر عن سبب غلبة أبي العباس على ذلك ، وما كان من أمره وأمر الزّنج في تلك الناحية :

ذكر محمد بن الحسن أنّ محمد بن حماد حدّثه أن الزَّنج لمّا دخلوا واسطاً وكان منهم بها ما قد ذكرناه قبلُ ، واتّصل الخبر بذلك إلى أبي أحمد بن المتوكل ندب ابنَه أبا العباس للشخوص إلى ناحية واسط لحرب الزّنج ، فخفّ لذلك أبو العباس . فلما حضر خروج أبي العباس ركب أبو أحمد إلى بستان موسى الهادي في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين ومائتين ، فعرض أصحاب أبي العباس ، ووقف على عدّتهم ؛ فكان جميع الفرسان والرّجّالة عشرة آلاف رجل في أحسن زِيّ وأجمل هيئة وأكمل عِدّة ، ومعهم الشَّذَا والسُّمَيريّات والمعابر للرجّالة ؛ كل ذلك قد أحكمت صنعته . فنهض أبو العباس من بستان الهادي . وركب أبو أحمد مشيِّعاً له حتى نزل الفِرْك ، ثم انصرف . وأقام أبو العباس بالفِرْك أياماً ، حتى تكاملت عُدده ، وتلاحق أصحابه ، ثم رحل إلى المدائن ، وأقام بها أيضاً ، ثم رحل إلى دير العَاقُول .

قال محمد بن حمّاد : فحدّثني أخي إسحاق بن حماد وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل الهاشميّ المعروف ببُريه ، ومحمد بن شعيب الاشتيام ، في جماعة كثيرة ممن صحب أبا العباس في سفره ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا : لمّا نزل أبو العباس دير العاقول ، ورد عليه كتابُ نُصير المعروف بأبي حمزة صاحب الشذّا السمَيريّات ، وقد كان أمضاه على مقدّمته ، يعلمه فيه أن سليمان بن جامع قد وافَى في خيل ورجّالة وشذوات وسميريّات ، والجبائيّ يقدمه ، حتى نزل بالجزيرة التي بحضرة بردودا ، وأن سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافى نهر أبان برجّالة وفرسان وسُميريّات ، فرحل أبو العباس حتى وافى جَرْجَرَايا ، ثم فم الصِّلْح ، ثم ركب الظهر ، فسار حتى وافى الصِّلح ، ووجّه طلائعه ليعرف الخبر ، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم وجمعهم وجيشهم ، وأن أولهم بالصِّلح وآخرهم ببستان موسى بن بغا ، أسفلَ واسط . فلما عرف ذلك عدل عن سُنن الطريق ، واعترض في مسيره ، ولقي أصحابه أوائل القوم ؛ فتطاردوا لهم حتى طمعوا واغترّوا ، فأمعنوا في

اتباعهم ، وجعلوا يقولون لهم : اطلبوا أميراً للحرب ؛ فإنّ أميركم قد شغَل نفسَه بالصيد . فلمّا قَرُبُوا من أبي العباس بالصِّلْح ، خرج عليهم فيمن معه من الخيل والرّجْل ، وأمر فصِيح بنُصير : إلى أين تتأخر عن هؤلاء الأكلب ! ارجع إليهم ؛ فرجع نُصير إليهم .

وركب أبو العباس سُميريّة ، ومعه محمد بن شعيب الاشتيام ، وجفّ بهم أصحابه من جميع جهاتهم ، فانهزموا ، ومنح الله أبا العباس وأصحابَه أكتافهم ؛ يقتلونهم ويطردونهم ؛ حتى وافَوْا قرية عبد الله ؛ وهي على ستة فراسخ من الموضع الذي لَقُوهم فيه ، وأخذوا منهم خمس شَذَوات وعدّة سُميريّات ، واستأمن منهم قوم ، وأسِر منهم أسرى ، وغرق ما أدرك من سفنهم ؛ فكان ذلك أوّلَ الفتح على العباس بن أبي أحمد .

ولما انقضت الحربُ في هذا اليوم ، أشار على أبي العباس قُوّاده وأولياؤه ، أن يجعل معسكَرَهُ بالموضع الذي كان انتهى إليه من الصِّلح ؛ إشفاقاً عليه من مقاربة القوم ، فأبى إلّا نُزول واسط .

ولما انهزم سليمان بن جامع ومَنْ معه ، وضرب الله وجوهَهم ، انهزم سليمان بن موسى الشعرانيّ عن نهر أبان ؛ حتى وافى سوق الخميس ، ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير ؛ وقد كان القوم حين لقوا أبا العباس أجالُوا الرّأي بينهم ، فقالوا : هذا فتىً حَدَثٌ ؛ لم تطل ممارسته الحروب وتدرّبه بها ، فالرّأي لنا أن نرميَه بحدّنا كلِّه ، ونجتهد في أوّل لقية نلقاه في إزالته ؛ فلعلّ ذلك أن يروعه ، فيكون سبباً لانصرافه عنا . ففعلوا ذلك ، وحشدوا واجتهدوا ، فأوقع الله بهم بأسَه ونقمته . وركب أبو العباس من غدِ يوم الوقعة ، حتى دخل واسطاً في أحسن زيّ ، وكان يوم جُمعة ، فأقام حتى صلى بها صلاة الجمعة ، واستأمن إليه خلق كثير ، ثم انحدر إلى العُمْر - وهو على فرسخ من واسط - فقدّم فيه عسكره ، وقال : اجعل معسكري أسفلَ واسط ، ليأمن مَنْ فوقه الزّنج . وقد كان نُصير المعروف بأبي حمزة والشاه بن ميكال أشارا عليه أن يجعل مُقامه فوق واسط . فامتنع من ذلك ، وقال لهما : لست نازلاً إلا العُمْر ؛ فانزلا أنتما في فُوّهة بردودا . وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم ؛ فنزل العُمر ، وأخذ في بناء الشّذَوات ، وجعل يراوح القوم القتال ويغاديهم ؛ وقد رتّب خاصّة غلمانه في سُميريّات فجعل في كلّ سميريّة اثنين منهم . ثم إن سليمان استعدّ وحشد وجمع وفرّق أصحابه فجعلهم في ثلاثة أوجه : فرقة أتت من نهر أبان ، وفرقة من برتمرتا ، وفرقة من بردودا ، فلقيَهم أبو العباس ؛ فلم يلبثوا أن انهزموا ، فخلفت طائفة منهم بسوق الخميس وطائفة بمازروان ، وأخذ قوم منهم في برّتمرتا وآخرون أخذوا الماديان ، وقوم منهم اعتصموا للقوم الذين سلكوا الماديان ؛ فلم يرجع عنهم حتى وافى نهر بَرْمساور ، ثم انصرف ، فجعل يقف على القُرى والمسالك ، ومعه الأدلاّء ؛ حتى وافَى عسكره ، فأقام به مريحاً نفسه وأصحابه . ثم أتاه مخبرٌ فأخبره أنّ الزّنج قد جمعوا واستعدّوا لكبس عسكره ، وأنهم على إتيان عسكره من ثلاثة أوجه ، وأنهم قالوا : إنه حدَثٌ غِرٌّ يغرّ بنفسه ، وأجمع رأيهم على تكمين الكُمناء والمصير إليه من الجهات الثلاث التي ذكرنا ، فحذر لذلك ، واستعدّ له ، وأقبلوا إليه وقد كمنوا زُهاء عشرة آلاف في برتمرتا ونحواً من هذه العدّة في قُسّ هثا . وقدّموا عشرين سُميريّة إلى العسكر ليغترّ بها أهلُه ، ويجيزوا المواضع التي فيها كمناؤهم ؛ فمنع أبو العباس الناس من اتباعهم ؛ فلما علموا أن كيدهم لم ينفذ ، خرج الجُبّائيّ وسليمان في الشّذَوات والسميريّات ، وقد كان أبو العباس أحسن تعبئة أصحابه ، فأمر نصيراً المعروف بأبي حمزة أن يبرز للقوم في شذواته ، ونزل أبو العباس عن فرس كان ركبه ، ودعا بشذاة من شَذَواته قد

كان سماها الغزال ، وأمر اشتيامه محمد بن شعيب باختيار الجذّافين لهذه الشذاة ، وركبها، واختار من خاصّة أصحابه وغلمانه جماعة دفع إليهم الرّماح ، وأمر أصحاب الخيل بالمسير بإزائه على شاطىء النهر ، وقال لهم : لاتدعوا المسيرما أمكنكم إلى أن تقطعوا الأنهار ، وأمر بتعبير بعض الدوابّ التي كانت ببردودا ، ونشبت الحرب بين الفريقين ؛ فكانت معركة القتال من حدّ قرية الرمل إلى الرّصافة ؛ فكانت الهزيمة على الزّنج ، وحاز أصحاب أبي العباس أربع عشرة شَذَاة ، وأفلت سليمان والجبّائيّ في ذلك اليوم بعد أن أشفيا على الهلاك راجلين ، وأخذت دوابّهما بحلاها وآلتها ، ومضى الجيش أجمع لا ينثني أحد منهم حتى وافوا طهيثا ، وأسلموا ما كان معهم من أثاث وآلة ، ورجع أبو العباس ، وأقام بمعسكره في العمر ، وأمر بإصلاح ما أخذ منهم من الشّذا والسميريّات وترتيب الرجال فيها ، وأقام الزّنج بعد ذلك عشرين يوماً ؛ لا يظهر منهم أحد . وكان الجبائيّ يجيء في الطلائع في كلّ ثلاثة أيام وينصرف ، وحفر آباراً فوق نهر سِنْداد ، وصيّر فيها سفافيد حديد ، وغشّاها بالبواريّ ، وأخفى مواضعها ، وجعلها على سنَن مسير الخيل ليتهوّر فيها المجتازون بها ؛ وكان يوافي طرف العسكر متعرّضاً لأهله ، فتخرج الخيل طالبةً له ، فجاء في بعض أيامه ، وطلبته الخيل كما كانت تطلبه ، فقطر فرس رجل من قوّاد الفراغنة في بعض تلك الآبار ، فوقف أصحاب أبي العباس بما ناله من ذلك على ما دبّر الجُبائيّ ، فحذروا ذلك ، وتنكّبوا سلوك ذلك الطريق ، وألحّ الزّنج في مغاداة العسكر في كلّ يوم للحرب ، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير ، فلمّا لم يجد ذلك عليهم أمسكوا عن الحرب قَدْر شهر .

وكتب سليمان إلى صاحب الزّنج يسأله إمداده بسُميريّات ؛ لكلّ واحدة منهنّ أربعون مجدافاً ، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سُميريَّة ، في كل سُميريّة مقاتلان ، ومع ملاحيها السيوف والرماح والتِّراس ، وجعل الجُبائيّ موقفه حيال عسكر أبي العباس ، وعاودُوا التعرّض للحرب في كلّ يوم ؛ فإذا خرج إليهم أصحاب أبي العباس انهزموا عنهم ، ولم يثبتوا لهم ؛ وخلال ذلك ما تأتى طلائعهم ، فتقطع القناطر ، وترمي ما ظهر لها من الخيل بالنّشاب ، وتضرِم ما وجدت في النوبة من المراكب التي مع نصير بالنار ؛ فكانوا كذلك قدر شهرين .

ثم رأى أبو العباس أن يكمِّن لهم كميناً في قرية الرمل ، ففعل ذلك ، وقدّم لهم سُميريّات أمام الجيش ليطمعوا فيها ، وأمر أبو العباس فأعِدّت له سُميريّة ولزيرَك سميريّة وحمل جماعة من غلمانه الذين أختارهم، وعرفهم بالنجدة في السميريّات ، فحمل بدراً ومؤنساً في سُميريّة ورشيقاً الحجّاجي ويُمْناً في سميريّة وخَفيفاً ويُسراً في سميريّة ، ونذيراً ووصيفاً في سُميريّة ؛ وأعدّ خمس عشرة سُميريّة ، وجعل في كلّ سميريّة مقاتلين ، وجعلها أمام الجيش .

قال محمد بن شعيب الاشتيام : وكنتُ فيمن تقدّم يومئذ ، فأخذ الزّنج من السميريّات المتقدّمة عدّة ، وأسروا أسرى ، فانطلقتُ مسرعاً ، فناديتُ بصوت عال : قد أخذ القوم سُميريّاتنا . فسمع أبو العباس صوتي وهو يتغدّى ، فنهض إلى سُميريّته التي كانت أعدّت له ؛ وتقدّم العسكر ، ولم ينتظر لحاق أصحابه ، فتبعه منهم من خفّ لذلك .

قال : فأدركنا الزّنج ، فلمّا رأونا قذف الله الرّعب في قلوبهم ، فألقوا أنفسهم في الماء ، وانهزموا فتخلّصنا أصحابنا ، وحوينا يومئذ إحدى وثلاثين سُميريّة من سُميْريّات الزّنج ، وأفلت الجبائيّ في ثلاث سُميريّات ،

ورمى أبو العباس يومئذ عن قوس كانت في يده حتى دميت إبهامه ؛ فانصرف ، ولو أنا جددنا في طلب الجبائيّ في ذلك اليوم ظننتُ أنا أدركناه ، فمنعَنا من ذلك شدّة اللغوب . ورجع أبو العباس وأكثر أصحابه بمواضعهم من فُوّهة بردودا لم يُرْمَ أحد منهم ؛ فلما وافَى عسكره أمر لمن كان صحبه بالأطواق والخِلَع والأسورة ، وأمر بإصلاح السميريّات المأخوذة من الزّنج ، وأمر أبا حمزة أن يجعل مقامه بما معه من الشَّذَا في دِجْلة بحذاء خُسْرُسابور .

ثم إنّ أبا العباس رأى أن يتوغّل في مازروان حتى يصير إلى القرية المعروفة بالحجّاجية ، وينتهي إلى نهر الأمير ، ويقف على تلك المواضع ، ويتعرّف الطرق التي تجتاز فيها سُميريّات الزّنج ، وأمر نصيراً فقدّمه بما معه من الشّذا والسميريّات ، فسار نصير لذلك ؛ فترك طريق مازروان ، وقصد ناحية نهر الأمير ، فدعا أبو العباس سُميريّته ، فركبها ومعه محمد بن شعيب ، ودخل مازروان وهو يرى أن نصيراً أمامه ، وقال لمحمد : قدّمني في النهر لأعرف خبر نُصير . وأمر الشذا والسميريّات بالمصير خلفه .

قال محمد بن شعيب : فمضينا حتى قاربنا الحجّاجية ، فعرضت لنا في النهر صلْغة فيها عشرة زنوج ؛ فأسرعنا إليها ، فألقى الزُّنوج أنفسهم في الماء ، وصارت الصلغة في أيدينا ، فإذا هي مملوءة شعيراً ،وأدركنا فيها زنجيًّا فأخذناه ، فسألناه عن خبر نصير وشذواته فقال : ما دخلَ هذا النهر شيء من الشَّذَا والسُّميريّات . فأصابتنا حيرة ، وذهب الزنج الذين أفلتوا من أيدينا فأعلموا أصحابهم بمكاننا ، وعرض للملاحين الذين كانوا معنا غنمٌ فخرجوا لانتهابها .

قال محمد بن شعيب : وبقيتُ مع أبي العباس وحدي ، فلم نلبث أن وافانا قائد من قوّاد الزنج ، يقال له مُنتاب ، في جماعة من الزَّنج من أحد جانبي النهر ، ووافانا من الجانب الآخر عشرة من الزَّنج ، فلمّا رأينا ذلك خرج أبو العباس ، ومعه قوسه وأسهمه ، وخرجتُ برمح كان في يدي ، وجعلتُ أحميه بالرّمح وهو يرمي الزّنج ، فجرح منهم زنجيّين ، وجعلوا يثوبون ويكثرون ، وأدركنا زيرك في الشَّذَا ومعه الغلمان ؛ وقد كان أحاط بنا زُهاء ألفي زنجيّ من جانبيّ مازروان ، وكفى الله أمرهم ، وردّهم بذلّةٍ وصَغار ، ورجع أبو العباس إلى عسكره ، وقد غنم أصحابه من الغنم والبقر والجواميس شيئاً كثيراً ، وأمر أبو العباس بثلاثة من الملاّحين الذين كانوا معه ، فتركوه لانتهاب الغنم ، فضِربت أعناقهم ، وأمر لمن بقي بالأرزاق لشهر ، وأمر بالنداء في الملاّحين ألا يبرح أحدٌ من السميريّات في وقت الحرب ؛ فمن فعل ذلك فقد حلّ دمه .

وانهزم الزَّنج أجمعون حتى لحقوا بطَهيثا ، وأقام أبو العباس بمعسكره في العُمر ، وقد بثّ طلائعه في جميع النواحي . فمكث بذلك حيناً ، وجمع سليمان بن جامع عسكره وأصحابه ، وتحصّن بطهِيثا ، وفعل الشعرانيّ مثل ذلك بسوق الخميس ؛ وكان بـالصِّينيّة لهم جيش كثيف أيضـاً ، يقود أهله رجـل منهم يقال لـه نصر السِّندي ، وجعلوا يُخربون كلَّ مَا وجدوا إلى إخرابه سبيـلًا ، ويحملون ما قـدروا على حمله من الغـلاّت ، ويعمرون مواضعهم التي هم مقيمون بها . فوجّه أبو العباس جمـاعة من قـوّاده ، منهم الشاه وكمُشْجُـور والفضل بن موسى بن بغا ، وأخوه محمد على الخيل إلى ناحية الصِّينيّة ، وركب أبو العباس ومعه نصير وزِيرك في الشَّذَا والسميريّات ، وأمر بخيل فعبرَ بها من بَرْمساور إلى طريق الظهر .

وسار الجيش حتى صار إلى الهُرْث ، فأمر أبو العباس بتعبير الدوابّ إلى الهُرْث ،فعبرت ، فصارتْ إلى

الجانب الغربيّ من دِجْلة ، وأمَر بأن يُسلك بها طريق دير العمال . فلما أبصر الزّنج الخيل دخلتهم منها رهبة شديدة ، فلجأوا إلى الماء والسفن ، ولم يلبثوا أن وافتهم الشَّذَا والسميريّات ، فلم يجدوا ملجأ واستسلموا، فقتِل منهم فريق ، وأسِر فريق ، وألقى بعضهم نفسه في الماء . فأخذ أصحاب أبي العباس سفنهم ؛ وهي مملوءة أرزّاً ، فصارت في أيديهم ، وأخذوا سُميريّة رئيسهم المعروف بنصر السنديّ ، وانهزم الباقون ، فصارت طائفة منهم إلى طَهِيثا وطائفة إلى سوق الخميس ، ورجع أبو العباس غانماً إلى عسكره ، وقد فتح الصينيّة أجلى الزّنج عنها .

قال محمد بن شعيب : وبينا نحن في حرب الزّنج بالصينيّة إذ عرض لأبي العباس كُرْكيّ طائر ، فرماه بسهم ، فشكّه فسقط بين أيدي الزّنج ، فأخذوه ، فلما رأوا موضع السهم منه ، وعلموا أنه سهم أبي العباس زاد ذلك في رعبهم ؛ فكان سبباً لانهزامهم يومئذ .

وقد ذُكر عمن لا يُتّهم أن خبر السهم الذي رمى به أبو العباس الكُرْكيّ في غير هذا اليوم ، وانتهى إلى أبي العباس أنّ بعبدَسي جيشاً عظيماً يرأسهم ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ الزنجيّان ، فصار أبو العباس إلى عَبْدَسي قاصداً للإيقاع بهما ومَنْ معهما في خيل جريدة ، وقد انتخبت من جُلد غلمانه وحماة أصابه ، فوافى الموضع الذي فيه جمعهم في السَّحَر ، فأوقع بهم وقعَة غليظة ، قُتِل فيها من أبطالهم ، وجُلد من رجالهم خلق كثير ، وانهزموا . وظفر أبو العباس برئيسهم ثابت بن أبي دلف ، فمنّ عليه واستبقاه ، وضمّه إلى بعض قوّاده ، وأصاب لؤلؤاً سهم فهلك منه ، واستنقذ يومئذ من النساء اللواتي كنّ في أيدي الزَّنْج خلق كثير ، فأمر أبو العباس بإطلاقهنّ وردّهن إلى أهلهنّ ، وأخَذَ كلَّ ما كان الزنج جمعوه .

ثم رجع أبو العباس إلى معسكره ، فأمر أصحابه أن يُريحوا أنفسَهم ليسير بهم إلى سوق الخميس ، ودعا نصيراً فأمره بتعبئة أصحابه للمسير إليها ، فقال له نصير : إنّ نهر سوق الخميس ضيّق ، فأقم أنت وائذن لي في المسير إليه حتى أعاينَه ، فأبى أن يدَعه حتى يعاينه ، ويقف على علم ما يحتاج إليه منه قبل موافاة أبيه أبي أحمد ؛ وذلك عند وورود كتاب أبي أحمد عليه بعزمه على الانحدار .

قال محمد بن شعيب : فدعاني أبو العباس ، فقال لي : إنه لا بدّ لي من دخول سوق الخميس ، فقلت : إن كنتَ لا بدّ فاعلاً ما تذكر فلا تكثر عدد مَنْ تحمل معك في الشَّذَا ، ولا تزد على ثلاثة عشر غلاماً عشرة رماة وثلاثة في أيديهم الرماح ؛ فإني أكره الكثرة في الشَّذَا مع ضيق النهر ، فاستعدّ أبو العباس لذلك ، وسار إليه ونُصير بين يديه حتى وافَى فم بَرْمساور ، فقال له نُصير : قدّمني أمامك ، ففعل ذلك ، فدخل نُصير في خمس عشرة شَذَاة . واستأذنه رجل من قوّاد الموالي يقال له موسى دالجويه في التقدّم بين يديه ، فأذن له ، فسار وسار أبو العباس حتى انتهى به مسيره إلى بَسامِي ، ثم إلى فوّهة براطق ونهر الرّق والنهر الذي ينفذ إلى رواطا وعَبْدَسي ؛ وهذه الأنهار الثلاثة تؤدِّي إلى ثلاث طرق مفترقة ، فأخذ نصير في طريق نهر براطق وهو النهر المؤدي إلى مدينة سليمان بن موسى الشعرانيّ التي سمّاها المنيعة بسوق الخميس . وأقام أبو العباس على فُوّهة هذا النهر ، وغاب عنه نُصَير حتى خفيَ عنه خبره . وخرج علينا في ذلك الموضع من الزّنج خلق كثير ، فمنعونا من دخول النهر ، وحالوا بيننا وبين الانتهاء إلى السور ـ وبين هذا الموضع الذي انتهينا إليه والسور المحيط بمدينة الشعرانيّ مقدار فرسخين ـ فأقاموا هناك يحاربوننا ، واشتدّت الحرب بيننا وبينهم وهم على الأرض ؛ ونحن في

السفن من أوّل النهار إلى وقت الظهر ، وخفيَ علينا خبرُ نُصَير ، وجعل الزّنج يهتفون بنا : قد أخذنا نُصيراً فماذا تصنعون ؟ ونحن تابعوكم حينما ذهبتم . فاغتمّ أبو العباس لما سمع منهم هذا القول ، فأستأذنه محمد بن شعيب في المسير ليتعرّف خبر نصير ، فأذن له ، فمضى في سُميريّة بعشرين جذّافاً حتى وافى نصيراً أبا حمزة ، وقد قرب من سَكْر كان الفسقة سكروه ، ووجده قد أضرم النار فيه وفي مدينتهم ، وحارب حرباً شديداً ورزق الظفر بهم ، وكان الزّنج ظفروا ببعض شذوات أبي حمزة ، فقاتل حتى انتزع ما كانوا أخذوا من أيديهم ، فرجع محمد بن شعيب إلى أبي العباس ، فبشره بسلامة نصير ومَنْ معه ، وأخبره خبره . فسرّ بذلك وأَسَرَ نصير يومئذ من الزنج جماعة كثيرة ، ورجع حتى وافى أبا العباس بالموضع الذي كان واقفاً به . فلمّا رجع نصير قال أبو العباس : لستُ زائلاً عن موضعي هذا حتى أراوحهم القتال في عشيّ هذا اليوم ؛ ففعل ذلك ، وأمر بإظهار شَذَاة واحدة من الشّذوات التي كانت معه لهم ، وأخفى باقيها عنهم ، فطمعوا في الشَّذَاة التي رأوها ، فتبعوها ، وجعل مَنْ كان فيها يسيرون سيراً ضعيفاً حتى أدركوها ، فعلقوا بسكانها ، وجعل الملاحون يسيرون حتى وافَوا المكان الذي كانت فيه الشَّذَوات المكمَّنة .

وقد كان أبو العباس ركب سُميريّة ، وجعل الشذا خلْفه ، فسار نحو الشذاة التي علق بها الزّنج لما أبصرها ، فأدركها ، والزّنج ممسكون بسُكانها يحيطون بها من جوانبها ، يرمون بالنُّشاب والآجرّ ، وعلى أبي العباس كيز تحته درع .

قال محمد : فنزعنا يومئذ من كيز أبي العباس خمساً وعشرين نُشابة ، ونزعتُ من لُبّادَةٍ كانت عليّ أربعين نشابة ، ومن لبابيد سائر الملاحين الخمس والعشرين والثلاثين . وأظفر الله أبا العباس بستّ سُميريّات من سُميريّات الزّنج ، وتخلص الشذا من أيديهم ، وانهزموا ، ومال أبو العباس وأصحابه نحو الشّط ، وخرج من الزّنج المقاتلة بالسيوف والتراس ، فانهزموا لا يلوون على شيء للرهبة التي وصلت إلى قلوبهم ، ورجع أبو العباس سالماً غانماً ، فخلع على الملاّحين ووصلهم ، ثم صار إلى معسكره بالعُمر ، فأقام به إلى أن وافى الموفّق .

ولإحدى عشرة ليلةً خلت من صفر منها ، عسكر أبو أحمد بن المتوكل بالفِرْك ، وخرج من مدينة السلام يريد الشخوص إلى صاحب الزّنْج لحربه ؛ وذلك أنه ـ فيما ذكر ـ كان اتّصل به أنّ صاحب الزنج كتب إلى صاحبه عليّ بن أبان المهلبيّ يأمره بالمصير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن جامع ، ليجتمعا على حرب أبي العباس بن أبي أحمد ، وأقام أبو أحمد بالفِرْك أياماً ؛ حتى تلاحق به أصحابه وَمَنْ أراد النهوض به إليه ، وقد أعدّ قبل ذلك الشذا والسُّميريّات والمعابر والسفن ، ثم رحَل من الفِرْك ـ فيما ذكر ـ يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول في مواليه وغلمانه وفرسانه ورجّالته فصار إلى رومية المدائن ، ثم صار منها ، فنزل السِّيب ثم دَيْر العاقول ثم جَرْجَرَايا ، ثم قُنَّى ، ثم نزل جَبُّل ، ثم نزل الصِّلح ، ثم نزل على فرسخ من واسط ، فأقام هنالك يومه وليلته ، فتلقّاه ابنه أبو العبّاس به في جريدة خيل فيها وجوه قوّاده وجنده ، فسأله أبو أحمد عن خبر أصحابه ، فوصف له بلاءهم ونصحهم ، فأمر أبو أحمد له ولهم بِخِلَع فخُلِعت عليهم ، وانصرف أبو العباس إلى معسكره بالعُمْر ، فأقام يومه . فلمّا كانت صبيحة الغد رحل أبو أحمد منحدراً في الماء ، وتلقّاه ابنه أبو العباس بجميع مَنْ معه من الجند في هيئة الحرب والزّيّ الذي كانوا يلقَوْن به أصحاب الخائن ، فجعل يسير أمامه حتى وافى عسكره بالنهر المعروف بشيرزاد ؛ فنزل به أبو أحمد ، ثم رحل منه يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول ؛ فنزل على النهر المعروف بِسِنْداد بإزاء القرية المعروفة بعبد الله ، وأمر ابنه أبا العباس ، فنزل

شرقيّ دِجْلة بإزاء فُوّهة بردودا ، وولّاه مقدّمته ، ووضع العطاء فأعطى الجيش ، ثم أمر ابنه بالمسير أمامه بما معه من آلة الحرب إلى فُوّهة بَرْمساور . فرحل أبو العباس في المختارين من قواده ورجاله ، منهم زيرَك التركيّ صاحب مقدّمته ، ونُصَير المعروف بأبي حمزة صاحب الشّذا والسُّميريّات .

ورحل أبو أحمد بعد ذلك في الفرسان والرجّالة المنتخبين ، وخلّف سواد عسكره وكثيراً من الفرسان والرّجالة بمعسكره ؛ فتلقّاه ابنه أبو العباس بأسرى ورؤوس وقتلى قتلهم من أصحاب الشعرانيّ ؛ وذلك أنه وافَى عسكره الشعرانيُّ في ذلك اليوم قبل مجيء أبيه أبي أحمد ؛ فأوقع به وأصحابه ؛ فقتل منهم مقتلةً عظيمة ، وأسر منهم جماعة ؛ فأمر أبو أحمد بضرب أعناق الأسرى فضُربت ، ونزل أبو أحمد فوّهة بَرْمساور ، وأقام به يومين ، ثم رحل يريد المدينة التي سمّاها صاحب الزّنج المنيعةَ من سوق الخميس في يوم الثلاثاء لثمانِ ليال خلوْن من شهر ربيع الآخر من هذه السنة بمن معه من الجيش وما معه من آلة الحرب ، وسلك في السفن في برمساور ، وجعلت الخيل تسير بإزائه شرقيّ برمساور ، حتى حاذى النهر المعروف ببراطق الذي يوصل إلى مدينة الشعرانيّ .

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب سليمان بن موسى الشعرانيّ قبل حرب سليمان بن جامع من أجل أن الشعرانيَّ كان وراءه ، فخاف إن بدأ بابن جامع أن يأتيه الشعرانيُّ من ورائه ، ويشغله عمّن هو أمامه ؛ فقصده من أجل ذلك ؛ وأمر بتعبير الخيل وتصييرها على جانبي النهر المعروف ببراطق ، وأمر ابنه أبا العباس بالتقدّم في الشّذا والسُّميريّات ، وأتبعه أبو أحمد في الشَّذَا بعامّة الجيش . فلمّا بصر سليمان ومَنْ معه من الزّنج وغيرهم بقصد الخيل والرجّالة سائرين على جنبتي النهر ومسير الشذا والسميريّات في النهر ، وقد لقيهم أبو العباس قبل ذلك ، فحاربوه حرباً ضعيفة ، انهزموا وتفرَّقوا .

وعلا أصحاب أبي العباس السور ، ووضعوا السيوف فيمن لقيهم وتفرّق الزَّنج وأتباعهم ، ودخل أصحاب أبي العباس المدينة ، فقتلوا فيها خلقاً كثيراً ، وأسروا بشراً كثيراً ، وحَوَوْا ما كان في المدينة ، وهرب الشعرانيّ ومَنْ أفلت منهم معه ، وأتبعهم أصحاب أبي أحمد حتى وافَوْا بهم البطائح ، فغرق منهم خلق كثير ، ونجا الباقون إلى الآجام ، وأمر أبو أحمد أصحابَه بالرجوع إلى معسكرهم قبل غروب الشمس من يوم الثلاثاء ، وانصرف وقد استنقذ من المسلمات زُهاء خمسة آلاف امرأة ؛ سوى مَنْ ظَفَر به من الزنجيات اللواتي كنّ في سوق الخميس . فأمر أبو أحمد بحياطة النساء جميعاً ، وحملهنّ إلى واسط ليُدفعن إلى أوليائهنّ . وبات أبو أحمد بحيال النهر المعروف ببراطق ، ثم باكر المدينة من غد ، فأذن للناس في حياطة ما فيها من أمتعة الزّنج ، وأخذ ما كان فيها أجمع ، وأمر بهدم سورها وطمّ خندقها وإحراق ما كان بقيَ فيها من السفن ، ورحل إلى معسكره ببرمساور بالظفر بما بالرساتيق والقرى التي كانت في يد الشعرانيّ وأصحابه من غلّات الحِنْطة والشعير والأرزّ ، فأمر ببيع ذلك ، وصرف ثمنه في أعطيات مواليه وغلمانه وجنده وأهل عسكره . وانهزم سليمان الشعرانيّ وأخواه ومَنْ أفلت ، وسُلب الشعْرانيّ ولده وما كان بيده من مال ، ولحق بالمذار ، فكتب إلى الخائن بخبره وما نزل به واعتصامه بالمذار .

فذكر محمد بن الحسن ، أن محمد بن هشام المعروف بأبي واثلة الكرمانيّ قال : كنتُ بين يدي الخائن وهو يتحدّث ، إذ ورد عليه كتاب سليمان الشعرانيّ بخبر الوقعة وما نزل به ، وانهزامه إلى المذار ، فما كان إلّا أن

فضّ الكتاب ، فوقعت عينُه على موضع الهزيمة حتى انحلّ وكاءُ بطنه ، ثم نهض لحاجته ، ثم عاد . فلمّا استوى به مجلسه أخذ الكتاب وعاد يقرؤه ، فلما انتهى إلى الموضع الذي أنهضه ، نهض حتى فعل ذلك مراراً . قال : فلم أشكّ في عظم المصيبة ، وكرهتُ أن أسأله ، فلمّا طال الأمر تجاسرتُ ، فقلت : أليس هذا كتاب سليمان بن موسى ؟ قال : نعم ، ورد بقاصمة الظّهْر ، أنّ الذين أناخوا عليه أوقعوا به وقعة لم تبق منه ولم تَذَر ؛ فكتب كتابه هذا وهو بالمَذَار ، ولم يسلم بشيء غير نفسه . قال : فأكبرتُ ذلك ، والله يعلم مكروه ما أخفِي من السرور الذي وصل إلى قلبي ، وأمسكُ مُبشراً بدنوّ الفرج . وصبرَ الخائنُ على ما وصل إليه ، وجعل يظهر الجلَد ، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشعرانيّ ، ويأمره بالتيقّظ في أمره وحفظ ما قبلَه .

وذكر محمد بن الحسن أن محمد بن حماد قال : أقام الموفّق بعسكره ببرمساور يومين ، لتعرّف أخبار الشعرانيّ وسليمان بن جامع والوقوف على مستقرّه ، فأتاه بعضُ مَنْ كان وجّهه لذلك ، فأخبره أنه معسكر بالقرية المعروفة بالحوانيت . فأمر عند ذلك بتعبير الخيل إلى أرض كَسْكَر في غربيّ دِجْلة ، وسار على الظهر ، وأمر بالشّذا وسفن الرجّالة فحُدّرت إلى الكثيثة ، وخلّف سواد عسكره وجمعاً كثيراً من الرجال والكُراع بفوّهة برمساور ، وأمر بُغْراج بالمقام هناك ؛ فوافى أبو أحمد الصينيّة ، وأمر أبا العباس بالمصير في الشذا والسميريّات إلى الحوانيت مِخفًّا لتعرّف حقيقة خبر سليمان بن جامع في مقامه بها ، وإن وجد منه غِرّة أوقع به . فسار أبو العباس في عشيّ ذلك اليوم إلى الحوانيت ، فلم يلفِ سليمانَ هنالك ، وألفَى من قوّاد السودان المشهورين بالبأس والنجدة شِبْلاً وأبا النداء وهما من قدماء أصحاب الفاسق الذين كان استتبعهم في بدء مخرجه . وكان سليمان بن جامع خَلْف هذين القائدين في موضعهما لحفظ غلات كثيرة كانت هناك ، فحاربهما أبو العباس ، وأدخل الشّذا موضعاً ضيقاً من النهر ، فقتل مِنْ رجالهما ، وجرح بالسهام خَلقاً كثيراً ـ وكانوا أجلد رجال سليمان بن جامع ونخبتهم الذين يعتمد عليهم ـ ودامت الحرب بينهم إلى أن حجز الليل بين الفريقين .

قال : وقال محمد بن حماد : في هذا اليوم كان في أمرِ أبي العباس في الكركيّ الذي ذكره محمد بن شعيب في يوم الصّينيّة ، وقد مرّ به سانحاً ، قال : واستأمن في هذا اليوم رجلٌ إلى أبي العباس ، فسأله عن الموضع الذي فيه سليمان بن جامع ، فأخبره أنه مقيم بطهيثا ، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان بمدينته التي سماها المنصورة ، وهي في الموضع الذي يعرف بطَهيثا ، وأن معه هنالك جميع أصحابه غير شبل وأبي النداء ؛ فإنهما بموضعهما من الحوانيت لما أمِروا بحفظه . فلما عرف ذلك أبو أحمد ، أمر بالرّحيل إلى بردودا ؛ إذ كان المسلك إلى طَهيثا منه ؛ وتقدّم أبو العباس في الشَّذَا والسمَيريّات ، وأمر من خلّفه ببرمساور أن يصيروا جميعاً إلى بردودا . ورحل أبو أحمد في غد ذلك اليوم الذي أمر أبا العباس فيه بما أمره به إلى بردودا ، وسار إليها يومين ؛ فوافها يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين ، فأقام بها يصلح ما يحتاج إلى إصلاحه من أمر عسكره ، وأمر بوضع العطاء وإصلاح سفن الجسور ليحدرها معه ، واستكثر من العمال والآلات التي تُسدّ بها الأنهار ، وتُصلح بها الطرق للخيل ، وخلّف ببردودا بُغْرَاج التركيّ ، وقد كان لمّا عزم على الرجوع إلى بردودا أرسل إلى غلام له يقال له جعلان وكان مخلّفاً مع بغراج في عسكره ، فأمر بقلع المضارب وتقديمها مع الدوابّ المخلّفة قِبَله والسلاح إلى بردودا ، فأظهر جعلان ما أمر به في وقت العشاء الآخرة ، ونادى في العسكر والناس غارّون ، فألقِي في قلوبهم أنّ ذلك لهزيمة كانت . فخرجوا على

وجوههم ، وترك الناس أسواقَهم وأمتعتَهم ، ظنًّا منهم أن العدوّ قد أظلّهم ، ولم يلوِ منهم أحد على أحد ، وقصدوا قصد الرجوع إلى عسكرهم ببردودا ، وساروا في سواد ليلتهم تلك ، ثم ظهر لهم بعد ذلك حقيقة الخبر ، فسكنوا واطمأنّوا .

وفي صفر من هذه السنة كان بين أصحاب كَيْغَلَغ التركيّ وأصحاب أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف وقْعة بناحية قَرْماسين ، فهزمهم كَيْغَلَغ، وصار إلى هَمَذان ، فوافاه أحمد بن عبد العزيز فيمن قد اجتمع من أصحابه في صفر ، فحاربه فانهزم كيغلغ ، وانحاز إلى الصَّيْمَرَة .

وفي هذه السنة لثلاث بَقِين من شهر ربيع الآخر دخل أبو أحمد وأصحابه طَهيثا ، وأخرجوا منها سليمان بن جامع ، وقُتِل بها أحمد بن مهديّ الجبّائيّ .

ذكر الخبر عن سبب دخول أبي أحمد وأصحابه طَهِيثا ومقتل الجبائيّ

ذكر محمد بن الحسن أن محمّد بن حماد حدّثه أن أبا أحمد لما أعطى أصحابه ببردودا ، فأصلح ما أراد إصلاحه من عُدّةِ حرب مَنْ قصد لحربه في مخرجه ، سار متوجّهاً إلى طهيثا ؛ وذلك يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين ، وكان مسيره على الظهر في خَيْله . وحُدِّرت السفن بما فيها من الرجّالة والسلاح والآلات ، وحُدِّرت المعابر والشَّذوات والسُّميريّات ، إلى أن وافى بها النهر المعروف بَمْهُرُوذ بحضرة القرية المعروفة بقرية الجوزيّة ، فنزل أبو أحمد هناك ، وأمر بعقد الجسر على النهر المعروف بمَهْروذ ، وأقام يومه وليلته . ثم غدا فعبَّر الفرسان والأثقال بين يديه على الجسر ، ثم عبر بعد ذلك ، وأمر القوّاد والناس بالمسير إلى طَهيثا ، فصاروا إلى الموضع الذي ارتضاه أبو أحمد لنفسه منزلاً على ميلين من مدينة سليمان بن جامع ، فأقام هنالك بإزاء أصحاب الخائن يوم الاثنين والثلاثاء لثمانٍ بقين من شهر ربيع الآخر ، ومطر السماء مَطَراً جَوْداً ، واشتدّ البرد أيام مقامه هنالك ، فشغِل بالمطر والبرد عن الحرب ، فلم يحارب هذه الأيام وبقية الجمعة . فلما كان عشية يوم الجمعة ركب أبو أحمد في نفر من قوّاده ومواليه لارتياد موضع لمجال الخيل ، فانتهى إلى قريب من سور سليمان بن جامع ، فتلقّاه منهم جمع كثير . وخرج عليه كُمناء من مواضع شتى ، ونشبت الحرب واشتدّت ؛ فترجل جماعة من الفرسان ، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا وغلوها ، وأسِر من غلمان أبي أحمد وقوّاده غلام يقال له وصيف عَلْمدار وعدّة من قوّاد زِيرَك ، ورمى أبو العباس أحمدَ بن مهديّ الجبائيّ بسهم في إحدى منخريه ، فخرق كلّ شيء وصل إليه حتى خالط دماغه ، فخرّ صريعاً ، وحُمِل إلى عسكر الخائن وهو لمآبه ، فعظُمت المصيبة به عليه ؛ إذ كان أعظَم أصْحابه غِنىً عنه ، وأشدّهم بصيرةً في طاعته ، فمكث الجبائيّ يعالَج أياماً ، ثم هلك ، فاشتدّ جزع الخائن عليه ، فصار إليه ، فولِيَ غسله وتكفينه والصلاة عليه والوقوف على قبره إلى أن دفن ، ثم أقبل على أصحابه فوعظَهم ، وذكر موت الجبائيّ . وكانت وفاته في ليلة ذات رعود وبروق . وقال فيما ذكر : علمتُ وقت قَبْض روحه قبل وصول الخبر إليه بما سمع من زَجَل الملائكة بالدّعاء له والترحُّم عليه .

قال محمد بن الحسن : فانصرف إليّ أبو واثِلة ـ وكان فيمن شهده ـ فجعل يُعجّبني مما سمع ، وجاءني

محمد بن سمعان فأخبرني بمثل خبر محمد بن هشام ، وانصرف الخائن من دفن الجبائي منكسراً عليه الكآبة .

قال محمد بن الحسن : وحدثني محمد بن حماد أنّ أبا أحمد انصرف من الوقعة التي كانت عشيّة يوم الجمعة لأربع ليال بقين من شهر ربيع الآخر ، وكان خبره قد انتهى إلى عسكره ، فنهض إليه عامة الجيش ، فتلقوْه منصرفاً ، فردّهم إلى عسكره ؛ وذلك في وقت المغرب ؛ فلمّا اجتمع أهلُ العسكر أمِروابالتحارس ليلتَهم والتأهّب للحرب ، فأصبحوا يوم السبت لثلاث بقِين من شهر ربيع الآخر ؛ فعبّأ أبو أحمد أصحابه ، وجعلهم كتائب يتلُو بعضُها بعضاً ؛ فرساناً ورجّالة ، وأمر بالشّذَا والسميريّات أن يُسار بها معه في النهر الذي يشقّ مدينة طَهيثا المعروف بنهر المُنذر،وسار نحو الزَّنْج حتى انتهى إلى سور المدينة ، فرتّب قُوّاد غلمانه في المواضع التي يخاف خروج الزّنج عليه منها ، وقدّم الرجّالة أمام الفرسان ، ووكّل بالمواضع التي يخاف خروج الكُمَناء منها ، ونزل فصلى أربع ركعات ، وابتهل إلى الله عزّ وجلّ في النصر له وللمسلمين . ثم دعا بسلاحه فلبسه ، وأمر ابنه أبا العباس بالتقدّم إلى السور وتحضيض الغلمان على الحرب ، ففعل ذلك ؛ وقد كان سليمان بن جامع أعدّ أمام سور مدينته التي سمّاها المنصورة خندقاً ، فلمّا انتهى إليه الغلمان تهيبوا عبورَه ، وأحجموا عنه ، فحرّضهم قوّادُهم وترجّلوا معهم ، فاقتحموه متجاسرين عليه ، فعبروه ، وانتهوا إلى الزَّنج وهم مشرفون من سور مدينتهم ، فوضعوا السلاح فيهم ، وعبرت شِرْذَمَة من الفرسان الخندق خوضاً .

فلمّا رأى الزَّنج خبر هؤلاء القوم الذين لقوهم وكرّهم عليهم ولَّوْا منهزمين ، وأتبعهم أصحاب أبي أحمد ، ودخلوا المدينة من جَوانبها . وكان الزَّنج قد حصنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كلّ خندق منها سوراً يمتنعون به ، فجعلوا يقفون عند كلّ سور وخندق إذا انتهوا إليه ، وجعل أصحاب أبي أحمد يكشفونَهم في كلّ موقف وقفوه ، ودخلت الشّذا والسميريّات مدينتهم من النهر المشقق لها بعد انهزامهم ، فجعلت تغرق كلَّ ما مرّت لهم به من شَذاة وسُميريّة ، وأتبعوا مَنْ بحافتي النهر ، يُقتلون ويُؤسرون ، حتى أجلُوا عن المدينة وعمّا اتصل بها، وكان زهاءُ ذلك فرسخاً ، فحوى أبو أحمد ذلك كله ، وأفلت سليمان بن جامع في نفر من أصحابه ، فاستحرّ القتل فيهم والأسر ، واستنقَذَ أبو أحمد من نساء أهل واسط وصبيانهم ومما اتصل بذلك من القُرى ونواحي الكوفة زُهاء عشرة آلاف . فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإنفاق عليهم ، وحُملوا إلى واسط ، ودُفعوا إلى أهليهم . واحتوى أبو أحمد وأصحابه على كلّ ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي ، وكان ذلك شيئاً جليل القدر ، فأمر أبو أحمد ببيع ما أصاب من الغلّات وغير ذلك ، وحمله إلى بيت ماله ، وصرفه في أعطيات من في عسكره من مواليه وجنوده ، فحملوا من ذلك ما تهيّأ لهم حمله ، وأسِر من نساء سليمان وأولاده عدّة ، واستُنقِذ يومئذ وصيف عَلْمدار ومَنْ كان أسِر معه عشيّة يوم الجمعة ، فأخرجوا من الحبس ، وكان الأمر أعجل الزَّنج عن قتلهم ، ولجأ جمع كثير ممن أفلت إلى الآجام المحيطة بالمدينة . فأمر أبو أحمد فعُقد جِسرٌ على هذا النهر المعروف بالمنذر ، فعبر الناس إلى غربيّه ، وأقام أبو أحمد بطهيثا سبعة عشر يوماً ، وأمر بهدم سور المدينة وطمّ خنادقها ، ففعل ذلك ، وأمر بتتبع مَنْ لجأ إلى الآجام ، وجعل لكل مَنْ أتاه برجل منهم جُعْلاً ، فتسارع الناس إلى طلبِهم ؛ فكان إذا أتِيَ بالواحد منهم عفا عنه ، وخلع عليه وضمّه إلى قوّاد غلمانه لما دبر من استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحبهم ، وندب أبو أحمد نُصيراً في الشذا والسميريّات لطلب سليمان بن جامع والهرب معه من الزنج وغيرهم ، وأمره بالجدّ في اتباعهم حتى يجاوز البطائح ، وحتى يلج دِجْلة المعروفة بالعوراء ، وتقدّم في فتح الكُور التي كان الفاسق أحدثها ، ليقطع بها الشذا

عن دِجلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب ، وتقدّم إلى زيرَك في المقام بطَهِيثا ليتراجع إليها الذين كان الفاسق أجلاهم عنها من أهلها ، وأمره بتتبع مَنْ بَقِيَ في الآجام من الزّنج حتى يظفر بهم .

وفي شهر ربيع الآخر منها ماتت أم حبيب بنت الرّشيد . ورحل أبو أحمد بعد إحكامه ما أراد إحكامه إلى معسكره ببَرْدُودا ، مزمعاً عَلَىَ التوجّه نحو الأهواز ليصلحها ؛ وقد كان اضطرب أمرُ المهلبيّ وإيقاعه بمن أوقع عليه من الجيوش التي كانت بها وغلبته على أكثر كُورها ، وقد كان أبو العباس تقدّمه في مسيره ذلك . فلما وافَى بردودا أقام أياماً ، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للمسير على الظهر إلى كُور الأهواز ، وقدِمَ مَنْ يصلح الطريق والمنازل ويعدّ فيها المِيَرَ للجيوش التي معه ، ووافاه قبل أن ترحّل عن واسط زيرك منصرفاً عن طهيثا ؛ بعد أن تراجع إلى النواحي التي كان بها الزّنج أهلُها ، وخلّفهم آمنين . فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار في الشَّذا والسُّميريّات في نخبة أصحابه وأنجادهم ، ليصير بهم إلى دِجْلة العوراء ، فتجتمع يدُه ويد أبي حمزة على نفض دِجْلة واتباع المنهزمين من الزَّنْج والإيقاع بكلّ مَن لقوا من أصحاب الفاسق ، إلى أن ينتهيَ بهم السير إلى مدينته بنهر أبي الخصيب ، وإن رأوا موضع حرب حاربوه في مدينته ، وكتبوا بما كان منهم إلى أبي أحمد ليردّ عليهم من أمره ما يعملون بحسبه . واستخلف أبو أحمد على من خلّف في عسكره بواسط ابن هـارون ، وأزمع عـلى الشخوص فيمن خفّ من رجاله وأصحابه ، ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنه هارون في أن يحدّر الجيش الذي خلّفه معه في السفن إلى مستقرّه بدِجْلة إذا وافى كتابه بذلك .

وفي يوم الجمعة لليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ـ وهي سنة سبع وستين ومائتين . ارتحل أبو أحمد من واسط شاخصاً إلى الأهواز وكورها ، فنزل باذبِين ثم جوخَي ثم الطِّيب ثم قُرقوب ثم درستان ثم على وادي السوس ، وقد كان عُقد له عليه جسر ، فأقام به من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر ، حتى عبّر أهلَ عسكره أجمع ، ثم سار حتى وافَى السوس ، فنزلها ـ وقد كان أمر مسروراً ـ وهو عامله على الأهواز ـ بالقدوم عليه ، فوافاه في جيشه وقوّاده من غد اليوم الذي نزل فيه السوس ، فخلع عليه وعليهم ، وأقـام السوس ثلاثاً .

وكان ممن أسِرَ بطَهِيثا من أصحاب الفاسق أحمد بن موسى بن سعيد البصريّ المعروف بالقَلُوص ، وكان أحدعُدَده وقدماء أصحابه ، أسِر بعد أن أثخِن جراحاً كانت منها منيّته ؛ فلمّا هلك أمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط .

وكان ممّن أسِر يومئذ عبد الله بن محمد بن هشام الكَرْمانيّ ؛ وكان الخبيث اغتصبه أباه ، فوجّهـه إلى طهيثا ، وولاّه القضاء والصَّلاة بها . وأسِر من السودان جماعةٌ كان يعتمد عليهم ، أهل نجدة وبأس وجَلد ؛ فلمّا اتصل به الخبر بما نال هؤلاء انتقض عليه تدبيرُه ، وضلّت حِيَله ، فحمله فَرْط الهَلَع على أن كتب إلى المهلّبيّ وهو يومئذ مقيم بالأهواز في زهاء ثلاثين ألفاً مع رجل كان صحبه ، يأمره بترك كلّ ما قِبَله من المِيَر والأثاث ، والإقبال إليه ؛ فوصل الكتاب إلى المهلّبيّ وقد أتاه الخبر بإقبال أبي أحمد إلى الأهواز وكُوَرها ، فهو لذلك طائر العقل ، فترك جميع ما كان قِبَله ، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكَرْنبائيّ ، فدَخِل قلبُ الكرنبائيّ من الوَجل ، فأخلى ما استُخلِف عليه ، وتبع المهلّبيّ ؛ وبجُبَّى والأهواز ونواحيها يومئذ من أصناف الحبوب والتمر والمواشي شيء عظيم ، فخرجوا عن ذلك كله .

وكتب أيضاً الفاسق إلى بَهْبوذ بن عبد الوهاب ، وإليه يومئذ عمل الفَنْدم والباسيَان وما اتّصل بهما من القُرى التي بين الأهواز وفارس ، وهو مقيم بالفَنْدم ، يأمره بالقدوم عليه ، فترك بَهْبوذ ما كان قِبَله من الطعام والتمر ـ وكان ذلك شيئاً عظيماً ـ فحوى جميع ذلك أبو أحمد ، فكان ذلك قوةً له على الفاسق ، وضعفاً للفاسق .

ولَمّا فصل المهلبيّ عن الأهواز تفرّق أصحابُه في القرى التي بينها وبين عسكر الخبيث فانتهبوها ، وأجْلَوْا عنها أهلَها ، وكانوا في سِلْمهم ، وتخلّف خلْق كثير ممّن كان مع المهلبيّ من الفرسان والرجّالة عن اللحاق به ، فأقاموا بنواحي الأهواز ، وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان لما انتهى إليه من عفوه عمّن ظفر به من أصحاب الخبيث بطهيثا ، ولحق المهلبيّ ومَنْ اتّبعه من أصحابه بنهر أبي الخصيب .

وكان الذي دعا الفاسق إلى أمر المهلبيّ وبهبوذبسرعة المصير إليه خوفُه موافاة أبي أحمد وأصحابه إياه على الحال التي كانوا عليها من الوَجَل وشدّة الرّعب مع انقطاع المهلبيّ وبهبوذ فيمن كان معهما عنه ، ولم يكن الأمر كما قدّر .

وأقام أبو أحمد حتى أحرز ما كان المهلبيّ وبهبوذ خلّفاه ، وفُتِحت السكور التي كان الخبيث أحدثها في دِجْلة ، وأصلِحت له طرقه ومسالكه ورحل أبو أحمد عن السوس إلى جند يسابور ، فأقام بها ثلاثاً ؛ وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر ، فوجّه في طلبها ، وحملها ورحل عن جند يسابور إلى تُسْتَر ، وأمر بجباية الأموال من كُور الأهواز ، وأنفذ إلى كلّ كورة قائداً ليرُوج بذلك حمل الأموال . ووجّه أحمد بن أبي الأصبغ إلى محمد بن عبيد الله الكرديّ ،وقد كان خائفاً أن يأتيَه صاحب الفاسق قبل موافاة أبي أحمد كور الأهواز ، وأمره بإيناسه وإعلامه ما عليه رأيُه من العفو عنه ، والتغمّد لزلته ،وأن يتقدّم إليه في تعجيل حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز ، وأمر مسروراً البلخيّ عامله بالأهواز بإحضار مَنْ معه من الموالي والغلمان والجند ليعرضهم ، ويأمرَ بإعطائهم الأرزاق ، وينهضهم معه لحرب الخبيث ، فأحضرهم ، وعُرضوا رجلاً رجلاً ، وأُعطُوا . ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم ، فجعله منزلاً اجتازه . ورحل منه فوافَى الأهواز ، وهو يرى أنه قد تقدّمه إليها من الميرة ما يحمل عساكره . فغلُظ الأمر في ذلك اليوم ، واضطرب له الناس اضطراباً شديداً ، وأقام ثلاثة أيام ينتظر ورود المِيَر ؛ فلم تَرِد ، فساءت أحوال الناس ، وكاد ذلك يفرّق جماعتهم ، فبحث أبو أحمد عن السبب المؤخّر ورودها ، فوجد الجند قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية كانت بين سوق الأهواز ورامَ هرمز يقال لها قنطرة أربُك ، فامتنع التجار ومن يحمل الميرة من تطرُّقه لقطع تلك القنطرة . فركب أبو أحمد إليها وهي على فرسخين من سُوق الأهواز ، فجمع مَنْ كان بقيَ في العسكر من السودان ، وأمرهم بنقل الحجارة والصّخْر لإصلاح هذه القنطرة وبَذَل لهم الأموال الرغيبة ، فلم يرِمْ حتى أصلحت في يومه ذلك ، ورُدّت إلى ما كانت عليه . فسلكها الناس ، ووافت القوافل بالمِيَر ، فحيِيَ أهل العسكر ، وحسنت أحوالهم .

وأمر أبو أحمد بجمع السفن لعقد الجسر على دُجيل ، فجمعت من كُور الأهواز وأخذ في عقد الجسر ، وأقام بالأهواز أياماً حتى أصلح أصحابُه أمورهم ، وما احتاجوا من آلاتهم ، وحسُنت أحوال دوابّهم ، وذهب عنها ما كان نالها من الضرّ بتخلف الأعلاف ، ووافت كتب القوم الذين كانوا تخلّفوا عن المهلّبيّ ، وأقاموا بسوق الأهواز يسألونه الأمان ؛ فآمنهم ، فأتاه نحو من ألف رجل ، فأحسن إليهم ، وضمهم إلى قُوّاد غلمانه ، وأجرى لهم الأرزاق ، وعقد الجسر على دُجَيل ، فرحل بعد أن قدّم جيوشه ، فعبر الجسر ، وعسكر

بالجانب الغربيّ من دُجيل في الموضع المعروف بقصر المأمون ، فأقام هنالك ثلاثاً ؛ وأصابت الناس في هذا الموضع من الليل زلزلة هائلة ، وقَى الله شرّها ، وصرف مكروهها .

وقد كان أبو أحمد قبل عبور الجسر المعقود على دُجَيل قدّم أبا العباس ابنه إلى الموضع الذي كان عزم على نزوله من دِجْلة العوراء ، وهو الموضع المعروف بنهر المبارك من فُرات البصرة ، وكتب إليه ابنه هارون بالإنحدار في جميع الجيش المتخلف معه إلى نهر المبارك أيضاً لتجتمع العساكر هناك ، فرحل أبو أحمد عن قصر المأمون ، فنزل بقُورَج العباس ، ووافاه أحمد بن أبي الأصبغ هنالك بما صالح عليه محمد بن عبيد الله وبهدايا أهداها إليه من دوابّ وضوارٍ وغير ذلك . ثم رحل عن القورَج ، فنزل بالجعفرية ، ولم يكن بهذه القرية ماء إلّا من آبار كان أبو أحمد تقدّم بحفرها في عسكره ، وأنفذ لذلك سعداً الأسود مولى عبيد الله بن محمد بن عمار من قورَج العباس ، فحُفرت ، فأقام بهذا الموضع يوماً وليلة ، وألفَى هناك مِيَراً مجموعة ، واتّسع الناس بها ، وتزوّدوا منها .

ثم رحل إلى الموضع المعروف بالبشير ، وألفى فيه غديراً من المطر ، فأقام به يوماً وليلة ، ورحل في آخر الليل يريد نهر المبارك ، فوافاه بعد صلاة الظهر ، وكان منزلاً بعيد المسافة ؛ وتلقّاه ابناه أبو العباس وهارون في طريقه ، فسلّما عليه ، وسارا بسيره حتى ورد نهر المبارك ، وذلك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين ومائتين .

وكان لزِيرك ونصير في الذي كان أبو أحمد وجّه فيه زيرك من تتبُّع فلّ الخبيث من طَهيثا أثرٌ فيما بين فصول أبي أحمد من واسط إلى حال مصيره إلى نهر المبارك ؛ وذلك ما ذكره محمد بن الحسن عن محمد بن حماد ، قال : لمّا اجتمع زِيرك ونصير بدِجْلة العوراء انحدرا حتى وافيا الأبُلّة ، فاستأمن إليهما رجل من أصحاب الخبيث ، فأعلمهما أن الخبيث قد أنفذ عدداً كثيراً من السُّميريّات والزّواريق ، والصلاغ مشحونة بالزّنج ، يرأسهم رجل من أصحابه ، يقال له محمد بن إبراهيم ، يكنى أبا عيسى ، ومحمد بن إبراهيم هذا رجل من أهل البصرة ، كان جاء به رجل من الزّنج عند خراب البصرة يقال له يَسار ، كان على شُرْطة الفاسق ، فكان يكتب ليسار على ما كان يلي حتى مات ، وارتفعت حال أحمد بن مهدي الجبائيّ عند الخبيث ، فولّاه أكثر أعمالِه ، وضمّ محمد بن إبراهيم هذا إليه ، فكان كاتبه إلى أن هلك الجبائيّ ـ فطمِع محمد بن إبراهيم هذا في مرتبته ، وأن يحلّه الخبيث محلّ الجبائيّ ، فنبذ الدواة والقلم ، ولبس آلة الحرب ، وتجرّد للقتال ، فأنهضه الخبيث في هذا الجيش ، وأمره بالإعتراض في دجْلة لمدافعة مَنْ يردُها من الجيوش ، فكان في دِجْلة أحياناً ، وأحياناً يأتي بالجمع الذي معه إلى النهر المعروف بنهر يزيد ، ومعه في ذلك الجيش شِبْل بن سالم وعمرو المعروف بغلام بوذى وأجلاد من السودان وغيرهم ، فاستأمن رجل كان في ذلك الجيش إلى زيرك ونُصير ، وأخبرهما خبره ، وأعلمهما أن محمد بن إبراهيم على القصد لسواد عسكر نُصَير ، ونصير يومئذ معسكر بنهر المرأة ، وأنهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقِل وبثْق شيرين ، حتى يوافوا الموضع المعروف بالشرطة ، ليخرجوا من وراء العسكر فيكبُّوا على طرفيْه ؛ فرجع نصير عند وصول هذا الخبر إليه من الأبُلّة مبادراً إلى معسكره ، وسار زيرَك قاصداً لبَثْق شيرين ؛ حتى صار من مؤخّرة في موضع يعرف بالميشان ؛ وذلك أنه قدّر أن محمد بن إبراهيم ومن معه يأتون عسكر نُصير من ذلك الطريق ؛ فكان ذلك كما ظنّ ، ولقيهم في طريقهم فوهب الله له العلوّ عليهم بعد صبر منهم له ومجاهدة شديدة ؛ فانهزموا ولجؤوا إلى النهر الذي كانوا وضعوا الكمين فيه ، وهو نهر يزيد ، فدُلّ زيرك

عليهم ، فتوغّلت عليهم سُميريّاته وشذواته ، فقتِل منهم طائفة ، وأسِر طائفة ؛ وكان ممن ظفِر به منهم محمد بن إبراهيم المكنى أبا عيسى وعمرو المعروف بغلام بوذى ، وأخِذ ما كان معهم من السُّميريّات ، وذلك نحو من ثلاثين سُميريّة ، وأفلت شبل في الذين نجوْا ، فلحق بعسكر الخبيث ، وخرج زيرك من بَثْق شِيرين ظافراً ومعه الأسارى ، ورؤوس مَنْ قتل مع ما حوى من السميريّات والزّواريق وسائر السفن ، فانصرف زيرك من دِجْلة العَوْراء إلى واسط ؛ وكتب إلى أبي أحمد بما كان من حربه والنصر والفتح .

وكان فيما كان من زيرك في ذلك وصول الجَزَع إلى كلّ مَنْ كان بدِجْلة وكُورها من أتباع الفاسق ، فاستأمن إلى أبي حمزة وهو مقيم بنهر المرأة منهم زهاء ألفي رجل ـ فيما قيل ـ فكتب بخبرهم إلى أبي أحمد ، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان وإجراء الأرزاق عليهم ، وخلطهم بأصحابه ومناهضته العدوّ بهم .

وكان زيرك مقيماً بواسط إلى حين ورود كتاب أبي أحمد على ابنه هارون بالمصير بالجيش المتخلّف معه إلى نهر المبارك ، فانحدر زيرك مع هارون ، وكتب أبو أحمد إلى نصير وهو بنهر المرأة يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك ، فوافاه هنالك ؛ وكان أبو العباس عند مصيره إلى نهر المبارك انحدر إلى عسكر الفاسق في الشَّذا والسُّميريّات ، فأوقع به في مدينته بنهر أبي الخصيب .

وكانت الحرب بينه وبينهم من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر ، واستأمن إليه قائد من قوّاد الخبيث المضمومين كانوا إلى سليمان بن جامع ، يقال له منتاب ، ومعه جماعة من أصحابه ؛ فكان ذلك مما كسر الخبيث وأصحابَه ، وانصرف أبو العباس بالظَّفَر ، وخلع على منتاب ووصله وحمله ، ولمّا لقيَ أبو العباس أباه أعلمه خبر منتاب ، وذكر له خروجه إليه بالأمان ، فأمر أبو أحمد لمنتاب بخِلْعة وصِلة وحُملان ، وكان منتاب أوّل مَنْ استأمن من قوّاد الزَّنج .

ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين ومائتين ، كان أول ما عمل به في أمر الخبيث ـ فيما ذكر محمد بن الحسن بن سهل ، عن محمد بن حمّاد بن إسحاق بن حمّاد بن زيد ـ أن كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وإخراب البلدان والأمصار ، واستحلال الفروج والأموال ، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوّة والرسالة ، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة ، والأمان له موجود ؛ فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخَطَها الله ، ودخل في جماعة المسلمين ، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه ؛ وكان له به الحظّ الجزيل في دنياه . وأنفذ ذلك مع رسوله إلى الخبيث ، والتمس الرّسول إيصالَه ، فامتنع أصحاب الخبيث من إيصال الكتاب ، فألقاه الرسول إليهم ، فأخذوا وأتوا به إلى الخبيث ، فقرأ فلم يزدْه ما كان فيه من الوعظ إلّا نفوراً وإصراراً ، ولم يجب عن الكتاب بشيء ، وأقام على اغتراره ، ورجع الرسول إلى أبي أحمد فأخبَره بما فعل ، وترك الخبيث الإجابة عن الكتاب .
وأقام أبو أحمد يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء متشاغلاً بعرض الشَّذَا والسُّميريّات وترتيب قوّاده ومواليه وغلمانه فيها ، وتخيّر الرماة وترتيبهم في الشَّذَا والسُّميريّات ، فلما كان يوم الخميس سار أبو أحمد في أصحابه ، ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الخبيث التي سَمّاها المختارة من نهر أبي الخصيب ، فأشرف عليها وتأمّلها ، فرأى من مَنَعَتَها وحصانتها بالسُّور والخنادق المحيطة بها وما عوّر من الطرق المؤدية إليها وأعِدّ المجانيق والعرّادات والقسيّ الناوكيّة وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدّم من منازعي السلطان ، ورأى من

كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلظ أمره . فلمّا عاين أصحابه أبا أحمد ، ارتفعت أصواتُهم بما ارتجّت له الأرض ، فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنه أبا العباس بالتقدّم إلى سُور المدينة وَرَشْق مَنْ عليه بالسهام ، ففعل ذلك ودنا حتى ألصق شَذواته بمسنّاة قصر الخائن ، وانحازت الفسقة إلى الموضع الذي دنت منه الشَّذَا ، وتحاشدوا ، وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم وعرّاداتهم ومقاليعهم ، ورمى عوامُّهم بالحجارة عن أيديهم ، حتى ما يقع طرف ناظر من الشذا على موضع إلاّ رأى فيه سهماً أو حجراً ، وثبت أبو العباس ، فرأى الخائن وأشياعه من جدّهم واجتهادهم وصَبْرهم ما لا عهد لهم بمثله من أحد حاربهم . فأمر أبو أحمد أبا العباس ومن معه بالرجوع إلى مواقفهم ليروِّحوا عن أنفسهم ويداووا جراحهم ، ففعلوا ذلك .

واستأمن إلى أبي أحمد في تلك الحال مقاتلان من مقاتلة السُّميريّات ، فأتوه بسُمَيريتهما وما فيها من الآلات والملاّحين ، فأمر للمقاتلين بخلع ديباج ومناطق محلاّة ، ووصلهما ، وأمر للملاحين بخلَع من خلع الحرير الأحمر والثياب البيض بما حسن موقعه منهم وعمّهم جميعاً بصلاته ، وأمر بإدنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم ؛ فكان ذلك من أبخع المكايد التي كيد بها الفاسق . فلما رأى الباقون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم ، رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه ، فابتدروه مسرعين نحوه ، راغبين فيما شرع لهم منه . فصار إلى أبي أحمد في ذلك اليوم عدد من أصحاب السميريّات ، فأمر فيهم بمثل ما أمر به في أصحابهم . فلما رأى الخبيثُ ركونَ أصحاب السميريّات إلى الأمان واغتنامهم له أمر بردّ مَنْ كان منهم في دِجْلة إلى نهر أبي الخصيب ، ووكل بفوّهة النهر مَنْ يمنعهم من الخروج ، وأمر بإظهار شذواته ، وندب لهم بَهْبوذ بن عبد الوهاب وهو من أشدّ حماته بأساً ، وأكثرهم عدداً وعِدّة ، فانتدب بهبوذ لذلك في أصحابه ، وكان ذلك في وقت إقبال المدّ وقوّته ، وقد تفرّقت شَذَوات أبي أحمد ، ولحق أبو حمزة فيما معه منها بشرقيّ دِجْلة ، فأقام هنالك وهو يرى أنّ الحرب قد انقضت ، واستُغني عنه .

فلما ظهر بَهْبوذ فيما معه من الشَّذَوات أمر أبو أحمد بتقديم شَذَوَاتِهِ ، وأمر أبا العباس بالحمل على بهبوذ بما معه من الشَّذَا ، وتقدّم إلى قُوّاده وغلمانه بالحمل معه ؛ وكان الذي صَلِيَ بالحرب من الشَّذوات التي مع أبي العباس وزيرك من الشَّذَوات التي رتب فيها قوّاد الغلمان اثنتي عشرة شذاة . فنشبت الحرب ، وطمع أصحاب الفاسق في أبي العباس وأصحابه لقلة عدد شذواتهم . فلما صُدِموا انهزموا . ووجّه أبو العباس ومَنْ معه في طلب بهبوذ ، فألجؤوه إلى فناء قصر الخبيث ، وأصابتْه طعنتان ، وجُرح بالسهام جراحات ، وأوهِنت أعضاؤه بالحجارة ، وخلّى ما كان عليه مع أصحابه ، فأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت ، وقتل يومئذ ممن كان مع بهبوذ قائد من قوّاده ذو بأس ونجدة وتقدّم في الحرب ، يقال له عميرة ، وظفر أصحاب أبي العباس بشذَاة من شَذَوات بهبوذ ، فقتل أهلها ، وغرقوا ، وأخذت الشذاة ، وصار أبو العباس ومَنْ معه بشذواتهم بعد أن أتاهم أمر أبي أحمد بذلك ، وبإلحاق الشَّذا بشرقيّ دِجْلة وصرف الجيش . فلمّا رأى الفاسق جيش أبي أحمد منصرفاً أمر مَنْ كان انهزم في شَذَواتِه إلى نهر أبي الخصيب بالظهور ليسكّن بذلك روعَةَ أصحابه ، وليكون صرفه إياهم إذا صرفهم عن غير هزيمة ، فأمر أبو أحمد جماعة من غلمانه بأن يثبّتوا صدور شذواتهم إليهم ؛ ويقصدوهم . فلما رأوا ذلك ولّوْا منهزمين مذعورين ، وتأخرت عنهم شذاة من شذواتهم ، فاستأمن أهلُها إلى أبي أحمد ، ونكسوا علماً أبيض كان معهم ، فصاروا إليه في شذاتهم ، فأمنوا وحبُوا ووُصِلوا وكُسوا . فأمر الفاسقعند ذلك بردّ شذواتهم إلى النهر ومنعها من الخروج ، وكان ذلك في آخر النهار ، وأمر أبو أحمد أصحابه

بالرجوع إلى معسكرهم بنهر المبارك .

واستأمن إلى أبي أحمد في هذا اليوم عند منصرَفه خَلْق كثير من الزَّنْج وغيرهم ، فقبلهم ، وحملهم في الشّذا والسميريّات ، وأمر أن يخلع عليهم ويوصلوا ويُحبَوْا ، وتُكتب أسماؤهم في المضمومين إلى أبي العباس .

وسار أبو أحمد ، فوافى عسكره بعد العشاء الأخيرة ، فأقام به يوم الجمعة والسبت والأحد ، ثم عزم على نقل عسكره إلى حيث يقرب منه عليه القَصْد لحرب الخبيث ، فركب الشَّذَا في يوم الاثنين لستّ ليال بقين من رجب سنة سبع وستين ومائتين ، ومعه أبو العباس والقوّاد من مواليه وغلمانه ، فيهم زيرك ونصير حتى وافَى النهر المعروف بنهر جَطّى في شرقيّ دِجْلة ، وهو حيال النهر المعروف باليهوديّ ، فوقف عليه ، وقدّر فيه ما أراد وانصرف ، وخلّف به أبا العباس وزيرك ونصيراً ، وعاد إلى معسكره . فأمر فنودي في الناس بالرحيل إلى الموضع الذي اختار من نهر جَطّى ، وتقدم في قوْد الدوابّ بعد أن أصلحت لها الطرق ، وعقدت القناطر على الأنهار ، وغدا في يوم الثلاثاء لخمس بقين من رجب في جميع عساكره حتى نزل نهر جَطّى ، فأقام به إلى يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة سبع وستين ومائتين ، ولم يحارب في شيء من هذه الأيام ، وركب في هذا اليوم في الخيل والرجّالة ، ومعه جميع الفرسان ، وجعل الرجالة والمطوّعة في السفن والسميريّات ، على كل رجل منهم لأمَتُه وزِيّه ، وسار حتى وافى الفرات ، ووازى عسكر الفاسق وأبو أحمد من أصحابه وأتباعه في زُهاء خمسين ألف رجل أو يزيدون ، والفاسق يومئذ في زهاء ثلاثمائة ألف إنسان ، كلهم يقاتل أو يدافع ؛ فمن ضاربٍ بسيف ، وطاعن برمح ، ورامٍ بقوس ، وقاذف بمقلاع ، ورامٍ بعرّادة أو منجنيق ؛ وأضعفهم أمرُ الرماة بالحجارة عن أيديهم وهم النظارة المكثرون السواد ، والمعتَنون بالنعير والصّياح ، والنساء يشركنهم في ذلك .

فأقام أبو أحمد في هذا اليوم بإزاء عسكر الفاسق إلى أن اضحى ، وأمر فنودي أنّ الأمان مبسوط للناس ؛ أسوِدهم وأحمرِهم إلَّا الخبيث ، وأمر بسهام فعُلّقت فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان مثل الذي نودي به ، ووعد الناس فيها الإحسان ، ورمى بها إلى عسكر الخبيث ، فمالت إليه قلوب أصحاب المارق بالرّهبة والطمع فيما وعدهم من إحسانه وعفوه ؛ فأتاه في ذلك اليوم جمع كثير يحملهم الشَّذا إليه ، فوصلهم وحباهم . ثم انصرف إلى معسكره بنهر جطّى ، ولم يكن في هذا اليوم حرب .

وقدم عليه قائدان من مواليه ؛ أحدهما بكتمر والآخر جعفر بن بغلاغز ، في جمع من أصحابهما فكان ورودهما زائداً في قوّة مَنْ مع أبي أحمد .

ورحل أبو أحمد عن نهر جَطّى إلى معسكر قد كان تقدم في إصلاحه ، وعقد القناطر على أنهاره ، وقطع النهر ليوسعه بفرات البصرة بإزاء مدينة الفاسق ؛ فكان نزوله هذا المعسكر في يوم الأحد للنصف من شعبان سنة سبع وستين ومائتين ، وأوطن هذا المعسكر ، وأقام به ، ورتب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم فيه ، فجعل نُصيراً صاحب الشّذا والسميريات في جيشه في أوّل العسكر وآخره بالموضع الموازي النهر المعروف بجُوى كور ، وجعل زيرك التركيّ صاحب مقدّمة أبي العباس في أصحابه موازياً ما بين نهر أبي الخصيب وهو النهر الموسوم بنهر الأتراك والنهر المعروف بالمغيرة ، ثم تلاه عليّ بن جهشيار حاجبه في جَيْشه .

وكانت مضاربُ أبي أحمد وابنيه حيالَ الموضع المعروف بديْر جابِيل، وأنزل راشداً مولاه في مواليه وغلمانه

الأتراك والخزر والرّوم والديالمة والطبرية والمغاربة والزّنج على النهر المعروف بهطَمَة ، وجعل صاعد بن مَخْلَد وزيره في جيشه من الموالي والغلمان فُويق عسكر راشد ، وأنزل مسروراً البلخيّ في جيشه على النهر المعروف بسِنْدَادَان ، وأنزل الفضل ومحمداً ، ابني موسى بن بُغا في جيشهما على النهر المعروف بهالة ، وتلاهما موسى دالجويه في جيشه وأصحابه ، وجعل بُغْراج التركيّ على ساقته نازلاً على نهر جَطَّى ، وأوطنوه ، وأقاموا به . ورأى أبو أحمد من حال الخبيث وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم أنه لا بدّ له من الصبر عليه ومحاصرته وتفريق أصحابه عنه ؛ ببذل الأمان لهم ، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم ، والغلظة على مَنْ أقام على غيّه منهم ، واحتاج إلى الاستكثار من الشَّذَا وما يحارب به في الماء .

فأمر بإنفاذ الرّسل في حمل المِيَر في البرّ والبحر وإدرارها إلى معسكره بالمدينة التي سماها الموفَّقيّة ، وكتب إلى عماله في النواحي في حمل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة . وأنفذ رسولاً إلى سِيراف وجنّابا في بناء الشَذَا والاستكثار منها لما احتاج إليه في ترتيبها في المواضع التي يقطع بها المِيَر عن الخائن وأشياعه . وأمر بالكتاب إلى عمّاله في النواحي بإنفاذ كل مَنْ يصلح للإثبات في الديوان ، ويرغب في ذلك ، وأقام ينتظر شهراً أو نحوه ؛ فوردت المِيَر متتابعةً يتلو بعضها بعضاً ، وجهّز التجار صنوف التجارات والأمتعة وحملوها إلى المدينة الموفقيّة ، واتخذت بها الأسواق ، وكثر بها التجّار والمتجهزون من كلّ بلد ، ووردتها مراكب البحر ؛ وقد كانت انقطعت لقطع الفاسق وأصحابه سبلها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين ، وبنى أبو أحمد مسجد الجامع ، وأمر الناس بالصَّلاة فيه ، واتَّخذ دُورَ الضَّرْب ، فضرب فيها الدنانير والدراهم ، فجمعت مدية أبي أحمد جميع المرافق ، وسيق إليها صنوف المنافع حتى كان ساكنوها لا يفقدون بها شيئاً مما يوجد في الأمصار العظيمة القديمة ، وحملت الأموال ، وأدرّ للناس العطاء في أوقاته ، فاتّسعوا وحسنت أحوالهم ، ورغب الناس جميعاً في المصير إلى المدينة الموفقيّة والمقام فيها .

وكان الخبيث بعد ليلتين من نزول أبي أحمد مدينته الموفقيّة أمر بهبوذ بن عبد الوهاب ، فعبَر والناس غارُّون في سُميريّات إلى طرف عسكر أبي حَمْزة ، فأوقع به ، وقتل جماعة من أصحابه ، وأسر جماعة ، وأحرق كوخات كانت لهم قبل أن يبني الناس هنالك . فأمر أبو أحمد نُصيراً عند ذلك بجمع أصحابه ، وألّا يطلق لأحد مفارقة عسكره ، وأن يحرس أقطار عسكره بالشَّذا والسميريّات والزّواريق فيها الرّجّالة إلى آخر مَيَان رُوذان والقَنْدل وأبرسان ، للإيقاع بمن هنالك من أصحاب الفاسق .

وكان بميان روذان من قوّاده أيضاً إبراهيم بن جعفر الهمدانيّ في أربعة آلاف من الزّنج ، ومحمد بن أبان المعروف بأبي الحسن أخو عليّ بن أبان بالقَنْدل في ثلاثة آلاف ، والمعروف بالدّور في أبرسان في ألف وخمسمائة من الزّنج والجبائيّين ، فبدأ أبو العباس بالهمدانيّ فأوقع به ، وجرت بينهما حروب ، قُتِل فيها خلق كثير من أصحاب الهمدانيّ ، وأسر منهم جماعة ، وأفلت الهمدانيّ في سُميريّة قد كان أعدّها لنفسه ، فلحق فيها بأخي المهلبيّ المكنى بأبي الحسن ، واحتوى أصحاب أبي العباس عَلَى ما كان في أيدي الزّنج وحملوه إلى عسكرهم .

وقد كان أبو أحمد تقدم إلى ابنه أبي العباس في بذل الأمان لمن رغب فيه ، وأن يضمن لمن صار إليه الإحسان ، فصار إليه طائفة منهم في الأمان فآمنهم ، فصار بهم إلى أبيه ، فأمر لكل واحد منهم من الخِلَع والصلات على أقدارهم في أنفسهم ، وأن يوقفوا بإزاء نهر أبي الخصيب ليعاينهم أصحابهم . . وأقام أبو أحمد

يكايد الخائن ببذل الأمان لمن صار إليه من الزّنج وغيرهم ، ومحاصرة الباقين والتضييق عليهم ، وقطع المِيَر والمنافع عنهم ؛ وكانت ميرة الأهواز وما يرد من صنوف التجارات منها ومن كورها ونواحي أعمالها يسلَك به النهر المعروف ببيان ، فسرى بهبوذ في جُلد رجاله ليلة من الليالي ، وقد نمِي إليه خبر قيروان ورد بصنوف من التجارات والمِير وكمّن في النخل ؛ فلما ورد القَيْروان خرج إلى أهله ، وهم غارّون ، فقتَل منهم وأسَر ، وأخذ ما أحبّ أن يأخذ من الأموال .

وقد كان أبو أحمد أنفذ لَبَذْرقة ذلك القَيْروان رجلاً من أصحابه في جمع ، فلم يكن للموجَّه لذلك ببهبوذ طاقة ، لكثرة عدد مَنْ منعه وضيق الموقع على الفرسان ، وأنه لم يكن بهم فيه غناء . فلما انتهى ذلك إلى أبي أحمد ، غلظ عليه ما نال الناس في أموالهم وأنفسهم وتجارتهم ، وأمر بتعويضهم ، وأخلف عليهم مثلَ الذي ذهب لهم ، ورتّب الشّذا على فوّهة بيان وغيره من الأنهار التي لا يتهيّأ للفرسان سلوكُها في بنائها والإقبال بها إليه ، فورد عليه منها عددٌ صالح ، فرتّب فيها الرجال ، وقلّد أمرها أبا العباس ابنه ، وأمره أن يوكل بكل موضع يرد إلى الفَسَقة منه مِيرة ، فانحدر أبو العباس لذلك إلى فُوّهة البحر في الشَّذوات ، ورتب في جميع تلك المسالك القوّاد ، وأحكم الأمر فيه غاية الإحكام .

وفي شهر رمضان منها كانت وقعة بين إسحاق بن كُنْدَاج وإسحاق بن أيوب وعيسى بن الشيخ وأبي المغراء وحمدان الشاري ومن تأشّب إليهم من قبائل رَبيعة وتَغْلِب وبكْر واليمن ، فهزمهم ابن كُنْدَاج إلى نَصِيبين ، وتَبِعهم إلى قريب من آمِد ، واحتوَى على أموالهم ، ونزلوا آمِد ، فكانت بينه وبينهم وقعات .

وفي شهر رمضان منها قُتل صندل الزنجيّ ، وكان سبب قتله أن أصحاب الخبيث عَبَرُوا لليلتين خلتا من شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكر ـ أعني سنة سبع وستين ومائتين ـ يريدون الإيقاع بعسكر نصير وعسكر زيرك ، فنذر بهم الناس ، فخرجوا إليهم ، فردّوهم خائبين ، وظفروا بصندل هذا . وكان ـ فيما ذكروا ـ يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهنّ ويقلّبهنّ تقليب الإماء ، فإن امتنعت منهنّ امرأة ضرب وجهها ودفعها إلى بعض علوج الزّنج يبيعها بأوكس الثمن . فلما أتِيَ به أبو أحمد ، أمر به فشُدّ بين يديه ، ثم رمِيَ بالسهام ، ثم أمر به فقتل .

وفي شهر رمضان من هذه السنة استأمن إلى أبي أحمد خلْق كثير من عند الزنج .

ذكر سبب ذلك :

وكان السبب في ذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ استأمن إلى أبي أحمد رجلٌ من مذكوري أصحاب الخبيث ورؤسائهم وشجعانهم ، يقال له مهذَّب ، فحمِل في الشـذا إلى أبي أحمد ، فأتِيَ به في وقت إفطاره ، فأعلمه أنه جاء متنصّحاً راغباً في الأمان ، وأن الزّنج على العبور في ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات ، وأنّ الذين ندب الفاسق لذلك أنجادهم وأبطالهم ؛ فأمر أبو أحمد بتوجيه مَنْ يحاربهم إليهم ومن يمنعهم من العبور وأن يعارضوا بالشَّذا . فلما علم الزَّنج أن قد نذِر بهم انصرفوا منهزمين ، فكثر المستأمنة من الزّنج وغيرهم وتتابعوا ؛ فبلغ عدد مَنْ وافى عسكر أبي أحمد منهم إلى آخر شهر رمضان سنة سبع وستين ومائتين خمسة آلاف رجل من بين أبيض وأسود .

وفي شوال من هذه السنة ورد الخبر بدخول الخجُستانيّ نيسابور وانهزام عمرو بن الليث وأصحابه ،

فأساء السيرة في أهلها ، وهدم دور آل مُعاذ بن مسلم ، وضرب من قدر عليه منهم واقتطع ضياعهم ، وترك ذكر محمد بن طاهر ، ودعا له على منابر ما غلب عليه من مدن خراسان وللمعتمد ، وترك الدعاء لغيرهما .

وفي شوال من هذه السنة كانت لأبي العباس وقعة بالزّنج ، قُتِل فيها منهم جمع كثير .

ذكر سبب ذلك :

وكان السبب في ذلك ـ فيما بلغني ـ أنّ الفاسق انتخب من كلّ قيادة من أصحابه أهل الجَلَد والبأس منهم ، وأمر المهلبيّ بالعبور بهم ليبيّت عسكر أبي أحمد ، ففعل ذلك ، وكانت عِدّة مَنْ عَبَر من الزّنج وغيرهم زهاء خمسة آلاف رجل أكثرهم من الزنج ، وفيهم نحو من مائتي قائد ، فعَبَرُوا إلى شرقيّ دجْلة ، وعزموا على أن يصير القوّاد منهم إلى آخر النخل مما يلي السَّبَخة ؛ فيكونوا في ظهر عسكر أبي أحمد ، ويعبر جماعة كثيرة منهم في الشَّذَا والسُّميريّات والمعابر قبالة عسكر أبي أحمد ، فإذا نشبت الحرب بينهم انكبّ مَنْ كان عبر من قوّاد الخبيث ، فصار إلى السَّبَخة على عسكر أبي أحمد الموفق ، وهم غارّون مشاغيل بحرب مَنْ بإزائهم، وقدّر أن يتهيأ له في ذلك ما أحبه . فأقام الجيش في الفُرات ليلتَهم ، ليغادروا الإيقاع بالعسكر . فاستأمن إلى أبي أحمد غلام كان معهم من الملّاحين ، فأنهى إليه خَبَرَهم وما اجتمعت عليه آراؤهم ، فأمر أبو أحمد أبا العباس والقُوّاد والغلمان بالنهوض إليهم ؛ وقصد الناحية التي فيها أصحاب الخبيث ، وأنفذ جماعة من قُوّاد غلمانه في الخيل إلى السَّبَخة التي في مؤخّر النخل بالفرات ، لتقطعهم عن الخروج إليها ، وأمر أصحاب الشَّذَا والسُّميريّات ، فاعترضوا في دِجْلة ، وأمر الرجّالة بالزَّحْف إليهم من النخل . فلما رأى الفجّار ما أتاهم من التدبير الذي لم يحتسبوه كرّوا راجعين في الطريق الذي أقبلوا منه طالبين التخلص ، فكان قصدهم لجوِّيث بارَوَيْه ، وانتهى خبر رجوعهم إلى الموفّق ، فأمر أبا العباس وزِيرك بالانحدار في الشَّذَوات يسبقونهم إلى النهر ؛ ليمنعوهم من عبوره . وأمر غلاماً من غلمانه ، يقال له ثابت ، له قيادة على جَمْع كثير من غلمانه السودان أن يحمل أصحابه في المعابر والزّواريق ، وينحدر معهم إلى الموضع الذي فيه أعداء الله للإيقاع بهم حيث كانوا ، فأدركهم ثابت في أصحابه بجوِّيث بارويه ، فخرج إليهم فحاربهم محاربة طويلة ، وثبتوا له ، واستقبلوا جمعه وهو من أصحابه في زُهاء خمسمائة رجل ، لأنهم لم يكونوا تكاملوا وطمعوا فيه ، ثم صدقهم وأكبَّ عليهم ، فمنحه الله أكتافَهم ؛ فمِنْ مقتُول وأسير وغريق وملجّج في الماء بقدر اقتداره على السباحة التقطته الشذا والسميريّات في دِجْلة والنهر ، فلم يفلت من ذلك الجيش إلاّ أقله . وانصرف أبو العباس بالفَتْح ، ومعه ثابت وقد عُلِّقت الرؤوس في الشّذَوات وصُلب الأسارى فيها ، فاعترضوا بهم مدينتَهم ليرهبوا بهم أشياعهم ؛ فلما رأوْهم أبْلسوا وأيقنوا بالبَوار ، وأدخل الأسارى والرؤوس إلى الموفقيّة ، وانتهى إلى أبي أحمد أن صاحب الزّنج موّه على أصحابه ، وأوهمهم أن الرؤوس المرفوعة مُثُلٌ مثِّلت لهم ليراعُوا ، وأن الأسارى من المستأمنة . فأمر الموفق عند ذلك أبا العباس بجمع الرؤوس والمسير بها إلى إزاء قصر الفاسق والقذف بها في منجنيق منصوب في سفينة إلى عسكره ، ففعل أبو العباس ذلك ، فلما سقطت الرؤوس في مدينتهم ، عرف أولياء القتلى رؤوس أصحابهم ، فظهر بكاؤهم ، وتبين لهم كذب الفاجر وتمويهه .

وفي شوال من هذه السنة كانت لأصحاب ابن أبي الساج وقعة بالهيصم العجليّ ، قتلوا فيها مقدّمته ، وغلبوا على عسكره فاحتووه .

وفي ذي القعدة منها كانت لِزيرك وقعة مع جيش لصاحب الزنج بنهر ابن عمر ، قتل زيرك منهم فيها خلقاً كثيراً .

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة :

ذكر أن صاحب الزَّنج كان قد أمر باتّخاذ شَذَوات ، فعُمِلت له ، فضمها إلى ما كان يحارب به ، وقسّم شذواته ثلاثة أقسام بين بَهْبوذ ونصر الروميّ وأحمد بن الزرَنجيّ ، وألزم كلّ واحد منهم غرْمَ ما يصنع على يديه منها ، وكانت زهاء خمسين شَذاة ، ورتّب فيها الرّماة وأصحاب الرماح ، واجتهدوا في إكمال عُدّتهم وسلاحهم ، وأمرهم بالمسير في دِجْلة والعبور إلى الجانب الشرقيّ والتعرّض لحرب أصحاب الموفق ، وعدّة شذوات الموفّق يومئذ قليلة ، لأنه لم يكن وافاه كلّ ما كان أمر باتّخاذه، وماكان عنده منها فمتفرّق في فُوّهة الأنهار التي يأتي الزَّنج منها المِيَر . فغلظ أمر عوان الفاجر ، وتهيّأ له أخذ شذاة بعد شذاة من شذا الموفّق ، وأحجم نصير المعروف بأبي حمزة عن قتالهم والإقدام عليهم ، كما كان يفعل لقلة ما معه من الشَّذا ، وأكثر شذوات الموفق يومئذ مع نصير ، وهو المتولِّي لأمرها . فارتاع لذلك أهلُ عسكر الموفق ، وخافوا أن يقدم على عسكرهم الزَّنج بما معهم من فضل الشَّذَا ، فورد عليهم في هذه الحال شَذوات كان المُوفَّق تقدّم في بنائها بجنّابَا ، فأمر أبا العباس بتلقّيها فيما معه من الشَّذَا حتى يوردها العسكر ، إشفاقاً من اعتراض الزَّنج عليها في دِجْلة ، فسلمت ، وأتى بها حتى إذا وافت عسكر نُصير ، فبصر بها الزنج طمعوا فيها ، فأمر الخبيث بإخراج شَذَواته ، وأمر أصحابه بمعارضتها والاجتهاد في اقتطاعها ، فنهضوا لذلك . فتسرّع غلام من غلمان أبي العباس شجاع يقال له وصيف يعرف بالحِجْراي ، في شذوات كُنّ معه ، فشدّ على الزنج فانكشفوا ، وتبعهم حتى وافى بهم نهر أبي الخصيب ، وانقطع عن أصحابه ، فكرُّوا عليه شذواتِهم ، وانتهى إلى مضيق ، فعلقت مجاديف بعض شذواته بمجاديف بعض شذواتهم ، فجنحت وتقصّفت بالشطّ ، وأحاط به الآخرون واكتنفوه من جوانبه ، وانحدر عليه الزَّنْج من السور ، فحاربهم بمَنْ كان معه حرباً شديداً حتى قتلوا .

وأخذ الزّنج شذواتِهم ، فأدخلوها نهر أبي الخصيب . ووافى أبو العباس بالشذوات الجَنّابية سالمة بما فيها من السلاح والرجال، فأمر أبو أحمد أبا العباس بتقلّد أمر الشَّذَوات كلها والمحاربة بها ، وقطع مواد المِيَر عنهم من كلّ جهة . ففعل ذلك ، فأصلِحت الشذوات ، ورتب فيها المختارون من الناشبة والرّامحة ؛ حتى إذا أحكم أمرها أجمع ، ورتّبها في المواضع التي كانت تقصد إليها شذوات الخبيث ، وتعيث فيها ، أقبلت شذواته على عادتها التي كانت قد جرت عليها . فخرج إليهم أبو العباس في شَذَواته ، وأمر سائر أصحاب الشَّذا أن يحملوا بحملته ، ففعلوا ذلك وخالطوهم ، وطفِقوا يرشُقونهم بالسهام ، ويطعنونهم بالرماح ، ويقذفونهم بالحجارة ؛ وضرب الله وجوهَهم ، فولّوْا منهزمين ، وتبعهم أبو العباس وأصحابه حتّى أولجوهم نهر أبي الخصيب ، وغرق لهم ثلاث شَذَوَات ، وظفر بشذاتَين من شَذَواتهم بما فيها من المقاتلة والملاّحين . فأمر أبو العباس بضرب أعنَاق مَنْ ظفِر به منهم .

فلما رأى الخبيث ما نزل بأصحابه ، امتنع من إخراج الشَّذا عن فناء قصره ، ومنع أصحابه أن جاوزوا بها الشطّ إلاّ في أوقات التي يخلو دِجْلة فيها من شَذَوات الموفّق .

فلمّا أوقع بهم أبو العباس هذه الوقعة اشتدّ جزعُهم ، وطلب وجوه أصحاب الخبيث الأمانَ فأومِنوا ،

فكان ممن استأمَن من وجوههم ـ فيما ذكر ـ محمد بن الحارث العميّ ، وكان إليه حفظ عسكر مَنكى والسور الذي يلي عسكر الموفّق ، وكان خروجُه ليلاً مع عدّة من أصحابه ، فوصله الموفّق بصلات كثيرة ، وخلع عليه ، وحمله على عدّة دوابّ بحليتها وآلتها ، وأسنى له الرّزق ، وكان محمد بن الحارث حاول إخراج زَوْجته معه ، وهي إحدى بنات عمه ، فعجزت المرأة عن اللحاق به ، فأخذها الزنج فردّوها إلى الخبيث ، فحبسها مدّة ، ثم أمر بإخراجها والنداء عليها في السوق ، فبيعت ؛ ومنهم أحمد المعروف بالبَرذعيّ . وكان ـ فيما قيل ـ من أشجع رجال الخبيث الذين كانوا في حيِّز المهلبيّ ومن قوّاد الزنج مدبد وابن أنكلويه ومنينة ، فخلع عليهم جميعاً ، ووُصلوا بصلات كثيرة ، وحُمِلوا على الخيل ، وأحسن إلى جميع من جاؤوا به معهم من أصحابهم ، وانقطعت عن الخبيث موادّ الميرة ، وسُدّت عليه وعلى من أقام معه المذاهب . وأمر شبلاً وأبا النداء ـ وهما من رؤساء قوّاده وقدماء أصحابه الذين كان يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم ـ بالخروج في عشرة آلاف من الزَّنج وغيرهم ، والقصد لنهر الدير ونهر المرأة ونهر أبي الأسد ، والخروج من هذه الأنهار إلى البَطيحة للغارة على المسلمين ، وأخذ ما وجدا من طعام وميرة ليُقطع عن عسكر الموفق ما يرده من الميرة وغيرها من مدينة السلام وواسط ونواحيها . فندب الموفّق لقصدهم حين انتهى إليه خبر مسيرهم مولاه زيرك صاحب مقدمة أبي العباس ، وأمره بالنهوض في أصحابه إليهم ، وضمّ إليه من اختار من الرجال ، فمضى في الشذَوات والسُّميريّات ، وحمل الرجّالة في الزواريق والسفن الخِفاف حثيثاً ، حتى صار إلى نهر الدير ، فلم يعرف لهم هنالك خبراً ، فصار منه إلى بثْق شِيرين . ثم سلك في نهر عديّ حتى خرج إلى نهر ابن عمر ، فالتقى به جيش الزَّنْج في جمع راعتْه كثرته ، فاستخار الله في مجاهدتهم ، وحمل عليهم في ذوي البصائر والثبات من أصحابه ، فقذف الله الرعب في قلوبهم ، فانفضّوا ، ووضع فيهم السلاح ، فقتَل منهم مقتلةً عظيمة ، وغرِق منهم مثل ذلك ، وأسَر خلقاً كثيراً ، وأخذ مِن سفنهم ما أمكنه أخذه ، وغرق منها ما أمكن تغريقه ؛ فكان ما أخذ من سفنهم نحواً من أربعمائة سفينة ، وأقبل بمن معه من الأسارى وبالرؤوس إلى عسكر الموفق .

وفي ذي الحجة لست بقين منه عبر الموفق بنفسه إلى مدينة الفاسق وجيشه لحربه .

ذكر السبب الذي من أجله كان عبورُه إليها :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ أنّ الرؤساء من أصحاب الفاسق ، لمّا رأوْا ما قد حلّ بهم من البلاء مِنْ قتل مَنْ يظهر منهم وشدّة الحصار على مَنْ لزم المدينة ؛ فلم يظهر منهم أحد ، وحالَ مَنْ خرج منهم بالأمان من الإحسان إليه ، والصفح عن جُرْمه ، مالوا إلى الأمان ، وجعلوا يهربون في كلّ وجه ، ويخرجون إلى أبي أحمد في الأمان كُلَّما وجدوا إليه السبيل . فملىء الخبيث من ذلك رُعْباً ، وأيقن الهلاك ، فوكّل بكلّ ناحية كان يرى أنّ فيها طريقاً للهرب من عسكره أحراساً وحَفَظة ، وأمرهم بضبط تلك النواحي ، ووكّل بفُوّهة الأنهار مَنْ يمنع السفن من الخروج منها ، واجتهد في سدّ كلّ مسلك وطريق وثلمة ؛ لئلا يطمع في الخروج عن مدينته .

وأرسل جماعة من قوّاد الفاجر صاحب الزنج إلى الموفق يسألونه الأمان ، وأن يوجه لمحاربة الخبيث جيشاً ليجدوا إلى المصير إليه سبيلاً ، فأمر الموفق أبا العباس بالمصير في جماعة من أصحابه إلى الموضع المعروف بنهر الغربيّ ، وعليّ بن أبان حينئذ يحوط ذلك النهر ؛ فنهض أبو العباس في المختارين من أصحابه ، ومعه الشَّذَا والسُّميريّات والمعابر ، فقصد النهر الغربيّ ، وانتدب المهلبيّ وأصحابه لحربه ، فاستعرت الحرب بين

الفريقين ، وعلا أصحاب أبي العباس ، وقهر الزّنْج ، وأمدّ الفاسق المهلبيّ بسليمان بن جامع في جَمع من الزّنج كثير ، واتصلت الحرب يومئذ من أوّل النهار إلى وقت العصر ؛ وكان الظفر في ذلك اليوم لأبي العباس وأصحابه ، وصار إليه القوم الذين كانوا طلبوا الأمان من قُوّاد الخبيث ، ومعهم جمع كثير من الفرسان وغيرهم من الزّنْج ، فأمر أبو العباس عند ذلك أصحابه بالرجوع إلى الشّذا والسفن ، وانصرف فاجتاز في منصرفه بمدينة الخبيث، حتى انتهى إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك ، فرأى أصحابه من قلة عدد الزّنْج في هذا الموضع من النهر ما طمعوا له فيمن كان هناك ، فقصدوا نحوهم ، وقد انصرف أكثر أصحابهم إلى المدينة الموفقيّة ، فقربوا إلى الأرض ، وصعِدوا وأمعنوا في دخول تلك المسالك ، وعَلَتْ جماعةٌ منهم السور، وعليه فريق من الزّنج وأشياعهم ، فقتلوا مَنْ أصابوا منهم هنالك ، ونذِر الفاسق بهم ، فاجتمعوا لحربهم ، وأنجد بعضهم بعضاً .

فلمّا رأى أبو العباس اجتماعَ الخبثاء وتحاشدَهم وكثرة مَن ثاب إلى ذلك الموضع منهم ، مع قلة عدد مَنْ هنالك من أصحابه ، كرّ راجعاً إليهم فيمن كان معه في الشّذَا ، وأرسل إلى الموفّق يستمدّه ، فوافاه لمعونته مَنْ خفّ لذلك من الغلمان في الشّذَا والسُّميريّات ، فظهروا على الزّنْج وهزموهم ؛ وقد كان سليمان بن جامع لما رأى ظهور أصحاب أبي العباس على الزّنْج ، وغَل في النهر مصاعداً في جمع كثير ؛ فانتهى إلى النّهر المعروف بعبد الله ، واستدبر أصحاب أبي العباس وهم في حربهم ، مقبلين علَى مَنْ بإزائهم ممّن يحاربهم ، فيمعنون في طلب مَنْ انهزم عنهم من الزّنْج . فخرج عليهم من ورائهم ، وخفقت طبوله ، فانكشف أصحاب أبي العباس ، ورجع عليهم مَنْ كان انهزم عنهم من الزّنج ، فأصِيبت جماعة من غلمان الموفّق وغيرهم من جُنده ، وصار في أيدي الزّنْج عدّة أعلام ومطارد ، وحامى أبو العباس عن الباقين من أصحابه ، فسلم أكثرُهم ، فانصرف بهم ؛ فأطعمت هذه الوقعة الزّنْج وتبّاعهم ، وشدّت قلوبهم ، فأجمع الموفّق على العبور بجيشه أجمع لمحاربة الخبيث، وأمر أبا العباس وسائر القوّاد والغلمان بالتأهّب للعبور ، وأمر بجمع السفن والمعابر وتفريقها عليهم ، ووقف على يوم بعينه أراد العبور فيه ، فعصفت رياحٌ منعت من ذلك ، واتصل عصوفها أياماً كثيرة ؛ فأمهل الموفّق حتى انقض هبوب تلك الرياح ، ثم أخذ في الإستعداد للعبور ومناجزة الفاجر .

فلما تهيّأ له ما أراد من ذلك عبر يوم الأربعاء لست ليال بقين من ذي الحجة من سنة سبع وستين ومائتين في أكثف جَمْع وأكمل عدّة ، وأمر بحمل خيل كثيرة في السفن ، وتقدّم إلى أبي العباس في المسير في الخيل ومعه جميع قوّاده الفرسان ورجّالتهم ، ليأتيَ الفجرة مِن ورائهم من مؤخّر النهر المعروف بمنكى ، وأمر مسروراً البلخيّ مولاه بالقصد إلى نهر الغربيّ ليضطر الخبيث بذلك إلى تفريق أصحابه ، وتقدّم إلى نصير المعروف بأبي حمزة ورشيق غلام أبي العباس وهو من أصحابه ـ وشذواتُه في مثل العدّة التي فيها نصير ـ بالقصد لفوّهة نهر أبي الخصيب والمحاربة لما يظهر من شَذَوات الخبيث ، وقد كان استكثر منها ، وأعدّ فيها المقاتلة وانتخبهم . وقصد أبو أحمد بجميع مَنْ معه لركن من أركان مدينة الخبيث قد كان حصّنه بابنه المعروف بأنكلاي ، وكنفه بعليّ بن أبان وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ وحفّه بالمجانيق والعرّادات والقسيّ الناكيّة ، وأعدّ فيه الناشبة وجمع فيه أكثر جيشه .

فلما التقى الجمعان أمر الموفق غلمانه : الناشبة والرامحة والسودان ، بالدنوّ من الركن الذي فيه جمع الفسقة ، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك ؛ وهو نهر عريض غزير الماء . فلما انتهوْا إليه أحجموا عنه ، فصِيح بهم ، وحُرِّضوا على العبور فعبروا سباحة ، والفسقة يرمونهم بالمجانيق والعرّادات والمقاليع والحجارة

عن الأيدي ، وبالسهام عن القسيّ الناوكية ، وقسيّ الرِّجْل وصنوف الآلات التي يرمَى عنها ؛ فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر ، وانتهوْا إلى السور ، ولم يكن لحِقهم من الفَعَلَة مَنْ كان أعِدَّ لهدمه . فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من سلاحهم ويسَّر الله ذلك ، وسهّلوا لأنفسهم السبيل إلى عُلّوه ، وحضرهم بعض السلاليم التي كانت أعِدّت لذلك ، فعلَوا الركن ، ونصبوا هنالك علماً من أعلام الموفق ، وأسلم الفسقة سورهم ، وخلّوْا عنه بعد أن حوربوا عليه أشدّ حرب ، وقتِل من الفريقين خلقٌ كثير ، وأصيب غلامٌ من غلمان الموفّق يقال له ثابت بسهم في بطنه فمات ، وكان من قوّاد الغلمان وجِلّتهم .

ولما تمكن أصحاب الموفّق من سُور الفسقة ، أحرقوا ما كان عليه من مِنجنيق وعرّادة وقوس ناوكيّة ، وخلّوْا عن تلك الناحية وأسلموها . وقد كان أبو العباس فصد بأصحابه في الخيل النهر المعروف بمنكى ، فمضى عليّ بن أبان المهلبيّ في أصحابه ، قاصداً لمعارضته ودفعه عمّا صمد له ، والتقيا ، فظهر أبو العباس عليه وهزمه ، وقتل جمعاً كثيراً من أصحابه ، وأفلت المهلبيّ راجعاً ، وانتهى أبو العباس إلى الموضع الذي قدّر أن يصل منه إلى مدينة الفاسق من مؤخر نهر منكى ، وهو يرى أنّ المدخل من ذلك الموضع سهلٌ ، فدخل إلى الخندق فوجده عريضاً ممتنعاً ، فحمل أصحابه على أن يعبروه بخيولهم ، وعبّره الرجّالة سباحةً حتى وافوا السور ، فثلموا فيه ثلماً اتّسع لهم منه الدخول فدخلوا ، فلقي أوائلُهم سليمان بن جامع ، وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية لمّا انتهى إليه انهزام المهلبيّ عنها ، فحاربوه ، وكان إمام القوم عشرة من غِلمان الموفق ، فدافعوا سليمان وأصحابَه ؛ وهم خلق كثير ، وكشفوهم مراراً كثيرة ، وحاموا عن سائر أصحابهم حتى رجعوا إلى مواضعهم .

وقال محمد بن حمّاد : لما غلب أصحاب الموفّق على الموضع الذي كان الفاسق حرسه بابنه والمذكورين من أصحابه وقوّاده ، وشعّثوا من السور الذي أفضوْا إليه ما أمكنهم تشعيثُه ، وافاهم الذين كانوا أعِدّوا للهدم بمعاولهم وآلاتهم ، فثلموا في السور عدّة ثلم ، وقد كان الموفّق أعدّ لخندق الفسقة جسراً يُمَدّ عليه ، فمُدّ عليه ، وعبر جمهور الناس . فلما عاين الخَبَثة ذلك ، ارتاعوا فانهزموا عن سور لهم ثان قد كانوا اعتصموا به ، ودخل أصحابُ الموفق مدينة الخائن ، فولّى الفاجرُ وأشياعُه منهزمين ، وأصحابُ الموفق يتبعونهم ويقتلون مَن انتهوا إليه منهم ؛ حتى انتهوا إلى النهر المعروف بابنِ سمعان ، وصارت دار ابن سِمعان في أيدي أصحاب الموفق ، وأحرقوا ما كان فيها وهدموها ، ووقف الفجرة على نهر ابنِ سمعان وقوفاً طويلاً ، ودافعوا مدافعة شديدة ، وشدّ بعض غلمان الموفق على عليّ بن أبان المهلبيّ ، فأدبر عنه هارباً ، فقبض على مئزره ، فخلّى عن المئزر ، ونبذه إلى الغلام ، ونجا بعد أن أشفَى على الهَلَكة ، وحمل أصحاب الموفق على الزَّنج حملةً صادقة ، فكشفوهم عن النهر المعروف بابن سمعان ، حتى وافَوْا بهم طرف ميدان الفاسق ، وانتهى إليه خبرُ هزيمة أصحابه ودخول أصحاب الموفّق مدينته من أقطارها ، فركب في جمع من أصحابه ، فتلقّاه أصحاب الموفق ، وهم يعرفونه في طرف ميدانه ، فحملوا عليه ، فتفرّق عنه أصحابُه ومَن كان معه وأفردوه ، وقَرُب منه بعض الرَجّالة حتى ضرب وجه فرسه بتُرسه ؛ وكان ذلك مع مغيب الشمس ، فأمر الموفّق أصحابه بالرجوع إلى سفنهم ، فرجعوا سالمين ، قد حملوا من رؤوس الخبثاء شيئاً كثيراً ، ونالوا كلّ الذي أحبُّوا منهم من قتل وجراح وتحريق منازل وأسواق ، وقد كان استأمن إلى أبي العباس في أول النهار عدد من قوّاد الفاجر وفرسانه ، فاحتاج إلى التوقف على حملهم في السفن ، وأظلم الليل ، وهبّت ريح شمال عاصف ، وقوِيَ الجزر ، فلصِق أكثر السفن بالطين .

وحرّض الخبيث أشياعَه واستنجدهم ، فبانت منهم جماعة ، وشدّوا على السفن المتخلّفة ، فنالوا منها نَيْلًا ، وقتلوا فيها نفراً ؛ وقد كان بهبوذ بإزاء مسرور البلخيّ وأصحابه في هذا اليوم في نهر الغربيّ ، فأوقع بهم ، وقتل جماعة منهم ، وأسر أسارى ، وصارت في يده دوابّ من دوابهم ، فكسر ذلك نشاط أصحاب الموفّق . وقد كان الخبيثُ أخرجَ في هذا اليوم جميع شَذَواته إلى دِجْلة محاربين فيها رشيقاً ، وضرب منها رشيق على عدّة شَذَوات ، وغرّق منها وحرّق ، وانهزم الباقون إلى نهر أبي الخصيب .

وذُكر أنه نزل في هذا اليوم بالفاسق وأصحابه ما دعاهم إلى التفرّق والهرب على وجوههم نحو نهر الأمير والقَندل وإبرسان وعبّادان وسائر القرى ، وهرب يومئذ أخوا سليمان بن موسى الشعرانيّ : محمد وعيسى ، فمضيا يؤمّان البادية ، حتى انتهى إليهما رجوع أصحاب الموفق ، فرجعا ، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا في عسكر الفاسق ، وصاروا إلى البصرة ، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد ، فآمنهم ، ووجّه إليهم السفن ، فحملهم إلى الموفقيّة ، وأمر أن يخلَع عليهم ، ويوصلوا ، ويجرَى عليهم الأرزاق والأنزال ، ففعل ذلك بهم .

وكان فيمن رغب في الأمان من جلّة قوّاد الفاجر ريحان بن صالح المغربيّ ، وكانت له رياسة وقيادة ، وكان يتولّى حجبة ابن الخبيث المعروف بأنكلاي ، فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه ، فأجيب إلى ذلك ، وأنفِذ إليه عدد كثير من الشذا والسميريّات والمعابر مع زيرك القائد صاحب مقدّمة أبي العباس ، فسلك النهر المعروف باليهوديّ ؛ حتى وافى الموضع المعروف بالمطّوعة ،فألفى به ريحان ومن معه من أصحابه ، وقد كان الموعد تقدم في موافاة ذلك الموضع زيرك ريحان ومن معه ، فوافى بهم دار الموفق ، فأمر لريحان بخلع ، وحمل على عدّة من أفراس بآلتها ، وأجيز بجائزة سنية ، وخلع على أصحابه ، وأجيزوا على أقدارهم ، وضُمّ إلى أبي العباس ، وأمِر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار الخبيث ، فوقفوا هنالك في الشَّذَا ، فعرفوا خروج ريحان وأصحابه في الأمان ، وما صاروا إليه من الإحسان ، فاستأمن في ساعتهم تلك من أصحاب الريحان الذين كانوا تخلّفوا وغيرهم جماعة ، فألحِقوا في البرّ والإحسان بأصحابهم ؛ وكان خروج ريحان بعد الوقعة التي كانت يوم الأربعاء في يوم الأحد لليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وستين ومائتين .

وفي هذه السنة أقبل أحمد بن عبد الله الخُجُستانيّ يريد العراق بزعمه ؛ حتى صار إلى سِمْنان ، وتحصّن منه أهل الرّيّ وحصّنوا مدينتهم ؛ ثم انصرف من سِمْان راجعاً إلى خُراسان .

وفيها انصرف خلقٌ كثير من طريق مكة في البدأة لشدّة الحرّ ، ومضى خلق كثير ، فمات ممن مضى خَلْقٌ كثير من شدّة الحرّ ، وكثير منهم من العطش ، وذلك كله في البدأة ، وأوقعت فزارةُ فيها بالتجار ، فأخذوا - فيما ذكر - منهم سبعمائة حمل بزّ .

وفيها اجتمع بالموسم عامل لأحمد بن طولون في خيله وعامل لعمرو بن الليث في خيله ، فنازع كلّ واحد منهما صاحبَه في ركز علمه على يمين المنبر في مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، وادّعى كلٌّ واحد منهما أنّ الولاية لصاحبه ، وسلاّ السيوف ، فخرج معظم الناس من المسجد ، وأعان موالي هارون بن محمد من الزَّنْج صاحبَ عمرو بن الليث ، فوقف حيث أراد ، وقصر هارون - وكان عامل مكة - الخطبةَ وسلم الناس ، وكان المعروف بأبي المغيرة المخزوميّ حينئذ يحرس في جمِّعة .

وفيها نُفِي الطباع عن سامُرّا .

وفيها ضرب الخُجُستانيّ لنفسه دنانير ودراهم ووزن الدينار منها عشرة دوانيق ، ووزن الدرهم ثمانية دوانيق ، عليه : « المُلْكُ والقدرة لله ، والحوْل والقوّة بالله ؛ لا إله إلّا الله محمد رسول الله » ، وعلى جانب منه : « المعتمد على الله باليمن والسعادة » ، وعلى الجانب الآخر : « الوافي أحمد بن عبد الله » .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشميّ .

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من استئمان جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان إلى أبي أحمد الموفّق في يوم الثلاثاء في غرّة المحرم منها . وذكر أن السبب كان في ذلك الوقعة التي كانت لأبي أحمد في آخر ذي الحجة من سنة سبع وستين ومائتين التي ذكرناها قبلُ ، وهرب ريحان بن صالح المغربيّ من عسكر الفاجر وأصحابه ولحاقه بأبي أحمد ، فنخب قلب الخبيث لذلك ؛ وذلك أنّ السجّان كان - فيما قيل - أحد ثقاته ، فأمر أبو أحمد للسجان هذا بخِلَع وجوائز وصِلات وحُملان وأرزاق ، وأقيمت له أنزال ، وضُمّ إلى أبي العباس ، وأمره بحمله في الشَّذَاة إلى إزاء قصر الفاسق ؛ حتى رآه وأصحابه ، وكلّمهم السّجّان ، وأخبرهم أنهم في غرور من الخبيث ، وأعلمهم ما قد وقف عليه من كذبه وفجوره ؛ فاستأمن في هذا اليوم الذي حُمل فيه السجان من عسكر الخبيث خلقٌ كثير من قُوّاده الزّنج وغيرهم ، وأحسِن إليهم ، وتتابع الناس في طلب الأمان والخروج من عند الخبيث ، ثم أقام أبو أحمد بعد الوقعة التي ذكرتُ أنها كانت لليلة بقيت من ذي الحجة من سنة سبع وستين ومائتين ، لا يعبر إلى الخبيث لحرب ، يُجِمّ بذلك أصحابه إلى شهر ربيع الآخر .

وفي هذه السنة صار عمرو بن الليث إلى فارس لحرب عامله محمد بن الليث عليها ، فهزمه عمرو ، واستباح عسكره ، وأفلت محمد بن الليث في نفر ، ودخل عمرو إصطَخر ، فانتهبها أصحابه ، ووجّه عمرو في طلب محمد بن الليث فظفِر به ، وأتِي به أسيراً ، ثم صار عمرو إلى شيراز فأقام بها .

وفي شهر ربيع الأول منها زُلزلت بغداد لثمانٍ خلوْن منه ، وكان بعد ذلك ثلاثة أيام مطر شديد ، ووقعت بها أربع صواعق .

وفيها زحف العباس بن أحمد بن طولون لحرب أبيهِ ، فخرج إليه أبوه أحمد إلى الإسكندرية ، فظفِرَ به وردّه إلى مصر فرجع معه إليها .

ولأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر منها عبر أبو أحمد الموفق إلى مدينة الفاجر ، بعد أن أوْهَى قوّته في مُقامه بمدينة الموفّقية ، بالتضييق عليه والحصار ، ومنعه وصول المِيَر إليه ؛ حتى استأمن إليـه خلق كثير من أصحابه ؛ فلما أراد العبور إليها أمر - فيما ذكر - ابنه أبا العباس بالقَصْد للموضع الذي كان قصده من ركن مدينة الخبيث الذي يحوطه بابنه وجِلّة أصحابه وقوّاده ، وقصد أبو أحمد موضعاً من السور فيما بين النهر المعروف بمنكى والنهر المعروف بابنِ سِمْعان ، وأمر صاعداً وزيرَه بالقصد لفوّهة النهر المعروف بجري كور ، وتقدّم إلى زِيرك في مكانفته ، وأمر مسروراً البلخيّ بالقَصْد لنهر الغربيّ ، وضمّ إلى كلّ واحد منهم من الفَعَلَة جماعة لهدم

ما يليهم من السُّور ، وتقدّم إلى جميعهم ألاّ يزيدوا على هدم السور ، وألا يدخلوا مدينة الخبيث . ووكّل بكلّ ناحية من النواحي التي وجه إليها القوّاد شَذَوات فيها الرّماة ، وأمرهم أن يحموا بالسهام مَنْ يهدم السور من الفَعَلة والرجّالة الذين يخرجون للمدافعة عنهم ، فثُلم في السور ثلم كثيرة ، ودخل أصحابُ أبي أحمد مدينة الفاجر من جميع تلك الثُّلَم ، وجاء أصحاب الخبيث يحاربونهم ، فهزمهم أصحابُ أبي أحمد ، وأتبعوهم حتى وغلوا في طلبهم ، واختلفت بهم طرق المدينة ، وفرّقت بينهم السكك والفِجاج ، فانتهوْا إلى أبعد من الموضع الذي كانوا وصلوا إليه في المرّة التي قبلها ، وحرّقوا وقتّلوا .

ثم تراجع أصحاب الخبيث ، فشدّوا على أصحاب أبي أحمد ، وخرج كمناؤهم من نواحٍ يهتدون لها ولا يعرفها الآخرون ، فتحيّر مَنْ كان داخل المدينة من أصحاب أبي أحمد ، ودافعوا عن أنفسهم ، وتراجعوا نحو دِجْلة حتى وافاها أكثرُهم ؛ فمنهم مَنْ دخل السفينة ، ومنهم مَنْ قذف نفسَه في الماء ، فأخذه أصحاب الشَّذَا ، ومنهم مَنْ قتِل . وأصاب أصحاب الخبيث أسلحةً وأسلاباً ، وثبت جماعة من غلمان أبي أحمد بحضرة دار ابن سمعان ، ومعهم راشد وموسى ابن أخت مفلِح ، في جماعة من قُوّاد الغلمان كانوا آخر مَنْ ثبت من الناس ، ثم أحاطَ بهم الزَّنج وكثَرُوهم ، وحالوا بينهم وبين الشَّذَا ، فدافعوا عن أنفسهم وأصحابهم ، حتى وصلوا إلى الشَّذَا فركبوها . وأقام نحو من ثلاثين غلاماً من الديالمة في وجوه الزَّنْج وغيرهم ، يحمون الناس ، ويدفعون عنهم حتى سلِموا ، وقتِل الثلاثون من الدّيالمة عن آخرهم ، بعدما نالوا من الفُجّار ما أحبوا ، وعظم على الناس ما نالهم في هذه الوَقْعة ، وانصرف أبو أحمد بمَنْ معه إلى مدينة الموفقيّة ، وأمر بجمعهم وعَذْلِهم على ما كان منهم من مخالفة أمره ، والافتيات عليه في رأيه وتدبيره ، وتوعدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لخلاف أمره بعد ذلك ، وأمر بإحصاء المفقودين مِن أصحابه فأحْصُوا له ، فأتِيَ بأسمائهم ، وأقرَّ ما كان جارياً لهم على أولادهم وأهاليهم ، فحسُن موقع ذلك منهم ، وزاد في صحة نياتهم لِمَا رأوْا من حياطته خلْف مَنْ أصيب في طاعته .

وفيها كانت لأبي العباس وقعةٌ بقوم من الأعراب الذين كانوا يميرون الفاسق اجتاحهم فيها .

ذكر الخبر عن السبب الذي كانت من أجله هذه الوقعة :

ذُكر أنّ الفاسق لما خرّب البصرة ولاّها رجلاً من قدماء أصحابه يقال له أحمد بن موسى بن سعيد المعروف بالقَلُوص ؛ فكان يتولَّى أمرها ، وصارت فرصة للفاسق يَردها الأعراب والتّجار ، ويأتونها بالميَر وأنواع التجارات ، ويُحمل ما يردها إلى عسكر الخبيث ، حتى فتح أبو أحمد طهِيثا ، وأسر القَلوص . فولّى الخبيثُ ابنَ أخت القَلوِص ـ يقال له مالك بن بِشران ـ البَصْرة وما يليها . فلمّا نزل أبو أحمد فرات البَصْرة خاف الفاجر إيقاع أبي أحمد بمالك هذا ، وهو يومئذ نازل بسَيْحان على نهر يعرف بنهر ابن عتبة . فكتب إلى مالك يأمره بنقل عسكره إلى النهر المعروف بالديناريّ ، وأن ينفذ جماعة ممّن معه لصيد السمك وإدرار حمله إلى عسكره ، وأن يوجّه قوماً إلى الطريق التي يأتي منها الأعراب من البادية ، ليعرف ورود مَن يرد منهم بالمِيَر ، فإذا وردت رُفقة من الأعراب خرج إليها بأصحابه ، حتى يحمل ما تأتي به إلى الخبيث ؛ ففعل ذلك مالك ابن أخت القَلوص ، ووجّه إلى البَطيحة رجلين من أهل قرية بسمى ، يعرف أحدهما بالرَّيان والآخر الخليل ، كانا مقيمين بعسكر الخبيث ، فنهض الخليل والرّيان وجمعا جماعةً من أهل الطّفّ ، وأتيا قرية بسمى ، فأقاما بها يحملان السمك من البَطيحة أوّلاً أوّلاً إلى عسكر الخبيث في الزواريق الصغار التي تسلك بها الأنهار الضيّقة والأرخنجان التي لا

تسلكها الشَّذَا والسُّميريّات ؛ فكانت موادّ سمك البَطيحة متّصلة إلى عسكر الخبيث بمقام هذين الرجلين بحيث ذكرنا ، واتّصلت أيضاً مِيَر الأعراب وما كانوا يأتون به من البادية . فاتّسع أهلُ عسكره ، ودام ذلك إلى أن استأمن إلى الموفّق رجلٌ من أصحاب الفاجر الذي كانوا مضمومين إلى القَلوص ، يقال له عليّ بن عمر ، ويعرف بالنقّاب ، فأخبر بخبر مالك بن بِشْران ومقامه بالنهر المعروف بالدِّيناريّ ، وما يصل إلى عسكر الخبيث بمقامه هناك من سَمك البطيحة وجلْب الأعراب . فوجَّه الموفق زِيرك مولاه في الشَّذَا والسُّميريّات إلى الموضع الذي به ابن أخت القَلوص ، فأوقع به وبأهل عسكره ، فقتل منهم فريقاً وأسر فريقاً ، وتفرَّق أهلُ ذلك العسكر ، وانصرف مالك إلى الخبيث مفلولاً ، فردَّه الخبيث في جمع إلى مؤخّر النهر المعروف باليهوديّ ؛ فعسكر هنالك بموضع قريب من النهر المعروف بالفيّاض ، فكانت المِيَر تتّصِل بعسكر الخبيث مِمّا يَلِي سَبَخة الفيّاض . فانتهى خبر مالك ومقامه بمؤخّر نهر اليهودي ووقعُ المِيَر من تلك الناحية إلى عسكر الفاجر إلى الموفّق ، فأمر ابنه أبا العباس بالمصير إلى نهر الأمير ، والنهر المعروف بالفيّاض لتعرّف حقيقة ما انتهى إليه من ذلك ؛ فنفذ الجيش ، فوافق جماعةً من الأعراب يرأسهم رجلٌ قد أورد من البادية إبلاً وغنماً وطعاماً ، فأوقع بهم أبو العباس ، فقتل منهم جماعةً وأسر الباقين ، ولم يُفلت من القوم إلا رئيسهم ؛ فإنه سبق على حِجْر كانت تحته ، فأمعن هرباً ، وأخذ كلَّ ما كان أولئك الأعراب أتوْا به من الإبل والغنم والطعام ، وقطع أبو العباس يدَ أحد الأسرى وأطلقه ، فصار إلى معسكر الخبيث ، فأخبرهم بما نزل به ، فرِيعَ مالك ابن أخت القَلوص بما كان من إيقاع أبي العباس بهؤلاء الأعراب . فاستأمن إلى أبي أحمد ، فأومن وحُبي وكُسيَ وضُمّ إلى أبي العباس وأجرِيت له الأرزاق ، وأقيمت له الأنزال . وأقام الخبيث مقام مالك رجلاً كان من أصحاب القَلوص ، ويقال له أحمد بن الجنيد، وأمره أن يعسكر بالموضع المعروف بالدهرشير ومؤخّر نهر أبي الخصيب ، وأن يصير في أصحابه إلى ما يقبل من سمك البَطِيحة ، فيحمله إلى عسكر الخبيث ، وتأدّى إلى أبي أحمد خبر أحمد بن الجنيد ، فوجّه قائداً من قوّاد الموالي يقال له الترمدان في جيش ، فعسكر بالجزيرة المعروفة بالرّوحية ، فانقطع ما كان يأتي إلى عسكر الخبيث من سَمك البَطِيحة ، ووجّه الموفق شهاب بن العلاء ومحمد بن الحسن العنبريّين في خيل لمنع الأعراب من حمل المِير إلى عسكر الخبيث ، وأمر بإطلاق السوق لهم بالبصرة ، وحمل ما يريدون امتيارَه من التمر ؛ إذ كان ذلك سبب مصيرهم إلى عسكر الخبيث ، فتقدّم شهاب ومحمد لما أمرا به ، فأقاما بالموضع المعروف بقصر عيسى ؛ فكان الأعراب يوردون إليهما ما يجلبونَه من البادية ، ويمتارون التمر ممّا قِبَلهما .

ثم صرف أبو أحمد الترمدان عن البصرة ، ووجّه مكانه قائداً من قُوّاد الفراغنة ، يقال له قيصر بن أرْخُوز إخشاذ فَرْغانة ، ووجّه نصيراً المعروف بأبي حمزة في الشَّذا والسُّميريات ، وأمره بالمقام بفيض البصرة ونهر دُبَيْس وأن يخترق نهر الأبُلّة ونهر معقل ونهر غربيّ، ففعل ذلك .

قال محمد بن الحسن : وحدّثني محمد بن حماد ، قال : لما انقطعت المِير عن الخبيث وأشياعه بمقام نصير وقيصر بالبصرة ، ومنعهم المِيرة من البَطيحة والبحر بالشَّذا ، صرفوا الحيلة إلى سلوك نهر الأمير إلى القَنْدل ، ثم سلوك المسيحيّ إلى الطرق المؤدية إلى البرّ والبحر ؛ فكانت مِيَرهُم من البرّ والبحر ، وامتيارهم سمك البحر من هذه الجهة ، فانتهى ذلك إلى الموفّق ، فأمر رشيقاً غلام أبي العباس باتّخاذ عسكر بجَوِّيث بارويه في الجانب الشرقي من دِجْلة بإزاء نهر الأمير ، وأن يحفر له خندقاً حصيناً ، وأمَر أبا العباس أن يضمّ إلى رشيق من خيار أصحابه خمسة آلاف رجل وثلاثين شَذاة ، وتقدّم إلى رشيق في ترتيب هذه الشَّذَا على فُوّهة نهر الأمير ، وأن

يجعل على كلّ خمس عشرة شَذَاة منها نوبة يلج فيها نهرَ الأمير ، حتى ينتهيَ إلى المعترض الذي كان الزَّنج يسلكونه إلى دُبًّا والقَنْدل والنهر المعروف بالمسيحيّ ؛ فيكون هناك ؛ فإن طلع عليهم من الخُبَثاء طالع أوقعوا به ؛ فإذا انقضت نَوْبتهم انصرفوا وعاقبهم أصحابهم المقيمون على فُوّهة النهر ففعلوا مثل هذا الفعل ، فعسكر رشيق في الموضع الذي أمِر بترتيبه به ، فانقطعت طرق الفَجَرَة التي كانوا يسلكونها إلى دُبًّا والقَنْدل والمسيحيّ ؛ فلم يكن لهم سبيل إلى برّ ولا بحر ، فضاقت عليهم المذاهب ، واشتدّ عليهم الحصار .

وفيها أوقع أخو شركب بالخُجُستانيّ وأخذ أمّه .

وفيها وثب ابن شَبَث بن الحسن ، فأخذ عمر بن سيما والي حلوان .

وفيها انصرف أحمد بن أبي الأصبغ من عند عمرو بن الليث ، وكان عمرو قد وجّهه إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف ، فقدم معه بمال ، فوجّه عمرو ممّا صودر عليه ثلاثمائةألف دينار ونيّفاً وهدية فيها خمسون منًّا مسكاً وخمسون منًّا عنبراً ، ومائتا منٍّ عوداً ، وثلاثمائة ثوب وشي وغيره ، وآنية ذهب وفضة ودواب وغلمان بقيمة مائتي ألف دينار ؛ فكان ما حمل وأهدي بقيمة خمسمائة ألف دينار .

وفيها ولّى كَيْغَلغ الخليل بن ريمال حُلوان ، فنالهم بالمكاره بسبب عمر بن سيما وأخذهم بجريرة ابن شَبَث ، فضمِنوا له خَلاَص ابن سيما وإصلاح أمر ابن شَبَث .

وفيها أوقع رشيق غلام أبي العباس بن الموفّق بقوم من بني تميم ، كانوا أعانوا الزّنج على دخول البصرة وإحراقها ، وكان السبب في ذلك أنه كان انتهى إليه أنّ قوماً من هؤلاء الأعراب قد جلبوا ميرة من البرّ إلى مدينة الخبيث ؛ طعاماً وإبلًا وغنماً ، وأنهم في مؤخّر نهر الأمير ينتظرون سفناً تأتيهم من مؤخّر عسكر الفاجر تحملهم وما معهم . فسرَى إليهم رشيق في الشَّذَا ، فوافى الموضع الذي كانوا حلّوا به ، وهو النهرُ المعروف بالإسحاقيّ ، فأوقع بهم وهم غارّون ، فقُتِل أكثرُهُم وأسِر جماعة منهم وهم تجار كانوا خرجوا من عسكر الخبيث لجلْب المِيرة ، وحوى ما كان معهم من أصناف المِير والشاء والإبل والحمير التي كانوا حملوا عليها الميرة . فحمل الأسرى والرؤوس في الشَّذَا وفي سفن كانت معه إلى الموفقيّة ، فأمر الموفق فعلّقت الرؤوس في الشَّذَا ، وصُلِب الأسارى هنالك ؛ وأظهر ما صار إلى رشيق وأصحابه ، وطِيف بذلك في أقطار العسْكر ، ثم أمر بالرؤوس والأسارى ، فاجتيز بهم على عسكر الخبيث حتى عرفوا ما كان من رشيق من الإيقاع بجالبي المِيَر إليهم ، ففعل ذلك . وكان فيمن ظفِر به رشيق رجل من الأعراب ، كان يُسفِر بين صاحب الزَّنْج والأعراب في جلب المِيرة ، فأمر به الموفّق فقُطعت يدُه ورجله ، وألقي في عسكر الخبيث . ثم أمر بضرب أعناق الأساري فضرِبت ، وسوّغ أصحاب رشيق ما أصابوا من أموالهم ، وأمر لرشيق بخلع وصِلة ، وردّه إلى عسكره ، فكثر المستأمنون إلى رشيق . فأمر أبو أحمد بضمّ مَنْ خرج منهم إلى رشيق إليه ، فكثُروا حتى كان كأكثر العساكر جمعاً ، وانقطعت عن الخبيث وأصحابه المِيَر من الوجوه كلّها ، وانسدّ عليهم كلُّ مسلك كان لهم ، فأضرَّ بهم الحِصار ، وأضعف أبدانهم ؛ فكان الأسير منهم يُؤسر ؛ والمستأمِن يُستأمَن ، فيسأَلُ عن عهده بالخبز ، فيعجب من ذلك ، ويذكر أنّ عهده بالخبز مذ سنة وسنتين . فلما صار أصحاب الخائن إلى هذه الحال ، رأى الموفّق أن يتابع الإيقاع بهم ، ليزيدهم بذلك ضُرًّا وجهداً ، فخرج إلى أبي أحمد في هذا الوقت في الأمان خلْق كثير ، واحتاج مَنْ كان مقيماً في حيّز الفاسق إلى الحيلة لقوّته ، فتفرّقوا في القُرى والأنهار النائية عن معسكرهم في

طلب القوت ، فتأدّى الخبر بذلك إلى أبي أحمد ، فأمر جماعةً من قوّاد غلمانه السودان وعُرفائهم بأن يقصدوا المواضع التي يعتادها الزَّنْج ، وأن يستميلوهم ويستدعوا طاعَتَهم ؛ فمَنْ أبَى الدّخولَ منهم في ذلك قتلوه وحملوا رأسه ، وجعل لهم جُعْلاً ؛ فحرصوا وواظبوا على الغدوّ والرواح ؛ فكانوا لا يخلون في يوم من الأيام من جماعة يجلبونهم ، ورؤوس يأتون بها، وأسارى يأسرونهم .

قال محمد بن الحسن : قال محمد بن حمّاد : ولمّا كثر أسارى الزَّنج عند الموفّق ، أمر باعتراضهم ؛ فمَنْ كان منهم ذا قوّة وجَلَد ونهوض بالسلاح منّ عليه ، وأحسن إليه ، وخلطه بغلمانه السودان ، وعرّفهم ما لهم عنده من البرّ والإحسان ، ومَن كان منهم ضعيفاً لا حَراك به ، أو شيخاً فانياً لا يُطيق حمل السلاح ، أو مجروحاً جراحة قد أزْمَنَتْه ، أمر بأن يُكْسى ثَوبين ، ويوصَل بدراهم ، ويزوّد ويحمل إلى عسكر الخبيث ؛ فيلقى هناك بعدما يؤمر بوصف ما عاين من إحسان الموفّق إلى كلّ مَنْ يصير إليه ، وأنّ ذلك رأيه في جميع مَنْ يأتيه مستأمِناً ويأسره منهم ؛ فتهيّأ له من ذلك ما أراد من استمالة أصحاب صاحب الزَّنْج ؛ حتى استشعروا الميل إلى ناحيته والدخول في سِلْمه وطاعته ؛ وجعل الموفّق وابنه أبو العباس يغاديان حرب الخبيث ومَنْ معه ، ويراوحانها بأنفسهما ومَنْ معهما، فيقتلان ويأسران ويجرحان ، وأصاب أبا العباس في بعض تلك الوقعات سهم جرحه فبرأ منه .

ذكر الخبر عن قتل بهبوذ بن عبد الوهاب

وفي رجب من هذه السنة قتِل بهبوذ صاحب الخبيث .

ذكر الخبر عن سبب مقتله :

ذُكر أن أكثر أصحاب الفاسق غارات ، وأرشدهم تعرّضاً لقطع السبيل وأخذ الأموال ، كان بهبوذ بن عبد الوهاب ، وكان قد جمع من ذلك مالاً جليلاً ، وكان كثير الخروج في السميريّات الخِفاف ، فيخترق الأنهار المؤدّية إلى دِجْلة ، فإذا صادف سفينةً لأصحاب الموفّق أخذها فأدخلها النهر الذي خرج منه ، فإن تبعه تابع حتى توغّل في طلبه خرج عليه من النّهر قوم من أصحابه قد أعدَّهم لذلك ، فاقتطعوه وأوقَعوا به ؛ فلما كثر ذلك وتُحُرِّزَ منه ركب شذاةً ، وشبّهها بشذوات الموفّق ، ونصب عليها مثل أعلامه ، وسار بها في دِجْلة ، فإذا ظفر بِغِرّة من أهل العسكر أوْقع بهم ، فقتَل وأسر ، ويتجاوز إلى نهر الأبُلّة ونهر مَعْقِل وبَثْق شيرين ونهر الدير فيقطع السبل ، ويعبث في أموال السابلة ودمائهم ؛ فرأى الموفّق عندما انتهى إليه من أفعال بَهْبوذ أن يَسكر جميع الأنْهار التي يخفّ سَكْرُها ، ويرتّبَ الشذاة على فُوْهة الأنهار العظام ؛ ليأمن عبث بهبوذ وأشياعه ، ويأمن سُبَل الناس ومسالكهم . فلمّا حُرست هذه المسالك ، وسُكر ما أمكن سكرُه من الأنهار ، وحِيل بين بهبوذ وبين ما كان يفعل ؛ أقام منتهزاً فرْصة في غفلة أصحاب الشَّذا الموكلين بفوّهة نهر الأبُلّة ؛ حتى إذا وجد ذلك اجتاز من مؤخر نهر أبي الخصيب في شَذوات مثل أصحاب الموفق وسُميريّاتهم ، ونصب عليها مثل أعلامهم ، وشحنها بجُلد أصحابه وأنجادهم وشجعانهم ، واعترض بها في معتَرَض يؤدّي إلى النهر المعروف باليهوديّ ، ثم سلك نهر نافذ حتى خرج منه إلى نهر الأبُلّة ، وانتهى إلى الشَّذَوات والسميريّات المرتبة لحفظ النهر ، وأهلها غارُّون غافلون ، فأوقع بهم ، وقتل جَمْعاً ، وأسر أسرى ، وأخذ ستّ شَذَوات ، وكرّ راجعاً في نهر الأبُلّة ، وانتهى

الخبر بما كان من بَهْبوذ إلى الموفق ، فأمر أبا العباس بمعارضته في الشَّذَا من النَّهر المعروف باليهوديّ ، ورجا أن يسبقه إلى المعتَرَض فيقطعه عن الطريق المؤدّي إلى مأمنه .

فوافق أبو العباس الموضع المعروف بالمطوّعة ، وقد سبق بهبوذ ، فَوَلَج النهر المعروف بالسعيديّ ؛ وهو نهر يؤدّي إلى نهر أبي الخصيب . وبصر أبو العباس بشَذَوات بهبوذ ، وطمِع في إدراكها ، فجدّ في طلبها ، فأدركها ونشبت الحرب ، فقتل أبو العباس من أصحاب بَهْبوذ جَمْعاً ، وأسر جمعاً ، واستأمن إليه فريق منهم ، وتلقى بهبوذَ من أشياعه خلق كثير ، فعاونوه ودافعوا عنه دفعاً شديداً ، وقد كان الماء جَزَر ، فجرتْ شذواتُه في الطين في المواضع التي نَضَبَ الماء عنها من تلك الأنهار والمعترضات ، فأفلت بهبوذ والباقون من أصحابه بجُريعة الذَّقَن .

وأقام الموفق على حصار الخبيث ومَنْ معه ، وسدّ المسالك التي كانت المِيَر تأتيهم منها ، وكثر المستأمنون منهم ، فأمر الموفّق لهم بالخِلَع والجوائز ، وحملوا على الخيل الجياد بسروجها ولجمها وآلتها ، وأجريت لهم الأرزاق ، وانتهى الخبر إلى الموفق بعد ذلك أن الضرّ والبؤس قد أحوج جماعةً من أصحاب الخبيث إلى التفرّق في القرى لطلب القوت من السمك والتمر ، فأمر ابنَه أبا العباس بالمصير إلى تلك القرى والنواحي والإسراع إليها في الشَذَا والسميريّات ، وما خفّ من الزواريق وأن يستصحب جُلْد أصحابه وشجعانهم وأبطالهم ليحولَ بين هؤلاء الرّجال والرجوع إلى مدينة صاحب الزَّنج ؛ فتوجّه أبو العباس لذلك ، وعلم الخبيث بمسير أبي العباس له ، فأمر بهبوذ أن يسير في أصحابه في المعترَضات والأنهار الغامضة ليخفي خبره ، إلى أن يوافي القَنْدل وأبراسان ونواحيها ، فنهض بهبوذ لما أمره به الخبيث من ذلك فاعترضت له في طريقه سُميرية من سُميريات أبي العباس ، فيها غلمان من غلمانه الناشبة في جماعة الزَّنْج ، فقصد بهبوذ لهذه السميريّة طامعاً فيها ، فحاربه أهلُها ، فأصابته طعنة في بطنه من يد غلام من مقاتلة السميريّة أسود ، فهوى إلى الماء ، فابتدره أصحابُه ، فحملوه ، وولّوْا منهزمين إلى عسكر الخبيث ، فلم يصلوا به إليه ؛ حتى أراح الله منه ؛ فعظُمت الفجيعة به على الفاسق وأوليائِه ، واشتدّ عليه جزعُهم ، وكان قتلُه الخبيثَ من أعظم الفتوح ، وخفيَ هلاكُه على أبي أحمد ؛ حتى استأمن رجلٌ من الملاحين ، فأنهى إليه الخبَر ، فسُرَّ بذلك ، وأمر بإحضار الغلام الذي وَلِيَ قَتْلَه ، فأحضر ، فوصله وكساه وطوّقه ، وزاد في أرزاقه ، وأمر لجميع مَنْ كان في تلك السميريّة بجوائز وخلع وصلات .

وفي هذه السنة كان أول شهر رمضان منها يوم الأحد ، وكان الأحد الثاني من السَّعانين وفي الأحد الثالث الفِصْح ، وفي الأحد الرابع النيروز ، وفي الأحد الخامس انسلاخ الشهر .

وفيها ظفر أبو أحمد بالذوائبيّ ، وكان ممايلاً لصاحب الزَّنج .

وفيها كانت وقعة بين يدكوتكين بن إساتكين وأحمد بن عبد العزيز ، فهزمه يدكوتكين وغلبه على قُمّ .

وفيها وجّه عمرو بن الليث قائداً بأمر أبي أحمد إلى محمد بن عبيد الله بن أزار مرد الكرديّ ، فأسره القائد وحَمَله إليه .

وفي ذي القعدة منها خرج رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشميّ بالشام يقال له بكّار بين سَلَمية

وحلب وحِمْص ؛ فدعا لأبي أحمد ، فحاربه ابنُ عباس الكلابيّ ، فانهزم الكلابيّ ، ووجّه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائداً يقال له بودن في عسكر وجيش كثيف ، فرجع وليس معه كثير أحد .

وفيها أظهر لؤلؤ الخلاف على ابن طولون .

وفيها قتَل صاحب الزنج ابنَ ملك الزّنج ، وكان بلغه أنه يريد اللحاق بأبي أحمد .

وفيها قتِل أحمد بن عبد الله الخُجُسْتانيّ ، قتله غلام له في ذي الحجة .

وفيها قتَل أصحاب ابن أبي الساج محمدَ بن عليّ بن حبيب اليشكريَّ بالقرية ناحيَة واسط ، وَنُصِب رأسُه ببغداد .

وفيها حارب محمد بن كُمْشجور عليّ بن الحسين كفْتمر ، فأسر ابنُ كُمُشْجُور كفتمر ثم أطلقه ، وذلك في ذي الحجة .

وفيها أسِر العلَويُّ الذي يعرف بالحَرُون ، وذلك أنه اعترض الخريطة التي يوجَّه بها بخبر الموسم فأخذها ، فوجَّه خليفة ابن أبي الساج على طريق مكة مَنْ أخذ الحرُون ، ووجَّهَهُ إلى الموفّق .

وفيها كان مصير أبي المغيرة المخزوميّ إلى مكة ، وعاملها هارون بن محمد بن إسحاق الهاشميّ ، فجمع هارون جمعاً نحواً من ألفين ، فامتنع بهم منه فصار المخزوميّ إلى عين مُشَاش فعوّرها ، وإلى جُدَّة ، فنهب الطعام ، وحرّق بيوت أهلها ، فصار الخبز بمكة أوقيّتان بدرهم .

وفيها خرج ابن الصّقْلبيّة طاغية الرّوم ، فأناخ على مَلَطْيَة ، وأعانهم أهل مَرْعش والحدَث ، فانهزم الطاغية ، وتبعوه إلى السريع .

وغزا الصائفة من ناحية الثغور الشأمية خلف الفرغانيّ عامل ابن طولون ، فقتل من الرّوم بضعة عشر ألفاً ، وغنم الناس ، فبلغ السهم أربعين ديناراً .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق الهاشميّ ، وابن أبي الساج على الأحداث والطريق .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائتين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من إدخال العَلَويّ المعروف بالحَرُون عسكر أبي أحمد في المحرّم على جمل ، وعليه قَبَاء ديباج وقلنسوة طويلة ، ثم حُمل في شذاة ، ومُضِيَ به حتى وُقِف به حيث يراه صاحب الزنج ، ويسمع كلام الرسل .

وفي المحرّم منها قطع الأعراب على قافلة من الحاجّ بين تُوز وسَمِيراء ، فسلبوهم واستاقوا نحواً من خمسة آلاف بعير بأحْمالها وأناساً كثيرين .

وفي المحرّم منها في ليلة أربع عشرة انخسف القمر وغاب منخسفاً ، وانكسفت الشمس يوم الجمعة لليلتين بقِيَتا من المحرّم وقت المغيب ، وغابت منكسفة ، فاجتمع في المحرّم كسوف الشمس والقمر .

وفي صفر منها كان ببغداد وثوب العامّة بإبراهيم الخليجيّ ، فانتهبوا دارَه؛ وكان السبب في ذلك أنّ غلاماً له رمى امرأة بسهم فقتلها ، فاستعدَى السلطان عليه ؛ فبعث إليه في إخراج الغلام ، فامتنع ورمى غلمانه الناس ، فقتلوا جماعة وجرحوا جماعة ؛ فمنعهم من أعوان السلطان رجلان ، فهرب وأخِذ غلمانه ، ونُهِب منزلُه ودوابّه ، فجمع محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر - وكان على الجسر من قِبَل أبيهِ - دوابَّ إبراهيم ، وما قدر عليه مما نُهب له ، وأمر عبيدُ الله بتسليم ذلك إليه ، وأشهد عليه بردّه عليه .

وفيها وجه ابن أبي الساج بعدما صار إلى الطائف منصرفاً من مكة إلى جُدّة جيشاً ، فأخذوا للمخزوميّ مركبين فيهما مالٌ وسلاح .

وفيها أخذ روميّ بن حَسنج ثلاثة نفر من قُوّاد الفراغنة ، يقال لأحدهم صديق ، والآخر طخشي ، وللثالث طُغَان ، فقيَّدهم ، وجرح صديق جراحات وأفلت .

وفيها كان وثوب خَلَف صاحب أحمد بن طولون في شهر ربيع الأول منها بالثغور الشأمية؛ وهو عامله عليها ؛ بيازمان الخادم مولى الفتح بن خاقان فحبسه ، فوثبت جماعة من أهل الثّغر بخلَف ، وتخلّصوا يازمان ، وهرب خلف ، وتركوا الدّعاء لابن طولون ، ولعنوه على المنابر ؛ فبلغ ذلك ابنَ طولون ، فخرج من مصر ، حتى صار إلى دمشق ، ثم صار إلى الثغور الشاميّة ، فنزل أذَنَة ، وسدّ يازمان وأهلُ طَرَسُوس أبوابَها ، خلا بابَ الجهاد وباب البحر ، وبَثَقُوا الماء ، فجرى إلى قرب أذَنة وما حولها ، فتحصّنوا بها ، فأقام ابن طولون بأذَنة ، ثم انصرف فرجع إلى أنطاكيَة ، ثم مضى إلى حِمْص ، ثم إلى دمشق فأقام بها .

وفيها خالفَ لؤلؤ غلام ابن طولون مولاه ؛ وفي يده حين خالفه حِمْص وحلب وقِنّسرين وديار مُضر ، وسار لؤلؤ إلى بالس فنهبها ، وأسر سعيداً وأخاه ابني العباس الكلابيّ . ثم كاتب لؤلؤ أبا أحمد في المصير إليه ومفارقة ابن طولون ، ويشترط لنفسه شروطاً ، فأجابه أبو أحمد إلى ما سأله ؛ وكان مقيماً بالرَّقّة ، فشخص عنها ، وحمل جماعة من أهل الرّافقة وغيرهم معه ، وصار إلى قرقيسيا ، وبها ابن صفوان العُقَيليّ ، فحاربه فأخذ لؤلؤ قرْقِيسيا ، وسلّمها إلى أحمد بن مالك بن طوْق ، وهرب ابن صفوان ، وأقبل لؤلؤ يريد بغداد .

وفيها رُمِيَ أبو أحمد الموفّق بسهم ـ رماه غلام روميّ ، يقال له قرطاس ـ للخبيث بعدما دخل أبو أحمد مدينَتَه التي كان بناها لهدم سورها ، وكان السبب في ذلك ـ فيما ذُكر ـ أن الخبيث بهبوذ لمّا هلك ، طمع الزَّنْج فيما كان بهبوذ قد جمع من الكنوز والأموال ، وكان قد صحّ عنده أن ملكه قد حوى مائتي ألف دينار وجوهراً وذهباً وفضّة لها قدر ، فطلب ذلك بكلّ حيلة ، وحَرَص عليه ، وحبس أولياءه وقرابته وأصحابه ، وضربهم بالسّياط ، وأثار دوراً من دُوره ، وهدم أبنيةً من أبنيته ؛ طمعاً في أن يجد في شيء منها دفيناً ، فلم يجد من ذلك شيئاً ؛ وكان فعله الذي فعله بأولياء بهبوذ في طلب المال أحد ما أفسد قلوب أصحابه ، ودعاهم إلى الهَرَب منه والزّهد في صحبته ، فأمر المَوَفق بالنداء في أصحاب بهبوذ بالأمان ، فنُودي بذلك ، فسارعوا إليه راغبين فيه ، فألحِقوا في الصِّلات والجوائز والخَلَع والأرزاق بنظرائهم . ورأى أبو أحمد لما كان يتعذّر عليه من العُبور إلى عسكر الفاجر في الأوقات التي تهبّ فيها الرياح وتحرّك فيها الأمواج في دِجْلة أن يوسع لنفسه وأصحابه موضعاً في الجانب الغربيّ من دِجْلة ليعسكر به فيما بين ديْر جابيل ونهر المغيرة ، وأمر بقطع النخل وإصلاح موضع الخندق ، وأن يُحفّ بالخنادق ، ويحصَّن بالسور ليأمن بيات الفجّار واغتيالهم إياه ، وجعل على قُوّاده نوائب ؛ فكان لكلّ واحد منهم نوْبة يغدو إليها برجاله ، ومعه العمال في كلّ يوم لإحكام أمر العسكر الذي عزم على اتّخاذه هنالك ، فقابَل الفاسق ذلك بأن جعل علَى عليّ بن أبان المهلّبيّ وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدْانيّ نُوباً ، فكان لكلّ واحد منهم يوم ينوب فيه .

وكان ابنُ الخبيث المعروف بأنكلاي يحضرُ في كلّ يوم نوبة سليمان، وربما حضر في نوبة إبراهيم . ثم أقامه الخبيث مقام إبراهيم بن جعفر ، وكان سليمان بن جامع يحضُر معه في نوبته ، وضمّ إليه الخبيث سليمان بن موسى الشعرانيَّ وأخويه ، وكانوا يحضُرُون بحضوره ، ويغيبون بغيبته . وعلم الخبيثُ أن الموفّق إذا جاوره في محاربته ، وقرب على مَن يريد اللحاق به المسافةُ فيما يحاول من الهرب إليه ، مع ما يدخل قلوبَ أصحابه من الرهبة بتقارب العسكرين أنّ في ذلك انتقاضَ تدبيره ، وفسادَ جميع أموره ؛ فأمر أصحابَه بمحاربة من يعبر من القوّاد في كلّ يوم ، ومنعهم من إصلاح ما يحاولون إصلاحَه من أمر عسكرهم الذين يريدون الانتقال إليه ، وعصفت الرياح في بعض تلك الأيام وبعض قوّاد الموفّق في الجانب الغربيّ لِمَا كان يعبر له . فانتهز الفاسق الفرصةَ في انفراد هذا القائد وانقطاعه عن أصحابه ، وامتناع دِجْلة بعصوف الريح من أن يرام عُبُورها ، فرمى القائد المقيم في غربي دِجْلة بجميع جيشه ، وكاثره برجاله ، ولم تجد الشَّذَوات التي كانت تكون مع القائد الموجّه سبيلاً إلى الوقوف بحيث كانت تقف لحمل الرياح إياها على الحجارة ، وما خاف أصحابها عليها من التكسّر ، فقويَ الزَّنْج على ذلك القائد وأصحابه ، فأزالوهم من موضعهم، وأدركوا طائفةً منهم، فثبتوا فقُتِلوا عن آخرهم ؛ ولجأت طائفةٌ إلى الماء، فتبعهم الزَّنْج، فأسروا منهم أسارى، وقتلوا منهم نفراً ، وأفلت أكثرُهم ، وأدركوا سفنَهم ، فألقوا أنفسهم فيها ، وعَبَروا إلى المدينة الموفقيّة ، فاشتدّ جزع الناس لما تهيّأ

للفسقة، وعَظُم بذلك اهتمامُهم . وتأمّل أبو أحمد فيما كان دبّر من النزول في الجانب الغربيّ من دِجْلة انه أكدى، وما لا يؤمن من حيلة الفاسق وأصحابه في انتهاز فرصة، فيوقع بالعسكر بياتاً، أو يجد مساغاً إلى شيء مما يكون له فيه متنفَّس ؛ لكثرة الأدغال في ذلك الموضع وصعوبة المسالك، وأنّ الزّنج على التوغّل إلى المواضع الوحشة أقدرُ ، وهو عليهم أسهل من أصحابه .

فانصرف عن رأيه في نزول غربيّ دِجْلة ، وجعل قصده لهدم سور الفاسق وتوسّعه الطرق والمسالك منها لأصحابه، فأمر عند ذلك أن يبدأ بهدْم السور مما يلي النهر المعروف بمنكى ؛ فكان تدبير الخبيث في ذلك توجيه ابنه المعروف بأنكلاي وعليّ بن أبان وسليمان بن جامع للمنع من ذلك ؛ كلّ واحد منهم في نَوْبته في ذلك اليوم ، فإذا كثر عليهم أصحابُ الموفق اجتمعوا جميعاً لمدافعة مَنْ يأتيهم .

فلمّا رأى الموفّق تحاشُدَ الخبثاء وتعاونَهم على المنع من الهدم للسور ، أزْمَع على مباشرة ذلك وحضوره ليستدعيَ به جِدَّ أصحابه واجتهادهم ، ويزيدَ في عنايتهم ومجاهدتهم ؛ ففعل ذلك ، واتّصلت الحرب ، وغَلُظت على الفريقين ؛ وكثر القتلى والجراح في الحزبَيْن كليْهما ، فأقام الموفّق أياماً يغادِي الفسقة ويراوحهم ؛ فكانوا لا يفتَرُون من الحرب في يوم من الأيام ، وكان أصحاب أبي أحمد لا يستطيعون الوُلوج على الخَبَثة لقنطرتين كانتا على نهر منكى كان الزّنج يسلكونهما في وقت استعار الحرب ، فينتهون منها إلى طريق يخرجهم في ظهور أصحاب أبي أحمد ، فينالون منهم ، ويحجزونهم عن استتمام ما يحاولون من هدم السور ، فرأى الموفّق إعمال الحيلة في هدم هاتيْن القنطرتين ليمنع الفسقة عن الطَّريق الذي كانوا يصيرون منه إلى استدبار أصحابه في وقت احتدام الحرب ؛ فأمر قوّاداً من قوّاد غلمانه بقصد هاتين القنطرتين ، وأن يختلوا الزنج ، وينتهزوا الفرصة في غفلتهم عن حراستها ؛ وتقدّم إليهم في أن يُعِدُّوا لهما من الفؤوس والمَناشير والآلات التي يحتاج إليها لقطعهما ما يكون عوناً لهم على الإسراع فيما يقصدون له من ذلك .

فانتهى الغلمان إلى ما أمِروا به ، وصاروا إلى نهر منكى وقت نصف النهار ، فبرز لهم الزّنْج ، فبادروا وتسرَّعوا ، فكان ممّن تسرع إليهم أبو النداء في جماعة من أصحابه يزيدون على الخمسمائة ، ونشبت الحرب بين أصحاب الموفق والزَّنج ، فاقتتلوا صدرَ النهار ، ثم ظهر غلمان أبي أحمد على الفسقة فكشفوهم عن القنطرتين ، فأصاب المعروفَ بأبي النداء سهمٌ في صدره وصل إلى قلبه فصرعه ، وحامى أصحابه على جِيفته فاحتملوها ، وولَّوْا منهزمين ، وتمكن قوّاد غلمان الموفَّق من قطع القنطرتين ، فقطعوهما وأخرجوهما إلى دِجْلة ، وحملوا خشبهما إلى أبي أحمد ، وانصرفوا على حال سلامة ، وأخبروا الموفّق بقتل أبي النداء وقَطْع القنطرتين ، فعظم سروره وسرورُ أهل العسكر بذلك ، وأمر لرامي أبي النداء بصِلة وافرة.

وألحّ أبو أحمد على الخبيث وأشياعه بالحرب ، وهدم من السور ما أمكنهم به الولوج عليهم ، فشغلوهم بالحرب في مدينتهم عن المدافعة عن سورهم ، فأسرع الهدْم فيه ، وانتهى منه إلى دارَي ابن سمعان وسليمان بن جامع ، فصار ذلك أجمع في أيدي أصحاب الموفّق ، لا يستطيع الفسقة دفعَهم عنه ولا منعَهم من الوصول إليه ، وهُدِمت هاتان الداران ، وانْتُهِب ما فيهما ، وانتهى أصحاب الموفّق إلى سوق لصاحب الزَّنج كان اتخذها مظلة على دِجْلة ، سماها الميمونة ، فأمر الموفّق زيرك صاحب مقدّمة أبي العباس بالقصْد لهذه السوق ، فقصد بأصحابه لذلك ، وأكبّ عليها ، فهدمت تلك السوق وأخرِبَتْ ، فقصد الموفّق الدار التي كان

صاحب الزنج اتّخذها للجُبّائيّ فهدمها ، وانتهب ما كان فيها وفي خزائن الفاسق كانت متّصلة بها .

وأمر أصحابه بالقصْد إلى الموضع الذي كان الخبيث اتخذ فيه بناء سماه مسجد الجامع ، فاشتدّت محاماة الفسقة عن ذلك والذبّ عنه ؛ بما كان الخبيث يحضُّهم عليه ، ويُوهمهم أنه يجب عليهم من نُصرة المسجد وتعظيمه ؛ فيصدّقُون قولَه في ذلك ، ويتبعون فيه رأيه . وصعُب على أصحاب الموفّق ما كانوا يرومون من ذلك ؛ وتطاولت الأيام بالحرب على ذلك الموضع . والذي حصل مع الفاسق يومئذ نخبة أصحابه وأبطالُهم والمَوَطّنون أنفسهم على الصبر معه ، فحاموْا جهدَهم ؛ حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحدَهم السهمُ أو الطعنة أو الضربة فيسقط ، فيجذبه الذي إلى جنبه ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخْلُوَ موقف رجل منهم ؛ فيدخل الخلل على سائر أصحابه .

فلمّا رأى أبو أحمد صبر هذه العصابة ومحاماتها ، وتطاول الأيام بمدافعتها ، أمر أبا العباس بالقصد لركن البناء الذي سماها الخبيث مسجداً ، وأن يندب لذلك أنجادَ أصحابِه وغلمانه ، وأضاف إليهم الفَعلة الذين كانوا أعِدّوا للهدم ، فإذا تهيّأ لهم هدمُ شيء أسرعوا فيه ، وأمر بوضع السلاليم على السور فوضعوها ، وصعِد الرماة فجعلوا يرشقون بالسهام من وراء السور من الفَسَقة ، ونظم الرجال من حدّ الدار المعرُوفة بالجُبّائيّ إلى الموضع الذي رتّب فيه أبا العباس ، وبذل الموفق الأموال والأطوقة والأسورة لمن سارع إلى هدم سور الفاسق وأسواقِه ودور أصحابه ، فتسهّل ما كان يصعُب بعد محاربة طويلة وشدّة ، فهدم البناء الذي كان الخبيث سماه مسجداً ، ووُصل إلى مِنْبره فاحتُمِل ، فأتِيَ به الموفّق ، وانصرف به إلى مدينته الموفقيّة جذِلاً مسروراً . ثم عاد الموفَّق لهدم السور فهدَمه من حدّ الدار المعروفة بأنكلاي إلى الدار المعروفة بالجُبّائيّ . وأفضى أصحاب الموفّق إلى دواوين من دواوين الخبيث وخزائن من خزائنه ؛ فانتُهبت وأحرقت ؛ وكان ذلك في يوم ذي ضباب شديد ، قد ستر بعضَ الناس عن بعض ؛ فما يكاد الرجل يبصره صاحبُه . فظهر في هذا اليوم للموفّق تباشير الفتح ، فإنهم لعَلىٰ ذلك ، حتى وصل سهمٌ من سهام الفسقة إلى الموفّق ، رماه به غلام روميّ كان مع الفاسق يقال له قرطاس ، فأصابه في صدره ، وذلك في يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين ، فستر الموفّق ما ناله من ذلك السهم ، وانصرف إلى المدينة مع الموفقية ، فعُولج في ليلته تلك من جراحته ، وبات ثم عاد إلى الحرب على ما به من ألم الجراح ، يشدّ بذلك قلوبَ أوليائه من أن يدخلها وَهْم أو ضعف ، فزاد ما حَمل نفسَه عليه من الحركة في قوة عِلّته ، فغلُظت وعظم أمرُها حتى خيف عليه ، واحتاج إلى علاجه بأعظم ما يعالَج به الجراح ؛ واضطرب لذلك العسكر والجند والرعية ، وخافوا قوّة الفاسق عليهم ؛ حتى خرج عن مدينته جماعةٌ ممن كان مقيماً بها ، لما وصل إلى قلوبهم من الرَّهبة ، وحَدَثت في حال صعوبة العلّة عليه حادثة في سلطانه ، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرحلة عن معسكره إلى مدينة السلام ، ويخلّف مَنْ يقوم مقامه ؛ فأبى ذلك ، وخاف أن يكون فيه ائتلاف ما قد تفرّق من شمل الخبيث. فأقام على صعوبة علّته عليه ، وغلظ الأمر الحادث في سلطانه ؛ فمنّ الله بعافيته ، وظهر لقوّاده وخاصته ؛ وقد كان أطال الاحتجاب عنهم ، فقويَتْ بذلك مُنَتُهم ، وأقام متماثلاً مودّعاً نفسه إلى شعبان من هذه السنة ، فلمّا أبلّ وقويَ على النهوض لحرب الفاسق ، تيقظ لذلك ، وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب ، وجعل الخبيث لّما صحّ عنده الخبر عما أصاب أبا أحمد يعِدُ أصحابَه العِدات ، ويمنّيهم الأمانيّ الكاذبة ، وجعل يحلف على منبره ـ بعدما اتّصل به الخبر بظهور أبي أحمد وركوبه الشّذَا ـ أن ذلك باطلٌ لا أصل له ، وأن الذي رأوه في الشّذا مثال مُوِّه لهم وشبِّه لهم .

وفيها في يوم السبت للنصف من جمادى الأولى ، شخص المعتمد يريد اللّحاق بمصر ، وأقام يتصيّد بالكُحَيْل ، وقدم صاعد بن مَخلَد من عند أبي أحمد ؛ ثم شخص إلى سامُرّا في جماعة من القوّاد في جمادى الآخرة ، وقدم قائدان لابن طولون ـ يقال لأحدهما أحمد بن جبغَوَيْه وللآخر محمد بن عباس الكلابيّ ـ الرّقة ، فلما صار المعتمد إلى عمل إسحاق بن كنداج ـ وكان العاملَ على الموصل وعامّة الجزيرة ـ وثب ابن كنداج بمَنْ شخص مع المعتمد مِنْ سامُرّا يريد مصر ، وهم تينك وأحمد بن خاقان وخطارِمش ، فقيّدهم وأخذ أموالهم ودوابّهم ورقيقهم . وكان قد كتب إليه بالقبض عليهم وعلى المعتمد ، وأقطع إسحاق بن كنداج ضياعهم وضياع فارس بن بغا .

وكان سبب وصوله إلى القبض على مَنْ ذكرتُ ، أنّ ابن كنداج لما صار إلى عمله ، وقد نفذت إليه الكتب من قِبَل صاعد بالقبض عليهم ، أظهر أنه معهم ، وعلى مثل رأيهم في طاعة المعتمد ؛ إذ كان الخليفة ، وأنه غير جائز له الخلاف عليه . وقد كان مَنْ مع المعتمد من القوّاد حذّروا المعتمد المرورَ به ، وخوّفوه وثوبه بهم ؛ فأبى إلّا المرورَ به ـ فيما ذكر ـ وقال لهم : إنما هو مولاي وغلامي ، وأريد أن أتصيّد ؛ فإنّ في الطريق إليه صيداً كثيراً . فلما صاروا في عمله ، لقيَهم وسار معهم كي يردَ المعتمِد ـ فيما ذكر ـ منزلاً قبل وصوله إلى عمل ابن طولون ، فلمّا أصبح ارتحل التبّاع والغلمان الذين كانوا مع المعتمِد ومن شخص معه من سامُرّا ، وخلا ابن كنداج بالقُوّاد الذين مع المعتمد ، فقال لهم : إنكم قد قربتم من عمل ابن طولون والمقيم بالرّقة من قوّاده ؛ وأنتم إذا صرتم إلى ابن طولون ؛ فالأمر أمرُه ، وأنتم من تحت يده ومن جنده ؛ أفترضوْن بذلك ؛ وقد علمتم أنه إنما هو كواحد منكم ! وجرت بينه وبينهم في ذلك مناظرة حتى تعالَىٰ النهار ، ولم يرتحل المعتمد بعدُ لاشتغال القوّاد بالمناظرة بينهم بين يديه ، ولم يجتمع رأيهم بعدُ على شيء . فقال لهم ابن كنداج : قوموا بنا حتى نتناظر في هذا في غير هذا الموضع ، وأكرَموا مجلس أمير المؤمنين عن ارتفاع الصوت فيه . فأخذ بأيديهم ، وأخرجهم من مضرب المعتمِد فأدخلهم مضرب نفسه ؛ لأنه لم يكن بقيَ مضرب إلّا قد مضِي به غير مضربه ؛ لما كان من تقدّمه إلى فرّاشيه وغلمانه وحاشيته وأصحابه في ذلك اليوم ألّا تبرحوا إلّا ببراحه . فلما صاروا إلى مضربه دخل عليه وعلى مَنْ معه من القواد جِلّةُ غلمانه وأصحابه ، وأحضرت القيود ، وشدّ غلمانه على كلّ مَنْ كان شخص مع المعتمد من سامُرّا من القوّاد ، فقيِّدوهم ؛ فلما قيّدوا وفرغ من أمرهم مضى إلى المعتمِد ، فعذَلَه في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه وفراقه أخاه على الحال التي هو بها من حرب مَنْ يحاول قتلَه وقتل أهل بيته وزوال ملكهم ، ثم حمله والذين كانوا معه في قيودهم حتى وافى بهم سامُرّا .

وفيها قام رافع بن هرثمة بما كان الخُجُسْتانيّ غلب عليه من كُور خراسان وقراها ؛ وكان رافع بن هَرْثمة قد اجتَبى عِدّةً من كور خراسان خراجها سلفاً لبعض عشرة سنة ، فأفقر أهلها وخرّبها .

وفيها كانت وقعة بين الحُسَيْنيّين والحسَنيّين والجعفريّين ، فقتِل من الجعفريين ثمانية نفر ، وعلا الجعفريون فتخلّصوا الفضلَ بن العباس العباسيّ العامل على المدينة .

وفي جمادى الآخرة عقد هارون بن الموفّق لابن أبي الساج على الأنبار وطريق الفرات ورحبةَ طوْق ، وولّى أحمد بن محمد الطائيّ الكوفة وسوادها المعاون والخراج ، فصيّر المعاون باسم عليّ بن الحسين المعروف بكفتمر ، فلقي أحمد بن محمد الهيصم العجليّ فيها ، فانهزم الهيصم واستباح الطائيّ أمواله وضياعه .

ولأربع خَلَوْن من شعبان منها ردّ إسحاق بن كنداج المعتمد إلى سامُرّا فنزل الجوسق المطلّ على الحيْر .

ولثمان خَلَوْن من شعبان خلع على ابن كنداج ، وقلّد سيفين بحمائل : أحدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وسُمِّيَ ذا السيفين ، وخُلع عليه بعد ذلك بيومين قَبَاء ديباج ووشاحان ، وتوّج بتاج ، وقلِّد سيفاً كلّ ذلك مفصص بالجوهر ، وشيّعه إلى منزله هارون بن الموفق وصاعد بن مخلد والقوّاد ، وتغدَّوا عنده .

وفي شعبان من هذه السنة أحرق أصحاب أبي أحمد قصر الفاسق ، وانتهبوا ما فيه .

ذكر الخبر عن سبب ذلك وسبب وصولهم إليه :

ذكر محمد بن الحسن ، أن أبا أحمد لما برأ الجرح الذي كان أصابه ، عاد للذي كان عليه من مغاداة الفاسق الحرب ومراوحتِه ؛ وكان الخبيث قد أعاد بناء بعض الثُّلَم التي ثُلِمَت في السور ، فأمر الموفّق بهدم ذلك ، وهدم ما يتصّل به ، وركب في عشيّة من العشايا في أوّل وقت العصر ؛ وقد كانت الحرب متّصلة في ذلك اليوم مما يلي نهر منْكى ، والفسقة مجتمعون في تلك الناحية قد شغَلوا أنفسهم بها ، وظنُّوا أنهم لا يحارَبون إلَّا فيها ، فوافى الموفق وقد أعدّ الفعلة ، وقرب على نهر مَنكى وناوش الفسقة فيه ؛ حتى إذا استعرت الحرب أمر الجذّافين والاشتيامين أن يحثّوا السير حتى ينتهوا إلى النّهر المعروف بجُوى كور ، وهو نهر يأخذ من دِجْلة أسفل من النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ؛ ففعلوا ذلك ، فوافَى جوى كور ، وقد خلا من المقاتلة والرّجّال ، فقرب وأخرج الفعلة ، فهدموا من السور ما كان يلي ذلك النهر ، وصعد المقاتلة وولجوا النهر ؛ فقتلوا فيه مقتلةً عظيمة ، وانتهوْا إلى قصور من قصور الفَسَقة ، فانهبوا ما كان فيها وأحرقوها ، واستنقذوا عدداً من النساء اللواتي كنّ فيها ، وأخذوا خيلاً من خيل الفجرة ، فحملوها إلى غربيّ دِجْلة ، فانصرف الموفّق في وقت غروب الشمس بالظفر والسلامة ، وغاداهم الحرب والقصد لهدم السور ، فأسرع فيه حتى اتّصل بدار المعروف بأنكلاي ؛ وكانت متصلة بدار الخبيث ؛ فلما أعيت الحيلُ الخبيث في المَنْع من هدم السور ، ودفع أصحاب الموفّق عن ولوج مدينته ، أسقِط في يديه ؛ ولم يدر كيف يحتال لحسْم ذلك ، فأشار عليه عليّ بن أبان المهلبيّ بإجراء الماء على السباخ التي يسلكها أصحاب الموفق لئلا يجدوا إلى سلوكها سبيلاً ،وأن يحفر خنادق في مواضع عدّة يعوقهم بها عن دخول المدينة ، فإن حملوا أنفسهم على اقتحامها فوقعت عليهم هـزيمة ، لم يسهـل عليهم الرجـوع إلى سفنهم ؛ ففعلوا ذلك في عِدّة مواضع من مدينتهم ، وفي الميدان الذي كان الخبيث جعله طريقاً حتى انتهت تلك الخنادق إلى قريب من داره . فرأى الموفّق بعدما هيّأ الله له من هدم سور مدينة الفاسق ما هيّأ أن جعل قصده لطمّ الخنادق والأنهار والمواضع المعوَّرة كي تصلح فيها مسالك الخيل والرّجالة . فرام ذلك ، فحـامى عنه الفسقة . ودامت الحرب وطالت ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمرٌ عظيم ؛ حتى لقد عُدّ الجرحى في بعض تلك الأيام زُهاء ألفيْ جَريح ؛ وذلك لتقارُب الفريقين في وقت القتال ، ومنع الخنادق كلّ فريق منهم عن إزالة مَنْ بإزائه عن موضعهم . فلما رأى ذلك الموفّق قصد لإحراق دار الخبيث والهجوم عليها من دِجْلة ، وكان يعوّق عن ذلك كثرةُ ما أعدّ الخبيث من المقاتلة والحماة عن داره ؛ فكانت الشذا إذا قربت من قَصْره رموا من سُوره ومن أعلى القصر بالحجارة والنشّاب والمقاليع والمجانيق والعرّادات ، وأذيب الرصاص ، وأفرغ عليهم ؛ فكان إحراق داره يتعذّر عليهم لما وصفنـا ؛ فأمـر الموفّق بـإعداد ظـلال من خشب للشّذَا وإلبـاسها جلود الجواميس ، وتغطية ذلك بالخيش المطليّ بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الإحراق ، فعمل ذلك ،

وطُليت به عدّة شَذَوات ورتّب فيها جميعاً شجعاء غلمانه : الرامحة والناشبة ، وجمعاً من حُذّاق النفّاطين وأعدّهم لإحراق دار الفاسق صاحب الزّنج .

فاستأمن إلى الموفّق محمد بن سمعان كاتب الخبيث ووزيره في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة تسع وستين ومائتين ، وكان سبب استئمانه ـ فيما ذكر محمد بن الحسن ـ أنه كان ممّن امتحن بصحبته ، وهو لها كارهٌ على علم منه بضلالته . قال : وكنتُ له على ذلك مواصلاً ، وكنّا جميعاً ندبّر الحيلة في التخلّص ، فيتعذّر علينا ، فلما نزل الخبيث من الحصار ما نزل ، وتفرّق عنه أصحابه ، وضَعُف أمره ؛ شمّر في الحيلة للخلاص ، وأطلعني على ذلك ، وقال : قد طبتُ نفساً بألّا أستصحب ولداً ولا أهلاً ، وأن أنجوَ وحيداً ؛ فهل لك في مثل ما عزمت عليه ؟ فقلت له : الرأي لك ما رأيت ؛ إذ كنتَ إنما تخلّف ولداً صغيراً لا سبيل للخائن عليه إلى أن يصول به ، أو أن يحدث عليك فيه حدثاً يلزمك عاره ؛ فأمّا أنا فإنّ معي نساء يلزمني عارهنّ ، ولا يسعني تعريضهنّ لسطوة الفاجر ؛ فامضِ لشأنك ؛ فأخبِرْ عني بما علمت من نيّتي في مخالفة الفاجر وكراهة صحبته ؛ وإن هيّأ الله لي الخلاص بولدي ، فأنا سريع اللحاق بك ، وإن جرت المقادير فينا بشيء كنا معاً وصبرنا .

فوجّه محمد بن سمعان وكيلاً له يعرف بالعراقيّ ، فأتى عسكر الموفّق ، فأخذ له ما أراد من الأمان ، وأعدّ له الشذا ، فوافتْه في السَّبَخة في اليوم الذي ذكرنا ، فصار إلى عسكر الموفق . وأعاد الموفّق محاربة الخبيث والقصد للإحراق من غد اليوم الذي استأمن فيه محمد بن سمعان ؛ وهو يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة تسع وستين ومائتين ، في أحسن زيّ ، وأكمل عدّة ، ومعه الشَّذَوات المطليّة بما وصفنا ، وسائر شَذَوَاته وسُميريّاته فيها مواليه وغلمانه والمعابر التي فيها الرَّجالة . فأمر الموفّق ابنَه أبا العباس بالقصد إلى دار محمد بن يحيى المعروف بالكَرَنْبائيّ ، وهي بإزاء دار الخائن في شرقيّ النهر المعروف بأبي الخصيب ، يشرع على النهر وعلى دجْلة ، وتقدّم إليها في إحراقها وما يليها من منازل قوّاد الخائن ، وشغلهم بذلك عن إنجاده ومعاونته ، وأمر المرتبين في الشَّذا المظلّلة بالقصد ؛ لما كان مطلاً على دِجْلة من رواشين الخبيث وأبنية ، ففعلوا ذلك ، وألصقوا شَذَواتِهم بسور القصر ، وحاربوا الفجَرة أشدّ حرب ، ونضحوهم بالنيران ، وصبر الفَسَقة وقاتلوا ، فرزق الله النصر عليهم ، فتزحزحوا عن تلك الرواشين والأبنية التي كانوا يحامون عليها ، وأحرقها غلمان الموفق ، وسلِم مَنْ كان في الشَّذا مما كان الخبثاء يكيدونهم به من النشاب والحجارة وصبّ الرصاص المذاب وغير ذلك بالظلال التي كان اتّخذها على الشَّذا ، فكان ذلك سبباً لتمكنها من دار الخبيث .

وأمر الموفّق مَنْ كان في الشَّذا بالرجوع فرجعوا ، فأخرج مَنْ كان فيها من الغلمان ، ورتّب فيها آخرين ، وانتظر إقبال المدّ وعلوّه ؛ فلما تهيّأ ذلك عادت الشَّذَوات المظللة إلى قصر الخبيث ، فأمر الموفّق مَنْ كان فيها بإحراق بيوت كانت تشرّع على دِجْلة من قصر الفاسق ؛ ففعلوا ذلك ، فاضطرمت النار في هذه البيوت ، واتّصلت بما يليها من الستارات التي كان الخبيث ظلّل بها دارَه ، وستور كانت على أبوابه ، فقويت النار عند ذلك على الإحراق ، وأعجلت الخبيث ومَنْ كان معه عن التوقّف على شيء مما كان في منزله من أمواله وذخائره وأثاثه وسائر أمتعته ، فخرج هارباً ، وترك ذلك كله . وعلا غلمان الموفّق قصر الخبيث من أصحابهم ؛ فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الأمتعة الفاخرة والذهب والفضة والجوهر والحَلْيِ وغير ذلك ؛ واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان الخبيث استرقّهنّ ، ودخل غلمان الموفّق سائرَ دور الخبيث ودور ابنه أنكلاي ، فأضرموها

ناراً ، وعظم سرور الناس بما هيأ الله لهم في هذا اليوم . فأقام جماعة يحاربون الفَسَقة في مدينتهم وعلى باب قصر الخبيث ، مما يلي الميدان ، فأثخنوا فيهم القتل والجراح والأسْر ، وفعل أبو العباس في دار المعروف بالكرنبائيّ وما يتّصل بها من الإحراق والهدم والنهب مثل ذلك . وقطع أبو العباس يومئذ سلسلة حديد عظيمة وثيقة كان الخبيث قطع بها نهر أبي الخصيب ليمنع الشّذَا من دخوله ، وحازها ، فحُملت في بعض شَذَواتِهِ وانصرف الموفّق بالناس صلاة المغرب بأجل ظفر ، وقد نال الفاسقَ في ذلك اليوم في نفسه وماله وولده وما كان غلب عليه من نساء المسلمين مثل الذي أصاب المسلمين منه من الذّعر والجلاء وتشتيت الشمل والمصيبة في الأهل والولد ، وجُرح ابنه المعروف بأنكلاي في هذا اليوم جراحة شديدة في بطنه أشفى منها على التلف .

وفي غد هذا اليوم وهو يوم الأحد لعشر بقين من شعبان من هذه السنة غرق نصير .

ذكر سبب غرقه :

ذكر محمد بن الحسن أنه لما كان غد هذا اليوم ، باكر الموفّق محاربة الخبيث ، وأمر نصيراً المعروف بأبي حمزة بالقَصْد لقنطرة كان الخائن عملها بالسياج على النهر المعروف بأبي الخصيب ، دون الجسريْن اللذيْن اتخذهما عليه ، وأمر زِيَرك بإخراج أصحابه مما يلي دار الجُبّائيّ لمحاربة مَنْ هناك من الفَجَرَة ، وأخرج جمعاً من قوّادها مما يلي دار أنكلاي لمحاربتهم أيضاً ، فتسرّع نُصير ، فدخل نهر أبي الخَصِيب في أوّل المدّ في عدّة من شَذَوَاته ، فحملها المدّ فألصقها بالقنطرة ، ودخلت عِدّة من شَذَوَات موالي الموفّق وغلمانه ممّن لم يكن أمِر بالدخول ، فحملهم المدّ فألقاهم على شَذَوات نصير، فصكّت الشّذوات بعضها بعضاً؛ حتى لم يكن للاشتيامين والجذّافين فيها حيلة ولا عمل. ورأى الزّنج ذلك، فاجتمعوا على الشّذوات، وأحاطوا بها من جانبي نهر أبي الخصيب، فألقى الجذّافُون أنفسَهم في الماء ذعراً ووجلاً، ودخل الزّنج الشّذَوات، فقتلوا بعض المقاتلة، وغرق أكثرُهم، وحاربهم نصير في شَذَواته حتى خاف الأسر، فقذف نفسه في الماء فغرق، وأقام الموفّق في يومه يحارب الفَسَقة، وينهب ويحرق منازلَهم، ولم يَزَل باقي يومه مستعلياً عليهم؛ وكان ممّن حامى على قصر الخائن يومئذ وثبت في أصحابه سليمان بن جامع، فلم تزل الحرب بين أصحاب الموفّق وبينه، وهو مقيم بموضعه لم يَزُل عنه إلى أن خرج في ظهره كمين من غلمانِ الموفّق السودان، فانهزم لذلك، واتّبعه الغلمان يقتلون أصحابه، ويأسرون منهم، وأصابت سليمان في هذا الوقت جراحة في ساقه، فهوى لفيه في موضع؛ قد كان الحريق ناله ببعض جمْر فيه، فاحترق بعض جسَده، وحامى عليه جماعة من أصحابه، فنجا بعد أن كاد الأسر يحيط به، وانصرف الموفّق ظافراً سالماً، وضعفت الفسقة، واشتدّ خوفُهم لّما رأوا من إدبار أمرهم، وعرضت لأبي أحمد عِلّة من وجع المفاصل؛ فأقام فيها بقية شعبان وشهر رمضان وأياماً من شوال ممسكاً عن حرب الفاسق. فلما استبدّ من عِلّته وتماثل، أمر بإعداد ما يحتاج إليه للقاء الفَسَقة، فتأهّب لذلك جميع أصحابه.

وفي هذه السنة كانت وفاة عيسى بن الشيخ بن السليل.

وفيها لعن ابن طولون المعتمد في دار العامّة، وأمر بلعنه على المنابر، وصار جعفر المفوّض إلى مسجد الجامع يوم الجمعة، ولعن ابن طولون وعقد لإسحاق بن كنداج على أعمال ابن طولون، ووليَ من باب الشماسية إلى إفريقية ووليَ شُرْطة الخاصة.

وفي شهر رمضان منها كتب أحمد بن طولون إلى أهل الشأم يدعوهم إلى نصر الخليفة، ووُجد فَيْجٌ يريد

ابنَ طولون معه كتُب من خليفته، جوّاب بأخبار، فأخِذ جوّاب فحبس وأخِذ له مال ورقيق ودوابّ.

وفي شوال منها كانت وقعة بين أبي السَّاج والأعراب ، فهزموه فيها ، ثم بيّتهم فقتل منهم وأسر ، ووجه بالرؤوس والأسارى إلى بغداد ، فوصلت في شوال منها .

ولإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال منها عقد جعفر المفوّض لصاعد بن مَخْلَد على شهرزور وداباذ والصامغان وحلوان وماسِبذان ومهرجانْقَذف وأعمال الفرات ، وضمّ إليه قوّاد موسى بن بغا خلا أحمد بن موسى وكَيْغَلغ وإسحاق بن كُنداجيق وأساتكين ، فعقد صاعد للؤلؤ على ما عهد له عليه من ذلك المفوّض يوم السبت لثمان بقيت من شوال ، وبعث إلى ابن أبي الساج بعقد من قِبَله على العمل الذي كان يتولّاه ، وكان يتولى الأنبار وطريق الفرات ورحبة طوق بن مالك من قِبَل هارون بن الموفّق ، وكان شخص إليها في شهر رمضان ، فلمّا ضُمّ ذلك إلى صاعد أقرّه صاعد على ما كان إليه من ذلك .

وفي آخر شوّال منها دخل ابن أبي الساج رحبة طوق بن مالك بعد أن حاربه أهلُها ، فغلبهم وهرب أحمد بن مالك بن طَوْق إلى الشأم ، ثم صار ابن أبي الساج إلى قَرْقِيسياء ؛ فدخلها وتنحّى عنها ابن صفوان العُقيليّ .

وفي يوم الثلاثاء لعشر خلوْن من هذه السنة ، كانت بين أبي أحمد وبين الزَّنْج وقعة في مدينة الفاسق أثّر فيها آثاراً ، وصل بها إلى مراده منها .

ذكر السبب في هذه الوقعة وما كان منها :

ذكر محمد بن الحسن أنّ الخبيث عدوّ الله كان في مدّة اشتغال الموفق بعلّته أعاد القنطرة التي كانت شَذوات نصير لجّجت فيه ، وزاد فيها ما ظنّ أنه قد أحكمها ، ونصب دونها أدقال ساج وصل بعض ببعض ، وألبسها الحديد ، وسكَر أمام ذلك سِكْراً بالحجارة ليضيق المدخل على الشَّذَا ، وتحتدّ جرية الماء في النهر المعروف بأبي الخصيب ، فيهاب الناس دخولَه ، فندب الموفَّق قائديْن من قُوّاد غلمانه في أربعة آلاف من الغلمان ، وأمرهما أن يأتيا نهر أبي الخصيب ؛ فيكون أحدهما في شرقيه والآخر في غربيه ؛ حتى يوافيا القنطرة التي أصلحها الفاجر وما عمل في وجهها من السّكْر فيحاربا أصحاب الخبيث حتى يجلياهم عن القنطرة ، وأعدّ معهما النجارين والفَعَلة لقطع القنطرة والبدود التي كانت جعلت أمامها ، وأمر بإعداد سفن محشوّة بالقصب المصبوب عليه النّفط ، لتدخل ذلك النهر المعروف بأبي الخصيب ، وتضرم ناراً لتحترق بها القنطرة في وقت المدّ . فركب الموفّق في هذا اليوم في الجيش حتى وافى فوّهة نهر أبي الخصيب ، وأمر بإخراج المقاتلة في عدّة مواضع من أعلى عسكر الخبيث وأسفله ، ليشغلهم بذلك عن التعاون على المنع عن القنطرة ، وتقدّم القائدان في أصحابهما ، وتلقاهما أصحاب الخائن من الزَّنْج وغيرهم ، يقودهم ابنه أنكلاي وعليّ بن أبان المهلبيّ وسليمان بن جامع ، فاشتبكت الحرب بين الفريقيْن ، ودامت ، وقاتل الفسقة أشدّ قتال ، محاماةً عن القنطرة ، وعلموا ما عليهم في قطعها من الضرر ، وأنّ الوصول إلى ما بعدها من الجسرين العظيمين اللّذيْن كان الخبيث اتخذهما على نهر أبي الخصيب سهْل مرامه ، فكثر القتل والجراح بين الفريقيْن ، واتّصلت الحرب إلى وقت صلاة العصر . ثم إنّ غلمان الموفّق أزالوا الفَسَقة عن القنطرة وجاوزوها ، فقطعها النّجارون والفَعلة ، ونقضوها وما كان اتخذ من البدود التي ذكرناها .

وكان الفاسق أحكم أمر هذه القنطرة والبدود إحكاماً تعذّر على الفَعلة والنّجارين الإسراع في قطعها ، فأمر الموفّق عند ذلك بإدخال السفن التي فيها القصب والنّفط ، وضربها بالنار وإرسالها مع الماء ؛ ففعل ذلك ، فوافت السفن القنطرة فأحرقتها ، ووصل النّجارون إلى ما أرادوا من قطع البدود فقطعوها ، وأمكن أصحاب الشّذا دخول النهر فدخلوه ، وقوِيَ نشاطُ الغلمان بدخول الشّذا ؛ فكشفوا أصحاب الفاجر عن مواقِفهم حتى بلغوا بهم الجسر الأوّل الذي يتلُو هذه القنطرة ، وقُتِل من الفجَرَة خلق كثير ، واستأمن فريق منهم ؛ فأمر الموفّق أن يخلع عليهم في ساعتهم تلك ، وأن يوقفوا بحيث يراهم أصحابُهم ، ليرغبوا في مثل ما صاروا إليه ؛ وانتهى الغلمان إلى الجسر الأوّل ، وكان ذلك قبيل المغرب ، فكره الموفّق أن يُظلم الليلَ ، والجيش موغل في نهر أبي الخصيب ، فيتهيّأ للفجرة بذلك انتهازُ فرصة ، فأمر الناسَ بالإنصراف ، فانصرفوا سالمين إلى المدينة الموفقيّة ، وأمر الموفق بالكتاب إلى النواحي بما هيأ الله له من الفتح والظّفر ؛ ليقرأ بذلك على المنابر ، وأمر بإثابة المحسنين من غلمانه على قدر غنَائهم وبلائهم وحسن طاعتهم ؛ ليزدادوا بذلك جدًّا واجتهاداً في حرب عدوّهم .

ففعل ذلك ، وعَبر الموفّق في نفر من مواليه وغلمانه في الشَّذَوات والسميريّات وما خفّ من الزّواريق إلى فُوّهة نهر أبي الخصيب ؛ وقد كان الخبيث ضيّقها ببرجين عملهما بالحجارة ليضيّق المدخل وتحتدَّ الجرية ، فإذا دخلت الشَّذَا النهر لَجّجتْ فيه ، ولم يسهل السبيل إلى إخراجها منه ؛ فأمر الموفَّق بقطع ذينك البُرْجين ، فعمل فيهما نهار ذلك اليوم ؛ ثم انصرف العمال وعادوا من غد لاستتمام قلع ما بقي من ذلك ؛ فوجدوا الفَجَرة قد أعادوا ما قلع منهما في ليلتهم تلك ؛ فأمر بنصب عرّادتين قد كانتا أعدّتا في سفينتين ، نُصِبتا حيال نهر أبي الخصيب ، وطرحت لهما الأناجر حتى استقرّتا ؛ ووكّل بهما من أصحاب الشَّذَا ، وأمر بقطع هذين البُرْجَيْن ، وتقدّم إلى أصحاب العرّادتين في رَمْي كلّ من دنا من أصحاب الفاسق ؛ لإعادة شيء من ذلك في ليل أو نهار ؛ فتحامى الفجرة الدنوَّ من الموضع ، وأحجموا عنه ، وألحّ الموكَّلون بقلع هذه الحجارة بعد ذلك ، حتى استتمّوا ما أرادوا ، واتّسع المسْلَك للشذا في دخول النهر والخروج منه .

وفي هذه السنة تحوّل الفاسق من غربي نهر أبي الخصيب إلى شرقيّه وانقطعت عنه الميرة من كلّ وجهة .

ذكر الخبر عن حاله وحال أصحابه وما آل إليه أمرهم عند انتقاله من الجانب الغربيّ

ذُكر أن الموفّق لما أخرب منازل صاحب الزَّنج وحرّقها ، لجأ إلى التحصّن في المنازل الواغلة في نهر أبي الخصيب ، فنزل منزلاً كان لأحمد بن موسى المعروف بالقَلُوص، وجمع عياله وولده حوله هناك ، ونقل أسواقه إلى السوق القريبة من الموضع الذي اعتصم به ؛ وهي سوق كانت تعرف بسوق الحسين ، وضعُف أمره ضعفاً شديداً ، وتبين للناس زوالُ أمره ، فتهيّبُوا جلْب المِيرة إليه ، فانقطعت عنه كلّ مادّة ، فبلغ عنده الرَّطل من خبز البرّ عشرة دراهم ؛ فأكلوا الشعير ، ثم أكلوا أصناف الحبوب ، ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن كانوا يتبعون الناس ؛ فإذا خلا أحدُهم بامرأة أو صبيّ أو رجل ذبحه وأكله ، ثم صار قويّ الزَّنْج يَعْدو على ضعيفهم ؛ فكان إذا خلا به ذَبَحه وأكل لحمه ؛ ثم أكلوا لحوم أولادهم ، ثم كانوا ينبشون الموتى ، فيبيعون أكفانَهم ويأكلون لحومهم ، وكان لا يعاقب الخبيثُ أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلاّ بالحبس ، فإذا تطاول حبسُه أطلقه .

وذكر أن الفاسق لما هُدِمت داره وأُحرِقت ، وانتُهب ما فيها ، وأخرِج طريداً سليباً من غربيّ نهر أبي الخصيب ، تحوّل إلى شرقيّه ، فرأى أبو أحمد أن يخرب عليه الجانب الشرقيّ لتصير حال الخبيث فيه كحاله في الغربيّ في الجلاء عنه ، فأمر ابنه أبا العباس بالوقوف في جمع من أصحابه في الشَّذَا في نهر أبي الخصيب، وأن يختار من أصحابه وغلمانه جمعاً يخرجهم في الموضع الذي كانت فيه دار الكرنبائيّ من شرقيّ نهر أبي الخصيب ، ويخرج معهم الفَعَلة لهدم كلّ ما يلقاهم من دور أصحاب الفاجر ومنازلهم ، ووقف الموفّق على قصر المعروف بالهمدانيّ ـ وكان الهمدانيّ يتولى حياطة هذا الموضع ، وهو أحد قادة جيوش الخبيث وقدماء أصحابه ـ وأمر الموفّق جماعة من قوّاده ومواليه فقصدوا لدار الهَمْدانيّ ، ومعهم الفَعلة ؛ وقد كان هذا الموضع محصّناً بجمع كثير من أصحاب الخبيث من الزَّنْج وغيرهم ، وعليه عرّادات ومجانيق منصوبة وقسيّ ناوكية ، فاشتبكت الحرب وكثُر القتلى والجراح إلى أن كشف أصحاب الموفق الخبثاءَ ، ووضعوا فيهم السلاح ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفعل أصحاب أبي العباس مثل ذلك بمن مرّ بهم من الفَسَقة .

والتقى أصحابُ الموفّق وأصحاب أبي العباس ؛ فكانوا يداً واحدة على الخبثاء ، فولّوْا منهزمين ، وانتهوْا إلى دار الهمدانيّ ، وقد حصّنها ونصب عليها العرّادات ، وحفّها بأعلام بِيض من أعلام الفاجر ، مكتوب عليها اسمه ، فتعذّر على أصحاب الموفق تسوّر هذه الدار لعلوّ سورها وحصانتها ، فوضعوا عليها السلاليم الطوال ، فلم تبلغ آخره ، فرمى بعضُ غلمان الموفّق بكلاليب كانوا أعدُّوها ، وجعلوا فيها الحبال لمثل هذا الموضع ، فأثبتوها في أعلام الفاسق وجذبوها ، فانقلبت الأعلام منكوسة من أعلى السور ؛ حتى صارت في أيدي أصحاب الموفّق ، فلم يشكّ المحامون عن هذه الدار أنّ أصحاب أبي أحمد قد علوْها ، فوجَلوا فانهزموا ، وأسلموها وما حوْلها ، وصعِد النّفّاطون فأحرقوا ما كان عليها من المجانيق والعرّادات ، وما كان فيها للهمدانيّ من متاع وأثاث ، وأحرقوا ما كان حولها من دور الفجرة ، واستنقذوا في هذا اليوم من نساء المسلمين المأسورات عدداً كثيراً ، فأمر الموفّق بحملهنّ في الشّذَا والسميريّات والمعابر إلى الموفقية والإحسان إليهنّ .

ولم تزل الحرب في هذا اليوم قائمةً من أوّل النهار إلى بعد صلاة العصر ، واستأمن يومئذ جماعةٌ من أصحاب الفاسق وجماعة من خاصّة غلمانه الذين كانوا في داره يلون خدمَتَه والوقوف على رأسه ؛ فآمنهم الموفّق وأمر بالإحسان إليهم ، وأن يُخلَع عليهم ، ويوصلوا وتُجرى لهم الأرزاق ، وانصرف الموفق ، وأمر أن تنكَس أعلام الفاسق في صدور الشّذَوات ليراها أصحابه ، ودلّت جماعة من المستأمنة الموفّق على سوق عظيمة كانت للخبيث في ظهر دار الهمدانيّ متصلةً بالجسر الأوّل المعقود على نهر أبي الخصيب ، كان الخبيث سمّاها المباركة ، وأعلموه أنه إن تهيأ له إحراقها لم يبق لهم سوق ، وخرج عنهم تجّارهم الذين بهم قوامهم ؛ واستوحشوا لذلك . واضطروا إلى الخروج في الأمان . فعزم الموفّق عند ذلك على قصد هذه السوق وما يليها بالجيوش من ثلاثة أوجه ؛ فأمر أبا العباس بقصد جانب من هذه السوق مما يلي الجسر الأول ؛ وأمر راشداً مولاه بقصْدها مما يلِي دار الهمْدانيّ ، وأمر قوّاداً من قواد غلمانه السودان بالقصد لها من نهر أبي شاكر ، ففعل كلُّ فريق ما أمِر به ، ونذِر الزَّنج بمسير الجيوش إليهم ، فنهضوا في وجوههم ، واستعرت الحرب وغلظتْ ، فأمدّ الفاجر أصحابه . وكان المهلبيّ وأنكلاي وسليمان بن جامع في جميع أصحابهم بعد أن تكاملوا ووافتْهم أمداد الخبيث بهذه السوق يحامون عنها ، ويحاربون فيها أشدّ حرب .

وقد كان أصحاب الموفّق في أول خروجهم إلى هذا الموضع وصلُوا إلى طرف من أطراف هذه السوق ، فأضرموه ناراً فاحترق ، فاتّصلت النار بأكثر السُّوق ، فكان الفريقان يتحاربون والنار محيطة بهم ؛ ولقد كان ما علا من ظلالٍ يحترق فيقع على رؤوس المقاتلة ؛ فربما أحرق بعضَهم ، وكانت هذه حالهم إلى مغيب الشمس وإقبال الليل . ثم تحاجزوا ، وانصرف الموفّق وأصحابه إلى سفنهم، ورجع الفَسَقة إلى طاغينهم بعد أن احترق السوق ، وجلا عنها أهلُها ومَن كان فيها من تجار عسكر الخائن وسُوقتهم ، فصاروا فى أعلى مدينته بما تخلّصوا به من أموالهم وأمتعتهم . وقد كانوا تقدّموا في نقل جلّ تجارتهم وبضعائهم من هذه السوق خوفاً من مثل الذي نالهم في اليوم الذي أظفر الله فيه الموفّق بدار الهَمْدانيّ وهيّأ له إحراق ما أحرق حولها .

ثم إن الخبيث فعل في الجانب الشرقيّ من حفر الخنادق وتعوير الطرق ما كان فعل في الجانب الغربيّ بعد هذه الوقعة ، واحتفر خندقاً عريضاً من حدّ جوى كور إلى نهر الغربيّ ، وكان أكثر عنايته بتحصين ما بين دار الكرْنبائيّ إلى النهر المعروف بجُوى كور؛ لأنه كان في هذا الموضع جُلّ منازل أصحابه ومساكنهم ، وكان من حدّ جوى كور إلى نهر الغربيّ بساتين ومواضع قد أخلَوْها ، والسُور والخندق محيطان بها ، وكانت الحرب إذا وقعت في هذا الموضع قصدوا من موضعهم إليه للمحاماة عنه والمنع منه ؛ فرأى الموفّق عند ذلك أن يخرِب باقي السور إلى نهر الغربيّ ، ففعل ذلك بعد حرب طويلة في مدة بعيدة .

وكان الفاسق في الجانب الشرقيّ من نهر الغربيّ في عسكر فيه جمع من الزَّنْج وغيرهم متحصّنين بسور منيع وخنادق ، وهم أجلد أصحاب الخبيث وشجعانهم ، فكانوا يحامون عما قَرُب من سور نهر الغربيّ ، وكانوا يخرجون في ظهور أصحاب الموفّق في وقت الحرب على جوى كور وما يليه ، فأمر الموفّق بقصد هذا الموضع ومحاربة مَنْ فيه وهدم سُوره وإزالة المتحصّنين به ، فتقدّم عند ذلك إلى أبي العباس وعِدّة من قوّاد غلمانه ومواليه في التأهّب لذلك ، ففعلوا ما أمِرُوا به ، وصار الموفق بمَنْ أعدّه إلى نهر الغربيّ ، وأمر بالشَّذَا فنُظمت من حدّ النهر المعروف بجوى كور إلى الموضع المعروف بالدبّاسين، وخرج المقاتلة على جنبتي نهر الغـربيّ ، ووُضِعت السلاليم على السور .

وقد كانت لهم عليه عدّة عرّادات ، ونشَبَت الحرب ، ودامت مذ أول النهار إلى بعد الظهر ، وهُدم من السور مواضع ، وأحرق ما كان عليه من العرّادات ، وتحاجز الفريقان ، وليس لأحدهما فضل على صاحبه إلاّ ما وَصل إليه أصحاب الموفّق من هذه المواضع التي هدموها وإحراق العرّادات ، ونال الفريقين من ألم الجراح أمرٌ غليظ موجع .

فانصرف الموفّق وجميعُ أصحابه إلى الموفقيّة ، فأمر بمداواة الجرحى ، ووصلَ كلّ امرىء على قدر الجراح التي أصابته ؛ وعلى ذلك كان اجري التدبير في جميع وقائعه منذ أول محاربته الفاسق إلى أن قتله الله .

وأقام الموفّق بعد هذه الوقعة مدّة ، ثم رأى معاودة هذا الموضع والتشاغل به عن الموضع ، لما رأى من حصانته وشجاعة مَنْ فيه وصبرهم وأنه لا يتهيأ ما يقدر فيما بين نهر الغربيّ وجوى كور إلاّ بعد إزالة هؤلاء ، فأعدّ ما يحتاج إليه من آلات الهدم، واستكثر من الفعلة، وانتخب المقاتلة النـاشبة والـرّامحة والسـودان أصحـاب السيوف، وقصد هذا الموضع على مثل قصده له المرّة الأولى، فأخرج الرجّالة في المواضع التي رأى إخراجَهم فيها، وأدخل عدداً من الشَّذَا النهر، ونشبت الحرب ودامت، وصَبَر الفسَقَة أشدّ صبر، وصبر لهم أصحاب

الموفق .

واستمدّ الفسقة طاغيتَهم ، فوافاهم المهلبيّ وسليمان بن جامع في جيشهما ، فقويت قلوبُهم عند ذلك ، وحملوا على أصحاب الموفق ، وخرج سليمان كميناً مما يلي جوى كور ، فأزالوا أصحاب الموفّق حتى انتهوْا إلى سفنهم ، وقَتلوا منهم جماعة وانصرف الموفق ولم يبلغ كلّ الذي أراد ، وتبينّ أنه قد كان يجب أن يحارب الفسقة من عدّة مواضع ، ليفرّق جمعَهم ، فيخفّ وطؤهم على مَنْ يقصد لهذا الموضع الصعب ، وينال منه ما يحبّ ، فعزم على معاودتهم ، وتقدّم إلى أبي العباس وغيره من قوّاده في العبور واختيار أنجاد رجالهم ، ووكّل مسروراً مولاه بالنهر المعروف بمنكى ، وأمره أن يخرج رجاله في ذلك الموضع وما يتصل به من الجبال والنخل ، لتشتغل قلوب الفَجَرة ، وليروْا أنّ عليهم تدبيراً من تلك الجهة . وأمر أبا العباس بإخراج أصحابه على جوى كور ، ونظم الشذا على هذه المواضع حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالدّباسين ؛ وهو أسفل نهر الغربيّ ، وصار الموفّق إلى نهر الغربيّ ، وأمر قوّاده وغلمانه أن يخرجوا في أصحابهم فيحاربوا الفَسَقة في حصنهم ومعقلهم ، وألا ينصرفوا عنهم حتى يفتح الله لهم ، أو يبلغ إرادته منهم . ووكل بالسور مَنْ يهدمه ، وتسرّع الفَسَقة كعادتهم ، وأطمعهم ما تقدّم من الوقعتين اللتينْ ذكرناهما ، فثبت لهم غلمان الموفق ، وصدقوهم اللقاء ؛ فأنزل الله عليهم نصره ، فأزالوا الفَسَقة عن مواقفهم ، وقويَ أصحابُ الموفق ، فحملوا عليهم حملةً كشفوهم بها ، فانهزموا وخَلَّوْا عن حصنهم ، وصار في أيدي غلمان الموفق فهدموه ، وأحرقوا منازلهم ، وغَنموا ما كان فيها ، واتّبعوا المنهزمين منهم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا ، واستنقذوا من هذا الحصن من النساء المأسورات خَلْقاً كثيراً ، فأمر الموفّق بحملهنّ والإحسان إليهنّ ، وأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم ففعلوا ، وانصرف إلى عسكره بالموفقيّة ، وقد بلغ ما حاول من هذا الموضع .

وفيها دخل الموفق مدينة الفاسق ، وأحرق منازله من الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب .

ذكر الخبر عن سبب وصوله إلى ذلك :

ذُكر أنّ أبا أحمد لما أراد ذلك بعد هدمه سورَ داره ذلك ، أقام يصلح المسالك في جنبتي نهر أبي الخصيب وفي قصر الفاسق ، ليتسع على المقاتلة الطريق في الدخول والخروج للحرب ، وأمر بقلع باب قصر الخبيث الذي كان انتزعه من حصن أرْوَخ بالبصرة ، فقُلع وحُمل إلى مدينة السلام . ثم رأى القصد لقطع الجسر الأوّل الذي كان على نهر أبي الخصيب ، لما في ذلك من منع معاونة بعضهم بعضاً عند وقوع الحرب في نواحي عسكرهم ، فأمر بإعداد سفينة كبيرة تُملأ قصباً قد سُقِيَ النّفْط ، وأن يُنْصَب في وسط السفينة دَقْلٌ طويل يمنعها من مجاوزة الجسر إذا لصقت به ، وانتهز الفرصة في غفلة الفسقة وتفرُّقهم .

فلما وجد ذلك في آخر النهار قُدّمت السفينة ، فجرَّها الشذا حتى وردت النهر ، وأشعِل فيها النيران ، وأرسِلت وقد قوي المدّ ، فوافت القنطرة ، وَنَذِر الزّنج بها ، وتجمعوا وكثروا حتى ستروا الجسر وما يليه ، وجعلوا يقذفون السفينة بالحجارة والآجرّ ، ويهيلون عليها التراب ، ويصبّون الماء ، وغاص بعضهم فنقبها ؛ وقد كانت أحرقت من الجسر شيئاً يسيراً ، فأطفأه الفسقة ، وغرّقوا السفينة وحازوها ؛ فصارت في أيديهم .

فلما رأى أبو أحمد فعلَهم ذلك ، عزم على مجاهدتهم على هذا الجسر حتى يقطعه ، فسمّى لذلك قائدين من قوّاد غلمانه ، وأمرهما بالعبور في جميع أصحابهما في السلاح الشاك واللّأمة الحصينة والآلات المحكمة ،

وإعداد النفاطين والآلات التي تُقْطع بها الجسور ، فأمر أحد القائدين أن يقصد غربيَّ النهر ، وجعل الآخر في شرقيّه ، وركب الموفّق في مواليه وخدّامه وغلمانه الشَّذَوات والسُّميريّات ، وقصد فُوّهَة نهر أبي الخصيب ؛ وذلك في غداة يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من شوّال سنة تسع وستين ومائتين ، فسبق إلى الجسر القائد الذي كان أمِر بالقصد له من غربيّ نهر أبي الخصيب ، فأوقع بمَن كان موكَّلاً به من أصحاب الفاسق ، وقُتلت منهم جماعة ، وضُرب الجسر بالنار ، وطرح عليه القصب وما كان أعِدّ له من الأشياء المحرِقة ، فانكشف مَن كان هناك من أعوان الخبيث ، ووافى بعد ذلك مَنْ كان أمر بالقصد للجسر من الجانب الشرقيّ ، ففعلوا ما أمِروا به من إحراقه .

وقد كان الخبيث أمر ابنه أنكلاي وسليمان بن جامع بالمقام في جيشهما للمحاماة عن الجسر ، والمنع من قطعه ؛ ففعلا ذلك ، فقصد إليهما مَنْ كان بإزائهما ، وحاربوهم حرباً غليظاً حتى انكشفا ، وتمكنوا من إحراق الجسر فأحرقوه ، وتجاوزوه إلى الحظيرة التي كان يعمل فيها شَذَوات الفاسق وسُميريّاته وجميع الآلات التي كان يحارب بها ، فأحرِق ذلك عن آخره إلّا شيئاً يسيراً من الشّذوات والسميريّات كان في النهر ، وانهزم أنكلاي وسليمان بن جامع ، وانتهى غلمان الموفق إلى سجْن كان للخبيث في غربيّ نهر أبي الخصيب ، فحامى عنه الزَّنج ساعة من النهار حتى أخرجوا منه جماعة ، وغلبهم عليه غلمان الموفّق ، فتخلّصوا مَنْ كان فيه من الرجال والنساء ، وتجاوز من كان في الجانب الشرقيّ من غلمان الموفق ، بعد أن أحرقوا ما وُلُّوا من الجسر إلى الموضع المعروف بدار مصلِح ؛ وهو من قدماء قوّاد الفَاسق ، فدخلوا داره وأنهبوها ، وسَبَوْا ولده ونساءه ، وأحرقوا ما تهيأ لهم إحراقه في طريقهم ، وبقيت من الجسر في وسط منه أدقال قد كان الخبيث أحكَمَها ، فأمر الموفق أبا العباس بتقديم عدّة من الشَّذَا إلى ذلك الموضع ، ففعل ذلك ؛ فكان فيمن تقدّم زيرك في عدد من أصحابه ، فوافَى هذه الأدقال ، وأخرجوا إليها قوماً قد كانوا أعدّوهم لها معهم الفؤوس والمناشير ، فقطعوها ، وجُذبت وأخرِجت عن النهر ، وسقط ما بقي من القنطرة ، ودخلت شذوات الموفّق النهر ، وسار القائدان في جميع أصحابهما على حافّتيه فهُزم أصحاب الفاجرِ في الجانبين ، وانصرف الموفق وجميع أصحابه سالمين ، واستُنقذ خلق كثير ، وأتِيَ الموفق بعدد كثير من رؤوس الفسقة ، فأثاب مَنْ أتاه بها ، وأحسن إليه ووصله .

وكان انصرافه في هذا اليوم على ثلاث ساعات من النهار ، بعد أن انحاز الفاسِق وجميع أصحابه من الزَّنْج وغيرهم إلى الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب ، وأخلوْا غربيّه ، واحتوى عليه أصحاب الموفّق ، فهدموا ما كان يعوق عن محاربة الفَجَرة من قصور الفاسق وقصور أصحابه ، ووسَّعوا مخترقات ضيّقة كانت على نهر أبي الخصيب ، فكان ذلك مما زاد في رعب أصحاب الخائن . ومال جمعٌ كثير من قوّاده وأصحابه الذين كان لا يرى أنهم يفارقونه إلى طلب الأمان ، فبُذل ذلك لهم ، فخرجوا أرسالاً ، فقبِلوا ، وأحسِن إليهم وألحقوا بنظرائهم في الأرزاق والصِّلات والخلع .

ثم إن الموفق واظب على إدخال الشذا النهر ، وتقحّمه في غلمانه ، وأمر بإحراق ما على حافتيه من منازل الفجرة وما في بطنه من السفن ، وأحبّ تمرين أصحابه على دخول النهر وتسهيل سلوكه لهم لِمَا كان يقدّر من إحراق الجسر الثاني ، والتوصّل إلى أقصى مواضع الفجرة .

فبينا الموفق في بعض أيامه ـ التي ألحّ فيها على حرب الخبيث وولوج نهر أبي الخصيب ـ واقف في موضع

من النهر ؛ وذلك في يوم جمعة ، إذ استأمن إليه رجل من أصحاب الفاجر ، وأتاه بمنبر كان للخبيث في الجانب الغربيّ ، فأمره بنقله إليه ، ومعه قاض كان للخبيث في مدينته ؛ فكان ذلك مما فتّ في أعضادهم ؛ وكان الخبيث جمع ما كان بقيَ له من السفن البحرية وغيرها ، فجعلها عند الجسر الثاني ، وجمع قوّاده وأصحابه وأنجاد رجاله هنالك ؛ فأمر الموفّق بعض غلمانه بالدنوّ من الجسر وإحراق ما تهيأ إحراقُه من المراكب البحرية التي تليه ، وأخذ ما أمكن أخذُه منها . ففعل ذلك المأمورون به من الغلمان ، فزاد فعلهم في تحرّز الفاجر ومحاماته عن الجسر الثاني ، فألزم نفسه وجميع أصحابه حفظه وحراسته خوفاً من أن تتهيّأ حيله ، فيخرج الجانب الغربيّ عن يده ، ويُوطئه أصحاب الموفّق ؛ فيكون ذلك سبباً لاستئصاله ، فأقام الموفّق بعد إحراق الجسر الأول أياماً يعبرُ بجمع بعد جمع من غلمانه إلى الجانب الغربيّ من نهر أبي الخصيب ، فيحرقون ما بقي من منازل الفجرة ، ويقرُبون من الجسر الثاني فيحاربهم عليه الزنج .

وقد كان تخلّف منهم جمعٌ في منازلهم في الجانب الغربيّ المقاربة للجسر الثاني ، وكان غلمان الموفق يأتون هذا الموضع ويقفون على الطرق والمسالك التي كانت تخفي عليهم من عسكر الخبيث ؛ فلما وقف الموفّق على معرفة غلمانه وأصحابه بهذه الطريق واهتدائهم لسلوكها ، عزم على القصد لإحراق الجسر الثاني ليحوز الجانب الغربيّ من عسكر الخبيث ؛ وليتهيأ لأصحابه مساواتُهم على أرض واحدة ، لا يكون بينهما فيها حائل غير نهر أبي الخصيب ؛ فأمر الموفّق عند ذلك أبا العباس بقصد الجانب الغربيّ في أصحابه وغلمانه ، وذلك في يوم السبت لثمان بقين من شوال سنة تسع وستين ومائتين ، وتقدّم إليه أن يجعل خروجه بأصحابه في موضع البناء الذي كان الفاجر سمّاه مسجد الجامع ، وأن يأخذ الشارع المؤدي إلى الموضع الذي كان الخبيث اتخذه مصلًّى يحضره في أعياده ؛ فإذا انتهى إلى موضع المصلى عطف منه إلى الجبل المعروف بجبل المكتني بأبي عمرو أخي المهلبيّ ، وضمّ إليه من قُوّاد غلمانه الفرسان والرّجالة زُهاء عشرة آلاف ، وأمره أن يرتّب زِيرَك صاحب مقدّمته في أصحابه في صحراء المصلى ، ليأمن خروج كمين إن كان للفسقة من ذلك الموضع ، وأمر جماعة من قوّاد الغلمان أن يتفرقوا في الجبال التي فيها بين الجبل المعروف بالمكتني بأبي عمرو وبين الجبل المعروف بالمكتني أبا مقاتل الزنجيّ ، حتى توافَوْا جميعاً من هذه الجبال موضع الجسر الثاني في نهر أبي الخصيب ، وتقدّم إلى جماعة منن قوّاد الغلمان المضمومين إلى أبي العباس أن يخرجوا في أصحابهم بين دار الفاسق ودار ابنه أنكلاي،فيكون مسيرهم على شاطىء نهر أبي الخصيب وما قاربه ؛ ليتصلوا بأوائل الغلمان الذين يأتون على الجبال ، ويكون قصدُ الجميع إلى الجسر . وأمرهم بحمل الآلات من المعاول والفؤوس والمناشير مع جمع من النّفاطين لقطع ما يتهيّأ قطعُه ، وإحراق ما يتهيأ إحراقه ، وأمر راشداً مولاه بقصد الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب في مثل العِدّة التي كانت مع أبي العباس وقصد الجسر ومحاربة مَنْ يدافع عنه ، ودخل أبو أحمد نهر أبي الخصيب في الشّذَا ، وقد أعدّ منها شَذَوات رتّب فيها من أنجاد غلمانه الناشبة والرّامحة مَن ارتضاه ، وأعدّ معهم من الآلات التي يقطع بها الجسر ما يحتاج إليه لذلك ؛ وقدّمهم أمامه في نهر أبي الخصيب ، واشتبكت الحرب في الجانبين جميعاً بين الفريقين ، واشتدّ القتال .

وكان في الجانب الغربيّ بإزاء أبي العباس ومَنْ معه أنكلاي ابن الفاسق في جيشه ، وسليمان بن جامع في جيشه ، وفي الجانب الشرقيّ بإزاء راشد ومَن معه الفاجر صاحب الزَّنْج والمهلّبيّ في باقي جيشهم ، فكانت الحرب في ذلك اليوم إلى مقدار ثلاث ساعات من النهار . ثم انهزمت الفسقة لا يلوُون على شيء ، وأخذت

السُيوفُ منهم مأخَذَها ، وأخذ من رؤوس الفسقة ما لم يقع عليه إحصاء لكثرته ؛ فكان الموفّق إذا أتِي برأس من الرؤوس أمر بإلقائه في نهر أبي الخصيب ، ليدع المقاتلة الشغل بالرؤوس ، ويجدّوا في اتباع عدوّهم ، وأمر أصحاب الشذا الذين رتبهم في نهر أبي الخصيب بالدنوّ من الجسر وإحراقه ، ودفع مَنْ تحامى عنه من الزَّنْج بالسهام ؛ ففعلوا ذلك وأضرموا الجسر ناراً ، ووافى أنكلاي وسليمان في ذلك الوقت جريحَيْن مهـزومَيْن ، يريدان العبور إلى شرقيّ نهر أبي الخصيب ، فحالت النار بينهما وبين الجسر ، فألقوْا أنفسهما ومن كان معهما من حُماتِهِم في نهر أبي الخصيب ، فغرق منهم خلق كثير ، وأفلت أنكلاي وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك ، واجتمع على الجسر من الجانبين خلق كثير ، فقطِع بعد أن ألقيت عليه سفينة مملوءة قصباً مضروماً بالنار ، فأعانت على قطعه وإحراقه ، وتفرّق الجيش في نواحي مدينة الخبيث من الجانبين جميعاً ، فأحرقوا مِن دورهم وقصورهم وأسواقهم شيئاً كثيراً ، واستنقذوا من النساء المأسورات والأطفال ما لا يُحصى عدده ، وأمر الموفّق المقاتلة بحملهم في سفنهم والعبور بهم إلى الموفقيّة .

وقد كان الفاجر سكن بعد إحراق قصره ومنازله الدّار المعروفة بأحمد بن موسى القَلوص والدّار المعروفة بمحمد بن إبراهيم أبي عيسى ، وأسكن ابنه أنكلاي الدار المعروفة بمالك ابن أخت القَلُوص ؛ فقصد جماعة من غلمان الموفق المواضع التي كان الخبيث يسكنها فدخلوها ، وأحرقوا منها مواضع ، وانتهبوا منها ما كان سَلم للفاسق من الحريق الأول ، وهرب الخبيث ولم يوقَف في ذلك اليوم على مواضع أمواله . واستنقذ في هذا اليوم نسوة عَلَويّات كنّ محتبسات في موضع قريب من داره التي كان يسكنها ، فأمر الموفق بحملهنّ إلى عسكره ، وأحسن إليهنّ ، ووصلهنّ ، وقصد جماعة من غلمان الموفق من المستأمنة المضمومين إلى أبي العباس سجناً كان الفاسق اتّخذه في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب ، ففتحوه وأخرجوا منه خلقاً كثيراً ممّن كان أسِر من العساكر التي كانت تحارب الفاسق وأصحابه ، ومن سائرالناس غيرهم . فأخرج جميعهم في قيودهم وأغلالهم حتى أتِيَ بهم الموفّق ، فأمر بفكّ الحديد عنهم وحملهم إلى الموفقيّة ، وأخرج في ذلك اليوم كل ما كان بقي في نهر أبي الخصيب من شذاً ومراكب بحرية وسفن صغار وكبار وحَرّاقات وزلّالات وغير ذلك من أصناف السفن من النهر إلى دِجْلة ، وأباحها الموفق أصحابه وغلمانه مع ما فيها من السلب والنهب الذي حازوا في ذلك اليوم من عسكر الخبيث ، وكان ذلك قدر جليل وخطر عظيم .

وفيها كان إحدار المعتمد إلى واسط ، فسار إليها في ذي القعدة وأنزل دار زِيرك .

وفيها سأل أنكلاي ابن الفاسق أبا أحمد الموفّق الأمان ، وأرسل إليه في ذلك رسولاً ، وسأل أشياء فأجابه الموفق إلى كلّ ما سأله ، وردّ إليه رسوله ، وعرض للموفّق بعقب ذلك ما شغله عن الحرب . وعلم الفاسق أبو أنكلاي بما كان من ابنه فعذَله ـ فيما ذكر ـ على ذلك ، حتى ثناه عن رأيه في طلب الأمان ، فعاد للجِدّ في قتال أصحاب الموفق ، ومباشرة الحرب بنفسه .

وفيها وجه أيضاً سليمان بن موسى الشعرانيّ ـ وهو أحد رؤساء أصحاب الفاسق ـ من يطلب الأمان له من أبي أحمد ، فمنعه أبو أحمد ذلك ، لِمَا كان سلف منه من العبث وسفك الدماء ، ثم اتصل به أنّ جماعةً من أصحاب الخبيث قد استوحشوا لمنعة ذلك الشعرانيّ ، فأجابه أبو أحمد إلى إعطائه الأمان ؛ استصلاحاً بذلك غيره من أصحاب الفاسق، وأمر بتوجيه الشَّذَا إلى الموضع الذي واعدهم الشعرانيّ ، ففعل ذلك ، فخرج

الشعرانيّ وأخوه وجماعة من قوّاده ، فحملهم في الشَّذا ، وقد كان الخبيث حرسَ به مؤخّر نهر أبي الخصيب ، فحمله أبو العباس إلى الموفق ، فمنَّ عليه ، ووفّي له بأمانه ، وأمر به فوُصل ووُصل أصحابه ، وخلع عليهم ، وحمل على عدّة أفراس بسروجها وآلتها ، ونزَّله وأصحابه أنزالاً سنية ، وضمه وإياهم إلى أبي العباس ، وجعله في جملة أصحابه ، وأمره بإظهاره في الشَّذَا لأصحاب الخائن ليزدادوا ثقةً بأمانه ؛ فلم يبرح الشَّذا من موضعها من نهر أبي الخصيب ، حتّى استأمن جمع كثير من قوّاد الزّنج وغيرهم ، فحمِلوا إلى أبي أحمد ، فوصلهم وألحقهم في الخلع والجوائز بمن تقدّمهم .

ولما استأمن الشعرانيّ اختلّ ما كان الخبيث يضبط به من مؤخر عسكره ، ووَهى أمرُه وضعف ؛ فقلّد الخبيث ما كان إلى الشعرانيّ من حفظ ذلك شِبل بن سالم ،وأنزله مؤخّر نهر أبي الخصيب ، فلم يُمس الموفّق من اليوم الذي أظهر فيه الشعرانيّ لأصحاب الخبيث حتى وافاه رسولُ شبْل بن سالم يطلب الأمان ، ويسأل أن يوقف شَذَوات عند دار ابن سمعان ؛ ليكون قصدُه فيمن يصحبه من قوّاده ورجاله في الليل إليها .

فأعطِيَ الأمانَ ، ورُدّ إليه رسوله ، ووُقِفَت له الشَّذا في الموضع الذي سأل أن توقَف له ؛ فوافاها في آخر الليل ومعه عياله وولده وجماعة من قوّاده ورجاله ، وشهَر أصحابه سلاحَهم ؛ وتلقّاهم قوم من الزّنج قد كان الخبيث وجّههم لمنعه من المصير إلى الشَّذا . وقد كان خبره انتهى إليه ، فحاربهم شبل وأصحابُه ، وقتلوا منهم نفراً ؛ فصاروا إلى الشَّذا سالمين ، فصِير بهم إلى قصر الموفق بالموفقية ، فوافاه وقد ابتلج الصبح ؛ فأمر الموفق أن يوصَل شبل بصلة جزيلة ، وخلع عليه خلعاً كثيرة ، وحمله على عدّة أفراس بسروجها ولُجمها .

وكان شبل هذا من عُدد الخبيث وقدماء أصحابه وذوي الغَنَاء والبلاء في نُصرته ، ووصل أصحاب شبل ، وخلع عليهم ، وأسنِيت له ولهم الأرزاق والأنزال ، وضُموا جميعاً إلى قائد من قوّاد غلمان الموفق ، ووُجّه به وبأصحابه في الشَّذا ، فوقفوا بحيث يراهم الخبيث وأشياعه . فعظم ذلك على الفاسق وأوليائه ، لِمَا رأوْا من رغبة رؤسائهم في اغتنام الأمان ، وتبين الموفّق من مناصحة شبل وجودة فهمه ما دعاه إلى أن يستكفِيَه بعض الأمور التي يكيد بها الخبيث ؛ فأمره بتبييت عسكر الخبيث في جمع أمر بضمِّهم إليه من أبطال الزَّنْج المستأمنة ، وأفرده وإيّاهم بما أمرهم به من البيات ؛ فعلمهم بالمسالك في عسكر الخبيث .

فنفذ شبل لِمَا أمِر به ، فقصد موضعاً كان عرفه ، فكبسه في السَّحَر ، فوافَى به جمعاً كثيفاً من الزَّنْج في عدّة من قُوّادهم وحماتهم ، قد كان الخبيث رتَّبهم في الدفع عن الدار المعروفة بأبي عيسى ، وهي منزل الخبيث حينئذ ، فأوقع بهم وهم غارّون ، فقَتل منهم مقتلةً عظيمة ، وأسر جمعاً من قوّاد الزّنج ، وأخذ لهم سلاحاً كثيراً ، وانصرف ومَنْ كان معه سالمين ، فأتي بهم الموفَّق ، فأحسن جائزتهم وخلع عليهم ، وسوَّر جماعة منهم .

ولما أوقع أصحاب شبل بأصحاب الخائن هذه الوقعة ذعرهم ذلك ذُعْراً شديداً ، وأخافهم ومنعهم النوم ؛ فكانوايتحارسون في كلّ ليلة ، ولا تزال النَّفَرة تقع في عسكرهم لَمَا استشعروا من الخوف ، ووصل إلى قلوبهم من الوَحشة ؛ حتى لقد كان ضجيجهم وتحارسهم يُسمَع بالموفقيّة .

ثم أقام الموفق بعد ذلك ينفذ السرايا إلى الخبثة ليلاً ونهاراً من جانبي نهر أبي الخصيب ، ويكدّهم بالحرب ، ويُسْهر ليلهم ، ويحول بينهم وبين طلب أقواتهم ، وأصحابه في ذلك يتعرّفون المسالك ، ويتدرَّبون

بالوغول في مدينة الخبيث وتقحّمها ، ويصرُّون من ذلك على ما كانت الهيبة تحولُ بينهم وبينه ؛ حتى إذا ظنّ الموفق أن قد بلغ أصحابه ما كانوا يحتاجون إليه ، صحّ عزمه على العبور إلى محاربة الفاسق في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب ، فجلس مجلساً عامًّا ، وأمر بإحضار قوّاد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجَّالتهم من الزَّنج والبِيضان ، فأدخِلُوا إليه ، ووقفوا بحيث يسمعون كلامه . ثم خاطبهم فعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم ، وما كان الفاسق ديَّن لهم من معاصي الله ؛ وأن ذلك قد كان أباح له دماءهم ، وأنه قد غفر الزَّلَّة ، وعفا عن الهفوة ، وبذل الأمان ، وعاد على مَنْ لجأ إليه بفضله ، فأجزل الصّلات ، وأسنى الأرزاق ، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة ؛ وأن ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقه وطاعته ؛ وأنهم لن يأتوا شيئاً يتعرّضون به لطاعة ربهم والاستدعاء لرضا سلطانهم ؛ أَوْلى بهم من الجدّ والاجتهاد في مجاهدة عدوّ الله الخائن وأصحابه ، وأنهم من الخبرة بمسالك عسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي أعدّها للهرب إليها على ما ليس عليه غيرهم ؛ فهم أحرياء أن يُمْحضُوه نصيحتهم ، ويجتهدوا في الوُلُوج على الخبيث ؛ والتوغّل إليه في حصونه ، حتى يمكنهم الله منه ومن أشياعه ، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد . وإن مَنْ قصّر منهم استدعى من سلطانه إسقاطَ حاله وتصغير منزلته ، ووضع مرتبته ، فارتفعت أصواتُهم جميعاً بالدّعاء للموفق والإقرار بإحسانه ، وبما هم عليه من صحة الضمائر في السمع والطاعة والجدّ في مجاهدة عدوّه ، وبذل دمائهم ومُهجهم في كلّ ما يقرّ بهم منه ، وأن ما دعاهم إليه قد قوّي نيَّتهم ، ودلهم على ثقته بهم وإحلاله إياهم محلَّ أوليائه ، وسألوه أن يُفردهم بناحية يحاربون فيها ، فيظهر من حسن نيَّاتهم ونكايتهم في العدوّ ما يعرف به إخلاصهم وتورّعهم عما كانوا عليه من جهلهم ، فأجابهم الموفق إلى ما سألوا ، وعرّفهم حُسن موقع ما ظهر له من طاعتهم ، وخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد .

وفي ذي القعدة من هذه السنة دخل الموفق مدينة الفاسق بالجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب ، فخرّب داره ، وانتهب ما كان فيها .

ذكر الخبر عن هذه الوقعة :

ذكر أن أبا أحمد لما عزم على الهجوم على الفاسق في مدينته بالجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب ، أمر بجمع السفن والمعابر من دِجْلة والبَطيحة ونواحيها ليضيفها إلى ما في عسكره ؛ إذ كان ما في عسكره مقصّراً عن الجيش لكثرته ، وأحصى ما في الشَّذا والسُّميريات والرّقيَّات التي كانت تعبر فيها الخيل ، فكانوا زهاء عشرة آلاف سلّاح ، ممن يجري عليه الرزق من بيت المال مشاهرة ، سوى سفن أهل العسكر التي يحمل فيها المِيرة ، ويركبها الناس في حوائجهم ، وسوى ما كان لكلّ قائد ومن يحضر من أصحابه من السمَيريات والجريبيات والزّواريق التي فيها الملاحون الراتبة . فلمّا تكاملت له السفن والمعابر ، ورضي عددَها ، تقدّم إلى أبي العباس وإلى قوّاد مواليه وغلمانه في التأهّب والاستعداد للقاء عدّوهم ، وأمر بتفرقة السفن والمعابر إلى حمل الخيل والرّجالة ، وتقدّم إلى أبي العباس في أن يكون خروجه في جيشه في الجانب الغربيّ من نهر أبي الخصيب ، وضمّ إليه قوّاداً من قُوّاد غلمانه في زُهاء ثمانية آلاف من أصحابهم ، وأمره أن يعمد مؤخّر عسكر الفاسق حتى يتجاوز دار المعروف بالمهلبيّ ، وقد كان الخبيث حصَّنها وأسكن بقربها خَلْقاً كثيراً من أصحابه ؛ ليأمن على مؤخّر عسكره ، وليصعب على من يقصده المسلك إلى هذا الموضع .

فأمر أبو أحمد أبا العباس بالعبور بأصحابه إلى الجانب الغربيّ من نهر أبي الخصيب ، وأن يأتيَ هذه الناحية من ورائها ، وأمر راشداً مولاه بالخروج في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب في عدد كثير من الفرسان والرّجّالة زُهاء عشرين ألفاً ، وأمر بعضَهم بالخروج في ركن دار المعروف بالكرنبائيّ كاتب المهلبيّ ، وهي على قرنة نهر أبي الخصيب في الجانب الشرقيّ منه ، وأمرهم أن يجعلوا مسيرهم على شاطىء النهر حتى يوافُوا الدار التي نزلها الخبيث ؛ وهي الدار المعروفة بأبي عيسى . وأمر فريقاً من غلمانه بالخروج على فُوّهة النهر المعروف بأبي شاكر ،وهو أسفل من نهر أبي الخصيب،وأمر آخرين منهم بالخروج في أصحابهم على فُوّهة النهر المعروف بجوى كور ، وأوعز إلى الجميع في تقديم الرّجّالة أمام الفرسان ، وأن يزحفوا بجميعهم نحو دار الخائن ؛ فإن أظفرهم الله به وبِمَنْ فيها من أهله وولده وإلاّ قصدوا دار المهلبيّ ليلقاهم هناك من أمر بالعبور مع أبي العباس ؛ فتكون أيديهم يداً واحدة على الفسقة .

فعمل أبو العباس وراشد وسائر قوّاد الموالي والغلمان بما أمِرُوا به ، فظهروا جميعاً ، وأبرزوا سفنهم في عشيّة الإثنين لسبع ليال خلوْن من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين ، وسار الفرسان يتلُو بعضهم بعضاً ، ومشت الرّجّالة وسارت السفن في دِجلة منذ صلاة الظهر من يوم الاثنين إلى آخر وقت عشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء ، فانتهوْا إلى موضع من أسفل العسكر ؛ وكان الموفق أمر بإصلاحه وتنظيفه وتنقية ما فيه من خراب ودَغل ، وطمّ سواقيه وأنهاره حتى استوى واتّسع ، وبعدت أقطارُه . واتخذ فيه قصراً وميداناً لعرض الرجال والخيل بإزاء قصر الفاسق ؛ وكان غرضه في ذلك إبطال ما كان الخبيث يَعِد به أصحابه من سرعة انتقاله عن موضعه ؛ فأراد أن يُعلم الفريقين أنه غير راحل حتى يَحكم الله بينه وبين عدُوّه ؛ فبات الجيش ليلة الثلاثاء في هذا الموضع بإزاء عسكر الفاسق ؛ وكان الجميع زُهاء خمسين ألف رجل من الفرسان والرّجّالة في أحسن زِيٍّ وأكمل هيئة ، وجعلوا يكبّرون ويهللون ، ويقرؤون القرآن ، ويصلّون ، ويوقدون النار .

فرأى الخبيث من كثرة الجمع والعُدّة والعدد ما بهر عقله وعقول أصحابه ؛ وركب الموفق في عشية يوم الاثنين الشّذَا ؛ وهي يومئذ مائة وخمسون شَذَاة قد شحنها بأنجاد غلمانه ومواليه الناشبة والرّامحة ، ونظمها من أوّل عسكر الخائن إلى آخره ؛ لتكون حصناً للجيش من ورائه ، وطُرِحت أناجرها بحيث تقرب من الشطّ ، وأفرِد منها شذوات اختارها لنفسه ، ورتّب فيها من خاصّة قوّاد غلمانه ليكونوا معه عند تقحّمه نهر أبي الخصيب ؛ وانتخب من الفرسان والرّجّالة عشرة آلاف ، وأمرهم أن يسيروا على جانبي نهر أبي الخصيب بمسيره ، ويقفوا بوقوفه ، ويتصرّفوا فيما رأى أن يصرّفهم فيه في وقت الحرب .

وغدا الموفق يوم الثلاثاء لقتال الفاسق صاحب الزّنْج ، وتوجّه كلّ رئيس من رؤساء قوّاده نحو الموضع الذي أمِر بقصده ، وزحف الجيش نحو الفاسق وأصحابه، فتلقّاهم الخبيث في جيشه ، واشتبكت الحرب ، وكثر القتل والجراح بين الفريقين ، وحامى الفسقة عما كانوا اقتصروا عليه من مدينتهم أشدّ محاماة ، واستماتوا ، وصبر أصحاب الموفق ، وصدقوا القتال ؛ فمنّ الله عليهم بالنصر ، وهزم الفسقة، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا من مقاتلتهم وأنجادهم جمعاً كثيراً .

وأتِي الموفق بالأسارى ، فأمر بهم فضرِبت أعناقهم في المعركة ، وقصد بجمعه لدار الفاجر فوافاها ، وقد لجأ الخبيث إليها ، وجمع أنجاد أصحابه للمدافعة عنها ؛ فلمّا لم يغنُوا عنها شيئاً أسلمها ، وتفرّق أصحابه عنها ،

ودخلها غلمان الموفّق ، وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله وأثاثه؛ فانتهبوا ذلك كلَّه ، وأخذوا حرمه وولده الذكور والإناث ؛ وكانوا أكثر من مائة بين امرأة وصبيّ ، وتخلّص الفاسق ومضى هارباً نحو دار المهلبيّ ، لا يلوي على أهل ولا مال ، وأحرقت داره وما بقي فيها من متاع وأثاث ، وأُتِيَ الموفّق بنساء الخبيث وأولاده ؛ فأمر بحملهم إلى الموفقية والتوكيل بهم ، والإحسان إليهم .

وكان جماعة من قواد أبي العباس عبروا نهر أبي الخصيب ، وقصدوا الموضع الذي أمِرُوا بقصْده من دار المهلبيّ ، ولم ينتظروا إلحاق أصحابهم بهم ، فوافوْا دار المهلبيّ ، وقد لجأ إليها أكثرُ الزّنج بعد انكشافهم عن دار الخبيث ؛ فدخل أصحاب أبي العباس الدّار ، وتشاغلوا بالنهب وأخذِ ما كان غلب عليه المهلبيّ من حرم المسلمين وأولاده منهنّ ، وجعل كلّ مَنْ ظفر بشيء انصرف به إلى سفينته في نهر أبي الخصيب .

وتبين الزّنج قلة مَنْ بَقِيَ منهم وتشاغلهم بالنهب ، فخرجوا عليهم من عدَّة مواضع قد كانوا كمنوا فيها ، فأزالوهم عن مواضعهم ؛ فانكشفوا ، وأتبعهم الزَّنْج حتى وافوْا نهر أبي الخصيب وقَتَلوا مِنْ فرسانهم ورجّالتهم جماعةً يسيرة ، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوا من النساء والمتاع .

وكان فريق من غلمان الموفق وأصحابه الذين قصدوا دار الخبيث في شرقيّ نهر أبي الخصيب تشاغلوا بالنَّهب وحمْل الغنائم إلى سفنهم ؛ فأطمع ذلك الزَّنج بهم ، فأكبُّوا عليهم ، فكشفوهم واتَّبعوا آثارهم إلى الموضع المعروف بسوق الغنم من عسكر الزَّنْج ، فثبتت جماعة من قُوَّاد الغلمان في أنجاد أصحابهم وشجعانهم ، فردّوا وجوه الزَّنج حتى ثاب الناس ، وتراجعوا إلى مواقفهم ، ودامت الحرب بينهم إلى وقت صلاة العصر فأمر أبو أحمد عند ذلك غلمانه أن يحملوا على الفسقة بأجمعهم حملةً صادقة ، ففعلوا ذلك، فانهزم الزَّنْج وأخذتهم السيوف حتى انتهوْا إلى دار الخبيث ؛ فرأى الموفّق عند ذلك أن يصرف غلمانه وأصحابه على إحسانهم ، فأمرهم بالرجوع ؛ فانصرفوا على هدوّ وسكون ؛ فأقام الموفق في النهر ومَنْ معه في الشَّذا يحميهم ؛ حتى دخلوا سفنهم ، وأدخلوها خيلهم ، وأحجم الزَّنْج عن اتّباعهم لما نالهم في آخر الوقعة .

وانصرف الموفّق ومعه أبو العباس وسائر قوّاده وجميع جيشه قد غنموا أموال الفاسق ، واستنقذوا جمعاً من النساء اللَّواتي كان غلب عليهنّ من حرم المسلمين كثيراً ، جعلن يخرجن في ذلك اليوم أرسالاً إلى فوّهة نهر أبي الخصيب ، فيحمَلن في السفن إلى الموفقيّة إلى انقضاء الحرب .

وكان الموفق تقدّم إلى أبي العباس في هذا اليوم أن ينفذ قائداً من قوّاده في خمس شَذَوات إلى مؤخر عسكر الخبيث بنهر أبي الخصيب ، لإحراق بيادرَ ثمّ جليلٍ قدرها ، كان الخبيث يقوت أصحابه منها من الزَّنْج وغيرهم ، ففعل ذلك وأحرق أكثرَه . وكان إحراق ذلك من أقوى الأشياء على إدخال الضعف على الفاسق وأصحابه ، إذ لم يكن لهم معوّل في قوّتهم غيره؛ فأمر أبو أحمد بالكتاب بما تهيأ له على الخبيث وأصحابه في هذا اليوم إلى الآفاق ليُقرأ على الناس ، ففعل ذلك .

وفي يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من ذي الحجة من هذه السنة وافى عسكر أبي أحمد صاعد بن مخلد كاتبه منصرفاً إليه من سامُرّا ، ووافَى معه بجيش كثيف قيل إنّ عدد الفرسان والرّجَّالة الذين قدموا كان زُهاء عشرة آلاف ، فأمر الموفّق بإراحة أصحابه وتجديد أسلحتهم وإصلاح أمورهم ؛ وأمرَهم بالتأهب لمحاربة الخبيث . فأقام أياماً بعد قدومه لما أمِر به .

فهم في ذلك من أمرهم ؛ إذْ ورد كتاب لؤلؤ صاحب ابن طولون مع بعض قوّاده ، يسأله فيه الإذن له في القُدوم عليه ؛ ليشهد عليه حرب الفاسق . فأجابه إلى ذلك ، فأذن له في القدوم عليه ، وأخّرَ ما كان عزم عليه من مناجزة الفاجر انتظاراً منه قدوم لؤلؤ ؛ وكان لؤلؤ مقيماً بالرَّقة في جيش عظيم من الفراغنة والأتراك والرّوم والبربر والسودان وغيرهم ، من نخبة أصحاب ابن طولون ؛ فلما ورد على لؤلؤ كتاب أبي أحمد بالإذن له في القدوم عليه ، شخص من ديار مضر حتى ورد مدينة السلام في جميع أصحابه ، وأقام بها مدّة ، ثم شخص إلى أبي أحمد فوافاه بعسكره يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة سبعين ومائتين ، فجلس له أبو أحمد ، وحضر ابنه أبو العباس وصاعد والقوّاد على مراتبهم ؛ فأدخِل عليه لؤلؤ في زيّ حسن ، فأمر أبو العباس أن ينزل معسكراً كان أعدّ له بإزاء نهر أبي الخصيب ، فنزله في أصحابه ، وتقدّم إليه في مباكرة المصير إلى دار الموفّق ، ومعه قوّاده وأصحابه للسلام عليه . فغدا لؤلؤ يوم الجمعة لثلاث خلوْن من المحرّم ، وأصحابُه معه في السواد ، فوصل إلى الموفق وسلّم عليه فقرّبه وأدناه ، ووعده وأصحابه خيراً ، وأمر أن يخلع عليه وعلى خمسين ومائة قائد من قُوّاده ، وحمله على خيل كثيرة بالسُّروج واللجُم المحلاّة بالذهب والفضّة ، وحمِل بين يديه من أصناف الكسي والأموال في البُدُور ما يحمله مائة غلام ؛ وأمر لقوّاده من الصلات والحُملان والكُسي على قدر محلّ كلّ إنسان منهم عنده ، وأقطعه ضياعاً جليلة القدر ، وصرفه إلى عسكره بإزاء نهر أبي الخصيب بأجمل حال ، وأعِدّت له ولأصحابه الأنزال والعَلُوفات ، وأمره برفع جرائد لأصحابه بمبلغ أرزاقهم على مراتبهم ؛ فرفع ذلك ؛ فأمر لكلّ إنسان منهم بالضِّعف مما كان يجري له وأمر لهم بالعطاء عند رفع الجرائد ، ووفَّوْا ما رسم لهم .

ثم تقدّم إلى لؤلؤ في التأهب والاستعداد للعبور إلى غربيّ دِجْلة لمحاربة الفاسق وأصحابه؛ وكان الخبيث لما غلب على نهر أبي الخصيب، وقُطعت القناطر والجسور التي كانت عليه أحدث سَكراً في النهر من جانبيه، وجعل في وسط السَّكْر باباً ضيّقاً ليحتدّ فيه جرية الماء، فيمتنع الشَّذَا من دخوله في الجزْر، ويتعذّر خروجها منه في المدّ، فرأى أبو أحمد أنّ حربه لا تتهيأ له إلا بقلع هذا السَّكْر، فحاول ذلك، فاشتدّت محاماة الفَسَقة عنه، وجعلوا يزَيدون فيه في كلّ يوم وليلة، وهو متوسط دورهم، والمؤونة لذلك تسهل عليهم وتغلظ على مَنْ حاول قلعه.

فرأى أبو أحمد أن يحارب بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ، لِيَضْرَوا لمحاربة الزَّنْج، ويقفوا على المسالك والطرق في مدينتهم، فأمر لؤلؤاً أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السَّكْر، وأمر بإحضار الفَعَلة لقلعه، ففعل. فرأى الموفق من نجدة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه وصبرهم على ألم الجراح وثبات العدّة اليسيرة منهم، في وجوه الجمع الكثير من الزَّنْج ماسرّه. فأمر لؤلؤاً بصرف أصحابه إشفاقاً عليهم، وضنًّا بهم، فوصلهم الموفق، وأحسن إليهم، وردّهم إلى معسكرهم، وألحّ الموفَّق على هذا السَّكْر؛ فكان يحارب المحامين عنه من أصحاب الخبيث بأصحاب لؤلؤ وغيرهم، والفَعلة يعملون في قَلْعه، ويحارب الفاجر وأشياعه من عدّة وجوه، فيحرق مساكنهم، ويقتل مقاتلَتهم، ويستأمن إليه الجماعة من رؤسائهم.

وكانت قد بقيَتْ للخبيث وأصحابه أرَضُون من ناحية نهر الغربيّ، كان لهم فيها مزارع وخُضَر وقنطرتان على نهر الغربيّ، يعبرون عليها إلى هذه الأرَضين، فوقف أبو العباس على ذلك فقصد لتلك الناحية، واستأذن

الموفق في ذلك، فأذن له، وأمره باختيار الرّجال، وأن يجعلهم شجعاء أصحابه وغلمانه؛ ففعل أبو العباس ذلك، وتوجه نحو نهر الغربيّ، وجعل زِيرك كميناً في جمع من أصحابه في غربيّ النهر، وأمر رشيقاً غلامه أن يقصدَ في جمع كثير من أنجاد رجاله ومختاريهم للنهر المعروف بنهر العَمَيْسيين؛ ليخرج في ظهور الزَّنْـج وهم غارّون، فيوقع بهم في هذه الأرضين. وأمر زِيرك أن يخرج في وجوههم إذا أحسَّ بانهزامهم من رشيق.

وأقام أبو العباس في عدة شذوات قد انتخب مقاتلتها واختارهم في فوّهة نهر الغربيّ، ومعه من غلمانه البيضان والسودان عدد قد رضيَه؛ فلما ظهر رشيق للفَجرة في شرقيّ نهر الغربيّ، راعهم فأقبلوا يريدون العبور إلى غربيه ليهربوا إلى عسكرهم؛ فلما عاينهم أبو العباس اقتحم النّهر بالشّذَوات، وبث الرّجّالة على حافتَيْه، فأدركوهم ووضعوا السيف فيهم، فقتل منهم في النهر وعلى ضفّتيه خَلْق كثير، وأسر منهم أسـرى، وأفلت آخرون، فتلقاهم زيرك في أصحابه فقتلوهم، ولم يُفلت منهم إلاّ الشريد، وأخذ أصحاب أبي العباس من أسلحتهم ما ثقل عليهم حمله؛ حتى ألقوا أكثره. وقطع أبو العباس القنطرتيْن، وأمر بإخراج ما كان فيهما من البُدود والخشب إلى دِجْلة وانصرف إلى الموفق بالأسارى والرؤوس، فطِيف بها في العسكر، وانقطع عن الفسقة ما كانوا يرتفِقُون به من المزارع التي كانت بنهر الغربيّ.

وفي ذي الحجة من هذه السنة. أعني سنة تسع وستين ومائتين ـ أدخِل عيال صاحب الزّنج وولده بغداد.

وفيها سُمِّيَ صاعد ذا الوزارتين.

وفي ذي الحجة منها كانت وقعة بين قائدين وجيش معهما لابن طولون كان أحدهما يسمّى محمد بن السراج والآخر منهما يعرف بالغَنويّ، كان ابن طولون وجّههما، فوافيا مكة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي القعدة في أربعمائة وسبعين فارساً وألفَيْ راجل، فأعطوا الجزّارين والحنّاطين دينارين دينارين، والرؤساء سبعة سبعة، وهارون بن محمد عامل مكة إذْ ذاك ببستان ابن عامر، فوافى مكة جعفر بن الباغمرديّ لثلاث خَلَوْن من ذي الحجة في نحو من مائتي فارس، وتلقّاه هارون في مائة وعشرين فارساً ومائتي أسود وثلاثين فارسـاً من أصحاب عمرو بن الليث ومائتي راجل ممّن قدم من العراق، فقويَ بهم جعفر، فالتقوْا هم وأصحاب ابن طولون، وأعان جعفراً حاجُّ أهل خراسان، فقتِل من أصحاب ابن طولون ببطن مكة نحو من مائتي رجل، وانهزم الباقون في الجبال، وسلِبوا دوابّهم وأموالهم، ورفع جعفر السيف، وحوى جعفر مضرب الغَنَـوِيّ. وقيل: إنه كان فيه مائتا ألف دينار، وآمن المصريّين والحنّاطين والجزارين، وقُرِىء كتاب في المسجد الحرام بلعْن ابن طولون، وسلِم الناس وأموال التجار.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشميّ، ولم يبرح إسحاق بن كنداج ـ وقد وُلِّيَ المغرب كله في هذه السنة ـ سامرّا حتى انقضت السنة.

ثم دخلت سنة سبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة

ففي المحرّم منها كانت وقعة بين أبي أحمد وصاحب الزّنج أضعفت أركان صاحب الزنج.

وفي صفر منها قتل الفاجر، وأسر سليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ واستريح من أسباب الفاسق.

ذكر الخبر عن هاتين الوقعتين:

قد ذكرنا قبل أمر السَّكْر الذي كان الخبيث أحدثه، وما كان من أمر أبي أحمد وأصحابه في ذلك. ذكر أن أبا أحمد لم يزل ملحًّا على الحرب على ذلك السَّكْر حتى تهيّأ له فيه ما أحبّ، وسهل المدخل للشَّذا في نهر أبي الخصيب في المدّ والجزر، وسهّل لأبي أحمد في موضعه الذي كان مقيماً فيه كل ما أراده من رُخْص الأسعار وتتابع المِيَر وحَمْل الأموال إليه من البلدان ورغبة الناس في جهاد الخبيث ومَنْ معه من أشياعه؛ فكان ممّن صار إليه من المطوّعة أحمد بن دينار عامل إيذَج ونواحيها من كُور الأهواز في جمع كثير من الفرسان والرّجّالة؛ فكان يباشر الحرب بنفسه وأصحابه إلى أن قُتل الخبيث. ثم قدم بعده من أهل البحرين ـ فيما ذكر ـ خلق كثير، زُهاء ألفي رجل، يقودهم رجل من عبد القيس، فجلس لهم أبو أحمد، ودخل إليه رئيسهم ووجوههم؛ فأمر أن يُخلع عليهم؛ واعترض رجالهم أجمعين. وأمر بإقامة الأنزال لهم، وورد بعدهم زهاء ألف رجل من كُورفارس، يرأسهم شيخ من المطوّعة يكنى أبا سلمة، فجلس لهم الموفّق، فوصل إليه هذا الشيْخ ووجوه أصحابه، فأمر لهم بالخِلع، وأقرّ لهم الأنزال، ثم تتابعت المطوّعة من البلدان؛ فلما تيسر له ما أراد من السَّكْر الذي ذكرنا، عزم على لقاء الخبيث، فأمر بإعداد السفن والمعابر وإصلاح آلة الحرب في الماء وعلى الظَّهْر، واختار مَنْ يثِق ببأسه ونجدته في الحرب فارساً وراجلاً؛ لضيق المواضع التي كان يحارب فيها وصعوبتها وكثرة الخنادق والأنهار بها؛ فكان عِدّة مَنْ تخيّر من الفرسان زُهاء ألفي فارس، ومن الرَّجالة خمسين ألفاً أو يزيدون، سوى مَنْ عبر من المطوّعة وأهل العسكر، ممّن لا ديوان له، وخلّف بالموفقيّة من لم يتسع السفن بحمله جمًّا كثيراً أكثرهم من الفرسان.

وتقدّم الموفّق إلى أبي العباس في القصد للموضع الذي كان صار إليه في يوم الثلاثاء لعشر خلوْن من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين من الجانب الشرقيّ بإزاء دار المهلبيّ في أصحابه وغلمانه ومَنْ ضمّهم إليه من الخيل والرجّالة والشَّذا. وأمر صاعد بن مخلَد بالخروج على النهر المعروف بأبي شاكر في الجانب الشرقيّ أيضاً، ونظم القوّاد من مواليه وغلمانه من فُوْهة نهر أبي الخصيب إلى نهر الغـربيّ. وكان فيمن خـرج من حدّ دار الكرنبائيّ إلى نهر أبي شاكر راشد ولؤلؤ، مولـيَا الموفق، في جمع من الفرسان والرّجالة زُهاء عشرين ألفاً، يتلو

بعضُهم بعضاً، ومن نهر أبي شاكر إلى النهر المعروف بجوى كور جماعة من قوّاد الموالي والغلمان، ثم من نهر جوى كور إلى نهر الغربيّ مثل ذلك. وأمر شبلاً أن يقصد في أصحابه ومَن ضُمّ إليه إلى نهر الغربيّ، فيأتي منه موازياً لظهر دار المهلبيّ، فيخرج من ورائها عند اشتباك الحرب، وأمر الناس أن يزحفوا بجميعهم إلى الفاسق؛ لا يتقدّم بعضهم بعضاً؛ وجعل لهم أمارة الزَّحْف؛ تحريك علم أسود أمر بنصبه على دار الكرنبائي بفُوّهة نهر أبي الخصيب في موضع منها مشيد عالٍ، وأن ينفخ لهم ببوق بعيد الصوت، وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث ليال بقين من المحرّم سنة سبعين ومائتين، فجعل بعض مَن كان على النهر المعروف بجوى كور يَزْحف قبل ظهور العلامة؛ حتى قرب من دار المهلبيّ، فلقيه وأصحابه الزَّنْج فردُّوهم إلى مواضعهم، وقَتَلُوا منهم جمعاً، ولم يشعر سائر الناس بما حدَث على هؤلاء المتسرِّعين للقتال لكثرتهم وبعد المسافة فيما بين بعضهم وبعض.

فلمّا خرج القوّاد ورجالهم من المواضع التي أمِرُوا بالخروج منها، واستوى الفرسان والرجّالة في أماكنهم، أمر الموفّق بتحريك العلَم والنفخ في البوق، ودخل النهر في الشَّذَا، وزحف الناس يتلو بعضهم بعضاً، فلقيَهم الزَّنج قد حشدوا وجمّوا واجترؤوا بما تهيأ لهم على من كان تسرّع إليهم، فلقيهم الجيش بنيّات صادقة وبصائر نافذة، فأزالوهم عن مواضعهم بعد كرّات كانت بين الفريقين، صُرِع فيها منهم جمع كثير. وصبر أصحاب أبي أحمد، فمنّ الله عليهم بالنّصر، ومنحهم أكتاف الفسقة، فولّوْا منهزمين، واتبعهم أصحاب الموفق، يقتلون ويأسرون. وأحاط أصحاب أبي أحمد بالفجرة من كلّ موضع، فقتل الله منهم في ذلك اليوم ما لا يحيط به الإحصاء، وغرق منهم في النهر المعروف بجوى كور مثل ذلك، وحوى أصحاب الموفّق مدينةَ الفاسق بأسرها، واستنقذوا مَنْ كان فيها من الأسرى من الرجال والنساء والصبيان، وظفروا بجميع عيال عليّ بن أبان المهلبيّ وأخويه الخليل ومحمد ابني أبان وسليمان بن جامع وأولادهم، وعبر بهم إلى المدينة الموفقيّة. ومضى الفاسق في أصحابه ومعه المهلبيّ وابنه أنكلاي وسليمان بن جامع وقوّاد من الزّنْج وغيرهم هُرّاباً، عامدين لموضع قد كان الخبيث رآه لنفسه ومَنْ معه ملجأ إذا غُلبوا على مدينته؛ وذلك على النهر المعروف بالسفيانيّ.

وكان أصحاب أبي أحمد حين انهزم الخبيث، وظفروا بما ظفروا به، أقاموا عند دار المهلبيّ الواغلة في نهر أبي الخصيب، وتشاغلوا بانتهاب ما كان في الدار وإحراقها وما يليها، وتفرّقوا في طلب النهب؛ وكُلّ مَا بقي للفاسق وأصحابه مجموعاً في تلك الدار.

وتقدم أبو أحمد في الشّذا قاصداً للنهر المعروف بالسفيانيّ، ومعه لؤلؤ في أصحابه الفرسان والرجالة، فانقطع عن باقي الجيش، فظنُّوا أنه قد انصرف، فانصرفوا إلى سفنهم بما حَوْوا، وانتهى الموفّق فيمن معه إلى معسكر الفاسق وأصحابه وهم منهزمون؛ فأتبعهم لؤلؤ وأصحابُه حتى عبروا النهر المعروف بالسفيانيّ، فاقتحم لؤلؤ النهر بفرسه، وعَبَر أصحابه خَلْفه، ومضى الفاسق حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريريّ، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابُه، فأوقعوا به وبمَنْ معه، فكشفوهم، فولّوْا هاربين وهم يتبعونهم، حتى عَبَرُوا النهر المعروف بالقريريّ، وعبر لؤلؤ وأصحابه خلفهم الجاؤهم إلى النهر المعروف بالمساوان، فعبروه واعتصموا بجبل وراءه.

وكان لؤلؤ وأصحابه الذين انفردوا بهذا الفعل دون سائر الجيش، فانتهى بهم الجدّ في طلب الفاسق وأشياعه إلى هذا الموضع الذي وصفنا في آخر النهار، فأمره الموفّق بالانصراف محمود الفعل، فحمله الموفّق معه في الشّذا، وجدّد له من البرّ والكرامة ورفع المرتبة، لما كان منه في أمر الفسقة حسب ما كان مستحقًّا. ورجَع الموفق في الشَّذَا في نهر أبي الخصيب وأصحاب لؤلؤ يسايرونه، فلما حاذى دار المهلبيّ، لم ير بها أحداً من

أصحابه، فعلم أنهم قد انصرفوا، فاشتدّ غيظه عليهم، وسار قاصداً لقصره، وأمر لؤلؤ بالمضيّ بأصحابه إلى عسكره، وأيقن بالفتح لما رأى من أمارته، واستبشر الناس جميعاً بما هيأ الله من هـزيمة الفـاسق وأصحابـه وإخراجهم عن مدينتهم، واستباحة كلّ ما كان لهم من مال وذخيرة وسلاح، واستنفاذ جميع من كان في أيديهم من الأسرى. وكان في نفس أبي أحمد على أصحابه من الغيظ لمخالفتهم أمره، وتركهم الوقوف حيث وقفهم، فأمر بجمع قوّاد مواليه وغلمانه ووجوههم؛ فجُمعوا له، فوبّخهم على ما كان منهم وعَجّزهم، وأغلظ لهم، فاعتذروا بما توهّموا من انصرافه، وأنهم لم يعلموا بمسيره إلى الفاسق وانتهائه إلى حيث انتهى من عسكره؛ وأنهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه، ولم يبرحوا موضعهم حتى تحالفوا وتعاقدوا على ألاّ ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث حتى يظفرهم الله به؛ فإن أعياهم ذلك أقاموا بمواضعهم حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا أن يأمر بردّ السفن التي يعبرون فيها إلى الموفقيّة عند خروجهم منها للحرب، لتنقطع أطماع الذين يريدون الرجوع عن حرب الفاسق من ذلك، فجزاهم أبو أحمد الخير على تنصّلهم من خـطئهم، ووعدهم الإحسـان، وأمرهم بالتأهّب للعبور، وأن يعظوا أصحابهم بمثل الذي وُعِظوا به. وأقام الموفق بعد ذلك يوم الثلاثاء والأربعـاء والخميس والجمعة لإصلاح ما يحتاج إليه؛ فلما كَمَل ذلك تقدّم إلى من يثِق إليه من خاصّتـه وقُوّاد غلمـانه ومواليه، بما يكون عليه عملُهم في وقت عبورهم.

وفي عشيّ يوم الجمعة، تقدّم إلى أبي العباس وقوّاد غلمانه ومواليه بالنهوض إلى مواضع سمّاها لهم؛ فأمر أبا العباس بالقصد في أصحابه إلى الموضع المعروف بعسكر ريحان، وهو بين النهر المعروف السفيانيّ والموضع الذي لجأ إليه، وأن يكون سلوكه بجيشه في النهر المعروف بنهر المغيرة؛ حتى يخرج بهم في معترَض نهر أبي الخصيب، فيوافي بهم عسكَر ريحان من ذلك الوجه، وأنفذ قائداً من قوّاد غلمانه السودان، وأمره أن يصير إلى نهر الأمير فيعترض في المَنصف منه، وأمر سائر قواده وغلمانه بالمبيت في الجانب الشرقيّ من دِجْلة بإزاء عسكر الفاسق متأهبين للغدوّ على محاربته. وجعل الموفق يطوف في الشَّذا على القُوّاد ورجالهم في عشيّ يوم الجمعة وليلة السبت، ويفرّقهم في مراكزهم والمواضع التي رتَّبهم فيها من عسكر الفاسق، ليباكروا المصير إليها على ما رسم لهم.

وغدا الموفق يوم السبت لليلتين خَلَتا من صفر سنة سبعين ومائتين، فوافى نهر أبي الخصيب في الشذا، فأقام بها حتى تكامل عبورُ الناس وخروجهم عن سفنهم، وأخذ الفرسان والرجّالة مراكزَهم، وأمر بالسفن والمعابر فرُدّت إلى الجانب الشرقيّ، وأذن للناس في الزَّحف إلى الفاسق، وسار يقدمهم حتى وافى الموضع الذي قدّر أن يثبُت الفسقة فيه لمدافعة الجيش عنهم.

وقد كان الخائن وأصحابه لخبثهم رجعوا إلى المدينة يوم الاثنين بعد انصراف الجيش عنها، وأقاموا بها، وأمّلوا أن تتطاول بهم الأيام، وتندفع عنهم المناجزة، فوجد الموفّق المتسرعين من فرسان غلمانه ورجّالتهم قد سبقوا أعظم الجيش، فأوقعوا بالفاجر وأصحابه وقعةً أزالوهم بها عن مواقفهم؛ فانهزموا وتفرَّقـوا لا يلوي بعضهم على بعض، وأتبعهم الجيش يقتلون ويأسرون مَنْ لحقوا منهم، وانقطع الفاسق في جماعة من حُماته من قُوّاد الجيش ورجالهم، وفيهم المهلبيّ.

وفارقه ابنه أنكلاي وسليمان بن جامع، فقصد لكل فريق ممّن سمّينا جمع كثيف من موالي الموفق وغلمانه

الفرسان والرَّجّالة، ولَقِيَ مَنْ كان رتبه الموفق من أصحاب أبي العباس في الموضع المعروف بعسكر ريحان المنهزمين من أصحاب الفاجر، فوضعوا فيهم السلاح. ووافى القائد المرتب في نهر الأمير، فاعترض الفجرة، فأوقع بهم. وصادف سليمان بن جامع فحاربه، فقتل جماعة من حُماته، فظفر بسليمان فأسره، فأتى به الموفق بغير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأسر سليمان، وكَثُر التكبير والضجيج، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحابه غَناء عنه. وأسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني - وكان أحد أمراء جيوشه - وأسِر نادر الأسود المعروف بالحفار، وهو أحد قدماء أصحاب الفاجر - فأمر الموفّق بالاستيثاق منهم وتصييرهم في شذاة لأبي العباس. ففُعل ذلك.

ثم إن الزَّنْج الذين انفردوا مع الفاسق عطفوا على الناس عطفة أزالوهم بها عن مواقفهم، ففتروا لذلك، وأحسّ الموفّق بفتورهم، فجدّ في طلب الخبيث، وأمعن في نهر أبي الخصيب، فشدّ ذلك من قلوب مواليه وغلمانه، وجدُّوا في الطلب معه.

وانتهى الموفّق إلى نهر أبي الخصيب، فوافاه البشير بقتل الفاجر؛ ولم يلبث أن وافاه بشير آخر ومعه كفّ زعم أنها كفه، فقويَ الخبر عنده بعض القُوّة. ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركُض على فرس، ومعه رأس الخبيث، فأدناه منه، فعرضه على جماعة ممن كان بحضرته من قوّاد المستأمنة، فعرَفوه. فخرّ الله ساجداً على ما أولاه وأبلاه، وسجد أبو العباس وقُوّاد موالي الموفق وغلمانِه شكراً لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه، وأمر الموفّق برفع رأس الفاجر على قناة ونصبه بين يديه، فتأمّله الناس وعرفوا صِحة الخبر بقتله، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله.

وذكر أن أصحاب الموفق لما أحاطوا بالخبيث، ولم يبقَ معه من رؤساء أصحابه إلاَّ المهلبيّ، ولّى عنه هارباً وأسلمه. وقصد النهر المعروف بنهر الأمير، فقذف نفسه فيه يريد النجاة، وقبل ذلك ما كان ابن الخبيث أنكلاي فارق أباه، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالديناريّ، فأقام فيه متحصّناً بالأدغال والآجام، وانصرف الموفق ورَأس الخبيث منصوب بين يديه على قناة في شَذاة، يخترق بها نهر أبي الخصيب، والناس في جنبيّ النهر ينظرون إليه حتى وافى دِجْلة، فخرج إليها فأمر بردّ السفن التي كان عبر بها في أول النهار إلى الجانب الشرقي من دِجْلة، فرُدّت ليعبر الناس فيها.

ثم سار ورأسُ الخبيث بين يديه على القناة، وسليمان بن جامع والهمدانيّ مصلوبان في الشَّذا، حتى وافى قصرَه بالموفقيَّة. وأمَر أبا العباس بركوب الشذا وإقرار الرأس وسليمان والهمدانيّ على حالهم والسير بهم إلى نهر جَطَّى، وهو أوّل عسكر الموفق، ليقع عليهم عيون الناس جميعاً في العسكر، ففعل ذلك وانصرف إلى أبيه أبي أحمد. فأمر بحبس سليمان والهمدانيّ وإصلاح الرأس وتنقيته.

وذكر أنه تتابع مجيء الزَّنج الذين كانوا أقاموا مع الخبيث وآثروا صحبته، فوافى ذلك اليوم زُهاء ألف منهم، ورأى الموفق بذل الأمان، لما رأى من كثرتهم وشجاعتهم، لئلا تبقى منهم بقية تُخاف معرّتها على الإسلام وأهله، فكان من وافَى من قُوّاد الزَّنج ورجالهم في بقية يوم السبت وفي يوم الأحد والاثنين زُهاء خمسة آلاف زنجيّ، وكان قد قُتِل في الوقعة وغرق وأسِر منهم خَلْقٌ كثير لا يوقَف على عددهم، وانقطعت منهم قطعة زهاء ألف زِنجيّ مالوا نحو البرّ، فمات أكثرهم عطشاً، فظفر الأعراب بمَنْ سلم منهم واسترقّوهم.

وانتهى إلى الموفَّق خبر المهلبيّ وأنكلاي ومقامهما بحيث أقاما مع مَنْ تبعهما من جِلَّة قُوّاد الزَّنْج ورجالهم، فبث أنجاد غلمانه في طلبهم، وأمرهم بالتضييق عليهم؛ فلما أيقنوا بأن لا ملجأ لهم أعْطَوْا بأيديهم، فظفر بهم الموفَّق وبِمَنْ معهم، حتى لم يشذَّ أحد. وقد كانوا على نحو العِدَّة التي خرجت إلى الموفق بعد قتل الفاجر في الأمان، فأمر الموفق بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلاي وحبسهما، ففعل.

وكان فيمن هرب من عسكر الخبيث يوم السبت ولم يركن إلى الأمان قرطاس الذي كان رمى الموفق بالسهم، فانتهى به الهرب إلى رامَهُرْمز، فعرفه رجل قد كان رآه في عسكر الخبيث فدلّ عليه عامل البلد، فأخذه وحمله في وَثاق، فسأل أبو العباس أباه أن يوليه قتلَه فدفعه إليه فقتله.

وفيها استأمن درمويه الزنجيّ إلى أبي أحمد، وكان درمويه هذا - فيما ذكر - من أنجاد الزَّنْج وأبطالهم، وكان الفاجر وجَّهه قبل هلاكه بمدة طويلة إلى أواخر نهر الفَهْرَج، وهي من البصرة في غربيّ دجلة، فأقام هنالك بموضع وَعْر كثير النخل والدَّغل والآجام متصل بالبَطِيحة، وكان درمويه ومَن معه هنالك يقطعون على السابلة في زواريق خِفاف وسُميريَّات اتَّخذوها لأنفسهم، فإذا طلبهم أصحاب الشَّذا ولجوا الأنهار الضيِّقة، واعتصموا بمواضع الأدغال منها، وإذا تعذّر عليهم مسلك نَهر منها لضيقها خرجوا من سفنهم وحملوها على ظهورهم، ولجأوا إلى هذه المواضع الممتنعة.

وفي خلال ذلك يُغِيرون على قرى البَطِيحة ومَا يليها، فيقتلون ويسلبون مَنْ ظفروا به؛ فمكث درمويه ومَنْ معه يفعلون هذه الأفعال إلى أن قتِل الفاجر وهم بموضعهم الذي وصفنا أمره، لا يعملون بشيء مما حدث على صاحبهم. فلما فُتح بقتل الخبيث موضعه، وأمن الناس وانتشروا في طلب المكاسب وحمل التجارات، وسلكت السابلة دِجْلة، أوقع درمويه بهم، فقتل وسلب، فأوحش الناس ذلك، واشرأبّ لمثل ما فيه درمويه جماعة من شرار الناس وفُسّاقهم، وحدّثوا أنفسهم بالمصير إليه وبالمقام معه على مثل ما هو عليه، فعزم الموفق على تسريح جيش من غلمانه السودان ومَنْ جرى مجراهم من أهل البَصَر بالحرب في الأدغال ومضايق الأنهار، وأعدّ لذلك صغار السفن وصنوف السلاح؛ فبينا هو في ذلك وافى رسول لدرمويه يسأل الأمان له على نفسه وأصحابه، فرأى الموفق أن يؤمّنه ليقطع مادّة الشرّ الذي كان فيه الناس من الفاجر وأشياعه.

وذُكر أن سبب طلب درمويه الأمان كان أنه كان فيمن أوْقع به قومٌ ممن خرج من عسكر الموفق للقصد إلى منازلهم بمدينة السلام، فيهم نسوة، فقتلهم وسلبهم، وغلب على النسوة اللاتي كنّ معهم؛ فلما صِرْنَ في يده بحثهنّ عن الخبر، فأخبرنه بقتل الفاسق والظفر بالمهلبيّ وأنكلاي وسليمان بن جامع وغيرهم من رؤساء أصحاب الفاسق وقوّاده ومصير أكثرهم إلى الموفق في الأمان وقبوله إياهم وإحسانه إليهم؛ فأسقط في يده، ولم ير لنفسه ملجأ إلّا التعوّذ بالأمان ومسألة الموفق الصفح عن جُرْمه، فوجَّه في ذلك، فأجيب إليه. فلما ورد عليه الأمان خرج وجميع من معه حتى وافى عسكر الموفق، فوافت منهم قطعة حسنة كثيرة العدد لم يصبها بؤس الحِصار وضرّه مثل ما أصاب سائر أصحاب الخبيث، لما كان يصل إليهم من أموال الناس وميرهم.

فذكر أن درمويه لما أومن وأحسن إليه وإلى أصحابه، أظهر كلّ ما كان في يده وأيديهم من أموال الناس وأمتعتهم، وردّ كلّ شيء منه إلى أهله رداً ظاهراً مكشوفاً، فوفق بذلك على إنابته، فخلع عليه وعلى وجوه أصحابه وقُوّاده، ووصِلوا. فضمهم الموفق إلى قائد من قُوّاد غلمانه، وأمر الموفّق أن يكتب إلى أمصار الإسلام

بالنّداء في أهل البصرة والأُبُلّة وكُور دِجْلة وأهل الأهواز وكوَرها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزَّنج بقتل الفاسق، وأن يُؤمَروا بالرجوع إلى أوطانهم. ففُعل ذلك، فسارع الناس إلى ما أمِرُوا به، وقدموا المدينة الموفقيّة من جميع النواحي.

وأقام الموفّق بعد ذلك بالموفقيّة ليزداد الناس بمقامه أمناً وإيناساً، وولّى البصرة وابُلّة وكُور دِجْلة رجلاً من قُوّاد مواليه قد كان حمِد مذهبه، ووقف على حسن سيرته، يقال له العباس بن تركس؛ فأمره بالانتقال إلى البصرة والمقام بها.

وولّى قضاء البصرة والأُبُلّة وكُور دِجلة وواسط محمد بن حماد.

وقدّم ابنه أبا العباس إلى مدينة السلام، ومعه رأس الخبيث صاحب الزّنْج ليراه الناس، فاستبشروا، فنفذ أبو العباس في جيشه وافى مدينة السلام يوم السبت لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة، فدخلها في أحسن زيّ، وأمر برأس الخبيث فسِير به بين يديه على قناة، واجتمع الناس لذلك.

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقتِل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين، فكانت أيّامه من لدن خرج إلى اليوم الذي قتل فيه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين، وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقه لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين، فقال - فيما كان من أمر الموفق، وأمْر المخذول - الشعراء أشعاراً كثيرة، فمما قيل في ذلك قول يحيى بن محمد الأسلميّ:

أقولُ وقد جاءَ البشيرُ بوقعةٍ ... أعَزَّتْ من الإسلامِ ما كان واهِيا
جَزَى اللّهُ خيرَ النّاسِ للناسِ بعْدَما ... أبِيح حِمَاهُم خيرَ ما كان جازِيا
تَفَرَّد إذ لم ينصرِ اللّهُ ناصرٌ ... بتجديدِ دينٍ كان أصبح بالِيا
وتشديدِ ملك قد وَهي بعد عزِّه ... وإدراكِ ثاراتٍ تبير الأعادِيا
ورَدِّ عِمارات أزِيلتْ وأُخْرِبتْ ... ليرجع فيْء قد تخرَّم وافِيا
ويرجعَ أمْصارٌ أبيحتْ وأُحْرِقَتْ ... مِراراً فقد أمست قِوَاءً عوافيا
ويُشفَى صدور المؤمنينَ بوقعةٍ ... يقرُّ بها منا العيونَ البواكيا
ويُتلى كتاب اللّهِ في كل مسجدٍ ... ويُلقى دعاءُ الطالبيّين خاسِيَا
فأعرَض عن أحبابِهِ ونعيمِهِ ... وعن لذةِ الدنيا وأقبلَ غازِيا

في قصيدة طويلة. ومن ذلك أيضاً قوله:

أينَ نجومُ الكاذِب المارق ... ما كان بالطِّبِّ ولا الحاذقِ
صبَّحَهُ بالنحْسِ سعدٌ بدَا ... لسيِّدٍ في قوله صادقِ
فخرّ في مأزِقِه مسلَما ... إلى أُسُودِ الغابِ في المازِقِ
وذاق من كأسِ الردَى شرْبة ... كريهةَ الطعْم على الذائِقِ

وقال فيه يحيى بن خالد:

يـابنَ الخلائفِ من أرومَـةِ هـاشمٍ والغـامـرينَ النـاسَ بـالإفضـال
والـذائـدينَ عن الحـريم عـدوّهـم والمعلِميـن لكـل يـوم نِـزال
ملِكٌ أعـادَ الـديـنَ بعـدَ دروسـهِ واستنقـذ الأسْـرَى من الأغـلال
أنت المُجيـرُ من الزمـانِ إذا سَـطَا وإليـك يَقـصِـدُ راغبٌ بسـؤال
أطفـأتَ نِيـرانَ النفـاقِ وقـد علَتْ يـا واهِـبَ الآمـال والآجـال
لـلّهِ درُّكَ مـن سَـليـلِ خـلائـفٍ ماضِي العزيمةِ طاهـرِ السِّرْبـال
أفنيتَ جمـعَ المـارقينَ فـأصبحـوا متلَدِّديـنَ قـد ايـقنـوا بـزوال
أمْـطرْتـهـم عـزمـات رأيٍ حـازمٍ مـلأتْ قـلوبَـهُـمُ مِـنَ الأهـوال
لمّـا طَغى الرجسُ اللعينُ قصـدتـه بـالمَشـرَفِيِّ وبـالقَنـا الجـوَّال
وتـركتَـهُ والـطيـرُ يحْجُـلُ حـولـهُ مُـتـقـطِّعَ الأوداجِ والأوصـال
يَهـوِي إلى حَـرّ الجحِيمِ وقعـرِهـا بسـلاسـل قـد أوهَـنتـه ثِقـال
هـذا بمـا كسبتْ يـداهُ ومـا جَنى وبمـا أتـى مـن سيء الأعـمـال
أقـرَرْتَ عـينَ الـدينِ ممّـن قـادَهُ وأذلـتَـهُ مـن قـاتـل الأطـفـال
صـال المؤفَّقُ بـالعـراقِ فـأفـزعتْ مَنْ بـالمغـارب صـولـةُ الأبـطال

وفيه يقول أيضاً يحيى بن خالد بن مروان:

أبِنْ لي جـوابـاً أيُّهـا المَنزلُ القفـرُ فـلا زال مُنهلاً بسـاحـاتِـكَ القـطرُ
أبِنْ لي عـن الجيـرانِ أين تـحمَّـلوا وهل عادَتِ الدنيا، وهل رجعَ السَّفرُ!
وكيف تجيبُ الـدارُ بعـد دروسهـا ولم يبقَ من أعـلام سـاكنِهـا سَـطْرُ
منـازلُ أبكـانـي مَغـانِيُّ أهـلَهـا وضـاقت بيَ الـدنيـا وأسلَمَني الصبْرُ
كـأنَّـهُمُ قـومٌ رغـا البكـرُ فيـهـمُ وكـان على الأيـامِ في هُلكِهم نُـذرُ
وعاثَتْ صُرُوفُ الـدهر فيهم فـأسرعت وشـرُّ ذوي الأصعادِ مـا فعل الـدهـرُ
فقـد طـابت الـدنيـا وأينَـعَ نَبتُهـا بـيُمْـنِ وليّ العهـدِ وانـقلب الأمـر
وعـاد إلى الأوطـانِ مَنْ كـان هـاربـاً ولم يبق للملعـون في مـوضـعٍ إثْـرُ
بسيف ولي العَهْـد طـالت يـدُ الهـدى وأشْـرَق وجْهُ الـدين واصطُلم الكُفْـر
وجـاهَـدَهـم فـي الـلّهِ حـقَّ جِهـادِهِ بنفسٍ لهـا طولُ السـلامـة والنصـرُ

وهي طويلة، وقال يحيى بن محمد:

عنّي اشتغـالَـك إنّي عنكِ في شَغَلِ لا تعـذُلي مَنْ بـه وقْـرٌ عن العـذَلِ
لا تعـذُلي في ارتحـالي إنني رجـلٌ وقفٌ على الشَّـدِّ والأسفـارِ والرِّحَـلِ
فيمَ الـمُقـامُ إذا مـا ضـاقَ بـي بلدٌ كـأنـني لـحجـالِ العيـنِ والكِـلَل
مـا استيقظتْ همّـةٌ لم تلفِ صـاحبهـا يَقـظان قـدْ جـانبَتْـهُ لـذةُ المُقَـل
ولـم يبـتْ أمِنـاً مـن لم يـبتْ وجِـلاً مِنْ أن يَبيتَ لـه جـار عـلى وَجَـلِ

وهي أيضاً طويلة.

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول منها، ورد مدينَةَ السلام الخبرُ أن الرّوم نزلت بناحية باب قلَمْيَة على ستة أميال من طَرَسُوس؛ وهم زهاء مائة ألف، يرأسهم بِطْريق البطارقة أندرياس، ومعه أربعة أخَرُ من البطارقة، فخرج إليهم يازمان الخادم ليلاً، فبيّتهم، فقُتِل بِطريق البطارقة وبِطريق القَبَاذيق وبطريق الناطُلق، وأفلت بِطريق قرّة وبه جراحات، وأخِذ لهم سبعة صلبان من ذهب وفضة، فيها صليبهم الأعظم من ذهب مكلّل بالجوهر، وأخِذ خمسة عشر ألف دابة وبغل، ومن السروج نحو من ذلك، وسيوف محلاّة بذهب وفضة وآنية كثيرة، ونحو من عشرة آلاف علم ديباج، وديباج كثير وبزْيون ولُحُف سَمُور، وكان النفير إلى أندرياس يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول، فكبِس ليلاً وقتل من الروم خلق كثير، فزعم بعضهم أنه قتل منهم سبعون ألفاً.

وفيها تُوفِّيَ هارون بن أبي أحمد الموفق بمدينة السلام يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الأولى.

ولستٍّ خلون من شعبان منها، ورد الخبرُ بموت أحمد بن طولون مدينةَ السلام ـ فيما ذكر. وقال بعضهم: كانت وفاته يوم الاثنين لثمان عشرة مضت من ذي القعدة منها.

وفيها مات الحسن بن يزيد العَلَوِيّ بطبرستان، إما في رجب، وإما في شعبان.

وللنصف من شعبان دخل المعتمد بغداد، وخرج من المدينة حتى نزل بحذاء قَطرُبلّ في تعبية، ومحمد بن طاهر يسير بين يديه بالجربة، ثم مضى إلى سامُرّا.

وفيها كان فداء أهل ساتِيدَما على يدي يازمان في سَلْخ رجب منها.

وفي يوم الأحد لتِسْع بَقِين من شعبان من هذه السنة شغَب أصحابُ أبي العباس بن الموفق ببغداد على صاعد بن مخلد وهو وزير الموفق، فطلبوا الأرزاق، فخرج إليهم أصحاب صاعد ليدفعوهم، فصارت رجّالة أبي العباس إلى رحْبة الجسر، وأصحاب صاعد داخل الأبواب بسوق يحيى، واقتتلوا، فقتِل بينهم قتلى، وجُرحت جماعة، ثم حجَز بينهم الليل، وبكَروا من الغد، فوضِع لهم العطاء واصطلحوا.

وفي شوال منها كانت وقعة بين إسحاق بن كُنْداج وابن دعباش، وكان ابن دعباش على الرَّقة وأعمالها، وعلَى الثغور والعواصم من قِبَل ابن طولون، وابن كُنْدَاج على المَوْصِل من قِبَل السلطان.

وفيها انبثق ببغداد في الجانب الغربيّ منها من نهر عيسى من الياسرية بَثْقٌ، فغرّق الدباين وأصحاب اساج بالكرخ، ذكر أنه دقّ سبعة آلاف داز ونحوها.

وقتِل في هذه السنة ملك الروم المعروف بابن الصقلبيّ.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشميّ بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبدالله بن العباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائتين

وأولها يوم الاثنين للتاسع والعشرين من حَزيران، ولخمس وتسعين ومائة وألف من عهد ذي القرنين.

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة:

فمن ذلك ما كان فيها من ورود الخبر في غُرّة صفر بدخول محمد وعليّ ابني الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن حسين المدينة وقتلهما جماعة من أهلها ومطالبتهما أهلها بمال، وأخذهما من قوم منهم مالاً. وأنّ أهل المدينة لم يصلّوا في مسجد رسول الله ﷺ أربع جمع؛ لا جمعة ولا جماعة، فقال أبو العباس بن الفضل العَلَويّ:

أَخْـربَتْ دارُ هجرةِ المصطفى البـ ... ـرَّ فـأبكى إخـرابُـهـا المسلمينَا
عينُ فـابكى مقـام جبـريـلَ والـقبـ ... ـرَ فبكّي والـمِنـبَـرَ الـمَيْمُـونـا
وعلى المسجـد الـذي أُسُّـه التّقـ ... ـوى خَـلاءً أَضْحَى من العـابـديـنـا
وعلى طَيْـبَـةَ الـتـي بـارك الـلـ ... ـهُ عـليهـا بـخـاتَـم الـمـرسَـلِيـنـا
قبَح اللهُ معشـراً أخـربُـوهـا ... وأطـاعـوا مـتـبَّـراً مـلعـونـاً

وفيها أُدخِل على المعتمد ومَنْ كان حصر بغداد من حاجِّ خراسان، فأعلمهم أنه قد عزل عمرو بن الليث عما كان قد قلّده، ولعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قد قلّد خراسانَ محمد بن طاهر؛ وكان ذلك لأربع بقين من شوّال. وأمر أيضاً بلعن عمرو بن الليث على المنابر، فلُعن.

ولثمان بقين من شعبان من هذه السنة شخص صاعد بن مخلَد من معسكر أبي أحمد بواسط إلى فارس لحرب عمرو بن الليث.

ولعشر خلوْن من شهر رمضان منها عُقِد لأحمد بن محمد الطائيّ على المدينة وطريق مكة.

وفيها كانت بين أبي العباس بن الموفّق وبين خمارويه بن أحمد بن طولون وقعة بالطّواحين، فهزَم أبو العباس خمارويه، فركب خمارويه حماراً هارباً منه إلى مصر، ووقع أصحاب أبي العباس في النهب. ونزل أبو العباس مضرب خمارَوَيْه، ولا يرى أنه بقي له طالب، فخرج عليه كمين لخمارويه كان كمّنه لهم خمارويه، وفيهم سعد الأعسر وجماعة من قُوّاده وأصحابه، وأصحابُ أبي العباس قد وضعوا السلاح ونزلوا. فشدّ كمين

خمارويه عليهم فانهزموا ، وتفرّق القوم ، ومضى أبو العباس إلى طَرَسوس في نفر من أصحابه قليل ، وذهب كلّ ما كان في العسكرين ، عسكر أبي العباس وعسكر خمارويْه من السلاح والكُراع والأثاث والأموال ، وانتُهب ذلك كله ؛ وكانت هذه الوقعة يوم السادس عشر من شَوّال من هذه السنة ـ فيما قيل .

وفيها وَثب يوسف بن أبي الساج ـ وكان والي مكة ـ على غلام للطائيّ يقال له بدر ، وخرج والياً على الحاجّ فقيّده ، فحارب ابن أبي الساج جماعةٌ من الجند ، وأغاثهم الحاجُّ ، حتى استنقذوا غلام الطائيّ ، وأسروا ابن أبي الساج ، فقُيّد وحُمل إلى مدينة السلام ، وكانت الحرب بينهم على أبواب المسجد الحرام .

وفيها خرّبت العامة الدَّيْر العتيق الذي وراء نهر عيسى ، وانتهبوا كلّ ما كان فيه من متاع ، وقلعوا الأبواب والخشب وغير ذلك ، وهدموا بعض حيطانه وسقوفه ، فصار إليهم الحسين بن إسماعيل صاحب شُرْطة بغداد من قِبَل محمد بن طاهر ، فمنعهم من هَدْم ما بقيَ منه ، وكان يتردّد إليه أياماً هو والعامة ، حتى يكاد يكون بين أصحاب السلطان وبينهم قتال ، ثم بنى ما كانت العامة هدمتْه بعد أيام ، وكانت إعادة بنائه ـ فيما ذكر ـ بقوّة عبدوُن بن مَخْلَد ؛ أخي صاعد بن مَخْلَد .

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن عيسى بن موسى العباسيّ .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائتين

أولها يوم الجمعة للثامن عشر من حَزِيران ، سنة ست وتسعين ومائة وألف لذي القرنين .

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث :

فمما كان فيها من ذلك إخراجُ أهل طَرَسوس أبا العباس بن الموفق من طَرَسوس ؛ لخلاف كان وقع بينه وبين يازَمان ؛ فخرج عنها يريد بغداد للنصف من المحرَّم من هذه السنة .

وفيها تُوُفِّيَ سليمان بن وهب في حبس الموفق يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة بقيت من صفر .

وفيها تجمّعت العامة ، فهدموا ما كان بُنِيَ من البيعة يوم الخميس لثمان خَلَوْن من شهر ربيع الآخر .

وفيها حكّم شارٍ في طريق خُراسان ، وصار إلى دَسْكَرة المَلك ، فقتل وانتهب .

وفيها ورد الخبر مدينة السلام بدخول حَمْدان بن حمدون وهارون الشاري مدينةَ الموصِل ، وصلّى الشاري بهم في مسجد الجامع .

وفيها قدم أبو العباس بن الموفّق بغداد منصرفاً من وقعته مع ابن طولون بالطواحين لتسع بقين من جمادى الآخرة .

وفيها نُقِبَ المطبَق من داخله ، وأخرِج الذوائبيّ العلويّ ونفسان معه ، وكانوا قد أعدتّ لهم دوابّ توقف في كل ليلة ليخرجوا فيركبوها هاربين . فنُذِر بهم ، وغُلِّقت أبواب مدينة أبي جعفر المنصور ، فأُخِذ الذوائبيُّ ومَنْ خرَج معه ، وركب محمد بن طاهر . وكتِب بالخبر إلى الموفَّق وهو مقيم بواسط ، فأمر أن تُقْطع يد الذوائبيّ ورجله من خلاف . فقُطع في مجلس الجَسْر بالجانب الغربيّ ، ومحمد بن طاهر واقف على دابّته ، وكـوي يوم الاثنين لثلاث خَلوْن من جمادى الآخرة .

وفيها قدم صاعد بن مَخْلد من فارس ، ودخل واسط في رجب ، فأمر الموفّق جميع القواد أن يستقبلوه ، فاستقبلوه ، وترجّلوا له ، وقبّلوا كَفّه .

وفيها قبض الموفّق على صاعد بن مَخْلَد بواسط وعلى أسبابه ، وانتهب منازلهم يوم الاثنين لتسع خلوْن من رجب . وقبض على ابنيه أبي عيسى وأبي صالح ببغداد . وعلى أخيه عبدون وأسبابه بسامُرّا ، وذلك كله في يوم واحد، وهو اليوم الذي قبض فيه على صاعد، واستكتب الموفّق إسماعيل بن بلبُل، واقتصر به على الكتابة

دون غيرها .

ووردت الأخبار فيها أن مصر زُلزلت في جمادى الآخرة زلازل أخربت الدّور والمسجد الجامع، وأنه الحجة؛ وكانت الدَّبَرة فيها على ابن كُنْداج .

وفيها غلا السعر ببغداد ، وذلك أنّ أهل سامُرّا منعوا ـ فيما ذُكر ـ سفن الدقيق من الانحدار إليها ، ومنع الطائيّ أربابَ الضّياع من دياس الطعام وقسمه ، يتربّص بذلك غلاء الأسعار ، فمنع أهل بغداد الزيت والصابون والتمر وغير ذلك من حَمْله إلى سامُرّا ، وذلك في النصف من شهر رمضان .

وفيها ضجَّت العامة بسبب غلاء السعر ، واجتمعت للوثوب بالطائيّ ، فانصرفوا من مسجد الجامع للنصف من شوال إلى داره بين باب البصرة وباب الكوفة ،وجاؤوه من ناحية الكَرْخ ، فأصعد الطائيّ أصحابَه على السطوح ، فرَموْهم بالنُّشاب ، وأقام رجاله على بابه وفي فنـاء داره بالسيوف والرّماح ، فقتِل بعضُ العامة ، وجُرحت منهم جماعة ، ولم يزالوا يقاتلونهم إلى الليل ، فلما كان الليل انصرفوا ، وباكروه من غد ، فركب محمد بن طاهر ، فسكن الناس وصرفهم عنه .

وفيها تُوُفيَ إسماعيل بن بُريه الهاشميّ ، يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوّال منها .

ولثمان بقين منها توفيَ عبيدالله بن عبدالله الهاشميّ .

وفيها كانت للزَّنْج بواسط حركة ، فصاحوا : أنكلاي ،يا منصور!وكان أنكلاي والمهلبيّ وسليمان بن جامع والشعرانيّ والهمدانيّ وآخر معهم من قُوّاد الزنج محتَبسين في دار محمد بن عبدالله بن طاهر بمدينة السلام في دار البِطّيخ ، في يد غلام من غلمان الموفّق ، يقال له : فتح السعيديّ ، فكتب الموفّق إلى فَتْح أن يوجّه برؤوس هؤلاء الستة ، فدخل إليهم ، فجعل يخرج الأول فالأول منهم ، فذبحهم غلام له ، وقلع رأس بالوعة في الدار ، وطرِحت أجسادهم فيها ، وسدّ رأسَها ، ووجّه رؤوسهم إلى الموفق .

وفيها ورد كتاب الموفّق على محمد بن طاهر في جثث هؤلاء الستة المقتولين ، فأمره بصلْبها بحضرة الجسر ، فأخرجوا من البالوعة ، وقد انتفخوا ، وتغيّرت روائحهم ، وتقشّر بعض جلودهم ، فحُمِلوا في المحامل : المحمل بين رجلين ، وصُلِب ثلاثة منهم في الجانب الشرقيّ . وثلاثة في الجانب الغربيّ ، وذلك لسبع بقين من شوال من هذه السنة ، وركب محمد بن طاهر حتى صُلبوا بحضرته .

وفيها صلَح أمر مدينة رسول الله ﷺ ، وعَمِرت ، وتراجع الناس إليها .

وفيها غزا الصائفة يا زَمان .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق بين عيسى بن موسى الهاشميّ .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كانت وقعة بين أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف وعمرو بن الليث الصفّار يوم السادس عشر من شهر ربيع الأول .

وفيها كانت أيضاً وقعة بين إسحاق بن كُنداج ومحمد بن أبي الساج بالرَّقة ، فانهزم إسحاق ؛ وكان ذلك يوم الثلاثاء لتسع خلوْن من جمادى الأولى .

وفيها قدمت رسل يازمان من طَرَسُوس ، فذكروا أنّ ثلاثة بنين لطاغية الروم وثبوا عليه ، فقتلوه وملّكوا أحدهم عليهم .

وفيها قيّد أبو أحمد لؤلؤاً القادم عليه بالأمان من عند ابن طولون ، واستصفى ماله ، لثمان بقين من ذي القعدة من هذه السنة . وذُكر أنّ الذي أخذ من ماله كان أربعمائة ألف دينار .

وذكروا عن لؤلؤ أنه قال : ما عرفتُ لنفسي ذنباً استوجبت به ما فُعِل بي إلاّ كثرة مالي .

وفيها كانت بين محمّد بن أبي الساج وإسحاق بن كُنْداج وقعة أخرى لأربع عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة ؛ وكانت الدَّبَرة فيها على ابن كُنْداج .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد بن إسحاق بن عيسى بن موسى بن عليّ بن عبدالله بن عباس .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك شخوص أبي أحمد إلى كَرْمان لحرب عمرو بن الليث لاثنتي عشرة بقَيت من شهر ربيع الأول .

وفيها غزا يازَمان، فبلغ المسكنين ، فأسر وغنم ، وسلم المسلمون . وذلك في شهر رمضان منها .

وفيها دخل صِدِّيق الفرغانيّ دور سامرًّا ، فأغار على أموال التجار ، وأكثر العيْث في الناس ، وكان صِدّيق هذا يخفر أوّلاً الطريق ، ثم تحوّل لصاً خارباً يقطع الطريق .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد الهاشميّ .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من توجيه الطائيّ جيشاً إلى سامُرّا بسبب ما أحدث صِدّيق بها وإطلاقه أخاه من السجن ، وكان أسيراً عنده ، وذلك في المحرّم من هذه السنة ، ثم خرج الطائيّ إلى سامرّا ، وأرسل صِدّيقاً ووعده ومنّاه وأمّنه، فعزم على الدخول إليه في الأمان ، فحذّره ذلك غلامٌ له يقال له هاشم ، وكان ـ فيما ذكر ـ شجاعاً ، فلم يقبل منه ، ودخل سامرّا مع أصحابه ، وصار إلى الطائيّ ، فأخذه الطائيّ ، ومَنْ دخل معه منهم ، فقطع يد صدّيق ورجله ويد هاشم ورجله وأيدي جماعة من أصحابه وأرجلهم وحبسهم ، ثم حملهم في محامل إلى مدينة السَّلام ، وقد أبرزَتْ أيديهم وأرجلهم المقطَّعة ليراها الناس ، ثم حُبِسوا .

وفيها غزا يازمان في البحر ، فأخذ للروم أربعة مراكب .

وفيها تَصَعْلك فارس العبديّ، فعاث بناحية سامُرّا، وصار إلى كرخها، فانتهب دور آل حسنج ، فشخص الطائيّ إليه ، فلحقه بالحديثة ، فاقتتلا ، فهزمه الطائيّ وأخذ سواده ، وصار الطائيّ إلى دِجْلة ، فدخل طيّارة ليعبرها ، فأدركه أصحاب العبديّ فتعلقوا بكوثل الطيّار ، فرمى الطائيّ بنفسه في دِجْلة ، فعبرها سباحة ، فلما خرج منها نفض لحيته من الماء ، وقال : أيش ظنُّ العبديّ ؟ أليس أنا أسبح من سمكة ، ثم نزل الطائيّ الجانب الشرقيّ والعبديّ بإزائه في الجانب الغربيّ ، وفي انصراف الطائيّ قال عليّ بن محمد بن منصور بن نصر بن بسّام :

قد أقبلَ الطائيّ ، لا أقبلا ... قبَّحَ في الأفعال ما أجملا
كأنَّه من لِينِ ألفاظِه ... صبيّةٌ تَمْضَغُ جَهْدَ البَلا

وفيها أمر أبو أحمد بتقييد الطائيّ وحبسه ، ففُعِل ذلك لأربعَ عشرةَ خلت من شهر رمضان ، وختم على كلّ شيء له ، وكان يلي الكوفة وسوادَها وطريق خُراسان وسامُرّا والشرطة ببغداد ، وخراج بادوريَا وقطْرُبُّل ومسكِن وشيئاً من ضياع الخاصّة .

وفيها حبس أبو أحمد ابنه أبا العباس ، فشغب أصحابُه وحملوا السلاح ، وركب غلمانه ، واضطربت بغداد لذلك ، فركب أبو أحمد لذلك حتى بلغ باب الرُّصافة ، وقال لأصحاب أبي العباس وغلمانه فيما ذكر : ما شأنكم ؟ أتَروْنكم أشفقَ على ابني مني ! هو ولدي ، واحتجت إلى تقويمه ، فانصرف الناس . ووضعوا السلاح ، وذلك يوم الثلاثاء لست خلوْن من شوال من هذه السنة .

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد الهاشميّ .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ضمّ الشرطة بمدينة السلام إلى عمرو بن الليث، وكُتب فيها على الأعلام والمطارد والتِّرَسة - التي تكون في مجلس الجسر - اسمه ، وذلك في المحرَّم.

ولأربع عشرة خلتْ من شهر ربيع الأول من هذه السنة شخص أبو أحمد من مدينة السلام إلى الجبل ، وكان سبب شخوصه إليها - فيما ذكر - أنّ الماذَرائيّ كاتب إذكوتكين ، أخبره أنّ له هنالك مالاً عظيماً ، وأنه إن شخص صار ذلك إليه . فشخص إليه فلم يجد من المال الذي أخبره به شيئاً ، فلما لم يجد ذلك شخص إلى الكرَج ثم إلى أصبهان يريد أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف ، فتنحى له أحمد بن عبد العزيز عن البلد بجيشه وعياله ، وترك داره بفرشها لينزلها أبو أحمد إذا قدم .

وقدم محمد بن أبي الساج على أبي أحمد قبل شخوصه من مضربه بباب خُراسان هارباً من ابن طولون ، بعد وقعات كانت بينهما، ضعف في آخر ذلك ابن أبي الساج عن مقاومته، لقلة من معه وكثرة من مع ابن طولون من الرّجال، فلحق بأبي أحمد، فانضمّ إليه، فخلع أبو أحمد عليه، وأخرجه معه إلى الجبل.

وفيها وَلِيَ عبيدالله بن عبدالله بن طاهر شرطة بغداد ، من قِبَل عمرو بن الليث في شهر ربيع الآخر .

وفيها ورد الخبر بانفراج تلّ بنهر الصِّلة - ويعرف بتلّ بني شَقِيق - عن سبعة أقبر فيها سبعة أبدان صحيحة ، عليها أكفان جدُد لينة ، لها أهداب ، تفوح منها رائحة المسك ، أحدهم شابٌ له جُمّة ، وجبهتُه وأذناه وخدّاه وأنفه وشفتاه وذقنه وأشفار عينيه صحيحة ، وعلى شفتيه بلل ، كأنه قد شرب ماء ؛ وكأنه قد كُحِل ، وبه ضربة في خاصرته ، فرُدّت عليه أكفانه .

وحدثني بعض أصحابنا أنه جذب من شعر بعضهم ، فوجده قويّ الأصل نحو قوة شعر الحيّ ، وذكر أن التلّ انفرج عن هذه القُبور عن شبه الحَوْض من حجر في لون المسنّ ، عليه كتاب لا يدرَى ما هو !

وفيها أمِر بطرح المطارد والأعلام والترسة التي كانت في مجالس الشرطة التي عليها اسم عمرو بن الليث، وإسقاط ذكره، وذلك لإحدى عشرة خلت من شوال.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشميّ ، وكان والياً على مكة والمدينة والطائف .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك دعاء يازَمان بطرسوس لخمارويْه بن أحمد بن طولون ، وكان سبب ذلك - فيما ذكر - أن خمارويه وجّه إليه بثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسين ومائة دابة وخمسين ومائة مِمْطر وسلاح ، فلما وصل ذلك إليه دعا له ، ثم وجّه إليه بخمسين ألف دينار .

وفي أول شهر ربيع الآخر كان بين وصيف خادم ابن أبي الساج والبرابرة أصحاب أبي الصقْر شرّ ، فاقتتلوا ، فقتل من غلمان الخادم أربعة غلمان ومن البرابرة سبعة ، فكانت الحرب بينهم بباب الشأم إلى شارع باب الكوفة ، فركب إليهم أبو الصقر ، فكلمهم فتفرّقوا ، ثم عادوا للشرّ بعد يومين فركب إليهم أبو الصقر فسكّنهم .

وفيها وليَ يوسف بن يعقوب المظالم ، فأمر أن ينادى : مَنْ كانت له مظلمة قِبَل الأمير الناصر لدين الله أو أحد من الناس فليحضر . وتقدم إلى صاحب الشُّرطة ألّا يطلق أحداً من المحبّسين إلّا مَنْ رأى إطلاقه يوسف ، بعد أن يعرض عليه قصصهُم .

وفي أول يوم من شعبان قدِم قائد من قوّاد ابن طولون في جيش عظيم من الفرسان والرجّالة بغداد .

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشميّ .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك الحرب التي كانت بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وأصحاب موسى، ابن أخت مُفْلح أربعة أيام تباعاً، ثم اصطلحوا، وقد قُتل بينهم بضعة عشر رجلاً، وذلك في أوّل المحرّم، ثم وقع في الجانب الشرقيّ حربٌ بين النصريّين وأصحاب يونس، قُتل فيها رجل، ثم افترقوا.

وفيها انحدر وصيفٌ خادم ابن أبي الساج إلى واسط بأمر أبي الصقر لتكون عدّة له ـ فيما ذكر ـ وذلك أنه اصطنعه وأصحابه، وأجازه بجوائز كبيرة، وأدرَّ على أصحابه أرزاقهم، وكان قد بلغه قدوم أبي أحمد، فخافه على نفسه لما كان من إتلافه ما كان في بيوت أموال أبي أحمد؛ حتى لم يبقَ فيها شيء بالهبة التي كان يهب؛ والجوائز التي كان يُجيز، والخِلَع التي كان يخلع على القوّاد، وإنفاقه على القوّاد، فلما نَفد ما في بيت المال، طالب أرباب الضياع بخراج سنة مُبْهَمة عن أرضيهم، وحبس منهم بذلك جماعة؛ وكان الذي يتولّى له القيام بذلك الزّغَل، فعسف على الناس في ذلك. وقدم أبو أحمد قبل أن يستوظف أداء ذلك منهم، فشُغِل عن مطالبة الناس بما كان يطالبهم به. وكان انحدار وصيف في يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من المحرم.

ولليلتين بقِيتا من المحرّم منها، طلع كوكب ذو جُمّة، ثم صارت الجمّة ذُؤابة.

وفيها انصرف أبو أحمد من الجبل إلى العراق، وقد اشتدّ به وجع النّقرس حتى لم يقدر على الركوب، فاتُّخذ له سرير عليه قبّة، فكان يقعد عليه، ومعه خادم يبرّد رجله بالأشياء الباردة، حتى بلغ من أمره أنه كان يضع عليها الثلج، ثم صارت علّة رجله داءَ الفيل، وكان يحمل سريره أربعون حمّالاً يتناوب عليه عشرون عشرون، وربما اشتدّ به أحياناً، فيأمرهم أن يضعوه. فذُكر أنه قال يوماً للذين يحملونه: قد ضجرتمْ بحملي، بودّي أني أكون كواحد منكم أحملُ على رأسي وآكِلّ وأني في عافية. وأنه قال في مرضه هذا: أطبق دفتري على مائة ألف مرتزِق، ما أصبح فيهم أسَوأ حالاً مني.

وفي يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرّم منها وافى أبو أحمد النَّهروان، فتلقّاه أكثر الناس، فركب الماء، فسار في النهروان، ثم في نهر دَيَالَى، ثم في دِجْلة إلى الزعفرانيّة، وصار ليلة الجمعة إلى الفِرْك، ودخل داره يوم الجمعة لليلتين خلتا من صفر.

ولما كان في يوم الخميس لثمان خلون من صَفَر، شاع موتُه بعد انصراف أبي الصقر من داره، وقد كان تقدّم في حفظ أبي العباس، فغلّقت عليه أبواب دون أبواب، وأخذ أبو الصقر ابن الفيّاض معه إلى داره، وكان يبقى بناحيته. وأقام أبو الصقر في داره يومه ذلك، وازداد الإرجاف بموت أبي أحمد، وكانت اعترتْه غَشْية، فوجّه

أبو الصقر يوم الجمعة إلى المدائن، فحمل منها المعتمد وولده، فجيء بهم إلى داره، وأقام أبو الصقر في داره ولم يَصِرْ إلى دار أبي أحمد؛ فلما رأى غلمان أبي أحمد المائلون إلى أبي العباس والرؤساء من غلمان أبي العباس الذين كانوا حضروا ما قد نزل بأبي أحمد، كسروا أقفال الأبواب المغلَقة على أبي العباس.

فذُكر عن الغلام الذي كان مع أبي العباس في الحُجْرة أنه قال لما سمع أبو العباس صوت الأقفال تكْسَر قال: ليس يريد هؤلاء إلّا نفسي. وأخذ سيفاً كان عنده، فاستلّه، وقعد مستوفزاً والسيف في حجره، وقال لي: تنحَّ أنت، والله ما وصلوا إليّ وفيَّ شيء من الروح. قال: فلما فُتح الباب كان أوّل من دَخل عليه وصيف مُوْشْكير ـ وهو غلام أبي العباس ـ فلما رآه رمى السيف من يده، وعلم أنهم لم يقصدوا إلا الخير، فأخرجوه حتى أقعدوه عند أبيه، وهو بعقب غشيته. فلما فتح أبو أحمد عينيه، وأفاق رآه، فأدناه وقرَّبه، ووافى المعتمد ـ ذلك اليوم الذي وجّه إليه في حمله، وهو يوم الجمعة نصفَ النهار قبل صلاة الجمعة ـ مدينة السلام، لتسع خَلَوْن من صفر، ومعه ابنه جعفر المفوّض إلى الله وليُّ العهد وعبد العزيز ومحمد وإسحاق بنوه، فنزل علَى أبي الصقر. ثم بلغ أبا الصقر أنّ أبا أحمد لم يمت، فوجّه إسماعيل بن إسحاق يتعرَّف له الخبر؛ وذلك يوم السبت.

وجمع أبو الصقر القوّاد والجند، وشحن داره وما حوْلها بالرّجال والسلاح، ومِن داره إلى الجسر كذلك، وقطع الجسرين، ووقف قومٌ على الجسر في الجانب الشرقيّ يحاربون أصحاب أبي الصقر، فقتِل بينهم قتلى، وكانت بينهم جراحات.

وكان أبو طلحة شَرْكَب مع أصحابه مقيمين بباب البستان، فرجع إسماعيل، فأعلم أبا الصقر أن أبا أحمد حيّ، فكان أوّل مَنْ مضى إليه من القوّاد محمد بن أبي الساج، عبر من نهر عيسى، ثم جعل الناس يتسلّلون؛ منهم مَن يعبر إلى باب أبي أحمد، ومنهم مَنْ يرجع إلى منزله، ومنهم من يخرج من بغداد؛ فلما رأى أبو الصقر ذلك، وصحّت عنده حياة أبي أحمد، انحدر هو وابناه إلى دار أبي أحمد؛ فما ذاكره أبو أحمد شيئاً مما جَرَى، ولا ساءله عنه. وأقام في دار أبي أحمد.

فلما رأى المعتمد أنه قد بقيَ في الدار وحدَه، نزل هو وبنوه وبكتمر، فركبوا زورقاً، ثم لقيهم طيّار أبي ليلى بن عبد العزيز بن أبي دُلف، فحملهم في طيّاره، ومضى بهم إلى داره، وهي دار عليّ بن جهشيار برأس الجسر، فقال له المعتمد: أريد أن أمضيَ إلى أخي فأحدِره ومَنْ معه من بيته إلى دار أبي أحمد. وانتُهبَتْ دار أبي الصقر وكلّ ما حوته حتى خرج حُرَمُه حفاةً بغير إزار، وانتُهبت دار محمد بن سليمان كاتبه، ودار ابن الواثقيّ انتُهبت وأحرقت، وانتُهِبت دور أسبابه، وكسِرت أبواب السجون، ونُقِبت الحيطان، وخرج كلّ من كان فيها، وخرج كلّ من كان في المطبَق، وانتُهب مجلسا الجسر، وأخِذ كلّ ما كان فيهما، وانتُهبت المنازل التي تقرب من دار أبي الصقر. وخلع أبو أحمد على ابنه أبي العباس وعلى أبي الصقر، فركبا جميعاً، والخلع عليهما من سوق الثلاثاء إلى باب الطّاق، ومضى أبو الصقر مع أبي العباس إلى داره؛ دار صاعد. ثم انحدر أبو الصقر في الماء إلى منزله وهو منتَهب؛ فأتوه من دار الشاه بحصير فقعد عليه، فولّى أبو العباس غلامَه بدراً الشرطة، واستخلف محمد بن غانم بن الشاه على الجانب الشرقيّ، وعيسى النوشريّ على الجانب الغربيّ؛ وذلك لأربع عشرة خلت من صفر منها.

وفيها في يوم الأربعاء لثمانٍ بقين من صفر، كانت وفاة أبي أحمد الموفق ودفن ليلة الخميس في الرُّصافة عند

قبر والدته، وجلس أبو العباس يوم الخميس للناس للتعزية.

وفيها بايع القوّاد والغلمان لأبي العباس بولاية العهد بعد المفوّض، ولقّب بالمعتضد بالله، في يوم الخميس، وأخرج للجند العطاء، وخُطِب يوم الجمعة للمعتمد، ثم للمفوّض، ثم لأبي العباس المعتضد؛ وذلك لسبع ليال بقين من صفر.

وفيها في يوم الاثنين لأربع بقين من صفر قُبض على أبي الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم، وطُلِب بنو الفرات - وكان إليهم ديوان السواد - فاختفوْا، وخلِع على عبيدالله بن سليمان بن وهب يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر منها، ووليَ الوزارة.

وفيها بعث محمد بن أبي الساج إلى واسط ليردّ غلامه وصيفاً إلى مدينة السلام، فمضى وصيفٌ إلى الأهواز، وأبى الانصرافَ إلى بغداد، وأنهب الطّيب، وعاث بالسوس.

وفيها ظُفر بأبي أحمد بن محمد بن الفرات؛ فحُبس وطولب بأموال، وظُفر معه بالزّغل، فحبِس، وظُفر معه بمال.

وفيها وَردت الأخبار بقتل عليّ بن الليث، أخي الصفار، قتله رافع بن هرثمة، كان لحق به، وترك أخاه.

ووردت الأخبار فيها عن مصر أن النيل غار ماؤه وغلت الأسعار عندهم.

ذكر ابتداء أمر القرامطة

وفيها وردت الأخبار بحرَكة قوم يُعرفون بالقَرامطة بسواد الكُوفة؛ فكان ابتداء أمرهم قدومُ رجل من ناحية خُوزِستان إلى سَوَاد الكوفة ومُقامه بموضع منه يقال له النهرين، يُظهر الزّهد والتقشف، ويَسُفُّ الخُوصَ، ويأكل منه كسبه، ويُكثِر الصلاة، فأقام على ذلك مدّة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمرَ الدين، وزهّده في الدنيا، وأعلمه أنّ الصلاةالمفترضة على الناس خمسون صلاة في كلّ يوم وليلة؛ حتى فشا ذلك عنه بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك يقعُد إليه الجماعة فيخبرهم من ذلك بما تعلّق قلوبهم، وكان يقعد إلى بقّال في القرية؛ وكان بالقرب من البَقال نخلٌ اشتراه قوم من التجار، واتخذوا حظيرةً جمعوا فيها ما صَرَمُوا من حمل النخل، وجاؤوا إلى البقال فسألوه أن يطلب لهم رجلاً يحفظ عليهم ما صرموا من النخل، فأومى لهم إلى هذا الرجل، وقال: إن أجابكم إلى حفظ ثمرتكم، فإنه بحيث تحبّون، فناظروه على ذلك، فأجابهم إلى حفظه بدراهم معلومة؛ فكان يحفظ لهم، ويصلّي أكثر نَهاره ويصوم، ويأخذ عند إفطارِه من البقال رطل تمر، فيُفطر عليه، ويجمع نوى ذلك التمر.

فلما حمل التجار ما لهم من التمر، صاروا إلى البقّال، فحاسبوا أجيرهم هذا على أجرته، فدفعوها إليه، فحاسب الأجير البقال على ما أخذ منه من التمر، وحّط من ذلك ثمن النوى الذي كان دفعه إلى البقّال؛ فسمع التجار ما جرى بينه وبين البقال في حقّ النوى، فوثبوا عليه فضربوه، وقالوا: ألم ترضَ أن أكلت تمرَنا حتى بعت النوى! فقال لهم البقال: لا تفعلوا، فإنه لم يمسّ تمركم؛ وقصّ عليهم قصته، فندموا على ضربهم إياه، وسألوه أن يجعَلهم في حِلّ، ففعل. وازداد بذلك نُبْلاً عند أهل القرية لما وقفوا عليه من زُهده.

ثم مرض، فمكث مطروحاً على الطريق، وكان في القرية رجلٌ يحمل على أثوار له، أحمر العينين شديدة حمرتها، وكان أهل القرية يسمّونه كرميتة لحمرة عينيه، وهو بالنَّبطية أحمر العينين، فكلّم البقال كرميتة هذا، في أن يحمل هذا العليل إلى منزله، ويُوصي أهلَه بالإشراف عليه والعناية به؛ ففعل وأقام عنده حتى برأ، ثم كان يأوي إلى منزله، ودعا أهلَ القرية إلى أمره، ووصف لهم مذهبَه، فأجابه أهلُ تلك الناحية، وكان يأخذ من الرّجل إذا دخلَ في دينه دينارا؛ ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام؛ فمكث بذلك يدعُو أهلَ تلك القرى فيجيبونه. واتّخذ منهم اثني عشر نقيباً، أمرهم أن يدعو الناس إلى دينهم، وقال لهم: أنتم كحواريي عيسى بن مريم؛ فاشتغل أكَرة تلك الناحية عن أعمالهم بما رَسم لهم من الخمسين الصلاة التي ذكر أنها مفترضَة عليهم.

وكان للهَيْصَم في تلك الناحية ضياع، فوقف على تقصير أكَرته في العمارة، فسأل عن ذلك، فأخبِر أن إنساناً طرأ عليهم، فأظهر لهم مذهباً من الدين، وأعلمهم أنّ الذي افترضه الله عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة، فقد شغِلوا بها عن أعمالهم، فوجّه في طلبه، فأخِذ وجيء به إليه، فسأله عن أمره، فأخبره بقصّته، فحلف أنه يقتله.

فأمر به فحبِس في بيت، وأقفل عليه الباب، ووُضع المفتاح تحت وسادته، وتشاغل بالشرب، وسمع بعض مَنْ في داره من الجواري بقصّته، فرقت له. فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته، وفتحت الباب وأخرجته، وأقفلت الباب، وردّت المفتاح إلى موضعه. فلمّا أصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح الباب فلم يجده، وشاع بذلك الخبر، ففُتن به أهل تلك الناحية، وقالوا: رُفع ثم ظهر في موضع آخر. ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم فسألوه عن قصّته، فقال: ليس يمكن أحداً أن يبدأني بسوء، ولا يقدر على ذلك مني، فعظم في أعينهم، ثم خاف على نفسه، فخرج إلى ناحية الشأم، فلم يُعْرَف له خبر، وسمِّيَ باسم الرّجل الذي كان في منزله صاحب الأثوار كرميتة، ثم خُفِّف فقالوا: قرمط.

ذكر هذه القصة بعض أصحابنا عمّن حدثه، أنه حضر محمد بن داود بن الجرّاح، وقد دعا بقوم من القرامطة من الحبس، فسألهم عن زكرويه، وذلك بعد ما قتله، وعن قرمط وقصّته، وأنهم أوموا له إلى شيخ منهم، وقالوا له: هذا سلف زكرويه، وهو أخبر الناس بقصّته، فسَلْه عما تريد، فسأله فأخبره بهذه القصة.

وذكر عن محمد بن داود أنه قال: قرمط رجل من سواد الكوفة، كان يحمل غلّات السواد على أثوار له، يسمَّى حمدان ويلقب بقرمط. ثم فشا أمرُ القرامطة ومذهبهُم، وكثروا بسواد الكوفة، ووقف الطائيّ أحمد بن محمد على أمرهم، فوظّف على كلّ رجل منهم في كلّ سنة ديناراً، وكان يجبي من ذلك مالاً جليلاً، فقدم قوم من الكوفة فرفعوا إلى السلطان أمرَ القرامطة، وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمَّة محمد إلا مَنْ بايعهم على دينهم، وأن الطائيّ يخفي أمرهم على السلطان، فلم يلتفت إليهم، ولم يسمع منهم، فانصرفوا، وأقام رجل منهم مدة طويلة بمدينة السلام، يرفع ويزعم أنه لا يمكنه الرجوع إلى بلده خوفاً من الطائيّ. وكان فيما حكوا عن هؤلاء القرامطة من مذهبهم أن جاؤوا بكتاب فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان؛ وهو من قرية يقال لها نَصْرانة، داعية إلى المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهديّ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفيّة، وهو جبريل. وذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان، وقال له: إنك الدّاعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدّابة، وإنك روح القدس، وإنك

يحيى بن زكرياء. وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها؛ وأنّ الأذان في كلّ صلاة أن يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله؛ مرتين أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحاً رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أنّ موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفيّة رسول الله؛ وأن يقرأ في كلّ ركعة الاستفتاح؛ وهي من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفية. والقبلة إلى بيت المقدس، والحجّ إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة يوم الاثنين لا يُعمل فيه شيء، والسورة الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المتّخذ لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلة مواقيت للناس؛ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنُها أوليائي الذي عرّفوا عبادي سبيلي. اتقونِ يا أولي الألباب؛ وأنا الذي أسْأل عمّا أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلُوا عبادي، وامتحن خَلْقِي؛ فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيتُه في جنتي، وأخلدته في نعمتي، ومَنْ زال عن أمري، وكذب رسلي، أخلدته مهانا في عذابي، وأتممتُ أجلي، وأظهرتُ أمري؛ على ألسنة رُسُلي؛ وأنا الذي لم يعلُ عليّ جبار إلا وضعتُه، ولا عزيزٌ إلا أذللتُه؛ وليس الذي أصرّ على أمره وداوم على جهالته، وقالوا: لن نبرح عليه عاكفين، وبه مؤمنين: أولئك هم الكافرون.

ثم يركع ويقول في ركوعه: سبحان ربي ربّ العزة وتعالى عما يصف الظالمون!، يقولها مرتين، فإذا سجد قال: الله أعلَى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم.

ومن شرائعه أنّ الصوم يومان في السنة، وهما المهرجان والنوْروز؛ وأن النّبيذ حرام والخمر حلال؛ ولا غُسْلَ من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وأنّ مَنْ حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه ممن خالفه أخِذَت منه الجزية ولا يُؤكل كلّ ذي ناب، ولا كلّ ذي مِخْلب.

وكان مصير قَرْمط إلى سَواد الكوفة قبل قتل صاحب الزَّنْج؛ وذلك أن بعض أصحابنا ذكر عن سلف زكرويه أنه قال: قال لي قَرْمط: صرتُ إلى صاحب الزَّنْج، ووصلت إليه، وقلت له: إني على مذهب، وورائي مائة ألف سيف؛ فناظرْني، فإن اتفقنا على المذهب ملتُ بمَنْ معي إليك، وإن تكن الأخرى انصرفتُ عنك. وقلت له: تعطيني الأمان؟ ففعل.

قال: فناظرته إلى الظهر، فتبينّ لي في آخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري، وقام إلى الصلاة، فانسللت، فمضيتُ خارجاً من مدينته، وصرت إلى سواد الكوفة.

ولخمس بقين من جُمادى الآخرة من هذه السنة، دخل أحمد العُجيفيّ مدينة طَرَسُوس، وغَزا مع يازمان غَزاة الصّائفة، فبلغ سَلَنْدو.

وفي هذه الغزاة مات يازمان، وكان سببُ موته أن شظيّةً من حجر مِنْجنيق أصاب أضلاعه وهو مقيم على حصن سَلَنْدُو؛ فارتحل العسكر؛ وقد كانوا أشرفوا على فتحه، فتُوفِّيَ في الطريق في غدِه يوم الجمعة، لأربع عشرة ليلة خلتْ من رجب، وحُمِل إلى طَرَسُوس على أكتاف الرجال فدُفن هناك.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشميّ.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من أمر السلطانَ بالنداء بمدينة السلام؛ ألاّ يَقعُد على الطريق ولا في مسجد الجامع قاصّ ولا صاحب نجومَ ولا زاجر؛ وحُلِّف الورّاقون ألا يبيعوا كتبَ الكلام والجدَل والفلسفَة.

وفيها خُلع جعفر المفوّض من العهد لثمان بقين من المحرّم.

وفي ذلك اليوم بويع للمعتضد بأنه وليّ العهد من بعد المعتمد، وأنشِئت الكتب بخلع جعفر وتولية المعتضِد، ونفِّذتْ إلى البلدان، وخُطب يوم الجمعة للمعتضد بولاية العهد، وأنشئت عن المعتضد كتب إلى العمال والولاة؛ بأنّ أمير المؤمنين قد ولاّه العهد، وجعل إليه ما كان الموفّق يليه من الأمر والنهي والولاية والعزل.

وفيها قُبض على جرادة، كاتب أبي الصَّقْر لخمس خلوْن من شهر ربيع الأول، وكان الموفّق وجّهه إلى رافع بن هرثمة، فقدِم مدينة السلام قبل أن يُقبَض عليه بأيام.

وفيها انصرف أبو طلحة منصور بن مسلم من شهرزور لست بقين من جُمادى الأولى ـ وكانت ضُمّت إليه ـ فقُبِض عليه وعلى كاتبه عَقامة، وأودِعَا السجْن؛ وذلك لأربع بقين من جمادى الأولى.

وفيها كانت الملحمة بطرَسُوس بين محمد بن موسى ومكنون غلام راغب مولى الموفّق؛ في يوم السبت لتسع بقِينَ من جُمادى الأولى؛ وكان سبب ذلك ـ فيما ذكر ـ أن طُغْج بن جُفّ، لقيَ راغباً بحلب، فأعلمه أن خمارويه بن أحمد يحبّ لقاءه، ووعده عنه بما يحبّ؛ فخرج راغب من حلَب ماضياً إلى مصر في خمسة غلمان له، وأنفذ خادمَه مكنوناً مع الجيش الذي كان معه وأمواله وسلاحه إلى طَرسوس. فكتب طُغْج إلى محمد بن موسى الأعرج يُعلمه أنه قد أنفذ راغباً، وأن كلّ ما معه من مال وسلاح وغلمان مع غلامه مكنون، وقد صار إلى طَرَسُوس، وأنه ينبغي له أن يقبض عليه ساعةَ يدخل وعلى ما معه. فلما دخل مكنون طَرَسُوس وثب به الأعرج، فقبض عليه ووكّل بما معه، فوثب أهل طرسوس على الأعرج، فحالوا بينه وبين مكنون، وقبضوا على الأعرج فحبسوه في يد مكنون، وعلموا أنّ الحيلة قد وقعت براغب؛ فكتبوا إلى خمارويه بن أحمد يعلمونه بما فعل الأعرج، وأنهم قد وكّلوا به، وقالوا: أطلق راغبا لينفذ إلينا حتى نطلق الأعرج، فأطلق خمارويه راغباً، وأنفذه إلى طَرَسُوس، وأنفذ معه أحمد بن طُغان والياً على الثغور، وعزل عنهم الأعرج، فلمّا وصل راغب إلى طَرَسوس أطلق محمد بن موسى الأعرج ،ودخل طَرَسوس أحمد بن طُغان والياً عليها وعلى الثغور ومعه راغب، يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شعبان.

وفيها توفِّيَ المعتمِد ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، وكان شرب على الشطّ في الحَسَنيّ يوم الأحد شراباً كثيراً، وتعشّى فأكثر، فمات ليلاً، فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أيام ـ فيما ذُكر.

خلافة المعتضد

وفي صَبِيحة هذه الليلة بُويع لأبي العباس المعتضد بالله بالخلافة، فولَّى غلامه بدراً الشرطة وعبيدالله بن سليمان بن وهب الوزارة ومحمد بن الشاد بن ميكال الحرس، وحجبة الخاصة والعامة صالحاً المعروف بالأمين، فاستخلف صالح خَفِيفاً السمرقنديّ.

ولليلتين خَلَتا من شعبان فيها قدِم على المعتضد رسولُ عمرو بن الليث الصفّار بهدايا، وسأل ولاية خُراسان، فوجّه المعتضد عيسى النُّوشِري مع الرسول، ومعه خلع ولواء عقده له على خراسان، فوصلوا إليه في شهر رمضان من هذه السنة، وخُلع عليه، ونُصب اللواء في صحن داره ثلاثة أيام.

وفيها ورد الخبر بموت نصر بن أحمد، وقام بما كان إليه من العمل وراء نهر بلْخ أخوه إسماعيل بن أحمد.

وفيها قدم الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجصّاص من مصر رسولاً لخمارويه بن أحمد بن طولون، ومعه هدايا من العين؛ عشرون حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما طراز وعشرون رجلاً على عشرين نجيبا، بسروج محلّاة بحلية فضّة كثيرة، ومعهم حراب فضّة، وعليهم أقبِيةُ الدّيباج والمناطق المحلّاة وسبع عشرة دابة، بسروج ولجم، منها خمسة بذهب والباقي بفضة، وسبع وثلاثون دابّة بجلال مشهّرة، وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة، يومَ الاثنين لثلاثة خلوْن من شوّال، فوصل إلى المعتضد، فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه. وسفَر ابن الجصاص في تزويج ابنة خمارويه من عليّ بن المعتضد، فقال المعتضد: أنا أتزوّجها، فتزوّجها.

وفيها ورد الخبر بأخذ أحمد بن عيسى بن الشيخ قَلْعة ماردين من محمد بن إسحاق بن كُنْداج.

وفيها مات إبراهيم بن محمد بن المدبّر، وكان يلي ديوان الضياع، فَوُلِّيَ مكانه محمد بن عبد الحميد، وكان موته يوم الأربعاء لثلاث أو أربع عشرة بقيت من شوال.

وفيها عُقِد لراشد مولى على الدينور، وخُلع عليه يوم السبت لسبع بَقِين من شوّال، ثم خرج راشد إلى عمله يوم الخميس لعشر خلوْن من ذي القعدة.

وفي يوم النحر منها ركب المعتضِد إلى المصلّى الذي اتخذه بالقرب من الحَسَنيّ، وركب معه القوّاد والجيش، فصلّى بالناس، فذُكر عنه أنه كبّر في الركعة الأولى ستّ تكبيرات، وفي الركعة الثانية تكبيرة واحدة، ثم صعِد المنبر، فلم تُسمَعْ خطبته، وعُطّل المصلى العتيق فلم يصلَّ فيه.

وفيها كُتِب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف بمحاربة رافع بن هرثمة ورافع بالرّيّ، فزحف إليه أحمد، فالتقوْا يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة؛ فانهزم رافع بن هرثمة، وخرج عن الرّيّ، ودخلها ابن عبد العزيز.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشميّ؛ وهي آخر حجة حجّها، وحجّ بالناس ست عشرة سنة، من سنة أربع وستين إلى هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائتين

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من أخذ المعتضد عبدالله بن المهتدي ومحمد بن الحسن بن سهل المعروف بشيْلَمة - وكان شيلمة هذا مع صاحب الزّنْج إلى آخر أيامه، ثم لحق بالموفّق في الأمان فآمنه - وكان سبب أخذه إياهما أنّ بعض المستأمِنة سعى به إلى المعتضد، وأعلمه أنه يدعو إلى رجل لم يوَقف على اسمه، وأنه قد استفسد جماعةً من الجند وغيرهم، وأخذ معه رجل صيدانيّ وابن أخ له من المدينة، فقرّره المعتضد فلم يقرّ بشيء، وسأله عن الرجل الذي يدعُو إليه، فلم يقرّ بشيء، وقال: لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه، ولو عملتني كرْدَناك لما أخبرتك به، فأمر بنار فأوقِدَتْ، ثم شُدّ على خشبة من خشب الخيم، وأدِير على النار حتى تقطّع جلده، ثم ضُربت عنقه، وصُلب عند الجسر الأسفل في الجانب الغربيّ.

وحُبِس ابن المهتدي إلى أن وقِف على براءته، فأطلق، وكان صَلْبه لسبع خلْون من المحرّم.

فذُكر أن المعتضد قال لشيْلمة: قد بلغني أنك تدعو إلى ابن المهتدي، فقال: المأثور عني غير هذا، وأني أتولى آل ابن أبي طالب - وقد كان قرّر ابنَ أخيه فأقرّ - فقال له: قد أقرّ ابنُ اخيك، فقال له: هذا غلام حدَث تكلم بهذا خوفاً من القتل، ولا يُقبل قوله. ثم أطلق ابن أخيه والصّيدنانيّ بعد مدة طويلة.

ولليلة خلت من صفر يوم الأحد شخص المعتضد من بغداد يريد بني شيبان، فنزل بستان بشر بن هارون، ثم سار يوم الأربعاء منه، واستخلف على داره وبغداد صالحاً الأمين حاجبه، فقصد الموضع الذي كانت شيبان تتخذه معقلاً من أرض الجزيرة؛ فلما بلغهم قصدُه إياهم، ضمُّوا إليهم أموالهم وعيالاتهم. ثم ورد كتاب المعتضد أنه أسرَى إلى الأعراب من السنّ، فأوقع بهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق كثير في الزابَيْن. وأخذ النساء والذراريّ. وغنم أهل العسكر من أموالهم ما أعجزهم حمله. وأخذ من غنمهم وإبلهم ما كثر في أيدي الناس حتى بيعت الشاة بدرهم والجمل بخمسة دارهم. وأمر بالنساء والذراريّ أن يُحْفَظُوا حتى يُحْدَرُوا إلى بغداد. ثم مضى المعتضد إلى الموصِل، ثم إلى بَلَد، ثم رجع إلى بغداد، فلقيه بنو شيبان يسألونه الصفح عنهم، وبذلوا له الرهائن، فأخذ منهم خمسمائة رجل - فيما قيل، ورجع المعتضد يريد مدينة السلام، فوافاه أحمد بن أبي الأصبغ بما فارق عليه أحمد بن عيسى بن الشيخ من المال الذي أخذه من مال إسحاق بن كُنْداج. وبهدايا ودوابّ وبغال في يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول.

وفي شهر ربيع الأول ورد الخبر بأن محمد بن أبي الساج افتتح المَرَاغة بعد حصار شديد وحرب غليظة

كانت بينهم ، وأنه أخذ عبدالله بن الحسين بعد أن آمنه وأصحابه ، فقيّده وحبسه ، وقرّره بجميع أمواله ، ثم قتله بعدُ .

وفي شهر ربيع الآخر ورد الخبرُ بوفاة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلف . وكانت وفاته في آخر شهر ربيع الأول ؛ فطلب الجند أرزَاقهم ، وانتهبوا منزل إسماعيل بن محمد المنشيء ، وتنازع الرئاسة عمر وبكر ابنا عبد العزيز ، ثم قام بالأمر عمر ، ولم يكتب إليه المعتضد بالولاية .

وفيها افتتح محمد بن ثَوْر عُمان ، وبعث برؤوس جماعة من أهلها .

وذكر أنّ جعفر بن المعتمد تُوفِّيَ في يوم الأحد لاثنتي عشرة خلتْ من شهر ربيع الآخر ، وأنه كان مُقامه في دار المعتضد لا يخرج ولا يظهر . وقد كان المعتضد نادمه مراراً .

وفيها انصرف المعتضد إلى بغداد من خرجته إلى الأعراب .

وفيها ، في جمادى الآخرة ورد الخبر بدخول عمرو بن الليث نَيْسابور : في جمادى الأولى منها .

وفيها وجّه يوسف بن أبي الساج اثنين وثلاثين نفساً من الخوارج ، من طريق الموصل ، فضُربت أعناق خمسة وعشرين رجلاً منهم ، وصُلِبوا وحبِس سبعة منهم في الحبس الجديد .

وفيها دخل أحمد بن أبّا طَرَسُوس لغزاة الصائفة ، لخمس خلْون من رجب من قِبَل خمارويه ، ودخل بعده بدر الحمّامِيُّ ، فَغَزوا جميعاً مع العُجَيفيّ أمير طَرَسُوس حتى بلغوا البلقسور .

وفيها ورد الخبر بغزو إسماعيل بن أحمد بلاد الترك وافتتاحه - فيما ذكر - مدينة ملكهم ، وأسره إياه وامرأته خاتون ونحواً من عشرة آلاف . وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وغنم من الدوابّ دوابّ كثيرة لا يوقف على عددها ، وأنه أصاب الفارس من المسلمين من الغنيمة في المقسم ألف درهم .

ولليلتين بقيتا من شهر رمضان منها ، تُوُفِّيَ راشد مولى الموفّق بالدينور ، وحُمِل في تابوت إلى بغداد .

ولثلاث عشرة خلت من شوال منها مات مسرور البلخيّ .

وفيها - فيما ذكر - في ذي الحجة ورد كتاب من دُبيل بانكساف القمر في شوال لأربع عشرة خلت منها ، ثم تجلَّى في آخر الليل ، فأصبحوا صبيحة تلك الليلة والدنيا مظلمة ، ودامت الظلمة عليهم ؛ فلما كان عند العصر هبّت ريح سوداء شديدة ، فدامت إلى ثلث الليل ؛ فلما كان ثلث الليل زُلزِلوا ، فأصبحوا وقد ذهبت المدينة فلم ينج من منازلها إلا اليسير ، قدر مائة دار ، وأنهم دفنوا إلى حين كُتب الكتاب ثلاثين ألف نفس يخرجون من تحت الهدم ، ويدفنون ، وأنهم زُلزلوا بعد الهدم خمس مرات .

وذكر عن بعضهم أن جملة من أخرِج من تحت الهدم خمسون ومائة ألف ميّت .

وحجّ بالناس في هذه السنة أبو بكر محمد بن هارون المعروف بابن ترنجة .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من موافاة تُرْك بن العباس عامل السلطان على ديار مُضَر مدينةَ السلام لتسع خَلَوْن من المحرّم بنيّف وأربعين نفساً من أصحاب أبي الأغرّ صاحب سُمَيْسَاط ، على جمال ، عليهم برانس ودراريع حرير . فمضى بهم إلى دار المعتضد . ثم رُدّوا إلى الحبس الجديد فحبسوا به ، وخُلع على تُرْك ، وانصرف إلى منزله .

وفيها ورد الخبر بوقعة كانت لوصيف خادم ابن أبي الساج بعمر بن عبد العزيز بن أبي دُلف وهزيمته إياه ، ثم صار وَصيف إلى مولاه محمد بن أبي الساج ، في شهر ربيع الآخر منها .

وفيها دخل طُغْج بن جُفّ طَرَسوس لغزاة الصائفة من قِبَل خمارويه يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة ـ فيما قيل ـ وغزا ، فبلغ طرابون ، وفتح ملُورِيَة .

ولخمس ليال بقين من جمادى الآخرة مات أحمد بن محمد الطائي بالكوفة ، ودفن بها في موضع يقال له مسجد السهلة .

وفيها غارت المياه بالرّيّ وَطبَرِستان .

ولليلتين خلتا من رجب منها شخص المعتضد إلى الجبل ، فقصد ناحية الدينور ، وقلّد أبا محمد عليّ بن المعتضد الرّيّ وقزوين وزَنْجان وأبْهر وقُمّ وهَمَذان والدينور ، وقلّد كتبته أحمد بن أبي الأصبغ ؛ ونفقات عسكره والضّياع بالرّيّ الحسين بن عمرو الصنرانيّ ، وقلّد عمر بن عبد العزيز بن أبي دُلف أصبهان ونَهاوَند والكرَجَ ، وتعجّل للانصراف من أجل غلاء السعر وقلة الميرة ، فوافى بغداد يوم الأربعاء لثلاث خلْون من شهر رمضان .

وفيها استأمن الحسن بن عليّ كوره عامل رافع على الريّ إلى عليّ بن المعتضد في زُهاء ألف رجل ، فوجّهه إلى أبيه المعتضد .

وفيها دخل الأعراب سامُرّا فأسَرُوا ابن سيما أنف في ذي القعدة منها وانتهبوا .

ولست ليال بقين من ذي القعدة خرج المعتضد الخرجة الثانية إلى المَوْصِل عامداً لحمدان بن حمدون ؛ وذلك أنه بلغه أنه مايَل هارون الشاري الوازقيّ ، ودعا له . فورد كتاب المعتضد من كَرْخَ جُدّان على نِجاح الحُرَميّ الخادم بالوقْعة بينه وبين الأعراب والأكراد ، وكانت يوم الجمعة سَلْخ ذي القعدة :

بسم الله الرحمن الرحيم . كتابي هذا وقت العتَمة ليلة الجمعة ، وقد نصر الله ـ وله الحمد ـ على الأكراد والأعراب ، وأظفرنا بعالم منهم وبعيالاتهم ، ولقد رأيتنا ونحن نسوق البقر والغنم كما كنا نسوقها عاماً أولاً ، ولم تزل الأسنّة والسيوف تأخذهم ، وحال بيننا وبينهم الليل ، وأوقِدت النيران على رؤوس الجبال ، ومن غد يومنا ، فيقع الاستقصاء ، وعسكري يتبعني إلى الكَرْخ . وكان وقاعُنا بهم وقتلُنا إياهم خمسين ميلاً ، فلم يبق منهم مخبر والحمد لله كثيراً ، فقد وجب الشكر لله علينا والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد ونبيه وآله وسلم كثيراً .

وكانت الأعراب والأكراد لمّا بلغهم خروجُ المعتضد ، تحالفوا أنهم يُقْتَلون على دم واحد ، واجتمعوا ، وعبَّوْا عسكرهم ثلاثة كراديس ، كردوساً دون كردوس ، وجعلوا عيالاتهم وأولادهم في آخر كُردوس ، وتقدّم المعتضد عسكره في خيل جريدة ، فأوقع بهم ، وقتل منهم ، وغرق في الزّاب منهم خلق كثير ، ثم خرج إلى المَوْصِل عامداً لقلعة مارِدين ، وكانت في يد حمدان بن حمدون ، فلمّا بلغه مجيء المعتضد هرب وخلّف ابنه بها ، فنزل عسكر المعتضد على القَلْعة ، فحاربهم مَنْ كان فيها يومَهم ذلك ؛ فلمّا كان من الغد ركب المعتضد ، فصعد القلعة حتى وصل إلى الباب ، ثم صاح : يا بن حمدون ، فأجابه : لبيك ! فقال له : افتح الباب ، ويلك ، ففتحه ، فقعد المعتضد في الباب ، وأمر مَنْ دخل فنقل ما في القلعة من المال والأثاث ، ثم أمر بهدمها فهُدِمَتْ ، ثم وجّه خلْف حمدان بن حمدون ، فطُلب أشدّ الطلب ، وأُخِذَت أموالٌ كانت له مودعة ، وجيء بالمال إلى المعتضد ، ثم ظُفر به ، ثم مضى المعتضد إلى مدينة يقال لها الحسنيّة ، وفيها رجل يقال له شدّاد ، في جيش كثيف ، ذكر أنهم عشرة آلاف رجل ، وكان له قلعة في المدينة فظفِر به المعتضد ، فأخذه فهدم قلعته .

وفيها ورد الخبر من طريق مكة أنه أصاب الناس في المصعد برد شديد ومطر جَوْد وبرد أصيب فيه أكثر من خمسمائة إنسان .

وفي شوال منها غزا المسلمون الرّوم ، فكانت بينهم الحرب اثني عشر يوماً ، فظفِر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وانصرفوا .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائتين

ذكر الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من أمر المعتضد في المحرّم منها بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بترك افتتاح الخراج في النيْروز الذي هو نيروز العجم ، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران ، وسمي ذلك النَّيروز المعتضديّ ، فأنشئت الكتب بذلك من المَوْصِل والمعتضد بها ، وورد كتابه بذلك على يوسف بن يعقوب يعلمه أنه أراد بذلك الترفيهَ على الناس ، والرفْق بهم ، وأمر أن يُقْرَأ كتابه على الناس ، ففعل .

وفيها قدم ابن الجصاص من مصر بابنة أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون التي تزوّجها المعتضد ، ومعها أحد عمومتها ، فكان دخولُهم بغداد يوم الأحد لليلتين خَلَتَا من المحرّم ، وأدخلت للحرم ليلة الأحد ، ونزلت في دار صاعد بن مخلَد ، وكان المعتضد غائباً بالموصل .

وفيها منع الناس من عمل ما كانوا يعملون في نَيْروز العجم من صبّ الماء ورفع النيران وغير ذلك .

وفيها كتب المعتضد من المَوْصِل إلى إسحاق بن أيوب وحمدان بن حمدون بالمصير إليه؛ فأما إسحاق بن أيوب فسارعَ إلى ذلك، وأما حمدان بن حمدون فتحصن في قلاعه، وغيّب أمواله وحُرَمه. فوجّه إليه المعتضد الجيوش مع وصيف مُوشْكير ونصر القُشورِيّ وغيرهما؛ فصادفوا الحسن بن عليّ كوره وأصحابه مُنيخين على قَلْعة لحمدان، بموضع يعرف بدير الزعفران من أرض الموصِل، وفيها الحسين بن حمدان، فلما رأى الحسين أوائل العسكر مقبلين طلب الأمان فأومن. وصار الحسين إلى المعتضد، وسلّم القلعة، فأمر بهدمها، وأغذّ وصيف موشْكير السَّيْر في طلب حمدان؛ وكان قد صار بموضع يعرف بباسُورين بين دجلة ونهر عظيم، وكان الماء زائداً، فعبَر أصحاب وصيف إليه ونذر بهم، فركب وأصحابه ودافعوا عن أنفسهم، حتى قتِل أكثرهم، فألقَى حمدان نفسه في زوْرق كان معدًّا له في دجلة، ومعه كاتب له نصرانيٌّ يسمى زكرياء بن يحيى، وحمل معه مالاً، وعبر إلى الجانب الغربيّ من دِجْلة من أرض ديار ربيعة، وقدَّر اللحاق بالأعراب لمّا حِيلَ بينه وبين أكراده الذين في الجانب الشرقيّ، وعبر في أثره نفرٌ يسير من الجند فاقتصّوا أثره، حتى أشرفوا على دير كان قد نزله؛ فلما بَصُر بهم خرج من الدَّيْر هارباً ومعه كاتبه، فألقيا أنفسهما في زَوْرق، وخلّفا المال في الدَّيْر، فحُمل إلى المعتضد، وانحدر أصحاب السلطان في طلبه على الظهر وفي الماء، فلحقوه، فخرج عن الزَّوْرق حاسراً إلى ضيعة له بشرقيّ دجلة، فركب دابة لوكيله، وسار ليله أجمع إلى أن وافَى مضرب إسحاق بن أيوب في عسكر المعتضِد، مستجيراً به، فأحضره إسحاق مضرب المعتضد، وأمر بالاحتفاظ به، وبثّ الخيل في طلب أسبابه، فظفِر بكاتبه وعدّة من قَراباته وغلمانه، وتتابع رؤساء الأكراد وغيرهم في الدّخول في الأمان؛ وذلك في آخر المحرّم من هذه

السنة.

وفي شهر ربيع الأول منها قُبِض على بكتمر بن طاشتمر، وقُيِّد وحُبس، وقبِض ماله وضياعه ودوره.

وفيها نقلت ابنة خمارويه بن أحمد إلى المعتضد لأربع خَلَوْن من شهر ربيع الآخر، ونُودي في جانبي بغداد ألّا يعبر أحد في دِجْلة يوم الأحد، وغُلِّقت أبواب الدُّروب التي تلي الشطّ، ومُدّ على الشوارع النافذة إلى دجْلة شراع، ووُكِّل بحافّتي دجْلة مَنْ يمنع أن يظهروا في دورهم على الشطّ. فلما صلِّيت العتمة وافت الشَّذَا من دار المعتضد، وفيها خدم معهم الشمع، فوقفوا بإزاء دار صاعد، وكانت أعِدّت أربع حرَّاقات شُدّت مع دار صاعد، فلما جاءت الشذا أُحْدِرت الحَرّاقات، وصارت الشَّذا بين أيديهم؛ وأقامت الحُرّة يوم الاثنين في دار المعتضد، وجُليَتْ عليه يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول.

وفيها شخص المعتضد إلى الجبل، فبلغ الكرَج، وأخذ أموالا لابن أبي دُلف وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بن أبي دُلف يطلب منه جوهراً كان عنده، فوجّه به إليه، وتنحّى من بين يديه.

وفيها أطلِق لؤلؤ غلام ابن طولون بعد خروج المعتضد، وحُمِل على دوابّ وبغال.

وفيها وجَّهَ يوسف بن أبي الساج إلى الصَّيْمرة مدداً لفتح القلانسيّ، فهرب يوسف بن أبي الساج بمَنْ أطاعه إلى أخيه محمد بالمراغة، ولقي مالاً للسلطان في طريقه فأخذه، فقال في ذلك عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

إمـامَ الهـدى أنصـارُكم آلُ طـاهـرٍ	بـلا سبب يُجفَـوْنَ والـدهْـرُ يَـذهبُ
وقـد خَلطوا صَبـراً بشُكـر ورابـطوا	وغيـرُهُمْ يُـعـطَى ويُحبَى ويَـهـرُبُ

وفيها وجه المعتضد الوزير عبيد الله بن سليمان إلى الريّ إلى أبي محمد ابنه.

وفيها وجّه محمد بن زيد العَلِويّ من طَبَرستان إلى محمد بن ورد العطار باثنين وثلاثين ألف دينار، ليفرّقها على أهله ببغداد والكوفة؛ ومكة والمدينة، فسُعِي به، فأحضر دار بدر، وسُئل عن ذلك، فذكر أن يوجّه إليه في كلّ سنة بمثل هذا المال، فيفرّقه على مَنْ يأمره بالتّفرقة عليه من أهله. فأعلم بدر المعتضد ذلك، وأعلمه أن الرجل في يديه والمال، واستطلع رأيه وما يأمر به.

فذكر عن أبي عبد الله الحسنيّ أنّ المعتضد قال لبدر: يا بدر، أما تذكر الرؤيا التي خبّرتك بها؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: ألا تذكر أنّي حدّثتك أنّ الناصر دعاني، فقال لي: اعلم أنّ هذا الأمر سيصير إليك، فانظر كيف تكون مع آل عليّ بن أبي طالب! ثم قال: رأيتُ في النوم كأني خارج من بغداد أريد ناحية النهروان في جيشي، وقد تشوّف الناس إليّ، إذ مررتُ برجل واقف على تلّ يصلي، لا يلتفت إليّ، فعجبت منه ومن قلة اكتراثه بعسكري، مع تشوّف الناس إلى العسكر، فأقبلتُ إليه حتى وقفت بين يديه، فلما فرغ من صَلاته قال لي: أقبل، فأقبلتُ إليه، فقال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا عليّ بن أبي طالب؛ خذ هذه المِسْحاة، فاضرب بها الأرض - لِمسحاة بين يديه - فأخذتها فضربت بها ضربات، فقال لي: إنه سيلي من ولدك هذا الأمر بقدر ما ضربت بها، فأوصِهم بولدي خيراً. قال بدر: فقلت: بلَى يا أمير المؤمنين؛ قد ذكرت. قال: فأطلِق المال، وأطلق الرجل وتقدّم إليه أن يكتب إلى صاحبه بطَبَرِستان أن يوجه ما يوجه به إليه ظاهراً، وأن يفرّق محمد بن ورد ما يفرّقه ظاهراً، وتقدّم بمعونة محمد على ما يريد من ذلك.

وفي شعبان لإحدى عشرة بقيتْ منها، تُوُفِّيَ أبو طلحة منصور بن مسلم في حبس المعتضد.

وفيها لثمانٍ خلوْن من شهر رمضان منها، وافَى عبيد الله بن سليمان الوزير بغداد قادماً من الرّيّ، فخلع عليه المعتضد.

ولثمان بقين من شهر رمضان منها، ولدت ناعم جارية أم القاسم بنت محمد بن عبد الله للمعتضد ابنا سماه جعفراً، فسمّى المعتضد هذه الجارية شغب.

وفيها قدم إبراهيم بن أحمد الماذَرائيّ لاثنتي عشرة بقيت من ذي الحجة من دمشق على طريق البرّ، فوَافى بغداد في أحد عشر يوماً، فأخبر المعتضد أن خمارويه بن أحمد ذبح على فراشه، ذبحه بعض خدمه من الخاصّة، وقيل: إن قتله كان لثلاث خلون من ذي الحجة. وقيل إن إبراهيم وافى بغداد من دمشق في سبعة أيام، وقُتِل من خدمه الذين اتّهموا بقتله نيِّفٌ وعشرون خادماً.

وكان المعتضد بعث مع ابن الجصّاص إلى خمارويه بهدايا، وأودعه إليه رسالة، فشخص ابن الجصاص لِما وجِّه له، فلما بلغ سامرّا بلغ المعتضد مهلِك خمارويه، فكتب إليه يأمره بالرجوع إليه فرجع، ودخل بغداد لسبع بقين من ذي الحجة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من شخوص المعتضِد لثلاثَ عشرة بقيتْ من المحرّم منها ـ بسبب الشاري هارون ـ إلى ناحية الموصِل، فظفر به؛ ووردَ كتابُ المعتضد بظفرِه به إلى مدينة السلام يوم الثلاثاء لتسع خَلَوْن من شهر ربيع الأول. وكان سبب ظفره به أنه وجّه الحسين بن حمدان بن حمدون في جماعة من الفُرسان والرّجّالة من أهل بيته وغيرهم من أصحابه إليه؛ وذُكر أن الحسين بن حمدان قال للمعتضد: إن أنا جئت به إلى أمير المؤمنين فلي ثلاث حوائج إلى أمير المؤمنين، فقال: اذكرها، قال: أولها إطلاق أبي، وحاجتان أسأله إياهما بعد مجيئي به إليه. فقال له المعتضد: لك ذلك فامض، فقال الحسين: أحتاج إلى ثلاثمائة فارس أنتخبُهم، فوجّه المعتضد معه ثلاثمائة فارس مع موشْكير، فقال: أريد أن يأمره أمير المؤمنين ألّا يخالفني فيما آمره به، فأمر المعتضد موشْكير بذلك.

فمضى الحسين حتى انتهى إلى مخاضة دجلة، فتقدّم إلى وصيف ومَنْ معه بالوقوف على المخاضة، وقال له: ليس لهارون طريق إن هرب غيرُ هذا، فلا تبرحنّ من هذا الموضع حتى يمرّ بك هارون؛ فتمنَعه العبور، وأجيئك أنا، أو يبلغك أني قد قُتِلت. ومضى حسين في طلب هارون فلقيَه وواقعه، وكانت بينهما قتلى، وانهزم الشاري هَارون، وأقام وصيفٌ على المخاضة ثلاثة أيام، فقال له أصحابه: قد طال مقامُنا بهذا المكان القَفْر، وقد أضرّ ذلك بنا، ولسنا نأمن أن يأخذ حسين الشاريَ فيكونَ الفتح له دوننا؛ والصواب أن نمضيَ في آثارهما. فأطاعهم ومضى. وجاء هارون الشاري منهزماً إلى موضع المخاضة، فعبَر، وجاء حسين في أثره، فلم ير وصيفاً وأصحابه بالموضع الذي تركهم فيه، ولا عرف لهارون خبراً، ولا رأى له أثراً، وجعل يسأل عن خبر هارون حتى وقف على عبوره، فعبَر في أثره، وجاء إلى حيٍّ من أحياء العرب، فسألهم عنه فكتموه أمرَه، فأراد أن يُوقع بهم، وأعلمهم أنّ المعتضد في أثره؛ فأعلموه أنه اجتاز بهم، فأخذ بعض دوابهم، وترك دوابه عندهم ـ وكانت قد كلّت وأعيت ـ واتّبع أثره فلحقه بعد أيام والشاري في نحو من مائة، فناشده الشاري، وتوعّده، فأبى إلّا محاربته، فحاربه؛ فذُكر أن حسين بن حمدان رمى بنفسه عليه، فابتدره أصحاب حسين فأخذوه، وجاء به إلى المعتضد سلماً بغير عَقْد ولا عهْد، فأمر المعتضد بحلّ قيود حمدان بن حمدون، والتوسعة عليه والإحسان إليه أن يقدم فيطلقه ويخلع عليه؛ فلما أسر الشاري، وصار في يد المعتضد، انصرف راجعاً إلى مدينة السلام، فوافاها لثمان بقين من شهر ربيع الأول، فنزل باب الشماسيّة، وعبّأ الجيش هنالك، وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان، وطوّقه بطَوْق من ذهب، وخلع على جماعة من رؤساء أهله، وزُيِّن الفيل بثياب الدِّيباج، واتُّخذ للشاريّ على الفيل كالمحفّة، وأقعِد فيها، وألبِس درّاعة ديباج، وجَعل على رأسه برنس حرير طويل.

ولعشر بقين من جمادى الأولى منها، أمر المعتضد بالكتاب إلى جميع النواحي بردّ الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام، وإبطال ديوان المواريث، وصرف عمّالها؛ فنفذت الكتب بذلك، وقرئت على المنابر.

وفيها خرج عمرو بن الليث الصفار من نيسابور، فخالفه رافع بن هرثمة إليها، فدخلها وخطب بها لمحمد بن زيد الطالبيّ وأبيه، فقال: اللهمّ أصلح الداعي إلى الحق؛ فرجع عمرو إلى نيسابور، فعسكر خارج المدينة، وخندق على عسكره لعشر خلوْن من شهر ربيع الآخر، فأقام محاصِراً أهل نيسابور.

وفي يوم الاثنين لأربع خَلوْن من جُمادى الآخرة منها، وافى بغداد محمد بن إسحاق بن كنداجيق وخاقان المفلحيّ ومحمد بن كُمُشْجُور المعروف ببُندقة وبدر بن جُفّ أخو طغج وابن حَسَنج في جماعة من القواد من مصر في الأمان.

وذكر أن سبب مجيئهم إلى المعتضد في الأمان كان أنهم أرادوا أن يفتكوا بجيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون، فَسُعِيَ بهم إليه، وكان راكباً، وكانوا في موكبه، وعلِموا أنه قد وقف على أمرهم، فخرجوا من يومهم وسلكوا البرّية، وتركوا أموالَهم وأهاليهم، فتاهوا أياماً، ومات منهم جماعة من العطش، وخرجوا على طريق مكة فوق الكوفة بمرحلتين أو ثلاثة. ووجّه السلطان محمد بن سليمان صاحب الجيش إلى الكُوفة حتى كتب أسماءهم، وأقيمت لهم الوظائف من الكوفة، فلما قربوا من بغداد، خرجت إليهم الوظائف والخيم والطعام، ووصلوا إلى المعتضِد يوم دخلوا، فخُلع عليهم، وحُمل كلّ قائد منهم على دابّة بسرجه ولجامه، وخُلع على الباقين، وكان عددهم ستين رجلاً.

وفي يوم السبت لأربع عشرة بقيت منها شخص الوزير عبيد الله بن سليمان إلى الجَبَل لحرب ابن أبي دُلف بأصبهان.

وفيها ـ فيما ذكر ـ ورد كتابٌ من طَرَسُوس أن الصَّقالبة غزت الروم في خلق كثير، فقتلوا منهم وخرّبوا لهم قرًى كثيرة حتى وصلوا إلى قسطنطينية وألجؤوا الرّوم إليها، وأغلقت أبواب مدينتهم، ثم وجّه طاغية الروم إلى ملك الصّقالبة أن ديننا ودينكم واحد؛ فعلام نقتل الرجال بيننا! فأجابه ملك الصقالبة أن هذا ملك آبائي، ولست منصرفاً عنك إلاّ بغلبة أحدنا صاحبه؛ فلما لمْ يجد ملك الرّوم خلاصاً من صاحب الصَّقالبة، جَمع مَنْ عنده من المسلمين، فأعطاهم السلاح، وسألهم معونتَه على الصّقالبة، ففعلوا، وكشفوا الصقالبة، فلما رأى ذلك ملك الروم خافَهم على نفسه، فبعث إليهم فردّهم، وأخذ منهم السلاح، وفرّقهم في البلدان، حذراً من أن يجنوا عليه.

وللنصف من رجب من هذه السنة ورد الخبر من مصر أن الجند من المغاربة والبربر وثبوا على جيش بن خمارويه، وقالوا: لا نرضى بك أميراً علينا فتنحّ عنا حتى نولِّيَ عمَّك، فكلمهم كاتبه عليّ بن أحمد الماذَرائيّ، وسألهم أن ينصرفوا عنه يومهم ذلك، فانصرفوا وعادوا من غد، فعدا جيش على عمه الذي ذكروا أنهم يؤمّرونه، فضرب عنقه وعنق عمٍّ له آخر، ورمى بأرؤسهما إليهم، فهجم الجند على جيش بن خمارويه، فقتلوه وقتلوا أمّه وانتهبوا دارَه، وانتهبوا مصر وأحرقوها، وأقعدوا هارون بن خمارويه مكان أخيه.

وفي رجب منها أمر المعتضد بكَرْي دُجَيل والاستقصاء عليه، وقلع صخر في فُوّهته كان يمنع الماء، فجُبِيَ

لذلك من أرباب الضّياع والإقطاعات أربعة آلاف دينار، وكسرٌ ـ فيما ذكر ـ وأنفِق عليه، ووليَ ذلك كاتب زيرك وخادم من خدم المعتضد.

وفي شعبان منها، كان الفداء بين المسلمين والرّوم على يدي أحمد بن طُغان، وذُكر أن الكتاب الوارد بذلك من طَرَسوس كان فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

أعلمك أن أحمد بن طغان نادى في الناس يحضرون الفداء يوم الخميس لأربع خلون من شعبان سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وأنه قد خرج إلى لامس ـ وهو معسكر المسلمين ـ يوم الجمعة لخمس خلوْن من شعبان، وأمر الناس بالخروج معه في هذا اليوم، فصلّى الجمعة، وركب من مسجد الجامع ومعه راغب ومواليه، وخرج معه وجوهُ البلد والموالي والقُوّاد والمطوّعة بأحسن زيّ، فلم يزل الناس خارجين إلى لامس إلى يوم الاثنين لثمان خَلَوْن من شعبان، فجرى الفداء بين الفريقين اثني عشر يوماً؛ وكانت جملة من فُودِيَ به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس، وأطلق المسلمون يوم الثلاثاء لسبع بقين من شعبان سميون رسول ملك الروم، وأطلق الرّوم فيه يحيى بن عبد الباقي رسول المسلمين المتوجّه في الفداء، وانصرف الأمير ومَنْ معه.

وخرج ـ فيما ذكر ـ أحمد بن طُغان بعد انصرافه من هذا الفداء في هذا الشهر في البحر وخلف دميانة على عمله على طَرَسوس، ثم وجّه بعده يوسف بن الباغمرديّ على طَرَسُوس ولم يرجع هو إليها.

وفي يوم الجمعة لعشر خَلَوْن من شهر رمضان من هذه السنة قُرِىء كتاب على المنبر بمدينة السلام في مسجد جامعها؛ بأن عمر بن عبد العزيز بن أبي دُلف صار إلى بدر وعبيد الله بن سليمان في الأمان يوم السبت لثلاث بقين من شعبان سامعاً مطيعاً منقاداً لأمير المؤمنين، مذعناً بالطاعة والمصير معهما إلى بابه، وأنّ عبيد الله بن سليمان خرج إليهفتلقاه، وصار به إلى مضرب بدر، فأخذ عليه وعلى أهل بيته وأصحابه البَيْعة لأمير المؤمنين، وخلع عليه بدر وعلى الرؤساء من أهل بيته، وانصرفوا إلى مضربٍ قد أعِدّ لهم، وكان قبل ذلك قد دخل بكر بن عبد العزيز في الأمان على بدْر وعبيد الله بن سليمان، فولّياه عمل أخيه عمر، على أن يخرج إليه ويحاربه، فلما دخل عمر في الأمان قالا لبكر: إنّ أخاك قد دخل في طاعة السلطان؛ وإنما كنا ولّيناك عمله على أنه عاصٍ، والآن فأمير المؤمنين أعلَى عَيْناً فيما يرى من أمركما، فامضيا إلى بابه.

ووليَ عيسى النُّوشريّ أصبهان، وأظهر أنه من قِبَل عمر بن عبد العزيز، فهرب بكر بن عبد العزيز في أصحابه، فكُتب بذلك إلى المعتضد، فكتب إلى بدْر يأمره بالمقام بموضعه إلى أن يعرف خبر بكر وما إليه يصير أمره؛ فأقام وخرج الوزير عبيد الله بن سليمان إلى أبي محمد عليّ بن المعتضد بالرَّيّ، ولحق بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلف بالأهواز، فوجّه المعتضد في طلبه وصيفاً موشكير، فخرج من بغداد في طلبه حتى بلغ حدود فارس، وقد كان لحقه ـ فيما ذكر ـ ولم يواقعه، وباتا؛ كلّ واحد منهما قريب من صاحبه، فارتحل بكر بالليل فلم يتبعه وصيف، ومضى بكْر إلى أصبهان، ورجع وصيف إلى بغداد، فكتب المعتضد إلى بدر يأمره بطلب بكْر وعرَبِه، فتقدّم بدر إلى عيسى النُّوشريّ بذلك، فقال بكر بن عبد العزيز:

عنّي مَلاَمَك ليس حين مَلاَمِ ... هيهاتَ أُحْدِثُ زائداً لِلُوَامِ

طارَتْ غَيايـاتُ الصِّبا عنْ مَفْـرِقي ومضى أوانُ شَـراسَتي وعُـرامي
ألـقى الأَحِبَّـةُ بـالعـراقِ عَـصِيَّهُمْ وبَقِيـتُ نَـصْـب حـوادثِ الأيّـام
وتَقَـاذَفتْ بـأخي النـوى ورَمَتْ بـه مَـرْمَى البعيـدِ قـطِيعـةُ الأرحـام
وتَشَعَّبَ العـربُ الـذين تصـدَّعـوا فـذَبَبْتُ عن أحسـابِهِمْ بحُسـامي
فيـه تَماسُـك ما وَهَى من أمـرِهِمْ والسُّمْـر عـنـد تـصـادُمِ الأقـوامِ
فـلأقـرَعَنَّ صفـاةَ دهـرٍ نـابَهُمْ قـرْعـاً يَـهُـدّ رواسِـيَ الأعـلامِ
ولأضـربـنَّ الهـامَ دونَ حـريـمِهـمْ ضَـرْبَ القُـدَارِ نَقيعـةَ القـدّام
ولأتـركَـنَّ الـواردينَ حيـاضَـهـمْ بـقَـرارةٍ لـمـواطِـىءِ الأقـدامِ
يـا بـدرُ إنَّـكَ لـو شهِـدتَ مواقفِي والـمَـوتُ يَلحظ والـصِّـفـاحُ دوامي
لَذَمَمْتَ رأيكَ في إضاعةِ حُـرمَتي ولضـاقَ ذرْعُـك في اطِّـراحِ ذمامي
حـرَّكتني بعـدَ الـسكـونِ وإنمـا حـرّكتَ مِنْ حِضْنِي جبـالَ تَـهَـامِ
وعَجَمْتني فعَجمْتَ مني مِـرجَمـاً خَشِنَ المنـاكب كـلَّ يـومِ زحـامِ
قـلْ لِـلأميـرِ أبي محمـدٍ الـذي يَـجْلو بِـغُـرَّتِـهِ دُجـى الإظـلامِ
أسكنتَني ظِـلَّ العـلاَ فسكَـنـتُـهُ فـي عِيـشَـةٍ رَغـدٍ وعِـزٍّ نـامِـي
حتـى إذا حُـلِّئت عـنـه نـابَنِـي مـا نـابـنـي وتـنـكَّـرَتْ أيـامِـي
فـلأشكـرنَّ جَميـلَ مـا أوليتَني مـا غَـرَّدَتْ في الأيـكِ وُرْقُ حمـامِ
هـذا أبـو حفصٍ يَـدِي وذَخيـرتـي لـلنـائبـاتِ وعُـدَّتـي وسَـنـامـي
نـادَيتُـهُ فـأجـابـنـي، وهَـزَزْتُـهُ فهـززتُ حَدَّ الصـارمِ الصَّمصَـامِ
من رامَ أن يُغضِي الجفونَ على القَذى أو يَستـكِـيـنَ يَـرُومُ غيـر مَـرام
ويَخيمُ حيـن يَـرَى الأَسِنَّـة شـرَّعـاً والـبِيضَ مُصْلَتَـةً لـضَـرْبِ الـهـام

وقال بكر بن عبد العزيز يذكر هرب النّوشريّ من بين يديه ويعيِّر وصيفا بالإحجام عنه ويتهدّد بَدْراً:

قـالَتِ الـبِيض قـد تـغـيّـرَ بـكـرُ وبَـدَا بـعـد وصلِه مـنـه هـجْـرُ
ليس كـالسيفِ مـونسٌ حين يـعـرو حـادثٌ مُـعـضِـلٌ ويَـفـدَحُ أمـرُ
أوقَـدوا الحربَ بيننـا فـاصْـطلَوْهـا ثم حـاصُـوا، فـأينَ منهـا المفَـرُّ!
وبَـغَـوْا شَـرَّنـا فـهـذا أوانٌ قـد بـدا شَـرُّهُ ويـتـلوه شَـرُّ
قـد رأى النُّـوشَـريُّ لمّـا التقَينـا مَـن إذَا أُشْـرِعَ الـرِّمـاحُ يـفِـرُّ
جـاءَ في قَسـطَلٍ لُـهَـامٍ فصُلْنـا صَـولـةً دُونـهـا الـكمَـاة تَـهِـرُّ
ولـواءُ المُـوْشجِـيـر أفضَى إلينـا رُوِّيـتْ عـنـد ذاك بِـيض وسُـمُـر
غَـرَّ بَـدْراً حِلمِي وفضـلُ أنـاتِي واحـتـمـالـي، وذاك ممـا يَـغُـرُّ
سـوفَ يـأتـيـنَـهُ شـواذِبُ قُـبٌّ لاحقـات الـبطون جُـونٌ وشقـرُ
يَتَبـارَيـن كـالسَّعَـالِي عليهـا مـن بـنـي وائـلٍ أُسـودٌ تَـكُـرّ
لست بكـراً إنْ لم أدْعهُمْ حـديثـاً مـا سـرَى كـوكبٌ ومـا كـرَّ دَهـرُ

وفي يوم الجمعة لسبع خَلَوْن من شوّال من هذه السنة مات عليّ بن محمد بن أبي الشوارب، فحُمل إلى سامُرّا من يومه في تابوت، وكانت ولايتُه للقضاء على مدينة أبي جعفر ستة أشهر.

وفي يوم الاثنين لأربع بقين من شوّال منها دخل بغداد عمر بن عبدالعزيز بن أبي دُلف قادماً من أصبهان، فأمر المعتضد - فيما ذكر - القوّاد باستقباله، فاستقبله القاسم بن عبيد الله والقوّاد، وقعد له المعتضد، فوصل إليه، وخلع عليه، وحمله على دابّة بسرْج ولجام محلًّى بذهب، وخلع معه على ابنين له وعلى ابن أخيه أحمد بن عبد العزيز وعلى نفسين من قوّاده، وأنزِل في الدار التي كانتْ لعبيد الله بن عبد الله عند رأس الجسر؛ وكانت قد فُرشت له.

وفي هذه السنة قرىء على القوّاد في دار المعتضد كتابٌ ورد من عمرو بن الليث الصفار، بأنه واقَع رافع بن هرثمة وهزَمه، وأنه مرّ هارباً، وأنه على أن يتبعه.

وكانت الوقعة لخمس بقِين من شهر رمضان، وقرىء الكتاب يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة خَلَتْ من ذي القعدة.

وفي يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة؛ وردت خريطة - فيما ذكر - من عمرو بن الليث على المعتضد، وهو في الحلبة، فانصرف إلى دار العامة، وقرىء الكتاب على القوّاد من عمرو بن الليث يُخبر فيه أنه وجّه في أثر رافع بعد الهزيمة محمد بن عمرو البلخيّ مع قائد آخر من قوّاده، وقد كان رافع صار إلى طوس فواقعوه، فانهزم واتبعوا أثرَه، فلحق بخُوارزم، فقتِل بخُوارزم، فأرسل بخاتمه مع الكتاب، وذكر أنه قد حمّل الرسول في أمر الرأس ما يُخبر به السلطان.

وفي يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة منها قُرئت الكتب على المنابر بقتل رافع بن هرثمة.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما كان من قدوم رسول عمرو بن الليث الصفار برأس رافع بن هرثمة في يوم الخميس لأربع خلوْن من المحرّم على المعتضد، فأمر بنصبه في المجلس بالجانب الشرقيّ إلى الظهر، ثم تحويله إلى الجانب الغربيّ، ونصبه هنالك إلى الليل، ثم ردّه إلى دار السلطان. وخُلع على الرسول وقت وصوله إلى المعتضد بالرأس.

وفي يوم الخميس لسبع خلون من صفر كانت ملحمة بين راغب ودميانة بطَرَسوس، وكان سبب ذلك - فيما ذكر - أن راغباً مولى الموفّق ترك الدعاء لخمارويه بن أحمد، ودعا لبدر مولى المعتضد، فوقع بينه وبين أحمد بن طُغان الخلاف؛ فلما انصرف ابن طغان من الفداء الذي كان في سنة ثلاث وثمانين ومائتين ركب البحر ولم يدخل طَرَسوس، ومضى وخلّف دميانة للقيام بأمر طَرَسوس؛ فلما كان في صفر من هذه السنة، وجّه يوسف بن الباغمرديّ ليخلفه على طَرَسوس؛ فلما دخلها وقوِيَ به دميانة، كرهوا ما يفعله راغب من الدعاء لبدر، فوقعت بينهم الفتنة، وظفر بهم راغب، فحمل دميانة وابن الباغمرديّ وابن اليتيم مقيّدين إلى المعتضد.

ولعشر بقين من صفر في يوم الاثنين من هذه السنة وردت خريطة من الجبل؛ بأن عيسى النُّوشريّ أوقع ببكر بن عبد العزيز بن أبي دُلف في حدود أصبهان، فقتل رجاله، واستباح عسكره، وأفلت في نفر يسير.

وفي يوم الخميس لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول منها، خُلع على أبي عمر يوسف بن يعقوب، وقُلِّد قضاءَ مدينة أبي جعفر المنصور مكان عليّ بن محمد بن أبي الشوارب، وقضاء قطربُّل ومَسْكِنْ وبُزُرْجَسابور والرذانينْ. وقعد للخصوم في هذا اليوم في المسجد الجامع، ومكثت مدينة أبي جعفر من لدن مات ابن أبي الشوارب إلى أن وليَها أبو عمر بغير قاض، وذلك خمسة أشهر وأربعة أيام.

وفي يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلتْ منه في هذه السنة، أخِذ خادم نصرانيّ لغالب النصرانيّ متطبّب السلطان يقال له وَصيف، فرُفع إلى الحبس، وشُهد عليه أنه شتم النبيّ ﷺ فحبِس، ثم اجتمع من غد هذا اليوم ناس من العامّة بسبب هذا الخادم، فصاحوا بالقاسم بن عبيدالله، وطالبوه بإقامة الحدّ عليه. بسبب ما شُهد عليه؛ فلما كان يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت منه اجتمع أهلُ باب الطاق إلى قنطرة البَرَدان وما يليها من الأسواق، وتداعَوْا، ومضوا إلى باب السلطان، فلقيَهم أبو الحسين بن الوزير، فصاحوا به، فأعلمهم أنه قد أنهى خبره إلى المعتضد، فكذّبوه وأسمعوه ما كره، ووثبوا بأعوانه ورجاله حتى هربوا منهم، ومضوْا إلى دار المعتضد بالثريّا، فدخلوا من الباب الأول والثاني فمُنِعوا من الدخول، فوثبوا على مَنْ منعَهم، فخرج إليهم من

سألهم عن خبرهم، فأخبروه. فكتب به إلى المعتضد، فأدخِل إليه منهم جماعة، وسألهم عن الخبر فذكروه له، فأرسل معهم خفيفاً السمرقنديَّ إلى يوسف القاضي، وتقدم إلى خفيف أن يأمر يوسف بالنَّظر في أمر الخادم، وأن يُنهيَ إليه ما يقف عليه من أمره، فمضى معهم خفيف إلى يوسف، فكادوا يقتلونه ويقتلون يوسف لَمّا دخلوا عليه ممَّا ازدحموا، حتى أفلت يوسف منهم، ودخل باباً وأغلقه دونهم، ولم يكن بعد ذلك للخادم ذِكْر، ولا كان للعامَّة في أمره اجتماع.

وفي هذا الشهر من هذه السنة قدم ـ فيما ذكر ـ قوم من أهل طَرَسوس على السلطان يسألونه أو يولِّي عليهم والٍ، ويذكرون أن بلدهم بغير والٍ؛ وكانت طرسوس قبل في يدي ابن طولون، فأساء إليهم، فأخرجوا عامله عن البلد، وراسلهم في ذلك، ووعدهم الإحسان، فأبوا أن يتركوا له غلاماً يدخل بلدهم، وقالوا: مَنْ جاءنا من قِبَلك حاربناه، فكف عنهم.

وفي يوم الخميس لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة ـ فيما ذكر ـ ظهرت ظلمة بمصر، وحُمرة في السماء شديدة؛ حتى كان الرجل ينظر إلى وجه الآخر، فيراه أحمر، وكذلك الحيطان وغير ذلك، ومكثوا كذلك من العصر إلى العشاء الآخرة، وخرج الناس من منازلهم يدعون الله ويتضرعون إليه.

وفي يوم الأربعاء لثلاث خلوْن من جمادى الأولى، ولإحدى عشرة ليلة خلت من حَزيران، نُودي في الأرباع والأسواق ببغداد بالنَّهي عن وقود النيران ليلة النيروز، وعن صبّ الماء في يومه، ونُودي بمثل ذلك في يوم الخميس، فلمَّا كان عشيّة يوم الجمعة نودي على باب سعيد بن يكسين صاحب الشرطة بالجانب الشرقيّ من مدينة السلام، بأنّ أمير المؤمنين قد أطلق للناس في وقود النيران وصبّ الماء، ففعلت العامة من ذلك ما جاوز الحدّ، حتى صبّوا الماء على أصحاب الشرطة في مجلس الجسر ـ فيما ذكر.

وفيها أغريَت العامة بالصّياح بمن رأوْا من الخدم السود: يا عقيق، فكانوا يغضبون من ذلك، فوجَّه المعتضد خادماً أسود عشيَّة الجمعة برقعة إلى ابن حمدون النديم؛ فلما بلغ الخادم رأسَ الجسر من الجانب الشرقيّ صاح به صائح من العامة: يا عقيق! فشتم الخادم الصائح، وقنّعه، فاجتمعت جماعة من العامة على الخادم فنكسوه وضربوه، وضاعت الرقعة التي كانت معه فرجع إلى السلطان فأخبره بما صنع به، فأمر المعتضد طريفاً المخلديّ الخادم بالركوب والقبض على كلِّ مَنْ تولَّع بالخدم وضربه بالسياط. فركب طريف يوم السبت لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى في جماعة من الفرسان والرجَّالة، وقدَّم بين يديه خادماً أسود؛ فصار إلى باب الطاقِ لِمَا أُمِر به من القبض على من صاح بالخادم: يا عقيق، فقبض فيما ذكر بباب الطابق على سبعة أنفس؛ ذكِر أن بعضهم كان بزِّيًّا؛ فضُرِبوا بالسياط في مجلس الشرطة بالجانب الشرقيّ. وعبَر طريف فمضى إلى الكرْخ، ففعل مثل ذلك، وأخذ خمسة أنفس فضربهم في مجلس الشرطة بالشرقيَّة، وحُمِل الجميع على جمال، ونودي عليهم: هذا جزاء مَنْ أولِع بخدم السلطان، وصاح بهم: يا عقيق، وحبسوا يومهم، وأطلِقوا بالليل.

وفي هذه السنة عَزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يُقرَأ على الناس، فخوّفه عبيدالله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة، وأنه لا يأمن أن تكون فتنة، فلم يلتفت إلى ذلك من قوله.

وذُكر أن أول شيء بدأ به المعتضد حين أراد ذلك الأمر بالتقدّم إلى العامة بلزوم أعمالهم، وترك الاجتماع

والقضية والشهادات عند السلطان، إلا أن يُسْأَلوا عن شهادة إن كانت عندهم، وبمنع القُصّاص من القعود على الطرقات، وعمِلت بذلك نسخ قرئت بالجانبين بمدينة السلام في الأرباع والمحالّ والأسواق، فقرِئت يوم الأربعاء لستّ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم مُنِع يوم الجمعة لأربع بقين منها القصّاص من القعود في الجامعيْن، ومُنع أهل الحلق في الفتيا أو غيرهم من القعود في المسجدين، ومُنِع الباعة من القعود في رحابها.

وفي جمادى الآخرة نودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع على قاصّ أو غيره، ومنِع القصاص وأهل الحلَق من القعود.

وفي يوم الحادي عشر ـ وذلك يوم الجمعة ـ نُودي في الجامعيْن بأنّ الذمة بريَّة مِمَن اجتمع من الناس على مناظرة أو جدل، وأن من فعل ذلك أحلّ بنفسه الضرب، وتقدم إلى الشرّاب والذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحَّموا على معاوية، ولا يذكروه بخير.

وتحدَّث الناس أن الكتاب الذي أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر، فلما صلى الناس الجمعة بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب فلم يُقرأ.

فذُكر أن المعتضد أمر بإخراج الكتاب الذي كان المأمون أمر بإنْشائه بلعْن معاوية، فأخرِج له من الدّيوان، فأخِذ من جوامعه نسخة هذا الكتاب، وذكر أنها نسخة الكتاب الذي أنشىء للمعتضد بالله:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله العليّ العظيم، الحليم الحكيم، العزيز الرحيم، المنفرد بالوحدانية، الباهر بقدرته، الخالق بمشيئته وحكمته؛ الذي يعلم سوابقَ الصدور، وضمائر القلوب، لا يخفى عليه خافيةٌ، ولا يعْزُبُ عنه مثقال ذرّة في السموات العُلا، ولا في الأرضين السفلى؛ قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء عدداً، وضرب لكل شيء أمداً، وهو العليم الخبير. والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته، وخلق عباده لمعرفته، على سابق علمه في طاعة مطيعهم، وماضي أمره في عصيان عاصيهم؛ فبيَّن لهم ما يأتون وما يتَّقون، ونهج لهم سبل النجاة، وحذَّرهم مسالك الهَلَكة، وظاهَر عليهم الحجَّة، وقدّم إليهم المعذرة، واختار لهم دينه الذي ارتضى لهم، وأكرمهم به، وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُروته أولياءَه وأهلَ طاعته، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءَه وأهلَ معصيته؛ ليهلك مَنْ هَلَكَ عن بينة، ويحيَا مَن حيّ عن بيِّنة، وإن الله لسميع عليم. والحمد لله الذي اصطفى محمداً رسوله من جميع بريَّته، واختاره لرسالته، وابتعثه بالهدى والدّين المرتضى إلى عباده أجمعين، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين، وتأذّن له بالنصر والتمكين، وأيده بالعزّ والبرهان المتين، فاهتدى به مَن اهتدى، واستنقذ به مَن استجاب له من العمى، وأضلّ من أدبر وتولَّى، حتى أظهر الله أمرَه، وأعزّ نصرَه، وقهر مَنْ خالفه، وأنجز له وعده، وختَم به رسله، وقبضه مؤدّياً لأمره، مبلِغاً لرسالته، ناصحاً لأمته، مرضيًّا مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلبين، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين، وعباده الفائزين؛ فصلى الله عليه أفضلَ صلاة وأتمَّها، وأجلَّها وأعظمَها، وأزكاها وأطهرها؛ وعلى آله الطيبين.

والحمدُ لله الذي جعل أمير المؤمنين وسلفه الرّاشدين المهتدين ورثةَ خاتم النبيين وسيّد المرسلين والقائمين بالدّين، والمقوّمين لعباده المؤمنين، والمستحفَظين ودائع الحكمة، ومواريث النبوة، والمستخلَفين في الأمة، والمنصورين بالعزّ والمنعة، والتأييد والغلبة؛ حتى يظهر الله دينَه على الدّين كله ولو كره المشركون.

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةٌ من العامة من شُبْهة قد دخلتهم في أديانهم، وفسادٍ قد لحِقهم في

معتَقدهم، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهُم، على غير معرفة ولا رويّة، وقلدوا فيها قادة الضلالة بلا بَيِّنَةٍ ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتبعة، إلى الأهواء المبتدعة، قال قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إنّ اللَّهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظالِمِين﴾(١)، خروجاً عن الجماعة، ومسارعة إلى الفتنة وإيثاراً للفرقة، وتشتيتاً للكلمة وإظهاراً لموالاة مَنْ قطع الله عنه الموالاة، وبَتَرَ منه العصمة، وأخرجه من الملة، وأوجب عليه اللعنة، وتعظيماً لمن صغّر الله حقه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه، من بني أمية الشجرة الملعونة، ومخالفةً لمن استنقذهم الله به من الهَلَكة، وأسبغ عليهم به النّعمة؛ من أهل بيت البركة والرحمة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَخْتَصُّ بِرحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾(٢). فأعظم أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى في ترك إنكاره حَرجاً عليه في الدين، وفساداً لمن قلّده الله أمره من المسلمين، وإهمالاً لَما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجة على الشاكّين، وبسْط اليد على العاندين.

وأمير المؤمنين يرجع إليكم معشر الناس بأنّ الله عزّ وجلّ لّما ابتعث محمداً بدينه، وأمره أن يصدَع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته، فدعاهم إلى ربه، وأنذرهم وبشّرهم، ونصحَ لهم وأرشدهم، فكان مَن استجاب له وصدّق قولَه واتّبع أمره نفرٌ يسير من بني أبيه، من بين مؤمنٍ بما أتى به من ربِّه، وبين ناصر له وإن لم يتّبع دينَه؛ إعزازاً له، وإشفاقاً عليه لماضي علم الله فيمن اختار منهم، ونفذت مشيئتُه فيما يستودعه إياه من خلافته وإرْث نبيّه؛ فمؤمنهم مجاهد بنُصرته وحميّته، يدفعون مَن نابذَه، وينهرون مَنْ عارَّه وعانده، ويتوثّقون له ممن كانفه وعاضده، ويبايعون له مَنْ سمح بنصرته، ويتجسّسون له أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين؛ حتى بلغ المدَى، وحان وقت الاهتداء، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله، والإيمان به، بأثبت بصيرة، وأحسن هدى ورغبة، فجعلهم الله أهل بيتِ الرّحمة، وأهل بيت الدين ـ أذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً ـ ومعدن الحكمة، وورثة النبوّة وموضع الخلافة، وأوجب لهم الفضيلة، وألزم العباد لهم الطاعة.

وكان ممن عانده ونابذه، وكذّبه وحاربه من عشيرته، العددُ الأكثر، والسواد الأعظمُ؛ يتلقّوْنَه بالتكذيب والتثريب، ويقصدونه بالأذيّة والتخويف، ويبادونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدّون عنه مَنْ قصده، وينالون بالتعذيب مَن اتّبعه. وأشدُّهم في ذلك عداوةً وأعظمهم له مخالفة، وأوّلهم في كلِّ حرب ومناصَبَة، لا يُرفع على الإسلام رايةٌ إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسَها، في كلّ مواطن الحرب، من بدر وأُحُد والخندق والفتح... أبو سفيان بن حَرْب وأشياعه من بني أمية، الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عِدّة مواطن، وعدّة مواضع، لماضي علم الله فيهم وفي أمرهم، ونفاقهم وكفر أحلامِهم؛ فحارب مجاهداً، ودافع مكابداً، وأقام منابذاً حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون؛ فتقوّل بالإسلام غير منطوٍ عليه، وأسرَّ الكفر غير مقلع عنه، فعرفه بذلك رسول الله ﷺ والمسلمون، وميّز له المؤلفة قلوبُهم، فقبله وولده على علم منه؛ فممّا لعنهم الله به على لسان نبيّه ﷺ، وأنزل به كتاباً قوله: ﴿وَالشجَرَةَ المَلْعونَةَ في القُرْآنَ ونُخَوِّفُهمْ فمَا يَزِيدُهُم إلَّا طُغْيَاناً كَبيراً﴾(١). ولا اختلاف بين أحد أنه أراد بها بني أميّة.

---

(١) سورة القصص ٥٠.

(٢) سورة آل عمران ٧٤.

(٣) سورة الإسراء ٦٠.

ومنه قول الرسول عليه السلام وقد رآه مقبلاً على حمارٍ ومعاوية يقودُ به ويزيد ابنه يسوق به: «لعن الله القائد والرّاكب والسائق». ومنه ما يرويه الرّواة من قوله: يا بني عبد مناف تلقّفوها تلقّف الكرة، فما هناك جنة ولا نار. وهذا كفر صُراح يلحقه به اللعنة من الله كما لحقت ﴿الذين كفروا من بني إسرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسى بن مَرْيمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانوا يَعْتَدون﴾[1]. ومنه مايروون من وقوفه على ثنيّة أُحُد بعد ذهاب بصره، وقوله لقائده: هاهنا ذببْنا محمداً وأصحابه. ومنه الرؤيا التي رآها النبي ﷺ فوجَم لها، فما رُئي ضاحكاً بعدها، فأنزل الله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريْناكَ إلا فتنة للناس﴾[2]؛ فذكروا أنه رأى نفراً من بني أمية ينزون على منبره. ومنه طرد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص لحكايته إياه، وألحقه الله بدعوة رسوله آيةً باقية حين رآه يتخلّج، فقال له: «كن كما أنت»، فبقيَ على ذلك سائر عمره، إلى ما كان من مروان في افتتاحه أوّل فتنة كانت في الإسلام، واحتقابه لكلّ دم حرام سُفِك فيها أو أريق بعدها.

ومنه ما أنزل الله على نبيه في سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيرٌ مِنْ ألفِ شَهْر﴾[3]، من مُلْك بني أمية. ومنه أن رسول الله ﷺ دعا بمعاوية ليكتب بأمره بين يديه، فدافع بأمره، واعتلّ بطعامه، فقال النبيّ: «لا أشبع اللّهُ بطنه»، فبقي لا يشبع، ويقول: والله ما أترك الطعام شبعاً؛ ولكن إعياء. ومنه أن رسول الله ﷺ قال: «يطلع من هذا الفجّ رجلٌ من أمتي يُحشر على غير ملتي»، فطلع معاوية. ومنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه». ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه قال: «إن معاوية في تابوت من نار في أسفل دَرك منها ينادِي: يا حنّان يا منّان، الآن وقد عصيتُ قبلُ وكنتُ من المفسدين.

ومنه انبراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذكراً؛ عليّ بن أبي طالب، ينازعه حقه بباطله، ويجاهد أنصاره بضُلاّله وغواته، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه، من إطفاء نور الله وجحود دينه، ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره المشركون. يستهوي أهلَ الغباوة، ويموّه على أهل الجهالة بمكرِه وبغيه، الذين قدّم رسول الله ﷺ الخبر عنهُما، فقال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار»، مؤثراً للعاجلة، كافراً بالآجلة، خارجاً من رِبْقة الإسلام، مستحلاً للدّم الحرام، حتى سفك في فتنته، وعلى سبيل ضلالته ما لا يحصى عددُه من خيار المسلمين الذابّين عن دين الله والناصرين لحقه، مجاهداً لله، مجتهداً في أن يُعصى فلا يُطاع، وتُبطَل أحكامه فلا تُقام، ويُخالَف دينه فلا يُدان. وأن تعلوَ كلمة الضلالة، وترتفع دعوة الباطل؛ وكلمة الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمه المتّبع النافذ، وأمره الغالب، وكيد من حادّه المغلوب الدّاحض؛ حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما اتّبعها، وتطوّق تلك الدماء وما سُفك بعدها، وسنَّ سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلَها؛ واغترّه الإملاء، واستدرجه الإمهال، والله له بالمرصاد.

ثم مما أوجب الله له اللعنة، قتلُه مَنْ قتل صبراً من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة؛ مثل عمرو بن الحَمِق وحُجْر بن عديّ، فيمن قتل من أمثالهم، في أن تكون له العزّة والملك والغلبة، ولله العزة والملك والقدرة، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يقتلْ مؤمناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها وغَضِبَ الله

(١) سورة المائدة ٧٨.
(٢) سورة الإسراء ٦٠.
(٣) سورة القدر ٣.

عَلَيْهِ ولَعَنهُ وأَعدّ لَهُ عَذَاباً عَظيماً﴾(١).

ومما استحقّ به اللعنة من الله ورسوله ادّعاؤه زيادَ بن سُميّة، جرأة على الله؛ والله يقول: ﴿ادْعُوهُم لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ﴾(٢) ورسول الله ﷺ، يقول: «ملعون مَن ادّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه»، ويقول: «الولد للفِراش وللعاهر الحجَر»، فخالف حكم الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش، والعاهر لا يضرّه عهرُه، فأدخل بهذه الدعوة من محارم الله ومحارم رسوله في أمّ حبيبة زوجة النبيّ ﷺ وفي غيرها من سُفور وجوهٍ ما قد حرّمه الله، وأثبت بها قربى قد باعدها الله، وأباح بها ما قد حظره الله، مما لم يدخل على الإسلام خلل مثله، ولم ينل الدين تبديل شبهُه.

ومنه إيثاره بدين الله، ودعاؤه عباد الله إلى ابنه يزيد المتكبّر الخمِّير، صاحب الدّيوك والفهود والقُرود، وأخذُه البيعة له على خيار المسلمين بالقَهْر والسطوة والتوعِيد والإخافة والتهدّد والرهبة، وهو يعلم سفَهه ويطّلع على خبثه ورَهقه، ويعاين سَكَرانه وفجورَه وكفره. فلما تمكن من ما مكّنه منه، ووطّأه له، وعصى الله ورسوله فيه، طَلَب بثأرات المشركين وطوائِلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل الحَرّة الوقيعة التي لم يكن في الإسلام أشنعُ منها و لا أفحش؛ ممّا ارتكب من الصالحين فيها، وشفى بذلك عَبَد نفسه وغليله، وظن أن قد انتقم من أولياء الله، وبلّغ النَّوى لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

ليتَ أَشياخي بِبـدرٍ شهـدوا	جزَعَ الخزْرَجِ من وقع الأسلْ
قـد قتلنا القَـوْم من ساداتكمْ	وعـدَلنا ميْـلَ بـدر فـاعتـدَلْ
فـأَهَـلّوا واستـهـلُّوا فـرحـاً	ثم قـالـوا: يـا يـزيـد لا تُسَلْ
لسْتُ من خنـدِفَ إن لم أنـتقـم	من بني أحمـدَ مـا كـان فعـلْ
وَلِـعَبتْ هـاشِـمُ بـالمُلكِ فـلا	خبـرٌ جـاءَ، ولا وحـيٌ نـزَلْ

هذا هو المروقُ من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله.

ثم مِنْ أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اخترم سفكُه دم الحسين بن عليّ وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ مع موقِعه من رسول الله ﷺ ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل، وشهادة رسول الله ﷺ له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة، اجتراءً على الله، وكفراً بدينه، وعداوةً لرسوله، ومجاهدةً لِعترته، واستهانةً بحرمته، فكأنما يقتل به وبأهل بيته قوماً من كُفّار أهلِ الترك والدّيلم، لا يخاف من الله نقمةً، ولا يرقب منه سطوة، فبتر الله عمرَه، واجتثّ أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعدّ له من عذابه وعقوبته ما استحقّه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بني مَرْوان من تبديل كتاب الله وتعطيل أحكامه، واتّخاذ مال الله دُولاً بينهم، وهَدْم بيته، واستحلال حرامه، ونصبهم المجانيقَ عليه، ورميهم إياه بالنِيران، لا يألون له إحراقاً وإخراباً، ولما حرّم الله منه استباحة وانتِهاكاً، ولمن لجأ إليه قتلاً وتنكيلاً، ولمن أمّنهُ الله به إخافة وتشريداً؛ حتى إذا حُقّت عليهم كلمـة العذاب، واستحقّـوا من الله الانتقام، وملؤوا الأرض بالجـوْر والعُدْوان، وعمّـوا عباد الله بـالظلم

(١) سورة النساء ٩٣.

(٢) سورة الأحزاب ٥

والاقتسار، وحلَّت عليهم السخطة، ونزلت بهم من الله السَّطْوة، أتاح الله لهم من عِتْرة نبيِّه، وأهل وراثته مَن استخلصهم منهم بخلافته؛ مثل ما أتاح الله من أسلافهم المؤمنين وآبائهم المجاهدين لأوائلهم الكافرين، فسفك الله بهم دماءَهم مرتدّين، كما سفك بآبائهم دماء آباء الكفرة المشركين؛ وقطع الله دابر القوم الظالمين، والحمد لله رب العالمين. ومكن الله المستضعفين، وردَّ الله الحق إلى أهله المستحقين، كما قال جل شأنه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِين اسْتُضْعِفوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئمةً وَنَجعلهم الْوارِثِين﴾[1].

واعلموا أيها الناس، أنّ الله عز وجل إنما أمر ليُطاع، ومثّل ليتمثّل، وحكم ليُقبَل، وألزم الأخذ بسنة نبيه ﷺ ليُتَّبع؛ وإن كثيراً ممّن ضلّ فالتوى، وانتقل من أهل الجهالة والسَّفَاه ممّن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله؛ وقال الله عزّ وجلّ ﴿فَقَاتِلُوا أئمة الكفر﴾[2].

فانتهوا معاشر الناس عمّا يُسخط الله عليكم، وراجعوا ما يرضيه عنكم، وارضوْا من الله بما اختار لكم، والزموا ما أمركم به، وجانبوا ما نهاكم عنه، واتّبعوا الصراط المستقيم، والحجة البيّنة، والسبل الواضحة، وأهل بيت الرحمة؛ الذين هداكم الله بهم بديئاً، واستنقذكم بهم من الجوْر والعُدْوان أخيراً، وأصاركم إلى الخفض والأمن والعزّ بدولتهم، وشملكم الصلاح في أديانكم ومعايشكم في أيامهم، والعنوا مَنْ لعنه الله ورسوله، وفارِقوا مَنْ لا تنالون القربة من الله إلا بمفارقته.

اللهم العن أبا سفيان بن حرب، ومعاوية ابنه، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم وولده؛ اللهم العن أئمة الكفر، وقادة الضلالة، وأعداء الدين، ومجاهِدِي الرسول، ومغيِّري الأحكام، ومبدِّلِي الكتاب، وسفّاكِي الدّم الحرام.

اللهم إنا نتبرّأ إليك من موالاة أعدائك، ومن الإغماض لأهل معصيتك، كما قلتَ: ﴿لاَ تجدُ قوماً يُؤْمِنُون باللّهِ واليومِ الآخر يُوادّون مَنْ حادّ الله ورسوله﴾[3].

يا أيّها الناس، اعرفوا الحقّ تعرفوا أهله، وتأمّلوا سبل الضلالة تعرفوا سابلَها، فإنه إنما يبينّ عن الناس أعمالُهم، ويلحقهم بالضلال والصلاح آباؤهم؛ فلا يأخذكم في الله لومة لائم، ولا يميلنّ بكم عن دين الله استهواء مَنْ يستهويكم وكيدُ مَنْ يكيدكم، وطاعة من تُخرجكم طاعته إلى معصية ربِّكم.

أيها الناس: بنا هداكم الله، ونحن المستحفَظون فيكم أمر الله، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله، فقفوا عندما نقفكم عليه، وانفذوا لما نأمركم به؛ فإنكم ما أطعتم خلفاءَ الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى، وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم، ويسأله توفيقكم، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم، وفي حفظ دينه عليكم؛ حتى تلقوه به مستحقين طاعته، مستحقبين لرحمته، والله حسْب أمير المؤمنين فيكم، وعليه توكله، وبالله على ما قلّده من أموركم استعانتُه، ولا حول لأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله والسلام عليكم.

وكتب أبو القاسم عبيدالله بن سلمان في سنة أربع وثمانين ومائتين.

---

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة التوبة ١٢.

(٣) سورة المجادلة ٢٢.

وذكر أن عبيدالله بن سليمان أحضر يوسف بن يعقوب القاضي، وأمره أن يُعمل الحيلة في إبطال ما عزم عليه المعتضد؛ فمضى يوسف بن يعقوب، فكلّم المعتضد في ذلك، وقال له: يا أمير المؤمنين؛ إني أخاف أن تضطرب العامة، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة. فقال: إن تحركت العامة أو نطقت وضعتُ سيفي فيها، فقال: يا أميرَ المؤمنين، فما تصنع بالطالبيين الّذين هم في كل ناحية يخرجون، ويميلُ إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ومآثرهم؛ وفي هذا الكتاب إطراؤهم، أو كما قال، وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميَل، وكانوا هم أبسط ألسنة، وأثبت حجة منهم اليوم. فأمسك المعتضد فلم يردّ عليه جواباً، ولم يأمر في الكتاب بعده بشيء.

وفي يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من رجب منها شخص جعفر بن بَغلاغز إلى عمرو بن الليث الصفار وهو بنيسابور بخَلع ولواء لولايته على الريّ وهدايا من قِبَل المعتضد.

وفي هذه السنة لحق بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلف بمحمد بن زيد العَلَوِيّ بطبرستان، فأقام بدر وعبيدالله بن سليمان ينتظران أمرَ بكر إلامَ يؤول وعلى إصلاح الجبل.

وفيها ـ فيما ذكر ـ فُتِحت من بلاد الروم قرّة، على يد راغب مولى الموفق وابن كلوب، وذلك في يوم الجمعة من رجب.

وفي ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة خلت من شعبان ـ أو ليلة الخميس فيما ذكر ـ ظهر شخص إنسان في يده سيف في دار المعتضد بالثريَّا، فمضى إليه بعض الخدم لينظر ما هو، فضربه الشخص بالسَّيف ضربة قطع بها منطقته، ووصل السيف إلى بدن الخادم، ورجع الخادم منصرفاً عنه هارباً، ودخل الشخص في زرع في البستان، فتوارى فيه، فطُلب باقي ليلته ومن غد، فلم يوقف له على أثر، فاستوحش المعتضد لذلك، وكثّر الناس في أمره رجماً بالظنون، حتى قالوا: إنه من الجنّ، ثم عاد هذا الشخص للظهور بعد ذلك مراراً كثيرة، حتى وكّل المعتضد بسور داره، وأحكم السور ورأسه، وجعل عليه كالبرابخ؛ لئلا يقع الكُلّاب إن رُمِيَ به، وجيء باللصوص من الحبس ونوظروا في ذلك، وهل يمكن أحد الدخول إليه بنقب أو تسلُّق.

وفي يوم السبت لثمان بقين من شعبان من هذه السنة، وجّه كرامة بن مُرّ من الكوفة بقوم مقيَّدين، ذكر أنهم من القرامطة، فأقرّوا على أبي هاشم بن صدقة الكاتب أنه كان يكاتبهم، وأنه أحد رؤسائهم، فقبض على أبي هاشم، وقيِّد وحبس في المطامير.

وفي يوم السبت لسبع خلون من شهر رمضان من هذه السنة جُمع المجانين والمعزّمون، ومُضِيَ بهم إلى دار المعتضد في الثريَّا بسبب الشَّخص الذي كان يظهر له، فأدخِلوا الدار، وصعِد المعتضدِ عِلّيّةً له، فأشرف عليهم؛ فلما رآهم صرِعت امرأة كانت معهم من المجانين واضطربت، وتكشّفت، فضجر وانصرف عنهم، ووهب لكلّ واحد منهم خمسةَ دراهم ـ فيما ذكر ـ وصُرفوا. وقد كان وجّه إلى المعزّمين قبل أن يشرف عليهم مَن يسألهم عن خبر الشخص الذي ظهر له: هل يمكنهم أن يعلموا علمه؟ فذكر قومٌ منهم أنهم يعزّمون على بعض المجانين، فإذا سقط سأل الجنيِّ عن خبر ذلك الشخص وما هو، فلما رأى المرأة التي صُرِعت أمر بصرفهم.

وفي ذي القعدة منها ورد الخبر من أصبهان، بوثوب الحارث بن عبد العزيز بن أبي دُلف المعروف بأبي ليلى بشفيع الخادم الموكَّل كان به فقتله، وكان أخوه عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف أخذه فقيَّده، وحمله إلى قلعة لآل

أبي دلف بالزّرّ، فحبسه فيها، وكان كلّ ما لآل أبي دُلف من مال ومتاع نفيس وجوهر في القَلْعة، وشفيع مولاهم موكّل بحفظ ذلك وحفظ القلعة، ومعه جماعة من غلمان عمر وخاصّته، فلما استأمن عمر إلى السلطان، وهرب بكر عاصياً للسلطان بقيت القلعة بما فيها في يد شفيع، فكلّمه أبو ليلى في إطلاقه فأبى، وقال: لا أفعل فيك وفيما في يدي إلا بما يأمرني به عمر.

فذكر عن جارية لأبي ليلى أنها قالت: كان مع أبي ليلى في الحبس غلامٌ صغير يخدُمه، وآخر يخرج ويدخل في حوائجه ولا يبيت عنده، ويبيت عنده الغلام الصغير، فقال أبو ليلى لغلامه الذي يخرج في حوائجه: احتلْ لي في مِبْرد تدخله إليّ، ففعل وأدخله في شيء من طعامه. وكان شفيع الخادم يجيء في كل ليلة إذا أراد أن ينام إلى البيت الذي فيه أبو ليلى حتى يراه، ثم يقفل عليه باب البيت هو بيده ويمضي فينام، وتحت فراشه سيف مسلول. وكان أبو ليلى قد سأل أن تُدخَل إليه جارية، فأدخِلت إليه جارية حدَثة السنّ، فذكر عن ذلفاء جارية أبي ليلى عن هذه الجارية أنها قالت: بَرّدَ أبو ليلى المسمار الذي في القيد حتى كان يخرجه من رجله إذا شاء. قالت: وجاء شفيع الخادم عشيّةً من العشايا إلى أبي ليلى، فقعد معه يحدّثه، فسأله أبو ليلى أن يشرب معه أقداحاً، ففعل، ثم قام الخادم لحاجته. قالت: فأمرني أبو ليلى، ففرشتُ فراشه، فجعل عليه ثياباً في موضع الإنسان من الفراش، وغطّى على الثياب باللِّحاف، وأمرني أن أقعد عند رِجْل الفراش، وقال لي: إذا جاء شفيع لينظر إليّ ويقفل الباب، فسألك عنّي فقولي: هو نائم. وخرج أبو ليلى من البيت، فاختفى في جوف فرش ومتاع في صُفَّة فيها باب هذا البيت، وجاء شفيع فنظر إلى الفراش، وسأل الجارية فأخبرتْه أنه قد نام، فأقفل الباب؛ فلمّا نام الخادم ومَنْ معه في الدار التي في القلعة خرج أبو ليلى، فأخذ السيف من تحت فراش شفيع، وشدّ عليه فقتله، فوثب الغلمان الذين كانوا ينامون حوله فزعين، فاعتزلهم أبو ليلى والسيف في يده، وقال لهم: أنا أبو ليلى قد قتلتُ شفيعاً، ولئن تقدم إليّ منكم أحد لأقتلنّه وأنتم آمنون؛ فاخرجوا من الدار حتى أكلِّمَكم بما أريد، ففتحوا باب القلعة، وخرجوا، وجاء حتى قعد على باب القلعة، واجتمع الناس ممّن كان في القلعة، فكلّمهم ووعدهم الإحسان، وأخذ عليهم الأيْمان، فلمّا أصبح نزل من القَلْعة، ووجّه إلى الأكراد وأهل الزّموم، فجمعهم وأعطاهم، وخرج مخالفاً على السلطان. وقيل إن قتله الخادم كان في ليلة السبت لاثنتي عشرة بقيت من ذي القعدة من هذه السنة، وقيل: إنه ذبح الخادم ذبحاً بسِكين كان أدخلها إليه غلامه، ثم أخذ السيف من تحت فراش الخادم وقام به إلى الغلمان.

وفي هذه السنة ـ وهي سنة أربع وثمانين ومائتين ـ كان المنجّمون يوعدون الناس بغرق أكثر الأقاليم، وأنّ إقليم بابل لا يسلم منه إلا اليسير، وأنّ ذلك يكون بكثرة الأمطار وزيادة المياه في الأنهار والعيون والآبار، فقحط الناس فيها فلم يروْا فيها من المطر إلا اليسير، وغارت المياه في الأنهار، والعيون والآبار، حتى احتاج الناس إلى الاستسقاء فاستسقوا ببغداد مرات.

ولليلة بقيت من ذي الحجة من هذه السنة كانت ـ فيما ذكر ـ وقعة بين عيسى النُّوشريّ وبين أبي ليلى بن عبد العزيز بن أبي دلف، وذلك يوم الخميس دون أصبهان بفرسخين، فأصاب أبا ليلى سهم في حلقه ـ فيما ذكر ـ فنحره، فسقط عن دابّته، وانهزم أصحابه، وأخِذ رأسه فحُمِل إلى أصبهان.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن عبدالله بن داود الهاشميّ المعروف بأترجَّة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من قطع صالح بن مُدرك الطائيّ في جماعة من طَيّىء على الحاجّ بالأجفر يوم الأربعاء لاثنتي عشرة بقَيْت من المحرم ، فحاربه الجنيّ الكبير ، وهو أمير القافلة ، فظفِر الأعراب بالقافلة ؛ فأخذوا ما كان فيها من الأموال والتِّجارات ، وأخذوا جماعة من النِّساء الحرائر والممالك . وقيل إنّ الذي أخذوا من الناس بقيمة ألفي ألف دينار .

ولسبع بقين من المحرم منها قُرِىء على جماعة من حاجّ خُراسان في دار المعتضد بتولية عمرو بن الليث الصَّفَّار ما وراء نهر بلخ ، وعزل إسماعيل بن أحمد عنه .

ولخمس خلون من صفر منها ورد مدينة السلام وصيف كامه مع جماعة من القوّاد من قِبَل بدر مولى المعتضد وعبيد الله بن سليمان من الجبل، معهم رأس الحارث بن عبد العزيز بن أبي المعروف بأبي ليلى، فمضوا به إلى دار المعتضد بالثريَّا ، فاستوهبه أخوه فوهبه ، واستأذنه في دفنه فأذن له ، وخلع على عمر بن عبد العزيز في هذا اليوم وعلى جماعة من القواد القادمين .

وفيها ـ فيما ذكر ـ كتب صاحب البريد من الكُوفة ، يذكر أن ريحاً صفراء ارتفعت بنواحي الكوفة في ليلة لأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول ، فلم تزل إلى وقت صلاة المغرب ، ثم استحالت سوداءَ ، فلم يزل الناس في تضرّع إلىالله . وأنّ السماء مطرت بعقب ذلك مطراً شديداً برعود هائلة وبروق متّصلة ، ثم سقط بعد ساعة بقرية تعرف بأحمد أباذ ونواحيها حجارة بِيض وسود مختلفة الألوان ، في أوساطها ضَغْطة شبه أفهار العطارين ، فأنفذ منها حَجَراً ، فأخرِج إلى الدواوين والناس حتى رأوه .

ولتسع بَقِين منه شخص ابن الإخشاد أميراً على طَرَسوس من بغداد مع النَّفر الذين كانوا قدموا منها يسألون أن يُولّى عليهم والٍ .

وخرج أيضاً في هذا اليوم من بغداد فاتك مولى المعتضد للنَّظر في أمور العمَّال بالموصل وديار ربيعة وديار مضر والثغور الشأمية والجزرية وإصلاح الأمور بها إلى ما كان يتقلده من أعمال البريد بهذه النواحي .

وفي هذه السنة ورد الخبر ـ فيما ذُكر ـ من البصرة أن ريحاً ارتفعت بها بعد صلاة الجمعة لخمس بقين من شهر ربيع الأول صفراء ، ثم استحالت خضراء ثم سوداء ، ثم تتابعت الأمطار بما لم يروْا مثلَها ، ثم وقع بردٌ كبار كان وزن البَرَدة الواحدة مائة وخمسين درهماً ـ فيما قيل ـ وأن الريح أقلعت من نهر الحسين خمسمائة نخلة

وأكثر، ومن نهر معقل مائة نخلة عدداً .

وفيها كانت وفاة الخليل بن ريمال بحلُوان .

ولخمس خلون من جُمادى الآخرة ورد الخبر على السلطان أن بكر بن عبد العزيز بن أبي دُلف تُوُفِّيَ بطبَرِستان من علَّة أصابته ، ودفن هنالك . فأعطى الذي جاء بالخبر - فيما ذكر - ألف دينار .

وفيها ولّى المعتضد محمد بن أبي الساج أعمال أَذْرَبيجان وأرمينية ، وكان قد تغلَّب عليها وخالف ، وبعث إليه بِخلع وحُملان .

وفيها ورد الخبر لثلاث خلَوْن من شعبان أنّ راغباً الخادم مولى الموفَّق غزا في البحر ، فأظفره الله بمراكب كثيرة ، وبجميع مَنْ فيها من الرُّوم ، فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الرّوم الذين كانوا في المراكب ، وأحرق المراكب ، وفتح حصوناً كثيرة من حصون الروم ، وانصرفوا سالمين .

وفي ذي الحجَّة منها ورد الخبر بوفاة أحمد بن عيسى بن شيْخ وقيام ابنه محمد بن أحمد بن عيسى بما كان في يد أبيه بآمِد ، وما يليها على سبيل التغلب .

ولإحدى عشرة بقيت من ذي الحجة منها خرج المعتضد من بغداد قاصداً إلى آمِد ، وخرج معه ابنه أبو محمد والقوّاد والغلمان ، واستخلف ببغداد صالحاً الأمين الحاجب ، وقلَّده النَّظر في المظالم وأمر الجسرين وغير ذلك .

وفيها وجَّه هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ومَنْ معه من قوّاد المصريين إلى المعتضد وصيفَ قاطرميز ، يسألونه مقاطعتَهم عمّا في أيديهم من مصر والشأم ، وأجرى هارون على ما كان يجري عليه أبوه ، فقدم وصيف بغداد ، فردّه المعتضد ، ووجَّهَ معه عبدالله بن الفتح ليشافههم برسائل ، ويشترط عليهم شروطاً ، فخرجا لذلك في آخر هذه السنة .

وفيها غزا ابن الأخشاد بأهل طَرَسُوس وغيرهم في ذي الحجة ، وبلغ سَلَنْدُو . وفتِح عليه ، وكان انصرافه إلى طرسوس في سنة ست وثمانين ومائتين .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن عبدالله بن داود الهاشميّ .

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما كان من توجيه محمد بن أبي الساج ابنه المعروف بأبي المسافر إلى بغداد رهينةً بما ضمن للسلطان من الطاعة والمناصحة . فقدم ـ فيما ذكر ـ يوم الثلاثاء ، لسبع خلَون من المحرّم منها ، معه هدايا من الدوابّ والمتاع وغير ذلك ، والمعتضد يومئذ غائب عن بغداد .

وفي شهر ربيع الآخر منها ورد الخبر أنّ المعتضد بالله وصل إلى آمِد ، فأناخ بجنده عليها . وأغلق محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ عليه أبواب مدينة آمِد ، وعلى من فيها من أشياعه . ففرّق المعتضد جيوشه حولها وحاصروهم . وذلك لأيام بقيَتْ من شهر ربيع الأول ، ثم جرت بينهم حروب ، ونصِب عليهم المجانيق ، ونَصب أهل آمِد على سورهم المجانيق ، وتراموْا بها .

وفي يوم السبت لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى وجَّه محمد بن أحمد بن عيسى إلى المعتضد يطلب لنفسه ولأهله ولأهل آمِد الأمان ، فأجابه إلى ذلك ، فخرج محمد بن أحمد بن عيسى في هذا اليوم ومَنْ معه من أصحابه وأوليائه فوصلوا إلى المعتضد ، فخلع عليه وعلى رؤساء أصحابه ، وانصرفوا إلى مضرب قد أعِدّ لهم ، وتحوّل المعتضد من عسكره إلى منازل ابن عيسى بن شيخ ودوره ؛ وكتب بذلك كتاباً إلى مدينة السّلام مؤرَّخاً بيوم الأحد لعشر بقين من جمادى الأولى ، ولخمس بقين من جمادى الأولى منها ورد الكتاب من المعتضد بفتحه آمد إلى مدينة السلام ، وقريء على المنبر بالجامع .

وفيها انصرف عبدالله بن الفتح إلى المعتضد وهو مقيم بآمِد من مصر بأجوبة كُتبه إلى هارون بن خمارويه ، وأعلمه أنّ هارون قد بذل أن يسلّم أعمال قِنّسرين والعواصم ، ويحمل إلى بيت المال ببغداد في كلّ سنة أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار ، وأنه يسأل أن يجدّد له ولاية على مصر والشأم ، وأن يوجّه المعتضد بخادم من خدمه إليه بذلك ، فأجابه إلى ما سأل ، وأنفذ إليه بدراً القدامِيّ وعبدالله بن الفتح بالولاية والخلع ، فخرجا من آمِد إلى مصر بذلك ، وتسلم عمّال المعتضد أعمال قِنّسرين والعواصم من أصحاب هارون في جُمادى الآخرة . ثم ارتحل منها يومَ السَّبت لسبع بَقِين منها نحو الرَّقة ، وخلَّف ابنه عليّاً بآمِد مع جيوش ضمَّهم إليه لضبط الناحية وأعمال قِنّسرين والعواصم وديار ربيعة وديار مُضر . وكانت كاتب عليّ بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمر النّصرانيّ ، وقلد الحسين بن عمرو النظر في أمور هذه النواحي ومكاتبة العمّال بها ، وأمر المعتضد بهدم سور آمِد فهُدم .

وفيها وافتْ هديّة عمرو بن الليث الصفّار من نيسابور إلى بغداد ، فكان مبلغ المال الذي وجّهه أربعة

آلاف درهم ، وعشرين من الدوابّ ، بسروج ولُجم محلاّة مغرّقة ومائة وخمسين دابة بجلال مشهَّرة وكسوة وطيب وبُزاة ، وذلك في يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة .

وفي هذه السنة ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد الجنّابيّ بالبحرين ، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة ، وكان خروجه ـ فيما ذُكر ـ في أول هذه السنة ، وكثر أصحابه في جمادى الآخرة ، وقويَ أمرُه ، فقتل من حوله من أهل القرى ، ثم صار إلى موضع يقال له القَطيف ، بينه وبين البصرة مراحل ، فقتَل مَنْ بها . وذكر أنه يريد البصرة ، فكتب أحمد بن محمد بن يحيى الواثقيّ ـ وكان يتقلّد معاون البصرة وكور دجلة في ذلك الوقت ـ إلى السلطان بما اتَّصل به من عَزْم هؤلاء القرامطة ؛ فكتب إليه وإلى محمد بن هشام المتولّي أعمالَ الصّدقات والخراج والضيّاع بها ، في عمل سور على البصرة ، فقُدّرت النفقة على ذلك أربعة عشر ألف دينار ، فأمر بالإنفاق عليه فبُني .

وفي رجب من هذه السنّة صار إلى الأنبار جماعة من أعراب بني شَيْبان ، فأغاروا على القرى ، وقتلوا من لحقوا من الناس ، واستاقوا المواشيَ . فخرج إليهم أحمد بن محمد بن كُمُشْجور المتولّي المعاون بها ، فلم يُطقهم . فكتب إلى السلطان يخبره بأمورهم . فوجّه من مدينة السلام نفيساً المولديّ وأحمد بن محمد الزَّرَنْجيّ والمظفّر بن حاجّ مدداً له في زُهاء ألف رجل ، فصاروا إلى موضع الأعراب ، فواقعوهم بموضع يعرف بالمنقبة من الأنبار ، فهزمهم الأعراب ، وقتلوا أصحابَهم وغرق أكثرهم في الفرات ، وتفرّقوا ، فورد كتاب ابن حاجّ يوم الاثنين لستّ بقين من رجب بخبر هذه الوقعة وهزيمة الأعراب إياهم ، فأقام الأعراب يعيثُون في الناحية ، ويتخفّرون القرى ، فكُتب إلى المعتضد بخبرهم، فوجّه إليهم لقتالهم من الرّقة العباس بن عمرو الغَنويّ وخفيفاً الأذكوتكينيّ وجماعة من القوّاد . فصار هؤلاء القوّاد إلى هِيت في آخر شعبان من هذه السنة . وبلغ الأعرابَ خبرُهم . فارتحلوا عن موضعهم من سواد الأنبار ، وتوجّهوا نحو عين التمر ، ودخل القواد الأنبار ، فأقاموا بها ، وعاث الأعراب بعين التّمر ونواحي الكوفة ؛ مثل عيثهم بنواحي الأنبار ، وذلك بقية شعبان وشهر رمضان .

وفيها وجّه المعتضد إلى راغب مولى أبي أحمد وهو بَطَرسُوس ، يأمره بالمصير إليه بالرّقة ، فصار إليه وهو بها ، فلمّا وصل إليه تركه في عسكره يوماً ثم أخذه من الغد فحبسه ، وأخذ جميع ما كان معه ، وورد الخبر بذلك مدينة السلام يوم الاثنين لتسع خلَون من شعبان ، ثم مات راغب بعد أيام ، وقُبض على مكنون غلام راغب وعلى أصحابه ، وأخذ ماله بطَرَسُوس يوم الثلاثاء لستّ بَقين من رجب ، وكان المتولِّي أخذهم ابن الإخشاد .

ولعشر بَقِين من شهر رمضان منها وجّه المعتضد مؤنساً الخازن إلى الأعراب بنواحي الكوفة وعين التَّمر ، وضمّ إليه العباس بن عمرو وخفيفاً الأذكوتكينيّ وغيرهما من القوّاد ، فسار مؤنس ومَنْ معه حتى بلغ الموضع المعروف بِنينوَى ، فوجد الأعراب قد ارتحلوا عن موضعهم ، ودخل بعضهم إلى برّيّة طريق مكة وبعضهم إلى برّية الشأم ، فأقام بموضعه أياماً ، ثم شخص إلى مدينة السلام .

وفي شوال منها قلّد المعتضد وعبيدالله بن سليمان ديوان المشرق محمد بن داود بن الجراح ، وعُزل عنه أحمد بن محمد بن الفرات ، وقُلِّد ديوان المغرب عليّ بن عيسى بن داود بن الجراح ، وعُزِل عنه ابن الفرات .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من قبض المعتضد على محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعلى جماعة من أهله وتقييده إياهم ، وحبسه لهم في دار ابن طاهر ؛ وذلك أنه صار بعض أقربائه - فيما ذُكر - إلى عُبيدالله بن سليمان ، فأعلمه أنّ محمداً على الهرب في جماعة من أصحابه وأهلِه ، فكتب بذلك عُبيدالله إلى المعتضد ، فكتب إليه المعتضد يأمره بالقبض عليه ، ففعل ذلك يوم الأربعاء لأربع خلَون من المحرم منها .

وفي هذا الشهر من هذه السنة ورد كتاب أبي الأغرّ على السلطان أنّ طيّئاً تجمّعت له ، وحشدوا واستعانوا بمَنْ قدروا عليه من الأعراب ، واعترضوا قافلة الحاجّ ، فواقعوهم لّما جاوزوا المعدن منصرفين إلى مدينة السلام من مكة ببضعة عشر ميلاً ، وأقبل إليهم فرسان الأعراب ورجّالتهم ومعهم بيوتهم وحرمهم وإبلهم ، وكانت رَجّالتهم أكثرَ من ثلاثة آلاف ، فالتحمت الحرب بينهم ، ولم تَزل الحرب بينهم يومهم أجمع ، وهو يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجّة ، فلما جنّهم الليل باينوهم ؛ فلمّا أصبحوا غادوْهم الحرب غداةَ يوم الجمعة إلى حين انتصاف النهار ، ثم أنزل الله النصر على أوليائه وولّى الأعراب منهزمين ، فما اجتمعوا بعد تفرّقهم ، وأنه سار هو وجميع الحاجّ سالمين ، وأنفذ كتابه مع سعيد بن الأصفر بن عبد الأعلى ، وهو أحد وجوه بني عمه والمتولي كان للقبض على صالح بن مدرك .

وفي يوم السبت لثلاث بقين من المحرّم وافى أبو الأغرّ مدينة السلام ، وبين يديه رأس صالح بن مدرك ، ورأس جحْنَش ، ورأس غلام لصالح أسود ، وأربعة أسارى من بني عمّ صالح ، فمضى إلى دار المعتضدِ ، فخلع عليه ، وطُوّق بطوْق من ذهب ، ونُصِبت الرؤوس على رأس الجسر الأعلى بالجانب الشرقيّ ، وأُدخِل الأسرى المطامير .

ولأربع ليال بقين من صفر منها، دخل المعتضد من متنزّهِه ببَرازِ الرّوز إلى بغداد، وأمر ببناء قصر في موضع اختاره من براز الرّوز، فحمل إليه الآلات، وابتدأ في عمله.

وفي شهر ربيع الأول منها غَلُظ أمر القرامطة بالبحرين ، فأغاروا على نواحي هَجَر ، وقرب بعضهم من نواحي البصرة ، فكتب أحمد بن محمد بن يحيى الواثقيّ يسأل المددَ ، فوجّه إليه في آخر هذا الشهر بثماني شَذَوات ، فيها ثلاثمائة رجل، وأمر المعتضد باختيار جيش لينفذه إلى البصرة .

وفي يوم الأحد لعشرٍ خلَون من شهر ربيع الآخر ، قعد بدر مولى المعتضد في داره ، ونظر في أمور الخاصّة والعامة من الناس والخراج والضياع والمعاون .

وفي يوم الاثنين لإحدى عشرة خلَت من شهر ربيع الآخر . مات محمد بن عبد الحميد الكاتب المتولي ديوانَ زمام المشرق والمغرب .

وفي يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه ولّي جعفر بن محمد بن حفص هذا الديوان ، فصار من يومه إلى الديوان وقعد فيه .

وفي شهر ربيع الآخر منها ولّى المعتضدُ عبّاسَ بن عمرو الغَنَويّ اليمامة والبحرين ومحاربة أبي سعيد الجنّابيّ ومَنْ معه من القرامطة وضمّ إليه زُهاء ألفي رجل ، فعسكر العبّاس بالفِركِ أياماً حتى اجتمع إليه أصحابُه ، ثم مضى إلى البصرة ، ثم شخص منها إلى البحرين واليمامة .

وفيها - فيما ذكر - وافى العدوّ باب قلمية من طَرَسُوس ، فنفر أبو ثابت وهو أميرِ طَرَسُوس بعد موت ابن الإخشاد - وكان استخلفه على البلد حين غزا - فمات وهو على ذلك ، فبلغ في نفيره إلى نهر الرَّيحان في طلب العدّو ، فأسِرَ أبو ثابت وأصيب الناس ؛ فكان ابن كلوب غازياً في درب السلامة ؛ فلمّا قفل من غزَاتِه جمع المشايخ من أهل الثغر ليتراضوا بأميرٍ يلي أمورَهم ، فاتّفق رأيهُم على عليّ بن الأعرابيّ ، فولّوه أمرهم بعد اختلاف من ابن أبي ثابت .

وذكر أن أباه استخلفه ، وجمع جمعاً لمحاربة أهل البلد حتى توسّط الأمرَ ابن كلوب ، فرضي ابنُ ثابت ، وذلك في شهر ربيع الآخر ، وكان النُّغيْل حينئذ غازياً ببلاد الروم ، فانصرف إلى طَرَسُوس ، وجاء الخبر أن أبا ثابت حُمِل إلى القسطنطينية من حصن قُونِيَة ، ومعه جماعة من المسلمين .

وفي شهر ربيع الآخر مات إسحاق بن أيوب الذي كان إليه المعاون بديار ربيعة ، فقلّد ما كان إليه عبدالله بن الهيثم بن عبدالله بن المعتمر .

وفي يومِ الأربعاء لخمس بقين من جُمادى الأولى ، ورد كتاب - فيما ذكر - على السلطان بأنّ إسماعيل بن أحمد أسرَ عمراً الصفار ، واستباح عسكره ؛ وكان من خبر عمرو وإسماعيل ، أن عمراً سأل السلطانَ أن يولّيه ما وراء النهر ، فخرج لمحاربة إسماعيل بن أحمد ، فكتب إليه إسماعيل بن أحمد : إنك قد وليت دنيا عريضة ، وإنما في يدي ما وراء النهر ، وأنا في ثغر ؛ فاقنع بما في يدك ، واتركني مقيماً بهذا الثغر . فأبَى إجابَته إلى ذلك ؛ فذُكر له أمر نهر بلخ وشدة عبوره ، فقال : لو أشاء أن أسكره ببِدَرِ الأموال وأعبره لفعلتُ ؛ فلما أيس إسماعيل من انصرافه عنه جمع مَنْ معه والتّنّاء والدّهاقين ، وعَبر النهر إلى الجانب الغربيّ ، وجاء عمرو فنزلَ بَلْخ ، وأخذ إسماعيل عليه النواحي ، فصار كالمحاصَر ، وندم على ما فعل ، وطلب المحاجزة - فيما ذكر - فأبى إسماعيل عليه ذلك ، فلم يكن بينهما كثير قتال حتى هُزم عمرو فولّى هارباً ، ومرّ بأجمة في طريقه ، قيل له إنها أقرب ، فقال لعامّة مَنْ معه : امضُوا في الطريق الواضح ، ومضى في نفر يسير ، فدخل الأجَمَةَ ، فوحِلت دابّتُه ، فوقعت ، ولم يكن له في نفسه حيلة ، ومضى مَن معه ، ولم يلوُوا عليه ، وجاء أصحاب إسماعيل ، فأخذوه أسيراً ، ولما وصل الخبرُ إلى المعتضد بما كان من أمر عمرو وإسماعيل ، مدح إسماعيل - فيما ذُكر - وذمّ عمراً .

ولليلة بقيتْ من جُمادى الأولى من هذه السنة ، ورد الخبر على السلطان أن وصيفاً خادم ابن أبي الساج ، هرب من بَرْذَعة ، ومضى إلى مَلَطْية مراغماً لمحمد بن أبي الساج في أصحابه ، وكتب إلى المعتضد يسأله أن يولّيه

الثغور ، ليقوم بها ، فكتب إليه المعتضد يأمره بالمصير إليه ، ووجّه إليه رشيقاً الحرميّ .

ولسبع خلَون من رجب من هذه السنة تُوفِّيَتْ ابنة خَمارويه بن أحمد بن طولون ، زوجة المعتضد ، ودفنت داخل قصر الرصافة .

ولعشر خلون من رجب وفد على السلطان ثلاثة أنفس وجههم وصيف خادم ابن أبي الساج إلى المعتضد ، يسأله أن يوَلِّيَه الثغور . ويوجّه إليه الخلع ، فذكر أنّ المعتضد أمر بتقرير الرُّسل بالسبب الذي من أجله فارق وصيف صاحبَه ابن أبي الساج ، وقصد الثغور ، فقُرِّروا بالضرب ، فذكروا أنه فارقه على مواطأة بينه وبين صاحبه ، على أنه متى صار إلى الموضع الذي هو به متى لحق به صاحبه ، فصاروا جميعاً إلى مُضرَ وتغلبّا عليها . وشاع ذلك في الناس وتحدثّوا به .

ولإحدى عشرة خلَت من رَجب من هذه السنة وُلِّيَ حامد بن العباس الخراج والضياع بفارس ؛ وكانتا في يد عمرو بن الليْث الصفار ، ودُفعت كتبه بالولاية إلى أخيه أحمد بن العباس . وكان حامد مقيماً بواسط ، لأنه كان يليها وكور دجلة . وكتب إلى عيسى النُّوشريّ وهو بإصبهان بالمصير إلى فارس والياً على معونتها .

وفي هذه السنة كان خروج العباس بن عمرو الغَنَويّ ـ فيما ذكر ـ من البصرة بمن ضُمّ إليه من الجند ، مع من خَفّ معه من مطوّعة البصرة نحو أبي سعيد الجنّابيّ ومَن انضوى إليه من القَرامطة ، فلقيَهم طلائع لأبي سعيد ، فخلّف العباس سوادَه ، وسار نحوهم ، فلقيَ أبا سعيد ومَنْ معه مساء ، فتناوشوا القتال ، ثم حجز بينهم الليل ، فانصرف كلّ فريق منهما إلى موضعهم . فلمّا كان الليل انصرف مَن كان مع العباس من أعراب بني ضَبّة ـ وكانوا زهاء ثلاثمائة ـ إلى البصرة ، ثم تبعهم مطّوعة البصرة . فلما أصبح العباس غادى القرامطةَ الحرب ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم إنّ صاحب ميسرة العباس ـ وهو نجاح غلام أحمد بن عيسى بن شيخ ـ حمل في جماعة من أصحابه زُهاء مائة رجل على ميمنة أبي سعيد ، فوغَلُوا فيهم ، فقتِل وجميعُ من معه ، وحَمَل الجنّابيّ وأصحابه على أصحاب العباس ، فانهزموا ، فاستأسر العباس ، وأُسِر من أصحابه زُهاء سبعمائة رجل ، واحتوى الجنّابيّ مَنْ كان أسر من أصحاب العباس ، فقتلهم جميعاً ، ثم أمر بحطب فطرِح عليهم ، وأحرقهم .

وكانت هذه الوقعة ـ فيما ذكر ـ في آخر رجب ، وورد خبرها بغداد لأربع خلون من شعبان .

وفيها ـ فيما ذكر ـ صار الجنّابيّ إلى هَجَر ، فدخلها وآمن أهلها ، وذلك بعد منصرفه من وقعة العباس ، وانصرفَ فَلُّ أصحاب العباس بن عمرو يريدون البصرة ، ولم يكن أفلت منهم إلّا القليل بغير أزواد ولا كساً ، فخرج إليهم من البصرة جماعة بنحو من أربعمائة راحلة ، عليها الأطعمة والكسا والماء ، فخرج عليهم ـ فيما ذكر ـ بنو أسد ، فأخذوا تلك الرواحل بما عليها ، وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العبّاس ؛ وذلك في شهر رمضان ؛ فاضطربت البصرة لذلك اضطراباً شديداً وهمُّوا بالانتقال عنها ، فمنعهم أحمد بن محمد الواثقيّ المتولّي لمعاونها من ذلك ، وتخوّفوا هجومَ القرامطة عليهم .

ولثمان خَلَوْن من شهر رمضان منها ـ فيما ذكر ـ وردت خريطة على السلطان من الأبُلّة بموافاة العباس بن عمرو في مركب من مراكب البحر ، وأن أبا سعيد الجنّابيّ أطلقه وخادماً له .

ولإحدى عشرة خلت من شهر رمضان ، وافى العباس بن عمرو مدينة السلام ، وصار إلى دار المعتضد بالثّريا ، فذُكر أنه بقي عند الجنّابيّ أياماً بعد الوقعة ، ثم دعا به ، فقال له : أتحبّ أن أطلقك ؟ قال : نعم ، قال : امض وعرِّف الذي وجّه بك إليّ ما رأيت ، وحمله على رواحل . وضمّ إليه رجالاً من أصحابه ، وحمّلهم ما يحتاجون إليه من الزاد والماء ، وأمر الرجال الذين وجههم معه أن يؤدّوه إلى مأمنه ، فساروا به حتى وصل إلى بعض السواحل ، فصادف به مركباً ، فحمله ، فصار إلى الأبلّة ، فخلع عليه المعتصد وصرفه إلى منزله .

وفي يوم الخميس لإحدى عشرة خلتْ من شوال ارتحل المعتضد من مَضْرَبه بباب الشَمَاسية في طلب وصيف خادم ابن أبي الساج ، وكتم ذلك ، وأظهر أنه يريد ناحية ديار مُضَر .

وفي يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلتْ منه، ورد الخبر - فيما ذُكر - على السلطان أن القرامطة بالسواد من أهل جُنبُلاء وثبوا بواليهم بدر غلام الطائيّ ، فقتلوا من المسلمين جمعاً فيهم النساء والصبيان ، وأحرقوا المنازل .

ولأربع عشرة خلت من ذي القعدة نزل المعتضد كنيسة السوداء في طلب وصيف الخادم ، فأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، حتى تلاحق به الناس ، وأراد الرحيل في طريق المصِّيصة ، فأتته العيون أنّ الخادم يريد عين زربة . فأحضر الركّاضة الثغريينَ وأهل الخبرة ، فسألهم عن أقصر الطريق إلى عين زربة . فقطعوا به جيحان غداة الخميس لسبع عشرة خلت من ذي القعدة ، فقدّم ابنه عليّاً ومعه الحسن بن عليّ كوره ، وأتبعه بجعفر بن سِعْر، ثم أتبع جعفراً محمد بن كُمُشْجور ، ثم أتبعه خاقان المفلحيّ . ثم مؤنس الخادم ، ثم مؤنس الخازن ، ثم مضى في آثارهم مع غلمان الحجر ، ومرّ بعين زَرْبة ، وضرِب له بها مضرب ، وخلّف بها خفيفاً السَّمْرقنديّ مع سواده ، وسار هو قاصداً للخادم في أثر القوّاد ، فلما كان بعد صلاة العصر جاءته البشارات بأخذ الخادم ، ووافَوا به المعتضد ، فسلمه إلى مؤنس الخادم وهو يومئذ صاحب شرطة العسكر ، وأمر ببذل الأمان لأصحاب الخادم والنّداء في العسكر ببراءة الذمّة ممن وُجد في رحله شيء من نهب عسكر الخادم ، ولم يردّه على أصحابه ، فردّ الناس على كثير منهم ما انتهبوا من عسكرهم ، وكانت الوقعة وأسر وصيف الخادم - فيما قيل - يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة ، وكان من اليوم الذي ارتحل المعتضد فيه من مضربه بباب الشماسيّة إلى أن قبض على الخادم ستة وثلاثون يوماً .

ولما قبض المعتضد على الخادم انصرف - فيما ذكر - إلى عين زربة ، فأقام بها يومين ، فلمّا كان في صبيحة الثالث ، اجتمع إليه أهل عين زربة ، وسألوه أن يرحل عنهم لضيق الميرة ببلدهم ، فرحل عنها في اليوم الثالث ، فنزل المصيّصة بجميع عساكره إلاّ أبا الأغرّ خليفة بن المبارك ، فإنه كان وجّهه ليأخذ على الخادم الطريق لئلا يصير إلى مرعَش وناحية مَلَطية ، وكان الخادم قد أنفذ عياله وعيال أصحابه إلى مَرْعش ، وبلغ أصحاب الخادم الذين كانوا قد هربوا ما بذَل لهم المعتضد من الأمان ، وما أمر بردّه عليهم من أمتعتهم ، فلحقوا بعسكر المعتضد داخلين في أمانه ، وكان نزول المعتضد بالمصّيصة - فيما قيل - يوم الأحد لعشر بقين من ذي القعدة ، فأقام بها إلى الأحد الآخر ، وكتب إلى وجوه أهل طَرَسُوس في المصير إليه ، فأقبلوا إليه منهم النُّغيل - وكان من رؤساء الثغر - وابن له ، ورجل يقال له ابن المهندس ، وجماعة معهم ، فحبس هؤلاء مع آخرين ، وأطلق أكثرهم . فحمل الذين حبسهم معه إلى بغداد ، وكان قد وجَد عليهم لأنهم - فيما ذكر - كانوا

كاتبوا وصيفاً الخادم ، وأمر المعتضد بإحراق جميع المراكب البحرية التي كان المسلمون يغزون فيها وجميع آلاتها .

وذكر أن دميانة غلام يازمان هو الذي أشار عليه لشيء كان في نفسه على أهل طرسوس ، فأحرق ذلك كله، وكان في المراكب نحو من خمسين مركباً قديماً قد أنفِق عليها أموالٌ جليلة لا يُعمل مثلها في هذا الوقت فأحرِقت ، فأضرّ ذلك بالمسلمين ، وكسر ذلك في أعضادهم ، وقوِيَ به الروم ، وأمِنوا أن يُغزوا في البحر . وقلّد المعتضد الحسنَ بن عليّ كورة الثغور الشأمية بمسألة من أهل الثغور واجتماع كلمتهم عليه ، ورحل المعتضد ـ فيما قيل ـ من المصِّيصة فنزل فُندُق الحسين ، ثم الإسكندرية ، ثم بَغْراس ثم أنطاكية ، لليلتين خلتا من ذي الحجة . فأقام بها إلى أن نحرَ . وبكّر في ثاني النحر بالرحيل ، فنزل أرتاحَ ثم الأثارب ثم حلب ، فأقام بها يومين ، ثم رحل إلى الناعورة ، ثم إلى خُساف وصفِّين هناك في الجانب الجَزَرِي ، وبيت مال المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الجانب الآخر ، ثم إلى يالس ، ثم إلى دَوْسر ، ثم إلى بطن دامان ، ثم إلى الرّقة ، فدخلها لثمان بقين من ذي الحجة ، فأقام بها إلى أن بقيَ ليلتان منه .

ولخمس بقين من شوّال ورد الخبر على السلطان بأن محمد بن زيد العلويّ قتِل .

ذكر الخبر عن سبب مقتله :

ذُكر أن محمد بن زيد خرج لّما اتصل به الخبر عن أسر إسماعيل بن أحمد عمرَو بن الليث في جيش كثيف نحو خراسان ، طامعاً فيها ، ظناً منه أنّ إسماعيل بن أحمد لا يتجاوز عمله الذي كان يتولاّه أيام ولاية عمرو بن الليث الصفّار خراسان ، وأنه لا دافع له عن خراسان ، إذ كان عمرو قد أُسِر ، ولا عامل للسلطان به ، فلما صار إلى جُرجان واستقرّ به ، كتب إليه يسأله الرجوع إلى طَبرستان ، وترك جرجان له ، فأبى ذلك عليه ابن زيد ، فندب إسماعيل ـ فيما ذكر لي ـ خليفةً كان لرافع بن هرثمة أيام ولاية رافع خراسان يُدعى محمد بن هارون ، لحرب محمد بن زيد ، فانتدب له ، فضمّ إليه جمعاً كثيراً من رجاله وجنده ، ووجّهه إلى ابن زيد لحربه ، فشخص محمد بن هارون نحو ابن زيد ، فالتقيا على باب جُرجان ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم عسكر محمد بن هارون .

ثم إن محمد بن هارون رجع ، وقد انتفضت صفوف العَلويّ ، فانهزم عسكر محمد بن زيد ، وولَّوْا هاربين ، وقُتِل منهم ـ فيما ذكر ـ بشر كثير ، وأصابت ابن زيد ضربات ، وأُسِر ابنه زيد ، وحوى محمد بن هارون عسكره وما كان فيه . ثم مات محمد بن زيد بعد هذه الوقعة بأيام من الضَّربات كانت فيه ، فدُفن على باب جرجان ، وحُمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد ، وشخص محمد بن هارون إلى طبرستان .

وفي يوم السبت لاثنتي عشرة خلتْ من ذي القعدة أوقع بدر غلام الطائيّ بالقرامطة على غِرّة منهم بنواحي روذميستان وغيرها ،فقتَل منهم ـ فيما ذكر ـ مقتلة عظيمة ، ثم تركهم خوفاً على السّواد أن يخرب ، إذ كانوا فلاّحيه وعماله ، وطلب رؤساءهم في أماكنهم ، فقتل مَنْ ظفر به منهم ؛ وكان السلطان قد قوّى بدراً بجماعة من جنده وغلمانه بسببهم للحدث الذي كان منهم .

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن عبدالله بن داود .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيه من الأحداث

فمن ذلك ما كان من ورود الخبر على السلطان - فيما ذكر - بوقوع الوباء بأذْربيجان، فمات منه خلْق كثير إلى أن فقد الناس ما يكفّنون به الموتى، فكفِّنوا في الأكسية واللبود، ثم صاروا إلى أن لم يجدوا مَن يدفن الموتى، فكانوا يتركونهم مطروحين في الطرق.

وفيها دخل أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث فارس، وأخرجوا منها عمّال السلطان، وذلك لاثنتي عشرة بقيت من صفر منها.

وفيها تُوفِّيَ محمد بن أبي الساج الملقب بأفشين بأذْرَبيجان، فاجتمع غلمانه وجماعة من أصحابه، فأمّروا عليهم ديوداد بن محمد، واعتزلهم يوسف بن أبي الساج على الخلاف لهم.

ولليلتين بقيتا من شهر ربيع الآخر ورد كتاب صاحب البريد بالأهواز، يذكر فيه أن أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث صاروا إلى سَنبيل يريدون الأهواز.

وفي أول جمادى الأولى أدخل عمرَو بن الليث عبدُ الله بن الفتح - الموجّه كان إلى إسماعيل بن أحمد - بغداد وأشناس غلام إسماعيل بن أحمد. وذُكر لي أنّ إسماعيل بن أحمد خيَّره بين المقام عنده أسيراً وبين توجيهه إلى باب أمير المؤمنين، فاختار توجيهه فوجّهه.

ولليلتين خَلَتا من جمادى الآخرة، ورد - فيما ذُكر - كتاب صاحب بريد الأهواز منها، يذكر أن كتاب إسماعيل بن أحمد ورد على طاهر بن محمد بن عمرو يعلمه أن السلطان ولّاه سجستان، وأمره بالخروج إليها، وأنه خارج إليه إلى فارس ليوقع به، ثم ينصرف إلى سجستان، وأنّ طاهراً خرج لذلك، وكتب إلى ابن عمّه وكان مقيماً بأرّجان في عسكره يأمره بالانصراف إليه إلى فارس بمن معه.

وفيها ولّى المعتضد مولاه بدراً فارس. وأمره بالشخوص إليها لمّا بلغه من تغلّب طاهر بن محمد عليها، وخلع عليه لتسع خلوْن من جمادى الآخرة، وضمّ إليه جماعةً من القوّاد، فشخص في جيش عظيم من الجند والغلمان.

ولعشر خلوْن من جمادى الآخرة منها خرج عبد الله بن الفتح وأشناس غلام إسماعيل إلى إسماعيل بن أحمد بن سامان بِخلعٍ من المعتضد حَمَلها إليه وببَدَنة وتاج وسيف من ذهب، مركّب على جميع ذلك جوهر

وبهدايا وثلاثة آلاف ألف درهم، يفرّقها في جيش من جيوش خُراسان، يوجّه إلى سِجِسْتان لحرب مَنْ بها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو.

وقد قيل: إن المال الذي وجّهه إليه المعتضد كان عشرة آلاف ألف درهم، وجّه ببعض ذلك من بغداد، وكتب بباقيه على عمّال الجبل، وأمِرُوا أن يدفعوه إلى الرُّسل.

وفي رجب منها وصل بدر مولى المعتضدإلى ما قرب من أرض فارس فتنحّى عنها مَنْ كان بها من أسباب طاهر بن محمد بن عمرو، فدخلها أصحاب بدر، وجبى عمّالُه الخراج بها.

ولليلتين خَلَتا من شهر رمضان منها، ذكر أنّ كتاب عجّ بن حاجّ عامل مكة ورد يذكر فيه أن بني يَعفر أوقعوا برجل كان تغلّب على صنعاء، وذكر أنه علويّ وأنهم هزموه، فلجأ إلى مدينة تحصّن بها، فصاروا إليه فأوقعوا به، فهزموه أيضاً، وأسروا ابناً له، وأفلت هو في نحو من خمسين نفساً، ودخل بنو يعفر صنعاء وخطبوا بها للمعتضد.

وفيها أوقع يوسف بن أبي الساج وهو في نفر يسير بابن أخيه ديوداد بن محمد، ومعه جيش أبيه محمد بن أبي الساج، فهرب عسكره، فبقي ديوداد في جماعة قليلة، فعرض عليه يوسف المقام معه، فأبى وأخذ طريق الموصل فوافى بغداد يوم الخميس لسبع بَقِين من شهر رمضان من هذه السنة، فكانت الوقعة بينهما بناحية أذْرَبيجان.

وفيها غزا نزار بن محمد عامل الحسن بن عليّ كورة الصائفة، ففتح حصوناً كثيرة للرّوم، وأدخل طَرَسُوس مائة عِلْج وَنيّفاً وستين عِلْجاً من القوامسة والشمامسة وصلباناً كثيراً وأعلاماً لهم، فوجّهها كوره إلى بغداد.

ولاثنتي عشرة خلتْ من ذي الحجَّة وردت كتب التجار من الرَّقة أن الرُّوم وافتْ في مراكب كثيرة، وجاء قومٌ منهم على الظهر إلى ناحية كَيْسُون، فاستاقوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألف إنسان؛ ما بين رجل وامرأة وصبيّ، فمضوا بهم، وأخذوا فيهم قوماً من أهل الذمة.

وفيها قرب أصحاب أبي سعيد الجنابيّ من البصرة، واشتدّ جَزع أهل البصرة منهم حتى همّوا بالهرب منها والنقلة عنها، فمنعهم من ذلك واليهم.

وفي آخر ذي الحِجّة منها قُتِل وصيف خادم ابن أبي الساج، فحمِلت جثته فصلبت بالجانب الشرقيّ، وقيل إنه مات ولم يقتَل، فلما مات احتُزّ رأسه.

وحجّ بالناس فيها هارون بن محمد المكنى أبا بكر.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائتين

ذكر الخبر عن الكائن فيها من الأمور

فمن ذلك ما كان من انتشار القرامطة بسَوَاد الكوفة، فوُجّه إليهم شبل غلام أحمد بن محمد الطائيّ، وتُقدِّم إليه في طلبهم، وأخذِ مَن ظفر به منهم وحملِهم إلى باب السلطان. وظَفِر برئيس لهم يُعرف بابن أبي فوارس، فوجّه بهم معهم، فدعا به المعتضد لثمان بقين من المحرّم، فساءله، ثم أمر به فقلِعتْ أضراسه، ثم خُلِع بمدّ إحدى يديه - فيما ذكر - ببكْرة، وعُلّق في الأخرى صخرة، وتُرِك على حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب، ثم قُطِعت يداه ورجلاه من غدِ ذلك اليوم، وضُرِبتْ عنقه، وصلِب بالجانب الشرقيّ، ثم حمِلت جثته بعد أيام إلى الياسرية، فصُلب مع من صُلب هنالك من القرامطة.

ولليلتين خَلَتا من شهر ربيع الأول، أخرِجَ مَنْ كانت له دار وحانوت بباب الشماسيّة عن داره وحانوته، وقيل لهم: خذوا أقفاصكم واخرجوا؛ وذلك أنّ المعتضد كان قد قدّر أن يبنيَ لنفسه داراً يسكنها، فخطّ موضع السور، وحفر بعضه، وابتدأ في بناء دِكّة على دِجْلة، كان المعتضد أمر ببنائها لينتقل فيقيم فيها إلى أن يفرُغ من بناء الدار والقصر.

وفي ربيع الآخر منها في ليلة الأمير تُوفِّيَ المعتضد، فلما كان في صبيحتها أحضِر دار السلطان يوسف بن يعقوب وأبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب، وحضر الصلاة عليه الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان، وأبو خازم وأبو عمرَ والحَرَم والخاصّة، وكان أوصى أن يُدفن في دار محمد بن عبد الله بن طاهر، فحفِر له فيها، فحمِل من قصره المعروف بالحسنيّ ليلا، فدفن في قبره هناك.

ولسبع بقين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة - وهي سنة تسع وثمانين ومائتين - جلس القاسم بن عبيد الله بن سليمان في دار السلطان في الحسنيّ، وأذن للناس، فعزَّوْه بالمعتضد، وهنؤوه بما جدّد له من أمر المكتفي. وتقدّم إلى الكتاب والقوّاد في تجديد البيعة للمكتفي بالله، فقبلوا.

خلافة المكتفي بالله

ولما تُوفِّيَ المعتضد كتب القاسم بن عبيد الله بالخبر إلى المكتفي كتباً، وأنفذها من ساعته؛ وكان المكتفي مقيماً بالرّقة، فلمّا وصل الخبر إليه أمر الحسين بن عمرو النصرانيَّ كاتبه يومئذ بأخذ البيعة على من في عسكره، ووضع العطاء لهم، ففعل ذلك الحسين، ثم خرج شاخصاً من الرّقة إلى بغداد، ووجّه إلى النواحي بديار ربيعة وديار مضر ونواحي المغرب من يضبطها.

وفي يوم الثلاثاء لثمان خَلوْن من جمادى الأولى دخل المكتفي إلى داره بالحسنيّ؛ فلما صار إلى منزله، أمر

بهدم المطامير التي كان أبوه اتّخذها لأهل الجرائم.

وفي هذا اليوم كنّى المكتفي بلسانه القاسم بن عبيد الله وخلع عليه.

وفي هذا اليوم مات عمرو بن الليث الصفار، ودُفن في غد هذا اليوم بالقرب من القصر الحسنيّ، وقد كان المعتضد ـ فيما ذكر ـ عند موته بعد ما امتنع من الكلام أمر صافيا الحُرَميّ بقتل عمرو بالإيماء والإشارة، ووضع يده على رقبته وعلى عينه، أراد ذبح الأعور فلم يفعل ذلك صافي لعلمه بحال المعتضِد وقرْب وفاته، وكره قتل عمرو، فلما دخل المكتفي بغداد سأل ـ فيما قيل ـ القاسم بن عبيد الله عن عمرو: أحيٌّ هو؟ قال: نعم، فسرّ بحياته. وذُكر أنه يريد أنّ يحسن إليه، وكان عمرو يهدي إلى المكتفي ويبرّه برًّا كثيراً أيام مقامه بالرّيّ فأراد مكافأته، فذكروا أن القاسم بن عبيد الله كره ذلك، ودسّ إلى عمرو مَنْ قتله.

وفي رجب منها ورد الخبر لأربع بقين منه أنّ جماعة من أهل الرّيّ كاتبوا محمد بن هارون الذي كان إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان استعمله على طَبَرستان بعد قتله محمد بن زيد العَلَوِيّ، فخلع محمد بن هارون وبيّض، فسألوه المصير إلى الرّيّ ليدخلوه إليها، وذلك أن أوكرتُمُش التركيَّ المولَّى عليهم كان ـ فيما ذكر ـ قد أساء السيرة فيهم، فحاربه، فهزمه محمد بن هارون وقتله، وقتل ابنين له وقائداً من قوّاد السلطان يقال له أبرون أخو كَيْغلغ، ودخل محمد بن هارون الرّيّ واستولى عليها.

وفي رجب من هذه السنة زلزلت بغداد، ودامت الزلزلة فيها أياماً وليالي كثيرة.

وفي هذه السنة كان مقتل بدر غلام المعتضد.

ذكر سبب قتله:

ذُكر أنّ سبب ذلك كان أنّ القاسم بن عبيد الله كان هَمّ بتصيير الخلافة من بعد المعتضد في غير ولد المعتضد، وأنه كان ناظرَ بدراً في ذلك، فامتنع بدر عليه وقال: ما كنتُ لأصرفَها عن ولد مولاي الذي هو وَليُّ نعمتي. فلما رأى القاسم ذلك وعلم أنه لا سبيل إلى مخالفة بدر؛ إذ كان بدْرٌ صاحب جيش المعتضد، والمستولي على أمره، والمطاعَ في خدمه وغلمانه، اضطغنها على بدر. وحدث بالمعتضد حدثُ الموت وبدر بفارس، فعقد القاسم للمكتفي عَقْد الخلافة، وبايع له وهو بالرَّقة، لِمَا كان بين المكتفي وبين بدر من التباعد في حياة والده. وكتب القاسم إلى المكتفي لمّا بايع غلمان أبيه له بالخلافة، وأخذ عليهم البَيْعة بما فعل من ذلك، فقدم بغداد المكتفي وبدْر بعد بفارس، فلمّا قدمها عمِل القاسم في هلاك بدر؛ حذراً على نفسه ـ فيما ذكر ـ من بدر أن يقدم على المكتفي، فيطلعَه على ما كان القاسم همّ به، وعزم عليه في حياة المعتضد من صرف الخلافة عن ولد المعتضد إذا مات. فوجّه المكتفي ـ فيما ذكر ـ محمد بن كُمُشْجور وجماعة من القوّاد برسائل، وكتب إلى القوّاد الذين مع بدر يأمرهم بالمصير إلى ما قبَله ومفارقة بدر وتركه، فأوصِلت الكتب إلى القوّاد في سرّ، ووجّه إليه يانس خادم الموفّق، ومعه عشرة آلاف ألف درهم ليصرفها في عطاء أصحابه لبيعة المكتفي، فخرج بها يانس.

فذُكر أنه لما صار بالأهواز، وجّه إليه بدر مَنْ قَبَض المال منه فرجع يانس إلى مدينة السلام؛ فلمّا وصلت كتب المكتفي إلى القوّاد المضمومين إلى بدر، فارق بدراً جماعة منهم، وانصرفوا عنه إلى مدينة السلام؛ منهم العباس بن عمرو الغَنَوِيّ وخاقان المفلحيّ ومحمد بن إسحاق بن كُنْداج وخفيف الأذكوتكينيّ وجماعة غيرهم. فلما صاروا إلى مدينة السلام دخلوا على المكتفي، فخلع ـ فيما ذكر ـ على نيّف وثلاثين رجلاً منهم، وأجاز جماعةً

من رؤسائهم ؛ كلّ رجل منهم بمائة ألف درهم ، وأجاز آخرين بدون ذلك ، وخلَع على بعضهم ، ولم يجزه بشيء. وانصرف بدر في رجب، عامداً المصيرَ إلى واسط. واتَّصل بالمكتفي إقبالُ بدر إلى واسط، فوكّل بدار بدر، وقبض على جماعة من غلمانه وقوّاده ؛ فحُبِسُوا ، منهم نحرير الكبير، وعَريب الجبليّ، ومنصور، ابن أخت عيسى النُّوشريّ. وأدخل المكتفي على نفسه القوّاد، وقال لهم : لست أؤمِّر عليكم أحداً، ومَنْ كانت له منكم حاجة فليلقَ الوزير، فقد تقدّمتُ إليه بقضاء حوائجكم. وأمر بمحو اسم بدر من التراس والأعلام، وكان عليها أبو النجم مولى المعتضد بالله، وكتب بدرٌ إلى المكتفى كتاباً دفعه إلى زيدان السعيديّ، وحمله على الجمّازات. فلما وصل الكتاب إلى المكتفي أخذه، ووكّل بزيدان هذا، وأشخص الحسن بن عليّ كوره في جيش إلى ناحية واسط. وذُكر أنه قدّمه المكتفي على مقدمته.

ثم أحدر محمد بن يوسف مع المغرب لليلة بَقِيت من شعبان من هذه السنة برسالة إلى بدر، وكان المكتفي أرسل إلى بدر حين فَصَل من عمل فارس يعرض عليه ولاية أيّ النواحي شاء ؛ إن شاء أصبهان وإن شاء الريّ، وإن شاء الجبال، ويأمره بالمصير إلى حيث أحبّ من هذه النواحي مع مَنْ أحبّ من الفرسان والرّجالة، يقيم بها معهم والياً عليها. فأبى ذلك بدر، وقال : لا بدّ لي من المصير إلى باب مولاي.

فوجد القاسم بن عبيد الله مساغاً للقول فيه، وقال للمكتفي : يا أميرَ المؤمنين، قد عرضنا عليه أن نقلّده أيَّ النّواحي شاء أن يمضيَ إليها، فأبى إلاّ المجيء إلى بابك، وخوّفه غائلتَه، وحرّض المكتفي على لقائه ومحاربته، واتصل الخبر ببدر أنه قد وُكِّل بداره، وحبس غلمانه وأسبابه، فأيقن بالشرّ، ووجّه مَنْ يحتال في تخليص ابنه هلال وإحداره إليه، فوقف القاسم بن عبيد الله على ذلك، فأمر بالحفظ به، ودعا أبا خازم القاضي على الشرقية وأمره بالمضيّ إلى بدر ولقائه وتطييب نفسه وإعطائه الأمان من أمير المؤمنين، على نفسه وماله وولده، فذُكر أن أبا خازم قال له : أحتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين حتى أؤدّيه إليه عنه، فقال له : انصرفْ حتى أستأذنَ لك في ذلك أميرَ المؤمنين.

ثم دعا بأبي عمر محمد بن يوسف، فأمره بمثل الذي أمر به أبا خازم، فسارع إلى إجابته إلى ما أمره به، ودفع القاسم بن عبيد الله إلى أبي عمر كتاب أمان عن المكتفي، فمضى به نحو بدر، فلمّا فصل بدر عن واسط ارفضّ عنه أصحابه وأكثر غلمانه ؛ مثل عيسى النُّوشريّ وخَتَنه يانس المستأمن وأحمد بن سمعان ونحرير الصغير، وصاروا إلى مضرب المكتفي في الأمان. فلما كان بعد مضيّ ليلتين من شهر رمضان من هذه السنة، خرج المكتفي من بغداد إلى مضربه بنهر دَيَالَى، وخرج معه جميع جيشه، فعسكر هنالك، وخلع على مَنْ صار إلى مضربه من الجماعة الذين سَمّيتُ، وعلى جماعة من القوّاد والجند. ووكّل بجماعة منهم، ثم قيّد تسعة منهم، وأمر بحملهم مقيّدين إلى السجن الجديد، ولقي - فيما ذكر - أبو عمر محمد بن يوسف بدراً بالقرب من واسط، ودفع إليه الأمان وخبّره عن المكتفي بما قال له القاسم بن عبيد الله، فصاعد معه في حَرَّاقة بدر، وكان قد سيّره في الجانب الشرقيّ وغلمانه الذين بقوا معه في جماعة من الجند وخلق كثير من الأكراد وأهل الجبل يسيرون معه بمسيره على شطّ دِجْلة، فاستقرّ الأمر بين بدر وأبي عمر على أن يدخل بدر بغداد سامعاً مطيعاً، وعَبر بدر دِجْلة، فصار إلى النعمانيّة، وأمر غلمانه وأصحابه الذين بقُوا معه أن ينزعوا سلاحهم، وألاّ يحاربوا أحداً، وأعلمهم ما ورد به عليه أبو عمر من الأمان، فبينا هو يسير إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنْداج في شَذاً، ومعه جماعة من

الغلمان، فتحوّل إلى الحرَّاقة، وسأله بدر عن الخبر، فطيّب نفسه، وقال له قولاً جميلا، وهم في كلّ ذلك يؤمّرونه؛ وكان القاسم بن عبيد الله وجّهه، وقال له: إذا اجتمعتَ مع بدر، وصرت معه في موضع واحد؛ فأعلِمْني. فوجّه إلى القاسم، وأعلمه؛ فدعا القاسم بن عبيد الله لؤلؤاً أحد غلمان السلطان، فقال له: قد ندبتُك لأمر، فقال: سمعاً وطاعة؛ فقال له: امض وتسلّمْ بدراً من ابن كنداجيق، وجئني برأسه. فمضى في طيّار حتى استقبل بدراً ومَنْ معه بين سيب بني كوما وبين اضطربد، فتحوّل من الطيار إلى الحرّاقة، وقال لبدر: قم، فقال: وما الخبر؟ قال: لا بأس عليك، فحوّله إلى طيّاره، ومضى به حتى صار به إلى جزيرة بالصافية، فأخرجه إلى الجزيرة، وخرج معه، ودعا بسيف كان معه فاستلّه، فلمّا أيقَن بدر بالقتل سأله أن يُمهله حتى يُصَلِّيَ ركعتين، فأمهله، فصلاّهما، ثم قدّمه فضرب عُنقَه، وذلك في يوم الجمعة قبل الزّوال لستّ خلوْن من شهر رمضان، ثم أخذ رأسه ورجع إلى طيّاره؛ وأقبل راجعاً إلى معسكر المكتفي بنهر دَيَالَى ورأس بدر معه، وتُركت جُثّته مكانها، فبقيت هنالك. ثم وجّه عياله من أخذ جثّته سرًّا، فجعلها في تابوت، وأخفوْها عندهم، فلما كان أيام الموسم حملوها إلى مكة، فدفنوها بها - فيما قيل - وكان أوصى بذلك، وأعتق قبل أن يقتَل مماليكه كلّهم، وتسلم السلطان ضياع بدر ومستغلاته ودوره وجميعَ ماله بعد قتله. وورد الخبر على المكتفي بما كان من قَتْل بدر، لسبع خلوْن من شهر رمضان من هذه السنة، فرحل منصرفاً إلى مدينة السلام، ورحل معه مَنْ كان معه من الجند، وجيء برأس بدْر إليه، فوصل إليه قبل ارتحاله من موضع معسكره، فأمر به فنظِّف، ورُفع في الخزانة، ورجع أبو عمر القاضي إلى داره يوم الاثنين كئيباً حزيناً، لِمَا كان منه في ذلك، وتكلّم الناس فيه، وقالوا: هو كان السبب في قتل بدر، وقالوا فيه أشعاراً، فمما قيل فيه منها:

قُـلْ لـقـاضِي مَـدينـةِ الْمنصُـورِ ... بِـمَ أحـلـلتَ أخـذَ رأس الأمـيـرِ!
بـعـدَ إعـطائـهِ المـواثـيقَ والـعـهـ ... ـدَ وعـقـدِ الأيْـمـانِ فـي مَـنـشـورِ
أيـنَ أيْـمـانُـكَ الـتي شـهـدَ الـلـ ... ـهُ عـلـى أنـهـا يـمـنُ فَـجُـورِ
أنَّ كـفـيّـك لا تـفـارق كَـفّـيـ ... ـهِ إلـى أن تـرَى مَليـكَ الـسَّـريـرِ
يـا قـليـلَ الحيـاءِ يـا أكـذَبَ الأ ... مّـةِ يـا شـاهِـداً شـهـادةَ زورِ
لـيسَ هـذا فِعـلَ الـقضـاةِ ولا يُـحـ ... ـسِـنُ أمـثـالـه وُلاة الـجُـسُـورِ
أيّ أمـرٍ رَكِبْتَ في الجُمْعَـة الـزهـ ... ـراءِ من شهـرٍ خيـرِ خيـرِ الـشُّهـورِ
قـد مضى مـن قتلتَ في رمضـانٍ ... صـائـمـاً بعـد سـجـدة التعْفيـرِ
يـابني يـوسفَ بن يعقـوبَ أضْحَى ... أهـلُ بـغـدادَ مـنـكـمُ فـي غـرورِ
بَـدّدَ الله شـمـلكـمْ وأرانـي ... ذلَّـكـمْ فـي حيـاةِ هـذا الـوزيـرِ
فـأعِـدّ الـجـوابَ لـلحَـكَم الـعـا ... دِلِ مـن بـعـدِ مـنكَـرٍ ونـكـيـرِ
أنـتـمُ كـلّكـمْ فِـدًا لأبـي خـا ... زمٍ الـمـسـتـقـيـمِ كـلّ الأُمـورِ

ولسبع خلوْن من شهر رمضان، حمل زيدان السعيديّ الذي كان قُدِّم رسولا من قبَل بدر إلى المكتفي مع التسعة الأنفس الذين قُيدوا من قوّاد بدر، وسبعة أنفس أخَر من أصحاب بَدْر قُبض عليهم بعدهم في سفينة مطبقةٍ عليهم، وأحْدروا مقيّدين إلى البصرة، فحبِسوا في سجنها.

وذكر أنّ لؤلؤاً الذي وليَ قتل بدر كان غلاماً من غلمان محمد بن هارون الذي قتل محمد بن زيد بطَبِرسْتان وأكرتَمُش بالرّيّ، قدم مع جماعة من غلمان محمد بن هارون على السلطان في الأمان.

وفي ليلة الاثنين لأربع عشرة بقيتْ من شهر رمضان منها قتِل عبد الواحد بن أبي أحمد الموفق ـ فيما ذكر ـ وكانت والدته ـ فيما قيل ـ وجّهت معه إلى دار مؤنس لما قُبض عليه داية له، ففُرق بينه وبين الداية فمكثت يومين أو ثلاثة، ثم صُرفت إلى منزل مولاتها، فكانت والدة عبد الواحد إذا سألت عن خبره قيل لها: إنه في دار المكتفي؛ وهو في عافية. وكانت طامعة في حياته، فلما مات المكتفي أيستْ منه وأقامت عليه مأتماً.

ذكر باقي الكائن من الأمور الجليلة في سنة تسع وثمانين ومائتين.

فمما كان من ذلك فيها لتسع بقين من شعبان منها، ورد كتاب من إسماعيل بن أحمد صاحب خُراسان على السلطان بخبر وقعة كانت بين أصحابه وبين ابن جُسْتان الديلميّ بطبرستان، وأن أصحابه هزموه، وقرىء بذلك كتابه بمسجدي الجامع ببغداد.

وفيها لحق رجل يقال له إسحاق الفرغانيّ من أصحاب بَدْر لمّا قُتِل بدر إلى ناحية البادية في جماعة من أصحابه على الخلاف على السلطان؛ فكانت بينه هنالك وبين أبي الأغرّ وقعة، هزِم فيها أبو الأغرّ، وقتِل من أصحابه ومن قوّاده عدّة، ثم أشخِص مؤنس الخازن في جمع كثيف إلى الكوفة لحرب إسحاق الفَرْغانيّ.

ولسلخ ذي القعدة خُلِع على خاقان المفلحيّ، وَوُلِّيَ معونة الريّ، وضمّ إليه خمسة آلاف رجل.

وفيها ظهر بالشام رجل جمع جموعاً كثيرة من الأعراب وغيرهم، فأتى بهم دمشق، وبها طُغْج بن جُفّ من قِبَل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون على المعونة؛ وذلك في آخر هذه السنة، فكانت بين طُغْج، وبينه وقعات كثيرة قُتل فيها ـ فيما ذكر ـ خلق كثير.

ذكر خبر هذا الرجل
الذي ظهر بالشام وما كان من سبب ظهوره بها

ذكر أن زكروَيْه بن مهرويه الذي ذكرنا أنه كان داعية قرمط لمّا تتابع من المعتضد توجيه الجيوش إلى من بسواد الكوفة من القرامطة، وألحّ في طلبهم، وأثخن فيهم القتلى، ورأى أنه لا مدفع عن أنفسهم عند أهل السواد ولا غَناء، سعى في استغواء من قَرُب من الكوفة من أعراب أسد وطيّىء وتميم وغيرهم من قبائل الأعراب، ودعاهم إلى رأيه؛ وزعم لهم أنّ مَنْ بالسواد من القرامطة يطابقونهم على أمره إن استجابوا له. فلم يستجيبوا له، وكانت جماعة من كلْب تخفُر الطريق على البرّ بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تَدمُر وغيرها، وتحمل الرُّسل وأمتعة التجار على إبلها، فأرسل زكرويه أولاده إليهم، فبايعوهم وخالطوهم، وانتموْا إلى عليّ بن أبي طالب وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وذكروا أنهم خائفون من السلطان، وأنهم مُلْجَؤون إليهم، فقبلوهم على ذلك، ثم دبوا فيهم بالدعاء إلى رأي القرمطة؛ فلم يقبل ذلك أحد منهم ـ أعني من الكلبيين ـ إلّا الفخِذ المعروفة ببني العُلَيص بن ضمضم بن عديّ بن جناب ومواليهم خاصة، فبايعوا في آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة ابن زكرويه المسمّى يحيى والمكنى أبا القاسم، ولقّبوه الشيخ، على أمر احتال فيهم، ولقب به نفسَه، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد.

وقد قيل: إنه زعم أنه محمد بن عبد الله بن يحيى. وقيل إنه زعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. وقيل إنه لم يكن لمحمّد بن إسماعيل ابنٌ يسمى عبد الله، وزعم لهم أن أباه المعروف بأبي محمود داعيةٌ له، وأنّ له بالسّواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع. وأن ناقته التي يركبها مأمورة، وأنهم إذا اتبعوها في مسيرها ظفِروا. وتكهّنَ لهم، وأظهر عضداً له ناقصة، وذكر أنها آية، وانحازت إليه جماعة من بني الأصبَغ، وأخلصوا له وتسمَّوْا بالفاطميّين، ودانوا بدينه، فقصدهم سبُك الديلميّ مولى المعتضد بالله بناحية الرُّصافة في غربيّ الفرات من ديار مُضَر، فاغترُّوه وقتلوه، وحرقوا مسجد الرُّصافة، واعترضوا كلّ قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشأم التي كان هارون بن خمارويه قوطع عليها، وأسند أمرها هارون إلى طُغْج بن جُفّ، فأناخ عليها، وهزم كلّ عسكر لقيه لطغج حتى حصره في مدينة دمشق. فأنفذ المصريون إليه بدراً الكبير غلام ابن طولون، فاجتمع مع طُغْج على محاربته، فواقعهم قريباً من دمشق، فقتل الله عدوَّ الله يحيى بن زكرويه.

وكان سبب قتله ـ فيما ذُكر ـ أن بعض البرابرة زرقه بمزراق واتبعه نفّاط، فزرقه بالنار فأحرقه؛ وذلك في كبد الحرب وشدّتها، ثم دارت على المصريّين الحرب، فانحازوا، فاجتمعت موالي بني العُلَيص إلى بني العليص ومَنْ معهم من الأصبغيّين وغيرهم على نصب الحسين بن زكرويه أخي الملقب بالشيخ فنصبوا أخاه، وزعم لهم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، وهو ابن نيّف وعشرين سنة، وقد كان الملقّب بالشيخ حمل موالي بني العليص على صريحهم، فقتلوا جماعةً منهم، واستذلُّوهم، فبايعوا الحسين بن زكرويه المسمّى بأحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بعد أخيه، فأظهر شامة في وجهه ذكر أنها آيته، وطرأ إليه ابن عمّه عيسى بن مِهْرويه المسمى عبد الله، وزعم أنه عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، فلقّبه المدثّر، وعَهد إليه؛ وذكر أنه المعنيّ في السورة التي يذكر فيها المدَّثر، ولقّب غلاماً من أهله المطوَّق، وقلّده قتل أسرى المسلمين، وظهر على المصريّين، وعلى جند حِمْص وغيرها من أهل الشأم، وتَسمَّى بإمرة المؤمنين على منابرها، وكان ذلك كله في سنة تسع وثمانين، وفي سنة تسعين.

وفي اليوم التاسع من ذي الحجّة من هذه السنة صلّى الناس العصر في قُمُص الصيف ببغداد، فهبّت ريح الشمال عند العصر، فبرد الهواء حتى احتاج الناس بها من شدّة البرد إلى الوقود والاصطلاء بالنّار، ولبس المحشوّ والجباب، وجعل البرد يزداد حتى جمد الماء.

وفيها كانت وقعة بين إسماعيل بن أحمد بالريّ ومحمد بن هارون وابن هارون ـ فيما قيل ـ حينئذ في نحو ثمانية آلاف، فانهزم محمد بن هارون وتقدم... [1] أصحابَه، وتبعه من أصحابه نحو ألف، ومضوْا نحو الدَّيلم، فدخلها مستجيراً بها، ودخل إسماعيل بن أحمد الرّيّ، وصار زهاء ألف رجل ـ فيما ذكر ـ ممّن انهزم من أصحابه إلى باب السلطان.

وفي جمادى الآخرة منها لأربع خلوْن منها ولِيَ القاسم بن سيما غزو الصائفة بالثغور الجزرية، وأطلِق له من المال اثنا وثلاثون ألف دينار.

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشميّ.

---

(١) يوجد بياض في الأصل.

ثم دخلت سنة تسعين ومائتين

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فممّا كان فيها من ذلك توجيه المكتفي رسولاً إلى إسماعيل بن أحمد لليلتين خلتا من المحرّم منها بخلع، وعقد ولاية له على الرّيّ، ، وبهدايا مع عبد الله بن الفتح.

ولخمس بقين من المحرّم منها ورد ـ فيما ذكر ـ كتاب عليّ بن عيسى من الرّقة، يذكر فيه أن القرمطيّ بن زكرويه المعروف بالشيخ، وافَى الرَّقة في جَمْع كثير، فخرج إليه جماعة من أصحاب السلطان ورئيسهم سُبْك غلام المكتفي، فواقعوه، فقتِل سُبْك، وانهزم أصحاب السلطان.

ولستّ خلوْن من شهر ربيع الآخر ورد الخبر بأن طغج بن جفّ أخرج من دمشق جيشاً إلى القرمطيّ، عليهم غلام له يقال له بَشِير، فواقعهم القرمطيّ، فهزم الجيش وقتل بشيراً.

ولثلاث عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر خُلع على أبي الأغرّ ووُجّه به لحرب القرمطيّ بناحية الشأم، فمضى إلى حلَب في عشرة آلاف رجل.

ولإحدى عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر خُلع على أبي العشائر أحمد بن نصر ووليَ طَرسوس، وعزِل عنها مظفَّر بن حاجّ لشكاية أهل الثغور إياه.

وللنصف من جمادى الأولى من هذه السنة، وردت كتب التجار إلى بغداد من دمشق مؤرّخة لسبع بقين من ربيع الآخر يخبرون فيها أن القرمطيّ الملقب بالشيخ قد هزم طغج غير مرة، وقتل أصحابه إلا القليل، وأنه قد بقي في قلة، وامتنع من الخروج، وإنما تجتمع العامة، ثم تخرج للقتال، وأنهم قد أشرفوا على الهلكة، فاجتمعت جماعة من تجار بغداد في هذا اليوم، فمضوْا إلى يوسف بن يعقوب، فأقرؤوه كتبهم، وسألوه المضيّ إلى الوزير ليخبره خبر أهل دمشق، فوعدهم ذلك.

ولسبع بقين من جمادى الأولى أحضِر دار السلطان أبو خازم ويوسف وابنه محمد، وأحضِر صاحب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث، فقوطع على مال فارس، ثم عقد المكتفي لطاهر على أعمال فارس، وخلع على صاحبه، وحُمِلت إليه خلع مع العقد.

وفي جُمادى الأولى هرب من مدينة السلام القائد المستأمِن المعروف بأبي سعيد الخُوارزميّ، وأخذ نحو طريق الموصِل، فكتِب إلى عبد الله المعروف بغلام نون، وكان يتقلّد المعاون بتَكريت والأعمال المتّصلة بها إلى حدّ سامرّا وإلى الموصِل في معارضته وأخذه. فزعموا أن عبد الله عارضه، فاختدعه أبو سعيد حتى اجتمعا جميعاً

على غير حرب، ففتك به أبو سعيد فقتله، ومضى أبو سعيد نحو شهرزور، فاجتمع هو وابن أبي الربيع الكُرديّ، وصاهره، واجتمعا على عصيان السلطان. ثم إنّ أبا سعيد قُتل بعد ذلك، وتفرّق مَنْ كان اجتمع إليه.

ولعشر خلوْن من جُمادى الآخرة، شخص أبو العشائر إلى عمله بَطرَسوس، وخرج معه جماعة من المطّوّعة للغزو، ومعه هدايا من المكتفي إلى ملك الروم.

ولعشر بقين من جمادى الآخرة خرج المكتفي بعد العصر عامداً سامُرّا، مريداً البناء بها للانتقال إليها، فدخلها يوم الخميس لخمس بَقين من جمادى الآخرة، ثم انصرف إلى مضارب قد ضُربت له بالجوسق، فدعا القاسم بن عبيد الله والقوّام بالبناء، فقدّروا له البناء وما يحتاج إليه من المال للنفَقَة عليه، فكثرُوا عليه في ذلك، وطَوّلوا مدّة الفراغ مما أراد بناءه، وجعل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك، ويعظّم أمَر النفقة في ذلك وقدر مبلغ المال، فثناه عن عزمه، ودعا بالغَداء، فتغدّى ثم نام، فلما هبّ من نومه ركب إلى الشطّ، وقعد في الطيّار، وأمر القاسم بن عبيد الله بالانحدار. ورجع أكثر الناس من الطريق قبل أن يصلوا إلى سامُرّا حين تلقّاهم الناس راجعين.

ولسبع خلوْن من رجب خُلع على ابني القاسم بن عبيد الله، فوُلّيَ الأكبر منهما ضياع الولد والحرم والنفقات، والأصغر منهما كتبة أبي أحمد بن المكتفي، وكانت هذه الأعمال إلى الحسين بن عمرو النصرانيّ، فعُزل بها، وكان القاسم بن عبيد الله اتّهم الحسين بن عمرو أنه قد سعى به إلى المكتفي.

ثم إن الحسين بن عمرو كاشفَ القاسم بن عبيد الله بحضرة المكتفي، فلم يزل القاسم يدبّر عليه، ويغلظ قلب المكتفي عليه، حتى وصل إلى ما أراد من أمره.

وفي يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من شعبان قرىء كتابان في الجامعين بمدينة السلام بقتل يحيى بن زكرويه الملقَّب بالشيخ، قتله المصريون على باب دمشق؛ وقد كانت الحرب اتّصلت بينه وبين مَنْ حاربه من أهل دمشق وجندها ومددهم من أهلِ مصر، وكسر لهم جيوشاً، وقتل منهم خلْقاً كثيراً، وكان يحيى بن زكرويه هذا يركب جملا برحاله، ويلبس ثياباً واسعة ويعتمّ عمة أعرابية، ويتلثّم، ولم يركب دابّةً من لدن ظهر إلى أن قُتِل، وأمر أصحابه ألا يحاربوا أحداً؛ وإن أتى عليهم حتى يبتعث الجمل من قبَل نفسه؛ وقال لهم: إذا فعلتم ذلك لم تهزموا.

وذُكر أنه كان إذا أشار بيده إلى ناحية من النّواحي التي فيها محاربوه، انهزم أهل تلك الناحية، فاستغوَى بذلك الأعراب. ولّما كان في اليوم الذي قُتِل فيه يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ، وانحازوا إلى أخيه الحسين بن زكرويه، فطلب أخاه الشيخ في القتلى، فوجده، فواراه وعقد الحسين بن زكرويه لنفسه، وتَسمّى بأحمد بن عبد الله، وتكنَّى بأبي العباس.

وعلم أصحابُ بدر بعد ذلك بقتل الشيخ، فطلبوه في القتلى فلم يجدوه، ودعا الحسين بن زكرويه إلى مثل ما دعا إليه أخوه، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم من سائر الناس، واشتدّت شوكته وظهر. وصار إلى دمشق، فذُكر أن أهلها صالحوه على خراج دفعوه إليه، ثم انصرف عنهم، ثم سار إلى أطراف حِمْص، فتغلّب، عليها، وخُطب له على منابرها، وتسمّى بالمهديّ، ثم سار إلى مدينة حِمْص، فأطاعه أهلها، وفتحوا له بابها

خوفاً منه على أنفسهم فدخلها، ثم سار منها إلى حَماة ومعرّة النعمان وغيرهما، فقتل أهلها، وقتل النساء والأطفال ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها حتى لم يبق منهم ـ فيما قيل ـ إلا اليسير، ثم سار إلى سَلَمْية فحاربه أهلها ومنعوه الدخول، ثم وادعهم وأعطاهم الأمان، ففتحوا له بابها، فدخلها، فبدأ بمَن فيها من بني هاشم، وكان بها منهم جماعة فقتلهم، ثم ثنى بأهل سَلَمْية فقتلهم أجمعين. ثم قتل البهائم، ثم قتل صبيان الكتاتيب، ثم خرج منها؛ وليس بها عين تطرف ـ فيما قيل ـ وسار فيما حواليْ ذلك من القرى يقتل ويَسْبِي ويحرِق ويُخيف السبيل.

فذكر عن متطبّب بباب المحوّل يُدعى أبا الحسن أنه قال: جاءتْني امرأة بعد ما أدخل القرمطيّ صاحب الشامة وأصحابه بغداد، فقالت لي: إني أريد أن تعالج شيئاً في كتفي، قلتُ: وما هو؟ قالت: جرح، قلت: أنا كحّال؛ وها هنا امرأة تعالج النساء، وتعالج الجراحات، فانتظري مجيئها. فقعدت، ورأيْتها مكروبة كئيبة باكية، فسألتها عن حالها، وقلت: ما سبب جراحتك؟ فقالت: قصّتي تطول، فقلت: حدّثيني بها وصادقيني، وقد خلا مَنْ كان عندي، فقالت: كان لي ابن غاب عنّي، وطالت غيبته، وخلّف عليّ أخوات له، فضقتُ واحتجت. واشتقتُ إليه، وكان شخص إلى ناحية الرّقة، فخرجتُ إلى الموصِل وإلى بَلَد وإلى الرّقة؛ كلّ ذلك أطلبه، وأسأل عنه؛ فلم أدَلّ عليه، فخرجتُ عن الرّقة في طلبه، فوقعت في عسكر القرمطيّ، فجعلت أطوف وأطلبه؛ فبينا أنا كذلك إذْ رأيتُه فتعلقت به، فقلت: ابني! فقال: أمي! فقلت: نعم، قال: ما فعل أخواتي؟ قلت: بخير، وشكوت ما نالنا بعده من الضيق، فمضى بي إلى منزله، وجلس بين يديّ، وجعل يسائلني عن أخبارنا، فخبّرته، ثم قال: دَعيني من هذا وأخبريني ما دينك؟ فقلت: يا بنيّ أما تعرُفني! فقال: وكيف لا أعرفك! فقلت: ولِمَ تسألني من ديني وأنت تعرفني وتعرف ديني! فقال: كلّ ما كنّا فيه باطل، والدِّين ما نحن فيه الآن، فأعظمتُ ذلك وعجبت منه، فلما رآني كذلك خرج وتركني. ثم وجّه إليّ بخبز ولحم وما يصلحني، وقال: اطبخيه، فتركتُه ولم أمسّه، ثم عاد فطبخه، وأصلح أمر منزله، فدقّ الباب داقٌّ؛ فخرج إليه فإذا رجل يسأله، ويقول له: هذه القادمة عليك تُحسن أن تصلح من أمر النساء شيئاً؟ فسألني فقلت: نعم، فقال: امضي معي، فمضيت فأدخلني داراً، وإذا امرأة تطلق، فقعدت بين يديها، وجعلت أكلّمها، فلا تكلّمني، فقال لي الرجل الذي جاء بي إليها: ما عليك من كلامها، أصلحي أمر هذه، وَدَعِي كلامها، فأقمتُ حتى ولدت غلاماً، وأصلحتُ من شأنه، وجعلت أكلّمها وأتلطف بها وأقول لها: يا هذه، لا تحتشميني؛ فقد وجب حقّي عليك، أخبريني خبرك وقصّتك ومَن والد هذا الصبيّ، فقالت: تسألينني عن أبيه لتطالبيه بشيء يهبه لك! فقلت: لا، ولكن أحبّ أن أعلم خبرك، فقالت لي: إني امرأة هاشميّة ـ ورفعت رأسها، فرأيت أحسَن الناس وجهاً ـ وإن هؤلاء القوم أتوْنا، فذبحوا أبي وأميّ وإخوتي وأهلي جميعاً، ثم أخذني رئيسهم، فأقمتُ عنده خمسة أيام، ثم أخرجني، فدفعني إلى أصحابه، فقال: طهّروها فأرادوا قتلي، فبكيتُ. وكان بين يديه رجل من قوّاده، فقال: هبها لي، فقال: خذها، فأخذني، وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام من أصحابه، فسلّوا سيوفهم، وقالوا: لا نسلّمها إليك؛ إمّا أن تدفعها إلينا، وإلاّ قتلناها. وأرادوا قتلي، وضجّوا، فدعاهم رئيسهم القرمطيّ، وسألهم عن خبرهم فخبّروه، فقال: تكون لكم أربعتكم، فأخذوني، فأنا مقيمة معهم أربعتهم، والله ما أدري ممّن هو هذا الولد منهم!

قالت: فجاء بعد المساء رجل فقالت لي: هنّيه فهنأته بالمولود، فأعطاني سبيكة فضة، وجاء آخر وآخر،

أهنِّىءُ كلّ واحد منهم، فيعطيني سبيكة فضة؛ فلما كان في السحر جاء جماعة مع رجل وبين يديه شمع، وعليه ثياب خزّ تفوح منه رائحة المسك، فقالت لي: هنّيه، فقمت إليه، فقلت: بيَّض الله وجهك، والحمد لله الذي رزقك هذا الابن، ودعوت له، فأعطاني سبيكة فيها ألف درهم، وبات الرجل في بيت، وبتّ مع المرأة في بيت، فلما أصبحت قلت للمرأة: يا هذه، قد وجب عليك حَقّي، فالله الله فيّ، خلصيني! قالت: ممّ أخلصك؟ فخبرتها خبر ابني، وقلت لها: إني جئتُ راغبة إليه، وإنه قال لي كيت وكيت، وليس في يدي منه شيء، ولي بنات ضِعاف خلفتهنّ بأسوأ حال، فخلِّصيني من ها هنا لأصلَ إلى بناتي. فقالت: عليك بالرّجل الذي جاء آخر القوم، فسليه ذلك، فإنه يخلصك. فأقمتُ يومي إلى أن أمسيتُ؛ فلما جاء تقدّمت إليه. وقبّلتُ يده ورجله، وقلت: يا سيّدي قد وجب حقّي عليك، وقد أغناني الله على يديك بما أعطيتني، ولي بنات ضِعاف فقراء، فإن أذنت لي أن أمضيَ فأجيئك ببناتي حتى يخدمنك ويكنّ بين يديك! فقال: وتفعلين؟ قلت: نعم، فدعا قوماً من غلمانه، فقال: امضوا معها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا، ثم اتركوها وارجعوا. فحملوني على دابّة، ومضوْا بي. قالت: فبينما نحن نسير، وإذا أنا بابني يركُض، وقد كنا سِرْنا عشرة فراسخ - فيما خبّرني به القوم الذين معي - فلحقني وقال: يا فاعلة، زعمتِ أنك تمضين وتجيئين ببناتِك! وسلّ سيفه ليضربني، فمنعه القوم، فلحقني طرف السيف، فوقع في كتفي، وسلّ القوم سيوفَهم، فأرادوه، فتنحّى عني. وساروا بي حتى بلغوا بي الموضع الذي سمّاه لهم صاحبهم. فتركوني ومضوا، فتقدّمت إلى ها هنا وقد طفتُ لعلاج جرحي، فوُصف لي هذا الموضع، فجئت إلى ها هنا. قالت: ولما قدم أمير المؤمنين بالقرمطيّ وبالأسارى من أصحابه خرجتُ لأنظر إليهم؛ فرأيت ابني فيهم على جمل؛ عليه برنس وهو يبكي وهو فتىً شابّ، فقلت له: لا خفّف الله عنك ولا خلّصك! قال المتطبب: فقمت معها إلى المتطبّبة لما جاءت، وأوصيتُها بها، فعالجت جرحهَا وأعْطَتْها مَرهماً، فسألت المتطبّبة عنها بعد منصرفها، فقالت: قد وضعت يدي على الجرح، وقلت: انفحي، فنفحت فخرجتُ الريح من الجرح من تحت يدي، وما أراها تبرأ منه، ومضت فلم تعد إلينا.

ولإحدى عشرة بقيتْ من شوّال من هذه السنة، قبض القاسم بن عبيد الله على الحسين بن عمرو النصرانيّ، وحبسه، وذلك أنه لم يزل يسعى في أمره إلى المكتفي، ويقدح فيه عنده؛ حتى أمره بالقبض عليه، وهرب كاتب الحسين بن عمرو حين قبض على الحسين المعروف بالشيرازيّ، فطُلب وكُبِست منازل جيرانه، ونُودي: مَنْ وجده فله كذا وكذا، فلم يوجد.

ولسبع بقين منه صُرف الحسين بن عمرو إلى منزله، على أن يخرج من بغداد. وفي الجمعة التي بعدها خرج الحسين بن عمرو وحُدِر إلى ناحية واسط على وجه النفي، ووُجد الشيرازيُّ كاتبه لثلاث خلون من ذي القعدة.

ولليلتين خلتا من شهر رمضان من هذه السنة أمر المكتفي بإعطاء الجند أرزاقَهم والتأهّب للشخوص لحرب القرمطيّ بناحية الشأم، فأطلق للجند في دفعة واحدة مائة ألف دينار؛ وذلك أنّ أهل مصر كتبوا إلى المكتفي يشكُون ما لقُوا من ابن زكرويه المعروف بصاحب الشامة، وأنه قد أخرب البلاد، وقتل الناس، وما لَقُوا من أخيه قبله وقتلهما رجالهم، وأنه لم يبق منهم إلا العدد اليسير.

ولخمس خلوْن من شهر رمضان أخرِجت مضارب المكتفي، فضُربت بباب الشماسيّة.

ولسبع خلوْن منه خرج المكتفي في السَّحَر إلى مضربه بباب الشّماسية، ومعه قواده وغلمانه وجيوشه.

ولاثنتي عشرة ليلة من شهر رمضان، رحل المكتفي من مضربه بباب الشماسيّة في السَّحَر، وسلك طريق الموصِل.

وللنصف من شهر رمضان منها مضى أبو الأغرّ إلى حب، فنزل وادي بُطْنَان قريباً من حلَب، ونزل معه جميع أصحابه، فنزع ـ فيما ذُكر ـ جماعة من أصحابه ثيابهم، ودخلوا الوادي يتبرّدون بمائه، وكان يوماً شديد الحرّ؛ فبيناهم كذلك إذ وافَى جيش القرمطيِّ المعروف بصاحب الشامة، وقد بدرهم المعروف بالمطوَّق، فكبَسهم على تلك الحال، فقتل منهم خلقاً كثيراً وانتهب العسكر، وأفلت أبو الأغرّ في جماعة من أصحابه، فدخل حلَب، وأفلت معه مقدار ألف رجل، وكان في عشرة آلاف بين فارس وراجل، وكان قد ضُمّ إليه جماعة ممّن كان على باب السلطان من قوّاد الفراغنة ورجالهم، فلم يفلِتْ منهم إلا اليسير. ثم صار أصحاب القرمطيّ إلى باب حلَب، فحاربهم أبو الأغرّ ومَن بقيَ معه من أصحابه وأهل البلد، فانصرفوا عنه بما أخذُوا من عسكره من الكُراع والسلاح والأموال والأمتعة بعد حرب كانت بينهم، ومضى المكتفي بمَنْ معه من الجيش حتى انتهى إلى الرّقة، فنزلها، وسرّح الجيوش إلى القرمطيّ جيشاً بعد جيش.

ولليلتين خلتا من شوّال ورد مدينة السلام كتابٌ من القاسم بن عبيد الله، يخبر فيه أن كتاباً ورد عليه من دمشق من بدر الحماميّ صاحب ابن طولون، يخبر فيه أنه واقع القرمطيّ صاحب الشامة، فهزمه ووضع في أصحابه السيف، ومضى مَنْ أفلت منهم نحو البادية، وأنّ أمير المؤمنين وجّه في أثره الحسين بن حمدان بن حمدون وغيره من القوّاد.

وورد أيضاً في هذه الأيام ـ فيما ذكر ـ كتاب من البحرين من أميرها ابن بانوا، يذكر فيه أنه كبس حصنا للقرامطة، فظفَر بمن فيه.

ولثلاث عشرة خلت من ذي القعدة منها ـ فيما ذكر ـ ورد كتاب آخر من ابن بانوا من البحرين، يذكر فيه أنه واقع قرابة لأبي سعيد الجنابيّ، ووليّ عهده من بعده على أهل طاعته، فهزمه، وكان مقام هذا المهزوم بالقطيف فوُجد بعدما انهزم أصحابه قتيلاً بين القتلى، فاحتزّ رأسه، وأنه دخل القطيف فافتتحها.

ومن كتب صاحب الشامة إلى بعض عماله:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أحمد بن عبد الله المهديّ المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله، الداعي إلى كتاب الله، الذابّ عن حرم الله، المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين، ومذلّ المنافقين خليفة الله على العالمين، وحاصد الظالمين، وقاصم المعتدين، ومبيد الملحدين، وقاتل القاسطين، ومهلك المفسدين، وسراج المبصرين، وضياء المستضيئين، ومشتّت المخالفين، والقيّم بسنة سيد المرسلين، وولد خير الوصيّين، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيّبين، وسلم كثيراً، إلى جعفر بن حميد الكرديّ:

سلام عليك؛ فإنّي أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلِّيَ على جَدّي محمد رسول الله ﷺ. أما بعد: فقد أُنهيَ إلينا ما حدث قبلَك من أخبار أعداء الله الكفرَة، وما فعلوه بناحيتك، وأظهروه من الظلم

والعَيْث والفساد في الأرض، فأعظمنا ذلك، ورأينا أن ننفذ إلى هناك من جيوشنا مَنْ ينقم الله به من أعدائه الظالمين، الذين يسعوْن في الأرض فساداً، وأنفذنا عُطيراً داعيتَنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص، وأمددناهم بالعساكر. ونحن في أثرهم، وقد أوعزنا إليهم في المصير إلى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا، ونحن نرجو أن يجزيَنا اللّهُ فيهم على أحسن عوائده عندنا في أمثالهم؛ فينبغي أن تشدّ قلبك وقلوب مَنْ معك من أوليائنا، وتثق بالله وبنصره الذي لم يزل يعوّدناه في كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الإيمان، وتبادر إلينا بأخبار الناحية، وما يتجدّد فيها، ولا تُخْفِ عني شيئاً من أمرها إن شاء الله.

سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على جدّي محمد رسول الله، وعلى أهل بيته وسلم كثيراً.

نسخة كتاب عامل له إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله أحمد الإمام المهديّ المنصور بالله، ثم الصدر كلُّه على مثال نسخة صدر كتابه إلى عامله الذي حكينا في الكتاب الذي قبل هذا الكتاب، إلى ولد خير الوصيّين ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين وسلم كثيراً.

ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقائيّ.

سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام الله عزّه وتأييده، ونصره وسلامته، وكرامته ونعمته وسعادته، وأسبغ نعمه عليه، وزاد في إحسانه إليه، وفضْله لديه. فقد كان وصل كتاب سيّدي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، يُعلِمه فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قوّاده إلى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بني الفصيص والخائن ابن دُحيم، وطلبهم حيث كانوا، والإيقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم. ويأمرني أدام الله عزّه عند نظري في كتابه بالنهوض في كلّ من قدرتُ عليه من أصحابي وعشائري للقائهم ومكانفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم، والعمد كلّ ما يُومون إليه ويأمرون به، وفهمتُه، ولم يصل إليّ هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة؛ فنالت طرفاً من ناحية ابن دُحيم، وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الدّاعية ليلقوْه بمدينة افاقية. ثم ورد عليّ كتاب مسرور بن أحمد في درجة الكتاب الذي اقتصصتُ ما فيه في صدر كتابي هذا، يأمرني فيه بجمع من تهيأ مِنْ أصحابي وعشيرتي والنهوض إلى ما قِبَله، ويحذِّرني التخلّف عنه. وكان ورود كتابه عليّ وقتَ صحّ عندنا نزول المارق سُبْك عبد مفلح مدينة عَرْقة في زهاء ألف رجل، ما بين فارس وراجل. وقد شارف بلدنا، وأطلّ على ناحيتنا، وقد وجّه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه إلى جميع أصحابه، ووجّهت إلى جميع أصحابي، فجمعناهم إلينا، ووجّهنا العيون إلى ناحية عَرْقة لنعرف أخبار هذا الخائن، وأين يريد، فيكون قصدنا ذلك الوجه، ونرجو أن يُظفر الله به، ويمكّن منه بمنه وقدرته.

ولولا هذا الحادث، ونزول هذا المارق في هذه الناحية، وإشرافه على بلدنا لما تأخرت في جماعة أصحابي عن النهوض إلى مدينة أفاميَة، لتكون يدي مع أيدي القوّاد المقيمين بها لمجاهدة مَن بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. وأعلمت سيدي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب في تخلّفي عن مسرور بن أحمد، ليكونَ على علم منه. ثم إن أمرني أدام الله عزه بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذي برأيه، وامتثلتُ ما يأمرني به إن شاء

الله . أتمّ الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزّه وسلامته ، وهنّأه كرامته ، وألبسه عفوه وعافيته .

والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ والحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار .

وفيها وجّه القاسم بن عبيد الله الجيوشَ إلى صاحب الشامة . وولّى حربه محمد بن سليمان الكاتب الذي كان إليه ديوان الجيش ، وضمّ جمع القواد إليه ، وأمرهم بالسمع له والطاعة ، فنفذ من الرّقة في جيش كثيف ، وكتب إلى مَنْ تقدمه من القوّاد بالسمع له والطاعة .

وفيها ورد رسولا صاحب الروم ؛ أحدهما خادم ، والآخر فحل ، يسأله الفِداء بمن في يده من المسلمين أسير ، ومعهما هدايا من صاحب الروم وأسارى من المسلمين بعث بهم إليه ، فأجبنا إلى ما سألا ، وخلع عليهما .

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأمور الجليلة

فمن ذلك ما كان من أمر الوقعة بين أصحاب السلطان وصاحب الشامة.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة:

قال أبو جعفر: قد مضى ذكرى شخوصَ المكتفي من مدينة السلام نحو صاحب الشامة لحربه ومصيره إلى الرّقة، وبثه جيوشَه فيما بين حلب وحِمْص، وتوليته حرب صاحب الشامة محمد بن سليمان الكاتب وتصييره أمْرَ جيشه وقوّاده إليه؛ فلما دخلت هذه السنة كتب وزيره القاسم بن عبيدالله إلى محمد بن سليمان وقوّاد السلطان يأمره وإيّاهم بمناهضة ذي الشامة وأصحابه، فساروا إليه حتى صاروا إلى موضع بينهم وبين حَماة - فيما قيل - اثنا عشر ميلاً، فلقُوا به أصحاب القرمطيّ في يوم الثلاثاء لست خَلَوْن من المحرّم، وكان القرمطيّ قدّم أصحابه وتخلّف هو في جماعة من أصحابه، ومعه مالٌ قد كان جمعه، وجعل السَّواد وراءه، فالتحمت الحرب بين أصحاب السلطان وأصحاب القرمطيّ، واشتدّت فهُزم أصحاب القرمطيّ، وقتِلوا وأسِرَ من رجالهم بشرٌ كثير، وتفرّق الباقون في البوادِي، وتَبِعهم أصحابُ السلطان ليلة الأربعاء لسبع خلوْن من المحرّم. فلمّا رأى القرمطيّ ما نزل بأصحابه من الفُلول والهزيمة حمّل - فيما قيل - أخاً له يكنى أبا الفضل مالا، وتقدّم إليه أن يلحق بالبوادي إلى أن يظهر في موضع، فيصير إليه، وركب هو وابن عمّه المسمّى المدثّر والمطوّق صاحبه وغلام له روميّ. وأخذ دليلاً، وسار يريد الكوفة عَرضاً في البريّة، حتى انتهى إلى موضع يعرف بالدّاليّة من أعمال طريق الفُرات، فنفذ ما كان معهم من الزّاد والعلف؛ فوجّه بعض مَن كان معه ليأخذ له ما يحتاجون إليه، فدخل الدالية المعروفة بداليةابن طَوْق لشراءِ حاجِه، فأنكروا زيّه، وسُئِل عن أمره فمجمج، فأعلِم المتولي مسلحة هذه الناحية بخبره، وهو رجل يعرف بأبي خُبْزَة خليفة أحمد بن محمد بن كُشَمْرد عامل أمير المؤمنين المكتفي على المعاون بالرّحبة وطريق الفرات. فركب في جماعة، وسأل هذا الرجل عن خبره، فأخبره أن الشامة خلف رابية هنالك في ثلاثة نفر.

فمضى إليهم، فأخذهم وصار بهم إلى صاحبه، فتوجّه بهم ابن كُشَمْرد وأبو خبزة إلى المكتفي بالرّقة، ورجعت الجيوش من الطلب بعد أن قتلوا وأسروا جميعَ مَنْ قدروا عليه من أولياء القرمطيّ وأشياعه، وكتب محمد بن سليمان إلى الوزير بالفتح:

بسم الله الرحمن الرحيم. قد تقدّمت كتبي إلى الوزير أعزه الله في خبر القرمطيّ اللعين وأشياعِه؛ بما أرجو أن يكون قد وصل إن شاء الله. ولمّا كان في يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرّم رحلتُ من الموضع المعروف

بالقروانة، نحو موضع يعرف بالعليانة، في جميع العسكر من الأولياء، وزحفنا بهم على مراتبهم في القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك؛ فلم أبعد أن وافاني الخبر بأن الكافر القرمطيّ أنفذ النعمان ابن أخي إسماعيل بن النعمان أحد دعاته في ثلاثة آلاف فارس، وخلْق من الرّجّالة، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع، بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً، فاجتمع إليه جميع مَنْ كان بمعرّة النعمان وبناحية الفصيصيّ وسائر النواحي من الفرسان والرّجّالة، فأسررت ذلك عن القوّاد والناس جميعاً ولم أظهره، وسألتُ الدّليل الذي كان معي عن هذا الموضع، وكم بيننا وبينه، فذكر أنه ستة أميال، فتوكّلت على الله عزّ وجلّ، وتقدّمت إليه في المسير نحوه، فمال بالناس جميعاً، وسرنا حتى وافيتُ الكفرة، فوجدتهم على تعبئة، ورأينا طلائعهم. فلمّا نظروا إلينا مقبلين زحفوا نحونا، وسرنا إليهم، فافترقوا ستّة كراديس، وجعلوا على ميسرتهم ـ على ما أخبرني من ظفرتُ به من رؤسائهم ـ مسروراً العُليصيّ وأبا الحمل وغلام هارون العُليصيّ، وأبا العذاب ورجاء وصافي وأبا يعلى العلويّ، في ألف وخمسمائة فارس، وكمنوا كميناً في أربعمائة فارس خلْف ميسرتهم بإزاء ميمنتنا، وجعلوا في القلب النعمان العُليصيّ والمعروف بأبي الحَطّي، والحماريّ وجماعة من بطلانهم في ألف وأربعمائة فارس وثلاثة آلاف راجل، وفي ميمنتهم كليباً العليصيّ والمعروف بالسديد العليصيّ والحسين بن العليصي وأبا الجراح العليصي وحميد العليصيّ، وجماعة من نظرائهم في ألف وأربعمائة فارس، وكمنوا مائتي فارس؛ فلم يزالوا زِفًّا إلينا ونحن نسير نحوهم غير متفرّقين، متوكّلين على الله عزّ وجلّ. وقد استحثثتُ الأولياء والغلمان وسائر الناس غيرهم، ووعدتهم. فلما رأى بعضُنا بعضاً حمل الكردوس الذي كان في ميسرتهم ضرباً بالسياط، فقصد الحسين بن حمدان، وهو في جناح الميمنة، فاستقبلهم الحسين ـ بارك الله عليه وأحسن جزاءه ـ بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم، فكسروها في صدورهم، فانفلّوا عنهم، وعاود القرامطة الحمل عليهم، فأخذوا السيوف، واعترضوا ضرباً للوجوه، فصُرِع من الكفار الفجرة ستمائة فرس في أوّل وقعة، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوْق فضة، وولّوْا مدبرين مفلولين، واتّبعهم الحسين، فرجعوا عليه، فلم يزالوا حملة وحملة، وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة؛ حتى أفناهم الله عزّ وجلّ، فلم يفلت منهم إلاّ أقل من مائتي رجل.

وحمل الكردوس الذي كان في ميمنتهم على القاسم بن سيما ويُمْن الخادم ومَنْ كان معهما من بني شيبان وبني تميم، فاستقبلوهم بالرّماح حتى كسرُوها فيهم؛ واعتنق بعضُهم بعضاً، فقتِل من الفجرة جماعةٌ كثيرة. وحمل عليهم في وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ، وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة في ثلاثمائة فارس، وجميع أصحاب خليفة؛ وهم يعاركون بني شيبان وتميم، فقتِل من الكفرة مقتلة عظيمة، واتّبعوهم، فأخذ بنو شيبان منهم ثلاثمائة فرس ومائة طوْق، وأخذ أصحاب خليفة مثلَ ذلك؛ وزحف النعمان ومَنْ معه في القلْب إلينا، فحملتُ ومَنْ معي، وكنت بين القلب والميمنة، وحمل خاقان ونصر القشوريّ ومحمد بن كُمُشجُور ومَنْ كان معهم في الميمنة، ووصيف مُوشكير ومحمد بن إسحاق بن كُنْداجيق وابنا كَيْغلَغ والمبارك القمّي وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفّر بن حاج وعبدالله بن حمدان وحيّ الكبير ووصيف البكتمريّ وبشر البكتمريّ ومحمد بن قَراطُغان.

وكان في جناح الميمنة جميعُ من حمل على مَنْ في القلب ومَن انقطع ممّن كان حمل على الحسين بن حمدان، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجّالتهم حتى قُتلوا أكثر من خمسة أميال. ولما أن تجاوزتُ المصافّ بنصف ميل

خفتُ أن يكون من الكفار مكيدة في الاحتيال على الرّجالة والسواد، فوقفتُ إلى أن لحقوني، وجمعتهم وجمعت الناس، إليّ وبين يدي المطرد المبارك، مطرد أمير المؤمنين، وقد حملت في الوقت الأول، وحمل الناس. ولم يزل عيسى النوشري ضابطاً للسواد من مصافّ خلفهم مع فرسانه ورجّالته على ما رسمتُه له، لم يَزُل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إليّ من كلّ موضع، وضربت مضربي في الموضع الذي وقفت فيه؛ حتى نزل الناس جميعاً، ولم أزل واقفاً إلى أن صلّيتُ المغربَ، حتى استقرّ العسكر بأهلِه، ووجّهت في الطلائع ثم نزلت؛ وأكثرت حمد الله على ما هنّأنا به من النصر، ولم يُبق أحد من قوّاد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية في نصر هذه الدولة المباركة في المناصحة لها إلّا بلغوها؛ بارك الله عليهم جميعاً!

ولّما استراح الناس خـرجت والقوّاد جميعاً لنقيم خارج العسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع، وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع الشكر؛ وأنا ـ أعزّ الله سيدنا الوزير ـ راحل إلى حَماة، ثم أشخص إلى سلمية بمنّ الله تعالى وعونه، فمن بَقيَ من هؤلاء الكفار مع الكافر فهم بسلمية؛ فإنه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام، وأحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القوّاد وسائر بطون العرب من بني شَيْبان وتغلِب وبني تميم، يجزيهم جميعاً الخير على ما كان في هذه الوقعة؛ فما بقّى أحد منهم ـ صغير ولا كبير ـ غاية، والحمد لله على ما تفضّل به، وإياه أسأل تمامَ النعمة.

ولما تقدّمت في جمع الرؤوس، وُجِد رأس أبي الحمل ورأس أبي العذاب وأبي البغل. وقيل إن النعمان قد قُتِل؛ وقد تقدّمت في طلبه، وأخذ رأسِه وحمله مع الرؤوس إلى حضرة أمير المؤمنين إن شاء الله.

وفي يوم الاثنين لأربع بقين من المحرّم، أدخِل صاحب الشامة إلى الرّقة ظاهراً للناس على فالج، عليه برنس حرير ودرّاعة ديباج، وبين يديه المدّثر والمطوّق على جملين.

ثم إن المكتفي خلّف عساكره مع محمد بن سليمان، وشخص في خاصّته وغلمانه وخدمه، وشخص معه القاسم بن عبيدالله من الرّقة إلى بغداد، وحمل معه القرمطيّ والمدثّر والمطوّق وجماعة من أسارى الوقعة، وذلك في أول صفر من هذه السنة.

فلما صار إلى بغداد عزم ـ فيما ذكر ـ على أن يدخل القرمطيَّ مدينة السلام مصلوباً على دَقَل، والدّقل على ظهر فيل؛ فأمر بهدم طاقات الأبواب التي يجتاز بها الفيل، إن كانت أقصر من الدَّقل؛ وذلك مثل باب الطاق وباب الرّصافة وغيرهما.

ثم استسمج المكتفي ـ فيما ذكر ـ فعل ما كان عزم عليه من ذاك، فعمل له دميانة ـ غلام يا زَمـان ـ كرسيًّا، وركِّب الكرسيّ على ظهر الفيل، وكان ارتفاعه عن ظهر الفيل ذراعيْن ونصف ذراع ـ فيما قيل ـ ودخل المكتفي مدينة السلام بغداد صبيحة يوم الاثنين لليلتين خَلَتا من شهر ربيع الأول، وقُدّه الأسرى بين يديه على جمال مقيّدين، عليهم دراريع حرير وبرانس حرير، والمطوّق في وسطهم، غلام ما خرجتْ لحيته، قد جُعل في فيه خشبة مخروطة، وشُدّت إلى قفاه كهيئة اللجام، وذلك أنه لما أدخِل الرّقة كان يشتم الناس إذا دعوا عليه، ويبزق عليهم، فَفُعِل ذلك به لئلا يشتم إنساناً.

ثم أمر المكتفي ببناء دكّة في المصلّى العتيق من الجانب الشرقيّ، تكسيرها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً، وارتفاعها نحو من عشرة أذرُع، وبنِيَ لها درج يصعد منها إليها. وكان المكتفي خلّف مـع محمد بن

سليمان عساكره بالرّقة عند منصرَفه إلى مدينة السلام، فتلقّط محمد بن سليمان مَنْ كان في تلك الناحية من قُوّاد القرمطيّ وقضاته وأصحاب شُرَطه، فأخذهم وقيّدهم، وانحدر والقوّاد الذين تخلّفوا معه إلى مدينة السلام على طريق الفرات، فوافَى باب الأنبار ليلة الخميس لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول، ومعه جماعةمن القوّاد، منهم خاقان المفلحيّ ومحمد بن إسحاق بن كنداجيق وغيرهما: فأمِر القوّاد الذين ببغداد بتلقّي محمد بن سليمان والدخول معه، فدخل بغداد وبين يديه نيّف وسبعون أسيراً، حتى صار إلى الثريّا، فخُلع عليه، وطُوّق بطوق من ذهب وسُوّر بسوارَيْن من ذهب، وخُلع على جميع القوّاد القادمين معه، وطُوّقوا وسُوّروا وصُرفوا إلى منازلهم، وأمِر بالأسرى إلى السجن.

وذكر عن صاحب الشامة أنه أخذَ وهو في حبس المكتفي سكرّجة من المائدة التي تدخل إليه فكسرها، وأخذ شظيّة منها فقطع بها بعض عروق نفسه، فخرج منه دم كثير، ثم شَدّ يده. فلما وقف المولَّى خدمته على ذلك سأله: لِمَ فعل ذلك؟ فقال: هاج بي الدم فأخرجته. فترِك حتى صلح، ورجعت إليه قوّته.

ولما كان يوم الاثنين لسبع بَقين من شهر ربيع الأوّل أمر المكتفي القوّاد والغلمان بحضور الدّكة التي أمر ببنائها، وخرج من الناس خلقٌ كثير لحضورها، فحضروها، وحضر أحمد بن محمد الواثِقيّ وهو يومئذ يلي الشرطة بمدينة السلام ومحمد بن سليمان كاتب الجيش الدّكة، فقعدا عليها، وحمِل الأسرى الذين جاء بهم المكتفي معه من الرَّقة والذين جاء بهم محمد بن سليمان ومَنْ كان في السجن من القَرامطة الذين جُمعوا من الكوفة، وقومٌ من أهل بغداد كانوا على رأي القرامطة، وقومٌ من الرّفوغ من سائر البلدان من غير القرامطة - وكانوا قليلاً - فجيء بهم على جمال، وأحضِروا الدّكة، ووقفوا على جمالهم، ووكِّل بكلّ رجل منهم عونان، فقيل: إنهم كانوا ثلاثمائة ونيّفاً وعشرين، وقيل ثلاثمائة وستين، وجيء بالقرمطيّ الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة؛ ومعه ابن عمه المعروف بالمدّثر على بغل في عماريّة، وقد أسبِل عليهما الغشاء، ومعهما جماعة من الفرسان والرّجّالة، فصعِد بهما إلى الدكة وأقعِدا، وقدّم أربعة وثلاثون إنساناً من هؤلاء الأسارى، فقُطِعت أيديهم وأرجلهم، وضُربت أعناقهم واحداً بعد واحد، كان يُؤخذ الرجل فيبطح على وجهه فيقطع يمنى يديه، ويحلّق بها إلى أسفل ليراها الناس، ثم تُقطع رجله اليسرى، ثم يسرى يديه، ثم يمنى رجليه، ويُرمى بما قطِع منه إلى أسفل، ثم يقعَد فيمدّ رأسه، فيُضرب عنقه، ويرمَى برأسه وجثته إلى أسفل. وكانت جماعة من هؤلاء الأسرى قليلة يضجّون ويستغيثون، ويحلفون أنهم ليسوا من القرامطة.

فلما فُرِغ من قتل هؤلاء الأربعة والثلاثين النفس - وكانوا من وجوه أصحاب القرمطيّ - فيما ذكر - وكبرائهم قُدّم المدّثر، فقطِعت يداه ورجلاه وضربت عنقه. ثم قدّم القرمطيّ فضُرِب مائتي سوط، ثم قطِعت يداه ورجلاه، وكويَ فغُشيَ عليه، ثم أخِذ خشب فأضرمت فيه النار، ووُضع في خواصره وبطنه. فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما؛ فلما خافوا أن يموت ضُربت عنقه، ورُفع رأسه على خشبة، وكبّر مَن على الدكة وكبّر سائر الناس. فلما قُتِل انصرف القوّاد ومَنْ كان حضر ذلك الموضع للنظر إلى ما يُفعل بالقرمطيّ. وأقام الواثقيّ في جماعة من أصحابه في ذلك الموضع إلى وقت العشاء الآخرة، حتى ضُرب أعناق باقي الأسرى الذين أحضروا الدّكة؛ ثم انصرف.

فلما كان من غد هذا اليوم حُملت رؤوس القتلى من المصلّى إلى الجسر، وصُلِب بَدَن القرمطيّ في طرف

الجسر الأعلى ببغداد، وحفِرت لأجساد القتلى في يوم الأربعاء آبار إلى جانب الدّكة، وطُرحت فيها وطُمّت، ثم أمِر بعد أيام بهدم الدكة ففُعل.

ولأربع عشرة خلتْ من شهر ربيع الآخر وافى بغداد القاسم بن سيما منصرفاً عن عمله بطريق الفرات، ومعه رجلٌ من بني العُلَيص من أصحاب القرمطيّ صاحب الشامة؛ دخل إليه بأمان، وكان أحد دعاة القرمطيّ، يكنى أبا محمد، وكان سبب دخوله في الأمان أنّ السلطان راسلَه، ووعده الإحسان إن هو دخل في الأمان؛ وذلك أنه لم يكن بقي من رؤساء القرامطة بنواحي الشأم غيره، وكان من موالي بني العليص، فرّوقت الوقعة إلى بعض النواحي الغامضة، فأفلت. ثم رغب في الدّخول في الأمان والطاعة خوفاً على نفسه، فوافَى هو ومَنْ معه مدينة السلام، وهم نَيِّفٌ وستون رجلاً، فأومنوا وأحسِن إليهم، ووُصِلوا بمال حمِل إليهم، وأخرِج هو ومَنْ معه إلى رَحبة مالك بن طَوْق مع القاسم بن سيما، وأجريت لهم الأرزاق، فلما وصل القاسم بن سيما إلى عمله وهم معه، أقاموا معه مدّة، ثم أجمعوا على الغدر بالقاسم بن سيما، وأتمروا به، ووقف على ذلك من عزمهم، فبادرهم ووضع السيف فيهم فأبارهم، وأسر جماعة منهم، فارتدع مَنْ بقي من بني العليص ومواليهم، وذلّوا، ولزموا أرض السَّماوة وناحيتها مدة حتى راسلهم الخبيث زكرويه، وأعلمهم أنّ مما أوحي إليه، أن المعروف بالشيخ وأخاه يُقتلان، وأن إمامَه الذي يوحَى إليه يظهر بعدهما ويظفر.

وفي يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأولى زوّج المكتفي ابنه محمّداً ويكنى أبا أحمد بابنة أبي الحسين القاسم بن عبيدالله على صداقِ مائة ألف دينار.

وفي آخر جمادى الأولى من هذه السنة وَرَد - فيما ذكر - كتاب من ناحية جُبّى، يذكر فيه أن جُبّى وما يليها جاءها سيل في وادٍ من الجبل، فغرّق نحواً من ثلاثين فرسخاً، غرق في ذلك خلقٌ كثير، وغرقت المواشي والغَلّات، وخرجت المنازل والقُرى، وأخرِج من الغرقى ألف ومائتا نفس، سوى من لم يلحق منهم.

وفي يوم الأحد غرّة رجب خلَع المكتفي على محمد بن سليمان كاتب الجيش وعلى جماعة من وجوه القوّاد، منهم محمد بن إسحاق بن كُنداجيق، وخليفة بن المبارك المعروف بأبي الأغرّ وابنا كيغَلغ، وبندقة بن كُمُشجور وغيرهم من القوّاد، وأمرهم بالسمع والطاعة لمحمد بن سليمان، وخرج محمد بن سليمان والخِلَع عليه حتى نزل مضربه بباب الشماسيّة؛ وعسكر هنالك، وعسكر معه جماعة القوّاد الذين أخرجوا وبرزوا، وكان خروجهم ذلك قاصدين لدمشق ومصر لقبض الأعمال من هارون بن خمارويه؛ لما تبيّن للسلطان من ضعفه وضعف مَنْ معه وذهاب رجاله بقتل مَنْ قتل منهم القرمطيّ. ثم رحل لستّ خلون من رجب محمد بن سليمان من باب الشماسيّة ومن ضمّ إليه من الرجال، وهم زهاء عشرة آلاف رجل، وأمر بالجدّ في المسير.

ولثلاث بقين من رجب قرىء في الجامعين بمدينة السلام كتابٌ ورد من إسماعيل بن أحمد من خراسان، يذكر فيه أنّ الترك قصدوا المسلمين في جيش عظيم وخلق كثير، وأنه كان في عسكرهم سبعمائة قبّة تركيّة، ولا يكون ذلك إلا للرؤساء منهم، فوُجّه إليه برجل من قُوّاده في جيش ضمّه إليه، ونودي في الناس بالنّفير، فخرج من المطّوّعة ناس كثير، ومضى صاحب العسكر نحو الترك بمَنْ معه، فوافاهم المسلمون وهم غارُّون، فكبسوهم مع الصّبح، فقُتِل منهم خلق كثير، وانهزم الباقون، واستُبيح عسكرهم، وانصرف المسلمون إلى موضعهم سالمين غانمين.

وفي شعبان منها ورد الخبر أنّ صاحب الروم وجّه عشرة صلبان معها مائة ألف رجل إلى الثّغور، وأن جماعة منهم قصدت نحو الحدث، فأغاروا وسَبَوْا مَنْ قدروا عليه من المسلمين، وأحرقوا.

وفي شهر رمضان منها ورد كتاب من القاسم بن سيما من الرّحبة على السلطان. يذكر فيه أن الأعراب الذين استأمنوا إلى السلطان وإليه من بني العُليص ومواليهم ممّن كان مع القرمطيّ نكثوا وغدروا، وأنهم عزموا على أن يكبسوا الرّحبة في يوم الفطر، عند اشتغال الناس بصلاة العيد، فيقتلوا مَنْ يلحقون، وأن يحرقوا وينهبوا، وإني أوقعت عليهم الحيلة حتى قتلت منهم وأسرت خمسين ومائة نفس، سوى من غَرق منهم في الفرات، وإني قادم بالأسرى وفيهم جماعة من رؤسائهم وبرؤوس مَنْ قتِل منهم.

وفي آخر شهر رمضان من هذه السنة ورد كتاب من أبي معدان من الرّقة ـ فيما قيل ـ باتصال الأخبار به من طَرَسوس أنّ الله أظهر المعروف بغلام زرافة في غزاة غزاها الرّوم في هذا الوقت بمدينة تدعى أنطالية، وزعموا أنها تعادل قسطنطينيّة، وهذه المدينة على ساحل البحر، وأن غلام زرافة فَتَحها بالسيف عنوة، وقتل ـ فيما قيل ـ خمسة آلاف رجل، وأسر شبيهاً بعدّتهم، واستنقذ من الأسارى أربعة آلاف إنسان. وأنه أخذ للروم ستين مركباً، فحمّلها ما غنم من الفضة والذهب والمتاع والرقيق، وأنه قدّر نصيب كلِّ رجل حضر هذه الغزاة، فكان ألف دينار. فاستبشر المسلمون بذلك. وبادرتُ بكتابي هذا ليقف الوزير على ذلك.

وكتب يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان.

وأقام الحجّ للناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبدالله بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين

ذكر ما كان فيها من الأحداث الجليلة

فمن ذلك ما كان من توجيه نزار بن محمد من البصرة إلى السلطان ببغداد رجلاً ذكر أنه أراد الخروج على السلطان ، وصار إلى واسط ، وأن نزاراً وجّه في طلبه مَنْ قبض عليه بواسط ، وأحدره إلى البصرة ، وأنه أخذَ بالبصرة قوماً . ذكر أنهم بايعوه . فوجّه نزار جميعهم في سفينة إلى بغداد ، فوقفوا في فُرْضة البصريّين ، ووجّه جماعة من القواد إلى فرضة البصريين ، فحمِل هذا الرجل على الفالج ، وبين يديه ابن له صبيّ على جمل ، ومعه تسعة وثلاثون إنساناً على جمال ، وعلى جماعتهم برانس الحرير ودراريع الحرير ، وأكثرهم يستغيث ويبكي ، ويحلف أنه بريء ، وأنه لا يعرف مما ادّعي عليه شيئاً ، وجازوا بهم في التمارين وباب الكرخ والخلد حتى وصلوا إلى دار المكتفي ، فأمر بردّهم ، وحبسهم في السجن المعروف بالجديد .

وفي المحرّم منها أغار أنْدُرونقس الروميّ على مَرْعَش ونواحيها ، فنفر أهل المصّيصة وأهل طَرَسوس ، فأصيب أبو الرّجال بن أبي بكار في جماعة من المسلمين .

وفي المحرّم منها صار محمد بن سليمان إلى حدود مصر لحرب هارون بن خمارويه . ووجّه المكتفي دميانة غلام يا زمان من بغداد ، وأمره بركوب البحر والمضيّ إلى مصر ودخول النيل ، وقطع الموادّ عمّن بمصر من الجند ، فمضى ودخل النيل حتى وصل إلى الجسر ، فأقام به ، وضيّق عليهم . وزحف إليهم محمد بن سليمان في الجيوش على الظهر حتى دنا من الفسطاط ، وكاتب القوّاد الذين بها ، فكان أوّل مَنْ خرج إليه بدر الحماميّ - وكان رئيس القوم - فكسرهم ذلك ، ثم تتابع مَنْ يستأمن إليه من قوّاد المصريّين وغيرهم ؛ فلما رأى ذلك هارون وبقية مَنْ معه . زحفوا إلى محمد بن سليمان ، فكانت بينهم وَقعات - فيما ذكر - ثم وَقع بين أصحاب هارون في بعض الأيام عصبيّة فاقتتلوا ، فخرج هارون ليُسكتَهم ، فرماه بعض المغاربة بزانة فقتله .

وبلغ محمد بن سليمان الخبرُ ، فدخل هو ومَنْ معه الفسطاط ، واحتوى على دور آل طولون وأسبابهم ، وأخذهم جميعاً وهم بضعة عشر رجلاً ، فقيّدهم وحبسهم ، واستصفَى أموالهم ، وكتب بالفتح ، وكانت الوقعة في صفر من هذه السنة .

وكتب إلى محمد بن سليمان في إشخاص جميع آل طولون وأسبابهم من القوّاد ، وألا يترك أحداً منهم بمصر ولا بالشأم ، وأن يبعث بهم إلى بغداد . ففعل ذلك .

ولثلاث خلون من شهر ربيع الأول منها سقط الحائط الذي على رأس الجسر الأول من الجانب الشرقيّ

من الدار التي كانت لعبيدالله بن عبدالله بن طاهر على الحسين بن زكرويه القرمطيّ ، وهو مصلوب بقرب ذلك الحائط ، فطحنه ، فلم يُوجد بعد منه شيء .

وفي شهر رمضان منها ورد الخبر على السلطان بأنّ قائداً من قوّاد المصريّين يُعرف بالخليجيّ ، يسمى إبراهيم ، تخلّف عن محمد بن سليمان في آخر حُدود مصر مع جماعة استمالهم من الجند وغيرهم ، ومضى إلى مصر مخالفاً للسلطان ، وصار معه في طريقه جماعة تحبّ الفتنة ، حتى كثر جمعه . فلما صار إلى مصر أراد عيسى النُّوشريّ محارَبته . وكان عيسى النُّوشريّ العامل على المعونة بها يومئذ . فعجز عن ذلك لكثرة من مع الخليجيّ ، فانحاز عنه إلى الإسكندرية وأخلَى مصر فدخلها الخليجيّ .

وفيها ندب السلطان لمحاربة الخليجيّ وإصلاح أمر المغرب فاتكاً مولى المعتضد ، وضمّ إليه بدراً الحماميّ ، وجعله مشيراً عليه فيما يعمل به ، وضمّ إليه جماعة من القوّاد وجنداً كثيراً .

ولسبع خلون من شوال منها خلِع على فاتك وبدر الحماميّ لِمَا ندبا إليه من الخروج إلى مصر ، وأُمِرا بسرعة الخروج . ثم شخص فاتك وبدر الحماميّ لاثنتي عشرة خلت من شوال .

وللنصف من شوّال منها دخل مدينة طَرَسُوس رستم بن بردوا والياً عليها وعلى الثغور الشأمية .

وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم ، وأوّل يوم من ذلك كان لستّ بقين من ذي القعدة منها . فكان جملة مَنْ فُودي به من المسلمين - فيما قيل - ألفاً ونحواً من مائتي نفس . ثم غدر الرُّوم ، فانصرفوا ، ورجع المسلمون بمن بقي معهم من أسارى الروم ، فكان عهد الفداء والهدنة من أبي العشائر والقاضي ابن مكرم ؛ فلما كان من أمر أنْدُرُونقس ما كان من غارته على أهل مَرْعش وقتله أبا الرّجال وغيره ، عزِل أبو العشائر ووليِّ رستم ، فكان الفداء على يديه ، وكان المتولِّي أمرَ الفداء من قبل الروم رجلٌ يدعَى أسطانه .

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عُبد الملك بن عبدالله بن العباس بن محمد .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من ورود الخبر لخمس بَقِين من صفر ؛ بأن الخليجيّ المتغلِّب على مصر ، واقع أحمد بن كَيْغَلَغ وجماعةً من القوّاد بالقرب من العريش ، فهزمهم أقبح هزيمة . فنُدب للخروج إليه جماعة من القوّاد المقيمين بمدينة السلام ، فيهم إبراهيم بن كَيغَلَغ ، فخرجوا .

ولسبعٍ خلَون من شهر ربيع الأول منها ، وافى مدينةَ السلام قائد من قوّاد طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار مستأمناً ، يعرف بأبي قابوس ، مفارقاً عسكر السِّجْزيّة ، وذلك أن طاهر بن محمد ـ فيما ذكر ـ تشاغل باللهو والصيد ، ومضى إلى سجستان للصيد والنزهة ، فغلب على الأمر بفارس الليث بن عليّ بن الليث وسبكري مولى عمرو بن الليث ، ودبّر الأمر في عمل طاهر والاسم له ، فوقع بينهم وبين أبي قابوس تباعُد ، ففارقهم وصار إلى باب السلطان ، فقبله السلطان ، وخلع عليه وعلى جماعة معه وحبَاه وأكرمه ، فكتب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث إلى السلطان ، يسأله ردّ أبي قابوس إليه ، ويذكر أنه استكفاه بعضَ أعمال فارس ، وأنه جَبَى المال ، وخرج به معه ، ويسأل إن لم يردّ إليه أن يحسب له ما ذهب به من مالِ فارس ممّا صُودر عليه ، فلم يجبه السلطان إلى شيء من ذلك .

وفي هذا الشهر من هذه السنة ورد الخبر أن أخاً للحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة ظهر بالدّالية من طريق الفرات في نفر ، وأنه اجتمع إليه نفر من الأعراب والمتلصّصة ، فسار بهم نحو دمشق على طريق البرّ ، وعاث بتلك الناحية ، وحارب أهلها ، فنُدب للخروج إليه الحسين بن حمدان بن حمدون ، فخرج في جماعة كثيرة من الجند ، وكان مصير هذا القرمطيّ إلى دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة . ثم ورد الخبر أنّ هذا القرمطيّ صار إلى طَبريّة فامتنعوا من إدخاله ، فحاربهم حتى دخلها ، فقَتَل عامة مَنْ بها من الرجال والنساء ، ونهبها ، وانصرف إلى ناحية البادية .

وفي شهر ربيع الآخر ورد الخبر بأنّ الداعية الذي بنواحي اليمن صار إلى مدينة صنعاء ، فحاربه أهلُها ، فظفر بهم ، فقتَل أهلها ، فلم ينفلت منهم إلا القليل ، وتغلّب على سائر مدن اليمن .

عاد الخبر إلى ما كان من أمر أخي ابن زكرَويْه

فذكر عن محمد بن داود بن الجراح أنه قال : أنفذ زكرويه بن مهرويه بعدما قتل ابنه صاحبُ الشامة رجلاً كان يعلّم الصبيان بقرية تدعى الزّابوقة من عمل الفلُّوجة ، يسمّى عبدالله بن سعيد ، ويكنى أبا غانم ،

فتسمّى نصراً ليعمى أمره . فدار على أحياء كَلْب يدعوهم إلى رأيه ، فلم يقبله منهم أحد سوى رجل من بني زياد ، يسمّى مقدام بن الكيال ، فإنه استغوى له طوائف من الأصبغيّين المنتمين إلى الفواطم وسواقط من العُلَيصِيين وصعاليك من سائر بطون كلب ، وقصد ناحية الشأم ، وعاملُ السلطان على دمشق والأردنّ أحمد بن كَيْغَلَغ ، وهو مقيم بمصر على حرب ابن خَلِيج ، الذي كان خالف محمد بن سليمان ، ورجع إلى مصر ، فغلب عليها ، فاغتنم ذلك عبدالله بن سعيد هذا ، وسار إلى مدينتيْ بُصرى وأذرِعات من كُورتيْ حُوران والثنيّة ، فحارب أهلها ثم آمنهم . فلما استسلموا قَتل مقاتلتَهم ، وسبى ذراريّهم ، واستصفى أموالَهم ، ثم سار يؤمّ دمشق ، فخرج إليه جماعة ممن كان مرسوماً بتشحينها من المصريّين كان خلّفهم أحمد بن كيغلغ مع صالح بن الفضل ، فظهروا عليهم ، وأثخنوا فيهم . ثم اغترّوهم ببذل الأمان لهم ، فقتلوا صالحاً ، وفضّوا عسكره . ولم يطمعوا في مدينة دمشق ، وكانوا قد صاروا إليها ، فدافعهم أهلُها عنها ، فقصدوا نحو طبريّة مدينة جند الأردنّ ، ولحق بهم جماعة افتتنت من الجند بدمشق ، فواقعهم يوسف بن إبراهيم بن بغامردي عامل أحمد بن كَيْغَلَغ على الأردنّ . فكسروه وبذلوا الأمان له ، ثم غدروا به ، فقتلوه ونهبوا مدينة الأردنّ ، وسبوا النساء ، وقتلوا طائفةً من أهلها . فأنفذ السلطان الحسين بن حمدان لطلبهم ووجوهاً من القوّاد ، فورد دمشق وقد دخل أعداء الله طبريّة . فلما اتّصل خبره بهم عطفوا نحو السماوة . وتبعهم الحسين يطلبهم في برّيّة السَّماوة ، وهم ينتقلون من ماء إلى ماء ويعوِّرونه حتى لجؤوا إلى الماءين المعروفين بالدِّمْعَانة والحالة . وانقطع الحسين من اتباعهم لعدمه الماء ، فعاد إلى الرّحبة . وأسرى القرامطةُ مع غاويهم المسمّى نصراً إلى قرية هِيت . فصبّحوها وأهلُها غارّون لتسع بقين من شعبان مع طلوع الشمس . فنهب رَبَضها . وقتل مَنْ قدر عليه من أهلها ، وأحرق المنازل ، وانتهب السفن التي في الفرات في غرضتها . وقتل من أهل البلد ـ فيما قيل ـ زهاء مائتي نفس بين رجل وامرأة وصبيّ . وأخذ ما قدر عليه من الأموال والمتاع ، وأوقر ـ فيما قيل ـ ثلاثة آلاف راحلة . كانت معه زهاءَ مائتي كرّ حنطة بالمعدَّل ومن البُرّ والعطر والسقط جميع ما احتاج اليه . وأقام بها بقية اليوم الذي دخلها والذي بعده ، ثم رحل عنها بعد المغرب إلى البرّية ، وإنما أصاب ذلك من رَبضِها ، وتحصّن منه أهلُ المدينة بسورها ، فشخص محمد بن إسحاق بن كُنْداجيق إلى هيت في جماعة من القوّاد في جيش كثيف بسبب هذا القرمطيّ ، ثم تبعه بعد أيام مؤنس الخازن .

وذكر عن محمد بن داود . أنه قال : إنّ القرامطة صبّحوا هِيت وأهلُها غارّون . فحماهم الله منه بسورها . ثم عجّل السلطان محمد بن إسحاق بن كُنْدَاجيق نحوهم ، فلم يقيموا بها إلا ثلاثاً ، حتى قرب محمد بن إسحاق منهم ، فهربوا منه نحو الماءين ، فنهض محمد نحوهم ، فوجدهم قد عوّروا المياه بينه وبينهم ، فأنفِذت إليه من الحضرة الإبل والروايا والزّاد . وكُتب إلى الحسين بن حمدان بالنفوذ من جهة الرّحبة إليهم ليجتمع هو ومحمد بن إسحاق على الإيقاع بهم ، فلما أحسّ الكلبيّون بإشراف الجند عليهم ، ائتمروا بعدو الله المسمّى نصراً ، فوثبوا عليه ، وفتكوا به ، وتفرّد بقتله رجلٌ منهم يقال له الذئب بن القائم ، وشخص إلى الباب متقرّباً بما كان منه ، ومستأمناً لبقيتهم ، فأسنِيت له الجائزة ، وعُرف له ما أتاه ، وكُفّ عن طلب قومِه ، فمكث أياماً ثم هرب ، وظفرت بطلائع محمد بن إسحاق برأس المسمّى بنصر ، فاحتزوه وأدخلوه مدينة السلام ، واقتتلت القرامطة بعده ، حتى وقعت بينها الدماء ، فصار مقدام بن الكيّال إلى ناحية طيّىء مفلتاً بما احتوى عليه من الحُطام . وصارت فرقة منهم كرهت أمورَهم إلى بني أسد المقيمين بنواحي عين التمر ،

فجاوروهم وأرسلوا إلى السلطان وفداً يعتذرون مما كان منهم ، ويسألون إقرارهم في جوار بني أسد ، فأجيبوا إلى ذلك ، وحصلت على الماءين بقية الفَسَقة المستبصرة في دين القرامطة .

وكتب السلطان إلى حسين بن حمدان في معاودتهم باجتثاث أصولهم . فأنفذ زكرويه إليهم داعيةً له من أكَرة أهل السواد يسمىّ القاسم بن أحمد بن عليّ ، ويعرف بأبي محمد ، من رستاق نهر تلحانا ، فأعلمهم أنّ فعل الذئب بن القائم قد أنفره عنهم، وثقّل قلبه عليهم ، وأنهم قد ارتدّوا عن الدين ، وأن وقت ظهورهم قد حضر . وقد بايع له بالكُوفة أربعون ألف رجل ، وفي سوادها أربعمائة ألف رجل ، وأن يوم موعدهم الذي ذكره الله في كتابه في شأن موسى كليمه ﷺ ،وعدوه فرعون إذ يقول : ﴿ مَوْعِدُكم يَوْمُ الزِّينةِ وأن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً ﴾[1] . وأن زكرويه يأمرهم أن يخفوا أمرهم ، ويظهروا الانقلاع نحو الشأم ، ويسيروا نحو الكوفة حتى يصبِّحوها في غداة يوم النحر ، وهو يوم الخميس لعشر تخلو من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، فإنهم لا يُمنعون منها . وإنه يظهر لهم ، وينجز لهم وعْده الذي كانَت رسله تأتيهم به ، وأن يحملوا القاسم بن أحمد معهم . فامتثلوا أمره ، ووافوْا باب الكوفة ، وقد انصرف الناس عن مصلاّهم مع إسحاق بن عمران عامل السلطان بها . وكان الذين وافوا باب الكوفة في هذا اليوم ـ فيما ذكر ـ ثمانمائة فارس أو نحوها ، رأسهم الذبلانيّ بن مهروبة من أهل الصوأر. وقيل له من أهل جنْبُلاَء، عليهم الدّروع والجواشن والآلة الحسنة ومعهم جماعة من الرّجالة على الرّواحل ، فأوقعوا بمَنْ لحقوه من العوامّ ، وسلبوا جماعة ، وقتلوا نحواً من عشرين نفساً . وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها ، وتنادَوْا السلاح . فنهض إسحاق بن عمران في أصحابه ، ودخل مدينة الكوفة من القَرامطة زهاء مائة فارس من الباب المعروف بباب كندة ، فاجتمعت العوامّ وجماعة من أصحاب السلطان ، فرموْهم بالحجارة وحاربوهم ، وألقوا عليهم السُّتُر ، فقتِل منهم زهاء عشرين نفساً ، وأخرجوهم من المدينة ، وخرج إسحاق بن عمران ومَن معه من الجند ، فصافُّوا القرامطة الحرب . وأمر إسحاق بن عمران أهل الكوفة بالتحارس لئلاّ يجد القرامطة غِرّة منهم ، فيدخلوا المدينة ، فلم تزل الحرب بينهم إلى وقت العصر يوم النّحر ، ثم انهزمت القرامطة نحو القادسيّة ، وأصلح أهل الكوفة سورَهم وخندقهم ، وقاموا مع أصحاب السلطان يحْرُسون مدينتَهم ليلاً ونهاراً .

وكتب إسحاق بن عمران إلى السلطان يستمدّه ، فندب للخروج إليه جماعة من قوّاده، منهم طاهر بن عليّ بن وزير ووصيف بن صوار تكين التركيّ والفضل بن موسى بن بغا ، وبشر الخادم الأفشينيّ وجنى الصَّفوانيّ ورائق الخزريّ . وضمّ إليه جماعةً من غلمان الحُجَر وغيرهم ، فشخص أولهم يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة ، ولم يرأس واحد منهم ، كلُّ واحد منهم رئيس على أصحابه . وأمر القاسم بن سيما وغيره من رؤساء الأعراب بجمع الأعراب من البوادي بديار مُضَر وطريق الفرات ودَقُوقاء وخانيجَار وغيرها من النواحي ، لينهضوا إلى هؤلاء القرامِطة إذْ كان أصحاب السلطان متفرّقين في نواحي الشأم ومصر ، فمضت الرسائل بذلك إليهم ، فحضروا . ثم ورد الخبر فيها بأنّ الذين شخصوا مدداً لإسحاق بن عمران خرجوا إلى زكرويه في رجالهم ، وخلّفوا إسحاق بن عمران بالكوفة مع مَنْ معه من رجاله ليضبطها ، وصاروا إلى موضع بينه وبين القادسيّة أربعة أميال . يعرف بالصَّوْأر وهي في البريّة في العرض ، فلقيهم زكرويه هنالك فصافّوه يوم الاثنين لتسع بقين من ذي الحجة .

---

(١) سورة طه ٥٩ .

وقد قيل كانت الوقعة يوم الأحد لعشر بَقِين منه ، وجعل أصحاب السلطان بينهم وبين سوادهم نحواً من ميل ، ولم يخلفّوا أحداً من المقاتلة عنده ، واشتدّت الحرب بينهم . وكانت الدّبَرة أوّل هذا اليوم على القرمطيّ وأصحابه حتى كادوا أن يظفروا بهم . وكان زكرويه قد كَمّن عليهم كميناً من خلفهم . ولم يشعروا به . فلما انتصف النهار خرج الكمين على السواد فانتهبه ، ورأى أصحاب السلطان السيف من ورائهم ، فانهزموا أقبَحَ هزيمة . ووضع القرمطيّ وأصحابه السيفَ في أصحاب السلطان ، فقتلوهم كيف شاؤوا، وصبر جماعة من غلمان الحجَر من الخزر وغيرهم ، وهم زهاء مائة غلام ، وقاتلوا حتى قُتلوا جميعاً بعد نكاية شديدة نَكَوْها في القرامطة ، واحتوت القرامطة على سواد أصحاب السلطان فحازوه . ولم يُفلِت من أصحاب السلطان إلاّ مَنْ كان في دابته فَضْل فنجا به، أو من أثخِن بالجراح، فطرح نفسَه في القتلى، فتحامل بعد انقضاء الوقعة حتى دخل الكوفة. وأخِذ للسلطان في هذا السّواد، مما كان وجّه به مع رجاله من الجمّازات، عليها السلاح والآلة زهاء ثلاثمائة جمّازة ومن البِغال خمسمائة بغل.

وذكر أن مبلغ مَنْ قتل من أصحاب السلطان في هذه الوقعة سوى غلمانهم والحمّالين ومَنْ كان في السواد ألف وخمسمائة رجل، فقويَ القرمطيّ وأصحابه بما أخذوا في هذه الوقعة، وتطرّف بيادر كانت إلى جانبه، فأخذ منها طعاماً وشعيراً، وحمله على بغال السلطان إلى عسكره، وارتحل من موضع الوقعة نحواً من خمسة أميال في العرض إلى موضع يقرب من الموضع المعروف بنهر المثنيّة، وذلك أن روائح القتلى آذتهم.

وذكر عن محمد بن داود بن الجراح أنه قال: وافى باب الكوفة الأعرابُ الذين كان زكرويه راسلهم ، وقد انصرف المسلمون عن مصلاّهم مع إسحاق بن عمران ، فتفرّقوا من جهتين ، ودخلوا أبيات الكوفة ، وقد ضربوا على القاسم بن أحمد داعية زكرويه قُبّة ، وقالوا : هذا ابن رسول الله ﷺ ، ودعَوْا: يال ثارات الحسين ! يعنون الحسين بن زكرويه المصلوب بباب جسر مدينة السلام ، وشعارهم : يا أحمد يا محمد ـ يعنون ابنيْ زكرويه المقتولين . وأظهروا الأعلام البيض ، وقدروا أن يستغووا رعاع الكوفيّين بذلك القول ، فأسرع إسحاق بن عمران ومَنْ معه المبادرة نحوهم ، ودفعهم وقتل مَنْ ثبت له منهم ، وحضر جماعةٌ من آل أبي طالب . فحاربوا مع إسحاق بن عمران ، وحضر جماعة من العامّة ، فحاربوا . فانصرف القرامطة خاسئين . وصاروا إلى قرية تدعى العَشيرة من آخر عمل طَسُّوج السالحين ونهر يوسف مما يلي البرّ من يومهم . وأنفذوا إلى عدّو الله زكرويه بن مهرويه مَن استخرجه من نقير في الأرض ، كان متطمّراً فيه سنين كثيرة بقرية الدرية وأهل قرية الصّوأر يُتلفونَه على أيديهم ، ويسمّونه وليّ الله . فسجدوا له لَمّا رأوْه ، وحضر معه جماعة من دعاته وخاصَّته ، وأعلمهم أنّ القاسم بن أحمد أعظم الناس عليهم مِنّةً ، وأنه ردّهم إلى الدّين بعد خروجهم منه ؛ وأنهم إذا امتثلوا أمْره أنجز مواعيدهَم ، وبلّغهم آمالَهم . ورمز لهم رموزاً ، وذكر فيها آيات من القرآن . نقلها عن الوجه الذي أنزلت فيه . واعترف لزكرويه جميع مَنْ رسخ حبُّ الكفر في قلبه ؛ من عربيّ ومولًى ونبَطيّ وغيرهم أنه رئيسهم المقدّم . وكهفهم وملاذُهم . وأيقنوا بالنصر وبلوغ الأمل . وسار بهم وهو محجوب عنهم يدعونه السيّد ، ولا يبرزونه لمن في عسكرهم ، والقاسم يتولّى الأمور دونه ، ويُمضيها على رأيه إلى مؤاخر سِقْي الفرات من عمل الكوفة ، وأعلمهم أن أهل السواد قاطبة خارجون إليه ، فأقام هنالكَ نَيِّفاً وعشرين يوماً ، يبثّ رسلَه في السواديّين مستلحقين . فلم يلحق بهم من السواديين إلا من لحقته الشقوة . وهم زهاء خمسمائة رجل بنسائهم وأولادهم . وسرّب إليه السلطان الجنود . وكتب إلى كلّ مَنْ كان نفذ نحو الأنبار وهِيت لضبطها

خوفاً من معاودة المقيمين، كانوا بالماءين إليها بالانصراف نحو الكوفة، فعجّل إليهم جماعة من القوّاد منهم، بشر الأفشينيّ وجنى الصفوانيّ ونحرير العمريّ، ورائق فتى أمير المؤمنين والغلمان الصغّار المعروفين بالحُجَريّة، فأوقعوا بأعداء الله بقرب قرية الصَّوْأر، فقتلوا رجّالتهم وجماعة من فرسانهم، وأسلموا بيوتهم في أيديهم، فدخلوها، وتشاغلوا بها، فعطفت القرامطة عليهم فهزموهم.

وذُكر عن بعض مَنْ ذُكر أنه حضر مجلس محمد بن داود بن الجراح ، وقد أدخِل إليه قوم من القرامطة ، منهم سِلْفُ زكرويه ، فكان مما حدّثه أن قال : كان زكرويه مختفياً في منزلي في سرداب في داري عليه باب حديد ، وكان لنا تنُّور ننقله ، فإذا جاءنا الطلب وضعنا التنُّور على باب السرداب ، وقامت امرأة تسجُره ، فمكث كذلك أربع سنين ، وذلك في أيام المعتضد ، وكان يقول : لا أخرج والمعتضد في الأحياء ، ثم انتقل من منزلي إلى دار قد جُعل فيها بيت وراء باب الدار ، إذا فُتح باب الدار انطبق على باب البيت ، فيدخل الداخل فلا يرى بابَ البيت الذي هو فيه ، فلم يزل هذه حاله حتى مات المعتضد ، فحينئذ أنفذ الدّعاة ، وعمل في الخروج .

ولما ورد خبر الوقعة التي كانت بين القرمطيّ وأصحاب السلطان بالصَّوْأر على السلطان والناس ، أعظموه ، ونُدب للخروج إلى الكوفة مَنْ ذكرت من القوّاد ، وجُعِلت الرئاسة لمحمد بن إسحاق بن كُنْدَاج ، وضمّ إليه جماعة من أعراب بني شيبان والنّمِر زهاء ألفيْ رجل ، وأعطُوا الأرزاق .

ولاثنتي عشرة بقيت من جمادى الأولى قدم بغداد من مكة جماعة نحو العشرة ، فصاروا إلى باب السلطان ، وسألوه توجيه جيش إلى بلدهم ، لأنهم على خوف من الخارج بناحية اليَمَن أن يطأ بلدهم ، إذ كان قد قرب منها بزعمهم .

وفي يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلَت من رجب ، قرىء على المنبر ببغداد كتابٌ ورد على السلطان ، أنّ أهل صنعاء وغيرهم من مُدن اليمن اجتمعوا على الخارجيّ الذي كان تغلّب عليها ، فحاربوه وهزموه ، وفلُّوا جُموعه ، فانحاز إلى موضع من نواحي اليمن ، ثم خلع السلطان لثلاث خلَون من شوال على مظفّر بن حاجّ ، وعقد له على اليمن ، فخرج ابن حاجّ لخمس خلون من ذي القعدة ، ومضى إلى علمه باليمن ، فأقام بها حتى مات .

ولسبعٍ بقين من رجب من هذه السنة ، أخرج مضرب المكتفي ، فضرب بباب الشماسيَّة على أن يخرج إلى الشأم بسبب ابن الخليج ، فوردت خريطة لست بقين منه من مصر من قبل فاتك ، يذكر أنه والقوّاد زحفوا إلى الخليجيّ ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وأن آخر حرب جرت بينهم وبينه قتِل فيها أكثر أصحابه ، ثم انهزم الباقون ، فظفروا بهم ، واحتَووْا على معسكرهم ، فهرب الخليجيّ حتى دخل الفسطاط ، فاستتر بها عند رجل من أهل البلد ، ودخل الأولياءُ الفسطاط . فلما استقروا بها دُلّ على الخليجي ، وعلى مَنْ كن استتر معه ممن شايعه ، فقبض عليهم وحبسهم قبْله ، فكتب إلى فاتك في حمل الخليجي ومَنْ أخذ معه إلى مدينة السلام ، فرُدّت مضارب المكتفي التي أخرجت إلى باب الشماسة ، ووجّه في ردّ خزائنه ، فردّت . وقد كانت جاوزت تكريت .

ثم وجّه فاتك بالخليجي من مِصْر وجماعة ممّن أسِر معه مع بِشْر مولى محمد بن أبي الساج إلى مدينة

السلام .

فلمّا كان في يوم الخميس للنصف من شهر رمضان من هذه السنة أُدخل مدينة السلام من باب الشماسية ، وقُدّم بين يديه إحدى وعشرون رجلاً على جمال ، وعليهم برانس ودراريع حرير ، منهم ابنا بينَك ـ فيما قيل ـ وابن أشكال الذي كان صار إلى السلطان من عسكر عمرو الصفار في الأمان ، وصندل المزاحِميّ الخادم الأسود .

فلما وصل الخليجيّ إلى المكتفي ، فنظر إليه أمر بحبسه في الدار ، وأمر بحبس الآخرين في الحديد ، فوجّه بهم إلى ابن عمرويه ، وكانت إليه الشرطة ببغداد ، ثم خلع المكتفي على وزيره العباس بن الحسن خلعاً ، لحسن تدبيره في هذا الفتح ، وخلع على بشر الأفشينيّ .

ولخمس خلون من شوال أدخل بغداد رأس القرمطيّ المسمى نصراً الذي كان انتهب هيت منصوباً على قناة .

ولسبع خلون من شوّال ورد الخبر مدينة السلام أنّ الرّوم أغاروا على قُورس ، فقاتلهم أهلُها ، فهزموهم ، وقتلوا أكثَرهم ، وقتلوا رؤساء بني تميم ، ودخلوا المدينة ، وأحرقوا مسجدَها ، واستاقوا مَنْ بَقي من أهلها .

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشميّ .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة

فممّا كان فيها من ذلك دخول ابن كيغَلغ طَرَسُوس غازياً في أوّل المحرّم، وخرج معه رُستَم، وهي غزاة رستم الثانية، فبلغوا سلندو، ففتح الله عليهم، وصاروا إلى آلِس، فحصل في أيديهم نحو من خمسة آلاف رأس، وقتلوا مِن الروم مقتلَةً عظيمة، وانصرفوا سالمين.

ولاثنتي عشرة خلتْ من المحرّم ورد الخبر مدينة السلام أن زكرويه بن مهرويه القرمطيّ ارتحل من الموضع المعروف بنهر المثنية، يريد الحاجّ، وأنه وافَى موضعاً بينه وبين واقصة أربعة أميال.

وذكر عن محمد بن داود أنهم مَضَوْا في البرّ مِن جهة المشرق، حتى صاروا بالماء المسمّى سَلْمان، وصار ما بينهم وبين السواد مفازة، فأقام بموضعه يريد الحاجّ ينتظر القافلة الأولى، ووافت القافلة واقصة لستٍّ ـ أو سبعٍ ـ خلوْن من المحرّم، فأنذرهم أهلُ المنزل، وأخبروهم أنّ بينهم وبينهم أربعة أميال. فارتحلوا ولم يقيموا، فنَجَوا. وكان في هذه القافلة الحسن بن موسى الرّبَعيّ وسيما الإبراهيميّ، فلما أمعنت القافلة في السَّيْر صار القرمطيّ إلى واقصة، فسألهم عن القافلة فأخبروه أنها لم تُقم بواقصة، فاتّهمهم بإنذارهم إياهم، فقتَل من العلافين بها جماعة، وأحرق العلف، وتحصّن أهلُها في حصنهم، فأقام بها أياماً، ثم ارتحل عنها نحو زبالة.

وذكر عن محمد بن داود أنه قال: إن العساكر سارت في طلب زكرويه نحو عيون الطفّ، ثم انصرفت عنه لّما علمت بمكانه بسلْمان، ونفذ علاّن بن كُشمَرْد مع قطعة من فرسان الجيش متجرّدة على طريق جادّة مكة نحو زكرويه، حتى نزلوا السِّبال، فمضى نحو واقصة حتى نزلها بعد أن جازت القافلة الأولى، ومرّ زكرويه في طريقه بطوائف من بني أسد، فأخذها من بيوتها معه، وقصد الحاجّ المنصرفين عن مكة، وقصد الجادّة نحوهم.

ووافَى خبرُ الطير من الحوفة لأربع عشر بقيتْ من المحرّم من هذه السنة بأن زكرويه اعترض قافلة الخُراسانيّة يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من المحرّم بالعقبة من طريق مكة، فحاربوه حرباً شديداً، فساءلهم: وقال: أفيكم السلطان؟ قالوا: ليس معنا سلطان، ونحن الحاجّ، فقال لهم: فامضوا فلستُ أريدكم. فلما سارت القافلة تَبِعها فأوقع بها، وجعل أصحابه ينخسون الجمال بالرّماح، ويبعجونها بالسيوف، فنفرت، واختلطت القافلة، وأكبّ أصحاب الخبيث على الحاجّ يقتلونهم كيف شاؤوا، فقتلوا الرّجال والنساء، وسَبَوا من النساء من أرادوا، واحتووا على ما كان في القافلة، وقد كان لقيَ بعض مَنْ أفلت من هذه القافلة عَلاّن بن كشمرد، فسأله عن الخبر، فأعلمه ما نزل بالقافلة الخراسانية، وقال له: ما بينك وبين القوم إلاّ قليل، والليلةَ أو في غد توافي القافلة الثانية، فإن رأوا عَلما للسلطان قويتْ أنفسهم. واللّهَ اللّهَ فيهم! فرجع عَلاّن من ساعته،

وأمر مَنْ معه بالرجوع، وقال: لا أعرّض أصحاب السلطان للقتل، ثم أصعد زكرويه، ووافته القافلة الثانية.

وقد كان السلطان كتب إلى رؤساء القافلتين الثانية والثالثة ومن كان فيهما من القوّاد والكُتّاب مع جماعة من الرّسل الذين تنكّبوا طريق الجادّة بخبر الفاسق وفعله بالحاجّ، ويأمرهم بالتحرّز منه، والعدول عن الجادّة نحو واسط والبصرة، أو الرجوع إلى فَيْد أو إلى المدينة، إلى أن يلحق بهم الجيوش. ووصلت الكتب إليهم فلم يسمعوا ولم يقيموا، ولم يلبثوا. وتقدّم أهل القافلة الثانية وفيها المبارك القُمّي وأحمد بن نصر العُقيليّ وأحمد بن عليّ بن الحسين الهمذانيّ، فوافوا الفجرة، وقد رحلوا عن واقصة، وعوّروا مياهها، وملؤوا بركها وبئارها بجيف الإبل والدوابّ التي كانت معهم، مشقّقة بطونها، ووردُوا منزل العقبة في يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلتْ من المحرّم، فحاربهم أصحاب القافلة الثانية. وكان أبو العشائر مع أصحابه في أوّل القافلة ومبارك القمّيّ فيمن معه في ساقتها، فجرت بينهم حربٌ شديدة حتى كشفوهم، وأشرفوا على الظفر بهم، فوجد الفجرة من ساقتِهم غِرّة، فركبوهم من جهتها، ووضعوا رماحهم في جنوب إبلهم وبطونها، فطحنتهم الإبل وتمكنوا منهم، فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم، إلا مَن استعبدوه. ثم أنفذوا إلى ما دون العقبة بأميال فوارس لحقوا المُفلتة من السيف، فأعطوْهم الأمان، فرجعوا فقتلوهم أجمعين، وسَبَوْا من النساء ما أحبُّوا، واكتسحوا الأموال والأمتعة، وقُتل المبارك القميّ والمظفر ابنه، وأسِر أبو العشائر، وجُمع القتلى، فوُضع بعضهم على بعض، حتى صاروا كالتلّ العظيم. ثم قطِعت يدا أبي العشائر ورجلاه، وضُربت عنقه، وأطلِق من النساء مَنْ لم يرغبوا فيه، وأفلت من الجرحى قومٌ وقعوا بين القتلى، فتحاملوا في الليل ومضوا؛ فمنهم من مات، ومنهم مَنْ نجا وهم قليل. وكان نساءُ القرامطة يَطُفْن مع صبيانهم في القتلى يعرضون عليهم الماء، فمَن كلّمهم أجازوا عليه.

وقيل إنه كان في القافلة من الحاجّ زهاء عشرين ألف رجل، قُتل جميعهم غير نفر يسير ممّن قويَ على العدو، فنجا بغير زاد ومَن وقع في القتل وهو مجروح، وأفلت بعدُ، أو مَن استعبدوه لخدمتهم.

وذكر أن الذي أخذوا من المال والأمتعة الفاخرة في هذه القافلة قيمةُ ألفي ألف دينار.

وذكر عن بعض الضرّابين أنه قال: وردت علينا كتب الضرّابين بمصر أنكم في هذه السنة تستغنون، قد وجّه آل ابن طولون والقوّاد المصريون الذين أشخِصوا إلى مدينة السلام، ومَنْ كان في مثل حالهم في حمل ما لهم بمصر إلى مدينة السلام، وقد سبكوا آنية الذهب والفضة والحلى نِقَاراً، وحمل إلى مكة ليوافوا به مدينة السلام مع الحاجّ، فحُمِل في القوافل الشاخصة إلى مدينة السلام، فذهب ذلك كله.

وذكِر أن القرامطة بينا هم يقتلون وينهبون هذه القافلة يوم الاثنين، إذ أقبلت قافلة الخُراسانية، فخرج إليهم جماعةٌ من القرامطة، فواقعوهم، فكان سبيلُهم سَبيلَ هذه. فلما فرغ زكرويه من أهل القافلة الثانية من الحاجّ. وأخذ أموالهم، واستباح حريمَهم، رحل مِنْ وقته من العقبة بعد أن ملأ البرك والآبار بها بالجِيف من الناس والدواب. وكان ورد خبر قطعه على القافلة الثانية من قوافل السلطان مدينة السلام في عشيَّة يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من المحرّم، فعظم ذلك على الناس جميعاً وعلى السلطان، وندب الوزيرُ العباس بن الحسن بن أيوب محمدَ بن داود بن الجرّاح الكاتب المتوَلّي دواوين الخراج والضياع بالمشرق وديوان الجيش للخروج إلى الكوفة، والمقام بها لإنفاذ الجيوش إلى القرمطيّ. فخرج من بغداد لإحدى عشرة بقيتْ من المحرّم، وحمل معه أموالاً كثيرة لإعطاء الجند.

ثم سار زكرويه إلى زُبالة فنزلها، وبثّ الطلائع أمامه ووراءه خوفاً من أصحاب السلطان المقيمين بالقادسيّة أن يلحقوه، ومتوقّعاً ورود القافلة الثالثة التي فيها الأموال والتجار. ثم سار إلى الثعلبيّة، ثم إلى الشقوق، وأقام بها بين الشقوق والبِطان في طرف الرّمل في موضع يعرف بالطليح، ينتظر القافلة الثالثة، وفيها من القوّاد نفيس المولديُّ وصالح الأسود، ومعه الشَّمْسَة والخزانة. وكانت الشمسة جعل فيها المعتضد جوهراً نفيساً.

وفي هذه القافلة، كان إبراهيم ابن أبي الأشعث ـ وإليه كان قضاء مكة والمدينة وأمر طريق مكة والنفقة فيه لمصالحه ـ وميمون بن إبراهيم الكاتب ـ وكان إليه أمر ديوان زمام الخراج والضياع ـ وأحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الهزلَّج، والفرات بن أحمد بن محمد بن الفرات، والحسن بن إسماعيل قرابة العباس بن الحسن ـ وكان يتولى بريد الحرمين ـ وعليُّ بن العباس النَّهيكيّ. فلما صار أهل هذه القافلة إلى فَيْد بلغهم خبرُ الخبيث زكرويه وأصحابه، وأقاموا بِفَيْد أياماً ينتظرون تقويةً لهم من قِبَل السلطان.

وقد كان ابن كشمرد رجع من الطريق إلى القادسية في الجيوش التي أنفذها السلطان معه وقبله وبعد.

ثم سار زكرويه إلى فَيْد، وبها عامل السلطان، يقال له حامد بن فيروز، فالتجأ منه حامد إلى أحد حصنيها في نحو من مائة رجل كانوا معه في المسجد، وشحَّن الحصن الآخر بالرّجال، فجعل زكرويه يراسل أهل فَيْد، ويسألهم أن يُسلموا إليه عاملهم ومَنْ فيها من الجند، وأنهم إن فعلوا ذلك آمنهم. فلم يجيبوه إلى ما سأل، ولّما لم يجيبوه حاربهم، فلم يظفر منهم بشيء. قال: فلما رأى أنه لا طاقة له بأهلها، تنحّى فصار إلى النِّباج، ثم إلى حُفَير أبي موسى الأشعريّ.

وفي أول شهر ربيع الأول أنهض المكتفي وصيف بن صوارتكين ـ ومعه من القوّاد جماعة ـ فنفذوا من القادسية على طريق خَفَّان، فلقيَه وصيف يوم السبت لثمان بقين من شهر ربيع الأول، فاقتتلوا يومَهم، ثم حجز بينهم الليل، فباتوا يتحارسون، ثم عاودهم الحرب، فقتَل جيش السلطان منهم مقتلة عظيمة، وخلصوا إلى عدوّ الله زكرويه، فضربه بعض الجند بالسيف على قفاه وهو مولٍّ ضربةً اتصلت بدماغه. فأخِذ أسيراً وخليفته وجماعة من خاصّته وأقربائه، فيهم ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى الجند على ما في عسكره. وعاش زكرويه خمسة أيام ثم مات، فشُقَّ بطنه، ثم حُمِل بهيئته، وانصرف بمن كان بقي حيًّا في يديه من أسرى الحاج.

وفيها غزا ابن كَيْغلغ من طَرَسوس، فأصاب من العدوّ أربعة آلاف رأس سبي ودوابّ ومواشي كثيرة ومتاعاً. ودخل بِطْريق من البطارقة إليه في الأمان، وأسلم. وكان شخوصه من طَرَسوس لهذه الغزاة في أول المحرم من هذه السنة.

وفيها كاتب أندرو نقس البطريق السلطانَ يطلب الأمان، وكان على حرب أهل الثغورِ من قِبَل صاحب الروم، فأعطِيَ ذلك، فخرج، وأخرج نحواً من مائتي نفس من المسلمين كانوا أسرى في حِصْنه، وكان صاحب الرّوم قد وجّه إليه مَنْ يقبض عليه، فأعطى المسلمين الذين كانوا في حصنه أسرى السلاح، وأخرج معهم بعض بنيه، فكبسوا البِطْريق الموّجه إليه للقبض عليه ليلاً؛ فقتلوا ممّن معه خَلْقاً كثيراً، وغنموا ما في عسكره. وكان رستم قد خرج في أهل الثغور في جمادى الأولى قاصداً أندرونقس ليتخلّصه، فوافَى رستم قونية بعقب الوقْعة. وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فانصرفوا، ووجّه أندرونقس ابنه إلى رستم، ووجّه رستم كاتبه

وجماعة من البحريين، فباتوا في الحصن، فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميعُ مَنْ معه من أسارى المسلمين، ومَنْ صار إليهم منهم، ومَنْ وافقه على رأيه من النصارى، وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين، وخرّب المسلمون قونية، ثم قفلوا إلى طَرَسُوس وأندرونقس وأسارى المسلمين ومَنْ كان مع أندرونقس من النصارى.

وفي جمادى الآخرة منها كان بين أصحاب حسين بن حمدان بن حمدون وجماعة من أصحاب زكرويه كانوا هربوا من الوَقعة التي أصابه فيها ما أصابه، وأخذوا طريق الفرات يريدون الشأم، فأوقع بهم وقعة، فقتل جماعة منهم، وأسَر جماعة من نسائهم وصبيانهم.

وفيها وافَى رسل ملك الروم أحدهم خال ولده اليون وبسيل الخادم، ومعهم جماعة باب الشماسيّة بكتاب منه إلى المكتفي يسأله الفداء بمَنْ في بلاده من المسلمين، مَنْ في بلاد الإسلام من الرّوم، وأن يوجّه المكتفي رسولاً إلى بلاد الروم ليجمع الأسرى من المسلمين الذين في بلاده، وليجتمع هو معه على أمر يتّفقان عليه، ويتخلّف بسيل الخادم بطرسوس ليجتمع إليه الأسرى من الروم في الثغور ليصيّرهم مع صاحب السلطان إلى موضع الفداء. فأقاموا بباب الشماسيّة أياماً، ثم أدخِلوا بغداد ومعهم هدية من صاحب الروم عشرة من أسارى المسلمين، فقبلت منهم. وأجيب صاحب الروم إلى ما سأل.

وفيها أخِذ رجل بالشأم ـ زعم أنه السفيانيّ ـ فحمِل هو وجماعة معه من الشأم إلى باب السلطان، فقيل إنه موسوس.

وفيها أخذ الأعراب بطريق مكة رجلَيْن يعرف أحدهما بالحداد والآخر بالمنتقم، وذُكر أن المعروف بالمنتقم منهما أخو امرأة زكرويه، فدفعوهما إلى نزار بالكوفة، فوجّههما نزار إلى السلطان، فذُكر عن الأعراب أنهما كانا صارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج على السلطان.

وفيها وجّه الحسين بن حمدان من طريق الشأم رجلاً يعرف بالكيال مع ستين رجلاً من أصحابه إلى السلطان كانوا استأمنوا إليه من أصحاب زكرويه.

وفيها وصل إلى بغداد أندرونقس البطريق.

وفيها كانت وقعة بين الحسين بن حمدان وأعراب كليب والنَّمر وأسد وغيرهم، اجتمعوا عليه في شهر رمضان منها، فهزموه حتى بلغوا به باب حلب.

وفيها حاصر أعراب طيّىء وصيف بن صوارتكين بفَيْد، وكان وُجِّه أميراً على الموسم، فحوصر ثلاثة أيام، ثم خرج إليهم، فواقعهم فقتل منهم قتلى، ثم انهزمت الأعراب، ورحل وصيف من فَيْد بمن معه من الحاجّ.

وحج بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشميُّ.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من خروج عبدالله بن إبراهيم المِسمعيّ عن مدينة أصبهان إلى قرية من قراها على فراسخ منها وانضمام نحو من عشرة آلاف من الأكراد وغيرهم - فيما ذكر - إليه مظهراً الخلاف على السلطان. فأمر بدر الحماميّ بالشخوص إليه، وضُمّ إليه جماعة من القوّاد ونحو من خمسة آلاف من الجند.

وفيها كانت وقعة للحسين بن موسى على أعراب طيّىء الذين كانوا حاربوا وصيف بن صوارتكين على غرّة منهم، فقَتل من رجالهم - فيما قيل - سبعين، وأسرَ من فرسانهم جماعة.

وفيها تُوُفِّيَ أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد عامل خراسان وما وراء النهر في صفر منها، لأربع عشرة خلت منه، وقام ابنه أحمد بن إسماعيل بن أحمد في عمل أبيه مقامه، ووليَ أعمال أبيه. وذكر أن المكتفي لأربع ليال خلوْن من شهر ربيع الآخر قَعَد، فعقد بيده لواء ودفعه إلى طاهر بن عليّ بن وزير، وخلع عليه وأمره بالخروج باللواء إلى أحمد بن إسماعيل.

وفيها وُجّه منصور بن عبدالله بن منصور الكاتب إلى عبدالله بن إبراهيم المسمعيّ، وكتب إليه يخوّفه عاقبة الخلاف إليه، فتوجّه إليه، فلما صار إليه ناظره، فرجع إلى طاعة السلطان، وشخص في نفر من غلمانه، واستخلف على عمله بأصبهان خليفة، ومعه منصور بن عبدالله، حتى صار إلى باب السلطان، فرضيَ عنه المكتفي، ووصله وخلع عليه وعلى ابنه.

وفيها أوقع الحسين بن موسى بالكرديّ المغلّب كان على نواحي الموصل، فظفر بأصحابه، واستباح عسكره وأمواله، وأفلت الكرديّ فتعلق بالجبال فلم يدرَك.

وفيها فتح المظفر بن حاج بعض ما كان غلب عليه بعض الخوارج باليمن، وأخذ رئيساً من رؤسائهم يعرف بالحكيميّ.

وفيها لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة أمر خاقان المفلحيّ بالشخوص إلى أذْرَبيجان لحرب يوسف بن أبي الساج، وضمّ إليه نحو أربعة آلاف رجل من الجند.

ولثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان دخل بغداد رسول أبي مُضَر زيادة الله بن الأغلف، ومعه فتح الأعجميّ، ومعه هدايا وجّه بها إلى المكتفي.

وفيها تمّ الفداء بين المسلمين والروم في ذي القعدة؛ وكانت عدّة من فُودِيَ به من الرجال والنساء

ثلاثة آلاف نفس.

وفي ذي القعدة لاثنتي عشرة ليلة خلت منها تُوفِّيَ المكتفي بالله، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً، وكان يوم تُوُفِّيَ ابنَ اثنتين وثلاثين سنة يومئذ، وكان وُلد سنة أربع وستين ومائتين، ويكنى أبا محمد، وأمه أم ولد تركية تسمى جيجك. وكان رَبعةً جميلاً، رقيق اللون، حسن الشعر، وافر الجُمّة، وافر اللحية.

خلافة المقتدر بالله

ثم بويع جعفر بن المعتضد بالله؛ ولما بويع جعفر بن المعتضد لقّب المقتدر بالله وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وأحد وعشرين يوماً. وكان مولده ليلة الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وكنيته أبو الفضل، وأمه أُمُّ ولد يقال لها شغب، فذُكر كان في بيت المال يوم بويع خمسة عشر ألف ألف دينار. ولما بويع المقتدر غسّل المكتفي وصلّى عليه، ودُفن في موضع من دار محمد بن عبدالله بن طاهر.

وفيها كانت بين عجّ بن حاج والجند وقعة في اليوم الثاني من أيام منى، قتِل فيها جماعة، وجرح منهم، بسبب طلبهم جائزة بيعة المقتدر، وهرب الناس الذين كانوا بمنى إلى بستان ابن عامر، وانتهب الجند مضرب أبي عدنان ربيعة بن محمد بمنى. وكان أحد أمراء القوافل، وأصاب المنصرفين من مكة في منصرفهم في الطريق من القطع والعطش أمر غليظ، مات من العطش - فيما قيل - منهم جماعة. وسمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفّه، ثم يشربه.

وحجّ بالناس فيها الفضل بن عبد الملك الهاشميّ.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من اجتماع جماعة من القوّاد والكتاب والقضاة على خلع المقتدر، وتناظرهم فيمن يُجعل في موضعه، فاجتمع رأيهم على عبدالله بن المعتزّ وناظروه في ذلك، فأجابهم إلى ذلك على ألّا يكون في ذلك سفك دم ولا حرب، فأخبروه أنّ الأمر يسلّم إليه عفواً، وأن جميع مَنْ وراءهم من الجند والقواد والكتاب قد رضوا به. فبايعهم على ذلك، وكان الرأس في ذلك محمد بن داود بن الجراح وأبو المثنّى أحمد بن يعقوب القاضي، وواطأ محمد بن داود بن الجراح جماعةً من القوّاد على الفتْك بالمقتدر والبيعة لعبدالله بن المعتزّ، وكان العباس بن الحسن على مثل رأيهم. فلما رأى العباس أمره مستوثقاً له مع المقتدر، بدا له فيما كان عزم عليه من ذلك، فحينئذ وثب به الآخرون فقتلوه، وكان الذي تولّى قتلَه بدرٌ الأعجمي والحسين بن حمدان ووصيف بن صوارتكين، وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول.

ولما كان من غدِ هذا اليوم ـ وذلك يوم الأحد ـ خلع المقتدر القوّاد والكتاب وقضاة بغداد، وبايعوا عبدالله بن المعتزّ، ولقبوه الراضي بالله. وكان الذي أخذ له البيعة على القوّاد وتولّى استحلافهم والدعاء بأسمائهم محمد بن سعيد الأزرق كاتب الجيش.

وفي هذا اليوم كانت بين الحسين بن حمدان وبين غلمان الدار حرب شديدة من غدوه إلى انتصاف النهار.

وفيه انفضّت الجموع التي كان محمد بن داود جمعها لبيعة ابن المعتزّ عنه؛ وذلك أن الخادم الذي يدعى مؤنساً حمل غلماناً من غلمان الدار في شَذَوات، فصاعد بها وهم فيها في دجْلة، فلما حاذوا الدار التي فيها ابن المعتزّ ومحمد بن داود صاحوا بهم، ورشقوهم بالنّشاب، فتفرّقوا، وهربَ مَنْ في الدار من الجند والقوّاد والكتاب، وهرب ابن المعتزّ، ولحق بعض الذين بايعوا ابن المعتزّ بالمقتدر، فاعتذروا بأنه منِع من المصير إليه، واختفى بعضهم فأخِذوا وقتِلوا وانتهب العامة دور ابن داود والعباس بن الحسن؛ وأخِذ ابن المعتزّ فيمن أخِذ.

وفي يوم السبت لأربع بقين من شهر ربيع الأول منها سقط الثلج ببغداد من غدوة إلى قدر صلاة العصر، حتى صار في الدور والسطوح منه نحو من أربعة أصابع، وذكر أنه لم ير ببغداد مثل ذلك قطّ.

وفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول منها، سُلِّم محمد بن يوسف القاضي ومحمد بن عمرويه وأبو المثنّى وابن الجصاص والأزرق كاتب الجيش في جماعة غيرهم إلى مؤنس الخازن، فترك أبا المثنى في دار السلطان، ونقل الآخرين إلى منزله، فافتدى بعضهم نفسه، وقتل بعضهم، وشُفع في بعض فأطلِق.

وفيها وجّه القاسم بن سيما مع جماعة من القوّاد والجند في طلب حسين بن حمدان بن حمدون، فشخص لذلك حتى صار إلى قرقيسيا والرّحبة والدّالية، وكتب إلى أخي الحسين عبدالله بن حمدان بن حمدون بطلب أخيه، فالتقى هو وأخوه بموضع يعرف بالأعمى بين تَكريت والسُّودقانية بالجانب الغربي من دِجْلة، فانهزم عبدالله، وبعث الحسين يطلب الأمان، فأعطِي ذلك.

ولسبع بقين من جمادى الآخرة منها وافَى الحسين بن حمدان بغداد، فنزل باب حرب، ثم صار إلى دار السلطان من غد ذلك اليوم، فخلع عليه وعقد له على قُمّ وقاشان.

ولستٍّ بقين من جمادى الآخرة، خُلع على ابن دُليل النصرانيّ كاتب يوسف بن أبي الساج ورسوله، وعقد ليوسف بن أبي الساج على المراغة وأذْرَبيجان، وحُمِلت إليه الخلع، وأمر بالشخوص إلى عمله.

وللنصف من شعبان منها خلِع على مؤنس الخادم، وأمِر بالشخوص إلى طَرَسُوس لغزو الصائفة، فنفذ لذلك وخرج في عسكر كثيف وجماعة من القوّاد وغلمان الحجر.

وحجّ بالناس فيها الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من غزو مؤنس الخادم الصائفة بلاد الروم من ثغر مَلَطْيَة في جيش كثيف، ومعه أبو الأغرّ السُّلميّ وظفر بالرُّوم، وأسر أعلاجاً في آخر سنة ست وتسعين ومائتين، وورد الخبر بذلك على السلطان لست خلون من المحرّم.

وفيها صار الليث بن عليّ بن الليث الصفار إلى فارس في جيش، فتغلّب عليها، وطرد عنها سُبْكَرِي، وذلك بعد ما ولّى السلطان سُبْكَرِي بعد ما بعث سبكري طاهر بن محمد إلى السلطان أسيراً، فأمر المقتدر مؤنساً الخادم بالشخوص إلى فارس لحرب الليث بن عليّ، فشخص إليها في شهر رمضان منها.

وفيها وجّه أيضاً المقتدر القاسم بن سيما لغزوة الصائفة ببلاد الروم في جمع كثير من الجند في شوال منها.

وفيها كانت بين مؤنس الخادم والليث بن عليّ بن الليث وقعة هزم فيها الليث، ثم أسِر وقتل من أصحابه جماعة كثيرة، واستأمن منهم إلى مؤنس جماعة كثيرة، ودخل أصحاب السلطان النوبندجان، وكان الليث قد تغلّب عليها.

وأقام الحجّ فيها للناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان فيها من غزو القاسم بن سيما أرض الروم الصائفة.

وفيها وجّه المقتدر وصيف كامه الديلميّ في جيش وجماعة من القوّاد لحرب سُبْكرِي غلام عمرو بن الليث.

وفيها كانت بين سُبْكَرِي ووصيف كامه وقعة هزمه فيها وصيف، وأخرجه من عمل فارس، ودخل وصيف كامه ومن معه فارس، واستأمن إليه من أصحاب سُبْكَرِي جماعة كثيرة، فأسر رئيس عسكره المعروف بالقتال، ومضى سُبْكَري هارباً إلى أحمد بن إسماعيل بن أحمد بما معه من الأموال والذخائر فأخذ ما معه إسماعيل بن أحمد، وقبض عليه فحبسه.

وفيها كانت بين أحمد بن إسماعيل بن أحمد ومحمد بن عليّ بن الليث وقعة بناحية بُسْت والرُّخّج، أسره فيها أحمد بن إسماعيل.

وحجّ بالناس فيها الفضل بن عبد الملك.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من غزو رستم بن بردوا الصائفة من ناحية طَرَسوس، وهو والي الثغور من قبَل بني نَفيس، ومعه دميانة، فحاصر حصن مَليح الأرمنيّ، ثم رحَل عنه، وأحرق أرباض ذي الكلاع.

وفيها ورد رسول أحمد بن إسماعيل بن أحمد بكتاب منه إلى السلطان يخبر فيه أنه فتح سِجِسْتان، وأنّ أصحابه دخلوها، وأخرجوا مَنْ كان بها من أصحاب الصّفار، وأن المعدّل بن عليّ بن الليث صار إليه بمن معه من أصحابه في الأمان، وكان المعدّل يومئذ مقيماً بزرنج، فصار إلى أحمد بن إسماعيل وهو مقيم ببُسْت والرّخّج، فوجّه به ابن اسماعيل وبعياله ومن معه إلى هراة، وبين سجستان وبُست الرخج ستون فرسخاً، فوردت الخريطة بذلك على السلطان يوم الاثنين لعشر خلوْن من صفر.

وفيها وافى بغداد العطير صاحب زكرويه ومعه الأغرّ ـ وهو أيضاً أحد قوّاد زكرويه ـ مستأمناً.

وفي ذي الحجة منها غضب على عليّ بن محمد بن الفُرات لأربع خلوْن منه، وحبس ووُكل بدوره ودور أهله وأخِذ كلّ ما وُجد له ولهم، وانتهت دوره ودور بني إخوته وأهلهم، واستوزر محمد بن عبيدالله بن يحيى بن خاقان.

وحج بالناس فيها الفضل بن عبد الملك.

ثم دخلت سنة ثلاثمائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من ورود بغداد رسول من العامل على بَرْقة، وهي من عمل مصر، إلى ما خلفها بأربع فراسخ، ثم ما بعد ذلك من عمل المغرب بخر خارجيّ خرج عليه، وأنه ظفر بعسكره، وقتل خلقاً من أصحابه، ومعه آذان وأنوف مَنْ قتله في خيوط وأعلام من أعلام الخارجيّ.

وفي هذه السنة كَثُرت الأمراض والعِلل ببغداد في الناس، وذُكر أنّ الكلاب والذئاب كلبت فيها بالبادية، فكانت تطلب الناس والدوابّ والبهائم، فإذا عضّت إنساناً أهلكته.

وحجّ بالناس فيها الفضل بن عبد الملك الهاشميّ.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثمائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك عزل المقتدر محمد بن عبيد الله عن الوزارة وحبسه إياه مع ابنيه عبد الله وعبد الواحد وتصييره عليّ بن عيسى بن داود بن الجراح له وزيراً.

وفيها كثر أيضاً الوباء ببغداد، فكان بها منه نوع سمّوه حَنيناً، ومنه نوع سمّوه الماسرا، فأما الحَنين فكانت سليمة، وأما الماسرا فكانت طاعوناً قتالة.

وفيها أحضِر دار الوزير عليّ بن عيسى رجل ـ ذكر أنه يعرف بالحلاج ويكنى أبا محمد ـ مُشْعوذ، ومعه صاحب له، سمعتُ جماعة من الناس يزعمون أنه يدَّعي الربوبية فصُلبَ هو وصاحبه ثلاثة أيام، كلّ يوم من ذلك من أوله إلى انتصافه، ثم ينزل بهما، فيؤمر بهما إلى الحبس، فحُبِس مدة طويلة، فافتتن به جماعة منهم نصر القشوريّ وغيره، إلى أن ضجّ الناس، ودَعْوَا على من يَعيبه، وفحش أمره، وأخرِج من الحبس، فقُطعت يداه ورجلاه، ثم ضربت عنقه، ثم أحرِق بالنار.

وفيها غزا الصائفة الحسين بن حمدان بن حمدون، فورد كتاب من طرسوس يذكر فيه أنه فتح حصوناً كثيرة، وقتل من الروم خلقاً كثيراً.

وفيها قُتِل أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر؛ قتله غلام له تركيٌّ ـ أخص غلمانه به ـ ذبحاً، هو وغلامان معه، دخلوا عليه في قبّته، ثم هربوا فلم يدرَكوا.

وفيها وقع الاختلاف بين نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد وعمّ أبيه إسحاق بن أحمد، فكان مع نصر بن أحمد غلمان أبيه وكتابه وجماعة من قُوّاده والأموال والكُراع والسلاح، وانحاز بعد قتل أبيه إلى بخارى وإسحاق بن أحمد بسَمرْقَنْد وهو عليل من نِقْرس به، فدعا الناس بسَمَرْقَنْد إلى مبايعته على الرئاسة عليهم، وبعث كلّ واحد منهما إلى السلطان كتبه خاطباً على نفسه، عمل إسماعيل بن أحمد، وأنفذ إسحاق كتبه ـ فيما ذكر ـ إلى عمران المرزبانيّ لإيصالها إلى السلطان، ففعل ذلك، وأنفذ نصر بن أحمد بن إسماعيل كتبه إلى حماد بن أحمد؛ ليتولّى إيصالَها إلى السلطان. ففعل.

وفيها كانت وقعة بين نصر بن أحمد بن إسماعيل وأصحابه من أهل بُخارى وإسحاق بن أحمد عمّ أبيه وأصحابه من أهل سَمَرْقَنْد، لأربع عشرة بقيت من شعبان منها، هَزَم فيها نصر وأصحابه إسحاقَ وأهل سمرقند ومَن كان قد انضمّ إليه من أهل تلك النواحي، وتفرّقوا عنه هاربين، وكانت هذه الوقعة بينهم على باب

بخارى.

وفيها زحف أهل بخارى إلى أهل سَمَرْقند بعدما هزموا إسحاق بن أحمد ومَنْ معه، فكانت بينهم وقعة أخرى ظفِر فيها أيضاً أهلُ بخارى بأهل سَمَرْقند، فهزموهم، وقتلوا منهم مقتلَة عظيمة، ودخلوا سَمـرْقَند قَسْراً، وأخذوا إسحاق بن أحمد أسيراً، وولَّوْا ما كان إليه من عمل ابناً لعمرو بن نصر بن أحمد.

وفيها دخل أصحاب ابن البصريّ من أهل المغرب برقة، وطرد عنها عامل السلطان.

وولي أبو بكر محمد بن عليّ بن أحمد بن زنبور الماذَرَائيّ أعمال مصر وخراجها.

وفيها قُتِل أبو سعيد الجنّابيّ الخارج كان بناحية البحرين وهجر، قتله ـ فيما قيل ـ خادم له.

وفيها كثرت الأمراض والعلل ببغداد، وفشا الموت في أهلها، وكان أكثر ذلك ـ فيما قيل ـ في الحربية وأهل الأرباض.

وفيها وافَى قائد من قواد ابن البصريّ في البرابرة والمغاربة الإسكندرية.

وفيها ورد كتاب تَكِين عامل السلطان من مصر يسأله المدد.

وحجّ بالناس فيها الفضل بن عبد الملك.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثمائة

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك ما كان من إشخاص الوزير عليّ بن عيسى. . . . بن عبد الباقي في ألفي فارس فيها لغزو الصائفة، معونة لبشر خادم ابن أبي الساج وهو والي طَرَسُوس من قبَل السلطان إلى طَرَسُوس، فلم يتيسَّر لهم غزو الصائفة، فغزوها شاتية في برد شديد وثلج.

وفيها تنحّى الحسن بن عليّ العلَوَيّ الأطْروش بعد غلبته على طبرستان عن آمُل، وصار إلى سالوس فأقام بها. ووجّه صعلوك صاحب الرّي إليه جيشاً، فلم يكن لجيشه بها ثبات، وعاد الحسن بن عليّ إليها، ولم ير الناس مثل عدلِ الأطروش وحسن سيرته وإقامته الحق.

وفيها دخل حَبَاسة صاحب ابن البصريّ الإسكندرية، وغلَب عليها، وذُكِر أنه وَرَدها في مائتي مركب في البحر.

وفيها وافى حبَاسة صاحب ابن البصريّ موضعاً من فسطاط مصر على مرحلة، يقال لها سَفَط، ثم رجع منه إلى وراء ذلك، فنزل منزلاً بين الفُسْطاط والإسكندرية.

وفيها شخص مؤنس الخادم إلى مصر لحرب حباسة، وقوِيَ بالرجال والسلاح والمال.

وفيها لسبع بقين من جمادى الأولى قُبِض على الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصّاص وعلى ابنيه، واسُتْصفيَ كلّ شيء له، ثم حُبِس وقُيِّد.

وفيها كانت وقعة بمصر بين أصحاب السلطان وحَبّاسة وأصحابه لستّ بقين من جمادى الأولى منها فقُتل من الفريقين جماعة، وجُرحت منهم جماعة. ثم أخرى بعد ذلك بيوم نحو التي كانت في هذه، ثم ثالثة بعد ذلك في جمادى الآخرة منها:

ولأربع عشرة بقيت من جمادي الآخرة منها، ورد كتاب بوقعة كانت بينهم، هزم أصحاب السلطان فيها المغاربة.

وفيها ورد كتاب من بشر عامل السلطان على طَرَسُوس على السلطان، يذكر فيه غزوه أرض الروم، وما فتح فيها من الحصون، وما غُنِم وسُبِيَ، وأنه أسر من البطارقة مائة وخمسين، وأنّ مبلغ السّبْي نحو من ألفي رأس.

ولإحدى عشرة بقيَت من رجب ورد الخبر من مصر أنّ أصحاب السلطان لقوا حَباسة وأهل المغرب يقاتلونهم، فكانت الهزيمة على المغاربة، فقتلوا منهم وأَسَرُوا سبعة آلاف رجل، وهرب الباقون مفلولين، وكانت الوقعة يوم الخميس بسلخ جمادى الآخرة.

وفيها انصرف حباسة ومَنْ معه من المغاربة عن الإسكندرية راجعين إلى المغرب بعد ما ناظَر - فيما ذكر - حباسة عامل السلطان بمصر على الدّخول إليه بالأمان، وجرت بينهما في ذلك كتب. وكان انصرافه - فيما ذكر - لاختلاف حدث بين أصحابه في الموضع الذي شخص منه.

وفيها أوقع يانسُ الخادم بناحية وادي الذئاب، وما قرب من ذلك الموضع بمن هنالك من الأعراب، فقتَل منهم مقتلة عظيمةً، ذكر أنه قتل منهم سبعة آلاف رجل، ونهب بيوتَهم، وأصاب في بيوتهم من أموال التجار وأمتعتهم التي كانوا أخذوها بقطع الطريق عليهم ما لا يحصى كثرته.

ولست خلوْن من ذي الحجة هلكت بدعة مولاة المأمون.

وحجّ بالناس فيها الفضل بن عبد الملك.

وفي اليوم الثاني والعشرين من ذي الحجة منها خرج أعراب من الحاجر على ثلاثة فراسخ مما يلي البر على المنصرفين من مكة، فقطعوا عليهم الطريق، وأخذوا . . . . ما معهم من العين واستاقوا من جِمالهم ما أرادوا، وأخذوا - فيما قيل - مائتين وثمانين امرأة حرائر سوى من أخذوا من المماليك والإماء.

تمّ الكتاب، وهو آخر تاريخ ابن جرير الطبري رحمه الله، وقد ضَمنّا هذا الكتاب أبواباً من أوله إلى آخره، حيث انتهينا إليه من يومنا هذا، فما كان متأخّراً ذكرناه برواية سماع إن أخّر الله في الأجل.

فهرس موضوعات المجلد الخامس